٢/٣٧ صفحات من تاريخ مصر

عبد الرحمان الجبرتي

عجايب الآثار في التراجم والاخبار

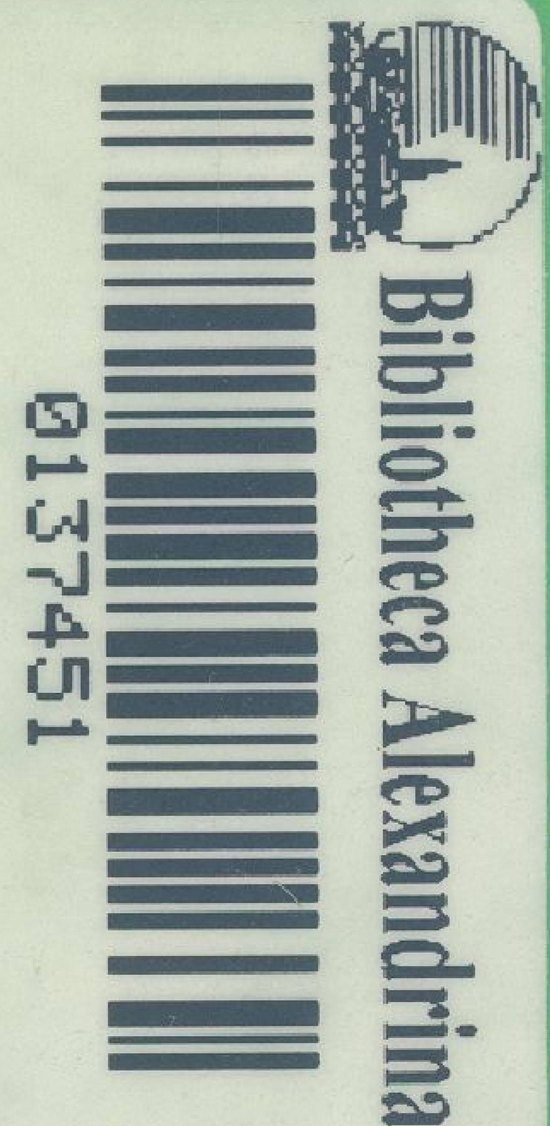


الجزء الثانى : قيام وسقوط على بك

إعداد وتحقيق :

عبد العزيز جمال الدين

الناشر : مكتبة مدبولى



عبد الرحمان الجبرتى

عجايب الآثار
فى
التراجم والاخبار



الجزء الثانى: قيام وسقوط على بك.

إعداد وتحقيق:
عبد العزيز جمال الدين

عجايب الآثار
في
التراجم والإخبار
تاليف:
عبد الرحمان الجبرتي

إعداد وتحقيق:
عبد العزيز جمال الدين

الجزء الثاني:
قيام وسقوط على بك.
الإخراج الفني: مصرية وتامر عبدالعزيز

الناشر : مكتبة مدبولي
٦ ميدان طلعت حرب
تليفاكس ٥٧٥٦٤٢١ ت ٥٧٥٢٨٥٤

الصف والتنفيذ الفني :
أبو مسلم للكمبيوتر: ت ٣٥٥٨٩٨٨/ ٤٣٠٧٢٢١
٣٣ ش إسماعيل أباظة متفرع من خيرت (الإظوغلي)

رقم الإيداع ٩٣٨٤/ ١٩٩٧
الترقيم الدولى 977-208-219-5

عبد الرحمن الجبرتي

عجايب الآثار في التراجم والأخبار

الجزء الثاني: قيام وسقوط علي بك

إعداد وتحقيق:

عبد العزيز جمال الدين

الناشر: مكتبة مدبولي

إن تاريخ تأسيس السلطنة العثمانية لا يزال موضوع نقاش، ولكن من المؤكد أن تأسيسها كان في أصله مشروعا شعبيا، بمعنى أن القبائل التركية الأولى التي نزحت إلى آسيا الصغرى كانت تتحرك بمجملها للهجرة والغزو من أجل البحث عن أرض جديدة بديلة عن الأراضي الرعوية في وسط آسيا التي كانت تفقد خصوبتها بشكل مستمر، والتي لم تعد قادر على استيعاب اعدادهم المتزايدة، وكان كل فرد في هذه القبائل النازحة يعتبر نفسه صاحبا لهذا المشروع. وكان نداء الطبيعية ودوافعها السبب المباشر في الغزوا ت التركية على اسيا الصغرى[١] وظهور هذا المشروع.

على انه كلما اتسع ملك السلاطين العثمانيين تغلب الطابع الأسرى العثمانى على الطابع الشعبى ـ القبلى ـ ، أى تغلب مشروع الأسرة الحاكمة العثمانية الناشئة على مشروع القبيلة . ففقدت القبائل التركية الحماسة العصبية في الغزو وقل المحاربين والمتطوعين منهم، كما أن السلاطين انفسهم عملوا على الحد من ذلك ـ حتى لا يكون افراد القبائل مشاركين لهم في السلطة [٢] . من هنا اختلفت مصالح السلاطين ـ إلى حد ما ـ عن مصالح رعاياهم الأول وشعر هؤلاء السلاطين ـ كما شعر ملوك وحكام سبقوهم ـ بالحاجة إلى قوات عسكرية تدين بالولاء والطاعة لعرش الاسرة العثمانية وحدة وليس للعصبية القبلية، فباتوا يجندونها من الأسرى والعبيد غير المسلمين من ابناء البلدان التى احتلوها. وفى غضون ذلك كانت القوات العسكرية القديمة قد انقسمت الى مجموعتين أولئك الذين يتقاضون مرتبا من خزينة السلطان، ثم مجموعة الذين يمنحون أراضى التزام يجمعون من سكانها وفلاحيها الضرائب والعشور والمكوس والرسوم المختلفة. ولقد استُبعد جنود المجموعة الاولى من القيام بالخدمة بعد أن اصبح دخول العبيد فى سلك الجندية أمرا عاديا يطّرد باستمرار. ومن ثم حل محل الجيش القائم على تقاضى مرتباتهم من خزينة السلطان هيئة عسكرية تقوم فى معظمها على العبيد الذين هم ملك خاص للسلاطين، ذلك انه ما ان حل ذلك الوقت الذى اصبح فيه توسع السلطنة العثمانية فى فتوحها تقليد لا يمكن تحاشيه فان القوات التى تاخذ رواتبها من الخزانة السلطانية لم تعد كافية لتحقيق توسع آخر أوصد أى هجوم مضاد. ولقد استعان السلاطين العثمانيين لتحقيق ذلك بخطة واسعة لتجنيد العبيد ـ

نظرا لقلة تكلفتها ـ ولكن عيبها الخطير انها كانت تخالف الشرع الاسلامي الذى ضربوا به عرض الحائط.

فقد كانت الخطة تقوم على تجنيد دورى للفتية الذكور غير المتزوجين من رعاياهم المسيحيين الارثوذكس ، وبخاصة فى شرق أوروبا ، وذلك بعد انتزاعهم من عائلاتهم فى سن تتراوح بين العاشرة والعشرين، والنزول بهم إلى مستوى الرق، ثم تدريبهم على خدمة السلطنة والجندية [٣]

ومن هنا ادى نظام جمع الاطفال هذا، وكان يسمى «دوشرمه»[٤] إلى تطور آخر: فبينما كان يقوم على ادارة السلطنة العثمانية والدفاع عنها فى ايامها الاولى مسلمون احرار، فقد حل الآن محلهم دون استثناء عبيد السلطان على نطاق واسع حتى وصل الامر الى ان كل منصب كبير تقريبا فى السلطنة يشغله اما مسيحى أو عبد يقتنى بطريقة اخرى [٥]

وحقيقى انه بعد مضى ثلاثة قرون على تأسيس السلطنة العثمانية ـ اى فى اواخر القرن السادس عشر ـ كانت قد بلغت اقصى اتساعها فبسطت نفوذها على البحر الاسود والبحر المتوسط والبحر الأحمر وشمال افريقيا والعراق وشبه الجزيرة العربية والشام وشبه جزيرة الموره ويوغسلافيا ورومانيا وأجزاد كبيرة من امبراطورية النمسا والمجر، لكن هذا الاتساع الذى حققته فى زمن قياسي سريع، كان الاسرع منه تراجعها عنه خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وذلك بسبب ضعف وفساد القوة العسكرية وكثرة هزائمها وتمرداتها، إلى جانب اعتماد نظام الحكم فى الاساس على شخص السلطان الذى كان بالتبعية يتعرض للتقلص والتحلل بمجرد أن يلى الحكم سلطان غير كفوء مهما كان السلطان السابق له مصلحا أو عادلا.

ولعل الذى انقذ السلطنة من انياب الدول الاوروبية فى القرن السابع عشر هو جهل اوروبا بمدى عمق التدهور العثمانى، وانشغالها بحروبها الداخلية. ولم تنتبه اوروبا لتهالك السلطنة إلا عندما صدت جيوشها عند أبواب فينيا عام ١٦٨٣ ثم فقدها للمجر واستيلاء إمارة البندقية على سواحل البانيا. ومنذ عام ١٦٨٧ استعادت النمسا كرواتيا وسلافونيا وترانسلفانيا وبلغراد. ووصلت الى نيش عام ١٦٨٨ ، كما استولت روسيا عام ١٦٩٦ على ازوف على البحر الاسود، واسست فيها قاعدة بحرية ثابتة.

وتوالت الهزائم على السلطنة العثمانية فى كل جبهاتها حتى فى الشرق حيث استولى المغامر

التركماني نادر خان على العراق عام ١٧٣٠. وظل الحال يتدهور خلال القرن الثامن عشر فاجبرت السلطنة على توقيع «صلح ياسي» مع الامبراطورة كاترين عام ١٧٩٢ حيث تنازلت لروسيا عن كل املاكها شمال البحر الاسود. ولم يوقف علميات سحق السلطنة العثمانية في نهاية القرن الثامن عشر سوى قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ وانصراف دول اوروبا مؤقتا عن السلطنة خوفا من الثورة الفرنسية وظهور نابليون. ولكن مع صعود نجم نابليون بدأت فرنسا في تحقيق امبراطوريتها الشرقية التي كانت نواتها مصر. ومن هنا جاءت الحملة الفرنسية على مصر كتهديد جديد للسلطنة وبداية للصراع الانجليزى الفرنسي على ما تبقى في يدها من ممتلكات في الشرق.

وقد واكب هذا الضعف في نظام الحكم تزايد الخلافات والفوضى والحركات الاستقلالية في الولايات العثمانية التي كفت عن ارسال المال الى الخزينة السلطانية [٦]، فتأخرت رواتب الجند واندلعت ثورات الانكشارية في استانبول حيث قتلوا الصدر الاعظم وخلعوا السلطان احمد الثالث ١٧٠٣ - ١٧٣٠ [٧] وانتشرت الرشوة حيث اصبحت قاعدة ثابتة لتولي المناصب والوظائف وحكم الولايات فمن كان يدفع مالا أكثر للباب العالي والصدر الاعظم كان يتولاها. مما زاد في جشع الموظفين والمسئولين والملتزمين والميل إلى الرشوة والابتزاز، حتى انهم ابتكروا حيل شرعية لذلك كخدمة التكايا والطرق الصوفية. إلى جانب الاوقاف الاهلية التي تستروا خلفها لحماية ثرواتهم عند موتهم او طردهم من وظائفهم، فقد عمدوا الى احالة الاراضي والاموال التي كانت التزاماً لهم إلى نظام الوقف الاهلي، ثم تصرفوا فيها بالبيع والشراء والايجار رغم كونها من املاك السلطنة، مما ساعد على تجميد اموال وعوائد كثيرة توقف الاستفادة منها في تحسين الاحوال الاقتصادية، وراحت ايرادات هذه الاوقاف الى جيوب حائزيها.

وقد زاد من سوء الامور تدهور النظم الزراعية والتجارة إلى جانب ضعف النشاط الصناعي بسبب نقص المواد الاولية واعتماده على نظام الطوائف الحرفية البالي.

ولقد حاولت السلطنة منع خروج هذه المواد - انظر محاولات الجزار في الشام ومحمد علي في مصر عندما وضعا نظام الاحتكار - بسن القوانين واللوائح المانعة للتصدير وتثبيت اسعارها دون جدوى، ذلك ان تخلف نظام الطوائف الحرفية الذى يقوم على محاولات

الاكتفاء الذاتي وعدم قدرته على مواجهة التجارة الدولية وعدم جدوى نظام الاحتكار الي جانب تفشي الرشوة والفساد بين موظفي السلطنة ليتغاضوا عن تطبيق هذه اللوائح والقوانين، كل ذلك لم يوقف تدهور النظام الاقتصادى للسلطنة. وزاد الطين بلة انه بعد سحب هذه المواد الاولية من السلطنة الى اوروبا قامت بتصنيعها واعادة تصديرها لاسواق السلطنة فى ظل نظام الحماية الاجنبيةالذى فرضته دول اوروبا على السلطنة فساعد ذلك على زيادة كساد الصناعات المحلية واضطراب شديد فى التوازن التجارى بين السلطنة ودول اوروبا.

فدول اوروبا منذ نهايات القرن السادس عشر كانت تمارس سياسات مالية واقتصادية تهدف إلى اختراق نظام الاكتفاء الذاتي الذى كانت تطبقه السلطنة، فتوغلت بنوكها وشركاتها الاستثمارية إلى داخل السلطنة واستنزفت مواردها وسيطرة على اسواقها المحلية واقتصادياتها.

كما عانت السلطنة بسبب ثورة النقد الناجمة عن تدفق الفضة الامريكية الى اوروبا وعدم قدرة السلطنة فى الحصول على نصيب مناسب منها، مما أدى الى نقص متتالي فى قيمة العملة العثمانية وارتفاع معدلات التضخم، واستمرت مرتبات الجند والموظفين ثابتة دون اى زيادة مما ساعد على توطين الرشوة بشكل اساسى فى النظام الادارى للسلطنة. وبات من المستحيل اصلاح امرها دون هدمها واقامتها على اسس جديدة مختلفة وهذا ما حاولته الثورة التركية الكمالية فيما بعد عندما الغت الخلافة العثمانية الفاسدة واقتحمت الثورة العلمية والصناعية الحديثة.

وها هو الجزء الثاني من تاريخ الجبرتي يصف فيه الاحوال السياسية و الفكرية لمصر فيما بين عامى ١١٦٢/١١٧٤ = ١٧٤٨/١٧٦٠م في ظل الظروف التي سبق شرحها، ويوضح لنا كيف كانت الأحداث في هذه الفترة من الاحتلال العثمانى لمصر تتوالى و تتصادم: والنزعات الدموية تحتد بين البيوت المملوكية على النفوذ وخاصة على منصبى «شيخ البلد» و «امير الحاج» ، ومحاولة استغلال الباشا العثمانى لهذه النزاعا لتثبيت اركان حكم السلطنة في مصر، وفشله في ذلك. واثر كل ذلك على أحوال الشعب المصرى وحياتا السياسية والفكرية، والاستغلال البشع والمهين له من قبل سلطة محلية مستبدة [المماليك.

وسلطة استعمارية [العثمانيين] تستنزفه لحساب قوى خارجية اجنبية.

كما يوضح لنا الجبرتى رد فعل الشعراء والادباء المصريين على هذه الاوضاع المتردية والظالمة متمثلين فى ذلك ما أنجزه من قبل أدباء وشعراء قاوموا الاستبداد الأيوبى والمملوكى والعثمانى من أمثال «ابن مماتى» و «ابن سودون» و «ابن دانيال» و «ابن عروس» و «الوهرانى» وغيرهم.

ولهذا فإن هذا الجزء يعتبر من أهم أجزاء تاريخ الجبرتى التى تستعرض الحالة الفكرية والأدبية لمصر فى ظل الاحتلال العثمانى، مما دفعنى إلى إلحاق بعض الدراسات الهامة حول الحالة الفكرية والأدبية لمصر فى هذه الفترة ضمن الهوامش والملاحق.

إلى جانب هذا يرصد الجبرتى عدة ظواهر هامة فى الحياة الفكرية والأدبية منها ظاهرة انتشار المقاهى وشرب القهوة و بروز دورها فى الحياة الفكرية والأدبية ، واتساع ظاهرة رواة سير البطولات الشعبية داخل هذه المقاهى واجتماع الناس حول هؤلاء الرواة وسيرهم التى كانت تهاجم الاستبداد العثمانى ، مما دفع السلطات العثمانية إلى محاولة محاصرة هذه الظاهرة عن طريق دفع بعض المشايخ الى الافتاء بتحريم شرب القهوة واعتبارها من الخمور، وان المجتمعين حولها فى المقهى فاسقين وخارجين عن الدين، وقد ردّ عليهم بعض المشايخ وافتوا بعدم حرمانيتها، وانها الزم للانقطاع لذكر الله.

ومن الطريف ان هذا الصراع بين المشايخ حول موضوع القهوة تطور ليصبح مظهرا من مظاهر الصراع المذهبى والسياسى والأدبى بين الاشراف من السادة الوفائية (اتباع السيدة فاطمة الزهراء والذين ساندوا شرب القهوة)، والاشراف من السادة البكرية (اتباع الخليفة ابو بكر الصديق الذين حرموا فى أول الامر شرب القهوة)، فقد التقى موقف السادة البكرية مع الموقف العثمانى، فساند كل منهما الآخر ضد السادة الوفائية ، الذين اتهموا بالتشيع لآل البيت والميل للفرس الشيعة.

وقد سارع الامراء المماليك إلى مساندة السادة الوفائية والانتساب اليهم والى آل البيت وقريش، من أجل الحصول على سند شرعى يدعم نفوذهم ومساعيهم من أجل الانفراد بالسلطة فى مصر، التى فقدوها منذ غزوة السلطان سليم وهزيمة السلطان الغورى على يده.

وقد ظهر ذلك واضحا فى اجتذاب الامراء المماليك للشعراء المشايعين للسادة الوفائية إلى

مجالسهم مثلما فعل الامير رضوان الذى لم يكتف بتشجعيهم على اعلان أشعارهم المشايعة لآل البيت، بل انه كلف احد المشايخ لكتابة رسالة «قهر الوجود العابسة بذكر نسب الجراكسة إلى قريش» لينسب المماليك الجراكسة ومنهم الامير رضوان إلى آل البيت وقريش وبالتالى يستحوذ على نسب شريف يدعم نفوذه السياسى.

ولقد كان من مظاهر هذا الانقسام بين الوفائية، والبكرية انقسام الشعراء بينهما وازدهار حركة شعرية مشايعة لال البيت فى مصر، كما هو واضح من الدراسات المرفقة.

وفى بدايات هذا الجزء يذكر الجبرتى أحداث هامة توضح المواقف المضادة للسلطنة العثمانية ورجال الدين الموالين لها تجاه المصريين الاقباط [قصة منع المحمل القبطى]، تلك المواقف التى دأبت السلطنة عليها من أجل تفتيت وحدة الشعب المصرى حتى تتمكن من استنزافه ونهبه تحت دعاوى دينية باطلة. وليس أدل على أن هذه المواقف كانت بعيدة كل البعد عن الدين وتهدف إلى استغلال الشعب المصرى من حالة هروب الفلاحين من أراضيهم بشكل جماعى، والتى عرفت بظاهرة «تسحب الفلاحين» أى هروبهم من أراضيهم ، بسبب النهب المستمر والجائر لهم من قبل رموز السلطة العثمانية ويكفى ان نذكر هنا مثالا واحدا. لما كانت تبتزه اجهزة الإدارة العثمانية بشكل رسمى من القرى إلى جانب مال السلطان والجزية. ففى سجل الترابيع رقم ١٦٠٥ الخاص بولاية الشرقية سجل المال الإضافى على قرية منية عامر كالآتى بالبارة:

٢٠٠٠	ثمن حصان تقدمه
٢٠٠٠	عادة قائمقام.
٣٠٠	عادة الخازندار
١٠٠٠	ثمن اغنام الضيافة
١٠٢٠	ثمن اغنام الهبة
١٠٠٠	ركبات (ركايب) مقدمة لرجال الادارة.
٣٠٦٠٠	ثمن سمن معتاد
٣٢٤٠	عادة الملتزم.
٤١١٦٠.	

إلى جانب كل ذلك يذكر الجبرتى الكثير من التحولات فى النظام المملوكى فى ظل الاحتلال العثمانى، سواء على مستوى التنظيم الداخلى للبيت المملوكى وتحولهم عن الاسماء الآسيوية إلى الاسماء المصرية، أو على مستوى النزوع إلى الاستبداد بالسلطة والاستقلال بها عن السلطنة العثمانية والسيطرة على منصبى «شيخ البلد» و «امير

الحاج»، والصراع الدموى الضارى بين البيوت المملوكية على ذلك، واتباع اساليب الاغتيال والذبح فيما بينها.

وعلى بك الكبير فى هذا الشأن يشكل مثالا واضحا لهذه الاساليب التى أوصلته الى الانفراد بالسلطة فى مصر، بعد ان قضى على امراء البيوت المملوكية المنافسة له، وكذلك على نفوذ القبائل العربية فى الوجهين القبلى والبحرى وشل فعالية الحامية العثمانية والباشا والسيطرة على كل عقود الالتزام [فى الزراعة والجمارك والتجارة] والاوقاف والخزانة السلطانية وعوايد الباشا ذاته.

ولكن مقتل على بك جاء بنفس اساليبه التى تعلمها منه وأتقنها محمد بك ابو الدهب احد الادوات التى وصل بها على بك الى السلطة.

وسنلاحظ أن القضاء على سلطة على بك الكبير لم يمنع احد ادواته وهو أحمد الجزار من أن يحاول تحقيق نفس أحلام على بك. فعلى بك كان النموذج الدموى الامثل الذى طرحته وابدعته السلطنة العثمانية والذى ظلت تطرحه باستمرار لحكم ولاياتها اعتقادا منها بان مثل هذه النماذج هى الوسيلة الوحيدة لسيطرتها على املاكها الممتدة من غرب اسيا حتى وسط أوربا ولكنها كانت فى نفس الوقت السبب فى انهيارها.

من أجل هذا اطلقنا على هذا الجزء من كتاب الجبرتى اسم «على بك الكبير الصعود والسقوط» فهو يملؤه حضورا وحركة سواء فى صعوده أو هبوطه، وحياته تشكل عملا دراميا متميزا تتجلى فيه احوال السلطنة العثمانية فى ذلك الوقت. تبدأ قصة على بك الكبير عندما خطفه تجار العبيد من بلاده الأباظة [٨] وهو فى سن الخامسة عشرة وباعوه بالاسكندرية عام ١١٥٦ / ١٧٤٣م لمديرى جمركها الاخوين اليهوديين اسحاق ويوسف اللذين اهدياه للامير ابراهيم جاويش كخيا [كتخدا]، فسماه عليا، ورباه على النظام المملوكى حتى صار خازنداره، بفضل مهارته القتالية والعقلية. وعندما بلغ الثامنة عشرة اعتقه سيده، وسمح له بإرخاء لحيته.

وما ان استهل عامه الثانى والعشرين فى ١١٦٢ / ١٧٤٩م حتى صار من كشاف مصر، وبدأ ذكره فى دفاتر الروزنامة بلقب «كاشف شرقية» ولما توفى استاذه ابراهيم كخيا (١١٦٨/١٧٥٤م) تقلد على بك الصنجقية باسم «على بك مير اللوا قازدغلى»، فكان ذلك دافعا له ليسعى نحو منصب «شيخ البلد» أى زعامة المماليك جميعا وحكم مصر. ولكن لان هذا لم يكن مطمعه وحده

فقد دب الخلاف بين البكوات المماليك اتباع ابراهيم الكخيا وتساقط فى هذا الصراع عدد منهم، وكان نصيب على بك من هذه الصراعات نفيه إلى «نوسا الغيط[٩]» بالوجه البحرى.

ولكنه عاد للقاهرة بعد ان مهد له الجو عبد الرحمن كتخدا (صاحب العماير المشهورة) ليتولى مشيخة البلد سنة ١١٧٤/ ١٧٦٠م بفرمان (بيورلدى) من الباشا، فعرف باسم «حالا شيخ البلد مصر عزتك ميرالك مكرم على بك قازدغلى». ومنذ توليه المشيخة أبعد كل منافسيه على رياسة مصر، حتى عبد الرحمن كتخدا ـ الذى كان سبب صعود نجمه ـ نفاه إلى الحجاز، وعين فى المناصب الحساسة الامراء الموالين له ومنهم خازنداره محمد بك ابو الدهب.

ولكن أحد الامراء الموالين له وهو حسين بك كشكش انقلب عليه وتمكن من عزله ونفيه الى الشام فى ١١٧٩/١٧٧٧م وحذف اسمه هو واتباعه من دفتر الجراية والعليق، فقد ذكر فيها «على بك ميراللوا كاشف شرقية سابق» واضيف فوقها «رفع شدة» أى عزل.

ولكنه عاد فجأة للقاهرة مع اتباعه دون محاربة فتم نفيه الى النوسا كما نفى اتباعه الى اسيوط.

ولكن فى اعقاب احد مؤامراته وهو فى النوسا نفى الى اسيوط فصار وسط اتباعه، وتوافق مع شيخ العرب همام والامير صالح بك العدو اللدود لحسين كشكش، وزحفوا على القاهرة بعسكرهم مما دفع حسين كشكش بك الى الفرار للشام. وعاد على بك للقاهرة شيخا للبلد فى ٢٩ جماد اول ٢٢/١١٨١ اكتوبر ١٧٦٧م، وشتت وقتل معظم خصومه.

وفجأة عاد حسين كشكش بجيش كبير نزل به فى دمياط (١١٨٢هـ) وتقدم مكتسحا شمال الدلتا حتى وصل إلى طنطا. وأحس على بك بخطورة الازمة فارسل له جيشا مدعوما من شيخ عرب هوارة وصالح بك، بقيادة محمد بك ابو الدهب تمكن من محاصرة حسين كشكش وقتله هو ومن معه من انصاره. وبهذا استقرت الامور له، فانقلب على حليفه صالح بك وقتله.

لم يقنع على بك بنفوذه الكبير بين الامراء المماليك وخضوعهم له فسعى الى تحقيق الحلم التقليدى لكل الامراء الكبار، وهو الاستقلال بمصر. لم يكن على بك يستطيع المضى نحو هدفه المضمر هذا ما لم ينجح فى التغلب على العقبة الكبرى التى طالما أودت بحياة عشرات من مشايخ البلد وبكواتها ،

تلك هى شكوك ديوان الاستانة والباشا الممثل لهم في مصر تجاهه، وفي سبيل ذلك قدم الهدايا والرشاوى لرجال السلطنة وملأ الخزانة و المخازن السلطانية من خيرات مصر برهانا على ولائه وتفانيه في خدمة السلطان (انظر حوادث شوال ١١٨١). وأصبح الباشا ينزل من القلعة الى منزله طمعا في هداياه ورشاويه (انظر احداث يوم السبت ثاني عشر ربيع اول ١١٨١) واستكثر من شراء المماليك.

وبفضل تلك السياسة ضمن عدم معارضة الباشا أو الديوان لأعماله، وفي ظل تلك الثقة نشط على بك يكمل تنفيذ خطته لإزالة بقية العقبات فبدأ بنفى كل معارضيه الى البنادر مثل دمياط ورشيد والاسكندرية و المنصورة ثم ارسل من يغتالهم واحدا بعد واحد، وذلك بعد ان يستصفى اموالهم ياخذ التزاماتهم ويوزعها على مماليكه واتباعه الذين يؤمرهم في مكانهم.

بهذه الطريقة تمكن على بك في ظرف سنوات أربع، من أن يقيم في أهم المناصب بكوات من خاصة اتباعه، فولى اسماعيل بك دفتردارية مصر، وحسن بك رضوان امارة الحج وايوب بك ولاية جرجا التى كانت تعد اهم ولايات مصر. كما تيسر له ان يملأ جميع مراكز الصناجق ببكوات تابعين له ذكر منهم التاجر «لوزينان» الذى كان بمصر فى هذه الفترة سبعة عشرة بيكا هم: رضوان، على ، اسماعيل، خليل، عبد الرحمن، حسن، يوسف، ذو الفقار، عجيب، احمد الجزار (والى عكا فيما بعد) ، سليم اغا، سليمان كتخدا، لطيف، عثمان، محمد بك ابو الدهب، ابراهيم بك، مراد بك.

وفي الوقت الذى استكثر فيه على بك من المماليك حتى حاز ما يقرب من ٦٠٠٠ مملوك، حرم على بكواته وكشافه ان يحوز الواحد منهم اكثر من مملوك او اثنين حتى يستعصموا به دائما ويأمن من غدرهم.

وأراد على بك فيما أراد أن يأمن شر الحامية العثمانية والديوان فعول على القضاء التام على نفوذهما والتقليل جهد الطاقة من عدد رجالهما، فبدأ أولا باشراكهم فى الحروب الداخلية حتى هلك من صدور الأوجاق من هلك، خصوصا فى اول اصطدام لجيش على بك مع كشكش بك، ثم ابعد معظم من بقى من كبرائهم كما ابعد اتباعهم. وكان غرضه من ذلك كما ذكر الجبرتى «ازالة اصحاب المظاهر كائنا ما كان» وقد ذكر الجبرتى من هؤلاء المنفيين ما يزيد على الثلاثين من ضباط

الحامية. وكان إذا عزل أو نفى أو اغتال واحدا من ضباط الاوجاقات استبدل به آخر من اتباعه . وقد ذكر المؤرخون ان على بك لجأ اخيرا الى حيلة ما كرة لتشتيت شمل من بقى من رجال الفرق الذين كانوا قد التحقوا بها طمعا فى دسامة الموجبات. اذا اخر دفع رواتبهم مدة ستة اشهر متعللا بقلة المال. ولما اشتد بهم الحال وذاقت انفسهم مرارة الحرمان، مع عجزهم عن السلب او النهب لعناية على بك بالامن قبلوا تسلم نصف رواتبهم، ولم تعد الجندية مطمعا لأولئك الذين لم يعرفوا لها معنى إلا التجبر والنهب فاخذوا يبحثون عن عمل أجدى.

هكذا اضعف على بك سلطة الديوان العثمانى بالقضاء على نفوذ كبار ضباط الاوجاقات ، وانقص عدد رجالها الى الحد الذى يمكن اعتبارها بسببه كما مهملا

وبعد ان آمن على بك مكر الباشا والديوان، وكسب رضاء السلطان وقضى على المعاندين والمنافسين، وشل الحامية حتى كادت تكون اسما بلا جسم ، وبعد ان ركز السلطتين الادارية والحربية فى يده، اصبح فى مركز يسمح له بالقضاء على آخر القوى الخطيرة التى يمكن ان تهدد سلطته، بل وجوده، تلك هى قوة العربان المنتشرين فى الوجه البحرى والمنبثين فى الصعيد.

وللعرب فى مصر قصة قديمة تبدأ مع الغزو العربى. ومنذ دخلوا فى ركاب عمرو وهم اصحاب السلطة، حتى إذا ما انتقلت امور الحكم الى أيدى دول شبه مستقلة استمر تدخلهم بشكل ما. ولما استقلت بمصر دول الفاطميين والايوبيين والمماليك، وتعذر على العرب التدخل الفعلى فى شئون الحكم، التحق بعضهم بالجيش كجند مرتزقة. وأخيرا عندما حارب المماليك دفاعا عن دولتهم ضد العثمانيين ساعدهم العرب أولا، ثم تخلوا عنهم عندما تبين أن قضيتهم خاسرة ونفعهم قليل.

وجاء الحكم العثمانى حائلا دون تدخلهم فى الحكومة والجيش، فراحوا يعيشون فى مصر فسادا، يقطعون طريق الحج، ويسلبون التجارة فى طريقها من الصعيد الى انحاء الوجه البحرى؛ واخذوا يهاجمون الارض المزروعة من حين الى آخر، لا يراعون فى ذلك حرمة. واشتهر امرهم هذا وعرف فى التاريخ باسم «افساد العربان».

وكان أخطر العرب قدرا بالوجه البحرى الحبايبه بشرق الدلتا ووسطها، والهنادى بالبحيرة. وهؤلاء جاء معظمهم من الحجاز، بينما استقر عرب هواره بالصعيد . ومعظمهم

جاء من بلاد المغرب وغير هؤلاء كثيرون انبثوا في أنحاء القطر على حدود الوادى المنزرع.

وورث سويلم بن حبيب زعيم الحبايبه وشقيقه سالم شهرة تردد صداها في انحاء الوجه البحرى، وانتهت اليه زعامة جميع القبائل هناك وقد انتهت اليه خفارة الملاحة النيلية بين بولاق وكل من دمياط ورشيد، غير انه رغم ثروته الطائلة، وما كان بيمينه من الضياع الواسعة، تجبر وبغى وطغى واصبح لا يفترق في شيء عن قطاع الطرق بعد ان زاول القرصنة النيلية «وأنشأ عدة مراكب تسمى الخرجات، لها شرافات وقلوع عظيمة، وعليها رجال غلاظ فاذا مرت بهم سفينة صاعدة الى (الوجه القبلى) أو حادرة (الى البحرى)، صرخ عليها اولئك: «البر»، فان امتثلوا وحضروا، أخذوا منها ما أحبوه من حمل السفينة وبضائع التجار، وان تلكئوا في الحضور قاطعوا عليهم بالخرجات في اسرع وقت، واحضروهم صاغرين، واخذوا منهم اضعاف ما كان يؤخذ منه لو حضروا طائعين من أول الامر.

وكان له قواعد وأغراض وركائز واناس من الامراء وأعوانهم بمصر يراسلهم ويهاديهم فيذبون عنه ولا يسمعون فيه شكوى.

وما كان على بك ليسمح لتلك الفوضى بالبقاء في عهده، وما كان ليغمض عينيه على من كانت «غالب بلاد القليوبية والشرقية تحت حمايته وحماية أقاربه وأولاده ولا يقدر ملتزم، ولا قائمقام على تنفيذ امر مع فلاحيه إلا باشارته.» ثم هو يتحكم في الطرق بين القاهرة وموانى القطر الشمالية، فوجه على بك تجريدة بقيادة ابى الدهب وايوب بك للقضاء على سويلم بن حبيب، وتأديب اتباعه، وحجته في ذلك أن سويلما كان قد أكرم حسين بك كشكش وخليل بك عند عودتهما من الشام.

ولم يكن سويلم موجودا في مركزه دجوه؛ بل كان في سند نهور، فاسرع الى البحيرة. والتجأ الى عرب الهنادى فاكتفى محمد بك ابو الدهب بتجريد دوائره مما فيها؛ وعاد الى القاهرة سنة ١٧٦٩ (ربيع آخر ١١٨٢هـ).

ولم يكتف على بك بذلك، بل سلط عليهم سنجق البحيرة عبد الله فاشتبك معهم ولكنه خر صريع المعركة، فتولى بعده ذو الفقار كاشف الذى استعان باحمد بك الجزار على الانتقام لمقتل عبد الله.

ولما تم اغتيال صالح بك. ووقعت القطيعة بسبب تلك الحادثة بين احمد بك الجزار وعلى بك، فر الجزار الى سورية ثم عاد مرة ثانية ليناصر سويلما عدوه القديم ضد سيده

وصاحب الفضل عليه على بك.
عند ذلك اسرع على بك فجهز تجريدة بقيادة اسماعيل بك شددت النكير على الحبابية والهنادى ، فانكسروا شر كسرة، وقضوا على سويلم ونكلوا باتباعه، وزال خطر اولئك الاعراب، وهرب الجزار مرة أخرى إلى الشام.
وبعد أن اصبحت القاهرة فى يد على بك وخلص له الوجه البحرى ايضا تطلع الى استخلاص الصعيد، وهو مركز تموين القطر، من يد اعظم مشايخ العرب قدرا واكثرهم نفوذا واتباعا همام بن يوسف الهوارى.

وكان حكم الصعيد منذ عصر المماليك فى يد شيوخ العرب من هوارة حتى كان عهد الوالى العثمانى سليمان باشا الذى فكر فى ان يعهد بحكم الصعيد الى أحد بكوات المماليك بدلا من مشايخ العرب الذين كانوا قد أدى بهم الغرور والاستهانة بالعثمانيين الى قلة الاهتمام بالاموال السلطانية والغلال الديوانية وكثرة البواقى التى لا تعد ولا تنحصر، والتقصير فى ضبط المال والغلال والجبايات الظاهرة وحصول الخسارة الزائدة والظلم المترادف لعامة الرعايا وكافة البلايا هذا مع اهمال مصالح البلاد وكافة انواع الاصلاح مما ادى الى الخراب.

ففى عهد هذا الوالى تم تحجيم دور الهوارة فى الصعيد ولكن عندما ضعف سلطان العثمانيين بمصر وتمهد السبيل لسيادة المماليك وأخذ سنجق جرجا يتجه ببصره الى القاهرة ويهتم بحوادثها السياسية اكثر من الاهتمام بامور الصعيد، واصبح الوجه القبلى منفى المتمردين والمغضوب عليهم وكان هؤلاء فى حاجة الى سواعد العرب واموالهم ليستعينوا بهم على منافسيهم بالقاهرة، بدأ النفوذ يعود تدريجا الى عرب هواره.
وبدأ هؤلاء ينصارون حزبا على اخر ويهتمون بالاحداث السياسية التى لم تعد تقتصر على القاهرة بل شملت القطر من شماله الى جنوبه واضحوا بذلك قوة هائلة خطيرة ترجح الكفة التى يضمون اليها.
وما كاد القرن الثامن عشر الميلادى ينتصف حتى انتهت زعامة عربان الصعيد الى شيخ العرب همام بن يوسف الهوارى. لم يكن همام يطمع فى زيادة مال، ولم يعمل لتوطيد نفوذه أو توسيع املاكه ولم يكن على بك يخشى منه هذا، وانما كان يرجو بالقضاء عليه ان يستولى على الوكر الذى تنبت فيه الفتن. اراد ان يخرب الحصن الذى يتسجير به المنفيون، وان يقضى على المورد الذى يمول منافس شيخ البلد على بك الكبير.

ولم يكن همام بالضعيف الذى يجار عليه ، وهو الذى اجار على بك من قبل. ولم يكن بالاعزل الذى ينقصه السلاح او الاتباع ، بل كان رجاله لايحصيهم العد وسلاحه يزيد على حاجته. ورغم كل هذه الاعتبارات لم يتوان على بك فى ارسال تجريدة بقيادة ابى الدهب لقتال همام بحجة انه انكر الاتفاق الذى كان قد عقده مع ابراهيم كخيا سنة ١١٤٩ ومؤداه التنازل له عن التزام برديس وفرشوط.

وما كاد ابوالدهب يقابل طلائع همام حتى اتفق الطرفان على ان يقتصر حكم همام على البلاد الواقعة قبلى برديس وبذا اخرجت منها جرجا عاصمة الصعيد وكان ذلك فى منتصف رجب سنة ١١٨٢هـ (١٧٦٨).

عند ذلك اسرع على بك بتعيين ايوب بك حاكما على جرجا، وفى نفس الوقت عول على ان يستثمر هذا الصلح فى تطهير الصعيد من جميع الامراء والمماليك المنفيين، فارسل يشترط على همام ان يطردهم من البلاد التى فى حكمه مقابل اقراره لنصوص الاتفاق ـ واستشف همام نيات على بك ـ وايقن فى نفسه ان هذا العمل لن يكون الا خطوة تمهد (لشيخ البلد) بالقاهرة القضاء على (شيخ الصعيد) فجمع المماليك المنفيين، والفارين، واللاجئين واخبرهم بما اراد على بك، وطلب منهم ان يخرجوا الى اسيوط. ويتحصنوا بها فهى مفتاح الصعيد . ووعد ان يمدهم بالمال والرجال.

ولما زحف هؤلاء على اسيوط وجدوها محصنة، حولها بوابات مسلحة بناها عبد الرحمن كاشف وذو الفقار كاشف من اتباع على بك. فلما امتنعت عليهم استعانوا بأحطاب جعلوا الكبريت والزيت فى رؤسها واشعلوها واحرقوا الباب وملكوا مفتاح الصعيد قبل وصول ايوب بك بقليل.

ولم ير أيوب بك من الحكمة ان يصطدم بمن سبقه الى اسيوط فارسل الى على بك يطلب مددا.

ورأى على بك اهمية المعركة القادمة وخطورتها ، فالسيادة ستنتهى الى من يكتب له النصر فيها. لذلك جهز نجدة سريعة من المماليك والمغاربة وفرق الحامية على رأسهم خليل بك القاسمى وابراهيم بك بلفيا ومحمد بك ابو شنب وعلى بك الطنطاوى ، وزودهم بالمؤنة والذخيرة، وأرسل فى أثرهم تجريدة شاملة من المماليك، والمرتزقة من الدلاة والدروز والمتاولة والشوام، وعلى رأسهم محمد بك ابو الدهب ورضوان بك، ولما التأم جميعهم تقدموا واصطدم الفريقان

خارج اسيوط.

واشتد القتال حتى تقرر النصر لجيش على بك، وقتل من أعدائه الكثيرون وفرت فلول المهزومين الى فرشوط حيث كان همام. ولكن ابا الدهب لجأ الى الحيلة فراسل ابن عم همام، وهو ابو عبد الله، واستماله ومناه ووعده برياسة بلاد الصعيد حتى ركن الى تلك الامنية، وصدق تمويه ابى الدهب وتقاعس وثبط عن القتال وخذل طوائفه. ولما أحس همام بحالة جيشه النفسية وخيانة اقرب الناس اليه مات كمدا قرب اسنا (٨ من شعبان سنة ١١٨٣ هـ ـ ١٧٦٩م) وبذلك تقرر النصر النهائى لعلى بك.

وتعتبر معركة اسيوط فى نظرنا من احسم المواقع فى تاريخ على بك، وهى ثانى المعارك الثلاثة الهامة التى اشرنا اليها. وهى التى اكدت له النصر، فاصبح سيد الوجهين وصاحب النفوذ المطلق فى جميع انحاء القطر المصرى.

لم يكد على بك يفرغ من توطيد نفوذه فى مصر حتى اشتبكت الدولة العثمانية فى حرب ضروس مع روسيا التى عادت الى تنفيذ سياستها التقليدية بالتوسع نحو بحر البلطيق غربا والبحر المتوسط جنوبا. وتدخلت فى ازمة العرش البولندى بعد خلوه بوفاة الملك فردريك اغسطس الثالث فى ٥ اكتوبر ١٧٦٣. وقد أدى هذا التدخل الى ان تعلن الدولة العثمانية الحرب ضدها فى اواخر اكتوبر ١٧٦٨. ولكى تشغل الروسيا عدوها عن تكريس قوته لتلك الحرب، وتعجزه عن التدخل الحاسم فى تلك المسألة، قامت بدعاية واسعة ضد الدولة العثمانية فى ولاياتها الأوروبية والاسيوية، ونجح الدعاة الروس فى استغلال مساوىء الادارة العثمانية والنعرة الوطنية والدينية والمذهبية، فبدأ لهيب الفتنة، وانتظمت روح الثورة ولايات البلقان، وماجت رومانيا بالثورة، وتبعتها سواحل الادرياتيك وتساليا والبلوبونيز والصرب والافلاق والبغدان والجبل الاسود. ولم تكن الدولة العثمانية فى حاجة الى ما يزيد انشغالها اذا كان لديها ما عجزت عن معالجته فى بلاد العرب ومصر وفلسطين وسوريا وبغداد وارمينية وطرابيزون. فاذا اضفنا الى ذلك ثورات املاكها الاوروبية، وفساد نظمها الداخلية، ووهن قوتها الحربية ادركنا مدى عجزها عن المقاومة.

وبينما كان الدولة العثمانية تنتظر وصول الامدادات الحربية التى طلبتها من ولاياتها، اسرعت روسيا فهاجمت الحدود العثمانية من

جميع النواحي دفعة واحدة من الشمال والجنوب، ومن الشرق والغرب. فخاضت جيوشها غمار المعارك على الدانوب، وفي القرم ، وفي جورجيا ، وبلاد المورة، بينما انتشرت اساطيلها في البحرين الاسود والمتوسط فهاجم بلاد الاناضول وسورية وهددت مصر. وضيقت الخناق على البحرية العثمانية التي ارتدت الى خليج جشمة وقضت على معظم وحداته (٧ يوليو ١٧٦٩) وفي الميادين البرية ذاق العثمانيون من مرارة الهزيمة ما جعل فلولهم ترتد عبر الدانوب، وتخرج من القرم، وتجلو عن الافلاق والبغدان وصربيا.

من خلال تلك الكوارث الحربية استشف على بك الكبير في مصر انشغال الدولة العثمانية في اوروبا ، وارتباكها السياسي ، وضعفها الحربي، وعجزها عن حفظ هيبتها، فعول على استغلال تلك الفرصة لمصلحته الخاصة.

بدء الثورة وتخلصه من الباشا العثماني

والتخلص من الباشا العثماني قبل ذلك لم يكن من مصلحة على بك، فقد رأينا كيف اتخذه سندا في كفاحه ضد العناصر المعادية. ولكن حان الوقت للتخلص من ظل سلطته، فاستصدر من الديوان امرا بعزل الباشا. والى ذلك أشار الجبرتي بقوله انه «حصلت قلقلة من جهة والي مصر محمد باشا فانزلوه الى بيت احمد بك كشك وجرشوه في سابع عشر رجب ١١٨٢» (اكتوبر ١٧٦٨م) «وفي يوم الاحد غرة شعبان ، تولى على بك قائمقامية عوضا عن الباشا». وقد ظل محمد باشا محجورا عليه حتى توفى في أوائل سنة ١١٨٣ (١٧٦٩) . وظل على بك قائمقام حتى آخر عهده ولم يعد يسمح للباشوات العثمانيين بدخول مصر.

وبعد طرد الباشا لم يبق في مصر من مظاهر السيادة العثمانية سوى الخطبة والعملة والخزنة السنوية. اما الاولى فقد بقيت كما هي.، واما الثانية فقد أحدث فيها تغييرا طفيفا منذ ١٧٦٩ ، واما الخزنة فقد أوقف ارسالها ابتداء من سنة ١٧٦٨ . اشار الى ذلك الجبرتي في ترجمته للامير قاسم بك ابى سيف الذى سافر بالخزنة ومات بالروم وذلك في سنة ١١٨٠هـ. «وهي آخر خزنة رأيناها سافرت الى اسلامبول على الوضع القديم..».

أغراض على بك من الحركة

يذكر جمهرة المؤرخين الأوروبين ان غرض على بك من حركته كان الملك والاستقلال منتهزا فرصة انشغال الدولة العثمانية فى حربها ضد روسيا، بل ان قنصل فرنسا المسيو دى جونفيل M. De Jonville استشف نيات على بك فكتب يقول ان غرضه جعل مصر دولة مستقلة قوامها قوة المماليك المطلقة. ويذكر الجبرتى ان على بك «كان يقول لبعض خاصته ان ملوك مصر كانوا مثلنا مماليك الاكراد ، مثل السلطان بيبرس والسلطان قلاوون وأولادهم ، وكذلك ملوك الجراكسة وهم مماليك بنى قلاوون الى آخرهم كانوا كذلك وهؤلا العثمانية اخذوها بالتغلب ونفاق أهلها، وينوه ويشير بمثل هذا القول بما فى ضميره وسريرته».

بقى لنا ان نتساءل : هل حصل على بك حقيقة على الاستقلال ؟ كل الأدلة والشواهد والوثائق الرسمية تدل على انه لم يعلن استقلاله او انفصاله عن الدولة العثمانية ، فقد كانت هناك بعض الروابط بين مصر والدولة العثمانية، وبقيت هذه الروابط رغم ما كان بينهما من حروب.

ولا يصح لنا ان نرجع بقاء هذه الروابط الى ما ذكره بعض المؤرخين من ان الحرب الروسية التركية فأجأت على بك قبل ان يتم استعداده ، فانه نجح فعلا فى جميع مشروعاته. وانما بقاء هذه الروابط يرجع الى ان الحركة لم تكن سوى ثورة اوسع نطاقا واعمق غورا من سابقاتها. وكان غرضه منها الانفراد بالحكم فى مصر ولا بأس من بقاء مصر تابعة للدولة العثمانية ظاهريا.

تولى على بك قائمقام عقب عزل محمد باشا يوم الاحد غرة شعبان ١١٨١ (اكتوبر ١٧٦٨) كما هى العادة، ولكنه لم يسمح لاى وال عثمانى بدخول مصر بعد ذلك، فقد أشار الجبرتى الى انه «منع ورود الولاة العثمانية» وعزز ذلك المؤرخ العثمانى جودت بقوله ان على بك «عزل محمد باشا والى مصر وأنزله عن منصبه.. ولم ترسل الدولة بعده واليا على مصر مدة اربع سنوات».

فكانت جميع الأوامر والفرمانات وتقاسيط الالتزام التى كان تصدر بتوقيع باشا مصر اصبحت تصدر باسم «حضرة على بك ميرلوا قائمقام محروسة مصر» كما كانت تقاسيط الالتزام تختم بخاتمه الخاص دون اى إشارة للباشا وذلك فى المدة الواقعة بين عامى ١١٨١ ـ ١١٨٦ (١٧٦٨ ـ ١٧٧٢م) .

وثمة دراسة لدفاتر «اصول مال اسكلها ومقاطعات..»، «ايرادات مال الكمارك..» عن السنوات من ١١٧٤ ـ ١١٩٠ (١٧٦٠ ـ ١١٧٦م). اى منذ تولى على بك شياخة البلد للمرة الأولى حتى بعد وفاته بثلاث سنوات.
لاحظنا فيها مايلى:
(أ) ان التزام «مقاطعة عشور اصناف بهار وتوابعها وسمسارية بهار وتوابعها مع مقاطعة قصير، كان لباشا مصر يغل إيراده لنفسه. والسجلات من سنة ١١٧٥ إلى ١١٧٩ تنص على انه كان «در عهده دستور مكرم مشير مفخم حضرت وزير مصطفى باشا».
ثم كان لحمزة باشا حتى سنة ١١٨١، وفى سنة ١١٨٣ اصبح «در عهدة حضرة وزير افخم محمد باشا محافظ مصر حالا».
(ب) ولكن ابتداء من سنة ١١٨٣ (١٧٦٩) اى منذ بدء ثورة على بك لم يعد يذكر اسم الباشا واشير اليه رمزاً فقط «در عهدة دستور مكر مشير مفخم حضرت وزير...» ونشير إلى ان هذا الامر لم يحدث مطلقا من قبل.
(جـ) وابتداء من سنة ١١٨٤ حتى ١١٧٨ اى عند اكتمال سلطة على بك، لم يعد يذكر اسم الباشا أو يشار اليه قطعيا. وهذا يعزز الراى القائل بان على بك منع قدوم الباشوات العثمانيين.
(د) لم يعاد ذكر الباشا في الوثائق الا سنة ١١٩٠، واشير اليه بلقب «حضرت وزير ذو روشن ضمير».

سياسة على بك الداخلية

لاحظ الرحالة الانجليزى بروس Bruce ١٧٦٨م ان على بك كان كثير الاهتمام بامور حكومته، يصرف امورها بنفسه الى ساعة متأخرة من الليل، وانه انهمك فى ذلك حتى تأثرت قوة بصره الى حد ما. واصبح مريضا ممعودا.

التزام الاراضى والأموال المقررة

رغم ان حماس على بك وشدة اهتمامه بالعدل والاصلاح دفعا الكشاف الى الاهتمام بامور الزراعة، من حيث الرى والصرف واقامة الجسور وحفر الترع والقنوات ثم حمايتها وحماية غلاتها من عبث البدو فان سياسته فى منح الالتزام وفرض الضرائب لم تكن خالصة لصالح الشعب، إنما اضطرته اليها الظروف ودفعته اليها دفعا.
فان السياسة التى اتبعها لاضعاف الاوجاقات العثمانية انتهت بهزالها وضعف نفوذها ولما كان معظم ملتزمى الاراضى قبيل عهده من ضباط تلك الفرق، فقد نزعها منهم وجعل

الالتزام وقفا على مماليكه وانصاره وهكذا ابقى نظام الالتزام.

اما اهم فروع الالتزامات فكانت التزامات الاراضي والتزامات الجمارك ومتعلقاتها. وقد فضلت أن أذكر امثلة واقعية مستخرجة من السجلات الرسمية لاغراض سنشير اليها. كما انى فضلت ان تكون الامثلة شاملة وذلك بإيراد مثال تاريخه متقدم على عصر على بك، والثانى فى أواخر عصره حتى تكون المقارنة وافية بالغرض.

أولا : التزامات الاراضى:

(أ) دفتر التزامات ولايات الوجه البحرى عن سنة ١١٧٠ رقم ٢٤ / ٦ مخزن تركى:

«مقاطعة قرية بيشة رزينة وغيره»

در عهدة (أى فى عهدة) مراد عبد الله بايع على كوكللويان ٣ ط (٣ قيراط) [ط= قيرط]. وبشير عبد الله بك ط [قيراط واحد] ومنا وعبد الله ٣ ط وبلال اغا عبد الله ٦ ط وبشير اغا عبد الله ٦ ط واحمد عبد الله تابع السيد احمد تفنكجيان ٣ ط بر وجه التزام (اى على وجه التزام) قرية بيشة رزينة.

«غيره» مال مضاف وقف ابراهيم باشا براى مهمات سايرة در راه حج شريف (أى لاجل طريق حج شريف).

فى سنة التون	٦٩٦	التون = ٣٠ بارة
بحساب البارة	١٧٤٠٠	
+	٢٠٨٨	مضاف
	١٩٤٨٨	بـاره

يكون أقلام (أى مقاطعتان ماليتان)

فى سنة التون	٧٠٨	التون = ٢٥ باره
بحساب البارة	١٧٧٠٠	
	٢٠٨٨	
	٦٤٩٦	
	١٠٣٩	
	٢٧٣٢٣	
	١٠٩٣	
صيفى باره	٢٨٤١٦	شتوى باره ٢٧٣٢٣

ويلاحظ ان هذا الدفتر يبين نصيب كل ملتزم من القراريط فى قرية بيشة رزينة التابعة لولاية الشرقية. وقد اشير فى آخر الحساب الختامى الى مقدار ما يدفع فى كل من الموسمين الصيفى والشتوى . مع ملاحظة ان الالتون يساوى ٢٥ بارة.

(ب) دفتر التزامات «الولايات القبلية عن سنة ١١٧٠ رقم ٦/٢٣ مخزن تركى»

مقاطعة قرية اتليدم (للشمال من مركز ملوى)

وكفرها در عهده اسماعيل عبد الله تابع رضوان جوربجى بحق ٣ط ، وصالح عبد الله ٦ط، وحسن عبدالله تابع يوسف جاويش ٢ط، وصالح عبد الله تابع مصطفى بك ٢ط، وحسن عبد الله تابع كاشف يك ط ١,٥ ط، وعلى عبد الله تابع كاشف يك ط و١,٥ط، وأحمد أغا تابع سليمان بحق ٢ط واحمد سليمان ٣ط ومحمد يوسف ولدش يك، ط، وعنبر اغا عبد الله ٢ط.

فى سنة التون	١٨٤	التون = ١٨ باره
بحساب البارة	٤٦٠٨	
	٥٥٢	مضاف
	٥١٦٠	مجموع
	١٢٧١	فرط
	٦٤٣١	مجموع
	٧٢٥	مضاف
	٧١٥٦	مجموع
	٢٨٦	مضاف
	٧٤٤٢	مجموع

(جـ) دفتر التزامات الوجه البحرى سنة ١١٨٥ رقم ٧/٥٥ مخزن تركى «مقاطعة قرية الغابة (ولاية شرقية) در عهدة احمد رضوان شراقوه ٦ط، وايوب عبد الله تابع رضوان شراقوه مستحفظان ٦ط، وحسن عبد الله تابع مصطفى ٦ط، وحسن عبد الله تابع على تسلم نصف ط وربع ط، وابراهيم عبد الله تابع رضوان جاوش مستحفظان بلك ط و نصف ط، وعثمان نام وبشير اغا عبد الله بروجه اشتراك ٣ ط وربع ط وثمن ط، وسرور اغا تابع رضوان جاوش مراد ربع ط وثمن ط بروجه التزام قيده نفد.

فى سنة التون	٢٢٨	التون = ٢٤ باره
بحساب البارة	٥٤٧٢	
	٦٥٨	مضاف
	٦١٣٠	
	١٧٤١	
	٤١٩	
	٨٢٩٠	
	٣٣٢	مضاف سنة ١١٧٤
	٨٦٢٢	مجموع

من مقارنة السجلا الثلاثة السابقة يتضح لنا اشتراك اكثر من ملتزم واحد فى القرية الواحدة، وثانيا انه فى اواخر عهد على بك كان هناك بعض ملتزمين للقرى من ضباط الاوجاقات، وثالثا ان مبلغ الالتزام الاصلى كان ينمو بزيادة عدة مضافات كانت رسمية قبل عهد على بك. ففى المثل الاول كان مبلغ

الالتــزام الاصلى ١٧,٤٠٠ بارة، زيد عليــه مضاف حتى اصبح ١٩,٤٨٨ بارة، وفى المثل الثانى كان المبلغ الاصلى ٤,٦٠٨ بارة فظل يزيد حتى كان يصل الى قدر الاصل مرتين فاصبح ٧,٤٤٢ وهكذا الحال فى المبلغ الثالث وهو فى عهد على بك، كان أصله ٥,٤٧٢ فاصبح ٨,٦٢٢ بارة .

ولكن الملاحظة التى تهمنا بصفة خاصة انه بعد المضاف الذى فرضه سنة ١١٧٢ لم يقرر مضاف آخر حتى سنة ١١٨٦ وهى آخر عهد على بك وذلك يعد فخرا له.

ثانيا : تقاسيط الالتزام:

وبهذه المناسبة رأينا ان ننقل صورة تقسيطى التـزام احـدهمـا فى سنة ١١٧٥ (١٧٦١م) على عهد مصطفى باشا والثانى سنة ١١٨٥ (١٧٧١م) فى عــهــد على بك وهو ممهــور بخاتمه الخاص.

١ ـ وثيقة رقم ٢ ملف رقم ١٩ محفظه ١ مخزن تركى

«مقاطعة قرية منية بدر سلسيل بحق ٢ط ونصف ط تابع ولاية منصورة در عهده يوسف عبد الله تابع سليمان جاوش قازدغلى كه حالا بروجه التزام قيد شده عن اول توت الواقع فى ٩ ص (صفر) ١١٧٥ أدات شده كه عن مصالحة سليمان شراقوه مستحفظان ملتزم قرية مزبورة بحق ٥ ط عن التزامن ٢ط ونصف ط بمزبور بروجه مصالحه داده وقيد شده مزبورة ببيورلدى شريف حضرت وزير روشن ضمير صدر اعظم سابق مصطفى باشا محافظ محروسة مصر حالا. المؤرخ دربالاى قائمة مزاد الواقع فى ٢٣ ذى ١١٧٥ بأمر حضرت وزير دام إجلاله».

قريه مزبوره بحق ٢ ونصف ط قطعة

١ فى سنة التون. . .

بحساب باره	١٠٥٣	قديم
	١٢٧	مضاف
	٤٨	فرط
	٤٩	مضاف
	١٢٧٧	مجموع
	٥١	مضاف درسنه ١١٧٤
	١٣٢٨	شتوى

سنكة ملتزم مزبورة سن اشبويه يكه دير بلان تقسيط ديوان موجبنجة قرية مزبورة بحق ايكى قيراط مذكورك مصالحة سندن التزامكة دير يلوب كركوركه متصرف أولوب اوزركه اداسى لازم كان مال ميرى وقت وزما نيله ديوانه ادا وتسلم ايليوب ظلم وتعديدن بغايت احتراز اوزره اولاشن،

«خاتم الباشا»

تحرير ا في التاريخ المزبور ٢٣ ذى الحجة ١١٧٥

والشطر الاخير من التقسيط هو النصيحة التقليدية التى يوجهها الباشاللمتزمين وتعريبها.

«انث ايها الملتزم المذكور، انه بموجب هذا التقسيط الديوانى المعطى لك، قد أصبحت القرية المذكورة فى التزامك بحق قيراطين ونصف قيراط من مصلحة المذكور، فبناء عليه تصرف فيها، وعليك ان تؤدى وتسلم المال الميرى المفروض عليك فى وقته مع التحرز من الظلم والتعدى».

ب ـ محفظة رقم ١ ملف رقم ٢٨ وثيقة رقم ٥٠

«مقاطعة قرية منشأة دهشور بحق ٢ ط تابع ولايت جيزة در عهده احمد جلبى ولدش كه حالا بروجه التزام قيد شدة عن اول توت الواقع فى ١٩ جا (جمادى الاولى) سنة ١١٨٤ ادات شدة كى عن فراغ يوسف عبد الله تابع على ولدش ملتزم قرية مزبورة بحق ١٩ ط به حصة اسن بمزبور ٢ ط فراغت كرده وقيد شده برمودة ببيورلدى شريف حضرت على بك ميرلوا قائمقام محروسة مصر حالا المؤرخ دربالاى عرضحال فارغ المزبور الواقع فى ١٧ ذى (ربيع ثانى) سنة ١١٨٥.

بأمر حضرت قائمقام على بك دام عزه.

قرية مزبورة بحق ٢ ط قطعة ١

بحساب بارة	٤٨١٥	قديم
	٢٩٧	مضاف
	٩٢٦	فرط
	١٤٨	مضاف
	١٥٤	مضاف سابق
	١٦٠	« سنة ١١٧٤
	٤١٦٦	موقوف إلى زمان صيفى
	٦٥٦٦	مجموع

ويتلو ذلك النصيحة التقليدية السابقة مع زيادة نص «رعايا وبراياتك حفظ وحماية سيله مشغول ومقيد أولوب» أى «وأن تكون منشغلا ومقيدا بحفظ وحماية الرعايا والبرايا».

يتضح لنا من دراسة التقسيطين السابقين وهما مثلان من آلاف التقاسيط ما يأتى:

١ ـ ان على بك ابقى نظام الالتزام السابق لعصره دون أى تغيير.

٢ ـ وانه أجلى عناصر الحامية العثمانية عن ميدان التزام الاراضى الى درجة ما، ولم يعد يسمح بذلك إلا لمن والاه منهم

وتأكد من اخلاصه.

٣ ـ ان آخر «مضاف» على أراضى الالتزام كان فى سنة ١١٧٤ أى فى أول عصر على بك، ولم تزد عليه اية رسوم أخرى شرعية حتى نهاية عصره.

غير أن سياسة على بك فى جمع المال لم تكن قائمة على اساس اقتصادى عادل، فعندما كان يشعر بحاجته الى المال كما حدث ١٧٧٠ (١١٨٤ هـ) وقت تجهيز حملات الشام كان يتغلب على العقبة المالية باحدى الطرق الآتية:

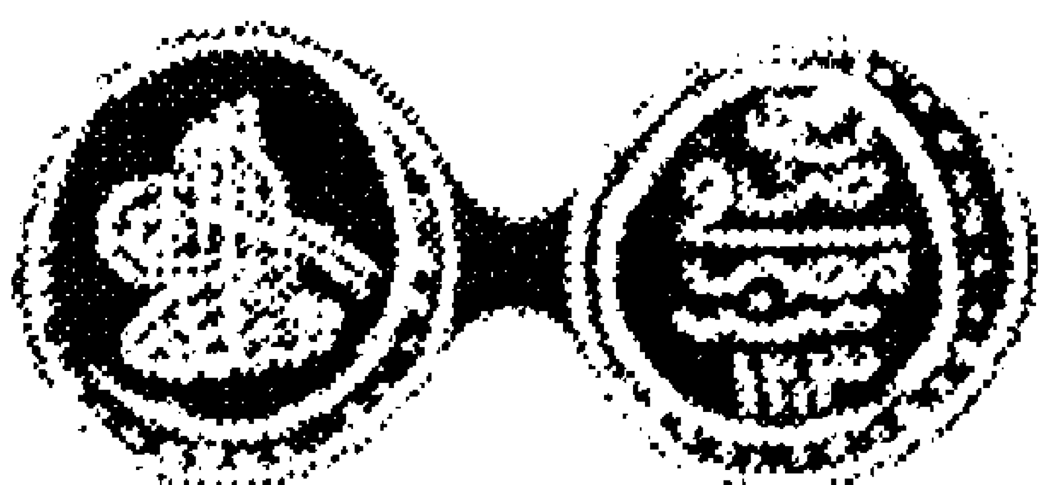
مصادرة أموال من يشك فى ثرائهم من غير مريديه، كما فعل فى تلك المناسبة فطلب حسن أغا تابع الوكيل والروزنامجي وباش قلفة واسماعيل أغا الزعيم وآخرين وصادرهم فى نحو اربعمائة كيس[١٠] .

ومنها فرض قدر من المال على أهل الذمة من اليهود والاقباط[١١]، وزيادة مقدار الضرائب على أفراد الشعب، فيخبرنا الجبرتى مثلا انه، عمل دراهم على القرى وعمل على كل بلد مائة ريال وثلاثة ريال حق طريق، ولم يبال بما لحق الناس من شدة جعلتهم يضجون بالشكوى، طالما كانت زيادة ضرائب مال الكشوفية تتبعها زيادة ميرى مال الكشوفية الذى يدفعه الكشاف للخزانة العامة[١٢]

ومنها أيضا انه كان يأمر المعلم رزق بسك عمله جديدة يوزعها على مماليكه.

هذا وينبغى أن نشير إلى عدم وجود تعارض بين فرض دراهم على القرى وبين عدم فرض مضافات جديدة، فالمضاف كان يفرض على الملتزم، وهذا يجبيه من الفلاحين فى كل موسم (الصيفى والشتوى) فهو عبء ثابت ليس له مبرر، وقد وضحنا أن على بك عدل عن هذا السبيل.

أما الدراهم التى كانت تفرض على القرى فكانت حسب الحاجة، فهى ليست دائمة، كما أنها كانت تفرض على جميع أهل القرية: فلاحين وتجارا ومن اليهم فيقل نصيب الفرد ويخف العبء. وقد فضل على بك هذا الامر على ذلك.



النقود المصرية والعملة الأجنبية المتداولة فى مصر:

استمر سك العملة فى دار ضرب النقود بالقلعة فى اثناء الاحتلال العثمانى، وكانت تسك اما من الذهب أو الفضة أو النحاس، فى سبائك غير خالصة وبفئات مختلفة.

أما النقود الذهبية فكانت المحبوب (أو السكوانى) وقيمته ١٨٠ نصف فضة واجزاؤه الزرمحبوب أو النصفية، ثم ربع المحبوب أو الربعية. والزنجيرلى وقيمته ٢٠٠ نصف فضة تقريبا، الفندقلى (او المجر المصرى) وقيمته ٢٥٠ نصف فضة تقريبا.

وكانت أقل النقود الفضية قيمة : البارة [١٣] (بالتركية ويسميها المصريون مصرية) مقدارها نصف فضة وهى الميدى (تحريف مؤيدى). ومضاعفاتها ذات الخمس بارات (يسميها الترك بشلك والمصريون خمساوية) وذات العشرة بارات (أو نلك) وذات الخمس عشرة بارة (أو نبشلك، بالتركية ويسميها المصريون نصف صلدى) والقطعة ذات العشرين بارة (يارم قرش بالتركية أو نصف قرش بالمصرية أو عشرينية) وذات الثلاثين بارة (وهى الصلدى). ثم القطعة ذات الاربعين بارة وهى القرش أو الأصلانى [١٤].

أما النقود النحاسية فهى أجزاء البارة مثل الجديد ويساوى ربع بارة والمقصوص ويساوى ٨ جدد والمرادى ويساوى ١٢ جديدا، والاخشا يساوى ١٦ جديدا.

ومنذ سنة ٩٢٣هـ الموافقة ١٥١٧م، وهذه النقود يجدد سكها كلما تولى عرش السلطنة سلطان جديد ، فتسك باسمه، ولما كانت دار الضرب تحت إشراف الباشا العثمانى، وهو الذى يصدر الاذن بسك العملة الجديدة سنحت الفرصة للجشعين من الباشوات بتزييفها، اما عن طريق غش السبيكة، أو عن طريق انقاص سمك القطعة ذاتها. وتكرر ذلك كثيرا لدرجة افقدت العملة ثقة الشعب المصرى، فكان يطمئن فى الصفقات الكبرى الى التعامل بالعملة الأجنبية المتداولة فى مصر اكثر من اطمئنانه الى العملة المحلية.

وكان أكثر هذه النقود تداولا سكوانى البندقية أو البندقى، دوقات المجر وهولندة (واشتهرت باسم بوكلب إشارة الى الاسد المنقوش عليها) وهى من الذهب، ثم العملة الاسبانية الفضية من جميع الفئات وخاصة التالير، وهى الريالات الاسبانية وواحدها ابو طاقة (باتاك).

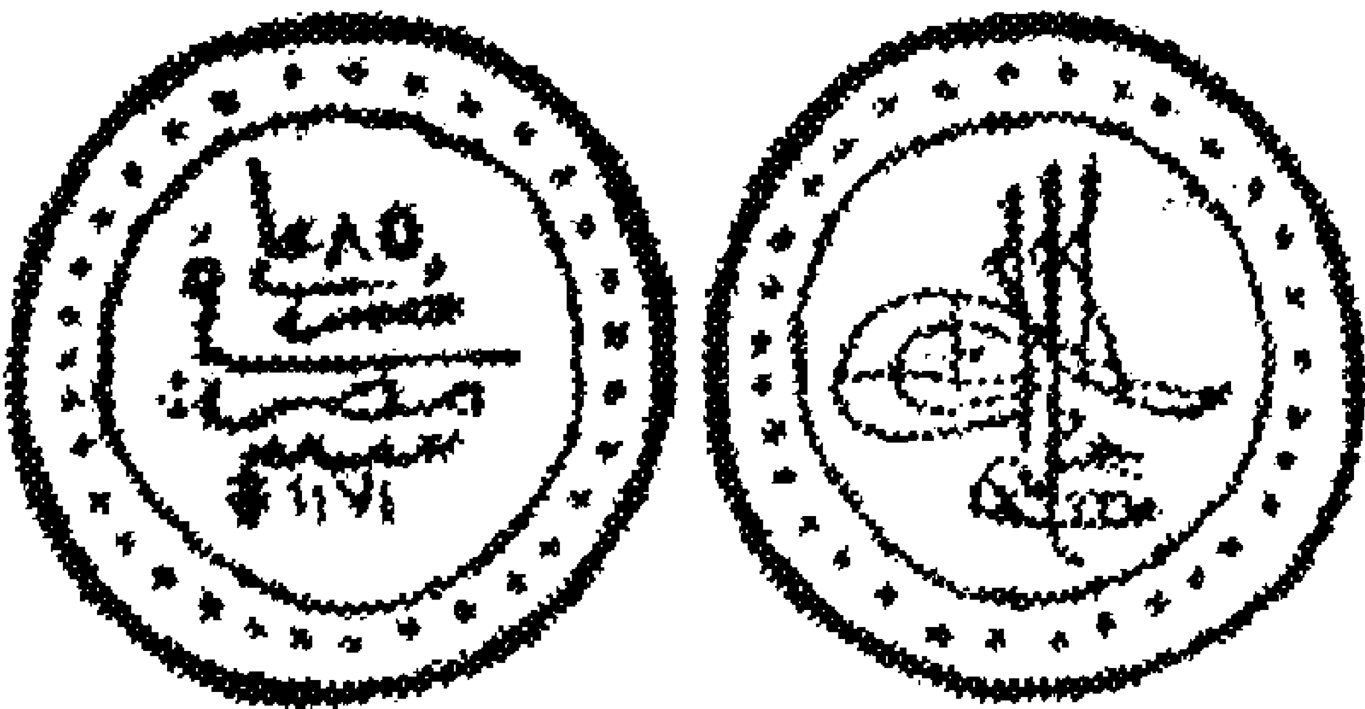
وكانت القيمة السائرة لهذه النقود فى مصر تتغير من وقت الى آخر، ولكنها على كل

حال كانت أزيد من قيمتها السائرة فى الخارج، وليس لدينا بيان عن قيمتها فى عهد على بك[١٥].

والتعديل الذى أحدثه على بك فى العملة المحلية تناول عيار سبيكتها ونقشها، فانه اراد أن يعيد الثقة إلى تلك العملة، فأعاد سك معظم القطع النحاسية (الجديد ومضاعفاته)، والفضية (البارة ومضاعفاتها) ـ وزاد عيار السبيكة بزيادة مقدار المعدن الاساسى فيها بمقدار الثلث تقريبا.

وعلى أحد وجهيها ابقى نقش اسم السلطان «سلطان محمد مصطفى بن أحمد خان عز نصره» بالطغراء أما الوجه الثانى فقد سجل عليه اسمه بطريقة بارعة مستخدما لذلك حرف الباء فى كلمة «ضرب» بدل حرف الياء الذى يشكل الحرف الأخير من اسمه فأصبحت تكتب هكذا ....

غير اننا نلاحظ أن السنة التى ضربت على قطع الفئات المختلفة كانت تختلف من فئة إلى أخرى: فمثلا على قطعة العشرينية (٢٠ بارة) نقش سنة ١١٨٣هـ (١٧٦٨م) سنة ضربها وهى السنة التى تولى فيها قائمقام ـ وبعد عامين أى فى سنة ١١٨٥هـ (١٧٧١م) اصدر قطعا من ذات الاربعين ميديا (القرش) ونقش عليها عام ١١٧١هـ على أنه عام



ضربها مع انه فى الواقع سنة تولى مصطفى الثالث عرش السلطنة، وفى الوقت نقش رقم ـ ٨٥ ـ اختصار سنة ١١٨٥ فوق كلمة ضرب [انظر الشكل اعلاه].

وهى السنة التى ضرب فيها تلك العملة.

والاضطراب الذى نلاحظه فى التاريخ المنقوش على العملة مرجعه الى الاضطراب الذى صادف على بك فى تحديد مركزه بازاء السلطان العثمانى .

ذكر الجبرتى ان النقود التى ضربها على بك

كانت «قروش مفرد ومجوز وقطع صغار تصرف بعشرة أنصاف وخمسة أنصاف ونصف قرش، وكان أكثرها نحاسا وعليها علامة على بك.

وقد ذكر أيضا فى حوادث سنة ١٢٣٥ هـ أن أول من أحدث ذلك النوع من القروش «على بك القازدغلى بعد الثمانين ومائة وألف، عندما استفحل امره واكثر من العساكر والغلمان واظهر العصيان على الدولة».

وعندما امر ابو الدهب فى سنة ١٧٧٢هـ (١١٨٦)، بعد فرار على بك، بابطال العملة المضروبة باسمه فقدت تلك العملة حوالى ٢٠٪ من قيمتها، انتهز التجار الأجانب تلك الفرصة فصار يجمعها بعضهم ويرسلها الى مرسيليا حيث كانوا يحولونها الى سبائك، وجنوا من وراء ذلك أرباحا طائلة»

اما دار ضرب النقود فى القلعة فقد جعلها على بك تحت اشراف المعلم رزق[١٦]. وكان يرمى من وراد ذلك إلى ثلاثة أغراض. أولها الحصول على الأرباح الناتجة من سك العملة، إذ كان صهر العملة الاجنبية وإعادة سكها انصاف فضة (بارات) يعطى ربحا صافيا ٣٠٪ ـ والغرض الثانى ضمان عيارها. اما الغرض الأخير فكان إبرازها فى نقش جديد يدل على معنى انفراده بالسلطة، وجعل دار الضرب تحت اشرافه مكنه من سك اى مبلغ يحتاجه منها.

السياسة المالية وإدارة الجمارك

العامل الأساسى الذى وجه على بك فى سياسته المالية كانت حاجته الملحة الى المال للصرف على الحرب والأعمال الداخلية من تجريدات وجوامك عمال الحكومة. أما اهم القواعد التى أقام عليها تلك سياسة كانت: الاستيلاء على عوائد الباشا وأوقاف الدولة والخزنة، ثم ترويج التجارة.

وكان أول ما بدأ على بك ان منع ارسال «الخزنة» السنوية الى الاستانة ابتداء من سنة ١٧٦٩ وفى خلال اعوام ١٧٧٠، ١٧٧٢، فحصل بذلك على مبالغ لا يستهان بها[١٧]. يعنى ذلك انه حصل على نحو ١٧٦٦ كيسا مصريا يساوى ٤٤,١٥٠,٠٠٠ باره بمتوسط ٤٤١,٥ كيسا فى السنة [١٨].

ثم وضع يده على موارد الباشا المالية من إيرادات وعوائد أخصها مال جمرك البهار وعوائد على دخل دواوين (جمارك) الاسكندرية ورشيد ودمياط وبولاق ومصر العتيقة، وعوائد امين البحرين وامين الخردة وحلوان التزام البلاد التى يتوفى عنها اصحابها. كما انه ادار دار الضرب لحسابه

مباشرة [١٩] وتنظر على أوقاف دار السعادة.

ولجأ على بك الى التشديد فى جمع الضرائب المقررة من ميرى وعوائد مختلفة ثم فرض بعض الرسوم الجديدة.

ومن بين الرسوم التى استحدثها على بك رسوم «دفن الموتى» تدفع عند ابواب المدافن.

ثم انه كان يضغط على الاغنياء عن طرق المصادرات او فرض المغارم، كما فعل مع يوسف ليفى معلم دواوين الاسكندرية (جمارك الاسكندرية ورشيد وابو قير) واسحق اليهودى معلم الديوان ببولاق. فقد قبض على الاخير وصادره فى ٤٠ ألف محبوب وضربه حتى مات. وكان يفرض على القبط واليهود عموما آلاف الريالات [٢٠].

ذكر الجبرتى انه صادر كثيرا من التجار وغيرهم وأنه «هو الذى ابتدع المصادرات وسلب الاموال من مبادئ ـ بدء ظهوره واقتدى به من بعده».

اما مع الاجانب فقد اتبع سياسة القروض الاجبارية، يردها احيانا ويحتفظ بها غالبا.

ثم أنا نلاحظ أن الدفتر دار وهو رئيس الديوان الدفترى، والرزنامجى رئيس ديوان الروزنامة، وهما رأس الإدارة المالية، لم يكن لهما من الشهرة او النفوذ فى عهد على بك قدر ما كان للمعلم رزق القبطى الذى شغل الى جانب على بك مركز المستشار المالى بفضل معلوماته المالية والفلكية.

اما إدارة الدواوين (الجمارك) فقد صادفت تغييرا هاما. كان بمصر أربعة منها، وهى جمرك الاسكندرية ويتبعه جمركا رشيد وابو قير للتجارة القادمة من اوروبا وجمرك دمياط للتجارة الآتية من الشام، وجمرك بولاق للبضائع ، الآتية من الوجه البحرى ويتبعه جمرك مصر العتيقة للبضائع الواردة من الصعيد، والرابع جمرك البهار (شرقى القاهرة فى طريق السويس) للتجارة الواردة عن طريق البحر الأحمر. وكان إيراد الجمارك الثلاثة الأولى يعطى «موجبات» لفرقة اليكيجرية اما إيراد جمرك البهار فكان من حق الباشا، كما كانت رسوم الدواوين تباع عن طريق ديوان الروزنامة الى الملتزمين، وهؤلاء يعهدون بادارة كل منها الى مدير باسم «جمركى أو امين الجمرك أو معلم الديوان».

والتغيير الذى أحدثه على بك كان فى الفئة التى تتولى إدارة الجمارك إذا كان هؤلاء من اليهود ثبتت أقدامهم فى تلك المراكز بما اكتسبوه من خبرة بمضى الزمن، ولكنهم تغالوا فى فرض رسوم غير محتملة على التجار الاجانب انفردوا بها لحسابهم الخاص ولما كانت سياسة على بك المالية تقوم من

ناحية على ترويج التجارة، فقد قبض على معلم دواوين الاسكندرية يوسف ليفى، ومعلم دواوين بولاق اسحق اليهودى وصادر اموالهما وأعد مهما وعزل بقية معلمى الدواوين من اليهود، وعهد بالأشراف على ادارتها الى رجال من السوريين المسيحيين الكاثوليك، ولعل هذا رابع الى اصوله الكاثوليكية. وكان السوريون قد تسرب بعضهم بالهجرة الى مصر يزاولون التجارة بعد ان شجعهم حزم على بك وعدله وتسامحه الدينى.

وكان اول هؤلاء السوريين من معلمى الجمارك «المعلم ميخائيل فرحات ثم المعلم ميخائيل الجمل ثم المعلم يوسف بيطار.

وقد سمح هذا المركز للسوريين، الذين جاءوا الى مصر قليلين ضعفاء أن يتمكنوا منها فى وقت قصير ويتخذوا لهم فيها مركزا محترما عاليا. وتكاثروا حتى بلغ عددهم فى أواخر حكم على بك فى القاهرة وحدها نحو ثلاثة الاف شخص.

ثم توسعوا فى التجارة الداخلية وبعض فروع التجارة الخارجية «واستقلوا بها ولم تستطع الجالية الافرنجية مع ما كان لها من النفوذ، ولا اليهودية مع ما كان لها من الدهاء ان تستردها منهم..» وهكذا نجد بواكير الهجرات السورية الى مصر فى عهد على بك الكبير وبتشجيعه.

ويغلب على الظن ان على بك لم يتبع سياسة الالتزام فيما يختص بالجمارك بل ادارها لحسابه هو فحصل بذلك على مالا يقل عن ثلاثة وعشرين مليونا من البارات كل سنة (وقد رأينا أن نذكر فيما يلى ثلاثة امثلة لالتزام الجمارك مستخرجة من السجلات الرسمية لذلك العهد.

(أ) الأول فى سنة ١١٧٥ أى فى عهد على بك بشياخة البلد.

(ب) والثانى سنة ١١٨١ (١٧٦٧) قبيل انفراده بالحكم.

(جـ) والثالث سنة ١١٨٥ (١٧٧١) فى أواخر عهده

وقد استخرجناها من الدفاتر الثلاث الاتية على التوالى:

(أ) دفتر اصول اسكلها ومقاطعات مع مضاف جديد واجب سنة ١١٧٥ تابع قلم شهر رقم ٣٠/٢٥.

(ب) دفتر يتضمن مال إيرادات الجمارك يخص المحاسبة سنة ١١٨١ رقم ٣٠/٣٤.

(جـ) دفتر عن ايرادات مال الجمارك سنة ١١٨٥ رقم ٣٠/٤٥.

١ ـ مقاطعة اسكلهاء اسكندرية ورشيد وتوابعها مع تعريف مراكب ورسم جلود

بقرى وجاموس بندر رشيد.

(أ) أى عن سنة ١١٧٥ در عهده (اى فى عهده) مصطفى كتخدا مستحفظان ملتزم بود (بنفسه).

٥,٤٠٥,٧٠٥ بارة

(ب) اى عن سنة ١١٨١ - در عهده (لم يذكر)

٥,٤٠٤,٦٦٨ بارة

(جـ) اى عن سنة ١١٨٥ - در عهده (لم يذكر)

٥,٤٠٤,٦٦٨ بارة

٢ ـ مقاطعة اسكله بولاق ومصر قديم وتوابعها.

(أ) در عهده مصطفى كتخدا مستحفظان باش اختيار ملتزم بود

٣,٥١٦,٣١٦ بارة.

(ب) در عهده مصطفى كتخدا (لم يذكر)

٣,٥١٩,٤٣٦ بارة

(جـ) در عهده مصطفى كتخدا (لم يذكر)

١,٥٦٤,٥٣٠ بارة

٣ ـ مقاطعة اسكله ذمياط وتوابعها

(أ) در عهده مصطفى كتخدا باش اختيار مستحفظان ملتزم بود

١,٥٠٤,٣٥٦ بارة

(ب) در عهده مصطفى كتخدا باش (لم يذكر)

١,٥٦٤,٥٣٠ بارة

(جـ) در عهده مصطفى كتخدا باش (لم يذكر)

١,٥٦٤,٥٣٠ بارة.

٤ ـ مقاطعة اسكله برلس

١ ـ در عهده محمد وسليمان عبد الله تابعا اسماعيل ١٢ ط وعبد الله تابع عبد الله جوربجى مستحفظان ٦ط ومحمد سعيد تابع عبدالله ٣ ط ومحمد بدوى تابع عبد الله ٣ط ملتزمين بود

١٣٨,٣٨٣ بارة

(ب) در عهده مصطفى عبدالله تابع محمد ٨ ط ومحرم عبد الله تابع محمد ٤ ط وعثمان عبد الله تابع محمد ٨ ط ونعمان محمد تابع محمد ٤ ط

٤١٢,١٤١ بارة

(جـ) در عهده ... (لم يذكر)

٤١,٤٤١ بارة

٥ ـ مقاطعة عشور اصناف بهار وتوابعها، وسمسارية بهار وتوابعها، مع مقاطعة قصير.

(أ) در عهده دستور مكرم مشير مفخم حضرة وزير مصطفى باشا

٤٤٢,٩٢٤١ بارة سنويا.

(ب) در عهده دستور مكرم مشير مفخم حضرة وزير افخم محمد باشا

محافظ مصر حالا.

(جـ) در عهده .... (لم يذكر) محافظ مصر حالا.

٦ ـ مقاطعة سمسارية بحرين وتوابعها مع مقاطعة بحرين وتعريف مراكب وسمسارية بذر قرطم وغيره.

(أ) در عهده حسن كتخدا عزبان باش اختيار مشهدى ٦٣٤,٤٣٢ بارة

(ب) در عهده ..... (لم يذكر) ٨٣٧,٣٠٠٠ بارة

(جـ) در عهده ... (لم يذكر) ٨٣٧,٣٠٠ بارة

٧ ـ مقاطعة خردة وتوابعها مع بيت المال عام تاج بازاراسب (أى سوق بيع الخيل).

(أ) در عهده حسن كتخدا باش اختيار عزبان مشهدى

٦٨١,٦٣٧ بارة

(ب) در عهده .... (لم يذكر)

٦٨١,٦٣٧ بارة

(جـ) در عهده .... (لم يذكر)

٦٨١,٦٣٧ بارة

٨ ـ مقاطعة كيالة أورز بياض در دمياط.

(وردت فقط بدفتر سنة ١١٨٥ رقم ٣٠/٤٤) در عهده مصطفى نام عزبان ٢ط وعلى نام ٢ ط واسماعيل عبد الله تابع كاتب يك ط وبلال أغا عبد الله يك ط وعبد الله جلبى ولدش ٢ط وعلى عبد الله تابع حاج على سقا يك ط وأحمد حسن ٤ط وبشير عبدالله تابع محمد شراقوه أحمد ٢ ط وكورجى تابع أحمد ٢ ط والياس أغا تابع ابراهيم عبد الله اباظة ٢ط وسليمن عبد الله شراقوه عزبان تابع على بك مير الحاج سابقا ٣ط وبلال اغا تابع عثمان ٢ ط،

١٥٤,٤٩٠ بارة سنويا.

٩ ـ مقاطعة حمام خاصة دراندرون (معسكر) قلعة مصر.

(أ) در عهده عبد الحليم أحمد ط٧ وسيد أحمد ط ٣ وعلى بن عبد الله تابع سليمان جلبى ط ٧ وحسن جلبى يروجه اشتراك ٤ط وثلثاى ط ومحمد محمد جاوشان قافطنجى ٢ط وثلث ط ملتزمين بود

١٢,٦٨٥ بارة سنويا.

(ب) در عهده عبد الحليم احمد ٧ط وسيد أحمد محمد ٣ط وحسن جلبى ٢ ط وثلث ط ومحمد محمد جاوشان

قـافطنجي ٢ط وثلث ط وعـمـر ولد ش وأحـمـد ولدش على بروجه اشـتـراك ٧ط ومـحــمـد ولد ش وحـسين جلبى ٢ ط وثلث ط ١٢,٦٨٥ بارة.

(جـ) در عـهـده مـحـمـد مـحـمـد جـاوشـان قـافطنجي وجـوهر اغـا تابع مـحـمـد جوربجـي تفنكجيان نجـده لـي

١٢,٦٥٤ بارة.

١٠ ـ مقاطعة بحيرة سمك دربندر دمياط.

(أ) در عـهـده مـحـمـد أغـا أغـاء قلعـة دميـاط ٤٤,٧٨٣ بارة.

(ب) در عهدة عثمان أغا أغاء قلعة دمياط

٤٤,٧٨٣ بارة

(جـ) در عـهــده .... (لم يذكـر)

٤٤,٧٨٣ بارة.

١١ ـ مقاطعة محصول مال احتساب نفس محروسة مصر.

(أ) در عـهـده مـحـمـد أغـا امين احـتسـاب

١٩٧,٩٧٣ بارة.

(ب) در عـهـده اسماعيل اغـا أغاء جـاوشـان امين احتساب ١٩٧,٩٧٣ بارة .

(جـ) در عــهــده ... (لم يذكـر)

١٩٧,٩٧٣ بارة .

١٢ ـ مـقـاطعـة مـال حـماية اورزمـيـرى عن جانب امين دمياط وملتزمين فارسكور .

(أ) در عـهـده خليل بك مـيـراللوا قـازدغلي دفتردار مصر حالا ٥٤٠٨٠.بارة .

(ب) در عهده شيخ عبد الله ١٠٤٠ بارة

(جـ) در عهده ..(لم يذكر) ١٠٤٠ بارة.

١٣ ـ مقـاطعـة مـال حـمـاية كـتـابت كـمرك اسكلها بولاق:

(أ) در عــهــده اســحق ويوسف باشكاتب ملتزمين ١٠٤٠ بارة سنويا.

(ب) در عهده اسحــق ويوسـف باشكاتـب ملتزمين ١٠٤٠ بارة سنويا.

(جـ) در عهده .. (لم يذكر) ١٠٤٠ بارة سنويا.

١٤ ـ مقاطعة مباشرت كتابت عشور أصناف بهار

(أ) در عهده قاضي موسى محمد يوسف التزام

٤٠٥,٦٠٢ بارة سنويا.

(ب) در عـهـده علي نام ولد ش ٦ط وحـسن مـوسى ولد ش ٦ط وعـبـده مـصطفى ومـصطفي دياب نكدلي ويوسف باقـر وحسن محرم بروجه اشتراك

٤٠٥,٦٠٣ بارة سنويا.

(جـ) در عهده ..... (لم يذكر)

٣٠٥,٦٠٣ بارة سنويا.

ومـايمكن استـخـلاصـه من هذه السـجـلات يتناول مـوضـوعـات كـثيـرة. اما مـا يخص

الجمارك منها فهو ما يلاحظ من عدم وجود ملتزمين لسنة ١١٨٥، ومعنى ذلك أن على بك أدار الجمارك لحسابه الخاص واستوالى على اموالها فحصل على ما يزيد على ثلاثة وعشرين مليونا من البارات سنويا ابتداء من سنة ١١٨٢ (١٧٦٨). ويدخل في ذلك ايضا حرمان اوجاقات الحامية من اهم موارد ثروتهم ونفوذهم بمعنهم من التزام الجمارك كما حرم على العناصر غير المرغوب فيها منهم التزام الاراضى من قبل.

هذا ولا تفوتنا ملاحظة هامة وهي ان (مقاطعة مال حماية كتابت كمرك اسكلها بولاق) كانت لليهود حتى نكل بهم على بك واستبدل بهم المسيحيين من السوريين، وبذا جاء حساب سنة ١١٨٥ خلوا منهم كما هو مبين بالثبت السابق.

كما نلاحظ أن على بك كان يدفع باتباعه الى نواحي النشاط الحكومي المختلفة كما حدث عند اشراك تابعه سليمان عبد الله شراقوه عزبان فى التزام مقاطعة كيالة اورزبياض بندر دمياط وباشراكه فى اوجاق عزبان ايضا، وكما فعل فى اول عهده بداود اليهودى وهو من خدامه اذا استصدر فرمانا من الباشا بتعيينه كاتبا بالضربخانة، وذلك قبل طرده اليهود من الجمارك[٢١].

الجيش

والتغير الذى احدثه على بك فى الهيئة الحربية كان تغييرا طفيفا، ولكنه لم يعد يعتمد اعتمادا كبيرا على الأوجاقات العثمانية كهيئة حربية ابتداء من سنة (١٧٦٩ = ١١٨٣هـ). وقد اشرنا من قبل الى انه فى سبيل تدعيم مركزه أراد أن يقضى على نفوذ الأوجاقات العثمانية، حتى يأمن جانبها ويقبض بذلك على عصب الديوان. واتبع فى سبيل ذلك عدة طرق كان أخصها اهلاك بعضهم فى الحروب الداخلية كما فعل عندما وجه الفرق لقتال كشكش بك قرب سمنود،و منها نفى كبار ضباطها ومصادرة اموال غيرهم أو اعدامهم، ومنها ايضا منع العناصر غير المرغوب فيها من بين ضباطها من التزام الأراضى. ولما كان معظم رجالها من التجار مستغلين انتمائهم لها، ولما كان استقرار الامن وسيادة العدل فى عصر على بك يحولان دون تحقيق تلك الأغراض غير الشرعية فقد انفصل عن الفرق معظم رجالها[٢٢].

ونحن إذا نقرر هنا أن على بك اتبع مختلف الأساليب لإضعاف الحامية العثمانية، لا يمكننا أن نجزم بأنها ألغت أو حلت فى عهده كما

يدعى المؤرخون فان وثائق العصر تدلنا على انه، وان لم تكن الأوجاقات فى عهده هيئات قوية منظمة، فانها كانت موجودة على كل حال. وقد ثبت لنا من دراسة دفاتر الجراية والعليق سنة ١١٧٤» ان اغوات فرق الكوكلويان والتفنكجيان والجراكسة والمستحفظان والعزبان كانوا يتقاضون جراية وعليقا على النحو الآتى[٢٣] :

«جماعت أغايان ٥ بلوك»

١ ـ أغاء كوكللويان ح ١٣ ط ١٤ ـ ش اردب ٢٩ ط ٢١ (أى ١٣ اردب حنطة و ١٤ قيراط ٢٩ اردب شعير و٢١ قيراطا)

٢ ـ أغاء تفنكجيان ح ١٣ ط ١٤ ش اردب ٢٩ ط ٢١

٣ ـ أغاء جراكسة ح٨ ش اردب ١٢

٤ ـ اغاء مستحفظان ح ٨ ش اردب ١٢

٥ ـ اغاء عزبان ح١٠ ش اردب ١٠ـ كل ثلاثة شهور

ثم أن دفاتر «مرتبات دباغ خانة لسنة ١١٨٥ تشير الى وجود فرقة جاوشان ومرتباتها وجرايتها على النحو الآتى[٢٤].

«مسموح مرتب خانة جاوشان»

فى يوم عدد ٦ فية باره ٣٢٠

فى شهر بارة ٩٦٠٠

فى سنة بارة ١١٥٢٠٠

جلود عدد ١٨٠ منها جاموس ١٣٥ عددها ٤٥ عددها ٤٥ اسقاط ١٨٠. كما أن دفاتر الجراية والعليق لسنة ١١٨٦ هـ (١٧٧٢) تشير إلى وجود امراء الجراكسة وفرقة عزبان[٢٥].

هذا وقد عثرنا على دفاتر مرتبات عساكر القلاع كاملة فى العصر السابق لعلى بك وفي أثناد عصره. وبالمقارنة بينهما وجدنا أن على بك ترك كل شيء على مما كان عليه، فلم يغير فى عدد الحراس أو اشخاصهم أو رواتبهم أو نظام دفع تلك الرواتب.

كما انه لم يزد عدد القلاع. وهذا لا يتعارض مع قول الجبرتى بانه حصنها وخاصة قلعتى الاسكندرية ودمياط.

والاختلاف الوحيد الذى لاحظناه يعنى تعديلا هاما مقصودا وهو احلال حامية من المستحفظان محل حامية العزبان التى كانت مختصة بحراسة ترسانة اسكندرية وقد نص فى الدفتر على ذلك التغيير نصا صريحا. وهذا يعنى بلا شك وثوق على بك باوجاق مستحفظان وشكه فى اخلاص العزبان.

وفيما يلى ثبت بهذه القلاع وعدد حراسها

ومرتباتهم في عامى ١١٨١ هـ نقلا عن «دفتر مرتبات مردان القلاع التابعة لمحروسة مصر ١١٧١ رقم ١١٦ /٥٥ مخزن تركى» .. وفي عام ١١٨٥ نقلا عن «دفتر ارقام قلاع در توابع محروسة مصر واجب ١١٨٥ رقم ٥٥/١٣٢ تركى».

١ ـ قلعة اسكندرية

	سنة	العدد	المرتبات اليومى	
(أ)	١١٨١	٤٥٤	١٩٩٨	عثمانى
(ب)	١١٨٥	٤٥٥	١٩٩٦	عثمانى

٢ ـ جماعة ترسان عزبان اسكندرية ومتفرقة ترسانة عزبان

	سنة	العدد	المرتب السنوى	
(أ)	١٨ ٨١	٣٣٣	١٦٥٨	عثمانى نقرة

(ب) جماعة ترسانة مستحفظان اسكندرية امد عن عزبان (أى بدلا من عزبان)

١١٨٥	١٣٨	١٤٨٤	نقرة

العثمانى = ١/٢ بارة، النقرة = ١/٢ عثمانى

٣ ـ جماعة مردان قلعة برج مصطفى باشا.

	السنة	العدد	المرتب السنوى	
(أ)	١١٨١	٩٧	٢٧١	عثمانى
(ب)	١١٨٥	٩٧	٢٧١	عثمانى

٤ ـ جماعة مردان قلعة ركن اسكندرية

(أ)	٢١٦	٧٤٤	عثمانى
(ب)	٢١٧	٧٤٤	عثمانى

٥ ـ جماعة مردان قلعة ابو قير

(أ)	١٤٣	٦٤٩	عثمانى
(ب)	١٤٣	٦٤٩	عثمانى

٦ ـ جماعة مردان قعلة رشيد

(أ)	٢٠٣	٤٤٥	عثمانى
(ب)	٢٠٥	٤٤٥	عثمانى

٧ ـ جماعت مردان قلعة صارى أحمد

(أ)	١٢١	٣٠٣	عثمانى
(ب)	١٢١	٣٠٢	عثمانى

٨ ـ جماعة مردان قلعة البرلس

(أ)	٢٠٠	٤٥٩	عثمانى
(ب)	١٢١	٤٥٩	عثمانى

٩ ـ جماع مردان قلعة دمياط:

(أ)	١١٨١	١٠٩	٤٢٠	عثمانى
(ب)	١١٨٥	١٠٩	٣٢٠	عثمانى

١٠ ـ جماعت مردان قلعة عبد الصمد:

(أ)	٨٢	٣٧٤	عثمانى
(ب)	٨١	٣٨٤	عثمانى

١١ ـ جماع مردان قلعة التينة:

	العدد	المرتب اليومى	
(أ)	١٢٢	٤٥٠	عثمانى
(ب)	١٢٢	٤٥٠	عثمانى

١٢ ـ جماعة مردان قلعة عريش:

(أ)	١٦٥	١١٤٠	عثمانى

(ب)	١٦٣	١١٤٠	عثمانى

١٣ ـ جماعات مردان خان يونس (فى الطريق إلى الشام)

(أ)	١٤٣	١٣٨٠	عثمانى
(ب)	١٣٩	١٢٧٠	عثمانى

١٤ ـ جماعت مردان قلعة قرين:

(أ)	٣٥	١٤٧	عثمانى
(ب)	٣٥	١٤٧	عثمانى

١٥ ـ جماعة مردان قلعة عجرود (فى الطريق بين القاهرة والسويس)

(أ)	٥١	١٣١	عثمانى
(ب)	٥٦	١٣١	عثمانى

١٦ ـ جماعت مردان قلعة السويس:

(أ)	١١٨١	٥٣	١٧٠	عثمانى
(ب)	١١٨٥	٥٣	١٧٠	عثمانى

١٧ ـ جماعت مردان قلعة طور مبارك:

(أ)	٢١	١٤٣	عثمانى
(ب)	٢١	١٤٣	عثمانى

١٨ ـ جماعت مردان قلعة مويلح:

(أ)	٥٤	٣٢٨	عثمانى
(ب)	٥٤	٣٢٩	عثمانى

١٩ ـ جماعت مردان قلعة قصير الشامي:

(أ)	٦٧	٦٠٢	عثمانى
(ب)	٦٧	٦٠٢	عثمانى

٢٠ ـ جماعت مردان قلعة اسوان:

(أ)	٨٨	٧٨٣	عثمانى
(ب)	٨٨	٧٨٣	عثمانى

٢١ ـ جماعت مردان قلعت ابريم:

(أ)	٥٥	٣٨٥	عثمانى
(ب)	٥٦	٣٨٥	عثمانى

٢٢ ـ جماعت مردان قلعة ساى (فى الطريق بين قنا والقصير)

(أ)	٩١	٦٧٢	عثمانى
(ب)	٩٣	٦٧٢٣	عثمانى

وفى نفس الوقت كان على بك يكون جيشا كبيرا يعده لحركات الداخل ضد المنافسين والاعراب. ولمشروعات الخارج من فتوح وامدادات.

وقد كون جيشه الجديد من قسمين : الاول قوامه الفرق المملوكية الراكبة، عدتها حوالى ستة آلاف مملوك مدرب عدا تابعيهم من الخدم وغيرهم للتشهيل وخدمة الخيول. اما القسم الثانى فكان من المرتزقة منقسم الى فرق متجانسة: منهم الاتراك والشوام والمغاربة والمتاولة والدروز والعرب الحضارمة والعرب اليمانية والاحباش والدلاة، ولا يقلون فى مجموعهم عن الاثنى عشر الفا.

اما السلاح فكان لا يتعدى السيف، والغدارة «القرابينة» والرماح مع بعض البنادق العتيقة الطراز، ومدافع الحصار الصغيرة الحجم.

واما عن حركة تسيير الجيوش وإدارة دفة المعركة فلم تكن تتسم بشيء كثير من النظام. ولكن نظام التموين الحربى كان وافيا بالغرض منه. ويظهر ان على بك وحد زى مماليكه، فقد كتب الجبرتي يقول ان على بك البس سراجينه قواويق فتلى (بالفاء) من جوخ اصفر تمييزا لهم عن غيرهم من سراجين امرائه.
ورغم ماتقدم فانا نلمس فى عهد على بك اتجاها جديدا فى الفن الحربى المصرى هو الاهتمام بفنون الحصار والمدفعية وخاصة مدافع الحصار، كما تبينت اهمية الاسطول البحرى فى العمليات المشتركة بين البر والبحر. يظهر ذلك فى حصار يافا ، كما يظهر فى رغبة على بك فى التحالف مع روسيا والحاحه فى طلب مدافع الحصار وضباط اكفاء لاستعمالها، مما سيكون له اثر ينمو على طول الزمن فى العصور التالية.

حملة علي بك الكبير علي الحجاز

منذ ان استقر الحكم العثمانى بمصر، وامارة مكة تعانى تنافسا ليس له نظير ولم يكن ذلك راجعا فقط الى ما اشتهر به العرب من حب التنافس على الرياسة، ولكنه يرجع ايضا الى ما صادفه اولئك المتنافسون من تشجيع اصحاب السلطان فى الخارج، اذ كانت امور مكة دوما موضع تدخل حكام مصر والشام واليمن، وفيها كان يتصادم نفوذ اولئك جميعا. فكان لكل منهم منافس يناصره فى توليه الشرافة ، وربما كان من بين الاسباب التى جعلت كلا من الشام واليمن يحقدان على مصر انفرادها بارسال المحمل السنوى.
وفى رأينا ان المنازعات المحلية بين الاشراف بمكة كانت تمثل فى الواقع تنافسا خارجيا بين مصر والشام واليمن. وقد تعودت مصر ان يكون لها الفوز فى تلك الحلبة، ساعدها على ذلك عدة عوامل لا يصح اغفالها جعلت لها مركزا ممتازا لا يضاهيه مركز بلد حتى الآن.
فاذا قدرنا اهمية سعى آلاف الحجاج المصريين الى مكة كل عام مع المحمل المصرى، يبذلون المال والزاد لاهل الحرمين، وجلهم من الفقراء، ومئات الحجيج من بلاد المغرب وغيرها الذين يصطحبون الحجاج المصريين لمكة فى موسم الحج، لتبين لنا اهمية مركز مصر هناك. اذ ان الحجاج ، لمكة خصوصا والحجاز عموما ، كالغيث للأرض المنزرعة وقد غاض عنها الماء فهم حياة أهلها وداعية النشاط والرخاء فيها ومصر بما لها من ثروة، وما بها من خير كانت اقدر من غيرها على التأثير فى حياة

الحجاز الاقتصادية.

ورغم مئات الاميال العديدة التي تفصل القاهرة عن مكة نجد ان الحاجز الوحيد الذى يفصل بين القطر المصرى وبلاد الحجاز لا يتعدى البحر الاحمر الضيق، الذى لم يكن في ذلك الوقت سوى بحيرة ضيقة المخرج من جهة الجنوب. لذا كانت كل موجه من احداث الحجاز السياسية يتردد صداها في مصر، ويظهر مداها في ولاية مكة. ولم يكن يستنكف الشريف منهم ان يفر الى صاحب النفوذ بمصر يسأله العون لاسترجاع الشرافة او اغتصابها من صاحبها.

ولما كانت الدولة العثمانية، وهي صاحبة السيادة الشرعية على البلاد، في حال لا تسمح لها بالتدخل في امور شرافة مكة، لكثرة ما بلغ بها التدهور من ضعف والاضمحلال من عجز، فقد كان والي الشام يناصر قضيتها هناك ضد تدخل بكوات مصر، الذين كانوا قد استبدوا بالسلطة ، وراحو يتدخلون في شئون مكة اعتمادا على انهم اقرب اليها من السلطان العثماني واكثر اتصالا بها منه وتهمهم احوالها لما بين البلدين من علاقات قديمة لا يمكن فصمها.

وما كان السلطان، رغم ما به من وهن، ليحفل بالاحتفاظ بتلك الجها الفقيرة السحيقة لولا انها حافلة باغنى الذكريات الدينية، ولا سيم اشتمالها على الحرمين الشريفين الذين كان يفخر بحمايتهما ، ويتخذ من ذلك ذريعة للاحتفاظ بما في سلطنته من ولايات إسلامية.

كانت النزعات بين اشراف مكة قد انتهت بهروب الشريف عبد الله الى مصر طالبا المساعدة من علي بك فاتخذ تلك الحادثة سببا مباشرا للحملة التى كان غرضها الظاهرى مساعدة الشريف عبد الله. بينما كان غرضه الحقيقى منها تعيين شريف لمكة يخلص لمصلحته، ويضمن بطاعته ولاء ذلك الجزء الهام من العالم الاسلامى . إذا ان وجود شريف فى مكة من صنائع الدولة العثمانية كان مثارا لمتاعب جمة قد تؤدى الى فساد امر الحج، وسخط الحجاج من مصر والشرق، وتضعف من مركزه فى مصر اذا اقترن وجوده في الحكم بتلك المتاعب. فتعيين شريف من صنائعه كان عاملا اساسيا فى مصر أساسيا فى نظره يضمن به هدوء الأحوال ويدخل في أغراضه ايضا الشهرة التى يحوزها بحمايته للحرمين الشريفين وما كان سيفيده من نفوذ فى مصر، وهيبة فى بلاد المغرب والسودان وبلاد الشام وما يليها بتأمين الحج للمسلمين.

ولم تكن تلك الاطماع السياسية غايته

الوحيدة، بل كان يرمى من وراء ذلك كله الى مشروع اقتصادى خطير شجعه عليه التاجر البندقى «كارلو روستى» ، وهو ان يؤمن الشواطئ الشرقية للبحر الاحمر فيصبح فى قبضته ممرا امين لتجارة الشرق فى طريقها الى مصر، ثم يجعل من جدة ، الميناء التجارى ذات الشهرة الواسعة حينئذ، مستودعا وسطا لتجارة الهند والشرق الأقصى يساعد ميناء السويس التى كانت ستقوم فى هذا المشروع بتجارة المرور ويتبع ذلك اضعاف الاقبال على استعمال الطريق الذى استحدثه فاسكو داجاما واحدث انقلابا خطيرا فى طرق النقل البحرى بين الشرق والغرب، وأثرا تأثيرا سيئا فى المالية المصرية. ولعل اكبر دليل على صدق ما ذهبنا اليه ان الحملة المصرية بعد ان امنت طريق الحج واقامت االشريف عبد الله الموالى لعلى بك جلت عن الحجاز جميعه، ولم تحتفظ سوى بحكم جدة حيث عينت حسن بك الجداوى صنجقا، وابقت معه حامية صغيرة، كما اهتمت بتنظيم الجمرك كما سنذكر ذلك فى موضعه.

ذكر الجبرتى فى معرض الكلام عن حوادث سنة ١١٨٤هـ ١٧٦٩م رواية تحتاج الى تصحيح قال «فيها (أى فى ١١٨٤هـ) ورد على على بك الشريف عبد الله من اشراف مكة وكان من امره انه وقع بينه وبين ابن عمه الشريف احمد اخى الشريف مساعد منازعة فى امارة مكة بعد وفاة الشريف مساعد فتغلب عليه الشريف احمد واستقل بالامارة وخرج الشريف عبد الله هاربا وذهب الى ملك الروم واستنجد به فكتب له مكاتبات لعلى بك بالمعونة والوصية والقيام معه وحضر الى مصر بتلك المكاتبات فى السنة الماضية...»

وإيراد المسألة على تلك الصورة يحتمل اخطاء تاريخية: أولها انه جعل وفاة الشريف مساعد فى ١١٨٣ والواقع ان الشريف مساعد توفى فى يوم الاربعاء لثلاث بقين من شهر المحرم سنة اربع وثمانية ومائة والف وكانت ولايته تسع عشر سنة الا ثلاثة اشهر»[٢٧].

ثم عاد فذكر انه وقع بين الشريف عبد الله وابن عمه الشريف احمد اخى الشريف مساعد منازعة فى امارة مكة بعد وفاة الشريف مساعد، فاستنجد عبد الله بملك الروم الذى اوصى به على بك.

وهذه الرواية تحتمل غموضا يؤدى الى الخطأ، فقد وقع تنافس حقا على امارة مكة بين الشريفين احمد وعبد الله ولكنه ليس عبدالله الذى يقصده فان هذا تولى الشرافة فعلا ولم يحضر الى مصر، وانما الذى استعان بعلى بك هو ابن عمه عبد الله بن حسن من آل بركات.

ومجمل ما حدث انه بعد عودة المحمل المصرى صحبة ابى الذهب عام ١١٨٣ هـ ثم انتصار الشريف مساعد على عبد الله بن حسن ففر هذا عقب الصلح الى على بك يستنجده للمرة الثانية. وبينما كان على بك يعد الحملة توفى الشريف مساعد قبل وصول الحملة المصرية الى بلاد العرب فى المحرم ١١٨٤هـ (١٧٦٩م). وكان قد عقد البيعة لأخيه الشريف عبد الله بن سعيد. فما كاد عبد الله هذا يتولى الشرافة حتى نازعه اخوه الشرف احمد بن سعيد. فنزل له عن الشرافة وقلده اياها ١١٨٤، وهكذا قدر ان تأتى الحملة المصرية لخلع الشريف مساعد فلا تجده فتضطر فيما بعد الى خلع الشريف احمد.

وقد انفرد الجبرتى بذكره ان الشريف عبد الله استنجد بملك الروم فكتب له مكاتبات لعلى بك بالمعونة والوصية والقيام معه.

تجهيز الحملة المصرية:

اهتم على بك اهتماما خاصا بتجهيز الحملة فاتم استعدادها، ووفر لها ما تحتاجه من ذخيرة وعتاد ومؤن. يقول الجبرتى فى ذلك «واستكتب اصناف العساكر، اتراكا ومغاربة وشواما ومتاولة ودروزا وحضارمة ويمانية وسودانا وحبوشا ودلاة وغير ذلك: وخرجت التجريدة فى شهر صفر بعد دخول الحجاج فى تجمل زايد ومهيا عظيم صارى عسكرها محمد بك ابو الدهب وصحبته حسن بك ومصطفى بك[٢٨]» وذكر صاحب خلاصة الكلام انه كان بالحملة ثلاثة صناجق وثلاثة آلاف من العسكر وثلاثون مدفعا[٢٩].

وهاتان الروايتان تشيران الى امرين مهمين: أولهما خروج الحملة فى وقت غير اوقات الحج كما كانت العادة، كما ان ذكر اسماء القواد وهم اميز من كان لدى على بك فى ذلك الحين يدلنا على ما كان يعلقه من اهمية على نجاح اولى حملاته الخارجية.

دخل ابو الدهب مكة ونزل بدار الحكم وكانت تسمى «دار السعادة»[٣٠]. ثم تولى الشرافة عبد الله بن حسين بن يحيى بن بركات. ويقال ان الشريف عبد الله تأثر كثيرا لما اظهره نحوه على بك وابو الدهب من عطف ومعونة فأطلق على على بك لقب «سلطان مصر وخاقان «البحرين» اعترافا منه بما له عليه من فضل.

غير ان الشريف السابق لم يرض بما حدث، فجمع بعض العربان وقصد الطائف فدخلها دون قتال واغتصبها من الشريف عبد الكريم بن حسين اخى شريف مكة. ثم تقدم احمد يريد مكة واناخ بعرفة وتحصن هناك. ولكن ابا

الذهب فاجأه بها واضطره الى طلب الصلح بعد قتال شديد فتخلى عن الولاية للمرة الثانية والأخيرة.

وفى اثناء ذلك تقدم حسن بك شبكة الصنجق المصرى على رأس فرقة الى جدة وتملكها باسم على بك، ثم حكمها بدل الباشا الذى كان يتولاها من طرف السلطان[٣١].

ولم اتم القواد ما امرهم به على بك بقي حسن بك بجدة وعاد ابو الذهب على رأس جيشه الظافر وبصحبته اسماعيل بك الى مصر فى عشرين جمادى الاولى وكان وصولهم الى القاهرة فى اوائل رجب من السنة نفسها حيث استقبلوا استقبالا حافلا.

ومما يدعو الى الدهشة ان تلك العمليات الحربية لم تستغرق اكثر من شهر واحد، وان مدة الحملة كلها لم تستغرق اكثر من ستة اشهر بما فيها مدة الذهاب والعودة والاقامة بمكة وغيرها.

ومما لا شك فيه ان كمال المعدات الحربية وتمام استعدادات الحملة من مؤونة وذخيرة وعتاد، ووفرة جند، مع شهرة المماليك الحربية، وذكاء ابى الذهب كلها مجتمعة هى التى كسبت الحرب. كما لا يفوتنا ان نشير الى ان بلاد الحجاز كانت على اتم استعداد لاستقبال أول قادم. فوحدة القبائل العربية كانت منعدمة تماما.، والمنازعات الداخلية كانت قد ارهقت القبائل فى تحزبها لشريف ضد آخر. كما انه لحسن حظ الحملة كان الجو السياسى مهيأ لنجاحها، فالشريف احمد لم يكن سوى مغتصب للولاية، ولم تكن قد مضت عليه مدة طويلة تمكنه من تثبيت نفوذه أو تنمية موارده. فلم يكن لديه ما يكفيه لنضال جيش مدرب مثل الجيش المصرى الغنى بجنده وماله وسلاحه. كما ان انقطاع المعونة الخارجية سواء من الشام أو تركيا اوجد الشريف احمد فى مركز العاجز الذى اسقط فى يده.

ولاشك فى ان انضمام فريق كبير من العرب واشرافهم إلى قضية الشريف عبدالله بن الحسين ومساعدتهم لجيش ابى الذهب جعلت النصر فى جانبهم وهكذا اجاد على بك الاستعداد واتقن ابوالذهب التنفيذ.

حملة الشام ومقدماتها

وكانت الدولة العثمانية قد اتخذت الأهبة للقضاء على الخطر المنبعث من فلسطين بسبب النزاعات المستمرة بين زعامات الشهابين فى بلاد الدروز واخطار حركة ظاهر العمر، فعينت عثمان باشا واليا على دمشق

١٧٦٠، ثم ضمت إليه بيت المقدس ١٧٦٥، وعهدت إليه اتخاذ ما يروقه من الوسائل للقضاء على ظاهر العمر. ثم عينت ابنه محمد باشا واليا على طرابلس الشام، وابنه الثانى درويش باشا على صيدا حتى تتسق أعمالهم وتتوحد جهودهم. كما صدرت الأوامر الى والى حلب وامير الدروز بأن يكونا عونا لعثمان باشا فى كل اعماله. وحرضت أهل نابلس على مشاكسة المتاولة حلفاء ظاهر. فنشأت من ذلك كله قوة متحدة دائمة يرأسها باشوات أربعة وأمير الدروز، وتشد أزرها حاميات من ايالات حلب ودمشق وطرابلس وبيت المقدس ودروز لبنان الأقوياء.

ولم يكن لظاهر من قوة العدد او العدة ما يوازى به تلك القوة المتحدة الساحقة، ففكر فى طلب المساعدة من على بك الكبير شيخ البلد فى مصر. وكان ظاهر قد آواه ووأكرمه عندما نفى الى فلسطين فى مارس سنة ١٧٦٦م (١١٧٩هـ)، واستشف نياته فى اثناء إقامته عنده فصادف ذلك هوى فى نفس على بك.

وعندما تخلص على بك من الباشا العثمانى ١٧٦٨ فى مصر ارسل يخبر ظاهرا بالأمر، ويعرض عليه الاتحاد ضد مكايد العثمانيين واسرعت الدولة فأمرت عثمان باشا ان يبذل اقصى جهده ليحول دون تلاقى الجيشين: المصرى والفلسطينى، فعول هذا على مباغتة ظاهر فى عقر داره. وسار بجيشه حثيثا، غير ان ظاهر لم يكن بالأبله فيؤخذ على غرة. ورغم عجزة عن مقابلة تلك الجحافل بمثلها فانه ركن الى الحيلة وعزم على ان يحاربهم «بالخمر بدل السلاح» فأسرع وجمع ماينوف على تسعة آلاف فارس عسكر بهم شمال بحرية طبرية، وكلف ابنه عليا أن يشاغل الجيش العثمانى دون ان يدخل معه فى معركة جدية، وأن يتقهقر بانتظام صوب المعسكر. ثم قسم جيشه هو الى ثلاثة أقسام أمر الجناح الأيمن وعلى رأسه ابنه على بالتقهقر وبالاختفاء فى المرتفات الغربية للبحيرة. وأمر الجناح اليسر وعلى رأسه صهره الشيخ كريم بالتقهقر تجاه لبنان شمالا بغرب. وما وافى المساء حتى كان قلب الجيش وعلى راسه ابن ظاهر يتقهقر الى الجنوب تاركا كل ما يملك من ذخيرة وعتاد، ثم اشعل النيران هنا وهناك تضليلا للعدو، واعتمد فى نجاح هذه الخدعة على الخمر، إذا زود المعسكر بكل ما يكفى الجيش المهاجم من مسكرات.

وفى جنح الليل تقدم عثمان باشا منتصرا أمام جيش على ظاهر المتراجع، ثم اطبق على معسكر ظاهر فرأى آثار التقهقر السريع غير

المنتظم فأيقن بفرار جيش ظاهر وسمح لجيشه بالراحة في معسكر من عدوه بعد هذا النصر المبين... واحتفل بذلك فأتوا على ما احتواه المعسكر من خمر ثم راحوا في سبات عميق، وفي غسق الفجر داهمهم جيش ظاهر وجناحاه فقتلوا واسروا الكثيرين، وغنموا كل ما كان لدى عدوهم من ذخيرة وعتاد. وفر عثمان باشا مذعورا الى دمشق فدخلها محتميا بأسوارها.

واسرع ظاهر فاستخلص صيدا من واليها درويش باشا ابن عثمان باشا. وشجع هذا النصر مدن يافا وغزة والقدس والخليل فطلبت حماية ظاهر ففعل، وارسل يطلب من الدولة ان تقره على ما ملك مقابل خمسمائة كيس تدفع سنويا فوافقت وفي نفس الوقت اعتذر عثمان باشا عن هزيمته للدولة بتأخر الدروز عن نصرته في معركة طبرية السالفة فقبلت اعتذاره وزودته بفرمان يسمح له بطرد ظاهر من يافا.

وإذ بلغ ذلك الى ظاهر كتب الى على بك في مصر يخبره ويشكو له من خيانة الدولة، وأنه كلما استرضاها ترسل له تقرير رضاها ثم لا تلبث بأن ترسل الى عثمان باشا تحثه على ان يغزوه ويقاتله ثم طلب من على بك أن ينجده لرد عثمان باشا عن يافا وبلاد القدس والخليل، وكان ذلك في أواخر سنة ١٧٧١.

الحملات التمهيدية :

وفى تلك الأثناء كان على بك قد وجه جيوشه في أواخر سنة ١٧٧٠ الى بلاد الحجاز كما اسلفنا، وعادت في أواخرها مظفرة تحمل أكاليل النصر الأول، فعزم على إرسال حملات استكشافية الى بلاد الشام ليدرس على اساسها طريق الغزو، ومدى قوة ظاهر وعثمان، وكل ما تحتاج اليه الحملة ليتم تجهيزها على أكمل وجه لاسيما وقد بعد العهد بين الجيش المصرى المملوكى وبلاد الشام فمنذ ١٥١٦ لم ترسل مصر حملة باسمها تعمل لحسابها الخاص في تلك الجهات.

ففي منتصف رجب ١١٨٤هـ (١٧٧٠م) عين على بك القائد عبدالرحمن أغا الانكشارية على رأس تجريدة مهمتها «تأمين الطريق» بين مصر وفلسطين. فقامت هذه التجريدة بمهمتها خير قيام، وطهرت الطريق من العربان، وتمكنت من قتل «سليط» شيخ عربان غزة وأخوته وأولاده، إذ كان وجوده خطرا يهدد خط تموين الحملة[٣٢].

.ثم كانت الحملة التمهيدية الثانية في نفس

الشهر، وهى مايمكن ان نسميها «حملة جس النبض» غرضها الظاهرى مساعدة الشيخ ضد عثمان باشا بينما كان القصد منها معرفة قوة كل من ظاهر وعثمان، والعدد التقريبى للجيش الغازى الذى سيخرج من مصر، مع ما يحتاجه من ماء وجنود وذخيره وقد جهز علي بك تلك الحملة الثانية تجهيزا حسنا، وأقام على رأسها اسماعيل بك[٣٣] يساعده علي بك الطنطاوى وعلى بك الحبشي.

وقد ذكر المؤرخون ان عددها لم يكن يقل عن عشر آلاف مقاتل كاملي العدة ـ كما ذكر لنا الجبرتى ان هذه الحملة سارت عن طريق البرّ فى أواخر رجب ١١٨٤هـ (١٧٧١م) وان على بك اتبعها بتجريدة اخرى عليها احد الصناجق والكشاف، رحلت من دمياط بحرا فى أواخر رجب ايضا، ثم اتبعها بثالثة برية في منتصف ذى القعدة.

وكان عثمان باشا فى ذلك الوقت يقوم بجولته السنوية بإيالة القدس، فلم يكد الجيش المملوكي يصل يافا حتى اسرع عثمان فارتد الى دمشق، بينما تقدم ظاهر العمر لملاقاة حلفائه المماليك واتجه الجيش المشترك قاصدا دمشق. ثم ارسل ظاهر الى عثمان معتزا بحلفائه يقول «ان غز مصر أتت تساعدنى عليك، فإن شاء الله غدا صباحا يكون القتال فأنزل إلينا برجالك.

وتهيب عثمان، وكان رده ان تهيأ للخروج الى الحج لا للقتال. وارسل يخبر الحليفين بذلك قائلا «اننى قد عولت على السير الى الحج الشريف فلا يمكننى ان أتأخر. وان كنتم تريدون قتال زائرى بيت الله الحرام فنحن استعنا بالله عليكم.

ولم يقبل اسماعيل بك قائد الجيش المملوكى ان يتحمل وزر ذلك الأثم فعاد الى يافا ينتظر عودة عثمان باشا، وعاد ظاهر الى عكا، وخرج عثمان باشا الى بلاد الحجاز.

«فى سنة ٢٧٧٢ تقوى ظاهر العمر وشاع اسمه، ونهب جبخانة عثمان باشا والى الشام[٣٤]. ولما طلع للمزيريب ركب عليه ظاهر العمر وأراد أن ينهب الحجاج ويأخذ المحمل ويقتل الوزراء فما سمح البارى تعالى بذلك[٣٥].

ولم تشأ السلطنة فى ذلك الوقت الحرج ان تترك ولاية دمشق تحت رحمة ظاهر وحليفه فارسلت حملة بقيادة اربعة باشوات لحفظها حتى يعود واليها. لذلك ارسل ظاهر الى على بك يطلب قائدا اطوع ومددا أوفر.

وفي هدى الحملات السالفة تبين على بك عدة أمور: أولها صلاحية املاك حليفة ظاهر كقاعدة حربية للجيش المملوكي . وثانيها حاجة الحملة الى المدافع لعمليات الحصار. وثالثهما ضرورة حصول الحملة على مساعدة بحرية فعاله.

وكانت الحرب الروسية التركية قد دخلت في دورها الثاني ١٧٠٠م ، فحجزت جيوش الدولة على ضفاف الدانوب، وتمكن الاسطول الروسى من ان يقوم بدور هام في البحر المتوسط، ولما كانت روسيا قد اعتمدت في حربها ضد السلطنة على اثارة ولاياتها لم يجد على بك غضاضة في ان يحصل على حاجته عن طريق روسيا والاسطول الروسى.

وكتب على بك الى قائد الاسطول الروسى في البحر المتوسط وهو الكونت الكسيس ارلوف Count Alexis Orlow مبديا رغبته في عقد معاهدة تحالف وصداقة مع روسيا «ووعده بكل ما يحتاج اليه جيشه واسطولة من مئونة ومال إذا لزم، وطلب منه مدافع للحصار ومهندسين. فرد عليه امير البحر الروسى مهنئا اياه ومشجعا له على حركته، ووعده بارسال طلبه في الحال لعرضه على جلالة القيصره، ثم شكره على ما عرض عليه من مساعدة ووعده بألا يتأخر في طلبها متى وجد نفسه في حاجة إليها.

تجهيز الحملة المصرية

وأيقن على بك بأهمية المعارك المقبلة ولذلك وجه عناية فائقة الى تجهيز الحملة فاختار رجالها بنفسه. وبلغت عدتهم اربعين آلف مقاتل، وزودهم بكل ما تحتاج اليه حملة مهاجمة من سلاح وذخيرة وعتاد ثم عين على قيادتهم محمدا بك أبا الدهب بطل حملة الحجاز. وفي ذلك يقول الجبرتي «وفيها (أى ١١٨٥ هـ ـ ١٧٧١م) اخرج على بك تجريدة عظيمة وسر عسكرها واميرها محمد بك ابو الدهب ورضوان بك وايوب بك وغيرهم كشاف وارباب مناصب، ومماليكهم واتباعهم، وعساكر كثيرة من المغاربة والترك والهنود واليمانية والمتاولة وخرجوا في تجمل زائد واستعداد عظيم ومهيا كبير، ومعهم الطبول والزمور والذخائر والأحمال والمطابخ والكرارات والمدافع والجبخانات ومدافع الزنبلك على الجمال وأجناس العالم ألوفا مؤلفة. وكذلك أنزلوا الاحتياجات والأثقال وشحنوا بها السفن، وسافرت عن طريق دمياط في البحر».

وتكلفت تلك الحملة كثيرا من الجهد والمال حتى اضطر على بك الى فرض مبالغ تدفعها كل مدينة بمصر. كما فرد اموالا على اليهود والاقباط «قبضت جميعها فى اسرع وقت».

وبدأت الحملة سيرها برا فى ديسمبر سنة ١٧٧١ . وعندما وصلت غزة اتجهت إلى الرملة وصادفت طلائع حملة إسماعيل بك فانضموا إليها. وأخذوا الرملة ونابلس بعد حصار طويل. وعزم أبو الدهب على حصار بيت المقدس فخرج إليه حاكمها وكبير قضاتها وممثلو بطريركها فقدموا هدية قيمة، وعرضوا عليه دخول المدينة دون قتال احتراما لقدسيتها فأجابهم إلى طلبهم.

ثم حاصر يافا فسلمت بعد شهرين، ولم يبق أمامه سوى احتلال دمشق حتى يصبح سيد سوريا الوسطى. وكان أبو الذهب كلما احتل مدينة يولى عليها حاكما من قبله يحكمها باسم على بك ، ويترك بها حامية تشرف على الأمن والنظام، هكذا أمره سيده قبل الرحيل.

وفى تلك الأثناء كان عثمان باشا قد عاد من بلاد الحجاز وجهز حملة جرارة قدرها بعضهم بمائة ألف مقاتل، على رأسها أربع باشوات من دمشق وحلب وطرابلس وصيدا ثم تقدم يريد القضاء على الجيش المشترك. وتقاتل الفريقان فى السهول الفسيحة الممتدة إلى الجنوب من دمشق. ولقى عثمان باشا من مرارة الهزيمة ما جعله يفر إلى دمشق ومنها شمالا إلى حمص.

أما أبو الدهب فتقدم لحصار دمشق دون أن يعلم بمغادرة عثمان لها. عند ذلك اسقط فى يد أهلها وطلبوا من كبار العلماء التوسط لدى أبى الدهب فاظهر لهم عزمه الأكيد على دخولها، وعرض عليهم الكتاب الذى زوده به على بك وهذا نصه:

«صدر هذا الفرمان الجليل الشأن من ديوان مصر المحروسة العالى، دامت له المفاخر والعالى، بأمر من منّ به الكريم المنان على أهل هذا الزمان، فاظهر العدل والآمان، وعم بالفضل والإحسان جميع أهل القرى والبلدان، وأرغم أنوف أهل الجور والطغيان؛ أمير الأمراء الكرام، كبير الكبراء العظام المختص بمزيد عناية الملك العلام أمير اللواى الشريف السلطانى، والعلم المنيف الخاقانى، الأمير على بك أمير الحاج سابقا (٣٦) وقايمقام بمصر المحروسة حالا(٣٧) دام عزه وبقاه آمين.

مضمونه حمد لبارئ النسم ومحيى الرم، الذى قدس وعظم قدر الحرم وبارك حوله بجزيل النعم، وأمر بالعدل فى ساير الأمم، وأوعد الظالم بالهلاك والنقم، القايل فى كتابه المبين، والله لا يحب الظالمين، إن الله لا يصلح عمل المفسدين، فلا تأس على القوم الفاسقين: والصلاة والسلام على رسوله الأمين سيد الخلق أجمعين، القايل وهو أصدق من قال الضرر يزال. وعلى آله وأصحابه الذين سادوا وشادوا الدين صلاة وسلاما دايمين إلى يوم الدين.

وبعد مزيد السلام والتحيات، ونوامى الأمن والبركات، وجزيل النعم والخيرات فى سائر الأوقات والساعات إلى حضرات العلماء العاملين، والفقهاء المحدثين المفتين بشريعة سيد الانام، وقضاة الأسلام، وأرباب المناصب والحكام. والأكابر والأعيان الكرام، والخواص والعوام من أهل مدينة دمشق الشام، أعزهم الله بنور العدل وأحكامه، وأجارهم من الظلم وظلامه، وعاملهم بالطافة وأكرامه، وأفاض عليهم جزيل انعامه أمين.

الذى يحيط به كريم علمكم وسليم فهمكم أن الأمة لا تجتمع على الضلالة. وقد علمتم مافعله عثمان باشا فى أرضكم، وفى غيرها من الظلم والجهالة. وأنه قد تعرض للحجاج والزوار وسلط عليهم الأشرار والفجار[٣٨] بالأذية والأضرار وظلم المسافرين والتجار. وأذى أهل الأماكن الشريفة، وبدل أمن الحرمين الشريفين بالخيفة[٣٩]، وتعدى حدود الدين وصنع مالا يليق بالمسلمين. وقد قال من لاتراه العيون «من يتعد حدود الله فؤلئك هم الظالمون» ولما بلغنا عنه مابلغ وأنه فى إيذاء الأرض المقدسة قد ولغ، فبادرنا لسوء فعله بالنقض كما أزلنا فى العام الماضى من ظلمه البعض[٤٠]، وأردنا أن نطهر منه تلك الأرض نصرة للدين وغيرة على المسلمين. وأعظم القصد والأحتياج دفع ضرره عن الأرض المقدسة والحجاج تبعاً للحديث الشريف: ماحل يحرمكم حل بكم.

وبلغنا أيضا مافعل بالعلماء فى غزة، وقد أذاقهم الذلة بعد العزة، ودفنهم في الأرض بالحياة والحديث المقدس عن الإله، «من أذى وليا فقد أذيته بالحرب» والعلماء لاشك أولياء الله لقوله فى كتابه الأسمى«إنما يخشى الله من عباده العلماء» ، وإذا كنتم بذلك راضين، وعلى رفع ضرره غير قادرين فنحن انشاء (أن شاء) الله قادرين على إزالة ماهنا لك وقد أفتتنا المذاهب الأربعة بذلك فاستخرنا الله، وهو نعم الولى وسألناه أن ينصر دين محمد بعلى. [يقصد هنا على بك] وصرفنا الهمة

والأموال في رضى الملك المتعال، ووجهنا العساكر والأبطال ليرفعوا يد الظالم ويستردوا المظالم ويحموا الديار والمعالم ويميزوا العاطب من السالم.

والمقصود منكم ترك الظالمين والبعد عنهم، ومن يتولهم منكم فانه منهم. وأن تجتهدوا فيما يدفع الشرور ويوجب لكم الفرح والسرور والغبطة والحبور وأمير الحاج الشامي من طرفنا يتولاه، حفظا وصيانه لحجاج بيت الله فتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان، والنصر من الكريم الفتاح لمن طلب العدل والصلاح.

وها نحن قد أخبرناكم، وللمعاونة على الخير قد اخترناكم، ومن قبول هذا الظالم في أرضكم حذرناكم. فالعساكر قاصدة اليه وجميع ماليديه، وقد سلط غضب الله وسخطه عليه، فاحفظوا منه سائرا أموالكم وأحوالكم ولا تدعوه يقيم في أرضكم وبين عيالكم ورأى العلماء والأكابر أعلى. وأنتم بالمعاونة على الخير أولى.

وعلى القريب منكم والبعد، والطارف والتليد، والأحرار والعبيد أمان الله ورسوله وأماننا السعيد، والله يفعل مايشاء ويحكم بما يريد. والخير يكون والصعب يهون بعون الله والسلام.

وكان الرد على ذلك أن استصدر السلطان فتوى باعتبار على بك وحلفائه وأنصاره بغاة يجب قتلهم أو أعدامهم.

وأحدثت رسالة على بك الغرض لمقصود منها. ودخل أبو الذهب دمشق في صبح يوم ٦ يونية ١٧٧١ دون أن تسيل قطرة واحد من الدماء، وأرتدت حاميه المدينة إلى القلعة وتحصنت بها، فحاصرها جيش أبى الذهب وأضطرها الى التسليم بعد ثلاثة أيام تحت تأثير القنابل المتساقطة. ودخل ممثل على بك الكبير دار الوزارة في دمشق وجلس حيث كان يجلس ممثل السلطان العثماني. وأتت الوفود من سائر الأنحاء تزف التهاني وبدأ الناس يشعرون بنعمة الأمن والسلام.

وأرسل الأمير منصور الشهابى من جبل الدروز هدية وخطابا يتقرب بهما الى أبى الذهب وكان ظاهر قد أوصاه خيرا بأمير لبنان(٤١).

وتردد صدى النصر في القاهرة في ربيع الأول من ١١٨٥ (١٧٧١) وأحتفل به على بك احتفالا عظيما. وفى ذلك يقول الجبرتي «ووردت البشائر بذلك فنودى بالزينة، فزينت مصر وبولاق ومصر العتيقة زينة عظيمة ثلاثة أيام بلياليها. وتفاخروا فى ذلك الى الغاية وعملت وقدات وأحمال قناديل بشموع

بالأسواق وسائر الجهات، وعملوا ولائم ومغنى وآلات وطبولا وشنكا وحراقات وغير ذلك...» الى أن قال «وتعاظم على بك فى نفسه، ولم يكتف بذلك فارسل الى محمد بك يأمر بتقليد الأمراء المناصب والولايات على البلاد التى فتحوها وملكوها».

ولا غرابة فى ذلك فقد أصبح ابوالدهب سيد سورية الوسطى والجنوبية يحكمها باسم استاذه على بك ولم يبق أمامه سوى الأستيلاء على حلب حتى يحتل سورية باجمعها. بل أن على بك فى يونية ١٧٧١ كان فى مركز يسمح له بأن يعلن نفسه «سلطانا على مصر وسورية» كما قرر ذلك قنصل فرنسا فى صيدا.

ونشير إلا أن قناصل فرنسا فى سورية الوسطى نقلوا محور نشاطهم السياسى من الآستانة الى القاهرة واصبح قنصل فرنسا فى القاهرة يقوم لدى على بك بنفس الدور الذى كان يقوم به سفير فرنسا فى الآستانة لدى السلطان العثمانى.

ويعتبر هذا الحدث منتهى ما وصلت اليه قوة ونفوذ على بك، كما يمكن اعتبار ليلة ١٠ يونية ١٧٧١ بدء أفول نجمه، ذلك لأن محمدا أبا الدهب لم يلبث ان عاد سريعا الى مصر وسحب فى طريق عودته جميع الحاميات التى كان قد أقامها فى البلاد المفتوحة، وبدأ يحارب سيده وولى نعمته.

جمهرة المؤرخين تنسب هذا الانسحاب الى ابى الدهب نفسه. فمنهم من يرى ان أبا الدهب كان يدبر من زمن طويل وسيلة للقضاء على على بك، وأنه فى جميع خدماته السابقة لمولاه، سواء فى القضاء على منافسيه أو فى حملتى الحجاز والشام انما كان يعبد لنفسه طريق الحكم والسلطان عندما تنضج الثمرة وتسقط راس سيده. فلما دخل دمشق وأمره مولاه فى نشوة السرور بالمضى فى الفتح خشى فوات الفرصة فعاد لقطف الثمرة دون أى اكتراث لما يجب عليه نحو رب نعمته من اخلاص وولاء.

والمؤرخون الترك يرون أن ابا الدهب تبين له صدق نصيحة اسماعيل بك وتصادف قدوم «أمين الصرة» لبلاد الشام فى ذلك الوقت، فاتصل به ورجاه كسب عفو الدولة بعد تقديم الاعتذار الكافى ، وبذا حصل ابوالدهب على وعد سلطانى بالعفو وشياخة البلد.

اما غيرهم فيقول بأن الباب العالى هو الذى نصح لعثمان باشا والى دمشق بالاتصال سرا بأبى الدهب، وبأن يستثمر مهارته السياسة فى كسبه الى جانب العثمانيين. وفوض إليه ان

يعده باسم السلطان بالعفو وبمركز صهره علي بك.
فكان أن عقد مجلس سرى بين الطرفين فى الليلة السابقة للرحيل انتهى بخروج العدوين صديقين بل حليفين.

هذا ويعتقد المؤرخ لكروى Lockroy أن عثمان باشا كان يحتفظ دائما ببعض الكتاب الماهرين فى تقليد الفرمانات السلطانية، وأنه بهذه المناسبة حاول بمهارته السياسية ان يعوض خسارته الحربية فقابل أبا الدهب سرا وأغراه بمحاربة على بك، ووعده بمركزه، وقدم إليه فرامانا سلطانيا مزورا.
والرأى الذى نأخذ به هو مزيج من تلك الآراء كلها، إذ يتضح لنا من وقائع الحال وآراء من سبق من المؤرخين ان عثمان باشا أرسل يطلب مددا من الدولة حتى لا يضطر الى التسليم. ولما كانت الدولة عاجزة تماما عن مساعدته بالجند والسلاح فى ذلك الحين، لانشغالها فى الميدان الأوربى الروسى، فقد أمدته بسلاحها السرى الذى برعت فى استخدامه ونجح فى كثير من الأحيان فنصحت له عن طريق «أمير الصرة» أن يتصل سرا باسماعيل بك ليستثمر ميله الى العثمانيين فى كسب عطف ابى الدهب، واثارة شكوكه من جهة على بك، وتحذيره من انتقام الدولة عندما تتفرغ لتأديب العصاة.
كما أننا نرجح أن الاشاعة التى راحت قبيل الانسحاب بوفاة على بك، إنما ابتكرها أبوالدهب نفسه وروجها انصاره بقصد أغراء الجند على سرعة العودة الى مصر.

ولم يكن جند ظاهر العمر أو حلفاؤه المتاولة باقل دهشة من غيرهم لانسحاب ابى الدهب المفاجئ، وعندما ارسل اليه ظاهر وشيخ المتاولة ناصيف النصار يستفسران عن سر ذلك رد عليهما مهددا متوعدا.

وكان ان ارتد أبوالدهب قاصدا مصر فى سرعة فائقة حتى كان يخيل الى من رآه أن انسحابه فرارا وليس تقهقرا، إذ كان القائد يتخلى عن كل مايعوق سرعة تقدمه. وبذلك تمكن من دخول مصر بعد بضع ساعات فقط من وصول الخبر الى على بك.
ولم يدهش على بك من قبل دهشته فى ذلك اليوم ولكنه احتبس دهشته وكظم غيظه. وما أن دخل أبوالدهب عاصمة مصر حتى أفضى الى أستاذه بسر عودته، ونسبها إلى أن الجيش المملوكى لاقى من سوء معاملة ظاهر العمر وجيشه وحلفائه ما هدد كيانه.

والظاهر أن غرض أبى الدهب من ذلك كان مزدوجا ففيه تبرير لعودته من ناحية، ومن ناحية اخرى كان محاولة خبيثة لخلق العدواة والبغضاء بين على بك وحليفه الوحيد ظاهر العمر.

نفى أبى الدهب إلى الصعيد:

أما على بك فلم يأخذ الأمر على علاته بل أرسل يستفسر من ظاهر فبعث له هذا بابنه عثمان ليوقفه بنفسه على ماحدث، وأمره أن يبقى بمصر برهانا على صدق الرساله التى كلفه بها وأراد على بك أن يختبر صدق أبى الدهب وطاعته له فالح عليه فى العودة الى الشام واصر ابوالدهب على الرفض. عند ذلك تبين على بك خيانة ابى الدهب وسوء نيته، ولكن «بقى الأمر على السكوت» كما يقول الجبرتى، ذلك لآن على بك فضل ان يبقى ذلك الأمر سرا مكتوما حتى لا ينضم الى ابى الدهب انصاره الذين كسبهم الى جانبه فى خلال حملاته فى الحجاز والشام، وحتى يستطيع على بك متى حانت الفرصة ان يقضى عليه قضاء مبرما، واخيرا قرر نفيه الى الصعيد.

فلما كان رابع ايام عيد الاضحى سنة ١١٨٥ (أوائل ١٧٧٢) أمر على بك تابعة على بك الطنطاوى ان يذهب فى خاصة اتباعه الى ابى الدهب فيبلغه أمر مولاه بنفيه الى الصعيد. وأمره ان يشرف بنفسه على خروجه من القاهرة فصدع طنطاوى بالآمر، وامتثل ابوالدهب وفى ذلك يقول الجبرتى «وانقضى شهر شعبان ورمضان وعلى بك مصمم على رجوع محمد بك الى جهة الشام وذلك مصمم على خلاف ذلك. وبدت بينهما الوحشة الباطنية. فلما كان رابع شهر شوال (١١٨٥هـ ـ ١٧٧٢م) بيت على بك مع على بك طنطاوى وخلافه واتفق معهم على غدر محمد بك. فركبوا عليه ليلا وأحاطوا بداره ووقفت له العساكر بالأسلحة فى الرواق فركب فى خاصته وخرج من بينهم وذهب الى ناحية البساتين وارتحل الى الصعيد.

وكان على بك قد أخذ الحيطة لنفسه فعين ايوب بك حاكما على جرجا، وكلفه سرا ان يحتال على أبى الدهب ويقتله عقب وصوله. ويخيل إلينا أن أيوب بك لشدة إخلاصه لعلى بك أسر إليه بما اتفق عليه البكوات مع ابى الدهب فى الشام وهذا السر فى أن على بك عينه بالذات حاكما لجرجا وكلفه بتلك المهمة الخطيرة.

نجدة على بك لظاهر العمر:

وعز على بك ان يفلت من يده نصر تكلف في سبيله كثيرا من الجهد والمال، فبادر بتجهيز حملة يتراوح عددها بين ٥٠٠ و ٦٠٠ مقاتل بقيادة عبدالرحمن بك وسليمان كاشف ومصطفى جاوش أرسلها لمساعدة ظاهر وحلفائه بقصد استعادة سلطانهم على أملاكهم السابقة. أما صغر عدد الحملة فيعزى الى اضطرار على بك للاحتفاظ بمعظم جيشه في مصر بعد تغير موقف ابى الدهب نحوه. وقد وصلت تلك الحملة في الوقت الذى كان عثمان باشا يستعد للهجوم بالجيش الجرار الذى كونه من جنود دمشق وحلب وطرابلس وصيدا والقدس والدروز. وتلاقى الفريقان على ضفاف الأردن في اول سبتمبر ١٧٧٢ حيث منى الجيش العثمانى بهزيمة ساحقة تقهقر عثمان باشا على أثرها قاصدا دمشق، بينما هزم المتاولة جيشا من الدروز بقيادة الأمير يوسف شهاب تحت اسوار صيدا كان يسرع لنجدة العثمانيين. وأخيرا سقطت صيدا في يد الحلفاء تحت الحكم المشترك.

وعاد الآمل الى نفس على بك ولكن افسد عليه تدبيره وصول الأخبار من الصعيد باستعداد ابى الدهب لدخول القاهرة.

نهاية على بك الكبير:

لم يكن من الهين على على بك ان يشاهد انهيار صرح أحلامه، فعزم على تأديب العاصي ورده إلى الطاعة الواجبة عليه نحو استاذه، فجهز تجريدة عظيمة أرسلها بر ا بقيادة إسماعيل بك واعقبها بالامدادات في النيل، ولم يدر على بك أن إسماعيل كان الورقة الرابحة الباقية في يد أبي الدهب ليستخدمها في الفرصة المناسبة. وكان أن فوجيء على بك بانضمام اسماعيل بك إلى أبي الدهب . وتقدم الجميع نحو العاصمة.

واتخذت الحركة شكلا جديدا، فلم تعد حركة مملوك انشق على سيده، وإنما أصبحت ثورة جامحة كغيرها من ثورات المماليك التي سبقتها والتي تلتها. انضم المماليك فيها إلى حزبين أحدهما في الصعيد على رأسه محمد بك والآخر في القاهرة وعلى رأسه على بك.

يقول الجبرتي «ومنذ ذلك اشتد الأمر بعلي بك ولاحت على دولته لوائح الزوال، وكاد يموت من الغيظ والقهر».

واضطر على بك في آخر الأمر أن يلجأ إلى موضع ثقته على بك الطنطاوى فعينه على رأس حملة ثالثة أفرغ في تجهيزها كل جهده. وأمره بوقف سيل العصاة الجارف. ثم خرج بنفسه إلى البساتين، وعسكر هناك للأشراف

على تحصين الضفة الشرقية للنيل وانتظار النتيجة وإصدار التوجيهات اللازمة.

وتقدم الطنطاوى حتى لاقى طلائع أبى الدهب شمالى بنى سويف تجاه بياضة ومنى بهزيمة ارتد على أثرها فاشلا إلى مولاه. وتأكد على بك من عبث المقاومة فارتد إلى القاهرة وتحصن بالقلعة مع غروب الشمس. أما أبو الدهب فقد عسكر على الضفة الغربية للنيل تجاه بياضة. وعزم على بك أن يقاوم مستعصما بالقلعة ولكن عثمان بن ظاهر أقنعه بضرورة الالتجاء إلى عكا حيث يجد ظاهرا على أتم استعداد لامداده بالمال والرجال لاستعادة ملكه المسلوب، وبين له أن البقاء فى القلعة يسمح لعدوه بحصارها وقطع الامدادات عنها فيسقط فى يده حيا أو ميتا.

فرار على بك إلى الشام:

اقتنع على بك بصدق نصيحة عثمان وحكمتها وعزم على تنفيذها، فأمر رجاله بتجهيز ماله ومتاعه الخاص والاستعداد للرحيل. ثم ارسل أمرا إلى المعلم رزق وهو المتصرف فى شئون المالية المصرية باحضار ما بالخزينة من مال. ولكن رزق كان قد اختفى.

ولم ينس على بك أن يرسل سفيره يعقوب الأرمنى إلى اميـر الاسطول الروسى الكونت أرلوف Count Alexis Orlow يخبره بما حدث، وبعزمه على التوجه إلى سورية، ويرجوه أن يرسل إليه هناك مددا من الجنود والمدافع والخبراء يستعين بهم على العودة إلى مصر. وكانت هذه هى الرسالة الثانية من على بك إلى أمير البحر الروسى.

وفى ليلة ١٢ أبريل ١٧٧٢ (٢٥ المحرم ١١٨٦) غادر على بك مدينة القاهرة وكان ضمن بطانته عثمان بن ظاهر، والتاجر اليونانى سوفير لوزنيان كرزموبوليتس وقد كتب هذا الأخير يصف خروج على بك فقال: «أما عدد من تبعه من المقاتلة فلم يكن يتجاوز سبعة آلاف رجل من الخيالة والمشاة. وقد لزم ست وعشرون بعيرا لنقل ماله وثيابه. أما ثروته الخاصة فكانت تقدر بثمانمائة ألف محبوب نقدا، والباقى مجوهرات تقدر قيمتها بثمانية ملايين من الدوقات. وغادر مصر فى مساء ١٢ أبريل ١٧٧٢ وجد فى السير حتى لا يلحق به أبو الدهب... وفى اليوم الثالث والعشرين من الشهر وصل قرب مدينة حيفا وعسكر فى السهول التى يشرف عليها جبل الكرمل[٤٢].

أما أبو الدهب فقد دخل القاهرة فى صباح الخميس ١٣ أبريل ١٧٧٢ (٢٦ المحرم ١١٨٦) بعد أن غاب عن القاهرة سبعين يوما. وكان أول أعماله أن أمر بالقبض على من عرف

بميله إلى على بك، واعـدم عبد اللـه كتخدا الباشا. وأمر بإبطـال النقود التي عليها اسـم على بك ثم ارسل يبشر الباب العـالى بما وفق إليه. وكـان ذلك موجبـا لزيادة الممنونية.

كفاح على بك فى الشام:

وفى تلك الأثناء كان عثمان باشا قد عاد إلى دمشق، وتقدم بجحافله لحصار صيدا يحاول استردادها من يد الحليفين، على بك وظاهر العمر. وكان الأمير منصور الشهابى صديق ظاهر قد تنازل عن ولاية الدروز إلى ابن أخيه الأمير يوسف الشهابى وهو الموالى للعثمانين.
وكان على بك قد عزم على البقاء فى انتظار وصول النجدة الروسية. ولكن عندما علم بتهديد العثمانيين لصيدا بادر هو وحليفه إلى ارسال جيش مشترك من المماليك، وعلى رأسهم على بك الطنطاوى، والصفديين والمتاولة وعلى رأسهم على بن ظاهر والشيخ كريم صهره، ورغم تفوق الجيش المحاصر للمدينة على الحامية المصرية فقد تمكن المماليك وحلفاؤهم من هزيمة العثمانيين الذين ارتدوا سريعا إلى دمشق. وعاد الجيش المصرى إلى معسكر على بك انقاذ صيدا.

ولم يشأ على بك ـ وقد شجعه هذا النصر، وأعاد إلى نفسه بصيصا من الأمل المفقود ـ أن ينتظر حتى تصله النجدة الروسية، فعول على تطهير الطريق إلى مصر حتى إذا ما وصل المدد الروسى تقدم مباشرة فدخل القاهرة.
ورحب ظاهر بتلك الفكرة وانضم إلى على بك بكامل قوته ومعه أولاده وحلفاؤه المتاولة.
وتقدم الجيش المشترك، وبدأ بحصار يافا فى منتصف أغسطس ١٧٧٢، وزود ظاهر الجيش المحاصر بما يحتاجه من ذخيرة ومئونة وعتاد عن طريق البحر بسفن افرغت حمولتها شمالى يافا ثم أوصلتها الجمال إلى معسكر على بك.
وكان حسن باشا حاكم صيدا السابق ـ شقيق مصطفى باشا حاكم نابلس المعادى للمصريين ـ قد اختزن فى يافا قدرا وافرا من الزاد والعتاد فرفض التسليم وركن إلى الدفاع واحباط خطط المحاصرين.
وأخذ على بك يضيق الحصار على يافا شيئا فشيئا فى نظام محكم، فاحاط بالبلدة فى شكل دائرى تعسكر على محيطه جماعات من المقاتلة، بين كل جماعتين منها مائتا يارده تقريبا،اما كل جماعة فكان قوامها مائتين من الجند وعلى رأسهم أحد البكوات[٤٣]. ثم نصب على بك بطارية للمدافع تجاه باب

المدينة الشرقى، تتألف من مدفعين جديدين زنة قنبلتهما إثنا عشر رطلا، عهد بقيادتها إلى عبد الرحمن أغا[٤٤]. وعززها ببطارية أخرى تتألف من مدفع نحاس من عيار ١٦ بوصة تزن قنبلته ١٦ رطلا.

ورغم وطأة الحصار فإن المدينة صمدت للمهاجمين، ذلك لأنها كانت تمون من البحر. وطال الحصار فارسل على بك تجريدة فتحت غزة ودخلت الرملة واللد بغير قتال ثم عادت إلى حصار يافا. واحكم الحلفاء الحصار، وبدأ المدافعون يشعرون بوطأة الجوع والحاجة الماسة إلى الوقود. لذلك استعاضوا عن القمح بالأرز وأخذوا يتسللون فى ظلام الليل، يقطعون أشجار الفاكهة التى تحيط بالبلدة لاستخدامها كوقود، ولم يجد على بك بدا من اتخاذ الحزم، فأمر رجاله بقطع تلك الأشجار ليحرم أهل يافا من بعض مصادر تموينهم.

وأخيراً وصل ذو الفقار بك فى منتصف سبتمبر على سفينة روسية ترفع العلم الانجليزى يقودها الكابتن براون Captain Browne ومعه يعقوب الأرمنى سفير على بك الذى كان قد أرسله إلى أمير البحر الروسى قبل قيامه من مصر. وجاءت السفينة تحمل النجدة الروسية التى كانت تتألف من ضابطين روسيين، ومعهما بعض الهدايا، وخطاب من الكونت أرلوف إلى على بك ـ «ولما قدمها ذو الفقار إلى على بك نالا شرف تقبيل يده: أولهما الكابتن كلنجلينوف Cap. Clinglin-off من الفرسان والثانى اللفتنانت سيرجى بلستشوف S. Pleschoff وكانت الهدية تتكون من ثمان قطع من الحرير المطرز بورود صيغت بالذهب وأسلاك الفضة ، وثلاثة مدافع للميدان من النحاس زنة قنبلتها أربعة أرطال، وسبعة بنادق جيدة المعدن مع خمسمائة طلقة وثلاث جرارات للمدافع حديثة الصنع.

وأما الرسالة فكانت من الكونت أرلوف إلى على بك مكتوبة باللغة الروسية فى إحدى وجهيها، وبالايطالية فى الوجه الآخر. وقد ترجمت إلى على بك بالتركية فكانت تتضمن وعودا بالنجدة السريعة.

ولاقى الضابطان الروسيان من كرم على بك ما جعلهما يقبلان على العمل بهمة فائقة، وهكذا أقيمت بطارية ثالثة جنوب يافا، على بعد مائة ياردة من أسوارها، تتألف من ثلاثة مدافع زنة قنبلتها أثنا عشر رطلا قادها الكابتن كلنجلينوف وأصلى الأسوار نارا حامية صدعتها على الأثر.

ولكن سوء حظ هذا الضابط جعله يوقف

الضرب، ويطل برأسه من شق فى السور ليرى مبلغ ما سببته قنابله للسور من تلف، فاطلقوا عليه النار من الداخل واردته رصاصة استقرت فى صدره.

واغتم على بك لوفاته، وانتهز الفرصة للثأر فطلب من الكابتن براون أن يعيره ثلاثة من مدافع السفينة الروسية ـ زنة قنبلتها ٦ أرطال ـ فاجيب إلى طلبه وعززت تلك المدافع البطارية الشمالية الشرقية التى يقودها خليل بك ولطيف بك. ورغم تصدع الأسوار لاقى المهاجمون فى هجمتهم الثالثة دفاعا مجيدا جعلهم يرتدون بعد خسارة كبيرة فى الأرواح.

وطالت مدة الحصار فآثر الضابط الروسى أن يرتحل عائدا بسفينته. وزوده على بك برسالة شكر للكونت أرلوف، وأخرى للقيصرة يرجوها العون والمدد وكانت تلك هى الرسالة الرابعة من على بك للقائد البحرى الروسى(٤٥).

وفى منتصف ديسمبر جاءت بعض قطع الأسطول الروسى إلى بيروت لتسلم الجزية المفروضة. ومرت فى عودتها بيافا، وجاء قائدها الشفالييه بنايوتى الكسيانو Chev. Panagioti Alexian يحمل رسالة من الكونت أرلوف إلى على بك وأخرى من الشفالييه ريزو Ch. Rizo إلى ذى الفقار بك واقتصرت رسالة الكونت كالعادة عن التحيات والتمنيات والوعود الخلابة بالمساعدة العاجلة.

وساهمت قطع الأسطول فى ضرب يافا من البحر. ولكن الظروف الجوية اضطرتها إلى مغادرة يافا والعودة إلى قواعدها.

وسلح ظاهر بعض السفن وأرسلها لقطع خط التموين البحرى من مصر. فاضطر حسن باشا حاكم يافا أن يفر ليلا إلى أخيه حاكم نابلس. وتمكن الحلفاء من دخول يافا فى أول فبراير ١٧٧٣، بعد انسلاخ ثمانية أشهر على حصارها. وبسقوط يافا اختتم على بك أعماله الحربية بفلسطين ونشط يستعد للعودة إلى مصر.

اوعز أبو الدهب إلى بعض البكوات الموالين له، وبعض ضباط الفرق، من غير فرقة اليكيجرى أن يكتبوا إلى على بك يستنجدونه ويستغيثون به من ظلم أبى الدهب وقسوته ويدعونه إلى دخول مصر(٤٦). أشار إلى ذلك الجبرتى بقوله «وتحرك على بك للرجوع إلى مصر، وجيش الجيوش فلم يهتم المترجم ـ أبو الدهب ـ لذلك وكاد له كيدا بان جمع القراصنة والذين يظن فيهم النفاق وأسر إليهم أن يراسلوا على بك، ويستعجلوه

فى الحضور وينمقوا له مساوىء المترجم ومنفراته، ويعدوه بالمخامرة معه والقيام بنصرته متى حضر وأرسلوها إليه بالشريطة السرية[٤٧] فراج عليه ذلك واعتقد صحته، وأرسل اليهم بالجوابات وأعادوا له الرسالة كذلك باطلاع مخدومهم وأشارته».

واغتر على بك بتلك الرسائل، والح على ظاهر في العودة. وطلب منه مالا لتجهيز الحملة، وادعى أنه ليس فى حاجة إلى عدد كبير من الجند «لأنه حضر لى مكاتيب من سناجق مصر، وكلهم معى يدا واحدة على محمد بك، وعرفونى أنه حالما تظهر اعلامى لهم حيث هم فى الصالحية ينضمون إلينا متحدين معنا».

وعاد على بك إلى مكاتبة البكوات فردوا يؤكدون ويقسمون. وأخيرا عاد سليمان كخيا من سفارته إلى الكونت أورلوف دون أن يصحب مددا، وكان المعلم رزق قد ظهر بعد غيبة طويلة واعاده سيده إلى خدمته وراح يؤكد لعلى بك أن ساعة الرحيل قد دنت.

وبدأ تحرك الجيش من يافا فى أوائل مارس ١٧٧٣. وكان الجيش مكونا من مماليك على بك وجند الشيخ ظاهر من الصفديين وعلى رأسهم على ابنه وكريم صهره، ثم ثلاثة آلاف من المغاربة المرتزقة، وكان عدد الجند جميعا لا يتعدى ثمانية آلاف رجل بين راكب وراجل.

ومر الجيش فى طريقه بغزة فى أواخر مارس، ثم خان يونس فى مساء ٤ أبريل (١١ المحرم ١١٨٧) ثم تقدم إلى الصالحية بعد أن استراح يومين فوصلها فى ١٩ ابريل. وهناك التقى جيش على بك بطلائع جيش أبى الدهب، ورغم تفوقه فى العدد على جيش على بك فإن المعركة لم تستمر سوى أربع ساعات انسحب الجيش المدافع على أثرها بعد أن منى بهزيمة كبيرة وخسارة فى الأرواح وتمكن على بك الطنطاوى من الاستيلاء على الصالحية.

وأسقط فى يد أبى الدهب ولكنه لجأ إلى الحيلة والخديعة، فجمع ذوى الحيثية من رجال القاهرة وأثار فيهم روح الجهاد دفاعا عن الدين متظاهرا أمامهم بمظهر المدافع عن الحريات والعقيدة الدينية قائلا «لقد احطت علما بالدعوة التى وجهها بعضكم إلى على بك. أما أنا فإني (بيك) مثله وحيثما ذهبت فيمكننى أن أحتفظ بهذا الشرف: ولكنى أرى لزاما على قبل مغادرة هذه البلاد بصفتى مسلما قوى الإيمان، أن أخبركم بأن على بك الذى تحسبونه سيحكمكم خيرا منى إنما هو حليف الروس الملحدين وسيستقدم جيشا أوربيا كبيرا يحله بينكم. ومما يزيد الطين بله

أنه فى قلبه يميل إلى المسيحية أكثر من الإسلام، ولكم أن تثقوا بقولى أنه بمجرد أن يتمكن هؤلاء النصارى من أرضكم سيغتصبون أموالكم ويستحيون نساءكم وبناتكم، وأخيرا سيجبرونكم على تغيير دينكم. وإنى لأرجو مخلصا أن تثقوا فى قولى حتى لا نقع فيما وقع فيه اخواننا مسلموا الهند. فعندما ظهر الأوربيون لأول مرة على ساحل ملبار سالمتهم طوائف السكان وعاملوهم معاملة كريمة. إذ كانت دعواهم أنهم جاؤا بقصد التجارة، ولما سمحوا لهم بمزاولة تلك الحرفة الشريفة، بدأوا يستقرون ويقيمون المنشآت باسم المصانع، وتدرجوا حتى اصبحوا حكاما للهند وراحوا يغتصبون الأموال وينتهكون الأعراض، بل أنهم فعلوا ما هو افظع من ذلك... أنهم بشروا بالدين المسيحى بين فريق المؤمنين من اتباع الرسول الأمين.

ويمكنكم الآن أن تتصوروا ما سيفعله أولئك الأوربيون متى قدموا إليكم وعلى رأسهم رجل كعلى بك، أيها المسلمون الموحدون... اعينونى على طرد عدو بلادكم وعدو شريعتكم، والا فتحملوا كل الشرور التى يعانيها أخوانكم فى الهند، والآن اعتقد أنى أديت واجبى كمسلم ولكم الخيرة بينى وبينه.

ونهض أبو الدهب متظاهرا بالانصراف فمنعه الجميع معلنين فى وقت واحد عزمهم الأكيد على الاستشهاد فى ساحة الجهاد، واستغل أبو الدهب فترة ذلك الحماس فأعلن فى المدينة أن كل «من أحب دينه ووطنه فليتقدم إلى حمل السلاح».

معركة الصالحية وأسر على بك:

وبذلك تمكن أبو الدهب من جمع جيش كبير سيره للقاء على بك بالصالحية، وبقى هو بالعادلية. وكتب القنصل الفرنسى بالقاهرة المسيو داميرات يقول فى ابريل ١٧٧٣ «أن زعماء البلد يثيرون الآن حربا دفاعية، والجميع يتطلعون إلى نتيجة ذلك الكفاح.

ولما سمع على بك تلك الأخبار السيئة أثرت فى نفسه تأثيرا سيئا، زاده سوءا شدة تعبه وقسوة حرارة الجو فوقع تحت براثن الحمى. ورغم وطأة المرض كان على بك يصمم على أن يشرف بنفسه وهو جالس عند باب فسطاطه على تدريب جنوده اليومى .

وصف التاجر لوزنيان التقاء الجيشين فقال «وبدت طلائع جيش أبى الدهب فى اليوم الثالث عشر من شهر ابريل. ورغم قلة عدد

جيشنا (جيش على بك) إلى حد كبير فانه كان قد نظم تنظيما محكما لملاقاة العدو.. فعهد بقيادة جناحنا الأيسر إلى الشيخين على وكريم، وبقيادة الجناح الأيمن إلى الطنطاوى والبكوات الآخرين، بينما جعل المشاة فى القلب، وبدأت المعركة فى الساعة الحادية عشرة صباحا على وجه التقريب. وصادف طنطاوى توفيقا فى الهجمة الأولى، ولكن على وكريم لم يكونا كذلك. ورغم هذا فقد لاحت تباشير النصر إلى جانبنا. ولكن انضم مشاتنا الخوتة المغاربة إلى جيش العدو، وعم الفزع. أما طنطاوى فقد أحيط به واستشهد، ولاقى على نفس المصير، ولما رأى الشيخ كريم مقتل أخيه ومعظم جنده فزع نحوى مع الشيخ حسن، ووصل ثلاثتنا إلى فسطاط على بك بصعوبة كبيرة.

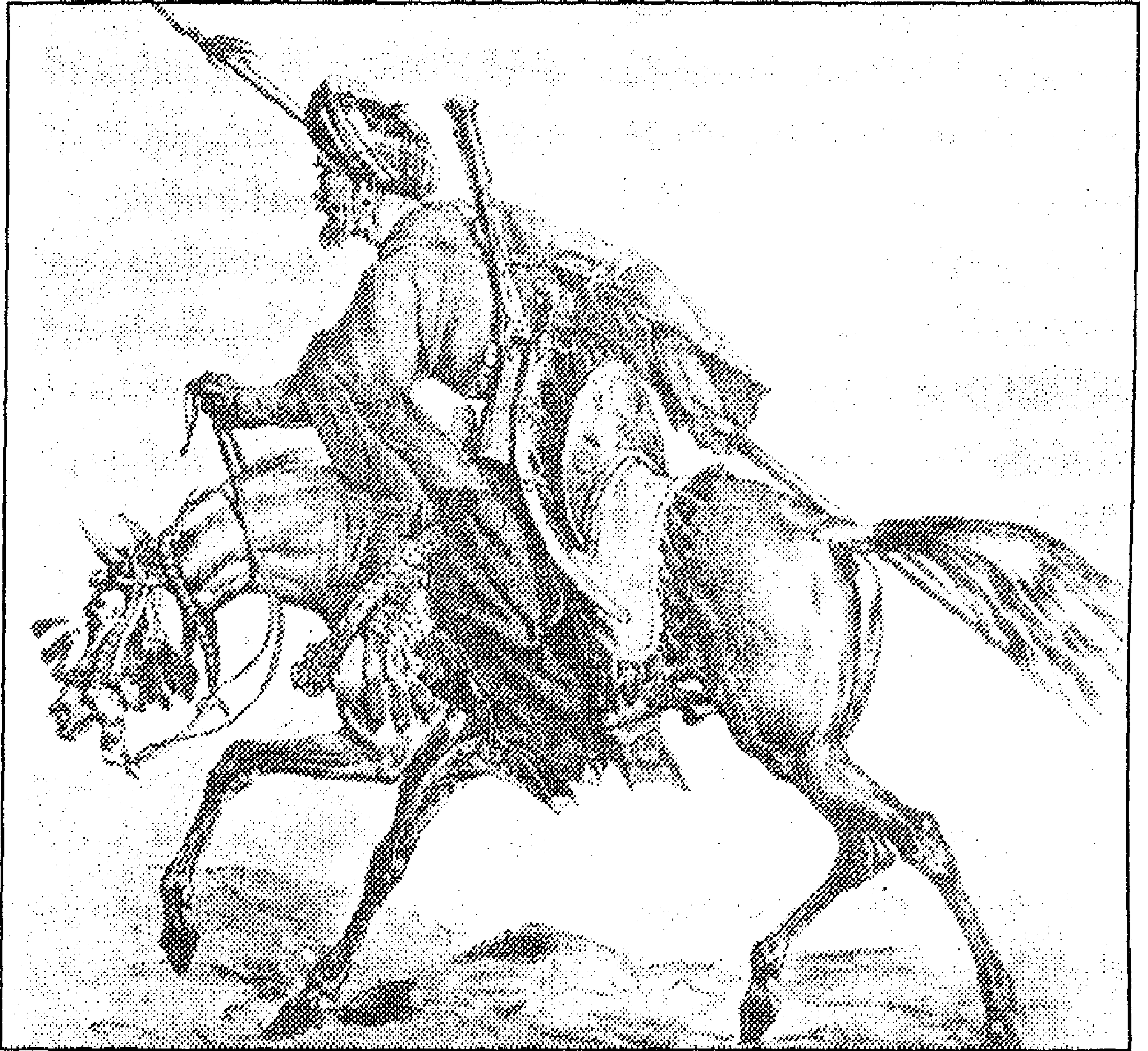
وما أن رآنا حتى قال فى لهفة: ما الخبر؟ فأجاب كريم، والدموع تنهمر من مآقية، إننا قد فقدنا كل شيء، وأنه ينبغى ألا تضيع الفرصة. ثم عرض عليه أن يمتطى صهوة جواده حتى نفر إلى غزة.

ولكن على بك ظل جامدا صامدا، وقال بلهجة اليقين أنه يفضل الاستشهاد على العودة، وبينما نحن كذلك أقبل رضوان بك.. وعندئذ سمح على بك بالفرار لكل من أراد النجاة قبل أن يقترب العدو. فصدعنا بالأمر واستأذناه فى الرحيل... وكانت الساعة حوالى الرابعة مساء» ولما وصل لوزنيان إلى غزة تبعه بعض من فروا فى مساء يوم الموقعة ووصفوا له خاتمة على بك فكتب يقول «وبعد رحيلنا بقليل هجم كخيا أبو الدهب ومعه حوالى الثلاثين رجلا على فسطاط على بك، واقتحموا بابه رغم مقاومة عشرة من مماليكه قتل وجرح فى أثنائها بعض المهاجمين، ولما أحاطوا بعلى بك فزع رغم مرضه إلى سيفه فشهره الدفاع عن نفسه وصرع أول قادم بضربة واحدة وجرح اثنين آخرين. وعندما تبين المهاجمون جرأة المدافع عن نفسه أطلقوا عليه النار فأصيب ذراعه الأيمن وابهامه بطلقتين، ولكنه لم ينفك يقاوم وأطلق النار عليهم بيده اليسرى فجرح الكخيا، ولكنه خر على الأرض طريحا بعد أن أصابت يده اليسرى طعنة سيف فحملوه جريحا أسيراً إلى فسطاط أبى الدهب.

واتفقت روايات المؤرخين على أن خيانة المرتزقة من مشاة المغاربة كانت العامل الأساسى فى هزيمة الصالحية، وهى أهم المواقع الثلاثة الحاسمة فى تاريخ على بك. وقد أكد المؤرخون دور الخيانة الذى قام به مراد بك فانه قاد جيش استاذه أبى الدهب

بعد أن وعده بمستولدة على بك الفائقة الجمال واسمها نفيسه وتلقب بأم المماليك، وكان مراد مولعا بحبها فاجتهد حتى كتب النصر لابى الدهب.

وبإنتهاء سلطة على بك الكبير، توقف مشروعه وعادت مصر إلى حالتها السابقة وسادت البلاد الفوضى والاضطراب واستبدت السلطنة العثمانية والمماليك بالمصريين مرة أخرى، ولم تحقق السلطنة العثمانية من عودة نفوذها إلا الخراب وعودة تلاعب الأمراء المماليك بالسلطة والنفوذ، وهذا هو موضوع الجبرتى فى الجزء الثالث*.



* أعتمدت هذه المقدمة على كتاب «على بك الكبير» تأليف: محمد رفعت رمضان دار الفكر العربى . القاهرة ١٩٥٠.

(١) ولعل هذا هو مشروع كل القبائل الرعوية فى الشرق الى هاجرت من أراضيها الاولى الفقيرة إلى الاقطار الزراعية المستقرة المجاورة لها، منذ الهكسوس والعبرانيين وبدو غرب آسيا (العرب) حتى التتار والمغول والسلاجقة والمماليك والترك والتى ذابت فى البلدان المجاورة لها ولم تتمكن من تأسيس أى دولة مستقرة بسبب تخلف عقيدتها الرعوية التى أتت معها وعدم قدرتها على تأسيس نظام اقتصادى سياسى يستوعب حضارات البلدان التى احتلتها.

(٢) فى التاريخ القديم للقبائل التركية كان الحكام الذين يقودون البطون القبلية منتخبين، ولم تكن مناصبهم تورث لابنائهم، غير ان هذا الوضع تغير شيئا فشيئا، وحل محله أن يصبح رئيسا من استطاع ان يقود مجموعة من العشائر أو البطون فى غارات منتصرة جلبت الغنائم. وصارت أسرة هذا القائد ترث امتيازاته ومركزه واحاطت نفسها بنوع من الحرس الشرفى الخاص وامتلكوا الاراضى القابلة للزراعة، فاطلق على الفرد منهم اسم «طره خان»، اى سيد الحرث (حرف هذا اللفظ فيما بعد الى طرخان).

(٣) صارت العائلات الارثوذكسية فيما بعد تدفع بابنائها طواعية إلى الخدمة السلطانية بسبب الفقر الشديد الذى كان تعانيه، ورغبة منها فى وصول اولادها الى المراكز العليا فى سلك الخدمة السلطانية، بل ان الرعايا المسلمين الفقراء دفعوا باولادهم الى نفس المصير طمعا فى هذه المزايا.

وقد أثرى من ذلك تجار العبيد بشكل اساسى فقد باتوا فى مرحلة تالية ولمواجهة الطلب المتزايد للسلطنة على هؤلاء الفتيان، يقومون بجمعهم وتوريدهم من مختلف البلدان الواقعة تحت يد السلطنة العثمانية.

(٤) الدوشرمة: وتعنى ضريبة الدم. كان هؤلاء العبيد بعد أخذهم صغارا يفرض عليه تدريب صارم من الناحيتين العقلية والجسدية، فكان أكثرهم استعدادا فى اللياقة العقلية والجسدية يختارون بمثابة «ايج او غلانات» ـ جمع ايج أوغلان أى غلمان البلاط ـ ثم يفرض عليهم تدريب خاص فى أحد قصور السلطان القديمة فى بروسه وأدرنه أو فى مدارس خاصة فى «غلطة» واستانبول ذاتها. وإلى جانب الايج او غلانات كان هناك جزء آخر من هؤلاء العبيد يطلق عليه اسم «عجمى اوغلان» ومعناها الحر فى «الغلمان الاجانب» ، وكانوا يدربون تدريبا قاسيا حتى يعوّدوا على قوة الاحتمال، وكان الذين لا يستطيعون منهم تكلم اللغة التركية يوضعون أولا فى خدمة عسكر السباهية الاقطاعيين فى الاناضول، ثم ينقلون بعد ذلك الى استانبول حيث يعاد اختبارهم بدقة، ثم يعينون لمهام مختلفة طبقا لقدراتهم ويصبحون بشكل مؤقت من هيئة القصر الامبراطورى، ثم يؤخذ عدد منهم إلى اوجاق «الجبه چيه» اى صانعى الاسلحة وصيانتها، وبذلك يدخلون الى الجندية، كما يعين آخرون من العجمى او غلان فى أوجاق البحرية فى كل من العاصمة

وغاليبولى، وهذا ما انتهى إليه أحمد البوشناقى ـ أحمد باشا الجزار والى عكا فيما بعد ـ فى فترة حياته الاولى بعد بيعه على يد تاجر العبيد. ومع ذلك فإنه يبدو ان آخرين منهم كان يؤجر لبعض القادرين من اصحاب المناصب بمثابة فعله وخدم خاص ـ كما حدث لأحمد البوشناقى عندما ألحق بخدمة على باشا حكيم أوغلى وانتقل معه إلى مصر ـ ولكن مصير معظمهم كان الانخراط فى سلك المشاة الثابتين، أى فى فرقة الانكشارية المشهورة.

(٥) يقول هاملتون جب وهارولد بوين فى كتابيهما «المجتمع الاسلامى» والغرب ص ٦٤» من سوء الحظ ان نضطر الى استعمال كلمة «عبيد» للاشارة الى اشخاص بهذا الوضع ـ فقد وصل بعضهم الى رتبه الباشا وحكم بعض الولايات ـ إذ هى كلمة غير مناسبة فى كل الأحوال. فالعبيد فى الاسلام متاع ـ أو كانوا متاعا ـ لساداتهم الذين كانت لهم عليهم حقوقا مطلقة، ولكن من النادر ان عبوديتهم تضمنت اية صرخة اجتماعية ، إذ لم تكن ثمة تفرقة بين أبناءالجوارى المولدين لسيد حر وبين أبناء الامهات الاحرار. ومعظم الخلفاء العباسيين فى بغداد ، وكذلك الاسر الحاكمة الاخرى التى تقل عنهم شأنا، كانوا من ابناء الجوارى، وهذا هو ايضا شأن كل السلاطين العثمانيين منذ أواسط القرن الخامس عشر ـ فيما عدا مراد الثانى ومحمد الثانى فقد تزوجا اميرات. زد على ذلك ان التاريخ الاسلامى قدم أمثلة عديدة لأسرات حاكمة من العبيد اشهرهم اسرات السلاطين المماليك فى مصر والعراق والشام. والمصيبة الكبرى ان هذا النظام قد تمخض عن ابعاد كل رعايا السلطنة الاحرار المسلمين عن هذه المناصب العليا وسقطت فى ايدى عبيد السلطان والمرتزقة منهم الذين مثلوا فيما بعد احد اسباب انهيار السلطنة بسبب تمرداتهم عليها ورفضهم لأى إصلاحات على المستوى العسكرى أو الإدارى.

(٦) فى الوقت الذى استقل فيه على بيك الكبير بمصر (١٧٦٨ -١٧٧٢) ، واستبد «ظاهر العمر» بفلسطين، واحتكر «ال العظم» السلطة فى ولاية الشام منذ أوائل الثامن عشر حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر، وكون «ال الجليلى» أسرة حاكمة فى الموصل (١٧٢٦ - ١٨٣٤)، وشابههم «حسن باشا» فى بغداد والبصرة فى النصف الاول من القرن الثامن عشر، ثم استولى المماليك على الحكم فى الولايتين حتى ١٨٣١ وأخيرا أسرة «القرمانلى» فى طرابلس الغرب (١٧١١ - ١٨٣٥). فى هذه الظروف استبد الجزار كذلك بحكم ساحل الشام وفلسطين لمدة تزيد على الثلاثين عاما.

(٧) فى هذه الظروف المتهالكة للسلطنة العثمانية وعدم قدرتها على مواجهة الاطما ع الاوروبية واطما ع الفئات العسكرية والدينية . كان حكام الولايات ينهبون إيرادات ولاياتهم دون ان يرسلوا أى منها للخزانة السلطانية حتى أنه

فى مصر التى كان يتبارى باشاتها فى زيادة الارسالية المالية للخزانة السلطانية، والتى حددها قانونامه مصر بـ ١٦ مليون بارة عام ١٥٣٤م، وزادها خسرو وباشا (حكم مصر بين ١٥٣٥ - ١٥٣٦)، إلى ٢٠ مليون بارة ثم بلغت ٣٠ مليون بارة فى عهد ابراهيم باشا (حكم مصر بين ١٦٦٠ - ١٦٦٣)، عادت وانكمشت إلى ١٩ مليون بار، ولم يعد الامر يقتصر على انقاصها فقط، بل تعداها إلى عدم ارسالها كلها نقدا، بل كان جزء منها يرسل على شكل إيصالات «تمسكات» على أمراء المماليك كان من النادر سدادها. وتطور الامر بعد ذلك إلى تأخر إرسالها، فخزينة عام ١٧٤٠ لم ترسل إلى فى عام ١٧٤٤، وكان المبلغ الواجب إرساله هو ١٨,٥١٢,٩٩٩ بارة فأرسل منه ٣,١٩٥,٦١٢ بارة فقط، أما الباقى فأرسل بدلا منه ايصالات على الامراء المماليك، ناهيك عن التلاعب والمبالغة فى رصد المصروفات من هذه الاموال السلطانية، ويكفى أن نذكر هنا أن متوسط مصروفات الحج الذى كان فى القرن السابع عشر حوالى ٥٤٠ ألف باره سنويا ارتفع إلى حوالى عشرة ملايين باره سنويا فى القرن الثامن عشر، كما يكفى أن نذكر هنا أن مراد بيك وابراهيم بيك تأخر عليهما من مال السلطان حوالى ١٠٣ مليون بارة، بالإضافة إلى تصرفهما فى مال «الحلوان» وكان من أهم موارد الخزانة السلطانية التى تأتيها من مصر حتى أنها كانت تفوق فى الكمية والانتظام ما كانت السلطنة العثمانية تحصل عليه من الايرادات الرسمية المقررة وكان ذلك يمثل خللا خطيرا فى ايرادات السلطنة.

(٨) الاباظة أو الابازة أو أباسيه. جنوب جبال القوقاز. اعتنق اهلها المسيحية فى القرن الرابع الميلادى ثم اسلموا. خضعوا للدولة البيزنطية ثم للفرس والجراكسة ثم العثمانيين ثم لروسيا سنة ١٨٢٤م.

(٩) نوسا الغيط: مركز أجا/دقهلية.

(١٠) وقلفه تحريف العربية خليفة وهو الوكيل أو معلم الصنعة أو الكاتب ذو مرتبة رئيسية. وباش قلفة معناها هنا ضابط حسابات أفندية الروزنامة، يقيد جميع إيراد مصر ومصروفاتها، ويحتفظ بسجل مال الكشوفية، ويعطى سندا إلى الملتزمين عندما يدفعون الميرى - والزعيم أى والى القاهرة وهو رئيس شرطتها، ولكنه تحت رياسة أغا اليكيجرية.

(١١) فرض على الأقباط ١٠٠,٠٠٠ ريال، وعلى اليهود ٤٠,٠٠٠ قبضت بسرعة.

(١٢) ينبغى أن نفرق بين مال الكشوفية وهى نفقات الإدارة المحلية، وميرى مال الكشوفية وهو ما يدفعه الكشاف للحكومة.

(١٣) شاع فى عهد على بك تسمية الميدى بالبارة.

(١٤) كانت المبالغ الكبيرة تقدر بالاكياس،و الكيس المصرى قدره ٢٥,٠٠٠ ميدى أو نصف فضة أو بارة ولم تكن النقود الذهبية شائع الاستعمال إلا للتهادى.

(١٥) كانت القيمة الاسمية لسيكوالى البندقية ودوقات المجر وهولندا فى مصر أزيد بخمس بارات من قيمتها الحقيقية.

(١٦) كان يدير دار الضرب أغا يعينه ديوان الاستانة فيسك العملة بأمر الباشا كلما تولى سلطان جديد أو احتاجت مصر إلى عملة جديدة ـ وكان يدفع عن ذلك ميرى للدولة وعوائد للباشا والكتخدا ومرتبات لعمال الدار ـ ولكن بتقوى المماليك، وعدم تسديدهم مال الميرى كاملا والعوائد المقررة للباشا تنازلت الدولة للباشا عن الاشراف على دار الضرب ليستعين بالربح الناتج من ذلك على تغطية مصروفاته ـ ثم باع الباشوات الربح مقدما لمشايخ البلد، حتى قام على بك بحركته فاستأثر بأرباحها.

(١٧) فى سنة ١٧٦٨ (١١٨١) أرسل على بك آخر خزنة إلى الاستانة عن سنة ١١٨٠ وكان أمير الخزنة عثمان بك أبو سيف وقد توفى بالأناضول قبل عودته (٢٨ شعبان ١١٨١).

(١٨) الخزنة أو الخزينة فى الاصطلاح العثمانى مقدار ما يبقى مما يجئ بمصر بعد انفاق كل ما قرر السلطان انفاقه وبعد النفقات المستجدة ـ وكانت تتكون من مال الأراضى الزراعية وميرى الوظائف ورسوم الجمارك والجوالى. ولم يكن مقدارها ثابتا بل تعرض كثيرا للزيادة والنقص فمثلا كانت فى سنة ١٠٤٩ (١٦٨٣) أى ضعف العدد الذى ذكرناه أى حوالى ٩٤١ كيسا، فى سنة ١٠٩١ (١٦٨٠) كانت حوالى ١٤٧,٥٨٨ جنيها مريا تقريبا إلخ انظر الامير عمر طوسون . مالية مصر ١٠٨ ـ ١١٥.

(١٩) جمرك البهار للبضائع الواردة الى السويس وهي في الطريق بين القاهرة والسويس، وأمين البحرين هو المشرف على ساحلى بولاق ومصر القديمة، وأمين الخردة هو المشرف على جميع الرسوم المفروضة على الملاهي.. الخ.

(٢٠) الريال = ٩٠ فضة أو بارة تقريبا وقد بلغ ١٦٠ فضة قبل الاحتلال الفرنسى.

(٢١)فرمان باشوى بتاريخ ١٤ رمضان ١١٧٥ ـ دفتر قيد الفرمانات الصادرةمن الباب العالى لمحروسة مصر. رقم ١ ص ١٤٢ مخزن تركى.

(٢٢) ذكر الرحالة بيرى Perry Part عدد الأوجاقات حوالى سنة ١٧٤٠: من ٦ ـ ٧ آلاف يكيجريان ، ٣ ـ ٤ آلاف عزبان، ألف متفرقة ، ألف جاوشان، ٥٠٠ لكل من الفرق الثلاثة الأخرى .

(٢٣) دفتر جراية وعليق خدمة الديوان سنة ١١٧٤ رقم ٥٥/٦٢ مخزن تركى ص٤

(٢٤) دفتر مسموح مذكورين مع مرتبات بدل مسموح عن محلول مقاطعة دباغ خانة سنة ١١٨٥ رقم ٥٥/١٣٣ مخزن تركى.

(٢٥) دفتر جراية اسبان جماعت كشيدة ديوان واجب ماه جمادين ١١٨٦ رقم ١٢٦ / ٥٥ مخزن تركى ، دفتر جراية جماعت واجب ماه محرم وصفر سنة ١١٨٦ رقم ١٣٤ /٥٥.

(٢٦) ابن دحلان ص٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٢٧) يقصد بالقصور البرانية الموجودة فى ضواحى القاهرة، وبيوت المنافى أى الذين نفاهم على بك وصادر أملاكهم ـ أما المتاولة فهم حلفاء ظاهر العمر من بلاد فلسطين على غاية من الشجاعة.

(٢٨) يظهر من رواية فولنى وسافارى ولوزنيان أن المقصود به اسماعيل بك لا مصطفى بك .

(٢٩) ابن دحلان ص٢٠٠ .

(٣٠) يقال ان موضع دار السعادة هو مكان التكية المصرية التى ازالتها الحكومة السعودية منذ عدة سنوات.

(٣١)هذا هو السبب فى تسمية حسن بك شبكة بالجداوى نسبة إلى جدة.

(٣٢) رغم أهمية هذه التجريدة فقد تجاهلها المؤرخون عن غير قصد. وانفرد الجبرتى بذكرها . وقد ترجم الجبرتى لعبد الرحمن أغا وقال عن تلك الحادثة أن على بك (أرسل المترجم إلى غزة حاكما وأمره أن يتحيل على سليط ويقتله. وكان رجلا ذا سطوة عظيمة وفجور. فلم يزل يعمل الحيلة حتى قتله فى داره، وأرسل رأسه إلى على بك بمصر، وهى أول نكتة تمت لعلى بك وبها طمع فى استخلاص الشام» .

(٣٣) ترجم له الجبرتى من اشهر مواقفه القضاء على سويلم بن حبيب،و انتصاراته فى الحجاز، وتأثيره على أبى الدهب فى حملة الشام ثم توليه الشياخة فيما بعد.

(٣٤) اشارة إلى معركة طبرية

(٣٥) ميخاليل بريك الدمشقى.تاريخ الدمشقيين وجه ١٣٦ . والمزيريب أو المزيرب حصن قديم قرب نابلس.

(٣٦) فضلنا ذكر هذاالكتاب كاملا لأهميته التاريخية .

(٣٧) هكذا كان على بك يلقب نفسه إشارة إلى تولية الحج (١١٧٧هـ ـ ١٧٦٣م) وفى ذلك دلالة على أنه لم يتخذ لنفسه لقب سلطان.

(٣٨) ربما كان يشير بذلك إلى حادثة وقعت فى ليلة ١٩ صفر ١١٨٤ (١٧٧١) ملخصها أن عثمان باشا لم يرض العرب فى أثناء عودته من الحج، اعتمادا على قوته فنهبوه ونهبوا الحجاج فسارع ظاهر إلى تعويضهم واشترى المنهوبات وأرسل العلم النبوى وعليه العقاب إلى الدولة ـ الصباغ ص ٧٥.

(٣٩) يشير إلى تدخل عثمان باشا فى أمور شرافة مكة، وما ترتب على ذلك من اضطراب ومنافسات.

(٤٠) يشير بذلك إلى أمرين: أولهما حملة الحجاز وقد اعتبرها إصلاحا لما أفسده عثمان باشا وثانيهما التجريدة التى أرسلها على غزة فخلصت أهلها من إفساد العريان وظلم عثمان.

(٤١) ذكر الأمير حيدر فى تاريخه جـ ص ٨٠٥ ـ ٨٠٦ أن الأمير منصور الشهابى كان يحقد على عثمان باشا لنصرته لشقيقه ومنافسه الأمير يوسف، فلما علم بدخول أبى الدهب إلى دمشق أرسل إليه ثلاثة أفراس

من جياد الخيل بالملابس لفاخرة، وكتب له جوابا يستعطف خاطره، وجهه إلى «الجناب العالي صاحب الفخر والجلال.. صدر صدارة الدولة المصرية أمير لواء عالي الشأن..» جاء فيه «أما بعد فإنه في أبرك الأوقات وأشرفها وأيمن الساعات وألطفها قد ورد علينا كتاب الجناب الشريف وفهمنا فحواه السامي المنيف واتضح لنا حلولكم السعيد بدمشق الشام على حسن تأييد وأكمل نظام، فقد حصل عند المخلص لكم بهجة لا تحد وسرور ليس له ند. وقد طربت لقدومكم الأقطار واستأمنت البلاد، وأطمأنت خواطر العباد . إلخ»

(٤٢) يرى بعض المؤرخين أن عدد الحملة مبالغ فيه. وأن جيشه لم يكن يتعد ثمانمائة مملوك وألف من المغاربة المرتزقة ـ وقد صاحب علي بك اثني عشر بيكا وهم علي بك الطنطاوي ورضوان بك ابن أخته، حسن بك، خليل بك، مراد بك ، إبراهيم بك (وهما غير مماليك أبي الذهب) وعبد الرحمن بك، ذو الفقار بك، عاكف بك وسليم أغا الانكشارية وسليمان كخيا.

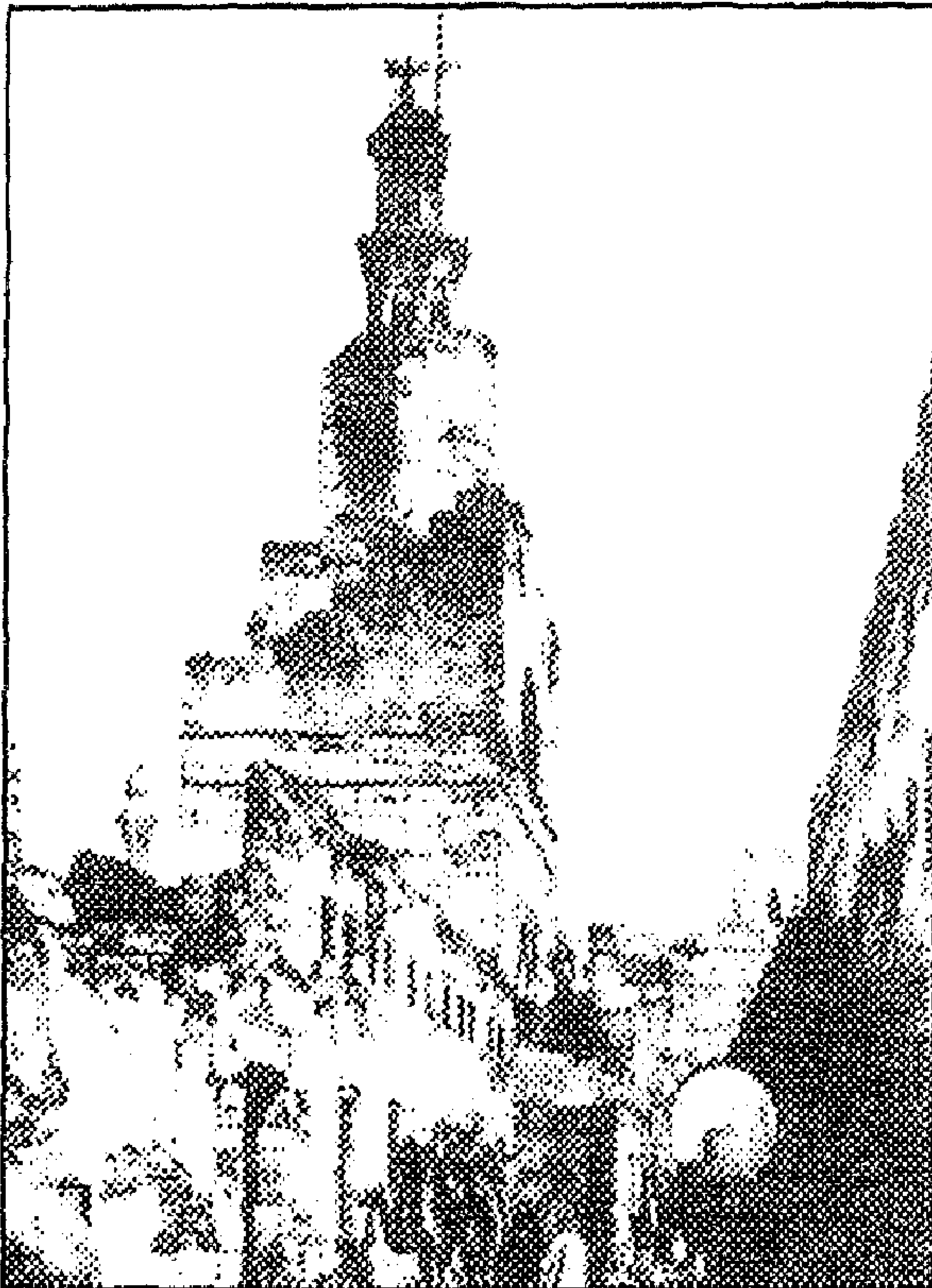
(٤٣) كان خليل بك ولطيف بك في الشمال الشرقي للمدينة وبينهما ماثنا ياردة ثم عبد الرحمن بك ومراد بك في الشرق، ومصطفى بك وعاكف بك في الجنوب.

(٤٤) عبد الرحمن أغا من أهالي طرابيرون له خبرة بالمدفعية.

(٤٥) كان بين القتلى في أثناء ذلك الحصار ابراهيم بك وهو ثاني البكوات الذين فقدهم علي بك في تلك الحملة ، بعد قتل أحمد بك في تجريدة انقاذ صيدا. وقد حمل رسالة علي بك الرابعة إلى القائد الروسي سليمان كخيا وذلك لان ذا الفقار كان مريضا مرضا أودى بحياته بعد قليل وهو ثالث من فقد علي بك من البكوات.

(٤٦) في كل المحاولات التي اتخذت لخيانة علي بك أو القضاء عليه لم تشترك فرقة اليكيجرى في واحدة منها، وبقيت على الحياد محتفظة بجميل علي بك وحسن معاملته.

(٤٧) الشريطة السرية يقصد بها اصطلاح بين الطرفين. وتسمى في عصرنا الحاضر «الشفرة».



فصل عود وانعطاف

فى ذكر حوادث مصر وتراجم أعيانها وولاتها من ابتداء سنة اثنتين وستين وماية وألف [١٧٤٧م] إلى أواخر سنة ثلاث وسبعين ومايةوألف [١٧٥٩م]

وذلك بحسب التيسير والإمكان،ومالا يدرك كله لا يترك كله، فنقول: لما عزل الجناب المكرم حضرة محمد باشا راغب فى الواقعة التى خرج فيها حسين بك الخشاب ومحمد بك أباظة ونزل من القلعة إلى بيت ذى عرْجَان[1] تجاه المظفر[2] كما تقدم، ثم سافر فى أواخر سنة إحدى وستين وماية وألف كما تقدم إلى ثغر رشيد، ووصل حضرة الجناب الأفخم أحمد باشا المعروف بكور وزير، وسبب تلقبه بذلك أنه كان بعينه بعض حول، فطلع إلى ثغر سكندرية ووصلت السعاة ببشاير قدومه فنزلت إليه الملاقاة وأرباب العكاكيز وأصحاب(ص٤٧٠) الخدم مثل كتخدا الجاويشية وأغات المتفرقة والترجمان وكاتب الحوالة وغيرهم وكان الكاشف بالبحيرة إذ ذاك حسن أغا كتخدا بك تابع عمر بك وتوفى هناك فأرسل عمر بك لكتخداه حسن أغا المذكور بأن يستمر فى المنصب عوضا عن مخدومه المتوفى حتى تتم السنة، وخرج عمر بك من مصر واستمر المذكور بالبحيرة إلى أن حضر أحمد باشا المذكور إلى سكندرية، فحضر إليه وتقيد بخدمته وجمع الخيول لركوب أغواته وأتباعه والجمال لحمل أثقاله، وقدم له تقادم وعمل له السماط بالمعدية حكم المعتاد، وعرفه بحاله ووفاة أستاذه وخروج سيدهم من مصر فخلع عليه الباشا صنجقية أستاذه

١١٦٣هـ.
١٤٦٦ق.
١٧٤٩م.
غاية الفيضان: ١ قيراط / ٢٣ ذراع

- ١ يناير ١٧٥٠ = ٢٥ كيهك ١٤٦٦= الخميس ٢٢ محرم سنة ١١٦٣.
- فى صفر / يناير ١٧٥٠، كانت سلطنة يوسف الأول على البورتغال.
- عزل أحمد باشا، المعروف بكور وزير، بعد أن حكم مصر سنتين، وتولى بعده شريف عبد الله باشا.
- فى جماد أول/ ابريل. كانت زلازل عظيمة فى انجلترة.
- فى جماد ثانى / مايو. كانت ترتيب الجندرمة فى فرانسا.
- ١ توت سنة ١٤٦٧ = ٩ سبتمبر ١٧٥٠ = الأربع ٧ شوال ١١٦٣.

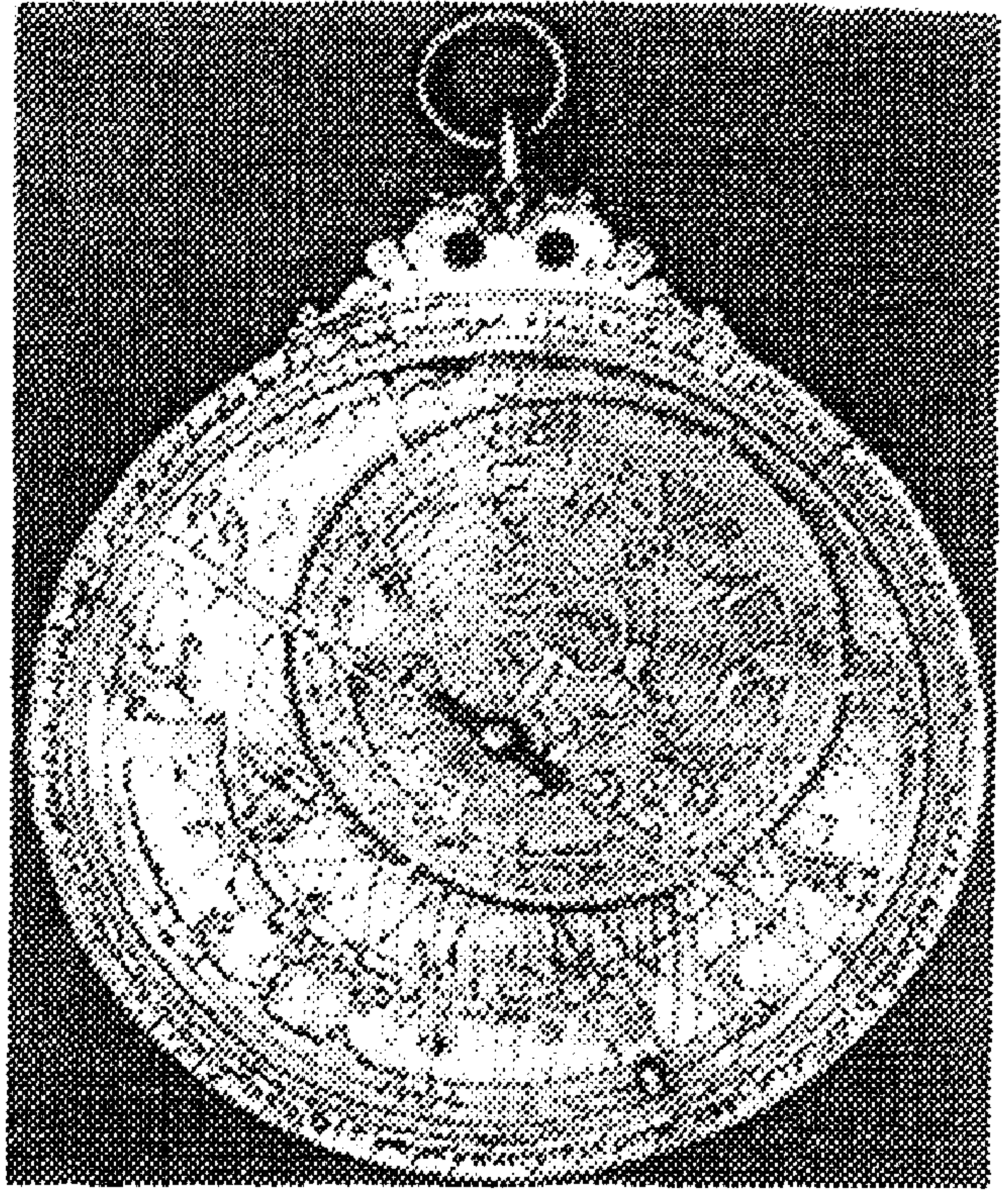
| ١٠٢ | أحمد باشا كور |

١١٦٤هـ.
١٤٦٧ق.
١٧٥٠م.
غاية الفيضان: ٠٠ قيراط / ٢٤ ذراع

- فى محرم/ نوفمبر وصل مصر واليها الجديد شريف عبد الله باشا.
- ١ يناير ١٧٥١ = ٢٥ كيهك ١٤٦٧ = الجمعة ٣ صفر سنة ١٦٦٤.
- فى ربيع أول / يناير ١٧٥١م كان ايجاد مهندسى القناطر والجسور فى فرانسا.
- فى ربيع ثان / فبراير، كان تأسيس المدرسة الحربية الفرنساوية فى سان دوماس.
- فى جماد أول / مارس كان بمصر سعر الأردب القمح ١٢٠ فضة، وطاقة الشاش ١١٠ فضة، ومقطع القماش ٦٠ فضة، والزر محبوب ١١٠ انصاف فضة.
- ١ توت سنة ١٤٦٨ = ١٠ سبتمبر ١٧٥١ = الجمعة ١٩ شوال ١١٦٤.

١١٦٥هـ.
١٤٦٨ق.
١٧٥١م.
غاية الفيضان: ١٣ قيراط / ٢٠ ذراع
□ في محرم / نوفمبر، كان بمصر ثمن القنطار المسلى ٨٠ فضة، وثمن راس الغنم كذلك.
□ ١ يناير ١٧٥٢ = ٢٤ كيهك ١٤٦٨ = السبت ١٣ صفر ١١٦٥.
□ في ربيع أول / يناير ١٧٥٢م انشا الأمير عبد الرحمن كتخدا جامع رحبة عابدين برحبة عابدين.
□ فيها ابتدأت الانجليز باستعمال التقويم الجريجورياني.
□ في جماد أول / مارس، اكتشف فرنكلين مانعة الصواعق.
□ ١ توت ١٤٦٩ = ٩ سبتمبر ١٧٥٢= السبت ٢٩ شوال ١١٦٥.
□ في ذو القعدة، سبتمبر، كان مايير أول من افتكر وتصور تكرار الزوايا.

وأعطاه بلاده من غير حلوان، وقال له «أنت صرت إشراقى» وذلك قبل وصول الملاقاة. ووصل خبر ذلك إلى مصر فأرسل المتكلمون إلى كتخدا الجاويشية يقولون له إن المذكور رجل ضعيف ولا يليق بالصنجقية، فقالوا للباشا ذلك فقال «قبل أن أطلع إلى بلدكم تعارضونى فى أحكامى وأنا مثل ما نصبته أكفيه» واغتاظ وقال «أنا أرجع من محل ما أتيت» فسكتوا ووصل إلى رشيد واجتمع هناك براغب باشا وسافر فى المركب التى حضر فيها أحمد باشا وحضر إلى مصر وطلع بالموكب المعتاد إلى القلعة فى غرة المحرم سنة اثنتين وستين ومائة وألف [١٧٤٨م]، وضربوا له المدافع والشنك من أبراج الينكجرية، وعمل الديوان وخلع الخلع على الأمرا والأعيان والمشايخ، وخلصت رياسة مصر وإمارتها إلى إبراهيم جاويش ورضوان كتخدا، وقلد إبراهيم جاويش مملوكه على أغا، وهو الذى عرف بالغزاوى، صنجقا، وكذلك حسين أغا وهو الذى عرف (ص ٤٧١) بكشكش، وكذلك قلد رضوان كتخدا أحمد أغا خازنداره صنجقا، فصار لكل واحد منهما ثلاثة صناجق وهم: عثمان وعلى وحسين الإبراهيمية، وإسماعيل وأحمد ومحمد الرضوانية. ثم إن إبراهيم جاويش عمل كتخدا الوقت ثلاثة أشهر وانفصل عنها، وحضر عبد الرحمن كتخدا القازدغلى من الحجاز وعمل كتخدا الوقت بباب مستحفظان سنتين، وشرع فى عمل الخيرات وبناء المساجد وأبطل الخمامير، وسيأتى تتمة ذلك فى ترجمته سنة وفاته، وأقام أحمد باشا فى ولاية مصر إلى عاشر شوال سنة ثلاث وستين ومائة وألف [١٧٤٩م]، وكان من أرباب الفضائل وله رغبة فى العلوم الرياضية، ولما وصل إلى مصر واستقر بالقلعة وقابله



الاسطرلاب المسطح، الذى كــان من اهم الاجهزة التي استخدمها الفلكيون في العصر الوسيط.

صــدور العلمــاء في ذلك الوقت وهم الشــيخ عــبـد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر والشيخ سالم النفراوى والشيخ سليمـان المنصورى، فتكلم معهم وناقشـهم وباحثـهم، ثم تكلم معهم فى الرياضيات فأحجموا «وقالوا لا نعرف هذه العلوم، فتعجب وسكت، وكان الشيخ عبد الله الشبراوى له وظيفة الخطابة بجامع السراية، ويطلع في كل يوم جمعة ويدخل عند الباشا ويتحدث معه ساعة وربما تغدى معه، ثم يخرج إلى المسجد ويأتى إلى الباشا فى خواصه فيخطب الشيخ ويدعو للسلطان وللباشا ويصلى بهم ويرجع الباشا إلى مجلسه وينزل الشيخ إلى داره، فطلع الشيخ على عادته فى يوم الجمعة واستأذن ودخل عند الباشا يحادثه، فقال له البـاشـا «المسـمـوع عندنا بالديار الرومـيـة أن مـصـر منبع الفـضـايل والعلوم، وكنت فى غاية الشـوق إلى المجى إليـهـا

فلما جيتها وجدتها كما قيل (تسمع بالمعيدى خير من أن تراه) (ص٤٧٢)» فقال له الشيخ «هي يا مولانا كما سمعتم معدن العلوم والمعارف» فقال «وأين هى وأنتم أعظم علمائها؟ وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئاً، وغاية تحصيلكم الفقه المنقول والوسائل، ونبذتم المقاصد» فقال له «نحن لسنا أعظم علمائها وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرايض والمواريث كعلم الحساب والعيار[٣] » فقال له «وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية بل هو من شروط صحة العبادة كالعلم بدخول الوقت واستقبال القبلة وأوقات الصوم والأهلّة وغير ذلك» فقال «نعم معرفة ذلك من فروض الكفاية، إذ قام به البعض سقط عن الباقين، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية كرقة الطبيعة وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل والأمور العُطارِدية، وأهل الأزهر بخلاف ذلك غالبهم فقراء وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق فيندر فيهم القابلية لذلك» فقال «وأين البعض؟» فقال «موجودون فى بيوتهم يُسعى إليهم» ثم أخبره عن الشيخ الوالد وعرفه عنه وأطنب فى ذكره، فقال «ألتمس منكم إرساله عندى» فقال يا مولانا «إنه عظيم القدر وليس هو تحت أمرى» فقال «وكيف الطريق إلى حضوره؟» قال «تكتبون له إرسالية مع بعض خواصكم فلا يسعه الامتناع» ففعل ذلك وطلع إليه ولبى دعوته وسر برؤياه واغتبط به كثيراً، وكان يتردد إليه يومين (ص٤٧٣) فى الجمعة وهما السبت والأربعا، وأدرك منه مأموله وواصله

* احمد باشا يهاجم علماء الأزهر بسبب تخلفهم العلمى.
والسؤال هنا.. لما لم يحاول هذا الباشا بعد أن عرف حالة المشايخ أن يساعد على رفع مستواهم العلمى بصفته المسئول عن مصر؟.

١١٦٦هـ.
١٤٦٩ق.
١٧٥٢م.
غاية الفيضان: ١٧ قيراط / ٢٠ دراع
- ١ يناير سنة ١٧٥٣ = ٢٥ كيهك سنة ١٤٦٩ = الاثنين ٢٥ صفر ١١٦٦.
- فى ربيع أول/ يناير ١٧٥٣م، كانت الأسعار بمصر رخية والأحوال مرضية.
- فيها عزل شريف عبد الله باشا. والى مصر، بعد أن حكمها ثلاث سنين. وتولى بعده محمد أمين باشا.
- كان إنشاء المتحف (أى دار الانتيكات) البريطانى.
- فى شوال/ أغسطس توفى والى مصر محمد أمين باشا، ولم يحكم إلا شهرين، فتولى عليها بعده مصطفى باشا.
- ١ توت ١٤٧٠ = ٩ سبتمبر ١٧٥٣ = الأحد ١١ دو القعدة سنة ١١٦٦.

بالبر والإكرام الزائد الكثير، ولازم المطالعة عليه مدة ولايته، وكان يقول «لو لم أغنم من مصر إلا اجتماعي بهذا الأستاذ لكفاني» ومما اتفق له لما طالع (ربع الدستور) وأتقنه طالع بعده (وسيلة الطلاب فى استخراج الأعمال بالحساب) وهو مؤلَّف دقيق للعلامة الماردينى، فكان الباشا يختلى بنفسه ويستخرج منه ما يستخرجه بالطرق الحسابية، ثم يستخرجه من التجييب فيجده مطابقا، فاتفق له عدم المطابقة فى مسألة من المسائل، فاشتغل ذهنه وتحير فكره إلى أن حضر إليه الأستاذ فى الميعاد فأطلعه على ذلك وعن السبب فى عدم المطابقة فكشف له علة ذلك بديها، فلما انجلى وجهها على مرآة عقلة، كاد يطير فرحاً وحلف أن يقبل يده ثم أحضر له فروة من ملبوسه السمور، باعها المرحوم بثمانمائة دينار، ثم اشتغل عليه برسم المزاول والمنحرفات حتى أتقنها، ورسم على اسمه عدة منحرفات على ألواح كبيرة من الرخام صناعة وحفراً بالأزمير [الأزميل] كتابة ورسماً، وعمل له تاريخاً منظوما نقشه عليها وهو هذا.

مـــــــزولة مـــــــتـــــــقنة
نـظيـــــــــرها لا يـوجـــــــــد
راســـمـــهـــا حـــاســـبـــهـــا
هـذا الـوزيـر الأمـــــــجـــــــد
تـاريـخـــــــهـــــا أتقنهـــــا
وزير مـــــصـــــر أحـــــمـــــد

ونصب واحدة بالجامع الأزهر فى ركن الصحن على يسار الداخل بالركن فوق رواق معمّر، وهى لفضل داير العصر والغروب، وأخرى بسطح جامع الإمام الشافعى وفيها خيط

١١٦٧ هـ.
١٤٧٠ ق.
١٧٥٣م.
غاية الفيضان: ١٧ قيراط / ٢٢ دراع
- ١ يناير ١٧٥٤ = ٢٥ كيهك ١٤٧٠ = الثلاث ٦ ربيع أول ١١٦٧.
- فيها وقعت حروب بين الفرنساوية والانجليز فى كندا.
- فيها كانت معاهدة مادراس بين الفرنساوية والانكليز.
- فيها عصت اهالى قورسقة على الجنويزيين.
- فيها اعيد ترتيب البرلمان فى باريس.
- ١ توت سنة ١٤٧١ = ٩ سبتمبر ١٧٥٤ = الاثنين ٢١ ذو القعدة ١١٦٧.
- فى ١٣ القعدة حصلت زلازل عظيمة فى الأستانة ومصر.



* مخطوط قبطي: صفحة ناقصة من انجيل مصرى قبطى، تمثل العماد فى نهر الأردن. يرقى تاريخ الكتاب الى ١٧٨ - ١١٨٠ وقد ترجمه من اليونانية ميخايل اسقف دمياط. المكتبة الوطنية باريس.

(ص٤٧٤) مساترة، وفضل داير، وقسى عصر، وفضل داير الغروب، وأخرى بمشهد السادات الوفائية وهى بشخص واحد للظهر والعصر وغير ذلك، وكان المرحوم الشيخ عبد الله الشبراوى كلما تلاقى مع المرحوم الوافد يقول له «سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا، فإنه لولا وجودك كنا جميعاً عنده حميراً» فرحم الله الجميع.

١٠٣ عبد الله باشا.

ووصل الخبر بولاية الشريف عبد الله باشا ووصل إلى سكندرية ونزل أحمد باشا إلى بيت البير قدار وسافرت الملاقاة للباشا الجديد ثم وصل إلى مصر فى شهر رمضان سنة أربع وستين ومائة وألف [١٧٥٠م] وطلع إلى القلعة، فأقام فى ولاية مصر إلى سنة ست وستين ومائة وألف، ثم عزل عن مصر وولى حلب فنزل إلى القصر بقبة العزب وهاداه الأمراء ثم سافر إلى منصبه، ووصل محمد باشا أمين

١٠٤ محمد باشا الأمين.

فطلع إلى القلعة وهو منحرف المزاج، فأقام فى الولاية نحو شهرين وتوفى فى خامس شهر شوال سنة ست وستين ومائة وألف [١٧٥٢م] ودفن بجوار قبة الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه.

وفى هذا التاريخ أحضر بترك الأروام مرسوما سلطانياً يمنع طائفة النصارى الشوام من دخولهم كنائس الإفرنج، وإن دخلوا فإنهم يدفعون للدولة ألف كيس، فأرسل إبراهيم كتخدا فأخذ أربعة قسوس من دير الإفرنج وحبسهم وأخذ منهم مبلغاً عظيما من المال واستمر نصارى الشوام يدخلون كنائس الإفرنج ولعلها من تحيلات إبراهيم كتخدا.

ومن الحوادث أيضا فى نحو هذا التاريخ أن نصارى الأقباط قصدوا الحج إلى بيت المقدس، وكان كبيرهم إذ ذاك نوروز كاتب (ص٤٧٥) رضوان كتخدا، فكلم الشيخ عبد الله الشبراوى فى ذلك وقدم له هدية وألف دينار، فكتب له فتوى وجوابا ملخصه أن أهل الذمة لا يمنعون من دياناتهم وزياراتهم، فلما تم لهم ما أرادوا شرعوا فى قضاء أشغالهم وتشهيل أغراضهم وخرجوا فى هيئة وأبهة وأحمال ومواهى، وتختروانات فيها نساؤهم وأولادهم ومعهم طبول وزمور ونصبوا لهم عرضيا(*) عند قبة العزب، وأحضروا العربان ليسيروا فى خفارتهم وأعطوهم أموالا وخلعا وكساوى وإنعامات، وشاع أمر هذه القضية فى البلد واستنكرها الناس، فحضر الشيخ عبد الله الشبراوى إلى بيت الشيخ البكرى كعادته، وكان على أفندى أخو سيدى بكرى متمرضا، فدخل إليه يعوده فقال له «أى شىء هذا الحال يا شيخ الإسلام؟» على سبيل التبكيت «كيف ترضى وتفتى النصارى وتأذن لهم بهذه الأفعال لكونهم أرشوك وهادوك؟» فقال «لم يكن ذلك»

* الأقباط يجهزون لقافلة حاج إلى القدس فيعتدى عليهم المتعصبون.

* عرضيا: المقصود به هنا معسكر به عدة خيام للجند.

قال «بل أرشوك بألف دينار وهدية، وعلى هذا تصير لهم سنّه، ويخرجون في العام القابل بأزيد من ذلك، ويصنعون لهم محملا ويقال حج النصارى وحج المسلمين وتصير سنّة عليك وزرها إلى يوم القيامة» فقام الشيخ وخرج من عنده مغتاظا وأذن للعامة فى الخروج عليهم ونهب ما معهم، وخرج كذلك معهم طايفة من مجاورى الأزهر فاجتمعوا عليهم ورجموهم وضربوهم بالعصى والمساوق ونهبوا ما معهم وجرسوهم ونهبوا أيضا الكنيسة القريبة من دمرداش وانعكس النصارى فى هذه الحادثة عكسة بليغة وراحت عليهم وذهب ما صرفوه وأنفقوه فى الهباء. (ص٤٧٦)

١٠٥ مصطفى باشا بلطجى.

(وحضر مصطفى باشا) وطلع إلى القلعة ثالث عشر ربيع الأول سنة سبع وستين ومائة وألف [١٧٥٣م] واستمر واليا على مصر إلى أن ورد الخبر بعزله فى أوائل شهر ربيع الأول سنة تسع وستين ومائة وألف، وولاية حضرة الوزير المكرم على باشا حكيم أوغلى(٤) وهى ولايته الثانية، وطلع إلى سكندرية ونزلت إليه الملاقاة وأرباب المناصب والعكاكيز، ثم حضر إلى مصر وطلع إلى القلعة يوم الاثنين غرة شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة وسار فى مصر سيرته المعهودة وسلك طريقته المشكورة المحمودة، فأحيا مكارم الأخلاق، وأدرّ على رعيته الأرزاق، بحلم وبشر رُبى عليهما فكانا له طبعا وصدر رحب لا يضيق بنازلة ذرعا كما قيل.

١٠٦ على باشا حكيم (مدةثانية).
كانت نيابته الأولى عام ١١٥٣ = ١٧٤٠م
والثانية عام ١١٦٩ = ١٧٥٥م.
وحضر فى صحبته هذه أحمد البوشناقيذى
عرف بعد ذلك باسم أحمد باشا الجزار
والذى عمل بعد ذلك ى بك الكبير.
وكانزميلا لمحمد بك أبو الدهب

خلق كماء المزن طيب مذاقه
والروضة الغناء طيب نسيم
كالغيث إلا أن جود يمينه
أبدا * وجود الغيث غير مقيم

* أبدا: المقصود أن جوده دائم للأبد.

كـــالدهر لكن فـــيـــه حلم واسع
عـــمن جنى والدهرُ غـــيـــرُ حليم
كـــالســـيف إلا أنه ذو رحـــمـــة
والسـيف قـاسي القلب غـيـر رحـيم

واستمر في ولاية مصر إلى شهر رجب سنة إحدى وسبعين ومابة وألف [١٧٥٧م].

(ذكر من مات فى هذه الأعوام من العلما والأعيان)

٢٣٢ محمد القلينى.
ت / ١١٦٤ هـ = ١٧٥١م.

[مات] الإمام العلامة شيخ المشايخ شمس الدين الشيخ/ محمد القلينى الأزهرى، وكان له كرامات مشهورة ومآثر مذكورة منها أنه كان ينفق من الغيب لأنه لم يكن له إيراد ولا ملك ولا وظيفة ولا (ص٤٧٧) يتناول من أحد شيئا وينفق إنفاق من لا يخشى الفقر، وإذا مشى فى السوق تعلق به الفقراء فيعطيهم الذهب والفضة، وإذا دخل الحمام دفع الأجرة عن كل من فيه. توفى سنة أربع وستين ومائة وألف.

٢٣٣ محمد بن أحمد العشماوى.
ت ١١٦٧ هـ = ١٧٥٤م.

١١٦٨ هـ.
١٤٧١ ق.
١٧٥٤ م.
غاية الفيضان: ٧ قيراط / ٢٣ ذراع
□ في ٢١ صفر كانت وفاة السلطان محمود الأول ابن السلطان مصطفى الثانى، وله من العمر ٦٠ سنة، حكم منها ٢٥ سنة، وفى ٢٨ منه تسلطن بعده السلطان عثمان خان الثالث ابن السلطان مصطفى الثانى.
□ ١ يناير سنة ١٧٥٥ = ٢٥ كيهك ١٤٧١ = الأربع ١٧ ربيع أول ١١٦٨.

[ومات] الشيخ الإمام الفقيه المحدث المسند/ محمد بن أحمد بن يحيى بن حجازى العشماوى الشافعى الأزهرى، تفقه على الشيخ عبده الديوى والشهاب أحمد بن عمر الديربى، وسمع الحديث على الزرقانى، وبعد وفاته أخذ الكتب الستة عن تلميذه الشهاب أحمد بن عبد اللطيف المنزلى وانفرد بعلو الإسناد. وأخذ عنه غالب فضلاء العصر. توفى يوم الأربعاء ثانى عشرين جمادى الأولى سنة سبع وستين ومائة وألف ودفن بتربة المجاورين، وقال بعض شعراء الوقت وهو السيد حسين الإدكوى قصيدة فأنشدت وقت

□ فيها استولت الانكليز على ٣٠٠ سفينة تجارية فرنساوية.
* فيها كانت زلازل فى كيتو وفى لسبون.
□ فيها كان اكتشاف اثار بويمبيه
□ ١ توت ١٤٧٢ = ١٠ سبتمبر ١٧٥٥ = الأربع ٣ ذو الحجة ١١٦٨.

الصلاة عليه على الدكة مطلعها:

مــا بين حــرقــة أدمــعى وتولهى
نارٌ يؤجــجــهــا لهــيب تولهى
وحُــشــاشــة ذابت وقلب كلمــا
وجــهــتــه للصــبــر لم يتــوجــه
يا حــســرتى والبين صــال ومــقلتى
فى حَنْدس الغــفــلات لم تنتــبــه
حــتى أباد القطب شــمس الدين مَن
من بعــده العلمــاء لم تتــفــوه
يا أمــة الاســلام يا أهل الهــدى
علمــاءه من مــبــتــدى أو منتــهى
قد مات عشماويكم تباً لمن (ص٤٧٨)
بالمجــد عن ثوب التــأسف ينتــهى
يا حــزنُ دم يا دهرُ سم رتب التــقى
من بعــده وافــعل بهــا مــا تشــتــهى
يا أرضُ مــدى يا ســمــاء تشــقــقى
يا شــمــس نوحى يا نجــوم تأوهى
يا أعين الفــضــلاء فى روض له
من بعـــده بالله لا تتــنزهى
مَنْ بعــدَه للتــرمــذىّ ومــسلم
أو للبــخــارىّ الصــحــاح الأوجــه
مــات التُــقى والزهد معّه قد انطوى
فى قــبــره من رامــه لم يشــبــه
يارب عــوض فــيــه ملة أحــمــد
خــيــراً به يا من إليــه توجــهى

١١٦٩ هـ.
١٤٧٢ ق.
١٧٥٥م.
غاية الفيضان: ١٧ قيراط/ ٢٢ ذراع
□ ١ يناير سنة ١٧٥٦ = ٢٤ كيهك ١٤٧٢ = الخميس ٢٨ ربيع أول ١١٦٩.
□ فيها كان ابتداء حروب السبع سنين.
□ فيها كان اتحاد الانكليز والبروسيا.
□ فيها عزل مصطفى باشا، بعد ان حكم مصر ثلاث سنين، وتولى بعده على باشا حكيم أوغلى، وهذه هي ثانية ولاية له على مصر.
□ فيها كان انهزام النمساويين فى لو. أمام البروسيانين.
□ فيها كانت معاهدة فرساليه بين النمسا وفرانسا.
□ ١ توت ١٤٧٣ = ٩ سبتمبر ١٧٥٦ = الخميس ١٤ ذو الحجة سنة ١١٦٩

فــالشــافــعى نادى ليــوم مــصـــابه
أواه ضـــاع مـــذهبى وتفـــقـــــهى
ياروحـــــه فى جنة الفــــردوس مِن
نعـم الإله تنـعــــــمى وتفكـهى
فى روضــــة أرخــتــــه بجــــواره
لمحــمــد مــهـمــا أحب ويشــتــهى

ولما بلغت هذه المرثية الشيخ أحمد الجوهرى، أنكر هذا الإطراء البالغ، وشدد على قوله (من بعده العلماء لم تتفوه) وقال «هو رفيقنا ونعرف ما عنده من البضاعة» وكأنه حصل له في نفسه مثل ما يحصل للمعاصر في معاصره، والله تعالى يعفو عن الجميع بإحسانه.

٢٣٤ سالم ابن محمد النفراوى.
ت / ١١٦٨ هـ = ١٧٥٥م.

[ومات] الشيخ الإمام العلامة/ سالم بن محمد النفراوى المالكى الأزهرى المفتى الضرير، أخذ عن الشيخ العمدة أحمد النفراوى الفقه، وأخذ الحديث عن الشيخ محمد الزرقانى والشيخ محمد (ص٤٧٩) بن علاء الدين البابلى ببيته بالأزبكية والشبراملسى وغيرهم، وكان مشهورا بمعرفة فروع المذهب واستحضار الفروع الفقهية، وكانت حلقة درسه أعظم الحِلَق وعليه مهابة وجلالة. توفى يوم الخميس سادس عشرين شهر صفر سنة ثمان وستين ومائة وألف.

٢٣٥ سليمان ابن مصطفى بن عمر المنير.
ت / ١١٦٩ هـ = ١٧٥٦م.

[ومات] الشيخ الفقيه المفتى العلامة/ سليمان بن مصطفى بن عمر ابن الولى العارف الشيخ محمد المنير المنصورى الحنفى أحد الصدور المشار إليهم، ولد سنة سبع وثمانين وألف بالنقيطة إحدى قرى المنصورة، وقدم الأزهر فأخذ عن

شيوخ المذهب كشاهين الأرمناوى وعبد الحى بن عبد الحق الشرنبلالى وأبى الحسن على ابن محمد العقدى وعمر الزهرى وعثمان النحريرى وفايد الإبيارى شارح الكنز، فأتقن الأصول ومهر فى الفروع ودارت عليه مشيخة الحنفية ورغب الناس فى فتاويه، وكان جليل القدر عالى الذكر مسموع الكلمة مقبول الشفاعة، توفى سنة تسع وستين ومائة وألف.

٢٣٦ عمر بن محمد ابن عبد الله الشنوانى
ت / ١١٦٧ هـ = ١٧٥٤م.

[ومات] الشيخ الإمام الفاضل الصالح الشاعر الأديب/ عمر بن محمد بن عبد الله الحسينى الشنوانى من ولد القطب شهاب الدين العراقى دفين شنوان، قرأ على أفاضل عصره وتكمل فى الفنون وألقى دروساً بالأزهر، توفى فى رجب سنة سبع وستين ومائة وألف.

٢٣٧ صالح الفلاح أو جلبى مؤسس بيت الفلاح.

[ومات] الأجل المكرم الحاج/ صالح الفلاح، وهو أستاذ الأمراء المعروفين بمصر المشهورين بجماعة الفلاح وينسبون إلى القازغلية، وكان متمولا ذا ثروة عظيمة وشح، وأصله غلام يتيم فلاح من قرية من قرى المنوفية (ص٤٨٠) يقال لها الراهب، وكان والده خادماً لبعض أولاد شيخ البلد فانكسر عليه المال فرهن ولده عند الملتزم وهو على كتخدا الجلفى ومعه صالح هذا وهما غلامان صغيران فأقاما ببيت على كتخدا حتى غلّق أبوه ما عليه من المال واستلم ابنه ليرجع به إلى بلده فامتنع صالح وقال «أنا لا أرجع إلى البلد» وألف المقام بيت الملتزم واستمر به يخدم مع صبيان الحريم، وكان نبيها خفيف الروح والحركة، ولم يزل يتنقل فى الأطوار حتى صار من أرباب الأموال، واشترى المماليك والعبيد والجوارى ويزوجهم من بعضهم ويشترى لهم الدور

١١٧٠ هـ.
١٤٧٣ ق.
١٧٥٦ م.
غاية الفيضان: ١٢ قيراط/ ٢٤ ذراع
- ١ يناير ١٧٥٧ = ٢٥ كيهك ١٤٧٣ = السبت ٩ ربيع الثانى ١١٧٠.
- فيها مات ابراهيم كيخيا فانتقلت الكلمة العتقائه.
- فيها انشأ الأمير عبد الرحمن كتخدا جامع الكردى بالحسينية.
- فيها كانت سيادة الانكليز فى الهند بعد حرب بلاسى.
- ١ توت ١٤٧٤ = ٩ سبتمبر سنة ١٧٥٧ = الجمعة ٢٤ ذو الحجة ١١٧٠.



والإيراد ويدخلهم فى الوجاقات والبلكات بالمصانعات والرشوات لأرباب الحل والعقد والمتكلمين، وتنقلوا حتى تلبسوا بالمناصب الجليلة كتخدايات واختيارية وأمراء طبلخانات وجاويشية وأوده باشية وغير ذلك، حتى صار من مماليكه ومماليكهم من يركب فى العذرات(٤) فقط نحو المائة، وصار لهم بيوت وأتباع ومماليك وشهرة عظيمة بمصر وكلمة نافذة وعزوة كبيرة، وكان يركب حمارا ويعتم عمة لطيفة على طربوش وخلفه خادمه، ومات فى سن السبعين ولم يبق فى فمه سن، وكان يقال له صالح چلبى والحاج صالح، وبالجملة فكان من نوادر الزمن، وكان يقرض إبراهيم كتخدا وأمراء بالمائة كيس وأكثر وكذلك غيرهم ويخرج الأموال بالربا والزيادة، وبذلك انمحقت دولتهم وزالت نعمهم فى أقرب وقت، وآل أمرهم إلى البوار هم

بعض التحولات في النظام المملوكي في ظل الإحتلال العثماني

إن واحدة من أهم الفروق بين المجتمع المملوكى فى ظل السلطنة المملوكية، والمجتمع المملوكى فى ظل الإحتلال العثمانى كان يتمثل فى الأسماء التى حملوها. ففى ظل السلطنة المملوكية كانوا يحملون أسماءً تركيةً أو أسماءً أخرى غير عربية، بينما نجد أنهم فى ظل الإحتلال العثمانى يحملون أسماءً عربيةً وذلك فيما عدا بعض الأستثناءات القليلة.

إن هذا التحول فى الأسماء كان أمراً لا مفر منه تحت الإحتلال العثمانى وذلك لأن الطبقة الحاكمة العثمانية كانت تحمل أسماءً عربية بصفتها سلطة إسلامية، ومن ثم فإنه كان سيبدو أمراً شاذاً أن تسمح السلطة العثمانية بوجود طائفة مشاركة لها فى الحكم تحمل أسماءً مثل «بيبرس»، «قلاوون»، «إينال» «قنصوه» «طومان باى»، وغير ذلك. ذلك أن هذه الاسماء بالإضافة إلى عمقها التاريخى وتمثيلها لعدو (فى السابق) تم قهره، يشكل خروج عن النظام الإسلامى العام الذى تدعيه السلطنة العثمانية، وتمييزاً عن بقية رعايا السلطنة فى مصر، بل أكثر من ذلك تميزاً عن رموز السلطنة العثمانية. ومن ثم وجد المماليك أنفسهم مضطرين لنبذ أسمائهم القديمة والتسمى بالأسماء العربية الإسلامية.

إن هذا التحول إلى الأسماء العربية يبدو أنه قد تم بسرعة كبيرة حتى أننا عندما نقرأ الجبرتى نجد أنه يخبرنا فى بداية تاريخه بقائمة أسماء أهم خمسة عشر سنجق فى مصر فى بداية القرن الثانى عشر الهجرى، لا نجد منهم سوى شخصاً واحداً يحمل اسم تركى هو «قنصوه» كما أنه عندما يذكر أسماء الأمراء الأربعون الذين قتلهم محمد على فى مذبحة القلعة المشهورة لا نجد منهم سوى اثنين يحملون أسماءً تركية هم شاهين ورستم. ومن الممكن أن نجد لدى الجبرتى أسماءً تركية أخرى «ايواظ»، «لاچين»، ولكنها فى النهاية استثناءات لا قاعدة.

النتائج العملية للتحول نحو الأسماء العربية الإسلامية

إن التحول إلى الأسماء العربية فى ظل الحكم العثمانى ينم عن نتائج بعيدة المدى وذلك انه فى ظل السلطنة المملوكية كان ابناء المماليك «على عكس آبائهم» يتسمون بأسماء عربية.

وهكذا فإن الإسم العربى لإبن المملوك كان يستخدم كتعبير عن عزل الإبن وإبعاده عن الطبقة الحاكمة العليا، ومن جانب آخر بوصفه خطوة نحو التمصير واستيعابه فى إطار السكان المحليون.

وهكذا نجد أن حاجز الإسم قد انهار عن الطبقة المملوكية، مما شكل إلى جانب عامل آخر أكثر أهمية ـ وهو إنهيار منظومة الرق عبر السلطنة العثمانية فى أواخر عهدها ـ فى توطد نظام وراثة الابناء لمناصب الآباء فى ظل الاحتلال العثمانى.

يظهر ذلك واضحاً فى الامثلة الآتية:
عندما مات درويش بك نجد أن ايوب كاشف قد اصبح صنجقا بدلاً منه «لان ابن المتوفى كان لايزال صغيراء تبعاً لما يقول الدمرداشى.

وعندما قتل أحمد بك فى أحد المعارك خلفه مملوكه على كتخدا الهندى لأن أحمد بك «ماله أولاد» كما يذكر الدمرداشى. وعندما مات كل من إيواظ بك وإبراهيم بك أبو شنب، أعتبر أنه من الطبيعى أن يخلفهم أولادهم، اسماعيل، ومحمد ابو شنب. بينما نجد أن أكبر مماليك إيواظ بك وإبراهيم بك بالرغم من كونهم قد وصلوا إلى رتبة صنجق قد اصبحا رسميا مجرد مؤيدين وحماة لأبناء سادتهم المتوفين كما ذكر الدمرداشى.

كما أن بعض المماليك تولى عددا من اولادهم منصب الصنجقية. ونظراً لأن الأمراء المماليك كانوا يموتون فى سن مبكرة فإننا نجد اولادهم يصلون عادة إلى منصب الصنجقية فى سن صغيرة ومن أمثلة ذلك

(١) اسماعيل بن ايواظ، الذى تولى منصب والده وهو فى سن الثالثة عشرة، ومات فى



وأولادهم وبواقيهم لذهاب ما فى أيديهم، وصاروا أتباعا وأعواناً للأمراء المتأخرين. (ص٤٨١)

٢٣٨ ابراهيم كتخدا والد عبد الرحمن كتخدا الكبير.

[ومات] الأمير إبراهيم كتخدا تابع سليمان كتخدا القازغلى، وسليمان هذا تابع مصطفى كتخدا الكبير القازغلى، وخشداش حسن جاويش أستاذ عثمان كتخدا والد عبد الرحمن كتخدا المشهور، لبس الضلمة فى سنة ثمان وأربعين وماية وألف وعمل جاويشا وطلع سردار قطار فى الحج فى إمارة عثمان بك ذى الفقار سنة إحدى وخمسين ومائة وألف، وفى تلك السنة استوحش منه عثمان بك باطنا لأنه كان شديد المراس قوى الشكيمة، وبعد رجوعه من الحج فى سنة اثنتين وخمسين وماية وألف نما

ذكره وانتشر صيته، ولم يزل من حينئذ ينمو أمره وتزيد صولته وتنفذ كلمته، وكان ذا دهاء ومكر وتحيل ولين وقسوة وسماحة وسعة صدر وتؤدة وحزم وإقدام ونظر في العواقب، ولم يزل يدبر على عثمان بك، وضم إليه كتخداه أحمد السكرى ورضوان كتخدا الجلفي وخليل بك قطامش وعمر بك بسبب منافسة معه على بلاد هوارة كما تقدم حتى أوقع به على حين غفلة، وخرج عثمان بك من مصر على الصورة المتقدمة، فعند ذلك عظم شأنه وزادت سطوته واستكثر من شراء المماليك وقلد عثمان مملوكه الذى كان أغات متفرقة صنجقا وهو أول صناجقه، وهو الذى عرف بالجرجاوى، ولما قتل خليل بك قطامش وعمر بك بلاط وعلى بك الدمياطي ومحمد بك في أيام راغب باشا بمخامرة حسين بك الخشاب، ثم حصلت أيضا كاينة الخشاب وخروجه ومن معه من مصر وزالت دولة القطامشة والدمايطة والخشابية، وعزلوا راغب باشا في أثناء ذلك كما تقدم، فعند ذلك انتهت رياسة مصر وسيادتها للمترجم وقسيمه رضوان كتخدا الجلفي، (ص٤٨٢) ونفذت كلمتهما وعلت سطوتهما على باقي الأمراء والاختيارية الموجودين بمصر، وتقلد المترجم كتخدائية باب مستحفظان ثلاثة أشهر ثم انفصل عنها، وذلك كما يقال لأجل حرمة الوجاق، وقلد مملوكَيه عليا وحسينا صنجقين وكذلك رضون كتخدا كما سبق، وصار لكل واحد منهما ثلاثة صناجق واشتغل المترجم بالأحكام وقبض الأموال الميرية وصرفها في جهاتها، وكذلك العقوبات وغلال الأنبار ومهمات الحج والخزينة ولوازم الدولة والولاة، وقسيمه رضوان كتخدا مشتغل بلذاته ومنهمك على خلاعاته، ولا يتداخل في شيء

سن العشرين. (٢) مرزوق بك ابن ابراهيم بك، اصبح صنجقا في حياة أبيه، بينما كان لايزال طفلاً ،طفل صغير ومعه الدادة والمرضعة، وقد قتل في مذبحة القلعة.

وهكذا تم ضم أبناء المماليك إلى الطبقة الحاكمة العليا مما جعلها ذات طبيعة مختلفة عن الطبقة المملوكية في ظل سلطنة المماليك، ودعم مبدأ الوراثة الذى انسحب حتى على نظام الملكية بدلاً من ملكيات الألتزام للبيت المملوكى في أواخر القرن الثامن عشر مما شكل النواة الأولى لبداية ظهور الملكية الخاصة التي سرعان ما عمق بها نظام محمد على والحملة الفرنسية من قبله.

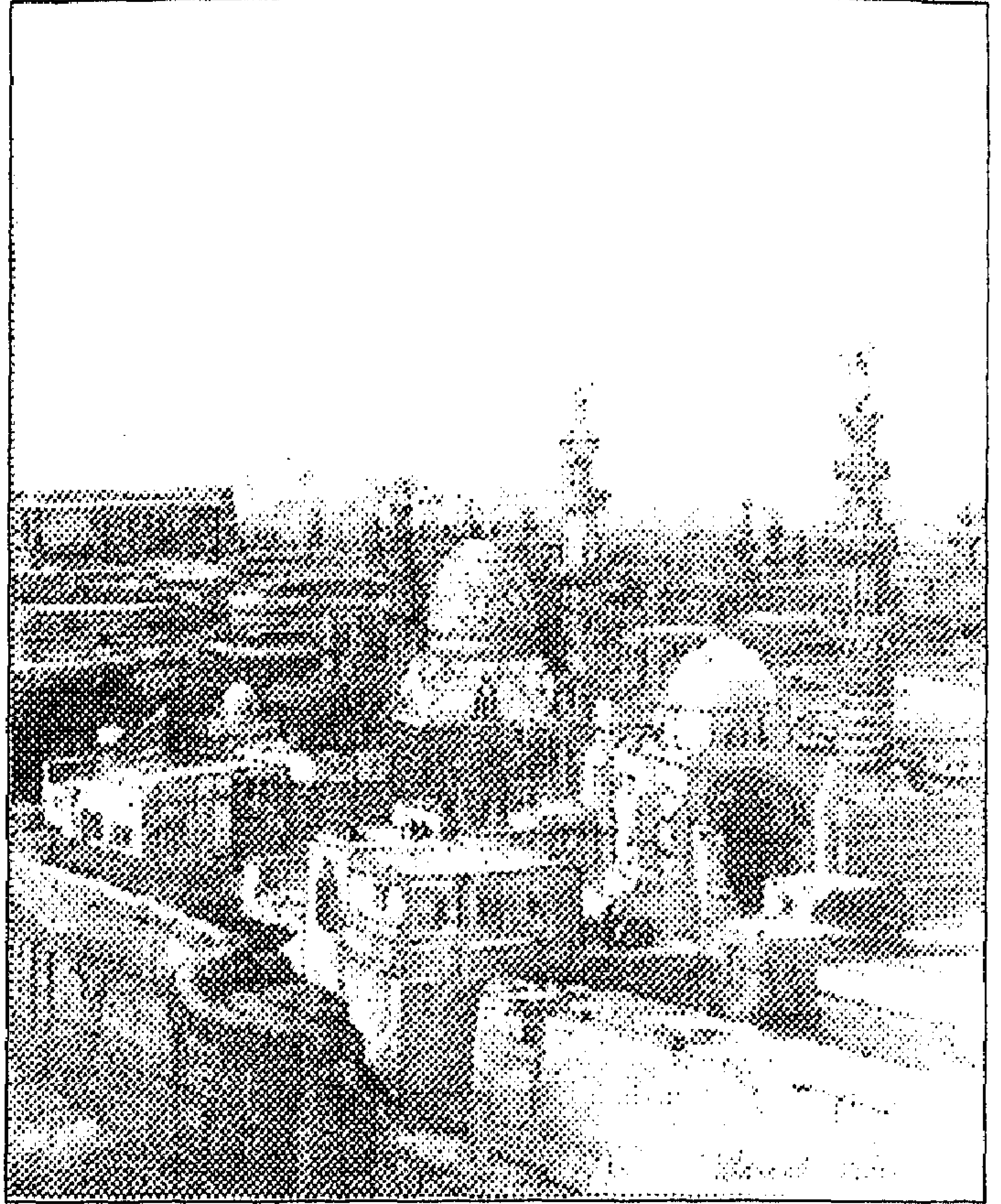


جامع المؤيد

مما ذكـر، والمتـرجم يرسل له الأمـوال ويوالى بر الجـمـيع، ويراعى خواطرهـم وينفذ أغراضهم، وعبد الرحـمن كتخدا مشتغل بالعمـائر وفعل الخيرات وبناء المساجد، واستكثر المترجم من شـراء المـماليك وقلدهم الإمـريات والمناصب، وقلد إمـارة الحج لمملوكـه على بك [الكبيـر] وطلع بالحج ورجع سنة سبع وسـتين ومـائة وألف، وفي تلك السنة نزل على الحجاج سيل عظيم بمنزلة ظهر حمار (*) فـأخـذ معظم الحجاج بجمالهم وأحمالهم إلى االبحـر ولم يرجع من الحجاج إلا القليل.

* ظهر حمار: اسم موضع بالحجاز على طريق الحج.

ومما يحكى عنه أنه رأى فى منامه أن يديه مملوءتان عقارب، فقصها على الشيخ الشبراوى فقال «هؤلاء مماليك يكونون مثل العقارب، ويسرى شرهم وفسادهم لجميع الناس فإن



* منظر عام للقاهرة.

العقرب لدغت النبى صلى الله عليه وسلم فى الصلاة فقال صلى الله عليه وسلم (لعن الله العقرب لا تدع نبيا ولا غيره إلا لدغته) وكذا يكون مماليكك» وكان الأمر كذلك، وليس للمترجم مآثر أخروية ولا أفعل خيرية (ص٤٨٣) يدخرها في ميعاده، ويخفف عنه بها ظلم خلقه وعباده، بل كان معظم اجتهاده الحرص على الرياسة والإمارة، وعمر داره التي بخط قوصون بجوار دار رضوان كتخدا، والدار التى بباب الخرق وهى دار زوجته بنت البارودى والقصر المنسوب إليها أيضا بمصر القديمة والقصر الذى عند سبيل قيماز بالعادلية، وزوج الكثير من مماليكه نساء الأمراء الذين ماتوا وقتلوا وأسكنهم فى بيوتهم، وعمل وليمة لمصطفى باشا وعزمه فى بيته بحارة قوصون فى سنة ست وستين ومائة وألف وقدم له تقادم وهدايا، وأدرك المترجم من العز

والعظمة ونفاذ الكلمة حسن السياسة واستقرار الأمور ما لم يدركه غيره بمصر، ولم يزل في سيادته حتى مات على فراشه في شهر صفر سنة ثمان وستين ومائة وألف.

٢٣٩ رضوان كتخدا الجلفي صاحب رسالة قاهر وجوة العاسة في ذكر نسب الجراكسة

[ومات] بعده رضوان كتخدا الجلفي وهو مملوك على كتخدا الجلفي تلقد كتخدائية باب عزبان بعد قتل أستاذه بعناية عثمان بك ذى الفقار كما تقدم، ولم يزل يراعي لعثمان بك حقه وجميلته حتى أوقع بينهما إبراهيم كتخدا كما تقدم، ولما استقرت الأمور له ولقسيمه ترك له الرياسة في الأحكام واعتكف المترجم على لذاته وفسوقه وخلاعاته ونزهاته، وأنشأ عدة قصور وأماكن بالغ في زخرفتها وتأنيقها وخصوصاً داره التي أنشأها على بركة الأزبكية، وأصلها بيت الدادة الشرايبي وهي التي على بابها العامودان الملتفان المعروفة عند أولاد البلد (بثلاثة وليه). وعقد على مجالسها العالية قباباً عجيبة الصنعة منقوشة بالذهب المحلول واللازورد والزجاج الملون والألوان (ص٤٨٤) المفرحة والصنايع الدقيقة، ووسع قطعة الخليج بظاهر قنطرة الدكة بحيث جعلها بركة عظيمة وبنى عليها قصراً مطلا عليها وعلى الخليج الناصرى من الجهة الأخرى. وكذلك أنشأ في صدر البركة مجلساً خارجاً بعضه على عدة قناطر لطيفة وبعضه داخل الغيط المعروف بغيط المعدية، بوسطه بحيرة تمتلئ بالماء من أعلى وينصب منها إلى حوض من أسفل ويجرى إلى البستان لسقى الأشجار، وبنى قصراً آخر بداخل البستان مطلا على الخليج وعلى الأملاق(*) من ظاهره، فكان يتنقل في تلك القصور وخصوصا في أيام النيل ويتجاهر بالمعاصي والراح والوجوه الملاح وتبرج النساء ومخاليع أولاد البلد. وخرجوا عن الحد

* الأملاق: يقصد هنا الفضاء الممتد فيما يلى الخليج.

فى تلك الأيام، ومنع أصحاب الشرطة من التعرض للناس فى أفاعيلهم فكانت مصر فى تلك الأيام مراتع غزلان ومواطن حور وولدان، كأنما أهلها خلصوا من الحساب، ورُفع عنهم التكليف والخطاب، وهو الذى عمر باب القلعة الذى بالرميلة المعروف بباب العزب، وعمل حوله هاتين البدنتين العظيمتين والزلاقة على هذه الصورة الموجودة الآن، وقصدته الشعراء ومدحوه بالقصايد والمقامات والتواشيح، وأعطاهم الجوايز السنية وداعب بعضهم بعضا، فكان يغرى هذا ويضحك منهم ويباسطهم، واتخذ له جلساء وندماء منهم الشيخ على جبريل والسيد سليمان والسيد حمودة السديدى والشيخ معروف والشيخ مصطفى اللقيمى الدمياطى صاحب «المدامة الأرجوانية فى المدايح الرضوانية»* ومحمد أفندى المدنى، وامتدحه العلامة الشيخ يوسف الحفنى بقصائد طنانة، وللشيخ عمار القروى (ص٤٨٥) فيه مقامة مدحا فى المترجم ومداعبة للسيد حمودة السديدى الحلاوى، وأجابه بأبلغَ منها مقامة وقصيدة من رويّها أديبُ العصر الشيخ قاسم بن عطاء الله الأديب المصرى، والأديب الفاضل الشيخ عبد الله الإدكاوى والعلامة السيد قاسم التونسى، وألف فيه الشيخ عبد الله المذكور كتابا سماه الفوايح الجنانية فى المدايح الرضوانية، جمع فيه ما مدح به الأمير رضوان كتخدا من قصايد ولطايف وتواشيح (فمن ذلك) مزدوجة الأديب قاسم* ولنُدرتها ورقتها أوردتها فى هذا المجموع وهى:.

* انظر نص «المدامه الارجوانية فى المدايح الرضوانية» فى ترجمة مصطفى اللقيمى رقم «٢٦١». وهو يسميها «المدامه الارجوانية فى المقامة الرضوانية».

* هو قاسم بن عطا الله: انظر ترجمته فى الجزء الثالث.

أحــمــد مــولى مــســتــحق الحــمــد
مــفــتــتــحــا كــتــابه بالحــمــد
وحــيــا على تكرار مــيم الحــمــد
فــهــو الذى حــاز لواء الحــمــد
وسيلتى مدحى له وحمدى

بكرت يومــا والهــوى مطيــعى
أرض الــربــا فــى زمــن الــربــيــع
أذابهــــا فى زخـــرف بديع
تزهو بثــوب سندس وســيــع
فى حسن وصفهما استمع ما أبدى

بكت بِدمع الطل عينُ النرجس
فأضحكت ثغر الأقاح* الألعس*
والورد يزهو باحــمــرار الملبس
مــفــتّــحــا أطواقــه بالمجلس
قد أرِج* الروضُ بنشر الند

روض به مــاء الحــيــاة جــارى
خُــضْــر النبــات منه بالجــوار
فــيــه خــيــال الورد باحــمــرار
يُــرى لــه فــى المــاء زنــدوارى
وعجب فى الماء قَدْح الزند

حــديقــة بهــا الســرور مــحــدق
جــدولهــا مــسلسل منطلق
فى جــوه نجم الزهور مــشــرق
والبــان ظله غــدا يســتــرق
من وجنه الماء احمرارَ الورد (ص٤٨٦) .

* أقاح: جمع (أقحوان) وهو نبت طيب الريح و(الألعس) الكثيف الكثير من النبات.

* الألعس: يقال نبات ألعسٌ أى كثير كثيف (القاموس المحيط).

* أرج: أى فاحتْ منه رائحة طيبة والنشر بمعنى الريح الطيبة والند بفتح النون (الطيب) فيكون المعنى أن الروض قد فاحت منه رائحة الطيب.

ظل لطاف قُضبها يا قارى
كأنه الأقلامُ جلّ البارى
كتب فى طرس* الغدير السارى
ما حفظته من غنا الأطيار
نقطها الطل بدرّ العقد

أما ترى الدُرّ بدا للحدَقِ*
كللَ تيجانَ رءوس الورق
وقد حَكى النهرُ بظل الزنْبق*
خَد السما مورداً بالشفقِ
كلاهما بالورد زاهى الخدّ

لما حكى الغدير للسماء
لاح به السماك فى ضياءِ
من فوقه صارت يد الهواء
تنصب للصيد شباكَ الماء
برقة لم تستطعها الأيدى

شباكُ در ولُجين تُنسجُ
لجوهر الألباب فيها فرجْ
بها شعاع الشمس حين يهج
بعسجد ترى اللجين يمزج
ليخطف الأبصار عند النقد

تجائبُ السحب بجند الودْق*
أرسلها الغرب لحرب الشرْق
لنحوه تراسلت بالسبق
وكلما سُلت سيوفَ البرق

يصهل فى الملك جواد الرعد

يجول فى الملك بأمر المَلك
وكَأنه الفُلك ببحر الفلكِ

* الطرس: بكسر الطاء الصحيفة.

* الحدَقُ بفتح الدال جمع (حَدَقة) وهى السواد الأعظمُ للعين.

* الزنبق (بفتح الزاى والباء) نبات له زهر جميل طيب الرائحة.

* الودْق: المطر.

قَـــسْـطـل* الشَـبـور للمـعـتـرك
مــحــتــبك من تحت ذات الحـبْكْ
والقطر موصول المدى بالمد
وحـوصـرت شـمس الضـحى بالأفق
بعـسـكر سـد جـمـيع الطرق
وبالدمـا غُط قـمـيصُ الشـفق
وانـفـلـقـت هـام الـدجـى بـالـفـلـق
ومنه حل عقدها ببند
وابتـهـج الشـرق على الظلمـاء
بالصـبح صـاحب اليـد البـيـضـاء
أخـرجـهـا من حلة الدجـاء
من غـيـر سـوء قـد بدت للرائى
لسحر آية الدجى المسودّ
وقـد بدا الصـبح وللجـوّ صـعَـدْ
وأصبحت قضب الرياض فى مَيد (ص٤٨٧)
ممتطيـات الُبـرد من در البَـرد
وكل يابس غـدا رطب الجـسـد
وفتحتْ عينُ الزهور الرمِدْ
باكـر صـبـوح روضـة الزهور
فـأبرك الأشـيـاء فى البكور
ورد عـلـى الـلـذات والسـرور
واتـرك هـوى وسـاوس الصـدور
فمنهل اللذات عذب الورْد
مـا حـسن الصـبوح فى الصـباح
والسـكرَ فى روض الربـا يا صـاح
على خـدود الورد والتـفـاح
والريح تدنى مـبـسـم الاقـاح
للثم هاتيك الخدود الوُرْد*

* القسطل:غبار الحرب.

* الوُرْد بضم الواو وسكون الراء مفردها (ورد).

والـــورق مـذغنت على العيـدان
بلينِ قَـدِ مـاسَ غـصنُ البـان
والآسُ فـوق وجنة النعـمـان*
من ذا رأى الجنـاتَ فى النيـران
عجبت للتأليف بين الضدِّ
وانظر إلى تلهب الشـقـيـقى
غـيظا على لينوفـر غـريق
يُومى لبنت الكرم بالتـعنيق
وبل إلى الرمـان بالتـحـقـيق
تراه فى صدر الربا كالنهدِ
أكـرمْ ببنت الكرم والدوالى
من الهـمـوم غـرسـهـا دوا لى
بهـا يطوف مـخـجَل الغـزال
كـالشـمس تُجلى فى يد الهـلال
تَقارنا فى أفْقِ خان السعد
يرى من السـاقى ومنهـاَ عـجبُ
إذا بدت فى كـاسـهـا تلتـهب
كـأنهـا من خـده تنسكبُ
وإن يكن لكل خـمـر حَـببُ
فَعرَق الجبين دراً يبدى
للّه مـا أبهى ومـا أسناها
فى كـاسـهـا كـالشـمس فى مـرآها
يسـعى بهـا البـدر وقـد أدناها
من شـفـتـيـه اللعس مـا أحـلاها
إذا مزجت من ريقه بالشهد
شـعـاعـهـا سطا على الندمـان
سـاوى شـجـاع العـقل بالجـبـان

* الورْقاءُ هي الحمامة وجمعها (وُرْق) بضم الواو وسكون الراء.
* النعمان: يريد (شقائق النعمان) وهى زهر أحمر أضِيف إلى النعمان بن المنذر لأنه نزل شقائق رمْلٍ قد أنبتت هذا الزهر فاستحسنه فأمر أن يحمى له فأضيفت إليه وسميت شقائق النعمان.

* اللِّينُوفر (أو النيلُوفر): نوع من النبات ينبت فى المياه الراكدة، له أصله كالجذر وساق أملس يطول حسب عمق الماء، فإذا ساوى سطحه أورق وأزهر.

* بنت الكرم شجرة العنب والدوالى نوع من العنب، أما دِوالى الثانية ففيها جناس لفظى أصلها (دواء لى).



وجـــالت الحـــمـــراء فى الميـــدان

بين صـــفـــوف صـــحـــبـــة القنانى

(ص ٤٨٨) كأنها من الدما فى بُردِ

مليكة لطيــــــفـــــــة المزاج

تـخـــتـــال فى بردٍ من الديبـــاج

على جـــوادَ أشـــهب الزجـــاج

ببـــهـــجـــة احـــمـــرارها الوهاج

تحكى خدود قاتلى بالصد

غـــــصـين بان خـــــــده نـزيهُ

فـــريدُ حـــسن مـــاله شـــبـــيـــهُ

يميس فى روض البَـــهـــا يتـــيـــهُ

ظبى النـقـــا* مـــسـتـيـقظ نبـيـه

بالمقلة النعسا لصيد الأُسد

* النقا: كثيب الرمل.



من دعــجــة الحــور ســبــاها الحــوَرُ

في مــهــجــتي بهــا أصــابَ القــدرُ

طلبت حين لـم يُفــــدني الحـــذرُ

منهم أمـــانا في الهـــوى لي غـــدروا

مع أنني عن غيرهم في زُهد

لا تنكروا بعـــد الحـــجـــا جنوني

تـهـــــتكي في ذلك المصـــــون

وحـــدثوا أن تصـــفـــوا شـجـــوني

به عن البـــحـــر وعن عـــيـــوني

بدمعها لم تُطف نارَ وجدى

نقـــيطة خـــاله* ســحـــيقَ المسك

من فـــوق خـــد للهـــيـب يحكي

* خاله : الخال شامةٌ في البدن أي بثرة سوداء ويغلب على شامة الخد وجمعها خيلان.

للقلب حـــتـمـــا يدعى بالمُلْك
واســتـعـبـدتنى عين ذاك التـركى
لما غزانى جفنها بهندى
أبحـــتـــه قلبى وجــفنى سكنا
لما أرانى منه وجـــهـــا حـــسنا
وطرفــه الســاحـــرُ لما أن رنا
بســحـــره كليمَ قلبى فَـــتنا
ولم يجد عن طوعه من بُد
كـــوكب حـــسن مـــشـــرق لم يأفِلِ
ألحـــاظه قـــد جـــردت ســـيفَ على
مـــهـــفـــهف من غـــيـــره القلب خلى
والســـــر فى السكان لا فى المنزلِ
فأينما كنتُ حبيبى عندى
مَطَلبُ خـــده بعـــيـــدُ الطلب
فى كـــتب الحـــسن أتى بالعـــجب
مـــصـــبـــاحـــه يتلو شـــذور الذهب
والعـــقـــد فى حليـــة ثغـــرٍ أشنب
عقيانُه لاحت كنجم السعد (ص٤٨٩)
أنعم بلون خـــــده المنيـــــر
مـــشـــرّب عنه روى الحـــريرى
وباهتـــزاز عِطفـــه النضـــيـــر
يسكرنى النســـيمُ بالعـــبـــيـــر
لذاك أعشَق الصبًا والنجدى
البـــارق النجـــدى الذى تبـــسم
من ثغـــر قـــدِ ذكـــر المتـــيم
من كـــحل الجـــفن له من نظم
لو تم سـعـدى فى الهـوى واســتـحكم
كان الزمان ما قضى ببعد

بخــــــده وقـــــــده المران
عــــرّفني ظبيَ النقـــا والبـــان
قــاني البــهــا ربٌّ الحـديد القــاني
ليس لعطْفــــه الفــــريد ثاني
يميل ميلات الغصون المُلد
روضُ زهـا بمشـــــــرق الأزهـار
واســتــبــدل الدرهـم بالدينار
سـقــتـه مــاءُ المزن في الأسـحــار
مـن درِّها فـــــأنبت الـدراري
تبارك الله المعيدُ المبدي
جـــاء الربيعُ والزمــان اعــتــدلا
وألبس الغـــصن من الزهر حُــــلا
والطيــــرُ ضـمنت غِناها مــثــلا
إنشـادها مــولي لقـد حــاز عــلا
للكتخدا رضوان ربٌّ المجد
أمــيــر مــجــد أوحــدُ الزمــان
يفــوق مــعنى كــامل المعـــاني
لو شــام برقٌ سـيـفَــه اليمــاني
عنتــر في ألف من الشــجــعــان
قال اللقا في الحشر يا ابن وُدّي
بحـــر الندى قــــد ألفَ المزيدا
أضـــحى ســريع جــوده مــديدا
خليـــفـــة الوقت غــدا فــريدا
ولم يزل مــوفــقــا ورشـيـــدا
في كل رأي للصواب مهدي
صــاعــد أهل المجـد رفـقــا فــرقــا
والأســدُولّت من سطاه فــرَقــاً

مـجـمـعـا من دهره مـا فـرَقـا
أصـبـح شـمـلُ حـاسـديه فِـرقَـا
والناس بين رفقه والرفد
تراه للأحـبـاب فـاق الوالدا
وللعـدا مـجـادلا مـجـالدا (ص٤٩٠)
أرجـوه يحـيـا في السـرور خـالدا
في الجـود أعنى طارفـاً وتالدا
وكل منسوب له في الودّ
رَوْع العـدى للأصـدقـا يراعى
يراعُـه للعَـضْب* واليـراع
همـتـه للسـبع في ارتفـاع
دع عنك سبع القـاع بالبـقـاع

عـالي الذرى أعـداؤه في الدرك
إذا سطا فـمـا الحـيـاة دركي
ليث الشرى في الحرب مثل الشرك
يرى الملا في اللطف لطف الملك
لحسن وجهه بروحي أفدى
دع علة التـعليل بالأمـانى
واقـصـد حمي الموصوف بالأمـان
وانف لبـاس البـؤس والأحـزان
واسـأل عن النعـيم من رضـوان
قل ما تريد لا تخفْ من ردّ
لُذْ بأبى الفـوز من المخـاف
ومن بجـوده يعـانى العـافى
تفـوز بالأمن وبالإسـعـاف
عـزيز مـصـر كـامل الأوصـا
بيت القصيد بالغاً للقصد

* العَضْبُ: السيف القاطع.

حليكنا جلت لنا أوصـــافُـــه
لم يَبْـد في غـيـر العطا إسـرافـه
ضـــيـــاؤه قـــرت به أضـــيـــافُـــه
تفـعل في جـيش العـدا أسـيـافـه
ما يفعل الصرصريوم الحصْد
همـامِ عــصـر غـيث جـود هامي
نـامي الـعـطـا لــســائـر الأنـام
مــواصل النعــيـم بالإنعــام
بـقـــيـــة الـدهـر مـن الـكـرام
أحيا وجود الجود بعد الفقد
ســاد الورى عـدلاً له روحي الفِـدا
فكـم به من شـاهدٍ للكتــخُـدا
روحي الفـدا للكتـخـدا بحـر الندا
ومن غـدا على الكرام سـيـدا
في عصره وماله من ضِدّ

عـفـيفُ أخـلاق عن الجـاني عـفـا
تخـافـه الأسـدُ ومـا فـيـه خـفـا
خـفـيفُ روح كـالنسـيم مـا هفـا
ألذ للعـشـاق من ترك الجـفـا
(ص٤٩١) ومن وفاء الوعد بعد البعدِ
كـوكبُ مـجـدٍ نوراً مـشـرقـا
يزهو بأفق العـز في طول البـقـا
روضُ النقـا فـلا يزال مُـورقـا
لا بـالـقـلا تراه في يوم اللـقـا
طلق المُحيا والحمى والأيدى

أدامــــه اللـه برغـم الشـــانى

عـــزيزَ جـــاه وعلىَّ الشـــان

جــمــعــاً بمن يحبُّ فى أمـــان

مـتـابعـاً للحـسـن بالإحـســان

رضوانه مؤيدّ بالخلد

يـــا جـنـــة الـفـنـــون والأفـنـــان

مـــحـــفـــوظة من طارق وجـــانى

نـســيـــمــهـــا بالروح والريحـــان

يهـــدى الشـــذا للملك الرضـــوان

بهجة نَدْ مالها من نِدّ

مـــجلس أنس دام فى إشــــراقـــه

تبـدو شـمـوس الحسن فى آفـاقـه

روض تـروض الورقُ فـى أوراقــــــه

قـــد حـــفظ الحـفظ على طبـاقـه

وقد حوى كلَّ مجيد مجدى

مـــعـــروفـــه عمَّ جــمـــيع الخلق

والجـبــرُ لى منه قـبـــول صـــدق

كـــأنهـــا يا مـــالكا للرقِّ

شــمـس ولكـن لـم تزل بالشـــرق

برهانها قال النجوم جندى

خـــريدة فـــريدة فى الآن

شــبـابهـا يهـزأ بالشـيـبـان

فـهـاكـهـا فى ملبس التـهـانى

واذكــــر بهـــا هرون وابـن هـانـى

واعجب لها من ازدواج الفرد

شــاهدة للمـــقّـــرى بالفــضـل

والطـل منـســـوب لجـــود الـوبل

قــد تفــعل العــصــاة فــعل النصل
واجلـــــزء أدنى من فـــــوات الـكل
كم حسنُ سبك أذهب التعدّى
حـــــديقـــــة الســـــرور والأســــرار
نـضــــيــــرة الزهور كـــــالنُضـــــار
جــاءت وليس الشــعــر من شــعــارى
تـقـــــــول لـلزّجـــــاج لا تمـارى
ماذا تقول يا بعيد بَعدى (ص٤٩٢)
تمت مــعـــانيــهـــا بحـــسن أكـــمـل
مـــــثل الزهـور فى الرياض تـنـجلى
قــد بشــرت بصـــفــو عـيشٍ مـقـبل
مــــــدأرخـت زاكـى حــــفـظ لـعلى
أحمدٌ مول مستحقٌ الحمد

وله فيه توشيح عارض به لسان الدين بن الخطيب الأندلسى رحمه الله ومطلعه:

تـرك الهــــجــــر ووافى كـــــرمـــــا
بعــدمـــا كـــان لعــهـــدى قـــد نسى
أهيفُ القــــد كــــغــــصنٍ علِمـــــا
من نـــــســـــيـم الـروض فـى الميَس
مــفــرد فى الحــسن ثنّى مــعــجــبـا
ألف القـــــد بشكـل حـــــســـــن
غـــــصن بان هزّه ريح صــــــبـــــاَ
خــــــدُّه يزهـو عـلى الورد الجنـى
ســـاحــرُ الجـــفن أرانا عـــجـــبـــا
أســـــره للأســـــد حــــالَ الوَسن



قمر فى أفق الحسن سما
لاح من أطواق أسنى الملبس
بدرُ تِم زاد حسنا ونما
بهجة من فوق قطب الأطلس
جعل الوصل على الحب جزا
وجلا بالأمن قلبا وجِلا
لحظهُ الغزّال بالسحر غزا
كم سبا قلبا وعقلاُ عقَلا
واهتزازُ العِطف بالغصن هَزا*
ومن الغيرة أسلى الأسلا*
وجهه فاق على بدر السما
وبنارٍ نورُه لم يمسس

* هزا: أى هزأ بمعنى سخر.
* سلى الأسل: أى كشف الشوك، والمقصود أن الغصن أظهر شوكه من شدة غيرته من العطف.



أطلق الحُسنُ عليه علما

وزهت وجنته بالقبس

حرس الورد بخال سُبْج*

وعليه الآسُ حَرْساً نبتا

وسطت مقلته بالدُعْج

مقبلا يجرحُ أو ملتفتا

عابثَ القد بحبٍّ المهَج

شفتاه لفؤادى شفتا

رَفع القطعَ ووصلا جَزما

بانشراح ما بنا من عبس

وتعاهدنا على رَشْفِ اللمّا

إنْ ودى عنده لا ينتسى

* سبج: أى أسود اللون.

نصَب الهُدب لصيدى شركا
لحظهُ المرسلُ في فترته
وبسيف الجفن لما فتكا
فَطَر القلب على فِطرته
علّم العشاق ترك الشُركا
وحذر النار من وجنته
معجز الواصف أبدى حكما
مُذْ بَدَا بالحسن جمعا مكتسى
فتح الورد بخديه كما
ليّن الصَلد* من القلب القسى
شرف المنزِل والوقت صفا
أهيفٌ حار له من وصفا
تستعير الغيد منه وطفا*
عادني من حار نارى وَطفا
جاء طبا لجراحي وشِفا
حين قبلت خدودا وشِفا
كعبة الحسن لكأسى زمزما
وازدرى عقد ثغور الأكؤس
قلت لبيك حبيبى عندما
طاف يسعى بحياة الأنفس
لبست حلة ضوْء الشهب
أُرجوانية لون وضحا
وبدت في در تاج الحبَب
تتهادى في مقامي فرَحا
ليلة الوصل لها واعجبى
جمعت لى البدر مع شمس الضحى

* الصَلد بفتح الصاد وكسرها الصُلب الأملس.

* الوطف: بفتح الواو والطاء كثرة شعر العينين والحاجبين.

وحــــلالى ثغــــرُه ملتْــــشــــمــــا
فى عــــفــــافِ عِــــرْضُنا لـم يدنس
واتـخـــــذنا جنة الروض حـــــمى
وهو بالرضـــوان فـــيــهـــا مـــؤنسى
كـــتـــخـــدا رضـــوان كنز الفـــقـــرا
بهـــجـــة العـــمـــر وشـــمس الزمن
عنده حُطّت رحـــال الشـــعـــرا
وصـــفـــوه كل وصف حـــســـن
فـــهـــو مـــولاهم ومـــولى الأُمـــرا
وفـــريد ليس بالمقـــتـــرن (ص٤٩٣)
كـــفـــه الغـــيثُ على الناس هَمَى
أفـــأعـــاد الخـــصب بعـــد اليـــبس
صـــبح الدهر به مـــبـــتـــســـمـــا
وهوفى فِـــيـــه مـــحل اللَّعَس*

* اللعس: بفتحتين لون الشفة المائل إلى السمرة.

ومنه:

فى رقـــاع الحـــرب للأعـــدا رمى
سـطوة الرخ وفـــــرز الحــــــرس
ضــــحك الســيف وأبكاهم دمـــا
وتـخـطى شـــاهـهم بـالفـــــرس

ومن موشحاته أيضاً فى المشار إليه من عراق:

عـــبـــيـــر الزهر قـــد نسمْ
ولاح الـــورد فـــى أفـــنـــان
وســـاق المزن قـــد نظمْ
ثـنـايـا الـورد فـى المـرجـــان

وغصن البانة الأقوم
تحلى سندسّ الريحان
فما أبهى وما أنعم
عذار الآس فى النعمان

(دور)
حبيبى بالذى ورّد
شقائق خدك التبرى
وثَنى قدك المفرد
بخمرة ثغرك الدرى
ومنك الجفن قد سوّد
على هاروت بالسحر
أدر كأس الطلا واغنم
زمان الفوز بالرضوان

(دور)
مليكٌ أوحدُ العصر
وفىٌ صادقُ الوعد
بدا فى طلعة البدر
وهيبة طلعةِ الأسْدِ
صديق العزِ والنصر
حليف الجود والمجد
لهذا ترجم الأعجم
بمدح الكتخدا رضوان

وقال فى نيرز عجم.

نظم الطلُّ عقودا
حول أجياد الغصون
وتمايسْن قدودا
في حُلا زهر الغصون
واجتلى الوردَ خدودا
نرجسٌ غضُّ العيون
وشدا الطير غريداً
هاج بلبالَ الشجون (ص٤٩٤)

(دور)
لبس الورد احمرارا
في حمى روض النعيم
وعلى الأغصان دارا
ساقي القطر العميم
كلما مالت سكارى
علها صرف النسيم
عانقت جيدا وجيدا
واشتفت رمد الجفون

(دور)
كتخدا رضوان ذخرى
صاحب الوجه المنير
وغنائي عند فقرى
جابراً قلبي الكسير
ما احتيالي غير شعرى
وامتداحي للأمير

فى الورى أمسى فريدا
صاحب العز المتين

وقال فى رصد:

ريم فلا حين جلا لى كاس طلا شمس وبدر كملا
كف ملا لى وملا سلسال عقد لآل بالحُسن اكتسى حللا
خشف حلا غالى يجلى لى فاق على الشمس جلا

(دور)

بدر علا حين تلا لا واكتملا غصن تهادى ثملا
معتدلا فيه جلا
يختال ذا الميال منه الغصن قد حجلا
زان حلا سالى عذالى بدر على الغصن علا.

(خانة أولى):

كم فتنا حسن سناه حين رنا كالبدر يعلو غصنا
لاح لنا قانى من أعيانى
بالهجران مكحول الأجفان زادنى شجنا باللحظ الوسنان
غصن البان الفتان.

(خانة ثانية):

وردجنا عزجناه قد حسنا إذ حاز وجها حسنا
زاد سنا قانى من أسبانى بالعقيان فى الثغر المرجان
لو إلىّ دنا منه خمر الحان بالرضوان سعدى آن.

(دور المديح): (ص ٤٩٥)

متصلا مدح علا من زاد ولا طه إمام الفضلا والنبلا
خير ملا والآل ذى الإجلال فى فضل الكريم ولا منه إلى جالى

أهـو إلـى ألـف سـلام وصـلا.

وقال فى حُجاز:

يا قـوام البـان عنك صـبرى بان
فـقت بالفتن عـادل الأغـصان
والخـديد القـان كل حـسن فـان
ذاك عـن وسـين سـلـه لـى يـا فـان

(خانه)

ذوسنا افـتنا مـذ رنا وانثنى قـامة الغـصن وجنة النعـمان
القنا للقنا مـاثنى عن سنا شكلك الحسن راجى الإحـسـان

(سلسلة)

أنت مـسبى الوالدان والغزلان بالأجـفـان يا منصـان
هـات بـين الأفـنـان
خـمـر الحـان بالألحـان فى البـسـتـان

(دولاب)

حـسنك الفـتـان مـفـرد فى الآن
مـالـه مـن ثـان
بـدربـان أم إنـسـان
آن وصْلى آن فـاترك الهـجـران
لـيـتـه مـا كـان
وارحـم فـان بالأشـجـان

(خانه)

مِن عَنا منعنا راعنا وارعنا أن تعـذبنى فـيك بالحـرمـان
فـاتنا أفـتنا هل دنا قـربنا سـائر الفتن لحظك الوسنان

(سلسلة)

فـــــــاشـف قـلـب الـولـهــــــان
الـظـمـــــــآن مـن أدنـان الـنـدمـــــان
أنـت عـين الأعـــــيـــــــان فـي الأزمـــان
رغـم الـشـــــان يـاذا الـشـــــان

(دولاب)

زر أخــــاشـــــجـنـى فـى هـواك ضـنـى
لا تـطـل هـجــــرانـى قـــــانـى
غـــــــايـة المـن أن تـزر وطـنـى
بـالجـــفـــا انســـانـى قـــانـى

(خانه) (ص٤٩٦)

مـــا صـــــغـت أذنـى مـن يـعـنـفـنـى
فـــيـك أو يـلـحـــانـى جـــانـى
عـنـك غـــيـــرنـى لا ولا أنـســـانـى
بـهــجـــة الـزمـن غـــالـى الـثــمـن
ثـغـــرك المـرجـــانـى حـــانـى
لـــســـت عـــنـبـه غـــنـسـى
مـطـلـب الـعـــقـــيـــان

(خانه)

هــا أنــا لــلـضـنـى، كـى أنـال المـنـى
نـاحـل بـدنـى فـــاقـــد الـسـلـوان
كـن لـنـا مـــحـســنـا فـــالـهـنـا قـــد دنـا
حـــبـى بـشـــرنـى مـنـك بـالـرضـــوان

(المديح)

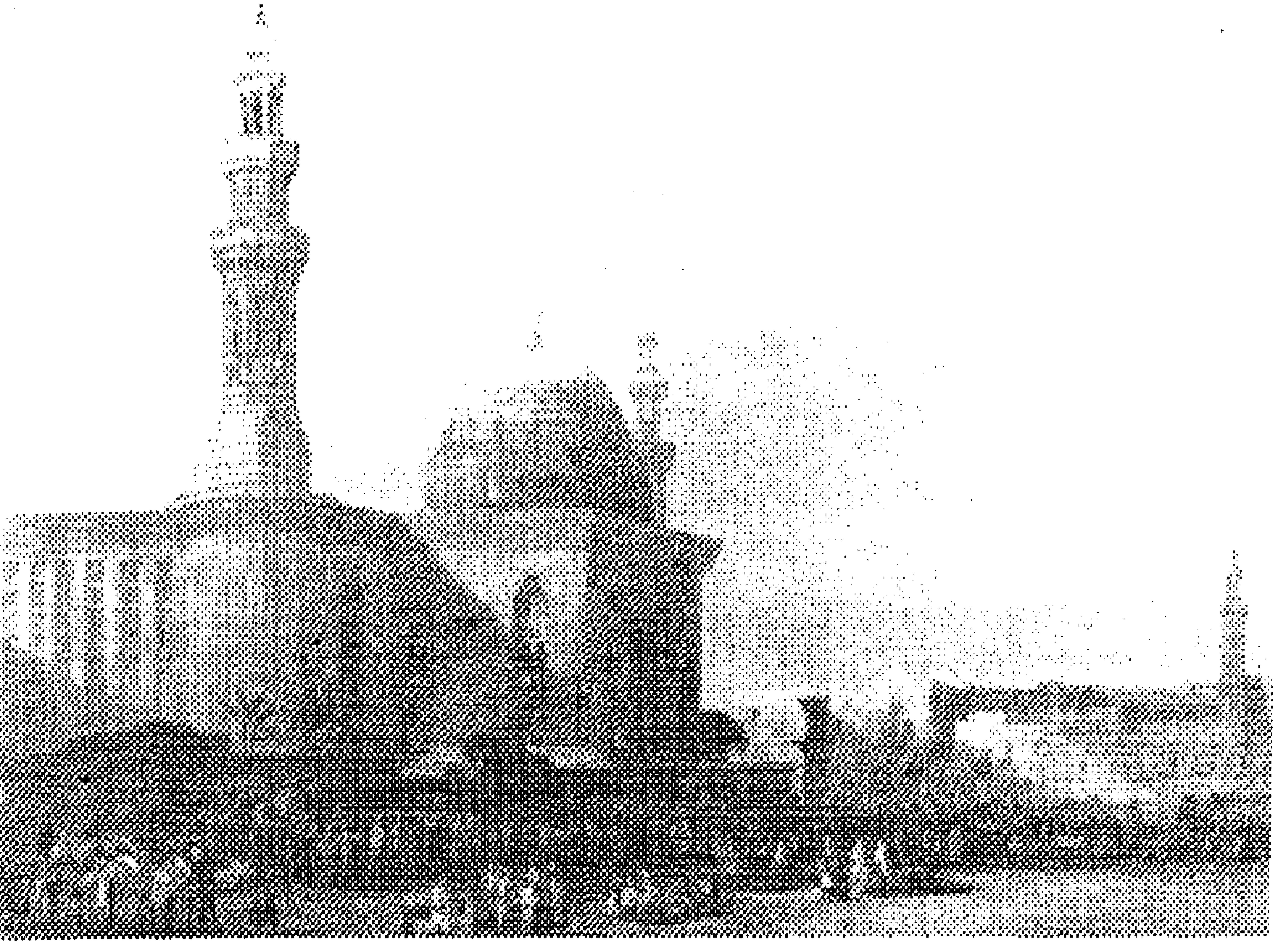
ذو العطا الهتان والسلطان
فى الميدان للشجعان
حسبه ذو التبيان بالقرآن
والبرهان من عدنان

وغير ذلك كثير وستذكر بعضها فى تراجمهم.

(عود وانعطاف)

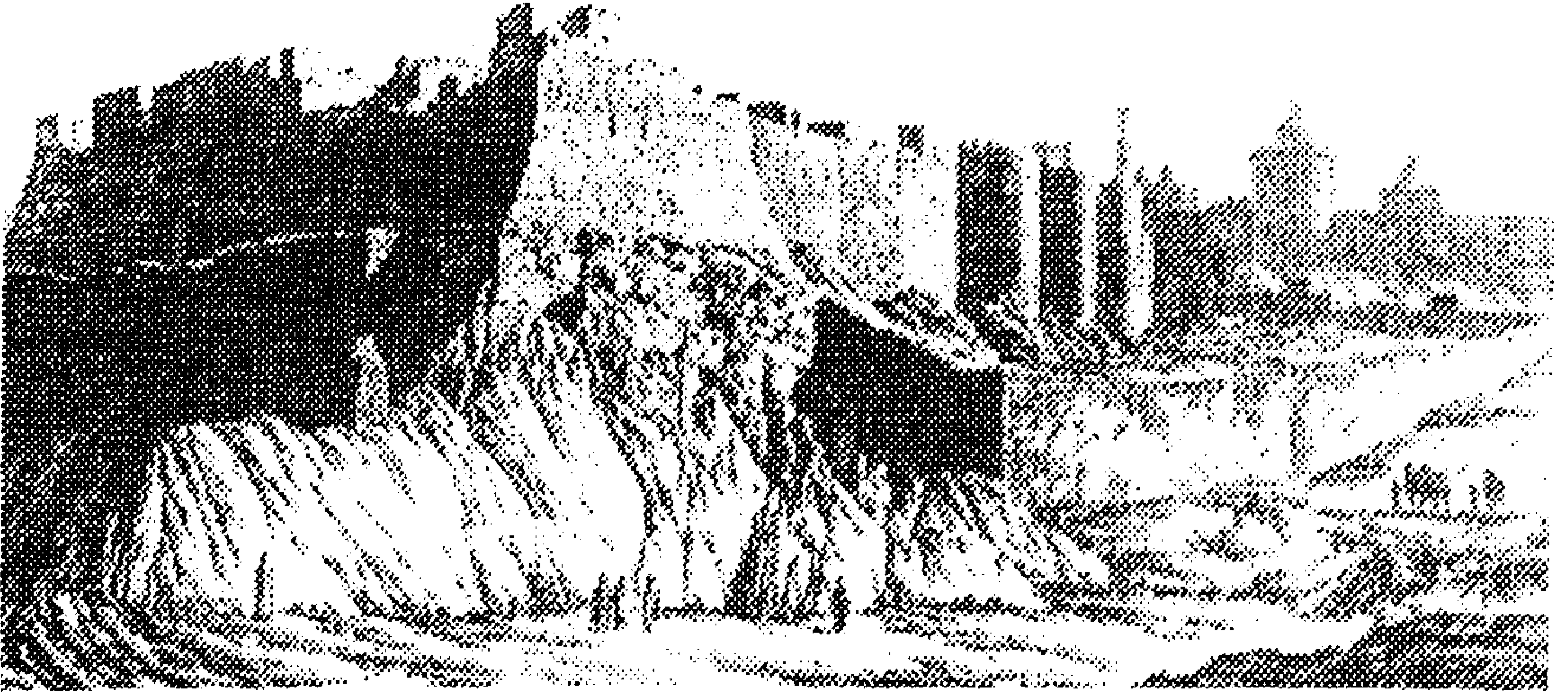
ولم يزل رضوان كتخدا وقسيمه على إمارة مصر ورياستها حتى مات إبراهيم كتخدا كما تقدم فتداعى بموته ركن المترجَم ورفعت النيام روسها، وتحركت حفايظها ونفوسها، وظهر شأن عبدْ الرحمن كتخدا القازدغلى وراج سوق نفاقه وأخذ يعضد مماليك إبراهيم كتخدا ويغريهم ويحرضهم على الجلفية لكونهم مواليه. فيخلص له بهم ملك مصر ويظن أنهم يراعون حق ولائه وسيادة جده، فكان الأمر عليه بخلاف ذلك كما ستراه، وهم كذلك يظهرون له الانقياد ويرجعون إلى رأيه ومشورته ليتم لهم به المراد، وكل من أمراء إبراهيم كتخدا متطلع للرياسة أيضا، وبالبلدة أيضا من الأكابر والاختيارية وأصحاب الوجاهة مثل حسن كتخدا أبى شنب وعلى كتخدا الخربطلى وحسن كتخدا الشعراوى قرا حسن كتخدا وإسماعيل كتخدا التبانه وعثمان أغا الوكيل وإبراهيم كتخدا مناو وعلى أغا توكلى وعمر أغا متفرقة وعمر أفندى محرم اختيار جاويشان وخليل جاويش حيضان مصلى وخليل جاويش القازدغلى وبيت الهياتم وإبراهيم أغا ابن (ص٤٩٧) الساعى وبيت

بعض أعلام الأكابر وقت رضوان كتخدا:
- عبد الرحمن كتخدا.
- حسن كتخدا أبو شنب.
- على كتخدا الخربطلى.
- حسن كتخدا الشعراوى.
- قرا حسن كتخدا.
- اسماعيل كتخدا التبانه.
- عثمان أغا الوكيل.
- ابراهيم كتخدا مناو.
- على أغا توكلى.
- عمر أغا متفرقه.
- عمر أفندى محرم.
- خليل جاويش حيضان مصلى.
- خليل جاويش القازدغلى.
- أعلام بيت الهياتم.
- ابراهيم أغا ابن الساعى.
- أعلام بيت درب الشمسى.
- عمر جاويش الداوديه.
- مصطفى أفندى الشريف.
- أعلام بيت بلفيه.
- أعلام بيت قصبة رضوان.
- أعلام بيت الفلاح.
- احمد كتخدا.
- اسماعيل كتخدا.
- على كتخدا.
- ذو الفقار جاويش.
- اسماعيل جاويش.



* جامع السلطان حسن.

درب الشمسى وعمر جاويش الداودية ومصطفى أفندى الشريف اختيار متفرقة وبيت بلفيه وبيت قصبة رضوان وبيت الفلاح، وهم كثيرون اختيارية وأوده باشيه، ومنهم أحمد كتخدا وإسماعيل كتخدا وعلى كتخدا وذو الفقار جاويش وإسماعيل جاويش وغيرهم، فأخذ أتباع إبراهيم كتخدا يدبرون فى اغتيال رضوان كتخدا وإزالته، وسعت فيهم عقارب الفتن، فتنبه رضوان كتخدا لذلك، فاتفق مع أغراضه [اتباعه] وملك القلعة والأبواب والمحمودية وجامع السلطان حسن، وجمع إليه جمع كثير من أمراه وغيرهم ومن انضم إليهم وكاد يتم له الأمر، فسعى عبد الرحمن كتخدا والاختيارية فى إجرا الصلح وطلع بعضهم إلى رضوان كتخدا وقالوا له «هولا أولاد أخيك وقد مات



▲ قلعة القاهرة.

وتركهم فى كنفك مثل الأيتام وأنت أولى بهم من كل أحد وليس من المروة والرأى أن تناظرهم أو تخاصمهم فإنك صرت كبير القوم وهم فى قبضتك أى وقت فلا تسمع كلام المنافقين» ، فلم يزالوا به حتى انخدع لكلامهم وصدقهم واعتقد نصحهم لأنه كان سليم الصدر، ففرق الجمع ونزل إلى بيته الذى بقوصون، فاغتنموا عند ذلك الفرصة وبيتوا أمرهم ليلا وملكوا القلعة والأبوب والجهات والمترجم فى غفلته آمن فى بيته مطمئن من قبلهم ولا يدرى ما خبئ له. فلم يشعر إلا وهم يضربون عليه بالمدافع، وكان المزين يحلق له رأسه فسقطت على داره الجلل* فأمر بالاستعداد وطلبَ من يركن إليهم فلم يجد أحداً ووجدهم قد أخذوا حوله الطرق (ص٤٩٨) والنواحى، فحارب فيهم

* الجلل هى القنابل.

إلى قريب الظهر وخامر عليه أتباعُه فضربه مملوكه صالح الصغير برصاصة من خلف الباب الموصل لبيت الراحة فأصابته فى ساقه وهرب مملوكه إلى الأخصام وكانوا وعدوه بأمرية إن هو قتل سيده، فلما حضر إليهم وأخبرهم بما فعل أمر على بك بقتله وقال «هذا خاين وليس فيه خير» فشفعوا فيه وأمروا بنفيه.

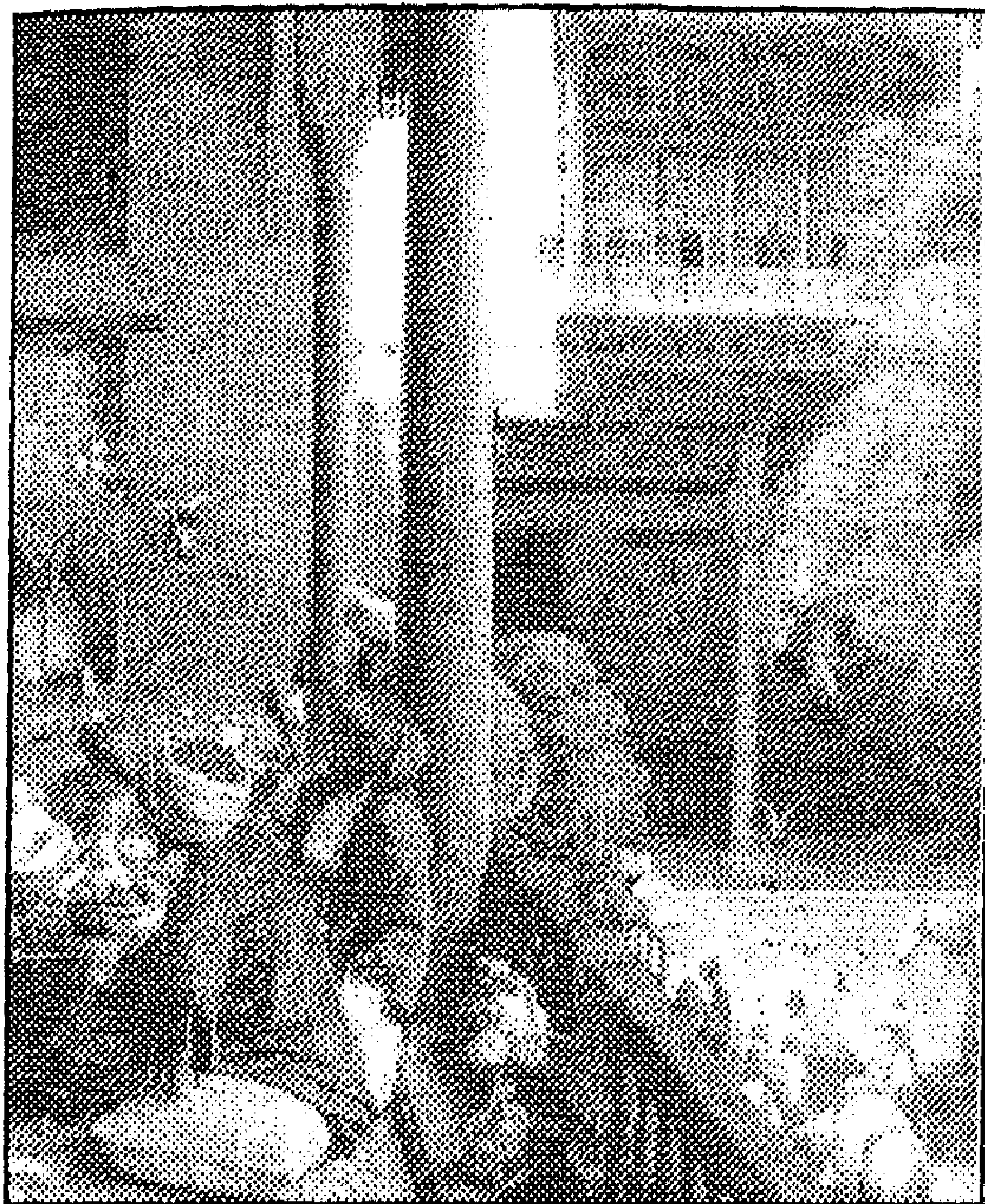
وعندما أصيب المترجم طلب الخيول وركب فى خاصته وخرج من نقب نقبه فى ظهر البيت وتألم من الضربة لأنها كسرت عظم ساقه، فسار إلى جهة البساتين وهو لا يصدق بالنجاة فلم يتبعه أحد ونهبوا داره، ثم ركب وسار إلى جهة الصعيد فمات بشرق أولاد يحيى ودفن هناك.

فكانت مدته بعد قسيمه قريبا من ستة أشهر، ولما مات تفرقت صناجقه ومماليكه فى البلاد، وسافر بعضهم إلى الحجاز من ناحية القصير، ثم ذهبوا من الحجاز إلى بغداد واستوطنوها وتناسلوا وماتوا وانقضت دولتهما، فكانت مدتهما نحو سبع سنوات، ومصر فى تلك المدة هادية من الفتن والشرور، والإقليم البحرى والقبلى أمن وأمان والأسعار رخّيصة والأحوال مرضية، واللحم الضانى المجروم [المشفّى] من عظمه رطله بنصفين، والجاموسى بنصف والسمن البقرى عشرته بأربعين نصف فضة واللبن الحليب عشرته بأربعة أنصاف، والرطل الصابون بخمسة أنصاف، والسكر المنعاد كذلك، والمكرر قنطاره بألف نصف والعسل القطر قنطاره بماية وعشرين نصفاً (ص٤٩٩) وأقل، والرطل البن القهوة باثنى عشر نصفا والتمر يجلب من الصعيد فى المراكب الكبار ويصب على ساحل بولاق مثل عُرم الغلال ويباع بالكيل والأرادب، والأرز إردبه بأربعماية نصف، والعسل النحل قنطاره بخمساية نصف، وشمع العسل رطلة

بخمسة وعشرين نصفا، وشمع الدهن بأربعة أنصاف، والفحم قنطاره بأربعين نصفا، والبصل قنطاره بسبعة أنصاف، وقس على ذلك

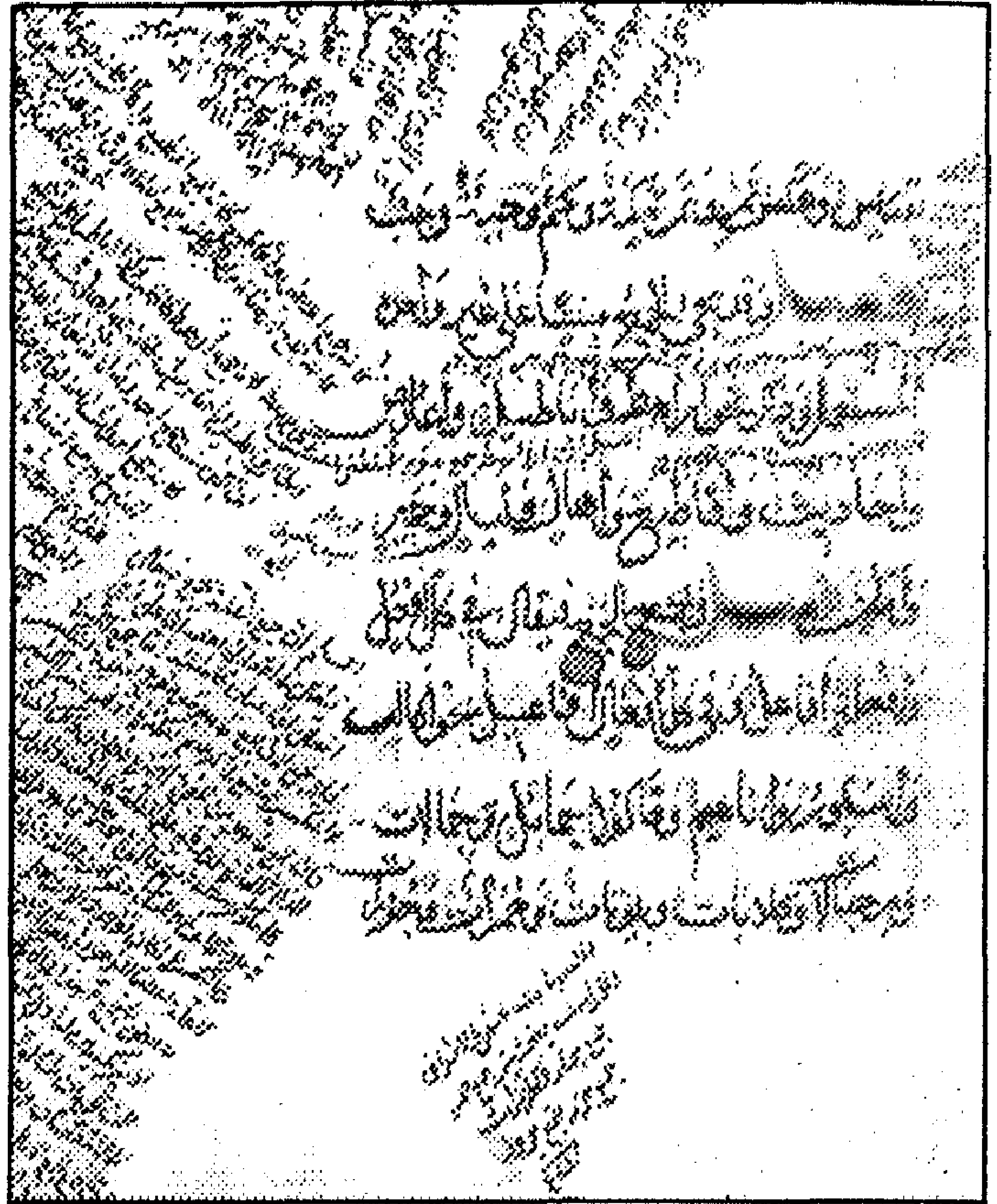
(يقول جامعة) إني أدركت بقايا تلك الأيام وذلك أن مولدى* كان فى سنة سبع وستين وماية وألف ولما صرتُ في سن التمييز رأيت الأشيا على ما ذكر إلا قليلا، وكنت أسمع الناس يقولون الشيء الفلاني زاد سعره عما كان في سنة كذا، وذلك في مبادئ دولة إبراهيم كتخدا وحدوث الاختلال في الأمور. وكانت مصر إذ ذاك محاسنها باهرة، وفضائلها ظاهرة، ولأعداها قاهرة، يعيش رغَداً بها الفقير، وتتسع للجليل والحقير، وكان لأهل مصر سنن وطرايق في مكارم الأخلاق لا توجد في غيرها، (منها) أن في كل بيت من بيوت جميع الأعيان مطبخين أحدهما أسفل رجالي والثاني في الحريم فيوضع في بيوت الأعيان السماط في وقتي العشا والغدا مستطيلا في المكان الخارج مبذولا للناس ويجلس بصدر ه أمير المجلس وحول الضيفان، ومن دونهم مماليكه وأتباعه ويقف الفراشون في وسطه يفرقون على الجالسين ويقربون إليهم ما بعد عنهم من القلايا والمحمّرات، ولا يمنعون في وقت الطعام من يريد الدخول أصلا ويرون أن ذلك من المعايب، حتى أن بعض (ص٥٠٠) ذوى الحاجات عند الأمرا إذا حجبهم الخدام انتظروا وقت الطعام ودخلوا فلا يمنعهم الخدم في ذلك الوقت، فيدخل صاحب الحاجة ويأكل وينال غرضه من مخاطبة الأمير لأنه إذا نظر على سماطه شخصا لم يكن رآه قبل ذلك ولم يذهب بعد الطعام عرف أن له حاجة فيطلبه ويسأله عن حاجته فيقضيها له، وإن كان محتاجا واساه بشيء، ولهم عادات

* ١١٦٧ = ١٧٥٤م. تاريخ ميلاد الجبرتي.



وصـدقـات فى أيام المواسم مـثل أيام أول رجب والمعـراج ونصف شـعبان وليالى رمـضان والأعـياد وعـاشـورا والمولد الشريف، يطبخون فيها الأرز باللبن والزَرْدة* *ويملئـون من ذلك قصاعا كثيرة ويفرقون منها على من يعرفونه من المحتاجين، ويجتمع فى كل بيت الكثير من الفقراء فيفرقون عليهم الخبز ويأكلون حتى يشبعوا من ذلك اللبن والزرده، ويعطونهم بعد ذلك دراهم ولهم غير ذلك صدقات وصلات لمن يلوذ بهم ويعرفون منه الاحتياج، وذلك خلاف ما يعمل ويفرق من الكعك المحشو بالسكر والعجمية والشريك على المدافن والترب فى الجمع والمواسم، وكذلك أهل القرى والأرياف فيهم من مكارم الأخلاق مالا يوجد فى غيرهم من أهل قرى الأقاليم، فإن أقل ما فيهم إذا نزل به ضيف ولو لم يعرفه اجتهد وبادر بقِراه فى الحال، وبذل وسعه فى إكرامه

الزَرْدة: هى المهلبية.



وذبح له ذبيحة فى العشاء، وذلك ما عدا مشايخ البلاد والمشاهير من كبار العرب والمقادم، فإن لهم مضايف واستعدادات للضيوف ومن ينزل عليهم من السفار والأجناد، (ص١٠٥) ولهم مسامیح وأطيان فى نظير ذلك خلفا عن سلف، إلى غير ذلك مما يطول شرحه ويعسر استقصاؤه.

وبموت رضوان كتخدا لم يقم لوجاق العزب صولة.

[ومات] الأجل المكرم والملاذ المفخم الخواجا الحاج/ أحمد بن محمد الشرايبي، وكان من أعيان التجار المشتهرين كأسلافه، وبيتهم المشهور بالأزبكية بيت المجد والفخر والعز ومماليكهم وأولاد مماليكهم من أعيان مصر جربجية وأمرا ومنهم يوسف بك الشرايبي، وكانوا فى غاية من الغنى ٢٤٠ الخواجا أحمد بن محمد الشرايبي



الصفحة الأولى من «كتاب الترياق» تزينه صور اطباء من مصر واليونان

والرفاهية والنظام ومكارم الأخلاق والإحسان للخاص والعام، ويتردد إلى منزلهم العلما والفضلا، ومجالسهم مشحونة بكتب العلم النفيسة للاعارة والتغيير وانتفاع الطلبة، ولا يكتبون عليها وقفية ولا يُدخلونها فى مواريثهم، ويرغبون فيها ويشترونها بأغلى ثمن ويضعونها على الرفوف والخزاين والخورنقات وفى مجالسهم جميعا، فكل من دخل إلى بيتهم من أهل العلم إلى أى مكان بقصد الإعارة أو المراجعة وجد بغيته ومطلوبه فى أى علم كان من العلوم ولو لم يكن الطالب معروفا، ولا يمنعون من يأخذ الكتاب بتمامه، فإن رده فى مكانه رده وإن لم يرده واختص به أو باعه لا يسأل عنه، وربما بيع الكتاب عليهم واشتروه مراراً ويعتذرون عن الجانى بضرورة الاحتياج.

وخبزهم وطعاهم مشهورة بغاية الجودة والإتقان والكثرة،

وهو مبذول للقاصي والداني مع السعة والاستعداد، وجميعهم مالكيو المذهب على طريقة أسلافهم، وأخلاقهم جميلة وأوضاعهم منزهة عن (ص٥٠٢) كل نقص ورذيلة، ومن أوضاعهم وطرايفهم أنهم لا يتزوجون إلا من بعضهم البعض، ولا تخرج من بيتهم إمرأة إلا للمقبرة، فإذا عملوا عرساً ولموا الولايم وأطعموا الفقرا والقراء على نسق اعتادوه، وتنزل العروس من حريم أبيها إلى مكان زوجها بالنسا الخلص والمغاني والجنك تزفها ليلا بالشموع وباب البيت مغلوق عليهن، وذلك عندما يكون الرجال فى صلاة العشاء بالمسجد الأزبكى المقابل لسكنهم، وبيتهم يشتمل على أثنى عشر مسكنا كل مسكن بيت متسع على حدته، وكان الأمرا بمصر يترددون إليهم كثيرا من غير سبق دعوة، وكان رضوان كتخدا يتفسح عند المترجم فى كثير من الأوقات مع الكمال والاحتشام، ولا يصحبه فى ذلك المجلس إلا اللطفا من ندماه، وإذا قصده الشعرا بمدح لا يأتونه فى الغالب إلا فى مجلسه لينالوا فضيلتين ويحرزوا جائزتين.

وكان من سننهم أنهم يجعلون عليهم كبيراً منهم وتحت يده الكاتب والمستوفى والجابى، فيجمع لديه جميع الإيراد من الالتزام والعقار والجامكية، ويسدد الميرى ويصرف لكل إنسان راتبه على قدر حاله وقانون استحقاقه، وكذلك لوازم الكساوى للرجال والنساء فى الشتاء والصيف ومصروف الجيب فى كل شهر، وعند تمام السنة يعمل الحساب ويجمع ما فضل عنده من المال ويقسمه على كل فرد بقدر استحقاقه وطبقته، واستمروا على هذا الرسم والترتيب مدة مديدة، فلما مات كبارهم وقع (ص٥٠٣) بينهم الاختلاف واقتسموا الإيراد واختص كل فرد منهم بنصيبه يفعل به ما

يشتهى، وتفرق الجمع وقلت البركة وانعزل المحبون وصار كل حزب بما لديهم فرحون، وكان مسك ختامهم صديقا وأخا في الله اللوذعي الأريب، والنادرة المفرد النجيب، سيدى إبراهيم بن محمد بن الداده* الشرايبي الغزالى، كان رحمه الله تعالى ملكي الصفات بسّام العشيات، عذب المورد، رحيب النادى، واسع الصدر للحاضر والبادى، قطعنا معه أوقاتا كانت لعين الدهر قرة، وعلى مكتوب العمر عنوان المسرة، وكان لسان حاله يقول:

إذا مـــــضى يوم ولم أصطنع يدا
ولم أقتبس علما فما ذاك من عمرى

وما زال يشترى متاع الحياة بجوهر عمره النفيس، مواظبا على مذاكرة العلم وحضور التدريس، حتى كدر الموت ورده، وبدد الدهر الحسود بنوايبه عقده، كما يأتى تتمة ذلك فى سنة وفاته، وانمحت بموته من بيتهم المآثر، وتبدد بقية عقدهم المتناثر.

* الداده: معناها عطية الله، أو هبة الله. كما تعنى البقشيش والهبة.

٢٤١ أحمد جلبى ابن الامير على. ت / ١١٧١ هـ = ١٧٥٨م.

[ومات] أحمد چلبى ابن الأمير على والأمير عثمان ولم يبق منهم إلا كما قال القائل:

ذهب الذين يُعـــاش فى أكناف
وبقيت فى خَلَف كجلد الأجْرب*

وتزوج مماليكُ القازغلية نساءهم وسكنوا فى بيتهم ومنهم سليمان أغا صالح، وتقلد الزعامة وصار بيتهم الوالى، ووقف ببابه الأعوان والزبانية، ويحبس به أرباب الجرائم فيعذبون ويعاقبون، لا يسأل (ص٥٠٤) عما يفعل، وكثيرا ما أتذكر بذكرهم قول القايل:

* هذا البيت للبيد بن ربيعة وبعده:

لا ينفعون ولا يُرَجّى خيرهم
ويعاب قائلهم وإن لم يَشْغَب

ويشغب بسكون الشين أى وإن لم يهيج الشر والفتنة والخصام بين الناس. أى يعاب قوله وإن لم يكن مشاغبا.

سقى الله عيشاً فى ظلال ربوعهم
حلا ذكره فى الذوق وهو مدام
ليال لنا فى مصر وصلٌ كأنها
على وجنه الدهر الممنع شامُ
يحين حمامى من حنينى ولوعتى
إذا ناح فوق الأيكتينْ حمَامُ

توفى المترَجم فى سنة إحدى وسبعين وماية وألف.

٢٤٢ السلطان محمود خان
ت / ١١٦٨ هـ= ١٧٥٥م.
وهو آخر بنى عثمان فى حسن السيرة والاستقامة.

[ومات] سلطان الزمان السلطان محمود خان العثمانى، وكانت مدته نيفا وعشرين سنة، وهو آخر بنى عثمان فى حسن السيرة والشهامة والحرمة واستقامة الأحوال والمآثر الحسنة، توفى ثامن عشر صفر سنة ثمان وستين ومائة وألف.

وتولى السلطان عثمان بن أحمد أصلح الله شأنه.

٢٤٣ حمودة السديدى.
ت / ١١٦٣هـ = ١٧٥٠م.

[ومات] النبيه النبيل والفقيه الجليل والسيد الأصيل السيد محمد المدعو حموده السديدى أحد ندماء الأمير رضوان كتخدا، ولد بالمحلة الكبرى وبها نشأ وحفظ القرآن، واشتغل بطلب العلم فحصّل مأموله فى الفقه والمعقول والمعانى والبيان والعروض، وعانى نظم الشعر وكان جيد القريحة حسن السليقة فى النظم والنثر والإنشاء، وحضر إلى مصر وأخذ عن علمائها، واجتمع بالأمير رضوان كتخدا عزبان الجلفى المشار إليه وصار من خاصة ندمائه، وامتدحه بقصايد كثيرة طنانة وموشحات ومزدوجة بديعة، والمقامة التى داعب بها (ص٥٠٥) الشيخ عمار القروى وأردفها بقصيدة رائية

بليغة فى هجو المذكور سامحهما الله، وكل ذلك مذكور فى الفوايح الجنانيه لجامعة الشيخ عبد الله الإدكاوى، حج رحمه الله ومات وهو آيب بأجرود سنة ثلاث وستين ومساية وألف، ورثاه الشيخ عبد الله الإدكاوى بقصيدة طويلة أولها:

من نصيرى على الفراق الأشقّ
أومن الدهر آخذٌ لى بحقى

وبيت تاريخها:

وله الحور بالدعاء تؤرخ
جود رحما ترب السديدى يسقى

٢٤٤ محمد جلبى الصابونجى.

[ومات] الأجل المكرم محمد چلبى بن إبراهيم جربجى الصابونجى مقتولا، وخبره أنه لما توفى أبوه وأخذ بلاده وبيتهم تجاه العتبة الزرقا* على بركة الأزبكية، فتوفى أيضاً عثمان جربجى الصابونجى بمنفلوط وذلك سنة سبع وأربعين وماية وألف، ومات غيره كذلك من معاتيقهم، وكان محمد جربجى مثل والده بالباب، ويلتجى إلى يوسف كتخدا البركاوى، فلما مات البركاوى خاف من على كتخدا الجلفى فالتجأ إلى عبد الله كتخدا القازدغلى وعمل يتكجرى، فأراد أن يقلده أوده باشه ويلبسه الضلمة، فقصد السفر إلى الوجه القبلى وذلك فى سنة أربع وخمسين، فسافر واستولى على بلاد عثمان جربجى ومعاتيقه وقام هناك، وكان رَذْلاً* بخيلا طماعاً شرهاً فى الدنيا، وكان مماليكه يهربون منه، وكانت أخته زوجاً لعمر أغا خازندار أبيه ولم (ص٥٠٦) يفتقدها بشىء * .

واتفق أن رجلا من كبار هوَّارة بحرى توفى فأرسل المترجم إلى وكيله أحمد أوده باشه فأخذ له بلاد المتوفى بالمحلول ودفع حلوانها إلى الباشا، فأرسل أولادُ المتوفى إلى هوارة

* العتبة الزرقا: المراد بها العتبة الخضرا الحالية.

* الرَذْل بفتح الراء وسكون الذال هو الدون الخسيس.

* لم يفتقدها بشىء أى لم يتعرف أحوالها حتى يساعدها إذا احتاجت إلى مساعدته ومعونته.

قبلي عرّفوهم أن بلاد أسلافهم أخذها ابن الصابونجي ونازل يتصرف فيها، وطلبوا منهم معونة حتي يرسلوا إلى إبراهيم كتخدا القازدغلي ويدفعوا الذى دفعه في الحلوان ويخلص لهم بلادهم، فأرسلوا لهم هوارة وعبيداً وسيمانية فحاربوه وغلبوه، فعدى إلى البر الغربي فوقفوا في مقابلته فخاف منهم أن يعدوا خلفه فنزل إلى المراكب وأخذ معه صندوق الأوراق والتقاسيط، وحضر إلى مصر ودخل إلى داره بالأزبكية، ثم إن هوارة أرسلت إلى إبراهيم كتخدا فأحضره وتكلم معه وترجى عنده فلم يمتثل، واستمر على عناده فلم يزل ابن السكرى يلاطفه فلم يتحول عن ذلك، فأرسل إبراهيم كتخدا وأخذ فرماناً بنفيه إلى الحجاز، فأخذوه إلى السويس، ومن شدة حرصه أخذ صحبته صندوق الأوراق والتقاسيط والحجج والتذاكر، فلما وصل إلى السويس أرسل خلفه إبراهيم كتخدا فرماناً صحبة جاويش بقتله، فقتلوه وأحضروا الصندوق إلى إبراهيم كتخدا.

وترك ثلاث بنات زوّج بنتاً منهن إلى خازنداره وسكن بها في بيت بحارة الضبية عند سوق أمير الجيوش، وأخذ بيت الأزبكية إبراهيم كتخدا وزوّج زوجته إلى خازنداره محمود أغا فأقام معها أياماً ومات، فزوجها إلى حسين أغا وولاة كشوفية المنصورة، وبعد تمام السنة عمله أمين الشُّوَن وأعطاه رضوان كتخدا ولاية البحر وعمله كتخداه مدة أيام، ثم تقلد الإمارة والصنجقية بعد موت أستاذه وهو حسين بك المقتول الآتي ذكره.

فصل فى بيت القازدغلية

ولما مات إبراهيم كتخدا القازغلى ورضوان كتخدا الجلفى بدأ أمر أتباع إبراهيم كتخدا فى الظهور، وكان المتعين بالإمارة منهم عثمان بك (ص٥٠٧) الجرجاوى وعلى بك الذى عرف بالغزاوى وحسين بك الذى عرف بكشكش، وهؤلاء الثلاثة تقلدوا الصنجقية والإمارة فى حياة أستاذهم، والذى تقلد الإمارة منهم بعد موته.حسين بك الذى عرف بالصابونجى وعلى بك بلوط قيان [على بك الكبير] وخليل بك الكبير، وأما من تأمر منهم بعد قتل حسين بك الصابونجى فهم حسن بك جوجه وإسماعيل بك أبو مدفع، وأما من تأمر بعد ذلك بعناية على بك بلوط قبان عندما ظهر أمره فهو إسماعيل بك الأخير الذى تزوج ببنت أستاذه وكان خازنداره، وعلى بك السروجى، فلما استقر أمرهم بعد خروج رضوان كتخدا وزوال دولة الجلفية، تعين بالرياسة منهم على أقرانه عثمان بك الجرجاوى، فسار سيراً عنيفاً من غير تدبر، وناكد زوجة سيده بنت البارودى وصادرها فى بعض تعلقاتها، فشكت أمرها إلى كبار الاختيارية فخاطبوه فى شأنها، وكلمه حسن كتخدا أبو شنب فرد عليه رداً قبيحاً، فتحزبوا عليه ونزعوه من الرياسة وقدموا حسين بك الصابونجى وجعلوه شيخ البلد، ولم يزل حتى حقد عليه خشداشينه وقتلوه.

٢٤٥ حسين بك كشكش.
قتل/ ١١٧١ هـ = ١٧٥٨م.

وخبر موت حسين بك المذكور أنه لما مات إبراهيم كتخدا قلدوا المذكورة إمارة الحج وطلع سنة ١١٦٩ وسنة ١١٧٠، ثم تعين بالرياسة، وصار هو كبير القوم والمشار إليه، وكان كريماً جواداً وجيهاً، وكان يميل بطبعه إلى نصف حرام لأن أصله من مماليك الصابونجى، فهرب من بيته وهو صغير

وذهب إلي إبراهيم جاويش فاشتراه من الصابونجى ورباه ورقاه (ص٥٠٨) ثم زوجه بزوجة محمد جربجي بن إبراهيم الصابونجي وسكن بيتهم وعمّره ووسعه وأنشأ فيه قاعة عظيمة، فلذلك اشتهر بالصابونجى، ولما رجع من الحجاز قلد عبد الرحمن أغا أغاوية مستحفظان، وهو عبد الرحمن أغا المشهور في شهر شعبان من السنة المذكورة وهي سنة ١١٧٠، وطلع بالحج في تلك السنة، محمد بك ابن الدالي ورجع في سنة إحدى وسبعين، ثم إن المترجم أخرج خشداشه على بك [الكبير] المعروف ببلوط قبان ونفاه إلى بلده النوسات، وأخرج خشداشه أيضاً عثمان بك الجرجاوى منفياً إلى أسيوط، وأراد نفي على بك الغزاوى وأخرجه إلى جهة العادلية، فسعى فيه الإختيارية بواسطة نسيبه على كتخدا الخربطلي وحسن كتخدا أبى شنب، فألزمه أن يقيم بمنزل صهره على كتخدا المذكور ببركة الرطلي ولا يخرج من البيت ولا يحتك بأحد من أقرانه، وأرسل إلى خشداشه حسين بك المعروف بكشكش فأحضره من جرجا وكان حاكما بالولاية، فأمره بالإقامة في قصر العيني ولا يدخل إلى المدينة، ثم أرسل إليه يأمره بالسفر إلى جهة البحيرة، وأحضروا إليه المراكب التي يسافر فيها ويريد بذلك تفرق خشداشينه في الجهات، ثم يرسل إليهم ويقتلهم لينفرد بالأمر والرياسة ويستقل بملك مصر ويظهر دولة نصف حرام وهو غرضه الباطني، وضم إليه جماعة من خشداشينه وتوافقوا معه على مقصده ظاهراً، وهم حسن كاشف جوجه وقاسم (ص٥٠٩) كاشف وخليل كاشف جربجي وعلى أغا المنجي وإسماعيل كاشف أبو مدفع وآخر يسمى حسن كاشف وكانوا من أخصايه وملازميه، فاشتغل

* نفي علي بك [الكبير] فيما بعد إلى النوسات.

معهم حسين بك كشكش واستمالهم سراً واتفق معهم على اغتياله فحضروا عنده في يوم الجمعة على جرى عادتهم، وركبوا صحبته إلى القافلة فزاروا ضريح الإمام الشافعي، ثم رجع صحبتهم إلى مصر القديمة فنزلوا بقصر الوكيل وباتوا صحبته في أنس وضحك، وفي الصباح حضر إليهم الفطور فأكلوه وشربوا القهوة وخرج المماليك ليأكلوا الفطور مع بعضهم وبقى هو مع الجماعة وحده وكانوا طلبوا منه انعاما فكتب إلى كل واحد منهم وصولاً بألف ريال وألف إردب قمح وغلال، ووضعوا الأوراق في جيوبهم ثم سحبوا عليه السلاح وقتلوه وقطّعوه قطعا ونزلوا من القصر وأغلقوه على المماليك والطايفة من خارج، وركب حسن كاشف جوجه ركوبة حسين بك وكان موعدهم مع حسين بك كشكش عند الجراة [مجرى العيون]، فإنه لما أحضروا له مراكب السفر تلكأ في النزول وكلما أرسل إليه حسين بك يستعجله بالسفر يحتج بسكون الريح أو ينزل بالمراكب ويعدى إلى البر الآخر ويوهم أنه مسافر، ثم يرجع ليلا ويتعلل بقضاء أشغاله، واستمر على ذلك الحال ثلاثة أيام حتى تمم أغراضه وشغله مع الجماعة ووعدهم بالإمريات* ، واتفق معهم انه ينتظرهم عند الجراة وهم يركبون مع حسين بك ويقتلونه في الطريق إن لم يتمكنوا (ص٥١٠) من قتله بالقصر، فقدر الله انهم قتلوه وركبوا حتى وصلوا إلى حسين بك كَشْكَشْ فأخبروه بتمام الأمر، فركب معهم ودخلوا إلى مصر وذهب كَشْكَشْ إلى بيت حسين بك بالداودية وملكه بما فيه وأرسل باحضار خشداشينه المنفيين، وعندما وصل الخبر إلى على بك الغزاوى ببركة الرطلى ركب في الحال مع القاتلين وطلعوا إلى القلعة وأخذوا في طريقهم أكابر الوجاقلية

* الإمريات: جمع إمرة وهي الإمارة.

ومنهم حسن كتخدا أبو شنب وهو من أغراض حسين بك المقتول وكان مريضاً بالاكله * فى فمه وقالوا لبعضهم إن لم يركب معنا أو أنه اعترض على فعلنا قتلناه، فلما دخلوا إليه وطلبوه نزل إليهم من الحريم، فإخبروه بقتلهم حسين بك فلم يجبهم إلا بقوله «هو أخوكم وفيكم الخلف والبركة» فطلبوه للركوب معهم فاعتذر بالمرض فلم يقبلوا عذره، فتطيلس* وركب معهم إلى القلعة، وولوا على بك الكبير البلد عوضا عن حسين بك المقتول، وكان قتله فى شهر صفر سنة إحدى وسبعين، ثم إن مماليكه وضعوا أعضاءه فى خرج وحملوه على هجين ودخلوا به إلى المدينة فادخلوه إلى بيت الشيخ الشبراوى بالرويعى* فغسلوه وكفنوه ودفنوه بالقرافة، وسكن على بك المذكور بيت حسين بك الصابونجى الذى بالأزبكية، وأحضروا على بك من النوسات، وعثمان بك الجرجاوى من أسيوط، وقلدوا خليل كاشف صنجقية وإسماعيل أبو مدفع كذلك، وقاسم كاشف قلدوه الزعامة (ص٥١١) ثم قلدوا بعد أشهر حسن كاشف المعروف بجوجه صنجقية أيضاً، وكان ذلك فى ولاية على باشا ابن الحكيم الثانية، فكان حال حسين بك المقتول مع قاتليه كما قال الشاعر:

واخوان أتخذتهموه دروعاً

فكانوها ولكن للأعادى

وخلتهمو سهاما صائباتٍ

فكانوها ولكن فى فؤادى

وقالوا قد صفت منا قلوبٌ

لقد صدقوا ولكن من ودادى

* الإكلة بكسر الهمزة هى الحكة وهى داء فى العضو يتأكل منه وهو المعروف بالجرب.

* تطيلس: اى لبس الطيلسان وهو كساءٌ يلبسه الخواص.

* الرويعى: من أحياء القاهرة جهة الجامع الأحمر شرقى ميدان الخازندار.

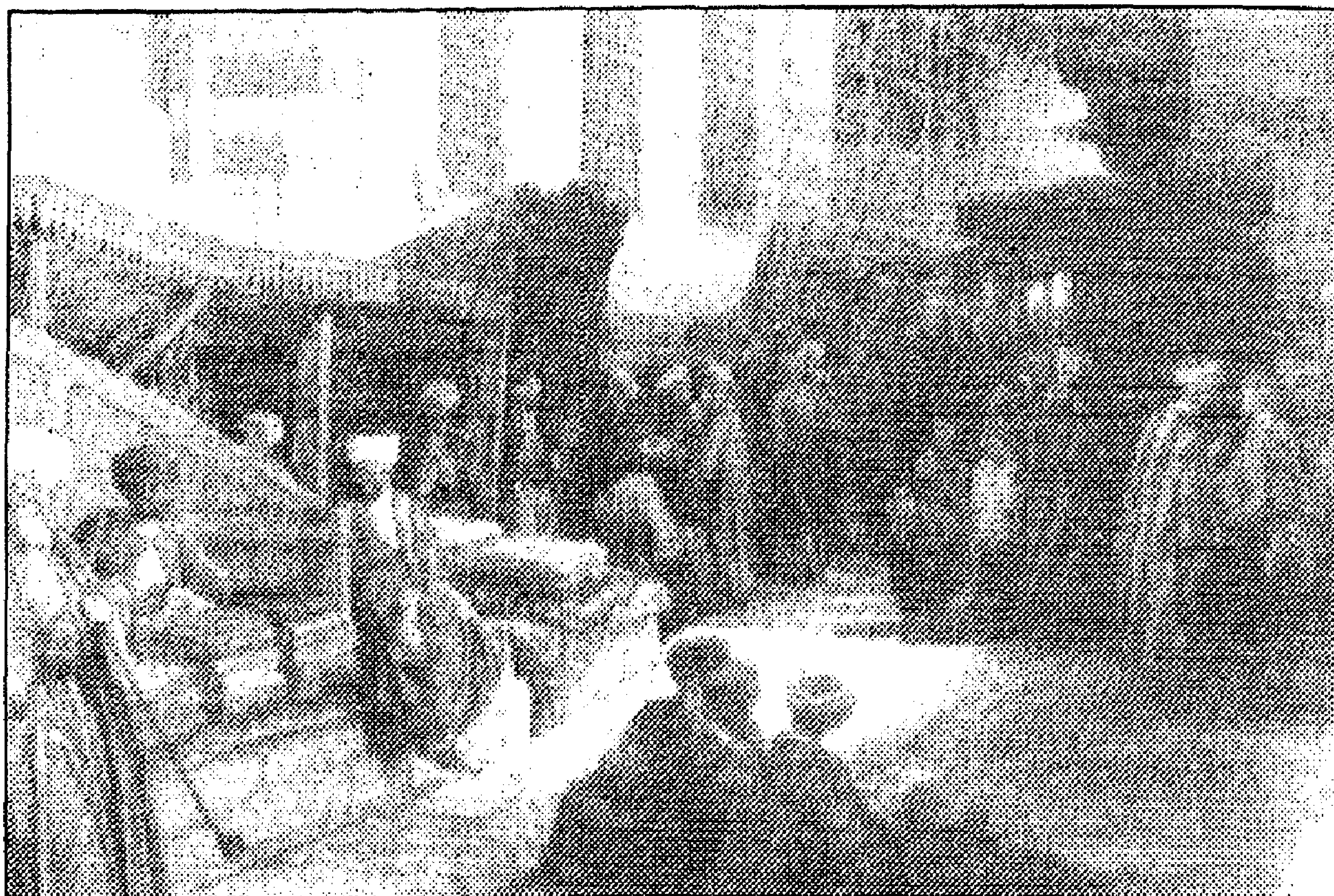
وقــالوا قــد ســعـينا كل يوم
لقــد صــدقـوا ولكن فى فــسـادى

ولأبى اسحق التلمسانى:

الغــدر فى الناس شــيـمــة سلفتْ
فــد طال بين الورى تـصــرفــهـا
مــا كل من قــد ســرت له نعمٌ
منك يَرى قــدرَها ويعــرفــهـا
بل ربما أعــقـب الجــزاء بهــا
مــضــرةً عــزّ عنك مَــصْـرفــهـا
أما ترى الشمس كيف تعطف بالنـور على البدر وهو يكسفها

٢٤٦ عبد الله الشبراوى
ت/ ١١٧١ هـ = ١٧٥٨م.

وأمــا مــن مــات فــى هــذا التـاريـخ مــن الأعـيـان، خـلاف حسـين بـك المذكـور فالشيـخ الإمـام الفـقيه المحـدث الأصـولى المتكلـم الماهـر الشـاعـر الأديب/ عبــد الله بـن محـمـد بـن عامـر بـن شـرف الديـن الشبــراوى (ص٥١٢) الشـافعـى، ولـد تقريبــاً فــى سنــة اثنتـين وتسـعـين وألـف، وهـو مـن بـيت العلم والجـلالـة، فـجـدُّه عـامـر بـن شـرف الديـن ترجمـه الأمينـى فـى الخلاصـة ووصفـه بالحفـظ والذكــاه، فأول مــن شملتــه إجازتـه سيــدى محـمـد بــن عـبد الله الخـرشـــى وعـمـره إذ ذاك نحــو ثمــان سنــوات، وذلك فى سنة ألف ومابة، وتوفى الشيخ الخرشى المالكى فى سابع عشرين الحجة سنة واحد ومابة وألف، وتولى بعده مشيخة الأزهر الشيخ محمد النشرتى المالكى وتوفى فى ثامن عشرين الحجة سنة عشرين ومابة وألف، ووقع بعد



موته فتنة بالجامع الأزهر بسبب المشيخة والتدريس بالآقبغاوية* ، وافترق المجاورون فرقتين فرقة تريد الشيخ أحمد النفراوى والأخرى تريد الشيخ عبد الباقى القلينى، ولم يكن حاضراً بمصر فتعصب له جماعة النشرتى وأرسلوا يستعجلونه للحضور، فقبل حضوره تصدر الشيخ أحمد النفراوى وحضر للتدريس بالأقبغاوية، فمنعه القاطنون بها وحضر القلينى فانضم إليه جماعة النشرتى وتعصبوا له، فحضر جماعة النفراوى إلى الجامع ليلا ومعهم بنادق وأسلحة وضربوا بالبنادق في الجامع وأخرجوا جماعة القلينى وكسروا باب الأقبغاوية وأجلسوا النفراوى مكان النشرتى، فاجتمعت جماعة القلينى فى يومها بعد العصر وكبسوا الجامع وقفلوا أبوابه وتضاربوا مع جماعة النفراوى

* الآقبغاوية: هى مدرسة تنسب إلى الأمير آقبغا، بناها في سنة ٧٤٠ هـ بالأزهر الشريف.

فقتلوا منهم نحو العشرة أنفار والجرح بينهم جرحى كثيرة، وانتهبت الخزاين وتكسرت القناديل، وحضر الوالى فاخرج (ص٥١٣) القتلى وتفرق المجاورون ولم يبق بالجامع أحد، ولم يصلِّ فيه ذلك اليوم، وفى ثانى يوم طلع الشيخ أحمد النفراوى إلى الديوان ومعه حجة الكشف على المقتولين، فلم يلتفت الباشا إلى دعواه لعلمه بتعديه وأمره بلزوم بيته وأمر بنفى الشيخ محمد شنن إلى بلده الجدية وقبضوا على من كان بصحبته وحبسوهم فى العرقانة* وكانوا اثنى عشر رجلا. وتطاول حسن أفندى نقيب الأشراف على الشيخ النفراوى والشيخ شنن فى الديوان بحضرة الباشا ومن جملة ما قال له «جماعتك المفاسيد الذين هم عاملون طلبة علم يصعدون على المنارة ويقولون فى محل الأذان يا آل حرام ويضربون بالرصاص فى المسجد!!؟». واستقر القلينى فى المشيخة والتدريس ولما مات تقلد بعده الشيخ محمد شنن، وكان النفراوى قد مات، ولما مات الشيخ شنن تقلد المشيخة الشيخ إبراهيم بن موسى الفيومى المالكى.

ولما مات فى سنة سبع وثلاثين انتقلت المشيخة إلى الشافعية فتولاها الشيخ عبد الله الشبراوى المترجم المذكور فى حياة كبار العلماء، بعد أن تمكن وحضر الأشياخ

* العرقانة: أحد سجون القاهرة فى ذلك الوقت.

كالشيخ خليل بن إبراهيم اللقانى والشهاب الخليفى والشيخ محمد بن عبد الباقى الزرقانى والشيخ أحمد النفراوى والشيخ منصور المنوفى والشيخ صالح الحنبلى والشيخ محمد المغربى الصغير والشيخ عيد التمرسى، وسمع الأولية وأوايل الكتب من الشيخ عبد الله بن سالم البصرى أيام حجه، ولم يزل (ص٥١٤) يترقى فى الأحوال والأطوار ويفيد ويملى ويدرس حتى صار أعظم الأعاظم، ذا جاه ومنزلة عند رجال الدولة والأمراء ونفذت كلمته وقبلت شفاعته وصار لأهل العلم ماعندهم، وعمّر داراً عظيمة على بركة الأزبكية بالقرب من الرويعى وكذلك ولده سيدى عامر عمّر داراً تجاه دار أبيه وصرف عليها أموالا جمة، وكان يقتنى الظرايف والتحايف من كل شيء، والكتب المكلفة النفيسة بالخط الحسن، وكان راتب مطبخ ولده سيدى عامر فى كل يوم من اللحم الضانى رأسين من الغنم السمان يذبحان فى بيته، وكان طلبة العلم فى أيام مشيخة الشيخ عبد الله الشبراوى فى غاية الأدب والاحترام، ومن آثاره كتاب مفايح الألطاف فى مدايح الأشراف، وشرح الصدر فى غزوة بدر، ألفها بإشارة على باشا ابن الحكيم، وذكر فى آخرها نبذة

من التاريخ وولاة مصر إلى وقت صاحب الإشارة، وله ديوان يحتوى على غزليات وأشعار ومقاطيع مشهور بأيدى الناس وغير ذلك كثير، وأوردت فى هذا المجموع كثيراً من كلامه بحسب المناسبات، توفى فى صبيحة يوم الخميس سادس ذى الحجة ختام سنة إحدى وسبعين وماية وألف وصُلى عليه بالأزهر فى مشهد حافل عن ثمانين سنة تقريباً.

٢٤٧ حسن بن على المنطاوى المدابغى.
ت / ١١٧٠ هـ = ١٧٥٧م.

[ومات] الشيخ الإمام الأحق بالتقديم (ص٥١٥) الفقيه المحدث الورع الشيخ/ حسن بن على بن أحمد بن عبد الله الشافعى الأزهرى المنطاوى الشهير بالمدابغى، أخذ العلوم عن الشيخ منصور المنوفى وعمر بن عبد السلام التطاونى والشيخ عيد النمرسى والشيخ محمد بن أحمد الوزازى ومحمد بن سعيد التنبكتى وغيرهم، خدم العلم ودرس بالجامع الأزهر وأفتى وألف وأجاد، منها حاشيته على شرح الخطيب على أبى شجاع نافعة للطلبة، وثلاثة شروح على الأجرومية وشرح الصيغة الأحمدية وشرح الدلايل وشرح على حزب البحر، وشرح حزب النووى شرحاً لطيفاً واختصر شرح الحزب الكبير للبنانى ورسالة فى القراءات العشر وأخرى فى فضايل ليلة القدر وأخرى فى المولد الشريف، وحاشيته على جمع الجوامع المشهورة، وحاشيته على شرح الأربعين لابن حجر، واختصر سيرة ابن الميت وحاشية التحرير وحاشية على الأشمونى، وشرح قصيدة المقْرى التى أولها سبحان من قسم الحظوظ

وحاشية على الشيخ خالد وغير ذلك، ومن إملائه أو لبعض مشايخه في أقسام الجملة الحالية:

ولزم الواو مـــضـــارعـــا بقـــد
وانفـــرد الضـــمـــيـــر في ســـبع تُعـــد
مـــــاض تلا الا ومـــــتـلـوّ بأو
كـــذا مـــضـــارع بما أولا نفـــوا
أو مـــثـــبـت أو أكـــدت جـــملة أو
مـــعطوفـــة والبـــاقي مطلقـــاً رووا

(ص٥١٦) توفي في عشرين شهر صفر سنة سبعين ومائة وألف، ورثاه الشيخ عبد الله الإدكاوي بقصيدتين، إحداهما غينية مطلعها:

مـــضى عـــالـم العـــصـــر الإمـــامُ لربه
حـــمـــيـــد المســـاعي فـــاندُبَنّه وبالغِ

وبيت تاريخها:

ولما قـــضى ذاك المهـــذبُ نحـــبَـــه
وآب برضـــــوان من اللـه ســـــابغِ
دعـــوت أحـــبّـــائي وقلت لهم قـــفـــوا
مـــعي عند ذا التـــاريخ نبكي المدابغي

والثانية نونية مطلعها:

صـــبـــراً فـــذا الدهر من عـــاداته المحن
وفي تلوّنه قـــــد حـــــارت الفطن

وبيت تاريخها:

والحـــور جـــاءتك بالبـــشـــرى مـــؤرخـــة
حليت من حلل الأبرار يا حـــســـنُ

٢٤٨ محمد بن الطيب القاسي.
ت/ ١١٧٠ هـ = ١٧٥٦م.

[ومات] العلامة القدوة شمس الدين/ محمد بن الطيب بن محمد الشرقي الفاسي، ولد بفاس سنة عشر ومائة وألف واستجاز له والده من أبي الأسرار حسن بن علي العجمي من مكة المشرفة وعمره إذ ذاك ثلاث سنوات فدخل في عموم إجازته وتوفي بالمدينة المنورة سنة سبعين ومائة وألف وتاريخه مغلق عن ستين عاماً، رحمه الله تعالى.

٢٤٩ داود بن سليمان الشرنوبي.
ت/ ١١٧٠ هـ = ١٧٥٦م.

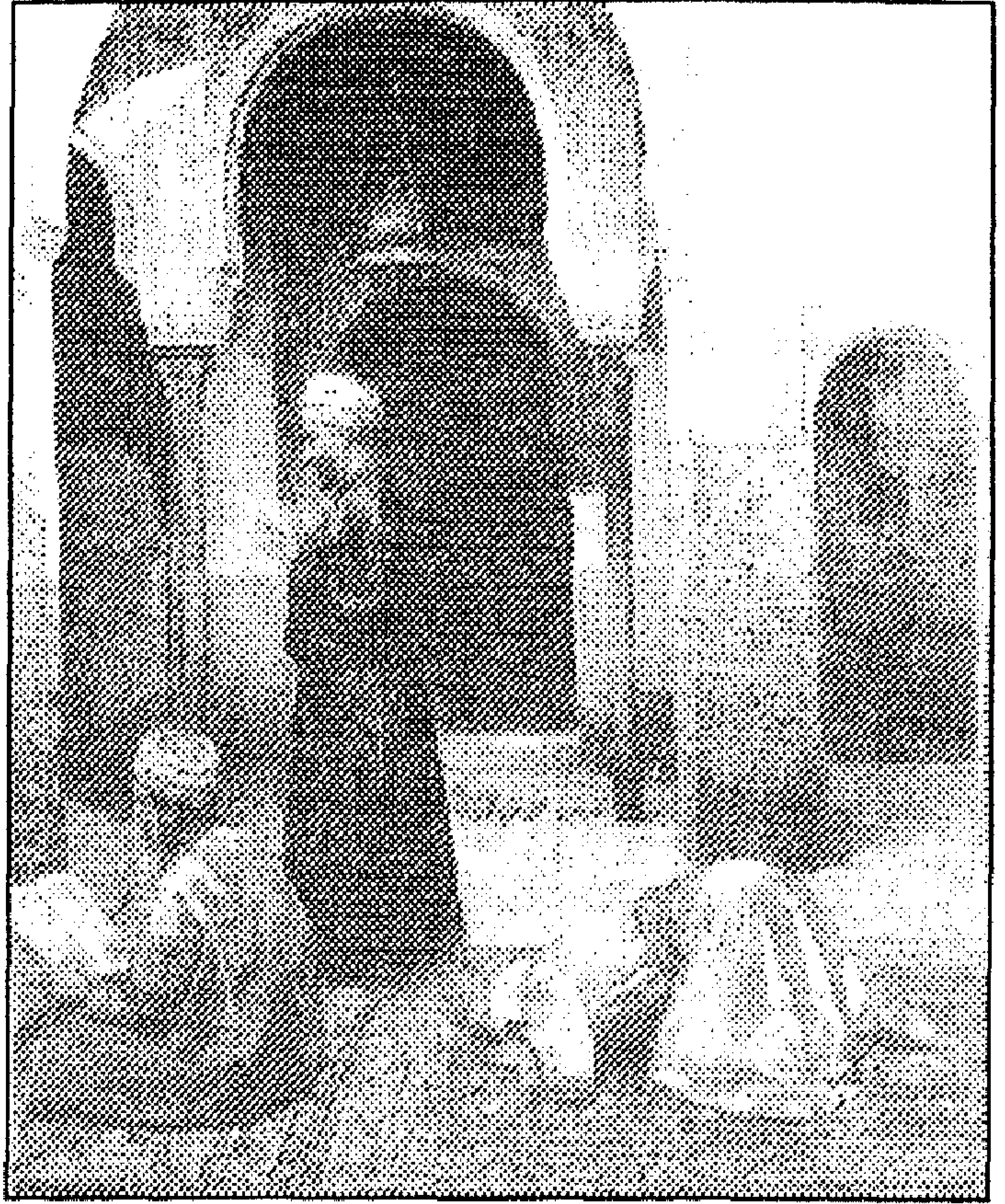
[ومات] الشيخ/ داود بن سليمان بن أحمد بن محمد بن عمر بن عامر بن خضر الشرنوبي البرهاني المالكي الخربتاوي، ولد سنة ثمانين وألف وحضر (ص٥١٧) على كبار أهل العصر كالشيخ محمد الزرقاني والخرشي وطبقتهما، وعاش حتى ألحق الأحفاد بالأجداد، وكان شيخاً معمّراً مسنداً له عناية بالحديث، توفي في جمادى الثانية سنة سبعين ومائة وألف.

٢٥٠ محمد بن علي الجزائلي.
ت/ ١١٧٠ هـ = ١٧٥٦م.

[ومات] الشيخ القطب العارف الواصل الشيخ/ محمد بن علي الجزائلي القاسمية الشهير بكشك، ورد مصر صغيراً وبها نشأ وحج وأخذ الطريقة عن سيدي أحمد السوسي تلميذ سيدي قاسم، وجعله خليفة القاسمية بمصر، فلوحظ بالأنوار والأسرار، ثم دخل المغرب ليزور شيخه فوجده قد مات قبل وصوله بثلاثة أيام وأخبره تلامذة الشيخ أن الشيخ أخبر بوصول المترجمَ وأودع له أمانة فأخذها ورجع إلى مصر وجلس للإرشاد وأخْذِ العهود، ويقال إنه تولى القطبانية، توفي سنة سبعين ومائة وألف.

٢٥١ محمد بن احمد الحنفي الصايم.
ت/ ١١٧٠ هـ = ١٧٥٦م.

[ومات] الشيخ الفقيه الفاضل العلامة/ محمد بن أحمد



الحنفي الأزهري الشهير بالصايم، تفقه على سيدى على العقدى والشيخ سليمان المنصورى والسيد محمد أبى السعود وغيرهم، وبرع في معرفة فروع المذهب، ودرّس بالأزهر وبمشهد الحنفي ومسجد محرم في أنواع الفنون، ولازم الشيخ العفيفى كثيراً ثم اجتمع بالشيخ احمد العريان وتجرد للذكر والسلوك وترك علايق الدنيا ولبس زى الفقراء، ثم باع ما ملكت يداه وتوجه إلى السويس فركب في سفينة فانكسرت فخرج مجرداً بساتر العورة، ومال إلى بعض خباء الأعراب فأكرمته امرأة منهم وجلس عندها مدة يخدمها، ثم وصل إلى الينبع على هيئة رثة وأوى إلى جامعها، واتفق له أنه صعد ليلة من الليالى على المنارة وسبّح على طريقة المصريين* فسمعه الوزير إذ كان منزله قريباً من هناك، فلما أصبح (ص٥١٨) طلبه وسأله فلم يظهر حاله سوى أنه من

* التسبيح على طريقة المصرين.

الفقراء، فأنعم عليه ببعض ملابس وأمره أن يحضر إلى داره كل يوم للطعام، ومضت على ذلك برهة إلى أن اتفق موت بعض مشايخ العربان وتشاجر أولاده بسبب قسمة التركة فأتوا إلى الينبع يستفتون، فلم يكن هناك من يفك المشكل، فرأى الوزير أن يكتب السؤال ويرسله مع الهجّان بأجرة معينة إلى مكة يستفتي العلماء، فاستقل الهجان الأجرة ونكص عن السفر ووقع التشاجر فى دفع الزيادة للهجان، وامتنع أكثرهم ووقعوا في الحيرة، فلما رأى المترجم ذلك طلب الدواة والقلم وذهب إلى خلوة له بالمسجد فكتب الجواب مفصلا بنصوص المذهب وختم عليها وناوله للوزير، فلما قرأه تعجب وقال له «لِمَ تخف نفسك وأنت من علماء الإسلام والمسلمين؟» فاعتذر بأنه لو قال كذلك لم يصدقه أحد لرثاثة حالة، فحينئذ أكرمه الوزير وأجلّه ورفع منزلته وعين له من المال والكسوة، وصار يقرأ دروس الفقه والحديث هناك حتى اشتهر أمره وأقبلت عليه الدنيا، فلما امتلأ كيسه،وانجلى بؤسه، وقرب ورود الركب المصرى، رأى الوزير تفلته من يده فقيد عليه ثم لما لم يجد بدا عاهده على أنه يحج ويعود إليه، فوصل مع الركب إلى مكة وأكرم وعاد إلى مصر، ولم يزل على حالة مستقيمة حتى توفى عن فالج جلس فيه شهوراً فى سنة سبعين ومائة وألف وهو منسوب إلى سفط الصايم إحدى قرى مصر من أعمال الفشن بالصعيد الأدنى، ولم يخلف فى فضايله مثله، رحمه الله.

٢٥٢ علي بن تاج الدين محمد القلعي.
ت/ ١١٧٢ = ١٧٥٨م.

[ومات] الإمام الأديب الماهر المتفنن أعجوبة الزمان على بن تاج الدين محمد ابن عبد (ص٥١٩) المحسن بن محمد بن سالم القلعي الحنفى المكي، ولد بمكة وتربى فى حجر أبيه

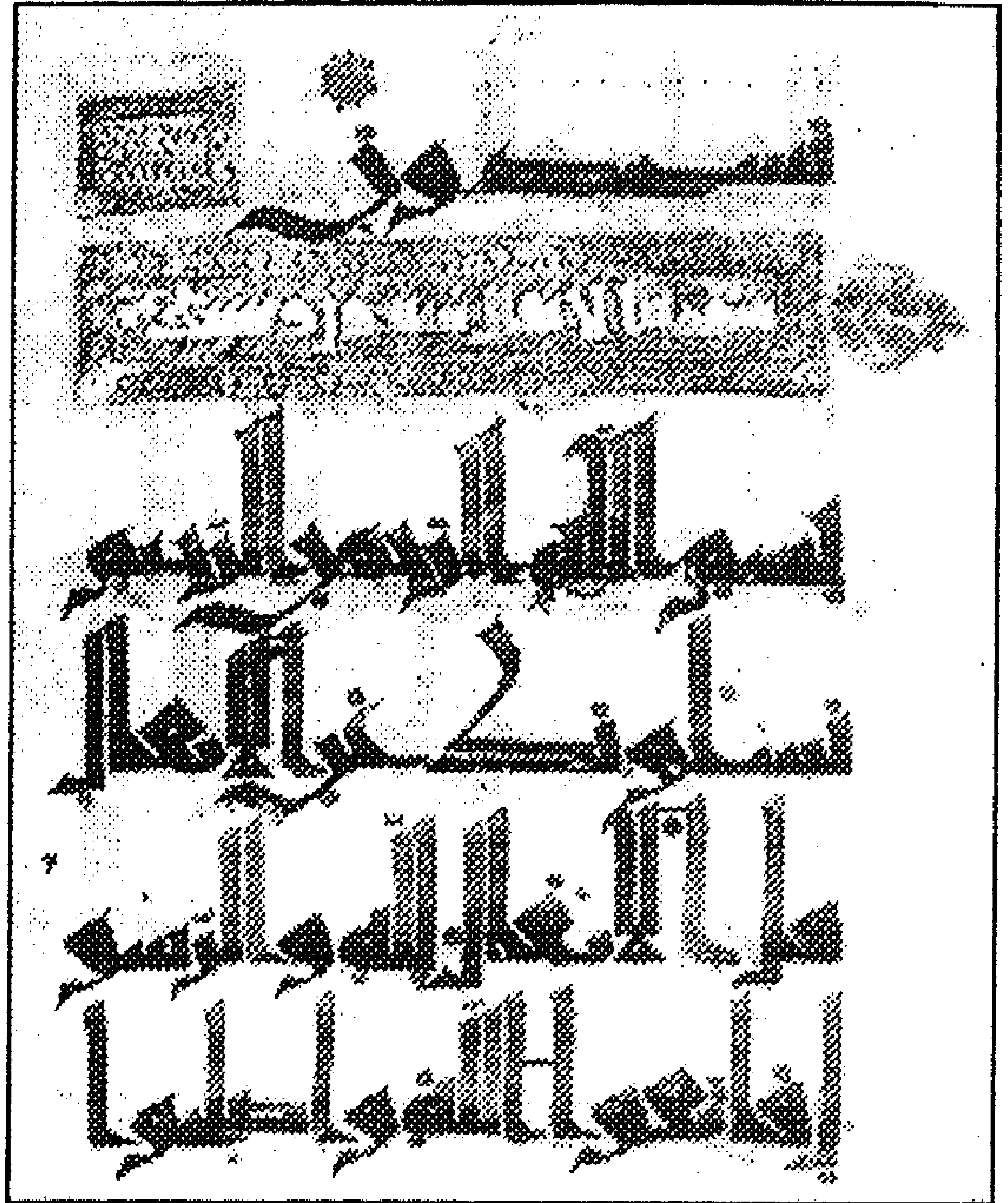
فى غاية العز والسيادة والسعادة، وقرأ عليه وعلى غيره من فضلاء مكة، وأخذ عن الواردين إليها، ومال إلى فن الأدب وغاص فى بحره فاستخرج منه الآلىء والجواهر، وطارح الأدبا فى المحاضر فبان فضله وبهر برهانه، ورحل إلى الشام فى سنة اثنتين وأربعين وماية وألف واجتمع بالشيخ عبد الغنى النابلسى فأخذ عنه، وتوجه إلى الروم وعاد إلى مكة وقدم إلى مصر سنة ستين، ثم غاب عنها نحو عشر سنين، ثم ورد عليها وحينئذ كمّل شرحه على بديعيته وعلى بديعيتين لشيخه الشيخ عبد الغنى وغيره ممن تقدم وهى عشر بديعيات، وشرحه على بديعيته ثلاث مجلدات قرظ عليه غالب فضلاء مصر كالشبراوى والإدكاوى والمرحومى، ومن أهل الحجاز الشيخ ابراهيم المنوفى، وهذا تقريظ الشبراوى نقلته من ديوانه:

أذاك ثغر تبسم
أم ذاك لطف تجسم
أم روضة قد تغنى
شحرورها* وترنمْ
أم الصَبا حينَ هبّت
أزالت الهم والغم
أم برق نعمان لما
بدا من الغور أوهمْ
أم ذاك بلبل فضل
عن المحاسن ترجم
أم ذاك عهد المصلى
نحو العُذيب ويممْ
قد كنت أعتب دهرى
وأحسَبِ الدهر أعقم

شحرورها: الشُحْرور: بضم الشين وسكون الحاء طائر أسود أكبر من العصفور حسن الصوت جمعه شحارير.



وطالما ساء ظني
وقلت يا دهر كم كم
كم جاهلٍ يتألى
وفاضل يتألم
وكم طلبت عليما
فقال لالا وصمم
وقلت يا دهر مه مه
فصد عني وهمهم
(ص٥٢٠) فقلت دهري بخيل
بالفضل والله أكرم
وكاد فكري ينادي
ربْع المعالي تهدم



حــتى رأيت عــجــيــبــا
من فــضلك البــاهر أجم
فــقــال لى مــدح هذا
فــرض عليك مــحــتم
وفى امــتــداح ســواه
لــزوم مــا لــيس يــلــزم
هــذا هــو الــفــضــل هــذا
مــقــام من رام يــغــنــم
وعِــقْــد در فــريــدِ
نماه بيــت مــحــرم
مــرباه بانات نجــد
وســرح ذاك المخــيــم

مـــــحـــاسن ليس تحـــصى
وحـــــــدّهـا لـيـس يـعـلـم
وإن تـرد منتــــــهـــــاهـا
أعـــيـــتك، والصـــمت أسلم
يا واحــد العــصـــر لطفـــاً
يـا ابـن المقــــام وزمـــــزم
أنت الهـــــمــــام المفــدّى
إن سـلّـم الـضـــــــــدُّ أو لـمْ
أنت الذى حــزت مــجــداً
يـكـفـى الـورى لـو تـقــــسّمْ
أنـــت الـــذى لـــو رآه
بـديـع هَـمــــــذان سـلّـم
أو كـــان للســعــد ســعـــد
لــكـــان مــنـــك تـــعـــلّـم
فـــيــــارعى اللّه خـطـا
بالخـط مـــعناه قــــد عـم
أفـــــديه خـطـاً ولـفـظـا
أتـى مـن الـيــــــد والـفـم
إن قـــلـــتُ خـــطٌ عـــلـــىٌ
فـــــالحـظُّ أعـلـى وأعـظـم
أو قـلـتُ حِــــفْظٌ قــــوى
فـــالفــهم أقـــوى وأقــوم
أو قـلـتُ فـــــــرع زكـى
فـــــالأصـل تـاج مـكـرم
لا واخَـــــــذَ الـلّـه دهـرا
فـــيـــمــا مـــضى كـان أجـرم
ســـــامــــحتُ دهـرىَ لما
رأيـتـــــه بـك أنـعــم

وقد وجدتُك تُبدى
لفظاً كدرٍ منظمْ
لله درُّكَ حَبْرا
أُعطيت في الفضل ما لم*
فكل لفظك لطفٌ
وكل معناك محكم (ص٥٢١)
فإن تفه ببديع
فهو البديع المتمّم
وإن أتيت بنظم
أشحيت كل متيمْ
وإن تكلمت نثرا
أعربته وهو معجمْ
وكلما قلت قولا
فذاك قول مسلّم
وإن أقمت دليلاً
فهو الدليل المقوم
ماذا أقول إذا ما
أردت أن أتكلم؟
أوصافُك الغر فاقت
عما أُحيط وأعلم
يا دهر أنعمت فاغفر
ما كان منّى وارحم
ويا لسانى تأخر
ويا بنانى تقدم
فما له من نظير فى
الذات والكيف والكم
وكل وصف جميلٍ
لغيره فيه قد تم

* ما لم: أى ما لم يعطه غيرك.

وكـــــيف أثني عليـــــه
وفـــــضلـه أجَم الفْم
وغـــــاية الأمـــــر أن
عـــــجـــــزت والله أعلم

وكان للمترجم بالوزير المرحوم على باشا ابن الحكيم التئام زايد لكونه له قوة يدٍ ومعرفة فى علم الرمل، وكان فى أول اجتماعه به فى الروم أخبره بأمور فوقعت كما ذكر، فازداد عنده مهابةً وقبولاً، ولما تولى المذكور ثانى توليته وهى سنة سبعين، قدم إليه من مكة من طريق البحر، فأغدق عليه مالا يوصف، ونزل فى منزل بالقــرب من جــامع أزبك بخط الصليبة، وصار يركب فى موكب حافل تقليداً للوزير، ورتب فى بيته كتخدا وخازنداراً والمصرف والحاجب على عادة الأمراء، وكان فيه الكرمُ المفرطُ والحياءُ والمروة وسعة الصدر فى إجازة الوافدين مالا وشعرا، ومدحه شعراءُ عصره بمدايحَ جليلة، منهم الشيخ عبد الله الإدكاوى له فيه عدة قصايد وجوزى بجوايز سنية، ولما عزل (ص٥٢٢) مخدومه توجه معه إلى الروم، فلما ولى الختام* ثانياً زاد المترجم عنده أبهةَ حتى صار فى سُدّة* السلطنة أحد الأعيان المشار إليهم، واتخذ دارا واسعة فيها أربعون قصراً ووضع فى كل قصر جارية بلوازمها، ولما عزل الوزير ونفى إلى إحدى مدن الروم سلب المترجم جميعَ ما كان بيده ونفى إلى سكندرية فمكث هناك حتى مات فى سنة اثنتين وسبعين وماية وألف شهيداً غريباً، ولم يخلف بعده مثله، وله ديوان شعر ورسايل منها «تكميل الفضل بعلم الرمل»، «ومتن البديعية»، سماهُ «الفرج فى مدح عالى الدَرَج»، اقترح فيها بأنواع منها وسع الاطلاع والتطريز والرث والاعتراف والعود والتعجيب

* ولى الختام: أى ولى الأمر للمرة الأخيرة.

* سُدّة السلطنة: بلاط السلطنة ويقصد به الباب العالى.

والترهيب والتعريض، وأمثلة ذلك كله موضحة في شرحه على البديعية، ومن مقاطيعه وفيه التذييل.

بوجهك الحسن زاه
وأنت بالحسن زاهر
ومن سنائك واف
وأنت يا بدر وافر
وإن طرفي ساه
وجفنه منك ساهر
ومن صدودك شاك
ومن وصالك شاكر

وله فيه الجناس المعنوى المضمر:

كَلام هذا الثغر مثل الرّقى
يُذهب عني يا حبيبي الكِلام*
فقلت ما لو قال خالي علي
لام عذار قلت هذاك لامْ

* الكلام: بكسر الكاف الجروح والآلام ومَفردها كلْم بفتح الكاف وسكون اللام

وله فيه الجناس اللفظي:

ضنّت بوصلي وظنت أن سلوت وما (ص٥٢٣)
ظن العذول بمن لا ضن بالمال
غاظتْ عليّ وما غاضت محبتها
وعاضدتْ غيظها مع قول عذالي

وله فيه الجناس المطلق والتام المستوفي:

إن الظريف الذى أهواه قد ذهبا
وصرت في فرق مذ فرق الذهبا
وَجدتُ بالروح كي يرضى بها فأبى
وقال هل هي في مِلك الذى وهبا؟

ولە وفيه الجناس المفروق:

بوادى الصالحية بدر تمٍ
فديتُ جمالهٍ من صالحىَ
إذا ما صال من واديه قَوّم
وجالوا قال لى قد صال حيى

(ولـه فى مدح أستاذه الشيخ عبد الغنى وفيه المدح بما يشبه اللدم)

ولا عيب فى عبد الغنى سوى غنى
العلوم وتقوى الله مع نصح خلقه
ومعرفة الدنيا جميعا لكشفه
فمن ذاَ يقم حقا بواجب حقه؟

(وقال) الشيخ عبد الله الإدكاوى فى مجموعته المسماة (بضاعة الأريب من شعر الغريب) ما نصه «ولما كان عام ثمان وخمسين وماية وألف، قدم علينا محروسة القاهرة، ذات المزايا الباهرة، المولى الفاضلُ الكامل، الأديبُ الألمعى، والأريب اللوذعى، نور الدين على بن تاج الدين الحنفى (ص٥٢٤) المكى القلعى، عالم مكة ومفتيها كان تغمده الله بالرحمة والرضوان، وأظهر من بدايعه الغريبة، وروايعه المطرية العجيبة، بديعته الغراء، وفريدته العذراء، المسماة الأنواع العجيبة الاختراع، وابتدع أنواعا لم يسبقه إليها سابق، ولا لحقه فيها لاحق، منها نوع سماه وسع الاطلاع، بديع الأوضاع، وقدر الله باجتماعى على ذلك الفاضل، وأسمعنى من بديع ألفاظه وألفاظ بديعه، ما غدا القلب به والهاً واهل، وشنّف سمعى من نوع وسع الاطلاع بقصايد

هى للعقول مصايد، تطفلت حينئذ على فصاحته الناصعة، وعزمت على السباحة فى تلك اللجة الواسعة، فمدحته بهذه القصيدة:

صبٌ بوعـــــدك كم مطلتـــــه
هـاجَـــــرْتـه هـلا أجـــــرتـه!
ســـهـــرانُ نام مـــســـامــروه
هـجَـــــعــــا هـلاْ أنمتـــــهْ
كـــمـــــد دواعى بـاســـــه
هـاجـت تحـكم مـــــا أثـرتـه
عـــــان نـواه كـــــراه هـلا
أبْـتَ تـكـريمـا أرحـــــتـــــه
يـشـكـو ومـن نـيــــــرانـه
هـو وارد دمـــعـــــا أسـلتـــــه
أضـــــحـى يؤكـــــد داءه
هـيـــمــــانـه هـلا أزلتـــــه
يـا مـــحـنـة تُـصـــبـى يـحـل
لـديك كـم مــشـق قــــتلتـــــه

(ص٥٢٥) إلى آخرها، وهى طويلة، قال فحين قدمتها إليه، وتشرفت بلْم يديه، أجاز وتطول، ومدح وطوّل، وأوقفنى مما اقترحه على نوع ثان سماه (العود يعجز لبَّ الفاضل عن البدء فيه والعود) ورأيته نظم منه بيتين أطرب من الثانى والثالث، وقال فى عبارة «لأعز عندى من عزرهما بثالث» فعملت له من هذا النوع قصيدة* مدحته بها وهى

عــقـيق دمـعـى غـدا فى الجِـذع كـالديم
مـــــذبان سكـان بـان الحى والعـلم

* هذه القصيدة على وزن وقافية قصيدة أبى عبد الله محمد بن زيد البوصيرى المتوفى سنة ٨٧١هـ. وهى المشهورة بالبردة فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم. وأولها:

أمن تذكر جيرانٍ بذى سَلَم
مزجت دمعاً جرى من مُقلة بدمِ

وانهلّ منسجماً من نار مضطرم
ملآن وجدا إلى خشف* بذى سلم
ظبى نفور أنيس ناعس يقظ
بالليل متشح بالصبح ملتْم
أحوى أغن رشيق أحور غنج
نشوانَ صاح ظلوم عادل حكم
إن أرضَ يغضبْ وإن أقُرُب نأى صلفا
وإن أذِلّ يتهْ بالعز والشّمَم
مهفهفٍ ما بدت للغصن قامته
إلا انثنى ذابل الأوراق ذا ضَرَمِ
وإن تبسم ما برق بكاظمة
له وميض يجلّى داجىَ الظلمَ
ما فيه عيب سوى تفتير مقلته
وفتكها فى فؤاد المدنَفِ السقم
حلا ابتساما جلا وجها سبى قمرا
لان انعطافا قسا قلبا على الأمِم (ص٥٢٦)
ابن الطفيل يحييه الفؤاد فدع
أبا معاذِ ملامى وارعَ لى ذممى
لستَ الرشيد ولا المأمون فى عَذَلى*
عن العزيز المليك البارع الفهم

ثم أورد أبياتا فى العود كما تقدم ذكره فى ترجمته ثم قال:

وعذْ ولذْ واحترز بالمفرد العلم
ابن المفرد العلم ابن المفرد العلم
هو الهمام الذى أضحت فضايله
بين الورى وهى كالأمثال فى الكلم

* خشف: بتثليث الخاء وسكون الشين الظبى الصغير. وذى سلم: موضع بين مكة والمدينة.

* العذل: بفتح الذال تعنى الملامة.



يمم حـــمـــاه وباعـــد من ســـواه تنل

ندى يعـمـك، ذا فـيض الحـيـا العـمـم

فالعلم والحلم والإفضال* والحسبُ الصميم فيه مع العلياء والهمم ثم قال:

أيا علـى بن تـاج الـديـن يـا علَـم الآداب

يـا طـاهـرَ الأعـــــراقِ والـشـــــيـم

اســـمع فـــرائدَ دُر من مـــحـــبـك الادْ

كـــاوىّ فى قـــدرك الموصـــوف بالعظَم

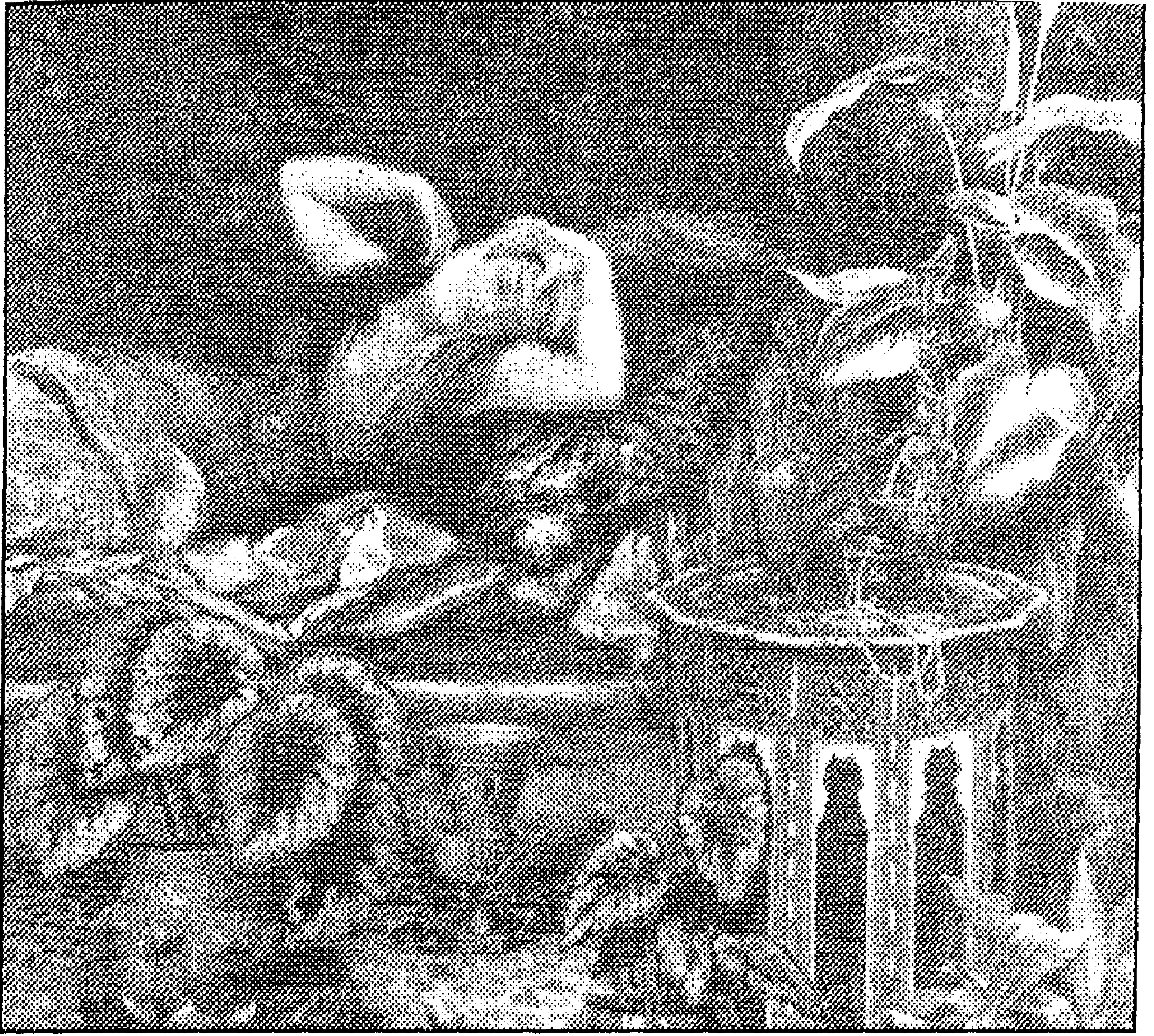
فى سلكهـــا نوع عَـــود أنت ســـيـــدنا

حـــقـــا أبو عُـــذرة إذ كـــان فى القـــدم

نوع عـــجـــيـب غـــريب فى مـــهـــامــــه

يحـــار كل فـــصـــيح فى المقـــال كـــمى

* الإفضال: بكسر الهمزة الاحسان.



من بحـرك الرائق العـذب اغـتـرفت فـلا

بدع إذا فـــاق در العـــقـــد فى القـــيم

فأمعن الفكر فيه هل به خلل؟ (ص٥٢٧)

أم جـــاء وفق الذى أبدعت من حكم؟

واسلم ودم مـــا شـــدْت ورقـــاءُ فى فنن

وازدان طِـــرْس* بتنمـــيق من الكلم

فلما وقف على هذه بعد الأولى قال «أنت بالتقريظ على بديعتى من كل أحد أولى» فقلت له «لست أهلا لذلك» فقال «بل أنت أقوى من كل أحد فى سلوك هذه المسالك» فلما رأيت وابل إلحاحه، أوردت هاطل نجاحه، فافتتحت قايلا:

* الطرسْ بكسر الطاء وسكون الراء هو الصحيفة.

قف لدى ذا الروض وانتشق
عبقاً ناهيك من عَبَقِ
روض آداب بدايعه
نزهة الآذان والحَدَقِ
حفظ الرحمنُ منشئه
ذا الكمال الطيب الخلق
العلىّ اسما ومنتسبا
من سما بالتاج للأفقِ

إلى أن قال:

دام مولانا ينزهنا
فى معانى حسنها الأنِقِ
ما شكا الأشجانَ ذو شجن
أوشَدتْ ورقاءُ ورقاءُ فى الورَق

ثم تمم نثر التقريظ بما هو مذكور فى مجموعته، لم أكتبه خوفاً من الملل، ثم قال «فلما أمعن النظر فيما رقمته، وتأمل ما قلته، قال «هذا من مثلك لا يكفى، ولا يطفئ الغليل ولا يشفى، بل لابد من تقريظ آخر (ص٥٢٨) على نوع وسع الاطلاع من جنسه الأنيق» فقلت «اعفنى من الخوض فى هذا البحر العميق» فقال «لابد من القول، واستعن بذى الطول» فمددت القلم، واستعنتُ بارى النسم، وقلت يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، أبدعت نظام هذا العالم وعلم هذا النظام، إلى آخره، وفيه قصيدة عينية أولها:

بديعُ حـــبـــانا به ذا البــــديعُ
بعـــيـــد على غـــيـــره لا يطيع
بديع لبـــيـــد لديه بليـــد
ولـيـس بـدان إلـيــــــه مطـيـع

وهى طويلة وفى آخرها التقريظ:

لئن كــان مــا أهديتُ نحـوك سـيـدى
غــدا قــاصــراً عن قــد درٍ نظمــتــهُ
فــعــذراً فــذا جَــهْــد المقل ووسع
الاطلاع عــزيز يا عــزيزُ علمــتــه
فــإن راق مــعناه فــأثبــتــه فــالذى
وحــبــاك به المداح قــبلى رَقَــمــتــه
الا فــــدْعــــه فى الزوايا وقل هنـا
أقم وادعـاً واكَـتـمـه فـيـمـا كـتـمـتـه

وخــتــمــه بعــد الدعــاء بقــصــيــدة لامــيــة مطــرزة، وبعــدهــا جــواب عن اعــتــراض ناقــشــه فــيــه بعض المعـاصرين، وقـد نظـم الجـواب والنقل والدليل فى سـبـعـة عشر بيتاً.

٢٥٣ على بن جبريل [طبيب]. ١١٧٠ هـ = ١٧٥٦م.

[ومـات] على بن جــبـريل المتطبب شـيـخ دار الشـفـاء بالمارستان المنصورى رئيس الرؤسا، والماهر الذى طودُ فضله رسا، أتقـن فى فن (ص٥٢٩) الطـب وشـارك فى غيـره من الفنون.
(ومن كلامه يمدح مجلس السادات) وكان السيد عبد الرحمن العيدروس حاضراً فيه:

والله لم يحـــو هذا فى الورى أحـــدٌ
ممن تقـــدم فى عـــصـــر لنا سلفـــا
إذا أبصـرت مـقلتى قطبين قـد جُـمـعـا
العـيـــدروس وعـــبـــد الخـــالق بن وفـــا

وكـان أحدَ جلسـا الأمير رضوان كـتـخدا الجلفى ونديمَه وأنيسَه وحكيـمه وعند ليبَ دوحته وهزارَ روضـته، وكـان أحدَ من منحت له يمينُ ذلك الأمير بالألوف، حتى أصبح بنعمته فى جنات دانية القطوف، فمن بعض هباته الواصلة إليه، وصلاته الحاصلة لديه، أن وهب له بيتا على بركة الأزبكية، رؤيته تسر النفوس الزكية، وصفه عجيب، ورونقه بديع غريب، زجاجى النواحى والأرجا، من حيث التفت رائيه رأى منظرا بهجا، وقد مدحه أحبابه منهم الشيخ مصطفى أسعد اللقيمى، ومنهم الشيخ عبد الله الإدكاوى بما هو مذكور فى (الفوايح الجنانية فى المدايح الرضوانية) ومن شعر المترجَم فى ممدوحه المشار إليه:

يـا شـــــــادنـاً دنـا ومـــــــرْ
وراحَ يـهـــــزو بـالـقـــــــمـــــــر
ومـــــخـــــجـــــلا بـانَ الـرُّبا
والـســـــمـــــهـــــرىّ إن خَـطَـرْ
يـــا بـــابـــلـــىَّ الـــلـــحـــظ يـــا
من للعـــقـــول قـــد ســـحـــرْ
يـا مـنْ بـاشـــــراك الـهـــــوى
لـعـــــاشـــــقـين قـــــد أســـــرْ
(ص٥٣٠) الـلـيـثُ أنـت إن ســطـا
أنـت الـغـــــزالُ إن نـفـــــر

يتيه في عشاقه
تيهَ الملوكِ بالظفرْ
عذاره لما بدا
سبى لربات الحُجَر
رأينه اكبرنه
وقلن ما هذا بشرْ
وخده لما اختشى
بأن يصاب بالنظر
أرخى العذار ساترا
فصار يخطَف البصر
لمْ يبْق مِن حسنُ يرى
لغيره ولم يذرْ
حاز البديعَ حسنهُ
وجامعا حسن الصور
فشَعره مطوّل
والخصر منه مختصرْ
في مصر أضحى مفردا
مثل العزيز المعتبر
غيث الندى رضوان منْ
زماننا به افتخر
لو رام جعفرٌ يكون
مثله لما قدر
يعطي النوال باسما
ولم يشبّه بالكدر
فالله واقيه لما
يخشاه من بأس وضرْ

وقد شطر هذه القصيدة الشيخ عبد الله الإكاوى بما هو مذكور في ديوانه (وله أيضا) تشطير أبيات صفوان بن إدريس ويخلص منه إلى مخدومه وهي:

يا حسنَه والحسن بعض صفاته
رشأ يدير الراح من لحظاته
فاللين منحصر بقامة قده
والسحر مقصور على حركاته
بدر لو أن البدرَ قيل له اقترح
شيئاً يحاكى فيه بعض سماته
أو قيل ماذا أن تكون مؤملا
أملاً لقال أكون من هالاته
(ص٥٣١) وإذا هلال الشك قابل وجهه
بأقل ما يعطاه من درجاته
ولحظتَ صفحةَ خده بلطافة
أبصرته كالشكل في مرآته
والخالَ نقّط في صفيحة خده
مسكاً على ورد زها بنباته
عجز ابن مقلة أن يكون مصوّرا
ما خط حبرُ الصُدغ من نوباته
ركب المآثم في انتهاب نفوسنا
لم يخش يوم العرض من عرصاته
وهو المعذِّب أنفسا ذلت له
فالله يجعلهن من حسناته
مازلت أخطب للزمان وصاله
والمرء مجبول بحب حياته

وأبثـــه الشـــوق الذى وهن الحـــشـــا
حـــتى دنا والبـــعـــد من عـــاداته
فـــغـــفـــرت ذنب الدهر منه بليلة
فَطرتْ ـ مما أبدته ـ قلبَ وشـــاته
نسخ البِـــعـــادَ بحكمـــهـــا فـــهى التى
غطَّت على مـــا كـــان من زلاته
يتنا نشـــعـــشع والعـــفـــاف نديمنا
وأريـه مـن كـنـز التـــــقى آياتـه
وغـــدا الســـرورُ يدير فـــيـــمـــا بيننا
خـــمـــرين من غـــزلى ومن كلمـــاته
ضاجعته والليل يذكى تحته (ص٥٣٢)
حَـــرًّا توقـــد من مـــدى جـــفـــواته
ســـامـــرته والقـــرب يشـــعل بيننا
جـــمـــرين من ولهى ومن وجناته
حـــتى إذا ولِع الكرى بجـــفـــونه
وأزال مـــا يبـــديه من حـــركـــاته
وغـــدا يرنح كـــالقـــضـــيب قـــوامـــه
وامـــتـــد فى عـــضـــدىَّ طوعِ سِناته
أوثقـــتـــه فى ســـاعـــدىَّ لأنه
شىء يعـــز علىّ وقت فـــواته
أودعـــتـــه شـــرك الشـــعـــور فـــإنه
ظبى خـــشـــيت عليـــه من نفـــراته
وضـــمـــمـــتـــه ضمَّ البـــخـــيلِ لماله
يخـــشى عليـــه الدهر من فلتـــاته
مـــغـــرى به لا يســـتطيع فـــراقـــه
يحنو عليـــه من جـــمـــيع جـــهـــاته

عــــزمَ الغـــرامُ عليّ في تقـــبــيله
فنهــــاه داعى النسك عنْ همّــــاته
وقــضى اشــتــياقى فــيــه لثمَ أكــفــه
فنفــضت أيدى الطوع من عـــزمــاته
وأبى عـــفـــافى أن يقـــبل ثغـــره
أو أجــــتنى مــــا طابَ من لذاته
وأرى العــــــواذل عـــــزة وتجلدا
والقلب مـــجــبـــول على حـــسـراته
فـــاعـــجب لمتـــهـب الجـــوانح غُلَة
يقــضى أسى والبــرءُ فى راحــاته (ص٥٣٣)
أنفت خــلائقُــه الإســاغــةَ حــيــثــمــا
يشكو الظمــــا والماءُ فى لهــــواته
لا يســـتطيع تخلصـــــا مما به
لا بمدح أخى العــــلا وحـــيـــاته
رضـــوان أوحـــد من تفــــرد بالعطا
فـــمنائح الأجـــواد بعض هبـــاته
المانح الإحـــــســـــان كـفٌ نزيله
والمانعُ اطمـــــئنان قلب عِـــــداته
فَنَداه كــالبـــحـــر العُـبــاب تدفــقــاً
وصِـــلاته تحكى لفــــرض صَـــلاتِه
والفـــارس المقـــدام فى يوم الوغـــا
والمرهب الآســــــاد فى وثبـــــاته
لازال بِشْـــر الســـعـــد فى أبوابه
يهـــدى الهنا والعـــز فى ســـاحـــاته
يمسى ويصــبح والعـــيـــون قـــريرة
منه بمن بهم حُـلى روضـــــاته

أقــمــار عــز فى ســمــاء ســيــادة
أشــبــال ليث فى ذُرا غــابـاته
أبقــاهمْ رب العــبــادِ بعــزةٍ
يبــقــاه فى حــال الزمــان وآته
مــتنعــمين بروض أنس ناضــرٍ
يهــدى الصــفـا لهمُ صــبـا نفـحـاته
أهدى إليــه قــصــيــدة حــسنا زهت
مــيَّــاســة كــالبــانِ فى عــذباته
لو أسـمعـوا صفـوان حسن مديحه(ص٥٣٤)
وبديع ذى التــشطيــر من أبيــاته
ليــقــول من فــرط الســرور مـؤرخــاً
حــقــاً به تزهو بحــسن صــفــاته

وقال يمدحه بهذه الأبيات الثلاثة، التى معانى سحرها فى ذوى العقول نفاثة وهى:

وأبيـك مــــا رضـــوان إلا آيـة
شــهــدت بذاك شــهــامــة الأفــعــالِ
يهب المواهب جـمــة بسـمـاحـةٍ
مــتــرفــعــاً عن مِنّةٍ ومــلالِ
حــتى يصــيــر المعــدَمون برفــده
مــتــرفــعين على ذوى الأمــوالِ

وقد شطرها جملةٌ من أدباء العصر كما هو مذكور فى تراجمهم، وقال مهنئاً بشفائه ومؤرخاً:

وجــه الزمــان بك ابتــهج
وبدا بجــبــهــتــه البلج*

* البلج: بفتح الباء واللام بمعنى النور.

يا واحـــد العـــــصـــــر الذى
فـــيـــه لقـــد جـــاء الفـــرج
وبـــه الـــهـــنـــا أرخ لـــنـــا
صـــحت بـصـــحـــتـــه المهج

وله فى هذا المعنى مؤرخاً.

هلّ الســرور فــشــغــر الدهر مــبــتــسمُ
وزال عن وجــهــه الإغــضــاء والغــمــمُ
وأقــبل البــشــر يثنى عِطفــه مــرحــا
وجـــيش عـــزك فى مُـــضناك يزدحم
وصـــامت الناس حـــتى كل ناظرهم
ومـــذ ظهـــرت هلالا عـــمـــهم نِعمُ
أحييت بالبرء روح المكرُمات كما (ص٥٣٥)
أمتّ بالجـــود فـــقـــرا وجـــهُـــه كظمُ
فـــاهنأ ببـــرء لقـــد عـــاد الســـرورُ به
واســـتـــبـــشـــرتْ أممٌ من بعـــدها أممُ
مـــذصح جـــســـمك فـــالتـــاريخ يُنشـــدنا
قـــد عـــوفى المجـــدُ والإســـداء والكرمُ

ولما تغيرت دولة مخدومه وتغير وجه الزمان، عاد روض أنسه ذابل الأفنان، ذا أحزان وأشجان، لم يطب له المكان، ودخل اسمُ عزه فى خبر كان، وتوفى فى نحو هذا التاريخ.

٢٥٤ عبد الوهاب الدلجي
ت/ ١١٧١ هـ = ١٧٥٧م.

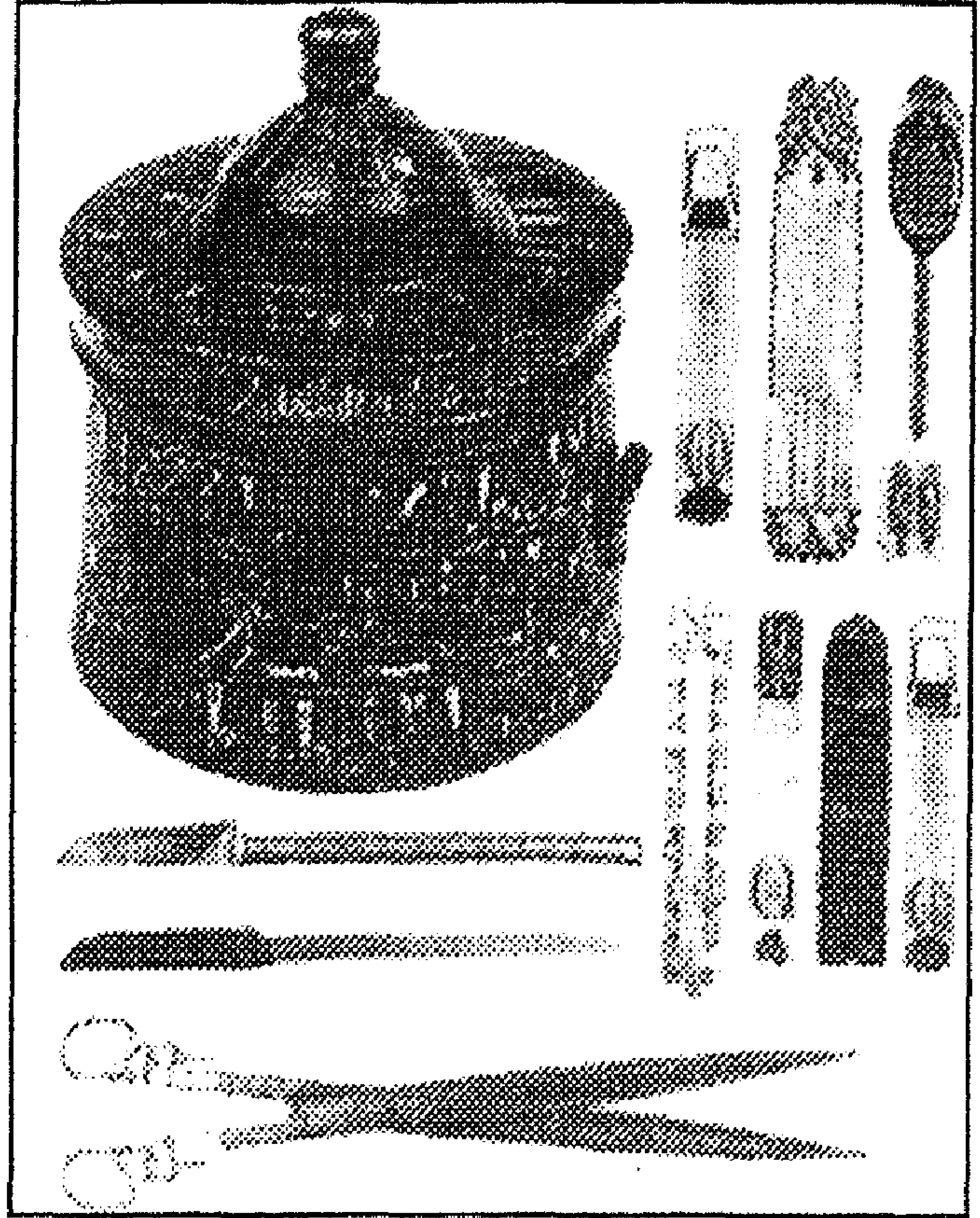
[ومات] العمدة الأجل النبيه الفصيح المفوه الشيخ/ يوسف بن عبد الوهاب الدُّلَجِى وهو أخو الشيخ محمد الدلجى، كلاهما ابنا خال المرحوم الوالد، وكان إنسانا حسنا ذا ثروة



وحسن عشرة وكان من جملة جلساء الأمير عثمان بك ذى الفقار، ولديه فضيلة ومناسبات، ويحفظ كثيرا من النوادر والشواهد، وكان منزله المشرف على النيل ببولاق مأوى اللطفاء والظرفاء ويقتنى السرارى والجوارى، توفى سنة إحدى وسبعين وماية وألف. عن ولديه حسين وقاسم وابنة اسمها فاطمة موجودة فى الأحياء إلى الآن.

255 على بن خضر العمروسى ت/ 1173 هـ = 1759م.

[ومات] الشيخ النبيه الصالح/ على بن خضر بن أحمد العمروسى المالكى، أخذ عن السيد محمد السلمونى والشهاب النفراوى والشيخ محمد الزرقانى، ودرس بالجامع الأزهر وانتفع به الطلبة، واختصر المختصر الخليلى فى نحو الربع ثم شرحه، وكان إنسانا حسنا منجمعا عن الناس مقبلا على شأنه، توفى سنة ثلاث وسبعين وماية وألف.



ادوات الخطاطين

[ومات] الأستاذ المبجل ذو المناقب/ الحميدة، السيد شمس الدين/ محمد أبو الإشراق ابن وفا وهو ابن أخى الشيخ عبد الخالق، ولما توفي عمه فى سنة إحدى وستين ومااية وألف خلفه فى المشيخة* والتكلم، وكان ذا أبهة ووقار محتشما سليم الصدر كريم النفس بشوشاً، توفى سادس جمادى الأولى سنة إحدى وسبعين ومااية وألف، وصلى عليه بالأزهر وحمل إلى الزاوية فدفن عند عمه، وقام بعده فى الخلافة الأستاذ مجد الدين محمد أبو هادى بن وفا رضى الله عنهم أجمعين.

٢٥٦ محمد بن وفا.
ت/ ١١٧١هـ = ١٧٥٧م

* المشيخة: يقصد بها هنا مشيخة السادة الوفائية من آل البيت.

[ومات] الإمام العلامة الفريد الفقيه الفرضى الحيسوبى الشيخ/ حسين المحلى الشافعى، كان وحيد دهره وفريد

٢٥٧ حسين المحلى.
ت/ ١١٧٠ هـ = ١٧٥٦م.



عصره فقْهاً وأصولا ومعقولا، جيد الاستحضار والحفظ للفروع الفقهية، وأمّا علم الحساب الهوائى والغبارى والفرائض* وشباك ابن الهائم* والجبر والمقابلة والمساحة وحل الأعداد فكان بحراً لا تشبهه البحار. ولا يُدرك له قرار، وله في ذلك عدة تآليف ومنها شرح السخاوية وشرح النزهة والقلصاوى، وكان يكتب تآليفه بخطه ويبيعها لمن يرغب فيها، ويأخذ من الطالبين أجرة على تعليمهم، فإذا جاء من يريد التعلم وطلب أن يقرأ عليه الكتاب الفلانى تعزز عليه وتمنّع ويساومه على ذلك بعد جهد عظيم، ويقول «أنا لا أبذل العلم رخيصا» وكان له حانوت بجوار باب الأزهر يتكسب فيه ببيع المناكيب* لمعرفة الأوقات والكتب وتسفيرها* ، وألف كتاباً حافلا فى الفروع الفقهية على مذهب الإمام الشافعي، وهو كتاب ضخم في مجلدين

* الفرائض: علم الميراث.
* شباك ابن الهائم: أى الجداول التى ابتكرها ابنَ الهائم.
* المناكيب: أى التقاويم التى تعرف بها أوقات الصلاة.
* تسفير الكتب: أى نسخها.

▲ ادوات لتنفيد الكتب.

معتبر مشهور معتمد الأقوال فى الإفتاء، وله غير ذلك كثير، وبالجملة فكان (ص٥٣٧) طوداً راسخاً تلقى عنه كثير من أشياخ العصر، ومنهم شيخنا الشيخ محمد الشافعى الجناجي المالكى وغيره. توفى سنة سبعين ومابة وألف، رحمه الله.

٢٥٨ عبد الوهاب بن عبد السلام البرهانى. ت/ ١١٧٢ هـ = ١٧٥٨م.

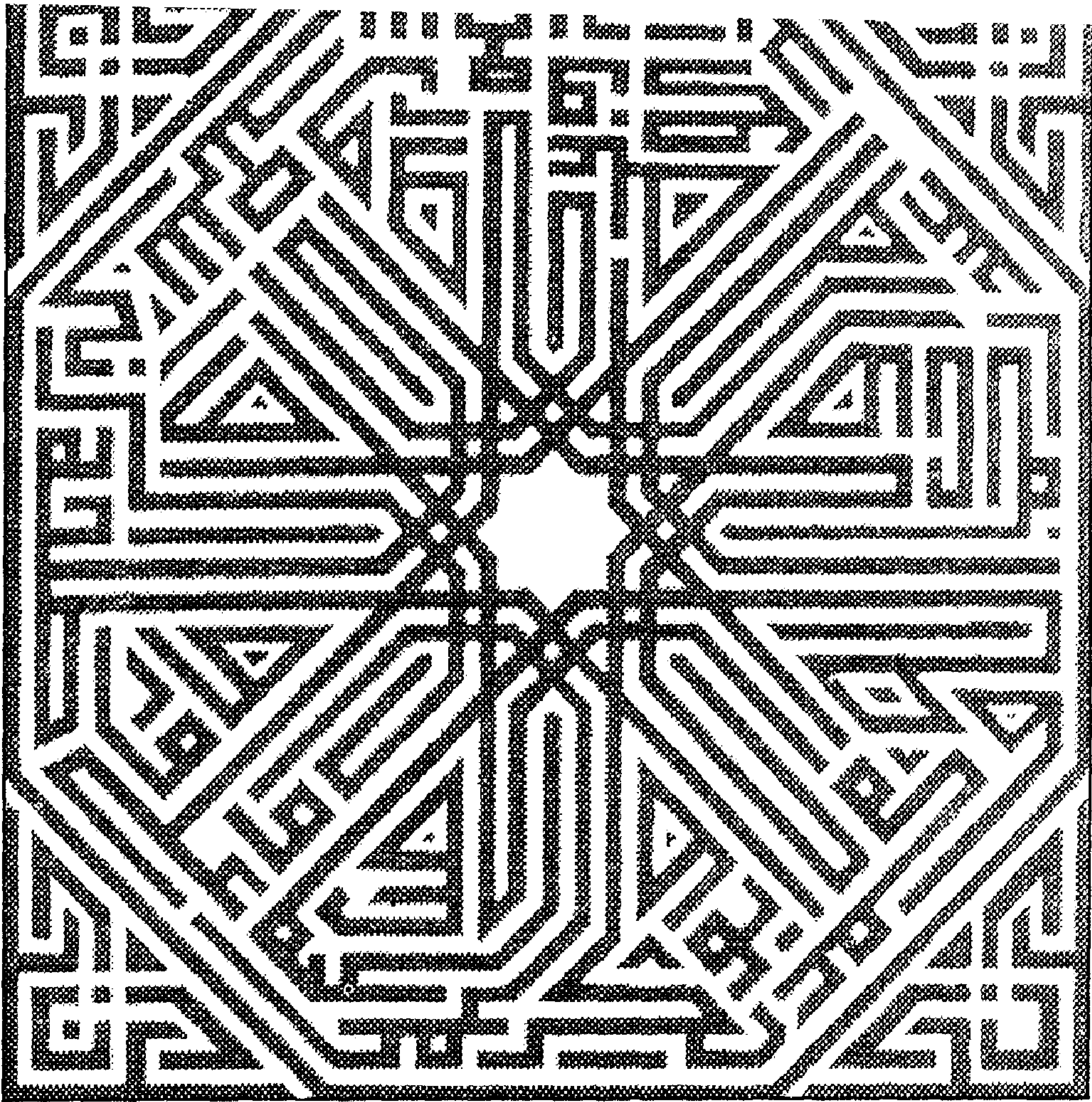
[ومات] الشيخ الإمام المعمّر القطب أحد مشايخ الطريق صاحب الكرامات الظاهرة، والأنوار الساطعة الباهرة/ عبد الوهاب بن عبد السلام بن أحمد بن حجازى بن عبد القادر بن أبى العباس بن عبد القادر بن أبى العباس بن شعيب بن محمد بن القطب سيدى عمر المرزوقى العفيفى المالكى البرهانى، يتصل نسبه إلى القطب الكبير سيدى مرزوق الكفافى المشهور، ولد المترجم بمنية عفيف إحد قرى مصر

ونشأ بها على صلاح وعفة، ولما ترعرع قدم إلى مصر فحضر على شيخ المالكية فى عصره الشيخ سالم النفراوى أياما فى مختصر الشيخ خليل، وأقبل على العبادة وقطن بالقاعة بالقرب من الأزهر بجوار مدرسة السنانية وحج فلقى بمكة الشيخ إدريس اليمانى، فأجازه وعاد إلى مصر، وحضر دروس الحديث على الإمام المحدث الشيخ أحمد بن مصطفى الإسكندرى الشهير بالصباغ ولازمه كثيراً حتى عرف به، وأجازه مولاى أحمد التهامي حين ورد إلى مصر بطريقة الأقطاب والأحزاب الشاذلية والسيد مصطفى البكرى بالخلوتية، ولما توفى شيخه الصباغ لازم السيد محمد البليدى فى دروسه، من ذلك تفسير البيضاوى بتمامه. وروى عنه جملة من أفاضل عصره كالشيخ محمد الصبان والسيد محمد مرتضى والشيخ محمد بن إسماعيل النفراوى، وسمعوا عليه صحيح مسلم بالأشرفية، وكان كثير الزيارة لمشاهد الأولياء متواضعاً لا يرى لنفسه مقاماً متحرزاً فى مأكله وملبسه لا يأكل إلا ما يأتى إليه من زرعه من بلده (ص٥٣٨) من العيش اليابس مع الدُّقة، وكانت الأمرا تأتى لزيارته ويشمئز منهم ويفر منهم فى بعض الأحيان وكل من دخل عنده يقدم له ما تيسر من الزاد من خبزه الذى كان يأكل منه وانتفع به المريدون وكثروا فى البلاد وأنجبوا، ولم يزل يترقى فى مدارج الوصول إلى الحق حتى تعلل أياماً بمنزله الذى بقصر الشوك، وتوفى فى ثانى عشر صفر سنة اثنتين وسبعين وماية وألف ودفن بجوار سيدى عبد الله المنوفى، ونزل سيل عظيم وذلك فى سنة ثمان وسبعين وماية وألف فهدم القبور وعامت الأموات فانهدم قبره وامتلأ بالماء فاجتمع أولاده ومريدوه وبنوا له قبراً فى العلوة على يمين

تربة الشيخ المنوفى ونقلوه إليه قريباً من عمارة السلطان قايتباى، وبنوا على قبره قبة معقودة وعملوا له مقصورة ومقاماً من داخلها وعليه عمامة كبيرة وصيروه مزاراً عظيما يقصد للزيارة ويختلط به الرجال والنساء، ثم أنشأوا بجانبه قصراً عالياً عمّره محمد كتخدا أباظة، وسوروا له رحبة متسعة مثل الحوش لموقف الدواب من الخيل والحمير دَثروا بها قبوراً كثيرة بها كثير من أكابر الأولياء والعلماء والمحدثين وغيرهم من المسلمين والمسلمات، ثم إنهم ابتدعوا له موسما وعيداً فى كل سنة يدعون إليه الناس من البلاد القبلية والبحرية فينصبون خياما كثيرة وصواوين ومطابخ وقهاوى، ويجتمع العالم الأكبر من أخلاط الناس وخواصهم وعوامهم وفلاحى الأرياف وأرباب الملاهى والملاعيب والغوازى والبغايا والقرّادين والحواة فيملئون الصحراء والبستان فيطئون القبور ويوقدون عليها النيران، ويصبون عليها القاذورات ويبولون ويتغوطون ويزنون ويلوطون، ويلعبون ويرقصون ويضربون بالطبول (ص٥٣٩) والزمور ليلا ونهاراً، ويستمر ذلك نحو عشرة أيام أو أكثر ويجتمع لذلك أيضاً الفقهاء والعلماء وينصبون لهم خياماً أيضاً ويقتدى بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامة من غير إنكار بل ويعتقدون أن ذلك قربة وعبادة، ولو لم يكن كذلك لأنكره العلماء فضلا عن كونهم يفعلوه، فالله يتولى هدانا أجمعين.

٢٥٩ محمد بكرى بن السرور. شيخ السجادة البكرية. ت/١١٧١هـ = ١٧٥٧م.

[ومات] الشيخ الأجل المعظم سيدى/ محّمد بكرى بن أحمد بن عبد المنعم بن محمد بن أبى السرور محمد بن القطب أبى المكارم محمد أبيض الوجه ابن أبى الحسن محمد ابن الجلال عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن



لوحة خط لأسماء العشرة ▲
المبشرين بالجنة

أحمد بن محمد بن عوض بن محمد ابن عبد الخالق بن عبد المنعم بن يحيى بن الحسن بن موسى بن يحيى بن يعقوب ابن نجم بن عيسى بن شعبان بن عيسى بن داود بن محد بن نوح بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق، وكان يقال له سيدى أبو بكر البكرى شيخ السجادة بمصر وكان نقش خاتمه:

«أبو بكر الصديق جدى وإننى
لسبط رسول الله طه محمد»

ولاه أبوه الخلافة فى حياته لمّا تفرس فيه النجابة مع وجود إخوته الذين هم أعمامه وهم أبو الذهب وعبد الخالق ومحمد بن عبد المنعم فسار فى المشيخة أحسن سير، وكان شيخاً مهيباً ذا كلمة نافذة وحشمة زائدة تسعى إليه الوزرا

والأعيان والأمرا، وكان الشيخ عبد الله الشبراوى يأتيه فى كل يوم قبل الشروق يجلس معه مقدار ساعة زمانية ثم يركب ويذهب إلى الأزهر، ولما مات خلف ولده الشيخ سيد أحمد، وكان المترجم متزوجاً بنت الشيخ الحنفى فأولدها سيدى خليلا وهو الموجود الآن، تركه صغيرا فتربى فى كفالة ابن (ص٥٤٠) عمه السيد محمد أفندى ابن على أفندى الذى انحصرت فيه المشيخة بعد وفاة ابن عمه الشيخ سيد أحمد مضافة إلى نقابة السادة الأشراف كما يأتى ذكر ذلك إن شاء الله، وكانت وفاة المترجم فى أواخر شهر صفر سنة إحدى وسبعين ومابة وألف.

٢٦٠ السلطان عثمان خان.
ت/ ١١٧١هـ = ١٧٥٧م.

[ومات] أيضاً فى هذه السنة السطان عثمان خان العثمانى، وولى السلطان مصطفى بن أحمد خان، وعزل على باشا ابن الحكيم وحضر إلى مصر محمد سعيد باشا فى أواخر رجب سنة إحدى وسبعين ومابة وألف، واستمر فى ولاية مصر إلى سنة ثلاث وسبعين ومابة وألف، وفى تلك السنة أعنى سنة إحدى وسبعين ومابة وألف نزل مطر كثير سالت منه السيول.

٢٦١ مصطفى أسعد اللقيمى الدمياطى.
ت/ ١١٧٣هـ = ١٧٥٩م.

[ومات] أفضل النبلاء وأنبل الفضلاء، بلبل دوحة الفصاحة وغرّيدها، من انحازت له بدايعها طريفها وتليدها، الماجد الأكرم/ مصطفى أسعد اللقيمى الدمياطى، وهو أحد الإخوة الأربعة وهم عمر ومحمد وعثمان والمترجم أولاد المرحوم أحمد بن محمد بن أحمد بن صلاح الدين اللقيمى الدمياطى الشافعى سبط العنبوسى وكلهم شعراء بلغاء. ومن محاسن كلامه وبديع نظامه مُدامته الأرجوانية* فى

* «المدامة الأرجوانية فى المقامة الرضوانية» لمصطفى اللقيمى فى مدح الأمير رضوان كتخدا عزبان الجلفى.

المقامة الرضوانية التى مدح بها الأمير رضوان* كتخدا عزبان الجلفى، وهى مقامة بديعة بل روضة مريعة، وقد قال فى وصفها وبديع رصفها شعراً:

نسجتْ بمنوال البديع مقامة
وتزركشت بالحسن والإبداع
رقت حواشيها ووَشْىُ طروزها
بجواهر الترصيع والإيداع (ص٥٤١)
وغدت بحلى مديح رضوان العلى
طوال المدى تجلى على الأسماع

وابتدأها بقوله.

بسم الله الرحمن الرحيم، حمداً لمن أنهج مناهج مباهج الإسعاد، وسلك بنا سُبُل معارج مدارج الإرشاد، والصلاة والسلام على صفوته من العباد، سيدنا ومولانا محمد ملجأ الخلايق يوم المعاد، القايل وقوله الحق يهدى إلى طريق الرشاد، اطلبوا الحوايج عند حسان الوجوه، فيانعم ما أنعم به وأفاد، وعلى آله وأصحابه السادة الأمجاد، والتابعين لهم والسالكين مسالك السَدَاد، ما لبى الكريم دعوة الوفود والقصاد، وأتحفهم ببلوغ المنى وحصول المراد.

(وبعد) فقد حكى البديع بشير بن سعيد، قال حدثنى الربيع بن رشيد، قال هاجت لى دواعى الأشواق العذرية، وعاجت بى لواعج الأتواق الفكرية، إلى ورود حمى مصر المعزّية البديعة، ذات المشاهد الحسنة والمعاهد الرفيعة، لأشرح بمتن حديثها الحسن صدرى، وأروّحَ بحواشى نيلها الجارى روحى وسرِّى، وأقتبسَ نورَ مصباح الطْرف من ظرفائها، وأقتطف نور أدواح الظَرْفِ من لطفائها، وأستجلىَ عرايسَ بدايعِ

* كان الأمير رضوان قد استأثر بإمارة الحج المصرى دعما لنفوذه السياسى، وفى سياق هذا الدعم جمع حوله عدد من الشعراء ليمدحوه ويرفعوا من شانه، كما طلب من أحد النسابة تأليف رسالة تربط جدوده بقريش فكتب له رسالة بإسم «قهر الوجوه العابسة فى ذكر نسب الجراكسة إلى قريش» سبق ذكرها.

وقد جلب عليه ذلك سخط البيوت المملوكية المنافسة له وكذلك السلطنة العثمانية مما أدى فى النهاية إلى اغتياله وبذلك توقف مشروعه للانفراد بحكم مصر.

معانى العلوم، على منصات الفكر محلاة بالمنثور والمنظوم، وأستمد من حماتها السادة أسرار العناية، وأسترشَدَ بسراتها القادة أنوار الهداية، وأمتع الطَرفَ بغرر دَولتها العلية، وأشنفَ السمع بدُرر سيرتها السنية، فنشرُ عَرْف علاها (ص٥٤٢) قد عطر الآفاق ولواء وصف حُلاها في الخافقَين خفاق، فامتطيت طرف العزم، مسرجا بالحزم، وبغيت بعد السكون على الحركة مع الجزم، واتخذت حادى الجوى في السير دليلى، وباعثَ الهوى سَميرى في مسرحي ومقيلى، وواصلت السُرى بالغدوّ والرواح، وهجرت الكرى في العشى والصباح، فأسعفتنى مع الرعاية فاتحة الألطاف، وأسعدتنى مع الوفاية خاتمة المطاف، بوصولى إلى حماها الزاهي المحروس، والحلول برباها الزاكى المأنوس، فلما أذنت لى حُماتها بالدخول من بابها، وأزهرت عن وجهها الأزهر برفع نقابها، فإذا هى مدينة جمعت متفرقات المحاسن، ذات رياض بَهجة وماء غير آسن، غرة المدن بل عروسة البلدان، عليها تعقد الخناصر فما صنعاء وما عبّادان، لقد حلّت من الحسن بمكان مكين، وتحلت بحلى الزينة بأحسن تزيين، غياضها تُروح الأرواح القدسية وتسر النفوس، ورياضها تنفح الأرواح المكية ولا عطر بعد عروس، تنادى أفياءُ ظلها الظليل، هلمّوا إلى طيب مقالٍ وُحسْنِ مقيل، تتيه على غيرها من الأمصار مائسة الأعطاف، بما تحويه من عيشها الهنى وثمارها الدانية القطاف، شعر:

إن يكن فى البلادِ طيب نعيم
أو رياض لها بها إعزازُ
فبمصر حقيقة عن يقين
مستعار بغيرها ومجازُ

فـجـعلت أطوف بخـلال المسـالك والشـوارع، وأرمُق (ص٥٤٣) أفلاك القـصور التى هى للبدور مطالع، وتأملت فى زيج لامع سيرها القويم، وقومت طالع عزها بأحسن تقويم، فأنتج أن كوكب سعدها مشرق، وناظر مجدها له السيادة تشرق، فهى بعزة أمرائها وقوة عساكرها قاهرةٌ لأضدادها، ظافرة على مُناظرها، قد حَفظتْ بهم الثغور والقرى والضياع، وأمِنَتْ السُراةُ فى مسالكها فلا خوف ولا ضياع، فهم الكماة فى الحروب فوق متونِ الضوامر، وهم الكفاة للضروب فى الهيجاء وبدور العساكر، أنفُوا الخضوع للأعداء فعزَّت منهم النفوس، وألفوا الوَلوع بعوالى الأسلحة فاتخذوها وشاحا والدروع لبوس، فكم خفقت لهم فى الغزوات رايات نصر وفتح، وتليت فى وصفهم بمجامع العزمات آيات ثناء ومدح، شعر:

مـصـرٌ زهت بين البـلاد بمعـشـر
خـفـقت لهم بسَـمـا العـلا راياتُ
فـهم الأعـزة طاب نشـر حـديثـهم
وبمدحـهم تُـتْـلى لنـا آيـاتُ

(ولما) حللت بواديها المشُرق الباهر، ونزلت بناديها المورق الزاهر، استوطنتُ فى أعاليها شرُفا، وتبوأت من مغانيها غُرفا، وبسطتْ لى من الأنس والسرور نمارق، ونصبت علىّ من الإيناس والحبور سرادق، ووافتنى الأحبة الأذكياء إخوان الصفاء، وصافتنى الأعزة الأتقياء أخدان الوفاء، مجمعُ أفراحنا رياض الأدب واللطايف، ومربَع أرواحنا غياض الطلب والمعارف، نحتسى كؤوس الهنا بحانات التهانى، ونجتلى عرايس (ص٥٤٤) المنى بنغمات المثالث والمثانى،

كوكب المسرة بأفق الإسعاد مزهر، وقمر المبرة بمطلع الإسعاف مبدر، فبينما نحن على هذه الحالة التى وصُفْت، ومشاريع مواردنا الحالية راقت وصَفَتْ، إذ نظر الدهر إلىَّ نظرة عابث، ورمانى من كنانته بأعظم حادث، نضبت به حياض معاشى، وذبلت منه رياض انتعاشى، حُرمتُ منه مفروض حقى الواجب، وصار حظى المنع وليس ثم حاجب، فقُيِّدتُ عن التصرف فى وقفى المطلق، وأصبح بابُ الوصول إليه دونى مُغلق، فتكَدرتْ عند ذلك صافياتُ المشارب، وتنكرتْ بعد تعريفها واضحاتُ المآرب، وحرمت ما بين دائرتى الاشتباه والاختلاف، واعترانى مع العلل جميع أنواع الزحاف، وعزَّ التوسل للتوصل بحسن الخلاص، والقضاء ينادى ولاتَ حين مناص، مفرد:

عــزَّ الخــلاصُ ولاتَ حين تـصــبــرِ
من حــادث قــد قلَّ فــيــه المســعفُ

فبينما أنا حاير فى فيافى الافتكار، تايه فى متاهة الحيرة الشاسعة القفار، إذ هتفَ بى هاتف من سما الانتباه، أزال ما بقلبى من واردات الوهم والاشتباه، وقال أيها السابح فى لجج أحزانه، السايح بفجاج قلقه وأشجانه، إلى كم تحيدُ عن طرق معالم التدبير، ولا تجيد الهمة فى طلب المغيث ولا النصير، أين أنت من المنجد عزيز الجار، أين أنت من المسعد حامى الذمار؟ حرم الأمن والالتجا، وكعبة القصد وركن اليمن والنجا، وطيبة الوفد قدس المنتمى، ونزهة (ص٥٤٥) المستملح وطور سينا المحتمى وبغية المستمنح مدينة الآمال، ومَدْيَن المآرب وعرينة الإقبال، وصنعاء المطالب ذى المجد السامى مقامه على الفرقد، ومن كوكب

عزّه بمطلع السعد يتوقد. شعر:

أمـيـرٌ به عبن المعـالى قـريرةٌ
وكـوكـبـه الزاهي يَتـيـه على البـدرِ
فلذ بحـمـاه تلْقَ عـزاً فـإنه
غـدا كـعبـة الآمال والأمن في مـصـرِ
له همـةٌ تعلو على كل همـةٍ
وهمّـتـه الصـغـرى أجل من الدهر

فقلت «من هذا الأمير الحايز لهذه الأوصاف؟ فزدنى من حديثك يا سعد عنه بلسان الإنصاف» فقال «هو فى الكرم أسمح من حاتم، ومنتهى من تُنْسبُ إليه مآثر المكارم، ففضل عطاياه أنسى هبات الفضل وجعفر*، ومن ساواهما به، فعن كمال وصفه قصّر، وفى الشجاعة أقدم من عنترة المشهور، وأثبتُ من قسورةِ الأسدِ الهصور، وأذكى من إياس فى نباهته، وأبلغ من المأمون فى فصاحته، وله فى حسن التدبير كمال انتظام وجمال انتساق، وهو فى حلبة السبق يوم الرّهان حايز قصب السباق، ولله در الشاعر اللبيب فى الوصف الجلى، حيث أشار إلى بديع هذا الوصف العلى:

ومـا خلقتْ كـفّـاه إلا لأربعٍ
لعـقـايل* لـم يخـلـق لـهـن ثـوانِ
تقـبـيل أفـواه وإعطاء نايل (ص٥٤٦)
وتـقـلـيـب هـنـدى* وحـبـس عنان

(فقلت) أقسم بمن خصه بهذه الأوصاف السنية. وتوّجه بتاج المواهب اللدنية،وبمن أسمى قدره الأسمى على كيوان*، لا تكون هذه المزايا المعدودة، والسجايا المحمودة، إلا

* الفضل وجعفر: هما ولدا يحيى بن خالد بن برمك.

* عقايل: أى صفات كريمة ومفردها عقيلة، وعقيلة كل شيء أكرمه.
* الهندى: السيف والمقصود أنه مقاتل شجاع.

* كيوان: اسمٌ يُطلق على بَطَل من أبطال الأساطير الرومانية، جعلوه إلهاً فى روما، واسمه ساترن [Saturnus] ويقابله فى الأساطير الإغريقية كرونوس [Cronos] ويطلق على كوكب سيار يسمى (زحل) والمراد هنا أن الكتخدا رضوان عالى المنزلة.

لأمير الندى وفريد الأوان، حضرة الكتخدا رضوان، فقال لله درُّك من عارف بوصفه السنيّ، وغارف من مشرع نعته الحالى ومورده الهنى، وها أنا اتحفك بمعمى فى اسمه العزيز، فاستخرجْه بضوء نار مصباح قلبك وميّزه بأحسن تمييز، وهو:

هـو الإمـــــــــــام فـى الـنـدى
والالـتـــــــجـــــا فـلـذ بـه
فكم ســــمـــــا عـلى العـــــلا
وضـــــــــاء نـور قـلـبـــــــه

(فقلت) أحسنت فى لطف الإشارة، وأجدت فى ظرف العبارة، ولقد أسمعنى فى وصف جنابه الكريم، مادحه المولى اللبيب الجارى على أسلوب الحكيم، أبياتاً مخترعة لنفسه دقيقة المعانى، رقيقة الألفاظ حالية بديعة المبانى، فشطرتها أحسن تشطير، وها أنا ببعضها مشير، وهى:

وأبيـك مــــــا رضــــــوانُ إلا آيةٌ
ســمـحت بهــا جــوداً يد الإفــضــالِ
صــدقتْ قــضــايا فــضله وكــمــاله
شــهــدتْ بذاك شــهــامــة الأفــعــالِ

ثم أطلقت فى الحال عنان المسير، ممتثلا أمر المشير وبالله التيسير، ويممت الحمى مترجياً حصول النجاح، يخفق بطريق الاجتماع راية الأفراح، فعندما وصلت لناديه الرحب البهيج، وروض (ص٥٤٧) واديهِ الخصب الأريج* ، ولاح ضياه بوارق أنوار رحابه، وقفت متيمناً مستبشراً بفتح بابه، فقلت جدير بهذا الباب الأسعد، أن

* الأريج: الطيب الرائحة.

يسطرٌ عليه بمداد اللُّجيّن والعسجد.

باب تلا الإسعادُ آيةَ فتحه
وروى بشيرُ السعد مسند نُجْحه
وغدت حواشى الروح زاهية بما
وترويه نصا عن بدايع شرحه
والعز للرضوان قال مؤرخاً
سعدٌ بباب قد حُبيتُ بفتحه

ولما صدقت قضايا الوصول، وقامت براهين الإذن بالدخول، سرُحتُ الناظرَ فى مناهج بدايع مغانيه، وشرحتُ الخاطر بمباهج صنيع معانيه، فرأيته منزلاً محكم البناء رفيع العماد، محفوفًا بالممالك متحوفًا بأبدع الخدم والأجناد، فما صُغد سمرْقند* وما شعْب بوّان* ، وما الخورنق والسدير وذات العماد والإيوان*، معاهده مشاهد جمال زاهية مشرقة، ومشاهده معاهد كمال باهية مونقة.

أنعم بمنزلٍ عزٍ طاب منظره
وفاق فى صنعة الإتقان إيوانا
به بدائعُ حسن قط ما اجتمعت
فى ملك قيصر أو كسرى ونعمانا
فالسعد والمجد فى أرجاء دوْحته
قد أرّخوه حبى عزاً ورضوانا

قد زينت سماؤه بمصابيح نجوم من النقوش (ص٥٤٨) العسجدية، وكُسيت أرضه بديباج مرقوم من الفرُش الجوهرية، أحاطت به الرياض كالمناطق بالخصور، وزهت مناظرها الباهرة بالمنظوم والمنثور، أينع بها النرجس الغض

* صُغد بضم الصاد موضع بسمرقند.
شعب بوّان بفتح الباء وتشديد الواو بفارس إحدى الجنان الأربع الدنيوية.
الإيوان: المكان المتسع من البيت يحيط به ثلاث حيطان، وإيوان كسرى بمعنى قصره، وهو المقصود هنا وجمعه إيوانات أو أواوين. والخورنق والسدير قصران للنعمان ابن امرىء القيس.

والورد الجنى، وأزهر الشقيق القانى والسوسن السنى، يتبسم فيها النسيم فرحاً لبكاء الغمام الهتّان، ويتنفس بالبنفسج ترحاً لضحك ثغور الأُقحُوان، تنفح كمايمها بعرْف الكبا* والطيب، وتصْدح حمائمها بوصف الرُبا والحبيب، فأغصانها بلطيف الصبا تتثنى، والعندليب كما قال الشاعر بالإنشاد يتغنى:

روضةٌ زينت بحسن زهور
عطرّ الكون نشرّها
رقصُ بان لعندليبٍ تغنّى
وثنايا النسيم فيها ضواحك

قد ابتهجت به قاعة أنس عالية القباب، حالية بوشي النقوش المديحة والتبر المذاب، مشيدة البنيان على أرفع وضع غريب، جيدة الإتقان بأبدع صنع عجيب.

يا حبذا قاعةُ العز التى ابتهجت
أرجاؤها وزهت بالمنظر العجب
يروى لنا نقشُها الزاهى حديث حُلى
مسلسلاً بالضيا نصاً عن الذهب
نفائس البشر بالرضوان قد كملت
بحانها ودواعى الأنس والطرب
بها الأحبة تُسرى كالكواكب فى (ص٥٤٩)
أفلاكها وضياءُ البدر لم يغب
لو أمّ شيطان همٍ أفق دَوحتها
رمته أفراحُها نَبْلاً من الشهب
روض لآداب أرباب الكمال فلا
زال الهنا مُزْهراً فى روضها الخصب

* الكِباء: بكسر الكاف عود البَخُور وجمعه (كُبى) بضم الكاف.

بشـــرى لهـــا حـــيث ناداها مـــؤرّخـــهـــا
يـا قـــــاعـــــةٌ تزدهى بـالـعـــــز والأدب

فالظبا تسرح آنسة بربيع مرابعه، والمها تمرح مائسة بسُوح* مراتعه، والغزلان آمنة فى سربه والآرام* ، والغزالة ترمقهم بعين الغيرة من تحت سِجّف* الغمام، تشير إلى عيون ابن الجهم* جفونها، وتثير حرب البسوس مع السلم عيونها، يُخجل أعطاف الأغصان مَيْلُ قدودها، ويفصح شقايق النعمان صبغة خدودها، وتنسى بالخفر أخبار عَزّة وسعاد، وتنشيء بالحور للمنساك صبوة وسُهاد، كما قلت:

من كل ظبى رشـــيق القـــد ذى هيفٍ
يزرى سناه بدور التم فى الســـــحب
حـالى المراشف مـعـسـول الرّضـاب له
رلحظٌ يصـول به فى مـعـرض اللعب
قـيق خـصـر كـدين الصّب رقـتـه
فـعنه حـدّث فكم يحـوى من العـجب

وحين لحت ما سرنى وأبهجنى، ولحظت ما أبْهنى* وهيجنى، قضيت مما شاهدته العين طرباً، وكاد القلب أن يتخذ سبيله فى بحر الهوى عجبا، لكنى غضضت (ص٥٥٠) طرف ناظرى حياء وأدبا، وأمسكت طرف خاطرى رَهَبا ورعبا، وتقدّمت إلى صدر ذلك المجلس الرفيع، الحاوى لكل بديع حسن وحُسن بديع، فرأيت إيواناً زاهىَ النقوش تحار العقول فى وصفه، وشممت أرجاً يروّح النفوس بعرْفه، فأذكرنى روضات الربيع الزهية، ونفح كمايم أزهارها المسكية، فقلت:

* السُوح: بضم السين جمع ساحة.
* الآرام: الظباء الخالصة البياض ومفردها (ريم)
* السجف: بكسر السين هو الستر
* عيون ابن الجهم: هو على بن الجهم الشاعر المشهور، ومن غرر قصائده:

عيونُ المَهَا بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

ويقصد المؤلف بقوله (عيون ابن الجهم) عيون المها فى هذا البيت.

* أبهى: بمعنى تبهنى.

بادر إلى الأنس واستجل المحاسن من
إيوان حسن زها فى نقشه العجب
كأنه الروض إبّانَ الربيع حلا
يبدو شذا عرفه كالمندل* الرطب
وساجعات الهنا أضحت بدوحته
تشدو بطيب علا الرضوان فى طرب
قد زُخرفت بمذاب التبر قبّته
ووشّيت بنُضار غير منسكب
فاسمع أحاديثها تروى مؤرخةً
مسلسلا حليها زهوا عن الذهب

* المندل: عود طيب الرائحة ينسب إلى بلدة بالهند تسمى المندل بفتح الميم والدال.

وشاهدت شمس الإسعاد مشرقةً بأفق ذلك الإيوان، وقد كسيت أرجاؤه بحلل الرضا والرضوان، وفى صدره الصدر الأمير المنصور المؤيد، صاحب المجد السامى والسعد النامى والعز المؤيّد، أدام الله بهجة مصر المعزّية بدوام حضرته، ووالى تجديد أفراحها ببقاء غرة نضرته، وجدير بمن يحظى بمشاهدة جنابه المجيد، أن يترنم بما توجته وهو قول الشاعر المجيد:

حقيق لمصر أن تتيه تفاخراً (ص٥٥١)
برضوانها إذْ كان عين حلاها
هلال لياليها وإنسان عينها
وبدر دياجيها وشمس ضحاها
مؤيدها منصورها وجوادها
وجامع شملىْ مجدِها وعلاها

ورأيت بمجلسه جملة من خاصته، سُمَراءَ مسايرته، وندماء

مسامرته، ما بين أنيس أريب، ورئيس لبيب، وعليم أديب، ونديم رقيق، وكاتب نسيق، فالأنيس الأريب يهدى الأنس بحديثه المستطاب، جليس نجيب بيدى غرايب التحف مع اللطف والآداب، له من المعارف أكمل زينة وأجمل حُلا، وفى التقدم عند أعيان الأمراء حائزٌ رتبَ العلا، والرئيس اللبيب حاذق لطيف المزاج، خبير بأنواع الطبايع وأجناس العلاج، قد جبلت طباعه السليمة على قانون الوفاء، وجَلَبَتْ ألفاظه لقلب من يخاطبه بهجة الشفاء، والأديب العليم فصيح الإنشاء والإبداع، محلى المعانى باستخدام التورية والإيداع، لا يجارى فى ميدان البراعة، ولا يبارى إذا مد فى مضمار البلاغة يراعة، والنديم الحاذق رقيق المعانى والأوصاف، يتوج هامات المجالس بجواهر درر الإتحاف، معروف بنهاية النباهة وحلاوة المنادمة، له فى رتبة الآداب مقاسمة ومساهمة، والكاتب الصادق ياقوتى الخط، حسن الإتقان فى معرفة الشكل والضبط، بصير بإصلاح أرباب (ص٢٥٥) الأقلام، وكم رُفعتْ له بين أهل النهى أعلام، فكل فريد غدا نزهةُ الظرفاء بطيب المسامرة، وتحفة مجامع اللطفاء بحسن المحاضرة، فقلت لعمرى هذا مجلس الخلفاء، وروض آداب البلغاء والنظراء والحنفاء، وبالجملة فأوصاف رونقه لا تحد، وأصناف تأنقه لا تحصى ولا تعد، فهو فوق ما حدِّثتَ عنه الركبان، وليس الخبر فى الحقيقة كالعِيان، فقلت:

وافيتُ مجلسه المعظمَ كى أرى
ما حدَّثَتْ عن وصفه الرُّكبانُ
فرأيت حلماً ما لأحنفَ مثله
وشهدت بأساً هابه الشجعانُ

يحـمى الجـوار بعـزم صـولتـه كـمـا
يحـمى شـقـايقَ دوحـه النعـمـانُ
فلـه السـعـادةُ والسـيـادةُ والثنا
والمجـد والإسـعـاد والرضـوانُ
مـا قـامَ فى شـرع المدايح مُـدّع
فـقـضى بصـدق مـقـاله البـرهان

وعند مواجهتى ذلك الجناب العالى، ومشاهدتى سنا أنوار وجهه المتلالى، اعترانى واردُ هيبة وجلال، وصرت مندهشا بين جمال وكمال شعر:

واجـهـتـه فـمليت منه مـهـابةَ
تدَع الفـتى بمقـامـه مـبـهـونا

ثم أدركنى واردُ الطمأنينة، وتلا على قلبى آية السكينة، وقال خفض عليك ودع خجل الدهشة، (ص٥٥٣) واصرف عنك بالاستئناس وَجَلَ الوحشة، فإن سيد هذا الحمى والمقام، وإن كان ممن يحذر سطوته الضرغام، وتهابه أبطال الأقبال والملوك الصيد، وتود لو كنت له من جملة العبيد، فهو ممن خطت معانى لطفه بنانُ الكتاب، ونطق بمبانى ظَرفه لسان الآداب، مُتَبسم الثغر طلق المحيا، يتلقى بالبشر من أم جنابه وحيا، فتقدّمت مع الأدب والتعظيم، وحييته بتحية تليق بمقامه الكريم، فتهلل وقال مرحبا أهلا وسهلا، صادفت ملجأ حصينا وروضا خصيبا فحبيتَ أمنا وظلا، فقدمت إليه قصيدة تترجم عن قصتى، وتشعر بثبوت براهين حجتى، وهى:

نُجحُ المقــاصــد من عليــاك مــأمــول
ومــا ســواك لما أرجــوه مــقــبــولُ
ســرَتْ لحــيِّك آمــالى على نُجبٍ
من الرجـــاء ومـــالى عنك تحـــويل
لما اســتــقــرتْ لبـاب العــز أنشــدها
هذا حـمى فــيــه للحـاجـات تحـصـيل
هذا حـــمى تزدهى عـــزا مـــشـــاهدُه
به لمن أمـــه المقـــصـــود والســـولُ
هذا حـمى قـد خلَتْ شـهـداً مـشـارعـه
وورده الكـوثرى العـــذب منهـــول
هذا حـــمى بحلى الرضـــوان فى شـــرفٍ
حـامى ذراه على الإســعـاف مـجـبـول
هذا حمى الملتجى نادت بشائره (ص٥٥٤)
يا من يروم النجــا فى حــيــه قــيلوا
فــانزل به واشك مــا تلقى فــقلت لقــد
ضـاق الخناق فـعـقْـد الصـبـر مـحلول
كم ذا يحــاربنى دهرى العنيــد قــلا
والفكر فى سـاعـة الهـيـجـاء مـعـقـولٌ
يجـر بحـر خـمـيس فـوق سـايحـة
والسـيف والسـهم مـشـهـور ومـسلول
وقــصــتى بوجــيــز اللفظ مــجــملةٌ
فى شــرح حــالى والتـفـصـيل تطويل
باح اللســـان بما أخــفى الجنان وقــد
عــيل اصـطبــارى وأفنتــه التــعــاليلٌ
ينبــيك حــالَى عن أخــبــار مــصــدره
لا العطف يبـدو ولا الإشـفـاق مـوصـولٌ

حـرَمْتَ واجب حـقى وْهو مـفـتـرَضٌ
كـرها فـهل ينسخ التـحـريمَ تحليلُ؟
قـضـيـة سلبت بالنقض مـوجـبـة
عكس القـيـاس أمـا للحكم تبـديل؟
طالت مـراجـعتى فى حسن مـخلصـهـا
بمـن لهـم بحلى التـدبيج تـعليل
كلٌ غـدا ببلوغ القـصـد يمطلنى
ومـا مـواعـيـدها إلا الأباطيـل
وصِـدْق وعْـدك بالإسـعـاف منجـزه
لهَ بفـضلك تحـقـيق وتعـجـيل
فـأنت أعظم من ترجىَ إغـاثتـه
وذو المكارم مـرجـوٌ ومـسـئـول (ص٥٥٥)
وسـيلتى نجلك المسـعـود طالعـه
علىّ سـعـد له فى المجـد تأهيل
ريحـانة العـصـر فـرع النيـرين به
طرف المعـالى قـرير العين مكحـول
لا زال فى حـفـظ مـولاه العَلىّ
من الأسـواء تحـرسـه طه وتنـزيل
فـاسعف حبـيت بما تهـوى وقل كـرماً
بنا وصلتَ ومـا ترجـوه مـبـذول
دامت مـآثرك العليـا مـسطرةً
وعنك تروى لهـا فى الذكـر تنزيل
ولا بَرِحْت عليك السـعـد فى رغـدِ
يزينه بدوام العـز تكمـيل
ونعـمـة تجـتلى فـيـهـا شـمـوس عـلا
حـيث الهنا لك مـضـمـون ومكفـول

في دولة بحلي الإسعاد قد جُليَتْ
ومن علاك لها تاجٌ إكليل
ما مصطفى أسعدٌ أمَّ الحمى وله
في سَيْب* عطفك يا ذا الشر تأميلُ
له البشارة حيث الفكر أنشده
نجح المقاصد من عليك مأمولُ

فنظر إليها بعين متأمل لبيب، وجال فيها بجودة فكره المتوقد المصيب، ثم رمقني مع البشاشة بطرفه، ولاحظني بعين لطفه وعطفه، وقال «أبشر بنجح القصد والإسعاد، فتظفَر إن شاء الله تعالى بحصول المراد» فدعوت له بدوام العز (ص٥٥٦) والسعد، ونجاح التدبير المنتج ببلوغ القصد، وانصرفت حامداً عاقبة أمري، مادحاً علاه بلسان ثنائي وشكري، طيِّبَ القلب مستبشراً بوعده الجميل، لعلمي أن وعد الكريم واجب التحصيل. فقلت:

إنَّ وعدَ الكريم قرَّت به العين
لما فيه من تحقق صدقه
فهنيئاً لأسعدِ بنجاح
حيث بشرته وفاء بحقه

وقد أحبب أن أذكره بالحديث الحسن، الحاثّ على اصطناع المعروف وتقليد المنن، روينا بالسند العالي الإسناد، الخالي عن العلل والانتقاد، أن رسول الله لما عَرض عليه سبي هوازن كان ممن عَرض عليه بنت حاتم الطائي، فقالت «يا رسول الله أنا بنت من كان يحمل الكلَ ويكسب المعدوم ويعين على نوايب الزمان، أنا بنت حاتم الطائي» فقال رسول الله

* السيب: العطاء.

«لو كان أبوك مسلماً لترحّمنا عليه» فمنّ عليها صلى الله عليه وسلم ورد لها ما لها وقال: «أكرموا عزيز قوم ذل، وغنى قوم افتقر» فقالت: «يا رسول الله وصويحباتى؟» فقال: «وصويحباتك، كريمة بنت كريم» فقالت: «يا رسول الله أتاذن لى أن أدعو لك بدعوات؟» فأذن لها وقال لأصحابه «أنصتوا وعوا» فقالت: «أوقع الله برك مواقعه ولازالت عن ذى نعمة نعمةٌ الا كنت سبباً فى ردها» الحديث... وحسبك هذا فى اصطناع (ص٥٥٧) المعروف، وإعانة المنتمى وإغاثة الملهوف (ولما انتهى) حديث الربيع بن رشيد قال له صاحب البديع بشير بن سعيد «بشراك بشراك قد ظفرت بالنُجْح، فأطلق عنان يراعك فى ميدان المدح» فقال الربيع أحسنت بإرشادك، إلىّ فلك الفضل والمنّة علىّ، لكننى أعترف بقصور باعى، وأتحقق تقصير لسان يراعى، عن استيفاء أوصاف محاسنه العلية، وشيم مكارمه الجليلة وأخلاقه السنية، شعر:

لو أنظم الزهر النجوم قلائداً
في مدحه لم أقض حق صفاته

على أننى أنشد ما جادت به قريحة الفكر الكليل، وإن لم أكن أهلا لهذا المقام الجليل (فقلت):

روض السعادة قد طابت نوافحه
رهاتف العز بالرضوان صادحه
هو الأمين الذى أوصافه كملت
وزَينتْ قلمَ المنشى مدايحه
فاقَ الورى فى العلا حتى استبان لهم
بدراً يلوح على الأكوان لايحه



أعلت به شـرفـات السـعـد فـانتظمت

أحكامـه وزهت أمنا مـسـارحـه

حـصن المعـالى به شـيـدت دعـائمـه

فـجـيش تدبيـره المنصـور فـاتحـه

وقـد حـلا بحلى الإسـعـاد وارده

يلقى المسـرّةَ غـاديه ورايحـه

فمن عـرَته من الأيام حـادثة (ص٥٥٨)

وأمّـه فـهـو بالإسـعـاف مـانحـه

حـديثـه في العـلا إن رمت تحـفظه

فـاسـمع فـإسناده راوية راجـحـه

وخـذه عنّيَ مـرفـوعـا ومـتـصـلا

مـسلسلا بصـفـات الحسن واضـحـه



تقاسمت وصفه الـخمس الحواسُ حلى
حيث استـبـان من التـقـسيم رائحـه
فـــعـــرْفــه عـطّر الأرجـــاء من أرجٍ
وشنف الـســمع مــا يهـديه مــادحــه
وقـــرة العين فى رؤيا مـــحـــاسنه
والسـعـد فى راحـة وافت تصـافـحـه
وذكـــره قـــد حـــلا ذوقـــا ومَن يده
فـاض النوال كـبـحـر عمّ طافـحـه
وذاك مـــجـــمل قـــول فى تـصـــوره
لســان حــالى بالتـصــديق شـارحـه
دامت مـعـاليـه مـا غنّى الـهـزار* ومـــا
روض الـسـعــادة قـد طابت نوافـحـه

* الهزَار: بفتح الهاء طائر مفرد.

وقصارى الأمر أن مادحه مقصر ولو أطرى، فالاعتراف بالعجز عن إدراك ذلك أحقُّ وأحرى، كيف وقدْ خلق أهلا للمعالى وكفؤ للعلا، واختصّ بإبداع أوصافٍ حميدة تُنشر وتذكر بين الملا، شعر:

أيا مولاى قد أصبحت فرداً
مليكَ علا لك الخلق الحميد
فمدحك لا تحيط به القوافى (ص٥٥٩)
ووصفك ليس يدركه محيد
خُلقتَ كما أرادتك المعالى
وكنتَ لمن رجاك كما يريد

ولما أنهى القلم بعض حق خدمته، وبيض بمداده وجه صحيفته، وقف فى مقام الأدب والخضوع والاعتراف، وطلب الإذن من مولاه بالرجوع والانصراف، داعياً له بتوالى النعم المحمودة العواقب، وثبت الهمم الجليلة الذكر والمناقب، لازال ملحوظاً بعين عناية حماية مولاه، محفوظاً بوقاية كفاية (فسيكفيكهم الله)، ما أبدع منشئ فى النثر والنظام، وزها التاريخ بأحسن ختام.

تهدى إلى عالى الجناب مقامة
تزهو كبدر فى غياهب جنحه
لما سمت حسنا بدا تاريخها
لمقامة أبدت بدايع مدحه

وقال يتنجز وعده أدام الله سعده

عطفاً فباب الرجا بالنجح ما فتحا
ومتن قصدى بالإسعاد ما شرحا

وشمس فلك المنى فى الحجب ما طلعت
وبرق أفق الهنا للعين ما لحا
ففكرتى بفجاج الوهم سائحةٌ
واللب فى لجج الأشجان قد سَبَحا
وراحتى فقدت والأنس تابعها
وناظرى بغيوث الدمع قد سفحا
هل ذاك من سوء حظ قد خصصت به (ص٥٦٠)
وأن مولاى للإغضاء قد جنحا؟
مولى سمت بسما العليا عزائمه
وعن مباهج عز قط ما برحا
سارت بسيرته الركبان راويةً
عنه أحاديث فضل عطرها نفحا
وفيم جودك قد سحت موارده
موجه بفيوض الفضل قد طفحا
وروض مجدك قد فاحت أزاهره
وهاتف السعد فى أدواحه صدحا
فلاحظ المنتمى عطفاً بعين رضا
لا زلتَ فى نعمة بالعزّ متشحا

وقال يمدحه ويهنئه بعيد الفطر:

عيد الهنا بالسعد أقبل
والوقت من بشر تهلل
وافى على طرف أغرّ
بيمن إعزاز محجل
يروى حديثَ مسرة
يسمو بإسعاد مسلسل

فتارجت منه الرُبا
وتعطرت مسكا ومَندل
فاسعد بعيدِ سيدى
عيداً حلا وردا رمنهل
وأقم بروض سعادة
بزهور إنعام تجملْ
وابشر خُبيتَ بنصرة (ص٥٦١)
عزا ومن أقصيتَ يخذل
يثنى عليك لسان حال
الدهر تفصيلا ومجمل
تبقى كما تختار من
عمر قويم الغصن أعدلْ
ما آب شهر الصوم أو
عيد الهنا بالسعد أقبل

(وقال) يمدحه بهذه المزدوجة الفريدة، المزرية ببديعها كل قصيدة، وكتب عليها قوله:

مزدوجة بالثناء طيبة العطر، مبتهجة بالتهنئة بعيد الفطر

يا سعد عرّج بالحمى والرّند*
وطُفْ بأكناف الرُبا من نجد
وانزل بحى فيه أهل ودّى
فهم مُنَى عينى وجُلُّ قَصْدى
وحبهم أثار نار وجدى
واشرح لهم حالى وما ألاقى
من لاعجِ الغرام والأشواق

* الرنْد: بفتح الراء وسكون النون شجر طيب الرائحة من شعر البادية

ومـــا جـــرى من دمـــعى المهـــراق
واذكـــر عليـــلا بات فى احـــتـــراق
يشكو تباريح الجوى والسُّهد
حليف شـــوقٍ جـــســـمـــه نحـــيل
أليـف تـوقٍ شـــفــــه العليـل
سُلوانه والصـــبـــر مـــســـتـــحـــيل
يقـــول هل لى فى اللقـــا ســـبـــيل
(ص٥٦٢) لأستريح من عنا ووجد
قـــد هاج شـــوقـــاً فى دجى الأســـحـــار
والصـــبح مـــحـــجـــوب عن الأســـفـــار
والبـــرق باد من خـــبـــا الأســـتـــار
وقـــد شـــجـــاه صـــادح الأطيـــار
يشدو حنينا فى الرُّبا بنجد
فـــيـــانســـيـــمـــا ســـاريا عن الربا
يعطر الأرجـــاء من نشـــر الكبـــا
روِّح فـــؤادى بحـــديثٍ أو نبـــا
عـــمن صـــبـــا الصبُّ إليـــهم وصـــبـــا
فذكرهم سجيتى ووردى
بالعـــهـــد حـــدث عن حـــمىً بهـــيج
يزهو حلى بروضـــه البـــهـــيج
مـــروَّحـــا بعَـــرْفـــه الأريج
لعل يطفى ذكـــره وهيـــجى
كم طاب فيه مصدرى ووردى
حـــيث الشـــبـــاب غـــصنه رطيب
حـــيث الزمـــان روضـــه خـــصـــيب

حـيث الهنا دانى الوفـا مـجـيبُ
حـيث الذى أهـواه لى رقـيب
فى راحة من هجره والصدّ
ظـبى أغـن رائـق الألـفـاظ
عـذب الثنايا فـاتر الألحـاظ
باهى المحـيّـا فـاتن الوعّـاظ
مـوكل لـلطـرف بـالإيقـاظ
(ص٥٦٣) يدعو إلى الهوى بسيف الخدّ
رخـيم دل* قـدُّه رشـيق
وسـيم شكل حـسنه يشـيق
فى خـده التـفـاح والشـقـيق*
فى ثـغـره الأقـاح* والرحـيق
يفتر عن در وطعم الشهد
فـثـغـره الـعـذب الهنى لا يرشف
ووِرد خـده الجنـى لا يُقـطَف
يحـرسـه عن مـقلتـيـه مـرهف
به الـعـيـون والعـقـول تخطف
إذا بدا مجرداً من غمد
يا حـسنه لما وفى يخـتـال
فـى حـلـة طـرازهـا الـدلال
وبهـجـة جـمـالهـا كـمـال
يهـتـز تيـهـا قـدّه العـسّـال
يزرى الغصون ميلُ ذاك القدّ
ذو غُـرّةٍ لهـا الهـلال يحكى
وطرةِ تبـدى سـواد الحلك

* رخيم دلّ: الرخيم هو الليّن السهل، والدّل او الدلال بفتح الدال جراة المراة فى تكسر وتغنج، فقوله (رخيم دل) معناه أن دلاله لين سهل.
* الشقيق: الحمرة التى تعلو بياضاً.
* الأقاح: أقحوان وهو نبت طيب الريح.

وشـــامـــة تروى عن ابن مـــسك
ومَـبـسـم قـد ضــاع فـيــه النُسك
وصار غَيي فيه عينَ الرشد
لله مـــا أحلى ظبـــا ذاك الحــمى
ومـــا ألذ الوصل من تلك الدمـــا
هيـــجت شـــوقى والنســيم عندمـــا
ذكـرت فـاسـعف بالحـديث مـغـرمـا
(ص٥٦٤) يشوقه تذكار ذاك العهد
وهات لى حـــــديث الأزبـكيــــة
ومـــا حـــوت أدواحـــهـــا الزكـــيـــة
حـــسنا زهت أرجـــاؤها السنيـــه
إذ لاح فى غـــرتهـــا البـــهـــيـــه
قصور رضوان العلا والمجد
يا حـــبـــذا مـــعـــاهدٌ حـــســـان
يغنيك عن وصـــفى لهـــا العيِن
قـــد حلّ فـــيـــهـــا الحـــور والولدان
حـــصـــبـــاؤها اليـــاقـــوت والمرجـــان
فانظر تراها جنة كالخلد
فـكم بهـــا من دوحـــة أنيـــقـــه
وروضـــة أغـــصـــانهـــا وريقـــه
وربـوة أنـهـــــارها غـــــديقـــــه
ومـــرجـــة أزهارها عـــبـــيـــقـــه
من نرجس وسوسن وورد
تـزهـو بـهـــــا حـــــدائق الأزهـار
يجـــرى بهـــا مـــسلسلُ الأنـهـــار

تبـــدو بهـــا لطائف الأســـرار
عن طيب نفخ عــرفــهـــا المعطار
تعيد طيَّ نشرها وتُبدى
حى الصــبـا حِـمىً سـمــا إتقــانا
وفـــــاق فـى إبداعـــــه الإيـوانا
جـــــر المنـى فـى دوحــــه أردانا*
عـــــز الهنـا فـى روضــــه أفنانا
(ص٥٦٥) غنت عليها صادحاتُ السعدِ
مــعــاهدٌ قــد أشــرقتْ جــمــالا
وأعـــجـــبت فى حـــسنهـــا دلالا
إذ حلَّ فـــيـــهـــا كـــوكب تلالا
بأوج عـــز وازدهى كـــمـــــالا
فطاب ذكرُ مدحه والحمدِ
مليك سـعـد قـد سـمـا فى عـصـره
مـــؤيدٌ مـــعظمٌ فى مـــصـــرِهِ
مـعـــززٌ كـيــوسف فى قـــصـــره
عليــــه منشـــورٌ لواءُ نصـــره
بموكب العز السنى والجد
أعظم به من مـــاجـــدِ وشـــهـم
مـــولى شـــديد البـــأس وافى الحلم
فـى الحـــــــرب نارٌ جنةٌ بسلم
مـــعـنف من غـــاب يوم الغنم
وعاذر من غاب يوم الطرد
صـــلاته قـــبل الرجـــاء ســـابقـــه
نصـــاله للمـــبـــغـضين لاحـــقـــه

* الأردان جمع مفرده (رُدن) بضم لرء ومعنه الكمّ.

همــتــه إلى المعــالى رامــقــة*
آراؤه فــيـمــا يروم صــادقــه
كم نجحت فى حلها والعقد
كــريم صــدق وعــده لا يخلف
رفــيع جــاه بالســمــو يعــرفُ
حــامى الذمــار بالوفــاء يؤلفُ
عــزيز جــاه فى الخطوب مــســعف
(ص٥٦٦) راجيه لم يخطئ بلوغ قصدِ
فكم له فى منهج الأمــجــاد
حــديث وصف عــالى الإسناد
يرويه كل حــاضــر وبادى
من ســاكن الأغــوار والأنجــاد
صحيح نقل ما به من نقدِ
فلى رجــاء فى جــميل صــفــحــه
لأننى مــقــصــرٌ فى مــدحِــه
ولا أطيق بعض وصف شــرحــه
حــبــاه ذو العــلا جــزيل منحــه
فى دولة سعيدة وجند
بشــراه قــد وافــاه عــيــد الفطر
ممتطيــاً طرف الهنا والبــشــر
يختــال تيــهــا فى رداء الفــخــرِ
يَعطر الأرجــا بطيب النشــرِ
مهنئا بطيب عيش رغد
مــبــشــراً بالنصــر والتــأييــد
وطول عــمــر نجله الســعــيــد

* رامقة: أى ناظرة.

علىٌّ قـــدرٍ ناجبٍ فـــريد
عـــوّذتهُ بربه المجـــيـــد
يقيه كلّ حاسدٍ وضدَ
تُهـــدى له لطائفُ الأنعـــام
تحـــملهـــا نجـــايبُ الاكـــرام
مـــحـــفـــوفـــة بالعـــز والإعظامِ
مـــحـــفـــوظة من حـــادث الأيام
(ص٥٦٧) يديمها فضل الكريم الفرد
وعـــزة أحكامـــهـــا لا تُنسخ
ورفـــعـــة عـــهـــودها لا تفـــسخ
ومـــتـــعـــة على الدوام ترسخ
يُهـــدى الهنا فـــعـــيـــدُه المؤرّخ
عيدٌ به بَدت شموسُ السعدِ

وقال يمدحه بهذه القصيدة

زَهَتْ مِنْ ربا روض الســرور مـعـاهده
وأشـــرق ناديه وراقتْ مـــوارده
وفـــاحت بأدواح التـــهـــانى أزاهرٌ
وغـــرّد قُـــمْـــرى* الســعـــود وناشـــده
وأضـــحت مـغـانيـه الحـســان نواضـراً
أبرضـوان هذا العـصـر دامت مـحـامده
مـيـر زها بالعـز كـوكب سـعـده
له طارف المجـــد الأثيـل وتـالـده
مـحـامـده تشـفى الصـدور ومـدحـه
يحلّى به جـيـد الزمـان وسـاعـده

* قُمري: بضم القاف وسكون الميم منسوب إلى (قُمر) جمع (أقمر) وهو الحمام الأبيض والأنثى قُمرية.

مـلاذٌ لراجـيـه وكـهفٌ لمحـتمٍ
يروح ويغـدو بالمسـرة وافـده
لجـأتُ إليـه عندمـا الدهر راعنى
فـامننى إسـعـافـه وعـوايده
ولاحظنى عطفـا فـانتج مطلبى
وقد كـان فى أقصى المرام مراصده
بلغ آمـالى المنى بعـد يأسـهـا
فـوافى الهنا بالبشـر والنجح قـايده
(ص٥٦٨) وقلد جيدى مسعفا عقد نعمة
تسـامت على درّ العـقـود فـوايده
وأسعف بالإقـبـال أسـعـد مـدحـه
فـسـرّ مـحـبيـه وغـيظت حـواسده
فـأكـرم بمولى يُخـجل الغـيثَ رفـده
وأعظم بشـهم يبلغ السـؤلَ قـاصـده
فـيـاليتَ أنى بالبـدايع شـاكـرٌ
ومثن عليـه مـا حـييت وحـامـده
فـيـا سـيـداً حـاز الشـجـاعـة والندى
فـشـيـدت مـعـاليـه وعـمت فـوايده
نهـجت سـبـيـلا مـا سُـبـقْت بمثله
سـبـيل غـيـاث أنت بالفـضل شـايده
وكم مـشـرع للفـضل عـذبٍ مـسلسل
وأنت على طرف السـيـادة وارده
تفـردت مـجـداً حـيث أنك جـامعٌ
كـمـا عـلاً تقـضى بذاك شـواهده
وألبـست هذا العـصـر ثوب مـفـاخـرٍ
وتوجـتـه عـزا فطابت مـشـاهده

فـالبـحكم والجـدوى ملكت نهـاية
وبالسطوة انقـادت إليك أسـاوده
لكل زمـان واحـدٌ يقـتـدى به
وهذا زمـان أنت لاشك واحـده
قـدم فى عـلا أوج السـيادة راقـيـاً
يروقك من روض السـرور مـعـاهده

وقال مشطراً هذين البيتين: (ص٥٦٩)

(يا غـارسـا لى رياض مـجـد)
أشـجـاره الزهر من نوالك
زهـتْ وطـابَ الـريـاض لمـا
(سـقَـيْـتَـهـا العـذبَ من زلالك)
(أخـاف مـنْ زهـرها ذبـولاً)
إن فـاتهـا الفىء من ظلالك
أو أن يُرى نبـتـهـا هشـيـمـا
(مـا لم يكن سـقـيـهـا ببـالك)

وقال يمدحه وفيها بيتان مضمنان:

روحُ النسـيم يروّح الأنفـاسـا
ويُمـيـد غـصنا بالهـوى مـيـاسـا
ويَهـيـج نيـران الغـرام بمهـجـة
فـقـدت لفـرط شـجـونهـا الإيناسـا
ويذيع أسـرار الغـرام بمغـرم
قـد كـابد الوجـدَ الشـديدَ وقـاسى
صبٌ له كـبـد يذوب صـبـابة
وصـبـيب جـفن لا يذوق نعـاسـا

كم هام فى عصر التصابى واحتسى
في حان ريحان المحبة كاسا
وجرى بميدان الهيام مسابقاً
حيث امتطى من لهوه أفراسا
لبست جلابيبَ الولوع جموحةً
لم يستطع لعنانها إحباسا
واهاً لأيام الشبيبةِ إنها
تكسو النهاة بغيها الباسا
ومهفهف حلو الدلال علقْته
ظبيا قد اتخذ القلوب كناسا*
أنواع كل الحسن فيه تجمعت
فتقسمت عشاقه أجناسا
ما جال طرْفى فى رياض خدوده
إلا اجتنى ورداً وشاهد آسا
فبجمر وجنته وخمر رُضابه
يحوى من الحسن البديع جنسا
ما الصعدة السمرا وما غصن النقْا
إن هزّ عامل* قده أو ماسا
قمرٌ إذا ما افتر بارق ثغره
أبكى العيون ونوّر الأغلاسا
كم بتُّ أضرب فى انتظار وعوده
بالوصل في أسداسى الأخماسا
وأبيت وسنانَ اللواحظ لاهياً
عن ذى سَقام بالشجون مؤاسا
رشا أضعت العمر فيه صبابة
وعدمت من أسفى عليه حواسا

* كناسا: الكناس بكسر الكاف: مأوى فى الشجر يأوىَ إليه الظبى ليستتر.

* عامل: جمعها عوامل، وهى القوائم أى الأرجل.

يزداد وجـدى عند فـقـد تصـبـرى
واطيل من شـغـفى به وسـواسـا
فكان بالألبـاب من ألفـاظه
سكراً ومن سـحـر العيـون مـسـاسـا
ولعت به ولوعـهـا بمديح منْ
ملك العليين الندى والبـاسـا
إنسان عين الدهر رضوان العلا (ص٥٧١)
فـردُ الأوان لطافـةً وحـمـاسـا
شـهم تدين له الأسـود مـهـابة
وتفـاخـر العليـا به الأكـيـاسـا
عـزتْ به أمـراءُ دولةِ عـصـره
إذ كـان للرؤسـاء منهم راسـا
أفـديه من فَطنٍ تكامل حـزمـه
ومـدبرٍ عـرف الأمـور وسـاسـا
لم يرم عن قـوس الفراسـةِ سـهمَـه
إلا أصـاب برأيه القـرطاسـا
إنْ أذكُـر الليثَ الهـصـورَ فـحلمـه
وذكـاه أنسى أحنفـاً وإياسـا
فـالدر ينثـر بانتظام مـقـاله
وذوو البـلاغـة يُطرقـون الراسـا
لم يثنه فى الجـود لومـة لائمِ
كـالبـحـر جـاوز فيـضه المقـيـاسـا
حـفظَت صنايعـه وأينع روضـهـا
بالإحـتكام إشـادة وغـراسـا
ورثت خـلايقُـه أجلَّ مكارم
عن خـيـرة الدهر الكريم أناسـا

قـــوم إذا غـــرســـوا ســـقـــوا وإذا بنوا
لا يهـــدمـــون لما بنوه أســـاســـاً
وإذا همـــو صنعـــوا الصنايع فى الورى
جـــعلوا لهـــا طول البـــقـــاء لبـــاســـا
لهِج الزمـــان بذكـــرهم حـــتى بدا
هذا الأمـــيـــر إلى العِـــيـــان تناسى
(ص٥٧٢) فغدت به غرر الزمان مواسماً
وبعـــز دولة مـــجـــده أعـــراســـا
روّح فـــؤاد المســـتـــهـــام بذكـــره
وانعش بطيب حـــديثـــهـــا الجُـــلاســـا
فـــحـــديثـــه يروى الغليل كـــأنه
روحُ النســـيـــم يروّح الأنفـــاســـا

وقال يمدحه:

أبيـــات نظمى بهـــا جـــمـــال
ومن امـــتـــداحى على جنابك
افت تجـــر الذيول فـــخـــراً
تهـــيـــم شـــوقـــا إلى رحـــابك
لعل أن تحـــتظى قـــبـــولا
وتبـــلـــغ العـــز والســـنابك*
مـــولاى طال انتظار عـــبـــد
لـــه وثـــوق بـــعـــز بـــابـــك
فـــادرك فـــتى كـــاد فى انتظار
يطيـــر وجـــداً على السنابك*

* السناء: الرفعة.

* السنابك: جمع سُنْبك وهى أطراف حوافر الخيل.

(وقال مادحاً له بهذه المقامة) مهنياً له بالبرء والسلامة (وسمُّاها) نشر نفحة الصفا، ببشر الصحة والشفا، وفيها

لزوم مالا يلزم يظهر لمن أمعن نظره فيها وأنعم، وهي:

حكى أبو النجاح بشر بن حبيب، قال: حدثني ابن الصلاح نصر الطبيب، عن أبي الطيب الطيبي الماهر الاريب، حديثاً بقانون الشفاء محرر ومسطور: أن مما أنتجته قضايا البراهين، وشهدت التجربة به عن يقين، وقضت بصحته أحكام القوانين، في علاج الأمزجة اللطيفة وشرح الصدور، حمية الخاطر عن شواهد المكدرات، وتحلية الروح بأطايب المنعشات، وترويح النفس بعجايب المطربات، في اغتباق الأصايل واعتناق البكور وتسريح العيون وإطلاق النواظر في حدايق (ص٥٧٣) الربا والريضا النواضر، واستجلاء عرايس أدواحها الزواهر، واستنشاق شذى معطرات الزهور والإصغاء لنغمات ساجعات الحمايم، والاسترواح لنفحات ذاكيات النسايم، والاستنشاق لنسمات يانعات الكمايم، بالمغاني الزاهية على شاطئ النهور ومفاكهة الأحبا الأدبا الظرفا، ومنادمة الألبا النجبا اللطفا، ومحادثة الفصحا البلغا الحنفا، على سرر التهاني وبسط الزهور، واستماع ألحان المثاني ورنات الأوتار مع مطرب يشدو ببدايع الأشعار، ومجامر النَّد نافحة بعرفها المعطار، بمجلس الأنس ونادى الهنا والحبور، فإذا توفر هذا التدبير نجح العلاج، وتراجعت القوى ودام الابتهاج، واعتدلت الطبايع وصحَّ المزاج، ورقمت بشاير الشفا برق منشور، فأقسم يميناً صدقاً أبو النجاح، أن هذا هو في الحقيقة منعش الأرواح، وطارد الهموم وجالب الأفراح، وتقوى الأبدان الإنسانية سقنقور* فوصفه لمولى عزَّ قدراً وسما، ووضعه على ألطف قانون وسما، فصحَّ مزاجه

* السقنقور: دابة تنشأ بشاطئ النيل لحمها جيد.

اللطيف بعد ما كان صَدر الزمان بشكايته مصدور، وزال عن الدهر الترح والعنا، ولبس ملابس الأمن والمنى، وسكن روعه بوفود البشر والهنا، وأصبح بصحة **الرضوان** مستبشرا ومسرور وتلا آيات الشفا بألواح التهانى، وروى أحاديث الصفا بمسند الأمانى، ونشر ألوية الدعا مفتتحاً بالسبع المثانى، لجناب سيدِ عليه لواء السعد (ص٥٧٤) منشور، سيد لا يحاط بأوصاف قدره، عين المجد وغرة أعيان مصره، ودرة التاج وواسطة العقد بعصره، المتحلى ببدايع مدحه المنظوم والمنثور لازالت ثغور المسرة بواديه بواسم، ورياض المبرة بناديه العاطر بواسم، ولياليه وأيامه الزاهرة أعياد ومواسم، تختال تيهاً وفخراً على سالفات الدهور، قد أظلك سيدى هذا العام الجديد مبشراً بتوارد وافر النعم والعيش الرغيد، فلك البشرى بهذا الفأل الحسن الحميد، إذ يؤرخ بحصول الشفاء به عام السرور (وختمها بقوله):

روض التهانى أينعت أزهاره
وبدوحه نهر المسرة قد صفا
والدهر أهدى من علاه بشايراً
وبعهد إسعادِ وإيناسِ وفا
والمجد قد عوفى وصح مِزاجه
حيث القوى اعتدلت بقانون الشفا
وتلا الهنا آى الشرور بصحة
قد سُطرت منا بألواح الصفا
والعام أقبل بالسرور مهنئاً
ومؤرخاً يروى حديثا بالشفا

وقال فى سفينة أنشأها ذلك الأمير:

فُلك السعادة بالأفراح جارية
بيحر عز وجود طاب مسراها
وراية السعد فى أعلى الشراع زهت
بمجد رضوان سَرّ العينَ مرآها
(ص٥٧٥) ومطرب الأنس بالألحان أرّخها
سفينة بنسيم اللطف مجراها

وقال والمعنى يظهر فى الأبيات:

يا سيداً حاز الثنا
وله المعالى تصطفى
أنجزت وعدك منعما
وقضيت لى بتصرف
ووكلتنى لمباشر
كم ذا أراه موّفى
فانعم بإلزامٍ له
يقضى بغير توقف
لازلت تسعف راجياً
وتجود بالوعد الوفى

(وقال) يصف قصراً نمقه بالنقوش الزهية وهو المعروف بالحلى وذلك لقدوم الصدر الكبير وزير مصر أحمد باشا:

قصر له بديع الحكم إتقان
قد قام منه على الإبداع برهان

قــصــر تقــاصــر عنه قــصــر ذى يزن
فــمــا الســدير ومــا أنشــاه نعــمــان
قــصــر حكى لقــصــور الخلد طاب حلى
يقــضى له بحلى التــشــبــيــه عنوان
قــصــر زها تحــتــه الأنهــار جــارية
يميس فى ســـــرحـــــه الزاهىّ ولدان
قصر على النيل قد أبدى الفخار به (ص٧٥٦)
على الفــرات ومــا يحــويه سَــيْـحــان
قــصــر به نفــحت روحَ الهنا وشــدت
وُرْقٌ لهـــــا بفنــون الأنس ألحـــــان
قــصــر به الســعــد إذ حل الوزير به
فــهــو العــزيز وهذا القــصــر إيوان
قــصــر بهــمــة مــزهيــه شــواهده
قــامت وحــســبك هذا الحكم تبــيــان
قــصــر تســامى فــإن شــاهدَت منظره
فــأرّخَــتْــه حــلا مــزهيــه رضــوان

وقال يمدحه ويهنئه بمولود جديد، مقدما أمام نظمه منثورا يزرى بنظم الدر النضيد، وهو قوله:

«بشــرى لنــا بالتــهــانــى بشــرى، فــمــن أفــق الســعــادة شهدنا بدراً، قدم اليمن والسعد بوروده، ووافى السرور والأنس بوجوده، فقرّت النواظر بحديثه الحسن، وقرئت بمصاحف النعم آياتُ المنن، فياله مولوداً روّح الأرواح، وأقام بمولده مواسم الأفراح، فلنا بعواطف الرضوان موانح، ومن لطايف الامتنان أعطر نوافح، فالله يقر عين السيد بحياته، ويحوطه وإخوته الأمجاد بعظيم آياته، ويطيلُ عمر

حياته ويحييه، حتى يرى ولدَ ولدَ ولده يحييه،

آمين آمين لا أرضى بواحدة
حتى أقول لديها ألف آمينا

والنظم هو قوله:

لاحت لنا شمس السرور عيانا
فغدا الحجا بشهودها نشوانا
(ص٥٧٧) شمس لها فلك التهاني مطلع
بوفود من يسمو على كيوانا
يا حبذا يوم السعود بمولد
أضحى لأعياد الهنا عنوانا
وغدا ينادي والزمان مهنئاً
داعي الصفا ببشارة إعلانا
بشرى لقد جاد الزمان بمنحة
أرخ حبا بمحمد رضوانا

وقال يمدحه ويهنئه بمولد جديد

بشرى بها وُرْقُ السعود تغردُ
وهنا به شادي المسرة يُنْشد
والسعد بالعليا أقام مواسماً
بشهودها عيد المنى يتجددُ
وبدا صباح الحظ يزهو مسفرا
يروى أحاديث الصفا ويسند
وأضاء من أفق الحبور مطالع
إذ لاح من فلك المعالي فرقد

وتهللت غـــرر الزمـــان بمولد
وزهت بمولود عـــلاه أو حـــد
لاحت بغـرته البــهيــة بهجــةٌ
بشرى السعادة من حلاها تشهد
مــولى سـعـيـد بالذكـاء مـوشحٌ
ويجيده عقد السعود منضد
زاكى الموارد للمحامد جامع
زاهي المشاهد في المحاسن مفردُ
(ص٥٧٨) بشراه فالسر المصون يحوطه
وله على درج المعالى مصعد
يربى عـزيزا فى حجور كـواعب
بمهود إسعاد سناها أسعد
وله من المجد المؤثل رفعة
تسمو عُلا ومن المآثر سودد
صدقت فراسة ذى الحجا بنجابة
فعلى نجابته الخناصر تعقد
أنعم بمولود لرضوان العلا
سامي العلاء فسعده يتوقد
يهدى له العمر المديد بصحة
يحلو بها العيش ا لهنيُّ الأرغد
حيث التهانى مقسم ومؤرخ
بسما الهنا هذا السعيد محمد

وقال مادحا ومهنئا بعيد وشفاء
لك البشر يا عيد السرور بسيد
سما وعلا فى سعده فوق كيوان

فـهـاك منادى العـز فى باب مـجـده
ينادى بتـاريخ زهى عـيـد رضـوان

* رسائل أدبية من عصر الجبرتي.

وقال مهنئا بشفائه

مقدماً أمام شعره الرايق، نبذة من نثره الفايق، قوله: لقد أسمعنى سعدٌ حديث الشفا، بمحضر الأنس ومجمع إخوان الصفا، فشنّف الأسماع بدرره ورنح الأعطاف، إذ أرشفنى من كئوس المسرة أطيب سلاف، فطفقت من فرط السرور (ص٥٧٩) الذى جل عن الحد أنادى فديتك زدنى من حديثك يا سعد فهناك نفحت نوافح الأفراح، فعطرت الأرجاء وأنعشت الأرواح، وأزهر روض التهانى بزهور الامتنان فنعمنا منه بروح وريحان ورضوان، وجعلنا فى دوحه الزاهي البهيج رواه، وتغنينا بدوحه الذاكى الأريج ريّاه، وجلسنا على بسط البسط وسرر السرور، والتحفنا بمطارف* الطرف وحبر الحبور، وتفكهنا من جنى جناه بفواكه الإيناس، وشربنا من رحيق سلساله المروّح الأنفاس، وأطربتنا ورقْه الصادحة بنغمات المثاني، فوق أغصان المسرة فما مطربات المثالث والمثاني، وعطفتْ علينا عواطف العطف بالصفا، وروحتنا مراوح الراحة بنسيم الشفا، فانشرح الصدر طرباً وقرت العيون، وزال عن القلب ما به من ران الغبون* ، فالله الحمد على نعمة انجاب بها سحابُ الغموم، وهزم بشيرها بوفود أعلامه جيشَ الهموم، فأعظم بها منحة عمّت جميع الناس ببشرها، وأذهبت عنهم البأس والعنا بلطايف سرها، وأعادت أعياد التهانى تختال مرحاً، وثغر الزمان يبتسم سروراً وفرحا، فحق لهذا المحب أن يرفع أكف الابتهال إلى سما الإجابة تجاه قبلة الإقبال، أن يديم الله

* المطارف: أردية من خز ومفردها مطْرف بضم الميم وكسرها مع سكون الطاء وفتح الراء.

* الغبن: هو الحزن.

لجناب المولى الصحة والعافية، وأن يورده من مناهلها الموارد الصافية، لابسا من المجد الحلل المعلمة الطراز، متوجا بتاج السعادة والإعزاز، وأن يمد له من سرادق العليا الإطناب* ويرفع له فى أعلاها الأعلام والقباب، ما أهدت الطروس من طىّ طيبها نشرا، (ص٥٨٠) وما وافى البشير مؤرخا حباه صدق الشفاء بأطيبها بشرا، وشعره المشار إليه هو قوله:

وافى السرور فأذهب الأتراحا
وأقام فى نادى المنى الأفراحا
وأعاد أعياد التهانى عندما
بدرُ العلا بعد التحجُّبِ لاحا
فُتحت له أبواب أنس أغلقتْ
وغدا حِماها روْضه فياحا
نشرت بآفاق البلاد بشاير
نشرُ المنى من طيبها قد فاحا
بشرى روى عنها أحاديث الشفا
وتلا لها من آيها ألواحا
والعيد وافى بالشفاء مبشراً
قد ألبسته يدُ الجمالِ وشاحا
يزهو برضوان العلا متهللا
إذ حاز من لطف العلاج نجاحا
صحّت بصحته النفوس وأوضحت
شرح الصدور بمتنها إيضاحا
وتألقت أرجاء مصر وأزهرت
أدواحها بمسرة أفراحا
أنعم به مولى تسامى قدرُه
عمّت مدايحه رباً وبطاحا

* أطناب: بفتح الهمزة وسكون الطاء مفرده طنب بضمتين وهو حبل الخباء أو الخيمة.

ذو مظهــر بالعــز أُشــرق عــصــره
يحكى سناه كــوكــبــاً وضّــاحــا
دامت مـعـاليـه ودام سـروره (ص٥٨١)
وحـوى بمسـعـاهُ الجـمـيلِ فـلاحـا
ونوافح الأنس الذكى شـمـيـمـة*
تغشى حـمـاه عَـشيـتـه وصَـبـاحـا
فله الهنا ولنا الســرور بصـحـة
أهدت إلى روح العــلاءِ صــلاحـا
والحق مــانح والســعــود مـؤرخ
بسنا شـــفـــاه أنعش الأرواحــا

(واستِنسخ) الأمير الممدوحُ كتابَ روض الآداب، لكاتبه إبراهيم البلبيسى الذى هو عمدة لفنون هذا الباب، فعند إتمامه واختتام نظامه، طلب من مولانا صاحب الترجمة أن ينشىء له مقامة، تكون للكتاب ومحاسنه تميمة ومتممة، فأنشأ هذه المقامة وسماها «سحّ سُحبِ الأدب البديع المعانى، بسوح روض الآداب البديع الرضوانى» مبتدئاً فيها بقوله هذه الأبيات:

بشــرى حـــبــيت بروض آداب
باهى الرياض بنشــره ونظامــه
يختــال فــخــراً اذ تملك رقـه
رضــوان عــزّ عــزّ فى أحكامــه
وحــلا لابراهيم نســخــا أرخـوا
فـزهت مـبـاديه وحـسن تمامـه

حبذا روض الآداب الحسن البديع، المثمر بالبلاغة والمزهر

* شميمة: أى مشمومة.

بأنواع البديع، جرت مياه البراعة خلال سطوره، وتفيأت اليراعة تحت ظلال مسطوره، وتفتح زهر الفصاحة من كمايم مبانيه، ونفح أرج (ص٥٨٢) البيان من نسايم معانيه، روض ابتهج بالآلئ المنظوم والمنثور، وتدبج بأحمر الشقيق وأصفر المنثور* فهو بحالى الترصيع والتوشيع بهيج، وبغالي الترشيح والتوشيح أريج، فلله در سحايب قرايح اظهرت نَوْره، وأضحكت من أقاح أدواحه الزاهية ثغوره، روض قامت على أغصان ألفاته* . خطباء الأقلام، وصدحت على أفنان همزاته حمايم الأفهام، فغدا نزهة الناظر وفاكهة الخلفا، ومرح الخاطر ومفاكهة الأدبا والظرفا، فمن ظفر بهذا الروض وحل حماه، حبى طرف السرور من مغانيه ورباه، (روض) من ارتقى على أرائكه السنية الرفيعة، وتأمل في أوصاف محاسنه البهية البديعة، رأى بيوتاً سمت بالمحل الأرفع، وشرفت حيث أذن الله لها أن ترفع، ووجد في كل دوحة ثماراً يانعة مختلفة الأنواع، وأزهاراً شذى نوافحها مختلفة الأضواع (روض) حوى في زوايا خباياه كنوز ذخايره دراً منثورا ولؤلؤا منظوما، ياقوتا وجواهر وبه مسارح آرام ومراتع غزلان ومعاهد أنس وَشَّحَتْ بحسن واحسان، وفيه صادحات أطيار بألحان الهنا تترنم، تذكر أيام الصبا وتهيج أشجان الصب المغرم (روض) رويت أحاديث جماله بمحاضر السرور، وتليت آيات كماله بمجامع الحبور، فهو لعمرى مفرد جمع لجميع الفنون، فيه تنافست ذوو الحجا وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، فروح الروح في بهجة حواشيه، ووجه وجه الثناء لمالكه (ص٥٨٣) وحاويه (روض) الرياض الزاهية المشمرة الوريقة، ومنبع الغياض الذاكية المزهرة الانيقة، من تنسم أرواح الصبا طيباً بربع

* المنثورة: نبات ذو زهر ذكي الرائحة الواحدة منثورة.

* الألفات: بكسر اللام جمع الألف وهو أول حروف الهجاء.

علاه، وتبسم ثغور الحدايق إذا جرى حديث حلاه، حضرة الأمير الكبير رضوان كتخدا، لازال بالسبع المثانى محفوظاً من العدا (روض) أمر جناب حضرته العلية باستكتابه، فنسختْ له هذه النسخة الجلية وزفت إلى بابه، تحرّى الناسخ في نسخها ونمق أى تنميق، فجاءت مبدعَة على وجه حسن أنيق، تروّح الروح بنشرها وتجلى الناظر، وتشرح الصدر ببشرها وتحلى الخاطر، (روض) تحلى عقود الانتهاء حالية الانتظام، وتطيب من نوافح طيب مسك الختام، فى ابتداء غرة ربيع الأول المستطاب، عام تاريخه يزهو بكمال روض الآداب، فما أبدع هذا الاتفاق الحسن البديع، حيث جلى الروض علينا فى ربيع، (روض) أذكرنى بهذه المناسبة النفيسة، زمان الربيع وموارده المنعشة الأنيسة، إذ فيه تنفح الزهور، وتصدح الحمايم وتسلسل النهور، وتضحك الكمايم بطيب الوقت وتعتدل القوى، وتنبسط نفوس أهل الصبابة والهوى، شعر:

زمـــان الربيع زمـــان الســـرور
زمـــان التـــهـــانى وشـــرح الصـــدور
مـــهـــيج النفـــوس بنفح الزهور
وصـــدح الطيـــور وجـــرى النهـــور

(روض) حق له أن يفوح بطيب عرفه، ويفتخر (ص٥٨٤) ببديع جماله وكمال وصفه، حيث كان اسمه مجتنى من اسم الرضوان، فله مع التشريف والعزة روح وريحان، وكم اشتمل على نكات ظريفة، يفهمها أهل الذكاء والقرايح اللطيفة، (روض) تشرف الناسخ بتحريره، ممتثلا أمر سيده حيث أمر بتسطيره، داعياً له بدوام عزه وعلو مجده وتلألؤ

كواكب علاه بمشرق سعده، مصليا على من أوتي الكتاب المحكم، وآله وأصحابه الذين طراز كمالاتهم بالفصاحة معلم، شعر:

(روض) زها أبدى البديع بهيج
وحماه من طيب القريض أريج
(روض) به روح البراعة قد سرى
بلطيف سر بالسرور نسيج
(روض) به ورق الفصاحة غردت
بلحون نظم زانها التهزيج
(روض) حلى الآداب وشي طرازه
ببدايع منها لها تضريج
(روض) حلا وتفتحت أكمامه
عن زهر إبداع به تبهيجُ
(روض) زها بالإفتتان تلوّنا
فحلاه من تلوينه تدبيجُ
(روض) بأنواع الفنون مفوّق
وله بتوشيح الحلى تبريجُ
(روض) به لذوى الغرام تروّح
لكنّه نارُ للغرام يهيج
(ص٥٨٥)(روض) حديث الحُسن عنه مسلسل
وله بمسندِ ذى الهوى تخريجُ
(روض) حوى أوصاف حسن قد سمت حالي الموارد بالبيان مريجُ
(روض) الرياض حبى بعز رفعة
فسما فما لعُلاه قط نسيجُ
(روض) سما أن قد تفيأ ظله
رضوان عز من سناه بليجُ

(روض) الشجاعة والسماحة والندى
منه لتيجان العلا تتويجُ
(روض) تروّحت النفوس بطيب عطر مديحه ولسوقه ترويج
(روض) نضير والنضار ثماره
فيه يُرى التفريح والتفريج
(روض) نعمنا باجتناء زهورِه
وبظله الضافى يزول وهيجُ
(روض) له بالمدح أسعدُ بلبل
دوما له حُسْنُ الثناء هزيجُ
(روض) نَدِى مَهَّد له تاريخه
روض زها أبدا البديعْ بهيج

متع الله جنابه بروض العز والتهانى، مقتطفا منه ثمار الأنس وأزهار الأمانى يروِّحه فيه الصفا بنسايم الارتياح، ويشرحه البشر منه بصدح حمايم الأفراح، ممتداً عليه من الصحة سرادق، منشورا له فى آفاق العلا ألوية بالثنا خوافق، (ص٥٨٦) بجاه من اختاره المولى وله اصطفى، سيد الأولين والآخرين طه المصطفى، صلى الله عليه صلاة تليق بمقامه الأسنى، وعلى آله وأصحابه الناهجين مناهجه الحسنى، مع سلام موشى ببدايع النثر والنظام، مازهت المطالع بأحسن ابتداء مؤرخة فطاب الختام.

انتهت المقامة وما يليها وفيهما تواريخ خمس، كل منهما يشرح الصدر ويسر النفس، وقال مؤرخاً بناءَ بابِ العزب الذى جدّده الأمير المشار إليه وضمنه بيتاً من كلام السموأل.

لقد أشرقت شمس السعود ببابنا
فلا يعتريها بعد ذاك أفول

لنا المجـد إرثا والسـيـادةُ منصـبـا
ودولتـنـا العلـيـاء ليـس تـزولُ
(إذا سـيـدٌ منا خـلا قـام سـيـدٌ
قـؤول لما قـال الكرام فـعـول)(*)
وسـيد أهل العـصر رضوان كـتخـدا
أشـاد عـلاءً مـا إليـه وصـول
فلذ بـالحـمى مـذ أرخـوا وببـابه
فـهـذا حِـمـانا ملجـأ ومَـقـيلُ

وقال يمدحه بهذه القصيدة الربيعية، بل الدوحة المثمرة الشهية، وسماها نشر نوافح البديع ببشرى مقدَم الربيع:

بشـرى الربيع الزهي وافت بشـايرة
وعن حـلاه البـهي نمت سـرايره
ونشر روح الصبَا أهدى لنا خبراً (ص٥٨٧)
من طيبـه فـاح في الآفـاق عـاطره
ومـالت القـضْبُ والأطيـار قـد صَدَحتْ
وقـد تَبـسّم من عُـجب أزاهره
وجـاء في حُلة الابداع مـبتـهـجـاً
يخـتـال تِيـهـا به حـفت عـساكرُه
فـسـرَّ مـقـدمـه الحـالى أخـا شـجن
يهـيـجـه من مـعـانى الدَوْحِ ناضـره
وروحـه بمعـانى الحـسن قـد علقت
وفى صـفـاه فكم تسـعى خـواطره
وروضـة لنجـوم الزهر جـامـعـة
وزهرها مـفـرد في الحـسن سـايره

* هذا البيت للسموأل بن عاديا الذى ضرب به المثل فى الوفاء، فيقال: أوفى من السموأل. وهو من قصيدة أولها:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

إلى أن قال:

وننكر إن شئنا على الناس قولهم
ولا ينكرون القول حين نقول
إذا سيد مناخلا قام سيد
قؤول لما قال الكرام فعول
وما أخمدت نار لنا دون طارق
ولاذما فى النازلين نزيل

قـامت بهـا أمـراء الدوح خـاطبـة
مـقـام عـز تسـامى منه فـاخـره
رام الخـلافـة كلٌ إذ عـلا وسـمـا
من فـوق مِنْبَـرِه الزاهى منـابره
فـالورد قـام بدعـواها فـشـوكـتـه
قـوية حـيـثـمـا سُلّت خناجـره
والبـان وافى بتـاج الملك منتـصـبـا
وقـال من رامـه حكمـا أناظره
والأقـحـوان بدا يزهو ببـهـجـتـه
وحـولـه زمـرةٌ قـامت تناظره
والنرجس الغض يرنو نحـوها شـزراً
لأنـه طـالـب لـلـمـلـك نـاظـره
قـال الشـقـيق حـويتُ الفـخـرَ أجـمـعـه
والملكُ حقٌ الذى تسـمـو مـفـاخـره
(ص٥٨٨) وطال بينهـمـا دعـوى الخلاف إلى
أن قـام سنبلهـا الزاكى عـواطره
وقـال سلطـانـنـا الـورد السـنى ولـه
دعـوى الخـلافـة* لا تُعـصـى أوامـره
فكم له طيبُ نشـر عمّ عـابقـه
بمجلس الأنس إذ فـاحت مـجـامـرُه
وكم روينا أحـاديثـا مـسـلسلة
فى مـدحـه وبه طابت مـخـابره
فـعندها سلّمـوا للحق واعـتـرفـوا
بملكه المرتضى والله ناصـرهُ
فـاعلَنتْ ورقـهـا بالبـشـر قـائلة
سـقى رباك من الوْسـمىّ باكـره

* لعل الشاعر يشير هنا إلى اطماع الامير رضوان فى حكم مصر بالشكل الذى كانت عليه فى ظل حكم المماليك بأعتبارها مسكن الخليفة.

والدوح قد بُسطت فيه مطارفه
والروض قد رنحت حسنا قياصره
الزهر من فرحٍ أهدى النثار بها
لما سما الوردُ واستعلتْ مظاهره
حكى بمنظره الحالي ومخبره
صفاتِ رضوانِنا السامي زواهره
أمير مجد لنا تتلى مدايحه
مدى الزمان كما تروى مآثره
شهم وما غيرُ آسادٍ فريسته
من فرَّ يومَ لقاه فهو عاذره
تخاله الليث والمريخ في يده
إذا بدا جائلا والسيف شاهره
تعطل الجود من أزمانَ قد سلفت (ص٥٨٩)
والآن حقاً به قامت شعائرُه
روض نضير ولكن مثمر أبداً
غيث ولكن ندى عمّت مواطره
وكم له من علاً كالشمس مشرقة
لها يشاهِدُ باديه وحاضره
فكل ذي أدب أقلامه عجزت
عن مدحه بل وما وفَت محابره
يا سيدا قد علت بالمجد رتبته
عزا فما أحد فيها يناظره
انعم بأن ربيع حان مورده
تسعى إلى بابك السامي بشايرُه
واجلس حبيت بمغنى الحظِّ منتشقا
طيبَ الصفا فصبا الإسعادِ ناشره

وســـرِّح الطرفَ في مـــيـــدانِ نَضْـــرته
ترى من الحـــسنِ مـــا يبـــهـــيك ناظره
واســـمع حـــمـــائم أفـــراح به صـــدحت
عن لحنهـــا الموصلي كلت مـــزامـــره
واشـــهـــد لرناته السـبـع التي اشـتـهـرت
من يجـــتليـــهـــا بهـــا تزهو مـــحـــاضـــره
واغنم زمـــــان ربيع بالـســـــرور أتى
صـــاف مـــوارده حـــال مـــصـــادره
ولا تُضِعْ فـرصـة مـهـمـا ظِفـرت بهـا
واصـــغى لمن قـــال والممـــدوح ناصـــره
خـــذ من زمـــانك مـــا أغناكَ مـــغـــتنمـــا
وأنـت تـاه لـهـــــذا الـدهـر آمـــــره
(٥٩٠) ودم بروض العـــلا والعـــز منبـــسطا
بمطربات الـهـنـا يشـــــدوك طائره
تجنى بـه ثـمـــرات الأنـس يانعـــة
مع الســـرور ومن تهـــوى تســـامـــره
منعـــمـــا ببـــقـــا نجليك من بهـــمـــا
هذا الزمـــانُ لقـــد قـــرّت نواظره
فـــذو المعـــالي عليّ مـــصطفى حُـــفظا
يُهـــدى لكل من الأعـــمـــارِ وافـــره
لازال كلّ بأوج المجـــد مـــرتقـــيـــا
بطالـع العـــزّ والإســـعـــاد ناظره
واهنأ بعـــام ســـرورٍ إذ تؤرخـــه
ربيـــعـــه المزدهي فـــاحت عـــواطره

(وهذا) آخر ما انتقيته من كلامه ونقلته من المدايح

الرضوانية، ومن مؤلفات المترجم ورحلتُه المسماةُ بموانح الأنس برحلتي لوادى القدس. توفي المترجم سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف .

٢٦٢ محمد سعيد بن محمد الحنفي السمان.
ت/ ١١٧٣ هـ / ١٧٥٩م.

[ومات] أديب الزمان، وشاعر العصر والأوان العلامة الفاضل شمس الدين الشيخ/ محمد سعيد بن محمد الحنفي الدمشقي الشهير بالسمان، ورد إلى مصر في سنة أربع وأربعين ومـاية وألف فطارح الأدبا، وزاحم بمناكبه الفضلا، ثم عاد إلى وطنه، وورد إلى مصر أيضاً في سنة اثنتين وسبعين وماية وألف، وكان ذا حافظة وبراعة وحسنُ عشرة، وصار بينه وبين الشيخ عبد الله الإدكاوى محاضراتٌ ومطارحات، وذكره في مجموعه وأثنى عليه وأورد له من شعره (ص٥٩١) كثيرا، ومما انتقيته من مختار أقواله قوله:

وليلٍ نامت الرقباءُ فيه
وقد أمنوا الوصالَ لطول هجرى
وزار معذبى من دون وْعد
ولم يك وصلهُ منى بفكرِ
فقمت لملعب الهمْيان* أخطو
لأهصُرَ غُصنَه من دون صبرِ
فلم تر مقلتى إلا وشاحاً
تراءى حائلا من دون خصر

وله أيضاً:

وما أنا بالناسى وقد خيّم الدُجى
ووافى الذى أهوى ولمَ يُثْنه ذُعر

* الهميان: كسر الهاء وسكون الميم حزام يشدّ على الوسط توضع فيه الدراهم أو هو ما يُشد به السروال، وقول الشاعر (ملعب الهميان) يقصد به الخصر الذى يتحرك حوله الحزام أو الشداد.

وبتنا بحـــالٍ لم يَرُعْنا مـــؤنَبٌ
وراح يعـاطينى ومـا ابتـسم الفـجـر
سـلافـةَ ألفـاظٍ وجـريال* مَـبـسـم
وخـمـرة ألحـاظ لذا التـبس الأمـر
فلم أدر أىّ أسكر العـقل رشْـفـا
ولم أدر أىّ غـاب عنى بهـا الفكرُ

* الجريال والسلافة معناهما الخمر.

وله هذا المعنى الذى لم يسبق إليه:

يقـولون لى لما بدا العـارض الذى
به غـيض مـاء الحسـن من وردة الخدّ
نراك أطلتَ الصـمتَ فـينا ولم تكن
مـعـانيك إلا الدُّر يرفض* من عِـقـد
أمـا عَلمـوا أن العنادل* فـى الـرُبـا
سكوت إذا مـا فـاتهـم زمن الـورد

* يرّفضّ: بتشديد الضاد أى يتفرق وينتثر.
* العنادل جمع العندليب وهو طائر حسن التغريد.

(ص٥٩٢) وله أيضاً:

ألا رُبّ لـيـلٍ عـلـى غـفـلـةٍ
مـن الـدهـر جـادت بـرغـم الخلى
فـتـاة سـبـتـنى بحكم الهـوى
بـجـفـن عن الفـتـك لم يغـفـل
إلى أن بـدا الفـجـر من شـرقـه
يـلـوح لـدى الأفـق كـالمنـصـل*
فـأرْخَتْ أثيـثـا* عـلـى بـانـة
أعـاد لـى لـيـلـى مـن الأول

* المنصل: بضم الميم وسكون النون وضم الصاد أو فتحها السيف.
* الأثيث الشعر الملتف الكثيف، والبانة القد الطويل المياس والمعنى (أسدلت شعرها على قدها).

وله أيضاً:

وليلٍ تعــاطينا به أكــؤسَ اللّقــا
ومــدّعلى مــا بيننا حُللَ السَّــتـرْ
يلاصقُ منا الكشحُ كـشـحـاً* منعْـمـاً
ونقـرع من فـرط الهـوى الثغـرَ بالثـغـرِ
ومــا راعنا فــيــه حــديثُ وُشــاتنا
ومـا نظرتْ شـزْرًا* ســوى أعينُ الزَهر
فــافنيــتــه ضــمْــاً ولثْــمــاً ولم تزَلْ
يداى بما أبغى نطاقــا على الخــصْــر
إلى أن بدت من مــفــرق الشــرقِ غـرة
أطارتْ غــرابَ الليل عن ذلك الوكــر
فكفَّ يدى عن خــيـــزرانة قـــدره
وولى وفى أعطافــه نشــوة السكر
وقــال وقــد أتبــعــتُــه نظرة الأسى
أوالقـيت كـفــاً للوداع على الصــدر
لا لابدا صــبح يريع مــتــيــمــاً
ولا انجــاب ليل فى الورى كــاتم الســر
فلست أرى كــالليل أســتــرَ للهــوى
ولست أدرى شــيــئــاً أنم من الفــجــر

ولـه مضمناً: (٥٩٣)

كم قلت للبــدر والأجــفــان تلعب بى
أهلوك بالفــتك كم يسطو على المهج
فـقــال والدر يبــدو من مــبــاســمــه
هم أهل بدر فــلا يخــشــون من حــرج

وله من قصيدة:

* الكشح: ما بين السُرّة ووسط الظهر من الجانبين.

* شزراً: بفتح الشين وسكون الزاى، هو نظر الغضبان بمؤخر عينه.

أأشكوكَ الغـــرامَ ومـــا أقـــاسى
وقلبك يا مـــذيقي الهـــجـــرَ قـــاسى
وفى طي الجـــوانح جـــمـــر وجْـــدِ
يؤجـــجـــه التـــذكـــر والتناسى
أبانات اللوى عن سُـــحبْ عـــينى
سـقـــاك الريُّ من دون احـــتـبـــاسى
فكم لى فى ظلالك من مـــقـــيـل
تـفـــدّى أهـله منى حـــواسى
أقـــمـت به وشـــاطئ واديه
مـــلاعب جـــؤذر وظبـــا كِـناسى
فـــمـــا للعين لم تـنظر طلولا
ولا رســـمـــا يدل على أســـاس
أمـــا هذى الديار ديار ســـعـــدى؟
أمـــا هـذى المعـــالـم والرواسى؟
أأحـــلام أرى أم عن حـــقـــيق
تقـــوضت الخـــيـام بلا التـبـــاس؟
نعم هذى المعـــاهد والمغـــانى
فـــأين بدور هـاتيـك الأنـاس؟
فـإن أقـــوت* فـهل لى من سـبـيل
إلى صـــبـــر يعلل مـــا أقـــاسى
(ص٥٩٤) وإن عهدى على اللأوا تناسوا
لعـــمـــرى لست عـــهـــدهم بناسى
أأبـكـى أم أجـــاوب فـى أنـيـنـى
حـــمـــائمَ فى الدياجى لى تؤاسى
أسـاجلها فـتـعـرب عن شـجـونٍ
وتبـــريح على غـــيـــر القـــيـــاس

* أقوت: أى خلت.

أتعـجب أن قـضـيتُ هوى ووجـدا
وجـانبـت المؤانـس والمواسـى؟
وأنى فـزت بالقـدْح المعلىّ
وبُلّغت المنى من بعـد ياسى؟

وقال يمدح السيد على افندى المرادى مفتى الشام:

برِح الخـفـاءُ فـلا الغـيور يقـيك
كـلا ولا بيض الحـمى يحـميكِ
إلا الذى من سـقم جـفنكِ ينتـضى
وتراه يُغـمـد فى حـشـا داعـيك
أيس الهـوى من أن يجن بخـاطرى
ذكـر السلو فـعـاد بى يغـريك
فـتـحكمى فى مـهـجـتى وتهكمى
فـيمن غـدا بعـيونه يفـديك
إن كنـت عـالمة بما فـعل النوى
عـنـد الوداع بـه فـذا يكـفـيك
دنـف إذا ضـرب الـدجى أطنابه
وصـل الأنين برنة تشـجـيك
وإذا انقضى برق العقيق حسامه (ص٥٩٥)
هاجت لواعـجـه لمبـسم فـيكِ
وإذا الهـديل تجـاوبت أصـداؤه
جـزعـا على مـا ناله يبكيك
لبس الجـوى بردا فـأخلقـه جـوى
حـتى رثى لسـقـامـه واشـيك
فـإلامَ يكتم لوعـة فى ضـمنهـا
جـمـر يَشُبُّ بدمـعـه المسـفوك

ويرى ركـوب الصـعب فى نهج الهـوى
هينـا ولا التـمـويه عـن ناديك
فـسلى جـوانحـه التى قـد صـيـرت
مـشـواك هل فى ذاك من تشكيك؟
كم وقـفـة دون الكثـيب رمى بهـا
نـظرا أطال بـه التـفكر فـيك
حـيـران من أسف يعض بنانه
حـذرا عليك مـواقع المأفـوك
لـم يثـنـه عـن رشـف ذيـاك اللـمى
إلا اجـتنـاب الـظـن مـن أهليك
حـجبـوك لا بالرغم عنه ولو دروا
أن الحـشـا مـأواك مـا حـجـبوك
أوقـات وصلك لو بأيام الصِـبـا
والروح تشـرى مـا أبى وأبيك؟
إيان من طرب يصـون مسـامـعـا
عن غـيـر خُـرْس الحى من هاديك
والبـيض من فـوق الخـدود طوالع
والحى مـأهـول الحـمى يذويك
(ص٥٩٦) مرّت فـمرت بعدهن حياتُه
بل شـمـسـهـا قـد آذنت لدنوك
يا سـالما مما يكابد فى الهـوى
لا تسـألنْ عن خـبـرة المهلوك
وصلـوا ومن خلف المطى فـؤادُه
تستن قـصـد سـبـيلهـا المسلوكِ
فـبكل وادٍ من نوافح طيـبـهـم
أرج وكـل قـرارة وسـمـوكِ

فكأنهم بثنا المرادى* قد غدوا
يتضرعون إليه بالتبريك

* المرادى: اسم الممدوح.

إلى آخر ما قال، وله من قصيدة

سلوا طيفها أين استقلت نواحيها
غداة النوى لما ترنّم حاديها
وحيعل داعى البين خلف ركابها
وباتت بنات الشوق تحمى مآقيها
وأعرض بشر دوننا وهضابه
وأوغر صدَر الصبِّ جمرُ تنائيها
فلا تُنكرى يا بَثن* موقف ذلتى
بدار عفتْ أطلالها ومغانيها
على مثلها المفئود من حُرق النوى
يذيل مصونات الدموع بواديها
تنكر بعد الظاعنين نسيمُها
وأقفر من ذكر السواجع* ناديها
فلم يبق إلا رسمها فكأنه
سطورٌ عن الأفهام رقت معانيها
(٥٩٧) ومغنى عناق* فى همود دوارس
وشسع* غدا قلبُ المتيم يحكيها
فحييتِ داراً بالأوايد آنست
من الآنسات الغيد زهر روابيها
تكاد على الإقْواء* تزداد بهجة
لزائرها لولا ترحُّل أهليها
لئن أنهجتْ آثارَها راحةُ البلى
فمن مهجتى لم يمح كنهُ معانيها

* البثنة: الأرض السهلة اللينة، وبها سميت المرأة بثنة، وبتصغيرها سميت بثينة. والبثنية بلاد بالشام كذلك.

* السواجع: مفردها ساجعة وهى الحمامة إذا ردّدت صوتها.

* مَغنى عناق: أى المكان الذى كان آهلاً يسعد أهله باللقاء والعناق أصبح هامدا قفراً دارساً لا حياة فيه.

* شسع: الشسْعُ أصلها ما يشد به زمام النعل، والمقصود أن قلب المحب أصبح ممزقا مثل هذه الشِسع.

* الإقواء: بمعنى الإقفار.

وليلةَ أعـــملتُ الرواسم للسُـــرى
كــأنى ســمــاها والنواحى دراريهـــا
أخــوض الدجى والدجن* يطغـو عبابه
فـيـرقم أطراف السبـاسب* هامـيـهـا
إلى أن رمت أحــداج حــزوى بنظرة
ولاحت لهــا أطلالُهــا ومــغـانيـهـا
طرحت خـبـاء الحى والقـومُ شُـرَّعت
مـخـافـة إلمامى صـدورَ عـواليـهـا
ولست بمـذعــــور الجنان من القنا
ولم أخش آســادَ الشـرى وضـواريهـا
سـوى لحظاتِ الغـيـد يحتـمل الفـتى
وليس يذودُ الصـبـرَ غـيـرُ تجنيـهـا
ولولا مــقــالُ الكاشـحين يُريبنا
محـوتُ اللمَى الممنوع باللثْم من فيـها
ومـــا راعنى إلا الوداعُ وقـــولهُـــا
أتعتـاض عن ذكـر الظبـا بتناسيـهـا؟
أما بابنةِ الطائي وموقف ساعة (ص٥٩٨)
بمنعــرَج الجـرعــاء مـازلتُ أبكيــهـا
ســأذكــرها حــتى الممــاتَ إن أمتْ
فـعظمي في الاجـداث يندب هامـيـهـا
فَـمَنْ مـبلغ قـومي وجـيـرانَ أسـرتي
إذا هدأت ليـلاً عـيــونُ أعــاديهـا
بأني بحـــمــد الله فى ذروة العـــلا
بكف المنى أجنى زهور تهــانيــهـــا

(ولـه مـن أخـرى) يمـدح بهـا بعـض الأعـيـان وهو

* الدَّجْنُ: المطر الكثير. ويطغو بمعنى يجاوز الحد.
* السبسب: المفازة أو الأرض المستوية البعيدة والجمع سباسب.

علي أفندى المرادى:

لمن فى سراها أنحلتها* الدكادك*
يحن اشتياقى والنجومُ شوابك
إذا أدلجت قاد الهوى بزمامها
وإن صوّبت هانت لديها المسالك
وإن أنجدت طارت بغير قوادمٍ*
وإن أتهمت فهى الرياح السوابك
فماذا على تلك الحُداة لو انهم
أناخوا بها حيثُ السيوف البوانك؟*
وحيث الحمى يحمون بيضة خِدره
أسودٌ بأيديها تُهزُّ النيازك*
وكل كمى لا يرى العمر مغنما
وكل أبىٍ لم ترعه المهالك
يخوض مثار النقع والعزمُ عابسٌ
ويطعن ما بين الكُلى وهو ضاحكُ
ويغدو عليه من دم القوم حلةٌ
لها السمهريات الدقاق خْوابكُ
(ص٥٩٩) ولكنّ فيه من ظِبا ذلك الحمى
ظبا جردتهن الجفونُ السوافكُ
فمن كل رَوْد* لو بدت فى نقابها
لأبهتَ ذو رشد وأُفتن ناسكُ
تُلاعب فى أعطافها نشوةُ الصبا
كما لاعبت غصنا رياحٌ ركائك*
وتُبدى محيا فى أثيث* مجعد
كما البدرُ أبدته الليالى الحوالك

* أنحلتها: أى أنهكتها.
* الدكادك: جمع مفردها دكدك بفتح الدالين أو كسرهما ومعناها الأرض الرملية المستوية.
* قوادم الطير: أى أجنحته ومفردها قادمة، أما قوله أنجدت الريح فمعناه صعدت إلى مكان مرتفع وعكسها اتهمت الرياح أى انخفضت.
* البوانك: القواطع.
* النيازك: جمع نَيْزَك بفتح النون وهو الرمح القصير وهى فارسية.
* الرُوْد: الشابة الحسنة.
* ركائك: أى رقيقة ضعيفة.
* أثيث: الكثير الملتهب والمقصود به شعرها الأسود حول وجهها المضىء.

فتفتك منها في الخدود عيوننا
وفي قلبنا الحاظها الفواتك
على أنها لورام طيف خيالها
أخو وهم عزّت عليه المداركُ
من اللاء لولا قُرْطها ووشاُحها
لقلت مهاة إذ عَرتْها السنابك
تملكن حبّات القلوب كأنما
عليٌّ لها بين البرية مالك
أغرُ غدا يغنيك لألاءُ وجهه
عن الشمس حتى تنثني وهي دالِك
ذَنوب كان المجد ذاتٌ وروحه
معاليه والصيد الكرام حوارك

وقال يمدح الأستاذ محمد بن سالم الحفنى قدس الله سره

عُجها على تلك الربوع الهمّد
واسأل معالمها لعلك تهتدى
وقف الرواسم بالرسوم معللا (ص٦٠٠)
قلبا لواعج شوقه لم تَبردِ
وانثر لآلى أدمع ضنت بها
عيناك إلا للخليط* المنجد
فالطالما فيه أطعت صبابتى
ونبذت ظهْرياً مقال الحسّد
طلل وقفت على صُوى* أرباضه
أبدى الحنينَ إلى ظباهُ الشرّد
وأدرت طَرْفىْ وامق لعبثْ به
بُرَحُ البعادِ إلى أسى لم يُعهد

* الخليط: هو المخالط للشخص أى جليسه ونديمه وصديقه.

* صُوَى: جمع صُوَّة وهى الحجر المرتفع الذى يكون دليلاً وعلماً فى الطريق.

وبكيتُ من حـــزن بمقلة حـــائرٍ
أسفٍ إلى أحـــبـــابه لم يُرشـــد
ولثـــمتُ آثار الظعـــائن ريثـــمـــا
اطفـــاتُ بعض غليلىَ المتـــوقـــد
وطفـــقت أخـــتـــبط الدجنة والهـــوى
يقـــتـــادنى نحـــو المقـــيم المقـــعـــد
لا صـــبـــر لى عنهم يقـــينى حـــســرة
أخـــفـــيـــتـــهـــا خـــوف اطلاع مـــفـــند
ناشـــــدتكم يا زاجـــــريهـــــا أنتم
ســـرتم بهـــاتيك الظبـــاء الخـــرد*
كـــيـف اســـتطعـــتم أن تروا مـــثلى على
مـــا تعـــهـــدون وتذهبـــوا فى الفـــدفـــد*
وتضـــيـــعـــوا وداً عليـــه عـــقـــدتم
عـــقـــد الخناصـــر إنه لم يجـــدد
هلا رثيـــتم واصـــطنعـــتم عنده
قـــبل الرحـــيل يدى شـــفـــيق مـــســعـــد
(ص٦٠١) أرأيتكم أين استقروا بعد ما
سلكوا خـــروق مـــواقـــف لم تـــســدد
ضـــربوا الخـــيـــام على ثنيـــة ضـــارج
ورضـــوا بجـــرعـــاها وذاك المعـــهـــد
حـــتى اســـتطاب ترابَهـــا فـــتـــخـــذته
لجـــفـــوننا كـــحـــلا مكان الإثمـــد*
ومن العـــجـــايب أن أرى مـــســـتـــخـــبـــراً
عـــمن ثوى بصـــمـــيم قلبى المكمـــد
وإذا أرادوا يكتـــمـــون مـــســـيـــرهم
نمت نوافـــحـــهم ولم أســـتـــرشـــد

* الخرّد: جمع خريدة وهى البكر.

* الفدفد: الفلاة.

* الإثمد: بكسر الهمزة حجر يكتحل به.

يا مـودعـا بملامـه جـمـر الغـضـا
بجـوانحي فـاقـصـر مـلامك أو زدِ
أنا من علمت ومن إذا ذكـر الهـوى
فـاربط يديك على ولاه وأشـدد
سل عن فـؤادى أعين العين التى
أسـيـافـهن بغـيـره لم تغـمـد
مـذسـار خلف ركـابهم يوم النوى
وبقـيت مـبـهـوتا وأسـقط فى يدى
كـيف التـصـبـر والحـيـاة لمدنف
لم يبق غـيـر ذَمـائه* المتـردد
مـا كنت يا ذات الجناح بعـالم
أن الوداع للوعـتى وتسـهـدى
وأراك تبكى في الغـصـون وتشـتكى
ألم النوى إن كنت مـثلى فـاسـعـد
افـتندبى شـجناً والفك حـاضـر
فلقـد أسـأت وإن أسـأت فـعـدد
(ص٢٠٦) مـا أنت ممن قـد أطارَ فـؤادَه
داعى النوى وجـفـاه طيبُ المرقـد
أين النحـول وأين أحـمـر أدمعٍ
تجـرى وجـمـرة مـهـجـة لم تخـمـد
دْعنى فـإنى لست أولَ عـاشقٍ
قـتل الغـرامُ ولا قـتـيل لم يُدِ
حـزنى عليك يزدنى قلقـا على
مـا أودع التبـريح فى القلب الصدِى
حـتى الجناح فـأنتِ خـيـر طليـقـة
وأنا الذى بالوجـد خـيـرُ مـقـيـد

* الذماء: بفتح الذال بقية الروح.

ودعى الصبابة جانبا وترنمى
بحديث من أهوى ومدح محمد
العالم اللسن الذى أوصافه
بعبيرها تغنى عن الروض الندى
ومن ارتدى برد المحامد يافعا
وتلفع الحسنى بأزكى محتد
وسرى على النهج القويم ولم يزُغ
حتى ارتوى عن عذب ذاك المورد
وصفت مواقع ذكره فتقاصرت
عنها النهى من كل نَدْب أحيد
وحوى خصائل نافست زهر العلا
حتى علتْ نجم السها والفرقد
وسما على الأعلام من أهل الهدى
بمآثرٍ غَرًا وحسنٍ تودد
(٦٠٣) كم مشكلٍ قد فك ربقةَ عُسره
ببداهة تزرى بحد مهندِ
ولكم دقيقةِ معضلٍ وافى بها
شنفا لاذن السامع المسترشد
ولكم له فى كل علمٍ غامض
سفّر تناهى فى الكمال المفردِ
أدبٌ على النقاد دُر حديثه
متناسقا كاللؤلؤ المتنضد
ومباحث ما السعد فى اتقانها
ومقاصد تزرى بقول السيد
فإذا علينا قد أدار مُدامه
غنيٍ عن البكر الشمول الصرخد*

* صَرْخَد: موضع نسب إليه الشراب.

خلع الدنا* متمسكا بعرا التقى
وبكل أمر بالشريعة مقتدى
وسرى على سبل الهداية مرشداً
من أمه بوسائل لم تَبعد
فبوجهه يغنيك عن شمس الضحى
وعن الغيوث ببحر كف مزيدِ
فالفضل منحصر به أما السوى
فمقلد لعلاه فاسمع تسعد
والجود من جدواه يعرف كنهه
والدين والتقوى بدون تردد
فانظر إلى رجل تجسم من علا
ورفيع مجد فى الأنام وسوددِ
يا مالكا منا الأنام بلطفه (ص٦٠٤)
وبحسن ما يروى وأنضر مشهد
لك ما تروم من الزمان وبره
فوق المراد وكل عيش أرغد
ما فيك إلا ما يقر قلوبنا
وعيوننا ويسر كل مسوّدِ
واليكها ممن غدت أفكاره
نهب التنائى والزمان الأنكد
جاءتك تعثر فى ذيول خجالة
وتدير طرف الحائر المستنجد
فلئن رأتْ منك القبول فحسبها
فخراً وطيبَ تودد وتعهد
حوشيت أن تغضض وشيمتك التى
غير الكمال الصرف لم تتعود

* الدُنا: جمع الدنيا بضم الدال فيهما.

وأبيك لو وزنوك عندى فى الورى
لوزنتهم وإذا شككت تعمد

ومن كلامه:

لا أريد الوصال بالمنّ ممنْ
أنحل الجسم بالجفا والدلالِ
إنما دائما له أتمنى
فتمنى اللقاءِ نصف الوصالِ

وله:

لا تكرر لحظاً إذا خلتَ وجها
ذا جمال وبهجةٍ وبَهاءِ
واغضض الطرف مثل ما أمر اللهُ
فتكرير اللحظ نصفُ الزناء

(ص٦٠٥) ثم توجه إلى الشام وبها وافاه الحمام، ودفن بالصالحية سنة ثلاث وسبعين وماية وألف.

[ومات] الشيخ الصالح الشاعر اللبيب الناظم الناثر الشيخ/ عامر الأنبوطى الشافعى، شاعر مفلق هجاء لهيب شرارة محرق، كان يأتى من بلده يزور العلماء والأعيان وكلما رأى لشاعر قصيدة سايرة قلبها وزنا وقافية إلى الهزل والطبيخ، فكانوا يتحامونْ عن ذلك، وكان الشيخ الشبراوى يكرمه ويكسيه ويقول له يا شيخ عامر لا تزفر قصيدتى الفلانية وهذه جائزتك»، ومن بعده الشيخ الحفنى كان يكرمه ويغدق عليه ويستأنس لكلامه، وكان شيخاً مسناً صالحا ٢٦٣ عامر الأنبوطى.

١١٧١هـ.
١٤٧٤ق.
١٧٥٧م.
غاية الفيضان: ١٢ قيراط / ٢٢ دراع

- في ١٦ محرم/ ١ أكتوبر، كانت وفاة السلطان عثمان خان الثالث ابن السلطان مصطفى الثاني، وله من العمر ٦٠ سنة، حكم منها ٣ سنين و١١ شهرا، ثم تسلطن بعده، في يومها، السلطان مصطفى خان الثالث ابن السلطان احمد الثالث.
- ١ يناير ١٧٥٨ = ٢٥ كيهك ١٤٧٤ = الأحد ٢٠ ربيع الثاني ١١٧١.
- فيها ضرب ميدى وزنه يقرب من عشر درهم وعياره النصف فضة تقريبا، وقيمته ٣,١ سنتيم.
- فيها عزل على باشا حكيم أوغلي، بعد أن حكم مصر سنتين، وتولى بعده محمد سعيد باشا.
- فيها نقص وزن الزر محبوب، فصار كل مائة محبوب ٨٤ درهما.

مكحل العينين دائماً عجيباً في هيئته، ومن نظمه ألفية الطعام على وزن ألفية ابن مالك وأولها

يقـــول عـــامـــر هو الأنبـــوطي
أحـــمـــد ربى لست بالقنوط

ويقول:

وأســـتـــعين الله فى ألفـــيـــه
مـــقـــاصـــد الأكل بهـــا مـــحـــويه
فـــيـــهـــا صنوف الأكل والمطاعم
لـذت لـكـل جـــــايع وهـايم

إلى أن يقول:

طعـــامنا الضـــانى لذيذ للنهم
لحـــماً وسـمنا ثم خـبـزاً فـالتـقمْ
فـــإنهـــا نفـــيـــســـة والأكل عمْ
مطاعـــمـــاً إلى سناها القلبُ أمْ

ومنها:

والأصل فى الأخباز أن تقمرا (ص٦٠٦)
وجـــوزوا التـــقـــديد إذ لا ضـــررا
فامنعه حين يستوى الخرفان

(ومن) كلامه قصيدة أيضا على وزن لامية العجم منها:

أناجـــر الضـــان ترياق من العللِ
وأصـــحنُ الرز فـــيـــهـــا منتـــهى أملى
أكلى غـــدا وأكلى فى العـــشـــا على
حـــدٍ ســـوِىّ إذا اللحم الســـمين قُلى

فـيم الإقـامـة بالأرياف لا شِـبـعى
فـيـهـا ولا نزهتى فـيـهـا ولا جـذلى
ناء عن الأهل خـالى الجـوف منقـبض
كـمـعـدمِ مـات من جـوع ومن قَـشل
فــلا خليل بدفعِ الجــوع يرحــمنى
ولا كــريم بلحمِ الضــان يســمح لى
طال التلهف للمطعــوم واشــتـعلت
أحُـشـاشـتى بحـمـام البـيت حين قُلى
أريد أكــلا نفــيـــســا أســتـعين به
على العــبـادات والمطلوب من عــملى
والدهر يفــجع قلبى من مطاعــمــه
بالعـدس والكشك والبـيـســار والبـصل
ناديت هيــا ولا تبطى بغــرفك لى
فــإنه خُلق الإنســان من عـــجَلِ

إلى آخرها (وله) على وزن لامية ابن الوردى (ومنها):

اجتنب مطعوم عدس وبصل (ص٦٠٧)
فى عــشــاء فــهــو للعــقل خــبلْ
وعن البــــيـــــســـــار لا تـعن به
تمس فى صــحـــة جـــسم من علل
واحــتــفل بالضــان إن كنت فــتى
زاكى العـــــقل ودع عـنك الكسل
من كـــبـــاب وضلوع قـــد زكـت
أكلهـــا ينفى عن القلب الوجلْ

إلى آخرها.

ومن كلامه على وزن كلام ابن عروس:

أكلك من الضان رطلين
يزيد قلبك نفاسه
وابعد عن الكشك يا زين
ذا الأكل منه تعاسه

وأيضاً:

أكل المطبق مع الفجر
بالشهد والسمن سايح
إللى يحبه له أجر
فى جنة الخلد رايح

وأيضاً:

يا طابخ الضأن إشتد
واغرف أوانى وسيعه
عامر أتى لك وله يد
فى الأكل ديما سريعه

وأيضاً:

العدس والكشك والفول
الأكل منهم شماته
يصبحوا الشب مخبول
قُطعوا الجميع التلاته

وأيضاً:

أوصيك لا تأكل الفول
يورث لقلبك قساوه

تقطع نهـــارك كـــمــــا الغـــول
تـايه وعـنـدك غـــــــشـــــــــاوه

وأيضا: (ص٦٠٨)

خـــشــــاف مــــشـــمش وعناب
الـشـــــــــــرب منـهـم دوايـه
من بعـــــد مـــا كلْ كـــبـــــاب
يـا رب حـــــــقق رجـــــــايه

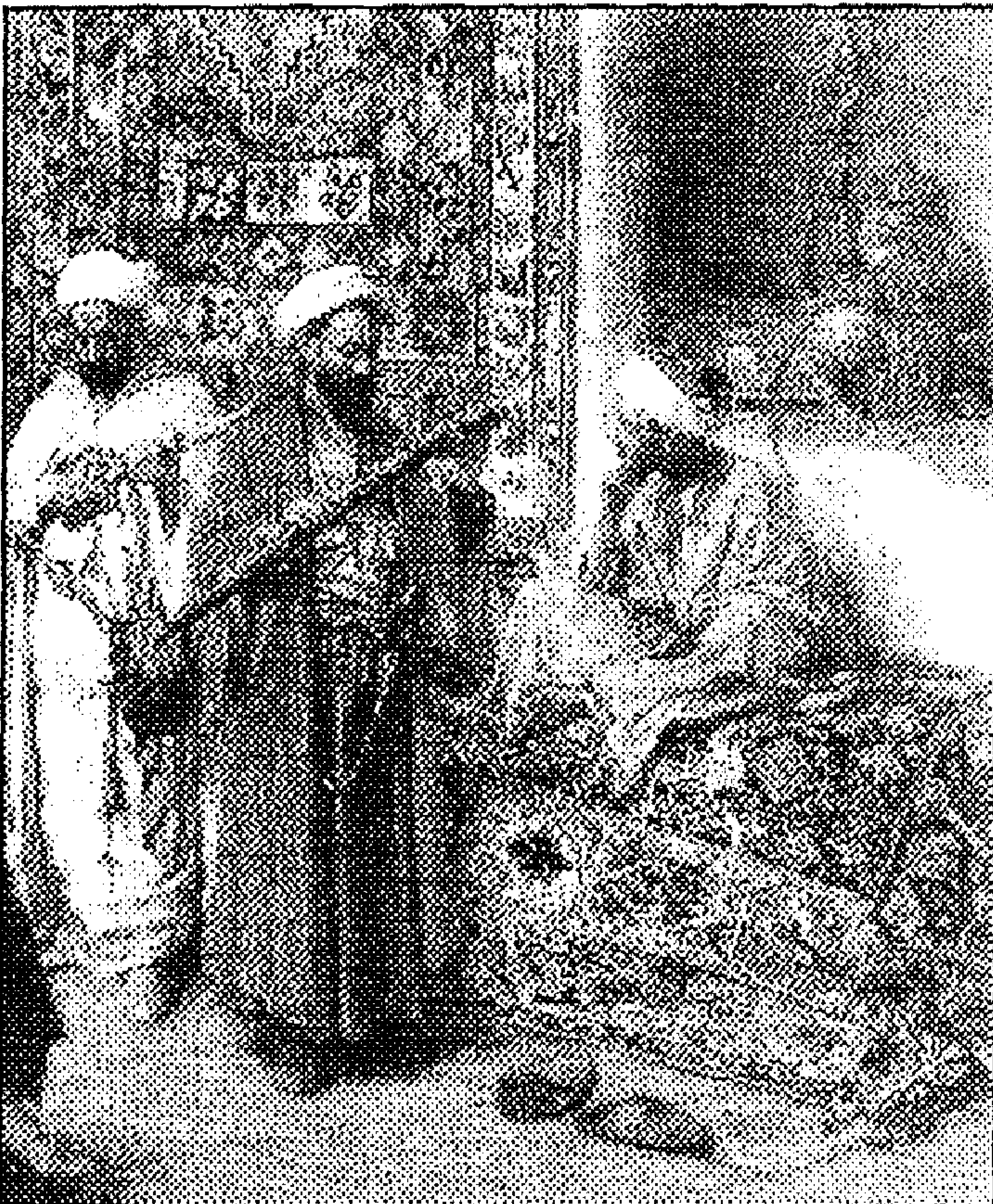
٢٦٤ عمر بك رضوان ت/ ١١٧١ هـ = ١٧٥٧م.

[ومـات] الأمـيـر الكبـيـر/ عـمـر بـك ابن حـسـن بك رضـوان وذلك أنـه لما قـلد إبراهـيم كتخـدا تابعه علـى بك الكبـير إمارة الحج وطلـع بالحجـاج ورجـع فى سنـة سبـع وستين ومـاية وألف، ونزل عليهم السـيل العظيـم بظهـر حمـار، وألقى الحجـاج أحمـالهـم إلى البحـر ولم يرجـع منهم إلا القليـل، تشـاوروا فيمـن يقلدونـه إمـارة الحج فاقتضى رأى إبراهيـم كتخـدا توليـة المترجم وقد صار مسناً هرماً فاستعفـى مـن ذلك فقـال له إبراهيـم كـتـخـدا «إمـا أن تطلـع بالحج أو تدفع مـائتـى كـيس مسعـدة» فحضر عند إبراهيم كتخدا فـرأى منـه الجـد فقـال «إذا كان ولابد فإنى أصرفها وأحج ولو أنى أصرف ألف كـيس» ثم توجـه إلى القبـلة وقال «اللهـم لا ترنـى وجـه إبراهيم هذا بعـد هذا اليـوم إمـا أنى أمـوت أو هو يمـوت» فاستجـاب الله دعوتـه ومات إبراهيـم كتخـدا فى صـفر قبـل دخـول الحجـاج إلـى مصـر بخمسـة أيام وتـوفى عـمـر بك المذكـور سنـة إحـدى وسبـعين ومـاية وألف.

٢٦٥ ابراهيم الأوسطى السكاكينى صانع السيوف.
ت/ ١١٧١هـ = ١٧٥٧م.

[ومات] الرجل الفاضل النبيه الذكى المتقن الفريد الأوسطى/ إبراهيم السكاكينى، كان إنساناً حسنا عطاردياً يصنع السيوف والسكاكين ويجيد سقيها وجلاءها ويصنع قراباتها ويسقّطها بالذهب والفضة، ويصنع المقاشط الجيدة الصناعة والسقى والتطعيم والبركارات للصنعة وأقلام الجدول الدقيقة الصنعة المخرمة وغير ذلك، وكان يكتب (ص٦٠٩) الخط الحسن الدقيق بطريقة متسقة معروفة من دون الخطوط لا تخفى، وكتب بخطه ذلك كثيرا مثل مقامات الحريرى وكتب أدبية ورسايل كثيرة فى الرياضيات والرسميات وغير ذلك، وبالجملة فقد كان فريداً فى ذاته وصفاته وصناعته، لم يخلف بعده مثله توفى فى حدود هذا التاريخ، وكان حانوته تجاه جامع المردانى بالقرب من درب الصباغ.

١١٧٢هـ.
١٤٧٥ق.
١٧٥٨م.
غاية الفيضان: ١٩ قيراط / ٢١ ذراع
□ ١ توت ١٤٧٥ = ٩ سبتمبر ١٧٥٨ = السبت ٦ محرم سنة ١١٧٢.
□ فيها اخترع دولاند النظارات الاكرومانية، أى التى ترى الصور بدون ألوان أجنبية.
□ ١ يناير ١٧٥٩ = ٢٥ كيهك ١٤٧٥ = الاثنين ٢ جماد أول ١١٧٢.
□ فيها كان طرد الجزويت من البورتغال.
□ فيها أنشأ الأمير عبد الرحمن كتخدا جامع الحفنى، بقنطرة الموسكى.
□ فيها كان استيلاء الانكليز على كويبك.
□ فيها كان انتصار الروسيين على البروسيانيين فى كوتر سدروق.



* تاجر السيوف.

- هوامش

(١) بيت ذى عرجان: وردت فى نسخة المطابع الأميرية (بيت ذى عزجان) وهى خطأ والمقصود أنه بيت له عمدان ملوية.
(٢) المظفر: المقصود هنا زاوية المظفر بشارع السيوفية تجاه الطريق المؤدية إلى جامع السلطان حسن.
(٣) علم العيار: هو علم المكاييل والموازين.
(٤) العذارات: مواكب الخياله، وهى من شارات المناصب الكبيرة.

سياسة السلطنة العثمانية تجاه المصريين من أهل الذمة

(١) الجزية:

تعتبر الجزية أحد الشروط الواردة فى الشريعة الإسلامية لصحة عقد الذمة، وقد التزمت السلطنة العثمانية بتطبيق ذلك الشرط شأنها فى ذلك شأن الممالك الإسلامية الدول السابقة التى غزت مصر، وقد أخذت السلطنة فى التطبيق بالتفسير الحنفى حيث ورد بشأن الجزية أنه «إذا وضعت بتراض أو صلح لا تغير، وان فتحت بلدة عنوة وأقر أهلها عليها توضع على الظاهر الغنى فى السنة ثمانية وأربعون درهما، وعلى المتوسط نصفها، وعلى الفقير القادر على الكسب ربعها ، وتوضع على كتابى ومجوسى ووثنى عجمى لا عربى ولا على مرتد فلا يقبل منهما إلا الإسلام أو السيف وتسترق أنثاهما وطفلهما ، ولا جزية على صبى وامرأة ومملوك ومكاتب وشيخ كبير وذمى أعمى ومقعد وفقير لا يكسب وراهب لا يخالط.

وهكذا طبقت السلطنة العثمانية على مصر جزية الفتح عنوة.

أما عن أوجه انفاق (الجزية) فلقد حددها تفسير الحنفية «فى مصالح المسلمين كسد الثغور وبناء القناطر والجسور وكفاية العلماء والمدرسين والقضاة والعمال والمقاتلة وذراريهم، ومن مات فى نصف السنة حرم من العطاء .

أخذت السلطنة العثمانية – منذ بداية احتلالها لمصر – بالنظام الذى كان متبعا فى سلطنة المماليك فيما يختص بتحصيل وانفاق ضريبة الجزية التى كانت تعرف وقتذاك باسم «الجوالى» . وقد ظل هذا النظام قائما حتى أوائل عام ١٥٢٥م عندما وصل الصدر الأعظم ابراهيم باشا الشهير بالاسكندرلى، عندئذ أصبحت ضريبة الجوالى مقاطعة قائمة بذاتها أطلق عليها «مقاطعة الجوالى» وكان المتولى أمر تحصيلها وأنفاقها يعرف باسم «أمين الجوالى».

وكان الاعتبار الذى أخذت به السلطنة العثمانية – كما ورد فى الشريعة الاسلامية – بالنسبة لأولئك الذين وقع عليهم عبء ضريبة الجوالى، ألا ينظر فقط الى قدرتهم على الدفع بل أيضا ينظر الى القدر الذى يمكن أن يساهم به الفرد فى هذا الشأن، ولهذا فقد قسموا الى فئات ثلاث : غنى ، متوسط ، وفقير . وعلى حساب ما جرى عليه العرف كان أصحاب الممتلكات والصرافون وكافة التجار من الفئة الغنية، وأصحاب الحرف الصناعية كالاسكافى مثلا من الفئة الفقيرة، وما عدا ذلك من الفئة المتوسطة. كذلك تقرر المعايير التى يدفعها أفراد كل فئة طبقا لما حددته الشريعة، فالغنى عليه أن يدفع ٤٨ درهما فضة والمتوسط ٢٤ درهما فضة والفقير ١٢ درهما فضة.

وقد روعى تغيير قيمة العملة لذلك تقرر أن تدفع الفئات الثلاث على التوالى ٤، ٢، ١ ، جنيه ذهبى (نقد) يعرف بالشريفى – الذى كان يساوى فى بداية العصر العثمانى ١٢ نصف فضة. كما حددت أوجه صرف الجزية على العلماء والفقراء والايتام والأرامل.

ولقد ذكر ستانفورد شو – أن الصدر الأعظم ابراهيم باشا منذ وصوله مصر، وضع جدولا منفصلا للنظام الذى يجب أن يتبع فى ايراد وانفاق أموال الجزية ومن الشروط الواجبه فى ذلك النظام ألا يستخدم دخل الجزية فى نفقات كنسية ومنها

أيضـا أنه في السنة التي تحـقق زيادة في الايراد لا تضـاف تلك الزيادة الى الخـزانة بل تتـرك جـانبـا لاستـخدامها في النفقات والمصاريف في السنوات التي تقل فيها متحصلات الجزية عن المعتاد.

وفي دراسة أعدها شو في هذا الشأن أوضح من خلالها أنه حدث بالفعل أن المتحصلات خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر كانت تقل عن المعدل المعتاد لنفقات تحصيل الجوالي وأن العجز في الايراد كان يعوض من الخزينة السلطانية، كما أوضح أن العجز في سنة ٩٦٤هـ ١٥٥٦ - ١٥٥٧ م بلغ ١٩٤,٥٢٢ بارة بينما بلغ العجز عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠ - ١٥٧١ م حوالي ٣٣٦,٠٠٠ بارة.

وفي خلال القرن السابع عشر أصبحت مقاطعة الجوالي في حيازة التزام أمراء مصر المماليك - كما هو متبع في معظم المقاطعات المدنية والريفية الأخـرى - ولقـد أدى هذا النظام الى فـقـدان السلطات الدينية القبطية جزءا من ادارتها اذ كانت عملية الجباية في بادئ الأمر من اختصاصها . فقد ورد في احدى وثائق المحكمة الشرعية ما يفيد أن البطريرك القـبطي يؤانس الرابع (١٥٧١ - ١٥٨٦م) كان ملزمـا بجـزية النصـارى الأقبـاط كذلك كان أمين الجوالي الذى أصبح في الحقيقة هو الملتزم بدفع مبلغ ثابت سنويا الى «مال الجوالي» والى «مال كشوفية كبير» و «كشوفية صغير» وكان يستبقي الفائض من الجباية لصالحه اذا ما بلغت الحد الأعلى من المقرر لها، وكان المتبع أن يسند أمين الجوالي مهمة الجباية في المناطق الريفية الى حكامها على أن يلتزموا بتسليمه مبلغا ثابتا كل سنة، وفي نفس الوقت يحتفظون لأنفسهم بما يعود عليهم بالنفع والفائدة وحيث ان أمين الجوالي يدير جابية الجزية مباشرة في المدن الا أنه في الاسكندرية ودمياط والسويس كانت من اختصاص قائمقام القبطان العثماني في تلك الموانئ.

ويستفاد من سجلات المحكمة الشرعية - المودعة في دار الوثائق القومية بالقلعة أنه كانت هناك ادارة مالية تابعة للخزانة السلطانية خاصة بالأموال التي تدفع بواسطة أمين الجوالي ، ،وهذه الادارة تحتفظ بسجلات الجزية المفروضة على الذميين - وكان يطلق عليها «دفاتر بيان أوراق الجزية» ويتم تسجيل الايرادات والمصروفات بمعرفة كتبة يعرف الواحد منهم باسم «جوالي افندى».

ولقد أوضح أحمد شلبي في كتابه «أوضح الاشارات فيمن تولى مصر من أنه في الربع الأخير من القرن السابع عشر كان مفروضا على الذميين جميعا دفع جزية موحدة مقدارها ١٢٠ بارة كان يتولى جبايتها جباة يعرفون باسم «الحشار» وكان هؤلاء يتركون للممول بعد سداد الضريبة - تذكرة من الورق الملون حاملة خاتم رئيسهم وحاوية اسم الذمي وبلدته ومديريته وسكنه وسنه وتاريخ اليوم والشهر والسنة التي سدد ضريبتها، وكان على الذميين حمل تلك الورقة بصفة دائمة ليقدموها الى رجال الالتزام وقت المطالبة لأنها كانت تقوم مقام ايصال السداد.

وفي عام ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م وضع الصدر الأعظم محمد زاد باشا نظاما جديدا لجباية الجزية في الدولة العثمانية، ويقضي ذلك النظام بأن ترفع يد الملتزمين من المقاطعات المختصة بتحصيل ضريبة الجزية ومنحها لأولئك المعنيين من قبل الادارة المركزية لديوان الجزية في مدينة ادرنه، وعلى هذا النحو تصبح الجبايات في الدولة تجبى عن طريق متخصصين يعرف الواحد منهم باسم «ملتزم

الجوالى» أو «جزية دار / مأمور تحصيل». وهؤلاء يرسلون إلى الولايات بالدولة عن طريق «ديوان الجزية» كأمناء مكلفين بأن يسلموا إليه ما تحصل من الجزية كاملة بعد عودتهم نظير مرتب ثابت.

ولقد قسم أهل الذمة - طبقا لهذا النظام - الى ثلاث فئات عند دفعهم ضريبة الجزية تبعا لمقدرتهم على الدفع، فأولئك الذين يعتبرون أغنياء كانوا فى الفئة العليا (عالى) وعلى كل فرد من تلك الفئة دفع أربع قطع ذهبية كل سنة، وأولئك الذين يعتبرون متوسطى الحال كانوا فى الفئة الوسطى (أوسط) بدفع الواحد منهم قطعتين ذهبا سنويا، والباقى كانوا فى الفئة الدنيا (أدنى) وعلى الفرد منها دفع قطعة ذهبية واحدة كل سنة.

ويقضى هذا النظام باجراء مسح شامل لجميع الذميين فى كل اقليم، وتحديد عدد أشخاص كل فئة سنويا، وعلى الرغم من تحديد أعداد كل فئة الا أن ذلك ذلك كان عرضة لأنى يتغير فى السنة التالية كما يقضى هذا النظام أيضا بأن يقوم ديوان الجزية باصدار أوراق الجزية «تذاكر أو بطاقات» كل سنة هجرية بحيث يطابق أعداد كل فئة من الفئات الثلاث، وترسل الاوراق فى صورة الى جميع قضاة الأقاليم فى ولايات الدولة التى تخضع لضريبة الجزية، وتقضى التعليمات بألا تفض هذه الصور الا فى أول أيام السنة الجديدة فى شهر المحرم فى المحاكم الشرعية بتلك الأقاليم . ومن الأمور التى تتميز بها أوراق الجزية أنه مؤشر عليها بالأحرف الاولى ومسجلة ومدموغة فى الادارة المالية بالقسم الثامن بخزانة الحكومة المعروفة باسم «جزية محاسبة سى» أو محاسبو الجزية. ويوجد على كل ورقة السنة واسم الدفتر دار واسم الجزية دار وختمه وختم اثنين من الشهود اللذين يصحبانه كمساعدين له واسم المقاطعة وبيان الفئة وكانت ألوان الاوراق كالآتى: حمراء للفئة العليا، وبيضاء للفئة الوسطى وصفراء للفئة الدنيا. وكان على الجزية دار طبقا لذلك النظام أن يقوم بتسليم تلك الأوراق الى الممولين بعد أن يسجل أسماءهم وبياناتهم اذ أن تلك الأوراق تشكل بالنسبة لهم نوعا من الحماية. فلم يكن لهم أى حق فى حماية السلطان اذا أهملوا الاحتفاظ بها.

وقد روعى فى ذلك النظام ألا يترك ذمى بدون اعداد ورقة سداد له فى أى مكان وتقضى التعليمات بمنع الأشخاص القادرين على دفع الجزية من مغادرة بيوتهم خشية فرارهم وذلك قبل بدء عملية التحصيل كما يوقف أى ذمى فى الطريق ويطلب منه ابراز الورقة الدالة على سداد ضريبة الجزية.

وكان أول تطبيق لذلك النظام فى الأناضول وروم ايلى فى عام ١١٠٧هـ / ١٦٩٦م - ١٦٩٦م، وفى السنة التالية اجرى تطبيقه فى سوريا ومعظم اجزاء من العراق ولقد كان لوفاة الصدر الأعظم محمد زاد باشا وكثرة المشاكل الداخلية والخارجية التى تعرضت لها السلطنة العثمانية وقتذاك أن تأجل تطبيق ذلك النظام فى مصر الى عهد السلطان محمد الأول (١٧٣٠ - ١٧٥٤). فقد أصدر الباب العالى فى ربيع أول سنة ١١٤٧هـ / اغسطس ١٧٣٤م ثلاث فرمانات الى السلطة الحاكمة فى مصر بخصوص تنظيم ضريبة الجوالى. يقضى الفرمان الأول بأن يؤخذ التزام الجوالى من الملتزمين المماليك ويعطى فى امانة الباشا العثمانى وأن تتولى الجوالى أو الجزية دار من سيأتى سنويا من قبل ديوان الجزية فى ادرنة لترتيب وتسوية المتحصلات الفعلية للجزية. ويقضى الفرمان الثانى

بتقسيم النصارى واليهود الى ثلاث فئات يدفع الشخص من الفئة العليا (عالى) ٤٠٠ بارة ومن الفئة الوسطى (اوسط) ٢٠٠ بارة ومن الفئة الدنيا (ادنى) ١٠٠ بارة. أما الفرمان الثالث فيقضي بأن يتولى الجزية دار بعد أن يتم تسوية حسابات الجزية بعد الجباية تنظيم حساباته مع ديوان الروزنامة.

ويستفاد مما اورده أحمد شلبى أن النظام الجديد لتنظيم ضريبة الجزية فى مصر بدأ فى تنفيذه فى غرة جماد آخر سنة ١١٤٧هـ/ ٢٩ اكتوبر ١٧٣٤م، فقد ذكر [وفي يوم الخميس خامس جماد آخر ورد رجل يقال له على أغا وكان دفتر دار القسطنطينية وصحبته سبعة خطوط شريفة قريت بالديوان بحضرة العلما وأرباب السجاجيد وشيخ الاسلام وقاضى مصر عبد الله افندى ونقيب الاشراف والصناجق والأغوات والعساكر واختياريهم ثلاث خطوط بسبب الجوالي ، جوالي اليهود والنصارى بآيات قرآنية واحاديث نبوية وأن على أغا هذا يكون قائما بخدمتنا وقبضة من غرة جماد آخر سنة ١١٤٧ (٢٩ اكتوبر ١٧٣٤) وأن يقبض من الأعلى أربعماية والأوسط مايتين والأدنى ماية ديوانى (بارة) فأجابوا بالسمع والطاعة واخذوا الدفاتر من حسين كتخدا الدمياطى واسلموها الى على أفندى.

.. ثم ان القباض قبضوا من غرة جماد آخر سنة ١١٤٧ وكل من قبضوا منه يعطونه ورقة مختومة بأربعة ختوم، ختم التاريخ وختم باسم ابراهيم اغا دفتر دار اسلامبول وختم بالأعلى والأوسط والأدنى، وختم فى ظهر الورقة وصاروا يكتبون شكل الذمى وملبوسه فى الورقة].

ويبدو واضحا مما رواه أحمد شلبى أن تطبيق النظام الجديد لسداد ضريبة الجزية قد الحق الضرر بفئات أهل الذمة. فقد روى [أن النصارى أجمعوا أمرهم بأن يطلعوا الى الديوان يراجعون فى هذا الأمر وكانوا نحو ألف نصرانى، فهم فى الرميلة واذا بالعسكر قامت عليهم فضربوهم ومات منهم اثنان ورجعوا معاكيس].

كما روى أيضا [ان الذميين قد أخذ منهم الحشار نحو نصف الجوالي واعطاهم الوصلات (الايصالات) على الحساب القديم، ماية وعشرون [كيسا] نصف فضة كل ذمى بالغ وغير بالغ من ستين الى ثلاثين فأبت خدمة الجوالي أن يقعدوا (يردوا) بشيء مما أخذوه منهم فرجع النصارى على حسين كتخدا الدمياطى فصار يأخذ منهم الوصول (الايصالات) ويدفع لهم أربعة ارباع ريال تعجز فى الوزن عجزا فاحشا، فصار النصرانى الفقير يأخذ وغير الفقير يتعفف عن الخمسين نصفا].

ومما لا شك فيه أن النظام الجديد لجباية الجزية الذى بدأ تطبيقه فى مصر منذ عام ١٧٣٤ كان نتيجة جهود الباب العالى من أجل ضبط وأحكام نظام الجباية من أجل أن يحصل لنفسه على عائد من الجزية كان يذهب الى الملتزمين، فقد ذكر أحمد شلبى أن الجباة «قبضوا تلك العام (١٧٣٤م) ثمانمائة كيس ديوانى وشيء وقد كانوا يأخذها الملتزمون بالجوالي من الوزير بثمانين كيسا ويأخذون من النصارى واليهود ماية وعشرين».

ومنذ أصدر الباب العالى الفرمانات الثلاثة فى عام ١٧٣٤م صارت الجوالي خارجة عن التزام مصر، وقد بدأ منذ ذلك العام اعداد حصر شامل لجميع الذميين المكلفين بدفع الجزية. ويذكر الجبرتى أن أمراء المماليك «تشاوروا فيمن ينزل بصحبة الاغا (على افندى) والكاتب من الأمراء

الصناجق لتحرير بلاد قبلى فقال حسين بيك الخشاب: أنا مسافر بمنصب جرجا وينزل بصحبتى الأغا المعين وانظروا من يذهب الى بحرى. فقال محمد بيك قطامش: كل اقليم يتقيد بتحريره الكاشف المتولى عليه ومعه الأغا والكاتب. فاتفق الرأى على ذلك».

وقد أعد تقرير فى عام ١١٤٩هـ/ ١٧٣٧م يتضمن وجود ١٢٠,٠٠٠ ذمى فى مصر يمكن أن يدفعوا ضريبة الجزية، منهم ١٢,٠٠٠ فى الفئة العليا، ٢٤,٠٠٠ فى الفئة الوسطى، ٨٤,٠٠٠ فى الفئة الدنيا. وعلى أساس هذا التقرير قرر الباب العالى فى نفس هذا العام ان من بين كل مماية ممول يدفع عشرة أشخاص من الفئة العليا لكل واحد ٤٠٠ بارة، وعشرون من الفئة الوسطى يدفع الواحد ٢٠٠ بارة، وسبعون من الفئة الدنيا يدفع الواحد ١٠٠ بارة، وعلى هذا النحو فقد قدرت الضريبة التى سوف يدفعها ١٢٠,٠٠٠ ذمى بنحو ١٨,٠٠٠,٠٠٠ (ثمانية عشر مليون بارة) على ان يستقطع من تلك الحصيلة الاجمالية مبلغ ٦٧٩,٧١٠ بارة لحساب كاشفيه صغير ومرتبات تدفع للباشا العثمانى ولآخرين فى مصر حسبما تقرر فى النظام الجديد. والى جانب ذلك يدفع الجزية دار مالا ميريا للخزانة السلطانية قدر بمبلغ ١,٩١٦,٠٠٠ بارة كما يدفع مبلغ ٤٠٠,٠٠٠ بارة بمثابة كاشفيه كبير وما تبقى بعد ذلك وقدره ١٥,٠٠٧,٢٩٠ بارة ترسل الى الباب العالى.

وبالاضافة الى ذلك كانت هناك رسوم اضافية تقدر بثلاثين بارة عن كل ذمى فى الفئة العليا، وعشر بارات عن كل ذمى فى الفئة الوسطى، وسبع بارات عن كل ذمى فى الفئة الدنيا، وكانت تجمع لتسديد مبلغ ٩٨٤,٠٠٠ بارة قيمة نفقات السفر والاقامة لأولئك الذين يتولون عملية الجباية.

وعلى أية حال فأنه على الرغم من تطبيق النظام الجديد لجباية الجزية فى مصر فان أولئك الذين استفادوا فى الماضى من حق الجباية ظلوا فى حقيقة الأمر قادرين على الاحتفاظ بمعظم الفوائد التى كانت تعود عليهم. بينما أصبحت الخزانة السلطانية فى ظل النظام الجديد تحصل من المال على الأقل مما كانت تحصل عليه فى ظل النظام القديم. فلقد بدا واضحا أن نظام الجباية الجديد قد تعمد أن يحرم الحكام المحليين والملتزمين من حقهم فى جمع الجزية بينما جعل من نظام المسح الشامل للذميين أساسا للجباية الا أنه فى الحقيقة مضطر الى أن يعتمد على أولئك الذين فى يدهم السلطة الفعلية فى القرى والنواحى .. أى الملتزمين - فعند اعداد بيان الحصر كان الملتزمون يخفون وجود أعداد كبيرة من الذميين فى النواحى التابعة لهم لكى يستمروا هم فى جمع ضريبة الجزية من هؤلاء لمصلحتهم. وكان يحدث عند الجباية من تلك الاعداد المدونة فى بيان الحصر أن يقوم الجزية دار بتسليم ما يماثل تلك الاعداد من أوراق الجزية الى الملتزمين لجبايتها وكثيرا ما كان الملتزمون يجمعون الجزية لمصلحتهم ويردون الأوراق مدعين أن بعض الذميين الذين اشتمل عليهم بيان الحصر أما هربوا أو ماتوا وفى بعض الأحيان يقومون بجمع الضريبة المستحقة من رجال الفئة العليا ويعطونه أوراق الفئة الوسطى ويردون أوراق الفئة العليا على أنها لم تحصل محتفظين بالفرق لأنفسهم.

وعلى هذا النحو فانه يمكن القول بأن الباب العالى لم يكن فى مقدوره - بالرغم من تطبيق النظام الجديد - ان يجمع من ضريبة الجزية اكثر مما

يسمح به الملتزمون الذين كانوا يتحكمون في قيمة الفائض الذى كان يرسل اليه فلقد اثبتت الاحصاءات على مدى حوالى ربع قرن من عام ١١٤٩ هـ/ ١٧٣٧م هـ إلى عام ١١٧٧ هـ/ ١٧٦٣م – ان عدد الذميين المموليين وأموال الجباية التى جمعت والفائض المخصص للباب العالى كانت جميعا أقل بكثير مما قدر لها فى المراسيم السلطانية كما أثبتت تلك الاحصاءات مدى عجز الباب العالى فى الحصول على نصيبه من التزام جوالى مصر. وسوف نوضح ذلك على النحو التالى:

١ ـ فى عام ١١٤٩هـ/ ١٧٣٧م قدر الباب العالى ان هناك ٣٠٠,٠٠٠ ذمى ارسلت لهم ٢٤٠,٠٠٠ ورقة جزية لجبايتها ولم يستطع على افندى الجزية دار أن يكشف الا عن ١٢٠,٠٠٠ ذمى من الممولين وبمهارة على أفندى الادارية وبأمانته وزعت ١٠٧,٨٠٠ ورقة جزية وتم جمع مبلغ عشرة ملايين بارة.

٢ ـ فى الفترة م عام ١١٥٠هـ / ١٧٣٧م الى عام ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م امكن توزيع ٣٥,٠٠٠ ورقة جمعت متحصلات قيمتها أربعة ملايين بارة فى كل سنة وقد جمعت تلك المتحصلات على وجه التحديد من أشخاص الفئة الوسطى.

٣ ـ فى مطلع عام ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م ارسل الباب العالى خليل أفندى ـ رئيس الكتاب بالباب العالى ـ ملتزما جديدا للجوالى فى مصر. وقد قام باعداد احصاء شامل اسفر عن وجود ٧٠,٠٠٠ ذمى من الممولين، وازاء هذا الاحصاء الذى قورن بمتحصلات الجزية خلال السنوات الأربع الماضية، اصدر الباب العالى اوامره بأن ضرائب الجزية لعام ١٥٥٤ هـ / ١٧٤٢م وما بعد ذلك تدبر على أساس أن يتحمل معظم الضرائب اشخاص الفئة الوسطى وانه بالامكان جمع مبلغ ١٣,٢٥٠,٠٠٠ ببارة ومن هذا المبلغ يدفع ٢,٣١٦,٠٠٠ بارة الى الخزينة السلطانية ويدفع مبلغ ٦٧٩,٧١٠ الى الباشا والآخرين والباقى وقدره ١٠,٢٥٤,٢٩٠ بارة ترسل الى الباب العالى.

٤ ـ فى عام ١١٥٤هـ/ ١٧٤١م أرسل الباب العالى ـ طبقا لما قدره فى العام الماضى ـ ٧٠,٠٠٠ ورقة ـ ومما هو جدير بالذكر أن الملتزمين لم يصرفوا منها سوى نصفها فقط ، وقد تمت جباية مبلغ ٦,٢٢٥,٠٠٠ بارة فى كل سنة . وقد أرسل الى الباب العالى مبلغ ٣,٢٢٩,٢٩٠ بارة بعد أن دفع الجزية دار مستحقات الخزانة السلطانية والوالى والآخرين.

٥ ـ فى عام ١١٥٥هـ/ ١٧٤٢م هبط عدد الذميين الممولين الى ٣٥,٠٠٠ ذمى مما جعل الباب العالى يصدر أوامره بزيادة الضريبة المفروضة على كل فئة من الفئات الثلاث ، وأصبحت الفئة العليا يدفع الواحد منها ٤٢٠ بارة والوسطى ٢١٠ بارة والدنيا ١٠٥ بار ة وعلى هذا النحو يكون مجموع الجزية المستحقة ٧,٤٥٥,٠٠٠ بارة وقد زاد تبعا لذلك الميرى الى

٦٠٠ ,١,٩٣٦ بارة وكشوفية كبير الى ٤٥٠,٠٠٠ وكشوفية صغير والمرتبات الى ٦٨١,٠٠٠ بارة وما تبقى بعد ذلك وقدره ٤,٣٨٧,٤٠٠ بارة كان المفروض أن يرسل الى الباب العالى سنويا.

٦ ـ وفى عام ١١٦٣هـ/ ١٧٤٩ - ١٧٥٠م حاول الباب العالى زيادة أعداد الذميين الممولين الى ٤٠,٠٠٠ ذمى مما يمكنه من جمع مبلغ يصل الى ٨,٠٨٥,٠٠٠ بارة كل سنة وفى نفس الوقت تظل مستحقات الخزانة السلطانية والوالى والآخرين كما هى دون تغيير، وعلى هذا تضاف الزيادة فى حصيلة الضرائب وقدرها ٦٣٠,٠٠٠ بارة بكاملها الى المبلغ المرسل الى الباب العالى ونتيجة لذلك يصبح ما يخص الباب العالى مبلغ ٥,٠١٧,٤٠٠ بارة.

٧ ـ استمرت ضرائب الجزية خلال السنوات ـ من ١١٧١هـ/ ١٧٥٦م الى ١١٧٣هـ/ ١٧٥٩ - ١٧٦٠ تجمع بالكامل الا أن البكوات المماليك أرادوا أن يخولوا لأنفسهم الحق فى متحصلات الجزية، ولكن تهديدا عثمانيا أتاهم بغزو البلاد أرغمهم على قبول زيادة ضرائب الجزية ، وقد صدر فرمان تلك الزيادة فى عام ١١٧٤هـ/ ١٧٦٠م يقضى بأن يدفع الذمى فى الفئة العليا ٤٤٠ بارة، ٢٢٠ بارة للوسطى، ١١٠ بارة للفئة الدنيا. وهذا يجعل دخل الجزية السنوى يصل الى ٨,٤٧٠,٠٠٠ بارة كما تقرر زيادة الميرى الذى يدفع الى الخزانة السلطانية الى ٢,٠٠٣,٦٦٤ بارة أما كشوفية كبير وقدره ٤٥٠,٠٠٠ بارة وكشوفية صغير ومرتبات وقدره ٦٨٩,٧١٠ بارة فظلت مستحقاتهما كما هى دون تعديل وعلى هذا فان الفائض المخصص للباب العالى قد زيد تبعا لذلك الى مبلغ ٥,٣٢٦,٦٢٠ بارة منذ تلك السنة.

وفى حقيقة الأمر كان معدل المطلوب من متحصلات الجزية للخزانة مبلغ ١١,٠٥٠,٠٠٠ بارة سنويا بينما المبالغ الفعلية التى سددت خلال تلك المدة كان بمعدل ٦,٢٢٥,٠٠ بارة فقط أى بنسبة ٥٢٪ فقط من مجموع المبلغ المطلوب وهذا يعنى أن الملتزمين صرفوا ما مقداره نصف أوراق الجزية التى أرسلت فى الوقت الذى كان يأمل فيه الباب العالى ـ كما أشارت بذلك الفرمانات الصادرة خلال تلك المدة ـ أن يحصل على ثلاثة ملايين بارة سنويا على الأقل.

ومهما يكن من أمر ـ فعلى حد قول شو ـ كانت معظم متحصلات الجزية تجد طريقها باستمرار الى الأمراء المماليك، وكان على الذميين الممولين تبعا لتلك السياسة المالية أن يتحملوا تلك الزيادات التى كانت تتقرر فى سنة بعد أخرى وهذا كان ـ بطبيعة الحال ـ يمثل عبئا باهظا كما كان أحد العوامل الرئيسية فى زيادة ضيقهم وبؤسهم.

ولقد بذلت مجهودات من جانب الباب العالى عام ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م لإعادة ترتيب نظام الجزية فى مصر على أساس اعادة النظر فى نظام عام ١١٤٧هـ/ ١٧٣٤م بما يحقق لها عائداً أكبر وقد رؤى أن تسترد جزية المقاطعات من الأمراء المماليك مرة أخرى وأن تسند إلى أمانة الباشا العثمانى الذى كان يدير أمرها من قبل ، وذلك من خلال مدير ادارة الضرب فى مصر، وبهذا تحولت عملية ضبط وادارة الجزية مرة أخرى إلى الباب العالى ومندوبيه.

وفى ذلك العام حضر الى مصر أحمد أغا يحمل فرمانا من الباب العالى للاشراف على تطبيق النظام الجديد وتوزيع أوراق الجزية على الممولين.

ولقد حدث فى عام ١١٨٢ هـ/ ١٧٦٨م أن أجرى مسح شامل للذميين فى مصر أسفر عن وجود ٩٠,٠٠٠ ذمى ملزمين بدفع ضريبة الجزية، ولكن ظهور على بك الكبير فى السنة التالية ـ والذى جعل من نفسه حاكما مستقلا بمصر ـ أرجأ العمل بالنظام الجديد مدة خمس سنين.

وعندما استعيدت السلطة العثمانية على مصر عام ١١٨٨هـ/ ١٧٧٥م أرسل درويش عبد الرحيم أفندى ـ رئيس الكتاب بالباب العالى ـ كجزية دار ولكى يتم اصلاح نظام الجزية الذى كان قد بدأ قبل حركة على بك الكبير وأصبحت جزية المقاطعات تبعا لذلك النظام فى التزام الباشا العثمانى كما أسندت ادارتها الى مدير ادارة الضرب كأمين للجوالى.

ويبدو أن أعداد الجباة ـ الذين كانوا يرسلون الى النواحى لتحصيل ضريبة الجزية ـ كانت كبيرة للغاية مما كان يكبد الممولين أموالا باهظة نظير نفقات سفر هؤلاء الجباة واقامتهم. ولهذا فقد أصدر الباشا العثمانى خليل باشا فرمانا بتاريخ ١٥ ذى القعدة ١١٨٨هـ/ ١٧ يناير ١٧٧٥ م يقضى بألا يزيد عدد الجباة المكلفين بجمع الجزية فى أى مقاطعة على خمسة أشخاص هم الجزية دار والكاتب ـ وهذان يمثلان أمانة الباشا العثمانى ، وفرد واحد من فرقة الجاوشان أو المتفرقة وفرد واحد يمثل أمراء المماليك . وجندى واحد يرسل عن طريق شيخ البلد. كذلك يقضى الفرمان بألا يجمع هؤلاء من أجل مصاريف اقامتهم ـ أكثر من ١٣ بارة من كل ذمى فى الفئة العليا ، و١٠ بارات من الفئة الوسطى ، و٧ بارات من الفئة الدنيا .

ولقد ذكر شو أن هناك زيادة تقررت على الفئات الثلاث فى عام ١٧٧٥ بحيث صارت الضريبة المفروضة على أشخاص الفئة العليا ٤٥٣ بارة والفئة الوسطى ٢٣٠ بارة والفئة الدنيا ١١٧ بارة. وقد يعنى هذا أن الرسوم الاضافية التى تقررت للجباة طبقا للفرمان ـ فرمان خليل باشا السابق ذكره ـ لم تكن تجمع مباشرة من الذميين وانما كانت تضاف الى الخزينة نفسها وقد ذكر شو أيضا أن المبلغ الاجمالى لحصيلة الضرائب ارتفع طبقا لتلك الزيادة التى تقررت ـ حيث أشار الى أن هناك ٩٠,٠٠٠ ذمى ممول ـ ارتفع الى ٢٠,٤٥٠,٠٠٠ بارة.

كما أثبتت الوثائق الرسمية أنه فى خلال السنوات الأربع من ١١٩٧هـ / ١٧٨٣م الى ١٢٠٠هـ ١٧٨٦م قام ابراهيم بك ومراد بك ـ اللذان جعلا من نفسيهما حاكمين مستقلين على مصر ـ بتحويل معدل سنويا قدره ١,٥٠٠,٠٠٠ بارة فقط الى الخزانة السلطانية . أما الباقى فقد احتفظ به الأمراء المماليك لمصلحتهم وأثبتت الوثائق الرسمية أيضا بأن ابراهيم بك ومراد بك حينما استعادا سلطاتهما فى مصر عام ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م ـ بعد رحيل القبطان حسن باشا الجزائرلى ـ لم يحولا شيئا الى الباب العالى وأن جميع متحصلات الجزية التى بلغت فى ذلك العام مليون بارة خصصت للخزانة السلطانية علما بأن الجباة زادوا أعباء الجباية لمواجهة متطلبات الاقامة والسفر الى ١١٣ بارة عن كل ذمى فى الفئة العليا ، ٦٣ بارة عن كل ذمى فى الفئة الوسطى و٣٣ بارة للفئة الدنيا .

ولقد أوضح فرمان صادر من الباب العالى فى عام ١٢٠٩هـ / ١٧٩٤ م يتضمن المطلوب من الباشا العثمانى تحصيله من ضرائب الجزية وبعد دفع المستحقات المقررة يرسل الفائض الى الباب العالى. وقد جاء فى هذا الفرمان «المطلوب طرف حضرت وزير روش ضمير الحاج صالح باشا محافظ محروسة مصر دامه الله ملتزم مقاطعة جوالى راى ديوان عاليشان بر موجب معتاد قديم وكشوفية صغير وذرارى عظام وعويدات ومرتبات سايرة بموجب مفردات دفتر حكم محاسبة ديوان مصر واجب سنة ١٢٠٩ هـ والتعليمات برأى ديوان مصر وكشوفية صغير حضرت وزير عويدات ومرتبات ووظائف سايرة واجب سنة ١٢٠٩هـ عن معتاد المتحصلات ونفقات كشوفية صغير والعوايد والمرتبات والوظائف الجارية للجباة وطبقا لما هو مدون لسنة ١٢٠٩هـ فى دفاتر المحاسبة بديوان مصر حسب التعليمات بخصوص نفقات كشوفية صغير والوزير (الباشا العثمانى) والعوايد والمرتبات والوظائف الجارية للجباة .

«ولقد جاء فى هذا الفرمان أيضا المبلغ المطلوب للخزانة السلطانية من مال الجوالى وقدره ٢,٥٩,٠٨٠ بارة وللعوائد مبلغ قدره ١,١٢٢,٠٣٤ بارة وما تبقى وقدره ١٥,٩٤٨,٨٨٥ بارة فيرسل الى الباب العالى .

كذلك صدر فرمان آخر من الباب العالى آخر عام ١٢١٠ هـ/ ١٧٩٥م يحمل نفس عبارات تقديم الفرمان السابق الا أنه أضاف مستحقات كشوفية صغير ومرتبات وعوايد سايرة ــ لمواجهة نفقات جباية الضرائب ــ فأصبحت ١,٢٥١,١١٩ بارة أما بقية المستحقات فظلت كما هى دون تعديل. أما المبلغ المتبقى بعد ذلك وقدره ١٥,٣١٩,٨٠٠ بارة فيرسل الى الباب العالى.

ويتضح من خلال البيانات السابقة مدى مساهمة ضرائب الجزية فى المال الميرى كمصدر هام فى ايرادات الخزانة السلطانية فى مصر .

وقد أفاضت بعض المصادر التاريخية فى الحديث عما كان الذميون يعانون من ضيق بسبب أداء ضريبة الجوالى ، وما كان يصاحب عملية الجباة من أساليب العنف والقسوة والبطش من جانب الجباة والعسكر مادفع البعض منهم الى الهرب والاختفاء فى الجبال، فضلا عما ذاقه فقراء النصارى المصريين من مرارة ومهانة كانت تصل الى حد الحبس لغير القادرين على الدفع بل وحجز أولادهم للخدمة فى البيوت [انظر قصة الشيخ المهدى]. وفى العادة كان يقوم أثرياء الأقباط من الأراخنة أمثال : المعلم نيروز والمعلم رزق الله شكر الله والمعلم ابراهيم جوهرى ــ الذين قيل عنهم فى المخطوطات القبطية أنهم «كانوا يشترون الفقراء شراوى من حبس الجوالى ويخلصونهم.» وقد قام بعض أولئك الأراخنة الأقباط باحداث وقف يخصص لسداد المقرر على الأقباط المحبوسين غير القادرين على الدفع بسبب الجوالى أطلق عليه «وقف حبس الجوالى».

بالإضافة إلى تلك السياسة التى خلت من وازع الضمير الدينى أو الانسانى أو أى اعتبار لما قد يترتب عليها من اثارة الحقد والتعصب بين أبناء المجتمع الواحد.

(٢) المغارم والالتزامات المالية:

تعرض أهل الذمة فى مصر ابان الحكم العثمانى لمغارم وأعباء مالية أخرى غير ضريبة الجوالى كانت تفرض لتغطية نفقات الحملات العسكرية حينما

تكون السلطنة العثمانية فى حال حرب مع أعدائها خارج البلاد سواء من المسلمين أو غيرهم، من ذلك ما حدث فى عام ١٥٦٦ ـ فى عهد السلطان سليمان المشرع ـ عندما احتاج السلطان الى مبالغ من المال لنفقات سفر الجيش العثمانى بقيادة سنان باشا ـ لفتح بلاد اليمن فاصدر السلطان أوامره أن يجمع ذلك المبلغ من أقباط مصر وفرض على جميع التجار والافرنج واليهود ومن جملتهم النصارى ألفي دينار.

وكان هناك بعض رؤساء الطوائف الذمية يتعرضون لمغارم شخصية من جانب بعض الحكام العثمانيين فقد أشار مصدر قبطي معاصر الى أن خليل باشا أرسل فى عام ١٠٤١ هـ ١٣٤٨ق / ١٦٣١م، رسولا يستدعى عن البابا متاوس الثالث (البطريرك رقم ١٠٠) بسبب عدم قيامه بدفع الرسوم المعتادة بعد أن صار بطريركا ويذكر المصدر أن ذلك بسبب وشاية قام بها بعض الحاقدين على البابا وأنهم طلعوا الى خليل باشا وأخبروه أن الذى يصير بطريركا يقوم بدفع رسم كبير المقدار للمتولى على حكم مصر، فلما علم جماعة الأراخنة بتلك المؤامرة الخبيثة طلعوا الى القلعة وقابلوا خليل باشا الذى تكلم معهم فى شأن الرسوم وألزمهم بالقيام بدفع غرامة قدرها أربعة آلاف قرش، فنزل الأراخنة من عند الباشا ممتلئين غما. وتذكر المصدر أيضا أن أحد اليهود دفع المبلغ المذكور من عنده الى الباشا، وألزم جماعة الأراخنة أنفسهم بجمع هذا المبلغ ودفعه لليهودى.

كذلك كان الذميون المصريين يتعرضون لأعباء مالية أخرى أحيانا إلا أن كان يحدث وسط اجراءات مالية عامة تشمل جميع فئات الشعب المختلفة. فقد حدث في ختام عام ١٠٤٢هـ/ يونيو ١٦٣٥م فى عهد السلطان مراد الرابع وأثناء ولاية أحمد باشا الكورجى أن تقرر سك العملة من النحاس ويجمع بدلها العملة الذهبية فى البلاد لتغطية نفقات الحروب الخارجية للدولة فى لبنان وفارس فكان لهذا الاجراء عواقب وخيمة على حالة البلاد الاقتصادية فعمت بسببه كوارث اقتصادية شملت كل المصريين الغنى والفقير والتاجر والصانع بلا تفرقة أو تمييز.

ويصف الرحالة فالسليب ـ واقعة اضطهاد طائفة من الاقباط فى حى الأزبكية فى شهر سبتمبر من سنة ١٦٧٢ وذلك بقصد اجبارهم على دفع غرامة مالية لسلطات الحكم فيذكر أن الأقباط قاسوا اضطهادا عظيما لأن بعض الجند العثمانية قاموا بذبح امرأة خليعة وألقوا جثتها بعيدا عند بركة الأزبكية فقام والى القاهرة ظلما وعدوانا بغلق كل بيوت النصارى المتاخمة لتلك المنطقة وأجبرهم على دفع غرامة مالية قدرها ألفا قرشا دية لهذا الدم المهدور اذا ارادوا أن يفتحوا بيوتهم ويسعوا الى معاشهم.

وكانت المغارم والأعباء المالية تحدث نتيجة الاضطرابات التى تعم البلاد بسبب الفتن الداخلية وأثناء الصراع الذى كان يدور بين العناصر الحاكمة للاستئثار بالسلطة، فلقد حدث فى السنة التالية للرسامة البابا بطرس السادس ـ البطريرك (١٠٤) ـ فى عام ١٧١٩م أن قامت فتنة بسبب الصراع على السلطة بين الصنجق اسماعيل بك ابن ايواز والصنجق محمد بك شركس، ولقد بلغت الفتنة من شدتها أنها كانت أشبه بالحرب الأهلية وانتهز الرعاع الفتنة فقاموا بأعمال السلب والنهب

واشعال الحرائق. ويعلق أحد المؤرخين الأوروبيين على تلك الفتنة بقوله أنها كانت بداية لسلسلة من القلاقل والمنازعات استمرت الى مجىء الحملة الفرنسية فلم تعد الخصومة قائمة بين حزب الوالى وحزب المماليك فحسب بل امتدت الخصومة بين أفراد الحزب الواحد للوصول الى الرياسة وبطبيعة الحال كان لهذه الفتن والقلاقل أوخم العواقب على أحوال البلاد الاقتصادية وكذلك على المسلمين وغير المسلمين وخاصة النصارى منهم.

كما ذكرت المصادر أن تلك الفتن كانت تستهدف الأقباط المصريين ـ وخاصة فى الصعيد ـ حتى اشتد الكرب عليهم اذ ضربت عليهم فى مطلع القرن الثامن عشر غرامة فادحة لم يعف منها أحد، وبيعت بسبب تلك الغرامة الجواهر الكريمة بأبخس الأثمان وألزم بهذه الغرامة القساوسة والرهبان والصبيان والفقراء وأرغم بطريرك الاقباط بدفعها عن القساوسة وخدام الدين.

وكانت المغارم تفرض وسط اجراءات سياسية صادرة من الباب العالى فقد حدث نتيجة ازدياد طائفة الكاثوليك وكثرة أعدادها وتوغلها فى كل أنحاء البلاد ورغبة الباب العالى فى الحد من ذلك النفوذ المتصاعد أن أصدر مرسوما عام ١٧٥٣م حمله بطريرك طائفة الملكية اليونانية الى السلطات الحاكمة فى مصر وذلك بمنع أبناء طائفة النصارى الشوام من دخول كنائس الكاثوليك الافرنج فان دخولوا يدفعون للدولة ألف كيس، وقد سير ابراهيم كتخدا فى طلب أربعة من القساوسة من دير الكاثوليك فجاءوا بهم فحبسهم وأخذ منهم مبلغا عظيما من المال.

وقد لجأ بعض الحكام من البكوات المماليك الى ابتزاز الأموال وفرض المغارم على كافة طوائف الشعب المصرى وذلك حتى يمكنهم الانفاق على القوات المرتزقة وعلى أعمال التسليح.

بعد وفاة على بك الكبير استمر الصراع بين البيوتات المملوكية وأمرائها من أجل الوثوب الى السلطة وكان الامراء المماليك فى صراعهم هذا يطوفون بالبلاد يسلبون وينهبون ويفرضون الاتاوات على الأهلين من الأقباط المصريين مما كان يدفع ببعضهم الى الهرب تجنبا لما كان قد يصيبهم من ضرب واهالة وقتل. ولقد ذكر الجبرتى فى حوادث ربيع الأولى عام ١٢٠٠هـ/ يناير ١٧٨٦م أن مراد بك ـ وكان على رأس السلطة آنذاك ـ شرع فى السفر الى الوجه البحرى فى جماعة من كشافه ومماليكه، وطاف ببعض المدن والقرى مطالبا أهليها بالأموال المقررة مضافا إليها حق الطريق، فأن تأخرت قرية أو بلدة فى أداء ما قرر عليها كان مصيرها الخراب والنهب والدمار. ولقد عين على الاسكندرية أحد كشافه يدعى صالح أغا ـ كتخدا الجاوشية سابقا ـ الذى قرر لنفسه حق طريق مقداره خمسة آلاف ريال، كما قرر على أهلها مائة ألف ريال وأمر بهدم الكنائس فى حالة عدم دفع ما قرره.

وفى ظل حملة القبطان حسن باشا الجزائرلى (١٧٨٦ ـ ١٧٨٧م) ضد ابراهيم بك ومراد بك أرسل يطلب من قاضى القضاة احصاء لما أوقفه المعلم ابراهيم جوهرى يومئذ على الكنائس والديارات من أطيان ورزق وأملاك وغير ذلك . كما قبض العسكر على امرأته و فتحوا بيته عنوة واستولوا على كل ما فيه وكان شيئا كثيرا وقدموه

الي حسن باشا الذى باعه فى المزاد الذى استمر عدة أيام متتالية . كذلك قرر حسن باشا على بيوت النصارى الذين خرجوا بصحبة ابراهيم بك ومراد بك الى الصعيد مبلغا كبيرا من المال قدر بخمسة وسبعين ألف ريال ، كما أمر باحصاء بيوت جميع النصارى ودورهم وما هو فى ملكهم وأن يكتب جميع ذلك فى قوائم وقرر عليها أجره مثلها فى العام، وأن يكشف فى السجل على ما هو جار فى املاكهم، ثم قرر عليهم أيضا خمسمائة كيس فوزعوها على أفرادهم وقيل أنهم حسبوا الجوارى المأخوذة منهم من أصل هذا المبلغ على كل رأس اربعون ريالا ، كما قرر أيضا على كل شخص - سواء كان فى الفئة العليا أو الدنيا دينارا جزية، وذلك خارج عن الجزية الديوانية المقررة.

وتتوالى موجات الابتزاز ، وتعدد صور المغارم والمصادرات فقد ذكر الجبرتى فى حوادث شهر ذى القعدة ١٢٠٠هـ/ سبتمبر ١٧٨٦م «وفيه : قبض القبطان على راهب من رهبان النصارى واستخلص منه صندوقا من ودائع النصارى» . كذلك ذكر الجبرتى فى حوادث هذا الشهر «قبض القبطان على المعلم واصف وحبسه وضربه وطالبه بالأموال» . وواصف هذا أحد الكتاب المباشرين المشهورين ويعرف الايراد والمصاريف وعنده نسخ من دفتر الروزنامة ويحفظ الكليات والجزئيات ولا يخفى عن ذهنه شيء من ذلك ويعرف التركى» .

وقد ترك القبطان حسن باشا الجزائرلى البلاد فى يد اسماعيل بك بعد رحيله فى عام ١٧٨٧ - بدون منازع له بعد ابعاد منافسيه ابرهيم بك ومراد بك الى الصعيد، كما ترك أيضا عابدى باشا - قائد الجيوش العثمانية فى مصر لدعم سيادة الدولة عليها. ولقد أحدث عابدى باشا غرامة مالية كبيرة على النصارى ، يروى الجبرتى أسبابها - فى حوادث شهر ربيع الأولى ١٢٠٢ / ديسمبر ١٧٨٧م - قائلا حضر عابدى باشا واسماعيل بك الى بيت الشيخ البكرى باستدعاء بسبب المولد النبوى فلما استقر بهم الجلوس ، التفت الباشا الى جهة حارة النصارى وسأل عنها فقال له انها بيوت النصارى فأمر بهدمها والمناداة عليهم من ركوب الحمير فسعوا فى المصالحة وتمت على خمسة وثلاثين ألف ريال منها على الشوام سبعة عشر ألف وباقيها على الكتبة» .

ولم يكف مراد بك - عندما استعاد سلطته فى مصر مع ابراهيم بك بعد رحيل حسن باشا - عن فرض المغارم على الذميين ، فقد ذكر مارسيل - أحد علماء الحملة الفرنسية - أن مراد بك أظهر يوما أنه عازم على تجديد الملابس والأمتعة العسكرية وطلب ما يقوم بنفقاتها، ففرض على اليهود مبلغا كبيرا من المال اعانة لهذا المشروع، فاجتمع رؤساء اليهود وتناقشوا ماذا يصنعون لينجوا من تلك الغرامة الفادحة فاستقر رأيهم على أن يرسلوا الى مراد بك كبيرى أحبارهم يسعيان فيما ينجيهم من تلك الغرامة، فسارا اليه ولما مثلا بين يديه قالا : «أيها الأمير انا فقراء، ولو بعنا ممتلكاتنا وأولادنا وأنفسنا لا تجمع عشر ما تطلبه منا، فاذا أعفيتنا من هذه الضريبة التى يستحيل علينا دفعها نطلعك على كنز عظيم يكفيك مؤنة هذه المطالب، وهذا الكنز لا يعلم به أحد سوانا وقد تنقل هذا السر فى طائفتنا حتى وصل الينا ونحن نوصله لأولادنا عندما تحضرنا الوفاة» .

ولقد ذكر مارسيل فى روايته أن الحبرين اليهوديين أخبرا مراد بك بأن هذا الكنز مدفون فى جامع عمرو بن العاص فى مصر القديمة وأن مراد بك تحايل بذكاء من أجل الوصول الى هذا الكنز

دون ما أثاره لأحد حوله وعند لحظة استخراج الكنز كان مراد بك والحبران اليهوديان يشهدون هذا الحدث الهام فاذا هو صندوق من حديد نصفه أحمر من الصدأ، ولما كسر الصندوق وجد فيه بعض أوراق الرق مكتوب عليها آيات قرآنية بخط كوفي ـ ويقول مارسيل أن الحبرين اليهوديين عندما رأيا ذلك فرا من بين الناس، وهربا قبل أن يظفر بهما مراد بك الذى استشاط غضبا، ولما عاد الى القاهرة ضاعف الغرامة المالية على اليهود وأصر على أن يدفعوها حالا، وكما يقول «مارسيل» ان مراد بك استعمل الكرباج لحثهم على ذلك.

وتشير الوثائق الرسمية والمصادر القبطية الى أن الرهبان استمروا يتمتعون بالاعفاء من الجزية حتى عام ١١٤٧هـ / ١٤٥٠ش/ ١٧٣٤م، حينما تقرر أن يصبح الرهبان الممولين للجزية شأنهم فى ذلك شأن جميع الفئات الذمية وذلك خروجا على التقاليد السابقة. ولعل من الأسباب التى دعت الدولة الى اتخاذ هذا الاجراء ما جرى عليه العرف الاسلامى من اعفاء أملاك الكنائس والأديرة والمعابد من الضرائب ، وعلى هذا أصبحت هناك طبقة مميزة من المصريين الأقباط لا تقع تحت طائل الأعباء المالية مما دعا كثيرا من النصارى الى اللجوء لوقف أملاكهم على الكنائس والأديرة كى يتخلصوا من أعباء الضرائب، ومن تسلط البكوات المماليك عليهم، وبدأت السلطنة العثمانية تفطن إلي ذلك فسعت إلي تجريد الأقباط المصريين من أى تراكم لأموالهم حتى لا نكون لهم مدخرات خاصة بهم تساندهم اقتصاديا وتسمح لهم بقدر ولو ضئيل من الحرية. فشمل الاحصاء الذى أجراه على أفندى ـ ملتزم الجوالي ـ عام ١٧٣٤م كافة الرهبان لكى يدفعوا الجزية.

قيود الدولة على أهل الذمة:

كانت السلطنة العثمانية وسلطات الحكم فى مصر تصدر بين الحين والآخر أوامرها بأن يلتزم أهل الذمة بتلك القيود التى فرضت عليهم منذ الغزو العربى والتى ورد ذكرها فى كتب الحنفية ، حيث جاء «ويميز الذمى فى زيه ومركبه وسرجه، ولا يركب خيلا ولا يحمل سلاح ولا أن يترك يركب الا لضرورة ولا يرحب بهم فى المجامع ولا يلبس ما يخص أهل العلم والزهد والشرف، وتميز أنثاه فى الطريق والحمام، ويجعل على داره علامة لكيلا يستغفر له، ولا يبدأ بسلام ويضيق عليه الطريق».

ويتضح مما سبق أنه كان على أهل الذمة الالتزام ببعض القيود فى الملابس ومظاهر حياتهم اليومية، ولقد تمثلت قيود الملابس فى الزامهم الغيار، فكان على النصارى لبس الاسود أو الأزرق، وشد الزنار حول أوساطهم فوق الثياب بينما تعين على اليهود اللون الأصفر. وتحدد اللون الأحمر لفرقة السامرة، أما نساء أهل الذمة فقد الزمن بقيود الألوان فى ملابسهن، ففرض على المرأة المسيحية أن تشد الزنار فوق ثيابها ومن تحت الازار كما فرض على المرأة الذمية أن تنتعل خفين من لونين متباينين لتميزها عن المرأة المسلمة ولتكون مسخة للناظرين.

ويستفاد مما أوردته بعض المصادر المعاصرة أن أهل الذمة حرم عليها دخول الحمامات العامة دون أن يميزوا أنفسهم بصليب من الحديد أو الرصاص أو النحاس فى رقابهم لتميزهم عن المسلمين، كما حرم عليهم ركوب الخيل الا أنه أجيز لهم ركوب البغال والحمير بالأكف عرضا ـ أى من ناحية

واحدة ـ كذلك حرم عليهم حمل السلاح والتقلد بالسيوف. ولم يكن يسمح للذميين باتخاذ خدم من المسلمين اذ يعتبر ذلك اهانة للاسلام وأهله.

ولقد ذكر أحمد شلبي ، وابن الراهب، أن الدولة أصدرت مرسوما في عام ٩٨٨هـ/ ١٢٩٦ق/ ١٥٨٠م ابان ولاية حسن باشا الخادم ـ قررت فيه أن يلبس اليهود الطراطير الحمر، وأن يلبس النصارى البرانيط السود. كذلك ذكرت احدى المصادر القبطية أنه نودى في البلاد في ٢١ طوبة ١٣٦٥ق / ٢٦ يناير ١٦٤٩م «أن لا يركب النصارى خيولا، ولا يلبسون شدودا حمراء ولا طواقي جوخ حمراء ولا مراكيب، وانما يلبسون شدودا زرقاء طول الواحد عشرون ذراعا».

ومن القيود التى فرضت على أهل الذمة أيضا في ظل الاحتلال العثمانى ، أنه لم يكن يسمح للأقباط بالسير في الجنازات ودفن موتاهم الا بعد الحصول على اذن من الباشا العثمانى. ويذكر أحد المؤرخين الأقباط أنه عند وفاة البابا متاوس الرابع ـ البطريرك (١٠٢) في عام ١٦٧٥م ، اجتمع سائر الكهنة الأقباط في يوم جنازته ليطلبوا الاذن من الباشا بدفنه فسمح لهم بعد أن أخذ منهم أموالا كثيرة.

وقد عادت السلطات الحاكمة في عام ١٣٩٤ق/ ١٦٧٨م وزادت من التشديد على أهل الذمة بالالتزام بالقيود المفروضة عليهم فقد ذكرت احدى المصادر القبطية أنه نودى في ذلك العام بأن يعلق النصارى في رقبتهم جلجل ، وفي رقبة اليهود جلجلين واحد عند ولوجهم الحمامات، وأن يصبغ كل من اليهود والنصارى عمائمهم وألا يلبسوا أثوابا من الجوخ أو الصوف، ولا تأتزر نساء النصارى بمآزر بيضاء، وتكون ملابس النصارى عموما سوداء، ولعل هذا هو السبب في أن معظم نساء مصر حتى اليوم يلبسون السواد.

ويروى أحمد شلبى طرفا من القيود التى فرضت على أهل الذمة في أوائل القرن الثامن عشر فيما يتعلق بدخولهم الحمامات لتمييزهم عن سائر المسلمين ، فيقول : «وفي خامس محرم سنة ١١٣٦هـ (٥ أكتوبر ١٧٢٣م) نزل أغا مستحفظان الى القاهرة وأشهر فيها النداء لجميع الطوائف اليهود والنصارى أن كل من دخل الحمام فلا يدخل الا وفي عنقه جلجل ليعرف الكافر من المؤمن». وكان من نتيجة ذلك أن «نادى بأن خدمة الحمام لا يخدمون داخل الحرارة أولادا مردا، وكذلك طائفة المؤمنين لا يخدمون أولادا مردا» ويعلق أحمد شلبى بعد ذلك على تلك الواقعة بقوله: ولم تمكث الا مدة يسيرة وعاد كل شيىء الى أصله».

ويبدو أن تلك القرارات قد أثارت أصحاب الحمامات الذين عقدوا اجتماعا فيما بينهم للتشاور في أمر ذلك الفرمان الذى سوف يسبب لهم خسائر فادحة خاصة وأن معظم المترددين على الحمامات من أهل الذمة، وأن استعمالهم للحمامات مصدر رزق لهم، وقد قرروا في اجتماعهم أن يجمع منهم مبلغ كبير من المال يقدمونه رشوة الى الأغا لإلغاء ما جاء بالفرمان ويقول أحمد شلبى في ذلك الصدد « .. ثم أن الحمامية اجتمعوا مع بعضهم البعض وقالوا الأمر خمار علينا وان حمام من غير أمرد لا يمكن، ثم اقتضى رأيهم أنهم جمعوا من بعضهم البعض ثمانية آلاف فضة وأوردوها الى الأغا على عدم المعارضة من دخول أهل الذمة الى الحمامين من غير جلاجل في أعناقهم ، فقطع لهم الأغا تذكرة بما أرادوا، ونزل شيخ الحمامين فرقها

على كل حمام مايتي نصف فضة لأن جملة حمامين القاهرة ثلاثة وسبعون حماما...».

ولقد حدثت واقعة طريفة ـ في أعقاب ما جرى ذكره ـ رواها احمد شلبي قائلا : « ومن جملة ما اتفق أن رجلا دخل الى حمام السكرية ، واذا برجل [مصرى] ذمى دخل الى الحمام وقلع حوائجه فإذا بالناطور قدم له الفوطة وقدم له جلجلا، فقال له الذمى : ما هذا ؟ فقال له الناطور: كما أمرنا الأغا، فـأبى الذمى أن يضع الجلجل في عنقـه ولبس حوائجه ولم يدخل وطلع يبربر..».

كذلك حدث في عام ١١٣٨هـ/ ١٧٢٦م - ابان ولاية على باشا ـ أن عاد وفرض على أهل الذمة بعض القيود على غطاء الرأس امعانا في إذلالهم والتمييز بينهم وبين المسلمين، فيذكر أحمد شلبي أنه «في رابع عشر جماد أول سنة ١١٣٨هـ، أعطى الباشا فرمانا إلى أحمد أغا لهلوبة ينادى به في شوارع القاهرة لطائفة اليهود بأن يلبسوا الطراطير والطواقي الزرق، والنصراني يلبس القلايق، والافرنج قلايق وبرانيط، ولا يلبسون جوخا أحمر ولا بوابيج صفر ولا مزوز ولا شخاشين، وكل من خالف ولبس فللرعايا أخذة منه وللحكام أن يخرجوا من حقه ولجميع الغرباء كل من قعد بعد ثلاثة أيام يقتل ويكون دمه هدرا».

ولقد روى أحمد شلبي تلك الواقعة التي تمثل حلقة من حلقات القيود التي فرضت على أهل الذمة فيما يتعلق بالزام الذمي الترجل من على دابته عند مقابلة المسلمين وخاصة اذا كانوا من الحكام والسادة الكبار مهما كانت مكانة الراكب في طائفته ، اذ كان عدم ترجله يؤدى الى الحاق الاهانة به ان لم يكن ضربه. يقول أحمد شلبي : «في يوم الجمعة واحد وعشرين محرم سنة ١١٤٩هـ (أول يونيو ١٧٣٦م) طلع عثمان كتخدا القزدغلي الى القرافة ففي حال رجوعه عند رأس الجودرية واذا ببترك (بطريرك) الأورام (الملكانيين) مقابله فقال له القواص : انزل يا بترك فأمر عثمان كتخدا بضربه فأنزلوه من فوق حماره وضربوه بالنبابيت فصارت الرهبان الذين صحبته يتلقون الضرب عنه، ثم انهم شالوه وهو مرضوض من النبابيت».

كما يذكر «شابرول» أيضا ، أن من الأمور التي كان تحرم على أهل الذمة قبول شهادتهم أو شهادة أى رجل ليس دينه الاسلام أمام المحاكم الاسلامية ضد المسلمين لذا لا يستدعى أهل الذمة مطلقا عند الفصل في الأمور المدنية أو الجنائية عند العثمانيين. ومع ذلك فيمكن لقائد الشرطة أن يستعلم من أى ذمى عن أمور تدخل في نطاق اختصاصه.

أما عن موقف الدولة من عمارة وترميم دور عبادة أهل الذمة فمن المعروف أن من الشروط التي وضعها الفقهاء المسلمون وألزموا أهل الذمة بوجوب اتباعها: «أنه لا يجوز أن يحدثوا بيعة ولا كنيسة ولا صومعة ولا بيت نار في دار الاسلام، ويعاد المنهدم من غير زيادة على البناء الأول ولا يعدل عن النقص الأول أن كفى». فقد روت المصادر القبطية عن واقعة اضطهاد حدثت للأقباط اليعاقبة في شهر أبيب ١٤١٧ق يوليو ١٧٠١م ، ابان ولاية أحمد قرة محمد باشا، بسبب شكوى رفعت اليه من بعض المسلمين بأن طائفة النصارى الأقباط احدثت بنيان جديدا في كنائسها، فعين الباشا أغا واشرك معه بعض المعماريين وقضاة الشرع وكلفهم بالكشف عن أبنية النصارى، فنزلوا وكشفو وأثبتوا

أن الكنائس تحوى البناء المحدث الجديد، ولكن جماعة من أمراء المماليك تدخلوا وتشفعوا لدى الباشا، ففرض على الأقباط غرامة مالية كبيرة. واجتمع البابا يؤانس السادس عشر ـ البطريرك ـ بكبار الأراخنة الأقباط، واتفق الرأى بينهم على أن يطوف البطريرك بحارات النصارى ويدخل البيوت ويجمع منها ما تيسر الى أن يتم الحصول على الغرامة المفروضة باكملهاولعلها كانت خطة للابتزاز.

وحدث فى عام ١١٤٢هـ/ ١٧٢٩م ـ ابان عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ ـ ١٧٣٠) أن رفع اليه بعض المسلمين شكوى جاء فيها أنه اشيع بين الناس خبر ضم والحاق شيء من مقابر المسلمين لكنيسة النصارى الكائنة بمصر العتيقة الجارى تعميرها بموضعها القديم، ونرجو ونسترحم صاحب الدولة السلطان أفندينا باصداره أمره الكريم لصاحب العزة قاضى عسكر أفندى حتى يصير الكشف عن الأمر المذكور بمباشرة أحد من قبل الشرع».

هذا وقد بعث السلطان العثمانى ـ ردا على تلك الشكوى ـ بفرمان فى نفس العام جاء فيه: «... أنه بمصر القديمة دير مارى مينا الكائن بالقرب من فم الخليج بجوار تربة الأرمن ودير الملاك القبلى الكائن بدير الطين من الآثار الشريفة ودير منقريوس ودير قصر الشمع ودير النحلة المعدة للنصارى القبط والأورام وان فى بعض من الأديرة المذكورة أدخلوا من تراب أموات المسلمين فى الأديرة المذكورة وبعضهم بنوا وجددوا بناء عاليا عن رسومها القديمة وأحدثوا فيها بدائع. ومن علو البناء صار يكشف على بيوت أمة محمد وأن فى ادخالهم القطعة من تربة أموات المسلمين وفى تجديدهم البناء العالى اهانة» وقد اشترط السلطان فى ذلك الفرمان».. ان المعنيين لهذه المهمة يكونون من أهل الديانة لأجل الكشف عن ذلك وهدم ما أحدثوه من البناء واخراج ما أدخلوه من تربة أموات المسلمين وابقاء اديرتهم على رسومها القديمة على وجه الحق من غير غرض فى ذلك».

ولقد تعين لتلك المهمة عبد الرحيم عزى كشاف الاوقاف، ومصطفى أفندى كتخدا وشيخ الاسلام، والسيد الشريف يونس أفندى قاضى الديوان، والشيخ على كاتب الكشف ورفيقه الشيخ حسن، حيث توجهوا الى مصر القديمة وبصحبتهم الأمير يوسف أغا معمر باشى، من أمراء المتفرقة، والسيد الشريف عاشور ـ رئيس المهندسين ـ والحاج عيد ـ المهندس ـ والحاج عبد الهادى ابن ابراهيم ـ المهندس ـ وذلك للكشف على دير مارمينا الكائن بالقرب من فم الخليج بمصر القديمة، ودير الملاك القبلى الكائن بدير الطين، ودير قصر الريحان والكنيسة الكبرى، ودير منقريوس ودير النحلة والكنائس المعدة للنصارى القبط والنصارى الأورام التى بمصر القديمة. ولقد جاء فى الفتوى التى صدرت فى هذا الشأن بأن «أولئك المعينين لتلك المهمة وجدوا ان تلك الابنية على حالتها القديمة من غير احداث حادثة ولا ضرر بجار ولا مار، ولا زيادة على ما كانت عليه من قديم الزمان، ولا بداخلها من ترب أموات المسلمين وانما بها مرمات وعمارات متفرقة جزئية من العلو والسفل على الصنعة التى كانت عليها قديما، ولم تكن خارجة عن أصلها ولا بها بناء بارز عن أس جدرهم ولا علو عن قديم أصلها وأنها جميعا الآن على صفتها التى كانت عليه من قديم الزمان». وبناء على ذلك فقد أصدر القاضى ـ قاضى القضاة ـ تقريرا فى هذا الشأن.

أورد فيه أنه «لم يكن هناك مقتضى شرعي لهدم الديورة المذكورة كما أن المهندسين المذكورين أخبروا بأن البناء المذكور ليس مضرا على الجار والمار ولم يكن بارزا عن اس جدره وأن ما قيل عن ذلك هو بخلاف الحقيقة كما أن الكنيسة صار تعميرها بموضعها القديم وعليه لا لزوم للتعرض للكنيسة المذكورة بعد أن تبين عدم الحاق ولا ضم شيء من مقابر المسلمين.

ولقد حدث في عام ١١٥٧هـ/ ١٧٤٢م أن أمر بالكشف على الزاوية الكائنة بين كنيستي ابى سيفين وأنبا شنودة لا دعاء بعض المسلمين في مصر القديمة أن النصارى اختلسوا أجزاء من الزاوية المذكورة وأدخلوها بكنيستي أنبا شنودة ومرقوريوس، وتعين لتحقيق تلك الشكوى قاضي أوقاف مصر والمهندسين، والنظر أيضا في الترميم اللازم، وقد وجدوا بخلاف ما ادعوا به. وتصرح باجراء العمارة اللازمة لهذه الكنائس.

كذلك حدث في عام ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م أن تم تعيين من يلزم للكشف على أديرة النصارى ومن جملتها دير أبي رويس، وذلك بناء على شكوى بعض المسلمين من أن كنيسة أبي رويس القائمة بالقرب من مقام الشيخ الدمرداش قد تعدت حدود ترميمها باستحداث رسوم جديدة لها. وقد أسفر الكشف عن أن الكنيسة المذكورة على ما هي عليه من قديم الزمان بخلاف المدعى به.

ويتضح ـ مما أوردناه من وثائق ـ أن العادات المتبعة خلال الاحتلال العثماني أن يجرى كشف دورى كل عام على دور عبادة أهل الذمة الكائنة في الديار المصرية بناء على فرمان يصدره السلطان العثماني، وبمجرد وصول الفرمان يصير الكشف على الكنائس والأديرة كما يعد تقرير شامل ومفصل يحتوى على كافة البيانات والمعلومات عن صحتها، وعن جباية كافة رسومها وعوائدها القديمة.

ثبت بالبابوات المصريين الأقباط وفترة ولا يتهم للكرسي البابوي بالعصر العثماني

الترتيب في قائمة البابوات	الاسم	الترتيب في قائمة البابوات لنفس الاسم	تاريخ التولية بالميلادي	تاريخ الوفاة بالميلادي
٩٤	يوحنا (يؤانس)	١٣	١٤٨٤	١٥٢٤
٩٥	غبريال	٧	١٥٢٥	١٥٦٨
٩٦	يوحنا (يؤانس)	١٤	١٥٧١	١٥٨٦
٩٧	غبريال	٨	١٥٨٧	١٦٠٣
٩٨	مرقس	٥	١٦٠٣	١٦١٩
٩٩	يوحنا (يؤانس)	١٥	١٦١٩	١٦٢٩
١٠٠	متاوس (متى)	٣	١٦٣١	١٦٤٦
١٠١	مرقس	٦	١٦٤٦	١٦٥٦
١٠٢	متاوس (متى)	٤	١٦٦٠	١٦٧٥
١٠٣	يوحنا (يؤانس)	١٦	١٦٧٦	١٧١٨
١٠٤	بطرس	٦	١٧١٨	١٧٢٦
١٠٥	يوحنا (يؤانس)	١٧	١٧٢٧	١٧٤٥
١٠٦	مرقس	٧	١٧٤٥	١٧٦٩
١٠٧	يوحنا (يؤانس)	١٨	١٧٧٠	١٧٩٦
١٠٨	مرقس	٨	١٧٩٧	١٨١٠

ـ ويلاحظ انا نذكر دائما اسم البابا وترتيبه في قائمة البابوات.

* انظر «صفحات مطوية من تاريخ مصر العثمانية. د. موسى موسى نصر.
الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٩٠.

فتوي شرعية لصالح الأقباط

محكمة الدقهلية س ٥ ص ١٧٦م ٤٦٨

صورة أمر شريف أحضره جماعة النصارى الشاكين بالمنصورة اللغة التركية هم يذكرون انهم يسددون للادارة مال الميرى ومال الجزية ويشتكون من الأشياء التى سترد بعد ذلك.

م ٤٦٩ صورة الفتوى التى بأيديهم فى خصوص ذلك

ماذا يقول السادة العلماء رضى الله تعالى عنهم فى طايفة من النصارى ساكنين بمدينة المنصورة بأملاكهم عن أبائهم وأجدادهم ، وبجوارهم زاوية بابها للشارع المسلوك وأصلها كانت ملكا للذمى ، وفى كل قليل يتعرض لهم جماعة بالأذية والاضرار ويعينون عليهم معينا من الديوان بالتساويف الباطلة، ويتعللون عليهم بأنهم يعلون بنايهم (بنائهم) على المسلمين. وانما يقصدون بذلك ظلمهم وغرامهم بغير وجه شرعى. فهل والحالة هذه يجوز للجماعة المذكورين أذية طايفة النصارى المذكورين بالتساويف الباطلة عليهم والتعللات الواهنة. ويحرم عليهم ذلك لكون الذميين المذكورين (معصومون) خصوصا وقد أوصى عليهم سيد الأنام ومصباح الظلام لقوله عليه الصلاة والسلام من آذى ذميا أو انتقص ماله كنت حجيجه يوم القيامة. وان استحلوا ظلمهم بذلك هل يكفرون بذلك وتبين زوجاتهم بذلك. وهل يثاب ولى الأمر نصره الله تعالى على الاخذ (...) وعلى منع كل من يتعرض بظلامة أو غرامة أو غير ذلك أفيدوا الجواب؟

(الرد)

مادة ٤٧٠

لا تجوز للجماعة المذكورين أذية طايفة النصارى المذكورين بالتساويف الباطلة عليهم والتعللات الواهية ويحرم عليهم ذلك ويثاب ولى الأمر على منع من يتعرض لهم بغير وجه شرعى والله تعالى أعلم وكتبه عبد المنعم البشبيشى الحنفى.

مادة ٤٧١

يحرم على من سوف يعتدى على جماعة النصارى أو سعى فى أذيتهم أو ظلمهم أو تغريمهم شيئا لقول الصادق المصدوق عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام من أذى ذميا أو أنقص ماله كنت حجيجه يوم القيامة الى غير ذلك مما روى فى هذا المعنى. وللنصارى المذكورين التصرف فى بنايتهم وان عرف من تسبب فى غرمهم كان لهم عليه الرجوع بجميع ما غرموه عليه لتسببه فى ذلك ، وبيان من له ولاية الأمر فى ذلك على كف القهر عن الرعية المذكورين، وان كانوا نصارى هم من جماعة الرعية وكل راع مسئول عن رعيته. والله الموفق وكتب أفقر العباد الى عفو ربه الجواد محمد بن قمر الباب الأزهرى المالكى عفى ربه عنه.

مادة ٤٧٢

نعم لا يجوز للجماعة المذكورين أذية طايفة النصارى المذكورين ولا اضرارهم ولا ظلمهم ولا التسبب فى تغريمهم بالتساويف الباطلة عليهم ولا التعلل عليهم بالأوهام الباطلة الواهنة، بل يحرم على الجماعة المذكورين ذلك، ويلزمهم التعذير الشديد اللايق بحالهم الزاجر لهم ولأمثالهم عن قبيح أفعالهم بما يراه الحاكم باجتهاده من حبس أو ضرب أو نفى أو غير ذلك باجتهاد الحاكم. بل كل من استحل ظلمهم كفر وخرج عن الإسلام وجرت

عليه أحكام المرتدين لأنهم (معصومون) فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يظلمهم لأمر سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم بالوصية بهم في أحاديث كثيرة. ويثاب ولي الأمر نصره الله تعالى على الأخذ بيدهم وعلى منع كل من يتعرض لهم بظلم أو غرم وغير ذلك والله أعلم وكتبه محمد المرحومي الشافعي.

مادة ٤٧٣ ـ الحمد لله

لا يجوز للجماعة المذكورين أذية طايفة النصارى المذكورين بالتساويف الباطلة عليهم ويحرم عليهم ذلك لكون الذميين المذكورين (معصومون) ولا يجوز لأحد أذيتهم بغير وجه شرعي والله أعلم كتبه حمدان المقدسي الحنبلي.

ص ١٨١ م ٤٩١

صورة بيورلدى شريف بسبب رفع بنيان النصارى واليهود ومنعهم من علو البنيان المشرف على أمة محمد (أي منعهم من تعلية منازلهم عن منازل المسلمين) الى حكام وقضاة ولايات القليوبية والشرقية والمنصورة والغربية والمنوفية ودمياط والبحيرة والجيزة.

في ١٠ م ١٠٨٢هـ

ملحق رقم (١)

الأوامر الصادرة من أمير اللواء السلطاني الى ناحية ملوى بالمنيا بفرض بعض القيود على الأقباط (١٣٦٥ للشهداء/ ١٦٤٩م) «لما كان تاريخ يوم الثلاثاء ٢١ طوبة ١٣٦٥ للشهداء حضر الى ناحية ميلوى (ملوى) حضرة مولانا أمر (أمير) اللواء الشريف السلطاني الأمر على سبيل أمر اللواء وأخذ العبيد والجوارى (جوارى الأقباط) ونادى منادى أن لا يركبوا النصارة (النصارى) خيول ولا يلبسوا شدود زرق، وطول الشد عشرة أذرع من غير زيادة، والله تعالى يحسن العاقبة والحمد لله وحده».

بطريركية، ٥٠ مقدسة ورقة ١٣٤ب

ملحق رقم (٢)

الأوامر الصادرة من المحتسب
بفرض بعض القيود على الأقباط
واليهود والمسلمين

«نادى (المحتسب) ان النصارة (النصارى) ما يدخلوا الحمام (الا) كل واحد بجلجل في رقبته واليهود بجلجين، وبعد قليل نادى النصارى واليهود يصبغوا عمايمهم (عمائمهم). وبعد قليل نادى انهم لا يلبسون جوخ ولا أصواف (الجوبري) ولا هنادى ولا بروجيات، وبعد قليل نادى للمسلمين أن لا أحد يمشي حافي ولا يدخلوا حمام الا بقبقاب، وكلمن (كل من) سمع الاذان ولا يدخل يصلى يظربه (يضربه) ويجرسه. ونادى أن لا أحد من النسوان (النساء) يركب برقع وان نسوان النصارة ما يلبسوا يزر (ازار) بيض، ونادى أن النصارى لا يلبسوا ثياب بيض ولا بفت بيض ولا أحزمة بيض ولا لباسات بيض الا كل شيء ان لبسوه يكون اسود، وهذا ما حصل، ونسأل من صاحب كنوز الرحمة أن يصلح أحوال شعبه، فان جميع هذه من كترة (كثرة) خطايانا وقلت (قلة) المحبة وكتر الحسد والسلام.

١٣٩٤ للشهداء/ ٧٧، ١٦٧٨م
المتحف القبطي، ٩٤ مقدسة الورقة الثانية

ملحق رقم (٣)

مشاكل تجاور المساجد والكنائس
حجة الكشف على المساجد
والكنائس الكاينين بقصر الجمعة
وبحارة شنودة بمصر القديمة

بعد الاذن الكريم العالى من حضرة سيدنا ومولانا شيخ مشايخ الاسلام ملك العلما الاعلام قاضى النقض والابرام محرر القضايا والاحكام مرجع عامة الفضلا الفخام مؤسس قواعد الشرع على أتم نظام رحمة الله الشاملة للخاص والعام مؤيد شريعة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام الناظر فى الاحكام الشرعية والأمور الدينية بمدينة مصر المحمية دامت له الرتب العلية بخدمة سيدنا محمد خير البرية. آمين بنظر القضية بطرة المرفوعة لديه من قبل الشيخ شمس الدين محمد الشعرانى مضمونها ان بمصر القديمة بحارة النصارى المعروفة بقصر الجمع كنايس مجاورة لمساجد المسلمين وبناؤها شاهق فى العلو على المساجد وان النظار على الكنايس اخربوا المساجد وأخذوا غالب طوبهم وأحجارهم وعمروا بها كنايسهم والمسئول من الصدقات العلية أمركم الشريف لنايبكم بمصر القديمة بان يكشف على ذلك ويكتب بذلك حجة ويعرضها على حضرتكم لترتبوا على كل أمر مقتضاه ولكم الدعا فبرز أمره الشريف لنظر القصة المذكورة بالكشف، امتثل ذلك مولانا الحاكم المشار اليه أعلاه الى قصر الجمعة المذكور وكشفوا جميعا على الكنايس المذكورين أعلاه فوجدوا مسجدا بين كنيستين احداهما تعرف بكنيسة بربارة متعلقة بالنصارى والثانية تعرف بكنيسة (اليهود) ووجدوا حائط الكنيستين المذكورين شاهقتا فى العلو على حائط المسجد المذكور، وجعلوا حايط كنيسة النصارى من المسجد المذكور وهو خراب مستهدم بينهما وكشفوا أيضا على كنيسة تعرف بالمعلقة فوجدوا بجوارها مسجدا خرابا مستهدما موضوع به بعض طوب وأتربة والكنيسة المذكورة عامرة متقنة البنا بجواره وكشف على كنيسة تعرف بأبو سرجة فوجدوا بجوارها مسجدا يعرف بوقف المرحوم ابراهيم النعمانى وعلوه آيل الى السقوط من الداخل وحائط الكنيسة شاهق عليه، وكشف على كنيسة تعرف بالسيدة فوجدوا بالقرب منها مسجدا (وأتربة) لم يظهر الآن منه غير معالم المحراب والمنار. ثم كشف أيضا على حارة شنودة فوجدوا بها كنيستين احداهما تعرف بمنقريوس والثانية تعرف بالقلاية لم يوجد بجوارها مسجد ووجدوا أبواب الكنايس المذكورين جميعهم مغلقين، فعند ذلك أمر مولانا الحاكم المشار اليه أعلاه بتسمير الكنايس المذكورين جميعهم فسمروا جميعا بأمر منه. هذا ما تحرر من الكشف المذكور أعلاه وكتب ذلك ضبطا لما هو الواقع ليعرض على من له ولاية الأمر فى ذلك وغيره ليرتب على كل أمر مقتضاه تحريرا فى تاريخه.

مصر القديمة س١٠١ ص ٧٠ م ١٨٩

٢٦ ذى القعدة ١٠٥٧ هـ - ٢/ ١٢ ١٦٤٧م


السلطان مصطفى الثالث . كان سلطانا من ١٧٥٧ - ١٧٧٤م.

(وصــل)

وفى تلك السنة أعنى سنة إحدى وسبعين ومائة وألف نزل بقارب شيحة*، الذى أخذ المليح والمليحة، مات به الكثير من الناس المعروفين وغيرهم مالا يحصى، ثم خفّ وأخذ ينقر فى سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف، وكان قوة عمله فى رجب وشعبان، وولد للسلطان مصطفى مولود فى تلك السنة، وورد الأمر بالزينة فى تلك الأيام فكانت أبرد من يخ، وهذا المولود هو السلطان سليم المتولى الآن، ولما قتل حسين بك القازدغلى المعروف بالصابونجى وتعين فى الرياسة بعده على بك الكبير وأحضر خشداشينه المنفيين واستقر أمرهم، وتقلد إمارة الحج سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف، فبيّت مع سليمان بك الشابورى وحسن كتخدا الشعراوى وخليل

* طاعون قارب شيحه. فى ١١٧١ = ١٧٥٧م.

* مولد السلطان سليم الثالث



جاويش حيضان مصلى وأحمد جاويش المجنون، واتفق معهم على قتل عبد الرحمن كتخدا في غيبته، وأقام عوضه في مشيخة البلد خليل بك الدفتردار، فلما سافر استشعر عبد الرحمن كتخدا بذلك فشرع في نفي الجماعة المذكورين، فأغرى بهم علي بك بلوط قبن فنفى خليل (٦١٠) جاويش حيضان مصلى وأحمد جاويش إلى الحجاز من طريق السويس على البحر، ونفى حسن كتخدا الشعراوى وسليمان بك الشابورى مملوك خشداشه إلى فارسكور، فلما وصل علي بك وهو راجع بالحج إلى العقبة وصل إليه الخبر فكتم ذلك، وأمر بعمل شنك يوهم من معه بأن الهجّان أتاه بخبر سار، ولم يزل سايراً إلى أن وصل إلى قلعة نخل، فانحاز إلى القلعة وجمع الدويدار وكتخدا الحج والسدادرة وسلمهم الحجاج والمحمل وركب في خاصته وسار إلى غزة وسار الحجاج من غير أمير إلى أن وصلوا إلى أجرود، فأقبل عليهم حسين بك كشكش[1] ومن معه يريد قتل علي بك فلم يجده، فحضر بالحجاج ودخل بالمحمل إلى مصر، واستمر علي بك بغزة نحو ثلاثة أشهر وأكثر، وكاتب الدولة بواسطة باشة الشام فأرسلوا إليه واحد أغا ووعدوه ومنوه وتحيلوا عليه حتى استصفوا ما معه من المال والأقمشة وغير ذلك، ثم حضر إلى مصر بسعاية نسيبه علي كتخدا الخربطلي وأغراضه، ومات بعد وصوله إلى مصر بثمانية أيام، يقال إن بعض خشداشينه شغله بالسم حين كان يطوف عليهم للسلام.

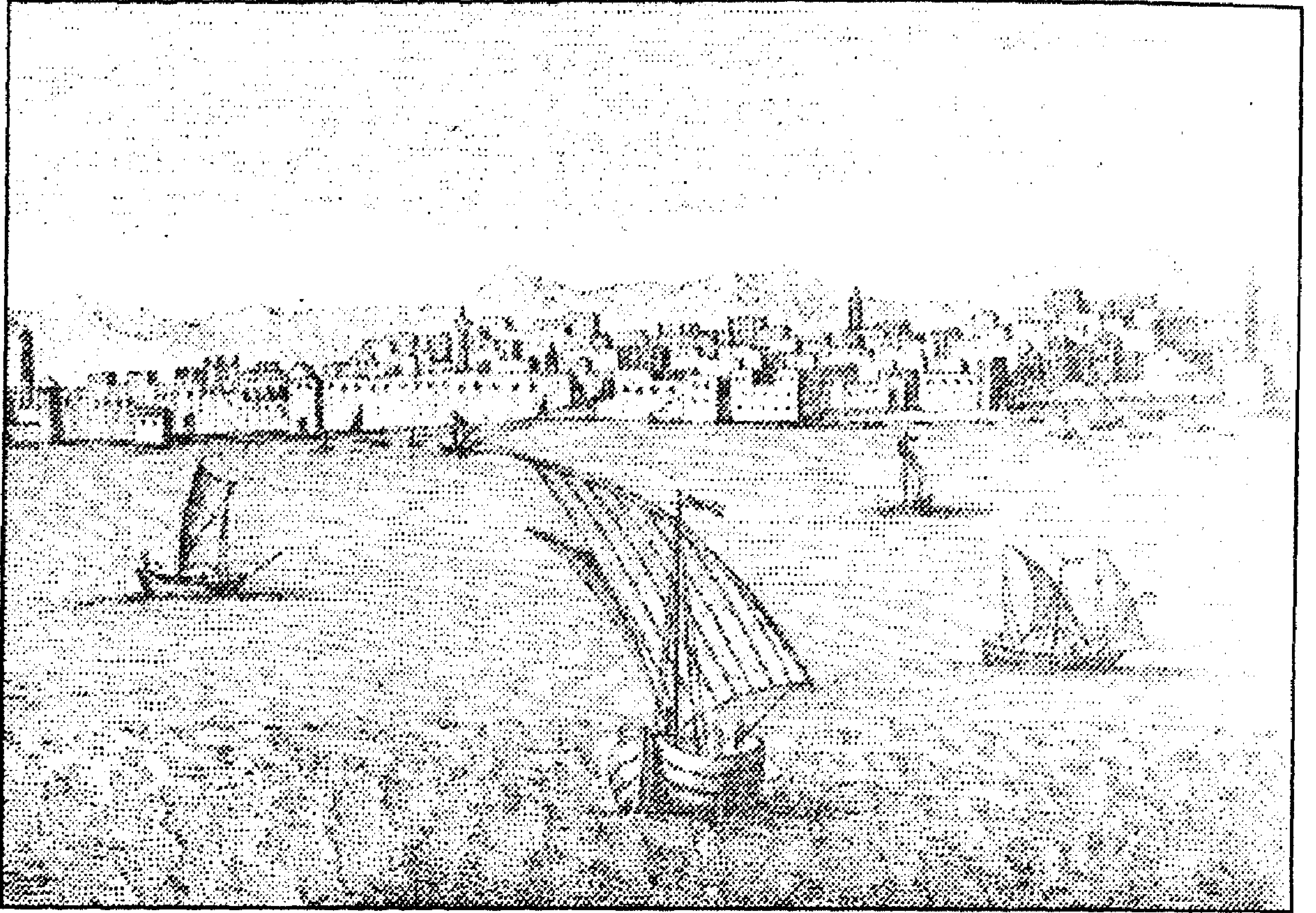
وفي تلك السنة حضر مصطفى باشا واليا على مصر واستمر إلى أواخر سنة أربع وسبعين ومساية وألف، ونزل إلى القبة متوجها إلى جده فأقام هناك، وحضر أحمد باشا كامل*

١١٧٣هـ.
١٤٧٦ق.
١٧٥٩م.
غاية الفيضان: ١٧ قيراط / ٢٢ دراع

- ١ توت سنة ١٤٧٦ = ١٠ سبتمبر ١٧٥٩ = الاثنين ١٧ محرم سنة ١١٧٣.
- فيها كان انهدام بعلبك وطرابلس بسبب زلازل عظيمة حصلت في ١٤ ربيع ثاني.
- فيها عزل محمد سعيد باشا، بعد أن حكم مصر سنتين، وتولى بعده مصطفى باشا.
- ١ يناير ١٧٦٠ = ٢٤ كيهك ١٤٧٦ = الثلاث ١٢ جماد أول ١١٧٣.
- فيها جدد الأمير عبد الرحمن كتخدا رحاب السيدة زينب، رضي الله عنها، ووسعه، وبنى بجوارها رحاب سيدى محمد العتريس، أخي سيدى ابراهيم الدسوقي، وفيها جدد المذكور جامع السيدة سكينة، بشارع الخليفة.
- فيها اخترع جورج بتراج، الفرنساوى، آلة التلغراف.
- فيها حاصرت البروسيانيون درسده بدون فائدة ولا طائل.
- فيها كان أو استعمال مانعة الصواعق التي اكتشفها فرنكلين سنة ١٧٥٢.

|١٠٧| مصطفى باشا.
١١٧١ = ١٧٥٧م.

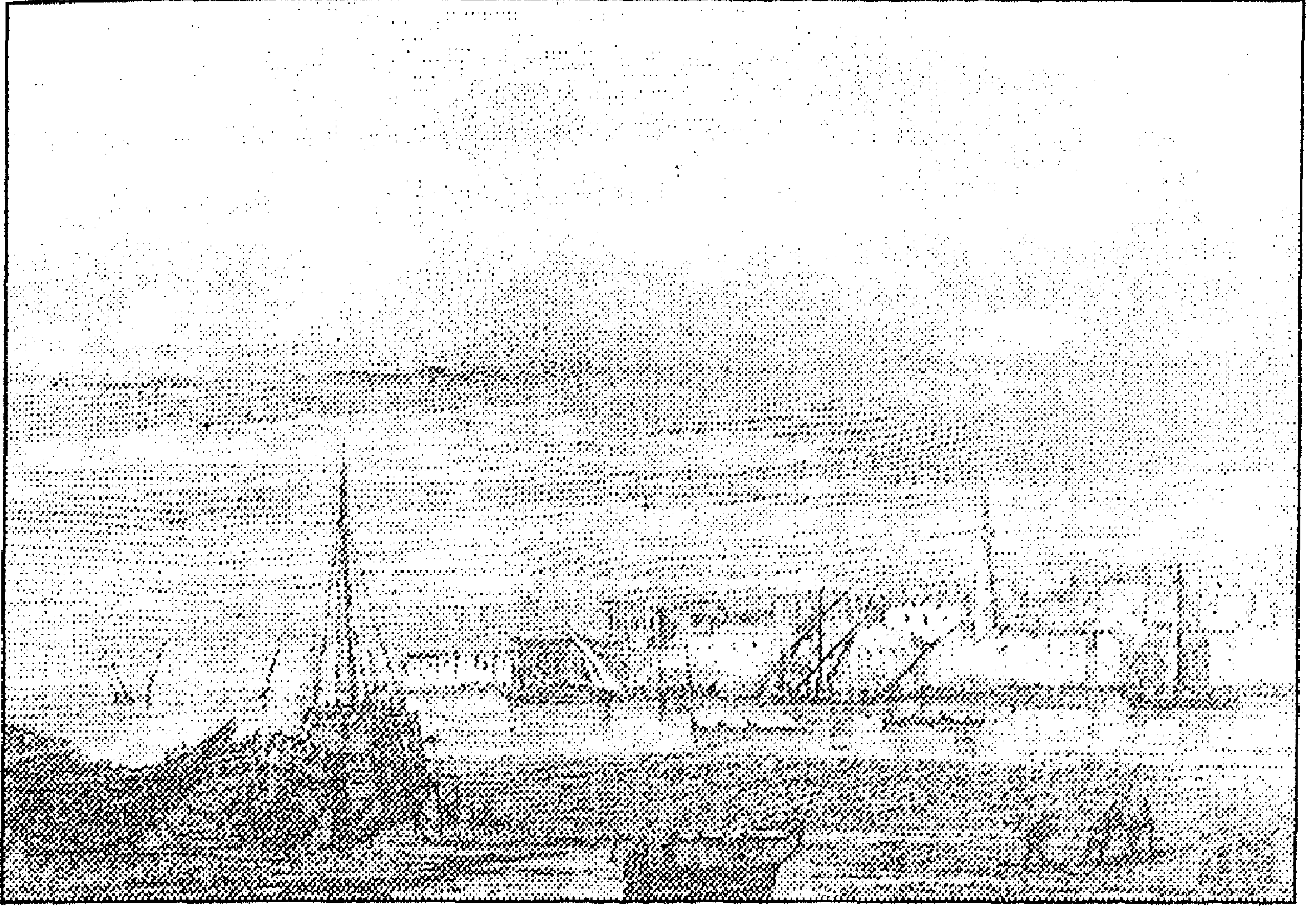
|١٠٨| أحمد باشا كامل.
١١٧٤ = ١٧٦٠م.



* ميناء جدة

المعروف بصبطلان فى أواخر سنة أربع وسبعين ومابة وألف [١٧٦٠م]، وكان ذا شهامة وقوة مراس، فدقق فى الأحكام وصار يركب وينزل ويكشف على الأنبار والغلال، فتعصبت عليه الأمرا وعزلوه وأصعدوا مصطفى باشا المعزول وعرضوا (ص٦١١) فى شأنه إلى الدولة، وسافر بالعرض الشيخ عبد الباسط السنديونى، ووجه مصطفى باشا خازنداره إلى جدة وكيلا عنه، ولما وصل العرض إلى الدولة وكان الوزير إذ ذاك محمد باشا راغب فوجهوا أحمد باشا المنفصل إلى ولاية قندية[٧]، ومصطفى باشا إلى حلب، ووجهوا باكير باشا* والى حلب إلى مصر، فحضر وطلع إلى القلعة وأقام نحو شهرين ومات ودفن بالقرافة سنة خمس وسبعين ومابة وألف، وحضر

١٠٩ باكير باشا.
١١٧٥ = ١٧٦١م.



* ميناء السويس.

حســن باشــا فى أواخــر سنة ســت وســبــعين ثم عــزل، وحضـر حـمـزة باشا فى سنة تسع وسبـعين ومـاية وألـف [١٧٦٥م] وســيأتى تتمة ذلك.

واستـقر الحـال وتقلد فى إمـارة الحج حسين بك كـشكش وطلع سنة أربع وســبــعين ومـاية وألف [بالحج]، ووقف له العرب فى مضيق وحضـر إليه كـبراؤهم وطلبـوا مطالبـهم وعوائدهم، فأحضر كاتبه الشيخ خليل كاتب الصُرة وأمرِهم بدفع مطلوبات العرب، فذهبوا معه إلى خيمته وأحضر المال وشرع الصراف يعُدُّ لهم الدراهم، فضـرب عند ذلك مدفع الشيل فقال لهم «حينئذ لا يمكن فى هذا الوقت فاصبروا حـتى ينزل الحج فى المحطة يحـصل المطلوب» وسـار الحج حـتى خـرج من ذلك المضـيق إلى الوسع، ورتب مماليكه وطوايفه وحضر العرب وفيهم كبيرهم هزّاع، فأمر بقتلهم

١١٠ حسن باشا.

١١٧٤هـ.
١٤٧٧ق.
١٧٦٠م.
غاية الفيضان: ١ قيراط / ٢٤ ذراع

□ ١ توت سنة ١٤٧٧ = ٩ سبتمبر ١٧٦٠ = الثلاثاء ٢٨ محرم سنة ١١٧٤.
□ فيها استولت النمساويون على غلاتز، والروسيون على برلين □ فيها افتتحت الانكليز كندا.
□ فيها كانت وفاة جورجي الثاني، وسلطنة جورجي الثالث على انكلترة.
□ ١ يناير ١٧٦١ = ٢٥ كيهك ١٤٧٧ = الخميس ٢٤ جماد أول ١١٧٤.
□ فيها عزل مصطفى باشا، بعد أن حكم مصر سنة واحدة، وتولاها بعده أحمد كامل باشا.
□ فيها انهزمت الفرنساوية انهزاما بحريا في الهندستان.
□ فيها استولت الانجليز على بوندشيرى.

فنزلوا عليهم بالسيوف فقتلوهم عن آخرهم، وفيهم نيف وعشرون كبيراً من مشايخ العربان المشهورين خلاف هزاع المذكور، وأمر بالرحيل وضربوا المدفع وسار الحج وتفرقت قبايل العرب ونساؤهم يصرخون بطلب الثأر، فتجمعت القبايل من كل جهة ووقفوا بطريق الحجاج وفي المضايق وهو يسوق عليهم (ص٦١٢) من أمام الحج وخلفه ويحاربهم ويقاتلهم بمماليكه وطوايفه، حتى وصل إلى مصر بالحج سالماً ومعه روس العربان محملة على الجمال، ودخل المدينة بالمحمل والحجاج منصوراً مؤيداً، فاجتمع عليه الأمرا من خشداشينه وغيرهم وقال له علي بك بلوط قبن «إنك أفسدت علينا العرب وأخربت طريق الحج، ومن يطلع بالحج في العام القابل بعد هذه الفعلة التي فعلتها؟» فقال «أنا الذي أسافر بالحج في العام القابل ومني للعرب أصطفل!!» فطلع أيضاً في السنة الثانية وتجمع عليه العرب ووقفوا في كل طريق ومضيق وعلى روس الجبال، واستعدوا له بما استطاعوا من الكثرة من كل جهة فصادمهم وقاتلهم وحاربهم وصار يكر ويفر ويحلق عليهم من أمام الحج ومن خلفه حتى شردهم وأخافهم وقتل منهم الكثير، ولم يبال بكثرتهم مع ما هو فيه من القلة فإنه لم يكن معه إلا نحو الثلثماية مملوك خلاف الطوايف والأجناد وعسكر المغاربة، وكان يبرز لحربهم حاسراً رأسه مشهوراً حُسامه فيشتت شملهم ويفرق جمعهم، فهابوه وانكمشوا عن ملاقاته وانكفوا عن الحج، فلم تقم للعرب معه بعد ذلك قايمة، فحج أربع مرات أميراً

١١٧٥هـ.
١٤٧٧ق.
١٧٦١م.
غاية الفيضان: ٥ قيراط / ٢٢ ذراع
- ١ توت ١٤٧٨ = ٩ سبتمبر ١٧٦١ = الأربع ٩ صفر سنة ١١٧٥.
- فيها الأمير عبد الرحمن كتخدا أجرى عمارة عظيمة في جامع سيدنا الحسين وزاد في تحسينه ورونقه، كذا في جامع السيدة عائشة النبوية، بقرب ميدان محمد علي.
- في ١٢ ربيع الثاني حصلت زلازل عظيمة في سوريا.
- ١ يناير سنة ١٧٦٢ = ٢٥ كيهك سنة ١٤٧٨ = الجمعة ٥ جماد الثاني ١١٧٥.
- فيها كانت ولادة السلطان الغازي سليم خان الثالث.
- فيها عزل العسكر أحمد كامل باشا، بعد أن حكم سنة، وأرجعوا مصطفى باشا، الذي كان قبله، وعرضوا ذلك للدولة فلم تقبل، وأمرت أن أحمد باشا يكون واليا في قرنية ومصطفى باشا في حلب، وباكير باشا في مصر، فتولاها شهرين ثم توفي.
- فيها فقدت الفرنساويون والاسبانيوليون مستعمراتهم.

١١٧٦هـ.
١٧٤٨ق.
١٧٦٢م.
غاية الفيضان: ١٣ قيراط / ٢١ ذراع
- فيها كانت نهاية المحاربات بين البروسيا وبين أسوج.
- ١ توت ١٤٧٩ = ٩ سبتمبر سنة ١٧٦٢ = الخميس ١٩ صفر سنة ١١٧٦.
- فيها تولى مصر حسن باشا بعد وفاة باكير باشا.
- فيها عزل بطرس الثالث القيصر الروسي وسجن ثم قتل.

بالحج آخرها سنة ست وسبعين ومساية وألف، ورجع سنة سبع وسبعين ومساية وألف [١٧٦٣م]، ولم يتعرض له أحد من العرب ذهاباً وإياباً بعد ذلك، وكذلك أخاف العربان الكاينين حوالى مصر ويقطعون الطريق على المسافرين والفلاحين ويسلبون الناس، فكان يخرج إليهم على حين غفلة فيقتلهم وينهب مواشيهم (ص٦١٣) ويرجع بغنايمهم وروسهم فى أشناف [مقاطف] على الجمال، فارتدعوا وانكفوا على أفاعيلهم وأمنت السبل وشاع ذكره بذلك، وفى هذه المدة ظهر شأن* علي بك بلوط قبَنْ واستفحل أمره وقلد إسماعيل بك الصنجقية وجعله اشراقه وزوجه هانم بنت سيده، وعمل له مهما عظيما احتفل به للغاية ببركة الفيل، وكان ذلك فى أيام النيل سنة أربع وسبعين ومماية وألف، فعملوا على معظم البركة أخشاباً مركبة على وجه الماء يمشى عليها الناس للفرجة، واجتمع بها أرباب الملاهى والملاعيب وبهلوان الحبل وغيره من ساير الأصناف والفرج والمتفرجون والبياعون من ساير الأصناف والأنواع، وعلقوا القناديل والوقدات على جميع البيوت المحيطة بالبركة، وغالبها سكن الأمراء والأعيان أكثرهم خشداشين بعضهم البعض ومماليك إبراهيم كتخدا أبى العروس، وفى كل بيت منهم ولايم وعزايم وضيافات وسماعات وآلات وجمعيات، واستمر هذا الفرح والمهم مدة شهر كامل، والبلد مفتحة والناس تغدو وتروح ليلا ونهاراً للحظ والفرجة من جميع النواحي، ووردت علَى علي بك الهدايا والصلات من إخوانه الأمراء والأعيان

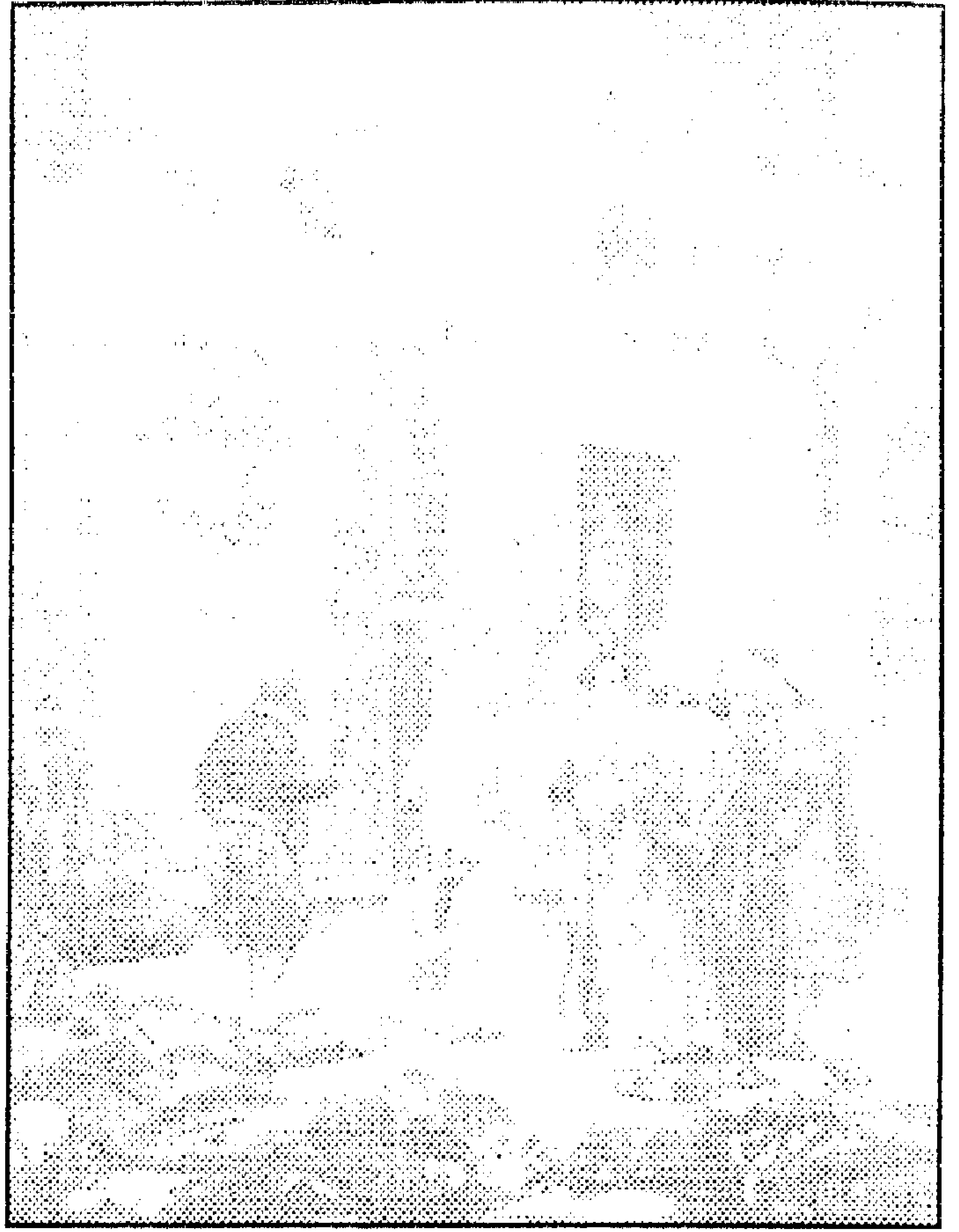
□ ١ يناير ١٧٦٣ = ٢٥ كيهك ١٤٧٩ = السبت ١٥ جماد الثانى سنة ١١٧٦.

□ فى ٢٦ رجب/ يناير ١٧٦٣ عقدت معاهدة الصلح النهائى بين انجلترا وفرنسا واسبانيا والبورتغال، وذلك فى باريس.

□ فيها كان انتهاء حرب السبع سنين ومعاهدة باريس.

□ فيها جدد الأمير عبد الرحمن كتخدا جامع الامام الشافعى بالقرافة الصغرى.

* ظهور شان عل بك الكبير.



والاختيارية والوجاقلية والتجار والمباشرين والأقباط والإفرنج والأروام واليهود، والمدينة عامرة بالخير، والناس مطمئنة، والمكاسب كثيرة والأسعار رخيّة والقرى عامرة، وحضرت مشايخ البلدان وأكابر العربان ومقادم الأقاليم والبنادر بالهدايا والأغنام (ص٦١٤) والجواميس والسمن والعسل، وكل من الأمرا الإبراهيمية كأنه صاحب الفرح والمشار إليه من بينهم صاحب الفرح على بك، وبعد تمام الشهر زفت العروس فى موكب عظيم شقوا به من وسط المدينة بأنواع الملاعيب والبهلوانات والجنك والطبول ومعظم الأعيان والجاويشية والملازمين والسعاة والأغوات أمام الحريمات وعليهم الخلع والتخاليق المثمنة، وكذلك المهاترة والطبالون وغيرهم من المقدمين والخدم والجاويشية والركبدارية، والعروس فى عربة، وكان الخازندار لعلى بك فى ذلك

١١٧٧هـ.
١٤٧٩ق.
١٧٦٣م.
غاية الفيضان: ٤ قيراط / ٢٤ ذراع
□ فيها كان طرد الجزويت من فرانسا وإقامة الحجة من طرف البابا.
□ ١ توت ١٤٨٠ = ١٠ سبتمبر ١٧٦٣ = السبت ٢ ربيع اول سنة ١١٧٧.
□ فيها كان تأسيس مدرسة السوارى بسومور، من فرانسا.
١ يناير ١٧٦٤ = ٢٤ كيهك ١٤٨٠ = الأحد ٢٦ جماد الثانى ١١٧٧.
□ فيها كان إنشاء مدرسة البيطرية فى التور، من فرانسا.
□ فيها كان سعر الريال الأبى طاقة ٨٥ نصف فضة، وان الريال المشط يعدل ٨٥ نصف فضة، وعليه فكلاهما واحد.

١١٧٨هـ.
١٤٨٠ق.
١٧٦٤م.
غاية الفيضان: ٦ قيراط / ٢٣ ذراع
□ ١ توت ١٤٨١ = ٩ سبتمبر ١٧٦٤ = الأحد ١٢ ربيع اول سنة ١١٧٨.
□ فيها عزل حسن باشا، بعد ان حكم مصر سنتين.
□ فيها عقدت معاهدة بين السلطان مصطفى وفريدريك الثانى ملك بروسيا.
□ ١ يناير ١٧٦٥ = ٢٥ كيهك ١٤٨١ = الثلاث ٨ رجب سنة ١١٧٨.
□ فيها المهندس وات حسن الألة البخارية.
□ فيها صار إنشاء مدرسة فن الرسم المجانية بباريس.

* ظهور شان محمد بك أبو الدهب.

الوقت محمد بك أبو الدهب* ماشي بجانب العربة وفي يده عكاز ومن خلفها أولاد خزنات الأمراء ملبسين بالزرد والخود واللثامات الكشميرى مقلدين بالقسي والنشاب وبأيديهم المزاريق الطوال، وخلف الجميع النوبة التركية والنفيرات (فمن) ذلك الوقت اشتهر أمر على بك وشاع ذكره ونمي صيته، وقلد أيضاً مملوكه على بك المعروف بالسروجية، ولما كان عبد الرحمن كتخدا ابن سيدهم ومركز دايرة دولتهم انضوى إلى ممالاته ومال هو الآخر إلى صداقته ليقوى به على أرباب الرياسة من اختيارية الوجاقات، وكل منهما يريد تمام الأمر لنفسه حتى أن عبد الرحمن كتخدا لما أراد نفى الجماعة المتقدم ذكرهم بيت مع بعض المتكلمين وصوروا على أحمد جاويش المجنون ما يقتضى نفيه، ثم عرضوا ذلك على عبد الرحمان كتخدا فمانع في ذلك وأظهر الغيظ وأصبح في ثاني يوم اجتمع عنده الاختيارية والصناجق على عادتهم، فلما تكامل (ص٦١٥) حضور الجميع تكلم عبد الرحمن كتخدا فقال «إن على بك سافر إلى الحجاز ولابد من كبير تجتمع فيه الكلمة» فقال له «الرأى ما تراه» فقال على بك «هذا يكون شيخ البلد وكبيرها، وأنا أول من أطاعه وآخر من عصاه» فقالوا «سمعنا وأطعنا ونحن كذلك» وأصبح عبد الرحمن كتخدا غادياً إلى بيت على بك وكذلك باقي الأمراء والاختيارية، وصار الجميع والديوان في بيته من ذلك اليوم، ولبس الخلعة من الباشا على ذلك، ثم إنهم طلعوا أيضاً في ثاني يوم إلى الديوان واجتمعوا بباب الينكجرية وكتبوا عرضحال بنفى أحمد جاويش وخليل

* الحرم المدنى بالمدينة المنورة.

جاويش وسليمان بك الشابورى فقال عبد الرحمن كتخدا «واكتبوا معهم حسن كتخدا الشعراوى أيضاً» فكتبوه وأخرجوا فرماناً بذلك ونفوهم كما ذكر، واستمروا فى نفيهم، وعمل أحمد جاويش وقاداً بالحرم المدنى وخليل جاويش أقام أيضاً بالمدينة والشابورى وحسن كتخدا جهة فارسكور والسرو ورأس الخليج، وأخذ على بك يمهد لنفسه واستكثر من شراء المماليك وشرع فى مصادرة الناس ويتحيل على أخذ الأموال من أرباب البيوت المدخرة والأعيان المستورين مع الملاطفة وإدخال الوهم على البعض بمثل النفى والتعرض إلى الفايظ ببعض المقتضيات ونحو ذلك.

* عاصفة بحرية على الاسكندرية تغرق عدد من السفن.

ومن الحوادث السماوية أن فى يوم السبت تاسع عشر جمادى الأولى هبت ريح عظيمة شديدة نكباء

غريبة، غرق منها بالإسكندرية ثلاثة وثلاثون مركباً فى مرسى المسلمين، وثلاثة مراكب فى مرسى النصارى، وضجت (ص٦١٦) الناس وهاج البحر شديداً وتلف بالنيل بعض مراكب، وسقطت عدة أشجار.

* كان في ميناء الاسكندرية مرسى لسفن السلطنة ومرسى للسفن الاجنبية.

وطلع على بك أميراً بالحج فى سنة سبع وسبعين وماية وألف، ورجع فى أوايل سنة ثمان وسبعين وماية وألف فى أبهة عظيمة، وأرخى مملوكه محمد الخازندار لحيته[٣] على زمزم، فلما رجع قلده الصنجقية، وهو الذى عرف بأبى الدهب، ثم قلد مملوكه أيوب أغا ورضوان قرّابته وإبراهيم شلاق بلفيه وذا الفقار وعلى بك الحبشى صناجق أيضاً، وانقضت تلك السنة وأمرُ على بك يتزايد وشهلوا أمور الحج على العادة، وقبضوا الميرى وصرفوا العلوفات والجامكية والصرة وغلال الحرمين والأنبار، وخرج المحمل على القانون المعتاد وأميره حسن بك رضوان، ولما رجعوا من البركة بعد ارتحال الحج طلع على بك وخشداشينه وأغراضه وملكوا أبواب القلعة، وكتبوا فرماناً وأخرجوا عبد الرحمن كتخدا[٤] وعلى كتخدا الخربطلى وعمر وجاويش الداودية ورضوان جربجى الرزاز وغيرهم منفيين، فأما عبد الرحمن كتخدا فأرسلوه إلى السويس ليذهب إلى الحجاز وعينوا للذهاب معه صالح بك ليوصله إلى السويس، ونفوا باقى الجماعة إلى جهة بحرى، وارتجت مصر فى ذلك اليوم وخصوصاً لخروج عبد الرحمن كتخدا، فإنه كان أعظم الجميع وكبيرَهم وابنَ سيِّدِهم، وله

* نفي عبد الرحمن كتخدا إلى الحجاز

الصولة والكلمة والشهرة، وبه ارتفع قدر الينكجرية [المماليك] على العزب [العثمانلية]، وكان له عزوة كبيرة ومماليك وأتباع وعساكر مغاربة وغيرهم حتى ظن الناس وقوع فتنة عظيمة فى (ص٦١٧) ذلك اليوم، فلم يحصل شيء من ذلك سوى ما نزل بالناس من البهتة والتعجب، ثم أرسل إلى صالح بك فرماناً بنفيه إلى غزة فوصل إليه الجاويش فى اليوم الذى نزل فيه عبد الرحمن كتخدا فى المركب، وسافر وذهب صالح بك إلى غزة فأقام بها مدة قليلة. ثم أرسلوا له جماعة ونقلوه من غزة وحضروا به إلى ناحية بحرى وأجلسوه برشيد، ورتب له على بك ما يصرفه وجعل له فايظاً فى كل سنة عشرة أكياس، فأقام برشيد مدة، فحضرت أخبار وصول الباشا الجديد وهو حمزة باشا إلى ثغر سكندرية، فأرسلوا إلى صالح بك جماعةً يغيبونه من رشيد ويذهبون به إلى دمياط يقيمُ بها، وذلك لئلا يجتمع بالباشا، فلما وصلت إليه الأخبار بذلك ركب بجماعته ليلا وسار إلى جهة البحيرة، وذهب من خلف جبل الفيوم إلى جهة قبلى، فوصل إلى منية ابن خصيب، فأقام بها، واجتمع عليه أناس كثيرة من الذين شرّدهم على بك ونفاهم فى البلاد، وبنى له أبنية ومتاريس، وكان له معرفة وصداقة مع شيخ العرب همام، وأكابر الهوارة* وأكثر البلاد الجارية فى التزامه جهة قبلى، واجتمع عليه الكثير منهم وقدموا له التقادم والذخيرة وما يحتاج إليه.

[١١١] حمزة باشا.

ووصل المولى حفيد أفندى القاضى، وكان من العلماء الأفاضل، ويعرف بطرون أفندى، وكان مسناً هرماً، فجلس

* الهوارة: حفل تاريخ مصر فى ظل لاحتلال العثمانى ومن قبله بغارات البدو العرب على الأراضى الزراعية فى الوادى والدلتا من أجل السلب والنهب. ولكن بعض هؤلاء البدو تمكنوا من الاستقرار فى عدة مناطق وفرضوا سيطرة مستمرة على أجزاء من الوادى مثلما فعل الهوارة، عكس القبائل البدوية الأخرى التى استمرت فى الترحل.

ولقد استعانت مراكز الصراع على السلطة في مصر بهؤلاء البدو في صراعاتها ضد بعضها، كما أوقعت الفتنة بين هذه القبائل حتى وصل الأمر إلى حد الإستعانة بهوارة بحرى ضد هوارة قبلى والعكس

على الكرسى بجامع المشهد الحسينى ليملى درساً، فاجتمع عليه الفقهاء الأزهرية وخلطوا عليه، وكان المتصدى (ص٦١٨) لذلك الشيخ أحمد بن يونس، والشيخ عبد الرحمن البرادعي، فصار يقول لهم: «كلمونى بآداب البحث، أما قرأتم آداب البحث؟» فزادو فى المغالطة، فما وسعه إلا القيام، فانصرفوا عنه وهم يقولون: «عكسناه».

١١٧٩هـ.
١٤٨١ق.
١٧٦٥م.
غاية الفيضان: ١٨ قيراط / ١٩ دراع
□ فيها تولى مصر حمزة باشا، بعد حسن باشا، المعزول فى سنة ١١٧٨.
□ ١ توت سنة ١٤٨٢ = ٩ سبتمبر ١٧٦٥ = الاثنين ٢٣ ربيع اول ١١٧٩.
□ ١ يناير ١٧٦٦ = ٢٥ كيهك سنة ١٤٨٢ = الاربع ١٩ رجب سنة ١١٧٩.
□ فيها نفى على بك الى الشام لعدم وجود من يسنده فى الأستانة بعد وفاة راغب باشا، الذى كان واليا على مصر، وتولى الصدارة العظمى بالأستانة.
□ فيها اخترع بيروبورواى الزنبلك الحلزونى المتساوى الرجات.

وفى شعبان من السنة المذكورة شرع القاضى المذكور فى عمل فرح لختان ولده، فأرسل إليه على بك هدية حافلة، وكذلك باقى الأمراء والاختيارية والتجار والعلماء حتى امتلأت حواصل المحكمة بالأرز والسمن والعسل والسكر، وكذلك امتلا المقعد بفروق البن ووسط الحوش بالحطب الرومى، واجتمع بالمحكمة أرباب الملاعيب والملاهى والبهلوانات وغيرهم، واستمر ذلك عدة أيام والناس تغدو وتروح للفرجة، وسعت العلما والأمرا والأعيان والتجار لدعوته، وفى يوم الزفّة أرسل إليه على بك ركوبته وجميع اللوازم من الخيول والمماليك وشجر الدر والزرديات، وكذلك داقم الباشا(*) من الأغوات والسعاة والجاويشية والنوبة التركية، وأركبوا الغلام بالزفة إلى بيت على بك، فألبسه فروة سمور ورجع إلى المحكمة بالموكب وختن معه عدة غلمان، وكان مهماً(*) مشهوداً، واتحد هذا القاضى بالشيخ الوالد، وتردد كل منهما على الآخر كثيرا، وحضر مرة فى غير وقت ولا موعد فى يوم شديد الحر، فلما صعد إلى أعلى الدرج، وكان كثيراً، فاستلقى من التعب على ظهره لهرمه، فلما تروّح وارتاح فى نفسه قال له الشيخ:

* داقم الباشا: أى اتباعه.

* مهما: احتفالاً.

« يا أفندى لأى شيء تتعب نفسك؟ أنا آتيك متى شئت» فقال: «أنا أعرف قدرك وأنت تعرف قدرى» وكان نابيه من الأذكياء أيضاً.

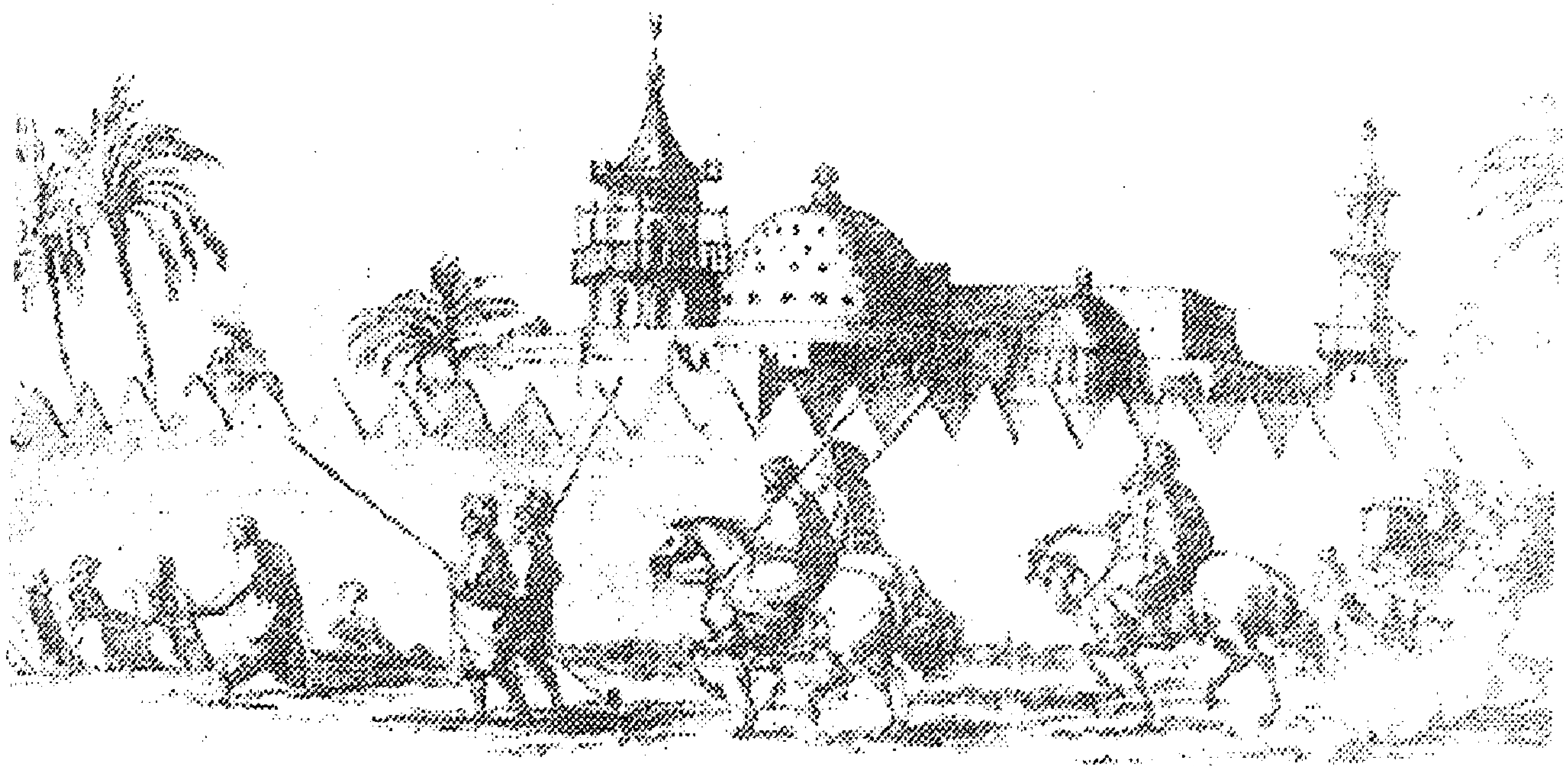
ولما حضر حمزة باشا سنة تسع وسبعين ومائة وألف المذكورة والياً على مصر وطلع إلى القلعة، فعرضوا له أمر صالح بك وأنه قاطع الطريق ومانع وصول الغلال والميرى، (ص٦١٩) وأخذوا فرماناً بالتجريد عليه، وتقلّد حسين بك كشكش حاكم جرجا أمير التجريدة، وشرعوا فى التشهيل والخروج فسافر حسين بك كشكش وصحبته محمد بك أبو الدهب وحسن بك الأزبكاوى، فالتطموا مع صالح بك لطمة صغيرة، ثم توجه وعدّى إلى شرق أولاد يحيى، وكان حسين بك شبكة مملوك حسين بك كشكش نفاه على بك إلى قبلى، فلما ذهب صالح بك إلى قبلى انضم إليه وركب معه، فلما توجّه حسين بك بالتجريدة وعدّى صالح بك شرق أولاد يحيى انفصل عنه وحضر إلى سيده حسين بك وانضم إليه كما كان، ورجع محمد بك وحسن بك إلى مصر وتخلف حسين بك عن الحضور يريد الذهاب إلى منصبه بجرجا، وأقام فى المنية فأرسل إليه على بك فرمانا بنفيه إلى جهة عينها له فلم يمتثل لذلك، وركب فى مماليكه وأتباعه وأمرايه وحضر إلى مصر ليلا فوجد الباب الموصل لجهة قناطر السباع مغلوقاً فطرقه فلم يفتحوه، فكسره ودخل وذهب إلى بيته وبقى الأمر بينهم على المسالمة أياما فاراد على بك أن يشغله بالسم بيد عبد الله الحكيم، وقد كان طلب منه معجونا للباءة فوضع له السم فى المعجون وأحضره له فأمره أن يأكل منه أولا فتلكأ واعتذر فأمر بقتله، وكان عبد الله الحكيم هذا نصرانياً رومياً يلبس على رأسه

قلبق سمور، وكان وجيهاً الصورة فصيحاً متكلما يعرف التركية والعربية والرومية والطليانية، وعلم حسين بك أنها من عزيمة على بك، فتأكدت بينهما الوحشة، وأضمر كل منهما لصاحبه السوء، وتوافق على بك مع جماعته على غدر حسين بك وإخراجه فوافقوه ظاهراً، واشتغل حسين بك على إخراج على بك وعصّب خشداشينه وغيرهم (ص٦٢٠) وركبوا عليه المدافع، فكرنك في بيته وانتظر حضور المتوافقين معه فلم يأته منهم أحد وتحقق نفاقهم عليه، فعند ذلك أرسل إليهم يسألهم عن مرادهم، فحضر إليه منهم من يأمره بالركوب والسفر، فركب وأخرجوه منفياً* إلى الشام ومعه مماليكه وأتباعه، وذلك في أواخر شهر رمضان سنة تسع وسبعين ومماية وألف [١٧٦٥م]، وأقام بالعادلية ثلاثة أيام حتى عملوا حسابه وحساب أتباعه وهم محيطون بهم من كل جهة بالعسكر والمدافع حتى فرغوا من الحساب واستخلصوا ما بقى على طرفهم. ثم سافروا إلى جهة غزة، وكانت العادة فيمن ينفى من أمراء مصر أنه إذا خرج إلى خارج فعلوا معه ذلك، ولا يذهب حتى يوفى جميع ما يتأخر بذمته من ميرى وخلافه، وإن لم يكن معه مايوفى ذلك باع أثاث داره ومتاعه وخيوله ولا يذهب إلا خالص الذمة.

* نفى على بك الكبير بعد فشل مؤامرته ضد حسين بك إلى الشام.

وسافر صحبة على بك أمراؤه وهم محمد بك وأيوب بك ورضوان بك وذو الفقار بك وعبد الله أغا الوالى وأحمد جاويش وسليمان جاويش وغيطاس كتخدا وباقى أتباعه، واستقر خليل بك كبير البلد مع قسيمه حسين بك كشكش وباقى جماعتهم وحسن بك جوجو(٥) ، وعزلوا عبد الرحمن أغا وقلدوا قاسم أغا الوالى أغات مستحفظان،



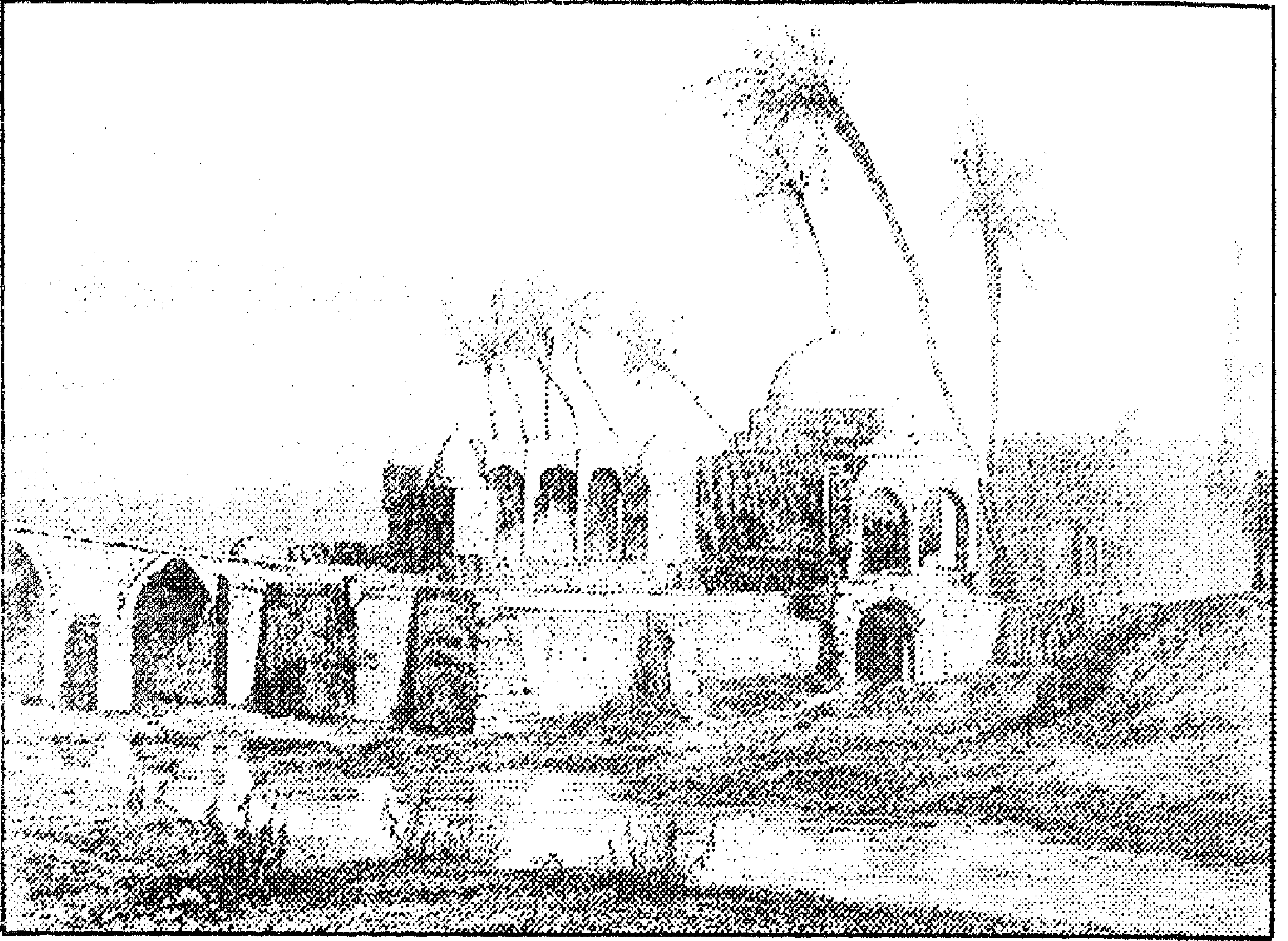


▲ موكب حاكم جرجا

ورد الخبـر من الجهـة القبليـة بأن صالح بك رجع من شرق أولاد يحيى إلى المنية واستقـر فيها وحصنها، فعند ذلك شرعوا في تشهيل تجريدة وبرزوا إلى جهة البساتين، وفي تلك الأيام رجع علي بك ومن معه على حين غفلة ودخل إلى مصر فنزل بيت حسين بك كشكش ومحمد بك نزل عند عثمان بك الجرجاوى وأيوب بك دخل منزل إبراهيم أغا (ص٦٢١) الساعى، فاجتمع الأمراء بالآثار(*) وعملوا مشورة في ذلك، فاقتضى الرأى بأن يرسلوه إلى جدة، وقال بعضهم «اسمعوا نصحى واقتلوه وارتاحوا منه فإنه إن دام حياً أتعبكم ولا يبقى منكم أحداً» فقالوا «لا يصح، إنه أخونا ودخل إلى بيوتنا» فأرسلوا له بذلك وقال لا أخرج من بيت سيدى إلا أن يكون جهة بحرى» فاجتمع الرأى بأن يعطوه النوسات[٦] ويذهب إليها، فرضى بذلك وذهب إلى النوسات

* عودة على بك سراً إلى القاهرة.

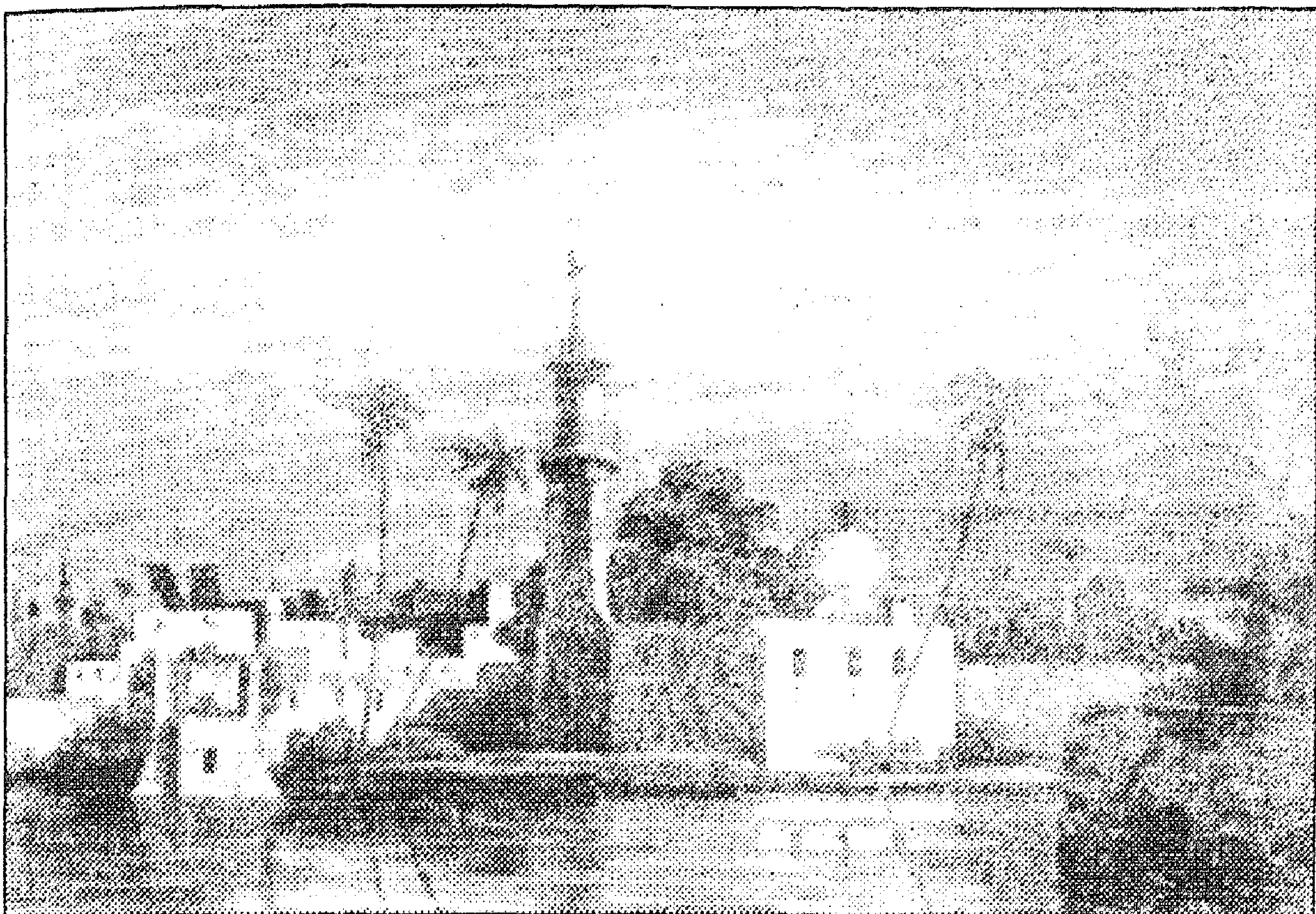
* الآثار: المقصود بها منطقة آثار النبى عند دار السلام حاليا جنوب القاهرة.



▲ اسيوط

وأقام بها، وأرسلوا محمد بك وأيوب بك ورضوان بك إلى قبلي بناحية أسيوط وجهاتها، وكان هناك خليل بك الأسيوطي، فانضموا إليه وصادقوه وسفروا التجريدة إلى صالح بك فهزمت، فأرسلوا له تجريدة أخرى وأميرها حسن بك جوجو وكان منافقا فلم يقع بينهم إلا بعض مناوشات ورجعوا أيضاً كأنهم مهزومون، وأرسلوا له ثالث رَكبة فكانت الحرب بينهم سجالا، ورجعوا كذلك بعد أن اصطلحوا مع صالح بك أن يذهب إلى جرجا ويأخذ ما يكفيه هو ومن معه ويمكث بها ويقوم بدفع المال والغلال، وكان ذلك في شهر جمادى الأولى سنة ثمانين ومائة وألف [١٧٦٦م].

وفي ثاني شعبان منها اتهموا حسن بك الأزبكاوي أنه يراسل علي بك وعلي بك يراسله فقتلوه في ذلك اليوم بقصر



▲ مصر القديمة

العينى ورسموا بنفى خشداشينه وهم حسن بك أبو كرش ومحمد بك الماوردى وسليمان أغا كتخدا الجاويشية سيد الثلاثة وهو زوج أم عبد الرحمن كتخدا وكان مقيما بمصر القديمة وقد صار مسناً فسفروهم إلى جهة بحرى، وتخيلوا من إقامة على بك بالنوسات فأرسلوا له خليل بك السكران فأخذه وذهب به إلى السويس ليسافر إلى جدة من القلزم، وأحضر له المركب لينزل فيها.

وفى ثانى شهر شوال من السنة (ص٦٢٢) ركب الأمراء إلى قراميدان ليهنوا الباشا بالعيد، وكان معتاد الرسوم القديمة، أنّ كبار الأمراء يركبون بعد الفجر من يوم العيد وكذلك أرباب العكاكيز[٧] فيطلعون إلى القلعة ويمشون أمام الباشا من باب السراية إلى جامع الناصر بن قلاوون، فيصلون صلاة العيد ويرجعون كذلك ثمُ يقبِّلون أتكه*

* مظاهر الاحتفال الرسمى بعيد الفطر.

* أتكه: أى ذيل ردائه وهذا التقبيل دليل الولاء.

ويهنونه وينزلون إلى بيوتهم فيهني بعضهم بعضاً على رسمهم واصطلاحهم، وينزل الباشا في ثاني يوم إلى الكشك بقراميدان وقد هيئت مجالسه بالفرش والمساند والستور واستعد فراشو الباشا بالتطلي* والقهوة والشربات والقماقم والمباخر ورتبوا جميع الاحتياجات واللوازم من الليل، واصطفت الخدم والجاويشية والسعاة والملازمون وجلس الباشا بذلك الكشك وحضرت أرباب العكاكيز والخدم قبل كل أحد، ثم يأتي الدفتردار وأمير الحاج والأمراء الصناجق والاختيارية وكتخدا الينكجرية والعزب أصحاب الوقت، والمقادم والأوده باشية واليمقات والجربجية فيهنون الباشا ويُعيِّدون عليه على قدر مراتبهم بالقانون والترتيب ثم ينصرفون، فلما حضروا في ذلك اليوم المذكور وهنأ الأمراء الصناجق الباشا وخرجوا إلى دهليز القصر يريدون النزول وقف لهم جماعة وسحبوا السلاح عليهم وضربوا عليهم بنادق، فأصيب عثمان بك الجرجاوي بسيف في وجهه وحسين بك كشكش أصيب برصاصة نفذت من شقه، وسحب الآخرون سلاحهم وسيوفهم واحتاط بهم مماليكهم ونط أكثرهم من حايط البستان ونفذوا من الجهة الأخرى وركبوا خيولهم وهم لا يصدقون بالنجاة، وأركبوا عثمان بك حصانه وهو يقول «باب العزب، باب العزب» (ص٦٢٣) وقد قطع السيف وجهه وحنكه، وذهبوا به إلى باب العزب وأنزلوه فمكث هنيهة ومات، فشالوه إلى بيته وغسّلوه وكفّنوه وخرجوا بجنازته ودفنوه، وانجرح أيضاً إسماعيل بك أبو مدفع ومحمود بك وقاسم أغا، ولكن لم يمت منهم إلا عثمان بك، وباتوا على ذلك فلما أصبحوا اجتمعوا وطلعوا إلى الأبواب وأرسلوا إلى الباشا يأمرونه

* التطلي كلمة تركية كانت تكتب (طاتلي) أو (طاتلو) ومعناها الحلوى.

١١٨٠ هـ.
١٤٨٢ ق.
١٧٦٦م.
غاية الفيضان: ١٧ قيراط / ١٨ ذراع
- فيها كانت سياحة بونجيفيل حول الدنيا.
- فيها كانت زلازل عظيمة بالاستانة.
- فيها حصلت ثورة في انكلترة لعلو اسعار الحبوب.
- ١ توت ١٤٨٣ = ٩ سبتمبر ١٧٦٦ = الثلاث ٤ ربيع الثاني ١١٨٠.
- فيها كان طرد الجزويت من بوهيميا والدانيمارقة.
- فيها حصل انقلاب في مدريد بسبب ترتيب ضرائب جديدة.
- ١ يناير سنة ١٧٦٧ = ٢٥ كيهك ١٤٨٣ = الخميس ٣٠ رجب ١١٨٠.
- فيها عاد على بك إلى القاهرة واسترجع منصبه بمساعدة احزابه وأربعة من دعاة ابراهيم الشركسي.
- فيها انشأ محمد بك أبو الذهب جامع محمد بك أبي الذهب، بجوار الجامع الأزهر.
- فيها اخترع ماير دائرة الانعكاس.

بالنزول فنزل إلى بيت أحمد بك كشك بقوصون، وعند نزوله ومروره بباب العزب وقف له حسين بك كشكش وأسمعه كلاماً قبيحاً، ثم إنهم جعلوا خليل بك بلفيه قايمقام وقلدوا عبد الرحمن أغا مملوك عثمان بك سنجقاً عوضا عن سيده ونسبت هذه النكتة* إلى حمزة باشا وقيل إنها من على بك الذى بالنوسات ومراسلاته الى حسن بك جوجو، فبّيت مع أنفار من الجلفية وأخفاهم عنده مدة أيام وتواعدوا على ذلك اليوم وذهبوا إلى الكشك بقراميدان وكانوا نحو الأربعين، فاختلفوا واتفقوا على ثانى يوم بدهليز بيت القاضى وتفرقوا إلا أربعة منهم ثبتوا على ذلك الاتفاق وفعلوا هذه الفعلة، وبطل أمر العيد من قراميدان من ذلك اليوم، وتهدم القصر وخرب وكذلك الجنينة ماتت أشجارها وذهبت نضارتها.

ولما حصلت هذه الحادثة أرسلوا حمزة بك إلى على بك فوجده في المركب بالغاطس ينتظر اعتدال الريح للسفر، فرده إلى البر وأركبه بمماليكه وأتباعه، ورجع إلى جهة مصر ومر من الجبل وذهب إلى جهة شرق إطفيح ثم إلى أسيوط بقبلى، ورجع حمزة بك إلى مصر، ثم إن على بك اجتمعت عليه المنافى وهوارة وخلافهم وأراد الانضمام (ص٦٢٤) إلى صالح بك فنفر منه، فلم يزل يخادعه وكان على كتخدا الخربطلى هناك منفياً من قبله وجعله سفيراً فيما بينه وبين صالح بك هو وخليل بك الأسيوطى وعثمان كتخدا الصابونجى، فأرسلهم فلم يزالوا به حتى جنح لقولهم، فعند ذلك أرسل إليه محمد بك أبو الدهب فلم يزل به حتى انخدع له واجتمع عليه بكفالة شيخ العرب همام، وتحالفا وتعاقدا وتعاهدا على الكتاب والسيف، وكتبوا بذلك حجة

* النكتة: بفتح النون وسكون الكاف، يقال نكته اى طعنه وألقاه على رأسه، والمقصود بها هنا المؤامرة.



* بدوى مسلح

واتفق مع على بك أنه إذا تم لهم الأمر أعطى لصالح بك جهة قبلي حياة، واتفقوا على ذلك بالمواثيق الأكيدة وأرسلوا بذلك إلى شيخ العرب همام فانسرّ بذلك ورضى به مراعاة لصالح بك، وأمدهم عند ذلك همام بالعطايا والمال والرجال، واجتمع عليهم المتفرقون والمشردون من الغز والأجناد والهوارة والشجعان ولموا جموعاً كثيرة وحضروا إلى المنية وكان بها خليل بك السكران، فلما بلغه قدومهم ارتحل منها وحضر إلى مصر هارباً.

واستقر على بك وصالح بك وجماعتهم بالمنية، وبنوا حولها أسواراً وأبراجاً وركبوا عليها المدافع وقطعوا الطريق على المسافرين المبحرين والمقبلين، وأرسل على بك إلى ذى الفقار بك وكان بالمنصورة وصحبته جماعة كشاف، فارتحلوا ليلا وذهبوا إلى المنية فعمل الأمراء جمعية وعزموا على تشهيل

تجريدة وتكلموا وتشاوروا فى ذلك، فتكلم الشيخ الحفناوى فى ذلك المجلس وأفحمهم بالكلام ومانع فى ذلك وقال «أخربتم الأقاليم والبلاد، فى أى شىء هذا الحال وكل ساعة خصام ونزاع وتجاريد؟ على بك هذا رجل أخوكم وخشداشكم، أى شىء يحصل إذا أتى وقعد فى بيته (ص٦٢٥) واصطلحتم مع بعضكم وأرحتم أنفسكم والناس؟» وحلف أنه لا يسافر أحد بتجريده مطلقاً، وإن فعلوا ذلك لا يحصل لهم خير أبداً. فقالوا «إنه هو الذى يحرك الشر ويريد الانفراد بنفسه ومماليكه وإن لم نذهب إليه أتى هو إلينا وفعل مراده فينا» فقال لهم الشيخ «أنا أرسل إليه مكاتبة فلا تتحركوا بشىء حتى يأتى رد الجواب» فلم يسعهم إلا الامتثال، فكتب له الشيخ مكتوباً ووبخه فيه وزجره ونصحه ووعظه وأرسلوه إليه، فلم يلبث الشيخ بعد هذا المجلس إلا أياما ومرض ورمى بالدم وتوفى إلى رحمة الله تعالى، فيقال إنهم أشغلوه وسموه ليتمكنوا من أغراضهم.

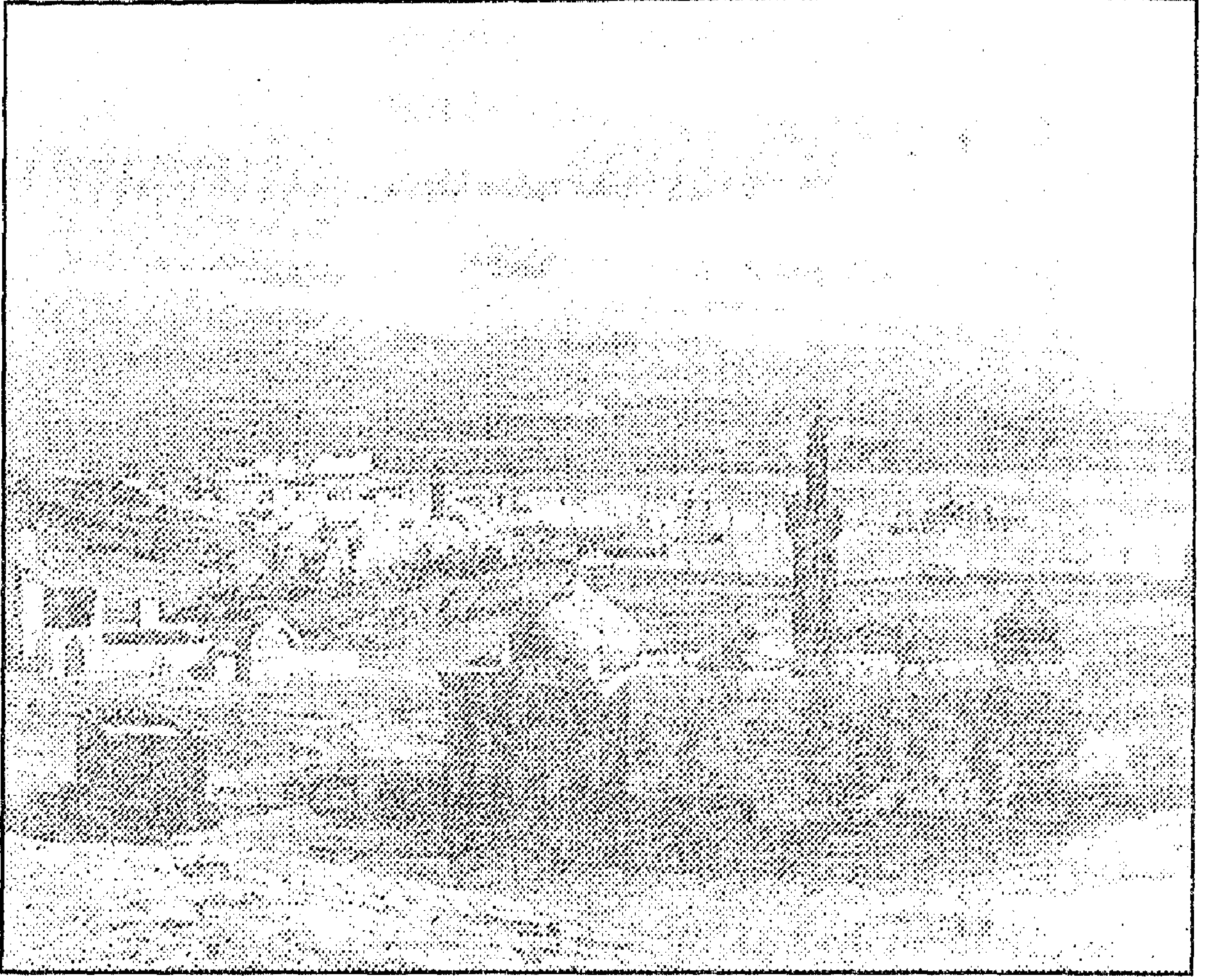
١١٢ محمد باشا راقم.

وفى أثناء ورد الخبر بوصول محمد باشا راقم* إلى سكندرية فأرسلوا له الملاقاة وحضر إلى مصر وطلع القلعة فى غرة ربيع الثانى سنة إحدى وثمانين ومائة ألف. [١٧٦٧م]

١١٨١ هـ.
١٤٨٣ ق.
١٧٦٧م.
غاية الفيضان: ٨ قيراط / ٢٣ ذراع
- فيها كان طرد الجزويت من أسبانيا وفينيسيا وجنوه ونابولى.
- ١ توت ١٤٨٤ = ١٠ سبتمبر ١٧٦٧ = الخميس ١٥ ربيع الثانى سنة ١١٨١.
- فيها عزل حمزة باشا، بعد أن حكم مصر سنتين، وتولى بعده محمد راقم باشا.
- ١ يناير سنة ١٧٦٨ = ٢٤ كيهك ١٤٨٤ = الجمعة ١٠ شعبان ١١٨١.
- فيها سجن العثمانيون سفير الروسيا واعلنوا الحرب عليها.

وفى حادى عشر جمادى الأولى اجتمعوا بالديوان وقلدوا حسن بك رضوان دفتر دار مصر.

وفى خامس عشرة قلدوا خليل بك بلفيه أمير الحاج وقاسم أغا صنجقا وكتبوا فرمانا بطلوع التجريدة إلى قبلى ولبس سارى عسكرها حسين بك كشكش وشرعوا فى التشهيل واضطرهم الحال إلى مصادرة التجار، وأحضر خليل بك النواخيد وهم ملا مصطفى وأحمد أغا الملطيلى وقرا إبراهيم وكاتب البهار، وطلب منهم مال البهار معجلا، فاعتذروا



▲ مدينة الاسكندرية

فصرخ عليهم وسبهم فخرجوا من بين يديه وأخذوا فى تشهيل المطلوب وجمع المال من التجار، وبرّز حسين بك خيامه للسفر فى منتصف جمادى الأولى وخرج صحبته ستة من الصناجق وهم حسن بك جوجو وخليل بك السكران وحسن بك شبكة واسماعيل بك أبو (ص٦٢٦) مدفع وحمزة بك وقاسم بك وأسرعوا فى الارتحال.

وفى عشرينه أخرج خلفهم أيضا خليل بك تجريدة أخرى وفيها ثلاثة صناجق ووجاقلية وعسكر مغاربة وسافروا أيضاً في يومها، وبعد ثلاثة أيام ورد الخبر بوقوع الحرب بينهم ببياضة تجاه بنى سويف، فكانت الهزيمة على حسين بك ومن معه وقتل على أغا المليجى وخلافه، وقتل من ذلك الطرف ذو الفقار بك ورجع المهزومون فى ذلك ثانى يوم الكسرة وهو يوم السبت رابع عشرينه وهم فى أسوأ حال،

وأصبحوا يوم الأحد طلعوا إلى أبواب القلعة وطلبوا من الباشا فرمانا بالتجريدة على على بك وصالح بك ومن معهم وطلبوا مائتى كيس من الميرى يصرفونها فى اللوازم، فامتنع الباشا عن ذلك وحضر الخبر يوم الاثنين بوصول القادمين إلى غمازة(*) ، وكان الوجاقلية وحسن بك جوجو ناصبين خيامهم جهة البساتين فارتحلوا ليلا وهربوا، وتخبّل غَزْل خليل بك وحسين بك ومن معهما وتحيروا فى أمرهم وتحققوا الإدبار والزوال، وأرسل الباشا إلى الوجاقلية يقول لهم كل وجاق يلازم بابه.

وفى سابع عشرينه حضر على بك وصالح بك ومن معهم إلى البساتين فازداد تحيرهم وطلعوا إلى الأبواب فوجدوها مغلوقة فرجعوا إلى قراميدان وجلسوا هناك ثم رجعوا، وتسحّب تلك الليلة كثير من الأمراء والأجناد وخرجوا إلى جهة على بك، وكان حسن بك المعروف بجوجو ينافق الطرفين ويراسل على بك وصالح بك سراً ويكاتبهما، وضم إليه بعض الأمرا مثل قاسم بك خشداشه وإسماعيل بك زوج هانم بنت سيدهم وعلى بك السروجى وجن على وهو خشداش إبراهيم بك بلفيه وكثير (ص٦٢٧) من أعيان الوجاقلية ويرسلون لهم الأوراق فى داخل الأقصاب التى يشربون فها الدخان ونحو ذلك.

وفى ليلة الخميس تاسع عشرين جمادى الأولى هرب الأمرا الذين بمصر وهم خليل بك شيخ البلد وأتباعه وحسين بك كشكش وأتباعه وهم نحو عشرة صناجق وصحبتهم مماليكهم وأجنادهم عدة كثيرة، وأصبح يوم الخميس فخرج الأعيان وغيرهم، لملاقاة القادمين ودخل فى ذلك اليوم على بك وصالح بك وصناجقهم ومماليكهم وأتباعهم وجميع من

* غمازة: من أعمال الصف مديرية الجيزة.

* انضمام الامراء المماليك إلى رياسة على بك الكبير.

كان منفياً بالصعيد قبل ذلك من أمرا ووجاقلية وغيرهم وحضر صحبتهم على كتخدا الخربطلى وخليل بك الأسيوطى وقلده على بك الصنجقية مجدداً، وضربت النوبة فى بيته، ثم أعطاه كشوفية الشرقية وسافر إليها.

* صعود على بك للديوان وتقلده مشيخة البلد.

وفى يوم الأحد ثانى شهر جمادى الثانية طلع على بك وصالح بك وباقى الأمرا القادمين والذين تخلفوا عن الذاهبين مثل حسن بك جوجو وإسماعيل بك زوج هانم وجن على وعلى بك السروجى وقاسم بك والاختيارية والوجاقلية وغيرهم إلى الديوان بالقلعة، فخلع الباشا على على بك واستقر فى مشيخة البلد كما كان، وخلع على صناجقه خلع الاستمرار أيضا فى إماراتهم كما كانوا، ونزلوا إلى بيوتهم وثبت قدم على بك فى إمارة مصر ورياستها فى هذه المرة، وظهر بعد ذلك الظهور التام وملك الديار المصرية والأقطار الحجازية والبلاد الشامية، وقتل المتمردين وقطع المعاندين وشتت شمل المنافقين وخرق القواعد، وخرم العوايد، وأخرب البيوت القديمة، وأبطل الطرايق التى كانت مستقيمة، ثم (ص٦٢٨) إنه حضر سليمان أغا كتخدا الجاويشية وصناجقه إلى مصر وعزم على نفى بعض الأعيان وإخراجهم من مصر فعلم أنه لا يتمكن من أغراضه مع وجود حسن بك جوجو وأنه ما دام حيا لا يصفوا له الحال، فأخذ يدبر على قتله فبيت مع أتباعه على قتله، فحضر حسن بك جوجو وعلى بك جن على عند على بك وجلسوا معه حصة من الليل وقام ليذهب إلى بيته فركب وركب معه جن على ومحمد بك أبو الدهب وأيوب بك ليذهبا أيضا إلى بيوتهما لاتحاد الطريق، فلما صاروا فى الطريق التى عند بيت الشابورى خلف جامع قوصون

* قتل حسن بك جوجو على يد اتباع على بك الكبير فى رجب ١١٨١ = ١٧٦٧م.

سحبوا سيوفهم وضربوا حسن بك وقتلوه وقتلوا معه أيضاً جن على، ورجعوا وأخبروا سيدهم على بك وذلك ليلة الثلاثاء من شهر رجب من سنة إحدى وثمانين ومائة وألف [١٧٦٧م]، وأصبح على بك مالكا للأبواب ورسم بنفى قاسم بك وإسماعيل بك أبى مدفع وعبد الرحمن بك وإسماعيل كتخدا عزبان ومحمد كتخدا زنور ومصطفى جاويش تابع مصطفى جاويش الكبير مملوك إبراهيم كتخدا وخليل جاويش درب الحجر.

* نفى أمراء بيت الفلاح.

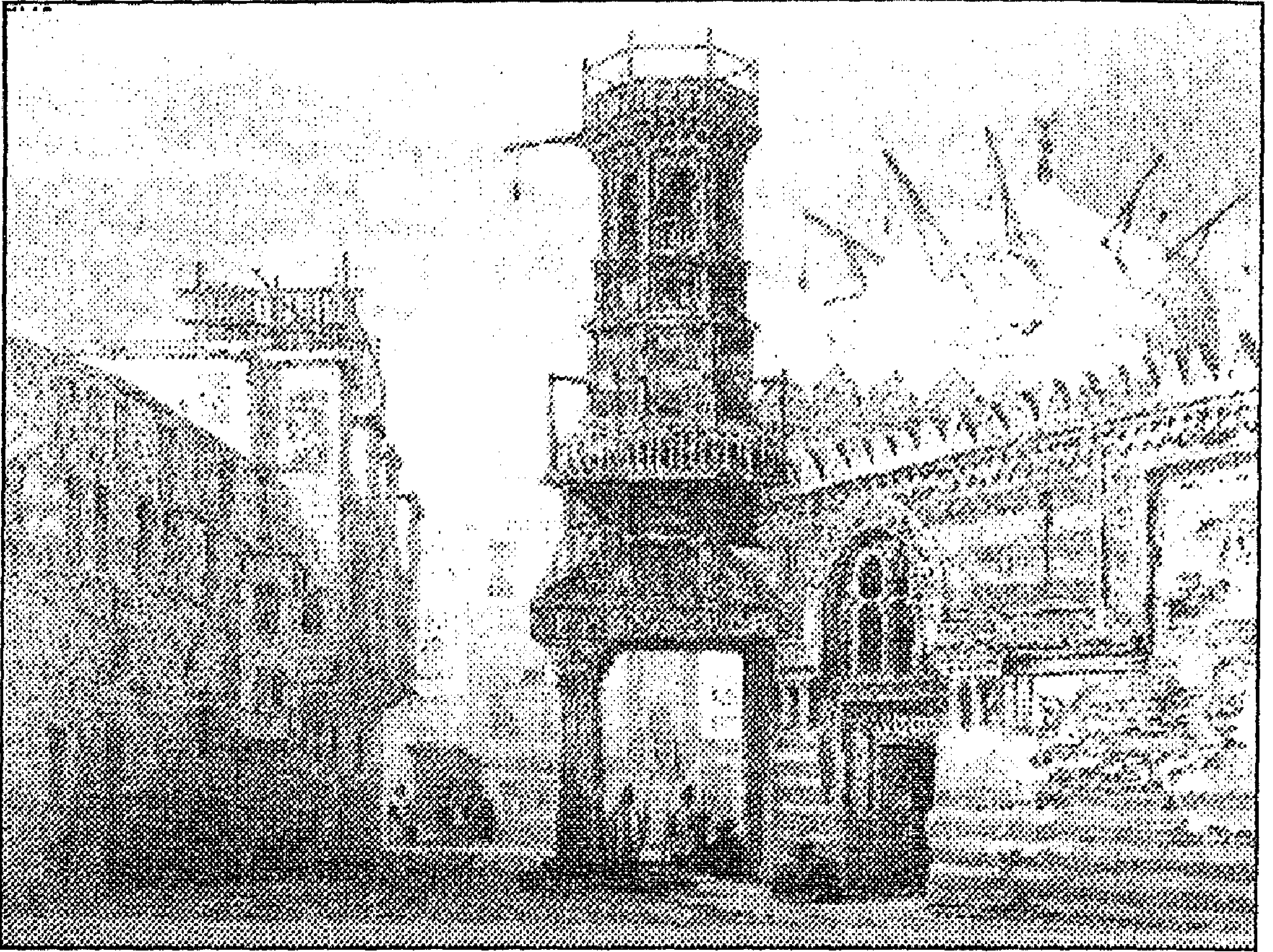
وفى حادى عشر شهر شوال أخرج أيضا نحو الثلاثين شخصا من الأعيان ونفاهم فى البلاد وفيهم ثمانية عشر أميراً من جماعة الفلاح[٨]، وفيهم على كتخدا وأحمد كتخدا الفلاح وإبراهيم كتخدا مناو وسليمان أغا كتخدا جاووشان الكبير وصناجقه حسن بك أبو كرش ومحمد بك الماوردى وخلافهم مقادم وأوده باشية، فنفى الجميع إلى جهة قبلى وأرسل سليمان أغا كتخدا الجاويشية إلى السويس ليذهب إلى الحجاز من القلزم واستمر هناك إلى أن مات.

* جناج: من أعمال مركز دسوق/ كفر الشيخ.

وفيه قبض على بك على الشيخ يوسف بن وحيش وضربه (ص٦٢٩) علقة قوية ونفاه إلى بلده جناج[*]، فلم يزل بها إلى أن مات، وكان من دهاة العالم وكان كاتباً عند عبد الرحمن كتخدا القازدغلى وله شهرة وسمعة فى السعى وقضاء الدعاوى والشكاوى والتحيلات والمداهنات والتلبيسات وغير ذلك.

* معارك حسين بك كشكش وعلى بك الكبير.

وفى شهر الحجة وصلت أخبار عن حسين بك كشكش وخليل بك أنهم لما وصلوا إلى غزة جمعوا جموعاً وأنهم قادمون إلى مصر فشرع على بك فى تشهيل تجريدة عظيمة، وبرزوا وسافروا.



▲ مسجد دمياط

ثم ورد الخبر بعد ثلاثة أيام أنهم عرّجوا إلى جهة دمياط ونهبوا منها شيئاً كثيراً ثم حضروا إلى المنصورة ونهبوا منها كذلك، فأرسل على بك يأمر التجريدة بالذهاب إليهم، وأرسل لهم أيضاً عسكراً من البحر [النيل] فتلاقوا معهم عند الديرس والجراح(*) من أعمال المنصورة عند سمنود، فوقع بينهم وقعة عظيمة وانهزمت التجريدة وولوا راجعين، وقتل فى هذه المعركة سليمان جربجى باش اختيار جمليان وأحمد جربجى طنان جراكسه وعمر أغا جاووشان أمين الشون وكانوا صدور الوجاقات، ولم يزالوا فى هزيمتهم إلى دجوة.

فلما وصل الخبر بذلك إلى على بك اهتم لذلك ونزل الباشا وخرج إلى قبة باب النصر خارج القاهرة وجمع الوجاقلية والعلماء وأرباب السجاجيد وأمر الباشا بأن كل من كان وجاقلياً أو عليه عتامنة* يشهل نفسه ويطلع إلى التجريدة أو

* الجراح: من أعمال مركز أجا/ دقهلية.

* عليه عتامنه: أى متمتع بحق الحصول على قطعة نقدية محددة. وقد استخدم هذا المصطلح فى مصر كوحدة حسابية لبيان كمية (الجراية والعليق) التى كان يتلقاها

يُخرجُ عنه بدلا، واجتهد على بك فى تشهيل تجريدة عظيمة أخرى وكبيرها محمد بك أبو الدهب، وسافروا فى أوائل المحرم واجتمعوا بالتجريدة الأولى وسار الجميع خلف حسين بك وخليل بك ومن معهم وكانوا عدوا إلى بر الغربية بعد أن هزموا التجريدة، فلو قدر الله أنهم لما كسروا (ص٦٣٠) التجريدة ساقوا خلفهم كما فعل على بك وصالح بك لدخلوا إلى مصر من غير مانع، ولكن لم يرد الله تعالى لهم ذلك.

انقضت هذه السنين وما وقع بها على سبيل الإجمال إذ التفصيل متعذر وجمع الشوارد فى الظلام متعسر، وذلك بحسب الإمكان وما وعاه الفكر والذهن خؤان.

موظفى الديوان الحائزين لرتبة (بك) وما فوقها من الشون الأميرية لأنفسهم ورجالهم وحيواناتهم. وكانت مائة عتامنه تعتبر (وحدة) للحصول على طعام كاف للحاجة اليومية لرجل واحد وحصانه. والمصطلح هنا يقصد به أنه مع وصول أنباء هزيمة التجريدة الموجهة ضد حسين بك كشكش انزعج على بك والباشا الذى أمر بجمع القوات عند قبة النصر، وجمع أعضاء الاوجاقان العسكرية (الفرق العسكرية السبعة) والعلماء وأرباب السجاجيد (أى السادة البكرية والوفائية والعمرية والخضرية، وهم رؤساء الطرق الصوفية فى مصر)، وأمر الباشا بأن ينضم للقوات كل من كان من الأوجاقات أو كان يتقاضى راتبا نقديا أو عينيا من الخزينة (عليه عتامنه)، فإذا لم يستطع فعليه ان يقدم بديلاً عنه للاشتراك فى التجريدة.

ذكر من مات فى هذه الأعوام من أكابر العلماء وأعاظم الأمراء

٢٦٦ محمد بن محمد البليدى.
ت/ ١١٧٦هـ = ١٧٦٢م.

[مات] الشيخ الإمام الفقيه المحدث الشريف السيد/ محمد بن محمد البليدى المالكي الأشعرى الأندلسي [المغربى]، حضر دروس الشيخ شمس الدين محمد بن قاسم البقرى المقرى الشافعي فى سنة عشر ومائة وألف، ثم على أشياخ الوقت كالشيخ العزيزى والملوى والنفراوى، وتمهر ثم لازم الفقه والحديث بالمشهد الحسيني، فراج أمره واشتهر ذكره وعظمت حلقته وحسن اعتقاد الناس فيه وانكبوا على تقبيل يده وزيارته وخصوصاً تجار المغاربة لعلة الجنسية، فهادوه وواسوه واشتروا له بيتاً بالعطفة المعروفة بدرب الشيشيني، وقسطوا ثمنه على أنفسهم ودفعوه من مالهم، فلم يزل مقبلا على شأنه ملازماً على طريقته مواظباً على إملاء الحديث كصحيح البخارى ومسلم والموطأ والشفاء والشمائل، حتى توفى ليلة التاسع والعشرين من رمضان سنة ست وسبعين ومائة وألف.

٢٦٧ محمد أبو هادى بنى وفا.
ت/ ١١٧٦ هـ = ١٧٦٢م.

[ومات] الأستاذ المعظم ذو المناقب العلية والسجايا المرضية بقية السلف السيد مجد الدين/ محمد أبو هادى بن وفا، ولد سنة إحدى وخمسين ومماية وألف، ومات والده وهو طفل فنشأ يتيما وخلف عمه فى المشيخة والتكلم، وأقبل على العلم والمطالعة والأذكار والأوراد، وولى نقابة الأشراف (ص٦٣١) بمصر فى هذه الأثناء فساس فيها أحسن سياسة، وجمع له بين طرفى الرياسة، وكان أبيض وسيما ذا مهابة لايهاب فى الله، أماراً بالمعروف فاعلاً للخير، توفى يوم الخميس خامس ربيع الأول سنة ست وسبعين وصلى عليه بالأزهر فى مشهد عظيم حضره الأكابر والأصاغر، وحمل على الأعناق ودفن بزاويتهم بالقرب من عمه رضى الله عنه وتخلف* بعده السيد شهاب الدين أحمد أبو الأمداد.

* تخلف: أى صار خليفة نقابة الاشراف الوفائية.

٢٦٨ محمد باشا راغب الصدر الأعظم.
ت/ ١١٧٦ هـ = ١٧٦٢م.

[ومات] أيضا فى هذا الشهر والسنة الصدر الأعظم المغفور له محمد باشا المعروف براغب، وكان معدوداً من أفاضل العلماء وأكابر الحكماء جامعاً للرياستين، حاوياً للفضيلتين، وله تآليف وأبحاث فى المعقول والمنقول، والفروع والأصول، وهو الذى حضر إلى مصرْ والياً فى سنة تسع وخمسين ومماية وألف، ووقع له ما وقع مع الخشاب والدمايطة كما تقدم، ورجع إلى الديار الرومية وتولى الصدارة، ثم توفى الى رحمة الله تعالى فى رابع عشرين شهر رمضان سنة ست وسبعين ومماية وألف، وكان نقش خاتمه هذا البيت:

بمحمدٍ يرجو الأمان محمدٌ
مما يخاف وفى نوالك راغب



وألف رسالة فى العروض غريبة شرحها الشيخ أبو الحسن القلعى المغربى، وله ثلاثة دواوين تركى وفارسى وعربى، وكان له ذوق صحيح وفهم رجيح يكرم العلماء والوافدين ويباحث أهل العلم بمبتكراته، ومن كلامه فى مواجب* مصر:

مــواجبٌ نزلت من بعـد تطويل
كـضـرطة ربطت فى طرف مِنديل
أو صوت ضفدعة فى بركة الفيل

(ص٦٣٢) وله فى أحد مماليك أمراء مصر، وأجاد:

حكى ذا الرشا المملوكُ فى الحسن يوسفاً
وفيما أدعيه يشهد العين والقلبُ

* المواجب: ومفردها موجبة بضم الميم تعنى المصيبة والكارثة.

خــلا أن ذاك اغــتــاله الذئب فـرْيةً
وهذا حــقــيــقــاً قــد تملكه كلب

وسفينة الراغب المشهورة وما جمع فيها من المسائل والأبحاث والإيرادات الغريبة كبحث الاسم والمسمى والمقولات العشرة والعقول العشرة والحضرات الخمس والمعاد الجسماني وجابرقا وجابرصا وغير ذلك.

٢٦٩ على الهوارى مروض الخيل. قتل/ ١١٧٦ هـ = ١٧٦٢م.

[ومات] الشيخ المجذوب/ على الهوارى، كان من أرباب الأحوال الصادقين، والأولياء المستغرقين، وأصله من الصعيد وكان يركب الخيول ويروضها ويجيد ركوبها ولذلك لقب بالهوارى، ثم أقلع من ذلك وانجذب مرة واحدة، وكان للناس فيه اعتقاد حسن، وحكى عنه الكشفَ غيرُ واحد، ويدور فى الأسواق والناس يتبركون به، مات شهيداً بالرميلة، أصابته رصاصة من يد رومى فلتة فى سنة ست وسبعين ومائة وألف، وصلوا عليه بالأزهر وازدحم الناس على جنازته رحمه الله.

٢٧٠ عمر بن أحمد بن عقيل السقاف. ت/ ١١٧٤ هـ = ١٧٦٠م

[ومات] الشيخ المسند/ عمر بن أحمد بن عقيل الحسينى المكى الشافعى الشهير بالسقاف ابن أخت حافظ الحجاز عبد الله بن سالم البصرى، والسقاف لقب جده الأكبر عبد الرحمن من آل باعلوى، ولد بمكة سنة اثنتين ومائة وألف، وروى عن خاله المذكور وعن الشيخين العجمى والنخلى والشيخ تاج الدين المفتى وحسين ابن عبد الرحمن الخطيب ومحمد عقيلة وإدريس بن أحمد اليمانى والشيخ عيد وعبد الوهاب الطنتدائى (ص٦٣٣) ومصطفى بن فتح الله الحنفى، وسمع الأولية عالياً عن الشهاب أحمد البناء بعناية

خاله سنة عشر ومایة وألف، ومهر وأنجب واشتهر صيته وسمع منه كبار الشيوخ وأجازهم كالشيخ الوالد والشيخ أحمد الجوهرى، وعندى إجازته للوالد بخطه، وكذلك أجاز عبد الله بن سالم البصرى والشيخ محمد عقيلة ومحمد عقيلة ومحمد حياة السندى وذلك بمكة سنة ثلاث وخمسين، وبه تخرج شيخنا السيد محمد مرتضى فى غالب مروياته، وسمعت منه أنه اجتمع به بالمدينة المنورة عند باب الرحمة أحد أبواب الحرم الشريف، وسمع منه وأجازه إجازة عامة، وذلك في سنة ثلاث وستين ومـاية وألف، ولازمه بمكة سنة أربع وستين ومایة وألف، وسمع منه أوائل الكتب الستة وأباح له كتب خاله يراجع فيها ما يحتاج إليه، وسمع من لفظه المسلسل بالعيد بالحرم المكى فى صحبة سلالة الصالحين الشيخ عبد الرحمن المشرع وأجازهما، توفى فى سنة أربع وسبعين ومایة وألف.

٢٧١ محمد العدوى.
ت/ ١١٧٥ هـ = ١٧٦٣م.

[ومات] العمدة العلامة المفوه النبيه الفقيه الشيخ/ محمد العدوى الحنفى، تفقه على كل من الإسقاطى والسيد على الضرير والشيخ الزيادى وغيرهم، وحضر فى المعقول على أشياخ الوقت كالملوى والعماوى وتصدر للإفادة والإقراء، وكان ذا شكيمة وشجاعة نفس وقوة جنان ومكارم أخلاق، توفى في ثالث الحجة سنة خمس وسبعين ومایة وألف.

٢٧٢ محمدبن عبد الوهاب الدلجى.
ت/ ١١٧٧ هـ = ١٧٦٣م.
وهو ابن خال والد الجبرتى.

[ومات] الإمام العلامة الفقيه المتقن الشيخ/ محمد بن عبد الوهاب الدلجى الحنفى، وهو ابن خال الوالد، اشتغل بالعلوم والفقه على أشياخ الوقت ودرّس وأفتى واقتنى كتباً نفيسة فى الفقه وجميعها بخط حسن، وقابلها وصححها وكتب

عليها بخطه الحسن، وكانت جميع كتبه الفقهية وغيرها فى غاية (ص٦٣٤) الجودة والصحة ويضرب بها المثل ويعتمد عليها إلى الآن، وكان ملازماً للإفادة والإفتاء والتدريس والنفع على حالة حسنة ودماثة أخلاق وحسن عشرة، ولم يزل حتى توفى فى شهر رجب سنة سبع وسبعين وماية وألف.

٢٧٣ حسن بن سلامة الطيبى.
ت/ ١١٧٦ هـ = ١٧٦٢م.

[ومات] الفقيه الصالح الخيّر الديّن/ حسن بن سلامة الطيبى المالكى نزيل ثغر رشيد، تفقه على شيخه محمد بن عبد الله الزهيرى وبه تخرج، وأجازه محمد ابن عثمان الصافى البرلسى فى طريقة البراهمة(٩) ، وسيدى أحمد بن قاسم البونى حين ورد ثغر رشيد فى الحديث، ودرّس بجامع زغلول وأفتى، ودرسه أكبر الدروس، وكان لديه فوايد كثيرة، توفى سنة ست وسبعين وماية وألف.

٢٧٤ حسن بن على بن دياب.
ت/ ١١٧٦ هـ = ١٧٦٢م.

[ومات] المفتى الفاضل النبيه زين الدين أبو المعالى/ حسن بن على بن على بن منصور ابن عامر بن ذياب شمه الفوى الأصل المكى، ينتهى نسبه إلى الولى الكامل سيدى محمد بن زين النحراوى، ومن أمه إلى سيدى إبراهيم البسيونى، ولد بمكة سنة اثنتين وأربعين وماية وألف، وبها نشأ وأخذ العلم عن الشيخ عطا بن أحمد المصرى والشيخ أحمد الأشبولى وغيرهما من الواردين بالحرمين، وأتى إلى مصر فحضر دروس الشيخ الحفنى وله انتسب، وأجازه فى الطريقة البرهامية بلدِّية الشيخ منصور هدية، وألف وأجاد وكان فصيحاً بليغاً ذكياً حاد الذهن جيد القريحة له سعة اطلاع فى العلوم الغريبة، ونظم رائق مع سرعة الارتجال، وقد جمع كلامه فى ديوان، هو على فضله عنوان، ومن مؤلفاته شرح

صيغة القطب سيدى إبراهيم الدسوقى، جمع فيه شيئاً كثيراً من الفوائد (ص٦٣٥) ، وارتحل إلى الروم ثم عاد إلى مصر وألف كتاباً فى مناقب أستاذه الحفنى، وله حاشية على شرح شيخ الإسلام على البردة، وحاشية على شرحه على الجزرية، ورسالة فى خصوص رواية السوسى عن يحيى اليزيدى عن أبى عمرو ثم نظمها وكتبها، وكتاب الحقايق والإشارات إلى ترقى المقامات، والحلل السندسية على أسرار الدائرة الشاذلية وكشف الرموز الخفية بشرح الهمزية، ووسع الاطلاع على مختصر أبى شجاع، وهو كتاب حافل يبلغ أربع مجلدات، ومسرة العينين بشرح حزب أبى العينين، وقصة المولد النبوى، ونظم الأزهرية فى النحو، وعمل منظومة فى تاريخ مصر سماها بالحجج القاهرة، وغير ذلك رسايل ومنظومات كثيرة ومناسك الحج كبيرة، وسكن فى الآخر بولاق وبها توفى ليلة الجمعة رابع عشرين رمضان سنة ست وسبعين وماية وألف.

٢٧٥ خليل بن محمد المغربى.
ت/ ١١٧٧ هـ = ١٧٦٣م.

[ومات] الشيخ الإمام الفقيه المحقق الشيخ/ خليل بن محمد المغربى الأصل المالكى المصرى، أتى والده من المغرب فتديّر* مصر وولد المترجم بها، نشأ على عفة وصلاح وأقبل على تحصيل المعارف والعلوم، فأدرك منها المروم، وحضر دروس الشيخ الملوى والسيد البليدى وغيرهما من فضلاء الوقت إلى أن استكمل هلال معارفه وابدر* وفاق أقرانه فى التحقيقات واشتهر، وكان حسن الإلقاء للعلوم حسن التقرير والتحرير حاد القريحة جيد الذهن إماماً فى المعقولات وحلالا للمشكلات، وولى خزانة كتب المؤيد مدة فأصلح ما فسد منها ورم ما تشعث، وانتفع به جماعة كثيرون من أهل عصرنا، وله مؤلفات منها شرح (ص٦٣٦) المقولات العشر

* تدير مصر: أى اتخذ مصر داراً له.

* ابدر أى صار بدراً.

مفيد جداً، توفى يوم الخميس خامس عشرين المحرم سنة سبع وسبعين ومائة وألف بالرّى وهو منصرف من الحج.

٢٧٦ عمر بن على الفتوشى (ابن الوكيل). ت/ ١١٧٥ هـ = ١٧٦١م.

[ومات] السيد الأديب الشاعر المفنن/ عمر بن على الفتوشى التونسى ويعرف بابن الوكيل، ورد مصر فى سنة أربع وخمسين فسمع الصحيح على الشيخ الحفنى وأجازه فى ثانى المحرم منها، ثم توجه إلى الإسكندرية وتديرها مدة، ثم ورد فى أثناء أربع وسبعين، وكان يُنشد كثيراً من المقاطيع لنفسه ولغيره، وألف رسالة فى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم، مزج صيغها بالوِرد* الأعلى للشيخ الأكبر، وتولى نيابة القضاء بالكاملية، وكان إنساناً حسناً لطيف المحاورة كثير التودد والمراعاة، بشوش الملتقى مقبلا على شأنه، توفى فى ثانى ذى الحجة سنة خمس وسبعين ومائة وألف.

* الورد: أدعية دينية يواظب الصالحون على تلاوتها.

٢٧٧ محفوظ الفوى. ت/ ١١٧٨ هـ = ١٧٦٤م.

[ومات] الأستاذ الذاكر الشيخ/ محفوظ الفوى تلميذ سيدى محمد بن يوسف عن ورم فى رجليه فى غرة جمادى الثانية سنة ثمان وسبعين ومائة وألف، ودفن يومه قريباً من مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها.

٢٧٨ محمد بن يوسف الدلجيهى. ت/ ١١٧٨ هـ = ١٧٦٤م.

[ومات] العالم الفقيه المحدث الأصولى الشيخ/ محمد بن يوسف بن عيسى الدنجيهى الشافعى بدمياط فى سادس شعبان سنة ثمان وسبعين ومائة وألف.

٢٧٩ عبد الرحمن اغا. ت/ ١١٧٩ هـ = ١٧٦٣م.

[ومات] الجناب المكرم الصالح المنفصل عن مشيخة الحرم النبوى/ عبد الرحمن أغا فى ثامن شوال سنة تسع وسبعين ومائة وألف، ودفن بجوار المشهد النفيسى.

٢٨٠ إبراهيم اوده باشه
ت/ ١١٧٧ هـ = ١٧٦٣م.

[ومات] الجناب المكرم محب الفقراء والمساكين الأمير إبراهيم أوده باشه غانم (ص٦٣٧) فجأةً في ثامن جمادى الأولى سنة سبع وسبعين ومائة وألف، ودفن بمقبرتهم عند السادة المالكية.

٢٨١ عبد الفتاح المرحومى.
ت/ ١١٧٨ هـ = ١٧٦٤م.

[ومات] أيضا العمدة الشيخ/ عبد الفتاح المرحومى بالأزبكية في تاسع شوال سنة ثمان وسبعين وماية وألف.

٣٨٢ حسن النابلسي.
ت/ ١١٧٨ هـ = ١٧٦٤م.

[ومات] الأجل المكرم الحاج/ حسن فخر الدين النابلسى عن سن عالية، وكان من أرباب الأموال رابع عشرين جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين وماية وألف.

٢٨٣ على بن عبد الله.
ت/ ١١٧٦ هـ = ١٧٦٢م.

[ومات] الأمير الأجل المحترم صاحب الخيرات والمحبب إلى الصالحات/ على بن عبد الله مولى بشير أغا دار السعادة، ولى وكالة دار السعادة فباشر فيها بحشمة وافرة وشهامة باهرة، وفيه يقول الشيخ عبد الله الإدكاوى[١٠] .

أقبل الحظ والهناءُ السنىٌّ
ولنا أحسن الزمان المسىٌّ
وأتت دولة السرور فأهلاً
بك من دولة حباها العلىٌّ
لعلىّ المقام والفعل والاسم ومن جل فكره الألمعىٌّ
والهمام الغمامُ بأساً وجوداً
والذى شاع ذكره المرضىٌّ
فابشر ابشر بدولة لك فيها
ما به يا رئيس يهنى الولىٌّ
بحلاها حلاك سلطاننا الأعظم عثمانُ الأمجدُ الأفضلى



دمتَ فيها مهنّاً البال مأمو
نَا لك الله حافظ والنبىُّ
لك تاريخها حلا يا همام
أنت نعم الوكيل فاسعد علىّ

وكان منزله مورد الوافدين من الآفاق، مظهر التجليات (ص٦٣٨) الأشراق، مع ميله إلى الفنون الغريبة، وكماله فى البدايع العجيبة، من حسن الخط وجودة الرمى وإتقان الفروسية، ومدحته الشعراء وأحبته العلماء، وألقت إليه الرياسة قيادها، فأصلح ما وهن من أركانها وأزال فسادها، ولقد عزل عن منصبه ولم يأفِل بدر كماله، واستمر ناموس حشمته باقيا على حاله، واقتنى كتباً نفيسة وكان سموحا بإعارتها، وكان عنده من جملتها البرهان القاطع للتبريزى



فى اللغة الفارسية على هيئة القاموس، وسفينة الراغب وهى مجموعة جامعة للفوايد الغريبة، ومنها كشف الظنون فى أسماء الكتب والفنون لمصطفى خليفة وهو كتاب عجيب، توفى يوم الاثنين ثامن عشر شهر صفر سنة ستة وسبعين ومابة وألف، وصلى عليه بسبيل المؤمنين ودفن بالقرافة بالقرب من الإمام الشافعى، ولم يخلف بعده مثله فى المروءة والكرم رحمه الله تعالى، وقد رثاه الشعراء بمراثٍ كثيرة.

٢٨٤ يوسف الحفنى.
ت/ ١١٧٨ هـ = ١٧٦٤م.

[ومات] الإمام العلامة والمدقق الفهامة الشيخ يوسف شقيق الأستاذ شمس الدين الحفنى، أخذ العلم عن مشايخ عصره مشاركاً لأخيه، وتلقى عن أخيه ولازمه ودرّس وأفاد وأفتى وألف ونظم الشعر الفايق الرايق، وله ديوان شعر مشهور، وكتب حاشية عظيمة على الأشمونى وهى مشهورة يتنافس

فيها الفضلاء، وحاشية على مختصر السعد وعلى شرح الخزرجية لشيخ الإسلام، وحاشية على جمع الجوامع لم تكمل، وحاشية على الناصر وابن قاسم، وشرح شرح الأزهرية لمؤلفها، وشرح على شرح السعد لعقايد النسفى، وحاشية الخيالى عليه وعلى مُلاّ حنفى فى آداب البحث وغير ذلك، وله مقامتان وقصايد طنانة مذكورة فى المدايح الرضوانية وغيرها، توفى فى شهر صفر سنة ثمان وسبعين ومابة وألف.

٢٨٥ على بن ابن الخير المرحومى.
ت/١١٧٨ هـ = ١٧٦٤م.

[ومات] الإمام الفصيح المفرد الأديب الماهر الناظم الناثر الشيخ على بن أبى الخير بن على المرحومى الشافعى خطيب جامع الحبشلى[١١] ، ومن آثاره تشطير الأبيات الثلاثة للشيخ على جبريل فى مدح الأمير رضوان كتخدا الجلفى وهي:

(وأبيك ما رضوان إلا آية)
مَنْ أُمّه نال المنى فى الحالِ
ملك الأنام بعزه وبجوده
(شهدت بذاك شهامة الأفعال)
(يهب المواهب جمة بسماحة)
من غير تعريض له بسؤال
وتراه يغنى بالعطاء مؤملا
(مترافعاً عن مِنّة وملالِ)
(حتى يصير المعدَمون برفده)
يسعى لثروتهم مريدُ نوال
ويراهم زادوا افتخاراً إذ غدوا
(مترفعين على ذوى الأَموال)

وهو ممن كتب على بديعية على بن تاج القلعى، ومن كلامه يخاطب به الشيخ العيدروس.

مـــا يقـــول البليغ إن رام مــــدحـــــاً
فى زكى مـــــقـــــدس عـــــيــــدروسى
نســل طه ونجل بنت عــــتـــــيق
فـــــهــــــو والله تـاج رأس الرؤوس

(ص٦٤٠) توفى ليلة الجمعة سادس ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وماية وألف.

٢٨٦ ابراهيم بن محمد الحسينى.
ت/ ١١٧٩ هـ = ١٧٦٥م.

[ومات] الإمام العلامة السيد/ إبراهيم بن محمد أبى السعود بن على بن على الحسينى الحنفى، ولد بمصر وقرأ الكثير على والده وبه تخرج فى الفنون ومهر فى الفقه وأنجب، وغاص فى معرفة فروع المذهب، وكانت فتاويه فى حياة والده مسددةً معروفة، ويده الطولى فى حل الإشكالات العقيمة مذكورةً موصوفه، رحل فى صحبة والده إلى المنصورة فمدحهما القاضى عبد الله بن مرعى المكى، وأثنى عليهما بما هو مثبت فى ترجمته، ولو عاش المترجم لتم به جمال المذهب. توفى يوم الأحد سابع عشر جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وماية وألف.

٢٨٧ محمد بن عيسى الدمياطى.
ت/ ١١٧٨ هـ = ١٧٦٤م.

* المسلك: من شيوخ الطرق الصوفية هو الذى يسلك المريدين ويجيزهم فى طريقته.

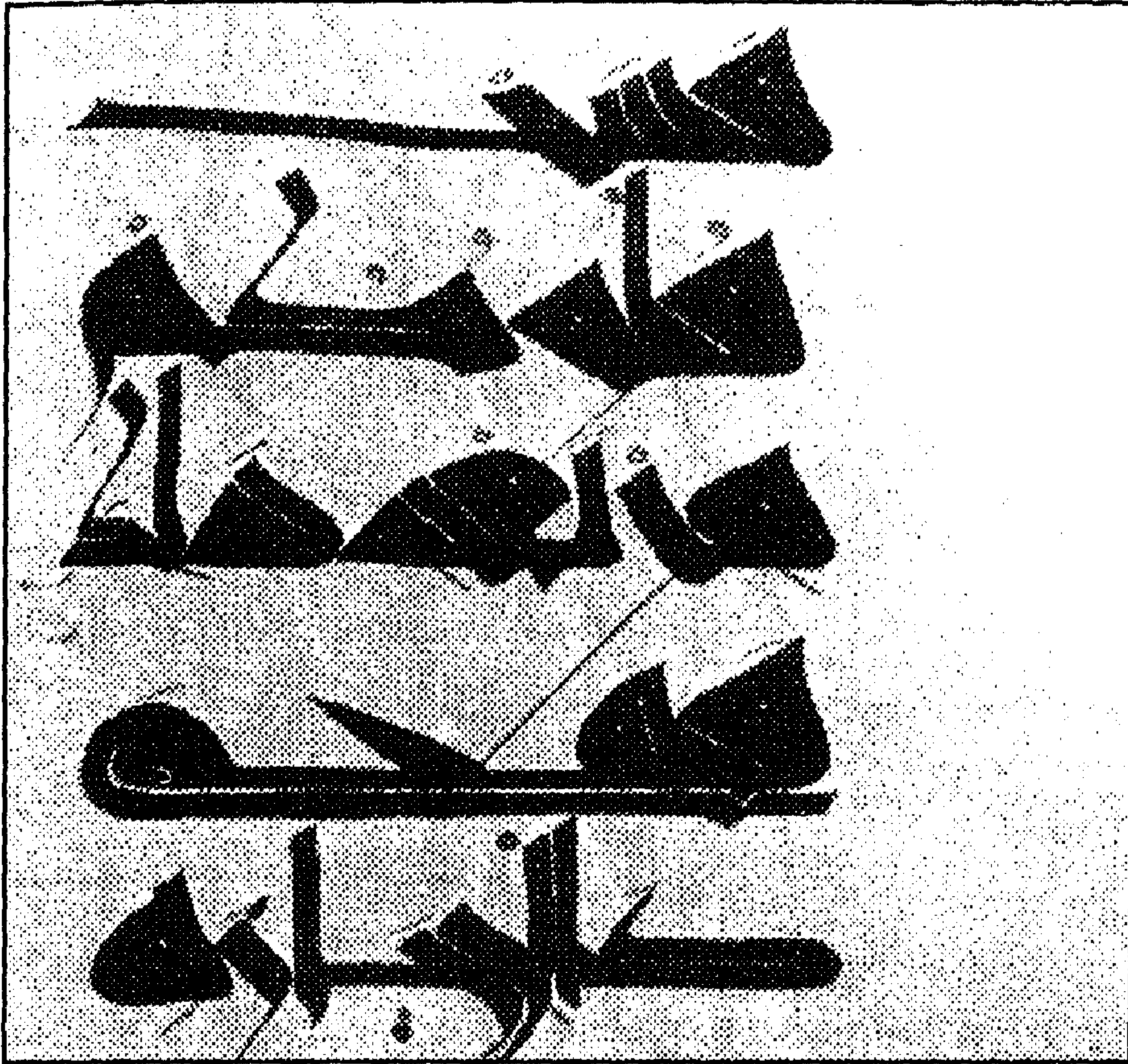
[ومات] الفقيه الزاهد الورع العالم المسلك* الشيخ/ محمد بن عيسى بن يوسف الدمياطى الشافعى، أخذ المعقول عن السيد على الضرير والشيخ العزيزى والشيخ إبراهيم الفيومى، والفقه أيضاً عنهما وعن الشيخ العياشى والشيخ الملوى والحفنى وطبقتهم، واجتمع بالسيد مصطفى البكرى

وأخذ عنه طريقة الخلوتية ولقنه الأسماء بشروطها، وألف حاشية على المنهج ونسبها لشيخه السيد مصطفى العزيزى، وله حاشية على الأخضرى فى المنطق وحاشيةٌ على السنوسية وغير ذلك. توفى فى ثامن رمضان سنة ثمان وسبعين وماية وألف، وكانت جنازته حافلة وصُلى عليه بالأزهر ودفن ببستان المجاورين وبنوا على قبره سقيفة يجتمع تحتها تلامذته فى صبح يوم الجمعة يقرءون عنده القرآن ويذكرون واستمروا على ذلك مدة سنين.

٢٨٨ أحمد بن محمد السحيمى. ت/ ١١٧٨ هـ = ١٧٦٤م.

[ومات] الإمام العلامة الناسك الشيخ/ أحمد بن محمد السحيمى الشافعى نزيل قلعة الجبل، حضر (ص٦٤١) دروس الأشياخ ولازم الشيخ عيسى البراوى وبه انتفع، وتصدر للتدريس بجامع سيدى ساريه* وأحيا الله به تلك البقعة وانتفع به الناس جيلا بعد جيل وعمر بالقرب من منزله زاوية وحفر ساقية بذل عليها بعضُ الأمراء بإشارته مالا حفيلا فنبع الماء وعُدّ ذلك من كراماته، فإنهم كانوا قبل ذلك يتعبون من قلة الماء كثيراً، وشغَل الناس بالذكر والعلم والمراقبة، وصنّف التصانيف المفيدة فى علم التوحيد والفقه مقبولة بين أيدى الناس، منها حاشية على الشيخ عبد السلام على الجوهرة وجعله متنا وشرحه مزجا وهى غاية فى بابها، وله حال مع الله وتؤثر عنه كرامات اعتنى بعض أصحابه بجمعها، واشتهر بينهم أنه كان يعرف الاسم الأعظم، وبالجملة فلم يكن فى عصره من يدانيه فى الصلاح والخير وحسن السلوك على قدم السلف، توفى فى ثامن شعبان سنة ثمان وسبعين وماية وألف ودفن بباب الوزير.

* جامع سيدى ساريه: هو جامع بقلعة الجبل.



٢٨٩ محمد بن أحمد ابن صالح ابن السعود الجارحي.
ت/ ١١٧٩ هـ = ١٧٦٥م.

[ومات] الإمام العلامة شمس الدين أبو عبد الله/ محمد بن أحمد بن صالح بن أحمد بن علي بن الأستاذ أبي السعود الجارحي الشافعي، ويقال له السعودي نسبة إلى جده المذكور، حضر دروس الشيخ مصطفى العزيزي وغيره من فضلاء الوقت. وكان إماماً محققاً له باع في العلوم، وكان مسكنه في باب الحديد أحد أبواب مصر، وحضر السيد البليدي في تفسير البيضاوي، وكان الشيخ يعتمده في أكثر ما يقول ويعترف بفضله ويحسن الثناء عليه، توفي في شعبان سنة تسع وسبعين وماية وألف.

٢٩٠ محمد بن حسين الحسيني العادلي الدمرداشي.
ت/ ١١٧٨ هـ = ١٧٦٤م.

[ومات] السيد الأجل المحترم فخر أعيان الأشراف (ص٦٤٢) المعتبرين السيد/ محمد بن حسين الحسيني العادلي الدمرداشي، ولد بمصر قبل القرن بقليل وأدرك

الشيوخ وتمول وأثرى وصار له صيت وجاه، وكان بيته بالأزبكية ويَرِدُ عليه العلماء والفضلاء، وكان وحيداً في شأنه وكلمته مقبولةٌ عند الأمراء والأكابر، ولما تولى الشيخ أبو هادى الوفائى رحمه الله تعالى كان يتردد إلى مجلسه كثيرا. توفى سنة ثمان وسبعين وماية ألف.

٢٩١ سليمان بن عبد الله الخطاط. ت/١١٧٩ هـ = ١٧٦٥م.

[ومات] الشيخ الفاضل الناسك الكاتب الماهر البليغ/ سليمان بن عبد الله الرومي الأصل المصرى، مولى المرحوم علي بك الدمياطى، جود الخط عَلى حسن أفندى الضيائى وأنجب وتميز فيه وأجيز، وكتب بخطه الفايق كثيرا من الرسايل والأحزاب والأوراد، وكانت له خلوة بالمدرسة السليمانية* لاجتماع الأحباب، وكان حسن المذاكرة لطيف الشمايل حلو المفاكهة يحفظ كثيرا من الأناشيد والمناسبات، توفى سنة تسع وسبعين وماية وألف.

* مدرسة السليمانية: بشارع السروجية عن شمال الذاهب إلى الصليبة عمرها الأمير سليمان باشا فى سنة ٩٢٠ هـ ثم صارت تكية فيما بعد.

٢٩٢ محمد بن رضوان السيوطى الشهير بابن الصلاحى. ت/ ١١٨٠ هـ= ١٧٦٦م.

[ومات] السيد العالم الأديب الماهر الناظم الناثر/ محمد بن رضوان السيوطي الشهير بابن الصلاحي، ولد بأسيوط على رأس الأربعين ونشأ هناك وأمه شريفة من بيت شهير هناك، ولما ترعرع ورد مصر وحصَّل العلوم وحضر دروس الشيخ محمد الحفنى ولازمه وانتسب إليه فلاحظته أنواره ولبسته أسراره، ومال إلى فن الأدب فأخذ منه بالحظ الأوفر، وخطه فى غاية الجودة والصحة، وكتب نسخة من القاموس وهى فى غاية الحسن والإتقان والضبط، وله شعر عذب يغوص فيه على غرايب المعانى، وربما يبتكر (ص٦٤٣) ما لم يُسبق إليه، وقد أجازه* الشيخ الحفنى بما نصه: «نحمدك يا عليم يا فتاح، يا ذا المن بالعلم والصلاح، ونصلى ونسلم

* نص اجازة الشيخ الحفنى للمترجم.

على أقوى سند، وعلى آله وصحبه معادن الفضل والمدد، أما بعد فإن المولى العلامة الرحلة الفهامة الحاذق الأديب، واللوذعي الأريب، مولانا الشيخ محمد الصلاحي السيوطي قد حاز من التحلي بقرايد المسايل العلية أوفر نصيب، بفهم ثاقب وإدراك مصيب، فكان أهلا للانتظام في سلك الأعلام، باجازته كما هو سنن أئمة الإسلام، فأجزته بما تضمنته هذه الوريقات من العلوم العقلية والنقلية المتلقاة عن الأثبات، وبساير ما تجوز لي روايته، أو تثبت لديّ درايته، موصياً له بتقوى الله التي هي أقوى سبيل النجاة، وألا ينساني من صالح دعواته، في أويقات توجهاته، نفعه الله ونفع به، ونظمه في عقد أهل قربه، وأفضل الصلاة والسلام، على أكمل رسل السلام، وعلى آله أئمة الهدى، وصحبه نجوم الاقتدا». كتبه محمد بن سالم الحفناوي الشافعي ثامن جمادى الثانية سنة ثمان وسبعين وماية وألف. وللمترجم مقامة بديعة متضمنة مدحَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذيّلها بقصيدة سماها الدرة البحرية، والقلادة النحرية، وهي طويلة تزيد على الثمانين بيتا ومن غرر أشعاره قوله:

هات لي قهوة الشفا من شفاهك
واسقنيها على فخامة جاهك
(ص٦٤٤) عاطنيها يا أوحد العصر لطفا
وبديع المثال في أشباهك
يا غزالاً لو صُوّر البدرُ شخصا
ليضاهيك في البها لم يضاهِكْ
عاطنيها ولم تدع لم حَراكا
لست أقوى على كمال انتباهك
هاتها والرِخاخ* في غفلاتٍ
لا تدعهم فيفتكموا في شياهك

* الرخاخ: بكسر الراء جمع رُخ بضم الراء وهو طائر كبير خرافي.

وقد شطرها الشيخ قاسم الأديب بما هو في ترجمته.

وله أيضاً:

حث نجب الكئوس قبل الصباح
واسقني من يديك صِرف الراح
واحدُ لي حادي المطيّ إليها
في غدو مبادراً أو رواح
لا تدعني بدون شربي فهمّي
منك في الاغتباق والإصطباح
خمرة تجعل الخلي شجيّا
فهي مثل الغذاء للأرواح
عاطنيها من بين آس وبان
وشقيق ونرجس وأقاح*
عاطنيها من بين إخوان صدق
قد تواصوا على التقى والصلاح
عاطنيها من كف بدر يطيع الكاس (ص٦٤٥)
في أمرها أو يعصى اللواحي
ذي طباع كريمة بين أعطا
ف بما تشتهي النفوس شحاح
كلما اهتزت الشَمول بعطفيه
أغار الهوى على الأرواح
صاح خل الصُحاة حقا وصح لي
حمي الدَنّ إنني غير صاح
وادعني دعوة المشوق فإني
قد دعاني من قبل داعي الفلاح
قد دعاني لمولد السيد الكا
مل غوث الورى أبي الأفراح

* أقاح: بفتح الهمزة جمع مفرده أقحوان بضم الهمزة وهو نبات طبي سمي البابونج بفتح النون.

قد دعاني لموسم الجود والفضل
وعرس الندى وعيد السماح
مولد السيد الذى تنهض الناس
إليه بل للمنى والنجاح
عين آل النبي كنز الأمانيّ
وأندى الأنام أبطنَ راح
قد دعاني فقلت أهلا ولو أسعى
على العين أو متون الرماح
ما دعاني إلا وكلي مجيب
لدعاه على اختلاف رياح
قلت لكن عليه عادة بر
ليس لي إن تأخرت من براح
يقتضي الشوق أن أطير إليه
وبسوء الأحوال قص جناحي
(ص٦٤٦) لا قلوص تقل رجلي وأفرا
س اشتياقي قد أصبحت في جِماحَ
قال فاقصد حمى خليفته الحفنيّ
وانزل به بغير جناح
قلت أنصفتني وهل لي في غير
حماه من راحة واطراح
من حمى يسهل العسير لديه
ومقام سهل النوال مباح
كم أيادٍ من جوده وصلتني
جوهرياتٍ فائقاتٍ صحاح
ما قصدت الحمى وأشفقت أني
خارج بالسؤال للإلحاح

فعطاياه كالكئوس فلا يحتاج
في نيلها إلى الإفصاح
أرتجي أنه إذا قصد السير
لذاك الحَمى وتلك النواحي
ولديه أتباعه الكل أن يذ
كر فيهم محمد بن الصلاحي
سيدي هذه العلاقة فاعذر
نهب شوق أحشاؤه في جراح
أنت حكمّت في كاسك فاحكم
بتغاض عن سوء فرط اقتراحي
دمتَ في نعمة الرضا ماتوالت
مدةَ الدهر بالمَسا والصباح

(ص٦٤٧) قلت: ومطلع هذه القصيدة مأخوذ من مطلع قصيدة خمرية للشريف أحمد بن مسعود الحسني أحد أشراف مكة وهي:

«حث قبل الصباح نجب الكئوس» إلا أنه قدم وأخر.

ومن غرر قصايده قوله:

نقلوا أكاذيب السلو لهاجري
سفهاً وما خطر السلو بخاطري
يا ليتهم علموا بأسراري التي
أودعتها يوم النوى بسرايري
لله وقفتنا بجرعاء الحمى
والنجم مرصود لسهد الساهر
نملي أحاديث الغرام فنجتلي
منها سرور مسامع وخواطر

وندير كـــاســـاتِ الوداع مـــديدة
فــي شــق أطــواق وشــق مـــــــرائــر
وســـوابقُ العـــبــرات من دمـــعى ومن
شـــعـــرى كـــعـــقـــد لآلىء وجـــواهر
أدعـــــو ســـــراة الظاعنين كـــأنما
أرجـــو الوصـــال من الغـــزال النافـــر
من كل بدر دجى وغـــــصن أراكــــة
فى عـــــز آســـــاد وذل جــــآذر
يعطى طلا ألفـــــاظه ولحـــــاظه
فى كـــأس مـــخـــمـــور وكـــأس مـــســـامـــر
لـــلـــه أيـــام ســـلـــفـــن بـــوصـــلـــه
والـــدهـــر ممتــــــثل لأمـــــر الآمـــــر
إن فاتنى طيب الزمان به فلى (ص٦٤٨)
عـــوضٌ بطيب حـــديث عـــبـــد القـــادر
مـــولى نراه نتـــقـــيـــه مـــهـــابة
مـن حـــــســـن آثار وطيـــب مـــــآثر
يرضـــيك من أخـــلاقـــه وخـــلاقـــه
بـريـاض آداب وكـنـز مـــــفـــــاخـــــر
وفـــضـــايل زينت بحـــســـن فـــواضل
ومـــــحـــــاســـن راقــت لعين الناظر
أ لله أكـــبـــــر إن اية فـــخـــره
كـــبـــرى وراثة كـــابر عن كـــابر
مـــولاى لم أخُطر مـــديحك خـــاطراً
إلا لأنـك ثـابـت فـى الخــــــــاطـر
فـــاقـــبل هُديتَ هدية من شـــاعـــر
إنَّ اقـــتـــراح الشـــعـــر منعُ الشـــاعـــر

مـا قـصـر العبـد الصـلاحي وزنهـا
إلا لفــهم عن جنابك قـــاصـــر

وله أيضاً:

اســقنا من يديك قــهــوة بن
وأدرها ممزوجــــة برُضـــابك
لاتحكم ســوى كــئــوسك فــينا
أنــت كــفء ونــحـن مــن خــطــابـك

وله أيضاً:

اتخــذ ســاقــيــاً وإن تعــدم الرا
ح فــمن ريقــه الشــهيّ أدرها
وإذا لـم تجــد لســاق ســبــيــلا
فــاطرحــهــا همــلا لا تعــتــصـرها

(ص٦٤٩) وله أيضاً:

بالأشـــرفـــيـــة شـــادن
ظبـي الكـنـاس لـه الفـــدى
يهـــدى الســـراة جـــبـــينه
فــجــبــينه صــبـح الهــدى
في عِطفــه هيف الصـــبـــا
وبـلـحـظـه ســـبـل الـردى
لـولا الحـــيـــاء ومـــا أرا
قب من مـــراقـــبـــة العـــدا
لتـــســـاقطت بـخـــدوده
قُـــبَلي مـــســـاقطة الندى

وله أيضاً:

جـاء داعى الحـبـيب يدعـو لوصلى
في مـحل شـدت على الماء ورُقْـه
فـتـعـثـرتُ من سـرورى ومـا وا
فـيت حـتى مـضى وأومض برقـه

وله أيضاً:

ربيع هذا الروض قـد شـاقنا
بمـنـظـر زاه وعَـرْف نـدى
لما كـسـتـه الشـمس حـاكى لنا
زمـرذاً* مـوّه بالعـسـجـد*

* زمرذاً: بالذال لغة في الزمرد بالدال، وهو حجر كريم شديد الخضرة، وأشده خضرة أجوده وأصفاه جوهراً، واحدته زمردة.
* العسجد: هو الذهب.

وله يخاطب بعض إخوانه:

مـا غـاض هذا الروضُ من مـائه
وصـار للأنداء مـسـتـمطرا
إلا وقـد أنبت إحـسـانُكم
فـيـه ربيـعـا بالندى مـثـمـرا

وله أيضاً:

أفـدى بروحى ذلك الغـالى الذى
وافى فـأحـيـا رسم جـسـمى البـالى
عـانقـتـه فـشـممتُ غـاليـة الشـذا*
(ص٦٥٠) منه فـيـا لله شمَ الغـالى

* غالية الشذا: الغالية نوع من الطيب مركب من مسك وعنبر وعود ودهن، والشذا قوة ذكاء الرائحة، والمعنى المقصود بهما (الطيب الشديد الرائحة).

وله أيضاً:

سـرينا وأعطاف النسـيم تهـزنا
تدير من الصـهـبـا حـديثَ شجـون

فخفنا عيون الحاسدين لأننا
سرينا من الأزهار فوق عيون

ووجدت بخطه ما نصه وقلت اختراعاً لهذا المعنى ولا أعلم أني سُبقت إليه:

جزى الله أنفاس النسيم فإنها
لتعلم سراً في النفوس لطيفا
أسرت إلى الأغصان عند قدومنا
حديثاً فمدت للسلام كفوفا
وهزت سروراً بالتداني معاطفاً
وأهدت لنا منها شذاً وقطوفا

وله أيضاً في الاكتفاء وقد أحسن:

بالله سلا عن حال قلبي وسلا
إن كان صبا إلي سواكم وسلا
والبعد كوى الحشا بنار وسلا
يا نار كوني اليوم برداً وسلا*

* وسلا: أى وسلاما.

وله أيضاً:

الليل إما يطلع ليل صبحا
والصبح إما يطلب صبح صلحا
إن كان مع الصباح يأتي فرج
يا عين تسهدى وبيتى فرحا

(ص٦٥١) وله أيضاً:

ألقاك وفي حشاشتي الأشواق
بدراً شخصتْ لحسنه الأحداق

لا يسعدنى إليك إلا كتبى
يا غصن أما تروقك الأوراق؟

وله أيضاً:

خدى لخيول أدمعى ميدان
والشوق رجال عزمه فرسان
يا من وقدت لحربهم نيران
مهلا فلكم بفكرتى ديوان

وكتب إلى بعض الإخوان وقد أهدى إليه منديلا:

يا كاملا أحيت مكارمُه الندى
فغدا لأمراض القلوب طبيبا
وردتْ هديتُك التى كانت لنا
كقميص يوسفَ إذ أتى يعقوبا
منديل سرك حين جاء مبشراً
بالود سرّ خواطراً وقلوبا
كانت دموعى للنوى مسفوحة
فحفظت فيه مدمعاً مسكوبا
أودعته دراً وعنه مسامعى
منكم وصون الدر ليس عجيبا
لكن تعلمتُ الندى فوهبتُ بعض
أحبتى مما وهبتَ نصيبا
لازال ربعك بالمكارم آهلا
وربيعُ كفك بالنوال خصيبا

وله أيضاً: (ص٦٥٢)

رب شـــخص يظن فـينا قـبيـحـاً
لو تروّى رأى القـــبـيـحَ شِـعـــارَه
قـيل لى مـاله سـوى الرجم بالغـيب
سـبـيـلٌ فـقلتُ بلْ بالحـجـاره

وله أيضاً:

لقـد حـركت نفسى إلى ذلك الحـمى
مـنـازلُ تمـت لـى بـهـن منـارُه
أنفسىَ مـهـلا ليس بالسـعى يبتغى
مـكـارمُ أخـــلاقٍ بـهـن مكـارهُ

وله مطرزاً باسم أحمد:

أمـــاناً قـــد أضـــرّ بنا الجـــفـــاءُ
فـقـد فـعلت لحـاظك مـا تشـاء
حـــلا فـــيك الغـــرام لكل صب
وحـــبك مـــا لأوله انتـــهـــاءُ
ملوك العـــاشـــقين لديك جند
وأنت لشـــمس دولتـــهم ضـــيـــاءُ
دمـــوعـــهم قـــد نسكبت لكى مـــا
تظلك من ســحـــائبـهـــا ســمـــاءُ

وله أيضاً فى ألثغ:

وألثغ حلو الثـــغـــر مَنّ بقـــبلة
فنمت به أصـــداغـــه وهى واواتُ
فـقلت أمـا للحـرب عندك غـاية
فـقـال ذؤاباتى لحـربك غـاياتُ

وله أيضا:

مـــذ أتى منكم بشـــيـــر يحـــاكى
بلبلَ الروض مـــعــــربا ألحـــانه
هزنا الشـــوق للصَـبـــوح صـــبـــاحـــا
فـــــســـبـــقناكمُ لبـــاب الحـــانة*

* الحانة: حانوت الخمّار وهو الموضع الذى تباع فيه الخمر.

وله أيضاً: (ص٦٥٣)

بنفـــسيَ نحـــوٌ يا ســـيـــوفَ لحـــاظه
غدت عـمدتى فى الفعل وهى ضعافُ
يضـــــاف إليـــــه كل مـــعنى وإنه
على عـــــزة الإدلال ليس يضـــــاف

وله أيضاً:

مـــــذ لاح فى المرآة فـــــاتن شكله
وجَـــلا بوجـــهـــيـــه لنا قـــمـــرين
صح افـــتـــنان العـــاشـــقين فـــإنه
حـــــاز الوجـــاهة وهـو ذو وجـــهين

وله أيضاً هذه القصيدة الغراء:

بُثّـــــا عن النائى الغـــــريب
جُـــمـــلا من الخـــبـــر العـــجـــيبِ
واســـــتـــوقف الركـــبـــان مـــا
بين الأراكــــــة والكـثـــــيـــب
واســــــتـنشـــــد القـلب الذى
قـــــد ضـــــاع من بين القلوب
سلبـــتـــه يوم الدوحـــتين طليـــعـــة لرشـــا الربيب



وسـرت به نحـو الخـيـام
يد الصـبَـا ويد الجنوب
ترنو الهـوادج عن صـفـا
شـمـس تميل إلى الغـروب
والبـدر يظهـر من خـلال
السـجف* في مـرأى عـجيب
والرق يخـفق والأزاهر (ص٦٥٤)
مـثل قلبي في وجـيب
يا حـادىَ العـبس التى
سـارت على قلبىَ الجنيب
علل عليل هوى فـعـهـدك مـا تقـادم بالطبـيب
أنفـاسـه الحـرَّاء لا
تهـدى بمدمـعـه السكوبِ

* السجف: بفتح السين وكسرها ظلام الليل.

كالخال يرتع في النعيم ويشتكي حَرَّ اللهيب
يصبو لمعتل النسيم ويستريح إلى الهبوب
إني وإن شطَّ النوى
وقفٌ على حب الحبيب
كابدت ما كابدت من
شَقِّ المرائر والجيوبِ
وعلمت كيف تقوم أسواق المعارك والحروبِ
ولقيت دون البيض وقع السمر بالصدر الرحيب
من كل ريم جائل
في برد جردته النشيب
يحكي الغزالةَ في الترفع والغزالةَ في الوثوب
ألحاظه ترويك ديوان الحماسة عن حبيب
وقعات أسهمه تركن جميع جسمي في ندوبِ
وقف السقامَ عَلَى الورى
ولمهجتي أوفى نصيب
لو أغرق الشعراء فيه لأخروا وزن النسيب
أسفي على عنفوِّ عُمْر
مرَّ في عيش حديث أسرار الغيوب
حيث المسرة في دنو
والمساءة في هروب
حيث الشبيبة لم تشب
بتراب تغيير المشيب
عمر وفي دهري به
فعجبت من صدق الكذوب
كم ليلة عانقت فيها
قامة الغصن الرطيب

في معهد ما فض عنه الأنسَ إلا ختم طيب
والزهر يضحك من بكاء
الطلّ بالثغر الشنيب
(ص٦٥٥) والريح تكتب في الغدير حديث أسرار الغيوب
والطير تقرأ والغصون
تهز أعطاف الطَروب
والورق تصدح في الغصون
بصوت محزون كئيب
في رنة الشادي وهينمة القطا والعندليب
عجماء تعرب في السؤال
وتستجيب بلا مجيب
والليلُ أرسلَ ذيْله
رصداً على أعلى القضيب
يحكى الشعور كأنه
يروى الفروع عن الخطيبِ
فجعلت ورِدى ورَد خد
وافر منه نصيبى
أدنو وأحشائى من الحدثان في شك مريب
لولا الرقيب ظفرت من
لقياه بالفرج القريبِ
وكشفت من وصلى به
ما قد ألمّ من الكروب
بُعد الحبيب أخف عندى
من مواقيت الرقيبِ
دار يكون بها عدوى
لا أحب بها حبيبى

* الثواء: الإقامة.

إن الثـــــواء* عــلــى الــنــوى
من بعض حــــرمـــــان الأديــب
من يـخـطـب العـلـيـــــاء هـان
علـيــــــــه ترويـع الخـطـوب
يا دهر ويحك كـــيـف قـــابلت
المـنــاقــب بــالــمســلــوب
ورفـــــعت كلَّ مــــؤَخـــرِ
وخـفـضـت مـقـدار الحـبـيبِ
حــــسبى الفـضـــايل والعـــلا
والفـــضل ليس من العـــيـــوب
حــــسنات مــثلى من حــــلاك
ولـــيـــس ذنـبــك مـــن ذنـويـــى
مــــــــــا حـلّـت الآذانِ إلا
حلْيَــــــةُ الفـطن اللبــــــيب
لـو أنـصـف الرامـى لـبــــــان
العــــذر فى خطا المصــــيـب
إن كــــان جــهـــد الدهر صــرف
نقـــود عـــمـــرىَ في المغـــيب
فـــابن الصـــلاحىِّ غـــريبٌ
لا مــــلام على الغــــريب

وله أيضاً:

حدثا عن حديث شوق قديم (ص٦٥٦)
يا زمـــانَ الحـــمى وربع ســـيـــوط
كلمــــا قلت ربع أســـيـــوط يدنو
صك وجــــهَ الرجـــا بكف قنوط

وله

يهـــواه قلبى ولكن
لـلـنـفـس عـنـه أكـفُّ
وقـد يُغص بمـاء
تنازعـتـه الأكـفُّ

وله

وكـان لىَ الشـعـر فى طاعـة
فلما عجزت عصتنى القوافى
فـهل لى بهـذا الجـفـا سيدى
توافى لعل القوافى تُوافى

وله

أللشعـرِ سـعـرٌ فـاستامُـه*
واقرض للدهر منه قريضا
وليس قصاراى لكننى
لأجل الخليل* عشقت العروضا

* فاستامه: أى فاشتريه.

* الخليل: هو الخليل بن أحمد واضع علم العروض.

وله أيضاً وقد أبدع:

لم أشرب الخمر على ربية
وإنما دمعى لها يحكى
ذاب الحشا حتى جرى من فمى
فـهـا أنا أشرب ما أبكى

وله أيضاً:

لا منى فى هواه من لو رآه
كان يَفدى بالعين ذاك الخليلا .

ربَّ مــتّع بـه عــيـــان عــيـــونى
وأدمـــعـــه فى صـــحـــة والخلى* لا

* الخلى: الخالى من الهم وهو ضد الشجىّ.

وله:

ولـم أنس لما ودعـــتنى ودمـــعـــهـــا
يتـــرجم عن مكنون مـــا فى فـــؤادها
فـــقلت لهـــا هل فـــيك بلغـــةُ راحلٍ
فـــأنت مُنى نفـــسى وفـــيك مـــرادُها
(ص٦٥٧) فكادت وحق الله لولا رقيبها
تزودنى مـن عـــينهـــا بســـوادها

وله:

عـــادنى من أحـب لـيـــلا وأهـدى
لـى من الزّهـر وردةً صـــفـــراءَ
قلت أهديتَ لونُ سـقـمى فلو أهديت
ورد الشـــفـــاه كـــان شـــفـــاءَ

وله:

الحـــسن مـــال والوصـــال زكـــاته
من جـــاد بالمَزْكـــاة أثمـــر مـــالُه
فـــأنعـم بوصل منك يا بدر الدجى
فـــالحـــسن أقـــرب مـــا يكون زَواله
إن كـــان مـــعـــروف فـــهـــذا وقـــتـــه
حـــاشـــا الكريم أن يُردَّ مـــقـــالُه

وله:

يا للرجـــالِ لألحـــاظٍ قـــد اتخـــذَتْ
من ســـحـــرِ بابلَ أحـــداقـــاً وأهدابا

ومـا كـفى عـينهـا النجـلاءَ من كـحل
حـتى رمت بسـهـام الكحل ألبـابا
يرنو بهـا رشـأ يخـتـال عن مَـيَلٍ
فكلمـا فـتكت يزداد إعـجـابا
من يسـتطيعُ مـقيـلاً عن مـصارعـهـا
وطرفـهـا قـد غـدا للقلب جـذابا
(ص٦٥٨) تلك الشهادة فاشهد فى حيازتها
ولا تـطـع عـاذلاً لا زال كـذابا

وله أيضاً وقد أحسن فيه:

ذَكَـرَ الغـضى فـحنتْ عليـه ضلوعُـه
صبٌ سـقَتْ وادى العـقـيقِ دمـوعُـه
لولا الهـوى والنأى يصـدع شـمله
مـا كـان ريب الحـادثات يروعـه
يبكى الفـريقَ ومـا استـحق فـراقَـهم
من داء طرف بان عنه هجـوعـه
وحـشـا تَقَـسَّـمـةَ الغـرام فـحـزنه
عندى وفى تلك الركـاب جـمـيعـه
قـلـب يـقـلبـه الأسى فـكأنـه
بيتُ العـروض اعـتـاده تقطيـعُـه
واها لـهـذاك الزمـان ومَن له
من مـسـمع ومن البـعـيـد رجـوعـه
زمن يـود الصـب أن لـو يَشـتـرى
مـا بان منه بعـمـره ويبـيـعـه
حـيث الأمـانى ملكه والدهر لا
يعـصـيـه والأصل الأبىُّ يطيـعـه
لو كـان ينجح سـيل أدمـعـه على
أيامـه سـالت وسـال نجـيـعـه

حيا الحيا ذاك الحمى من مربع
أربى رباه ومشتهاى ربوعه
مع شادن لولا مسارقة المها
لحظْية فاق على الغزال صنيعُه
(ص٦٥٩) فتان معسول الرضاب فديته
لو كان يرقى فى الهوى ملسوعه
قاس يرى ذلى لعز مكانه
ومن العجايب أن تعز منوعه
فقضيت منه لبانة الشوق الذى
وقف الفؤاد على الشجون ولوعه
فمضت وأومض برق خُلبها وهل
يبقى المنا والنائبات تضيعه؟
واليوم أقنع باذكار حديثه
إن كان يغنى المستهامَ قنوعُه
وبحب آل البيت أصل مكارم
الأخلاق أفضل من سما ينبوعه
يحلو التغزل والصبابة والهوى
والحب ما بالقرب فاح مضيعه
لى منهم الغصن الذى طابت أصول
كماله فسمت عليه فروعه
حسن الحيا من يؤمل مجده
قد تم فى ذاك الجمال طلوعه
من قام ينصب نفسه فإذا به
نحو الكمال قد انتهى مرفوعه
السيد الحسن العلىٌ بن العلى
من لم يَفُته من العلا مجموعه

يا ابن النبى إليك شـــرحَ صـــبـــابتى
يحلو بذكــرك ســيــدى توقــيــعُــه
شكوى أسير هوى ومطلق عبرة (ص٦٦٠)
ذلٌ الخــضــوع إليك منه شــفــيــعُــه
مــنــاضــره وهواك من مــحــمــوله
إن كــان يُرفع فى الهــوى مــوضــوعُــه
فــبــحق جــدك خل عن حــد الهــوى
إن كــان ينفع فى هواك خــضــوعُــه
وانـظـر إلى قـلـبٍ صــــــريع نكاية
من غــيــر طرفك لا يُفــيق صــريعُــه
وحـــشـــاً تصـــدّع من مكابدة الأسى
لولا الهـنا مـــا ناله تـصـــديعُــه
واعطف عليـــه فــقــد تمزق قلبــه
أيدى ســبــا فــعــسى يُرم خليــعُــه
وأدر على الأوقــات صــهــبــاء الصــفــا
فـــالدهر أينعَ زهرُه وربيـــعـــه
مــا شــأن عــصــرٍ أنتَ واحــد حــسنه
أن لا يتــيــه على الزمـــان ربيــعــه
وإليكهــا من مــدِنَف* ملك الغـــرام
جــمــيــعــه مــذبان عنه جــمــوعــه
حــاكَ الصــلاحى وشــيْــهــا فطرازها
تكمــيله قــد زانه ترصــيــعــه
ضــمنت مــعــانيــهــا البــيــان فكلهــا
بيتٌ تلاعب بالعـــقـــول بديعُـــه
فــاقــبل ومــا ضــاق الفــضــا إلا ومن
نفـثــات ســحــرك يســتــمــد وسيعُــه

* مدنف: أدنفه المرض أى ثقل عليه فهو مدنف بفتح النون وكسرها.

لازال يخــــدم باب سُــــدّتك التى
حلّت من المجـــد العــزيز رفــيــعــه

(ص٦٦١) ومن غرر قصائده ما مدح به شيخه الشمس الحفنى قُدّس سره وقد أجاد:

لهـذا المحـيـا طلعـة الشـمس تسـجـد
ومن ذكــــره دَوْح الثنا يتـــــأود*
وألسنة الأكـــوانِ كـــالورُقِ كلهـــا
بذكـــراه بين الخــافــقين تغــرد
مــحــيـــا عليــه للقــبـــول طلاقــة
يزين حـــلالهـــا حلى مــجــد وســودد
مـــحـــيـــا إمـــامٍ بيض الله وجـــهـــه
فــوجــه مــشــانيــه من الخــزى أســود
إمـــام الهـــدى الراقى إلى ذروة العـــلا
إلى رتبـــة عنهـــا الثـــوابت تقـــعـــدُ
إمـــام له فى المجـــد فـــخـــرٌ مـــؤثلٌ
وفى رتبـــة العليـــاء عـــز مـــؤيد
إمـــام حـــمـــاه الله من كف لامس
كـــذاك الثـريا ليس تدركـــهـــا اليـــد
أمــعــراجــه الســامى ينال فـــيــرتقى
وليس ســـواءَ ســـيـــد ومــســـوّدُ
فـمـا شـئتَ قل فـيـه فـأنت مـصـدّق
مـــزاياه تقـــضى والمحـــاسنُ تشـــهـــد
مـــزايا يهـــز الغـــصنُ أعطافَـــه لهـــا
ويثنى عليـــه الكون طُراً ويحـــمـــد
وأيدٍ يبـــارى الريحَ وكف* أكـــفـــهـــا
عليـــهـــا ازدحـــام فـــهى للناس مـــورد

* يتاود: بمعنى يتمايل.

* وكف الأكف أى ندى الأيدى والمراد به الجود.

(ص٦٦٢) وفضل أقر الناس ـ وهو شهادةٌ
له ـ أنه في حَلْبة الفضل أوحد
فيا لدروس كم بها حي دارس
من الدين يحييه بها ويجدد
دروس يرى فيها ابن ادريس* راحة
ويصفر منها من يغار ويحسد
فليس لأم الشافعي قرابة
سواء ولا صنو له بعد يولد
فيا فاتحاً عين العمى ليرى بها
معايب غُض الطرف إنك أرمد
ويا منكراً سعى الإمام ووقته
أبعدَ وقد قال المؤذن أشهد؟
أبعدَ ثناء الكونِ والكونُ ناطق
يوافيه من عز المناقب تجحد؟
ويا من يسوم الأسد بالسوء خلٍّ عن
مجالك هذا اليوم حتفك أوغد
أخا العزم كم ذا أنت تتهم* في السرى
إلى غيره تبغي النجاح ونُنْجد
وفي بابه العافون من كل وجهة
يطوفون في أرجائه فهو مسجد
ونجم الثريا ثابت في رحابه
ومن دونه في مقعد الصدق فرقد
وبشر روى عن وجهه البشر والرضا
وعن رأيه المحمود يروى مسدد
(ص٦٦٣) نَصَحُتك لا تنزل بغير مُقامه
فليس سواه في الحوادثُ يقصد

* ابن ادريس يقصد به الإمام الشافعي رضي الله عنه. ينسب له كتاب الأم في المذهب الشافعي.

* تتهم: أي يسير في الأرض المنخفضة وينجد أي يسير في الأرض المرتفعة.

فيـا ناصـر الدين الحنيـفى ظاهراً
بباطن سـرٍ سـرْ فـأنتَ المؤيد
وقم سـيـدى بالعـزم فى نصـر ديننا
وجد لى بحسن الرأى فالسعى أحمد
ألا إن بيـتـاً أنت عـامـر ربعـه
وأنت إمـام الكون فـهـو المشـيـد
أمـولاى إن الناس إمـا مـبـغضٌ
إليك فـيشـقى أو مـحبٌ فـيسعد
وهلْ يبـتـغى الإسـلامَ والدين والتـقى
وبغـضَك يامـولاى قلبٌ مـوحـد؟
أمـولاى شكوى من زمـانٍ عـهـدته
تغـيـر من حـال له كنت أعـهـد
فـمـا بال ربع العلم أصـبح دارسـاً
ومـا بال شـمس الأنس وهو مـبـدد؟
ومـا لى أرى غـيم الجـهلة مطبـقـاً
فـيـبـرقنا من غـيـر قطر ويرعـد؟
أينهـر سـحـبـان البـلاغـة باقلٌ
ويصـبـح بالاعـيـاء قس يهـدد؟
فـيـهـا لهف نفـسى من عناء وحـسـرة
ويـا نـار هـمٍ بين جنبـى تـوقـد
ويا زفـرة قـد أولعت بحـشـاشـتى
فتكمن فى جـسـمى الهـموم وتصـعد
من اجلك يومى مـثل ليلى فى الأسى
فـدهرى وطرفى أسـود ومـسـهـد
(ص٦٦٤) وليس أخو مجد طريفٍ وتالدٍ
كـمن فى ذراعيـه سـقـاء* ومـزود

* سقاءٌ، بكسر السين أى وعاء للشرب ومزود بكسر الميم أى وعاء للتمر.

أمـــــولاى هذى سنة اللـه لم تـزل
على ألسن الأعـــــلام تُروى وتُسنـد
ولو كـــان للإنصـــاف والحق مــهــيعٌ*
يرام فـيـحـيى أو طريقـاً فـيـقـصـد
لكان لذى القلب المصـــان تبـصـــر
فـيـبلو به صـرفَ الصـروفِ وينقـــد
ولكنهـــا الأقـــدار تأتى بضـــد مـــا
يحـــاول فـــهـــو المخطئ المتـــعـــمـــد
أمـــولى يهنيك الرقى إلى العــــلا
برغم المســـاوى والفــــخــــار المؤيد
ويا قلم الســعـــد الذى هو لم يزل
يوقع فى إســـعـــادكم ويجـــوّد
أمـــولاى مــا بال الرّعـــاع تفـــرقـــوا
وكــــــانوا بأطـواق الـولاء تـقـلـدوا
لئن غـــضـــبـــوا فـــالله راض ولم يزل
يعـــينك بالنصــــــر المبين ويمدد
لقـد كـشف الخـذلان مكتـوم سـرهم
وأخطـأهـم منـك الـولا والتـــــودد
ومـا شئت إلا الحق فى السـخط والرضـا
وذكـــرك فى الحـــالين إياك نعـــبـــد
فـــإن كنت لم تغـضـب فلله غـيـــرةٌ
عليك وحـــرب نارها ليس تُخـــمـــد
لقد رَغِمَت آنافهم وتصدعت (ص٦٦٥)
قلوب من الشــحناء منهم وأكْــبُـــدُ
ولو أنصـفـوا كـانت لهم من نفـوسـهم
زواجـــر تَهـــدى للصـــواب وترشـــد

* المهْيع: الطريق.

فـتـرضـيك منا أنفس نشـأت على
رضـاك ولا يثني هواها المعـقـد
وحـبك نفـديه بكل عـلاقـة
وبالنفس بل بالعين فـهـو مـؤكـد
وأصـحـابك الغـر السـراة همُ همُ
فكلهم مـولى كـريم ممجـد
بقـيتَ بقـاء الدهر إنك سـيـدى
بآثارك الحـسناء فـينا مـخلد
ودونك بكراً بنت فكر أجـادها
يرجي نداك ابن الصلاحي محـمد
أجبت بها داعي القـوافي ومـهـرها
قـبـولي ولي من راحـتـيك تعـود
فدع سيدى حسان* مـدحك بالذى
يحـاول من مـدح وذم يعـربد
فكلني إلى مـا شـئـتـه من بديهـة
فـإني بما أرضـيكَ أنشي وأنشـد
وهـبـنـي ذروراً* من نداك فـإنني
لأرمـد من داء الأسى وهي إثمـد*
بجـدك طه من شـرفت بحـبـه
وطاب له من جـاهه لك مـحـتـدُ
عليـه من الآل الكرام تحـيـة
تنالك منهـا رحـمـة ليس تنفـد
مدى الدهر ما قال الصلاحي مؤرخاً
هو العـزُّ هامن أجله دحض العـدُو
(ص٦٦٦) (وله أيضا):
أحنُّ لأيام الهـوى وعـذابُها
أليم ومـا عـهـدى لهـا بقـديمِ

* حسّان: الشاعر هنا يشير إلى حسّان بن ثابت شاعر النبى صلى الله عليه وسلم.

* الذّرور: بفتح الذال ما يُذَرّ ويفرق والمراد هنا هبني نفحة من جودك.
* الأثمد: بكسر الهمزة وسكون الثاء حجر يكتحل به.

وإن كـان شـعرى ضـاع فـيـه فـإن لى
بقـايا ومـعنى الفكر غـيـر عـقـيمِ

(وله أيضا):

هـواكـم قـــد تحكم فى فـــؤادى
وحـــملنى الصـبــابة والسـقــامــا
ومـــــــا زرتم ولا هـبـت ريـاح
عـسى يشـفى تنشـقـهــا الزكــامـا

(وله أيضا):

إن رمت تـصـــحب شـــخـــصــاً
ولـيـس مـن أقـــــــــرانـك
فـــانظـر لـه واخـــتـــبـــره
وزنـه فـى مـــــيـــــزانـك
فـنـقـصُ مـن لـك يـعـــــزى
لمقـــتـــصـى نقـــصـــانـك

(وله أيضا):

يا حـــسَنًا قـــد غـــدت بضـــاعـــتـــهُ
حليـــةَ أهـل الكمـــال والفـــضـل
بـــابـــوجـــكـــم* مـــعـــجـبٌ لناظره
لـكـنـه ضـــــــيـقٌ عـن الرِجْـلِ
فـــأبدلوا ضـــيـــقَـــه لنا سَـــعـــةً
وعـــاملونا بقـــســـمـــة العـــدلِ
وعندنا لاجـــتـــمـــاعكم شـــغـفٌ
فـــشـــرفـــوا دارنا بلا مَـــهـل

* بابوج: بمعنى حذاء.

وقال مشطراً:

ويوم أنس به اقتنصنا
ظبيا تهاب الأسود قنصه
طاب به الوقت فانتهزنا
من الزمان الخئون فرصه
في روضة زانها ربيع
كمل صوبُ السحاب نقصه
نسيمها مذحكى شذاها
به غدت للعقول نقصه

وله:

هذه الدار والعوارض حالتْ
عن وصولي فاخضر العُيش أغبرْ
وعهود الحبيب كيف استحالت
ليتها كالخدود لم تتعذر

(وقال ارتجالا في مجلس أنس حفّت به الأحباب من ذوى الألباب)

شاق طرفَ السرور ظرفُ الربيع
فتملى بحسن تلك الربوع
ما ترى الزهر ضاحكا لبكاء الطل
من در قطره بالدموع؟
وغصون الرياض تخلع أثوا
ب التداني على الندىِّ الخليعِ
فأنسنا بجمع إخوان صدق
زان طبع الوفاء قدرَ الجميع

صـــــالحى أرح فـــــؤادك والبسْ
من بشـيـر اللقـا قـمـيص الرجـوع

(ص٦٦٨) ثم أنشد في المجلس ارتجالا:

إلى القبـة الفيـحـاء سرنا فسرّنا
ربيعُ المنى من ثغـر طلعـتـهـا الغـرا
أنسنابهـــــا من كل بدر ولا نرى
عـجـيبـا طلوع البـدر فى القبـة الخضرا

ثم أنشد عند التهيئ للقيام من ذلك المجلس:

يا نهـار السـرورِ كـيـف اخـتلسنا
فــيك أنســا كــأنما هو شكٌ
قــد أنسنا فى فــتـحــه بالتـدانى
ودهانا خـتــامــه وهو مـسـكُ

وله أيضاً:

قــد كنت أهجــو الرقـيب حـينا
لأنه يرصـــد الحــبـــيـــبـــا
والآن لما نوى التــجـــافى
عـــشــقت من أجله الرقــيـــبـــا

وله:

يظن سلُوّى حين شـــاهد أدمـــعى
تحلـى بـدرّ تـربَـه وتـرائبــــــــه
وحقك مـا شـابت هواى وقـد جرت
دموعى من عـصـر الشبـيبـة شـائبَـه



(وله أيضاً)

إن أذنب الدهر بتقديمه
من ليس يدرى قيمة الشعر
فبسطُ إحسانك يا سيدى (٦٦٩)
ما زال يمحو زَلة الدهر

(وله)

أشرت لها فى قُبْلةٍ ورقيبهُا
شهيدٌ وغيم الأفق قد غيب الشما
فقالت بعينيها تشير إلى السما
فيا حسن معناها الذى سلبَ الحِسا

ومن غرر قصائده التى أبدع فيها وأجاد وأشار فيها بالمدح



لشيخه الشمس الحفنى قدس الله سره وهى هذه:

مل بى فـقـد وقَـدَ الهـجـيـر
انى بظلك مـسـتـجـيـر
وأرح مطيك يا سـمـيـر
فلقـد أضـر بهـا المسـيـر
هذا الحـمى فـارصـد إذا
مـا اسـتـأنس الظبى النفـور
واطرق كناس الغـيـد حـيث
ينام راعـيـه الغـيـور
وأمِطْ سـتـائره فـذلك
حين تـنـفـتـح الخـدور
واسـأل من الظبـيـات عن
عـهـد تضن به الصـدور

واحفظ فؤادك أن تصيبَ
عيونهن فهن حور
من كل غانية يلوح
بوجهها القمر المنير
تختال فى مَرَح الشباب (ص٦٧٠)
فيخجل الغصن النضير
تسعى فيقعدها روادفها
وتنهضها الخصور
سكرى رأت كسر القلوب
فصار ناظرها الكسير
فعلتْ بسحر جفونها
ما ليس تفعله الخمور
خَنُثَتْ معاطف قدها
لكن لواحظها ذكور
الله أكبر من نشاط
جفونها وبها فتور
يا صاح إن جُزْتَ الخيام
وللظباء بها ظهور
قل للبخيلة بالزيارة
ما لطيفك لا يزور؟
لم أنس إذا وافى البشير
يلوح فى فمه السرور
إذ أقبلتْ ريح القبول
بها وأدبرت الدبور
فضممتها وبمهجتى
من حر أشواقى سعير

فتعوذت بالروض من
شر بأنفاسي يطير
روض تعلق بالمجرة
من جوانبه نهور
(ص٦٧١) تبدو به زهر الزهور
لأنه فلك يدور
ضحكت ثغور زهوره
فبكى لها النوءُ المطير
وحنت نواعره وحنْنَتْ
وهي من غيظٍ تفور
ذكرت قديم عهودها
فانهلّ مدمعها النمير
يا طيب أنفاس الربيع
ففي تنفسها عبير
والجو مجمرة عليها
من ضبابتها بخور
وافت به رود بأسراري
لها طرف خبير
وسعت على طرق الجداول
والنسيم لها سفير
وطروس قامتها عليها
من ضفائرها سطور
يا طيب ما تملى الشعور
وحسن ما نقل الغدير
ما ذاك الافَرْعُ ليل
قد تبلج فيه نور

والورق ساجعة لها
من كل ناحية سمير
عجّماء تعرب عن ضمائرنا (ص٦٧٢)
وليس لها ضمير
والريح تعتنق الغصون
بها فتعتبق الزهور
وبدت شموس الراحِ تحملها
الكواكبُ والبدور
فقضيتُ منها ما قضيت
وكان لي ولها أمور
هذا كلامي الحلو أهدته
إلى فميّ الثغور
وضممتها عند الوداع
وكل أنفاسي زفير
وبكت عيون السحب حينَ
تساقط الدمع الغزير
نُحنا معا فتحلت الأغصان
منا والنحور
وسرت وقد لاقيت منها
ما يطيش له الصبور
صبري وما لاقيت إذ
رضيت به كل يسير
رعيا لذياك الحمى
والطرف مبتهج قرير
ولمعهد حصباؤه
درر وتربته ذرور

قـــــد لح بالقلب الغـــــرور
وذلك الطرف الغـــــرير
(ص٦٧٣) ومـــرور أيام الصبـــا
من دونهـــا العـــيش المرير
أنى يروج العـــمـــرو
الأيام تنهب والشـــهـــور
كم أنجـــد الســـارى وكم
تهم الهـــمـــوم به تغـــور
من لى بدهر لا يســـاعـــد
فـــاليســـيـــر به عـــســـيـــر
أرجـــو انتـــصـــافـــا من زمـــان
صـــار عـــادله يجـــور
وحـــوادث قـــد آن فى
كـــبـــدى لاسـهـمـهـا خطور
لكن بجـــاه إمـــام هذا
العـــصـــر لى فـــيـهـا نصـــيـــر
مـــولى ترفع قـــدره
فله أناملنا تشـــيـــر
ملأ النواظر منه إجلالا وليس له نظير
وحـــمـــاه ينفَكُّ الأســـيـــر
به ويســـتـــغنى الفـــقـــيـــر
وندى أياديه شهـير والقليل به كثير
من تذل لهـــا الرقـــاب
ولا يقـــوم بهـــا الشكـور
يا من به تُهـدى السـراة (ص٦٧٤)
لأنـه عـلـم مـنـيـــر

طالت لخدمتك القوافي
والزمان بها قصير
وجرت لنحو حماك آمالي
وأنت بها جدير
وقصور مدحك ليس في
فهمي لرفعتها بصور
خذها على شرط الصيارف
إنّ ناقدها يصير
جاءت تعارض بالبيان
وسيف حجتها شهير
يحيا بصحتها العليلُ
وما لأصر بها كسور
حلفت بكامل بحرها
أن لا تطاولها بحورُ
حسنت بمدحكم كما
تاريخها حسن نضير
ما في تأخر عصرها
قد يحرز القصب الأخيرُ

(وله)

عجبت له كيف أمسى الغبي
برؤياه وهو مليء غني
وأحرم منه على فاقتي
ولكنّ كم معدن مع دني*

* دني: أصلها دنيء وهو الخسيس الدون.

(وله) (ص٦٧٥)

ذكـــــــرتك لا أنى نـطـقـت وإنما
ذكـرتك فى نفـسى فكنتَ سـمـيـرَها
ذكـــرتك فى روض تبـسم عن شـــذا
وقـــد فـــتــحت كف النســيم زهورَها
ذكـــرتك والكاســات تخـتــال بالطّلا
وحَبٌ لنفــــــسى أن تكون مــــديرَها
ذكــــرتك والأطيـــار تنطق عن هوى
كــأنك قـــد آويت منهــا ضــمــيـرَها
فــلا خـــيـــر فى أرض إذا لم تكن بهــا
ســـمـــيــراً ولا فى روضـــة لن تزورَها

(وله)

يا مــعــيــر الرمــاحِ والبــدرِ والظبى
انعطافـــا وبهـــجـــة والتـــفـــاتا
أنت لو لم يكن مـــحـــيّـــاك روضـــا
لـم يكـن ريقـك الشـــــهى نبـــــاتا*

(وله)

أفـــدى بروحي عِـــذاراً لست ألثمـــة
الا بثـــغـــر الأمـــانى أو فم الغـــزل
يا قـــوم إنى مـــحب أشـــعـــرىٌ هوى
فكيف خـــالط قلبى وهو مـعـــتـــزلى

وكتب إلى صاحبنا السيد حسن البدرى العوضى قوله:

يا بدر بعـــدَك لم آنس بطيب كـــرى
ولم أجـــد حـــسناً إلاّ على مـــضض

* نباتاً: المراد به (سكر نبات) ويسميه الفرس (حب نبات)، وقد ذكره شاعر الفرس حافظ الشيرازى فى إحدى مربعاته (رباعياته) التى يقول فيها:

كفتم كه لبت كفت لبم آب حيات
كفتم دهنت كفت زهى حب نبات
كفتم سخن تو كفت حافظ كفتا
شادى همه لطيفه كريان صلوات

وترجمتها العربية:
اقـــول مـــا شـــفـــتـــاك؟
تـقـــول مـــاء الحـــيـــاةْ
اقـــول مـــا هـو فـــوك؟
تـقـــول حب نبـــــاتِ
اقـــول لـفـظك مــــاذا؟
تـقـــول آى الـصـــلاةِ
وحـــافظٌ فى قـــيـــامِ
يـــرتـــل الآيـــاتِ

إذا تطاول ليل الهجر أنشدُيا
بدرى وإن غاب كاس صحت بالعوضى

وكتب إلى أعجوبة زمانه قاسم الأديب ما نصه: (ص٦٧٦)

يا ذا الأديب الذى أنسنا
به فأيامنا مواسم
لله ما فيك من مزايا
ثغور أزهارها بواسمْ
إذا ترفعت فى خطوط
حق لها طاعة المراسمْ
وإن توخيت فهم معنى
عَنَتْ إلى فهمك الطلاسمْ
وإن تصرفتَ فى بديعٍ
فالذوق موطن وأنت قاسم

(فأعاده الجواب وقال)

أفديك مولاى من بليغ
طابت بألفاظه جراحى
دخلتُ بحرا من المعانى
قاموسه جاد بالصحاح
إن كنتُ عن دركها ونيا
فالعفو يا صاحبَ السماحِ
أو كان فهمى به فساد
فأنت يا سيدى صلاحى

ومن غرر قصايده ما مدح به رسولَ الله صلى الله عليه

وسلم والتزم الألف فى أول كل كلمة وهى:

أسال أسيل* الخدّ أرواحنا القتلى
أسى أصله إغراء ألحاظه الكحلا
أغرّ أغار الغادة الرَوْد* أنه
أعار اللآلى الغرّ اجيادَها العُطلا
(ص٦٧٧) أطال المدى أنكى الأسى أعجز الأسى
أطل المها أسنى المدى ألف المطلا
أغار استطال استفرس افترس اجترا
أصاب استباح استأصل احتكم السؤلا
أشاكى اليه الحر أبغى استراحة
أوْقد أشلاء الحشا الحطب الجزلا
أغالطه البلوى أخاف اتهامه
أأنهى إليه الشوق أم أطلب الوصلا؟
أطارحه الشكوى إذا استل أسهما
الا إنه أقسى الأنام إذا استلا
أجل إننى أسلمت أحشائى البلا
ألست إلى ألحاظه أنسب الفعلا؟
أراه إذا اختل الحجا اختلب الحشا
إليه أو استل القنا استلب العقلا
أبى القلبُ أن أسلوه أو أدعَ الهوى
أبان العذول العدل أو أوسع العذلا
إذا آية النمل العذارىّ أشكلت
أصول الجمال استنسخ النظر الشكلا
اليه التياع المغرم الصب إنه
اماالته أهوى إذا اعتلت اعتلا
إذا ابتسم البرق الحجازى إخالنى
أعير السحاب الجوْن أجفانى الشكلا*

* أسيل الخد: أى لين الخد.

* الروْد بفتح الراء وسكون الواو الهينة اللينة.

* الجوْن: بفتح الجيم يطلق على الأبيض والأسود والمراد الأسود، وهى من الاضداد، والشكلا بفتح الشين أو الشكلاء ومعناها البيضاء.

أخـــاطب أطلال الربا أســـتـــحـــشــهـــا
أسى البين الا أنني اقـــتـــضى أن لا
أرى الأمـل الأدنـي أبـى أن أنـالـه (ص٦٧٨)
أيستسهل الصعب الذى استصعب السهلا
أخـــوض المنايا أبتـــغى أدرك المنى
اذا احـتطب النبلُ الفـتى احـتطب النبـلا
إلى الصـعـدة السـمـراء أستـوقف الحـشـا
إن انتـصب البـيض السنان أو النصــلا
ألا أيهـــا الانســـان أنت الذى ازدرت
أســودَ الشـرى اهدابُ أجـفـانك الكسلى
ألا أيهـــا القـــالى أمـــالىَ أدمـــعى
أمـــا أنت أسندت الى الإمـــــلا؟
اليك أســيــرُ الشـوق أقلقـــه الهـــوى
اداوة أسنى الصـبــر أفــراغـهـا البـذلا
أبحت الســهــام القلب أو حــبــه أسى
أأجـريت اجـفـانى أعـاملتـهـا الهـمـلا؟
أذاب التـــهـــاب الوجـــد أسطر أضلعى
اذا اســتــحكم التـبـريح أضـعف أو أبلى
أصـــاحِ اتئـــد إنى أحَـــذِّرك الردى
أمـا أغـرَت الآرام أعـينهـا النجـلا؟
أبى اللـه أن ألقى الظبـــا أمن الظبـــا
إذا ألـف الاعـــــــزاز أم أنـف الـذلا
أســيـــر أمـــام العـــاشـــقين أدلهم
الـى الـطـرق الا أنـنـى أسـلـك المثـلـى
أنـافس أبنـاء النـــسيب إجـــادة
أطالبــــــهم أن ألحق النـسـبَ الأعلى

أروم امـــتـــداح المصطفى أشـــرف الورى
اذا اخـــتـلف المداح امـــدحـــه أولى
(ص٦٧٩) إمام الهدى المولى الذى اخترق العلا
أجل الورى أهلا وأعـــلاهم أصـــلا
أمين المعـــالى أشـــرف الرسل الذى
اليـه انتـهى التـقـديم إذ أخـبـر الرسـلا
أبان الهـــدى أحـــيـــا الندى أعلن الندا
أباد العـــدا أردى الردى أخـــصب المحـــلا
اليـه انتـهى الصـفح الجـمـيل الذى أبى
أعـــاديه إذ أبدى أبو الحكم الجـــهـــلا
أضـــاع افـــتـــخـــار الجـــاهليـــة أنهم
أطاعـوا الهـوى إذ أغـضـبـوا الحكم العـدلا
أباح البـلا أم القـرى اسـتـامـهـا الردى
اليـه اخـتـصـاصـا أشبـه الحرم الحـلا
أحل العـــروضين الأمـــان اجـتـبـاهمـا
أجل الأمـــانى أمن الأمّـــة الهـــولا
أراد أذاه المشــــــركــــــون إهانة
أُهينوا اذا امـــتـــدوا اليـــه اليـد الشـلا
أذاقـهم الســبى اســتـســامـهم الجـلا
أباحـــهم الأمـــوال إذ آثروا البـــخـــلا
أعـــارهم الخـــوف المضـــر أراعـــهـم
اذا اسـتـسلم العليـا انتـحوا الطرق السـفلى
أصـــر العـــدو البـــغى أرداه أيهم
أســر اليـــه الغل ألبـــســـه الغُـــلا
أمـــا آية القـــرآن أعـــجـــزت الورى
إلى آية العـــرب انتظامـــهم اخـــتـــلا

(ص٦٨٠) إذا انتسخ الأديان أجمع آية
أينكر أمر الضوء أن أذهب الظلا؟
أتته الوفود استغرق الكل أمنهُ
أفاض الندى أرضاهم احتمل الكَلا
أيا أطيب الكل الذى آل آله
اليه انتسابا أنت أزكى الورى أصلا
أما أنت أندى العالمين أياديا؟
أما أخجلت أدنى أناملك الوبلا؟
أياد أعارت أيدى السحب الندى
أمستبعد أن أغرق الوابلُ الطلا
أيا أشرف الأبناء أنت الذى أتى
اليه الهدى أنت الذى أوضح السبْلا
اليك انتهى أسنى الخصال التى ازدهت
أفانيها أنت الذى ألْف الشملا
أتاك الفقير ابن الصلاحى آملا
أعنْه أغثْه أغنه أبلغ السؤلا
اليك اشتكى الوزر الذى أوهن القوى
أقله أقله إنه استثقل الحملا
أمولاى أنت العون أرجوك إن أكن
أسأتُ ادخرت المدح أستمطر الفضلا
أناديك أستجرى الندى أرتجى الرضا
أناجيك استجدى إلى العُقَد الحلا
اجرنى أجرنى أكرم الخلق إننى
أضفتك ارتاد الغنى أكرم النزلا
أتيت الحمى أستغفر الله آثما
ألا أيهذا المستجير اخلع النعلا

(ص٦٨١) إلهى اقبل المدح اغفر المزح إننى
أرى الجد الا أننى أخلط الهزلا
اله الورى ارزقنى القبول اقبل الدعا
أقلنى العثار افرج أزل أزمتى الجلى
إلهى أفض أزكى الصلاة أمدها
اجل السلام استنهلا المورد الأحلى
إلى المصطفى الهادى إلى أنجم الهدى
الى الآل أهل الفضل أحقهم النسلا
الى الخلفاء الراشدين الألى اقتفوا
الى السيرة الحسنا الألى آثروا العدلا
الى التابعين الكل أتباعهم الى
أئمتنا القوم الألى احتفظوا النقلا
الى المؤمنين الصالحين أولى الوفا
الى السادة الأمداد امددهم الكلا
أمولى البرايا أحسن الختم إننى
أؤرخ أرجو أطهر الشرف الأعلى

ولـه أيضا

زكمت فى ليلة التدانى
وقد زها ثغرها الأقاحى
جوزيت لما غدوت فيها
مشمتا* عاطس الصباح

* شَمَّتَ العاطس: أى دعا له بقوله (يرحمك الله).

وله أيضاً

ومهفهف لما بدا
يختال فى حلل الخَفَر

يســـــــبى بـطـرف نـاعـس
قـــــــد زانـه ذاك الحـــــــور
ناديتـــــه صل مـــغـــرمـــاً
فـــأجـــابنـى أهلا ومـــــر*

(ص٦٨٢) وله فى مليح بعين:

لقـد غـاب عنى قـوم من قـد هويتـه
فـقلت لعـمـرى مـا أصـيب بعـسين
ولـكـنـه أهـدى المـلاحــــــة لـلـورى
فــــجـــاد على كل المـلاح بعين

(وله) قد اتخذ صاحبه الأديب حسين بن أحمد المكى مسطرة عِدّةٌ سطورها ست عشر سطراً فكتب عليها:

ومسطرة فى رقـة الجـسم قـد حكت
نحـولى من عـشـقى وعـد ضلوعى
أسَـوِّد من شـعـرى سطورَ طروسـهـا
وأبكى فـأمـحـوه بقطر دمـوعى

وله:

أهـوى علـيـــــا ولـكـنـى بـليتُ بـه
من فـاتن عـجـزت فى وصـفـه حـيلى
يقــول لى لحظه إن رمت قـــبلتـــه
أخطأت تقـتـل يا هذا بسـيـف على

وله:

أهوى بربع الأشـــرفــيـــة شـادناً
أحـيت مـحـاسنه الجـمـال اليـوسـفى

* ومر: يريد بها (ومرحبا).

مــــا لاح لى دينار وجنتــــه الزهى

الا دهشت بنقـــد ذاك الأشـــرفى

وله ارتجالا وهو فى مجلس إخوان:

لله يوم قطعنا فـــيــــه زهر منى

والأنـس قـلـدنـا مـنـه بـطـوق مـن

وقـد تجلى عـروسُ الروض في حللٍ(ص٦٨٣)

من الربيع وحـيّـــانا بوجـــه حـسن

فانشد بعض من فى المجلس:

لـلـه يـوم زهـا بـجــــــمـع

من كل مـــولى به نجـــاحى

وأنـــســـنـــا تم حـــين وافـــى

مــبـشّــر الـسـعـد بالصــلاحى

(وله) مهنئا بشهـر رمضـان وأرسله إلى صاحبه السيد حسن البدرى:

أمــولى المعــالي الذى قـــد بنى

بـنـاء الـسـنـاء بـحــــسـن الـثـنـا

ومن وجـــهـــه وندى كـــفـــه

هـو المجــتلى وهـو المجــتنى

ومَنْ حــبــه فى فــؤادى ثَوىَ

ومـن هـو مـن أضـلـعـى المنحـنى

إذا كـــان لى فى الورى ســيــد

فـــأنت ومـــا العـــبــد إلا أنا

أتيت أهنى بشـــهـــر الصــيـــام

وأرّخـــتـــه رمــضــــانُ الهنا

وكتب إليه أيضاً:

أيا حَسناً وهو للعسر يسر
ومن هو فى مبسم الدهر ثغر
أتى رمضان وفى رمضان
يصح لمنكسر الحب جبر
فما لك تختار هجر المحب الذى (ص٦٨٤)
لا يليق به منك هجر
إذا قلتَ أرخ وللصائم أعذر
فانى أورخ ما الصومُ عذر
فأرسل جواباً به استريح
وعجل فللشوق فى الصدر جمرُ

وكتب إليه أيضاً وقد أرسله بجواب:

جوابك قد جاءنى يسخر
بفضل خطابى الذى يسحر
أتى رافلا فى بديع الحلى
يبشر حينا ويستبشر
فأطمعنى لفظه فى الوفا
وأطربنى خمره المسكرْ
ولكنه قد غدا قاصرا
ومثلك والله لا يُعذر
فان لم تجبنى بما أرتضى
أورخْ جوابك لا يظهر

وكتب إليه أيضاً

وفى كتابك بالبيان مموّها
وأراه فى شرع الهوى مردودا

دعـوى العـواذلِ منك ليس بحـجـة
باب التـلاقى لـم يكن مـسـدودا
هذى طريق الوصل غـيـر مـخـوفـة
والحـر أولى أن يرى مـقـصـودا
فـدع الأسنة فى صـدودك والقنا
واجـعل جـوابى سـعـيك المحـمـودا

وله أيضاً (ص٦٨٥)

لا خـيـر فى ريح الشـمـال فـإنهـا
حـملتكُم وغَـدت بروحى رائحـة
وإذا تنفـست الصَّبـا من نحـوكم
أهدت شـذا ولكـل ريح رائحـة

(وله تشطير بيت ذكر فى أول كتاب المواهب)

كل إليـه بكله مـشـتـاق
وعليـه من رقـبـائه أحـداق

فقال:

كلٌ إليـه بكله مـشـتـاقُ
أبداً وقـد عـبـثت به الأشـواقُ
من أين يمكنه الوصـول إلى الحـمى
وعليـه من رقـبـائه أحـداقُ

ولما وقف عليه السيد العيدروس كتب:

كلٌ إليـه بكله مـشـتـاق
ولقـيـده من حـبـه إطلاقُ

فـهـو الذى من شـوقـه دخل الحـمى
وعليـــه من رقـــبـــانه أحـــداقُ

(وله وقد كتب على ظهر سفينة):

سفينة قد جرت فيها بحوز هوى (ص٦٨٦)
وعـــادة الســفن أن تجـرى على الماء
حـوت هوى فـغـدت بالشـعـر ناطقـة
وحـــركت نغـــمـــاً يحلو على النائى

وله أيضا:

سـفينة قـد جـرت فـيـهـا بحـور هوى
وعـادة البـحـر أن تجـرى به السـفن
يهـز فـيـهـا الهـوى المقـصـور كل شج
من كل روض مـــعـــان زانه فنن

وله أيضاً:

يا ســـفين الغـــرام أنت نجـــاتى
من هـوى لا يقـــر منه القـــرار
لا تغـيــبى عنى إلى مــســتــعــيــر
إن شــرط الحـبـيب لا يسـتـعــار

(وله مخاطباً صاحبه حسين بن أحمد المكي):

يا حــــســـينا علق القلب به
خـــاطبــا صـــفـــو وداد وولا*
لا تقل «لا» فى جـــوابى كـــرمـــا
يا حـــســـينا أنا أخـــشى كـــربَ لا

* ولا: أى ولاء.

(فأعاد الجواب ما نصه):

سـيـــــدى قلبى بدا الشـــوق به
فـنـعـسى ترضـون رِقِّى فى الملا
إننى عـــبـــد إليكم راغب
وبكم أمــرى على الكل عـــلا
أنَّ عـــذرى واضح مـــولاى جـــد
لعـــبـــيـــد راجف من قـــول لا
لا تـخـل أنـىَ الـقـــاك بـلا
لا ومَنْ قـــد جـــاء فـينا مـرســـلا

وللمترجم كلام كثير وصوته جهير، وفيما نقلته كفاية، توجه بآخر أمره إلى بلده، وبه توفى سنة ثمانين ومائة وألف، رحمه الله.

٢٩٣ محمد سعيد ابن أبي بكر الحسيني. ت/ ١١٨٠هـ = ١٧٦٦م.

[ومات] الإمام الصوفى العارف (ص٦٨٧) الناسك الشيخ محمد سعيد بن أبى بكر بن عبد الرحيم بن مهنا الحسينى البغدادى، وله بمحلة أبى النجيب من بغداد، وبها نشأ وأخذ عن الشيخ عبد العزيز بن أحمد الرحبى وحسن بن مصطفى القادرى فى آخرين، وحج وقطن المدينة مدة وأجازه الشيخ محمد حيوة السندى والشيخ حسن الكورانى، ورد مصر سنة إحدى وسبعين ومائة وألف فنزل بقصر الشوك* قرب المشهد الحسينى وكان له فى كلام القوم عرفان إلى الغاية يورده على طريقة غريبة بحيث يرسخ فى ذهن السامع ويلتذ به، وكان يذهب لزيارته الأجلاءُ من الأشياخ مثل شيخنا السيد على المقدسى والسيد محمد مرتضى والشيخ العفيفى، وبالجملة فكان من

* قصر الشوك: ويسمى الآن (قصر الشوق).

أعاجيب دهره وكان الشيخ العفيفى ينوه بشأنه ويقول فى حقه «إنه من رجال الحضرة وإنه ممن يرى النبى صلى الله عليه وسلم عِيانا» وتوجه إلى الديار الرومية ثم عاد إلى المدينة ثم ورد أيضاً إلى مصر بعد ذلك ونزل قرب الجامع الأزهر ثم توجه إلى الديار الرومية وقطن بها وظهرت له هناك الكرامات وطار صيته وعلت كلمته وصار له أتباع ومريدون ولم يزل هناك على حالة حسنة حتى وافاه الأجل المحتوم فى أواخر الثمانين، وخلف ولده من بعده، رحمه الله تعالى وسامحه.

٢٩٤ احمد بن أحمد السنبلاوى، الشهير برزه.
ت/ ١١٨٠ هـ = ١٧٦٦م.

[ومات] الفقيه الصالح العلامة الفرضى الحيسوبى الشيخ/ أحمد بن أحمد السنبلاوى الشافعى الأزهرى الشهير برزة، كان إماماً عالماً مواظباً على تدريس الفقه والمعقول بالجامع الأزهر وكان يحترف بيع الكتب وله حانوت (ص٦٨٨) بسوق الكتبيين مع الصلاح والورع والديانة، ملازما على قراءة ابن قاسم بالأزهر كل يوم بعد الظهر، أخذ عن الأشياخ المتقدمين وانتفع به الطلبة وكان إنساناً حسناً بهى الشكل عظيم اللحية منور الشيبة معتنياً بشأنه مقبلا على ربه. توفى سنة ثمانين وماية وألف.

٢٩٥ حسن افندى ابن حسن الضيائى الخطاط.
ت/ ١١٨٠ هـ = ١٧٦٦م

[ومات] الأجل المكرم الفاضل النبيه النجيب الفقيه/ حسن أفندى ابن حسن الضيائى المصرى المجود المكتب، ولد كما وجد بخطه سنة اثنتين وتسعين وألف فى منتصف جمادى الثانية واشتغل بالعلم على أعيان عصره واشتغل بالخط وجوده على مشايخ هذا الفن فى طريقتى الحمدية وابن



الصايغ أما الطريقة الحمدية فعلى سليمان الشاكرى والجزايرى وصالح الحمامى، وأما طريقة ابن الصايغ فعلى الشيخ محمد بن عبد المعطى السملاوى، فالشاكرى والحمامى جوّدا على عمر أفندى.. وهو على درويش على، وهو على خالد أفندى، وهو على درويش محمد شيخ المشايخ حمد الله بن بير على المعروف بابن الشيخ الأماسى، وأما السملاوى فجوّد على محمد بن محمد بن عمار، وهو على والده، وهو على يحيى المرصفى، وهو على اسماعيل المكتّب، وهو على محمد الوسيمى، وهو على أبى الفضل الأعرج، وهو على ابن الصايغ بسنده، وكان شيخاً مهيباً بهى الشكل منوّر الشيبة شديد الانجماع عن الناس، وله معرفة فى علم الموسيقا والأوزان والعروض، وكان يعاشر الشيخ محمد الطائى كثيراً ويذاكره فى العلوم والمعارف

(ص٦٨٩) ويكتب غالب تقاريره على ما يكتبه بيده من الرسايل والمرقَّعات، وقد أجاز فى الخط لأناس كثيرا ويجتمع فى مجالس الكتبة مع صرامة وشهامة وعزة نفس، واتفق يوماً أنه طلُب إلى مجلسهم فى يوم جمعهم لإجازة فامتنع عن الحضور وعز ذلك على الجمهور، فقال الشيخ عبد الله الإدكاوى وكان إذ ذاك حاضراً فى جملتهم:

وناد قـــد حـــوى أقـــمـــار تمٍ
من الكتّـــاب زادوا فى البـــهـــاء
بهم قـــد زاد نورا وابتـــهـــاجـــا
فـلا يحـتـاج فـيـه إلى الضـيـائى

(ثم قال بضده فى المجلس):

لئن غدا مجلس الكتاب ليس به المَوْلى
الضـــيـــائى من فى خطه بهـــرا
فالشمس مع بعدها منها الضياء لقد
عم الورى فهو شمس غاب أو حضرا

توفى فى منتصف ذى الحجة سنة ثمانين وماية وألف.

٢٩٦ عبد الكريم ابن على المسيرى، المعروف بالزيات.
ت/ ١١٨١ هـ = ١٧٦٧م.

[ومات] الإمام العالم العلامة أحد العلماء الأذكياء وأفراد الدهر البحاث فى المعضلات، الفتاح للمقفَلات، الشيخ/ عبد الكريم بن على المسيرى الشافعى المعروف بالزيات لملازمته شيخه سليمان الزيات، حضر دروس فضلاء الوقت، وانضوى إلى الشيخ سليمان الزيات ولازمه حتى صار معيدا لدروسه، ومهر وأنجب وتضلع فى الفنون ودرّس وأملى وكان أوحد زمانه فى المعقولات ولازم آخراً دروس الشيخ الحفنى

وتلقن منه العهد، ثم أرسله الشيخ إلى بلاد الصعيد لأنه (ص٦٩٠) جاء كتاب من أحد مشايخ الهوارة ممن يعتقد في الشيخ بأن يرسل إليهم أحد تلامذته ينفع الناس بالناحية، فكان هو المعّين لهذا المهم فألبسه وأجازه، ولما وصل إلى ساحل بهجورة تلقته الناس بالقبول التام، وعُيّن له منزلٌ واسعٌ وحشم وخدم، وأقطعوا له جانباً من الأرض ليزرعها فقطن بالبهجورة، واعتنى به أميرها شيخ العرب اسماعيل بن عبد الله، فدرّس وأفتى وقطع العهود، وأقام مجلس الذكر وراج أمره وراش جناحه* ونفع وشفع وأثرى جدا وتملك عَقارات ومواشيَ وعبيداً وزروعات، ثم تقلبت الأحوال بالصعيد وأوذى المترجم وأخذ ما بيده من الأراضى وزحزحت حاله فأتى إلى مصر فلم يجد من يعينه لوفاة شيخه، ثم عاد ولم يحصل على طائل، وما زال بالبهجورة حتى مات فى أواخر سنة إحدى وثمانين ومائة وألف.

* راش جناحه: أى صار لجناحه ريش كناية عن كثرة ماله.

٢٩٧ احمد بن عبد الفتاح الملوى. ت/ ١١٨١ هـ = ١٧٦٧م..

[ومات] الإمام العلامة المتقن المعمّر مسند الوقت وشيخ الشيوخ الشيخ/ أحمد بن عبد الفتاح بن يوسف بن عمر المجيرى الملوى الشافعي الأزهرى، ولد كما أخبر من لفظه فى فجر يوم الخميس ثاني شهر رمضان سنة ثمان وثمانين وألف، وأمه آمنة بنت عامر بن حسن بن حسن بن على بن سيف الدين بن سليمان بن صالح بن القطب على المغراوى الحسنى، اعتنى من صغره بالعلوم عناية كبيرة وأخذ عن الكبار من أولى الإسناد، وألحق الأحفاد بالأجداد، فمن شيوخه الشهاب أحمد بن الفقيه والشيخ منصور المنوفى والشيخ عبد الرءوف البشبيشي والشيخ (ص٦٩١) محمد

بن منصور الإطفيحى والشهاب الخليفى والشيخ عيد النمرسى والشيخ عبد الوهاب الطندتاوى وأبو العز محمد بن العجمى والشيخ عبد ربه الديوى والشيخ رضوان الطوخى والشيخ عبد الجواد المحلى وخاله أبو جابر على بن عامر الايتاوى. وأبو الفيض على بن ابراهيم البوتيجى وأبو الأنس محمد ابن عبد الرحمن المليجى هؤلاء [من] الشافعية، ومن المالكية محمد بن عبد الرحمن بن أحمد الورزازى والشيخ محمد الزرقانى والشيخ عمر بن عبد السلام التطاونى والشيخ أحمد الهشتوكى والشيخ محمد ابن عبد الله السجلماسى والشيخ أحمد النفراوى والشيخ عبد الله الكنكسى وابن أبى ذكرى وسليمان الحصينى والشبرخيتى، ومن الحنفية السيد على ابن على الحسنى الضرير الشهير باسكندر. ورحل إلى الحرمين سنة اثنتين وعشرين وماية وألف فسمع على البصرى والنخلى الأولية وأوايل الكتب الستة وأجازاه الشيخ محمد طاهر الكورانى، واجازه الشيخ إدريس اليمانى وملاً الياسى الكورانى ودخل تحت إجازة الشيخ ابراهيم الكورانى فى العموم، وعاد إلى مصر وهو إمام وقته المشار إليه فى حل المشكلات المعوّل عليه فى المعقولات والمنقولات، اقرأ المنهج مراراً وكذا غالب الكتب، وانتفع به الناس طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل، وكان تحريره أقوى من تقريره. وله رضى الله عنه مؤلفات كثيرة منها شرحان على متن السلم كبير وصغير، وشرحان كذلك على السمرقندية، وشرح على الياسمينية، (ص٦٩٢) وشرح الآجرومية ونظم النسب وشرحها، وشرح عقيدة الغمرى وعقود الدرر على شرح ديباجة المختصر، أتمه بالمشهد الحسينى سنة ثلاث وعشرين ونظم

الموجهات وشرحها وتعريب رسالة ملا عصام في المجاز، ومجموع صيغ صلوات على النبي صلى الله عليه وسلم، ومؤلفاته مشهورة مقبولة متداولة بأيدى الطلبة ويدرسها الأشياخ، وتعلل مدة وانقطع لذلك فى منزله وهو ملقى على الفراش ومع ذلك يُقرأ عليه فى كل يوم فى أوقات مختلفة أنواعُ العلوم وترد عليه الناس من الآفاق ويقرءون عليه، ويستجيزونه فيجيزهم ويملى عليهم ويفيدهم، ومنهم من يأتيه للزيارة والتبرك وطلب الدعاء فيمدهم بأنفاسه ويدعو لهم، وكان ممتع الحواس. وأقام على هذه الحالة نحو الثلاثين سنة حتى توفى فى منتصف شهر ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وماية وألف ومن نظمه رضى الله عنه:

كم كل كهف له يرد كساه بها
لذكم له لاذكم بل لف سما كملا
كالشكل الأول كم بدر كوى سلما
كم كان كل بدير للوداد كلا
كم لاح بدرٌ لليل سام كم كلما
سرت له بضروب الشكل فاكتملا

وأخبرنى شيخنا الشيخ محمد المالكى المعروف بابن الست أنه تولى القُطبانية سنةً قبل موته، ودفن بالمشهد الحسينى فى موضع أعد له ورثاه الشيخ عبد الله الإدكاوى بقصيدة بيت تاريخها: (ص٦٩٣)

رحم الله العالم الربانى
علم لاح أحمد الملوانى

٢٩٨ [ومات] الشيخ الامام الصالح/ عبد الحى بن الحسن بن زين

عبد الحى ابن الحسن البهنسى. ت/١١٨١ هـ = ١٧٦٧م.

العابدين الحسيني البهنسي المالكي نزيل بولاق، ولد بالبهنسا سنة ثلاث وثمانين وألف، وقدم إلى مصر فأخذ عن الشيخ خليل اللقاني والشيخ محمد النشرتي والشيخ محمد الزرقاني والشيخ محمد الاطفيحي والشيخ محمد الغمرى والشيخ عبد الله الكنكسي والشيخ محمد بن يوسف والشيخ محمد الخرشي، وحج سنة ثلاث عشرة وماية وألف فأخذ عن البصرى والنخلي وأجازه السيد محمد التهامي بالطريقة الشاذلية، والسيد محمد ابن على العلوى في الأحمدية، والشيخ محمد شويخ في الشناوية، وحضر دروس المحدث الشيخ على الطولوني ودّرس بالجامع الخطيرى ببولاق وأفاد الطلبة وكان شيخاً بهياً معمراً منور الشيبة منجمعاً عن الناس زاهداً قانعاً بالكفاف. توفي ليلة الاثنين حادى عشرى شعبان سنة إحدى وثمانين وماية وألف بمنزله ببولاق وصُلى عليه بالجامع الكبير في مشهد حافل وحمل على الأعناق إلى مدافن الخلفا قرب مشهد السيدة نفيسة فدفن بها رحمه الله.

٢٩٩ عبد الخالق بن ابى بكر الزجاجي. ت/١١٨١ هـ = ١٧٦٧م.

[ومات] الشيخ إمام السنة ومقتدى الأمة/ عبد الخالق بن أبي بكر بن الزين ابن الصديق بن الزين بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن أبي القاسم النمرى الأشعرى المزجاجي الزبيدى الحنفي من بيت العلم والتصوف، جده الأعلى محمد بن محمد بن أبي القاسم صاحب الشيخ إسماعيل الجبرتي قطب اليمن وحفيده (ص٦٩٤) عبد الرحمن بن محمد خليفة جده في التسليك والتربية وهو الذى تديّر زبيد* بأهله

* تديّر زبيد: بفتح الزاى وكسر الباء بلد باليمن، وتديرها أى اتخذها داراً.

وعيالـه وكـان قبـل بالمزجاجـة وهـي قريـة أسفـل زبيد خـربت الآن، ولد المتـرجم سنـة ألـف ومـايـة بزبيـد وحفـظ القرآن وبعض المتون، ولما ترعرع أخذ عن الإمام المسند الشيـخ عـلاء الديـن المزجاجـي والسيـد يحيـي بـن عمر الأهدل والمسند عبد الفتاح بن اسماعيل الخاص والشيخ على المرحومي نزيل مخا* ، وأجازه من مكة الشيخ حسن العجمـي بعنايـة والـده وبعنايـة قريبـه الشيـخ علـي بن علي المزجاجي نزيل مكة، ووفد إلى الحرمين فأخذ بمكة عن الشيخ محمد عقيلة، روى عنه الكتب الستة وحمل عنه المسلسلات بشرطها وألبسه وحكمه، وحضر على الشيخ عبد الكريم اللاهورى فـي الفقـه والأصول وكـان يحـثـه علـى قـراءة الأخـسكيـتـي ويقـول «لا يستغنـي عنه طالب» وحضر دروس الشيخ عبد المنعم بن تاج الدين القلعي ومحمد بن حسن العجمي ومحمد بن سعيد التنبكتي، وبالمدينة عن الشيخ محمد طاهر الكردى سمع منه أوايل الكتب الستة والشيخ محمد حياة السندى لازمه في سماع الكتب الستة وعاد إلى زبيد فأقبل على التدريس والإفادة، وسمع عليه شيخنا السيد محمد مرتضى الصحيحين وسنن النسائي كله بقراءته عليه في عين الرضا موضع بالنخل خارج زبيد كان يمكث فيه أيام خراف* النخـل، والكنـز والمنـار كلاهمـا للنسفـي ومسلسـلات شيخـه ابن عقيلـة وهـي خمسـة وأربعون مسلسلا، وسمـع عليـه أيضـا المسلسـل بيـوم العيـد ولازم درسـه (ص٦٩٥) العـامـةَ والخـاصـة وألبسـه الخـرقـة ونقبـه وحكمـه بعـد أن صـحـبـه وتـأدب بـه، وبـه تخـرج شيخنـا المذكور كذا ذكر في ترجمته قال. وفي آخرِ توجه

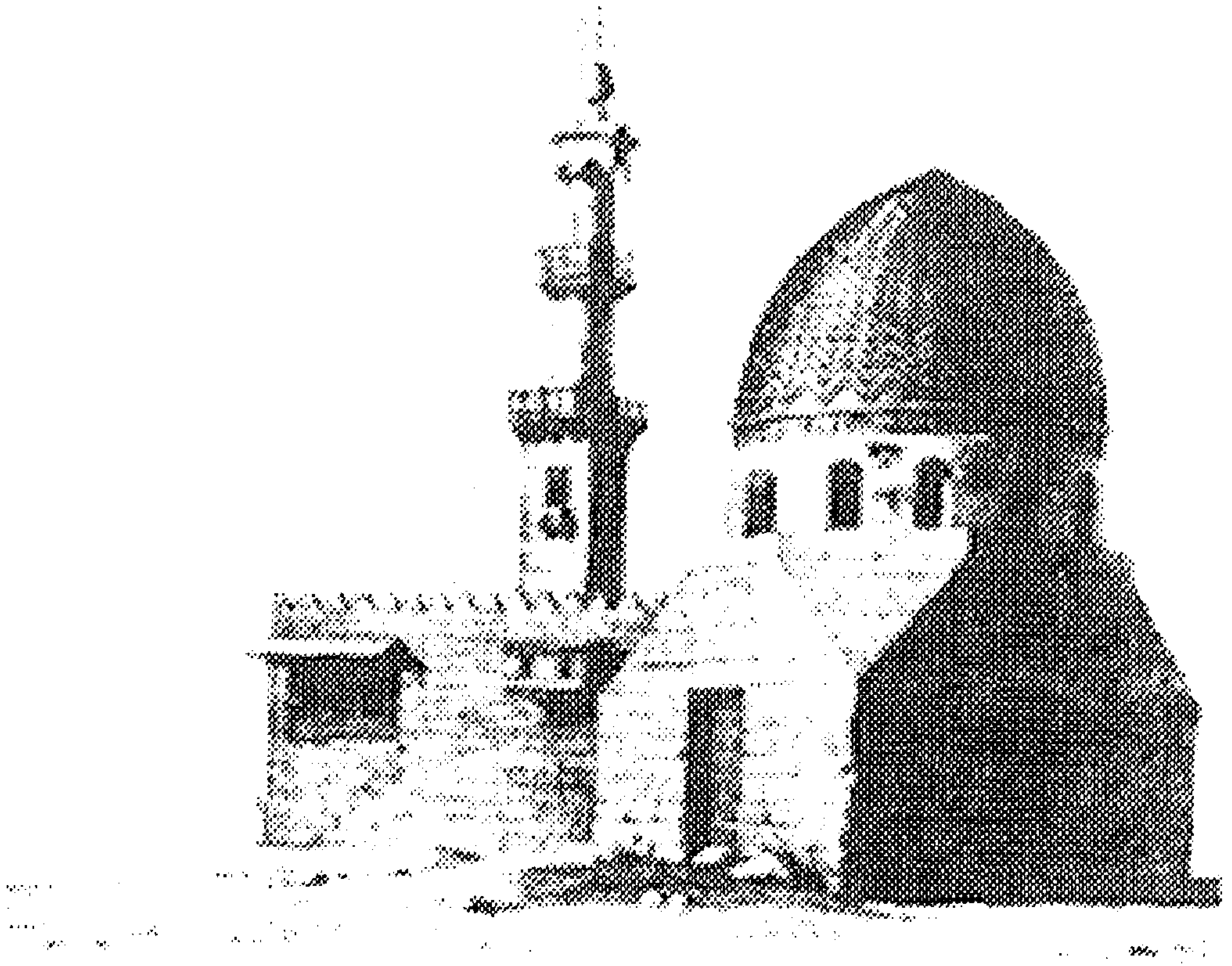
* مخا: بفتح الميم ميناء باليمن على ساحل البحر الأحمر.

* خراف النخل: أى اجتناء ثماره وهي بكسر الخاء وفتحها.

[حياته] إلى الحرمين فمات بمكة في ذى الحجة سنة إحدى وثمانين ومائة وألف.

٣٠٠ عمر بن علي ابن يحيى الطحلاوى. ت/١١٨١ هـ = ١٧٦٧م.

[ومات] الشيخ الإمام الثبت العلامة الفقيه المحدث الشيخ/ عمر بن على بن يحيى بن مصطفى الطحلاوى المالكى الأزهرى، تفقه على الشيخ سالم النفراوى وحضر دروس الشيخ منصور المنوفى والشهاب ابن الفقيه والشيخ محمد الصغير الورزازى والشيخ أحمد الملوى والشبراوى والبليدى، وسمع الحديث عن الشهابين أحمد البابلى والشيخ أحمد العماوى وأبى الحسن على ابن أحمد الحريشى الفاسى، وتمهر فى الفنون ودرّس بالجامع الأزهر وبالمشهد الحسينى واشتهر أمره وطار صيته وأشير إليه بالتقدم فى العلوم وتوجه إلى دار السلطنة فى مهم اقتضى لأمراء مصر فقوبل بالاجابة، وألقى هناك دروساً فى الحديث فى آيا صوفية، وتلقى عنه أكابر العلماء هناك فى ذلك الوقت وصُرف معززاً مقضياً حوايجهُ، وذلك فى سنة سبع وأربعين ومائة وألف، ولما تمم عثمان كتخدا القازدغلى بناء مسجده بالأزبكية فى تلك السنة تعين المترجَم للتدريس فيه وذلك قبل سفره إلى الديار الرومية، وكان مشهوراً فى حسن التقرير وعذوبة البيان وجودة الإلقاء، وأقرأ الموطّا وغيره بالمشهد الحسينى، وأفاد وأجاز الأشياخ، وكان يطلع فى كل جمعة إلى المرحوم حمزة باشا مرة فيسمع عليه الحديث وكان للناس فيه اعتقاد حسن وعليه هيبة ووقار وسكون ولكلامه (ص٦٩٦) وقع فى القلوب. توفى ليلة الخميس حادى عشر صفر سنة إحدى وثمانين ومائة وألف وصلى عليه بصباحه فى الأزهر فى مشهد حافل ودفن بالمجاورين، رحمه الله.



٣٠١ عبد الوهاب الشربيني.
ت/ ١١٨١ هـ = ١٧٦٧م.

[ومات] الوجيه الصالح الشيخ/ عبد الوهاب بن زين الدين بن عبد الوهاب ابن نور الدين بن بايزيد بن أحمد بن القطب شمس الدين بن أبى المفاخر محمد بن داود الشربينى الشافعى، وهو أحد الإخوة الثلاثة وهو أكبرهم، تولى النظر والمشيخة بمقام جَده بعد أبيه فسار فيها سيراً مليحاً وأحْيا المآثر بعد ما اندرست وعمر الزاوية وأكرم الوافدين وأقام حلقة الذكر كل يوم وليلة بالمسجد، ويغدق على المنشدين، وورد مصر مراراً منها صحبة والده ومنها بعد وفاته والف باسمه شيخنا السيد مرتضى رسالة فى الطريقة الأوسية سماها (عقيلة الأتراب فى سند الطريقة والأحزاب) وفى آخره أتى إلى مصر لمقتضٍ، ومرض نحو ثلاثة أيام. وتوفى ليلة الأحد غرة ذى القعدة سنة إحدى وثمانين ومائة

وألف، وغسل وكفن وذهبوا به إلى بلده فدفنوه عند أسلافه.

٣٠٢ محمد بن سالم الحفناوى الخلوتى.

[ومات] الشيخ الامام العلامة الهمام أوحد أهل زمانه علما وعمل ومن أدرك ما لم تدركه الأول المشهود له بالكمال والتحقيق والمجمع على تقدمه فى كل فريق شمس الملة والدين/ محمد بن سالم الحفناوى الشافعى الخلوتى وهو شريف حسينى من جهة أم أبيه وهى السيدة ترك ابنة السيد سالم بن محمد بن على بن عبد الكريم ابن السيد برطع المدفون ببركة الحاج وينتهى نسبه إلى الامام الحسين رضى الله عنه، (ص٦٩٧) وكان والده مستوفياً عند بعض الأمراء بمصر، وكان على غاية من العفاف ولد على رأس المائة ببلده حفنا بالقصر قرية من أعمال بلبيس وبها نشأ، والنسبة إليها حفناوى وحفنى وحفنوى، وغلبت عليه النسبة حتى صار لا يذكر إلا بها، وقرأ بها القرآن إلى سورة الشعراء ثم حجزه أبوه باشارة الشيخ عبد الرءوف البشبيشى وعمره أربع عشرة سنة بالقاهرة فكمل حفظ القرآن ثم اشتغل بحفظ المتون، فحفظ ألفيه ابن مالك والسلم والجوهرة والرحبية وأبا شجاع وغير ذلك، وأخذ العلم عن علماء عصره واجتهد ولازم دروسهم حتى تمهر وأقرأ ودرّس وأفاد فى حياة أشياخه وأجازوه بالافتاء والتدريس فأقرأ الكتب الدقيقة كالأشمونى وجمع الجوامع والمهج ومختصر السعد وغير ذلك من كتب الفقه والمنطق والأصول والحديث والكلام عام اثنتين وعشرين، وأشياخه الذين أخذ عنهم وتخرج عليهم الشيخ أحمد الخليفى والشيخ محمد الديربى والشيخ عبد الرءوف البشبيشى والشيخ أحمد الملوى والشيخ محمد السجاعى والشيخ يوسف الملوى والشيخ عبده الديوى

والشيخ محمد الصغير، ومن أجلّ شيوخه الذين تخرج بالسند عنهم الشيخ محمد البديرى الدمياطى الشهير بابن الميت، أخذ عنه التفسير والحديث والمسندات والمسلسلات والإحياء للامام الغزالى وصحيح البخارى ومسلم وسنن أبى داود وسنن النسائى وسنن ابن ماجه والموطأ ومسند الشافعى والمعجم الكبير للطبرانى والمعجم الأوسط والصغير له أيضاً وصحيح ابن حبان والمستدرك (ص٦٩٨) للنيسابورى والحلية للحافظ أبى نعيم وغير ذلك، وشهد له معاصروه بالتقدم فى العلوم، وحين جلس للإفادة لازمه جل طلبة العلم ومن بهم يسمو المعقول والمنقول وكان اذ ذاك فى شدة من ضيق العيش والنفقة فأشترى دواة وأقلاما وأوراقا واشتغل بنسخ الكتب فشق عليه ذلك خوفا من انقطاعه عن العلم فبينما هو فى بعض الدروس إذ جاءه رجل وانتظره حتى فرغ من الدرس فقال له «يا سيدى أريد أن أكلمك كلمتين» وأشار إلى مكان قريب فسار معه حتى انتهيا إلى المدرسة العينية فدخلاها ثم جلسا فأخرج الرجل محرمة ملآنة بالدراهم وقال له «يا سيدى فلان يسلم عليك وقد بعث لك معى بهذه الدراهم ويريد أن يحظى بقبولها» فأخذها منه وفتحها وملا كفه من الدراهم وأراد اعطاءها لحاملها فامتنع وحلف لا يأخذ منها شيئاً ثم فارقه ذلك الرجل وذهب الشيخ إلى البيت وكسر الأقلام والدواة فأقبلت عليه الدنيا من حينئذ، وكان يتردد إلى زاوية سيدى شاهين الخلوتى بسفح الجبل ويمكث فيها الليالى متحنثا* وأقبل على العلم وعقد الدروس وختم الختوم بحضرة جمع العلماء وأقرأ المنهاج مرات وكتب عليه، وكذلك جمع الجوامع والأشمونى ومختصر السعد وحاشية حفيده عليه

* متحنثا: أى متعبداً.

كتب عليها وقرأها غير مرة، وكان الشيخ العلامة مصطفى العزيزى إذا رُفع اليه سؤال يرسله اليه، واشتغل بعلم العروض حتى برع فيه وعانى النظم والنثر وتخرج عليه غالبُ أهل عصره وطبقته (ص٦٩٩) ومن دونهم كأخيه العلامة الشيخ يوسف والشيخ اسماعيل الغنيمى صاحب التآليف البديعة والتحريرات الرفيعة المتوفى سنة إحدى وستين وشيخ الشيوخ الشيخ على العدوى والشيخ محمد الغيلانى والشيخ محمد الزهار نزيل المحلة الكبرى وغيرهم كما هو فى تراجم المذكورين منهم، وكان على مجالسه هيبة ووقار ولا يسأله أحد لمهابته وجلالته، ولم يعان التأليف لاشتغاله بالإلقاء والإقراء، فمن تآليفه المشهورة حاشية على شرح رسالة العضد للسعد وعلى الشنشورى فى الفرايض وعلى شرح الهمزية لابن حجر وعلى مختصر السعد وعلى شرح السمرقندى للياسمينية فى الجبر والمقابلة، وله تصانيف أخرى مشهورة، وكان كريم الطبع جداً وليس للدنيا عنده قدر ولا قيمة، جميل السجايا مهيب الشكل عظيم اللحية أبيضها كأن على وجهه قنديلا من النور، وكان كريم* العين على إحداهما نقطة وأكثر الناس لا يعلمون ذلك لجلالته ومهابته، وكان فى الحلم على جانب عظيم، ومن مكارم أخلاقه إصغاؤه لكلام كل متكلم، ولو من الخزعبلات مع انبساطه اليه واظهار المحبة ولو أطال عليه، ومن رآه مدعياً شيئاً سلم له فى دعواه، ومن مكارم أخلاقه أنه لو سأل إنسان أعزَّ حاجة عليه أعطاها له كاينة ما كانت ويجد لذلك أنسا وانشراحا، ولا يعلق أمله بشيء من الدنيا، وله صدقات وصلات خفية وظاهرة، وكان راتب بيته من الخبز فى كل يوم نحو الإردب والطاحون دايمةُ الدوران

* كريم العين: إعتاد المصريون اطلاق الفاظ روحية على اصحاب العاهات مثل «كريم العين» للأعور والبصير بقلبه للأعمى.

وكذلك دق البن وشربات (ص٧٠٠) السكر ولاينقطع ورود الواردين ليلا ونهاراً ويجتمع على مائدته الأربعون والخمسون والستون، ويصرف على بيوت أتباعه والمنتسبين اليه، وشاع ذكرع في أقطار الأرض، وأقبل عليه الوافدون بالطول والعرض، وهادته الملوك، وقصده الأمير والصعلوك، فكل من طلب شيئاً من أمور الدنيا أو الآخرة وجده، وكان رزقه فيضاً إلهيا، وذكر الشيخ حسن شمه في كتابه الذى ألّفه في نسب الأستاذ ومناقبه قال: «كنت مع الشيخ يوماً في منتزه فجلست في ناحية أكتب في المقامة التى وضعتها في مدحه المسماة (بفيض المغنى بمدح الحفنى) وجعلتها مشتملة على سائر الفنون الشعرية التى هى النسب والموشح والدوبيت* والزجل وكان وكان والقوما والحماق والمواليا بأنواعه الثلاثة القرقيا والبليق والمكفر وعلى نبذة من الموشحات والمحسنات البديعية كالمعطلات والحية الرقطاء ووسع الاطلاع وحسن الصنيع والمشجر والجناس واللغز والمعمى والمصحف والقلب ونوعى الاقتباس، وكنت إذ ذاك في فن المواليا فعملت مواليا قرقيا وهو:

قالوا تحب المدمس قلت بالزيت حار
والعيش الابيض تحبه قلت والكشكار
قالوا تحب المطبق قلت بالقنطار
قالوا اش تقول فى الخضارى* قلت عقلى طار

فقال لى أنت فيم تكتب فأخبرته وأنشدته المواليا فضحك وقال لى ممازحاً أنا لا أحبه بالزيت الحار وإنما (ص٧٠١) أحبه بالسمن وأنشد:

* الدوبيت: هى المقطوعة الشعرية المكونة من بيتين بقافية واحدة.

* فنون الشعر:
النسب. الموشح. الدوبيت. الزجل.
كان كان. القوما. الحماق.
الموال بأنواعه الثلاث:
١ ـ القرقيا.
٢ ـ البليق.
٣ ـ المكفر.

* المحسنات البديعية:
المعطلات. الحية الرقطاء. المصحف.
وسع الاطلاع. حسن الصنيع.
المشجر. الجناس. اللغز. المعمى. القلب.
الاقتباس

* الخضارى: بضم الخاء طائر مهاجر أصفر اللون ضارب إلى الخضرة.

قـــالوا تحب المدمس قلت بالمسلى
والبـــيض مـــشـــوى تحـــبـــه قلت والمقلى

قال وقد شرحت هذا المواليا بلسان القوم شرحا لطيفا، ثم قال لى: أحدتك حدوته بالزيت ملتوته حلفت ما اكلها حتى يجى التـاجـر والتـاجـر فـوق السطوح والسطوح عـاوز سلم والسلم عند النجار والنجار عاوز مسمار والمسمار عند الحداد والحداد عاوز بيضه والبيضة فى بطن الفرخة والفرخة عاوزة قمحه والقمحه فى الأجران والأجران عاوزه الدراس تدرى ما معنى هذه؟ قلت لا أعلم الا مـا علمـتنى (فـقـال أحـدتك حدوته بالزيت ملتوتة) يعنى السر الإلهى والسلاف الأحمدى الأوّاهى الممزوج براح القرب والتقريب المدار من يد الحبيب (حلفت ما آكلها) أى أتناولها فإن المقصد لا يتم بلا وسيلة والسـالك قبل كل شيء يحصل دليله (حتى يجى التـاجر) أى المسُلك العامر والمراد به المرشد الكامل والمربى الواصل (والتـاجر فوق السطوح) يتلقى معارج الروح لا يذهب ولا يروح بل إليـهُ يراح وبه تنتـعش الأرواح (والسطوح عـاوز سلم) يُتوصل به إليه. حيث أن المدار عليه إذ لا يمكن صعود بلا معراج ولو أمكن لفعل بالأولى صاحب المعراج (والسلم عند النجار) أى له صاحب مـخصـوص لإقـامته ومـركب يركـبـه من آلتـه هو النجـار وهو الأسـتـاذ الكامل المسلك الواصل (والنجـار عـاوز مـسـمـار) يثبت (ص٧٠٢) به سلم القرب والوصول كى يوصل لمنازل الحصول (والمسمار عند الحداد) صانعه المخصوص به، المقيم ببحبوح سربة (والحداد عاوز بيضة) إذ لا يكون شيء بلا شيء، والغالى لا يفرط فيه حيّ، ومن عمل عـملا وأتم أمره استحق على عمله الأجرة

(والبيضة فى بطن الفرخة) فمن أرادها فلينصب فخه فإنها مخبوءة فى صدفها ومنفردة عن صنفها (والفرخة عاوزه قمحة) كى تتنفس بها فتنفخ نفخة لتلقى ما فى جوفها وذلك من ذعرتها وخوفها (والقمحة فى الأجران) لأنها ظرفها والعنان (والأجران عاوزة الدراس) ودراسها ليس إلا الجد والاجتهاد لمن أراد أن يرتع فى رياض الإسعاد، فكل هذه درجات للسالك يصعدها، ومسافة لسيره يقطعها، وثم خواص طويت لهم السبل كلها، ونالوا كل ما راموا من مشتهى، انتهى، فانظر رحمك الله هذا المزح الذى هو حقيقة الجد .

(ومما سمع من إنشاده فى الدياجى موشح الدلنجاوى):

يا هلالا قـــد بدا لى
مـن ورا الحجب
فى جـلابيب الكمال
مادروا صحبى
إن قلبا منك خالى
ليس بالقلب
وفؤاداً عنك سالى
واجب السلب

(ثم أنشد مواليا):

بحياة ياليل قوامك وصوم الحر
تحجز لنا الفجر دافوت الرفاقة حر
لما يجى الفجر يصبح ركبهم منجر (ص٧٠٣)
ازداد لوعة ولا عمرى بقيت أنسر

(وكرره ثم أنشد):

أأظمـــا وأنت العــذب في كل منهل؟
وأظلم في الدنيـــا وأنت نصـــيــرى؟
خـبـيـــر بضـعـفي راحم لشكيستي
وقـدير على تيـسـيـــر كل عـسـيـــر
عـار على راعى الحـمى وهو في الحـمى
إذا ضـــاع في البـيـــدا عـقـــال بعـيـــر

(وأنشد أيضاً):

إن وجدُتْ أو جرْت أو صديت أو جافيت
أو حلت أو ملت أو واصلت أو وافـيتّ
أنِت الحـبيب الذى في القلب قد حلَيت
ونا على العـهـد مـا خنتك ولا اخـتليتْ

(ثم أنشد)

يا من إذا قلت يا كل المنى صل صـــال
صلني بمن خلق الإنســان من صلصـــالْ
إذا تذكـــرت ريقـــاً بارداً سلســـال
وقلت يا دمع عـينى بالدمـا سِلْ سـالْ

(قال) الشيخ حسن قلت له ما أبلغ بيت السبعينية:

خطرات النســـيم تجـــرح خـــديه
ولمس الحـــــريـر يدمى بـنـانـه

(فقال) لى أبلغ منه قوله

توهمـــه قلبى فـــأصـــبح خـــده
وفـيـــه مكانَ الـوهم من نظرى أثرُ



ومر بفكرى جسمه فجرحته (ص٤٠٧)

ولم أر جسما قَط يجرحه الفكرُ

(قال) وسمعته كثيراً ما ينشد في الدياجي:

خل الغرام لصب دمعه دمه

حيرانَ توجده الذكرى وتعدَمه

واسمع له بعلاقاتٍ علقن به

لو اطَّلعتَ عليها كنت ترحمه

(قال) وسمعته مرة ينشد:

لو فتشوا قلبى لألْفوا به

سطرين قد خُطَّا بلا كاتب

العلمُ والتوحيدُ فى جانب

وحبُّ آلِ البيتِ فى جانب

(وأنشد مرة أيضا):

خـــــبـــــز ومـــــاء وظـل
هـم الـنـعـــــيـم الأجَـل
جـــحـــدت نُعـــمـــةَ ربى
إن قـلـتُ إنـى مـــــقـلٌ

(وقال) لى مرة كان عندنا شاعر يدّعى النظم ومعرفته، فطارحنى فيه يوما فقلت له أكتب ما حضرنى ونظمت بيتين وهما:

بحـار شـوقى بأمـواج الهـوى عـبثت
ومـزقت حـبل وصلى فى مـجـاريهـا
وحـرّمت مـقلتى طيب الكرى شـغـفـا
بشـادنٍ قـد سـبى ريم الفـلا تيـهـا

(قال) فأذعن الشاعر بفضله وعجب من قوة استحضاره. ودخل الشيخ المنوفى على الشيخ الخليفى وهو جالس عنده متشفعاً فى جماعة متجاهرين بالمعاصى، وكان الشيخ الخليفى قد طردهم (ص٧٠٥) وغضب عليهم فسأله المنوفى فى الرضا عنهم فقال له «إذا كنت أرضى عنهم فان الله لا يرضى كما قال فى كتابه العزيز» فقال الأستاذ الحفنى قد حضرنى بيتان فقيل له ما هما فقال:

أتطلبـــون رضـــائى الآن عن نفـــر
قلوبهم بنفـــاق لـم تزل مـــرضـى
تجـاهروا بقـبـيح الفـسق لاربحـوا
إن كنت أرضى فـــان الله لا يرضى

وقال من بحر الهزج:

رعـــــاك اللـه يا قـلـبى
إذا مـــــا ملـت لـلـقلـب
ولا بُــلِّـــغـــت يـــا واشـــى
لما فـى طـيِّـــــه سـلبى
فـــمـــهـــلا يا خلى مـــهـــلا
فـــدينى فى الهـــوى حـــبى

وقد شطر هذه الأبيات مولانا السيد البكرى الصدّيقى وخمسّها وشطرها غيرُ واحد غيَره، وقال عام رحلته إلى بيت المقدس لزيارة السيد الصدّيقي مادحاً جنابه بقصيدة من بحر المجتث:

يا مـــبـــتـــغى أن يحـــيـــا
برشف كـــأس الحـــمـــيّـــا
وســـالكا نـهـج قـــوم
شـــامـــوا جـــمـــال المحـــيـــا
ســـامـــوا لـربح المعـــالى
طابوا مماتاً ومـــحـــيـــا
واســـتنشـــقـــوا طِيبَ عَـــرْف
أحـــيـــا المعنّى وحـــيّـــا
اخـــــرج عـن الـنـفـس والـزم
باباً كـــريماً عليّـــا
وقم بِسُـــــدّة فـــضل
بهـــا الكمـــال تهـــيـــا
وطف بكعـــبـــة خـــيـــر
وأجـــملن منك ســـعـــيـــا
تراك فـــــزت بـقـــرب
وحـــزت ســـراً وفـــيّـــا

من حـــضــرة قـــد تســـامتْ
ذرا المعـــــالى رُقـــــيّـــــا
(ص٧٠٦) قـــد اصطفـــاها لســـرٍ
ثم ارتضـــاها ســـمـــيّـــا
مـــحـــمـــدىٌّ مـــقـــامٍ
نـال المقـــام السنيّـــا
أجلُّ، مـن يتـــصـــدى
لـــلـــنـــاس يمـــنـــح هَـــديـــا
ســـبْـــط الحـــســين وصنـو
خـــالى من اللهـــو أعـــيـــا
يـا ابـن الرفـــيـــق بغـــار
وابن العـــتـــيق فـــهـــيّـــا
لابـنٍ رهـين صـــروف
عـــمـــا يـروم نـئـــيـــا
فـــوجـــهـنّ لنحـــوى
قلبـــاً بـه الميتُ يحـــيـــا
وقل مـــحـــمـــدنا اشـــرب
منـا شـــرابا صـــفـــيّـــا
حـــســـيـــبكم من ســـواكم
أمـــسى غـــريبـــاً عـــريّا
صـــلـــى وســـلـــم ربـــى
على الرســـول المحـــيّـــا
والآل مـــا قـــال صَـبْ
يا مـــبـــتـــغى أن يُحـــيـــا

وكان لاشتغاله بالالقاء والإقراء للعلم لا يعانى النظم كثيراً، وله مواليا من المكفر، المواليا على ثلاثة أقسام قرقيا وبليق ومكفر، فالقرقيا ما اشتمل على الهزل، والبليق ما اشتمل

على الغزل، والمكفِر بكسر الفاء ما اشتمل على المواعظ،

(فمن ذلك قوله):

يا مبتغى طرق أهل الله والتسليك
دع عنك أهل الهوى تسلم من التشكيك
إن أذكرونى لرد المعترض يكفيك
فاجعل سُلاف الجلالة دايما فى فيك

وقوله:

بالله يا قلب دع عنك الهوى واسلم
من كل ميل ووافى عهدهم اسلم
والزم حمى سادة من أمهم يسلم (ص٧٠٧)
واسلك سبيل التقى يوم اللقا تسلم

وقوله:

حرك جواد الهمم واسلك طريق الحق
واصحب معك زاد أهل المعرفة والحق
ولا تمل للسوى تحرق بنار الفرق
وادخل جنان التقى تظفر بثانى فرق

وله من البليق:

خطر عَلَيّا غزالى مر ما اتكلم
فوق جفونه وقلبى والحشا كلمْ
ايش كان يضره إذا بالراس لى سلم
حتى أسَرْ مهجتى لولا السلام سلمْ

(ومن) مراسلاته لبعض تلامذته: أما بعد إهداء سلام بسر الحب نام تام للحبيب الصفى، ومن بالعهد وفى، السرى الأسعد، أحمدنا الأحمد جَمّلنا الله وإياه بلباس التقوى،

* رسالة أدبية تربوية من عهد الجبرتى.

وثبتنا وإياه على التمسك بسبب الوصول الأقوى، فقد وصلت الرسايل، المنبئة بحفظ الوسايل، المشعرة بالصفا، والقيام على قدم الوفا، والذى به نوصيك، وبسره الخفى نوافيك، أن تدوم منتبها لتحرك النفس، فى كل حركة ونفس، خصوصا عند اقبال العباد، وطلبهم الفايدة والارشاد، فانها ولو للمعمرين بالمرصاد، فلا ينبغى أن يغمد عنها سيف الجهاد، ومن زاد عليك اقباله، وتوجهت إليك بالصدق آماله، فاصرف قلبك إليه، وعوّل فى التربية عليه، (ص٧٠٨) ومن عنك بهواه صد، بعد أخذك عليه وثيق العهد، فدعه ولا تشغل به البال، وأنشدْه قولَ استاذنا لمن عن طريقنا قد مال:

ألم تدر أنا مَنْ قلانا سفاهةَ
تركناه غب الوصل يعمى بصدّه
ومن صدّ عنا حسبه الصدٌ والجفا
وأن الردى أصماه من بعد بُعده
ومن فاتنا يكفيه أنا نفوتهُ
وأنا نكافيه على ترك حمده
وأنا غداً لما نَعُدّ محبنًا
وأتباعنا لسنانَهُمّ بعدّه

ومن أردت زجره للتربية وإرشاده، فليكن ذلك عند الانفراد إذ هو أرجى لاسعاده، ولا تزجر بضرب ولا نهر بين الناس: فان ذلك ربما أوقع المريد فى الباس، ولا تلتفت لمن أعرض، ولا لمن يصحبك باحسان، والأدب واللطف محمودان، والغلظة والحقد موبقان، فاطرح القال والقيل، واصفح الصفح الجميل، ولك ولكل من أخذ عنك أو أحبك منا

ومن أهل سلسلة طريقنا ما سَرّك، فأبشر إن عملت بما أشرنا بكل خير، ومزيد الفتح والمسير فى السير، وللشيخ رضى الله عنه مناقب ومكاشفات وكرامات وبشارات وخوارق عادات يطول شرحها ذكرها الشيخ (ص٧٠٩) حسن المكى المعروف بشمه فى كتابه الذى جمعه فى خصوص الأستاذ، وكذلك العلامة الشيخ محمد الدمنهورى المعروف بالهلباوى له مؤلف فى مناقب الشيخ ومدايحه وغير ذلك.

وصل فى ذكر أخذ العهد بطريق الخلوتية

وهى نسبة إلى سيدى محمد الخلوتى أحد أهل السلسلة ويعرفون أيضا بالقرباشلية نسبة إلى سيدى على افندى قره باش أحد رجالها أيضا وهذا هو الاسم الخاص المميز لهم عن غيرهم من الخلوتية ولذلك قال السيد البكرى فى الألفية.

والخلوتية الكرام فرق
قد نهجوا نهج الجنيد فرقوا
وخيرهم طريقنا العلية
من قد دعوا بالقَرباَشلية

وهى طريقة مؤيدة بالشريعة الغراء والحنيفة السمحاء، ليس فيها تكليف بما لا يطاق وكانت خير الطرق لأن ذكرها الخاص بها (لا إله إلا الله) وهى أفضل ما يقول العبد كما فى الحديث الشريف. وكان المترجَم رضى الله عنه اشتغل بالسلوك وطريق القوم بعد الثلاثين فأخذ على رجل يقال له الشيخ أحمد الشاذلى المغربى المعروف بالمقّرى فتلقى منه بعض أحزاب وأوراد، ثم قدم السيد البكرى من الشام سنة

ثلاث وثلاثين ومائة وألف فاجتمع عليه الشيخ بواسطة بعض تلامذة السيد، وهو السيد عبد الله السلفيتي فسلم عليه وجلس فجعل السيد ينظر إليه وهو (ص٧١٠) كذلك ينظر إليه فحصل بينهما الارتباط القلبي، ثم قام وجلس بين يدى السيد بعد الاستئذان، وكانت عادة السيد إذا أتاه مريدٌ أمره أولا بالاستخارة قبل ذلك إلا وهو فلم يأمره بها، وذلك إشارة إلى كمال الارتباط، فأخذ عليه العهد حالا ثم اشتغل بالذكر والمجاهدة فرأى في منامه في بعض الليالي السيد البكرى والشيخ أحمد الشاذلي المذكور جالسين والشيخ أحمد يعاتبه على دخوله في الطريق ويعاتب أيضاً السيد، فقال له السيد: «هل لك معه حاجة؟» قال: «نعم، لى معه أمانة» وإذا بجريدة خضراء بيد السيد فقال له: «هذه أمانتك؟» ثم انتبه فأخبر السيد فقال له: «هذا اتصال بنا وانفصال عنه وهذه هى النسبة الباطنية التي صار بها سلمان الفارسي وصهيب من أهل البيت». وقال ابن الفارض رضى الله عنه في اليائية:

نسبٌ أقربُ في شرع الهوى
بيننا من نسب من أبوى

وقال في التائية على لسان الصادق صلى الله عليه وسلم:

وإنى وإن كنتُ ابنَ آدم صورةً
فلى فيه معنىً شاهدٌ بالأبوة

فإن آدم له أب من حيث النسبة الظاهرة، وهو أب لآدم من حيث النسبة الباطنة، لأنه نايب عنه في الإرسال ومنبأ بعده

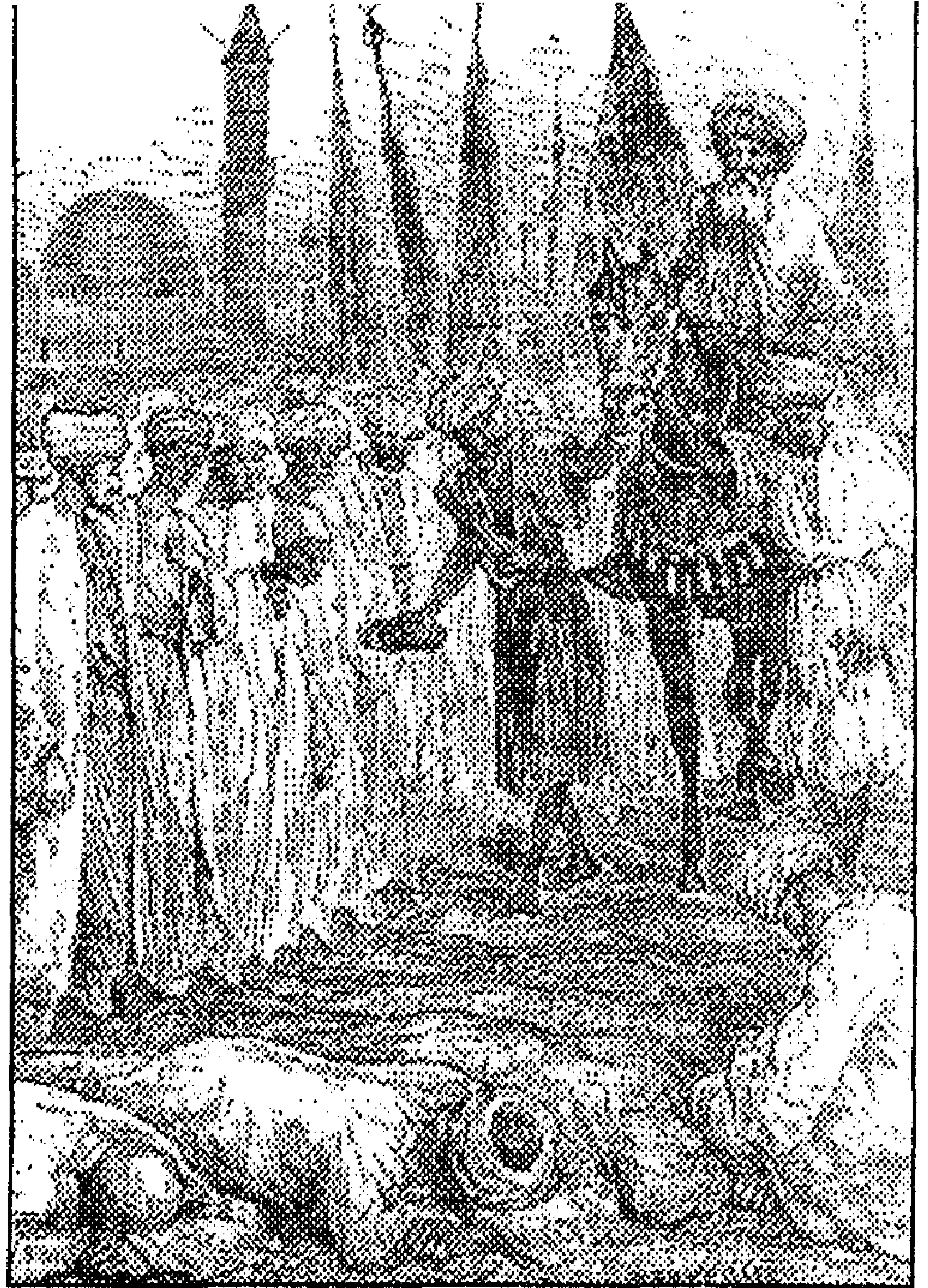
فى الإنزال، ولم يستمد (ص١١٧) من الحضرة العلية إلا بواسطته، ولذلك لما توسل به قُبلت توبته، وزادت محبته، ولم يجعل مهر حواء سوى الصلاة والسلام عليه كما ورد ذلك كله، وهو من المعلوم ضرورة، فظهر بهذا أن هذه النسبة أعظمُ من تلك لترتب الثمرة عليها، ثم سار فى طريقة القوم أتم سير حتى لقنه الأستاذ الاسم الثانى والثالث، ومن حين أخذ عليه العهد لم يقع منه فى حق الشيخ إلا كمال الأدب والصدق التام وهو الذى قدمه وبه ساد أهل عصره، فمن ذلك أنه كان لا يتكلم فى مجلسه أصلا إلا إذا سأله فإنه يجيبه على قدر السؤال، ولم يزل يستعمل ذلك معه حتى أذن له بالتكلم فى مجلسه فى بعض رحلاته إلى القاهرة، وسببه أنه لما رأى إقبال الناس عليه وتوجههم إليه قال له: «انبسط إلى الناس واستقبلهم، لأن يهدىَ الله بك رجلا واحداً خير لك من حمرُ النعم* ».

ومما اتفق له أن شيخه المذكور قال له مرة «تعال الليلة مع الجماعة واذكروا عندنا فى البيت»، فلما دخل الليل نزل شتاء ومطر شديد فلم يتخلف وذهب حافياً والمطر يسكب عليه وهو يخوض فى الوحَل، فقال له «كيف جيت فى هذه الحالة؟» فقال «يا سيدى أمرتمونا بالمجىء ولم تقيدوه بعذر وأيضاً لا عذر والحالة هذه لإمكان المجى وإن كنت حافياً» فقال له «أحسنت، هذا أول قدم فى الكمال» إلى غير ذلك. ولما علم الشيخ صدق حاله وحسن فعاله، قدمه على خلفائه وأولاه حسن ولائه، ودعاه بالأخ الصادق،

* الانعام: هى ذوات الخفِ والظِلف وهى الإبل والبقر والغنم، وحُمرُ النَعَم هى كرائم الأنعام.

* صورة أخذ العهد في الطريقة الخلوتية.

ومنحه أسراراً، وأراه عيون الحقايق، وكيفية تلقين الذكر (ص٧١٢) وأخذ العهد كما وجد بخط الأستاذ بظهر ثبت عبد الله بن سالم البصرى ما نصه: هذه صورة أخذ العهد أرسلها إليه السيد البكرى الصديقي الخلوتي حين أذنه بأخذ العهود على طريقة السادة الخلوتية ونص ما كتب كيفية المبايعة للنفس الطايعة أن يجلس المريد بين يدى الأستاذ ويلصق ركبته بركبته والشيخ مستقبل القبلة ويقرأ الفاتحة ويضع يده اليمنى في يده مسلماً له نفسه مستمداً من إمداده ويقول له قل معي أستغفر الله العظيم ثلاث مرات، ويتعوذ ويقرأ آية التحريم «يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً» إلى «قدير» ثم يقرأ آية المبايعة التي في الفتح ليزول الاشتباه وهي «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله» اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قوله تعالى: «عظيما». ثم يقرأ فاتحة الكتاب ويدعو الله لنفسه وللآخذ بالتوفيق، ويوصيه بالقيام بأوراد الطريق، والدوام على ذوق أهل هذا الفريق، وعرض الخواطر، وقص الرؤيات العواطر، وإذا وقعت الإشارة بتلقين الاسم الثاني، لقنه ليبلغ الأماني، وفتح له باب توحيد الأفعال، إذ لا غيره فعّال، وفي الثالث توحيد الأسما، ليشهد السر الأسمى، وفي الرابع توحيد الصفات، ليدرّجه إلى أعلى الصفات، وفي الخامس توحيد الذات، ليحظى بأوفر اللذات، وفي السادس والسابع، يكمل له التوابع، ونسأل الله تعالى الهداية والرعاية، والعناية والدراية، والحمد لله (ص٧١٣) رب العالمين، انتهى.



هذا ما كتب بخطه الشريف، قال ورأيت أيضاً بظهر الثبت المذكور ما نصه ثم رأيت فى «الفتوحات الإلهية فى نفع أرواح الذوات الإنسانية» وهو كتاب نحو كراس لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى ما نصه: إذا أراد الشيخ أن يأخذ العهد على المريد فليتطهر وليأمره بالتطهر من الحدث والخبث ليتهيأ لقبول ما يلقيه إليه من الشروط فى الطريق ويتوجه إلى الله تعالى ويسأله القبول لهما، ويتوسل إليه فى ذلك بمحمد صلى الله عليه وسلم، لأنه الواسطة بينه وبين خلقه، ويضع يده اليمنى على يد المريد اليمنى بأن يضع راحته على راحته ويقبض إبهامه بأصابعه ويتعوذ ويبسمل ثم يقول: «الحمد لله رب العالمين أستغفرُ اللهَ العظيم الذى لا إله إلا هو الحىّ القيوم وأتوب إليه وصلى الله على سيدنا



محمد وعلى آله وصحبه وسلم». ويقول المريد بعده مثل ما قال، ثم يقول: «اللهم إنى أشهدك وأشهدُ ملائكتَك وأنبياءَك ورسلَك وأولياءَك أنى قد قبلته شيخاً فى الله ومرشداً وداعيا إليه، ثم يقول الشيخ: «اللهم إنى أشهدك وأشهد ملائكتك وأنبياءَك ورسلك وأولياءك أنى قد قبلته ولداً فى الله فاقبله وأقبل عليه، وكن له ولا تكن عليه»، ثم يدعو كأنْ يقول: «اللهم أصلحنا وأصلح بنا، واهدنا واهد بنا، وأرشدنا وأرشد بنا، اللهم أرنا الحق حقا وألهمنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه، اللهم اقطع عنا كل قاطع يقطعنا عنك، لا تقطعنا عنك، ولا تشغلنا (ص٧١٤) بغيرك عنك» انتهى، قلت والمراتب السبعة التى أشار إليها السيد فى الكيفية المتقدمة هى مراتب الأسماء السبعة وللنفس فى كل مرتبة منها مرتبة باسم خاص دالٍ عليها، الأسم الأول (لا

إله إلا الله) وتسمى النفس فيه (أمارة) والثانى (الله) وتسمى النفس فيه (لوامة) والثالث (هو) وتسمى النفس فيه (ملهمة) والرابع (حق) وهو أول قدم يحله المريد من الولاية كما مرت الاشارة إليه وتسمى النفس فيه (مطمئنة) والخامس (حى) وتسمى النفس فيه راضية والسادس (قيوم) وتسمى النفس فيه (مرضية) والسابع (قهّار) وتسمى النفس فيه (كاملة) وهو غاية التلقين، وكلها ماعدا الأول منها تلقن فى الأذن اليمنى الا السابع ففى اليسرى وتلقينها بحسب ما يراه الشيخ من أحوال المريدين أفعال وأقوال وعالم مثال، واعلم ان سلسلةَ القوم هذه فى كيفية أخذ العهد والتلقين مرويةٌ عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو يرويه عن جبريل، وهو يرويه عن الله عزوجل، وفى بعض الروايات روايته عن رؤساء الملايكة الأربع، والنبى صلى الله عليه وسلم لقن عليا رضى الله عنه، وصورة ذلك كما فى «ريحان القلوب فى التوصل إلى المحبوب» لسيدى يوسف العجمى أن علياً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «يا رسول الله دلنى على أقرب الطرق إلى الله تعالى» فقال «يا على عليك بمداومة ذكر الله فى الخلوات» فقال (ص٧١٥) علىّ رضى الله عنه «هذا فضيلة الذكر وكل الناس ذاكرون» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا على لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول الله» فقال على «كيف أذكر يا رسول الله» قال «غمض عينيك واسمع منى ثلاث مرات ثم قل أنت ثلاث مرات وأنا أسمع» فقال النبى صلى الله عليه وسلم «لا إله إلا الله» ثلاث مرات مغمضا عينيه رافعا صوته وعلى يسمع ثم قال على «لا إله إلا الله» ثلاث مرات مغمّضا عينيه رافعا صوته

* سلسلة أخذ العهد كما رواها النبى محمد.

والنبى صلى الله عليه وسلم يسمع، ثم لقن عليٌّ الحسن البصرى رضى الله عنهما على الصحيح عند أهل السلسلة الأخيار من المحدثين، قال الحافظ السيوطى: الراجح أن البصرى أخذ عن على ومثله عن الضياء المقدسى. ومن المقرر فى الأصول أن المثبِت مقدم على النافى، ثم لقن الحسنُ البصرىُ حبيباً العجمى وهو لقن أبا القاسم سيد الطائفتين الجنيد البغدادى وعنه تفرقت سائر الطرق المشهورة فى الإسلام ثم لقن عمر البكرى وهو لقن أبا النجيب السُهْرَوَرْدى وهو لقن قطب الدين الأبهرى، وهو لقن محمداً النجاشى، وهو لقن شهاب الدين الشيرازى، وهو لقن جلال الدين التبريزى، وهو لقن إبراهيم الكيلانى، وهو لقْن أخى محمداً الخلوتى وإليه نسبة أهل الطريق، وهو لقن بير عمر الخلوتى، وهو لقن (ص٧١٦) أخى بيرام الخلوتى وهو لقن عز الدين الخلوتى، وهو لقن صدر الدين الحيانى وهو لقن يحى الشروانى صاحب ورد الستار وهو لقن بير محمد الأرزنجانى وهو لقن جلبى سلطان المشهور بجلبى خليفة وهو لقن خير التوقادى وهو لقن شعبان القسطمونى وهو لقن إسماعيل الجورومى، وهو المدفون فى باب الصغير فى بيت المقدس عند مرقدسيدى بلال الحبشى، وهو لقن سيدى على أفندى قره باش، أى أسود الرأس باللغة التركية، وإليه نسبة طريقنا كما مر، وهو لقن مصطفى أفندى ولده، وخلفاؤه كما قال السيد الصديقى أربعماية ونيف وأربعون خليفة، وهو لقن عبد اللطيف بن حسام الدين الحلبى وهو لقن شمس الطريقة وبرهان الحقيقة السيد مصطفى بن كمال الدين البكرى الصديقى وهو لقن قطب رحاها، ومقصد سرها ونجواها، شيخنا الشيخ محمد الحفناوى، وهو

لقن وخلف أشياخا كثيرة منهم:

بركة المسلمين، وكهف الواصلين، الصوفي الصايم القايم العابد الزاهد الشيخ محمد السمنودى المعروف بالمنير شيخ القراء والمحدثين، وصدر الفقها والمتكلمين، من مناقبه الحميدة صيام الدهر مع عدم التكلف لذلك وقيام الليل يقرأ فى كل ركعة ثلث القرآن وربما قرأ نصفه أو جميعه فى كل ركعة، هذا ورده دايماً صيفاً وشتا فتى وشيخا ويافعا، ومنها تواضعه وخموله وعدم رؤية نفسه، ويبرأ من أن تنسب إليه منقبة، وسيأتى باقى ترجمته فى وفاته.

(ومنهم) علامة وقته وأوانه الولى الصوفى الشيخ حسن الشيبينى ثم الفُوّى، طلب العلم وبرع فيه وفاق على أقرانه ثم جذبته أيدى العناية إلى الشيخ فاخذ (ص٧١٧) عليه العهد ولقنه أسماء الطريق السبعة على حسب سلوكه فى سيره، ثم ألبسه التاج وأجازه بأخذ العهود والتلقين والتسليك، وصار خليفة محضا فأدار مجالس الذكر ودعا الناس إليها من ساير الأقطار وفتح الله عليه باب العرفان، حتى صار ينطق بأسرار القرآن.

(ومنهم) العالم النحرير الصوفى الصالح السالك الراجح الشيخ محمد السنهورى ثم الفوى، طلب العلم حتى صار من أهل الإفتاء والتدريس، وانتصب للتأكيد والتأسيس، ثم دعته سعادة حضرة القوم فسلك مع المجاهدة وحسن السيرة على يد الأستاذ حتى لقنه الأسماء السبعة وألبسه التاج، وأقامه خليفة يهدى لأقوم منهاج، ثم أذن له فى التوجه إلى بلده فتوجه إليها وربى بها المريدين وأدار مجالس الأذكار بتلك البقاع، وعم به فى الوجود الانتفاع.

(ومنهم) البحر الزاخر، حايز مراتب المفاخر، الولى الربانى

والصوفى فى العالم الإنسانى الشيخ محمد الزعيرى، اشتغل بالعلم حتى برع وصار قدوةً لكل مقتدى، وجذوة لمن لا يهتدى، ثم سلك على يد الأستاذ فاخذ عليه العهد ولقنه الأسماء على حسب سيره وسلوكه، ثم خلفه وألبسه التاج وأجازه بالتلقين والتسليك.

(ومنهم) الحبر العلامة والبحر الفهامة شيخ الإفتاء والتدريس الشيخ خضر رسلان، اشتغل عل الشيخ مدة مديدة، ولازمه ملازمة شديدة، وأخذ عليه العهد فى طريق الخلوتية حتى تلقن الأسماء وألبسه الشيخ التاج وصار خليفة مجازاً باخذ العهود والتسليك.

(ومنهم) الشيخ الصوفى الولى صاحب الكرامات، والأيادى والمكرمات، شيخنا الشيخ محمود الكردى أخذ على الشيخ العهد والطريق ولقنه الأسماء فكان محمود الأفعال، معروفا بالكمال، (ص٧١٨) ثم ألبسه التاج وصار خليفة وأجازه بالتلقين والتسليك فارشد الناس، وأزال عن قلوبهم الوسواس وهو مشهور البركة يعتقده الخاص والعام كثير الرؤية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن كراماته أنه متى أراد رؤية النبى صلى الله عليه وسلم رآه، وله مكاشفات عجيبة نفعنا الله بحبٍّه، ولا حجبنا عن قربه، وهو الذى قام للإرشاد والتسليك بعد انتقال شيخه، وسلك على يده كثير وخلفوه من بعده منهم: الشيخ الصالح الصوفى الشيخ محمد السقاط والشيخ العلامة شيخ الإسلام والمسلمين مولانا الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر الآن والإمام الأوحد الشيخ محمد بدير الذى هو الآن بالقدس الشريف، والمشار إليه فى التسليك بتلك الديار، والشيخ الصالح الناجح إبراهيم الحلبى الحنفى، والسيد الأجل العلامة

والرَحلة الفهامة السيد عبد القادر الطرابلسى الحنفى، والشيخ الإمام، العمدة الهمام، الشيخ عمر البابلى وغيرهم، أدام الله النفع بوجودهمْ.

(ومنهم) العالم العلامة الألمعى الفهامة بقية السلف، والخليفة ونعم الخلف، الشيخ محمد سبْط الأستاذ المترجَم أطال الله بقاءه.

(ومنهم) الشيخ الفهامة الأديب الأريب، واللوذعى النجيب، الشيخ محمد الهلباوى الشهير بالدمنهورى الشافعى.

(ومنهم) الشيخ الصوفى القدوة الشيخ أحمد الغزالى، تلقن منه الأسماء وتخلف عنه وألبسه التاج وأجازه بالتلقين والتسليك.

(ومنهم) العالم العامل الشيخ أحمد القُحافى الأنصارى، أخذ العهد وانتظم فى سلك أهل الطريق وتلقن الأسماء وصار خليفة مجازاً فأرشد الناس وافتتح مجالس الأذكار.

(ومنهم) تاج الملة، وإنسان عين المجد من غير علة، ذو النسب الباذخ، (ص٧١٩) والشرف الرفيع الشامخ، السيد على القناوى، تلقن الأسماء والبس التاج وصار خليفة حقا ومجازاً بالتلقين والتسليك فأدار مجالس الأذكار وأشرقت به الأنوار.

(ومنهم) العلامة العامل والفهامة الواصل الفاضل الشيخ سليمان المنوفى نزيل طندتا لقنه وأرشده وخلفه وألبسه التاج وأجازه فسلّك وأرشد وله أحوال عجيبة.

(ومنهم) الصوفى الصالح الشيخ حسن السخاوى نزيل طندتا أيضاً لقنه وخلفه وألبسه التاج، فدعا الناس لأقوم منهاج.

(ومنهم) علامة الأنام الشيخ محمد الرشيدى الملقب

بشعير، لقنه وخلفه وأجازه فكثر نفعه.

(ومنهم) العلامة الأوحد، ومن على مثله الخناصر تعقدْ، الشيخ يوسف الرشيدى الملقب بالشيال، رحل أيضاً إليه فتلقن منه وسلك على يديه حتى صار خليفة، وألبسه التاج وأجازه بالتلقين والتسليك ورجع إلى بلاده، بأوفر زاده، وأدار مجالس الذكر، وأكثر المراقبة والفكر، حتى كثرت أتباعه وعم انتفاعه.

(ومنهم) العمدة المقدم الهمام الناسك السالك الشيخ محمد الشهير بالسقاء، لقنه وأجازه بالتلقين والتسليك فكثر نفعه وطاب صنعه.

(ومنهم) فريد دهره وعالم عصره معدن الفضل والكمال، قطب الجمال والجلال، الشيخ باكير أفندى، لقنه وألبسه التاج وأجازه بالتلقين والتسليك.

(ومنهم) بدر الطريق، وشمس أفق التحقيق، العالم العلامة والصوفى الفهامة الشيخ محمد الفشنى، لقنه وخلفه وألبسه التاج فأخذ العهود ولقن وسلك وفاق فى ساير الآفاق، وتقدم فى الخلاف والوفاق.

(ومنهم) العالم العامل والشهم الماهر الكامل الشيخ عبد الكريم المسيرى الشهير بالزيات، تلقن العهد (ص٧٢٠) والأسماء حسب سلوكه وسيره وأجيز بأخذ العهود والتلقين والتسليك فزاد نورا على نور، وحبى بلذة الطاعة والحبور.

(ومنهم) شيخ الفروع والأصول، الجامع بين المعقول والمنقول، علامة الزمان، والحامل فى وقته لواء العرفان، الشيخ أحمد العدوى الملقب بدردير، جذبته العناية إلى نادى الهداية، فجاء إلى الشيخ وطلب منه تلقين الذكر فلقنه وسار أحسن سير، وسلك أحسن سلوك، حتى صار خليفة بأخذ



العـهـود والتلقين والتـسليك مع المجاهدة والعـمل المرضى، وسيأتى فى وفياتهم تتمة تراجمهم رضى الله عنهم.

(ومنهم) أيضاً الشيخ العلامة الولى الصوفى الشيخ محمد الرشيدى الشهير بالمعصراوى.

(ومنهم) الإمام الجامع والولى الصوفى النافع مولاى أحمد الصقلى المغربى، تلقن وتخلف وأجيز بأخذ العهود والتلقين والتسليك.

(ومنهم) الأمـجد العامل بعلمه والمزدرى السـحـر بفـهـمـه الشيخ سليمان البتراوى ثم الأنصارى.

(ومنهم) الصـالح العـامل الفـهـامـة العـابد الزاهد الشـيخ إسماعيل اليمنى تلقن وسلك مع التقى والعفاف والملازمة الشديدة والخدمة الأكيدة وحسن المجاهدة.

(ومنهم) النحـرير الكامل، واللوذعي الفـاضل، مـؤلف

المجموع الشيخ حسن بن على المكى المعروف بشمه الناظم الناثر، الحاوى الخير المتكاثر، وغير هؤلاء ممن لم نعرف كثير.

(فصل) في ذكر رحلة الأستاذ المترجم إلى بيت المقدس

وهو أنه لما أذن له السيد البكرى بأخذ العهود وتلقين الذكر لم يقع له تسليك أحد فى هذه الطريقة، إنما كان شغله وتوجهه كله إلى العلم وإقرائه، لكن ذلك بجسمه، وأما قلبه فلم يكن إلا عند شيخه السيد الصديقى، ولم يزل كذلك إلى عام تسع وأربعين فحن جسمه إلى زيارة (ص٧٢١) شيخه وأنشد لسان حاله:

أخذتم فؤادى وهو بعضى فما الذى
يضركمُ لو كان عندكمُ الكل

فأرسل إليه السيد يدعوه لزيارته، فهام إذ فهم رمز إشارته، وتعلقت نفسه بالرحيل فترك الإقراء والتدريس وتقشف وسافر إلى أن وصل بالقرب من بيت المقدس، فقيل له: «إذا دخلت بيت المقدس فادخل من الباب الفلانى وصلّ ركعتين وزر محل كذا» فقال لهم: أنا ما جيت قاصداً بيت المقدس وما جيت قاصداً إلاَّ أستاذى فلا أدخل إلاّ من بابه ولا أصلى إلا فى بيته فعجبوا له فبلغ السيدَ كلامُه فكان سبباً لإقباله عليه وإمداده، ثم سار حتى دخل بيت المقدس فتوجه إلى بيت الأستاذ فقابله بالرحب والسعة وأفرد له مكاناً، ثم أخذ فى المجاهدة من الصلاة والصوم والذكر والعزلة والخلوة. قال: فبينما أنا جالس فى الخلوة إذا بداع يدعونى إليه

فجيت إليه فوجدت بين يديه مائدة. فقال: أنت صايم قلت: نعم. فقال: كل فامتثلت أمره وأكلت. فقال: اسمع ما أقول لك إن كان مرادك صوما وصلاة وجهاداً أو رياضة فليكن ذلك في بلدك، وأما عندنا فلا تشتغل بغيرنا ولا تقيد أوقاتك بما تروم من المجاهدة، وإنما يكون ذلك بحسب الاستطاعة وكل واشرب وانبسط قال: فامتثلت إشارته ومكثتُ عنده أربعة أشهر كأنها ساعة غير أني لم أفارقه قط خلوةً وجلوةً* . ومنحه في هذه المدة الأسرار وخلعَ عليه خلع القبول، وتوّجه بتاج العرفان وأشهده مشاهد الجمع الأول والثاني، وفرق له فرق الفرق الثاني، فحاز من التداني أسرار المثاني، ثم لما انقضت المدة وأراد العود إلى القاهرة (ص٧٢٢) ودّعه وما ودّعه، وسافر حتى وصل إلى غزّة فبلغ خبرُه أميرَ تلك القرية وكانت الطريق مخيفة فوُجهً معه قافلة بيَرْقين من العسكر فساروا فلقيهم في أثناء الطريق أعراب فخافوهم فقالوا لأهل القافلة لا تخافوا فلسنا من قطاع الطريق، وإن كنا منهم فلا نقدر نكلمكم وهذا معكم» وأشاروا إلى الشيخ، ولم يزالوا سايرين حتى انتهوا إلى مكان في أثناء الطريق بعد مجاوزة العريش بنحو يومين، فقيل لهم إن طريقكم هذا غير مأمون الخطر، ثم تشاوروا فقال لهم أعراب ذلك المكان نحن نسير معكم ونسلك بكم طريقا غير هذا، لكن اجعلوا لنا قدراً من الدراهم نأخذه منكم إذا وصلتم إلى بُلبيس، فتوقف الركب أجمعه، فقال الأستاذ «أنا أدفع لكم هذا القدر هنالك» فقالوا «لا سبيل إلى ذلك، كيف تدفع أنت وليس لك في القافلة شيء؟ والله ما نأخذ منك شيئا إلا إن ضمنت أهل القافلة» فقبل ذلك، فاتفق الرأى على دفع الدراهم من أرباب

* خلوة وجلوة: أى في مجالسه الخاصة والعامة، يعنى في السر والعلن.

التجارات بضمانة الشيخ، فضمنهم وساروا حتى وصلوا إلى بُلبيس ثم منها إلى القاهرة فسُرّت به أتم سرور، وأقبل عليه الناس من حينئذ أتم قبول، ودانت لطاعته الرقاب وأخذ العهود على العالم، وأدار مجالس الأذكار بالليل والنهار، وأحيا طريق القوم بعد دروسها وأنقذ من ورطة الجهل مهجاً من غَيّ نفوسها، فبلغ هديه الأقطار كلها وصار له في كثير من قرى مصر نقيب وخليفة وتلامذة وأتباع يذكرون الله تعالى، ولم يزل أمره في ازدياد وانتشار حتى بلغ سائر أقطار الأرض وصار الكبار والصغار والنساء والرجال يذكرون الله تعالى بطريقته، وصار خليفة الوقت وقطبه، ولم يبق (ص٧٢٣) ولي من أهل عصره إلا أذعن له، وحين تصدى للتسليك وأخذ العهود أقبل عليه الناس من كل فج وكان في بدء الأمر لا يأخذون إلا بالاستخارة والاستشارة وكتابة أسمايهم ونحو ذلك، فكثر الناس عليه وكثر الطلب فأخبر شيخه السيد الصدّيقي بذلك فقال له: «لا تمنع أحداً يأخذ عنك ولو نصرانياً من غير شرط» وأسلم على يديه خلق كثير من النصارى، وأول من أخذ عنه الطريق وسلك على يديه الولي الصوفي العالم العلامة المرشد الشيخ أحمد البناء الفِوى، ثم تلاه من ذكر وغيرهم، وكان أستاذه السيد يثني عليه ويمدحه ويراسله نظما ونثراً، ويترجمه بالأخ ولولا رآه قسيما له في الحال ما صدر عنه ذلك المقال، حتى أنه قال له يوماً: «إني أخشى من دعائكم لي بالأخ لأنه خلاف عادة الأشياخ مع المريدين» فقال له: «لا تخش من شيء» وامتدحه أشياخه ومعاصروه وتلامذته، فمن امتدحه أخوه الأوحد العلامة سيدي الشيخ يوسف الحفناوي، فمن ذلك قصيدتان وأثبتهما في ديوانه إحداهما:

إن تـرم وصـلـة الـسـلـوك الـسـنيــــــه
فـــانتـــهج نـهج ســـادة خلوتيـــه
وتمسك بعـــــهــــــدهم وتـعـطـر
بشـــذاهم فى بكرة وعـــشــيـــه
ســادة مـــهــدوا الطريق وشـــادوا
ربعـهـــا بالشـــريعـــة الأحــمـــدية
واعـــتـــصم بالسلوك إن رمت قـــربـاً
بدليل تسـقـيك راحـاً شـهـيـــه
كالإمام الحفنىّ أشرف دان (ص٧٢٤)
أسـكـرتـه المدامــــــة الـبـكـريـه
وِرَد الحــــــان وارتـوى بسُــــلاف
من كـؤوس الشـهـود مـصطفـويه
فـــغـــدا هـائمـــاً بســـرّ التـــجلى
جـــائلا فى رياضــه العـــدنيـــه
لابســـاً من حـــلاوة الصـــدق ثوباً
أين منه الملابس السندسـيـــه؟
راقـيـــاً فى ســمـــاء عـــز التـــدانى
نزلا عن ســواه أمـــست نشـيـــه
ناهلا من مناهل القرب ما فيه وصول للحضرة الأقدسيه
عين عين نحـــــــاه عن علم عين
صـــدق ســـيـــر وهـمـــة عُلويه
وهبـــأت فـــتـــحـيـــة نشـــرتهـــا
يد أســـتـــــاذه عليــــه عليّـــه
أمّــــهُ يا مـــزيدَ هدْيٍ ورشـــدٍ
فـــهــــو باب للمنحـــة الخلوتيـــه
وارتشف من مـــدامـــة قـــد أديرت
بيـــديه وانهض بإخـــلاص نيـــه

وَتوسلْ به إلى اللـه تظفـــــــر
بالذى ترتجيـــــه من أمنيَّـــه
وتأمل فى ذاته ومـــــــزاياه
لتـــهـــدَى إلى الطريق السـويَّه
عــــالم عـــامل تقى نقى
صـادق السِّيْـر ذو مـزايا بهـيَّـه
(ص٧٢٥) فاتحه إن دهاك وَارِدُ خطبٍ
ونحـتك الخـواطر النفـسـيـه
تلقـه للنفـوس أقـوى طبـيب
بهـبـات قـد حـازها فـرديه
وصــلاةٌ مـهـديةٌ مع سـلام
لـنبـى هَدى لـطرْقٍ سـنيـــه
ثم آلٍ والصـحب مـا هام عـانٍ
واهتـــدت بالسلوك نفس أبيـــه

وهذه الأخرى:

دع عنك رَوْمَ وصـــالِ سَلْمى
وانهـض إلى المغنـى وسل مـــا
سل مـــا يريح فـؤادك العــانى ونقّ القلب مما
وسـيـوف وسـوسـة السـوى
أغـــمـــد بطيب هوى ألما
وإذا دهـتـك خــــــواطـر
وظلامــهـــا فـيك ادلهــمَّــا
فـاكـشف غـياهبـهـا بشـرب
مــدامـــة الإرشـــاد تحـمُى
من راحـة الحـفنى أشـرفِ من سـمـا عِلمــاً وحلمــا

كنز المقامات التى
بسنائها العلياء تهمَى
دارت عليه كئوس حانات
(ص٧٢٦) الشهود فغاب عما
ولسرّ سرّ الكائنات
فؤاده العلوى ضما
شملته عين عناية
من ربه فصفا ولما
ومذ انمحت عين التغاير
بالشهود سناه عما
لم يدر كُنه هباتها
إلاّ فتى للحان أما
يختال فى جلباب حضرة
من هواه تراه غُنما
فهناك تعرف ما حوى
من رتبة وتزيد علما
وإذا اقتصرت على المُشاهد
منه لم تدر الأهمّا
بشرى لنا هل كاسه
إن عد غيره هواه جزما
ما تم إلا سيدى
وطريقه الزاكى المسمى
من ينتحيه هو السعيد ومن يزغ عنه فأعمى
ثم الصلاة مع السلام
لمن لأهل الريغ أصمى
والآل والأصحاب ما
قلبٌ لنيل القرب همّا

أو يوسف الحـــفنى يرجـــو (ص٧٢٧)
منه إســـعـــافـــاً ورَحـــمـــا

ونقل عن الوزير المفخم محمد باشا راغب أنه قال لبعض بني السقّاف: «إنما لقب جدكم بالسقاف لكونه كان سقفاً على اليمن من البلاء، وكذلك الشيخ [يوسف] الحفناوى سقفٌ على مصر من نزول البلاء» ونظيره قول بعض الأمراء حين قيل له: الأستاذ الحفناوى من عجايب مصر قال: «بل قل من عجايب الدنيا». وللأديب العلامة الشيخ مصطفى اللقيمى فى مدحه ومدح السيد البكرىّ معاً:

قم هات لى خـــمـــرة المعـــانى
مع كل مـــولى لهـــا مـــعـــانى
ثـم اجـــتليـــهـــا مع النُدامى
وطف بهـــا كـــعـــبـــة الأمـــانى
وروق الـــــراح كـــــى أراهـــــا
فى الكأس لاحت كـــبـــهـــرمـــان
ثـم اســـقنيـــهـــا بجنـح ليل
صـــرفـــاً على نغـــمـــة المثـــانى
فـــإن ترومـــا بهـــا اتصـــالا
هيـــا إلى الحـــان واصـــحـــبـــانى
فـــتلك خـــمـــر الشـــهـــود تدعى
لا خـــمـــرة الكرم والدنان
خلعت فـــيـــهـــا العـــذار لما
أن غـــبت عن مـــشـــهـــد العـــيـــان
وهمت فى حـــبـــهـــا غـــرامـــاً
فـــيـــا خليلىّ خليـــانى

ووحـد الحق فـهـو فـرد (ص٧٢٨)

لـم يـثـنـنـى عـن ثـنـاه ثـانـى

قـيّـدت فى حـبـه فـؤادى

أطلقت فى ذكـره لسـانى

فى خلوة القـرب لى بقـاء

فى جلوة الحب صـرتُ فـانى

أيا عـذولى فـدع مـلامى

فـسـيـد الصدق قـد دعـانى

لحـضـرة القـدس واجـتـلالى

من كـاسـه خـمـرة المعـانى

بـجـانـب الطـور لاح نـور

أضـاء مـن سـره جنـانى

بيـانه قـد خـفى ظهـوراً

وصـونه غـاية البـيـان

فـهـمت لما فـهـمت رمـزاً

لم تحـوه أحـرف المبـانى

مـظاهـر لـلـطـريق شـتى

قـد أعـجـمت من لهـا يعـانى

فـذو جـلال وذو جـمـال

وذو كـمـال وذو افـتـتـان

وذو سـكـون وذو هـيـام

وذو سـكـوت وذو بـيـان

فـلا تـلم هـائـمـاً تـراه

مـن سـكـره كَـسّـرَ الأوانى

وتاه من شـوقـه سـمـاعـا

للذكـر فى مـشـهـد التـدانى

(ص٧٢٩) إن شام نحو الحمى بروقا
يهيجة برقها اليماني
صاحب فريقاً نَحوا طريقاً
قد شادها قطب ذا الأوان
السيد المصطفى الحسيني
ذو نسبة عقدها جماني
وبضعة الصدق من عتيق
رفيق غار وخير ثاني
فمنطقى لم يفى بمدح
وكلٌ عن ضبطه بناني
فالعجز عن دركه وصول
من ذا لنشر الثنا يداني
هيا مريدَ الطريق هيا
واشرب سُلافا بطيب حان
وهيمٌ القلبَ بالجلاله
ليشربوا كاسها الكياني
وتجذب الكل نحو ناد الحفنى شمس سما التهاني
بادر وشمر بصدق سير
كي تشهد السر منك داني
وتغنم الأنس في رحاب
تجلى به كُنَّس* الغواني
بشراك بشراكِ يا معاني
فهذه بُلغة الأماني

ولما سمعها السيد البكرى وقعت عنده أحسن (ص٧٣٠) موقع وهى حَرِيَّة بذلك، فينبغى أن تحمل ولا تهمل.

*كُنس: جمع كانس وهو الظبي.

وفى المترجم مدايح كثيرة يطول شرحها وذُكر بعضها وسيذكر فى تراجم أصحابها.

توفى رضى الله عنه يوم السبت قبل الظهر سابع عشرين ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وماية وألف، ودفن يوم الأحد بعد أن صُلى عليه فى الأزهر فى مشهد عظيم جداً، وكان يوم هول كبير، وكان بين وفاته ووفاة الأستاذ الملوى ثلاثة عشر يوماً، ومن ذلك التاريخ ابتدأ نزول البلا واختلال أحوال الديار المصرية، وظهر مصداق قول الراغب إن وجوده أمان على أهل مصر من نزول البلاء، وهذا من المشاهد المحسوس، وذلك أنه إذا لم يكن فى الناس من يصدعُ بالحق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقيم الهدى فسد نظام العالم وتنافرت القلوب، ومتى تنافرت القلوب نزل البلا، ومن المعلوم المقرر أن صلاح الأمة بالعلما والملوك، وصلاح الملوك تابع لصلاح العلما وفساد اللازم بفساد الملزوم، فما بالك بفقده والرحى لا تدور بدون قطبها، وقد كان رحمه الله قطب رحى الديار المصرية، ولا يتم أمر من أمور الدولة وغيرها إلا باطلاعه وإذنه، ولما شرع الأمرا القايمون بمصر فى إخراج التجاريد لعلى بك وصالح بك وأستأذنوه فمنعهم من ذلك وزجرهم وشنع عليهم ولم يأذن بذلك كما تقدم وعلموا أنه لا يتم قصدهم بدون ذلك فأشغلوا الأستاذ وسموه، فعند ذلك لم يجدوا مانعاً ولا رادعاً، وأخرجوا التجاريد وآل الأمر لخذلانهم وهلاكهم والتمثيل بهم، وملك على بك وفعل ما بداله فلم يجد رادعا أيضاً، (ص٧٣١) ونزل البلاء حينئذ بالبلاد المصرية والشامية والحجازية، ولم يزل يتضاعف حتى عم الدنيا وأقطار الأرض، فهذا هو السر الظاهرى وهو لاشك تابع

للباطنى وهو القيام بحق وراثة النبوة وكمال المتابعة وتمهيد القواعد وإقامة أعلام الهدى والإسلام وإحكام مبانى التقوى، لأنهم أمناء الله في العالم، وخلاصة بنى آدم، أوليك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون.

ولو أن أهل العلم صانوه صانَهم
ولو عظّموه فى القلوب لعُظما

* عبد الوهاب الشربينى.

[ومات] شمس الكمال أبو محمد الشيخ/ عبد الوهاب بن زين الدين ابن عبد الوهاب ابن الشيخ نور بن بايزيد بن شهاب* الدين أحمد بن القطب سيدى محمد بن أبى المفاخر داود الشربينى بمصر، ونقلوا جسده إلى شربين ودفن عند جده، سامحه الله وتجاوز عن سيآته، وتولى بعده فى خلافتهم أخوه الشيخ محمد ولهما أخ ثالث اسمه علي، وكانت وفاة المترجم ليلة الأحد غرة ذى القعدة سنة إحدى وثمانين وماية وألف.

* هذه الترجمة كرّرها الجبرتى تحت رقم ٣٠١.

٣٠٣ محمد العبيدى الفارسكورى.

[ومات] الشيخ الإمام العلامة المتقن المتفنن الفقيه الأصولى النحوى الشيخ/ محمد بن موسى العُبيدى الفارسكورى الشافعى، وأصله من فارسكور، أخذ عن الشيخ على قايتباى والشيخ الدفرى والبشبيشى والنفراوى، وكان آية فى المعارف والزهد والورع والتصوف، وكان يلقى دروسا بجامع قوصون على طريقة الشيخ العزيزى والدمياطى، وبآخرةٍ توجه إلى الحجاز وجاور به سنة، وألقى هناك دروساً وانتفع به جماعة، ومات بمكة وكان له مشهد عظيم، ودفن عند السيدة خديجة (ص٧٣٢) رضى الله عنها.

٣٠٤ أحمد أبو عامر النفراوى.

[ومات] الشيخ الإمام العلامة مفيد الطالبين الشيخ/ أحمد أبو عامر النفراوى المالكى، أخذ الفقه عن الشيخ سالم النفراوى والشيخ البليدى والطحلاوى، والمعقول عنهم والشيخ الملوى والحفنى والشيخ عيسى البراوى، وبرع فى المعقول والمنقول، ودرّس وأفاد وانتفع به الطلبة، وكان درسه حافلا، وله حظوة فى كثرة الطلبة والتلاميذ. توفى سنة إحدى وثمانين وماية وألف أيضاً.

٣٠٥ حسن جوجو بك وجن على بك.

[ومات] الأمير حسن بك جوجو، وجن على بك وهما من مماليك إبراهيم كتخدا، وكان حسن مذبذباً ومنافقاً بين خشداشينه يوالى هؤلاء ظاهرا وينافق الآخرين سراً، وتعصب مع حسين بك وخليل بك حتى أخرجوا على بك إلى النوسات، ثم صار يراسله سراً ويعلمه بأحوالهم وأسرارهم، إلى أن تحول إلى قبلى وانضم إلى صالح بك فأخذ يستميل متكلمى الوجاقلية إلى أن كانوا يكتبون لأغراضهم بقبلى، ويرسلون المكاتبات فى داخل أقصاب الدخان وغيرها، وهو مع من بمصر فى الحركات والسكنات إلى أن حضر على بك وصالح بك وكان هو ناصبا وطاقه معهم جهة البساتين، فلما أرادوا الارتحال استمر مكانه وتخلف عنهم، وبقى مع على بك بمصر يشار إليه ويرى لنفسه المنة عليه، وربما حدثته نفسه بالإمارة دونه، وتحقق على بك أنه لا يتمكن من أغراضه وتمهيد الأمر لنفسه مادام حسن بك موجوداً، فكتم أمره وأخذ يدبّر على قتله، فبيت مع أتباعه محمد بك وأيوب بك وخشداشينهم، (ص٧٣٣) وتوافقوا على اغتياله، فلما كان ليلة الثلاثاء ثامن شهر رجب حضر حسن بك المذكور وكذا خشداشه جن على

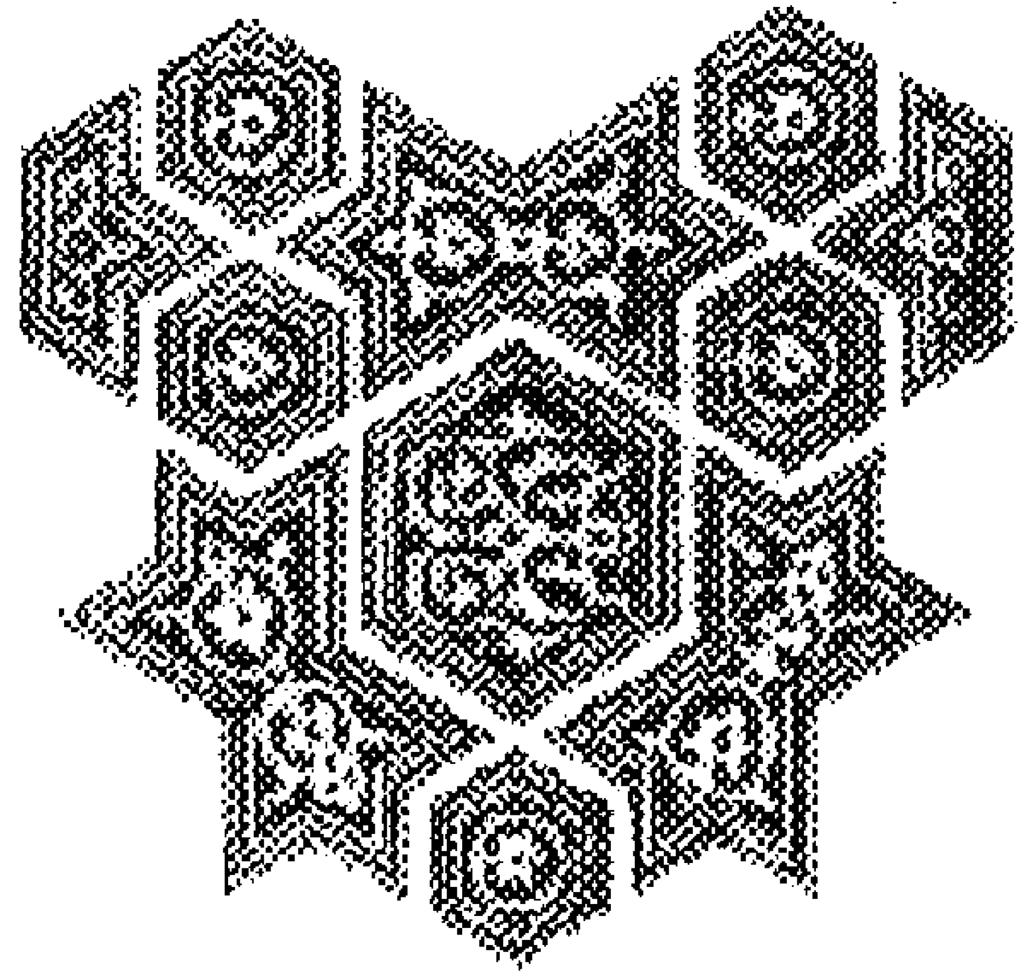
بك وسَمَرا معه حصة من الليل، ثم ركبا فركب صحبتهما محمد بك وأيوب بك ومماليكهما واغتالوهما فى أثناء الطريق كما تقدم.

٣٠٦ رضوان جربجى الرزاز.

[ومات] الأمير رضوان جربجى الرزاز وأصله مملوك حسن كتخدا ابن الأمير خليل أغا، وأصل خليل أغا هذا شاب تركى خردجى يبيع الخردة* ، دخل يوما من بيت لاجين بك الذى عند السويقة المعروفة بسويقة لاجين وهو بيت عبد الرحمن أغا المتخرب الآن، وكان ينفذ من الجهتين فرآه لاجين بك فمال قلبه إليه ونظر فيه بالفراسة مخايل النجابة فدعاه للمقام عنده فى خدمته فأجاب لذلك، واستمر فى خدمته مدة وترقى عنده، ثم عينه لسد جسر ثرساح ووعده بالإكرام إن هو اجتهد فى سده على ما ينبغى فنزل إليه وساعدته العناية حتى سده وأحكمه ورجع، ثم عينه لجبى الخراج وكان لا يحصّل له الخراج إلا بالمشقة، وتبقى البواقى على البواقى القديمة فى كل سنة، فلما نزل وكان فى أوان حصاد الأرز فوزن من المزارعين شعير الأرز من المال الجديد والبواقى أول بأول، وشطب جميع ذلك من غير ضرر ولا أذية، وجمعه وخزنه، واتفق أنه غلا ثمنه فى تلك السنة غلواً زايدا عن المعتاد فباعه بمبلغ عظيم ورجع لسيده بصناديق المال، فقال «ما هذا؟» فقال هو «مالك الذى أرسلتنى لإحضاره» وعرفه الأمر، فقال «لا آخذ إلا حقى وأما الربح فهو لك» فأخذ قدر ماله وأعطاه الباقى، (ص٧٣٤) فذهب واشترى لمخدومه جارية مليحة وأهداها له فلم يقبلها وردها إليه وأعطى له البيت الذى بالتبانة، ونزل له عن طصفة وكفرها ومنية تمامه، وصار من الأمراء المعدودين، فولد

* الخردة: بضم الخاء وسكون الراء كلمة فارسية تدل على ما صغر وتفرق من الأمتعة والمقصود هنا الخردجى هو بائع الخردة.

الخليل هذا حسن كتخدا ومصطفى كتخدا، كانا أميرين كبيرين معدودين بمصر، ومماليكه صالح كتخدا وعبد الله جربجى وإبراهيم خربجي وغيرهم ومن مماليكه حسن حسين جربجي المعروف بالفحل ورضوان جربجى هذا المترجم وغيرهما أكثر من المابة أمير وكان رضوان جربجى هذا من الأمراء الخيرين الدينين له مكارم أخلاق وبر ومعروف، ولما نفى على بك عبد الرحمن كتخدا فنفاه أيضا وأخرجه من مصر ثم إن على بك ذهب يوما عند سليمان أغا كتخدا الجاويشية فعاتبه على نفى رضوان جربجى فقال له على بك «تعاتبنى على نفى رضوان ولا تعاتبنى على نَفى ابنك عبد الرحمن كتخدا؟» فقال «ابنى المذكور منافق يسعى في إثارة الفتن ويلقى بين الناس فهو يستاهل، وأما هذا فهو إنسان طيب وما علمنا عليه ما يشينه في دينه ولا دنياه» فقال «نرده لأجل خاطرك وخاطره» ورده ولم يزل فى سيادته حتى مات على فراشه سادس جمادى الأولى فى هذه السنة، والله سبحانه وتعالى أعلم.



(١) كشكش: وجدناها مضبوطة بكسر الكافين فى المقال الذى كتبه الأستاذ [هولت ـ Holt] فى مجلة التاريخ المعاصر [History To-day] فى عدد يناير ١٩٥٩ صفحة ٤٨ ولكنها مضبوطة فى الطبعة الفرنسية لكتاب تاريخ الجبرتى بفتح الكافين.

(٢) قندية: كانت تسمى قديماً (هرقليون) ويسميها الإنجليز الآن (Candia) والفرنسيون (Candie) وهى من مدن الساحل الشمالى لجزيرة كريت.

(٣) كان رق المماليك ينتهى بتدريبهم على فنون القتال، واعتناقهم الدين الإسلامى، وتعلمهم اللغة التركية. وهى لغة الطبقة الحاكمة. فإذا أتم المملوك كل هذا سمح له بإرخاء لحيته، والالتحاق بأحد الفرق العسكرية الرسمية، وبذلك يدخل فى عداد الطبقة الحاكمة.

(٤) عبد الرحمن كتخدا: انظر ترجمته رقم ٣٩٩ فى هذا الجزء

(٥) حسن بيك جوجو وجن على بيك: ورد اسم حسن بك جوجو عند الجبرتى عند ذكره لحادثة اغتياله هو وجن على بك فى ليلة الثلاثاء ١٨ من رجب سنة ١١٨١هـ = نوفمبر ١٧٦٧م، كما يورد الجبرتى ترجمة للأمير حسن بيك جوجو وخشداشه جن على بيك (ذكرنا لها رقم ٣٠٥)، فيذكر أن حسن بيك كان مذبذبا ومنافقا، وكان يكيد لعلى بيك حتى تسبب فى نفيه، ثم صار يراسله سرا ويعلمه بأحوال منافسيه من الأمراء حتى مكنه من العودة إلى القاهرة والتغلب على منافسيه. وبقى مع على بيك يشار إليه ويرى لنفسه المنة عليه، وتحقق على بك أنه لا يتمكن من تحقيق أغراضه وتمهيد الأمر لنفسه إلا بعد القضاء عليه، فتم له ذلك.

(٦) النوسات: قريتان من القرى القديمة تتبعان مركز أجا بمحافظة الدقهلية، وهى نوسا البحر ونوسا الغيط، تقع الأولى على فرع دمياط مباشرة، والثانية فى وسط الأراضى الزراعية.

(٧) أرباب العكاكيز: كان المحاربون القدماء من رجال الوجاقات يطلق عليهم (أرباب العكاكيز) لأنهم كانوا يحضرون الاحتفالات وفى أيديهم العكاكيز وهى عصى ذات حديد فى أسفلها وكانوا يعملون فى جباية الضرايب من الاقاليم مقابل معاشا ويضربون المتأخرين فى سداد ديونهم بعكازهم لكى يدفعوا جزيتهم واموالهم عن يد وهم صاغرون.

(٨) جماعة الفلاح: يذكر اسماعيل بن سعد الخشاب فى مؤلفه «أخبار أهل القرن الثانى عشر» أن أصل جماعة الفلاح رجل يقال له صالح الفلاح، وكان أصله صبى حريم فى منزل سليمان كتخدا القازدغلى، ثم أنه استفاد أموالا كثيرة، فاشترى منها مماليك كثيرة وأدخلهم فى سلك الوجاقات، فانتشر صيتهم وكثرت اتباعهم، وذلك فى مدة حياة سيدهم المذكور.

(٩) البرهامية: أو البراهمة: نسبة إلى الولى ابراهيم الدسوقى صاحب هذه الطريقة. توفى سنة ٦٧٦هـ = ١٢٧٧م. وله مسجد ومقام يزار بمدينة دسوق من مراكز محافظة كفر الشيخ.

(١٠) عبد الله الإدكاوى: ترجم له الجبرتى فى وفيات سنة ١١٨٤هـ. رقم ٣٢٧

(١١) جامع الحبشلى: هذا الجامع بدرب سعادة على رأس عطفة النيوبة بباب الخلق.

الحالة الاجتماعية
فى فترة الاحتلال العثمانى

ظهر فى هذا العصر شراب القهوة . وقد قيل إن أول من اهتدى إليه هو أبو بكر بن عبد الله المعروف بالعيدروس. وكان أصل اتخاذه له أنه مر فى سياحته بشجر البن فاقتات من ثمره حين رآه متروكا مع كثرته. فوجد فيه تجفيفا للدماغ، واجتلابا للسهر، وتنشيطا للعبادة . فاتخذه قوتا وطعاما وشرابا. وأرشد أتباعه إليه. ثم نشر ذلك فى اليمن والحجاز ومصر. وقد جاء أبو بكر إلى مصر سنة ٩٠٥هـ، فكما أن الصوفية هم الذين أدخلوا مادة الحشيش المخدرة إلى مصر فى أوائل القرن السابع للهجرة، وأشاعوا استعمالها بين المصريين، كذلك أدخلوا شراب قهوة البن إلى مصر فى أوائل القرن العاشر.

وكما اختلف المصريون فى الحشيش ، وهل هو حلال أم حرام؛ اختلفوا كذلك فى أمر القهوة. فذهب قوم إلى تحريمها لما فيها من الضرر. وخالفهم آخرون ومنهم المتصوفة، وقالوا بإباحتها لأنها ليست مسكرة ولامغيبة. وإنما فيها تنشيط النفس لأشغالها وما يطلب منها، وخصوصا فى سهر العبادة أو قراءة القرآن، أو دراسة علم، أو تحصيل معاش. فإن قصد بها الإعانة على شيء من ذلك كانت قربة عند الله تعالى .

أما الذين حرموها فقد استندوا إلى أنها عند شربها بطقوس كالتى تحاط بها كتصفيق شاربها، وإنشاد أشعار الغزل والحب، ووصف الخمر، فان ذلك يفسد النفوس وبخاصة إذا صحبها مخدر مثل الحشيش ، وخبز الغراب، والأفيون. ولأن المقاهى تجمع الأراذل الذين يروجون الأكاذيب ويغتابون الناس، ويلعبون الشطرنج وألعاب الميسر. وأنكروا على رجال الدين ذهابهم إلى المقاهى ورأوا أن ذلك يخل بالمروءة ويسقط الشهادة ويدنس العرض.

وقد ألف المتعصبون لها الرسائل فى بيان فضائلها ومنافعها. وذكروا أن شجرة البن فى الجنة غرسها سبعون ألف ملك، وتسمى شجرة السلوان، لأنها خرجت مع آدم ليتسلى بها عما فاته من النعيم المقيم. وقالوا إن مداومة أكل البن يقوى النظر والفهم، ويصفى الذهن، ويشرح الصدر، ويزيل الهم ويطيب النكهة، ويقطع البلغم، ويدفع الجدرى والحصباء والسحر. وفى أكل سبع حبات منه دعوة مستجابة، لأن فيهاه «بسم الله الرحمن الرحيم» .

وقد زار الرحالة المغربى أبو بكر العياشى مدينة القاهرة ١٠٣٧ هـ فقال «.. ثم دخلنا لزيارة الشيخ ابراهيم الميمونى ـ رضى الله عنه ـ ومنزله قرب الجامع ـ يعنى الجامع الأزهر ـ وقدم لنا طعاما حسنا وكنا جماعة. وهذا خلاف المعتاد من أهل مصر، وإنما يتكارمون بينهم بشراب البن الذى يسمونه القهوة. ونحن لا نعرفها وليست عندنا بطعام ولا دواء ولا شهوة. والكلام فيها من حيث الحكم بالإباحة وعدمها طويل عريض، معلوم شهير نظما ونثرا» «وأكثر العلماء مائلون فيها إلى الإباحة. وترشح قولهم بفعل أكثر الصوفية مع تورعهم فى المطاعم والمشارب، زاعمين أنها تعين على السهر فى العبادة ، ويستعين بها الطلبة كثيرا فى المطالعة الليلية. ولا شك أنها تزيل ما يحصل فى الرأس من لدويخ بسبب السهر، أو خلو المعدة صباحا. فإذا شربها الإنسان وجد فى أعضائه نشاطا، وأحس بخفة فى رأسه، وهذا فى الغالب لمن اعتادها. وهى مخففة اتفاقا وهاضمة . وصحح بعض العلماء أنها تحرم على من طبعه السوداء، وتكره لمن طبعه

الصفراء وهي نافعة لصاحب البلغم. وغيرها من أنواع المطعومات كذلك يحرم تناول ما يضر منها على من علم أنه يضره. ولا يكون ذلك موجبا للحكم بتحريمها».

«والحاصل أن الشاربين لها فريقان: فريق يشربونها فى أماكن معدة لذلك مزخرفة ، قلما تخلو من لهو وحضور من لا يحل حضوره من الجوارى والمرد. فهؤلاء الحامل لهم على شربها اتباع الأهواء والتلذذ بما قارفها من الأمور المذمومة. فلا يبعد أن يقال إنها فى حق هؤلاء محرمة، لا لذاتها بل لما قارفها».

«وفريق يشربونها فى سكنهم أو حوانيتهم ، أو يشربونها فى السوق. ويشربونها من غير جلوس مع الفريق الأول. فهؤلاء الحامل لهم عليها إلفهم لها حتى إنهم ربما يتضررون ضررا خفيفا بتركها كما يتضرر من ألف الحجامة بتركها. ومن ألف شرب العسل المسهل بتركه وغير ذلك من الأمور التى يعتادها الناس. ويحملهم عليها أيضا تحصيل المنافع المتقدمة من الاستعانة على السهر ومن إزالة التدويخ صباحا».

«وغالب ما يستعملونها مع طعام خفيف من كعك أو كسر خبز، فيكفيهم ذلك إلى وقت الغداء. هذا كله مع خفة المئونة، ولامقارفة إدام أو ملح أو أبزار أو خضر أو غير ذلك مما يحتاج إليه غالب الأطعمة».

«ويزاد على ذلك وهو أكبر منافعها عندهم أنها تقوم مقام الغذاء للضيف بحيث لا يستحى أحد فى تقديمها للباشا فمن دونه. ويقوم ذلك عندهم مقام ما يتكلفه المرء عندنا من أطعمة كثيرة تبلغ قيمتها في بعض الأحيان دينارا فأكثر . ودرهم واحد يقوم مقام دينار لا يكرهه أحد. بل لو قدم أى طعام لم تكن معه فكأنه لم يقدم شيئا ، وإن قدمت هى كفت».

* * *

وقد ساهم الشعراء فى هذه المعركة بنصيب، فنظموا القصائد والمقطوعات فى مدح القهوة والإشادة بمزاياها. ومن هؤلاء ابراهيى بن المبلط، وكان موجودا سنة ٩٩١هـ قال:

ياعائبا لشراب قهوتنا التى
تشفى شفاء النفس من أمراضها
أو ما تراها وهى فى فنجانها
تحكى سواد العين وسط بياضها؟

وقال آخر:

للبن سر قد حكته شيوخنا
يا نعم منه كلهم أقطاب
فيهم تقول وقد تكامل وصفه
فى أكله نفع وفيه ثواب

وقال محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤هـ

وقهوة بن تورث اللب قسوة
ومن عجب والقشر أصل وعنبر
ومهما أرادت عصبة منع شربها
ترى أمرها يعلو ويقوى ويظهر
وأعجب منها قول من ضل رأيه
بل عرف الحق الصراح وينكر
يكابر فيها الحق والله شاهد
فيزعم فيها أنها الحسّ تسكر
تحقق فيها النفع لاسيما لمن
عن الجِدّ فى فعل العبادة يَفْتُر

وبقيت مشكلة تحريم القهوة وتحليلها بين علماء

مصر مدة من الزمن ولكن لم ينته القرن العاشر حتى انعقد الإجماع على تحليلها. وفتحت المقاهى فى أحياء القاهرة، وأخذ أصحابها يتنافسون فى اجتذاب الناس. فكان منهم من يستأجر القصاص ليقصوا الحكايات المشوقة، والقصص المعجبة وبخاصة سير الأبطال والمغامرين. فظهرت فى ذلك الوقت سيرة الظاهر بيبرس وهى قصة طويلة امتازت بخيال ووقائع طريفة، فضلا عن أنها تصور حياة المجتمع المصرى أحسن تصوير ، وتسجل كثيرا من عاداته وأخلاقه.

وظهرت قصة أخرى هى سيرة الأميرة ذات الهمة. وبعض قصص صغير مثل «الدرة المكللة فى فتح مكة المبجلة» و «غزوة الإمام على مع اللعين الهضام بن الجحاف» و «فتوح اليمن المعروفة برأس الغول» وغير ذلك مما عسى أن يكون قد ضاع.

وتضخمت قصص كانت معروفة من قبل مثل سيرة أبى زيد الهلالى، وسيرة عنترة العبسى، وسيرة سيف بن ذى يزن، وقصة ألف ليلة وليلة. ويتخلل هذه القصص شعر تقرب لغته العامية ينشده القاص مع أعوانه تنشيطا للسامعين، ولكل قصة كبيرة طائفة من الناس اختصوا بسردها على الجماهير. فكانت هناك طائفة الظاهرية ، والعنترية ، والهلالية واليزلية، وهكذا.

وإلى جانب القصاص كانت هناك طوائف المنشدين الذين ينشدون الأشعار والأزجال والموشحات متخذين آلات الطرب كالربابة والعود فراجت سوق الأدب الشعبى رواجا عظيما.

وقد كثر فى هذا العصر انتشار المواد المخدرة وبخاصة الحشيش وأنواع السطل، وانتشرت قصص الحشاشين ونوادره وفكاهاتهم. وألف بعضهم فى ذلك رسائل وفصولا فيها ما يدل على قوة الخيال وخفة الروح التى اشتهر بها المصريون حتى فى عصور المحن والشدائد.

* * *

وفى هذا العصر انتشر الدخان الذى ظهر لأول مرة سنة ١٠١٢ هـ كما ذكر الإسحاقى فى تاريخه. وهو مؤرخ معاصر لا شك فى صدقه.

وقد ذكر لنا رأيه فى الدخان فقال : «إن الدخان مضر بالأبدان، وهو يابس الطباع، لا شىء فيه من الانتفاع، مبطل لحركة الجماع، مسود للأسنان، مهرب لملائكة الرحمن. وعاقبته وخيمة ، ومداومة شربه ذميمة، يورث النتن فى الفم والمعدة، ويظلم البصر، ويطلع بخاره على الأفئدة. ومن زعم أن شربه محرق للبلغم فقد أخطأ فيما زعم، وقوله فى ذلك غير صحيح. ولو لم يكن من دناءته إلا ولوع السودان به والأجلاف لكان فى ذلك ما يكف عنه الأشراف».

ولم يكن شأن الدخان كشأن القهوة، فقد تمسك كثير من فقهاء المسلمين بتحريمه. ومازال المسلمون فى اختلاف من أمره.

وكانت تصدر أحيانا أوامر بمنع تعاطيه جهارا. فقد ذكر الجبرتى فى حوادث سنة ١١٥٦هـ أن الوالى العثمانى أصدر أوامر بمنع شرب الدخان فى الشوارع وعلى الدكاكين وأبواب البيوت، ونزل معه الأغا ونادى بذلك وشدد فى الإنكار والنكال بمن يفعل ذلك، وأخذ الأغا يمر ثلاث مرات فى اليوم، وكل من رأى فى يده آلة الدخان عاقبه، وربما أطعمه الحجر الذى يوضع فيه الدخان بما فيه من النار.

وقد تعصب المتصوفة للدخان كما تعصبوا للقهوة والحشيش من قبل. ونظم بعض الشعراء شعرا فى ذلك ، نذكر منه قول أبى المواهب البكرى

المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ:

هات اسقنى التبغ إن تبغ الصفا سحرا
حتى أُخَدِّر منه وهو إغشاء
واستجل أنوار شمع من يدى رشا
قدزانه قامة بالحسن هيفاء
لعل نار أسى بالبعد قد وقدت
يوما يكون لهابا بالقرب إطفاء
فاملأ كئوس رحيق كالحريق فقد
أغنتك إذ وصفت باللطف صهباء
ودع ملام طبيب عابها سفها
ودواني بالتي كان هي الدا

ولم تكن لفائف التبغ قد عرفت فى ذلك الوقت، وإنما كان يوضع الدخان فى الأحجار التى مازالت تتخذ في النارجيلة. ولذلك ذكر الشاعر النار والكئوس ويعنى بها الأحجار، كما ذكر الساقى الذى ناوله هذه النارجيلة وتغزل فيه على عادة شعراء الخمر

***



الحالة الفكرية

ساد فى هذا العصر مذهب أهل السنة ، وهو المذهب الذى عرفته مصر منذ سقوط الخلافة الفاطمية. وكانت آراء الأشعرى هى المعتمدة عند غالبية رجال الدين. والانحياز إلى آراء الأشعرى يقتضى مهاجمة المعتزلة الذين قل وجودهم فى العالم الإسلامى إبان العصر الذى ندرسه، ولكن كتبهم كانت معروفة . فأخذ أشاعرة تلك الأيام على عاتقهم مهمة الرد على ما جاء فى هذه الكتب. وأكثر ما ظهر هذا فى دراستهم لكتب التفسير وبخاصة الكشاف للزمخشرى. فكانوا يحملون عليه إذا تناول شيئا يتعلق بالاعتزال. أما إذا تكلم فى النحو والبلاغة فهو عندهم الصادق المصدق، والإمام المحقق. فهم يأخذون من القدماء ما وافق عقائدهم ويرفضون ما خالفها. ويمدحون كل من يعرض بالمعتزلة بحق وبغير حق. وإلى جانب تفسير الزمخشرى فإنهم كانوا يدرسون تفسير البيضاوى والفخر الرازى ويقفون منهما الموقف المتقدم. وألفوا رسائل فى الإيمان، وهل هو بمشيئة الله أم لا؟ نذكر من هذا «رسالة في الإيمان وكونه مخلوق أو غير مخلوق» للشهاب الخفاجى ، و «رسالة فى الإيمان، وهل يكون بمشيئة الله أم لا؟» له . و «رسالة الجواهر المضيئة فى تجويز إضافة الإيمان الجازم إلى المشيئة» لأبى الحسن البكرى المتوفى سنة ٩٥٢هـ «رسالة فى كلام الله، وهل هو مخلوق أو غير مخلوق؟» له. و «رسالة الدر النظيم فى تحقيق الكلام القديم» لأحمد الجوهرى المتوفى سنة ١١٨٢هـ، و «رسالة فى تحقيق الجزء الاختيارى» له، و «رسالة الفطرة السليمة فى تحقيق دلالة القرآن على الصفة القديمة» له أيضا. وعلاوة على ذلك فإنهم كانوا يتناولون هذه الموضوعات من خلال شرحهم للقرآن وتفسيرهم للحديث، وفى الحواشى والتعليقات التى وضعوها على بعض الكتب. ولكنه فى نفس الوقت نجد أنه قد جاء بهاء الدين العاملى إلى مصر سنة ٩٩٢هـ وألف بها كتاب «الكشكول» وضمنه مطاعن كثيرة فى آراء الأشعرية، وانتصار للمعتزلة الذين كان ينتمى إليهم.

* * *

وقد اتخذت السلطنة العثمانية المذهب الحنفى مذهبا رسميا لها. فألفت كتب كثيرة فى مناقب أبى حنيفة النعمان، مثل «عقود الجمان فى مناقب أبى حنيفة النعمان» تأليف محمد بن يوسف من فقهاء القرن العاشر. و «الخيرات الحسان فى مناقب أبى حنيفة النعمان» لابن حجر الهيثمى المتوفى سنة ٩٧٤هـ ومع أنه شافعى المذهب إلا أنه سخر قلمه فى خدمة سياسة الدولة العثمانية . و «أعلام الأخيار من فقهاء مذهب النعمان المختار» تأليف محمود بن سليمان المتوفى سنة ٩٩٠ هـ و «الكلمات الشريفة فى تنزيه أبى حنيفة من الترهات السخيفة» لمصطفى بن نوح المتوفى سنة ١٠٧٠هـ و «عقود الجواهر المنيفة فى أدلة مذهب أبى حنيفة » لمرتضى الزبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ إلى غير ذلك.

وكان بعض أتباع المذاهب الأخرى يؤلفون كتبا فى الطعن على أبى حنيفة . وقد أشار إلى ذلك محمد بن يوسف فى مقدمة كتاب «عقود الجمان» كما أشار ابن حجر الهيتمى إلى الطاعنين على أبى حنيفة فى كتابه «الخيرات الحسان».

وعلى كل حال فإن المصريين رفضوا أن يجتمعوا على المذهب الحنفى على الرغم من

الدعاية التى روجها العثمانيون لهذا المذهب ، وعلى الرغم من إيثارهم الأحناف للوظائف القضائية. وتمسك قسم كبير من المصريين بمذهب الشافعي، لأن صاحبه مدفون بالقاهرة، وله ضريح كان الناس ومازالوا يزورونه متبركين . وبقى مذهب مالك كما كان من قبل. وساعد على ذلك وفود المغاربة إلى القاهرة، وهؤلاء معروفون بتمسكهم بالمذهب المالكى. أما الحنابلة فكانوا قلة. ومما هو جدير بالذكر أن المصريين منذ وجدت الدراسات الفقهية فى مصر، أظهروا ميلا شديدا إلى مذهب مالك. ولما جاء الشافعي إلى القاهرة انتشر مذهبه . أما مذهب أبى حنيفة فكان قليلا . ومذهب ابن حنبل كان نادرا.

وإن فكرة توحيد الأحكام فكرة سليمة جدا، ولكن المجتمع المصرى حرم من هذه الميزة. ولذلك كان الناس يعانون فى عباداتهم ومعاملاتهم حيرة واضطرابا، وقد صور لنا الشعرانى فى كتابه «كشف الغمة عن جميع الأمة» هذه الحيرة فقال «... وبعد، فقد شكا إلى مرارا بلسان الحال وبلسان المقال جماعات من الفقراء المتعبدين وأهل النافعة من المؤمنين ما يجدونه فى نفوسهم من كثرة الغم حين يسمعون العلماء يقرأون مذاهبهم وينصرون أقوالها دون مذاهب غيرهم. وقالوا لى : قد التبس علينا شرع ربنا الذى تعبدنا به، وعسر علينا تمييزه، وازدرانا لجلهنا غالب الذين لم نتقيد بمذهبهم. فإن توضأنا على مذهب قال لنا أهل المذهب الآخر: وضوءكم باطل وإن صلينا على مذهب قالوا : صلاتكم باطلة وإن زكينا قالوا : زكاتكم باطلة. وإن صومكم قالوا صومكم باطل. وهكذا فى سائر عباداتنا . وما نعرف الحق مع أيهم حتى نقتصر عليه. وقد أورث ذلك عندنا الحيرة والشك» واستطرد الشعرانى فذكر أنه ألف هذا الكتاب معتمدا على كتب الحديث الموثوق بها. وأورد معظم أدلة المجتهدين معتقدا أنه بهذا الكتاب يستطيع أن يقضى على الحيرة والشك، وأنه قادر على جمع المصريين على كتابه ، ولكن غرضه لم يتحقق لان السلطنة العثمانية كانت ترى فى توحيد المذاهب فقدان لسطوتها ويكفيها أن يكون لها اتباع على مذهبها (الذى يدين به معظم العثمانية) لتدعم الفرقة عملا بمبدأ «فرق تسد» وهى فى سبيل ذلك كانت تدعم أتباع مذهبها بالوظائف والاقطاعات والاوقاف والاموال.

* * *

وظهر فى هذا العصر كثيرون من كبار الفقهاء الذين كسبوا شهرة واسعة فى العالم الإسلامى ، وسعى إليهم طلاب العلم من الآفاق.

فمن فقهاء المذهب الحنفي : أحمد بن محمد الشوبرى المتوفى سنة ١٠٦٦ هـ الذى لقب بأبى حنيفة الصغير . وقد أخذ عنه جميع علماء الحنفية فى ذلك الوقت من أهل مصر والشام. ووصفه بعضهم بقوله «قرة عين الإمام الأعظم وصاحبيه، ومن انتهت رياسة الحنفية بالقاهرة المعزية إليه».

ومن فقهاء الشافعية : محمد بن أحمد الملقب بشمس الدين الرملى، المتوفى سنة ١٠٠٤ هـ وقد اشتهر بالشافعي الصغير. وزعم بعضهم أنه مجدد القرن العاشر، وبالغوا فى مدحه. وهو كما يقول صاحب خلاصة الأثر «أستاذ الأستاذين، وأحد أساطين العلماء وأعلام تحاريرهم، محيى السنة ، وعمدة الفقهاء طار صيته فى الآفاق. فرحل إليه طلبة العلم ، وأقبل الناس على قراءة كتبه».

ومن المالكية : سالم بن محمد السنهورى المتوفى سنة ١٠١٥ هـ كان كما ذكر المحبى «أجل

أهل عصره غير مدافع ، وأخذ عنه الجم الغفير من أهل مصر والشام والحرمين».

والآن يحق لنا أن نتساءل : إلى أى مدى جدد هؤلاءالعلماء فى الفقه؟ وهل أضافوا شيئا جديدا إلى مادته؟

الواقع أنهم لم يأتوا بجديد، لأن المذاهب الفقهية كانت نضجت واكتملت على أيدى من سبقهم من العلماء، ولكنهم استوعبوا هذه المذاهب وفهموها فهما جيدا، وتمثلوها إلى حد بعيد حتى أصبح كل منهم عالما متبحرا فى مذهبه ، محيطا بدقائقه إحاطة تامة، قادرا على شرح ما عسى أن يكون غامضا منه. وهذه ميزات ليست يسيرة أضف لهذا أن لغتهم فى الشروح التى وضعوها كانت محاولة للخروج من أسر لغة التراث التى كتبت بها المخطوطات الاصلية للمذاهب الفقهية والتى لم يعد يفقها عامة الدارسين والطلاب.

وكان الجامع الأزهر معهدا عاما تدرس فيه جميع العلوم المتصلة بالدين كالتفسير والحديث وفقه المذاهب الأربعة، والنحو والبلاغة والمنطق والرياضيات. وبه أروقة لمختلف أجناس الطلاب. وله أوقاف طائلة ، وبه مكتبة ضخمة. والدراسة فيه منتظمة لا تكاد تنقطع طوال اليوم. والطلاب يلتفون حول أساتذتهم فى شكل حلقة ذات صفوف . فيجلس بالقرب من الأستاذ الأفضل، ويليه الأقل فالأقل. وهذه الصفوف تسمى طبقات . فيقال فلان من أهل الطبقة الأولى، أو الثانية ، أو الثالثة ، وهكذا . وبعض المدرسين يتخذون ملاحظا يتولى إجلاس الطلاب كل فى مكانه. وقد يعهد بهذا إلى أحد طلبته. ولبعضهم معيدون يتولون إعادة ما ألقاه الأستاذ على الطلبة.

ومن وظائف الأزهر المتصلة بشئون التعليم؛ وظائف مشايخ الأروقة، وكانت موضوعا للتنافس.

وشيخ الأزهر يعين بعد أخذ رأى علمائه وتراعى فيه الكفاءة والمقدرة والاستقامة بغض النظر عن مذهبه. وقد بلغ بعضهم منزلة رفيعة عند الحكام، وعاشوا عيشة الأمراء فى مسكنهم وملبسهم ومأكلهم.

وقد أنشأ محمد بك أبو الذهب سنة ١١٨٧هـ معهدا عاما أنفق عليه أموالا طائلة، وعين به عددا كبيرا من أساتذة الأزهر، وجعل به مكتبة تحوى عددا كبيرا من الكتب النفيسة، كان من بينها «شرح القاموس المحيط» للزبيدى ، وهى النسخة الخطية التى كتبت فى حياة المؤلف. ورصد له الأوقاف اللازمة للإنفاق على المدرسين والطلبة. ولكن هذا المعهد خرب بعد وفاة منشئه بسبب نهب اتباعه للاوقاف التى كانت مرصودة عليه.

وكانت هناك معاهد خاصة بكل مذهب عدا المذهب الحنبلى لعدم إقبال الناس عليه، فلم يدرس فى غير الأزهر . ولبعض هذه المدارس الخاصة شهرة لا تقل عن شهرة الأزهر، ولها احترام كبير.

فمن هذه المعاهد : المدرسة الخشابية بجوار الإمام الشافعى. ولا يعين بها إلا أعظم علماء الشافعية. وهى مختصة بتدريس فقه الشافعى. وكذلك المدرسة الصلاحية وهى بجوار الخشابية . وهاتان المدرستان من أقدم مدارس القاهرة. وكان للشافعية مدرسة أخرى بجوار الأزهر؛ هى المدرسة الطيبرسية.

وللأحناف مدارسهم الخاصة كذلك، وأشهرها الصرغتمشية والسنالية والأشرفية ؛ والمؤيدية . ولهم بحي الصليبة مدرستان : إحداهما اسمها البرقوقية والأخرى اسمها الباسطية.

وعلاوة على ما تقدم فإن كثيرا من مساجد القاهرة والأرياف كان يتخذ أمكنة للدراسة . فإذا اشتهر عالم في جهة من الجهات، وأراد أن ينفع الناس بعلمه ، ذهب إلى أقرب مسجد واشترى وظيفة الوعظ والتدريس وعقد الدرس فيقبل عليه الناس نظرا لشهرته وقد كان مرتضى الزبيدى يدرس صباحا في مسجد شيخون لقربه من منزله. ويدرس بعد الظهر في مسجد الحنفي. وكانت دروسه مجمعا للطلاب بل ولعلماء الأزهر أنفسهم، ولبعض الأمراء والأعيان.

وكانت للاسكندرية مدارسها. واشتهر في دمياط جامع البحر، وفي طنطا جامع أحمد البدوى وبخاصة بعد أن جدده على بك الكبير، وزوده بمكتبة، ورصد له أوقافا ، وخصص الطعام والكساء لطلبته. وفي دسوق جامع ابراهيم الدسوقي. وفي منوف معهد درس فيه كثير من العلماء. واشتهرت جرجا وفرشوط بمدارسهما وعلمائهما وأدبائهما وشعرائهما. وقد زار مرتضى الزبيدى مدينة فرشوط ونزل عند حاكمها شيخ العرب همام الذى أكرم وفادته، ومدحه بعض شعرائها.

والكتاتيب منتشرة في كل مكان. وكان طلاب الأقاليم يحضرون إلى الأزهر لاستكمال علومهم.

وكان الأطفال في هذه الكتاتيب يتعلمون القراءة فقط. أما الذين يتعلمون الكتابة فكانوا قلة ضئيلة. وهكذا تفشت الأمية على الرغم من وجود الكتاتيب في كل مكان.

ونجد في هذا العصر تساهلا كبيرا في منح الإجازات العلمية ففي العصور الأولى كان طالب الأجازة يلازم أستاذه مدة طويلة، يحفظ فيها كل ما يسمعه من الأستاذ الذى لا يمنحه الإجازة إلا بعد تدقيق وتحقيق وامتحان. أما في العصر الذى ندرسه فكانت تعطى جزافا، إذ كان يكفي أن يقرأ الطالب أوائل كتاب أو كتابين مما يدرسه الأستاذ حتى ينال إجازة بجميع مروياته. وكثيرا ما أعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة. فكان العالم في القاهرة يبعث إلى طالب في مكة بالإجازة دون أن يراه أو يختبره. فيبدو أنهم يعتبروها رتبة فخرية. وشذ من هؤلاد العلماء محمد بن حسن بن جمال الدين الشافعي المتوفى سنة ١١٩٩هـ فقد ذكر الجبرتي «أنه كان صعبا في الإجازة، لا يجيز أحد إلا إذا قرأ عليه الكتاب الذى يطلبه الإجازة فيه بتمامه ولا يرى الإجازة المطلقة، ولا المراسلة، حتى إن جماعة من أهل البلاد البعيدة أرسلوا يطلبون منه الإجازة فلم يرض ذلك. وهذه الطريقة في مثل هذا الزمان عسرة جدا».

وقد ورثوا عن أسلافهم عادة التأنق في صياغة الإجازات. ولذلك أضيفت إلى أبواب الأدب نثرا كانت أو شعرا.

* * *

وإذا فرغ أحد الشيوخ من تدريس كتاب، أقيم لذلك حفل عظيم . وقد وصف لنا أبو بكر العياشي المغربي (في رحلته) الذى زار مصر سنة ١٠٢٠هـ حفلا رآه في الأزهر فقال «... فلما كان في يوم

تسعة وعشرين من الشهر ـ رمضان ـ ختم المشايخ دروسهم بختم الشيخ عبد السلام اللقاني بعد صلاة الصبح وعادتهم في الختم أن يحضر يوم الختم أنجب تلامذه المدرس وكبراء إخوانه. فإذا فرغ المدرس، قرأ القارئ آيات من القرآن بقراءة مطربة . ومنهم من يقرأها بالقراءات السبعة. وبعد فراغه ينشد منشد بصوت رخيم قصيدة من إنشاء بعض التلاميذ، فيها مدح النبي صلى الله عليه وسلم، والترضي عن مؤلف الكتاب المقروء، والدعاء للشيخ الذي يدرسه. ثم يقوم آخر ويثني على الله وعلى رسوله بثناء بليغ، ثم على آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه وتابعيهم بإحسان. ثم يترضى عن المشايخ أرباب المراتب. كل ذلك بنثر بديع ولفظ فصيح. ثم يقرأ الفاتحة ويهدى ثوابها إلى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم، وإلى من ذكر بعده . ويبالغ في الثناء عليهم إلى أن يصل إلى الشيخ المدرس فيدعو له وللحاضرين بأبلغ دعاء بقلب حاضر، وصوت خاشع، ويؤمن الحاضرون على دعائه، ثم يختم . وبعد هذا يقوم أهل المجلس كلهم ويصافحون الشيخ، ويدعون له ويدعو لهم، ويحضر الختم جمع عظيم من الناس وأهل الفضل والمجاذيب»

* * *

وكان بالقاهرة مدرسة للطب في المارستان المنصوري. وقد جاء إلى مصر في أوائل هذا العصر طبيب حاز شهرة واسعة، وهو داود الأنطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ وكان على درجة كبيرة من الثقافة، مستوعبا لكتب ابن سينا في الطب والفلسفة. فوضع عدة كتب في الطب أشهرها تذكرته التي ظلت موضع احترام طوال العصر العثماني. وطبعت بمصر عدة طبعات.

ودرس داود في المارستان المنصوري، وتخرج على يديه طلبه كثيرون اشتهر منهم أحمد بن سراج الدين المعروف بابن الصائغ الشيخ الرئيس، تولى مشيخة مدرسة الطب، وتوفي سنة ١٠٣٩ هـ فخلفته بنته.

ثم نبغ طبيب مصرى آخر؛ هو مدين بن عبد الرحمن القوصوني، كان موجودا سنة ١٠٤٤ هـ وهو من تلاميذ داود، ومن مؤلفاته في الطب قاموس الأطباء في المفردات.

واشتهر أحمد بن سلامة القليوبي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ وكان «في الطب ماهرا خبيرا، حسن التقرير، يبالغ في تفهيم الطلبة، ويكرر لهم تصوير المسائل».

وكان اليهود أكثر إقبالا على الاشتغال بالطب من المسلمين . قال داود الأنطاكي في مقدمة تذكرته: «... فإني حين دخلت مصر رأيت الفقيه الذي هو مرجع الأمور الدينية يمشي إلى أوضع يهودي للتطبب به، فعزمت على أن أجعله ـ الطب ـ كسائر العلوم، يدرس ليستفيده المسلمون. فكان في ذلك وبالي ونكد نفسي وعدم راحتي من سفهاء لازموني قليلا، ثم تعاطوا التطبب فأضروا بالناس في أموالهم وأبدانهم. وأنكروا الانتفاع بي، وأفحشوا في أفاعيلي».

وتعاطى الطب كذلك بعض الأقباط ولا سيما الرهبان.

وسبق أن ذكرنا أن عبد الرحمن كتخدا المتوفى

سنة ١١١٩هـ جدد المارستان المنصورى وزاد فى أوقافه. وقد ظل هذا المارستان المدرسة الوحيدة التى يدرس فيها الطب، كما كان المستشفى الحكومى الوحيد الذى تعالج به مختلف الأمراض حتى قيام محمد علي.

* * *

وكانوا يدرسون العلوم الرياضية التى عرفت من قبل. وأخذوا عن القدماء عادة خلط الحساب بالفرائض. ومن أنواع الرياضة التى درسوها: الجبر، والهندسة النظرية «إقليدس» والحيل «الميكانيكا» والفلك. واتخذوا المزاول لمعرفة الأوقات، والساعات التى كانت ترد عليهم من الخارج. وكان لبعض المساجد الكبيرة مؤقتون لتحديد أوقات الصلاة، يعرف الواحد منهم بالميقاتي.

إلا أن الإقبال على دراسة العلوم الرياضية كان قليلا جدا، فى حين أن الإقبال على العلوم الدينية كانت له الغلبة. وهذا يرجع إلى قانون العرض والطلب. فالمعروف أن الطالب يدرس ما يساعده على كسب رزقه وبخاصة إذا كان فقيرا. وقد كانت الوظائف المعروفة إذذاك وظائف كالمؤذن والإمام والخطيب والمأذون والشاهد والقاضى ونائبه، والمفتى والمحتسب والمدرس. وكان لوجود المذاهب الأربعة دخل فى هذه الكثرة التى لو وزعت على كل مذهب لم تكن شيئا. ثم إن رجل الدين كان محترما فى ذلك الوقت من الحكومة والشعب. أما الوظائف الحسابية فكانت فى يد الأقباط.

وفى هذه الحقبة لم يكن الناس كلهم يؤمنون بكرامات الأولياء، ويسلمون بما يدعونه لأنفسهم من القدرة التى لا حد لها ولكن الغالبية من رجال الدين كانوا عكس ذلك وقد صور الشعرانى موقف معاصريه المنكرين للأولياء فى مقدمة كتابه «الطبقات الكبرى» فقال: «.. فإذا مر عليه ولى من أولياء الله ينسبونه إلى الزندقة والجنون، وتراهم ينظرون إليه وهم لا يبصرون. فمنهم المنكر لكراماتهم، ومنهم المنقص لمقاماتهم، ومنهم الثالب لأعراضهم، ومنهم المعترضون على أحوالهم، ويخوضون بجهلهم فى مقالهم، وبهم يستهزئون..».

وقد ألف الشعرانى هذا الكتاب دفاعا عن الأولياء وما يأتون به من الكرامات والخوارق. وقال فى كتابه «لطائف المنن» «.. وفى عصرنا هذا جماعة من الصوفية العاملين، ربما يكون المنكر عليهم لا يصلح تلميذا لهم، كسيدى محمد ابن الشيخ أبى الحسن البكرى، والشيخ سليمان الخضيرى، والشيخ ناصر الدين الطبلاوى، والشيخ زين سبط على المرصفي. وقد عرضت هؤلاء على بعض المنكرين فقال: لا أعتقد فى واحد من هؤلاء إلا إن رأيت له كرامة، فقلت له: وأى كرامة أعظم من العلم والعمل؟! فلم يرجع إلى قولى وتركته» ولكن الشعرانى عرض بأهل عصره ممن يظهرون التصوف ويبطنون النصب والتدجيل فقال رسالته «تنبيه المغتربين» ما نصه: «... وقال لى الأمير محمد دفتردار مصر مرة: أنا لا أعتقد فى مشايخ مصر الآن ولو مشى أحدهم فى الهواء. فقلت: لماذا؟ فقال: لأنى رأيتهم يجتهدون فى طلب الدنيا أكثر مما نجتهد نحن فيها.» وقد دخل على شيخ منهم فى رمضان ليفطر عندى فقلت له: هذا الطعام عندى فى حله شك فلا تأكل منه فقال: قدمه لى وعلى حسابه فى الآخرة. فكيف أعتقد فى مثل هذا وأنا لا تطيب نفسى أن آكل منه مع أنى معدود من الظلمة؟!».

وبقيت هذه المناقشات بين المتعصبين للأولياء

وكراماتهم ، وبين المنكرين . فهذا عبد الرءوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ هـ يؤلف كتابا اسمه «إرغام أولياء الشيطان بذكر مناقب أولياء الرحمن» والمقصود بأولياء الشيطان هم المنكرون للأولياء وكراماتهم. ويرى المناوى فى طبقاته أن الولى «لا يبلغ درجة النبى، ولا تسقط عنه التكاليف بكمال الولاية كما ادعى بعض أهل الإلحاد والاتحاد، أن الولى إذا بلغ الغاية فى المحبة وصفاء القلب وكمال الإخلاص، سقط عنه الأمر والنهى، ولم يضره ذنب، ولا يدخل النار بارتكاب الكبائر.

وذلك باطل بإجماع المسلمين. ولا تكون ولاية غير النبى أفضل من النبوة بحال. وإنما الكلام فى ولايته ـ أى النبى ـ فقيل هى أفضل لما فيها من معنى التقرب وكمال الإخلاص وقيل بل نبوته لما فيها من الوساطة بين الحق والخلق. ثم إن ظهور الكرامة لا يدل على أفضلية ، وإنما هى بقوة الإيقان وكمال العرفان».

وقد كثرت الكتب المؤلفة لإثبات كرامات الأولياء ، نذكر منها «طبقات الشرنوبى» تأليف أحمد الشرنوبى المتوفى سنة ٩٩٤هـ و «الفتوحات الربانية فى مناقب السادة الخضيرية» تأليف مراد بن يوسف الأزهرى المتوفى سنة ١٠٣٠ هـ و «الماء الزلال فى إثبات كرامات الأولياء فى الحياة وبعد الانتقال لأحمد الجوهرى المتوفى سنة ١١٨٢هـ و «كنز السعادات فى الكرامات بعد الممات» لعبد الرحمن الأجهورى المتوفى سنة ١١٩٧ هـ و «السهم القوى فى نحر كل غبى ، فيمن ينكر كرامات الأولياء» للسجاعى المتوفى سنة ١١٩٧هـ وهذا غير ما ألفه الشعرانى والمناوى.

وفى سنة ١١٢٣ هـ حضر إلى القاهرة واعظ تركى، أخذ يعظ الناس بجامع المؤيد. ثم انتقل من الوعظ إلى ذكر ما يفعله أهل مصر بأضرحة الأولياء، وإيقاد الشموع والقناديل على القبور. وقال إن هذا كفر يجب على الناس أن يتركوه . وعرض بقول الشعرانى فى طبقاته إن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ. فأنكر ذلك على الأنبياء فضلا عن الأولياء . وقال بوجوب هدم القباب المبنية على الأضرحة. وأنكر وقوف الفقراء بباب زويلة فى شهر رمضان.

فلما سمع الحاضرون ذلك خرجوا ليلا إلى باب زويلة حاملين العصى والأسلحة فهرب من كان هناك. ثم إنهم قطعوا الجوخ والأكر المعلقة وهم يقولون «أين الأولياء؟». فأغضب عملهم بعض الناس فذهبوا إلى الجامع الأزهر وأخبروا الشيخ النفراوى وأحمد الخليفى بما حدث. فأفتى هذان الشيخان بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت، ولا يجوز لأحد أن ينكر اطلاع الأولياء على اللوح المحفوظ . وقالا بوجوب زجر الواعظ الذى غضب من هذه الفتوى، وأبدى استعداده لمناظرة العلماء. وتعصب له كثيرون وتطوعوا للدفاع عنه، وتعاهدوا على نصرته. وأخذ الواعظ يحرض أنصاره على الدفاع عن الدين وقمع الدجالين، ولكن الأمر انتهى بنفيه وتشتيت شمل أنصاره.

وهذا الواعظ من غير شك متأثر بآراء ابن تيمية والواقع إن آراء ابن تيمية كان موضوعا للنقاش عند بعض علماء هذا العصر. فقد ألف ابن حجر الهيثمى كتابا سماه «الجوهر المنظم فى زيارة القبر النبوى المكرم» ومعروف أن ابن تيمية يرى أن زيارة

القبر النبوى مشروعة مطلوبة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة والقياس. وقد اعتمد ابن حجر على ما كتبه السبكى من قبل فى الرد على ابن تيمية، ولم يأت بجديد. على أن ابن حجر فى كتابه «النعمة الكبرى على العالم بمولد سيد ولد آدم» يرى إن إقامة المولد النبوى بدعة لأنها لم تعرف عند المسلمين الأولين. ويقول إن أكثر ما يرويه القصاص والوعاظ فيما يتعلق بمولد الرسول مكذوب، لا أساس له من الصحة. ولكنه ذكر أنها بدعة حسنة لما اشتملت عليه من الإحسان الكثير إلى الفقراء، وتلاوة القرآن، وإظهار السرور والفرح بالنبى، وإغاظة أهل الزيغ والزنادقة والملحدين، والكفرة والمشركين. وقد كرر ابن حجر هذه الآراء فى كتاب آخر هو «الدر المنضود فى الصلاة على صاحب المقام المحمود».

* * *

ولم يعدم ابن تيمية أنصارا فى العصر الذى ندرسه. فيقول صاحب «الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة» « إن موسى المصرى المتوفى سنة ٩٩٠هـ كان يعتقد اعتقاد حمقى الحنابلة» ويقصد بحمقى الحنابلة أتباع ابن تيمية.

وألف بن مرعى الحنبلى المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٣٠ هـ كتاب «الكواكب الدرية فى مناقب ابن تيمية» خصها من مناقبه لعبد الهادى ابن قدامة المقدسى، ومن مناقبه لسراج الدين البزار، ومن مناقبه لأحمد ابن القاضى محيى الدين بن عمر الشافعى. وختم كتابه بفصل فى الرد على خصوم ابن تيمية الذين يرمونه بالكفر.

ولكن الصوفية فى هذا العصر قالوا ببقائه حيا وقد ألف مرعى «رسالة الخضر» وأثبت فيها أنه مات وهو بهذا يتابع أستاذه ابن تيمية. وله غير ما تقدم كتاب «رفع الشبهة والغرر على من يحتج على فعل المعاصى بالقدر» عرض فيها بالاتحادية والحلولية الذين وقعوا فى الإباحية وغرقوا فى المعاصى وتركوا الفرائض محتجين على هذا بأنه مقدر عليهم، لا يستطيعون تركه. واعتمد مرعى على آراء ابن تيمية فى هذا الموضوع.

ونلاحظ فى هذا العصر كثرة الأسئلة التى وجهت إلى العلماء بخصوص الخضر، وهل هو حى أم ميت؟ ونلاحظ كثرة الرسائل التى وضعت فى هذا الموضوع ، مما يدل على أن السائلين كانوا فى شك من حقيقة أمره. وقد يكون شكهم هذا ناجما عن اطلاعهم على آراء ابن تيمية. ومن الرسائل التى وضعت لإثبات وجود الخضر حيا «القول الدال على حياة الخضر والأبدال» لمصطفى بن نوح المتوفى سنة ١٠٧٠هـ.

* * *

وكانت كتب ابن عربى منتشرة فى دوائر المتصوفة، لا سيما «الفتوحات الملكية» ولكن من الإنصاف أن نقول إن أغلبهم لم يقبلوا نظريات الاتحاد والحلول ووحدة الوجود. ومنهم من اعتبر القول بها كفرا. وهذا هو محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤هـ رأس المتصوفة فى عصره يقول فى إحدى قصائده :

أطلقوا وحدة الوجود وقالوا
كل شىء هو الإله البارى

ونحن نعلم ان ابن تيمية قال بوفاة الخضر، ـ بالقومى أما لطه نصيرا؟

غـــاب من لـم يكـن من الأنصـــار

ويقول من قصيدة أخرى:

حلول مـحــال، واتحـاد مـخــالف

لوحـــدته فـــالوصف فـيــه تلونا

* * *

وقد جاء إلى مصر فى هذا العصر علماء أجلاء مازالوا موضع ثقة واحترام، وألفوا كتبا قيمة لا يستغنى عنها الباحث. نذكر منهم بهاء الدين العاملى الذى ألف كتابه «الكشكول» بالقاهرة .

وداود الأنطاكى وقد سبقت الإشارة إليه. ومرعى بن يوسف الحنبلى صاحب المؤلفات المشهورة التى أسلفنا الكلام على بعضها. وأحمد بن محمد المقرى صاحب «نفح الطيب» وغيره، وعبد القادر البغدادى صاحب «خزانة الأدب» وبدر الدين العباسى مؤلف «معاهد التنصيص، شرح شواهد التلخيص» ومرتضى الزبيدى شارح القاموس. وعبد الرحمن بن مصطفى العيدروس الصوفى المشهور.

ومر بها كثير من علماء المغرب. وزارها من علماء الشام والد المحبى الذى ألف رحلة عن هذه الزيارة . والمحبى صاحب «خلاصة الأثر» وعبد الغنى النابلسى الذى خصص جزء كبيرا من رحلته عما شاهده بمصر. وأبو بكر العياشى من علماء المغرب، وصاحب الرحلة التى أشرنا إليها .

واستوطنها من شعراء الشام كثيرون نذكر منهم : زين الدين العاملى ، وشمس الدين الحموى. وزارها طرز الريحان البعلى، وفتح الله النحاس، وابن الدرا. واستوطنها من شعراء المغرب يوسف بن زكريا المغربى. ومن الحجاز نور الدين القلعى.

واشتهر فى هذا العصر من المتصوفة: محمد البكرى والشعرانى ، وعبد الرءوف المناوى الذى يقول فيه صاحب خلاصة الأثر «... فهو أعظم علماء هذا التاريخ آثارا. ومؤلفاته غالبها متداولة كثيرة النفع، وللناس عليها تهافت زائد، ويتغالون فى أثمانها» .

ومن العلماء : ابن حجر الهيتمى ، وأحمد السجاعى ، وأحمد الدمنهورى، وأحمد الجوهرى، وغيرهم كثيرون.

ومن رجال النحو: الصبان، والكفراوى ومحمد الأمير . وقد ألفوا كتبا مازالت تدرس حتى عصرنا هذا.

ومن المؤرخين : ابن إياس الحنفى ، وهو أشهر من أن يذكر . ومحمد ابن عبدالمعطى الشهير بالاسحاقى صاحب كتاب «لطائف أخبار الأول فيمن تصرف بمصر من أرباب الدول» انتهى فيه إلى سنة ١٠٣١هـ ومحمد بن محمد ابن أبى سرور البكرى صاحب كتاب «عيون الأخبار ونزهة الأبصار» والنزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية» و «الوشى المرقوم من النطق المفهوم » و«المنح الربانية فى تاريخ الدولة العثمانية» و «اللطائف الربانية على المنح الرحمانية» وابراهيم الصوالحى ـ كان بالقاهرة سنة ١٠٧١ ـ مؤلف كتاب «تراجم الصواعق فى وقعة الصناجق» ومصطفى بن ابراهيم مؤلف «تاريخ وقايع مصر سنة ١١٠٠ ـ ١١٥٠» وشيخنا الجبرتى، ولقولا الترك مؤلف كتاب «ذكر تملك الجمهور الفرنساوية الاقطار المصرية»

* * *

ومن كتاب السير والتراجم : نور الدين الحلبى مؤلف «إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون »

ويعرف بالسيرة الحلبية. ومحمد بن علي الداودي مؤلف «طبقات المفسرين» والشهاب الخفاجي صاحب «ريحانة الألبا» و «خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا» وأحمد بن سلامة القليوبي مؤلف «تحفة الراغب في سيرة جماعة من آل البيت الأطايب» ومحمد بن أحمد البهوتي مؤلف «التحفة الظريفة في السيرة النبوية الشريفة» وأبو الصلاح علي بن محسن الصعيدي مؤلف «تعطير الأنفاس بمناقب الشاذلي وأبي العباس» وأحمد الرشيدي مؤلف «حسن الابتهاج فيمن ولي في مصر إمارة الحاج» وعبد الرحمن الأجهوري مؤلف «مشارق الأنوار في آل البيت الأخيار» ومرتضى الزبيدي مؤلف «الروض العطار في نسب آل جعفر الطيار» و «رفع نقاب الخفا عمن انتمى إلى وفاء الوفا» ومحمد بن علي الصبان مؤلف «إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وفضائل أهل بيته الطاهرين» ومدين بن عبد الرحمن القوصوني مؤلف «ريحانة الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب» وقداعتمد صاحب خلاصة الأثر على هذا الكتاب الذي لم يصل إلينا فيما كتبه عن أدباء مصر وشعرائها وعلمائها في القرن الحادي عشر. وعبد البر الفيومي مؤلف «منتزه العيون والألباب في بعض المتأخرين من أهل الآداب» جعله على طريقة الشهاب الخفاجي في ريحانته. وهذا الكتاب لم يصل إلينا كذلك مع أنه اشتهر ببلاد الشام، وعليه اعتمد صاحب خلاصة الأثر فيما كتبه عن مصر.

* * *

وظهرت في هذا العصر مؤلفات كثيرة في الروحانيات ، وفك الأرصاد والطلاسم، وفي ألعاب المهارة كالسيما والزايرجة. وفي التنجيم وضرب الرمل ولم يكن الناس كلهم يؤمنون بهذه الخرافات . فها هو الإدكاوي الشاعر ينكر علي المنجمين ما يزعمونه من معرفة ما يقع في المستقبل، وله شعر في ذلك نذكر منه:

الله يعلم ما يكون وما به
تسري الرياح وماله يجري الفلك
فدع المنجم في ضلالته وما
ينبيك عنه ففي مقالته أفك
واحذر تصدقه فتهلك عامدا
يامدعي الإيمان فيمن قد هلك
علم الإله محجب إلا على
من يرتضيه من نبي أو ملك
هذا اعتقادي والذي ألقي به
ربي لأسلك ناجيا مع من سلك

أما بعد فهذه صورة للحالة الفكرية في مصر إبان العصر العثماني. ويمكن أن نخرج من هذه الدراسة بأمور:

أولا : إن الحركة العلمية في مصر في ذلك العصر كانت نظرية محضة . ولم يعرف العلم التجريبي القائم على المشاهدة والتجربة والاختبار.

ثانيا: إنها استقت من المصادر القديمة، ولم يكن فيها تجديد أو ابتكار.

ثالثا : إنها لم تتصل بالنهضة العلمية الأوروبية ، لا من قريب ولا من بعيد . فالمعلومات الجغرافية والفلكية القديمة ظلت كما هي . فلم يصل إلى أسماع المصريين أنباء العالم الجديد، وما كشفه الأوروبيون من قارات ومحيطات ولم يقفوا على شيء من تقدم علم الفلك أو علوم الطبيعة والكيمياء والطب ولو ترك المصريون وشأنهم في ظل هذه الحياة العلمية لما تغير حالهم، ولبقيت معالمهم الفكرية كما هي دون أي تقدم.

لذلك لما اطلعوا على العلوم الحديثة التي صاحبت الحملة الفرنسية أبدوا دهشتهم

نبذة عن أحوال الشعر ومذاهبه فى هذه الفترة

قال الشهاب الخفاجى فى ترجمة محمد البلبينى الشاعر المصرى المتوفى سنة ١٠١٩ فى كتابه خلاصة الأثر ما نصه: «وله شعر أصفى من الرحيق المعتق، وأبهى من الوشى المنمق، إلا أنه تجاوز رقة النسيب إلى التجنيس والغريب».

وقال فى ترجمة الشاعر يوسف بن زكريا المغربى نزيل القاهرة، المتوفى سنة ١٠١٩ هـ بعد أن أورد جملة من شعره «واعلم أن هذا كله ليس بشعر ترتضيه الأدباء، وهو كل شعر أكثر فيه من البديع».

وكتب الخشاب إلى أحد الشعراء، وكان يعرض شعره للذم بالتزامه مالا يلزم:

ألزمت نفسك فى القريض مذاهبا
ذهبت بشعرك فى الحضيض الأوهد
وتركت ما قد كان فيه لازما
هلا عكست فجئت بالقول السدى؟
كدرت فيه بما صنعت بحوره
فغدت مشارع ليس ينحوها الصدى
فإذا نظمت فكن لنفسك ناقدا
نقد البصير بذهنك المتوقد
أولا فدع تكليف نفسك واسترح
من قولهم ما شعره بالجيد

فمن هذا وأمثاله نعلم أن الشعراء المصريين فى العصر العثمانى كانوا يكرهون التكلف والتزام الصنعة، واستخدام المحسنات اللفظية من جناس وطباق ومقابلة إلا ما أتى عفوا، ويفضلون أن يترك الشاعر نفسه على سجيتها. وهذا المذهب متفق كل الاتفاق مع قوم غلب على كثير منهم ارتجال الشعر فى سهراتهم الخاصة التى كانت تجمع بينهم، وفى المجالس الأدبية التى كثرت فى ذلك العصر، وفى الموالد التى تقام للأولياء.

وممن اشتهر بالارتجال: أبو السماع البصير المتوفى سنة ١٠٦٦هـ وفيه يقول المحبى «الشاعر البديهى، أعجوبة الزمان، وأحد الأفراد فى البديهة وارتجال الشعر. وكانت طريقته إذا أراد الارتجال أن يبدأ بإنشاد قصيدة من كلام أحد الشعراء المتقدمين بصوت شجى. وفى أثناء إنشاده يستدر على وزن تلك القصيدة فى أى باب من أبواب الشعر؛ مدحا كان أو غزلا أو غيرهما».

وقاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ وفيه يقول الجبرتى «... وصار وحيد عصره فى هذه الفنون ـ الشعر والزجل ـ بحث لا يجاريه أحد مع ما لديه من الارتجال فى الشعر مع غاية الحسن، وكان الشيخ العيدروس يتعجب منه ويقول: هو ممن يلقنه جنى».

واجتمع يوما فى مجلس به جماعة من الأدباء كالشيخ بن الصلاحى، والشيخ عامر الزرقانى، وكان يوما مطيرا، فقال ابن الصلاحى مرتجلا:

لقدومكم ضحك الغما
م فعلم العين البكا
ما ذاك إلا أنه
لنوال كفك قد حكى

فقال قاسم:

أفديك بالعينين يا
نجل الصلاح مع الذكا
هطل الغمام كأنه
لعزيز جاهك قد شكا

ومثل هذا كثير تجده مبثا فى ثنايا الكتب. وقد بلغ من كراهية بعضهم للتكلف أنهم فضلوا نظم

المزدوجات لأنها أسهل من نظم القصائد.

وكان الفن الشعرى غالبا على كثير منهم حتى إنهم استخدموا الشعر فيما يستخدم فيه النثر. مثال ذلك أن الشاعر يحيى الأصيلى المتوفى سنة ١٠١٠ هـ ذهب إلى منزل أحد الأعيان فأخر الإذن له، فكتب يقول:

على الباب من كاد من شوقه
يموت وذلك يحيى الأصيلى
أتى يتغنى بأوصافكم
فهل تأذنون له بالدخول؟

وحدث أن مرتضى الزبيدى كلف عبد الله الإدكاوى أن ينسخ له كتابا . وقام الإدكاوى بهذه المهمة، ولكن الزبيدى أخر عليه أجره، وأراد الإدكاوى أن يطالبه بهذا الأجر، فلم يبعث إليه برسالة ، وإنما بعث إليه بقصيدة جاء فيها :

صبح الله سيدى بالسعادة
وحباه من كل خير مراده
ووقاه الردى وزاد علاه
رفعة لاتنى تزيد سيادة
خلك المرتجى إجابة ما قد
عودته عاداتك المستجادة
فتفضل وابعث بما قد تبقى
ولك الفضل إن بعثت زيادة
وابق فى العز والسيادة يا أو
حد ما نال ذو احتياج إفاده

والأمثلة على ذلك كثيرة جدا بحيث إننا نستطيع أن نجمع منها مجلدات كما أنهم حذوا حذو أسلافهم فى استخدام الشعر فى الإجازات العلمية، وفى تقريظ الكتب والرسائل. وبلغ من تعلقهم بالفن الشعرى أنهم نظموا به بعض العلوم.

* * *

قلنا إن الشعراء فى ذلك العصر كرهوا التكلف وآثروا أن يترك الإنسان نفسه على سجيتها . والآن نضرب بعض الأمثلة على ذلك قال الشهاب الخفاجى فى خلاصة الأثر من قصيدة طويلة:

قدحت رعود البرق زندا
أضر من أشجانا ووجدا
فى فحمة الظلماء إذ
مدت على الخضراء بردا
حتى تشاءب نوره
وتمطت الأغصان قدا
وأتى الشقيق بمجمر
للروض أوقد فيه ندا
وعلى الغدير مفاضة
سردت لها النسمات سردا
وحبابه من فوقه
قد بات يلعب فيه نردا
فسقى معاهد بالحمى
قد أنبتت حبا وودا
تذر الليالى فى ثرى
من عنبر للمسك أهدى

وقال الصبان يمدح شيخ السادات البكرية

بعبير سرك تعبق الأقطار
وبنور وجهك شرق الأسرار
وبيمن طلعتك السعيدة طالعا
يصفو الزمان وترحل الأكدار
وبجود راحتك الشريفة أخصبت
للعالمين منازل وديار
وإلى حمى حرم سما بك مجده
تسعى العفاة وتهرع الزوار
يا درة الدنيا وغرة وجهها
ومنار أهليها إذا ما احتاروا
يا قطب دائرة الوجود وعارفا

بشـــدا تقـــاه تهـبط الأســـرار
ياشـمس أفـلاك الكمـال وسيـدا
دانـت لـه الأبـرار والـفـــجـــار
يهنيك مـــا أولاك ربك من عـــلا
دهشت لبـعض صـغـارها الأفكار
قـد أفـرغ المولى عليك مـواهبـا
لا عـد يحـصـيـهـا ولا مـعـيـار
وعلى بنى العـصـر اصطفـاك لرتبة
تركت قلوب عـداك فـيـهـا النار
السـيـد السند الإمـام المجـتـبى
صـدر الصـدور المنتـقى المختـار
الجـوهر الفـرد الذى لم تشـتـمل
أبدا على أمـــثـــاله الأعـــصـــار
العـــروة الوثقى لمعـــتـــصم به
الآية الكبـــرى لمن يحـــتـــار
تـاج الأمـائل، عين أعـيـان الورى
غـيث السـمـاحـة، سيـبـهـا المدرار
وابن الكـرام الشـم من آل الوفـــا
أبناء من سـجـدت له الأشـجـار
كـنـاه مـــــولاه أبـا الأنـوار إذ
مـن نـوره تـتـــــولـد الأنـوار
مـــا جـــاء ليل الخطب إلا رده
من ذلك الوجـه المضىء نهـــار
هو للأحبـة رحـمـة وعلى العدى
أسـد الإله وسـيـفـه البـتـار
والناس بالرتب العليـة فـخـرهم
ولهـــا بأبناء الرســـول فـــخـــار
منح من الوهاب عـز مـقـامـهـا
ومـــواهب مـــا إن لهــا إنكار
مـاذا يقـول المادحـون وفـضـلهم
نطقت به الآيات والأخـــبـــار؟
الله فى القـرآن أذهب عنهـمـو
رجـسـا وطهـرهم فـهـم أطهـار
ودادهم فـرض وحـبـهـمـو به
تمحى الذنوب وتغـفـر الأوزار

وقال الشيخ عبد الشبراوى متشوقا إلى مصر في بعض أسفاره:

أعـد ذكـر مـصـر إن قلبى مـولع
بمصرو من لى أن ترى مقلتى مصـرا
وكـرر على سـمـعى أحاديث نيلها
فـقـد ردت الأمـواج سـائلة نهـرا
بلاد بهـا مـد السـمـاح جناحـه
وأظهـر فـيـهـا المجد آيتـه الكبـرى
رويدا إذا حـدثتني عن ربوعــهــا
فتطويل أخـبـار الهوى لذة أخرى
إذا صاح شحرور على غصن بانة
تذكرت فيها اللحظ والصعدة السمرا
عسى نحوها يلوى الزمان مطيتى
وأشهد بعد الكسر من نيلها جبرا
لقـد كـان لى فـيـهـا مـعـاهدة لذة
تقضت وأبقت بعدها أنفسا حسرى
أحن إلى تلك المعـــاهد كلمـــا
يجـدد لى مـر النسيم بهـا ذكـرى
أمـا والقـدود المائسات بسفـحـهـا
والحاظ غادات قد امتلأت سحرا
ومـا فى رباها من قـوام مـهـفـهف
علا وغـلا من أن يباع وأن يشرى
لئن عـاد لى ذاك السرور بأرضـهـا
وقـرت بمن أهواه مـقلتى العبـرى
لأعـتنق اللهـو فى عـرصـاتهـا
وأسـجـد فى محراب لذتها شكرا

..... إلخ.

ومن قول الخشاب في يوسف بن علي الكاتب،

وكان يتولى تحرير المنشورات للفرنسيين أثناء احتلالهم لمصر:

إنى رأيت أبا البـــرية آدمـــا
في النوم مستجرا ببرد معلم
فدنوت منه مصليا ومسلما
وسألته في صورة المستفهم
هل كان يوسف من بنيك فإننا
من ذاك في شك مريب موهم؟
فأجاب وهو مصعد ومصوب
عينيه في كهيئة المستعظم
حـــواء طالقـــة ثلاثا إن يكن
ممن إلى من البـــرية ينتـــمى
... إلخ

ونستطيع أن نجمع مجلدات من هذا الشعر الذى يرسل فيه الشاعر نفسه على سجيتها . ومعظم نتاج العصر العثمانى فى مصر من هذا النوع . بل إننا نجد ما يفوق هذه الأمثلة قوة وروعة، ورقة وسلاسة وعذوبة.

***

ولكن الشعراء فى هذا العصر أنفقوا الوقت الطويل فى ضروب الصناعة اللفظية مما أعتبره البعض ضعفا لشاعريتهم

ومن هؤلاء عبد الرحمن الحميدى المتوفى سنة ١٠٠٥ هـ وله ديوان مطبوع اسمه «الدر المنظم فى مدح الحبيب الأعظم» فهو أحيانا يضع نصب عينيه إيراد جميع الحروف الهجائية فى البيت الواحد. مثال ذلك قوله:

خذوا بدمى حسنا غزالا عشقتها
فصرت كطل ظل بالثج فى رحض

وأحيانا يلتزم الحروف التى لا تنقط ، كقوله:

أســــرك دهر ســـــره كله هم
ومـــــورد أكـــــدار لوارده سم

وتارة يلتزم بعدد أبيات القصيدة بالحروف الهجائية على الترتيب كقوله:

أبت هند وصلى فالكرى مذقست شطا
وحظى ذكا من لاعج مثخن ضغطا
بذلى قضت فالوجد زاك وعنه لا
محيص بلا غوث شفى ناظرا سخطا

فالبيت الأول يبدأ بحرف الألف، والثانى بحرف الباء، وهكذا إلى آخر القصيدة التى تنتهى بانتهاء الحروف الهجائية.

وله قصيدة سماها «شفاء العين بمدح العين» فى المديح النبوى، عدتها تسعة وأربعون بيتا، كل بيت تنتهى بكلمة «العين» فكأنه جمع المعانى المختلفة لهذه الكلمة ، وأتى فى كل بيت بما يتناسب معه فى المعنى، شأنه فى ذلك شأن شعراء البديعيا الذين مدحوا الرسول عليه السلام بقصائد، وجعلوا فى كل بيت لونا من ألوان البديع، مع فارق وهو أن هذا المادح اكتفى بلفظ العين على اختلاف معانيها فى كل بيت من أبيات قصيدته التى جاء فيها:

يامـانسـة القـد يا مكحلة العين
كم من حسد فيك قد أصبت من العين
قـد حـزت جـمـالا ورقـة ودلالا
إذ فقت هلالا أضا، وفقت سنا العين

فالعين فى البيت الأول هى العين الباصرة، وفى البيت الثانى بمعنى الشمس.

وفى سنة ١١٥٨ هـ قدم إلى مصر شاعر حجازى كسب شهرة ونفوذا فى عصره، وهو نور الدين على بن تاج الدين القلعى المتوفى سنة

١١٧٠هـ وكان مغرما بالصناعة اللفظية. ومنها نوع يسمى «وسع الاطلاع» فاجتمع به بعض الشعراء ومنهم عبد الله الإدكاوى الذى أخذ عنه هذا الفن ووسع الإطلاع أنواع هي:

١ ـ كل كلمة فى البيت تبدأ بالحرف الذى تنتهى به الكلمة السابقة، ما عد القافية. مثال ذلك:

صب بوعدك كم مطلته
هاجرته هلا أجرته؟!
سهران نام مسامرو
ه هجعا أفلا أنمته؟!

فكلمة «صب» تنتهي بحرف الباء الي تبدأ به كلمة «بوعدك» وهكذا إلى آخر البيت الأول. وفى البيت الثاني نرى كلمة «سهران» تنتهى بحرف النون الذى تبدأ به كلمة «نام» وهكذا إلى آخر البيت.

٢ ـ نوع يسمى «العود وهو أن تنظم قصيدة فتقول:

جماله قد علا قدرا وجل علا
ها قد سباني فلولا عاد يانعمى

ثم تعود فتأخذ من هذا البيت كلمات مناسبة، وتنظم منها بيتا آخر يبدأ بلفظة «جماله» وينتهى بها فتقول:

(جماله قد سباني   قد جل قدرا جماله)

مثال آخر:

دلاله ياولاة الحب زاد فلو
قد عاد ياصحبي شفى سقمى
(دلاله زاد صحبي   بالقرب زاد دلاله)

٣ ـ النوع الثالث : أن تلتزم بدء كلمات البيت بحرف واحد مثل:

يتمنى يراك يوما يهنى
يجتنى يانعا يمينا يساره

فكل كلمة فى هذا البيت تبدأ بحرف الياء

٤ ـ أن تكون كل كلمة مكونة من حرف مهمل وحرف منقوط على الترتيب ، مثل:

جميل بديع جل ذاتا بهية
به زدت حبا، فاتك بمجاله

٥ ـ نظم البيت مكونا من كلمات مهملة وأخرى منقوطة على الترتيب مثل:

جننت ولوعا هواه شغفت كم
فتنت عساه يجتنى لكماله

٦ ـ نظم البيت مكونا من حروف مفرقة . مثل

أدم وده واردد رواه وروه
وأول ودم راع ودودا وواله

٧ ـ أن ينظم قصيدة يبدأ كل بيت منها بحرف بحيث لو جمعت هذه الحروف على الترتيب لكونت اسم ممدوح مثال ذلك قوله:

١ ـ سيدى مذغبت عن صبك المغـ
رم ضاقت عليه أكناف مصر
٢ ـ يافريد البها وحقك لا أصـ
ـبر عن أن أراك يوما بدهرى
٣ ـ داو مضناك باللقا وتكرم
ياغزال النقا بقبولى وجبرى
٤ ـ يابديع الجمال ياواحد الحسـ
ـن حنانا تشفى سقاما وضرى
٥ ـ انت أنسى ولذتى وسرورى
ومرادى وكنه سرى وجهرى
٦ ـ بك هام الفؤاد فامنن عليه
منك بالوصل لا ترعه بهجر
٧ ـ راقنى ما أراه فيك من الحسـ
ـن البديع الذى تقسم فكرى
٨ ـ إحلالا بعدى وأنت بوجدى
لك أدرى من كل عبد وحر
٩ ـ هام لبى فى وصف ما حزت يا أهـ
ـيف حتى قل نظمى ونثرى

١٠ ـ يوم عيد رؤياك بل ومحيا
ك هلالي ياذا الجمال وبدرى
١١ ـ ما لقلبي صبر سوى أن يلا
قيك ومن لي حتى اللقاء بصبر

فالأبيات الأربعة الأولى تبدأ على الترتيب بالحروف : س،ى،د، ى. ومن مجموعها يتكون لقب الممدوح «سيدى» وبقية الأبيات تبدأ بالحروف ا،ب،ر،ا،ه،ى،م. ويتكون منها اسم ممدوح وهو ابراهيم . ويلاحظ أن المعانى كلها غزلية وليست من المدح فى شىء.

٨ ـ أن ينظم قصيدة، ثم يدخل زيادة فى أول البيت أو فى أخره بحيث لا يتغير المعنى وإن تغيرت القافية فى حالة ما إذا كانت الزيادة فى آخر البيت.

مثال ذلك قوله:

يامن تحل بذكره
عقد النوائب والشدائد
يامن إليه المشتكي
وإليه أمر الخلق عائد

فيقول إذا جعل الزيادة فى الأول:

(ياذا العلا ياربنا) يامن تحلـ
ـل بذكره عقد النوائب والشدائد
(ياسيد ياخالقى) يامن إليه الـ
ـمشتكي وإليه أمر الخلق عائد

هذه هى ضروب الصنعة التى زاولها بعض الشعراء ومنهم الإدكاوى، والقلعى ، وعبد الرحمن الحميدى.

وقد أنكر بعض معاصرى الإدكاوى عليه هذا المذهب، وذكروه بأساليب القدماء التى لم تعرف التكلف، فرد عليهم قائلا:

كن للمعاصر خير ناصر
كم للأواخر من مفاخر
لا تحقرن جديدهم
كم فى جديدهمو جواهر
ودع التعصب للأوا
ئل يافتي أو للأواخر
من كان منهم مبدعا
فاعقد عليه عرى الخناصر

وهذه الأبيات لا أثر للتكلف فيها.

وأمثال الادكاوى فى هذا الشعر يقدمون انجازا هاما فى اللغة كأداة للشعر والنثر، فهم يحاولون كشف معانى الكلمات ومرادفاتها وتراتبها وصياغتها فى عصر كانت هناك لغة جديدة تسعى للظهور ويعلمون ذلك لطلاب الادب فتغتنى مفرداتهم وادواتهم اللغوية.

* * *

وقد انتشر فى هذا العصر تسجيل التواريخ فى القصائد بحروف الجمل.

وبيان ذلك أن الحروف الهجائية تتكون من : أبجد ، هوز، حطى ، كلمن، سعفص، قرشت، ثخذ، ضظغ.

أبجد : أ = ١، ب=٢ ، ج=٣، د =٤
هوز: هـ=٥، و = ٦ ، ز = ٧
حطى: ح= ٨ ، ظ =٩ ، ى=١٠
كلمن: ك= ٢٠ ، ل=٣٠، م=٤٠ ، ن =٥٠
سعفص: س=٦٠ ، ع=٧٠، ف=٨٠، ص =٩٠
قرشت: ق=١٠٠ ، ر=٢٠٠، ش=٣٠٠ ، ت =٤٠٠
ثخذ = ث =٥٠٠ ، خ= ٦٦٠ ، ذ = ٧٠٠
ضظغ: ض=٨٠٠ ، ظ= ٩٠٠ ، غ=١٠٠٠

واستخدمت حروف الجمل أولا فى عبارات نثرية يتألف من مجموع حروفها التاريخ المقصود. وأقدم ما وصل إلينا من هذا النوع قول أحدهم مؤرخا سبيلا أنشأه حروف هذه العبارة بحساب الجمل يساوى ٩٦٦ وهو تاريخ إنشاء السبيل المذكور.

وأقدم تاريخ شعرى قول أحدهم فى مقتل رجل اسمه محمود:

موت محمود حياة
فيه للعالم رحمه
قتله بالنار نور
وهو فى التاريخ ظلمه

فالحروف التى تتألف منها كلمة «ظلمه» بحساب الجمل تساوى ٩٧٥ وهو تاريخ قتل محمود، لأن ظ=٩٠٠ ، ل=٣٠، م=٤٠، ه=٥ .

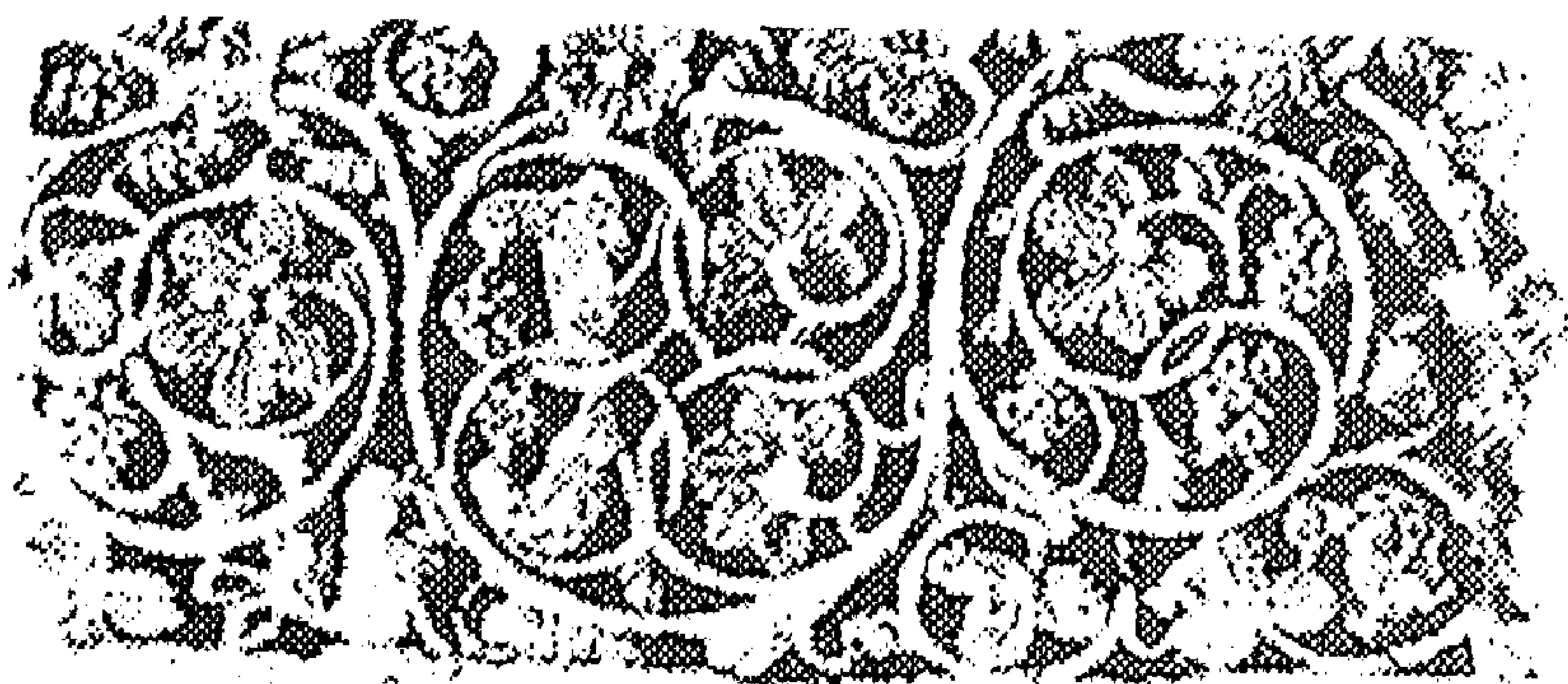
ومن هذا الوقت نجد من الشعراء من يؤرخون بعض قصائدهم.

وهناك شعراء كثيرون لم يستخدموا هذا الفن، أو استخدموه مرات قليلة. وأكثر ما يرد التاريخ الشعرى فى قصائد الرثاء، إذ كان من المستحسن عندهم أن يسجلواتاريخ وفاة الميت.

وكذلك مما ينظم للتهانى والأفراح. وقد ورد فى بعض شعر المديح. أما الغزل والتصوف والهجاء فلم يرد له فيه قط.

وكان يطلب من أحد الشعراء أن ينظم بيتين أو أكثر يختمهما بتاريخ بناء مسجد أو مدرسة أو قصر أو سبيل أو ضريح أو غير ذلك من المبانى. ثم كان ينقش ذلك على لوحة من الرخام تثبت فى المدخل وبعض الشعراء يسجل اسمه فى نهاية القصيدة، وهذا ما عرف من قبل العصر العثمانى. كما أن منهم من كان يختم بعض قصائده بالصلاة على النبى وهذا أيضا مما عرف من قبل.

وقد ظهر فى هذا العصر ما يقرب من مائة شاعر، وردت تراجمهم ومقتطفا من شعرهم فى تاريخ ابن إياس، والكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة، والنور السافر فى أعيان القرن العاشر، وريحانة الألبا للشهاب الخفاجى، وخلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى، وتاريخ الجبرتى.



ظهور فكرة السادة البكرية فى مصر

لم يكن للبكريين فى مصر قبل العصر العثمانى شأن كبير. فقد ذكر صاحب «الكواكب السايرة فى أعيان المائة العاشرة» أن جلال الدين البكرى انكسر عليه مال للسلطان الغورى فهم أن يعاقبه. فاستجار بصديقه عبد القادر الدشطوطى الذى توسط له عند السلطان فسامحه فى المال. واعترافا بهذا الجميل وهب جلال الدين البكرى ابنه أبا الحسن للدشطوطى ليلازمه ويكون فى خدمته. ثم إن الدشطوطى جدد مسجد وهبه لجلال الدين، وهو المسجد الذى مازال قائما بشارع البكرية بناحية بركة الرطلى، والذى يحمل اسم جلال الدين .

وقال عبد الغنى النابلسى فى رحلته. «إن العسكر المصرى لما ثاروا على السلطان الغورى وأرادوا خلعه؛ أتوا إلى الشيخ جلال الدين وقالوا له : نحن نقيمك خليفة على المسلمين فى بلاد مصر، لأن الصديق جدك كان كذلك فإن السلطان الغورى قد تعدى علينا وظلم، وجاوز الحدود. فأجابهم بقوله أصبروا فإن سلطانكم قريب. ثم وقع ما وقع وجاءهم السلطان سليم خان من بنى عثمان» .

ومن السهل علينا أن ننفى هذه القصة ، لأنها لم ترد فى كتب التاريخ الموثوق بها، فلم يذكرها ابن اياس. ومن ناحية أخرى لوجود الخليفة العباسى المعترف بخلافته. ومن ناحية ثالثة لأن المماليك كانوا يتنازعون من أجل الملك. وكان نزاعهم يقوم على المطامع الذاتية. فليس من المعقول أن يخرجوا ملك مصر من أبناء جلدتهم ويعطوه طائعين مختارين لجلال الدين البكرى.

ثم ذكر عبد الغنى النابلسى قصة أخرى تتعلق بجلال الدين ، وهى:

«ويقال إنه - السلطان سليم - لما دخل مصر كان الشيخ جلال الدين آخذا بزمامه [زمام جواده]، والشيخ أبو السعود الجارحى على يمينه، والشيخ الدشطوطى على شماله. ويقال إن هؤلاء الأولياء الثلاثة هم الذين ذهبوا إلى الشام وجاءوا بالسلطان سليم وأدخلوه إلى مصر، وهم مشاة فى ركابه. وكان يقصر المنازل لأجلهم. وقالوا له : هكذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم».

وهذه القصة - وإن تكن من غير شك - مختلقة ، إلا أنها تدل على أن جلال الدين كان ممالئا للسلطان سليم. وربما كان مدفوعا إلى ذلك بما حدث بينه وبين الغورى.

وقد ذكر ابن إياس فى كتابه «بدايع الزهور» حوادث سنة ٩١٧هـ أن الشاه اسماعيل الصفوى أرسل إلى السلطان سليم رسالة جاء فيها:

نحن إناس قد غدا شأننا
حب على بن أبى طالب
يعيبنا الناس على حبه
فلعنة الله على العايب

فأجابه سليم برسالة جاء فيها:

ما عيبكم هذا ولكنه
بغض الذى لقب بالصاحب
كذبتم عليه وعلى بنته
فلعنة الله على الكاذب

وكان ابن اياس معاصر للحرب بين السلطان سليم وشاه إيران. وإذا كنا نرتاب فى صدور هذا الشعر من سليم ، فإننا لا نرتاب مطلقا فى وجود طائفة بكرية أراد السلطان العثمانى أن يكسبها إلى جانبه فى حربه ضد الشاه الشيعى، وفى حربه ضد سلطان مصر السنى قانصوه الغورى. ونلاحظ أن سليم لم يذكر فى شعره سوى بغض الشيعة لأبى بكر وكذبهم عليه وعلى بنته، مع إننا نعلم أن

الشيعة يبغضون كل من حال بين علي والخلافة ويكفرونه.

وعلى كل حال فقد كانت سياسة الدولة العثمانية تعمل على ترويج الخصومة ضد الشيعة، لأن الدولة كانت فى حرب مع شيعة إيران وشيعة اليمن. فسخرت المؤلفين فى كل مكان للطعن فى تعاليم الشيعة وتفنيد آرائهم. ومن هؤلاء الكتاب الذين تطوعوا لخدمة الدولة: ابن حجر الهيثمى المتوفى سنة ٩٧٤هـ فقد ألف كتابا اسمه «الصواعق المحرقة فى الرد على أهل البدع والزندقة» جاء فى مقدمته «إنى سئلت فى تأليف كتاب يبين حقيقة خلافة الصديق وإمارة الخطاب. فأجبت إلى ذلك مسارعة فى خدمة ذلك الجناب. فجاء بحمد الله أنموذجا لطيفا» . وأهل الزندقة هم الشيعة فى نظر المؤلف. والباب الأول من هذا الكتاب فى بيان كيفية خلافة الصديق، والاستدلال على حقيقتها بالأدلة العقلية والنقلية. والرد على الشيعة وإبطالها . والباب الثالث فى بيان أفضلية أبى بكر الصديق على سائر هذه الأمة. وقد أفرغ المؤلف جهده فى إبطال حجج الشيعة فى خلافة على والوصية التى يزعمون أن النبى صلى الله عليه وسلم وصى بها له.

وعلاوة على ماتقدم فإنه ألف كتابا آخر فى مناقب معاوية. تطهير الجنان واللسان من التفوه بثلب معاوية بن أبى سفيان مطبوع بهامش الصواعق المحرقة . وهذا يعتبر ردا على الشيعة كذلك لأنهم يكفرون معاوية.

وقد ذكر عبد الغنى النابلسى فى كتابه «الحقيقة والمجاز» أن السلطان سليم شيد فى قناطر السباع قصرا كبيرا ووهبه للشيخ جلال الدين. ثم إن العثمانيين منحوا ، شيخ البكريين فى مصر امتيازات لم تكن له من قبل، منها الأوقاف الواسعة. ومنها أنهم جعلوه شيخا لمشايخ الطرق الصوفية ، يعين شيوخها، وينتظر على أوقافها. فاستطاع شيوخ البكريين أن يبنوا القصور الفخمة على شواطئ بركة الأزبكية، وبركة الرطلى. ويغرسوا بها الحدائق الغناء ذات النافورات الجملية ويزودوها بالرياش الفاخرة، ويقتنوا الخيول الأصيلة، والجوارى والعبيد وأن يتشبهوا بالملوك فى حياتهم..

وكانوا يستضيفون الأدباء والعلماء القادمين إلى القاهرة، فتمكنوا بوساطة هؤلاء من نشر نفوذهم الأدبى وتعاليمهم من اليمن إلى الحجاز، ومن العراق إلى الشام ومن مصر إلى شمال أفريقيا، بل وفى تركيا. وكانت تحمل إليهم هدايا الملوك والأمراء والأعيان. وكانت شفاعتهم لا ترد، وكلمتهم مسموعة عند أرباب الدولة. انظر مثلا إلى ما يقوله صاحب خلاصة الأثر فى ترجمة زين العابدين البكرى المتوفى سنة ١٠١٣ «وبلغ صاحب الترجمة فى آخر أمره من الجلالة ونفوذ الكلمة مبلغا ليس لأحد وراءه مطمع حتى خشية حكام مصر، وكانوا يدارونه ويتوقعون رضاه».

وانظر إلى ما يقوله محمد الأمين الشامى فى كتابه «نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة».

«السادات البكرية سادات الوجود، وأولياء النعم الذين عرفوا بالكرم والجود. بيتهم كالبيت العتيق يزوره من لبى وأحرم، ومن نال لثم عتبة بابه فقد ظفر بالحجر المكرم. ثبتت أوتاده وأطنابه ، ووصلت بأسباب السماء أسبابه. لا زحاف فيه إلا فى بيوت حساده، ولا إبطاء إلا على قلوب أضداده. حرم آمن ليس للحوادث عليه هجوم، ولا لشياطين البغى فيه استراق، فلذا تستريح شهبه من الرجوم. فهم نور الكون قبل أن يخلق النيران، وقطب الدائرة قبل أن تؤمر الأفلاك بالدوران . خالصة لله من عباده أهل الصلاح وتراب نعالهم كحل عيونهم أهل الفلاح. مامنهم إلا فتى لثوب العز ساحب، وللوقار مع الصبا

مصاحب. فإذا استوى على كرسيه فملك عليك المهابة قبل الحاجب حاجب. بحار طمت وعلت القلل، متعهدة منخفض الوهاد فى صوب العهاد، فتوارت البحار خجلا منها. فى جيد الدهر من مدايحهم عقود وقلايد، ليس إلا كلماتها شذرات وقوافيها فرايد.

* * *

وتدور تعاليم البكريين حول شخصية أبى بكر الصديق. فنراهم يذهبون فيه مذهب الاسماعلية فى على ومعلوم أن الاسماعلية قالوا إن نور الله تنقل من الأصلاب إلى الأرحام حتى اجتمع فى عبد المطلب، ومنه إلى محمد فالأئمة من أبناء على. فقال البكرية إن الحقيقة المحمدية انتقلت إلى أبى بكر وذريته من بعده. فالصديق هو الإنسان الكامل. وعرفوا الإنسان الكامل بأنه الجامع لم تفرق من الكمالات فى سائر الأفراد الإنسانية ما عدا النبوة. فهم والحالة هذه متفقون مع الإسماعيلية فى نظريتهم فى الإمامة التى تقول بمثل هذا القول تماما. وذكروا فى آية «رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه، وأصلح لى فى ذريتى» أنها حكاية من القرآن على لسان أبى بكر فالصديق سأل الله فى هذه الآية صلاحا خاصا لأسرته، أى أن يعطيهم مقام الصديقية التى تلى مقام النبوة فى الرتبة. وأتى «بفى» الظرفية الشاملة لصلاحهم ظاهرا وباطنا، وهذا نفس ما ادعا الإسماعيلية والشيعة عامة فى هذه الآية من أنها نزلت فى على وأبنائه من بعد.

وقال البكريون إن الصديق الذى قال فى حقه «ولسوف يعطيك ربك فترضى» أكرم على ربه تبارك وتعالى من أن يهين ذريته بإدخالهم النار فى الآخرة. وقد قال الشيعة من قبل إن هذه الآية نزلت فى على وأبنائه من بعده.

* * *

والصديقية عند البكريين قاصرة على ذرية أبى بكر التى منحها الله له بصفة خاصة بناء على سؤال أبى بكر. ومن ذلك نراهم جعلوا الصديقية هذه فى مقام الإمامة عند الشيعة وهنا يظهر وجه الاختلاف بين البكرية والشيعة. فالشيعة يقولون إن ما خص به أهل البيت إنما كان باختيار الله وبأمر منه دون أن يسأله أحد فى ذلك.

وكما أن الشيعة قالوا بانتقال الإمامة فى ذرية على بحيث لا يخلو عصر من وجود إمام يكون حجة الله فى عصره على عباده، فكذلك قال البكرية بانتقال الصديقية فى ذرية أبى بكر بحيث لا يخلو عصر من وجود صديق بكرى. قال محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤هـ.

فى كل عصر منهمو سيد
مؤيد بالحق ماحى الريب

وروى عن محمد البكرى أنه قال «يجلس عقبنا مع عيسى ابن مريم على سجادة واحدة».

ولم يقف البكريون عند نسبة الصديقية إلى أبى بكر، بل جعلوا له حقيقة معنوية تشبه الحقيقة المحمدية مثل حديث «بعثت أنا وأبو بكر كفرسى رهان فسابقنى فسبقته، ولو سبقنى لاتبعته» وهذا الحديث ورد فى كتب الشيعة مع إبدال كلمة «أبى بكر» بكلمة «على» فالله لم يبعث محمد وحده، بل بعث معه أبا بكر، ولم يكن أحدهما يمتاز عن الآخر، ثم أخذا يتسابقان نحو النبوة فسبق محمد. وهذا الحديث ذكر بغير اسناد. ولا وجود له فى الكتب المعتمدة وكذلك شأن جميع الأحاديث التى أوردها صاحب العمدة.

وذكروا تأييد لهذا الحديث أن أبا بكر كان

الثانى بعد الرسول فى الإسلام، وأول من آمن به، وثانيه فى الهجرة وثانيه فى الغار، وثانيه فى دخول المدينة، وثانيــه فى الإيمان بالاسـراء،و ثانيــه فى الميـلاد، لأن النبى ولد يوم الاثنين وأبا بكر ولد يوم الثلاثاء والنبى ولد لاثنى عـشـر ربيع وأبو بكر ولد لثلاثة عشر. وثانيه فى القيام بأمر الدعوة الإسلامية ، والخليـفة بعده. وثانيه فى القبر وكم للقرآن من أسرار هو فيها ثانى اثنين!؟ فصحبته للنبى أزلية.

وهناك حـديث معناه أن النبى لما كـان قـاب قوسين أو أدنى من العرش أخذته وحشة ، فسمع فى حضرة الله صوت أبى بكر فاطمأن قلبه واستأنس بصوت صاحبه. وقالوا إنه كان بين النبى وأبى بكر إشارات أزلية لا يعرفها غيرهما فكان النبى يقول «يا أبا بكر، أتدرى يوم لا يوم فيـقـول أبو بكر. نعم» ومعناه : أتدرى لما كان كذا وكذا قبل خلق الأيام؟

وحديث «خلقت أنا وأبو بكر من طينة واحدة» وحديث «كان جـبريل إذا قـدم أبو بكر على النبى صلى الله عليـه وسلم وهو يحـادثه يقـوم إجـلالا للصـديق دون غيـره. فسـأله النبى صلى الله عليـه وسلم عن ذلك فـقـال جـبـريل : أبو بكر له على مشيـخة فى الأزل وما ذاك إلا أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسـجود لآدم حدثتنى نفسى بما طرد به إبليس، فحين قال الله تعالى اسجدوا ، رأيت قبة عظيمة عليها مكتوب : أبو بكر ، أبو بكر، مرارا ، وهو يقول : اسـجد، فسـجدت من هيبة أبى بكر، فكان ما كان».

ورووا أنه لما مات أبو بكر واستخلف عمر كان يتبع آثار أبى بكر ويتشبه بفعله. فأخذ يتردد على عـائشة وأسـمـاء ويقـول لهـمـا : ماذا كان يفعل الصديق إذا خلا ببيته ليلا؟ فيقال له : ما رأينا له كثير صلاة الليل ولا قيام. إنما كان إذا جنه الليل يقوم عند السحر ويقعد القرفصاء ويضع رأسه على ركبتيه ثم يرفعها إلى السماء ويتنفس الصعداء ويقول : آخ ، فيطلع الدخان من فيه. فيبكى عمر ، ويقـول : كل شىء يقـدر عليـه عـمـر إلا الدخان. وأصل ذلك كما ذكروا أن شدة خوف أبى بكر من الله أوجبت احتراق قلبه، فكان جليسه يشم منه رائحة الكبد المشوى. وسببه كما زعموا أن الصديق لم يحتمل أسرار النبوة الملقاة إليه.

وقالوا فى حديث «أنا أعلمكم بالله وأخوفكم منه» إن المعرفة التامة تكشف عن جلال المعرف وجـماله. وكـلاهـما أمر عظيم جـدا تنقطع دونه الغايات. ولولا أن الله تعالى ثبت من أراد ثباته وقواه على ذلك مااستطاع أحد الوقوف ذرة على كليهما جلالا وجمالا. والغاية فى الطرفين قد نالها الصديق فقد ورد فى الحديث «ماصب فى صدرى شىء إلا صببته فى صدر أبى بكر. ولو صبه جبريل عليه السلام فى صدر أبى بكر ما أطاقه لعدم مجراه من المماثل،و لكن لما صب فى صـدر النبى وهو من جنس البشرية فجرى فى قناة مماثلة للصـديق، فبواسطتها أطاق حمله ومع ذلك احترق قلبه».

ومن هنا نرى أن البكرية كفرقة صوفية امتازت عن غيرها من الفرق، وذلك بأن أضافت إلى مفهوم الحقيقة المحمدية الصوفى عنصرا جديدا، هو الحقيقة المعنوية لأبى بكر الصـديق، بحـيث تكون هذه الحقيقة الأخيرة ملازمة للحقيقة الأولى، ولا تنفك عنها منذ الأزل. وقد مر بنا قولهم إن صحبة أبى بكر للنبى أزلية، أى أن الحقيقة البكريةوجدت مع الحقيقة المحمدية.

وإذا كان الصوفية يقولون إن الأولياء يتصلون بالحقيقة المحمدية فإن البكريين قالوا إن الأولياء يتصلون بالحقيقة البكرية. وقد صور لنا محمد

البكرى المتوفى سنة ٩٩٤هـ الحقيقة البكرية فى شعر كثير نذكر منه:

هو الجمع فى عين الشهود بلا مرا
تجلى بأنواع من الفيض بالأمر
هو الملكوت الواسع المطلق الذى
تعالى عن الأوهام والذهن والفكر
هو الرحموت الجامع الكلى فى العلا
ومرشد أرباب الهدى سبل الذكر
هو العين من عين لعين تنقلت
وعين هداه قد أفاضت على البحر
هو المركز النورى فى كل حضرة
وجامع ملك الكون فى قبضة الأسر
هوالكل والكل العظيم جميعه
بباطنه كالدر فى مهمه قفر
هويته منه إليه مسيرها
تحدث عن أسراره كل ذى قدر
هو الجامع الأسرار من آدميه
ووارث خير الخل فى السر والجهر
ومشهد كل العالمين مقامه
ورافعهم فى الله فوق ذرى الفخر
وكل ولى بعد طه وعارف
فنقطة ماء من بحار أبى بكر
ومازال هذا المجد فيه حقيقة
إلى أن بدا المولى أبو الحسن البكرى

ومعنى هذه الأبيات أن أبا بكر اجتمع فيه الحق والخلق فتجلت فيه الذات الإلهية، وأصبح هو هذا العالم المترامى الأطراف الذى لا يستطيع الإنسان أن يحيط به أو يدرك كنهه. وهو الذى اجتمعت فيه الرحمة وأصبح هاديا ومرشدا للناس. وهو العين أى النور الذى تنقل فى الأصلاب من آدم وهو مركز النور الإلهى، وفى كل مجال يظهر فيه أثر للسر الإلهى. وفيه تركز هذا الوجود ، فهو الخل والحق والوجود، والصورة التى يتجلى فيها الحق يوم القيامة تبدأ منه وتنتهى إليه معربة عن أسراره. وهو الذى اجتمعت فيه الأسرار الإلهية من لدن آدم، والذى ورث خير الخلق، أى النبى محمد عليه الصلاة والسلام. فهو يمثل العوالم كلها، ويكسبها فخرا لا حدله. وكل ولى وعارف بعد النبى محمد لا يغدو أن يكون لقطة من بحار أبى بكر. ومازال هذا المجد ينتقل فى ذرية أبى بكر حتى ظهر فى شخص أبى الحسن البكرى.

وقالوا إن دوام ناموس آل الصديق وقيام عزتهم إلى انتهاء الدنيا ثابت بقوله تعالى «فى ذريتى» فإن عدتها بالجمل الكبير ألف وأربعمائة وعشرة، وهى مظنة تمام الدنيا. وعندهم أن من أحب آل الصديق نجا من كل سوء، ومن كل مكروه. وأن خلافتهم صدق وحق وقد نص عليها القرآن. قال محمد زين العابدين البكرى:

وحاشا الذى بالحب والود ينتمى
إلينا يرى سوأ وحافظه الولى
خلافتنا بالحق والصدق قد أتت
أدلتها عن نص ذكر مرتل

وقال محمد البكرى إنه ورث الخلافة عن النبى:

ورثت النبى فلى من رباه
مقيل الخلافة والمسرح

ومنكر آل الصديق كافر قال:

إن الذى ينكرنا
لقد أتى إحدى الكبر
وكل من يعرفنا
نال الأمانى وظفر

وقالوا إن الألف «في ألم» كل أية وردت فيها (ألم) تشير إلى أبى بكر، واللام إلى الله، والميم إلى محمد . وفي ذلك يقول محمد البكرى:

لئن كان فخر الأكرمين صحائفا
فإنا لآيات الكتاب فواتح

وأطالوا القول في اية «ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه» وفي الحديث الوارد عن النبى على السلام حين مرض وهو «مروا أبا بكر فليصل بالناس».

وإلى جانب علو البكرية في ابى بكر فقد طعنوا في الشيعة ، واعتبروهم جميعا رافضة وقالوا إن الرافضي إذا أشرف على الموت يقلب الله صورة وجهه وجه خنزير ، فلا يموت إلا إذا صار وجهه كذلك، فإذا رآه أهله فرحوا واستبشروا لأنه مات على الرفض. أما إذا لم يحدث ذلك فإنهم يحزنون ويقولون إنه مات سنيا.

وأول شخصية بكرية ظهرت في العصر العثماني وتركت آثارا أدبية هي شخصية أبي الحسن البكرى المتوفى ٩٥٢هـ وسبق أن ذكرنا أن أبا الحسن لازم الدشطوطي . وقد حدث أن زار مصر أحد كبار متصوفة الشام في ذلك الوقت وهو «رضى الدين الغزى» فأمر الدشطوطي أبا الحسن أن يأخذ عنه التصوف. ولم يلبث أبو الحسن أن استوعب تعاليم الصوفية وبخاصة ابن عربى وابن الفارض. ثم ذهب لأداء فريضة الحج واتصل بكثير من علماء الأقطار الإسلامية. ولما رجع من الحجاز زاول التدريس بمسجد والده جلال الدين، وبالجامع الأزهر. ومؤلفاته التي وصلت إلينا يغلب عليها الجمع، إذ هي أحاديث نبوية في موضوعات شتى. مثال ذلك «غاية الطلب في فضل العرب» و «تحفة العجلان في فضائل عثمان» و «االانتباه إلى فضائل لا إله إلا الله»، وغيرها. وكل مؤلف من هذا يحتوى على أربعين حديثا بإسنادها. وقد ترجم له الشعراني في ذيل طبقاته فقال «الصوفى المحدث، نادرة الزمان، الشيخ أبو الحسن البكرى ـ رضى الله عنه ـ أخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام والتصوف كالشيخ رضى الله الغزى. وتبحر في علوم الشريعة من فقه وتفسير وحديث وغير ذلك. وكان له النظم الشائق في علوم التوحيد. وأطلعني مرة على تائية عملها نحوخمسة آلاف بيت أوائل دخوله في طريق القوم، ثم إنه غسلها وقال إن أهل زماننا لا يتحملون سماعها لقلة صدقهم في طلب الطريق».

وقال محمد اليمنى في كتابه «السنا الباهر» ما نصه «وقال جماعة إنه ـ يعنى أبا الحسن البكرى ـ بلغ رتبة الاجتهاد، وصنف التصاليف الكثيرة المحررة الشهيرة . منها ثلاثة شروح على المنهاج، وثلاثة شروح على الإرشاد ، وشرح العباب، وشرح الروض، ومختصر الإيضاح وشرحه. وعدة متون في الفقه ، وعدة رسائل في التصوف، وغير ذلك،وكل كتبه محررة،و مسائلها مقررة. وانتشرت تصانيفه في سائر الأقطار، وانتفع بها الكبار والصغار . وأخذ عنه خلائق لا يحصون ، وتخرج به العلماء العارفون. وله نظم نضد فيه عقود الجواهر، يقصر عنه كل أديب وشاعر. وله موشحات توحيدية لم ينسج على منوالها أحد من البرية.»

لكن ديوان شعره لم يصل إلينا. وقد أورد له صاحب الكواكب السائرة قصيدة طويلة في التصوف والحب الإلهى، والوعظ والإرشاد والمناجاة، نذكر منها:

أنتم معاني الكائنات فأينما
أنتم حللتم حلت البركات

لله مــا أحلى قــديم حــديثكم
ذاك الذى هو للقلوب حــيــاة
تحـيـا قلوب العـارفين بذكـركم
والجــاهلون قلوبهم أمــوات
عنى الزمـان بمدحكم مـتـعللا
فـرحـا فكل جـهـاته نعـمـات

ومنها:

وبدا سنا مـصـبـاحكم فـقلوبنا
كـزجـاجـة وصـدورنا المشكاة
وقـع الـنـداء لـنـا ألـست بـربكـم؟
قلـنـا : بلـى وأجـــابت الـذرات

ولكن المذهب الصوفى لأبى الحسن لا يظهر فيها. ولايستنتج من قوله:

.... فــأيـنمــا
أنتم حللتم حلت البــركــات

أنه يدين بمذهب الحلول، لأن أتبــاع هذا المذهب يقولون بحلول الله فى جـميع المخلوقات الطاهرة والشريرة . والمخلوقات الشريرة لا يمكن أن تكون محلا للبركة الإلهية التى يذكرها الشاعر.

وقد نوه البكريون بشأن أبى الحسن كثيرا فى كتـبـهـم ورسائلهم، ورووا له الكرامات والخوارق. واعـتـبـروه مـؤسس مـجـدهم الأدبى والصـوفى والاجتماعى. فانظر إلى ابنه محمد البكرى حين يقول:

وكل ولى بعـــد طه وعـــارف
فنقطة مــاء من بحــار أبى بكر
ومـا زال هذا المجد فيه حقيقة
إلى أن بدا المولى أبو الحسن البكرى
فـحـاز جـمـيع الإرث وازداد أمره
به منه مـا يـبديه عن شـأنه ذكـرى
فـمن ذاك أن العين حـقـا تقـابلت
بعين تجلى الحق فى أحـمـد السـر
فـودت تجليـهـابهـا فـتـعـينت
بطلعتها فى الذات من دون ماستر
فأصبح مـخطوب الجمال ورونق الـ
ـكمال وحامى الحق بالبيض والسمر
وعـالم هذا العـالم الأكـبـر الذى
توسع حـقـا فى مـراتبـه الغـر
وهيكل أسرار التـجلى وقطبـهـا
ومـشـرق بدر السـر فى ليلة القـدر
ولا عـجب أن يطلع البـدر فى الدجى
بأية وقت شـــاءه ملك الأمـــر
ووارث تكليم الكليم وحـائز الـ
ـكلام بما يبديه فى الكلم العشر
فـــروض ربى روض تربتـــه التى
يفوق شذاها المسك فى طيب النشر
ولـوح به رقم العلوم بأســـرها
وسـر نظام الكون فى البر والبحـر

فلم يذكر الشاعر أحدا من أجداده بل قصر كلامه على والده. وقال إنه كالبدر الذى طلع فى الظلام، ولا عـجب فى أن يطلع البدرفى أى وقت مـتى أراد الله ذلك. ويريد بالدجى خـمـول الذكـر الذى لازم أسـرت مـدة من الزمن، ولم يتـبـدد إلا بظهور أبى الحسن الذى حاز إرث الصديق وأضحى موضعا لتجلى الأسرار الإلهية، متعمقا فى علوم الحقيقة التى تلقاها عن الله مباشرة كـمـا تلقى موسى الوصايا.

ولما مات أبو الحسن خلفه فى مشيخة السجادة ابنه محـمـد البكرى الكبـيـر المشـهـور بأبيض الوجـه،المكنى بأبى بكر، وأبى المكارم، وقـد ترجم لنفسـه فذكـر أنه ولد عـام ٩٣٠هـ ثم تحدث عن نشأته وحياته الدراسية واشتغاله بالتدريس والتأليف، وماله من نظم ونثر. وردت هذه الترجمة فى كتاب «عمدة التحقيق فى بشائر آل الصديق» تأليف أحد

دعاة البكريين فى القرن الحادى عشر، وهو ابراهيم العبيدى المالكى الذى شغل وظيفة الإفتاء فى البحيرة. وقد رآه عبد الغنى النابلسى حينما زار مصر سنة ١١٠٥ هـ وذكره فى رحلته.

قال محمد البكرى إنه ختم القرآن فى أواخر السابعة من عمره، وصلى به إماما (إمامة الصبى جائزة عن الشافعية والمالكية) فى تراويح رمضان فى مقام السادة المالكية عند الكعبة وهو فى الثامنة. ثم حفظ ألفية بن مالك والتنبيه لأبى اسحاق الشيرازى فى فقه الشافعى قبل تمام العاشرة. وكان مواظبا على حضور دروس والده، فأخذ عنه التفسير والفقه والحديث. ولم يذكر أنه تتلمذ لأحد سوى والده.

ثم شرع فى التأليف وهو فى السادسة عشر. فشرح كتاب الاختصار فى فقه الشافعى، وقطعا من مؤلفات فقهية، ورسائل كاملة فى التصوف وزاول التدريس فى مسجد جده المشهور بالجامع الأبيض. ثم خلف والده فى التدريس بالجامع الأزهر.

ورث محمد البكرى عن والده ثروة طائلة مكنته من أن يعيش كما قال الشعرانى عيشة الملوك فى مسكنه ومأكله، وملبسه ومركبه، وجواريه وعبيده. وكان الناس ينكرون على البكريين الجمع بين الغنى وحياة التصوف التى ينبغى فى نظرهم أن يكون طابعها التقشف والفقر. ولكن البكريين ومنهم محمد البكرى كانوا لا يرون تناقض بين الغنى والتصوف ويحتجون بقولهم أن أبا بكر كان له ثلاثمائة وستون كرسيا، على كل كرسى حلة بألف دينار، وأن عبد الرحمن بن عوف كان من أغنياء الصحابة. ونحن نعرف من التاريخ أن أبا بكر عاش فى الإسلام فقيرا ومات فقيرا فإن صحت دعواهم فى عبد الرحمن بن عوف فإنها لا تصح فى أبى بكر. واحتجوا كذلك بقوله تعالى «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق» ــ الأعراف آية ٣٢. وقوله صالى الله عليه وسلم «كل طيبا، والبس طيبا، واعمل صالحا».

تمتع محمد البكرى فى حياته بنفوذ أدبى واسع، وتبادل الرسائل مع الملوك والأمراء والوزراء والأعيان فى كثير من أنحاء العالم الإسلامى. وكانت تصل إليه الهدايا النفيسة، وكان مقبول الوساطة. وقد ذكره الشعرانى فى ذيل طبقاته وأثنى عليه كثيرا. كما ذكره عبد الرؤوف المناوى فى طبقاته ــ كتاب «الكواكب الدرية ويعرف بطبقات المناوى. ــ الطبقة العاشرة ــ فقال ــ .(.... رزق من القبول والحظ التام عند الخاص والعام مالا تضبطه الأقلام. وكان فصيح اللسان، ذكى العصر والزمان. يلقى دروسا فى التفسير محررة موشحة بمناقشات كبار المفسرين كالزمخشرى وأضرابه ويأتى فى تقريره بما يدهش الناظر ويحير الخاطر. واختص فى زمنه بإلقاء دروس التصوف الحافلة البديعة. ولم أر أحد من علماء عصره مثله فى صفاته وخلو مجلسه من اللغط واللغو والغيبة. فكان مجلسه لا يذكر فيه شيء من ذلك البتة.، بل كله فوائد علمية. إما تفسير بعض آيات قرآنية أو أحاديث نبوية. وسمعته يقول: هذا القص الواقع فى وعاظ زماننا يستحقون عليه القص. وكان الباشا وقاضى العسكر فمن دونهما من الأمراء والكبراء يأتون إليه ويخصونه من بين أقرانه بالزيارة مرارا وكرارا كثيرة).

وإذا كان بعض معاصريه أنكر ولايته لأنه لم ير له كرامة فإن البكريين اعتقدوا فيه الولاية، ورووا له الكرامات الكثيرة. وقالوا إذا كانت لك حاجة إلى الله وأنت فى أى مكان من الأرض فتوجه نحو قبره وقل «ياشيخ محمد، ياابن أبى الحسن، يا أبيض الوجه، يابكرى ، توسلت بك إلى الله تعالى فى قضاء حاجتى» فإنها تقضى، وهى مجربة فيما زعموا.

ويعتبر محمد البكرى أعظم شخصية بكرية ظهرت فى مصر خلال العصر العثمانى. فهو الذى وضع الحزب البكرى المشهور الذى انتشر بين أتباع الطريقة البكرية مدة طويلة. وهو أول من اتخذ شعره وسيلة للدعاية للتعاليم البكرية. وقد ترك ديوانا ضخما.

ولمحمد البكرى ، عدا هذا الديوان الضخم، مجموعة رسائل عنوانها «دستور الغرائب ومعدن الرغائب» وله كذلك بعض الرسائل فى التصوف. وسنقصر الكلام هنا على شعره.

شعر محمد البكرى ، عد القليل منه ؛ فى التصوف. ولكى نقف على حقيقة مذهبه الصوفى سنضع أمامنا بعض ما يكشف لنا عن آرائه الصوفية فمن ذلك قوله:

كم أناس توغلوا فى الدعاوى
زعموا أنهم من الأبرار
بل من العارفين بالله لكن
قسما إنهم من الكفار
أطلقوا وحدة الوجود وقالوا
كل شيء هو الإله البارى
يا لقومى أما لطه نصير
غاب من لم يكن من الأنصار؟
أى شخص يقول آمنت بالله
ـه ويرضى مقالة الفجار؟
وتراهم تمشدقوا بأكاذيـ
ـب افتروها بالنشر والأشعار
أطرقوا الرأس حيلة لحطام
وسعوا فيه حيلة الأفكار
قائل منهمو أنا الحق والـ
ـكل أنا وحدة بلا إنكار
وغدوا فى أثواب زور ولبس
وشنار وذلة وعوار

فى هذه الأبيات تعريض شديد بالاتحاديين (مذهب الاتحاد ينص على أن الخلق متحد مع الحق) والحلوليين (مذهب الحلول ينص على أن الله حال فى المخلوقات) : والقائلين بوحدة الوجود. واتهام لهم بالكذب والتزييف، والغش والخداع، فضلا عن الكفر والفجور. وقد كرر هذا فى مواضع كثيرة من شعره. فمن ذلك قوله:

ما حلت، بل جلت وما اتحدت
بمشرق ، لا ولا المعنى بمنقسم

وقوله :

حلول محال واتحاد مخالف
لوحدته فالوصف فيه تلونا

وقوله :

حيرة عمت الوجود فأعمت
عن سناها قوم وصحبا وآلا
فاستمع لى واستنصت الكون وافقه
ما إليك انتهى وخل الخيالا
ليس فى مظهر يحل حبيبى
هو أعلى قدرا وأبهى كمالا
لا ولا باتحاده قال قوم
عرفوه حاشا لذا أن يقالا

فإذا كان محمد البكرى كما ترى ينكر مذهب الاتحاد والحلول ووحدة الوجود ويكفر أصحاب هذه المذاهب، فبأى رأى كان يدين؟ الواضح من شعره أنه كان يقول بوحدة الشهود، أى أنه يذهب مذهب ابن الفارض مع فارق عظيم، وهو أن محمد البكرى يقول بالحقيقة البكرية التى تنتقل فى ذرية الصديق، والتى امتازت بها هذه العائلة عن غيرها من الناس. ولو أنه قال بمذهب الاتحاد أو الحلول أو حدة الوجود لفقد هو وأفراد بيته الميزة الوحيدة التى يتمتع بها، وذلك لأن المذاهب السابقة تسوى بين

الناس وتجعلهم كلهم متصلين بالذات الإلهية، فلا ميزة لأحد على أحد. وهو يريد أن يكون لبيته مكانة خاصة وميزة لا يشاركه فيها غيره، ألا وهي وراثته للحقيقة المحمدية والحقيقة البكرية. وإذا كان محمد البكرى قد كفر القائلين بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود، فإن الإسلام الصحيح يبرأ من التعاليم البكرية والقائلين بها، والمروجين لها.

ذكرنا أن محمد البكرى كان يدين بمذهب وحدة الشهود. والمؤمنون بهذا المذهب يقولون إن الله يتجلى لكل من يخلص له فى عبادته ويفنى فى حبه. قال محمد البكرى:

ولاحت لنا فاستغرقت كل واحد
وصارت له فينا عن الأين طاويه
مقدرة سر الوجود بوحدة الشـ
ـهود فلا تلقى هنالك ثانيه

والمعنى أن الذات الإلهية تجلت وتكشفت وجذبت نحوها هؤلاء المتصوفة فغابوا عن الزمان والمكان، ولم يشعروا بوجودهم من فرط النشوة.

ويعبر محمد البكرى عن مذهب وحدة الشهود مستدلا بقصة موسى عليه السلام حينما رأى النار وتوجه إليها فتجلى له الله سبحانه وتعالى وكلمه. قال:

جمعتنى منك حتى كنت منك بما
قدست فيه لموسى ذلك النادى
جعلت بالشجر الخضر نارك فاعـ
ـتزت بنورك جميعا سرحة الوادى
فظنها المطلب المقصود فابتدر الـ
ـمشهود حتى تبدى أنك البادى
ما أنت نار ولا نور تقسمه الـ
ـأحلام هيهات أنت الواحد الهادى
فامنن بكشف حجاب أنت ناسجه
عليك منك وقرب كل قصاد

فى هذه الأبيات إشارة إلى قوله تعالى على لسان موسى «امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى» ـ طه آية ١٠ ـ ويقول المتصوفة إن الله تجلى لموسى فى صورة النار لأنها عين مطلوبة من جهة ومن جهة أخرى فإنها رمز القهر والمحبة، لأنها تفنى كل ما اتصل بها. أى كل من تحقق من وحدته الذاتية وهذا الفناء هو الذى الذى يعبر عنه المتصوفة بالجمع. والنار كذلك رمز المحبة لأنها مصدر النور المحبوب لذاته.

وينكر محمد البكرى لبس الصوف والمرقعات. لأنها لا تتفق مع ما كان عليه من غنى قال:

وما مذهب للفيلسوف وفرقة
بلبسته للصوف مذهب شرعتى

ومن مصطلحات الصوفية الواردة فى شعره:

١ ـ الجمع والفرق : الجمع الحالةالتى يشعر الصوفى فيها بوحدة الحق والخلق، ويفنى عن نفسه وعن كل ما سوى الله. فهى حالة غيبية روحية وعكسها حالة «الفرق» التى يكون فيها فى حالة صحو، أى حينما يشتغل بأمور الدنيا. قال:

وأبعد الجمع عنهم فى نشو نهمو
ما يحجب العين من غبن ومن كدر
فالحق بالحق مرآة لشاهدهم
وليس ثم سوى المعشوق للفطر

٢ ـ البسط والقبض: البسط هو النشوة التى يشعر بها الصوفى فى حالة فنائه بالذات الإلهية. وعكسه القبض، وهو الضيق والتبرم الذى يقع فى حالة الصحو. قال:

وأطلقهم بسطا بكل لطيفة

وقيـدهم قبـضـا بدائرة الفنا

٣ ـ الطى والنشر ، وهما كالجمع والفرق. فالطى : انطواء الخلق فى الحق فى حالة الفناء، أو الغيبة الروحية. وعكسه النشر. قال:

نشـر وطى حكمـة قـدسيـه
سـعـدى ومى ظلة رسـميـه

٤ ـ الوتر والشفع :الوتر هو الذات الإلهية. والشفع هو العالم ويقول المتصوفة إن الذات الإلهية إذا نظر إليها مجردة عن جميع العلاقات والنسب لم يكن لها دلالة ولا إشارة إلا على نفسها. أما العالم الذى هو كثرة من صور الوجود فله إشارتان : إشارة إلى نفسه، وإشارة إلى الذات المندرجة فى كل صور من صوره. والحقيقة أن الوتر هو الشفع ولكنهما متغايران فى الذهن، كما أن الواحد العددى هو عين الأعداد كلها ولكنه مغاير لها ذهنا. وهذا الرأى الرياضى قديم ذهب إليه اليونان، فقالوا إن الواحد أصل العدد، وكل ما يأتى بعده فهو مندرج فيه. فالإثنان عبارة عن واحد زائد واحد. والثلاثة عبارة عن واحد ، زائد واحد، زائد واحد. وكذلك سائر الأعداد. وقد أخذ إخوان الصفا عن اليونان هذه الفكرة فقالوا إن الواحد أصل العدد ومنشؤه ، وأوله وآخره. قال محمد البكرى:

ومنه شـفـعـه الأزهر
بـدا فـى الخـلـق بـالـوتـر

وقال:

واستغرق الشفع بالوتر المحيط ولا
تترك لنفسك سهما غير مرمى

٥ ـ اللاهوت والناسوت : يقول المتصوفة إن لكل موجود ناحيتين: ناحية الباطن أو الحق ويسمونه باللاهوت. وناحية الظاهر أو الخلق ويسمونها بالناسوت. قال محمد البكرى:

فلم أدر ما الناسوت أين ولا الذى
تعين باللاهوت عن وصف نسبة

٦ ـ الفيض : تجلى الذات الإلهية . قال:

هو الجمع فى عين الشهود بلامرا
تجلى بأنواع من الفـيض بالأمـر

وتكون بمعنى خروج شىء من شىء، مثال ذلك قوله:

وعطر الأرج القـدسى حلتنا
وفاض من معصرات الغيب وادينا

٧ ـ التعينات : وهى مجالى الذات الإلهية. فكل ما يتجلى فيه الله يسمى التعين. قال:

وفى العروش وألواح النقوش كما
شـاء التـعين فى مـثل وفى مـثل

٨ ـ البرزخ : حالة ما بين الفناء والصحو. قال:

فأشباحهم فى برزخ من شهوده
وأرواحهم فى غيبة القرب والغنى

٩ ـ الحيرة : الحالة التى يرى الصوفى فيها الحق فى كل شىء. ويرى الواحد كثيرا، والكثير واحد، والأول آخرا، والآخر أولا، إلى غير ذلك من الأمور المتناقضة التى توقع النفس فى الحيرة وتجعلها هائمة على وجهها، دائبة الحركة فى دائرة الوجود، قال:

هديت بالغـرة من ضل فى
طرتك الدهمـا وحـيـرتنى

١٠ ـ القدوس والسبوح: هما من أسماء الله. ومعناهما المنزه، وإن كانوا يقولون إن القدوس أخص في معنى التنزيه من السبوح وأبلغ، إذ التقديس تنزيه الله عن كل صفات الممكنات ولوازمها حتى كمالاتها، وعن كل ما يتوهم ويتعقل في حقه تعالى من الأحكام الموجبة للتحديث والتقييد. وبعبارة أخرى التقديس هو نهاية التجريد، ولا تقول به إلا النفوس المجردة التي لا صلة لها بالأمور المادية. قال محمد البكري:

إلى القدوس الذاتي والمعهد الروحي
إلى ملكوت منه يظهر سبوحي

وقال:

وقد دخلوا لكن بيسوت وجودهم
وأدخلني القدوس أي جناب

١١ ـ السر المحيط والسر البسيط. يطلق الأول على الذات الإلهية، والثاني على الإنسان قال:

وبعزة السر المحيط مركب السـ
ـر البسيط بطينة وتراب

١٢ ـ النفخ، وهو خروج شيء من شيء، أو فيض شيء من شيء. قال:

ولقوله ونفخت فيه آية
تعطي القلوب من المنى ما تطلب

١٣ ـ الأحدية والصمدية: الأحدية اسم للذات المجردة عن جميع الأسماء والصفات. والصمدية نسبة إلى الصمد، من أسماء الله تعالى. قال:

في روضة أحدية صمدية
أنا لي بها مني المغني المطرب

١٤ ـ الهوية: الصورة التي يتجلى فيها الحق يوم القيامة. قال:

ياهويات صفات ظهرت
في ذوات بالتجلي قهرت

١٥ ـ قرآن وفرقان: استخدم المتصوفة كلمة «قرآن» بمعنى الدعوة إلى تنزيه الله. فمن دعا إلى تنزيه الله فهو قرآني. وقد ردد محمد البكري هذه الكلمة في شعره فقال:

قرآن عرفاني الأعلى يكلمكم
فاسمعوا وانصتوا يا جملة الأمم

وكذلك استخدموا كلمة «فرقان» ومعناها لا يختلف عن «قرآن» قال محمد البكري:

فيعيني منه لائحة
ظهرت جمعا بفرقان

١٦ ـ النكاح: يرى المتصوفة أن أعظم اتصال جسماني بين الرجل والمرأة هو النكاح، إذ فيه يتوجه الرجل لإيجاد ولد يكون على صورته ويخلفه من بعده. لذلك شبهوا توجه الله إلى خلق آدم ونفخه فيه من روحه ليكون على صورته ويخلفه ويرى فيه نفسه؛ شبهوا هذا بالنكاح قال محمد البكري:

وعزة قد أنكحتها بكثير
وقيس لليلى صار في شرعتي بعلا
فولد ذاك البعل منها مشاهدا
يعددها شكلا ويجمعها شملا

١٧ ـ التابوت: وهو في اصطلاح الصوفية

الجسم الإنساني . وقد ورد ذكر التابوت في قوله تعالى «وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة» البقرة آية ٢٤٩ والمراد بالسكينة عند المتصوفة : الحضور الإلهي، أو الله نفسه.

وفي هذا المعنى يقول محمد البكرى:

وقابلك التابوت فيه بقية
يضم بها التابوت من سره شملا

١٨ ـ العارف: هو الولى أو الإنسان الكامل الذى تحققت فيه كل صفات الوجود، فكان مظهرا تاما وكونا جامعا لها وقلب العارف من رحمة الله، وهو أوسع منهما لأنه وسع الحق جل جلاله. ومن خصائصه أنه يشاهد الحق في كل مجلى، ويراه في كل شيء، ويعبده في كل صورة من صور المعتقدات. وقد وصف محمد البكرى نفسه بأنه عارف الوقت، ومخصوص الزمان. قال:

الفتى البكرى مقدام الوغى
عارف الوقت ومخصوص الزمان

١٩ ـ الحكمة: والمراد بها عند الصوفية التعاليم الباطنية التي اختص بها النبي محمد عليه السلام وورثها من بعده البكرية. وأطلقوا على هذه التعاليم اسم العلم الباطن. وهو عندهم علم الطريق الصوفي، وما ينكشف للصوفية من حقائق الأشياء، ومعاني الغيب. قال:

ينزل الحكمة في روضها
غيثا تعالى الله من ودقه

ومن خصائص الحكمة أنها تنزل على القلوب، لا على العقول.

تجلى المطلق الأعلى
فجلى نوره الأدوار

٢١ ـ ذات الذوات . ومعناها الحقيقة المحمدية. قال:

هو السر في ذات الذوات تقابلت
شواهده في فيء نفس وطينة

٢٢ ـ الولي: الولاية عند المتصوفة أساس المراتب الروحية كلها. فكل رسول ولي، وكذلك كل نبي. وأخص صفات الولي المعرفة ، أي العلم الباطن. والنبوة والرسالة تنقطعان لأنهما مقيدتان بالزمان والمكان. أما الولاية فلا تنقطع. وقد وردت كلمة «ولي» في مواضع مختلفة من شعر محمد البكرى. قال:

فعساه يذكرنا وذلك سؤالنا
فهو الولي ابن الولي ابن الولي

٢٣ ـ الحضرة: المجلى الذى يظهر فيه أثر إلهي من نوع خاص. أو المجال الذى يظهر فيه فعل إلهي خاص. قال:

وانجلت آزال حضرته
من شئون البدء في الأبد

وقال:

حدثنا الواحد عن واحد
عن حضرة المشهود والشاهد

وقال:

هي الروح والروح أمر خفي
دق إلا عن حضرة الرحمن

فحضرة الرحمن هي مجموعة المجالي التي

يظهر فيها أثر الرحمة الإلهية.

٢٤ ـ التخلل: هو سريان الحق فى صورة الموجودات جميعها. قال:

تخلل روحى حبه فهو شاهدى
ومشهود روحى فى جميع المشاهد

ويفسر الصوفية كلمة «خليلا» فى قوله تعالى «واتخذ الله ابراهيم خليلا» ـ النساء آية ١٢٥ ـ بالتخلل وهو السريان.

٢٥ ـ أسماء الذات: قال المتصوفة إن الكون هو الأسماء التى أطلقها الله على نفسه. وغاية الخلق عنده أن يرى الله نفسه فى صورة تتجلى فيها صفاته وأسماؤه. أو بعبارة أخرى يرى نفسه فى مرآة العالم. وإلى هذا يشير محمد البكرى فى قوله:

أسماء الذات تجلت فى
ستر الأوصاف وذا الأرب

هذه أهم المصطلحات الصوفية التى أوردها محمد البكرى فى شعره. وقد أخذها كلها من كتب ابن عربى وبخاصة فصوص الحكم الذى يشير إليه بقوله:

نقشت فى فصوصنا حكم الـ
وصف فرحنا نحير فى الحكماء

وقد سبق أن ذكرنا أن البكريين أضافوا إلى جانب الحقيقة المحمدية بمعناها الصوفى؛ حقيقة أخرى هى الحقيقة البكرية. قال محمد البكرى:

وأعلنت نورى فى مشاهد حضرة الـ
ـجمال على أعلام أعلام ملتى

وقدست هاتيك المنازل عن سوى
تنزل عرفاتى ببطحاء مكة
ومنى بصديق صديق مطهر الـ
وجود ومرآتى وعين سريرتى
وما ثم إلا أن أمرى أره
وتحقيقه فى نظرة أى نظرة
ولولاى ما ولى ولى ولاية
وقد وليت هذا اللوا أوليتى
فقل لأهيل الحق قالة صادق
تألى عليها بالعهود الوثيقة
عليكم بباب الله باب محمد
فلوذوا به قبل انخرام المنية
وفوزوا بتقبيل الثرى فى رحابه
ولا تنثنوا عنه بصارف شهوة

فهو فى هذه الأبيات يشير إلى وراثته للحقيقة البكرية، فأمره أمرها. ولولاه ماظهر الأولياء. ثم ناشد أتباعه ومريديه أن يلجأوا إليه ويلتفوا حوله، ويلوذوا ببابه الذى هو باب الله حتى يفوزوا برضى الله. وقد عنى نفسه فى قوله «عليكم بباب الله باب محمد» إذ أن اسمه محمد. فمن لاذ ببابه وقبل ثراه فقد ظفر بالحسنى وزيادة، وأصبح مقربا من الله. وقال:

أما بالصدق والتصديق
موالى حضرة الصديق
مجالى طلعة التحقيق
وأهل الفيض والذكر

وفى آل أبى بكر يقول:

لهم نفحات هب نشر نسيمها
فمن طيبها كل المعاهد عطروا
لهم ألسن عن ربهم بشئونه

تحـدث عنه منه فـيـه وتخـبـر

لهم عـزمات لو أشاروا ببعـضـها

ليـذبل أو رضـوى لهـدوا وفطروا

لهم رحـمـات لو يقابل فـيـضـها

ذنوب البرايا أصبحت وهي تغفـر

لهم نظرات صـاحـبـتـهـا عناية

بها الفقر يفنى مثلما الجبر يكسر

مفاتيح أسرار القلوب وحضرة الـ

غيوب ومن أسرارهم ليس تحصر

خـلائف أقطاب ملوك أئمـة

ميامين من جدواهمو فاض كوثر

بنو الصدق والصديق أفضل سيد

مـآثره بعـد النبـيين تذكـر

محـبـهـمـو في ذمـة الله آمن

بعـزمـهـمـو يرعى ويحـمى وينصـر

هذه بعض خصائص العائلة البكرية . فهم أهل التقوى والورع، وأهل العلم الباطن. وهم أولو العزم والطول، وأهل الرحـمـة الذين أودع الله فـيـهم أسراره. من أحبهم فقد نجا من الهلاك، وأمن على نفسه من شرور الدنيا وعذاب الآخرة.

وأبو بكر الصديق أفضل الوارثين للنبى صلى الله عليه وسلم . قال:

عليك صـلاة الله ثم سـلامـه

يدومـان مـا قلب لنحـوك منبعث

وآل وأصـحـاب ولا سيـمـا الذى

هو الصادق الصديق أفضل من ورث

ويصف محمد البكرى نفسه بأنه يضىء العالم بخلافته، ويغيث الملهوف، ويحمى الضعيف، ويكشف الخطوب، ويفرج الكروب. وباسمه يزول البؤس والضر. قال:

وإنى لقـدس العـالم الأحـدى من

إضاءة بدرى بالخلافـة لألاءوإنى إذا

المضطر نادى أغـشـتـه

وتكشف عنه بالعناية حـوباء

وأنى أحـمى من أشـاء بإذنك الـ

ـعلى وتأتيـه بمنك سـراء

وأنى كـشـاف الخطوب وفـارج الـ

ـكروب وباسمى زال بؤس وضـراء

وأنى سبط المصطفى أحمد الذى

شريعته يمن ويسر وسمحاء

وإنى من أبناء صـديقـه الذى

بأسـراره سـادت أصـول وأبناء

ففخرا لأتباعى وخدام حضرتى

وبالله أوليهم جميع الذى شاءوا

نجد مثل هذا منبثافي ديوانه. فهو لم يترك الناس ليعتقدوا فيه ما شاءوا ، وينسبوا إليه ما يحلو لهم من الكرامات والخوارق، بل أخذ يدعوا لنفسه، وبنوه بفضائله وخصائصه، وما حبى به من القدرة الفائقة على إغاثة الملهوف وحماية الضعيف. ودعا أتباعه لأن يفخروا به ويتمسكوا بأهدابه. وقد وضع لأتباعه ومريديه أناشيد خاصة يتغنون بها في حلقات الأذكار. وفيها تقديس عظيم لآل الصديق. فمن ذلك قوله:

يا نفـحـة نبـويـة يا نفـحـةبكرية

يابهـجـة أحـديـة ياعـزة صـمـدية

ياحـضـرة قدسيـة فيـها الأمانى للأريب

الغوث بالفرج القريب

يا آل صديق الحبيب

اصـدق وصـدق مـا مـريد واترك مماراة العـمـيـد

واسلك على النهج السديد واتبع لنا الرأى الحميد
فأنا المخصص بالمزيد
وأنا النجيب ابن النجيب
الغوث بالفرج القريب
يآل صديق الحبيب

هكذا اتخذ محمد البكرى شعره وسيلة للدعاية له ولبيت الصديق. وكان هو كرئيس حزب دينى كبير يرغب فى طبع أتباعه بطابع خاص حتى يمتازوا عن غيرهم. وهذا الطابع هو ترتيبهم على حب آل الصديق وتقديسهم، والولاء لهم فى السر والعلن، وإخلاص الاعتقاد فيهم. ولا يتيسر ذلك إلا إذا شغلهم بمثل تلك الأناشيد ، يضعها فى أسلوب سهل عذب ، له رنة موسيقية حلوة. وكان أتباعه يحفظون هذه الأناشيد ويتغنون بها، وينقلونها من مكان إلى مكان فذاعت وانتشرت على كل لسان. وهو يذكر بعد النفحة النبوية النفحة البكرية. وهذا طبيعى لأنه يريد أن يصرف الناس عن حب آل على المعادين للسلطنة العثمانية ويجعلهم لا يؤمنون إلا بأبى بكر وآله الموالين للسلطنة العثمانية. فالحقيقة البكرية التى هى هدفه الأول والأخير، والتى اجتهد فى الدعاية لها وحمل الناس على الإيمان بها؛ ظاهرة ظهورا واضحا فى هذا الشعر وتلك الأناشيد.

وكما أن محمد البكرى تأثر بكتب ابن عربى وخاصة فصوص الحكم، فإنه تأثر كذلك بابن الفارض. فنظم فى الحب الإلهى والخمرة الإلهية شعرا كثيرا نسج فيه على منوال ابن الفارض؛ وأضاف إلى جانب الخمرة الإلهية خمرة أخرى هى الخمرة البكرية . قال:

وإذا أديرت خمرة بكرية
أذن وقل لا عاش من لا يستقى

وإلى جانب الحب الإلهى حب آل الصديق

ونجد فى هذا الشعر غزلا بالأماكن الحجازية وتشوقا إليها مثل : سلع، ورامة، والوعساء، وحاجر وغيرها. وهو لا يقصد بها ظاهرها، وإنما يكنى بها عن الحقيقة المحمدية. كما يذكر الكثيب ويكنى به عن المقامات المحمدية التى تشبه رمال الكثيب فى عدم القدرة على حصرها. ومثال ذلك قوله:

ذكر العذيب ورامة فتشوقا
يبكى حذارا أن يقال تعوقا
لا والذى خلق النوى وقضى به
لست المخلف عن أثيلات النقا

والنقا : كناية عن المقام المحمدى الذى انتقاه الله واختاره.

ونجد كذلك غزلا ببعض النساء كسعاد وزينب ومى والرباب وغيرهن.

وهو حين يذكر هذه الأسماء يكنى بها عن الحضرة الوجودية المحتجبة بصور الأكوان العدمية. مثال ذلك قوله:

أدعو سعادا ثم أدعو زينبا
ها قد عشقت فقيدى أو أطلقى

ويذكر الحمى ويكنى به عن الروح الأعظم أو الذات الإلهية . قال:

جدد بذكر الحمى عهدى وأشواقى
واهتف بمن حبهم عهدى و ميثاقى

والربوع كناية عن مقامات العارفين ومنازلهم، وما يجدون فيها من الحقائق والعلوم. قال:

درت بين الربوع أسأل عنهم
أين حلوا وجدتهم فى فؤادى

ويذكر حادى الأظعان، فيريد بالحادى : الله، والأظعان : الناس

قال:

ويا حادى الأظعان روح بذكرهم
فؤادى وقل عن ظبى رامة منشدى

والأقمار كناية عن العارفين بالله . قال:

ما رأينا الأقمار تهتز بالتيـ
ـه دلالا وتنثنى كالغصون

ويكنى بالخمر عن شراب المحبة الإلهية . قال:

فهاتها خمرة لو أنها ذكرت
عند اللسيع لأغنته عن الراقى

وقد سبق ابن الفارض إلى هذا المعنى فقال:

ولو أن ركبا يمموا ترب أرضها
وفى الركب ملسوع لما ضره السم

ويكنى بألحان عن حضرات الذات العلية .
قال:

فسر معى نحو حانات تزف بها
عروسها سير مشغوف ومشتاق

وقد أتى فى شعره بكثير من معانى ابن الفارض.
مثال ذلك قوله:

أنا يعقوب هواها فارحموا
من تفانى فى الجمال اليوسفى

وهو شبيه بقول ابن الفارض

لو أسمعوا يعقوب ذكر ملاحة
فى وجهه نسى الجمال اليوسفى

وقوله:

أو باسمها دعى الأموات لا بتدروا
من فورهم يحسبون الحشر للباقى

مأخوذ من قول ابن الفارض:

ولو نضحوا منها ثرى قبر ميت
لعادت إليه الروح وانتعش الجسم

وقوله:

أو أنها جليت والليل معتكر
لأشرق الليل منها أى إشراق

مأخوذ من قول ابن الفارض:

ولو خضبت من كأسها كف لامس
لما ضل فى ليل وفى يده النجم

وكذلك تحدث عن الوتر والعود، والسماع والغناء، والشطح والرقص وغير ذلك مما عرف به الصوفية ، فمن هذا قوله:

لم تسمع الأذن أنباء من الوتر
وإنما الوتر أهدى طيب الخبر
والعود إن رن أن الصب فابتدرت
دموعه فحكت صوبا من المطر
ما ذاك من طرب باللهو بل طرب
بحكمة أشهدتها العين بالأثر

ونجد أمثال هذا كثيرا فى شعره.

* * *

وقد سبق أن ذكرنا أنه أضاف إلى جانب الحب الإلهى حب آل الصديق، والتفانى فى الإقبال عليهم والإخلاص لهم. وكان يعتبر نفسه صديق زمانه، الوارث للحقيقة البكرية. وشعره فى هذا يشبه شعره فى الحب. الإلهى أنظر إلى قوله:

لا تشتغل عن شهود
إياك إياك واحذر
فكل شيء مليح
منه جمالى أكبر
البدر أشرق منى
وحاجب الشمس أسفر

وناسم من حديثي
كل الأماجد أسكر
والله والله لولا
جمال ذاتي يستر
لأحرقت نيراني
أهل الوجود المعمر
ولم يكن قط عبد
لحسن وجهي أبصر
هل ظن غير مولي
من الأئمة يذكر؟
فمن يؤمل جودي
بغاية السؤل يظفر
ومن يخالف أمري
في حضرة المقت يقبر
أحمي الذمار وإني
ليث الزمان الغضنفر
سبط الحبيب ونجل الصـ
ـديق أكرم معشر
قد فاز قومي وصحبي
بذاك حالي بشر

فهو يدعو الناس إلى ترك كل ما يشغلهم عن شهوده، ويحذرهم من الانصراف عنه، ويقول إن جماله يفوق كل جمال، وأن البدر والشمس طلعا منه. وحديثه مسكر، ولولا جمال ذاته لأحرقت نيرانه الدنيا وما فيها. والأئمة كلهم لا يذكرون إلى جانبه، ولا ينبغي لأحد أن يذكرهم. ومن أمل جوده ظفر بمطلوبه. ومن خالفه ولم يؤمن به أصابه غضب الله، وحقت عليه اللعنة. وهو حامي الناس من البلاء. وقومه وأصحابه ومحبوه هم الفائزون.
وقال:

ألذ من رشف زلال الضرب
ومن مدام توجت بالحبب
وضرب قينات بأعوادها
تهيم القلب بحسن الطرب
ومن سرير الملك رقيته
يبلغ العبد رفيع الرتب
ألذ من ذاك ومن ذا وذا
حب بني الصديق فخر العرب
جحاجح المجد وملاكه
مظاهر السر محل العجب
في كل عصر منهمو سيد
مؤيد بالحق ماحي الريب
ما أمه في الكرب من أمه
إلا وزالت عنه كل الكرب
فاقصد حماهم خاضعا سائلا
رضاهم فهو أجل القرب
وإن يضق أمر فقل سادتي
هذا بني الصديق وقت الحسب

لا نجد شاعرا من ذرية أبي بكر ـ قبل محمد البكري ـ نظم مثل هذا الشعر، ولا اتخذ شعره وسيلة للدعاية إلى حب آل أبي بكر والإيمان بالحقيقة البكرية.

وقد اتخذ من نسبه المتصل بأبي بكر الصديق من ناحية أبيه، والمتصل بالحسن بن علي من ناحية جده لأمه مجالا عظيما للفخر. فنظم في هذا الصدد قصائد كثيرة تعيد إلى الأذهان شعر الشريف الرضي في الفخر. ولا غرابة في ذلك فقد توفر له العنصر الذي توفر للرضي. فمن ذلك قوله:

أنا ابن أبي بكر المجتبى
وسبط كرام بهم أمدح

بنى حسن سبط طه البشير
ومن نوره الزاهر الأوضح
به شرف البيت الأول والركن الـ
ـحطيم وزمزم والأبطح
إذا وزن الناس طرا به
فكفة ميزانه أرجح
فتحت كنوز الهدى للعفا
ة فأعطيهمو خير ما يمنح
ولست براض وحاشاى أن
يخيب مريدى فلا ينجح
أسر إذا أمنى سائل
فإنى بإسعافه أفرح
ولى همة فوق فرق الأثير
ونفس لما فوقه تطمح
بحد لسانى ذبحت العدا
ة فالله سيف به أذبح
ويذكرنى الحلم خلقى الكريم
فأعفو ومثلى من يسمح
ورثت النبى فلى من رباه
مقيل الخلافة والمسرح
وقمت بأعتاب عرفانه
مقيما هناك فلا أبرح

فهو هنا يفخر بنسبته إلى أبى بكر وإلى النبى صلى الله عليه وسلم. ويقول إنه يهدى الناس إلى الحق، وأن قاصده لا يخيب. فهو كريم يفرح بقدوم السائلين عليه. وبعد أن قدم الفخر بحسبه ونسبه وكرمه؛ أخذ يفخر بفصاحته وقوة بيانه التى أهلك بها أعداءه. ثم فخر بحلمه وعفوه.

وانتهى من ذلك إلي أهم شيء عنده وهو وراثته للخلافة النبوية. والبكريون يعتقدون أن النبى حينما عهد إلى أبى بكر بالصلاة بالناس إنما عهد إليه بالخلافة. وعلى ذلك فمحمد البكرى هو الوارث الوحيد للخلافة النبوية فى عصره. فهو فى فخره بحسبه ونسبه ، وكرمه، وحلمه، وعفوه، وصفحه، وفصاحة لسانه وقوة بيانه ووراثته للنبى عليه السلام يشبه تماما الشريف الرضى من حيث المعانى والأساليب.

ومما روى عنه قوله: «جدتى لوالدتى من بنى مخزوم ، فولدنى فى قرش ثلاث بيوت : بنو تميم، وبنو مخروم، وبنو هاشم» وقد ردد فى شعره فقال:

أنا ذو المجد أثيل
وابن فياض الهبات
من بنى تيم قريش
صفوة العرب السراة
وذؤابات بن هما
شم االغر الحماة
وزعامات بنى مخزو
م الصيد الكفاة
نحن بالصديق فزنا
بالأمانى العاليات
فلمن يهوى هوانا
كل أنواع الهبات

وكما أن الشريف الرضى يقرن الفخر بالحماسة، فكذلك فعل محمد البكرى فى أسلوب قوى رائع لا يكاد يختلف عن أسلوب الرضى من حيث جودة الصياغة وفخامة الألفاظ، فضلا عن الصور والمعانى. ومثال ذلك قوله:

وسرت وثغر النصر يبسم سابحا
لها ما به وسع النفانف طافح
كأن مجر الجيش بالقوم زاخر

خضم وفلك الخيل فيه سوابح
كأن مثار النقع أهدى لنا شذا
من المسك تذريه علينا اللواقح
كأن مدار الحرب حان وخيلنا
نشاوى نجيع أرسلته الجوانح
كأن أعادينا ولا بلغوا المنى
أكف لأسياف المنايا تصافح
ونحن ملوك الحرب والصيد صيدنا
وليس لنا إلا الأسود جوارح
وفتياننا شم العرانين عزة
وكيف وإنا فى السراة جحاجح
ومقعدنا فوق الثريا جلالة
وأبصارنا من فوق ذاك طوامح
ومجد معالينا تعالى مقامه
فإن سيم مدحا لم تنله القرائح
فإن كان فخر الأكرمين صحائفا
فإنا لآيات الكتاب فواتح

وإذا كان محمد البكرى صادقا فى فخره بحسبه ونسبه، فإن لم يصدق فى هذا الشعر الحماسى الذى يصور نفسه فيه فى صورة البطل المقدام الذى تهاب لقاءه الشجعان. وذلك لأن واقع حياته لا يدل على ذلك، فلم يكن من رجال الحرب ولم يذكر عنه أنه قاد جيشا أو اشترك فى معركة. وإنما كان يحيا حياة دعة وسلام، ويعيش فى ترف ونعيم، مشتغلا بعلوم الدين والتصوف ونظم القصائد. ومثل هذا يقال فى الحماسة عند الشريف الرضى.

وقد صبغ فخره بصبغة تصوفية . مثال ذلك قوله:

فمن أى أفق تشرقين بهذه الـ
ـمعارف إشراقا على غيره سما
فقالت بأفق العبد صديق وقته
ومن ملأ الأدوار جودا وأنعما
إمام بنى الصديق فى الوقت مطلقا
ومن أتقن الأسرار علما وأحكما
ومن جاء فى العصر الأخير لتنتهى
به رتب التدوير كيسا وتختما

فهو منبع الأسرار الإلهية ومشرق المعارف الربانية. وهو صديق وقته وإمام عصره. والأدوار جمع دور، أى الوقت الذى يقوم فيه الإمام، وهو صاحب الدور. ويقول محمد البكرى إن الأدوار انتهت به وختمت بظهوره.

***

ويدخل في باب التصوف ما نظمه الشاعر فى الوعظ والإرشاد وآداب المريد كما يراها ، مثال ذلك قوله:

مدار أحوالنا فى كل مرتبة
حفظ الحدود وترك الحظ والأرب
وأن يكون الذى يهوى مشاهدنا
مجانبا لسبيل اللهو واللعب
وأن يقوم إذا ما الليل تم له
نصف لمولاه بالإخلاص فى الطلب
يئن شوقا إلى المحبوب تحسبه
ثكلى آثار شجاها نوح منتحب
مفرغ القل من غير الحبيب له
فى بابه ذل مسكين ومكتئب
والصوم يكثر منه حيث قدره
رب العباد ليلقى غاية الأرب
والصدق يجعله زادا لرحلته

والذكر أعظم ما يختار من سبب
يطهر السر يجلو القلب يمنحه
من المعارف سرا باهر العجب
وينزل الفيض من غيث الغيوب بما
يختاره الله من كشف بلا ريب
والله نسأله عونا لطالبنا
على أوامره فى سائر الرتب

هذه هى الآداب التى وضعها محمد البكرى لأتباعه ومريديه . المحافظة على أحكام الدين وفرائضه، وترك اللهو واللعب، والإعراض عن الشهوات. ثم القيام فى منتصف الليل للعبادة والذكر والتواجد، والاتجاه إلى الله بكل ما يملك الإنسان من جوارح مع إظهار الذل والمسكنة، ثم الإكثار من الصوم الذى يطهر النفس، والتزام الصدق. وبهذه الأمور تستقيم حال المريد . وقد صاغ كل هذا فى شعر سلس عذب.

ويدخل فى باب التصوف كذلك ما نظمه فى التوسل والاستغاثة بالله وبالرسول ، وما نظمه فى المديح النبوى. فمن قوله متوسلا ومستغيثا:

إلهى إلهى أغث سائلا
فقيرا ذليلا كثير التعب
إلهى ضاقت عليه الأمور
ففرج بجودك كل الكرب
إلهى هذا مقام الحقير
وعندك ما يبتغى من طلب
إلهى حاشا ترد الكسير
وفيما لديك تناهى الرغب

فهذه أدعية وضعها للأتباع والمريدين لينشدوها فى أوقات تعبدهم. فهى أدعية شعرية تؤدى وظائف الأدعية النثرية التى كان يضعها أقطاب المتصوفة.

ونظم بعض القصائد التى تؤدى وظائف الأحزاب والأوراد. من ذلك قوله:

أعوذ بالله الصمد
من كل هم ونكد
أعوذ بالله الأحد
من كل ضيق وشرد
.... إلخ

وله مدائح نبوية قصيرة لم يتعرض فيها لذكر شيء من المعجزات ، وإنما هى تصوير للحقيقة المحمدية التى أودع الله فيها أسراره. ثم يخلص من ذلك إلى ذكر ذنوبه الكثيرة، ويظهر الندم والتوبة، ويعرب عن أمله فى شفاعة الرسول. ويختمها بالتوسل والدعاء.

وله جملة قصائد فى مدح أحمد البدوى تظهر فيها آراء الصوفية فى الأولياء فمن ذلك قوله:

لله جل جلاله بالحق أشهد
أن الإله جماله للقوم أشهد
وأنالهم رتب السيادة والعلا
لا سيما بدويهم ذو المجد أحمد
سر الحقيقة والخليقة والذى
مصباحه من نور خالقه توقد
من ذاته القدس العلى ومن له الـ
ـكشف الجلى ومن له التصريف يسند
هذا الكمى فلا يطاق نزاله
يوم الوغى، هذا المثقف والمهند

فالبدوى كما صوره البكرى تمتع بوحدة الشهود، وفنى مع الذات الإلهية فنال أسنى المراتب. وهو سر الله، أودع فيه العلم الباطن، وأجرى على

يديه الكرامات وخوارق العادات، والبدوى بطل مقدام وشجاع تضرب به الأمثال. ثم استطرد فذكر بعض الكرامات التى تنسب للبدوى.

وكان محمد البكرى شافعى المذهب. وله بضعة مقطوعات فى مدح الإمام الشافعى وتحبيذ زيارة ضريحه على سبيل التبرك. ولكن شعره فى الشافعى لا يكاد يذكر إلى جانب ما نظمه فى أحمد البدوى. ولعل السر فى ذلك أن الشافعى لم تروله كرامات، ولم تنسب إليه الخوارق التى رويت لأحمد البدوى ونسبت إليه. انظر إلى قوله فى مدح الإمام الشافعى:

هو البحر لكن فاض كوثر بره
على البر حتى ما هناك مقايس
هو البدر بل شمس الظهيرة أشرقت
فلم يبق ما بين البرايا حنادس
أبى الله إلا أن يسود ويعتلى
فليس له فى المنقبات مجانس

فهذا من المدح الذى يقال فى أى إنسان. وأين هذا من قوله فى البدوى:

سر الحقيقة والخليقة والذى
مصباحه من نور خالقه توقد

لم يحاول البكرى فى مقطوعاته التى نظمها فى الشافعى أن ينوه بمكانة هذا الإمام كواضع لأحد المذاهب الأربعة، وكمشرع له قيمته وخطره، لأن ذلك يغضب السلطنة العثمانية صاحبة المذهب الحنفى.

* * *

وكان له بعض حساد يطعنون فيه وينالون منه، وينكرون عليه عيشة الترف التى كان يعيشها. وقد شكا من هؤلاء الحساد وتوعدهم بالويل والثبور وعظائم الأمور. فمن ذلك قوله:

يا نفوسا تود يوما ترانى
نازحا عن منزلى ومكانى
مدرجا بعد عزتى وبهائى
وجميع البرود فى أكفانى
إن تموتوا غيظا فموتوا سريعا
حسبى الله فيكمو وكفانى
احسدوا ما استطعتم رشقتكم
نبال الوبال قوس الزمان
هذه لحيتى وضعت عليها
يد موف لها بحق الضمان
عن قريب يدعى بياغارة اللـ
ـه فتغدوا بهلككم شجعانى

ففى هذه الأبيات صور محمد البكرى ما انطوت عليه نفوس حاسديه من حقد ونقمة بلغت بهم أن تمنوا له الموت. ثم قال لهم: افعلوا ما شئتم، واحسدوا كيفما أردتم فلن يفيدكم هذا، بل ستموتون بغيظكم. ثم أمسك لحيته مهددا متوعدا بحرب يشنها عليهم يكون فيها هلاكهم.

* * *

وله شعر قليل عرض بعلماء عصره، فمن ذلك قوله:

أغفل الناس علوما قدست
أحكمت عزتها أيدى الحكم
يازمانا ضيعوه باطلا
فى رسوم ما بها الحق رسم
خلطوا الحق بهزل منهمو
فلهذا ما ستقاموا فى أمم

يطلبـــون العلم للدنيـــا فـــهل
بعد هذا الوصف في الأوصاف ذم؟
شـــغلهم قـــالوا وقلنا ولهم
صبوة في «صح» أم فيـه «سلم»

ففي هذه الأبيات ينعى على معاصريه اشتغالهم بالعلوم الدنيوية وإنفاقهم أعمارهم في استظهار مختلف الآراء في النحو والفقه وغيرهما. ويعيب عليهم أنهم يطلبون العلم لينتفعوا به في الدنيا، وينصحهم بترك هذه العلوم التي لا فائدة فيها والإقبال على علوم المتصوفة لأنها هي التي تقربهم من الذات الإلهية.

ولمحمد البكري مقطوعات قليلة في أغراض مختلفة ، بعضها في الألغاز، وبعضها في الإخوانيات، وبعضها في وصف الرياض.

* * *

وأما أثر البيئة المصرية في شعره فيتجلى في استخدامه لبعض الكلمات والعبارات التي تجرى على ألسنة العامة في مصر . مثال ذلك قوله:

دنا بحـــبك مـــتـــيم
مـــا على من حـــد

فكلمة «دنا» مصرية . وكذلك عبارة «ماعلى حد» مصرية وقوله:

مـــاالسـبب مـــا السـبب
حـــتى تجنيت وأسيت

فعبارة «ما السبب ما السبب؟» مصرية . ولفظة «أسيت» مما يدور على ألسنة المصريين وتكثر مثل هذه الألفاظ في موشحاته.

الآن قد فرغنا من دراستنا لمحمد البكرى . وبهذا ننتقل بالمدرسة البكرية إلى القرن الحادى عشر.

توفي محمد البكرى سنة ٩٩٤ وترك أبناءهم:

١ ـ أبو السرور المتوفى سنة ١٠٠٧هـ.
٢ ـ زين العابدين المتوفى سنة ١٠١٣هـ.
٣ ـ أبو المواهب المتوفى سنة ١٠٣٧هـ.

فأبو السرور توفي سنة ١٠٠٧هـ وفيه يقول صاحب خلاصة الأثر «وكان له الذوق الصحيح في معارف الصوفية والبلاغة الكاملة في التقرير وكان له اتساع في الدنيا ومخالطة الحكام، ومداخلة في أمور كثيرة. ودرس بالخشابية . وكان ينظم الشعر، وشعره لطيف» ولكننا لم نعثر على شيىء مما نظم.

ومن الشعراء البكريين زين العابدين المتوفى سنة ١٠١٣هـ وفيه يقول صاحب خلاصة الأثر «قام مقام أبيه من بعده ، ودرس وأفتى . كان في مصر مالك أزمة الوجاهة، وسالك رتبة اليراعة والبراعة. وكان أخوه أبو السرور المقدم ذكره من العلماء إلا أنه لم يبلغ درجة زين العابدين في التصوف والتكلم بلسان المعرفة. وكان عالما بارعا في العربية والتفسير وعلوم البلاغة. وله شعر لطيف سائغ».

«وبلغ صاحب الترجمة في آخر أمره من الجلالة ونفوذ الكلمة مبلغا ليس لأحد وراء مطمع حتى خشيه حكام مصر وكانوا يدارونه ويتوقعون رضاه. فلما كان ثالث شهر ربيع الأل سنة ١٠١٣ طلع إلى ابراهيم باشا بعد العصر على عادته. فأحضر السماط ثم القهوة. فلما أكلوا وشربوا خر زين العابدين مغشيا عليه، وحمل إلى بيته فمات. هذا هو المستفيض على ألسنة المؤرخين. وروى بعضهم أن موته كان خنقا أو غيره. وأنه طرح قرب باب قلعة الجبل. واشتهر ذلك في دمشق فبنى عبد الحق بن محمد الحجازى الدمشقي قوله في رثائه عليه. وأبياته هي هذه:

لم يهدموا أركان مصر وإنما
هدموا بقتلك قبة الإسلام
وتناوشتك يد الكلاب وطالما
خضعت لعزك صولة الضرغام
فسقى ثراك سحابة قدسية
تهمى عليك برحمة وسلام

وزين العابدين هو من أوائل البكرية الذين وضعوا شعرا فى القهوة بعد أن كانت محرمة وسمحوا بها فى سهرات العظام وكبار القوم بقصورهم وليس فى المقاهى التى كانت ملعبا للنزاعات والتوجهات المملوكية والسادة الوفائية ، فمن شعره فى ذلك:

إن تشرب القوة فى حانها
فاللطف قد حف بندمانها
حان حكى الجنة فى بسطها
برقة العيش وإخوانها
بمائها نغسل أكدارنا
ونحرق الهم بنيرانها
لاهم يبقى ولاغم إذ
قابلك الساقى بفنجانها
يقول من أبصر كانونها
أف على الخمر وأدنانها
شراب أهل الله فيها الشفا
جواب من يسأل عن شأنها

كان المتصوفة فى ذلك الوقت ينظمون الشعر فى الدعاية لشرابب القهوة معارضة لبعض الفقهاء الذين قالوا بتحريمها. وكان البكريون يقدمون فى سهراتهم هذا الشراب لضيوفهم. فأخذ الشعراء والأدباء يتنافسون فى نظم أمثال هذه المقطوعة ويتسابقون فى ابتكار المعانى اللطيفة والصور الجميلة ويبدو أن الصوفية وجدوا فى القهوة شرابا ماديا محسوسا يقابل الخمرة الإلهية التى هى من الأمور المعنوية ولا شك فى أن إفراطهم فى الحديث عن الخمرة الإلهية والساقى والحان قد ترك عندهم فراغا نفسيا هائلا، فرأوا أن يسدوا هذا الفراغ بالإقبال على شرب القهوة فى الطقوس التى تتخذ لشرب الخمر، وقلدوا شعراء الخمر فى وصفهم لها وتغنيهم بماحسنها ومزاياها، وما تتركه فى نفوس شاربيها من إبعاد الهموم والأحزان. كما ذكروا الحان والساقى والندمان، واستعاضوا عن الكأس بالفنجان. أضف إلى ما تقدم إطلاقهم كلمة «القهوة» على هذا الشراب وهى من أسماء الخمر، فكانوا يقولون «قهوة البن» ومعناها خمرة البن. ويتخذونها أحيانا من قشر البن، وأحيانا من لبه وبمرور الزمن أصبحت كلمة «قهوة» تدل على هذا الشراب المكون من الماء المغلى والبن، ونسى المعنى الأصلى للكلمة. ولم يفت زين العابدين أن يحدثنا عن الكانون الذى تصنع عليه القهوة، فيقول إنها وهى فوق الكانون تنبعث منها رائحة طيبة تجعل الخمرة بجانبها شيئا محتقرا تعافه النفس.

* * *

وأبو المواهب البكرى المتوفى سنة ١٠٣٧هـ، ذكره صاحب خلاصة الأثر فقال : «كان فى بداية أمره مائلا إلى الخلاعة، وكانت مجالسه مشحونة بأنواع الطرب من المسمعين وصنوف الملاهى» إلا أنه اضطر إلى ترك هذا بعد وفاة أخويه وتصدره لمشيخة السجادة البكرية. وكان بينه وبين نور الدين الحلبى، الأديب المؤرخ صاحب السيرة الحلبية، مودة أكيدة ، وهو الذى شجعه على تأليف هذه السيرة

«إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون» وقد أشار إلى ذلك فى المقدمة فقال «... ولا زلت فى ذلك أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، لكونى لست من أهل هذا الشأن، ولا ممن يسابق فى ميدانه على خيل الرهان، حتى أشار على بذلك وبسلوك تلك المسالك من إشارته واجبة الاتباع، ومخالفة أمره لا تستطاع ، ذو البديهة المطاوعة، والفضائل البارعة ، والفواضل الكثيرة النافعة. من إذا سئل عن أى معضلة أشكلت على ذوى المعرفة والوقوف؛ لا تراه يتوقف ولا يخرج عن صواب ولا يتعسف . وهو الأستاذ الأعظم مولانا أبو عبد الله وأبو المواهب محمد، فخر الإسلام البكرى الصديقى».

ولأبى المواهب ديوان اسمه «ترجمان العوارف» ومعظم شعره فى التصوف والحب الإلهى، والدعاية للتعاليم البكرية. وله مقطوعات فى وصف القهوة والتغزل فيها، وفى الدعوة إلى تعاطى التبغ. فمن ذلك قوله:

يا يوم بولاق وأنسى به
حكاك من شوال يوم الهلال
يا عارضا أوجب للنيل ما
سلسله وهو طليق الجمال
وقهوة تنضح مسكا ولا
بدع ففى الفنجان شكل الغزال
حبابها من فوقها مانع
نفاره فهو شباك اللآلى
تديرها هيفاء ممشوقة
خسود تثنت فى برود الدلال
كاد حجى من أقبلت نحوه
يذهب من رنات تلك الحجال
تقول للشمس قد أقبلت
تلشمى ما أنت إلا خيالى

قال الشهاب الخفاجى «وبيت الغزال من السحر الحلال، وهو بيت القصيد» وكان الفنجان يحمل صورة غزال.

تقدم أن أبا المواهب كان فى شبابه يميل إلى اللهو والخلاعة . يخرج مع أصدقائه من الأدباء والشعراء إلى الحدائق والمزارع للتمتع بالهواء الطلق والمناظر الطبيعية الجميلة. وكان حى بولاق فى ذلك الوقت كما كان منذ عصر المماليك من الأمكنة التى تقصد للتريض واللهو. ففى الأبيات السالفة يذكر أبو المواهب يوما من تلك الأيام الطيبة التى قضاها على شاطئ النيل بناحية بولاق. وإذا كان الشعراء فيما مضى ذكروا الخمر فى هذه المناسبات ـ أعنى مناسبات اللهو والرياضة ـ فإن بعض شعراء هذا العصر ذكروا القهوة ووصفوها وهى فى الفناجين تنبعث منها رائحة جميلة يعلوها حباب لطيف . ثم أخذ أبو المواهب يتغزل فى الساقية التى قدمت له ولأصحابه شراب القهوة.

وكان للبكريين حدائق ومزارع يخرجون كثيرا للتريض فيها ولذلك غلب فى بيتهم هذا النوع من الشعر الذى يصفون فيه أوقات اللهو والسرور، حيث الرياض النضرة ذات الأشجار الباسقة، والجداول الرائقة، والفواكه المختلفة. ولأبى المواهب رسالة بعث بها إلى أحد أصدقائه من الأدباء يدعوه للرياضة معه جاء فيها «إن مدينة بولاق هى مجتمع البحور، ومدار فلك السرور بفلك البحور. طفحت بالنيل لا جزر عن جزره المديد، واستلت سيف النهر لقطع حروف الجروف من أقصى الصعيد» وقد أفسد أسلوبها بما استخدم فيها من ضروب الصناعة اللفظية.

ومن قوله وربما كان فى مدح والده:

أيهـــا البكرى يا من فـــضله
فـاق كل الناس عـجـمـا وعـرب
لى جـــد ياســيـــدى يامـصطفى
يا إمـامـا قـد حـوى كل الرتب
لا رعى الرحــمن من عــاداكـــو
فــــهـــــو فى هم وغم ونصب
وعليـه الخـزى فى طول الحـيـا
ثم عند الموت يلقى للتــعب
باء بالرفض إليكم مـــبـــغض
وعليــــه من إلهنا الغـــضب

فى هذه الأبيات نجد التعاليم البكرية واضحة كل الوضوح. فشيخ السجادة البكرية هو الإمام المصطفى الذى اختاره الله وخصه بكل منقبة وفضيلة. ومن عاداه فهو رافضى استحق غضب الله فى الدنيا والآخرة ولقى الذل والتعب فى حياته وبعد مماته.

ومن قوله ولعلها فى مدح والده أيضا:

ألا أيهـــا البكرى إنك مـــفـــرد
وفــوقك أعــلام المســرة تفــرد
وذكــرك بالمعـروف شــاع بلاخنا
ومــدحك فى الأعناق در منضــد
وكل امرئ عـاداك أو قـصـد الأذى
عليـه من الرحـمن خـزى مـؤبد
ومن صدنى عن مدح ذاتك سيدى
فـذاك أبو جـهل وأنت مـحـمـد

فانظر إلى البيت الأخير وما فيه من قوة. فالمنكر لمدح والده كافر يشبه أبا جهل فى كفره وجحوده. وقد شبه والده بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم. وله فى مدح والده أيضا:

لدار مـــحـــمـــد البكرى زوروا
وخلوا عنكمـــو ذكـــر الســواء
مـحـمـد عـقـد عين الدين حـقـا
فـــمن عـــاداه فى شكل الهـــواء

وقال:

عـصـابة الصـديق قـالوا
مـحـمـد لا يضـاهى
له الخـــلافـــة حـــقـــا
رب العـبـاد قـضـاها

وقال:

عـابد الرحـــمن أضـحى
قطب مـصـر بحـقـيق
حـــاز فـــخـــرا وعلوا
وهو فـــرع لعـــتـيق

فمن هذه الأمثلة وغيرها نعلم أن أبا المواهب اتخذ من شعره وسيلة لدعاية الناس إلى الالتفاف حول البيت البكرى، والتفانى فى حب أفراده، والإخلاص لهم، والابتعاد عمن سواهم. والتحذير من معاداة هذا البيت لما فى ذلك من الكفر الذى يؤدى بصاحبه إلى النار.

ومن قوله:

عـــبــد الإله البكرى
مـــواهبى الأزمـــان
ســبط النبى الهــادى
المصطفى العــدنان
صلى عليـــــه ربى
والآل والإخـــــوان
مع الســــــلام الزائد
لـــه مـــن الـــديـــان

وله غير هذا كثير نجده منبثا فى ديوانه.

* * *

ومن الشعراء البكريين الذين ظهروا فى القرن الحادى عشر: أحمد بن عبد الرحمن الوارثى المصرى الصديقى الإمام الكبير المفسر المحدث المتوفى سنة ١٠٤٥هـ ذكر فى الخلاصة «وكان من الأدب فى سنامه وكاهله ، تحوم الآراء حول موارده فترتوى من مناهله. وله نظم ونثر كما انتظمت الأزهار بعد ما انتثرت عليها درارى الأمطار» فمن نظمه قوله يمدح أحد وزراء مصر:

يا أيها المولى الوزير ومن له
منن حللن من الزمان وثاقى
من شاكر عنى يديك فإننى
من عظم ما أوليت ضاق نطاقى
منن تخف على يديك وإنما
ثقلت مواهبها على الأعناق

وقال :

وكم لله من نعم
يعم الكون ما طرها
تذكرنا أوائلها
بما تولى أواخرها

ولكن ديوان شعره لم يصل إلينا ، ولا نعرف من نظمه سوى مقطعات قليلة وردت فى خلاصة الأثر.

وأحمد البكرى المتوفى ١٠٤٨هـ ذكر فى الخلاصة وهو ابن زين العابدين «كانت له اليد الطولى فى تفسير القرآن، وإليه النهاية فى علوم الطريق ومزيد الإتقان، مع كرم يخجل المزن الهاطل، وشيم يتحلى بها جيد الزمان العاطل. وجاه عريض وتمكين ، ومكان عند الناس مكين. يتسلمون أركانه كما تستلم أركان البيت العتيق. ومن مؤلفاته كتاب جعله على أسلوب «لوعة الشاكى ودمعة الباكى» سماه «روضة المشتاق وبهجة العشاق» وله شعر يدل على علو محله، وقصده الشعراء من كل ناحية ومدحوه».

ومن هؤلاء الشعراء فتح الله النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ حيث يقول:

يابنى الصديق لى
فى حبكم شأن عجيب
كل يوم منه فى لحمى
وفى عظمى دبيب
حبكم آل أبى بكـ
ـر به تمحى الذنوب
حبكم دينى ومن
يبغضكمو طاغ مريب
غضب الله عليه
فهو بالحق كذوب
لكمو الرفعة والسـ
ـطوة والحال المهيب
ذكركم عند ملوك الأر
ض تعويذ وطيب
كل عصر حضرة القد
س لها منكم خطيب
ابن زين العابد
ين السيد البر الوهوب
ابن من يصدع بالـ
ـحق ويعفو ويثيب
ابن من كان به الغو
ث مع الغيث يصوب
شاهد الحضرة واخـ
ـتص وناجته الغيوب
واستمر الفيض للـ
ـأستاذ والفتح القريب
بلبل الحق لسان الـ
ـغيب هطال سكوب

والتعاليم البكرية واضحة فى هذه القصيدة كل الوضوح. فالشاعر يقول إنه يحب آل أبى بكر حبا امتزج بلحمه ودمه. ويرى أن حبهم سبب لغفران الذنوب، ودينه الذى يدين به. ومبغضهم كافر حق عليه غضب الله. ويقول إن الملوك يتعوذون بذكرهم، أى تخذون ذكرهم تعاويذ وتمائم يتقون بها الشرور والمصائب. وإن الله يصطفى منهم فى كل عصر إماما بحيث لا يخلو عصر من وجود صديق بكرى. ثم أشاد بمناقب أحمد البكرى صديق زمانه الذى ورث الصديقية عن أبائه.

وقال:

وأنت ابن صديق خير النبيين
خير الأواخر خير الأوال
ألست ابن من فضله قد أتى
على ألسن الوحي من ذى الجلال؟
أيخفى سناك وأنت الشها
ب على الرافضية أهل الضلال؟
فمن ذا يساميك أو من يدا
نيك أو من يقاومك يوم النضال؟
لك الحال والقال فى نحر شانيك
من ذا مساوض ومن ذا عوال
فياويل أعداك إن جلت أو قلـ
ـت الله أكبر يوم النزال

فالنحاس يقول إن أحمد البكرى منحدر من ذرية أبى بكر صديق النبى محمد صلى الله عليه وسلم، أفضل الأولين والآخرين. وأن القرآن قد شهد بفضل أبى بكر. ثم عجب من الرافضة أهل الضلال الذين ينكرون مكانة البكريين ويعادون السلطنة العثمانية. ويجب أن نلاحظ أن الشاعر لم يذكر «الرافضة أهل الضلال» عبثا، وإنما جاء تعرضه بهذه الطائفة لوجود قوم يتعصبون لآل على ويرون أنهم أحق بالتقديم من البكريين، وينكرون التعاليم البكرية. والأبيات التالية تعريض شديد بهؤلاء الخصوم، وإشادة بمناقب الممدوح وقوة بأسه وعظيم فتكه بأعدائه. وقال:

أبى الله إلا أن يكون لك البقا
وشانيك إلا أن يكون له الرغم
وعلمك إلا أن يكون مجسدا
فأنت لسان العلم ما نطق العلم
وما الويل كل الويل إلا لحاسد
عرانين مجد كلها في العلا شم
ذوى صاحب الغار الذى أنت منهمو
ذوى الصدق إن قالوا، ذوى العزم إن هموا
عصابة ترب المصطفى أنجم الهدى
عليكم سلام الله ما نجم النجم
دعوا خصمكم يكفيه في يوم بعثه
فإن إله العالمين له خصم

فى هذه الأبيات تعريض بخصوم الممدوح الذين كفروا بالله بسبب عدم إيمانهم بالتعاليم البكرية التى تجعل حب آل أبى بكر أساسا لصحة إسلام المسلم. وحسب هؤلاء المنكرين أن الله سيكون خصما لهم يوم القيامة، وأن مصيرهم سيكون ى نار جهنم. وأشاد بفضائل البكريين نجوم الهدى وأئمة الدين.

* * *

أما ديوان أحمد البكرى فلم يصل إلينا، وإنما وصلت إلينا بعض مقطوعات من شعره، نذكر منها على سبيل المثال قوله يمدح السلطان مرادا

آل عثمان لهم

دولة إلى المعـــــــاد
عـــمـــز الله بهم
كل أقطار البـــلاد
وحـــبـــاهم سطوة
دائمــا بين العـبــاد
ومـــحـــا الله بهم
كـل أربـاب الـعـنـاد
كم أزالوا ضـيـغـمـا
عن سـبـيل الحق حـاد
وأبادوا عـــسكر الرف
ـض عن حسن اعتقاد
خـلـف عـن سـلـف
سلكوا طرق الرشـــاد
مـــا تولى مـــاجـــد
منهـــمـــو إلا وســـاد

نظم أحمد البكرى هذه القصيدة عقب انتصار السلطان مراد على دولة إيران الشيعية. وكان من الطبيعي أن يطرب الشاعر البكرى لهذا الانتصار الذى قضى على الرافضة . ولوه بعقيدة أهل السنة التى يدين بها العثمانيون.

وربمـا كـانت هنـاك دوافع نفـسيـة هيـأت الشاعر لنظـم هـذه القصيدة وغيرها مما عسى أن يكون قد نظمه فى هـذا المقام. فـقـد مـر بنا فى مـدائح النحـاس له تعـريض بخـصـومـه من الرافـضـة أهـل الضـلال. فـأراد الشاعـر أن يـروى غليله من هـؤلاء الخصوم ، فمدح السلطان مرادا، وأظهـر الشـمـاتة بهـزيمة الرافـضـة. ولن يـسـتطيع خـصـومـه بالطبـع أن يـردوا عليـه فى تلك المناسبـة.

ومن شعره:

أحن إذا جن الظلام تشـــوقــــا
إلى زمن بالقـــرب زاد تألقـــا
وأقطع ليلى ســاهرا مـسـتـفكرا
لعل زمـان الأنس يـسـعف باللقـا

وقد أولع بنظم الألغاز، وكان له فيـهـا البـاع الطويل، فمن ذلك قوله:

غـــــــزالـة فى بـردهـا رافـلـة
تقـتـنص الأسـد من القـــافلة
فى حـــرم الأمن وقـــد خلتـــهـــا
قـــائمـــة بالفـــرض وبالنـافلة
قلت لهـــا رقى فـــقـــالت لمن
كـــأنهـــا عن مطلبى غـــافلة
ثم انثنت تلغــز لى باســمــهــا
لغـــزا به أفكارنا كـــافلة
مـاسم خـمـاسي وتصـحـيـفـه
شـــبـــه بدور لـم تكن آفلة
في سنة المخـــتـــار خـيـــر الورى
بيـــانه وهي لـه شـــاملة
في سنة نبـــه مـــســـتـــيـــقظا
وإن تـشـــا فى سنة كـــاملة

ومـحـمـد زين العـابدين البكرى المتـوفى سنة ١٠٨٧هـ وفيه يقول صـاحب خلاصة الأثر «كان فـصيح العبارة، طلق اللسان، كثير الفوائد ، جم النوادر وكـانت الولاية ظاهرة عليه مع الدين المتين، والعقل الكامل، والتظاهر بالنعمة فى الملبس والمآكل والخدمة . وكـان من أحسن الناس خلقا وخلقا، مبجلا عند الكبراء والوزراء، ذاجاه عريض، معتقدا عند عـامة الناس وخاصـتهم ، مسموع الكلمـة ، مقبول الشفـاعة، يرجع إليه فى مشكلات الأمور.

اشتغل بطلب العلوم وأتقنها، وبرع في كثير من الفنون سيما علم التفسير والحديث. وكان له في علوم القوم وأصول التصوف قدم راسخ. وأقبل على التدريس إلى أن صار رئيس البيت البكرى. فكان يدرس على عادة أسلافه في الجامع الأزهر في الليالي المشهورة كليلة المولد والمعراج والنصف من شعبان. ثم لما كبر ترك ذلك كله واستقل بالإفادة في بيتهم المعمور».

وقد نزل في ضيافته كثيرون من الأدباء والعلماء الوافدين على مصر، نذكر منهم المحبى والد صاحب خلاصة الأثر، وقد ألف كتابا عن رحلته إلى مصر وكان المحبى متعصبا للبكريين فكتب عن محمد زين العابدين فصلا جاء فيه «فرع غصن الدوحة البكرية ، وفنن الشجرة الطاهرة الصديقية التي لم تزل من البركة والسمو في النماء، أصلها ثابت وفرعها في السماء. رونق الليالي والأيام، وتاج رأس العلماء الأعلام. بهجة الجميع ورواء حسنها البديع. من أضحت له في العلوم الحقيقية الرتبة الشامخة، وفي المعارف الإلهية القدم الراسخة. ولو لم يكن له من عموم الشرف إلا خصوص هذه النسبة لكفاه ذلك في الفخر وعلو الرتبة.

وناهيك فخرا بأنه من ذرية من اختاره الرسول للصحبة والمصاهرة، واصطفاه للخلافة على ملته وشريعته الطاهرة. فيحق لأهل السنة والجماعة أن يطوفوا ويسعوا إلى هذا البيت في كل وقت وساعة»

كما ذكره ابراهيم بن عبد الرحمن الخيارى المدنى في رحلته إلى مصر بمثل ما تقدم.

وقد ترك محمد زين العابدين ديوانا اشتمل - كما يقول صاحب خلاصة الأثر على نفائس القصائد والموشحات، والمقاطيع والألغاز. ولكن ديوانه لم يصل إلينا ، بل وصلت إلينا مجموعة من شعره في كتاب ألفه أحد أتباعه؛ المسمى بدر الدين؛ وهو كتاب «المجاز في رحلة محمد زين العابدين إلى الحجاز» فمن هذه المجموعة قصائد في التصوف والحب الإلهي . ومنها قصائد في الدعاية لآل أبي بكر . مثال ذلك قوله:

ونحن حماة الحى والحال شاهد
بمشهدنا الأعلى عن الحق بالحق
إذا جردت أسيافنا بمجالها
يشب لظاها في دجى النقع كالبرق
وأسهمنا قتالة فهي لا تذر
عدوا يعادينا بجهل ولا تبقى
عتيق العتيق الجد أفضل صاحب
خليفة طه المصطفى أشرف الخلق
فسلم لنا تسلم ولاتك منكرا
فيوقعك الإنكار في المحو والحرق
وإن غرك الشيطان يوما فلا تقف
بموقفنا نرميك في أضيق الطرق
نصحتك فاسمع إن أردت نصيحة
ودع عنك طيش النفس والكبر بالحمق
وخالف هوى النفس الذميمة واتبع
هوانا ولا تخش هوانا مع الصدق
وكن عبد الحق مخلصا في ودادنا
تنال الذى تهوى وتظفر بالعتق

فالأبيات الأولى في الحماسة وتهديد الخصم بالقتل والإفناء. ثم تحدث في بقية القصيدة عن جده عتيق، وما خصت به ذريته، ووجوب الانقياد لآل الصديق، والإيمان بالتعاليم البكرية التي تدعو إلى حب البكريين، والالتفاف حولهم، وعدم التصدى لهم بالخصومة التي تؤدى بصاحبها إلى نار جهنم .

وهكذا اتخذ شعره وسيلة للدعاية للبيت البكرى كما فعل غيره من الدعاة والصديقيين. وله قصائد فى الشكوى من أهل العناد والضلال مثال ذلك قوله:

ضلت عقول أهل العناد
عن سبل أهل مودتك
سلكوا طريقا فى الفساد
تبعدهمو عن حضرتك
ركبوا جواد غرورهم
وتطاولوا بفجورهم
وتعصبوا فى زورهم
وبغوا على أهل الرشاد
الصادقين بخدمتك
كل يقول أنا أنا
بالجاه قد نلت المنى
وأظنهم نالوا العنا
بالزيغ عن طرق الفساد
ووقوعهم فى شدتك
فأميرهم ومشيرهم
وكبيرهم وصغيرهم
وجليلهم وحقيرهم
ظل وللظل النفاد
ولك البقاء بقدرتك

..... إلخ

وقد بقيت المدرسة البكرية حاملة لواء للبكريين على النمط المتقدم حتى العصر الحديث. فهذا محمد البكرى الذى عين شيخا للسجادة البكرية عام ١٢٧٧هـ كان قبلة أنظار الأدباء والشعراء. وقد مدحه شهاب الدين المصرى بقصيدة جاء فيها:

وإذا خفت صولة الدهر فاقصد
آل صديق أحمد المختار
هم مقر الأمان مجلى الأمانى
مظهر الخير موضع الأسرار
حيهم منزل الرضا وحماهم
حيث تمحى كبائر الأوزار
هم نجوم الهدى ولا سيما من
لاح فيهم كالبدر بين الدرارى
وهو شيخ الشيوخ مولى الموالى
صفوة الصفو خيرة الأخيار

وفى سنة ١٨٩٢ م تولى مشيخة السجادة السيد توفيق البكرى. وقد أقيمت بهذه المناسبة حفلة رسمية فى قصر عابدين حضرها جم غفير من علماء الأزهر ورجال الطرق الصوفية. وبعد أن شرب الحاضرون القهوة نهض الخديو عباس وقلد الشيخ تاج الشرف. ثم نزل السيد توفيق ومعه مشايخ الطرق الصوفية وكبار العلماء وسار فى موكب صخم حتى وصل إلى قصره بالخرنفش. و هنك أقبل عليه الشعراء مهنئين مادحين. ومن هؤلاء الشيخ حمزة فتح الله الذى يقول من قصيدة طويلة:

إنا نهنى المكرمات وأهلها
بحليفها من بعد حسن عزاء
توفيقها البكرى فرع أرومة الصد
يق زهرة دوحة الزهراء
العالم النحرير والعلم
أحيا رسوم المجد والعلياء

وفى أول مارس سنة ١٩٠٣ صدر أمر خديوى بتعيينه نقيبا للأشراف، فمدحه بعض الشعراء، منهم أحمد نسيم الذى يقول:

بشراك توفيق أنت اليوم راعيها

فــهل نهنيك نظمــا أم نهنيــهــا؟

خــذ النقــابة والعليــاء تحــملهــا

إلى رحــابك والرحــمن يحــميــهــا

غابت زمانا وبانت بعد أن حــجبت

كــأنهــا الشــمس تمثــيلا وتشبيهــا

فانهض بها ياابن آل البيت ماطلعت

شــمس الضــحى نهضــة لله تبغــيهــا

حــتى يقــول أبو بكر لصــاحــبــه

بشــراك عبــاس أعطى القــوس باريهــا

.... إلخ

نبذة عن شعر آل البيت والسادة الوفائية العلوية

مع اشتداد قوة النفوذ المملوكي في مصر في ظل الاحتلال العثماني قام جماعة من الشعراء بدعم هذ النفوذ وأخذ شعرهم شكل مدح آل البيت، ودعم الطرق الصوفية والاحتفاء بالأولياء (من آل البيت) مما جعل هذه الطرق تكتسب ملمحا شعبيا مناهضا للسلطة العثمانية السنية ووفقت بذلك في وضع منافس للنزعة البكرية (السادة البكرية). وأول شاعر نصادفه من مادحوا آل البيت هو بهاء الدين العاملي الذي وفد إلى مصر سنة ٩٩٢ وأقام بها مدة من الزمن، وألف بها كتابه «الكشكول» وفيه قصيدة من نظمه تحت عنوان «وسيلة الفوز والأمان في مدح صاحب الزمان» وهي:

خليــفــة رب العــالمين فظلــه

على ســاكن الغبــراء من كل ديار

هو العــروة الوثقى الذى من بذيله

تمسك لا يخــشى عظائم أوزار

إمــام هدى لاذ الزمــان بظلــه

وألقى عليــه الدهر مقــود خــوار

علوم الورى في جنب أبحــر علمــه

كــغرفــة كف أو كــغمسة منقــار

إمام الورى طود النهى منبع الهدى

وصــاحب ســر الله في هذه الدار

به العــالم السفلي يسمــو ويعتلي

على العــالم العلوى من دون إنكار

ومنه العقول العشر تبغى كمالها

وليس عليــهــا في التعلم من عــار

أيا حــجــة الله الذى ليس جــاريا

بغــيــر الذى ترضــاه ســابق أقــدار

ويا من مقاليد الزمان بكفه

ناهيك من مجد به خصه البارى

أغث حــوزة الإيمان واعــمر ربوعــه

فلم يبق منهــا غــيــر دارس آثار

وأنقذ كتاب الله من يد عصبة

عــصــوا و تمادوا في عتــو وإصــرار

يحــيــدون عن آياته لرواية

رواها أبو شعيون عن كعب الأحبار

وفي الدين قد قاسوا وعاثوا وخبطوا

بآرائه تخبيط عشواء معشار

وأنعش قلوبا في انتظارك قــرحت

وأضــجــرها الأعــداء أية إضــجــار

وخلص عــبــاد الله من كل غــاشم

وطهــر بلاد الله من كل كــفــار

وعــجل فــداك العــالمون بأســرهم

وبادر على اسم الله من غــيــر إنظار

تجــد من جنود الله خــيــر كــتــائب

وأكــرم أعــوان وأشــرف أنصــار

بهم من بنى همدان أخلص فتية
يخوضون أغمار الوغى غير فكار
بكل شديد البأس عبل شمردل
إلى الحتف مقدام على الهول مصبار
تحاذره الأبطال فى كل موقف
وترهبه الفرسان فى كل مضمار
أيا صفوة الرحمن دونك مدحة
كدر عقود فى ترائب أبكار

وقد أثبتنا هذه القصيدة كلها نظرا لأهميتها. فهى تسجل الآراء الشيعية التى حاول العاملى نشرها فى مصر فى ذلك الوقت. فصاحب الزمان هو خليفة الله الذى مد ظله على العالم. وهو العروة الوثقى، ومن تمسك به نجا. وهو الإمام الهادى الذى حاز جميع المعارف والعلوم. وهو منبع الهدى، وصاحب الأسرار الإلهية فى الدنيا. ومنه تستمد العقول العشر كمالها وهو حجة الله الذى تجرى الأقدار بإرادته، ويمضى الزمان بمشيئته. ثم أخذ الشاعر يخاطب صاحب الزمان طالبا منه أن ينقذ الإيمان ويعيد إليه رونقه وبهاءه وجدته، لأن ربوعه قد تهدمت وزالت، ولم يبق منها سوى أطلال بالية. والقرآن أصبح فى يد قوم عتاة عصاة، أهملوا ما جاء فيه واتبعوا ما روى عن كعب الاحبار وغيره. ثم إنهم اتخذوا القياس فى أحكام الدين، واجتهدوا بآرائهم، وضلوا سواء السبيل.

وبعد أن وصف الشاعر ما وصل إليه العالم من فساد وانحلال، التمس من صاحب الزمان أن يظهر فإن القلوب متعطشة لرؤيته. وأن ينقذ العالم من الظلم والطغيان، ويطهر البلاد من الكفار يقصد بذلك من هم ليسوا بأحباب آل بيت رسول الله. . وسيجد فى انتظاره جيشا من جنود الله من بنى همدان المعروفين بالإخلاص له، والمشهورين بالشجاعة والإقدام. وخصص بنى همدان لأن المتعارف عند فريق من الشيعة ومنهم الإثنا عشرية أن الإمام المنتظر سيظهر فى بنى همدان. ومن العجيب أن رجال الد ين فى مصر لم ينكروا على بهاء الد ين هذه الآراء مع ما فيها من تعريض بأهل السنة، وما جروا عليه فى الأحكام من القياس والاجتهاد ومع قوله إن كتاب الله أصبح فى يد عصبة من الكفار.

وله قصيدة أخرى ردد فيها المعانى السابقة نذكر منها:

صاحب العصر الإمام المنتظر
من بما يأباه لا يجرى القدر
حجة الله على كل البشر
خير أهل الأرض فى كل الخصال
من إليه الكون قد ألقى القياد
مجريا أحكامه فيما أراد
إن تزل عن طوعه السبع الشداد
خر منها كل سامى السمت عال
شمس أوج المجد مصباح الظلام
صفوة الرحمن من بين الأنام
الإمام ابن الإمام ابن الإمام
قطب أفلاك المعالى والكمال
يا أمين الله يا شمس الهدى
يا إمام الخلق يا بحر الندى
عجلن عجل فقد طال المدى
واضمحل الدين واستولى الضلال

ثم إنه خصص فى كتابه «الكشكول» فصلا طويلا عن السيدة فاطمة، ذكر فيه كثيرا من مناقبها

وفضائلها. وأورد أخبارا متفرقة عن الحسين ابن على وبعض كبار آل البيت.

ويجب أن نذكر أن عواطف المصريين كانت ولا تزال مع أهل البيت بسبب ارتباط ذلك بالمعتقدات المصرية حول استشهاد وزير .

* * *

وفى هذا العصر جددت أضرحة آل البيت فى مصر، وانهمك الناس فى إقامة الموالد لأصحاب هذه الأضرحة. وأخذ الشعراء ينظمون القصائد فى مدح آل البيت، وبخاصة الحسين. مثال ذلك قول عبد الله الشبراوى المتوفى سنة ١١٧٢هـ:

آل طه ومن يقل آل طه
مستجيرا بجاهكم لا يرد
حبكم مذهبى وعقد يقينى
ليس لى مذهب سواه وعقد
بيتكم مهبط الوحـ
ـى ومنكم نور النبوة يبدو
ولكم فى العلا مقام رفيع
مالكم فيه آل ياسين ند
يابن بنت الرسول من ذا يضا
هيك افتخارا وأنت للفخر عقد
كل من رام حصر فضلك غرُّ
فضل آل النبى ليس يعد

فخصائص الشعر العلوى ظاهرة فى هذه الأبيات . فالشاعر يذكر آل طه، ويقول إن حبهم دينه الذى يدين به، وقد انعقد إيمانه على هذا الحب. وبيتهم نزلت فيه الرسالة والوحى. ويذكر نور النبوة وآل ياسين،و ابن بنت رسول الله. وكل هذا من مميزات الشعر العلوى.

وله من قصيدة أخرى:

لست أخشى ريب الزمان وأنتم
عمدتى فى الخطوب يا آل أحمد
من يضاهى فخاركم آل طه
وعليكم سرادق العز ممتد
كل فضل لغيركم فإليكم
يابني الطهر بالأصالة يسند
أى بيت كبيتكم آل طه
طهر الله ساكنيه ومجد
ولكم فى الكتاب ذكر جميل
يهتدى منه كل قارى ويسعد
وعليكم أثنى الكتاب وهل بعـ
ـد ثناء الكتاب مجد وسؤدد

فى هذه الأبيات إشارة إلى قوله تعالى «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا» ـ الأحزاب أية ٣٣ ـ والشيعة يذكرون أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا عليا والحسن والحسين وفاطم، وألقى عليهم عباءته وكان هو معهم تحت العباءة، وحينئذ نزلت الآية المتقدمة.

وقال :

لئن كان رفضا حبكم يا آل أحمد
فقد لذ لى فى حبكم ذلك الرفض
عرضت عليكم آل ياسين قصتى
ويحسن من مثلى على مثلكم عرض
وعاداتكم إكرام من زار حيكم
وحاشا لتلك العادة الخلف والنقض
على حبكم أفنيت عمرى وهل لمن
بحبكو بعد من الله أو بغض

وهـا أنـا يـا آل الـنـبـى وحـق مـن
تذل لعليـاه السـمـوات والأرض
مـــحب أتاكم آل طه يزوركم
وقد صح في التاريخ حبكمو فرض

والبيت الأول مأخوذ من البيت المشهور المنسوب للإمام الشافعى وهو:

إن كـان رفـضـا حب آل مـحـمـد
فليـشـهـد الثـقـلان أنى رافـضـى

ولن نجد عند الشبراوى فى مدائحه لآل البيت أكثر من المعانى المتقدمة. فلنتركه لننظر فى شعر الإدكاوى المتوفى سنة ١١٨٢ هـ قال يمدح فاطمة الزهراء :

أمــا هى من طه المكرم بضــعــة
على حبها من مات كانت له البشرى
أما هى من قد حرم الله جسمها
على النار تحقيقا وأحبابها جهرا
أما هى من قد أحصنت فرجها فلا
تدانى لهـــــا نار وأولادها طرا
وخــيــر نســاء العـالمين بلا مـرا
ومن شك فى هذا عليه بالاستقرا
وكـان رسـول الله يقـبـضـه الذى
يكون لها قبضا ويبسط بالأخرى
وقــال لهــا صلى عليــه إلهـه
لأجل رضاك الله يرضى فيا بشرى
وفى الحـشـر يأتى المصطفى وهو را
كب البراق وتأتى خلفه بنته الغرا
على الناقة القـصـوى فـتدخل تلوه
إلى جنة المأوى التى حسنت ذكـرا
وفى حـشـر يغـدو المنادى مناديا
لدى ذلك الجمع الذى عز أن يدرى
ألا نكسـوا روسـا وغـضـوا نواظرا
لئلا يروا شـخـصـا لمن ظهرت مرا
وفى مدحها جاءت أحاديث جمة
تفوت على من رام تعدادها حصرا
وخـصـت من المولى بأشيـا تميزت
بهـا نسـاء العـالمين حلت نشـرا
فلا حيض يأتيها ولا فى نفاسها
يرى دمـهـا من أجل ذا لقبت زهرا
ولا جوع تشكو قط من أجل دعوة
دعـاها لهـا طه ولو مكثت شـهـرا
وسر أبيـهـا قـد غـدت كنيـة لهـا
فياحسنها من كنية قد زكت نشرا
وكـان لهـا دومـا يقـوم إذا أتت
إليـه ويحـبـوها بمجلسـه جـبـرا
ومـا بين عـينيـهـا يقـبل مثلمـا
يمصى لسانا قد حلا وزكا طهرا
وقد ضـمـهـا تحت الكسـا وعليـهـا
ونجليـهـمـا ضـمـا به زادهم فـخـرا
وقــال إله العــرش إنى أحـبـهـم
فطهرهم من كل ما يوجب الإصرا
وأحـبب إلهى كل من قـد أحـبـهـم
ونوله مـا يرجــوه وارفع له ذكـرا
لقـد ولدتها من تسامت خديجة
حليلة خيـر المرسلين عـلا قـدرا
فـقـد كـرمت أما كـمـا شرفت أبا
وقد أنجبت شبلين سادا الملا الزهرا
همـا كـوكـبـا فـضل وبدرا سيـادة
وريحـانة المختـار من فـاز بالإسـرا
شـهـيـدان مسـعـودان بران سيـدا
شبـاب جنان من عـبـيـد ومن أحرا

مصابهما لم ينسه خاطرى وما
أتاه العدا من سوء بغى غدا أمرا
مصابهما أبكا العيون وأوقع النـ
ـفوس بكرب مثلما للحشا فرا
ألا لعن الرحمن من قد سعى بما
أباح دماء بالنفائس لا تشرى
همو آل بيت الطهر طه الذين قد
نفى الرجس عنهم ربنا فإقرإ الذكرا
وفى سورة الشورى العجائب فاتلها
تنل ما تشا بل تغنم الفوز والأجرا
بها وبنجليها الكريمين والرضا
على والمختار ذى الآية الكبرى
توسلت يارب العباد بهم عسى
أنال بحبيهم مرادى والنصرا

فإذا تأملنا فى هذه القصيدة وجدنا الإدكاوى قد حشد فيها كثيرا من الأحاديث التى رويت فى السيدة فاطمة. وبالرجوع إلى صحيحى البخارى ومسلم وجدت حديثين هما «فاطمة سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة» فى رواية مسلم. وفى رواية البخارى «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة» وحديث «إنما فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها» فى رواية مسلم.

وعند البخارى «فاطمة بضعة منى فمن أغضبها أغضبنى» وفى رواية عنده «ويؤذينى ما آذاها».

وقول الإدكاوى «وسر أبيها كان يودعه لها» فيه إشارة إلى حديث ورد فى البخارى ومسلم ومعناه أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا فاطمة وأخبرها أن سينتقل إلى الرفيق الأعلى فبكت. ثم أخبرها أنها ستكون أول من يلحق به فضحكت . وقد كتمت هذا الخبر فلم تبح به إلا بعد وفاة الرسول.

أما الأخبار التى أوردها الشاعر عن فاطمة وهى أنها لا تحيض، ولا يخرج منها دم عقب الولادة. وأن النبى دعا لها بدعاء يقيها شر الجوع، وأنها تركب ناقة يوم القيامة وتدخل بها إلى الجنة على أثر الرسول، وأن مناديا ينادى الناس ليغضوا أبصارهم حتى تمر بناقتها، إلى غير ذلك ، فإن هذه الأخبار لم ترد فى الكتب الصحيحة، ومع ذلك فالمسلمون أجمعون يشتركون فى حب فاطمة، ويرتاحون إلى كل ما يقال ويروى من أخبارها. ولا عجب فى ذلك فهى بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفى قول الإدكاوى «وفى سورة الشورى العجائب فاتلها» إشارة إلى قوله تعالى «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى» فإن الشيعة فسروا القربى بأنها آل على، وبذلك وجهوا الآية توجيها يخدم أغراضهم، فى حين أن خصومهم قالوا إن قرابة النبى لا تقتصر على آل على، بل تشمل كل من يمت إلى النبى بصلة القرابة من ناحية الآباء والأمهات، والمصاهرة والنسب. ومن هنا نرى أن شعراء العلويين فى مصر اتفقوا مع الشيعة فى تفسير هذه الآية.

وفى قوله «وقد ضمها تحت الكسا وعليها» إشارة إلى القصة التى رويت حول نزول آية التطهير من الرجس. وقد رجعت إلى الطبرى وهو المشهور بالتفسير بالأثر فوجدت كل ما أورده من أقوال فى هذا الصدد يتفق ما معا ذهب إليه الشيعة ، اللهم إلا رواية واحدة تنص على أن الآية نزلت فى نساء النبى. وخصوم الشيعة يأخذون بهذه الرواية. وأما شعراء العلويين فى مصر فإنهم وقفوا إلى جانب الشيعة، ولم تخل قصيدة من قصائدهم من الإشارة إليها.

وقد بكى الإدكاوى على ما أصاب الحسن

والحسين، و نوه بشأنهما ، ولعن معاوية وابنه يزيد الذين قتلا هذين الشهيدين. والشيعة يذكرون أن معاوية دس السم للحسن، وقد تابعهم الإدكاوى وغيره من الشعراء العلويين بمصر فى هذا الزعم. أما غير الشيعة فإنهم برأوا معاوية من هذه التهمة، ونظروا إليه على أنه كان أحد الصحابة. وعندى أن الذى يولى ابنه يزيد إمارة المؤمنين مع علمه بفسقه وفجوره لا يبعد عليه أن يسم الحسن.

وختم الإدكاوى قصيدته بالتضرع إلى الله أن يميته على حب آل البيت لأن حبهم من الإيمان، ولا يدخل الجنة إلا من مات على حبهم. كما أن بغضهم كفر يؤدى إلى النار. وقد اشترك جميع الشعراء العلويين فى هذا القول، كما اشتركوا فى التوسل إلى الله بآل البيت، والاستغاثة بهم فى الشدائد والملمات.

* * *

وقد التف شعراء العلويين حول شيوخ السادات الوفائية ، ومدحوهم بقصائد تعيد إلى الأذهان ما كان يقال فى الخلفاء الفاطميين.

ومؤسس بيت السادات الوفائية فى مصر كما يذكر الزبيدى فى رسالته «رفع نقاب الخفا عمن انتمى إلى وفاء الوفا ». هو : محمد النجم الذى يدعى أنه ينحدر من ذرية الإمام على . وقد جاء إلى مصر من شمال أفريقية فى أول القرن الثامن الهجرى ونزل بالاسكندرية وأقام بها مدة من الزمن. ثم انتقل إلى القاهرة وسكن بجزيرة الروضة. وقد قيل فى سبب تلقيبه بوفا أن النيل توقف فى إحدى السنين ، فتوجه العلماء والصلحاء إلى المقياس ودعوا الله لترتفع مياه النيل كالمعتاد، ولكن الله لم يجب دعاءهم . وبقى النيل على حالته من النقص.

وقد أخبر السلطان بوجود «محمد النجم» وصلاحه وتقواه. فأرسل إليه أن يتوجه إلى المقياس ويدعو الله، ففعل. فلم يلبث أن ارتفع الماء وظهر الوفاء، وصار الناس يقولون «وفا، وفا» وخوطب حينئذ بذلك وصار علما عليه.

وليس من المهم أن نقف عند هذه القصة لنحكم عليها من الناحية التاريخية ولكن المفيد هنا أن نلحظ ارتباط وفاء النيل بآل البيت.

واشتهرت ذريته باسم «السادات» وقد توفى محمد وفا سنة ٧٦٥هـ.

ثم انتقلت عائلة السادات من الروضة وسكنت مصر القديمة. وفى القرن الحادى عشر كان لها مساكن بناحيتى الخرنفش وبركة الفيل. وقد ذكرهم عبد الغنى النابلسى الذى جاء إلى مصر سنة ١١٠٥هـ فى كتابه الحقيقة والمجاز فقال «... ثم ركبنا وتوجهنا مع الإخوان إلى جهة بيت السادة الوفائية المشهورين بالمعارف الإلهية والحقائق الربانية. أهل النظم والنثر من التصانيف الفاخرة، والدواوين الزاهرة. وكان منهم البدر الكامل، والسر الشامل الشيخ يوسف ابن متعة البصر والسمع، ونور الفرق والجمع، الشيخ أبى التخصيص الوفائى، رفع لهم الله فى الآفاق رايات المجد، ولازال ذكرهم بالكمالات الإنسانية بين مراتب الغور ونجد».

«فدخلنا إلى دارهم المعمور التى هى بأنواع الهيبة والاحتشام معمورة فتلقانا الشيخ يوسف المذكور بكمال البشاشة والسرور. وجلسنا عنده حصة من الزمان حتى جيء لنا بماء الورد والبخور، وحصل كمال اللطف والإذعان».

وذكرهم الشهاب الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩هـ فقال «ومن البيوت العامرة بمصر بيت

السادة الوفائية. سادات السادات، لهم أنفس قدسية قد أفيضت عليها العلوم اللدنية. ما منهم إلا صاحب ديوان نافذ في سبيل البلاغة بسلطان».

ومن أعلام هذا البيت : عبد الخالق بن وفا. وقد ذكره الجبرتي في احداث سنة ١١٦١هـ [انظر الجزء الاول من الجبرتي ترجمة رقم ١٩٠].

فقال «قطب زمانه، وفريد أوانه. كان على قدم أسلافه وفيه فضيلة وميل للشعر . وامتدحه الشعراء وأجازهم الجوائز السنية. وكان يحب سماع الآلات».

ومما قيل في مدحه:

دعك عنك حاتم طي وابن زائدة
واترك حديث بني العباس والخلفا
وانظر بعينيك هل أبصرت من رجل
في الجود يشبه عبد الخالق بن وفا

توفي سنة ١١٦١ هـ وتولى بعده في خلافتهم : محمد أبو الإشراق بن وفا.

واشتهر منهم أحمد بن إسماعيل أبو الامداد، سبط بني الوفا. وترجم له الجبرتي (انظر ترجمته رقم ٣١١ في هذا الجزء) بقوله «الجناب الأمجد، والملاذ الأوحد. علم المجد وناشره، وجالب متاع الفضل وتاجره، تولى نقابة الأشراف سنة ١١٦٨هـ توفي سنة ١١٨٢هـ. وسار فيهم سيرة مرضية .

وقد مدحه عبد الله الإدكاوي بقوله :

قالوا نقابة بمصر أودى كفؤها
وتسربلت بحدادها واستخفت
فأجبت كلا، بل لها الكفء الذي
رتب العلا بفخاره قد حفت
لما دعاها أذعنت واستبشرت
وأتته طائعة ولم تتلفت
وتبرجت فلذاك قلنا أرخوا
أدبا لأحمدها النقابة زفت

ثم تولى مشيخة السجادة الوفائية سنة ١١٧٦ فمدحه الإدكاوي بقوله:

قيل لي هل مدحت آل علي
من بهم يكتسي الأديب الشرافه
آل بيت الوفاء من خصصوا بالـ
ـمجد والفخر والتقى والإنافه
قلت ما قدر مدحتي لكرام
بهم تأمن الأنام المخافه
غير أني لفرعهم أحمد الجد
ـد سأجلو بمنطقي أوصافه
هو بيت الأفضال شمس المعالي
أوحد الفضل جامع الطافه
منه أضحى دست الخلافة من صد
ر خليا وما دروا إسعافه
قال أعلى الجدود في الحال هاتوا
نجلنا أحمد الزكي العرافه
قدموه فقلت في الحال أرخ
جده قد أولاه ركن الخلافه

ولعل أشهر أفراد هذا البيت هو: شمس الد ين محمد أبو الأنوار. وقد ترجم له الجبرتي ترجمة مطولة نلخصها فيما يلي:

«نادرة عصره، ووحيد دهره؛ الشيخ شمس الدين محمد أبو الأنوار، ابن عبد الرحمن المعروف بابن عارفين؛ سبط بني الوفاء، وخليفة السادات الحنفاء، وشيخ سجادتها، ومحط رحال سيادتها. وشهرته غنية عن مزيد الإفصاح ، ومناقبه أظهر من البيان والإيضاح».

«تولى خلافة بيتهم سنة ١١٨٢».

«ودرس على شيوخ عصره . وكان له اشتغال في بعض الأحيان بالمطالعة والمذاكرة فى المسائل الدينية والأدبية. ومعاشرة الفضلاء ومجالستهم، والمناقشة معهم فى النكات واقتناء الكتب من كل فن. كل ذلك مع الجد والتحصيل للأسباب الدنيوية، وما يتوصل به إلى كثرة الإيراد بحسن تداخل ، وجميل طريقة مبعدة عما يخل بالمقدار، بحيث يقضى مرامه من العظيم وجميل الفضل له. ويراسل ويكاتب ويشاحح على أدنى شيء ، ويحاسب ولا يدفع لأرباب الأقلام عوائدهم المقررة في الدفاتر، بل يرون أن أخذها منه من الكبائر. وكذلك دواوين المكوس المبنى على الإجحاف. فكل ما نسب له فيها هو معافى. وكلما طال الأمل زاد المدد، وخصوصا إذا تقلبت الدول وارتفعت السفل كان الأسبق القديم فى أعينهم هو الجليل العظيم. وهم لديه صغار، لا ينظر إليهم بعين الاحتقار. ولما انقرضت بقايا الشيوخ الذين كان يهابهم ويخضع لهم ويتأدب معهم، وكانوا على طرائق الأقدمين فى العفة والانجماع عن كل عمل يخل بتعظيم العلم وأهله، والتباعد عن بنى الدنيا إلا بقدر الضرورة. وخلف بعدهم من هم على خلاف ذلك، وهم أعاظم مدرسى الوقت فأحدقوا به، وأكثروا من التردد عليه وعلى موائده، وبالغوا فى تعظيمه وتقبيل يده، ومدحوه بالقصائد البليغة طمعا فى صلاته وجوائزه القليلة، وحصول الشهرة لهم، وزوال الخمول، والتعارف بمن يتردد إلى داره من الأمراء والأكابر. وزاد هو أيضا وجها ووجاهة بمجالستهم ، ولا يريهم فضلا بسعيهم إليه، ويزداد كبرا وتيها. وبلغ به أنه لا يقوم لأكثرهم إذا دخل عليه. ومنهم من يدخل بغاية الأدب فيلم ثيابه ويقول عند مشاهدته «يا مولاى ياواحد» فيجيبه هو بقوله «يا مولاى يا دائم، يا على يا حكيم» . فإذا حصل بالقرب منه بنحو ذراعين حبا على ركبتيه ، ومد يمينه لتقبيل يده أو طرف ثوبه. وأما الأدون فلا يقبل إلا طرف ثوبه. وكذلك أتباعه وخدمة الخواص. وإذا كان من أهل الذمة أو كبار المباشرين وقبلوا يده وخاطبهم فى أشغاله وهم قيام وانصرفوا؛ طلب الطست والإبريق وغسل يده بالصابون لإزالة أثر أفواههم. ولا يجيب فى رد التحية إلا بقوله «خير، خير».

«ولا يقطع غالب أوقاته مع مجالسيه وخاصة مسامريه إلا بانتقاد أهل مصره، وغيبة غالب أهل عصره. وتنبسط نفسه إلى ذلك، وإليه يصغى».

«وفى سنة ١١٩٠ ورد إلى مصر عبد الرازق أفندى رئيس الكتاب ومن أكابر أهل الدولة. فمنحته الدولة بواسطته مائة كيس لإصلاح زاوية أسلافه. وكان معينه فى ذلك الوقت أيضا الشيخ محمد مرتضى الزبيدى».

«ثم أرسل وزيره وكتخداه الشيخ ابراهيم السندوبى إلى دار السلطنة بمكاتبات يلتمس فيها رفع ما على قرية زفتى وغيرها مما فى حوزته من الالتزام من الضرائب التى تدفع إلى الديوان كل سنة. وكان ابراهيم المذكور غاية فى الدهاء والحيل الساسانية، والتصنعات الشيطانية، والتخليطات الوهمية، وتقلبات الملامتية. فتم مرامه بما ابتدعه من الخرفة والإيهامات الملفقة. ولم يدفع ما جرت به العادة من العوائد ، بل اجتلبت خلاف ذلك فوائد».

«ولما حضر حسن باشا الجزايرلى سنة ١٢٠٠هـ وخرج الأمراء المصريون إلى الجهة القبلية، واستباح أموالهم ، وقبض على نسائهم وأولادهم وأمر بإنزالهم سوق المزاد وبيعهم، زاعما

انهم أرقاء لبيت المال وفعل ذلك فاجتمع الأشياخ وذهبوا إليه فكان المخاطب له المترجم قائلا له:

انت أتيت إلى هذه البلدة وأرسلك السلطان لإقامة العدل، ورفع الظلم كما تقول ، أم لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحريم؟ فقال : هؤلاء أرقاء لبيت المال . فقال له : هذا لا يجوز ، ولم يقل به أحد. فاغتاظ غيظا شديدا».

«وكان ابراهيم بك الكبير قد أودع عند المترجم وديعة. وكذلك مراد بك أودع عند محمد البكرى وديعة. وعلم حسن باشا فأرسل عسكرا إلى السيد البكرى فلم تسعه المخالفة وسلم ما عنده. وأرسل كذلك يطلب من المترجم وديعة ابراهيم بك فامتنع من دفعها قائلا «إن صاحبها لم يمت، وقد كتبت على نفسى وثيقة، فلا أسلم ذلك ما دام صاحبها على قيد الحياة».

فاشتد غيظ الباشا منه، وقصد البطش به، فحماه الله منه ببركة انتصاره للحق فكان يقول ـ يعنى حسن باشا ـ : لم أر فى جميع الممالك التى ولجتها من اجترأ على مخالفتى مثل هذا الرجل، فإنه أحرق قلبى».

«ولما رحل حسن باشا الجزايرلى وعاد الأمر إلى المماليك زادت عندهم مكانته. وآل إليه نظر المشهد الحسينى، ومشهدا السيدة نفسية والسيدة زينب وباقى الأضرحة الكثيرة الإيراد. وأخذ يتشدد مع القائمين على هذه الأضرحة فى تحصيل أموالها، ويسبهم ويهينهم ، ويضربهم بالجريد المحمى على أرجلهم».

«وكانت مساكنه مطلة على بركة الفيل. وبها قاعة كبرى تسمى «أم الأفراح» مزخرفة بالنقوش الذهب والقيشانى الصينى بجميع حيطانها، والرخام الملون. وبها الفسقية والسبيل والقمريات الملونة. فكشف حائطها وأدخل فسحتها فى رحبة الحوش، وعمل بها فسقية بالرخام ، وسماها الأنوارية، نسبة إلى كنيته وأمامها فسحة عظيمة. وأنشأ بجوار بيته مسجدا ليصلى فيه وذلك لبعد المساجد الجامعة عن داره. وتعاظمه عن السعى الكثير والاختلاط بالعامة. وأنشأ بستانا كبيرا، وغرس به الأشجار والرياحين والثمار. وأفنى غالب عمره فى تحصيل الدنيا، وتنظيم المعاش والرفاهية، واقتناء كل مرغوب للنفس، وشراء الجوارى والمماليك والعبيد والحبوش والخصيان ، والتأنق فى المآكل والمشارب والملابس. واستخراج الأدهان والعطريات ، والمركبات المفرحة والمنعشة للقوة».

«وتعاظم فى نفسه، وتعالى على أبناء جنسه حتى إنه ترفع عن لبس التاج والحضور بالأزهر ليلة المعراج وكذا الحضور فى مجلس وردهم الذى هو محل عزهم. وصار يلبس قاووقا بعمامة خضراء تشبها بأكابر الأمراء، وبعدا عن التشبه بالمعممين والفقهاء والمقرئين».

«ولما طالت أيامه، ومانت أقرانه، والذين كان يستحى منهم ويهابهم وتقلبت عليه الأحوال، واندرجت أكابر الأمراء، وتأمر أتباعهم ومماليكهم الذين كانوا يقومون على أقدامهم بين يدى مخاديمهم، وأسيادهم جلوس بالأدب مع المترجم،

فلا جرم ان كانت هيبته فى قلوبهم أعظم من أسلافهم ، واستصغاره هو لهم كذلك. فكان يصدعهم بالكلام، وينفذ أمره فيهم، ويذكر الأمير الكبير بقوله «ولدنا الأمير فلان»، وحوائجه عندهم

مقضية، وكلامه مسموع، وشفاعته مقبولة ، وأوامره نافذة فيهم وفي حواشيهم وحريماتهم».

«واتفق أن بعض أعاظم المباشرين من الأقباط توقف معه في أمر، فأحضره ولعنه وكشف رأسه وضربه على دماغه بزخمة من الجلد. ولم يراع حرمة أميره وهو إذ ذاك أمير البلد. ولما شكا إلى مخدومه ما فعل به، قال للحاضرين : «وماذا تريدون أن أصنع بشيخ عظيم ضرب نصرانيا ؟! فرحم الله عظامهم»

«واتفق أن جماعة من أولاد البلد ووجهائها اجتمعوا ليلة بمنزل بعض أصاحبهم ، وتبسطوا فأخذ بعضهم يسخر ويقلد بعض أصحاب المظاهر، فوشى للمترجم ونقل له أنهم أدرجوه في سخريتهم فأحضرهم واحدا بعد واحد وعزرهم بالضرب والإهانة».

«فكان من حين إلى حين يقع في بيته الضرب والإهانة لأفراد من الناس وكذلك فلاحو الحصص التي حازها والتزم بها، فإنه زاد في خراجهم عن شركائه ، وفرض عليهم زيادات كان يحبسهم عليها شهورا؛ ويضربهم بالكرابيج وبالجملة فقد قلب الموضوع ، وغير الرسم المطبوع ، بعد أن كان منزلهم محل سلوك ورشاد، وولاية واعتقاد، صار كبيت حاكم الشرطة يخافه من غلط أدنى غلطة، ويتحاماه الناس من جميع الأجناس. وجلساؤه ومرافقوه لايعارضونه في شيء بل يوافقونه . ولا يتكلمون مع إلا بميزان وملاحظة الأركان. ويتأدبون معه في رد الجواب. وحذف كاف الخطاب، ونقل الضمائر عن وضعها في غالب الألفاظ، بل حتى في الآثار المروية، والأحاديث النبوية. وغير ذلك من المبالغات وتحسين العبارات والوصف بالمناقب الجليلة و الأوصاف الجميلة ، حتى إن السيد حسين المنزلاوى الخطيب كان ينشيء خطبا يخطب بها يوم الجمعة التي يكون المترجم حاضرا فيها بالمشهد الحسيني ، وبزاويتهم أيام المولد، ويدرج فيها الإطراء العظيم في المترجم ، والتوسل به في كشف المهمات وتفريج الكروب، وغفران الذنوب، حتى إني سمعت قائلا يقول بعد الصلاة:

«لم يبق على الخطيب إلا أن يقول اركعوا واسجدوا واعبدوا شيخ السادات !!»

* * *

ولما دخل الفرنسيون مصر كانت للمترجم بعض المواقف المشرفة التي تحمل بسببها كثيرا من الأذى. فقد حدث أن قبض بونابرته على ابن القاضي التركي وحبسه في القلعة. فتشفع المشايخ عند بونابرته ليطلق سراحه.

وكان السادات حاضرا فضم صوته إلى صوت العلماء وأضاف قائلا:

«إنكم تقولون دائما إن الفرنساوية أحباب العثمانية . وهذا ابن القاضي من طرف العثمانلي . فهذا الفعل مما يسيء الظن بالفرنساوية، ويكذب قولهم وخصوصا عند العامة» فغضب بونابرته من كلام السادات واستدعاه إلى مجلسه وعاتبه ولامه. وحجزه مدة من الليل، وأخيرا أطلق سراحه وأمره بالانصراف إلى منزله.

ولما نشبت المعارك بين الفرنسيين والجيش العثماني ، ودخل العثمانيون القاهرة وشرعوا في الاعتداء على أموال الناس وأرواحهم؛ كتب السادات إلى عثمان كتخدا الدولة الرسالة الآتية:

حسبنا الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم

النصير. وما هي من الظالمين ببعيد.

ظننت أنك عــدتي أسطو بهــا
ويدى إذا اشتـد الزمـان وسـاعـدى
فــر مـيت بغـيـر مــا أملتــه
والمرء يشــرق بالزلال البـــارد

أما بعد، فقد نقضت عهدى ، وتركت مودة آل جدى. وأطعت الظلمة السفلة ، وامتثلت أمر المارقين الثقلة، فأعنتهم على البغي والجور، وسارعت فى تنجيز مرامهم الفاسد على الفور؛ من إلزامكم الكبير والصغير ، والغنى والفقير إطعام عسكركم الذى أوقع بالمؤمنين الذل والمضـرات، وبلغ فى النهب والفساد غاية الغايات. فكان جهادهم فى أماكن الموبقات والملاهى حتى نزل بالمسلمين أعظم المصائب والدواهي. فاستحكم الدمار والخراب، ومنعت الأقوات وانقطعت الأسباب. فلذلك كان عسكركم مخذولا ، وبهم عم الحريق كل بيت كان بالخير مشمولا».

«كيف لا، وأكابرهم أضمرت السوء للمرتزقة فى تضييق معايشهم وأخذ مرتباتهم، وإتلاف ما بأيديهم من أرزاقهم وتعلقاتهم. وقد أخفتم البلد بعد أمنها، وأشعلتم نار الفتنة بعد طفئها . ثم فررتم فرار الفيران من السنور، وتركتم الضعفاء متوقعين أشنع الأمور. فواغوثاه ! واغوثاه ، أغثنا ياغياث المستغيثين، واحكم بعدلك يا أحكم الحاكمين، وانصرنا وانتصر لنا ، فإننا عبيدك الضعفاء المظلومون ، يا أرحم الراحمين».

هذه الرسالة كتبت عقب انهزام المصريين فى الوقائع التى جرت بينهم وبين الفرنسيين فى مدينة القاهرة ، والتى خرب بسببها معظم أحياء المدينة. وقد أرغم الأهالى شيخ السادات على أن ينفق على جانب كبير من المجاهدين . فلما انتصر الفرنسيون فرضوا غرامات على سكان القاهرة، وفرضوا على شيخ السادات ٥٣٥ ألف فرنك.

فذهب إلى داره وصحبه بعض الجنود الفرنسيين لحراسته حتى لا يهرب، ثم اعتقلوه فى القلعة وكان فى نيتهم قتله، فشفع فيه عثمان بك البرديسى . واعتقلوا فراشه ومقدمه. وحبسوه فى حجرة مظلمة فكان ينام على التراب، ويتوسد حجرا. وضربوه ضربا مبرحا يومين متتابعين. ثم أنزلوه إلى داره فى حراسة شديدة . كان لديه عشرة آلاف ريال فدفعها للفرنسيين . ثم باع بعض أمتعته ولكن هذا لم يف بالمطلوب. فرجعوا به إلى معتقل القلعة ماشيا وصاروا يضربونه خمسة عشر عصا فى الصباح، ومثلها فى الليل. وطلبوا زوجته وابنه فلم يجدوهما. فأحضروا محمد السندوبى تابعه وعذبوه حتى عاين الموت، فعرفه بمكانها، فجاءوا بها وحبسوها معه، وكانوا يضربونه فى وجودها وهى تبكى وتصيح. ثم تشفع المشايخ فى نقلها من عنده، فنقلوها وبقى الشيخ على حاله. وأخذوا مقدمه وفراشه وحبسوهما ، وتغيب أكثر أتباعه واختفوا.

ولما قتل كليبر وخلفه مينو سنة ١٢١٥ هـ أفرج عن شيخ السادات فرجع إلى بيته بعد أن دفع ما سبق أن تقرر عليه، واستولى الفرنسيون على ضياعه وأوقافه التى كان متنظرا عليها، وحرموه من مرتباته، وأمروه بعدم الاجتماع بالناس. وألا يخرج من بيته دون إذن منهم، كما أمروه بالاقتصاد فى أموره ومعاشه، وأن يقلل من أتباعه.

* * *

وكان السادات الوفائية يتشبهون بالملوك فيخلعون على أتباعهم الكنى والألقاب مثل أبى

الفوز، وأبى التدانى ، وأبى الإقبال، وأبى العزم وكانت لهم مواسم خاصة يحتفلون بها وهى:

(١) الميعاد (٢) مولد المحرم (٣) مولد الحسين (٤) ٢٧ رمضان، وفيه يمنح شيخ السادات أتباعه ومريديه الكنى.

والطريقة الوفائية التى تنسب إلى مؤسس هذا البيت هى شعبة من الطريقة الشاذلية ولهذه الطريقة حزب مشهور هو حزب الفتح، يقرأ فى بيت الشيخ كل أسبع ولها خرقة صوفية خاصة. ولشيخ السجادة تاج خاص يلبسه فى المواسم والأعياد.

أما الزوايا التى تتبعه فهى:

١ - زاوية الرباط وهى بناحية الخرنفش. وكانت العادة قديم أن من يتولى مشيخة السجادة الوفائية يتوجه إليها ويمضى بعض الوقت فى قاعة خاصة تسمى «قاعة التجلى» حيث تحل فيه الأسرار الإلهية. كما يزعمون ؛ ثم يخرج فى موكب حافل إلى مسجد الحسين.

٢ - الزواية الكبرى وهى شرقى الإمام الشافعى ، وقد هدمت فى عهد الوالى العثمانى عزت محمد باشا سنة ١١٩١ وبنى فى موضعها مسجد ضخم فخم بأمر السلطان عبد الحميد الأول نكاية فى السادة الوفائية.

وقد سبق أن ذكرنا أن الناس كانوا إذا دخلوا لى مشيخ السادات قالوا «يا مولاى ، ياواحد» يرد عليهم بقوله «يامولاى يا دائم ، ياعلى يا كيم» والآن نريد أن نعرف السر فى اختيار هذه عبارات دون سواها ، وقد وفر علينا مشقة البحث حد شعراء السادات الوفائية حيث قال:

جعلت مدحك يا مولاى أورادا
ياواحد العصر يا من بالتقى سادا
قل يا على تجده ناصرا أبدا
يا دائم السر آباء واجدادا
وإن يقل قائل ما أصل خيرتها
من دون الأسماء للأستاذ أورادا
فكل لفظ أتى قطب الوفاء به
يدريه محترزا من كان نقادا
إذ كل من ذكر اسما فى تضرعه
لله يطلب معنى مابه نادى
فاختار أسماء مولى ما بها طلب
لأنه فاق أنجابا وزهادا
لا خوف نار ولا فى جنة طمعا
بل يرتجى قربه لم يبغ إبعادا
أعلى المقامات فى التعبيد عندهمو
يافوز من كان للرحمن عبادا
وشيخنا القطب فوز الأولياء له
أعلى المراتب تسليكا وإرشادا
ورب عبد غدا رقا لطائفة
فقال بل واحد ما رمت الحادا
لا جزء فىّ لغير الله يملكه
وفيه رد على من رام تعدادا
وأنه كرر المولى للذته
بكونه لمقام العبد قد عادا
فيه دليل على إثبات رتبته
قطبا إلى أن وفى للحور ميعادا
أو واحدا كان لكن لا دوام له
فقال بل دائم جودا وإمدادا
ودائم لا زوال وهو قابله
فقال لا، بل وعلى السوى بادا

ومن تكن هذه الأوصاف فيه فقل
هو الحكيم وقد وفيت إيرادا
أمر الحكيم مطاع لا خلاف له
سلم تجد منه إيجادا وإنجادا
وكل شيء ففيه حكمة بلغت
فضلا وعدلا وإعداما وإيجادا

فالشاعر يقول إن الناس إذا ذكروا الله ذكروه بأسماء وصفات تعبر عما تنطوى عليه نفوسهم من رغبة أو رهبة. أما شيخ السادات فإنه اختار اسما لا يدل على رغبة فى شيء من الأشياء لأنه زاهد إلى أبعد حدود الزهد، ولا يدل على خوف من النار أو طمع فى الجنة. وكل ما يجول بخاطره هو أن يتقرب إلى الله، وهذه أعلى مقامات العبادة .

هذه هى الأفكار التى من أجلها اتخذ شيخ السادات شعاره السالف الذكر فى تحية الناس له، وفى رده عليهم.

وقد ردد شعراء السادات هذه العبارات فى شعرهم . مثال ذلك قول أحدهم:

قمت فى حضرته مبتهلا
فعسى أبلغ من قصدى المراما
قلت يامولاى ياواحد فى
وصفه يادائم الفضل دواما
يا على الشأن عن درك السوى
ياحكيما أحكم الأمر احتكاما

* * *

وقد مر بنا أن شعراء مصر اجتمعوا حول شيخ السادات محمد أبى الأنوار ومدحوه بقصائد كثيرة. وقد جمع الحسن البدرى العوضى جانبا كبيرا من هذه القصائد فى كتاب اسمه «اللوائح الأنوارية» والآن نريد أن نلقى نظرة طويلة على هذه المجموعة من الشعر لنرى ما فيها من الأفكار التى يمكن أن تضاف إلى خصائص شعراء آل البيت.

فهذا شاعر يقول من قصيدة فى مدح أبى الأنوار:

الجوهر الفرد الذى بوجوده
أنس الزمان وبهجة الأقطار
محيى رباع الفضل بعد تهدم
مروى رياض المجد بعد بوار
قطب الوجود إمام كل موحد
سعد السعود نتيجة الأعصار
ملك تدين له الملوك وسيد
ورث العلا عن سادة أطهار
الله توجه بتاج جلالة
وكساه حلة هيبة ووقار
فانزل بواديه المقدس إنه
مجلى السرور ومنبع الأسرار

فالشاعر يقول إن شيخ السادات هو الجوهر الفرد.

وانه أحيا رباع الفضل بعدما درست معالمها، وعفت آثارها. وهو الذى أعاد للمجد رونقه وبهاءه.

وهو قطب الوجود ، وإمام كل موحد. فشيخ السادات الذى هو رئيس البيت العلوى فى مصر، هو إمام المسلمين وهو الذى يجب أن يسمع له المسلمون ويطيعوا.

وإنك لتجد هذه الفكرة ـ أى فكرة الإمامة ـ أو على وجه أدق إمامة شيخ السادات واردة فى كل ما مدح به من الشعر. مثال ذلك قول أحدهم:

وعش زينة للدهر إنك روحــــه
فنما دمت لا يفنى الزمان ولايمحى
وإنك للدين القـويم ابتـهـاجـه
وإنك منهاج الحنيـفيـة السـمـحـا
وإنك للإســلام أعظم ناصــر
فـواليـتـه ودا وأوليـتـه نـصـحـا
وإنك كــهف المسلمين وركنهم
وملجـأهم في كل نائبـة قـبـحـا
جعلت بهذا العصر للخلق رحمة
أزلت لهم عن كل مشكلة جنحـا

فشيخ السادات هو روح الدهر، وقرة عين الدين الذي أدخل عليه البهجة والسرور . وهو منهـاج الحنيفيـة ، وحارس الإسلام والمسلمين. وقد جعله الله رحمة للعالمين.

وقال آخر:

وعلى بنى العصر اصطفاك لرتبة
تركت قلوب عـداك فـيـهـا النار
السيـد السند الهـمـام المجـتـبى
صـدر الصـدور المنتـقى المختـار
الجوهر الفـرد الذى لم تشـتـمل
أبدا على أمـثـالـه الأعـصـار
العــروة الوثقى لمعـتـصـم به
الآية الكبــرى لمن يخـتـار
كـنـاه مـــولاه أبـا الأنوار إذ
مـن نـوره تـتـــولـد الأنـوار
ولاه مـــولاه خـــلافـــة آلـه
فنمـا به شـرف لهـا وفـخـار
بعـــلاه آمنا فــمن يؤمن ينل
عـــدنا ونار لظى لهـا الكـفـار

ياصـفـوة الرحـمن من أقـرانه
يـامـن لـه نـعـم علـيّ غـــزار

فالله اختار السادات لرتبة الإمامة. فهو الإمام المصطفى الذى اجتباه ربه وهو الحقيقة المحمدية، لا نظير له ولا شبيه. وهو العروة الوثقى والآية الكبرى، والسراج المنير الذى يهدى الناس بضيائه. وهو مشرق الأنوار، من آمن به فقد فاز بجنات عدن، ومن كفر فجهنم مقره ومثواه.

وقال آخر:

أنعم بهـا من روضـة مـأنوسـة
مـحـفـوفـة بطوالع الأنوار
أحـيـا مـآثرها الإمـام المرتضى
صـدر الصـدور ومطمع الأنظار

وقال الخشاب:

لو يسـتطيع لجـوده أغنى الورى
والعــالـم العلوى من آلائه
خلف النبى مـحـمـد ووصـيـه
نور السـراة الغـر من أبنائه
لو كـان في عـهـد النبى وجـوده
أمـسى مع السبطين تحت عـبائه
شـهـم عليـه الله فى تنزيله
أثنى فـأعـيـا اللسن حسن ثنائه

فالخشاب يقول فى البيت الأخير إن الله مدح شيخ السادات فى القرآن الكريم.

فالقرآن الكريم مدح أهل البيت حين وصفهم بالطهر والبراءة من الرجس، ويقول إن أبا الأنوار كان موجودا فى عصر النبى عليه السلام لأدخله

مع الحسن والحسين تحت عباته. وقد سبقت الإشارة إلى قصة العباءة.

وانظر إلى قول محمد بن شبانة:

لنبي الوفـا في الكون أعلى رتبـة
بعـد النبي وصـحـبـه الأبرار
ورثوا السـيـادة عن علي جـدهم
باب المدينة قـاتل الكفـار
هذا هو السـبب الذي يعلو على
كـيـوان والبـدر المنيـر السـاري
كـالشـمس في أفق السـمـاء ونورها
نفع الأنام وبهـجـة الأعـصـار
من مـثلهم والعلم مـيـراث لهم
كـالجـد حـيـدرة الرضـا الكرار
فـهـو الخيـار بنو الخيـار وجـدهم
فـخـر العـلاء وأصل كل فـخـار
من جـاءهم يرجـو الأمـان بجاههم
سلمت عـقـيـدته من الأوزار

ففي هذه الأبيات نجد محمد بن شبانه يردد الأفكار التي مرت بنا من القول بوراثة آل السادات للإمام علي، والإشارة إلى حديث «أنا مدينة العلم وعلي بابها» وغير ذلك من المميزات التي انفردوا بها، وأن من أحبهم سلمت عقيدته وصح إيمانه.

* * *

وشيخ السادات هو المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا. قال أحد الشعراء:

إذا لم يك المهـدي تيـقنوا
ببطلان ماقد يزعمون فلا مهدي

فإن لم يكن أبو الأنوار هو المهدي الذي ينتظره الناس فلا مهدي إذن على الإطلاق.

وانظر إلى قول عبد الرحمن الصفاقسي:

وقـد بلغت آمـالكم سـورة الضـحى
وأوصـافكم في سـورة الفـيل تذكـر
إذا جـاء نصـر الله تبت يد العـدى
وقـابلهـا الخذلان من حيث تنصـر
وتبـقى لهـذا الدين كـهـفـا وملجـأ
وردا به الإسـلام يعلو ويظهـر
وتبـتـهـج الأيام بالعـدل والهـدى
وتصبح أهل الفضل بالفضل تفخر
ويصبح داعي النصر في كل موطن
ينادي على الكفـار الله أكـبـر
هنالك يعلو ديننا بمحـمـد
على دين ابراهيم بالنسخ يظهـر
سـلالة خـيـر الخلق من آل هاشم
ومن هو للسـر الوفـائي مظهـر
فـقم يا أبا الأنوار لله حـسـبـة
فـإنك في كل الأمـور المظفـر
وكن واثقـا بالله مـعـتـصـمـا به
على ثقـة بالفـوز والله ينصـر
فـإنك داعي الحق والحق دامغ
لبـاطلهم وهو الزهوق المتـبـر
وانك مـهـدي الزمـان فـلا تدع
بمصرك شـيـئا مـاله الشـرع ينكر
فـلا زلت بالمعـروف والخـيـر آمـرا
وتنهى عن الفـعل القـبـيح وتزجـر

ففي هذه القصيدة نرى فكرة مهدوية محمد أبي الأنوار واضحة وضوحا تاما. وقد أشار الشاعر إلى ماورد في سورة الضحى من خطاب الله للنبي عليه السلام بأنه ما ودعه وما قلاه. وأنه سيعطيه

عطاء يرضى معه. وقال إن موقف أبى الأنوار يشبه موقف النبى فى هذه السورة، أى أن الله سيعطيه ما يرضيه كل الرضا، فى حين أن خصومه ومنكرى مهديته سيهلكهم الله كما أهلك أصحاب الفيل، وسينصره نصرا عزيزا مؤزرا، فيعلو به الدين ويملأ الدنيا عدلا وهداية. ثم التفت الشاعر إلى شيخ السادات وأخذ يحرضه على القيام للجهاد فى سبيل اله ، فهو داعى الحق، ومهدى الزمان، الآمر بالمعروف الناهى عن الفحشاء والمنكر ناهيك عن انه يخاطبه كملك لمصر عندما قال فى البيت قبل الاخير «بمصرك».

وقال مرتضى الزبيدى:

هو روح الإله فى كل مجلى
هو تاج الجمال والعلياء

وكثيرا ماشبهوا شيخ السادات بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم. من ذلك قول أحدهم:

رقيت سمى المصطفى وابن سبطه
مراتب عز قد غدا فضلها جما
تبوأت منها رغم شانيك منصبا
مكان رسول الله فى هاشم قدما

أو يذكرون اسمه كما يذكر اسم النبى محمد. مثال ذلك قول أحدهم:

سريرته كسيرته وأسنى
فيا حسناه إذ يعنى ويقصد
فذاك السيد السند المفدى
أبو الأنوار سيدنا محمد

وشيخ السادات يعلم الغيب. قال الخشاب:

له قلم بعلم الغيب يجرى
وبالأرزاق والقدر المتاح

وزيارة شيخ السادات فرضة كالحج بل أكثر. قال أحد الشعراء:

فلبيته سعى الأفاضل عندهم
فرض كفرض الحج فى عرفات
والحج مفروض علينا مرة
ولبيتهم عدد من الكرات

* * *

وفى الشعر العلوى نجد كثيرا من الصور الدينية كالحج والطواف والسعى والوقوف بعرفات وغير ذلك . قال أحد الشعراء:

ياخير من حجت إليه ركائب الـ
ـفضلا تقبل ركنه المحروسا
وتراهمو يسعون فى مرواته
وصفاه لا يلقون منه عبوسا
يقفون فى عرفات واسع فضله
متأزرين من الخشوع لبوسا
بحماك حط مفتت الأكباد من
شط الديار وقد أناخ العيسا
تهنا بعيد الفطر جاءك زائرا
فقريته التسبيح والتقديسا
أرضيت ربك فى قنوتك ليله
وأغظت فى أيامه إبليسا

وقال محمد بن شبانه:

مولى إذا حضر الأفاضل عنده
نزلوا نزول الحج فى عرفات
يرجون غفران الذنوب جميعها

من أكـــبــر الآثام والتـــبـــعـــات

شبه كبير بين هذه المدائح التي كان ينظمها الشعراء في الخلفاء والأئمة الفاطميين ، وبخاصة كانت تقال في عيد الفطر أو عيد الأضحى كما كانت الحال مع الخلفاء.

ويكثر في الشعر العلوى الإشارة إلى الآيات القرآنية والاقتباس منها مثال ذلك قول القائل:

فـصل له شكرا وقم وانحر الفدا
وكـبـر على الأعـدا فـشـانيك أبتـر
وقـــد زلزلوا بالعـــاديات وأهلكوا
بقـارعـة فـيـهـا مع الصـرصـرصـر
وألهـاهمـو بالعـصـر ويل لخسـرهم
وأحـوالهم في سـورة الفـيل تذكـر

والأمثلة على ذلك كثيرة.

* * *

وكان الشعراء في مدائحهم لشيخ السادات ينظرون إلى ما نظم قديما. مثل قول السفاقسى:

هل تفكون أســيـــرا من قــيـــاد
أو تجـيـرون صـديقـا من مـعـادى؟
أو توالون مـــحـــبـــا صــادقـــا
وده فـي كـل يـوم فـي ازديـاد؟
أو تراعـــون حـــقـــوقـــا أوجـــبـت
أن تراعى حـــقـــهـــا أهل الوداد؟
يابنى الســادات قـومـوا سـرعـة
وانفضوا عن مضجعى شوك القتاد
ياكـرام الحى فـاحـمـوا حـوزتى
وامسحوا عن ناظرى كحل السهاد
أنتـــمـــو القـــوم الأولى عـــاداتهم
نصـــرة العـــانى واســداء الأيادى
مـسـتـغنى العـافين في يوم الندا
ملجـــأ العــاصين في يوم المعـــاد
يـــا أبـــا الأنـــوار مـــن أنـــواره
أشـــرقت في كل أرجــاء بهـــادى
ياســمى المصطفى خـيـر الورى
ياسليل الســادة الشم الجـيـــاد
ياولى العـــهـــد من بعـــدهمـــو
ياعـهـاد الخـيـر من قـبل العـهـاد

إن هذا الشــاعـر قلد ابن هانئ الأندلسى في قصيدته التي مطلعها:

امسحوا عن ناظرى كحل السهاد
وانفضوا عن مضجعى شوك القتاد

بل إنه سطا على كثير من ألفاظه وعباراته ومعانيه. والأمثلة على ذلك كثيرة.

وشيخ السادات هو الأمين على سر الرسول . قال أحدهم:

وهو الأمين على سر الرسول ومن
سواه من سره زهر المنى اقتطفا
تثنى عليه بقاع الأرض أجمعها
وكل حى صـــفي ذكـــره ألفـــا

نبذة عن شعر المدرسة الشعبية المصرية فى ظل الاحتلال العثمانى

هذه مدرسة قديمة عرفت فى مصر قبل 'حتلال العثمانى، وفى مطلع هذا الاحتلال نرى ن شعرائها:

ـ ابن إياس الحنفى المتوفى سنة ٩٣٠ هـ فقد نظم شعرا كثيرا باللغة المصرية فى أغراض مختلفة مثال ذلك قوله:

ان ابن عثمان مذ جاء مصر مثل الطيف
وحل وولى علينا كل صاحب حيف
باشرين يجوروا فى الشتا والصيف
أطراف أقلامهم للفعل فعال السيف

ففى هذين البيتين صور ابن إياس آلام الشعب معاناه من ظلم الحكام وعمال الخراج الذين لا نطعون عن تحصيل الأموال حتى استنزفو دماء صريين وأذاقوهم الجوع والخوف . وفى قوله طراف أقلامهم تفعل فعال السيف» تصوير رائع فراط الجباه العثمانلية فى إيقاع المظالم بالشعب.

٢ ـ ومن معاصرى ابن إياس، زجال مشهور هو ر الدين الزيتونى (٨٣١ - ٩٢٤هـ) كان أحد اب السادة الشافعية، فاضلا عارفا بصناعة القضاء لتوقيع، ماهرا فى الخطب، فكه المحاضرة ، كثير شرة للناس، علامة فى فن الأزجال، والموشحات رالمواليا، وكان وكان، والقوما. وله قصيدة طويلة ، فن الزجل فى مائة وعشرين بيتا، رثى فيها سلطان الغورى وسرد ماحدث من المعارك بين يش المصرى والجيش العثمانى نذكر منها:

غربت شمس الدولة الغورى
وابن عثمان نجمو طالع ساير
وبهذا رب السما قد حكم
والفلك دار ولم يزل داير
خامس عشر من ربيع آخر
تسعمائة اثنين وعشرين عام
ورخوها من هجرة الهادى
شافع الخلق فى نهار القيام
كان خروج السلطان بتجريده
لابن عثمان طالب بلاد الشام
والأمارة في خدمتو موكبين
بالمماليك والطلب تتفاخر
وخروج الجميع من القاهرة
كان بتقدير الواحد القاهر
فى محفه خرج معو القاضى
وكاتب السر المنتخب محمود
والخليفة المتوكل ولد يعقوب
هو محمد فعلوا الجميل محمود
.... إلخ

وقد حرص الزيتونى على أن يسجل فى هذه القصيدة كل ما شاهده منذ خروج الغورى إلى اللحظة التى قتل فيها. وحدثنا عن ألمه وحزنه لما حل بالجيش المصرى من هزيمة. ثم عزى نفسه بذكر القواد والملوك الذين ماتوا وذهب ملكهم وأصبحوا فى ذمة التاريخ من أمثال سليمان الحكيم، والنمرود وكسرى أنو شروان، والاسكندر الأكبر، ونلاحظ أن حبه للتسجيل التاريخى قد غلب عليه.

ومما هو جدير بالذكر أن استخدام الشعر الشعبى

في الرثاء قد كثر في هذا العصر، كما انتشرت النساء اللاتي احترفن فن التعديد وهو نوع من الشعر مازال حتى أيامنا هذه ينشد في المآتم.

وفي حوادث سنة ٩١١هـ كثر الحريق بالقاهرة بسبب وجود الدريس في منازل المماليك، وكانوا قد افرطوا في خزنه. وشرع الوالي يقبض على الناس ويرغمهم على نقل الدريس بعيدا عن مواطن الحريق. فتعطلت أعمالهم، وصنفوا رقصة وهم يقولون :

اهرب ياتعيس

والا يحملوك الدريس

فلم يجدوا أمامهم سوى الهرب من حمل الدريس، إذ لم يكن في قدرتهم أن يفعلوا شيئا غير ذلك، فمن اختفى استراح، ومن ظهر سخر في نقل أحمال الدريس. ويبدو أن العامة قد واجههم عناء شديد وبلاء عظيم في هذه الحادثة فتحركت مشاعرهم بهذا الغناء.

وفي حوادث سنة ١١٣١هـ خلع المماليك الباشا التركي عقب فتنة كبرى سالت فيها الدماء وتناثرت الأشلاء، وخربت دور كثيرة. وكان هذا الباشا هو مدبر تلك الفتنة، فلما خلع اجتمع عليه الأولاد الصغار وأخذوا يرقصون ويغنون بصوت مرتفع قائلين:

ياباشا، ياباشا ياعين القمله

مين قال لك تعمل دى العمله

ياباشا، ياباشا ياعين الصيره

من قال لك دبر دى التدبيره

ومن أنواع المواليا التي عرفت في مصر قبل العصر العثماني وانتشرت انتشارا كبيرا في خلاله :

١ ـ القرقيا : وهو ما يتناول الهزل.

٢ ـ البليق : ويستخدم في الغزل.

٣ ـ المكفر: بكسر الفاء ، ويستخدم في الوعظ.

فمن المكفر قول محمد سالم الحفناوى المتوفى سنة ١١٨١هـ:

يامبتغى طرق أهل الله والتسليك

دع عنك أهل الهوى تسلم من التشكيك

إن اذكروني لرد المعترض يكفيك

فاجعل سلاف الجلاله دايما في فيك

وهذه المواليا في الوعظ والإرشاد. فهو يخاطب من يريد الوصول إلى الله وسلوك طريق المتصوفة والانخراط في صفوفهم، وينصحه بترك الاعتراض على الناس وبمداومة ذكر الله.

وقد استخدم محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤هـ الموشحات في الدعوة لشراب القهوة مثال ذلك قوله:

أدر القهوة في كاس البها

قهوة البن وناهيك بها

هى حل مانهى عنها نهى

فاسقني ياصاح

شنف الكاسات واسمع ما أقول

إنها شرب الأجلاء الفحول

أولياء الله أرباب الوصول

لحمى الفتاح

ماعلينا من عذول جاهل

مفترى زور كلام باطل

خامل الذكر وميت زائل

راح من راح

ففى هذه الموشحات تصوير للنزاع العنيف الذى نشب بين أنصار شراب القهوة وخصومها. وقد حاول البكرى أن يتحدى هؤلاء الخصوم، فطلب من الساقى أن يدير عليه القهوة فى الكئوس الجميلة. ثم ذكر أن شراب القهوة لذيذ جدا، وحلال عند أرباب العقول السليمة، والقهوة شراب الأكابر وذوى المراتب الرفيعة من أولياء الله المقربين إليه. ويقول إنه لا يكترث بكلام الجاهل الذى يلومه على تعاطى هذا الشراب، والذى يحرمه مستندا إلى أدلة فاسدة وآراء باطلة. وهذا الجاهل نكرة لا يعرفه أحد، ولا يسمع به إنسان، فكأنه فى عداد الأموات

وهذه الموشحة جيدة التراكيب قوية الأساليب، واضحة العبارة، مليحة الإشارة

ومن موشحاته التصوفية قوله:

طلعة المحبوب كل القمر
هكذا هيمت كل البشر
كيف لاتسرى بكل الصور
وهم هالات
وحدت معناك عينى نظرا
قال لى قلبى شهدت الأثرا
ماترانى عين سعدى ماترى
وحدة بالذات
زال لبس حيث نفسى أعربت
وكذا شمسى بأفقى غربت
مثلما روحى بروحى طربت
والهوى لذات

.... إلخ

فالبكرى يقول إن الله تجلى فى مخلوقاته فهو كالقمر الذى هام الناس بحبه والمخلوقات تحيط به إحاطة الهالة بالقمر. وهو واحد بذاته وصفاته. ولما أدرك هذه الحقيقة زال من قلبه كل شك، وامتلأ فرحا وسرورا، ونعم بهذه اللذة الروحية التى غرق فيها.

* * *

ومن الشعر الشعبى الذى وصل إلينا من هذا العصر مجموعة عنوانها «الروض الوضاح فى نهاية الأفراح، المسمى باجتماع الشمل فى فن خيال الضل» وهذا النوع من الشعر التمثيلى الذى يشترك فى إلقائه بضعة أشخاص يمثلون موضوعات مختلفة، ويقفون فوق منصة مرتفعة وراء ستار، مستخدمين بعض آلات الطرب، ويرقصون ويغنون، و يقومون بحركات بهلوانية كالتى تشاهد فى الأراجوز ومما جاء فى هذه المجموعة:

عن خيال الضل دايم محتجب
فانتبه يامن غفل عنو ونام
تلتقى هزلو وجدو شى عجب
وعبارات شبه الأحلام فى المنام
والمرقص من ورا الستر احتجب
والشخوص تحكى شخوص هذه الأنام

كان هناك مرقص وستائر وتماثيل دقيقة الصنعة، وصور تشبه صور الناس والحيوانات والمبانى والحدائق وغيرها.

ومنها:

ليلة سعيدة عند ما قد رأيت
أهل الأدب يحكو بدور الكمال
لما طلبتونى إليكم أتيت
للعب والتفريج وفن الخيال
ياسادتى أنى بكم اقتديت
يامن حويتو الفخر والامتثال

ربى يفــرح قلوب الجــمــيع
بزيارة النبى الهــادى ودار الســلام
ياســامــعين قــولوا مــدد ياحــسين
والفــاتحــه اقــروها لبنت الإمــام

فمن هنا نرى أن اللاعب قد بدأ التمثيل بتحية الناس الذى دعوه ليعرض عليهم ألعابه . وقد ذكر أنه لبى دعوتهم وحضر ليدخل على قلوبهم الفرح والسرور ، وليطلعهم على فن خيال الظل. وقال أنه يتخذ من الحاضرين قدوة حسنة له فى حياته. فهم أهل الفضل والأخلاق الحميدة. ثم سأل الله أن يوفقهم إلى زيارة النبى صلى الله عليه وسلم، وطلب منهم أن يلتمسوا العون من الحسين ، وأن يقرأوا الفاتحه لبنت الإمام ، أي السيدة زينب. ومنها:

وبعـد هذا انتظروا أشـيا عـجب
فى الأدب والحظ والانشــراح
أشخاص وحازوا كل معنى طرب
كان السبب من مصر دا الفن راح
وحبى ظهر شكلو لأهل الرتب
نالو الأرب بأهل الوجوه السماح
يارب بالهادى نبينا الشفيع
وبالصحابه الفائزين الكرام
تغفر ذنوبى ياكريم يامعين
بفضلك وادخلنا ديار السلام



من رسوم خيال الظل ◄

ولما فرغ من المقدمة السابقة التفت إلى الحاضرين وأخبرهم بما سيشاهدون من عجايب فنه، وغرايب تمثيله. وذكر أن هذا الفن كان قد اختفى من مصر مدة من الزمن ومدح الحاضرين وأعرب عن حبه لهم. ثم دعا الله أن يغفر له ذنوبه وأن يدخله الجنة.

ثم ذكر بعد ذلك أسماء الممثلين وهم : (١) نرجس بن تقادير (٢) الكابس (٣) أبو حردان (٤) أبو قراميط (٥) السكران

ولكن من هؤلاء الأشخاص دور يقوم به، وموشحات ينطق بها.

ويغلب على هذه التمثيليات الغزل والشكوى من فراق الحبيب، ونداء الليل وغير ذلك مما هو معروف الآن. كما اشتملت على مدح الأولياء والوعظ والإرشاد، والحث على التمسك بمكارم الأخلاق، ففيها الهزل والخلاعة والمجون إلى جانب الجد، ومن التمثيليات الجدية تمثيلية «فلاح في بطن تمساح» . وقد وقف شخص اسمه الكابس يخاطب الفلاح بقوله:

«دور من الكابس للفلاح وهو في بطن التمساح»:

يا أخي أعلمني على دى القصة
لما بقيت في بطن تمساح كاسر
ياهلترى غضبوا عليك إخوانك
والا مرابط كان سرو حاضر
والا أبوك قلبسو غضب من يمك
والا دعت أمك فى الظلام العاكر
انهض واعلمنى صحيح واصدقنى
يامن رماه وعدو وأصبح نواح
قل لي على من أخرجك من بيتك
لما عليك قد اغتدى دا التمساح

فالفلاح كما نرى قد وقع فى شدة عظيمة، وضيق مؤلم إذا أضحى محبوسا فى بطن تمساح، وقد طلب منه الكابس أن يحدثه عن سبب وقوعه في هذه المصيبة. وهل كان سبب ذلك غضب إخوانه أم غضب أحد من الأولياء ؟ أم غضب والده؟ أم غضب والدته ودعاءها عليه في جنح الليل. وطلب منه أن ينهض ويخبره الخبر الصحيح، وأن يكون صادقا في قوله عن السبب الذى أخرجه من بيته وأوقعه فريسة لهذا التمساح الجبار الذى التقمه وحبسه في بطنه.

فيرد الفلاح قائلا (دور من الفلاح):

أبكى ودمع العين
جارى على خدى
حالى صبح مسكين
واللى انكتب وعدى
وقعت وقعة شين
وعدى لا بيدى
لكن أقول يارب
ياباعث الأرياح

فالفلاح هنا يبكى بكاء مرا على ما وصلت إليه حاله من بؤس وشقاد، ولكنه مع ذلك لم ييأس من رحمة الله، بل يطلب الفرج ويؤمل في النجاة، ويرجو اليسر بعد العسر.

وبعض هذه التمثيليات يبدأ بمدح النبى ثم يذكر الخلفاء الراشدين ومشهورى الصحابة. وتنتقل بعد ذلك إلى الأغراض التى أنشئت من أجلها. وهى تصور بوجه عام وقوع بعض الناس فى ضيق وشدة،

ثم استغاثتهم بالله والأنبياء والأولياء ، ورضاهم بالقضاء والقدر. ثم تنتهي بحدوث الفرج بعد الشدة.

* * *

ومن الشعر الشعبي تلك القصائد التي وردت في سيرة الظاهر بيبرس والأميرة ذات الهمة وكقصيدة أبي شادوف التي شرحها يوسف بن محمد الشربيني سنة ١٠٩٨ هـ في كتابه «هز القحوف».

* * *

وقد نظم ابراهيم الشافعي سنة ١١٧٧ هـ قصيدة طويلة من فن الزجل، مدح بها الأمير عبد الرحمن كتخدا ، عنوانها «مشارع خيرات حسان في مدح الأمير عبد الرحمن» سجل فيها كل ماشيده الأمير المذكور من المباني، وما أنفقه من الأموال في أوجه البر. ومما جاء فيها:

وكم عرايا قد كسا
وكم غريب قد أكرمه
بأرض الجزيرة لو سبيل
تجاه بولاق فافهمه
عليه سواقي دايره
منه الحسود قد انكمد
بشارعه حوض للدواب
شيد بناه ونظمه
وعبد الرحمن أمير
بفعل خير قد انفرد
وربنا صار لو معين
وأقمى الأعادى بالكمد

وكان بعض الشعراء يقلدون الموشحات الأندلسية، وينسجون على منوالها. نذكر منهم إسماعيل بن خليل الملقب بالظهورى ، المتوفى سنة ١٢١١ هـ فقد نظم موشحة على وزن موشحة ابن الخطيب الأندلسي جاء فيها:

ليت شعرى ياأخلاء الهوى
هل أرى بدرى بحاني مؤنسي
أم أقاسي من زمان قد قسا
ورمى أحشاى سهما عن قسى
دور
ياسقى الله زمانا قد مضى
في مغانى مصر في عيش خصيب
حيث بدرى قد قضى لى ماقضى
بالتداني إذ غفت عين الرقيب
شب من تذكارها نار الغضى
في فؤادى وتلافى فى النحيب
واعترتني دهشة حين جرى
من دموعى سائلا في الغلس
وغدا قلبى كليما مذ سرى
بارق في نخر ذاك المكنس
دور
يارياضا حسنها زاه يشيق
جاد في مثواك منهل السحاب
كم مضى لى فيك من معنى أنيق
حين كان اللهو مزهى الجناب
هل ترى عينى محياك الشريق
لابسا برد التهاني والشباب
وأرى بدرى يناجيني على
ذلك البسط الشهى السندس

وأحلى صــــبـــــر دهرى بالمنى
من مــــعـــــان زاهيـــات الملبس

وهكذا يستمر الشاعر إلى آخر تلك الموشحة الطويلة فى أسلوب قصصى سهل ممتع. فيذكر الحان وأيام الصبا واللهو والعبث التى أمضاها ونعم بها بين حدائق مصر وبساتينها. ويحدثنا عن اتصاله بمحبوبته بعيدا عن أعين الرقباء . ثم أخذ يتحسر على تلك الأوقات السعيدة الحلوة التى لن تعود.

وما تركته فى نفسه الذكريات من لوعة، وماتذرفه عيناه من دموع وما أصاب قلبه من جروح، ثم وقف يخاطب الرياض، واصفا إياها بالجمال والفتنة، ذاكرا الأيام الحلوة التى قضاها بين ربوعها، متمنيا لو أن تلك الأيام قد عادت إليه مرة أخرى ليمتع نفسه بوصال الغيد، والجلوس معهن على الحشائش الخضراء السندسية، تحت ظلال الأشجار الوارفة. ومن أشهر الزجالين فى هذا العصر الشيخ عامر الأنبوطى المتوفى سنة ١١٧٣ هـ والذى وردت ترجمته هنا تحت رقم ٢٦٣

واحتاجت المقاهى الكثيرة التى ظهرت فى ذلك العصر إلى المغنيين مما دفع أفراد تلك الطائفة إلى الإجادة والإتقان ليحوز كل منهم قصب السبق فتنهال عليه الأرباح الوفيرة. واتصل المغنون يلتمسون منهم نظم المقطوعات الغنائية المناسبة للعصر الذى يعيشون فيه. وقد لبى الشعراء هذه الدعوة ولظموا كثيرا من الأدوار الغنائية التى تسيل رقة وعذوبة. وفى تراجم معظم شعراء هذا العصر نجد مثل هذه العبارة «وله موشحات وأزجال ومقطوعات عديدة مشهورة بين أرباب الفن والأغانى و منتشرة بين الناس، يتغنون بها فى أوقات سمرهم» ومن أشهر مؤلفى الأغانى فى ذلك الوقت عبد الله الشبراوى انظر ترجمته رقم ٢٤٦ قال:

والله مليح وجميل وكامل الأوصاف
وأنا احــــبــــه ملو قلبى وأهواه
لطيف ظريف الشكل مالوش مثيل
فى رقته أما كلامه ماأحلاه

وقال:

شفته على غفله قوى حبيته
أسمر ومن طبعى أحب الاسمر
ميلت ناغشته لقيت له رقه
ولطف زايد والبشاشه اكثر
يا أهل الأدب والله وحق المختار
ماشفت عمرى فى الجمال مثله
قمر مصور مانظرتش حسنه
فى حد من بعده ولا من قبله

والمدرسة الشعبية مازالت قائمة تؤدى رسالتها. وقد اتسعت دائرتها.

فن القصص والملاحم

ظهر فى هذا العصر كتاب استخدموا لأول مرة اللغة العامية الدارجة فى كتبهم . وأهم هذه الكتب ألف ليلة وليلة، عنترة بن شداد، أبو زيد الهلالى، وسيف بن ذى يزن، والأميرة ذات الهمة ، وسيرة الظاهر بيبرس التى كتبها (كما هو الحال بالنسبة للكتب الأخرى) عدة مؤلفين متتابعين كان كل منهم يزيد عليها فصلا أو عدة فصول. أو يجرى عليها بعض التعديلات التى تناسب الوقت والمكان.

وقد ظهرت قصة الظاهر بيبرس فى ظل ظروف الصراع المملوكى ضد الاحتلال العثمانى لمصر ولهذا فليس ببعيد أن يكون واضع هذه القصة كان يهدف فى أول أمره إلى الدعاية للعنصر المملوكى. وإذا كان هناك أبطال مثل عنترة وأبى زيد الهلالى وسيف ابن ذى يزن، وإذا كانت هناك قصص تروى عن هؤلاء الأبطال، فلماذا لا يكون للعنصر المملوكى أبطاله؟ ولماذا لا تؤلف عن هؤلاء الأبطال قصص على نحو ما ألف عن عنترة و أبو زيد؟ هذا على مايبدو منشأ الفكرة التى سيطرت على ذهن المؤلف فى أول الأمر، ووجدت تشجيعا من المماليك الذين كانوا يتوقون إلى إحياء مجدهم السابق الذى أزيل على يد العثمانيين. فهى خير من يذكرهم بهذا المجد، وخير من يبعث فيهم الهمم على الكفاح والنضال.

إن شخصية بيبرس هنا تكاد تضارع أعظم الشخصيات الملحمية التى عرفت بالعدل والاستقامة، والعزم والحزم، والغضب للحق، والشدة فى مواطن الشدة، واللين فى مواضع اللين. والغيرة على الإسلام والمسلمين، والكفاح ضد الكفار والمشركين. بل إن القصة صورت بيبرس رجلا لا يخطئ ، ولايحيد عن سواء السبيل.

وإلى جانب الإشادة بالعنصر المملوكى تجد الرغبة فى التشهير بالحكم العثمانى . ففى مواضع كثيرة تطالعك حيل ملتزمى الأراضى الزراعية، وماطبعوا عليه من بطش وظلم وقسوة فى تسخير الفلاحين فى الأعمال الشاقة مقابل أجر ضئيل جدا، لايتجاوز رغيفين وبصلتين فى اليوم. وترى فساد القضاء، يحرمون الحلال ويحللون الحرام ففيها إذن حض على الثورة فى وجه الحكم العثمانى.

وقد أخذ العنصر المملوكى يسترد قوته يوما بعد يوم. ولما شعر العثمانيون بالخطر اجتهدوا فى الإيقاع بين المماليك. فانقسموا إلى فقارية وقاسمية، وظلوا يتنازعون فيما بينهم على السلطان، وأخيرا ظهر منهم على بك الكبير. وقد صار نفوذ العثمانيين فى مصر اسميا، وكان الحكم الحقيقى للعنصر المملوكى منذ سنة ١١١٩هـ.

وقد حرص مؤلفو القصة على أن يربطوا بين مصر والشام. ألم يكن بين البلدين ارتباط وثيق قبل الغزو العثمانى؟ ولذلك ترى بيبرس ينتفع بكثيرين من أبطال الشام مثل الفارس المغوار ابراهيم الحورانى صاحب قلعة حوران بالشام. وكان كما جاء فى القصة مقيما مع أتباعه الحوارنة فى مساكن خاصة بهم. وقد ظل ابراهيم طوال حياته مخلصا لمولاه . أما البطل الثانى فهو سعد بن دبل البيسانى، وهو ابن خالة ابراهيم الحورانى وعملهما متشابه، فهما يحرسان القصر السلطانى ليلا، ويلازمان بيبرس فى حله وترحاله ملازمة الظل. والبطل الثالث أيدمر البهلوان. وقد اشترك فى جميع الحرب والمعارك التى خاض غمارها الجيش المصرى . وشاهد من الأهوال ما يعجز القلم عن وصفه.

وفى القصة مجال واسع للجاسوسية ،.وبراعة فى التخفى والتنكر. فمن أبطال الجاسوسية جمال الدين شيحة وأولاده، وكانوا يعملون فى خدمة بيبرس بنشاط منقطع النظير. فتراهم يتنكرون فى هيئة رهبان، أو دراويش ، أو تجار من بلاد الروم، أو من بلاد العجم. وأحيانا فى صورة فتيات جميلات، أو جوارى حبشيات . ويطلون أجسامهم بألوان تناسب الحالة التى يتنكرون فيها ولهم مهارة فائقة فى تسلق جدران القصور والأسوار، والحصون

والقلاع ، والتسلل إلى داخلها ليلا، واستخدام البنج ليفقد العدو وعيه، وحينئذ يحملونه ويهربون به.

وكان شيحة كما تصوره القصة حافظا للإنجيل، إذا رتل بصوته الشجى أثر فى سامعيه إلى حد كبير. ويجيد التكلم بلغة الفرنجة، كما كان خبيرا ببلادهم وعاداتهم وتقاليدهم . لذلك كان إذا تنكر فى هيئة مسيحى لم يستطع أن يكشف حقيقة أمره.

وفى القصة نرى أحد رجال الدين المسيحى ،، وهو بطرق جوان ، الذى جعله المؤلف لا يقل مهارة فى التنكر والتخفى عن شيحة. وكان جوان حافظا للقرآن ، ولكثير من الأحاديث النبوية ، دارسا لأمهات الكتب اللغوية والنحوية، وكتب الفقه والتفسير. فاستطاع أن يدخل القاهرة متنكرا فى زى عالم مسلم اسمه الشيخ صلاح الدين. وأن يظفر بوظيفة قاضى الديوان الملكى نجم الدين أيوب، وهى من الوظائف التى يشغلها أكبر علماء المسلمين. وشرع جوان ، أو الشيخ صلاح الدين، يدس الدسائس للكيد للمصريين حكومة وشعبا. ويراسل الفرنجة سرا، حاضا إياهم على غزو مصر واحتلالها. واتخذ له مسكنا بحارة الروم.

والبيئة المصرية ظاهرة فى القصة ظهورا لاخفاء معه. فلم تترك ناحية من نواحى الحياة المصرية دون أن توفيها حقها من البحث والتمحيص والتحليل. كما ورد ذكر لكثير من أحياء القاهرة وحواريها وشوارعها ، كحى بولاق ، وباب الشعرية ، والحسينية ، ومصر العتيقة ، وباب الخلق، والجماميز، والبساتين ، وقلعة الكبش، وقناطر السباع، وشبرا ، والرميلة ، وغيرها من المدن: بنها العسل، وقليوب، والاسكندرية، ودمياط وغيرها.

والى جانب ما تقدم نرى حيزا كبيرا يصور البيئة الشامية، وبخاصة بيئة الفداوية. والفداوية طائفة تعتنق مبادئ شيعية وتسكن فى بعض جهات الشام. وقد حاول صلاح الدين أن يقضى على نفوذها فلم يوفق. وظلت تتمتع بقوتها حتى خضعت أخيرا لبيبرس، ولم يكن لها فى أيامه شأن يذكر . هذا ماسجله التاريخ، ولكن القصة صورت الفداوية فى صورة قوم جبابرة عتاة، أولى بأس وقوة. ولهم سلطنة اسمها سلطنة القلاع والحصون. وهم يسكنون هذه القلاع، وكل قلعة أو حصن حوله مدينة أو عدة مدن تتبعه. ويتمتع سلطانهم بحكم نافذ عليهم ، لامرد له ولا معقب لأمره. وهم لا يخضعون لأحد غيره، ولايحكم بينهم شخص سواه. وحتى هؤلاء الأبطال الذين عاونوا بيبرس كابراهيم الحورانى وسعد بن دبل لم يكونوا خاضعين لبيبرس إلا بأمر من سلطانهم شيحة. وإذا حدث منهم مايستوجب العقوبة تولى سلطانهم التحقيق معهم والحكم عليهم بما يراه.

ويكثر فى القصة استخدام البنج بوضعه فى الطعام أو الشراب، أو مع البخور، أو إلقائه فى المواقد. وأحيانا نرى السم بدله. كما يكثر فيها الاستعانة بالسحر.

وبالقصة ماشئت من ضروب التهكم وأنواع السخرية، والتحليل النفسى الدقيق، والمآزق التى تسمى عقدة القصة. وفيها من قوة الخيال مايبعث الدهشة ويثير الإعجاب. وبها صراع عنيف بين الخير والشر، وشعر عامى، وهو غالبا فى المديح النبوى، أو التوسل والاستغاثة. كان يتغنى به من حين إلى حين ترفيها عن السامعين وتنشيطا لهم. وقد شغلت كرامات الأولياء جانبا كبيرا منها.

وبالقصة كلمات تركية مثل باشا، وبك، وطوبجى، وخانجى. وكلمات إفرنجية مثل كرستيان، ورين ودوكاتا، وجلف أى خليج.

الطرق الصوفية في مصر في ظل الاحتلال العثماني*

هدتنا المصادفة إلى العثور على أسماء طرق كادت تبلغ الثمانين عدا، فقد روى صاحب المناقب في معرض الحديث عن الشعراني أنه أخذ الطرق «كلها» عن مشايخه وهى ست وعشرون طريقة هى طرق الرفاعية والقادرية والأحمدية والبرهامية والشاذلية والسهروردية والنقشبندية والحسينية والوفائية والكشيرية والأحمدية والعزيزية والسعودية والمصافحة والطيلسان والرداء والمئزر وإرخاء العذبة.

والظاهر أن هذه الطرق لم تكن كل ماقام فى مصر إبان العصر الذى عاش فيه الشعرانى ، فإن فى الكثير من كتبه ذكر طرق أخرى لم تذكر فى هذا البيت. نذكر منها الآن مالم يذكر فى ثبت المناقب السالف. ذكر الشعرانى فى أكثر من موضع فى لطائف المنن فرقا منها: المطاوعة بالشرقية والصعيد وفى قواعد التصوف يذكر طوائف البسطامية والأدهمية والمسلمية والدسوقية (ولعلها البرهامية) والملامنية والحيدرية.

وفى العصر العثمانى وجدت فرق تصادفنا اسماؤها فى غير كتب الشعرانى منها ماوراه الجبرتى عن أصحاب البدع كجماعات العفيفى والسمان والعربى والعيسوية وأخرى رواها فى مواضع أخرى مع بعض ما أسلفناه منها فرقة السعيدية والشعيبية ثم الشناوية والشعرانية والمولوية ثم البراهمى والقدرية . وذكر عبد الغنى النابلسى فى رحلته إلى مصر فرقا أسلفنا بعضها ويضيف فرقة الدمرادشية والبكتاشية والكلشنية وتشير طبقات الشاذلية إلى طوائف أخرى منها العفيفية (ولعلها جماعة العفيفى التى ذكرها الجبرتى من قبل).

وذكر على مبارك أن الفرقة الأحمدية قد تفرعت إلى ست عشرة طريقة هى: المرازقة والكناسية والأنبابية والمنافية والحمودية والسلامية والحلبية والزاهدية والعشيبية (وقد ذكرناها من قبل) والبيومية والتسفيانية والشناوية والعربية (ولعلها جماعة العربى السالفة الذكر) والسطوحية والبندارية والمسلمية ويذكر الأستاذ «لين» فى كتابه المصريون المحدثون طائفة أولاد نوح من فروع الأحمدية.

وقال ان الرفاعية لا فروع لها وإن كان لها ثلاث بيوت هى البازية والملكية والحبيبية والفرق بين الفروع والبيوت أن لكل فرع شيخا أما البيوت فيجمعها شيخ واحد ، وأما القادرية فلا فروع لها ولابيوت. وأما البراهمة (أى البرهامية) فلها فرعان هما الشهاوية والشرانبية (ولعله يريد الشرنوبية المنسوبة إلى أحمد عثمان الشرنوبى صاحب الطبقات المعروفة والمتوفى سنة ٩٤٠ هـ) وقال إن الشاذلية قد تفرع عنها أربع عشرة طريقة هى الجوهرية والقاسمية والمدنية (ولعلها المدينية التى رواها صاحب المناقب) والمكية والهاشمية والفروسية والتهامية والخندوشية والإدريسية والقاووقجية، ثم طرق أخرى سلف ذكرها (هى السمانية والعفيفية والعيسوية والخلوتية المنسوبة إليها السيد مصطفى البكرى وقد تفرع عنها أربع طرق هى الحنيفة (المنسوبة إلى الحفناوى + ١١٨١ هـ) والسباعية والصاوية والضيفية.

والظاهر أن الدمرداشية قد تفرعت كذلك عن الخلوتية (المتفرعة عن الشاذلية) فإن عبد الغنى النابلسى يقول إن الشيخ شاهين قد اتهم بمعالجته

* استمدت هذه النبذة المطولة من كتاب التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى للدكتور توفيق الطويل. الصادر عن الهيئة العامة للكتاب. القاهرة ١٩٨٨.

الكيمياء فنفر منه أكثر أتباعه ومريديه وانتقلت شهرته العظيمة للشيخ دمرداش حتى استقر شيخا للخلوتية فى الديار المصرية. وينص صاحب تكميل النور السافر على أن محمد كريم الدين الخلوتى قد تلقى الخلوتية عن دمرداش المحمدى (٩٣٣هـ). ولا ينبغى أن ننسى البكرية التى تزعمت الطريق فيما بعد.

وقد حاول السيد توفيق البكرى أن يؤرخ الطرق الصوفية القائمة فى العالم الإسلامى كله، ولكن صعوبة الاهتداء إلى أصلها وتسلسلها ومعرفة تاريخ نشأتها كانت تحمله على الاكتفاء فى تأريخ أكثرها بأن يقول «منسوبة إلى فلان» أو موجودة بمصر الآن وقد صادفتنا هذه الصعوبة عندما حاولنا الاهتداء إلى نشأة هذه الفروع التى تحدث عنها على مبارك وإن كان الراجح على الظن أن أكثرها كان قائما فى العصر العثمانى، فقد كتبت الخطط التوفيقية بعد هذا العصر بأقل من قرن كان سلطان الصوفية قد أخذ يضمحل ـ وإن كن ذلك لا يبرر القول بأن الطوائف قد قل عديدها باضمحلال السلطان الذى كان لأهلها فإن عددها فى السنوات الأخيرة يزداد كما يبدو من إحصائيتين تراهما فى مكتبة مشيخة المشايخ مع أن سطوة أهل الطريق آخذة فى الزوال بمرور الزمان.

مميزات الطرق

الخصائص التى تميز هذه الفرق بعضها عن بعض قليلة لا تكاد تذكر، وأولها ما يختص بالزى وثانيها ما يتعلق بطريقة الذكر والعبادة؛ فأما عن الأول فقد عرفت الأحمدية بالزى الأحمر والبرهامية بالزى الأخضر والرفاعية بالزى الأسمر كما يقول على مبارك «والأستاذلين » أو الأسمر والأبيض كما يقول السيد توفيق، وعرفت القادرية بالزى الأخضر كذلك السعدية ويقول على مبارك إن أعلام الشاذلية مختلفة الألوان وليس للخلوتية علم وزيهم الذى يميزهم هو القاوق، كما أن الأولياء الذين تنسب إليهم الأحزاب المعتاد قراءتها لها علم وزيهم الخاص هو التاج وكان التاج من مميزات الخلوتية كما يشير صاحب السنا الباهر.

ومن هذا نرى أن الزى وحده غير كفيل بتمييزهم، فإن الزى الأخضر مثلا تتفق فيه القادرية والسعدية والبرهامية ـ بفرعيها وكذلك نقول فى الأحمدية والشاذلية وغيرها من الطوائف المتعددة الفروع. ويقول «لين» فى كتابه: كان أولاد نوح صغارا يرتدون جميعا طراطير تزينها من القمة خصل من الخرق ذات الألوان المختلفة، ويتقلدون سيوفا من الخشب ويمسكو سوطا يسمونه «فرقلة».

فأما وجه الخلاف بينها فى طريقة العبادة والذكر فنذكر ما عثر عليه بين ثنايا السطور مما ذهب أشتاتا فى بطون كتبهم، إذ لم نهتد إلى مصدر عرض لوجوه الخلاف بينها باسهاب ولا إيجاز.

والظاهر أن أكبر ما يميز الطوائف وردها ـ كما يقول ، «لين» فلكل طائفة ورد أو حزب أنشأه شيخها وحرص عليه أتباعه فى حياته وبعد مماته ، يرددونه فى الأوقات التى حددها لهم ويتلونه جماعة دون أن يتغيب عن تلاوته أحد منهم. لأن مدد الشيخ فى ورده كما يقول الشعرانى، ولهذا كان من أعظم ما يقع فيه المريد من سوء الأدب مع شيخه تغيبه عن تلاوة الورد الذى رتبه صباحا ومساء، وقد حتموا على المريد إذا اضطره للتغيب ظرف قاهر أن ينبئ شيخه ليناقشه فيه الحساب ، فإن كان تغيبه من غير عذر وجب أن يؤنب نفسه

أمام إخوانه، والاشتغال بالعلم ودراسة الدين لا يصلح قط أن يكون عذرا يحتمى به من قصر فى حضور مجالس الورد بل لقد اعتبر بعضهم التغيب عن مثل هذه المجالس سببا يبرر طرد الشيخ للمريد الذى يقدم عليه، وقد جرت العادة بأن يعتز الشيخ بورده، فلا يأذن لأحد ممن يسلكون على يده أن يقرأ ورد غيره، فمن ذلك الشيخ محمود الكردى قد سلك على طريقة القصيرى ولكنه رأى الحفناوى + ١١٨١هـ فى رؤيا وقيل له هذا شيخك، فعلق به قلبه وأخذ عنه طريق الخلوتية، وسلك على يديه وإن أقام على قراءة أوراد شيخه القصيرى . فعاتبه فى هذا شيخ شيخه «السيد مصطفى البكرى» وكان الكردى قد كبر وعظم شأنه وأجيز وأذن له بإرشاد المريدين وتربيتهم، فاعتذر عن مسلكه بالخوف من شيخه القصيرى، فطلب إليه البكرى أن يستخير الله، ولما استجاب لمطلبه رأى فى منامه رسول الله وقد وقف القصيرى عن يمينه والبكرى عن يساره، وقال القصيرى للرسول : «أليست طريقتى على طريقتك ، وأليست أورادى مقتبسة من أنوارك ...؟ فلماذا يأمر السيد البكرى بترك أورادى...؟ فقال البكرى : يارسول الله ، رجل سلك على أيدينا وتولينا تربيته، أيجوز له أن يهجر أورادنا ويقرأ أوراد غيرنا...؟ ويقول الراوى إن رسول الله قد أبى أن يفصل فى أمرهم وأشار عليهم بعمل القرعة...!! ورأى الكردى فى رؤيا وقعت له فى الليلة التالية. إن أبا بكر الصديق يشير عليه باتباع السيد البكرى، ورأى بين السماء والأرض ورده ، وقد كتب بحروف مجسمة من النور، فانشرح صدره وهجر القصيرى بعد ذلك .

على أن الأحزاب فيما نرى لا يميزها إلا اختلاف واضعيها لأنها أدعية يتوجهون فيها إلى الله، وصيغ مختلفة للصلاة على نبيه، وهى فى الجملة حافلة بآيات من القرآن الكريم، والكثير من فقراتها يتكرر مرات يختلف عددها حتى ليبلغ الثمانين ـ كما نرى فى حزب الشناوى أو الثلاثين كما نرى فى حزب الشعرانى أو الثلاث مرات كما فى حزب الجارحى وغيره بل لقد هدتنا المصادفة إلى أن حزب أبى السعود الجارحى مأخوذ كله ـ ما عدا خاتمته ـ من حزب الخصوصية للسادة الوفائية أو لعل الجزء الأول من الحزب الثانى هو المأخوذ من حزب الجارحى، فما ندرى التاريخ الذى وضع فيه حزب الوفائية هذا ـ ونلاحظ كذلك أن لبعض المتصوفة حزبين أو ثلاثة كما نرى عند زين العابدين البكرى ومحمد أبى الحسن البكرى وغيرهما وقد يضع شيوخ البيت الواحد عدة أحزاب تتلى جيلا عن جيل كما نرى فى بيت السادات البكرية والوفائية ووجوه التمايز بين الأحزاب لا تكاد تظهر فى غير الصياغة اللفظية. ولهذا فإن أظهر الفروق بين الأحزاب فيما يلوح لنا هو اختلاف منشيها.

ويلى هذا فى وجوه التفرقة بعض مظاهر أخرى هدتنا المصادفة إلى العثور على بعضها فى بطون كتبهم، منها مارواه الجبرتى عند الكلام على أهل البدع كجماعة العفيفى والسمانى والعربى والعيسوية إذ قال إن لهم طريقة خاصة بهم فى ذكر الله «فمنهم من يتحلق ويذكر الجلالة ويحرفها وينشد له المنشدون القصائد والموالات ، ومنهم من يقول أبياتا من بردة المديح للبوصيرى، و يجاوبهم آخرون مقابلون لهم بصيغة صلاة على النبى. وأما العيسوية فهم جماعة من المغاربة وما دخل فيهم من أهل الأهواء ينسبون إلى شيخ من أهل المغرب يقال

له سيدى محمد بن عيسى وطريقتهم أنهم يجلسون قبال بعضهم صفين ويقولون كلاما معوجا بلغتهم بنغم وطريقة مشوا عليها وبين أيديهم طبول ودفوف يضربون عليها على النغم ضربا شديدا مع ارتفاع أصواتهم، وتقف جماعة أخرى قبالة الذين يضربون بالدفوف فيضعون أكتافهم فى أكتاف بعض لا يخرج واحد عن الآخر ويتلوون وينتصبون ويرتفعون وينخفضون ويضربون الأرض بأرجلهم كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزائدة بحيث لا يقوم هذا المقام إلا كل من عرف بالقوة وهذه الحركات والإيقاعات على نمط الضرب بالدفوف فيقع بالمسجد دوى عظيم وضجات من هؤلاء ومن غيرهم من جماعة الفقراء كل أحد له طريقة تباين الأخرى».

ويمتاز فقراء الخلوتية فى ذكرهم وأورادهم بكثرة الاستغفار والتسبيح والصلاة على النبى ، ولهم فى ذلك صيغ يرددونها فصلها الذين أرخوا هذه الطريقة أما طريقة تلقينهم للذكر فخير ما يميزها ترداد الأسماء السبعة على نمط مخصوص وفى فترات متقطعة والأسماء الستة الأولى فى الأذن اليسرى وهى : لا إله إلا الله وقد عرفنا كيف تردد ثلاث مرات مع إغماض العينين ثم الله ـ هو ـ حق ـ حى قيوم ـ ثم الإسم السابع فى الأذن اليمنى وهو قهار ـ وقد أبان الدردير الطريقة التى تلقنها بها من الحفناوى المعروف.

ولقد كان للسادات الدمرداشية والخلوتية والشناوية طريقة فى ذكر الله، فقد رويناها عن عبد الغنى النابلسى وقلنا إنهم كانوا يقدمون للذكر محلقين ثم يدورون وقد وضعوا أيديهم بعضها فى بعض، وذكروا الله فى رقصة يسمونها الهوية قائلين هو هو هو وكان بعضهم يركبون أياديهم إلى الوراء أمام رءوسهم ويحركونها بالتصعيد والتسفيل والتلوى على هيئة لعبة يسميها النصارى ركض الديك . كما يقول محمد بن صفى الدين الحنفى.

وكان أظهر ما يميز الفقراء السعدية إكثارهم من ذكر الله ، حتى إذا طاب لهم الذكر تواجدوا واضطربوا وتساقطوا على الأرض كالخشب المسندة لا يقوون على النهوض بل لا يستطيعون حراكا حتى يقوم نقيب الشيخ بكبس أيديهم وأرجلهم وإنهاضهم على بركة شيخهم، ومن كرامات بعضهم فى هذه الحال إخراج سائل ملون بالأحمر والأبيض أو الأصفر من أيديهم ومواضع أخرى فى أجسامهم دون أن يصيبهم جرح أو يكون فيهم منفذ لذلك....!! ولعله العرق الناشئ عن الجهد، قد لوثته قذارة البشرة أو الدم الذى ينبثق من جروح تنشأ عن عنف الحركات....!

والظاهر أن البرهامية كانت تتميز فى عبادتها بذكر الله بصيغة يادايم، فقد قال الشعرانى فى ترجمة عبد العال المجذوب : «ورأيته مرة وهو صاعد كوم بلده فقلت فى سرى ياترى هل هو أحمدى أم برهامى فصاح: يادايم يادايم يشير إلى أنه برهامى».

ويرجع الدكتور عفيفى القول بأن الملامتية «لم يكن لهم طريقة منظمة وقواعد ثابتة مقررة وأتباع ينتمون إلى المشايخ إنتماء أهل الطرق المتأخرين، ولكن كانت لهم صفات وآداب تكفى فى التمييز بينهم وبين طوائف الصوفية الأخرى ممن عاصروهم أو عاشوا بعدهم».

وفى السهروردى والمقريزى تفرقة بين الملامتية والقلندرية جاء فيها «إن الملامتى يعمل فى كتم العبادات والقلندرى يعمل فى تخريب العادات والملامتى يتمسك بكل أبواب البر والخير ويرى

الفضل فيه إلا أنه يخفى أحواله وأعماله ويوقف نفسه موقف العوام فى هيئته وملبوسه تستر للحال حتى لا يفطن له وهو مع ذلك متطلع إلى المزيد من العبادات، والقلندرى لا يتقيد بهيئة ولا يبالى بما يعرف من حاله ومالا يعرف ولا ينعطف إلا على طيب القلوب وهو رأس ماله، والظاهر أن حال الملامتية لم يتغير كثيرا فى العصر العثمانى عما كان عليه أيام المقريزى ، فالشعرانى يقول إنهم يقللون النوافل مخافة الغرور وإن كان قد ذكرهم فى كتاب آخر بين الفرق التى لا تتقيد بمظاهر الكتاب والسنة وإن كان ابن عربى «يرفعهم ـ فى فتوحاته ـ إلى مقام فى الولاية لايدانيهم فيه أحد» فيما يقول الدكتور عفيفى.

وكان فقراء المطاوعة يجتمعون فى حلقات الذكر ويتخذون لهم مغنين من الرجال ومساعدين يدقون الطبول ويضربون الكؤوس وأولادا يجلسونهم وراء الذاكرين حتى إذا اشتدت حماسة الذكر هجم عليهم الأولاد واحتضنوهم من الخلف تيمنا وبركة، وكانوا إذا ساروا وضعوا فوق رءوسهم أو على جنوبهم «ملاحف وسراويل» فإذا انطلق الفقراء فى الطرقات نشروا راياتهم ودقوا طبولهم وضربوا على كؤوسهم وكان لموكبهم ضجة عظيمة، وقد كانوا يتخذون «أباريق» يملأونها بالماء ويحملونها فى أيديهم كلما ساروا ليتطهروا منها بين الحين والحين، وسبحا كبيرة من الخشب أو العظم أو نحو ذلك، وسيوفا من الخشب ومزاريق من الحديد وطواقى من السعف وطراطير يضعون عليها الودع والريش والخرق الحمراء وغيرها.

ويعبر الجبرتى عن الأحمدية والرفاعية والقادرية والبرهامية بأنهم من أصحاب الأشاير والمراد بالأشاير كما يقول على مبارك جموع كثيرة من أهل الطرق يسيرون من منازلهم ليلا وبأيديهم الشموع وهم رافعوا الأصوات بالذكر والتهليل والصلاة والسلام على سيد المرسلين (ص) ولا يزالون كذلك حتى يصلوا إلى الشريح أو محل الاحتفال بالمولد، ولبعضهم عادات من الحلو أو الشموع توزع عليهم حين وصولهم بعضها مقرر من الأوقاف وبعضها من مشايخ خدمة الأضرحة.

واشتهر فقراء السعدية والرفاعية بحوادثهم مع الثعابين ، ولعل الرفاعية كانت أشهر الطرق بالكرامات التى تقوم على طعن النفس بالمدى فى حالة الغيبوبة وأكل الزجاج والقبض على الحديد المحمى ودخول النار وازدراد الأفاعى وغير ذلك مما لا نزال نرى الكثير منه وإن كانت لائحة الطرق الحالية قد حرمته على فاعليه.

ومن أظهر مميزاتهم : البيعة وتلقين الذكر، وكانت طريقتهم فى الأولى أن الطالب إذا وفد على شيخهم أمره هذا بأن يتوضأ ويصلى ركعتين بنية التوبة والإنابة ثم يجلس المرشد (الشيخ) مستقبلا القبلة جاثيا على ركبتيه بالأدب والخشوع ويجلس الطالب أمامه لاصقا ركبتيه ، ثم يقرأ الفاتحة ثلاث مرات ويأخذ المريد بعده ويقرأ قوله تعالى إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه.. ثم يأمر المريد بأن يقول : استغفر الله ـ استغفر الله العظيم الذى لا اله إلا هو الحى القيوم وأتوب اليه، تبت إلى الله ورجعت إلى الله ونهيت نفسى عما نهى الله، ورضيتك شيخا لى ومرشدا لطريقة الرفاعى ـ فيقول له المرشد : وأنا أقمتك مريدا بهذه الطريقة العلية وعلى هذا العهد المبارك ثم يقول له : قم

مريدا فى هذه الطريقة.

أما طريقتهم فى تلقين الذكر فلا تكاد تختلف عما أسلفناه من حيث ترداد لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمض العينين، وإن رأوا مد الصوت فى أول الكلمة من الكتف اليمنى إلى جهة الروح ـ تحت الثدى اليمنى . !! حتى يقر (هاء) لفظة الجلالة فى القلب الكائن تحت الثدى اليسرى باصبعين فإذا أتمها المرشد وضع جبهته على جبهة الطالب ويده على صدره ودعا له بالتوفيق والإخلاص والبركة.!! ثم ... إلى آخر ما كتبه مؤرخو للطريقة بهذا الصدد مع ذكر أورادهم الخاصة بهم والأدعية التى ألفوا تلاوتها.

أما الطريقة النقشبندية فإن طريقة أخذ العهد عند أهلها أن يجلس المريد بين يدى شيخه متوركا عكس تورك الصلاة فيبين له الشيخ محل القلب الصنوبرى الشكل الكائن تحت الثدى اليسرى بأصبعين ثم يستغفر الشيخ ربه والمريد يتابعه خمسا وعشرين مرة ثم يقرأ الشيخ الفاتحة مرة وسورة الإخلاص ثلاث مرات ويهدى مثل ثوابهما إلى صحيفة النبى وصحيفة إمام الطريقة محمد الإدريسى المعروف بشاه نقشبند ثم يأمر المريد أن يغمض عينيه وينظر بخياله إلى قلبه ويتوجه إليه على النحو المعروف عندهم ، ثم يلقنه ما يناسب استعداده من أذكار تراها منشورة فى الكتب التى تناولت آداب هذه الطريقة ومن هذا نرى أن الفوارق فى هذا الصدد شكلية تافهة.

وفى كتاب الأستاذ «لين» وصف ظريف لما كانت تفعله بعض الطوائف كالسعدية والشناوية فى المولد النبوى وغيره من موالد كبار الأولياء.

والواقع أن الفوارق بين الطرق لم تكن جوهرية فى هذا العصر، فقد كان الشائع بينهم أن يجمع الفقير بين عدة طرق، وإن كره الأشياخ لمريديهم أن يأخذوا على شيخين مهما كان السبب الذى يبررون به هذا المسلك. فقد جمع عبد الحى زين العابدين الحسينى ١١٨١ هـ بين الطرق الشاذلية والأحمدية والشناوية وجمع على بيومى ١١٨٣هـ بين الخلوتية والشاذلية والدمرداشية والأحمدية وجمع الشعرانى ٩٧٣ هـ بين ست وعشرين طريقة بسطنا أسماءها فيما سلف ، وجمع الدردير ١٢٠١ هـ بين الخلوتية والشاذلية والنقشبندية.

تلاشي الفروق بين الطرق:

ومما يشهد بأن مميزات الطرق ليست شرطا فى وجودها ما نراه من التطور الذى آلت إليه طريقة الذكر عند الطرق جميعها، فإن لائحة الطرق الصوفية فى وقتنا الحاضر تقضى بأن يكون الذكر تمجيدا لله، صريحا قياما أو قعودا مع الخشوع والوقار وهذا التحديد قد أفقد العيسوية وأخواتها من الفرق المشابهة أكبر مميز لها كما روينا عن الجبرتى وغيره الآن، والفرق كلها مضطرة إلى الخضوع لهذا التحديد وإلا أعلن المجلس الصوفى فصلها وقضى بذلك على وجودها كما تنص لائحة الاجراءات الداخلية وكذلك نقول فى الرفاعية التى عرفنا الآن أعظم خصائصها، فإن اللائحة السالفة الذكر تقول : يبعد عن الطرق الصوفية «كل من اتصف بأعمال مناقضة للأعمال والآداب الشرعية كضرب الجسم بالسلاح وأكل الحشرات والهوام ودوس الأنام بالأنعام [الدوسه] ونحوها والذكر بهيئة الرقص والتخبط وعدم استكمال الحروف فيه وإنشاد الأغانى المخلة بالآداب عليه، وإقامة الزار فى

الأضرحة ونحو ذلك، وفي ذلك ما يسلب الخلوتية والدمرداشية والشناوية وغيرهم مميزا خاصا بهم في طريقة الذكر وهو الرقص كما روينا عن عبد الغني النابلسي وغيره من قبل.

ولعل شعور أهل التصوف بضآلة الفارق بين طريقة وطريقة ، هو الذى حملهم على أن يضعوا في لائحة الاجراءات الداخلية هذه المادة «يجوز زيادة طريقة جديدة متى كانت الطريقة المستجدة لا تشابه طريقة من الطرق الموجودة في اسمها واصطلاحها فكأن الخلاف الوحيد الذى يبرر استقلال طريقة وتحديد طرق العبادة على النحو الذى أسلفنا بعضه، كفيل بالقضاء على أكثر مميزات الفرق بعضها عن بعض.

بل لماذا نقول إن الفوارق بين الفرق اليوم قد تلاشت ولا نقول إن اللائحة التى وضعها أهل التصوف قد ألغت الفروق بين الصوفية والفقهاء..؟! أليست تقول إن التصوف لا مقصد له غير العلم بالشرع والعمل به. فما هى دعوى رجال الفقه إن لم تكن كذلك؟ وإذا كانت الفوارق بين الطرق التى تعيش اليوم بين ظهرانينا مجهولة حتى عند أهلها، فكيف لا يصعب البحث عن المميزات التى كانت للطوائف منذ مئات السنين؟ وأى طوائف...؟ هى التى هدتنا المصادفة إلى العثور على نحو ثمانين من أسمائها، فكيف لا يتعذر على الباحث معرفة الفروف التى تميز كلا منها..؟

والآن نتساءل : ألم يكن لهذه الفرق التى بلغت هذا العدد الرهيب رئيس عام يوحد كلمتها وينظم علاقتها ويفصل فى مشاكلها...؟ ذلك ما نتناول الحديث عنه فى الفصل التالى.

مشيخة مشايخ الطرق الصوفية بالديار المصرية

رأى جرجى زيدان فى نشأتها بمصر ومبلغ الخطأ فى مزاعمه ـ رأى السيد توفيق البكرى ومدى الخطأ فيه ـ نشأة ها اللقب فى مصر قبل العصر العثمانى ـ تلاشى اللقب فى مصر.

تمهيد

عرفنا كيف كثرت الطرق الصوفية فى مصر حتى بلغ عدد أسمائها التى هدتنا المصادفة إلى العثور عليها نحو الثمانين فرقة، كان لكل منها معسكرات قائمة فى القرى والأقاليم ، واستبد نفوذها بهوى الألوف من الأتباع والمريدين، وامتد سلطان كبار شيوخها حتى ارتفعوا فوق قواعد الدين ومقتضيات التقاليد ونظم الدولة ...!! ودان بالولاء لهم حكام البلاد وعلماء الدين وعامة الشعب جميعا، فكان طبيعيا بعد هذا أن تفكر الدولة فى توحيد الزعامة التى تخضع لها هذه الطرق، حتى تأمن شرها وتتقى عصيانها وتضمن سيادتها على أرض البلاد..! ولم يكن بعيد الاحتمال أن يخضعوا جميعا من تلقاء أنفسهم لرئيس واحد يتخيرونه ، ليتكلم باسمهم ويفصل فى مشاكلهم وينظم علاقاتهم.

ومشيخة مشايخ الطرق فى وقتنا الحاضر يشغلها بأمر ملكى [جمهورى الآن] ، شيخ السجادة البكرية (والوفائية منذ جمع سماحة المرحوم السيد عبد الحميد البكرى بين المشيختين) وقد استحوذ البكرية على هذه الوظيفة لأن بيتهم أعرق بيوت التصوف

في مصر وأقدمها جميعا، فهو منحدر عن أبي بكر الصديق، وتاريخ نشأته في مصر يرجع إلى الفتح الإسلامي كما يقول علي مبارك ويؤكد السيد توفيق البكري . وتقضى لائحة الطرق الصوفية بأن مجتمع مشايخ الطرق فى القطر المصرى فى هيئة جمعية عمومية بديوان محافظة مصر تحت رآسة المحافظ لانتخاب مجلس أعلى يتألف من شيخ السجادة البكرية رئيسا للمجلس ، والسبب في ذلك الولاء المستمر للسادة البكرية للسلطنة العثمانية، وأربعة أعضاء يختارهم الرئيس من بين ثمانية ترشحهم الجمعية العمومية وعمل المجلس تعيين مشايخ الطرق ورفعهم من وظائفهم والفصل في منازعاتهم الخاصة بالطرق، والحكم فى الشكاوى التى تثار فى هذا الصدد ، وعزل مشايخ بعض الأضرحة والتكايا والسجاجيد على نحو ما أوضحت لائحة الطرق الصوفية . هذا مظهر التوحيد فى رياسة الطرق الصوفية فى يومنا الحاضر.. فهل توحدت رياسة الطرق الصوفية في مصر إبان العصر العثماني ؟ ذلك ما زعمه بعض المؤرخين الذين تعرضوا لتاريخ مشيخة مشايخ الطرق في مصر، بل أرخ بعض هؤلاء المؤرخين نشأته قبل العصر العثماني، فما مبلغ الخطأ أو الصواب فيما يزعمون؟

رأى جرجي زيدان ومناقشة مزاعمه:

قال جرجي زيدان «ولم يكن للصوفية مشيخة عامة ترجع لها أعمالهم وتتوجه بها مقاصدهم ، بل كانت كل طريقة أو زاوية مستقلة بنفسها، فكانت تكثر بسبب ذلك الفتن ، فلما أنشأ السلطان صلاح الدين الأيوبي خانقاه سعيد السعداء وسماها دويرة الصوفية، جعل لشيخها شبه تقدم على غيره من المشايخ ، وكان لا يولى عليها إلا أعظم رجال الدولة من الأكابر والأعيان .. ومازالت الحال كذلك إلى أن توحدت رئاسة الصوفية بمصر فى القرن التاسع الهجرى، فجعلت الولاية فيها للسيد محمد شمس الدين البكرى ، وكان من أعظم رجال عصره علما ودينا ، قال الشعراني عنه (ولو قلت إنه أعلم أهل زمانه لم أبعد عن الصواب) ثم تولى بعده ابنه الإمام شيخ الإسلام العلامة الشهير أبو السرور البكرى «وانتقلت بعده إلى ذريته ، ولاتزال إلى الآن في البيت البكرى الصديقي بمصر».

وهذا كلام سطحى ينطوى على أخطاء تزيد على الثمانية فيما يلوح.. ! فلنشرح هذا قليلا:

فالفقرة الأولى من كلامه تنطوى على مغالطتين ، لأنها تفرض قيام الزوايا فى مصر قبل خانقاه سعيد السعداء ـ وذلك غير صحيح فيما نعلم ـ لأن هذه الخانقاه قد استحالت إلى دويرة للصوفية عام تسع وستين وخمسمائة للهجرة كما عرفنا ، بينما نلاحظ أن الزوايا التى ذكرها المقريزى فى خططه ـ وبلغت الست وعشرين عدا ـ ليس بينها زاوية واحدة نشأت في مصر قبل القرن السابع الهجرى، ولو وجدت هذه الزاوية ما أهملها فى تأريخه للزوايا. ثم إن هذه الفقرة تنص على خشية الدولة من الفتن التى كان يثيرها أهل التصوف فى هذا العصر، ومن الراجح أن صوفية هذا العصر كانوا قلة لا خطر لها. كان التصوف فى جملته إلى هذا العهد ظاهرة نفسية فردية، لم تتحول بعد إلى ظاهرة اجتماعية ، يشترك فيها الجماعات والطوائف ، ويمكن أن يكون بهذا مثارا للفتن ومصدرا

للخطر. ولما أنشئت أول خانقاه جعلت الواردين إلى مصر من البلاد الشاسعة كما عرفنا، وجل الزوايا والربط والخوانق التى عرضنا للكلام عنها فى الفصل السالف، قد أقام فيها الأعاجم والأحباش وغيرهم من نزلاء مصر دون المصريين طبعا. وقد ظل عدد الدراويش المتجولين فى شوارع مصر من الفرس والأتراك أكبر عدد من المتجولين من الدراويش المصريين إلى ما بعد انقضاء العصر العثمانى ـ كما أشار إلى ذلك الأستاذ «لين» ـ ولا تظن أن هؤلاء النزلاء كانوا من الكثرة فى هذا العصر بحيث تخشى الدولة بأسهم وترهب فتنتهم، فمن الخطأ بعد هذا أن يتحدث جرجى زيدان عن استقلال الزوايا أو خطورة الفتن قبل خانقاه سعيد السعداء.

والفقرة الثانية من كلامه تنطوى كذلك على مغالطتين أخريين : فإنها تنص على أن صلاح الدين قد «أنشأ» خانقاه سعيد السعداء وسماها دويرة الصوفية، وأدق من هذا أن يقال إنه حولها إلى خانقاه، فقد كانت دارا معروفة منذ العصر الفاطمى. وثانى الخطأين دعواه بأن صلاح الدين قد جعل لشيخ هذه الخانقاه شبه تقدم على غيره من المشايخ «أى مشايخ الطرق التى تحدث عنها فى فقرته الأولى» والراجح أن شيخ الخانقاه كان يسمى شيخ الشيوخ، وأريد بهذا التعبير الشيوخ المقيمون فى الخانقاه، إذ كان كل فقير منهم شيخا لأنه يدرس الدين وينقطع لعبادته والعمل بأوامره ونواهيه، ولم توجد فى الوقت الذى أطلق عليه هذا اللقب خوانق أو ربط أو زوايا حتى يجوز الظن بأن المراد بهذا اللقب شيخ شيوخ الخوانق والربط والزوايا الأخرى.

أما الفقرة الأخيرة فتنطوى على أربعة أخطاء: لأنها تنص على أن رآسة الصوفية قد توحدت فى القرن التاسع، وذلك ما سنكشف عن بطلانه فيما يلى من حديث، وتزعم بأن السيد محمد شمس الدين البكرى قد تولى هذه الرآسة فى القرن التاسع، وأنه والد أبى السرور البكرى، مع أن محمد شمس الدين الذى عاش فى القرن التاسع (٨٤٧ وهو الحنفى) لم يكن أبا أبى السرور البكرى (ولد سنة ٩٧١ ومات سنة ١٠٠٧) فإن أباه هو السيد محمد أبو المكارم زين العابدين أبيض الوجه، وقد ولد سنة ٩٣٠ ومات عام ٩٩٤هـ على ما يروى على مبارك وهو الشهير بالبكرى الكبير فى كتب التاريخ والطبقات والمناقب، وهو الذى قال فيه الشعرانى إن الناس قد أجمعوا على أن ليس على وجه الأرض بلدة أكثر علما من مصر ولا فى مصر مثله فإذا عدنا إلى الذين ترجموا لهذين الرجلين والتمسنا عندهم صحة ما يدعيه الأستاذ زيدان، رجح عندنا الظن بخطئه فيما يذهب إليه، فإن كتاب التراجم فى هذا العصر وما بعده، كانوا أسخياء فى خلع الألقاب على من ترجموا لهم ولو أن أحد هذين الرجلين استحوذ على لقب مشيخة المشايخ ما أهملها الذين ترجموا حياته، ولدينا ممن عرضو لترجمتهما ـ الشعرانى والمناوى ومحمد أبو السرور البكرى وعلى مبارك وصاحب النور السافر ومؤلف الإعلام بأعلام بيت الله الحرم والسيد توفيق البكرى ... إلخ وليس فى كلام واحد منهم ما يؤيد دعوى الأستاذ زيدان. وسنروى عن بعض هؤلاء المؤرخين نصوصا تشهد بأن الزعامة قد تنازعها غير هذين الرجلين فى عصريهما..! وقول الشعرانى عن

السيد محمد شمس الدين إنه أعلم أهل زمانه، ليس دليلا على أن كان شيخا للمشايخ، بل تشهد بسعة علمه في عرف الشعراني ، و سنعرف بعد قليل أن مشيخة المشايخ لم تنتقل إلى ابنه ويتوارثها ذريته من بعده كما يقول الأستاذ.

رأي السيد توفيق البكرى ومناقشته:

هذا الكلام السطى الذى لا ينهض فيه صاحبه من خطأ حتى يسقط في خطأ آخر ، قد صادف قبولا عند بعض المؤرخين كالسيد توفيق البكرى في كتابه «بيت الصديق» الذى يرويه على علاته ولا يعلق عليه بكثير ولا قليل ، بل يستند إليه في تأريخ البيت البكرى ويؤثر ما جاء به على ما ذكرته عن أفراد هذا البيت كافة كتب التاريخ والطبقات. فمترجمو القرون التاسع (السخاوى) والعاشر (الغزى والعيدروسي والشبلى) والحادى عشر (المحبى) والثانى عشر (المرادى) إلى غيرهم من المؤرخين وكتاب التاريخ والطبقات كالجبرتى وابن اياس وأبى السرور البكرى والشعرانى بطبقاته الكبرى والوسطى والصغرى والمناوى بطبقاته الكبرى والوسطى وغيرهم، لم يشيروا قط إلى وجود شيء اسمه مشيخة المشايخ في البيت البكرى أو غيره من بيوت التصوف في مصر. ولكن السيد توفيق البكرى يقول مؤرخا بيت الصديق إن وظائف هذا البيت من قديم الزمان ثلاث: مشيخة السجادة البكرية ومشيخة المشايخ الصوفية ونقابة الأشراف. ويصر عند الكلام على مشيخة السجادة البكرية على أن من «حقوقها القديمة وأصولها المستديمة أن يتولى صاحبها مشيخة مشايخ الصوفية، ولم يقل لنا السيد توفيق متى يبدأ في عرفه «قديم الزمان» الذى استحوذ فيه البكرية على هذا اللقب.

على أن السيد توفيق وإن كان يروى رأي جرجى زيدان من غير تعليق إلا أنه لم يجرؤ على خلع هذا اللقب على جميع أفراد البيت البكرى وأفرع دوحته منذ القرن التاسع إلى يومنا الحاضر كما رأى صاحبه، وإنما تبرع بخلعه على بعض من عاشوا في مصر منذ القرن الثانى عشر الهجرى، والغريب أنه ضن به على أهل القرن التاسع والعاشر والحادى عشر، بل بخل به حتى على الذين أثيرت الضجة التى أسلفناها الآن من أجلهم، من محمد شمس الدين البكرى وأبى السرور البكرى ومحمد شمس الدين الحنفى مما يشهد بضعف ثقته في مزاعم المرحوم جرجى زيدان ، وإن لم يصرح بذلك.

فلنعرض لمن سماهم السيد توفيق شيوخ المشايخ من أهل القرنين الثانى عشر والثالث عشر، لنرى مبلغ الصدق أو مدى الخطأ في دعواه:

نلاحظ أنه خلع اللقب على أربعة من أهل القرنين الثانى عشر هم السيد أبو المواهب البكرى المتوفى سنة خمس وعشرين ومائة وألف والشيخ أحمد البكرى المتوفى سنة ثلاثة وخمسين ومائة وألف والشيخ أحمد بن عبد المنعم البكرى المتوفى سنة خمس وتسعين ومائة وألف والسيد محمد البكرى الكبير المتوفى سنة ست وتسعين ومائة وألف. فنلاحظ أن السيد توفيق يضع في عنوان ترجمة كل واحد من هؤلاء الأربعة لقب شيخ المشايخ ! فإذا أمعنا النظر فيما يكتبه عن كل منهم

رأيناه يقول في ترجمته الأولى «هو شيخ الإسلام وعلامة الأنام تولى السجادة البكرية التي من حقوقها مشيخة المشايخ الصوفية وأحيا معالم الطريق والإرشاد بمصر في المعقول والمنقول وعلوم القوم توفي سنة ١١٢٥هـ ودفن بزاويته » ولم يشر السيد توفيق إلى المصدر الذى استقى منه كلامه كما فعل في أكثر التراجم التي ضمنها كتابه، ولهذا دلالته ومغزاه .و يروى عن ثانيهم وهو الشيخ أحمد البكرى وثالثهم وهو أحمد عبد المنعم البكرى ، نص ما ـ كره الجبرتي في ترجمتهما دون أن تزيد عليه كثيرا ولا قليلا، ومما يقوله الجبرتي عنهما خلو من كل إشارة إلى مشيخة المشايخ التي تبرع السيد توفيق بخلعها عليهما في عنوان الترجمتين من غير مبرر...! ثم يروى عن رابعهم وهو محمد البكرى الكبير نص ما يقوله الجبرتي كذلك فإذا النص لا يخلو من الإشارة إلى مشيخة المشايخ فحسب، بل يقطع وجه الشك في أمرها فيقول «ولما توفى ابن عمه الشيخ أحمد شيخ السجادة البكرية تولاها بعده باجماع الخاص والعام مضافة لنقابة الأشراف فحاز فخار المنصبين وكمل له فضل الشرفين ، ولم يقم في ذلك إلا نحو سنة ونصف وتوفى ، فلو أنه تولى مشيخة المشايخ لنص عليها الجبرتي أو أشار إليها. وكذلك يقول في السيد محمد البكرى الصغير ١٣٠٨ والذى وضع السيد توفيق في رأس ترجمته لقب شيخ المشايخ، ثم أورد نص الجبرتي فيه من غير نقص ولا زيادة، فإذا فيه «السيد محمد البكرى أفندى الصديقي شيخ سجادة السادة البكرية ونقيب الأشراف بمصر المحمية ، تقلد بعد والده المنصبين وورث عنه السيادتين» وكذلك الحال في السيد خليل البكرى سنة ١٢٢٣هـ.

ومن هذا نرى أن السيد توفيق كان يتبرع من عنده بلقب شيخ المشايخ ويضعه في عنوان تراجمه، وليس في التراجم قط إشارة تبرر وضعه.

نستطيع الآن أن نقرر ونحن على شيء كثير من اطمئنان اليقين، أن العصر العثماني قد انقضى بقرونه الثلاثة دون أن يعرف أهل التصوف في مصر رئيسا فذا لهم، يوحد كلمتهم ويفصل في مشاكلهم.

نشأة اللقب قبل العصر العثماني:

لا ... بل لقد وجد هذا اللقب من قديم الزمان ! منذ القرن السادس للهجرة، أى قبل دعوى جرجي زيدان بثلاثة قرون أو أربعة ..! بيد أن المعنى الذى يحمله كان يختلف عن المعنى الذى قصده به الأستاذ زيدان والسيد توفيق . قال المقريزى : فكانت «سعيد السعداء أول خانقاه عملت بمصر وعرفت بدويره الصوفية ونعت شيخها بشيخ الشيوخ، واستمر في ذلك بعده إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ستة وثمانمائة واتضعت الأحوال وتلاشت الرتب فلقب كل شيخ خانقاه «شيخ الشيوخ» ويقول في خانقاه سر ياقوس «قرر السلطان في مشيخة هذه الخانقاه الشيخ مجد الدين موسى بن أحد بن محمود الاقصراوى ولقبه بشيخ الشيوخ فصار يقال له ذلك ولك من ولى بعده، وكان قبل ذلك لا يلقب بشيخ الشيوخ إلا شيخ خانقاه سعيد السعداء» وكان ذلك عام ٧٢٥هـ.

والظاهر أن المقريزى أراد أن يقول إن شيخ

خانقاه سعيد السعداء كان يستحوذ وحده على لقب شيخ المشايخ منذ سنة ٥٦٩ هـ إلى سنة ٧٢٥ حين شاركه فيه شيخ خانقاه سرياقوس ، واستمرا يتنازعان هذا اللقب إلى أن زحفت المحن وتلاشت الألقاب فى مستهل القرن التاسع ، فاستولى على اللقب جميع شيوخ الخوانق التى كانت قائمة بمصر فى هذا العهد.

وقد أيد القلقشندى كلام المقريزى فقال «إن مشيخة الشيوخ كانت تطلق على مشيخة الخانقاه الصلاحية (سعيد السعداء) إلى أن بنى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون لخانقاه الناصرية بسرياقوس ، فاستقرت مشيخة الشيوخ على من يكون شيخا بها، والأمر على ذلك للآن» ـ وقت كتابة صبح الأعشى .

والظاهر أن شيخ خانقاه سرياقوس كان له شبه تقدم على سائر المشايخ، لا فى مصر وحدها بل فى الشام وغيرها، فقد أورد القلقشندى نسخة توقيع بمشيخة الشيوخ بسرياقوس فإذا فيها «فلذلك رسم بالأمر الشريف... أن يفوض إلى المشار إليه (الشيخ نظام الدين الأصفهانى) مشيخة الشيوخ بالديار المصرية والبلاد الشامية والحلبية والفتوحات الساحلية وسائر الممالك الإسلامية المحروسة على عادته فى ذلك، وقاعدته معلومة، وأن يكون ما يخص بيت المال المعمور من ميراث كل من يتوفى من الصوفية بالخانقاه المذكورة للمشار إليه، بحيث لا يكون لأمين الحكم ولا لديوان المواريث معه فى ذلك حديث، وتكون أمور الخانقاه المذكورة فيما يتعلق بالمشيخة وأحوال الصوفية راجعة إليه، ولا يكون لأحد من الحكام ولا من جهة الحسبة ولا القضاة فى ذلك حديث معه، ولا يشهد أحد من الصوفية ولا يتتسب إلا بإذنه على العادة فى ذلك...

ومن هذا النص نستطيع أن نقول إن شيخ مشايخ خانقاه سرياقوس كان له شبه تقدم على غيره من المشايخ فى مصر وغيرها من البلاد السالفة الذكر، إلا أن اختصاصه الفعلى كان مقصورا على الصوفية المقيمين بخانقاه سرياقوس وحدها. والدلائل التى تحت أيدينا تنفى نفيا باتا وجود شيخ مشايخ ـ طوال العصر العثمانى خصوصا ـ وظيفته التكلم على كافة الطرق الصوفية والتحدث باسمهم وتنظيم علاقاتهم والفصل فى مشاكلهم على نحو ما ذهب السيد توفيق وجرجى زيدان، ولا بأس من أن نسرد بعض هذه الدلائل :

روى صاحب المناقب الكبرى أن شيخ الإسلام محمد شاه قد حبس الشيخ الغمرى فاستغاث أقاربه بالشعرانى ووسطوه لإنقاذ السجين، فكتب الشعرانى بطاقة إلى محمد شاه قال فيها «إن من أعظم بيوت سلاطين الأولياء والأقطاب بمصر أربعة : أولهم بيت السادات بنى الوفا... وثانيهم بيت سيدى محمد شمس الدين الحنفى (هو فرع الدوحة البكرية وقد توفى عام ٨٤٧) ... وثالثهم بيت سيدى مدين الأشمونى (تلميذ الحنفى) ورابعهم بيت سيدى أبى العباس الغمرى (سنة ٩٠٥) .

وفى هذا ما يشير إلى أن الزعامة لم تكن فى بيت واحد.

ويقول المناوى ١٠٣١ عندما عرض لترجمة الشيخ محمد كريم الدين الخلوتى سنة ٩٨٦هـ «صار

هو وشيخنا الشعرانى (سنة ٩٧٣هـ) شيخا «يريد شيخىّ الديار المصرية ، وكان بينهما ما يكون بين الأقران» ويلاحظ أن الشعرانى والخلوتى اللذين كانا يتنازعان الرياس، قد عاصرهما فيها محمد البكرى (٩٩٦ هـ) الذى عزا إليه جرجى زيدان مشيخة المشايخ فى أول أمرها.

ولقد كان الشعرانى إذا تحدث عن كبار الشيوخ فى القرن العاشر، قال لهم محمد البكرى (الكبير) ومحمد كريم الدين الخلوتى وخليفة الشيخ دمرداش وزين العابدين وخليفته الشيخ شاهين.. «وكل واحد من هؤلاء لو انفرد فى مصر وقراها، لكفى الناس علما وأدبا وسلوكا» ولو استحوذ أحدهم على زعامة رسمية أو معترف بها منهم، ما أهمل ذكرها الشعرانى أو المناوى أو غيرهما.

أما فى القرن الحادى عشر فقد روى عبد الغنى النابلسى المتوفى سنة ١٠٣٢ هـ أن محمد أبا المواهب زين العابدين البكرى كان له «حكم الولاية فيها بطريق التوجيه من جهة السلطنة العلية» وأن نائبه فى بلدة الخانقاه كان الميقاتى على ما عرفنا وحسبنا فى الدلالة على أن هذا التعبير لا يفيد استحواذه على مشيخة المشايخ، أن السيد توفيق الحريص على احتكار البيت البكرى لهذا اللقب، لم يخلعه على السيد محمد أبى المواهب زين العابدين رغم أنه اطلع على رحلة النابلسى المخطوطة، واقتبس منها جزءا فى كتابه وكذلك لم يشر على مبارك فى ترجمته إلى هذه المشيخة.

وقد تهيأ للشيخ السادات (المتوفى ١٢٢٨هـ) نوع من السيادة الواضحة على الطرق ومشايخها فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر، وترجمة شتى الجبرتى تقول إن الزعامة قد أسلمت قيادها له بعد أن عز وجود منافس ينازعه فى أمرها. وقد أظهر الجبرتى فى هذه الترجمة ـ التى اطلع عليها السيد توفيق ونقلها فى كتابه عن بيت السادات الوفائية ـ أن السيد محمد البكرىَ الصغير كان إلى جانب السادات كما مهملا لا حساب له، ورغم ذلك يقول عنه السيد توفيق إنه كان شيخ المشايخ.

ولعل هذا يفسر لنا نصا خداعا رواه الجبرتى فى ترجمة محمد أبى السعود البكرى الكبير إذ قال «ويتحاكم لديه خلفاء الطرائق وأصحاب الأشاير البدعية كالأحمدية والرفاعية والبرهامية والقادرية فيفصل بقوانينهم العادية» فإن ما يشبه هذا السلطان قد تهيأ للشيخ السادات (الوفائى) بعد ممات محمد البكرى حتى كان يصدر أوامره إلى فرق الأحمدية والسعدية والشعيبية بأن تمر بداره والأمراء بضيافته أيام المولد ، فكان شيوخها ومريدوهم ينصاعون لأمره راضين أو كارهين.

وسنعرف كذلك كما سنعرف عن «الأقطاب» الذين ظهروا فى هذا العصر واستحوذوا على الزعامة فى عصرهم، وبسطوا سلطانهم على كافة الأولياء فى مختلف بقاع البلاد..

ومن هذا نرى أن زعامة الطريق كانت لصاحب الشخصية القوية الأخاذة سواء أكان من بيت عريق معروف أم لم يكن كذلك وكانت السلطنة العثمانية وراء ذلك تغذى هذه الصراعات احيانا من أجل استمرار سيادتها على مصر، ولعل أغلب الفترات التى مرت بمصر إبان هذا العصر، كانت خلوا من هذه الشخصية التى تكره مشايخ الطرق على السعى لمرضاتها، والانقياد لأمرها والسير فى ركابها.

بل لقد ورد في الإجابات التي رد بها حسين أفندى الروزنامجى [انظرها كاملة في ملاحق الجزء الاول] على الأسئلة التي وجهها إليه «ستيف» عقب الفتح الفرنسي، أن أرباب السجاجيد في مصر أربعة، هم الشيخ البكرى وجده أبو بكر الصديق والشيخ السادات وجده الإمام علي والشيخ العنانى وجده عمر بن الخطاب والشيخ الخضيرى وجده الزبير، وأن مقامهم محفوظ ومكانتهم ملحوظة، وأن المشورة لهم في جميع الأمور.. ولم يشر قط إلى زعامة واحد منهم على أرباب الطريق وقد أشار الأستاذ «لين» إلى أصحاب السجاجيد الأربعة، ولكنه صرح بزعامة البكرية على جميع الطوائف في مصر ولكن ذلك لا يغير من حقيقة الأمر كثيرا ولا قليلا، وقد أورد السيد توفيق البكرى فرمانا بتولية الوالي محمد علي باشا البكرى للسيد محمد البكرى عام ١٢٢٧هـ وفيه اعتراف بزعامته على الطوائف كلها، وقد أهمل الجبرتي ذكر هذا الفرمان ولكن نص الأستاذ «لين» يرجح صحة هذا الفرمان ، وعلى هذا يكون قول «لين» إن للبكرى الزعامة على الطوائف كلها معقول إذا سلمنا بالفرمان السالف.

ولا بأس من أن نشير الآن إلى أن التعبير بمشيخة المشايخ لم يرد في فرمان محمد علي ولا في الفرمان الذى تلاه في عهد سعيد باشا عام ١٢٧١هـ وإن نص فيهما على العمل الذى يقوم به شيخ المشايخ.

فهذا اللقب حديث عهد، ونسبته إلى العصر العثماني أو ما قبله نسبة بادية الخطأ، إذا أريد باللقب المعنى الذى يحمله في عصرنا الحاضر، ولعل السبب الذى أدى إلى وجوده في العصر الحديث، مرده إلى الرغبة في القضاء على التمايزات، التي كانت شائعة بين أهله. وإذن فقد كانت الفرق في مصر أثناء العصر العثماني مستقلة لا تخضع لزعامة واحدة ـ إذا استثنينا بعض الفترات

ولكن كيف كان هذا النفوذ..؟ وما مدى تغلغله في طبقات الشعب وتسلله إلى هيئات الحكام...؟ ذلك ما نفصل الحديث عنه فيما يلي:

نفوذ شيوخ الطريق أحياءا وأمواتا

١ ـ أحياء

بين دولة الفقراء ودولة بنى عثمان ـ تحررهم من عرف البلاد ودينها ـ مفارقات العصر ـ تحررهم من نظم الدولة وقوانينها ـ تمردهم على العرف السائدة عند أرباب الطريق

بين دولة الفقراء ودولة بنى عثمان

حفلت مصر إبان العصر العثماني بفرق المتصوفة وطوائف الفقراء، واكتظت الشوارع بمواكبهم والبيوت بولائمهم والمساجد والزوايا باجتماعاتهم ، وانتشر الشيوخ والأتباع في الريف والحضر، وتغلغل نفوذهم في المدن وشاع في الأقاليم والقرى، وامتد سلطانهم إلى مختلف طبقات الشعب وأقام في صدورها عرشه، وتسرب إلى قصور الحكام فعبث بالقوانين، واستهان بالرأي العام فتخطى أبسط مبادئ العرف، واستعلى على

الدين فاستباح الخروج على قواعده وتعاليمه، وبذلك أضحى الفقراء فى مصر إبان هذا العصر فوق قواعد الدين ومقتضيات العرف وقوانين الدولة.. !! وكانت مصر دولتهم فى الحياة الدنيا وإن ادعوا بأن الفقراء لا يملكون فى هذه الحياة الفانية كثيرا ولا قليلا، وأن دولتهم إنما تقوم ـ كأعظم ما تقوم الدول ذات السلطان الواسع النطاق الممدود الرحاب ـ فى جنة الله يوم الدين . فقد كان الناس فى شتى الطبقات يحيطونهم بالعطف والتأييد، وقد خف إلى زواياهم مئات المريدين وألوف الأتباع، وفاضت عليهم خزائن الأغنياء والأثرياء، وسعى إليهم عطف الحكام والأمراء، ولازمه النصر فى أكثر المعارك التى أثار عثيرها فى وجوههم العلماء والفقهاء، وتوفر لهم عند المريدين سلطان لم يتوفر لحاكم تحبه عشيرته وتطيعه جنوده، أو لعالم يجله تلامذته وطلابه، وما كان الجندى الذى يتمرد على قائده ساعة المحنة بأشد خيانة وأعظم جرما ـ فى عرف الفقراء ـ من المريد الذى يسىء الظن بشيخه أو يتردد فى امتثال أمر تلقاه عنه ولو كان يقضى بطلاق زوجه وفراق أولاده أو يمنعه عن أداء ما أمر الدين من فروض وواجبات وحتمه من شعائر وعبادات..!

وهكذا قامت فى مصر دولة الفقراء إلى جانب الدولة العثمانية ، بالسلاح والحيلة تضمن الثانية بقاءها وتقر بين الناس قدما. وبالإيمان تزود بالأولى عن عرشها، وتقر فى القلوب سلطانها، وتخيف خصومها وأعداءها . ولقد كانت دولة الفقراء أثبت قدما وأعظم نفوذا وأقوى سلطانا من دولة بنى عثمان ـ تلك الدولة التى كانت مطامع المماليك ـ ولاسيما فى النصف الآخر من العصر العثمانى ـ تثير فيها القلق والاضطراب ، بل قد كانت فرق الجيش التى جاءت فى ركابها لحمايتها من كل عدوان فى نزاع يكاد يكون دائما، وحرب يوشك أن يكون متصلا وكان «العرب» فى غاراتهم بين الحين والحين يثيرون الاضطراب فى رأسها ويشيعون الفزع فى نفسها، أما دولة الفقراء فقد عاشت فى جو عامر بالاطمئنان ، قوية بإيمان أهلها وحسن ظن الناس بها لاتهتز لانكار المنكرين ـ وما كان أضعف نفوذهم ـ فامتد سلطانها وانبسط عزها من غير سلاح مسلول ، ورفرف علمها فى كل مكان دون جهد ملموس ، وذلك لأن «روح العصر» بما كان يسوده من ظلام الجهل وشدة الفقر واضطراب الأمن وظلم الحكام ـ عاون على ثبات هذه الدولة ورسوخ قدمها وشيوع تعاليمها بين الناس...؟

تحررهم من عرف البلاد ودينها:

ولدينا من الشواهد ما ينهض دليلا على أن الأولياء كانوا فوق العرف وفوق القانون ـ وقبل أن نعرض للكلام فى ذلك ينبغى أن نشير إلى أن الأمثال التى تشهد بخروج الفقراء على الدين ، تصلح أن تكون شاهد بخروجهم على العرف كذلك، فإن الفروق بين الدين والعرف أثناء هذا العصر قد تضاءلت حتى كادت أن تزول وتتلاشى، فإذا جاز لنا أن نقول اليوم إن تارك الصلاة أو شارب الخمر فى القاهرة، لا يعتبر خارجا على العرف، وإن عد خارجا على الدين، فإن هذا الكلام لا ينسحب على العصر العثمانى ، لأن الدين قد تغلغل إبانه فى العرف حتى كاد الرأى العام فى كل شىء أن يكون قائما على الدين وحده، وكانت مصر فى عزلة عن

العالم الأوروبى الذى كانت النهضة الحديثة تتمشى فى أعصابه وتشيع فى كيانه فأضحت الحضارة القائمة في مصر حضارة دينية بحتة. فكان الناس لا يعرفون علوما أسمى من علوم الدين ، ولا ثقافة أجدر بالعناية وأحرى بالدراسة من ثقافته، ولا رجالا أخلق بقيادته فى حياتهم الدنيوية والدينية من رجاله، وبهذا أصبح زعماؤهم فى ميدان السياسة وقادتهم فى الحياة العامة وأساطينهم فى مجال العلم Scientists هم الفقهاء وحملة الشريعة وأرباب الطريق، فالعالم هو العالم بالدين وليس العالم الذى يعمل داخل المعمل أو المختبر، انظر الشهادة الازهرية التي تسمى «شهادة العالمية» «وهيئة كبار العلماء» وكاد أن يتلاشى الفارق بين صيحة الدين وصيحة العرف، وأضحى الخروج على قواعد الدين، استهانة بالرأى العام وجرحا لشعور الناس.

والآن نبسط بعض الشواهد التى تجمع بين خروج الأولياء على تعاليم الدين وتخطيهم لأبسط مبادئ العرف معا، ثم نعقب عليها بذكر الشواهد الدالة على امتهانهم لأقدس مواد القانون، لنرى صدى ذلك كله فى نفوس الناس، ولنعرف مبلغ الصدق فى قولنا إن الأولياء كانوا فى مصر ـ إبان هذا العصر ـ دولة داخل الدولة:

يروى الجبرتى عن السادات أنه حين تولى خلافة بيت السادة الوفائية عام ١١٨٢هـ أحسن التصرف والتزم ما تقتضيه الأخلاق الكريمة ، حتى إذا اطمأن إلى سمعته ونفوذه عند الناس ، بدا حرصه على الدنيا وتمسكه بالمادة، واستيقظ جشعه وعدم اكتراسه برأى الناس فى سمعته، ومن دلالات هذا أنه اتفق مع محمد البكرى على أن يأخذ منه نظارة المشهد الحسينى ، ويتنازل له فى مقابلها عن نظارة وقف الشافعى ، فلما تخلى له البكرى عن وظيفته، وأرسل إليه دفاتر الوقف، نقض هذا وعده واستولى على الوظيفتين معا..!! بل زاد فطمع فى المشهد النفيسى والمشهد الزينبى وباقى الأضرحة، وأخذ يحاسب المباشرين وخدمة هذه الأضرحة «على الإيرادات ويسبهم ويهينهم ويضربهم بالجريد المحمص على أرجلهم...!! » وطفق بطالبهم بالنذور والشموع والأغنام والعجول ، وما يتحصل بصندوق الضريح من المال، وكانوا يختصون أنفسهم بذلك كله، وأقلهم (كان) فى رفاهية من العيش وجمع المال. وهكذا قضى غالب عمره فى طلب الدنيا وتنظيم معاشه وتهيئة الرفاهية فى بيته «واقتنا كل مرغوب للنفس وشرا الجوارى والمماليك والعبيد والحبوش والخصيان والتأنق فى المآكل والمشارب والملابس وتعاظم فى نفسه وتعالى على أبناء جنسه حتى إنه ترفع عن لبس التاج وحضور المحيا بالأزهر ليلة المعراج، وكذا الحضور فى مجلس وردهم وصار يلبس قاووقا بعمامة خضرا تشبها بأكابر الأمرا..»

وكذلك كان ابراهيم المتبولى . كان يبيع فى بدء حياته الحمص، وقد مات أبوه فكفلته أمه وتعهدت بتربيته ، فلما أخذ الطريق وسار فيه شوطا أصبح صاحب زاوية فيها نحو المائة مريد يقيم طاعما كاسيا على نفقة صاحب الزاوية . وذلك كله على الرغم مما يرويه الشعرانى عن رأيه فى الزهد، فقد كان من رأيه أن الزهد فى الدنيا أول أساس يضعه المريد فى الطريق، فإن أعوزه الزهد فى لذاتها

والإعراض عن مباهجها أخفق في تصوفه، وكان ما يبنيه في الطريق هباء منثورا...!

كان الشيخ على أبو خردة يحب الغلمان ، ويعبث بهم بحضرة آبائهم بالغا ما بلغت مكانتهم ! وكان كلما رأى إمرأة «حسس بيده على مقعدها» وما أكثر وقايعه معهن.!

وكان المجذوب محمد بن أبى بكر المغربى الطرابلسى المتوفى سنة ١٣٠١ هـ صاحب الأحوال يحب مجالس الشراب وتهافت عليه نساء البلد، فأنكر عليه ذلك بعض الناس ولكن «أهل الفضل كانوا يحترمونه وينقلون عنه أخبارا حسنة ويجله الأعيان وتنهال عليه الهدايا ولا يرد له الوزرا شفاعة» كما يقول الجبرتى، وقد اشتهر فقراء المطاوعة بحبهم للغلمان ، حتى كانوا إذا عقدوا مجالس الذكر ، أجلسوا الصبيان من ورائهم ليحتضنوهم من الخلف إذا اشتدت حماسة الذاكرين، فإن أنكر عليهم ذلك أحد من الناس، قالوا لا جناح على من مس دبر غلام، وإنما الجناح على من فعل فيه الفاحشة وحدها ! وكان وجود الغلمان فى حلقات الذكر ومواكبه جزءا من نظامه عند فقراء هذه الطائفة.

وكان الشيخ «عبد الله سنة ٩٣٧» يصحن الحشيش ويبيعه بخرايب الأزبكية فلا يناله من الناس أذى ولاضرر. بل لقد كان الناس يعتقدون أن من تعاطى الحشيش منه ، كف عن تعاطيه ...!!! كما زعم المناوى والغزى . وكان الفقراء إذا أقيم مولد السيد البدوى أباحوا لأنفسهم نهب المحال وسرقة الناس وأكل أموالهم بالباطل، قائلين إن الغربية بلاد السيد البدوى ونحن من فقرائه، فكل ما نأخذه حلال لنا. وكان «الشناوى» ٩٣٢ أول من نادى بابطال هذه البدع.. وكان النساء اللائي يتصلن بالفقراء معرضات للزنا، وقد اشتهر فقراء الأحمدية والبرهامية بارتكاب الفحشاء مع النساء اللائى يأخذن العهد عليهن حتى خصهم الشعرانى بالذكر فى معرض الحديث عن وقائع الزنا التى تحدث من جراء اختلاط الجنسين وكان العيسوية إذا أقاموا الذكر على طريقتهم المغربية ، سعى إليهم الناس وخف للفرجة عليهم حسان الغلمان، فيكلف بهم هؤلاء الغلمان ويسعون وراهم ـ فيما يقول الجبرتى ...! وروى الشعرانى فى ترجمة الشيخ عبد القادر السبكى أنه كان يتكلم بما يستحى منه الناس ولا يرضى عنه العرف، وقد خطب مرة عروسا ورآها فأعجبته فكشف لها عن جسمه وهى فى حضرة أبيها. لكى تطمين على خلوه من البرص وبراته من الخشونة وغيرها مما قد يستدعى الشكوى بعد الزواج، ثم تناول قضيبه فى يده، وطلب إليها أن تمعن النظر إليه، لتطمين على حجمه ومنظره..

ويصف الأستاذ «أدوار لين» هذه الحال ويشرح علتها فى عرف الناس فيقول : إن المعتوه أو المجنون فى عرف الجمهور ، كائن عقله فى السماء وجزؤه الكثيف على الأرض ـ إنه حبيب الله، ومهما ارتكب من الفظائع فإن ذلك لا يؤثر فى سمعته عند الناس، وكثيرون هم الذين يتخطون على الدوام قواعد الدين ويتمردون على مبادئه، ولكن العلة فى ذلك عند الناس أنه نتيجة لتجريد العقل واستغراق الملكات العقلية فى عبادة الله، مما أدى إلى العجز عن التحكم فى العواطف ـ والمجانين الذين يهددون المجتمع بالخطر، يحفظون فى الحبس، أما الذين لا

يخشى منهم الضرر، ينظر إليهم الناس على أنهم أولياء الله.. ! ومعظم الأولياء المعروفين فى مصر مجانين أو مخابيل أو دجالون، يسير بعضهم فى الشوارع عاريا كامل العرى، فيلقى من الناس كل الاحترام والتوقير ـ حتى أن النساء لا يتجنبن الاتصال بهم، بل يأذن لهؤلاء الخبثاء بأن يكونوا معهن على قارعة الطريق أحرارا كاملى الحرية ـ ولئن كان هذا نادرالحصول إلا أنه لا يعتبر فى عرف الطبقة الدنيا من الشعب معرة ولامنقصة.

هذا رأى «لين» الذى زار مصر بعد انقضاء العصر العثمانى بنيف وعشرين عاما، ولعله احتاط فى التعبير أكثر مما ينبغى ، فإن الحوادث التى رويناها عن مؤرخى العصر العثمانى ـ من الجبرتى إلى الغزى والشعرانى والمناوى ـ وهم من أهل هذا العصر جميعا ـ تبرر القول بأن تمرد الأولياء على قواعد الدين لم يكن نارد الحدوث ، ولعل الأستاذ قد أردا بهذه الندرة فظائعهم مع النساء على قارعة الطرق، وليست الطبقة الدنيا وحدها التى كانت ترضى عن هذه الفظائع، وكثيرا ما كان ينخدع بها العلماء والأمراء...

مفارقات العصر:

كان هذا كله يحدث على مرأى من الناس فلا يستفز شعورهم ولا يثير غضبهم، بل كثيرا ما كان يلائم رضا واغتباطا ـ على نحو ما عرفنا فى التعليقات التى صور بها كتاب العصر شعور الناس نحو هذا التمرد على قواعد الدين ومبادئ العرف، وما كان السر فى هذا أن «روح العصر» كان يسمح بالتهاون ويوجب على الناس التسامح، فإن الرأى العام فى هذا العصر كان يقوم على التعصب الشديد للطقوس والرسوم ، وأخذ الخارجين على الشعائر بالحساب العسير، إذ بينما نرى هذا التهاون المفزع فى حساب من يعتبرون أولياء، نرى الطالب الذى لا يقع بصره على جرة خمر بين يدى مماليك السلطان حتى يمضى إلى تحطيمها ويعرض نفسه للهلاك دفاعا عن دينه ونرى كيف يستحل المسلمون دم الجنود إذا أقدموا على فعل المنكرات فى رمضان من شرب الخمر والفسق بالنساء، وكيف يطاردنهم ويتعقبونهم بالذبح والقاء جثثهم فى اليم ونهب ممتلكاتهم حتى يقتل من الجنود نحو عشرين نفسا ومن المسلمين أدنى من ذلك بقليل ونرى كيف يجمع العلماء على تكفير من ادعى النبوة ، فإن أصر على ادعائه كان مصيره القتل علانية . ونرى كيف يفتى العلماء بإحراق اللذمى إذا سب مسلما ونرى كيف يحرم التدخين على الناس كبارا وصغارا وكيف تصدر الفرمانات بإبطاله فى الشوارع والمحال وأبواب البيوت، وكيف تكون الرقابة ويشتد العقاب حتى ليكون جزاء المدخن إطعامه الحجر الذى يضع فيه الدخان والنار وكيف يحرم شرب القهوة ولا يجوز الانتفاع بثمنها كما هو الشأن فى ثمن الخمور. ونرى كيف يلام الشيخ الشبراوى لأنه أفتى بإباحة خروج قافلة حج للأقباط إلى بيت المقدس، ونرى كيف يخرج الشعب والأزهريون إليهم فيرجمونهم بالحجارة ويضربونهم بالعصى وينهبون متاعهم ويحطمون كنائسهم انتصارا للدين على نحو ما يفهمون ـ ونرى الناس بعد أن يسمعوا فتوى السنباطى فى الجامع الأزهر بتحريم القهوة يمضون إلى بيوتها من تلقاء أنفسهم

ويحطمون أوانيها ويضربون شاربيها ولا تهدأ لهم ثائرة حتى يفتي علماء آخرون بإباحتها وترى كيف يرضون عن قتل المرأة العاهر جزاءً وفاقا وترى كيف يعتبرون انتقال العالم من مذهب إلى مذهب طيشا ورعونة وينحط قدر الشيخ البشبيشى عند الجبرتى ووالده من أجل ذلك . وأمثال هذه الحوادث التى تشهد بالتعصب كثيرة لا يكاد يحصيها العد. وإ ن كان هذا التعصب لا ينفى انحلال الأخلاق عند أهله ـ على نحو ما سنعرف عند الحديث عن سقوط التكاليف الدينية عن الأولياء.

كان «روح العصر» يملى على الناس التعصب فى أحكامهم ويحملهم على فداء عقائدهم ـ التى لم يفقهوها ابدا ـ بالروح وما ملكوا، وكان الرأى العام لا يسمح قط بالتهاون فى ظاهر الدين أو تخطى قواعد العرف ، ومن أقدم على ذلك فقد عرض نفسه للأذى وقادها إلى مهاوى الهلاك ـ وكان هذا معنى الدين فى رءوس الناس إبان هذا العصر ـ أما الأولياء فقد كانوا فى عرف الجمهور وأكثر العلماء فوق الدين وفوق العرف ـ وما أكثر حوادث الفقراء مع النساء والغلمان وسائر مظاهر تمردهم على الدين والعرف، وقد كان الناس يقابلون هذا الاستهتار بالرضا والاغتباط، لأن الأولياء فى عرف الكثيرين منهم قد سقطت عنهم التكاليف الدينية، فجاز لهم ما حرم على غيره، يهملون الصلاة ويتركون الصيام ولا يقومون بشىء من فروض الدين وشعائره. ثم لا يتقيدون بعد هذا بشىء من نواهيه، ولا يخضعون لقيوده ومحرماته ..! فالزنا والخمر والميسر والحشيش وكافة رذائل الدنيا قد أحلت لهم فاستباحوا الحرمات على مرأى من الناس، ولم يجدوا من شدة الإنكار ما يخيفهم أو يردهم من غيهم ويوجههم إلى أقوم سبيل.

وكان جمهرة الناس فى مصر تخاف سلطان الأولياء الروحى وتخشى إن أساءت إليهم أن ينالها أذاهم ويصيبها «تصريفهم» فكفت عن سوء الظن بهم واستنكار أفعالهم، وذلك وحده كفيل بتخليص الأولياء من قيود «العرف» وتحرير شهواتهم من عقائد الدين، وقد بلغ من جرأة الأولياء وشعورهم باستقرار قدمهم ونفاذ سلطانهم أن كانوا يصطنعون فى بعض الأحايين ما يثير سخط الناس، فكان «أبو خردة» يأمر عبيده ـ وكان من غواة العبيد ـ أن يقولوا للناس إن الشيخ يفعل الفاحشة فيهم، حتى إذا ازدادوا سخطا عليه عطبهم ..! كما يظن الشعرانى ولو صحت رواية الحادثة لكان أدنى إلى العقل أن يقال إنه كان يفعل ذلك استخفافا بالمنكرين واحتقارا لسخطهم، ولا بأس من أن نشير الآن إلى أن المصادر التى أمدتنا بهذه المعلومات عن هؤلاء الأولياء ، قد كتب أكثرها كتاب يؤمنون بولايتهم ويذكرون هذه الحوادث فى معرض التمجيد لهم وإعلان الإعجاب بهم...! ولم يملها حقد ولاحسد ولا غير ذلك ممايجور على الحق ويغير معالمه..!

تحررهم من نظم الدولة:

وما كانت استهانتهم بقوانين البلاد ونظمها بأقل من استهانتهم بعرفها ودينها، فقد كانت أولى الأغراض التى حملت الأتراك على غزو مصر، الطمع فى خيراتها والرغبة فى ابتزاز أموالها، ولهذا كان خير الولاة عند سلاطين الأتراك من استطاع أن

يجبى من الضرائب أعظم قدر ممكن ـ وكان الناس لا يمانعون فى هذا ولا يضيقون به إلا إذا أعوزهم المال، فقد كانوا يرون أن الغرض من وجود الحكومات جمع الضرائب والأيدى العاملة اللازمة للأعمال العامة والفصل فى القضايا وحفظ الأمن ورد الغارات الخارجية. ولم يكن الإصلاح والعمل على رقى الشعوب من عمل الحكومات فى عرفهم ـ فكان طبيعيا بعد هذا أن يكون جمع الضرائب عند حكام البلاد وأهلها أول واجب ينبغى أداؤه، ولكن الحكام كانوا يعفون الأولياء فى أكثر الأحايين من أخذ الضرائب. قال الشعرانى إ ن من نعم الله عليه حماية جميع أوقاف زاويته من ظلمة الحكام فى مصر والريف، فلا يعارضه ولايعتدى عليه أحد قط رغم أنه لا يحمل مرسوما من السلطان لحمايته . وقال الجبرتى فى معرض الحديث عن حرص الشيخ السادات على الدنيا ومتاعها، أنه كان «يراسل» ويكاتب ويحاسب ولا يدفع لأرباب الأقلام عوائدهم المقررة فى الدفاتر، بل يرون أن أخذها منه من الكبائر، وكذلك دواوين المكوس المبنية على الإجحاف، فكل ما نسب له فيها فهو معاف فإن تعنت بعض الحكام على أحد المشايخ وأرسل يستشير السلطان فى أمره ، «رسم» السلطان بإعفاء أوقافه من دفع الضرائب، ومال إلى نصرته وإرضائه كما جرى للذرية الشعرانى بعد مماته.

بل لقد كانت الدولة تمد الأولياء بالأموال وتعينهم على دوام العز فى زواياهم، فمن ذلك ما يرويه الجبرتى عن الشيخ السادات حين أراد أن يعمر زاوية أسلافه، إذ حدث الباشا فى ذلك. وكان محمد على باشا المعروف بعزت المتوفى سنة ١١٩٠هـ ، فكاتب الباشا للدولة فى هذا الشأن، وسرعان ما ورد الأمر باطلاق خمسين كيسا لمصرف العمارة من خزينة مصر، ثم كاتب الدولة بعد ذلك بأن هذا المبلغ لايكفى عمارتها، فاستجابت لطلبه وأطلقت له خمسين كيسا أخرى، ثم عاد الشيخ فالتمس رفع ما على قرية زفتى وغيرها من القرى التى فى حوزته من الالتزام من المال الميرى الذى يدفع إلى الديوان فى كل عام، فأجيب التماسه ، وفى دار الكتب وثائق بالالتماسات والفرمانات التى أصدرتها السلطنة العثمانية لرفع العوايد التى كانت تنزل بقرية زفتى وغيرها من البلاد التابعة للسادات الوفائية.

والغريب أن يحدث هذا فى أواخر العصر العثمانى ـ أى فى أيام الاضطراب التى فشا فيها الظلم وانتشر طغيان الحكام وبغى الجنود، وأرهقت الضرائب الجمهور وأخذت منه عنوة أكثر من مرة، وكثرت الأتاوات التى كانت تفرض على الفلاح المسكين والتاجر البائس، وبينما كان الضنك والظلم يتمشى فى البلد طولا وعرضا. كانت الدولة تستجيب لمطالب شيوخ الطريق فى إعفاء القرى التى فى حوزتهم من دفع الضرائب، وطلب الأموال لتعمير الزوايا والإنفاق على مجاوريها ..!! وكثيرا ما كانوا يرحلون من مصر إلى بلاد الروم «الترك» فى طلب الدنيا ويلتمس لهم «أفضل الدين» العذر فى ذلك فيقول من المحتمل أن يكون الله قد كشف لأحدهم أن له رزقا فى بلاد الروم فيخف إليه فارغ القلب من محبة الدنيا..!! وكثيرا ما كانوا يبعثون الوسطاء للسعى فى تحقيق المطالب..! وقد فاخر الشعرانى بأنه كان لا يقبل هذا إن عرض عليه ولا

يرضى به هوانا بالدنيا ومتاعها.

وكان البكرى الكبير المتوفى سنة ٩٩٤هـ ملحوظ المكانة بين الحكام ، فكانوا يهادونه ويكاتبونه، وللسلطان مزيد عناية به، حتى أنه أطلق المرتبات الخاصة له ولذريته من بعده، وكذلك فعلى شريف مكة وسلطان فاس. ! وقد كانت الدولة تخاف نفوذهم وتخشى بأسهم وتهاب أتباعهم. ولهذا أصدرت قانونا بنفى كل من يتظاهر بمظاهر الملوك منهم، وكان نوابها وحكامها يخشون هؤلاء الفقراء فيحسنون استقبالهم إذا خفوا لزيارتهم، ويختلفون إلى زواياهم ويستجيبون لشفاعتهم ـ بالغا مابلغ خروجها على أبسط مبادئ العدالة ـ وقلما يترجم كتاب التراجم والطبقات لأحد هؤلاء المتصوفة فى هذا العصر دون أن يقولوا : وكانت لا ترد له شفاعة عند الحكام والأمراء ! وبذلك تعطل تنفيذ القانون فى البلد، وأصبح الفقراء وأكثر من يلوذ بهم فى أمان من عقابه إذا اقترفوا إثما أو ارتكبوا جريمة..! وإن كان هذا من رحمة الله بالشعب البائس المظلوم.

بل لقد كانت لهم قوانين تحكمهم وتحدد عقوبة المذنب منهم، وترسم الحدود والمعالم فى حياتهم الدنيا، ولا دخل للدولة فى أمرها، قال الجبرتى فى ترجمة محمد أبى السعود البكرى ١٢٢٧ «واشتهر ذكره وسار سيرا حسنا مقرونا بالكمال جاريا على نسق نظامهم، ويتحاكم لديه خلفاء الطرائق وأصحاب الأشاير كالأحمدية والرفاعية والبراهمية والقدرية فيفصل بقوانينهم، والمراد بالخلفاء نواب وشيوخ الطرق فى القرى والأمصار ممن يديرون أمر المريدين والأتباع وفى دفتر خانة السادة البكرية صك تعيين الشيخ البيجورى شيخا للجامع الأزهر (سنة ١٣٦٣هـ) وفيه تحديد اختصاصات شيخ الجامع وشيخ مشايخ الصوفية أو الشيخ البارز من بينهم. وقد جاء فى هذا الصك ما نصه:

«وإذا رفع إليه ـ شيخ الجامع ـ دعوى وكان ذلك مما هو تحت حكم سعادة السيد البكرى كالأشراف ومشايخ الطرق فيرد إلى حاكم المذكور حكم الأصول السالفة وأن الأمر فى المهمات .. لأنه بذلك تحصل راحتهم جميعا لعدم تعدى أحد على أحد...!!

ولا ينبغى أن يقال إن هذا الشاهد الذى رويناه قد وقع بعد انقضاء العصر العثمانى بخمسين عاما، فإن ذلك حجة لنا لا علينا، إذ كان الناس إذ ذاك فى عصر إسماعيل باشا ، فكان الكثيرون منهم قد انصرفوا إلى التفكير فى شئون المدنية الغربية التى أصبحت الأسرة العلوية ، بل أقبلت مع نابليون فى غزوته، ونمت واشتد بأسها فى عصر إسماعيل، وانشغل أكثر المستنيرين بأحداث السياسة الداخلية والخارجية فضعفت صولة التصوف وانكمش سلطانه عما كان فى أيام العثمانيين، ولكن هذا لم يمنع من استمرار الفقراء فى التقاضى أمام أظهر شيوخهم بقوانينهم الخاصة، سائرين فى ذلك على ماجرى العرف منذ القدم، وإن قولهم «فيرد إلى حاكمه المذكور حكم الأصول السالفة، لذو دلالة واضحة المعنى ، بل لقد كان الرجل إذا عظم نفوذه وقوى سلطانه يجمع فى يده السلطتين القضائية والتنفيذية فيحكم على الناس وينفذ أحكامه.. ! فقد اجتمع بعض أولاد البلد ذات ليلة بمنزل أحدهم ـ كما يروى الجبرتى ـ وأخذوا فى السخرية من

أصحاب المظاهر على عاداتهم ، وتطاير النبأ حتى اتصل بالسادات فأرسل فى طلبهم جميعا «وعزرهم بالضرب والإهانة وجلساؤه ومرافقوه لا يعارضوه فى شيء بل يوافقوه» وكذلك فعل بأحد أعاظم المباشرين من الأقباط، توقف معه فى أمره «فأحضه ولعنه وسبه وكشف رأسه وضربه على دماغه بزخمة من الجلد ولم يراع حرمة أميره وهو إذ ذاك أمير البلدة، ولما شكا إلى مخدومه ما فعل به ، قال له وما تريد أن أصنع بشيخ عظيم ضرب نصرانيا».. وكذلك كان يفعل مع المباشرين وخدمة الأضرحة عند حسابهم على ما فى عهدتهم ، فيضربهم بالجريد المحمص على أرجلهم ...!! وكان إذا أراد الإيقاع بشخص وخشى عاقبه ذلك، مهد الطريق سرا قبل الإيقاع به، فيتألف الفقهاء والعلماء الذين ينتظر منهم إعلان السخط على موقفه ، حتى إذا ظفر بذلك قام بالإيقاع والضرب جهرا أمام الناس...! وكأن البلد من غير حكومة أو قانون...!!

التمرد على العرف عند الفقراء

بل لقد تمردوا على أبسط قواعد العرف الذى جرى عليه أرباب الطريق من قديم الزمان. فإن التصوف لا يستقيم بغير الزهد فى الحياة والإعراض عن مباهجها والميل عن مطالب النفس وشهوات الجسم، والعيش فى جو بعيد عن الأغراض الدنيا والنزعات الأرضية، ولكن الذى يثير عجب الإنسان من هؤلاء الفقراء، إقبالهم على الدنيا وحرصهم على التمتع بلذاتها والظفر منها بأوفى نصيب، وقد يفعلون هذا كله جهارا أمام الناس ولايرون فيه سبة ولا معرة، مما أدى بالمؤلفين فى هذا العصر إلى الإكثار من تحذيرهم من الوقوع فى هذا الشر، وإغرائهم بالزهد وحملهم على حياة الخشونة والتقشف.

وكان الفقراء يقبلون على كل شيخ كريم ويتكدسون فى زاويته، ويتزايد عددهم بين الحين والحين، وينفضون عن كل زاوية أدرك البخل شيخها وأصابح الحرص نقيبها، وكانت الزوايا تكتظ بالفقراء وتعج بطوائفهم أيام الغلاء ، وكان الشيوخ ـ فى الجملة ـ يرون تمتعهم بالعيش الرغيد والحياة الهنيئة حقا من حقوقهم يستحوذون عليه إن شاءوا ويتنازلون عنه إن أرادوا وما أكثر الذين كانوا يلتمسون أسباب الوصول إلى المال الطائل حتى إذا ظفروا به انفردوا بأكثره واستباحوا لأنفسهم وأولادهم العيش فى كنفه. والذين نادوا بتحريم هذا كانوا لا يتورعون عن التماس الأعذار لمن ينعم منهم بالملبس الفاخر ويتمتع بالطعام الشهى ، فيقولون إن المريد لا يجوز له ذلك العيش فى ذلك النعيم إلا إذا كان من أصحاب الكرامات وخوارق العادات. وقد روى الشعرانى حادثة من هذا النوع وعلق عليها قائلا: فلولا أن الشيخ أقام البرهان على طعامه اللذيذ بالكرامة، لفارقته تلك المرأة وهى منكرة عليه.

ومن هذا نرى أن أرباب الطريق فى هذا العصر قد تمردوا على عرف البلاد وتحرروا من دينها وخرجوا على نظمها وقوانينها ، بل أدى بهم التمادى فى التمرد إلى الخروج على أبسط قواعد العرف السائد بين أهل التصوف من قديم الزمان، فهل يعدو الحق من يقول إن أرباب الطريق فى مصر كانوا دولة داخل الدولة..؟ وفى الحق لقد كانت دولتهم غريبة فى تاريخ الدول، لأنها أعطت أهلها

الكثير من الحقوق والامتيازات ، ولم تحملهم من الواجبات كثيرا ولا قليلا...! فإن الكثيرين منهم كانوا لا يحملون أنفسم حتى مشقة الدعوة للزهد فى الدنيا والتفرغ للعبادة، بل كانوا يعلنون التمرد على هذا كله استهانة واستهتارا. فهل عرف التاريخ من قبل دولة كهذه الدولة...؟

* * *

بعض مظاهر نفوذهم

دنيا الصوفية الروحية وحكامها ـ تقسيم مصر بين الأولياء إلى مناطق نفوذ ـ القطبانية ونفوذ أهلها فى مصر ـ آفاق نفوذهم فى مناطقهم ـ بعض مظاهر نفوذهم عند المريدين ـ عند الحكام.

دنيا الصوفية الروحية وحكامها:

وفى الحق لقد ضاق الشرق فى ظل السلطنة العثمانية بالحياة الدنيا وكره ما تنطوى عليه من ألوان الشر وضروب الظلم، وانتهت الرغبة فى إصلاح الدنيا عند نفر من أهله، بتصور مملكة باطنية وراء الدنيا التى تعيش فى رحابها ونكرع من آثامها وشرورها. وكان طبيعيا بعد أن أقام هذه الدولة فى مخيلته ، أن يبحث لها عن حكام عدول يتولون إدارتها والإشراف على أحوالها، ثم يخرج من هذا إلى تصنيف هؤلاء الحكام، فصنفهم بطريقة تعسفية فى طبقات تختلف باختلاف المصنفين ، ويتزعمها القطب وتليه فئات من الأوتاد والأبرار والنقباء والنجباء والأبدال... وغير ذلك ممن يشرفون على مختلف مظاهر الحياة فى هذه المملكة الباطنية ويسيرون دفتها وينظمون أمورها ويعوضون الناس خيرا عما يلقونه من شر دنياهم...

وقد عرفت مصر فى العصر العثمانى من هؤلاء الحكام صنفين اثنين : وهما القطب والأولياء بوجه عام، وقد ضاق الشعب المصرى بدنيا الفاقة والظلم، فانساق بتأثير جهله إلى الإيمان بمن يدعون الزلفى إلى الله ـ ولما كان الأولياء فى هذا قد أصابوا المال الطائل ، وبسطوا نفوذهم على الأتباع والمريدين ، فقد تهيأ لهم سلطان روحى ونفوذ دنيوى معا...!

تقسيم مصر بين الأولياء إلى مناطق نفوذ:

انتشر الأولياء فى أرض مصر وفشا أمرهم بين أهلها، واقتسموا مناطقها فاستولى كل ولىّ على مساحة من الأرض تقبل الزيادة والنقصان ، يتصرف فى أهلها ويستغل غلاتها، فيقيم الولائم فى بيوت ملاكها ويطالبهم بالأتاوات ينظم منها موالد الأولياء ـ وكان الناس يخفون إليهم سراعا كلما تطاير إليهم نبأ وجودهم ويستجيبون لمطالبهم راضين مغتبطين ، يحملهم على ذلك الأمل فى اكتساب البركة والظفر بالزلفى إلى الله. .! والمنطقة التى تخضع لنفوذ الولى تتناسب فى سعة مساحتها طرديا مع قدرة هذا الولى على اجتذاب الناس إليه وكسب عواطفهم نحوه. وقد حرص كل ولى على إقرار نفوذه فى منطقته والعمل على توسيع دائرتها مااستطاع إلى ذلك سبيلا. وكان يطمع فى أغلب أحواله فى أن يكون كافة أهل بلده تلامذة ومريدين

له وحده وكان الأولياء يؤثرون أن تكون الزعامة لواحد لاينافسه عليها أحد، حكى عن يوسف العجمى أن الله حين قضى بمغادرته بلاد العجم، سمع هاتفًا يأمره بالسفر لينفع الناس فى مصر، فظنه شيطانًا وأهمل أمره، بيد أن النداء أخذ يتكرر حتى بلغ الرابعة، فقال يوسف: اللهم إن كان هذا وارد حق منك فاقلب هذا النهر لبنا أغرف منه بقصعتي، وتقول الرواية إن النهر قد انقلب لبنا..!! فأيقن أن الهتاف الذى سمعه وارد حق لاشك فيه..! فلما أقبل على مصر وجد «الشيخ حسن التسترى» وقد سبقه إليها ولم يتصدر المشيخة بعد، فقال له يوسف: إن الطريق لاتكون لأكثرمن واحد يقوم بها لأنها تقوم على الأخلاق الالهية، فإما أن أتصدر أنا وتكون وزيرى وخادمى، وإما أن تتصدر أنت وأكون وزيرك وخادمك، فتخلى له الشيخ حسن عن الصدارة وأخذ يقوم بخدمته حتى وافته منيته، فأخذ مكانه بعد أن استأذنه في ذلك وهو على قيد الحياة..! وأظهر فى الطريق العجائب، ودانت له الملوك وخضع لنفوذه الأمراء..!

وما كان مشايخ العصر على هذا الخلق ، فقد كانوا يظهرون بأنفسهم ويدعون المشيخة دون أن يبايعهم أولياء الدائرة، ويدخلوا فى طاعتهم كما كان ينبغى ، وكانوا يجلسون للمشيخة وفى بلدهم من هو أقدم منهم هجرة فى الطريق فلا يعبأون به، مع أن الآداب تقضى باحترامهم له، وطلب الإذن منه بارشاد المرشدين نيابة عنه، إن أحسوا فى أنفسهم بأنهم أعلم منه ، و لقد أدى بهم هذا الإدعاء إلى أن يجور بعضهم على حقوق بعض، ويعتدوا على مناطق غيرهم ويحاولوا الاستحواذ على ماليس لهم فيه حق..! ولكن الأولياء كانوا على كل حال حريصين على أتباعهم ومريديهم لا يحب أحدهم أن ينفضوا من حوله ويلتفوا حول غيره، ولعل هذا جائز ومحتمل فى رأى المنطق وحكم العقل، ولكن الغريب أن شيوخ الطريق فى هذا العصر كانوا يطمعون فى أن يقتصر على صحبتهم كل من اتصل بهم أو تلقى الذكر عنهم بقصد التبرك والتيمن ، ولهذا نرى «الدردير العدوى» يحذر الأشياخ من شر ذلك، ويقول إن المريد الصادق المحبة. هو وحده الذى لا ينبغى له أن يزور وليا ولاصالحا من أهل عصره إلا بإذن شيخه، ولا يحضر مجلسا غير مجلسه ولا يستمع إلى أحد سواه..! «أما الذين يتلقنون الذكر بقصد التيمن وحده فليس للشيخ أن يقيدهم بصحبته، ومن طمع فى ذلك كان غير صالح لأن يكون شيخا فى طريق الله. ونرى الشعرانى يقول إن أشياخ عصره قد ضلوا حتى عز عليهم التمييز بين من يحبهم مكتفيا بهذا الحب ، ومن يطلب التربية على يدهم ، ويروى ما يؤيد هذا فيقول إن أحد مشايخ العرب قد اجتمع بأحد شيوخ مشايخ الطريق وأهدى إليه قمحا وأرزا وعسلا وذهبا، وأقبل عليه إقبالا عظيما، فقال الشيخ : إن كنت تصحبنى فلا تصحب فلانا، فنفرت نفسه من هذا التضييق وترك الشيخ قائلا : ما طلبت أن أكون شيخا ولا مريدا، ثم مضى إلى الشعرانى واجتمع به، فظن الشيخ الأول أن الشعرانى هو الذى حرضه على تركه وحوله إليه وأغراه بصحبته فحمل له العداء من أجل ذلك. وما كان الأشياخ ليطمعوا فى امتداد نفوذهم إلى هذا الحد، لو أن الشعب كان على استعداد للإعراض

عنهم لو تجاوزوا حدودهم ـ ولعل رواية الشعرانى لا تنقض ما نقول، فليس يبعد أن يكون الشعرانى ـ بما عرف عنه من مهارة وقدرة على اجتذاب الناس إليه ـ هو الذى حول شيخ العرب عن شيخه الأول، ولولا ذلك لرضخ شيخ العرب لمطلب هذا الشيخ واستجاب لرأيه.

كان طبيعيا بعد هذا أن يغضب الولى إذا اعتدى أحد زملائه على منطقته التى تخضع لنفوذه، بل لقد كان غالب فقراء هذا العصر يبغضون من لم يكن من تلامذة شيخهم ويتمنى الواحد منهم ألا يظهر اسم فى بلده لغير شيخه، ويتبادلون نظرات مليئة بالحقد فياضة بالاحتقار، كأنما ظن الواحد منهم أن من أخذ الطريق على غير شيخه كان على غير دينه وما كان المريدون وحدهم هم الذين يحملون هذه الضغينة وينطوون على هذا التعصب ، فقد كان الأشياخ إذا تحول عنهم مريدوهم إلى شيخ آخر أصابت الإحن قلوبهم، وأدركت الكراهية نفوسهم حتى حذر الشعرانى الشيوخ من شر ذلك، وأشار على من ابتلى به منهم أن يتخذ له شيخا يسلك على يديه حتى يرقى به إلى مرتبة الإخلاص، فينشرح صدره لمثل هذا التحول ، لأن من ساءه هذا فقد أعوزه الإخلاص لطريقه.

كان اعتداء الولى على منطقة غيره من الأولياء عدوانا بالغا وامتهانا لحرمة الطريق، على أن الأولياء كانوا إذا رأوا أقوى منهم شخصية وأكثر أتباعا وأمضى نفوذا وأرحب سلطانا، خضعوا له وساروا تحت رايته، فإن أجمعوا على الإذعان له، عرضوا عليه «القطبانية» ودانت له الأرض بما رحبت، وخضعت له الرقاب بما حملت .. وكان وحيد عصره..!!

القطبانية ونفوذ أهلها فى مصر:

والقطبانية التى جرى العرف بأن تكون لواحد فذ لا تتجاوزه، قد ظفر بها فى مصر بعض الأولياء إبان هذا العصر .. أصابها محمد الحفناوى الخلوتى المتوفى سنة ١١٨١هـ الذى دانت لطاعته الرقاب، «وأخذ العهود على العالم وأدار مجالس الأذكار بالليل والنهار وأحيا طريق القوم بعد درسها، أنقذ من ورطة الجهل مهجا من غى نفوسها فبلغ هديه الأقطار كلها وصار له فى كثير من قرى مصر ـ قبل أن يكون قطبا ـ نقيب وخليفة وتلامذة وأتباع يذكرون الله تعالى ـ ، ولم يزل أمره فى ازدياد وانتشار حتى بلغ سائر أقطار الأرض وصار الكبار والصغار والنساء والرجال يذكرون الله بطريقته ، وصار خليفة الوقت وقطبه ولم يبق ولى من أهل عصره إلا أذعن له.. وأسلم على يديه خلق كثير من النصارى...» وأكثر فيه الشعراء من المديح، وبموته «ابتدأ نزول البلاء واختلال أحوال الديار المصرية لأن «الرحى لا تدور بدون قطبها ، وقد كان رحمه الله قطب رحى الديار المصرية ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه وإذنه.

بل لقد كان الولى إذا ثبت قدمه وذاعت تعاليمه ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، يشعر بتوطد سلطانه حتى ليأتى القطبانية إذا عرضوا عليه ...!! فمن ذلك ما كان من أمر أستاذه السيد مصطفى البكرى الذى «أوتى مفاتيح العلوم كلها حتى أذعن له أولياء عصره ومحققوه فى مشارق الأرض

ومغاربها، وأخذ على رؤساء الجن العهود ، وعم مدده سائر الورود » فإن قطبانية المشرق قد عرضت عليه فأباها.

وبلغ من خطر القطبانية فى العالم الإسلامى أن أشيعت عند المغاربة عن الزبيدى + ١٢٠٥ فى مصر ـ وهو صاحب الشرح الوافي لإحياء الغزالى وتاج العروس فى شرح القاموس وغير ذلك ـ فكان إذا وفد أحد هؤلاء المغاربة إلى مصر حاجا ولم يصله بشيء ، لا يعتبر حجة كاملا.. ! وكانوا أيام الحج محتشدين ببابه منذ الصباح حتى المساء، وكان بعضهم يحمل إليه استفتاء من علماء بلده وأعيانه ، فإن ظفر «بقطعة ورق ولو بمقدار الأنملة فكأنما ظفر بحسن الخاتمة وحفظها معه كالتميمة » ورأي حجة مقبولا، وإلا فقد باء بالخيبة والندامة وأحاطه باللوم أهل بلاده، ودامت حسرته إلى يوم ميعاده..

من الخير أن نشير إلى أن الكتاب فى هذا العصر كانوا يسرفون فى إضافة الأوصاف إلى من يترجمون لهم، على سبيل التمجيد والتعظيم، ولم يكن صغار المؤرخين وحدهم هم الذين ينزلقون إلى هذا الإسراف، وكان الناس ـ فى مصر ـ يزعمون أن الأقطاب أربعة ـ وقال بعضهم بل إثنان ـ وقد عرض للحديث عنهم الأستاذ «لين» Lanc وصور فكرة المصريين عنهم بشيء التفصيل.

على أن الأولياء كانوا فى مصر يعلنون استقلالهم إذا لم تجد القطبانية من هو أهل لها، قال الجبرتى معقبا على ممات الحفناوى : إن البلاء قد نزل بالبلاد المصرية والحجازية والشامية بعده، ولم يزل يتضاعف حتى عم الدنيا وساد أقطار الأرض، وهذا «هو السر الظاهرى» وهو ولا شك تابع الباطنى، وهو القيام بحق وراثة النبوة وكمال المتابعة وتمهيد القواعد وإقامة أعلام الهدى والإسلام وإحكام مبانى التقوى. لأنهم أمنا الله فى العالم وخلاصة بنى آدم، أولئك الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون» وظاهر من نص الجبرتى أن القطبانية لو وجدت من يتولاها بعد ممات الحفناوى لما أصاب البلاد الإسلامية هذا البلاء...! ولعل هذا الرأى يخالف ما اتفق عليه جمهرة الباحثين فى القطبانية، إذا انعقد رأيهم على أن القطبانية لا تخلو لحظة واحدة من ولى يتولاها ويقوم أعمالها.

آفاق نفوذهم فى مناطقهم:

كان المتصوف إذا خرج إلى شارع أو سار فى الأسواق تهافت عليه الناس وتكاثر حوله عديدهم ، وسدوا طريقه وانهالوا على يديه وقدميه تقبيلا ولثما، وممن كان خروجهم إلى الشوارع يثير هذا الضجيج السيد محمد البكرى، كما يقول صاحب الكواكب السائرة. بل لقد روى صاحب النور السافر فى ترجمته أن الشعراء من فضلاء مصر المتمكنين فى علوم اللغة وقواعد الشعر ومذاهب الإنشاء ، كانوا يقصدون إليه بقصائد المليئة بالمدائح، وأنه كان إذا قام من مجلس جلس فيه للتدريس بالجامع الأزهر أو غيره، تقدم الناس لتقبيل يده والتبرك بدعائه والتيمن بالقرب من موضعه، وكان الازدحام يقع بينهم حتى ليسقط بعضهم تحت أقدام الناس ـ وكان يحيط به جماعة من جند السلطان التركى وغيرهم يحلقون على حضرته بأيديهم خشية عليه من أذى الازدحام ، وربما أخذ أحدهم بيده الشريفة

وهى ممدودة لتقبيل الناس لطول زمن مدها لهم إذا كان يمدها بعد درسه نحو ا من ساعة زمانية ثم يسير إلى جهة دابته والناس على الغاية فى الازدحام عليه إلى أن يصل إليها، كما يقول صاحب النور السافر ، بل لقد كان وجود الفقير فى مكان الفقر كفيلا بتعميره وجذب الناس إليه، اتصل بالشيخ محمد المنير ذات يوم أن ولدا قد اشتد به الظمأ حتى قتله، فهاله ما سمع ومضى إلى المكان الذى مات فيه وحفر فى الأرض بئرا وأقام زاوية له فسرعان ما تهافت عليه الفقراء وعمروا لهم بيوتا على كثب من زاويته، فأضحى المكان القفر قرية عامرة بالفقراء والناس والنزلاء ومن يرحلون عن مصر إلى القدس والشام أو غزة أو يعودون إليها من هذه البلاد ، وكان أبو النجا الفوى «إذا سافر إلى بلده «فوه» ثم عاد إلى مصر ووصلت مركبه إلى بولاق إذهب الناس أفواجا يتلقونه كأنه سلطان، ويكون ذلك يوم عيد عندهم» كما يقول المناوى.

بل لقد امتد نفوذ هؤلاء إلى طريدى القانون والخارجين على قواعد الدين..!! فكان العصاة من قطاع الطرق يرتدون على يد الشيخ على البيومى ١١٨٣ مريدين وأتباعا له.! ومنهم من صار من السالكين .! وقد كان يوثقهم أحيانا فى أعمدة مسجد الظاهر بسلسلة من حديد، وتارة يضع الطوق فى رقابهم أو يؤدبهم بما يقتضيه رأيه وهم سكوت عن رضا وطواعية...! وكان إذا ركب إلى المشهد الحسينى فى جماعته تبعه هؤلاء العصاة والمجرمون حاملين العصى والأسلحة فى موكب له روعته وجلاله، وكذلك كان الشأن مع الشيخ الشناوى، فقد كان ينظر إلى قاطع الطريق وهو مار به فسرعان ما يتبعه هذا ولا يملك رد نفسه عن ملازمة الشيخ والسير فى ركابه..! وقد ارتقى بعض هؤلاء اللصوص التائبين حتى صاروا من أعيان جماعته..!

سار على البكرى ١٣٠٧هـ عاريا فى الأسواق يهذى فى حديثه ويخلط فى كلامه، فيؤول الناس هذيانه تأويلا يلائم أحوالهم ويتفق مع أغراضهم ، واستغل أخوه سذاجة الناس فمنعه من الخروج إلى الشوارع والأسواق ـ مكشوف الرأس والسوأتين كما كان يفعل فى أغلب أحواله ـ وحبسه فى بيته وروج له وعزا إليه من الكرامات والخوارق ما حمل الناس على الإسراف فى الإيمان به والمسارعة إلى تقديم الهدايا والنذور إليه حتى أثرى أخوه من ورائه، وقد بلغ من اعتقاد الناس فى هذا الدرويش أن تبعته امرأة ولزمته فى الشوارع والأسواق، فسرعان ما آمن الكثيرون من الناس بصدق ولايتها، وأشاعوا أن الشيخ قد «لحظها وجذبها» فأضحت من أولياء الله الصالحين ، ثم ارتقت فى درجات الجذب فخرجت معه إلى الشارع فى زى الرجال يتبعهما أنى سارا الأطفال والصغار وعامة الناس...! ومنهم من اقتدى بهما «ونزع ثيابه وتحنجل فى مشيته» فقيل إن الشيخ قد جذبه أو مسه فصار وليا...! وكثر أتباع هذا الرجل المعتوه حتى كان إذا مر بشارع ملأه ضجيجا، ونهب أتباعه محال التجار واستولوا على ما فيها من بضائع.! وكانت المرأة تصعد أحيانا على درج عال وتفحش فى القول فيزداد إيمان الكثير بها ويقبلون يدها تيمنا ببركتها...! ومر موكبهم ذات يوم ببيت جندى يسمى «جعفر كاشف» فقبض على الشيخ وأدخله إلى داره ومعه المرأة وسائر المجاذيب ـ ثم طرد الناس عنه وقدم له ما يأكله، وأدخل المرأة والمجاذيب إلى الحبس وأطلق الشيخ إلى حال سبيله. ثم أخذ يضرب المرأة

والمجاذيب حتى طير الولاية من رءوسهم ورد الرشد إلى عقولهم ، ثم أطلق سراحهم إلا المرأة فإنه أرسلها إلى المارستان وربطها عند المجانين، ولبثت على هذه الحال حتى إذا جدت الحوادث أطلق سراحها فخرجت إلى الشوارع فإذا هى «شيخة على انفرادها» يحسن الناس الاعتقاد فيها، ويؤمن الناس بصدق ولايتها حتى أقيمت لها الموالد ـ بعد مماتها ـ وقدمت إليها الهدايا والنذور...!!

بل بلغ من مكانته الملحوظة أن كان شيوخ الطرق فى الدول الإسلامية يجتمعون به فيعطيهم «إذنا عاما على عموم الطرق ويأذن لهم فى أن يكونوا رؤساء يرجع إليهم فى أمر عموم أهل الطرق...» كما يقول صاحب طبقات الشاذلية.

وكما كان هذا هو الشأن مع الأميين والمشعوذين فقد كان مع المستنيرين ، وقد عرفنا من قبل كيف جمع السادات فى يده السلطتين : التشريعية والتنفيذية حتى أباح لنفسه أن يستدعى المذنبين والأيمة فى داره، ويفرض عليهم العقاب الذى يشاوه ، وينفذه على مرأى من الناس ومسمع من الحكام، فلا يغضب لذلك أحد.! والغريب أن روح العصر كانت لا تسمح بأن يكون الحاكم واحدا من أهل البلد..!

فلم يكن غريبا بعد هذا أن يلتمس الحكام معونة هؤلاء الشيوخ زلفى إلى الله من ناحية، وضمانا لرضا الرعايا عن جورهم من ناحية أخرى، وكثيرا ما كانوا يلجأون إليهم عند المحن والأزمات، ويلتمسون عندهم العون على تهدئة الناس وحفظ الأمن العام، أو فى الانتصار على الخصوم والأعداء، روى الجبرتى أن إبراهيم بك قد مضى إلى البكرى (١٢٠٨ هـ) والعروسى(١٢٠٨ هـ) والدردير ١٢٠١ ـ حين أقبلت إلى مصر الحملة التأديبية التركية بقيادة حسن باشا الجزايرلى القبودان ـ وأنه أخذ «يبكى لهم وتصاغر فى نفسه جدا وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت، فإنه كان يخاف ذلك جدا». وقد كان هؤلاء الثلاثة من كبار شيوخ التصوف فى مصر إبان عصرهم. وإن جميع العروسى والدردير بين الفقه والطريق.

وكذلك كان الحال مع السيد خليل البكرى، إذ كان الأمراء الذين أدركهم الجزع من بطش الفرنسيين بهم أيام غزو نابليون، كانوا ـ فيما يقول الجبرتى ـ يلوذون به، ويجتمعون فى بيته، لأنه مسموع الكلمة مقبول الشفاعة.

وقد بلغ من نفوذ الشعرانى عند الحكام، أن كان يسعى لتعيين القضاة والمحتسبين وشيوخ العرب فى وظائفهم كما كان الحفناوى قطب رحى الديار المصرية، ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا بإذنه».

وقد كان هؤلاء الشيوخ ، يعملون من جانبهم على إيهام هؤلاء الحكام بسطوتهم وسعة نفوذهم، لأن هذا يعلى من شأنهم فى نظر الناس، ويكثر من اتباعهم وداره عليهم المال الطويل، ويحقق لهم السمعة الطايرة، فكان الشيخ يقول لنقيب زاويته : إذا أقبل الأمير الفلانى لزيارتى ، فقل لى على مسمع منه إن الباشا قد أرسل إليكم السلام مع أحد أفراد جماعته، وهو يطلب إليكم ألا تضنوا عليه بدعواتكم.! فإذا سمع الأمير ذلك، نقله إلى ساير الأمراء فيعلو شأنه عندهم، ويكثر ترددهم على زاويته ، ويقوى اعتقادهم فى ولايته...! وكان الشيخ السادات ١٢٢٨ هـ يلتمس شتى السبل لتوثيق علاقته بالأمراء، فكان يدعوهم إلى زيارته فى بيته، ثم يوعز إلى فقراء الطرق الأحمدية والسعدية والشعيبية بأن يمروا بمواكبهم تحت داره، حتى يدرك

الحكام مبلغ نفوذه عند أرباب الطريق..!

ومن الأرزاق التى أجراها هؤلاء الحكام ومن إليهم من المحسنين ، عاش هؤلاء الفقراء فى ترف ورخاء ـ لا يستقيم مع أبسط قواعد الطريق ـ ولكنهم كانوا يدعون أنهم ينفقون من الغيب ، لأن الصادقين من شيوخ الطريق ، لا يذعنون لقبول ما يقدمه لهم الملوك والأمراء من أموال وهدايا ومرتبات. ولا يرضون عن حياتهم المألوفة بديلا. والرزق إنما يكون مما يفتح الله، فإن العبد إذا صدقت نيته، وأخلص فى عبادة ربه، أدناه الله من حضرته، وقربه من ساحته ، وأولاه الكثير من نعمه، حتى ليرتفع فوق نواميس الطبيعة وقوانينها..!!

ووجه الغرابة فى هذا التعليل ، أنه قد صادف قبولا عند مؤرخى ذلك العصر، وفاتت حقيقته ذوى الحجى منهم ممن سبقوا عصرهم بأزمان طوال فالجبرتى يؤرخ لمحمد القلينى الأزهرى ١١٦٤هـ فيقول إنه كان من أصحاب الكرامات المآثر ، منها أنه «كان ينفق من الغيب ، لأنه لم يكن له إيراد ولا ملك ولا وظيفة، ولا يتناول من أحد شيئا، وينفق إنفاق من لا يخشى الفقر، وإذا مشى فى السوق تعلق به الفقرا، فيعطيهم الذهب والفضة ، وإذا دخل الحمام دفع الأجرة عن كل من فيه» ...!! ويقول المحبى فى ترجمة أحمد بن سلام المصرى ، إنه كان لا يتردد إلى أحد من الكبراء، ويحب الفقرا ولا يقبل من أحد صدقة مطلقا، بل كان فى غالب أوقاته يرى متصدقا، وليس له وظايف ولا معاليم ، وعلى ذلك كان فى أرغد عيش وأطيب نعيم» ..!! ويقول الشعرانى عن الشيخ الدويب، إنه ـ حين وافته منيته ـ خلف ماية ألف دينار، لا يعلم أحد مصدرها، لأنه كان متجردا من الدنيا زاهدا فى جاهها.

على أن شيوخ الطريق قد دفعوا ثمن علاقتهم بالحكام، انتصارا لظلمهم وتأييدا للجائر من تصرفاتهم ، فأدى هذا إلى إضعاف روح التمرد على هؤلاء الظلمة، وإخماد نار الثورة فى قلوب المصريين.

٢ ـ نفوذهم أمواتا

جلال الموت ـ الأميون من مدعى الولاية ـ العلماء من مدعى الولاية ـ نظرتهم إلى من أخذ العهد على موتى الأولياء ـ الطوائف التى سلكت الطريق على موتى الأولياء.

كان شيوخ الطريق إذا تخطفهم الموت، تسلط على الناس نفوذهم. واستأثر بالأميين والمستنيرين، وكلما تقادم عليهم العهد، ازداد نفوذهم قوة واستبد بهوى الناس وإعجابهم، ولا غرابة فى ذلك، فإن الشعوب ـ والمتأخرة منها بوجه خاص ـ تؤمن بالأضاليل، وترث الأوهام جيلا بعد جيل، ولا يتدخل العقل فى تنظيم الحياة عند الناس إلا بقدر. وللموت حرمة ورهبة، تفضى بالناس إلى الإسراف فى تقدير من تخطفهم من الصالحين، والإشفاق من مهاجمة من يعدو عليهم من الاتقياء...!! والصادق من شيوخ الطريق، بالغا ما بلغ من صدق التصوف، يصادف المفكرين والساخرين ، ولكنه إذا أضحى فى ذمة الله، سكت عنه خصومه وحساده، وكف المنكرون عن التشهير به والنيل منه، وطوت الموت سوءاته ، واكتفى الناس بتناقل حسناته عملا بالقول المأثور : إذكروا محاسن موتاكم. ومن ثم يعلو اسمه بعد موته، وتتسع فرجة الخلاف بينه وبين سائر البشر.

الترف فى معيشة أرباب الطريق:

وكان الفقراء فوق النجاة من ضغط الحياة يومذاك، لا يجهدون أنفسهم في احتراف عمل يكسبون قوتهم من ورائه، بل كانوا يعيشون في الزوايا طاعمين كاسين على نفقة المحسنين والأثرياء بدعوى التفرغ للذكر والانقطاع للتهجد والتجرد لعبادة الله. ومن أطرف مفارقات هذا العصر أن يكون هؤلاء الزهدة الذين يدعون التقشف والقناعة بالتافه من شئون العيش، أرغد عيشا وأترف حياة من الفلاحين والتجار وأرباب الحرف، وقد وصف مؤرخو العصر ـ من الجبرتى وابن اياس والشعرانى ومن إليهم ـ حال المصرى تحت الحكم العثمانى ، بما ينوء تحت نيره من فاقة وضنك، ثم وصفوا حال الفقراء في الزوايا وما كانوا ينعمون به من أطايب العيش وسائر مظاهر اليسر والهناءة. فظهر خلال وصفهم نوع من التباين يثير الدهشة ويدعو إلى العجب.

سقوط التكاليف الدينية عن مدعى الولاية:

كان من العوامل التى أدت إلى انتشار التصوف شيوع الرأى القائل بأن الولى يسقط عنه كل ما أمر به، ويحل له أن يفعل كل ما ينهى عن فعله، والأصل فى الرأى أن طائفة من المتصوفة أجازته لمن بلغ الغاية القصوى فى الولاية. فرأى طغام الناس أن ادعاء الولاية ينقذهم من تكاليف الدين، وينجيهم من فروضه وواجباته، ويتيح لهم التميع بما حرم عليهم من رذائل وشهوات ـ وكان طبيعيا أن يشيع مثل هذا الرأى بين ناس قد انحلت أخلاقهم فى عصر شابه الذل وتمشى فيه الضنك وساد الفقر ومست الحاجة إلى أسباب الترويح عن النفس ـ فنزع بعض الناس إلى الهرب من ضغط التقاليد وتضييق الرأى العام على حرية الناس، بالتماس الحرية فى رحاب التصوف، وادعاء الولاية التى ترفعهم عن سائر البشر، وتجعلهم فوق قواعد الدين وأوضا العرف ومقتضيات التقاليد.

ولعل انحلال الأخلاق فى هذا العصر قد ساعد على ادعاء الولاية، ولا يعجب فى أن تنحل أخلاق قوم يشتد فى نفوسهم التعصب لرسوم الدين وطقوسه ، فإن تاريخ الأديان يقول إن عصور الاضمحلال تسودها نزعتان دينيتان متضادتان : نزعة ترمى إلى التشبث برسوم الدين والتزام طقوسه، ونزعة ترمى إلى التهاون فى تنفيذ تعاليمه والاستهتار بقواعده ومبادئه ، وأن هاتين النزعتين تسيران جنبا إلى جنب فى العصر الواحد والبلد الواحد والشخص الواحد.! وبهذا وجد انحلال الأخلاق فى مصر إلى جانب ما أسلفنا ذكره من تعصب شديد، وكان من مظاهر هذا الانحلال الخلقى شيوع الزنا وانتشار المخدرات وغيرها من حشيش وخمرة وبوزة وشيوع الشذوذ الجنسى من عشق المرد والغلمان، ومن أمثلة النوع الأول ما رواه الشعرانى عن طالب علم اعترف له بأنه أحب زوجة شيخه وزنا بها وهى تخادع زوجها وتستغل غفلته..!! وقد كان هذا الداء شائعا فى هذا العصر، فقد انتشر الزنا بحليلة الجار أو من غاب زوجها، حتى لم يسلم منه أحد، ضم أحد المجالس جماعة من أكابر الناس فقال أحدهم من سلم منكم من الوقوع فى الزنا ليحلف بالله على ذلك، فما تجرأ واحد منهم على القسم واعترفوا جميعا بأنهم وقعوا فيه إبان شبابهم.

ومن أمثلة النوع الثانى ما رواه عبد الغنى النابلسى عن إمام مسجد السنانية ببولاق فقد حضر النابلسى مع زين العابدين البكرى ١١٠٧ صلاة الجمعة بهذا المسجد فأدهشه أن الخطيب كان كثير اللحن فى خطبته وصلاته، وكان زين العابدين كلما سمع لحنه نظر إلى النابلسى وابتسم فظن الإمام أنه معجب به مغتبط بكلامه، فلما انتهت الصلاة مضى الخطيب إلى زين العابدين فى زاوية الكلشنية وأخذ يتشفع عنده «فى أن يأخذ له بقية الخطابة لأن له شريكا فيها لا يستحقها» فأفهمه بعض الحاضرين حقيقة حاله وعرفوه بأن الشيخ كان يبتسم لكثيرة لحنه فى خطبته وصلاته. «فاعتذر بأنه كان غائبا يأكل الحشيشة التى هى مناه، ثم عدل على ذلك كله إلى السخرية وأظهر الكلمات المضحكات والاصطلاحات العامية فطرده الحاضرون» ولو أن تعاطى الحشيش كان اتهاما يشين صاحبه أو يقضى على سمعته، لالتمس هذا الإمام عذار للحنه غير هذا العذر، والجبرتى وابن اياس خير من تحدثا من المؤرخين عن انتشار الحشيش والخمر والبوزة والفسق بالنساء والمرد إبان هذا العصر.

والأمثلة على النوع الثالث (الشذوذ الجنسى) كثيرة لا يكاد يحصيها العد، فكثيرا ما ترى فى كتب التاريخ والتراجم والطبقات أن هذا العالم أو غيره كان يعشق الغلمان.

وليس أدل على شيوع الشذوذ الجنسى بين هؤلاء الناس من دهشة رفاعة بك طهطاوى حين سافر إلى فرنسا لأنه لم يجد هذا الداء منتشرا بين أهلها كأن انتشاره هو الشىء الطبيعى وغير الطبيعى حقا ألا يكون شائعا بين الناس.

هذا الانحلال فى الأخلاق قد ساعد الناس على التهافت على دخول الطريق وادعاء الولاية، وعاون على تمهيد السبيل لانتشار الدجل وشيوع الشعوذة، ولو كانوا على خلق عظيم أو تدين صحيح لكان من المحتمل، بل من المؤكد أن ينفروا من هذا الادعاء، ويتساموا بأنفسهم عن تضليل الناس .

النزاع بين أهل الفقه وأرباب الطريق

الحقد فى صدور الفقهاء

تولى الصدارة بين الناس فى هذا العصر حملة الشريعة وأرباب الطريق، ورغم ماكان بين الطائفتين من خلاف فى وجوه النظر فقد كان الدين سبيلهما إلى ارتقاء الزعامة، ولهذا كان طبيعيا أن يثور فى صدور كليهما الحسد والضغينة والبغضاء وأن يقوم بينهما النزاع للذود عن الدين حينا ولحيازة السلطة أحيانا.. وقد اتخذ النزاع بين العلماء والمتصوفة فى العصر العثمانى مظهرين عنيفين: مظهر المقاومة الفعلية التى اتخذت صورة الضغينة والضرب والقتل وما يشبه ذلك ومظهر المقاومة النظرية بتأليف الرسائل يحملون بها على مسلك خصومهم فى لهجة تتروح بين العنف واللين. فلنتناول المظهرين فى إيجاز مبتدئين بالحقد الذى ربض فى صدور الفقهاء.

بعض مظاهر المقاومة العملية:

كان العلماء فى الكثير من هجماتهم قساة

غلاظ الأكباد يخطون أوامر الدين ونواهيه بدعوى الحرص على قواعده وتعاليمه، فكثيرا ما كانوا يقتصون من خصومهم بالتنكيل بهم أو تدبير المؤامرات التى تؤدى بحياتهم مدعين بأنهم يحمون الدين من شرهم ـ وكان اتصاف الرجل بالتصوف ـ ولو قام تصوفه عن فقه بالدين ـ كفيلا فى أكثر الأحايين ببغض العلماء له وقسوتهم فى معاملته وسعيهم للتنكيل به، وتاريخ التصوف فى هذا العصر حافل بالمآسي التى تشهد بالتعصب الدينى وتنطق بضيق العقول وكدر النفوس، ومن أفظع هذه المآسى اغتيال «عبد الرءوف المناوى ١٣٠٣ هـ رغم ما كان عليه من علم أدى إلى إعجاب الكثيرين من الفقهاء به:

روى «المحبى» أن المناوى، اعتزل الناس واعتكف لدراسة الدين والتبحر فيه ثم ظهر لهم فأنكروا عليه علمه، ولما تولى التدريس فى المدرسة الصالحية برم بذلك العلماء لأن التدريس فيها كان وقفا على أكبر علما الشافعية ـ وهو شيخ الجامع الأزهر فى العادة كما يقول الجبرتى ـ وهالهم إعطا هذا المنصب لرجل لا يعرفون عنه إلا أنه من أهل التصوف. فلما حضر الدرس أقبل عليه البارزون من شيوخ المذاهب وتأهبوا لانتقاده، ولكنه شرع فى أقراء مختصر المزنى ونصب الجدل فى المذاهب وآتى فى تقريره بما لم يسبقه إليه أحد. فاضطر الذين حضروا درسه إلى الإعجاب به والثناء عليه، وأخذ أجلاء العلماء يبادرون لحضوره ويفيدون منه، وقد انتفع به جمهور كبير منهم، ولكنه كان معروفا بالتصوف وكان صاحب زاوية بخط المقسم بين زاويتى «أحمد الزاهد» «ومدين الأشمونى». فأثار هذه الضغينة فى نفوس حساده ودسوا له السم «وتوالى عليه بسبب ذلك نقص فى أطرافه وبدنه من كثرة التداوى، ولما عجز صار تاج الدين يستملى منه التآليف ويسطرها، حتى مات عام ١٠٣١ ودفن بزاويته.

اغتال الفقهاء المناوى وحاول سلفهم أن يمثلوا المأساة مع عبد الوهاب الشعرانى ٩٧٣ فلما أخفقت المحاولة سعوا إلى التنكيل به والتشهير باسمه وكان الشعرانى عالما من خيرة علماء عصره غزير المادة وحب الأطلاع واسع الحيلة ملما بمختلف آفاق الدين على نحو ما كان يفهم معاصروه، وقد شهد له بذلك كثير من حملة الشريعة وكان صاحب زاوية كبيرة تضم مائتين من مريديه وأتباعه. فتكفل العلماء الازهريين بتشويه سمعته، وقد حاولوا نفيه من البلاد بعد أن عز قتله وإراحة الناس من شره.. وقد كان الشعرانى فى كافة كتبه يحتم على الفقراء التفقه فى الدين والتبحر فى شئونه، واعتبر الفقه مقدمة للتصوف وحاول التوفيق بين التصوف والفقه ووقف على هذه الغاية بعض مؤلفاته ـ كاليواقيت والجواهر ـ ومع ذلك فقد كان له من حملة الشريعة حزب يناوئه وينفس عليه نفوذه وشهرته، وحزب آخر ينتصر له ويروج لتعاليمه، وقد ظهر هذان الحزبان فى فتنة أثارها عليه فى الجامع الأزهر فى مصر والحجاز خصومه وحساده.

ثم سكنت الفتنة وخبت نارها ولكن الضغينة مازالت رابضة فى صدور خصومه من الأزهريين تتمثل فى وجوههم العابسة المقطبة كلما مر بهم هذا الخصم الذى يهدد الدين بالخطر.. وقد أقاموا على بغضه طيلة حياته وتولوه بالنظرات الشذراء كلما صافحته أبصارهم كأنما كانوا على السنة وهو

على البدعة وربما كان العكس هو الصحيح كما يقول بل لقد سعى بعضهم إلى قتله مرات كثيرة وتمنى غيرهم لو نجح مسعاه فى نفيه من مصر وكثيرا ما أدى الحقد ببعض حساده إلى رميه بالجهل فى الشريعة والحقيقة معا.

التناسب الطردى بين حقد وعلم أرباب الطريق:

وعلام هذه الضغينة كلها؟ لقد كان الشعرانى لا يكتب كتابا إلا أعلن فيه التزامه للكتاب والسنة وبراءته من المارقين من الدين الذين يظنون أن الحقيقة شيء والشريعة شيء آخر، وما أكثر الكتب التى حفلت صفحاتها شرح مذهبه فى هذا الصدد.

ولهذا كان الحقد الذى يحمله الفقهاء لأهل التصوف يتناسب فى قوته وعنفه تناسبا طرديا مع علم المتصوفة عكسيا مع جهلهم ـ فالمتتبع لحركات النزاع بين الطائفتين ومظاهر العدوان والتحدى يرى أن المتصوفة الذين نادوا بدراسة العلم وحتموا على الفقراء التبحر فى الدين قد نالهم من أذى الفقهاء وعدوانهم فوق ما نال دعاة الجهل وأنصاف الأميين من أهل التصوف..! وإذا قارنا موقف العلماء من المناوى والشعرانى بموقفهم من محمد كريم الدين الخلوتى ٩٨٦ ، وعلى البيومى ١١٨٣ هـ عرفنا مبلغ الصدق فيما نقول.

وسنعرف أن المقاومة النظرية كانت تظهر فى صورة الكتب والرسائل يضعها الفقهاء فى مهاجمة الجهلة من الفقراء. ولم يعن العلماء ـ فيما نعلم ـ بوضع كتب وتأليف رسائل يردون بها على التعاليم التى كان ينشرها المستنيرون من أهل التصوف .

وإنما اهتموا بتدبير المؤامرات التى تفقدهم السمعة الطيبة وتفض الناس من حولهم إذا لم تنته بقتلهم وإراحة البلاد من شرهم..

ولعل السر فى هذا التناسب الطردى بين علم المتصوفة وكراهية العلماء أن الفقهاء قد لاحظوا أن العلماء من أهل التصوف أكثر خطرا على نفوذهم عند الناس والحكام من جهلة أرباب الطريق، لأنهم يتساوون مع العلماء أمام الجمهور فى سعة العلم وفهم الدين ثم يزيدون عليهم هذا التصوف الحبيب إلى نفوس الناس، وفى هذا الامتياز ما يمهد لهم سبيل الانتصار على الفقهاء فى اكتساب النفوذ عند طبقات الشعب وهيئات الحكام.

أو لعل السر فى هذا التناسب الطردى أن العارفين بالدين من أهل التصوف أخطر على عقائد الناس من جهالهم وسنوضح هذا بعد.

بعض مظاهر الحقد النظرية:

إن هذا العصر كان عصر الشروح والحواشى وإن العلماء كانوا يتناولون المتن الذى وضع من قبل فيضعون له الشروح والتعليقات ثم يأتى بعدهم من يتولى شروحهم بالشرح والتعليق. فبدا ركود فى الحركة الفكرية وقلة فى المؤلفات مع كثرة الحواشى والشروح، وكان طبيعيا بعد هذا أن تقل الكتب التى يضعها الفقهاء فى الرد على مايرونه فى سلوك المتصوفة من خروج على قواعد الدين وتعاليمه، وأن تكون هذه الكتب ـ فى الأغلب والأعم ـ رسائل صغيرة حافلة بضروب السباب وألوان الشتائم محشوة بأقوال فى الدين يقتبسها المؤلفون من كتب السلف، وقل منها مادل على فكر مبتكر أو سداد نظر لم يستعره صاحبه من الأغيار.

والظاهر أن واضعى هذه الرسائل كانوا أصنافا

ثلاثة : أولها الفقهاء الخلص وقد كانت رسائلهم تنضح بالحقد وتفيض بالضغينة وتنهال على الخصوم بالسباب والتهم، ويمثل هؤلاء الشيخ على الصعيدى العدوى وغيره من العلماء الذين نالوا من المتصوفة كل منال وأخفوا عن القراء أسماءهم كما سنعرف بعد قليل.

وثانى الصنفين : العلماء الذين أشربوا بروح التصوف ـ فيما يلوح لنا ـ وقد كانوا فى الأغلب والأعم أميل إلى نصرة المتصوفة ورد التهم التى كانت توجه إليهم فكانت رسائلهم مشبعة بروح اللين والعطف.

وثالث الأصناف: المتصوفة الذين كانوا متفقهين في الدين. وقد كانوا فريقين : قام أحدهما بالدفاع عن أهل التصوف ورد التهم التى كانت تنهال على رءوسهم ويمثل هذا الفريق : السيد محمد البكرى ٩٤٤ ـ وتولى الفريق الثانى الفقراء بالطعن واشتد فى حسابهم وكان أقسى عليهم من خلص العلماء القساة ـ كما سنعرف بعد ـ ويمثل هؤلاء الشعرانى ٩٧٣ . ولا بأس من أن نزيد هذا الكلام وضوحا.

(١) كتب الشيخ الصعيدى سنة ١١٩٧ للهجرة فتوى على سؤال وجه إليه بصدد طريقة الذكر عند طائفة المطاوعة التى عرفنا عن فقراتها لتخذ المغنيين والأعلام والطبول والنقباء والسبح الكبيرة والملاحف والسراويل يضعها الغلمان الذين يجلسون خلف الذاكرين فوق رءوسهم أو يمسكون بها ظهورهم .... وغير ذلك من ضروب البدع عند فقراء المطاوعة.

فاستهل الشيخ الصعيدى فتواه باقتباس فقرة من رد الشيخ يوسف الزرقانى (المالكى) وعامر الشبراوى (الشافعى) وأمين الدين (الحنفى) على مثل هذا السؤال إذ قالوا «رقصهم نقص وسماعهم سفاهة وتواجدهم خفة من الرأس والقائل منهم هذا عن رسول الله كاذب في ذلك ويتبوأ مقعده من النار ويعزز على إفتائه بغير علم. ويمنعنون من الاختلاء بالمرد ومن مسهم، ويثاب ولى الأمر على زجرهم، وعقب على ذلك بذكر ما رواه مالك فى تحريم الغناء، والجنيد فى كره السماع ووصف اتخاذ الغلمان بأنه ضلال مبين وقال إن مسهم دبر الولد وإباحتهم ذلك ودعواهم بألا جناح عليهم فى غير فعل الفاحشة كفر لا ريب فيه، وحرم اتخاذ الرايات من الحرير وغيره لأنهم يخدعون به الناس ويوهمونهم بأنهم فقراء ليتمكنوا من أكل أموالهم بالباطل والاستمرار فى أخذ «العوائد» من البلاد ومرضاة الناس عن مبيتهم فى بيوتهم وتحمل نفقات ذلك ولو أدى بهم الأمر إلى الاستدانة من غير المعوزين، ووصف هذا بأنه ظلم مبين ، وحرم الضرب على الكأس.. إلى أن قال لهم فى لهجة المغيظ المحنق «وأنتم معشر المطاوعة احتوى عليكم الجهل واستولى الشيطان على قلوبكم وزيف لكم ما أنتم عليه من القبائح التى لا يقول بها إمام من الأئمة..» ثم حمل عليهم فى اتخاذ الأولاد الملاحف والسراويل وقال إنه سفاهة وقلة أدب وطلب شهرة والنبى يقول «ومن لبس ثوب شهرة كساه الله يوم القيامة ثوب ذلك وصغار ثم أشعل عليه نارا» وأدخل فى ثوب الشهرة اتخاذهم السيوف من الخشب والمزاريق من الجريد والطواقى من السعف والطراطير التى يضعون عليها أنواع الريش والخرق الملونة والأباريق الملأى بالماء والسبح الكبيرة.. ووصف دوران الغلمان على الذاكرين واحتضانهم من الخلف بأنه ضلال يسوله لهم الشيطان وأورد من الفضائح ما ينبئ عن بغضه الدفين لهم ورغبته الملحة فى التشهير بهم والانتقام منهم على نحو ما نرى فى فتواه.

من الرسائل التي هاجم بها العلماء أهل التصوف هجوما لا رفق فيه ولاهوادة ــ رسالة باسم الصاعقة المحرقة كتبها أحد العلماء سنة ١١٠٥ هـ [محمد صفى الدين الحنفى] فى الفقراء الذين اتخذوا الرقص واللعب دينا وخلطوهما بالعبادة، وراحوا فى حلقات الذكر يدورون مركبين أيديهم إلى وراء وقدام رءوسهم بالتصعيد والتسفيل والتلوى، على هيئة معروفة فى لعبه (ركض الديك) عند النصارى كما يقول المؤلف. والرسالة فياضة بالحقد والضغينة والموجدة.

وهذان مثلان للمقاومة النظرية عند العلماء الخلص، ترى منهما بعض مظاهر البغض الرابض فى الصدور والحقد الجاثم فى القلوب.

(٢) ويمثل طائفة العلماء الذين يكتبون عن المتصوفة بروح مشوبة بالغطف واللين، أحمد بن عبد العزيز بن على الفتوح الشهير بابن النجار (الحنبلى) وناصر الدين اللقانى (المالكى) وشهاب الدين أحمد بن يونس (الحنفى) وشهاب الدين الرملى (الشافعى) وقد كان هؤلاء الأربعة الذين يمثلون المذاهب الأربعة خير من انتصر للشعرانى فى محنته التى عرضنا لها من قبل. ونرى شيئا من الدفاع الحماسى الذى قاموا به مع غيرهم من العلماء فى إجازاتهم المنشورة فى «البحر المورود» ولطائف المنن.

ونرى صورة أخرى لهذا الدفاع الذى تولاه هذا الصنف من العلماء فى استفتاء وجهه مصطفى الرومى بقناطر السباع فى أواخر القرن الحادى عشر إلى اثنى عشر عالما عن (١) ذكر الله بطريقة الدمرادشية والخلوتية والشناوية (٢) الهوية عندهم وهى دورانهم فى حلقة الذكر وقد وضعوا أيديهم بعضها فى بعض وراحوا يقولون .. هو هو هو ..

فأجاب عن السؤال الأول المشايخ أبو الخير أحمد المرحومى الشافعى ومحمد الأحمدى الشافعى ومحمد المهلهل المالكى وأحمد الأزهرى وعبد ربه البربرى الشافعى وأبو الصفا الشنوانى وعلى بن عامر الأبنابى المالكى ــ وأجاب عن الفتوى الثانية المشايخ أبو العزيز بن أحمد العجمى الشافعى الوفائى والشهاب الرملى وعبد الحى الشرنبلالى وسليمان السراخيى المالكى ومحمد الخليل الشافعى.. ولما كانت إجاباتهم انتصارا لأهل التصوف وتأييدا لوجهات نظرهم فقد حمل الشيخ مصطفى الرومى هذه الإجابات إلى عبد الغنى النابلسى وأطلعه عليها ونشر هذا فى رحلته.

وثمة رسائل كثيرة من هذا النوع

(٣) وثالث الأنواع دفاع المتصوفة المتبحرين فى الدين عن طوائف الفقراء وأعمالهم ، ويمثل هؤلاء السيد أبو بكر محمد زين العابدين البكرى (+٩٩٤هـ الذى كتب رسالة ينتصر فيها لفقراء الطائفة السعدية الذين يكثرون من ذكر الله حتى إذا طاب لهم الوقت تواجدوا واضطربوا وتساقطوا على الأرض وافتقدوا الحس وزايلتهم الحركة حتى أضحوا كالخشب المسندة لا يقوورن على النهوض حتى يسارع إليهم نقيب الشيخ فيكبس أيديهم وأرجلهم ويقيمهم على بركة شيخهم. ويذود عن بعض فقراء هذه الطائفة ممن يخرجون من أجسادهم شيئا ملونا بالأحمر أو الأبيض أو الأصفر يسيل منهم كالعرق من غير جرح أو منفذ له على سبيل الكرامة ــ فتولى الدفاع عنهم والذود عن مسلكهم والانتصار لطريقتهم بما نراه فى رسالته ــ حتى السائل الذى يخرج من أجسادهم ملونا دون جرح ولا منفذ قد زعم بأنه كرامة فقال «فيها كرامة طاهرة وآية ظاهرة حيث كانت أنوارها مشرقة من

سماء نفوس لا تعدل عن اتباع الشريعة ولا تأوى إلا إلى حصونها المنيعة» وكأنه أحس بأن دعواه فى التزام هؤلاء الفقراء للشريعة سافرة البطلان فعقب على هذا قائلا «وإذا ظهر على من يخلط بالعصيان بعض الأحيان ، فالكرامة لأستاذه الذى ينتسب إليه ، ولكن لطهـارة قلبـه فى ذلك الوقت ظهـرت عليه..!!».

تصوف الفقهاء الذين انتصروا لمشايخ الطرق:

قلنا فيما أسلفنا أن العلماء الذين تولوا الدفاع عن مسلك المتصوفة كانوا فى الأغلب والأعم يجمعون بين عنصرى الفقه والتصوف، وإن عرفوا بين الناس بأنهم فقهاء لغلبة الأول على الثانى فى مسلكهم . فهل ثمة دليل يشهد بصحة هذ الزعم..؟

كان بين العلماء الذين انتصروا للشعرانى فى محنته وذادوا عنه فى فتنة الأزهر وكتبوا له الأجازات التى تشهد بتدينه : ناصر الدين اللقانى وشهاب الدين المالكى والفتوحى الحنبلى . وقد ترجم لهم فى كتاب له فكانت تراجمهم الشاهد العدل على صحة ما نقول.

وكذلك نقول فى عبد الله الشبراوى الذى انتصر للبيومى فى ثورة العلماء عليه وسعيهم لإلغاء مجالس الذكر التى كان يعقدها لجماعته بالمشهد الحسينى، فقد كان الشبراوى شديد الحب للمجاذيب كما يقول الجبرتى فسعى له عند الباشا والأمراء حتى منع عنه ما كان وشيكا أن ينزل به من حيف.

وكذلك يقال فى كثير من العلماء الذين انتصروا لأهل التصوف ودافعوا عن طريقتهم.

بعض مظاهر حب الفقهاء لأهل التصوف:

ولكن تصوير التصوف فى أذهان الفقهاء على هذا الوجه من الكراهية غير صحيح، فقد كان بعض المتصوفة فى رأى الكثيرين من العلماء موضع حب وتقدير، وكثيرا ما احتفى الأزهر بعلمائه وطلبته بأهل التصوف الذين يفدون لزيارة مصر من أمثال مصطفى البكرى وعبد الغنى النابلسى ـ وقدأشار هذا فى رحلته إلى مظاهر الحفاوة التى كان يستقبل بها بين العلماء وطلاب الأزهر، وكثيرا ما كانوا يتوافدون على دار زين العابدين للتيمن به ويرحبون بزيارته لهم. وإنه ليصف موقفا رائعا ينطق بهاذ الحب فيقول إنه زار الجامع الأزهر، فأقبل عليه العلماء والمدرسون وطلبوا إليه درسا تبركا منه وتيمنا فاعتذر لهم عن ذلك، وقال يصف مبارحته للأزهر «انكبت علينا جميع الطلبة والمجاورين هناك يقبلون يدنا ويطلبون الدعاء مع زيادة الاعتقاد فأخذتنا هيبة ذلك الحال فصرنا نبكى وهم يبكون وندعو لهم حتى خرجنا من الجامع..!!».

ولكن لماذا لم يلق هذه الحفاوة البالغة فى رحاب الأزهر كبار المتصوفة من المصريين ونزلاء مصر المقيمين بها...؟ أليس يدل هذا على أن الفقهاء قد احتفوا بالنابلسى لأنهم لا ينفون عليه نفوذه ولا يضيقون بسلطانه لأنه بقاءه فى مصر محدود الأجل..؟ ألا تكون هذه الخصومة التى ثارت بين العلماء المتصوفة مردها إلى النزاع على حيازة السلطة عند الناس والحكام معا؟

الواقع أن الكثيرين من الفقهاء كانوا يحسنون الظن بأرباب الطرق روى الجبرتى (فى حوادث سنة ١١٩١هـ) عن مفتى الشافعية الشيخ الكفراوى أنه كان يعتقد أن الشيخ صادومه من كبار الأولياء

وأرباب الأحوال والمكاشفات ، فأخذ يعلى من شأنه عند الأمراء (وخصوصا أمام أبي الذهب) حتى راج حاله وطار صيته، واختلى أبو الذهب ذات يوم بمحظيته فإذا على سوأتها كتابة..!! واعترفت له بعد أن هددها بالقتل أن الشيخ صادومه هو الذى كتبها ليدنيها من قلب سيدها، فأمر الأمير بقتله وإلقائه فى النهر، فألقوه فى النهر وصادروا داره فوجدوا فيها تمثالا من القطيفة على هيئة الذكر.. !!

وذكر «المحبى» عن «فايت المصرى» (من أهل القرن الحادى عشر) أنه كان يقيم بباب الجامع الأزهر وكان كبار العلماء يحترمونه ويعتقدون فى ولايته، وكان إذا أقبل لزيارته أحد هؤلاء العلماء وقف بين يديه ، فإن أشار إليه الشيخ فايد بالجلوس جلس وإلا لبث واقفا حتى يأمره بالانصراف أو ينصرف هو من نفسه..!!

وقد لاحظ الأستاذ «فولرز» أن من مظاهر النزاع بين الفقهاء والمتصوفة أن الشعرانى لم يكن له مكان فى الأزهر رغم نباهة ذكره وشيوع اسمه وكونه ممثلا لرجال التصوف فى عصره ورغم أن الكثيرين من الأزهريين ـ علماء وطلبة ـ كانوا يبغضون الشعرانى ولايحبونه على نحو ما أشرنا، إلا أن السبب فى بعده عن الأزهر ربما يرجع إلى رغبته فى الاستقلال بمريديه الذين بلغوا فى زاويته المائتين على ما عرفناه ، فإن الكثيرين من المتصوفة كانوا يقيمون فى المساجد أ ويتخذونها مقرا لتلاوة الأوراد وذكر الله.

موقف المتصوفة من الفقهاء:

كل ما أسلفناه من مظاهر المقاومة النظرية والفعلية منصب على تصوير الموقف الذى التزمه الفقهاء من أرباب الطريق، ولم نشر فيما ذكرناه إلى موقف النزاع أن المتصوفة قد قاموا فيه بدور سلمى بحت، وأن الفقهاء هم الذين قاوموا أرباب الطرق واشتدوا فى حسابهم وأغلظوا فى معاملتهم وتعقبوا آثارهم ورصدوا حركاتهم وطاردوا مريديهم ونالوهم بالأذى فى كل فرصة حانت لهم.م ولعل السر فى هذا : (أ) أن أرباب الطريق هم الذين خرجوا على ظاهر الشرع وأعلنوا هذا دون مداراة فاحتاجوا إلى من ينصرهم من أهل الفقه ويؤيد مسلكهم فى كل مالا يلتئم مع ظاهر الكتاب والسنة ، فاستعانوا بالعلماء فى أخذ الأجازات التى تشهد بالتزامهم قواعد الدين كما فعل الشعرانى فى كتابه «البحر المورود فى المواثيق والعهود» وفى غيره من الكتب. وقد تغنى بذلك فى عدة مواضع من مؤلفاته.

(ب) أن أرباب الطرق فى الجملة يدعون إلى السلام ويبشرون بالحب والصفاء ويطالبون مريدهم باحتمال الأذى والصبر على الاضطهاد أملا فى نيل الثواب ورغبة فى اكتساب الصفاء النفسى الذى يؤدى إلى حضرة الله. فساعدتهم هذه الدعوة على موقفهم السلبى من هجمات العلماء والظاهر أن هذا هو الذى حمل الأستاذ «فولرز» على القول بأن الغلبة كانت على الدوام للفقهاء على أرباب الطريق ولكن إن صح هذا الرأى فى القدم فإنه غير صحيح فيما نظن فى العصر العثمانى. فقد كان الشعب فى صف الفقراء وكان إيمانه بهم أشد بكثير من إيمانه بالعلماء. وما عرفنا عالما كان له من الأتباع الذين يستجيبون لمطالبه وينصاعون لآرائه ويستحيلون أدوات مسخرة لتنفيذ مآربه، وما كان لكبار أرباب الطريق.

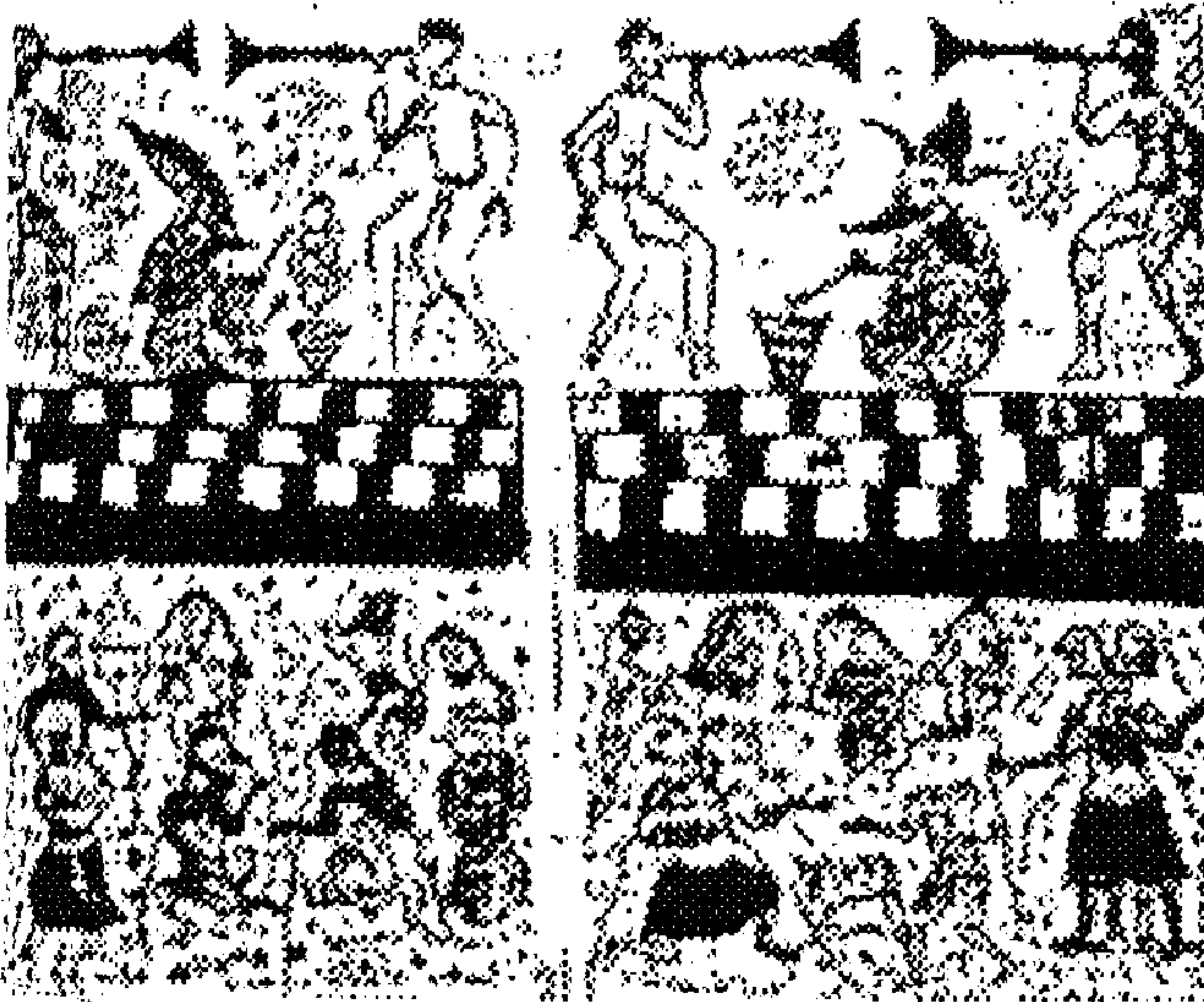
مخطوطات مصرية مصورة من فترة الاحتلال العثمانى*

تحتفظ المكتبات والمتاحف العالمية بمجموعة لا بأس بها من المخطوطات التى نسخت وزوقت فى مصر فى فترة الاحتلال العثمانى، من كتب علمية، يمكن تناول أمثلة من صورها بالدراسة الوصفية والتحليلية بحسب ترتيبها الزمنى، بالاعتماد على ما تحمله من تواريخ نسخها، أو ما تحمله صورها من أساليب فنية على النحو التالى:

١ ـ نسخة مخطوطة من كتاب قانون الدنيا وعجايبها، للشيخ أحمد المصرى محفوظة بمكتبة طوبقابو سراى فى استانبول تحت رقم (ديوان ١٦٣٨ Revan 1638)، مؤرخة بسنة(٩٧٠هـ/١٥٦٣م). تشتمل على مجموعة من الصور العلمية الملونه تعتبر صدى لروح العصر الذى تنتمى اليه هذه الصور. ويلاحظ ان الروح السائدة فى صور هذه المخطوطة هى الروح الشعبية، والتى تتجلى فى التناول المباشر للموضوع، والاقتصاد على الأساسيات وتوزيع العناصر على سطح الصورة وملء جميع الفراغات فى الصورة بلفائف زخرفية نباتية، .

وفى صورة تمثل قصة يأجوج ومأجوج على صفحتين متقابلتين نشاهد صورتين متشابهتين كل صورة تحتوى على قسمين: العلوى منهما يبين طبالا جالسا وزمارين واقفين، يليه القسم السفلى حيث نشاهد منظرا لمخلوقات غريبة، ويفصل بين القسمين فى الصورتين جدار سميك. ومناظر هذه الصورة توضح قصة الرجل الصالح (ذو القرنين) وقوم يأجوج ومأجوج التى جاءت فى القرآن الكريم فى سورة الكهف.

وهكذا نجد ان رسوم المنظر السفلى تعبر عن قوم يأجوج ومأجوج، فرسم المصور مخلوقات شريرة غريبة الشكل عبارة عن رجال برءوس مزدوجة ورجال بدون أفواه، وآخرين بآذن كبيرة، كما نشاهد ذلك الرجل الذى رسم بلا رأس وقد برز وجهه من بين كتفيه. ونعتقد بأن هذه الرسوم ليأجوج ومأجوج تعبر عن فكرة المصور التى تخيلها عن هؤلاء الأقوام وأشكالهم.



ولقد وفق المصور فى رسم السور السميك الذى حبس خلفه يأجوج ومأجوج الذى يتكون من أربعة صفوف أفقية من الحجر وليميز بينها رسم كل صف بلون، كالأرجوانى، والبنى الداكن، والأزرق، والأصفر، ورسمت بقية القصة فى المنظر العلوى، ذلك أن يأجوج ومأجوج ستظل محبوسة وراء هذا السور المنيع، ممنوعة من تدمير

* الخصائص الفنية لمدرسة التصوير فى مصر فى العصر العثمانى. د. أبو الحمد محمود فرغلى المجلة التاريخية المصرية . المجلد ٣٨ ص ١٧٧/ ٢٣١.

العالم حتى يأتى وعد الله . ولقد اكتفى المصور بالتعبير عن مشهد النفخ فى الصور برسم رجلين ينفخان فى المزمار (البوق) ويجلس بينهما شخص ثالث يقرع على الطبلة.

ويلاحظ فى الصورة أنها تكشف عن قوة فطرية فى التصميم، وعن إهمال للتفاصيل غير الأساسية التى تشهد انتباه المشاهد للصورة. كما أن رسوم الأشخاص جاءت مسطحة تماما، وقد ملئت خطوطها الأولية بلون أو أشكال مسطحة. هذا فضلا عن الطابع الزخرفى الذى يتجلى فى الزخارف اللولبية الحلزونية، قوامها فرع نباتى يحتل كل الفراغات الموجودة بين الرسوم ، وكذلك فى الألوان الزاهية البراقة التى نفذت بها رسوم الصورة وأسلوب توزيعها.

٢ ـ نسخة مخطوطة من كتاب عجائب المخلوقات للقزوينى محفوظة فى مكتبة رضا رامبور مؤرخة بسنة (٩٧٩هـ/ ١٥٧١م) تزينها مجموعة من الصور الملونة التى تتفق من حيث أساليبها الفنية مع صور المخطوطة السابقة من كتاب قانون الدنيا وعجائبها للشيخ أحمد المصرى، وهى تعد من روائع التصوير المصرى فى مصر إبان العصر العثمانى.

٣ ـ نسخة مخطوطة من كتاب عيون الحقايق وإيضاح الطرايق محفوظة بدار الكتب المصرية فى القاهرة تحت رقم سجل (١٦٨ غيبيات بالخزانة التيمورية) مؤرخة بسنة (١٠٨٣هـ/ ١٦٧٢م) تحتوى على مجموعة من الصور الملونة، تزينها رسوم



آدمية وحيوانية وطيور وحشرات ، فضلا عن رسوم الكائنات الخرافية، وتمتاز هذه الصور بخصائص فنية منها البساطة والاتقان، على الرغم من وضوح الطابع الشعبى فيها.

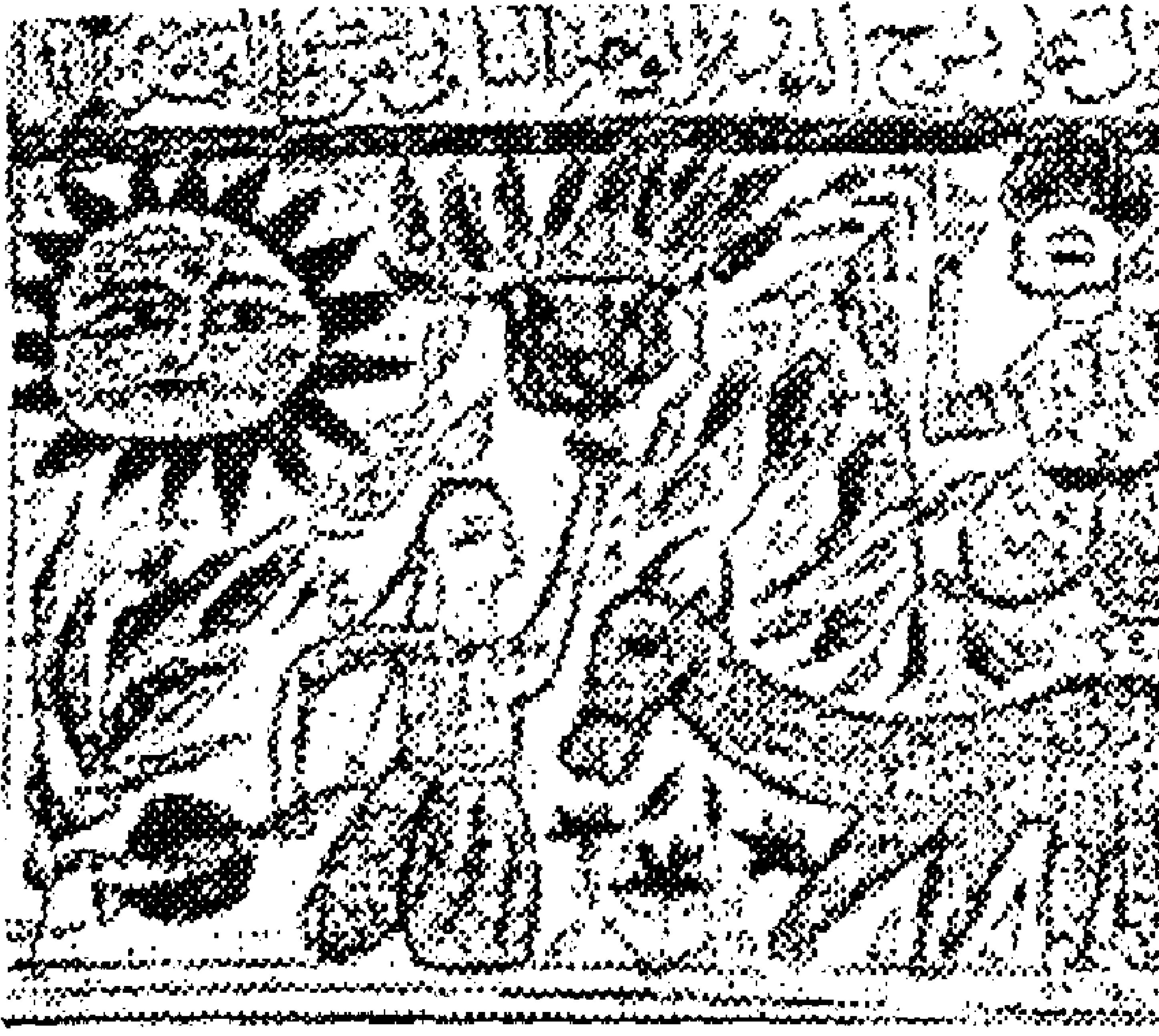
٤ ـ نسخة مخطوطة من كتاب عجايب المخلوقات للقزوينى محفوظة بالمكتبة الوطنية فى ميونخ تحت رقم (مادة عرب ٤٦٣) تزينها مجموعة من الصور العلمية الملونة التى تعد مثالا نموذجيا لاستمرار الأساليب الفنية لمدرسة التصوير التى استمرت فى مصر خلال الاحتلال العثمانى، وبخاصة الميل الواضح نحو الفن الشعبى. وفى إحدى صور هذه المخطوطة تمثل برج الثور فى الفلك حرص المصور على رسم الثور كأحد الأبراج الفلكية بأسلوب زخرفى، ذلك أنه اكتفى برسم الجزء الأمامى من الثور على عكس المعتاد من رسم الحيوان كاملا فى كثير من صور البروج الفلكية الإسلامية الأخرى.

وانتشرت فى المخطوطات العربية المنسوخة من كتاب «مجموعات النجوم وصور الكواكب الثابتة» لأبى الحسن بن عبد الرحمن بن عمر الصوفى. و(أقدم نسخة محفوظة فى مكتبة طوبقا بوسراى فى

استانبول تم نسخها فى سنة (٥٢٦هـ/١١٣٠-١١٣١م) حوالى ست وأربعين صورة ملونة تشتمل على البروج والكواكب. وزيادة من المصور فى إضفاء الطابع الزخرفى رسم الثور برأس كبير مشوه قليلا بعينين حزينتين تتطلعان إلى اللامحدود، وهى أقرب إلى عيون الإنسان. كما رسم هذا الرأس فى وضع المواجهة باللون البنى الداكن، فى حين رسم الجسم صغير الحجم باللون البرتقالى متقنة التصميم.

٥ - نسخة مخطوطة عن التنجيم بدون عنوان وبدون تاريخ محفوظة فى دار الكتب المصرية بالقاهرة.. ينسبها الدكتور سعد الخادم إلى مصر حوالى القرن (١١هـ/ ١٧م) فى حين ينسبها الدكتور حسن باشا إلى فترة الاحتلال العثمانى حوالى القرن (١٢هـ/١٨م) وتشتمل هذه المخطوطة على صور تمثل الابراج الفلكية وتنبؤاتها، وتتشابه من حيث موضوعاتها مع صور مخطوطة من كتاب فى التنجيم لأبى معشر البلخى، تنسب إلى مصر، حووالى القرن (٧ هـ/ ١٣م) . ويلاحظ فى صور مخطوطة التنجيم الخاصة بفترة الاحتلال العثمانية أن أساليبها الفنية لا تخلو من طابع الجدة والبراعة فى التناول المباشر للموضوع وفى صورة من هذه المخطوطة تمثل برج الثور من الوجه الثانى من نظر القمر تتجلى الخصائص الفنية المميزة للتصوير المصرى فى فترة الاحتلال العثمانى، وذلك من حيث غلبة الطابع المصرى فى رسم الثور الذى لولا رسم القرنين لاعتقد المشاهد أنه يمثل حيوانا آخر غير الثور، وكذلك فى رسم الأغصان والفروع النباتية التى تملأ الفراغات فى الصورة.

وبمقارنة هذه الصورة بأخرى تمثل برج الثور فى الفلك من مخطوطة عجائب المخلوقات



للقزوينى، تعود إلى مصر حوالى القرن (١٢هـ/١٨م) - السالفة الذكر - يمكن ارجاع صور هذه المخطوطة إلى حوالى نهاية القرن (١٢هـ/١٨م) وبداية القرن (١٣هـ/١٩م).

وذلك لما يسود صورها من طابع شعبى وأسلوب توزيع العناصر على السطح، بدون أن يخفى الرسوم البسيطة للأشخاص والحيوانات. هذا فضلا عن البساطة والتسطيح فى رسم المزهرية والقنينة التى تحملها المرأة فى الصورة.

٦ - نسخة مخطوطة من كتاب الدر المنظم المسمى بالجفر الصغير لابن طلحة، محفوظة فى دار الكتب المصرية فى القاهرة بالخزانة التيمورية مؤرخة بسنة ١٢٧٧هـ = ١٨٦٠م، وتشتمل على مجموعة من الصور الملونة التى تضم رسوما ادمية كثيرة وتمتاز بإتقانها من حيث الرسم والتلوين ولكن يلاحظ أنها تدخل ضمن الفن الشعبى التلقائى . ومن ثم يمكن مقارنتها من حيث الأساليب الفنية مع صور مخطوطة التنجيم - حوالى نهاية القرن (١٢هـ/١٨م) وبداية القرن (١٣هـ/١٩م) - من حيث البساطة والتسطيح، والميل إلى طابع الفن التلقائى. ومن ثم فإن صور

مخطوطة الجفر الصغير لابن طلحة تعطينا فكرة واضحة عن استمرار فن التصوير المصرى فى ظل الاحتلال العثمانى واستمراره على هذا الاسلوب خلال النصف الثانى من القرن (١٣ه/١٩م) بعد أن أصبحت مصر تحت حكم أسرة محمد على باشا.

مما سبق يتضح لنا مدى التعاش فن التصوير وتزويق المخطوطات خلال فترة الاحتلال العثمانى فى مصر منذ القرن (١٠هـ/ ١٦م)، يؤيد ذلك تلك الأمثلة من المخطوطات العلمية المزوقة بالصور الملونة. هذا فضلا عن المخطوطات المزينة بالرسوم من كتب الجغرافية والطب. وكذلك بعض الأحجبة والطلاسم السحرية التى عثر عليها فى الفسطاط ، وتشتمل على رسوم ذات طابع شعبى تلقائى.

إلى جانب هذه المخطوطات توجد عدة مخطوطات دينية مسيحية مصورة من نفس فترة الاحتلال العثمانى تؤكد على ازدهار نسخ وتزويق المخطوطات الدينية المسيحية فى مصر، وحسبنا فى ذلك ما سجله أبو صالح الأرمنى فى تاريخه بما يفيد أن بطريرك الأرمن فى عام (٥٦٨هـ/١١٧٢م) قد توجه من مصر إلى بيت المقدس وصحبته خمسة وسبعون كتابا من الكتب الإلهية، أحدها فيه الأناجيل الأربعة، مصور ومذهب بعجائب السيد المسيح. وتجدر الإشارة إلى أن اللغة العربية قد دخلت فى كتابة المخطوطات الدينية المسيحية فى مصر ، حيث وصلت إلينا مخطوطات كتبت نصوصها بنهرين: باللغة العربية، واللغة القبطية، ولعل أروع مثال منها نسخة مخطوطة من كتاب الرسايل وأعمال الرسل، نسخها غبريال الراهب فى سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) مزوقة بالصور الملونة.

وأخذت اللغة العربية فى الانتشار أكثر فأكثر حتى أصبحت بعض الكتب الدينية المسيحية فى مصر تكتب بها ومن أمثلة ذلك نسخة من مخطوطة من كتاب مختصر تفسير رويا يوحنا الإنجيلى، نسخها المعلم جرجس الحبار فى سنة (١١٥٣هـ/ ١٧٤١م) ولقد وصلت إلينا من فترة الاحتلال العثمانى فى مصر مجموعة من المخطوطات المصرية التى نسخت وزوقت من كتب دينية مسيحية مثل البشائر الاربع ووثائق تقليد نظارة الأديرة، وغيرها الكثير والكثير، حتى أن معظم الأديرة والكنائس بمصر تحتفظ بمجموعات من المخطوطات المسيحية المزوقة بالصور الملونة ترجع الى هذا العصر.

ويمكن تناول بعض صور المخطوطا الدينيسة المسيحية اعتمادا على ترتيبها الزمنى حسبما ورد بها من تواريخ نسخها، أو تحويه من أساليب فنية:

١ ـ نسخة من كتاب دينى مسيحى محفوظة فى المتحف القبطى بالقاهرة، مؤرخة بسنة (١٠٤٥ه/ ١٦٣٥م) كتب متنها باللغتين العربية والقبطية، أى أن صفحات المخطوطة تنقسم كل منها إلى نهرين (قسمين) الأيمن يحتوى على النص باللغة العربية، والنهر (القسم) الأيسر يحتوى على نفس النصر باللغة القبطية. وهذه المخطوطة محلاة بالتذهيب والتلوين، حيث يزخرف أعالى الصفحات صلبان تشتمل على رسوم الزخارف النباتية تتكون من أغصان وفروع مورقة متماوجة. ورسمت فى الهوامش الخارجيةرسوم حيوانات وطيور بأسلوب محور، يلاحظ فيها الدقة والإتقان.

٢ ـ وثيقة على الورق بتقليد المعلم جرجس الجوهرى، نظارة دير الملاك القبلى، من قبل الأنبا يؤنس، محفوظة فى المتحف القبطى بالقاهرة، ومؤرخة بالسابع من شهر مسرى سنة (١٤٨٩) للشهداء يوافق سنة (١١٧٨هـ/١٧٧٣م) .. ويزين هذا التقليد صورة ميخائيل بما فيها من طابع مسيحى ، يحيط به مسحة من الاحترام والوقار، بالإضافة إلى بعض الزخارف، قوامها صورة لصليبين ومحراب ووردة زخرفية.

٣ ـ نسخة مخطوطة من كتاب مختصر تفسير رؤيا يوحنا الإنجيلى الذى يسمى الأبوكالسيس، أو أبو غالسيس يسوع المسيح وهى كلمة يونانية -Apok) alupsis) تعنى إزاحة الحجاب أو كشف أو إعلان يسوع المسيح. كان قد أوقفت وحبست على دير الست الطاهرة القديسة دميانة بترب الزعفرانة. تم نسخها على يد المعلم جرجس الحبار وشوهها أى: زوقها بالصور ابراهيم بن سمعان فى يوم الخامس والعشرين من شهر طوبة سنة (١٤٥٧) للشهداء، أى ما يوافق سنة (١١٥٣هـ/ ١٧٤١م) وتحتوى هذه المخطوطة على ست عشرة صورة ملونة بالألوان الزاهية البراقة، تشرح بعض قصص الرؤيا الواردة بمتن المخطوطة، وما يتصل بها من رموز دينية.

ويلاحظ أن هذه الصور بوجه عام من حيث التكوين الفنى والتصميم العام تميل نحو الأسلوب الهندسى، ذلك أن المصور المصرى (ابراهيم بن سمعان) الذى قام برسم صورها اعتمد على الخطوط الرأسية أو الأفقية فى توزيع رسوم الأشخاص ، وبخاصة عند توزيعهم فى صفوف منتظمة، ومثال ذلك صورة تمثل رؤيا العرش



صورة تمثل الآباء الأربعة. مخطوطة الرسائل وأعمال الرسل.

السماوى فى وسطه الأربعة المخلوقات الحية، وحوله يجتمع أربعة وعشرون قسيسا، وصورة ثانية تمثل رؤيا خلاص الشيطان من محبسه وفكه لوثاقه وجمعه ليأجوج ومأجوج ليثير حربا، ولكن تنزل نار من السماء من عند الله فتأكلهم جميعا. ومن ثم نجح ابراهيم بن سمعان فى التعبير عن الأحاسيس الدينية بقوة وبساطة بدون تفاصيل كثيرة ومثال ذلك صورة تمثل رؤيا الشيطان يركب الفرس الأحمر وصورة تمثل رؤيا حبس الشيطان مقيدا بالسلاسل لمدة ألف سنة فى جب عميق.. ومن ثم نجده قد وفق إلى حد كبير فى الالتزام بالنص الوارد فى المخطوطة بشأن قصة الرؤيا التى تشرحها كل صورة ، ولعل مرد ذلك أنه يرسم صورا دينية ذات موضوعات تشرح بعض المسائل فى علم اللاهوت. وعلاوة على ذلك فإن صور هذه المخطوطة رسمت بحسب الأساليب الفنية للتصوير المصرى التلقائى



صورة تمثل صعود السيد المسيح إلى السماء. مخطوطة الرسائل وأعمال الرسل. متحف الفن القبطى بالقاهرة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)

فى ذلك الوقت (القرن ١٢هـ/ ١٨م).

ويمكن إلقاء الضوء على بعض نماذج من صور هذه المخطوطة بالدراسة الوصفية والتحليلية، مع التركيز على إبراز الخصائص الفنية لمدرسة التصوير المصرية فى ظل الاحتلال العثمانى. والمثال الأول قوامه صورة تشرح رؤيا وصف المسيح على هيئة ابن إنسان يجلس على كرسى العرش فى وضع المواجهة بلحيته وشعر رأسه الأبيض ويرتدى قميصا أبيض اللون، ويتمنطق بمنطقة ذهب، ويخرج من فمه، ما يشبه السيف. ويحيط به سبع منائر ترمز إلى التعاليم السبعة المضيئة فى الكنايس. رسمت على هيئة شماعد مضئة اسطوانية الشكل. ونجد بأسفل الكرسى رسما لشخص سقط طريحا على الارض من هول المفاجأة، وربما يرمز به إلى يوحنا الإنجيلى، ويلاحظ الاهتمام برسم الوجه الآدمى.



صورة تمثل رؤيا وصف المسيح على هيئةابن إنسان يجلس على كرسى العرش.مخطوط مختصر رؤيا يوحنا الانجيلى (الابوكالسيس) متحف الفن القبطى بالقاهرة (١١٥٣هـ/١٧٤١م)

وفى صورة أخرى تشرح رؤيا العرش السماوى فى وسطه رسم الأربعة المخلوقات الحية، وحوله يجتمع أربعة وعشرون قديسًا نشاهد المسيح بلحيته الكثة ، وشعر رأسه الأبيض ، يجلس على كرسى من الذهب، فى وسطه رسمت أربعة مخلوقا هى: الأسد، والثور، والإنسان، والنسر الطائر.. ذلك أن الأسد حيوان مفترس، وشهرته تغنى عن وصف، وهو ذو طلعة مهيبة، وعرف منسول، وحواجب شعثاء، وأسنان لامعة ، وصورته تدل على الجرأة وعدم الخوف، يضرب به المثل فى الشجاعة، ويعبر

عن الهيبة الملكية التى للمسيح، ويرمز الثور إلى الصبر والقوة، ويظهر الثور والحمار معا فى صور المسيح وقد اتخذ الثور فى فجر المسيحية رمزا للمسيح الحقيقى، ويستعمل للدلالة على كل الذين يحملون النير بسكوت من أجل الآخرين. فى حين يرمز النسر أو العنقاء إلى القيامة، ومنشأ هذا الاعتقاد هو أن النسر يجدد ريشه فى وقت معين من السنة، كما يتجدد شبابه ويطير فى السماء تجاه الشمس، ثم يغطس فى الماء. ولقد نجح المصور فى توزيع رسومه بحسب المساحة التى أتيحت له مراعيا التوازن والتماثل فى صورته.

وفى صورة من نفس المخطوطة تشرح رؤيا الشيطان (الدجال) يركب الفرس الأحمر الذى أعطى له لكى ينزع السلامة من كل الارض. نشاهد كائنا خرافيا على هيئة مركبة تجمع بين شكل إنسان وطائر، رأسه ملتهب، ويلتف ثعبان حول وسطه، ويمسك بلجام الفرس الأحمر فى يده اليمن، ويمسك بسيف طويل بيده اليسرى، وتحيط النيران به من كل جانب. ويعد الفرس أو الحصان قديما رمزا للشمس، كما أن الثور يرمز الى القمر. ويرمز الحصان أيضا إلى الشهوة. من ثم فهو يرمز فى هذه الصورة إلى شهوة سفك دماء الشهداء وتتشابه مع هذه الصورة صورة أخرى من نفس المخطوطة تشرح رؤيا الجراد الذى وقع على الأرض وهو ذا وجوه آدمية وأجسام خيول مجنحة ذات أذناب طويلة تطير فى السماء لتهبط إلى الأرض المعمورة التى عبر عنها المصور ابراهيم بن سمعان عن طريق رسم خلفية معمارية لمجموعة من العمائر بأسفل الصورة، ذات أسطح جمالونية الشكل وطريق على ضفة نهر، رسمت مياهه باللون الازرق.



صورة تمثل رؤيا العرش السماوى فى وسطه الأربعة مخلوقات الحية. مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الإنجيلى (الأبوكالمسيس).

وتجدر الإشارة إلى أن الجراد فى هذه الصورة يرمز إلى الشر الذى وقع على اهل الأرض، كما ورد بمتن المخطوطة.

وفى صورة من المخطوطة ـ التى نحن بصددها ـ تشرح رؤيا حبس الشيطان مقيدا بالسلاسل لمدة ألف سنة فى جب عميق نشاهد ملاكًا مجنحًا تحيط برأسه هالة مستديرة باللون الذهبى، وله جناحان يخرجان من الكتفين باللون الأخضر، ويرتدى جلبابا أحمر اللون، وهو يمسك بسلاسل أوثق بها الشيطان وألقاه فى إناء واسع، داخله مظلم



صورة تمثل رؤيا حبس الشيطان مقيدا بالسلاسل لمدة ألفعام فى جب عميق. مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الإنجيلى (الأبوكالمسيس).

وخارجه رسم باللون الأزرق، فى حين يحاول الشيطان جاهدا الدفاع عن نفسه، ولكنه هوى فى الجب ومعه بعض الدخان الاسود اللون. وتجدر الإشارة إلى أن الأجنحة ترمز إلى الرسالة الإلهية، ولهذا السبب رسمت الملائكة ورؤساء الملائكة بأجنحة فى حين يوصف كل شىء زائل بالدخان، لأنه يرتفع فى الهواء ويختفى، كما يرمز به إلى تفاهة الحياة فى هذه الدنيا وعدم جدوى السعى وراء المجد الزائل الباطل فى الأرض.

ومن حيث رسم الملائكة المجنحة ، فقد قطعت هذه الرسوم شوطا كبيرا من حيث الدقة والإتقان امتزجت فيها العديد من الأساليب الفنية المختلفة: ولقد ظهر الملاك المجنح فى الفن القبطى متأثرا إلى حد كبير بالفن المصرى الفرعونى، مثال ذلك قطعة من النسيج محفوظة بالمتحف المصرى القبطى بالقاهرة تعود إلى حوالى القرن الخامس الميلادى، وتحتوى على رسم لملاك مجنح فى حركة طيران ومثال آخر عبارة عن نقش على الحجر بالحفر الغائر يعود إلى حوالى القرنين الخامس والسادس الميلاديين، يمثل ملاكين مجنحين يحملان إكليل النصر. وأما فى الفن الإسلامى فلقد انتشر رسم الملاك المجنح ، ونذكر من أمثلته على التحف التطبيقية المتنوعة ذلك الرسم المنقوش على الرخام من عصر السلاجقة، ويعود إلى حوالى القرن (٦هـ/١٢م) يمثل ملاكا مجنحا.

وآخر مثال من مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الانجيلى صورة تشرح رؤيا كنيسة جديدة، وهى الكنيسة المقدسة، المملوءة سلاما بعد الخلاص من الشيطان وأعوانه ونشاهد فى الصورة رسما لكنيسة عبارة عن قبة مركزية كبيرة دائرية الشكل ، ذات ألوان متعددة، مثل الأخضر والأحمر والبنفسجى، تنتهى من أعلى بقبة عبارة عن صليب رسم باللون الذهبى.

وعلى جانبى القبة المركزية الكبيرة توجد قباب صغيرة رسمت بنفس أسلوب القبة المركزية، ويتقدم الكنيسة بائكة من ثمانية عقود نصف دائرية ، يتدلى من كل عقد ما يشبه المشكاة للإضاءة والإنارة، ولعل هذه العقود تمثل أبواب الكنيسة الكبيرة.. على كل باب لؤلؤة كثيرة الثمن من أجلها تبيع كل شىء لتقتنيها. وبأسفل الكنيسة نهر

مياهه زرقاء اللون، وعلى ضفتى النهر توجد رسوم شجيرات باللون الأخضر، ذات زهور حمراء اللون.

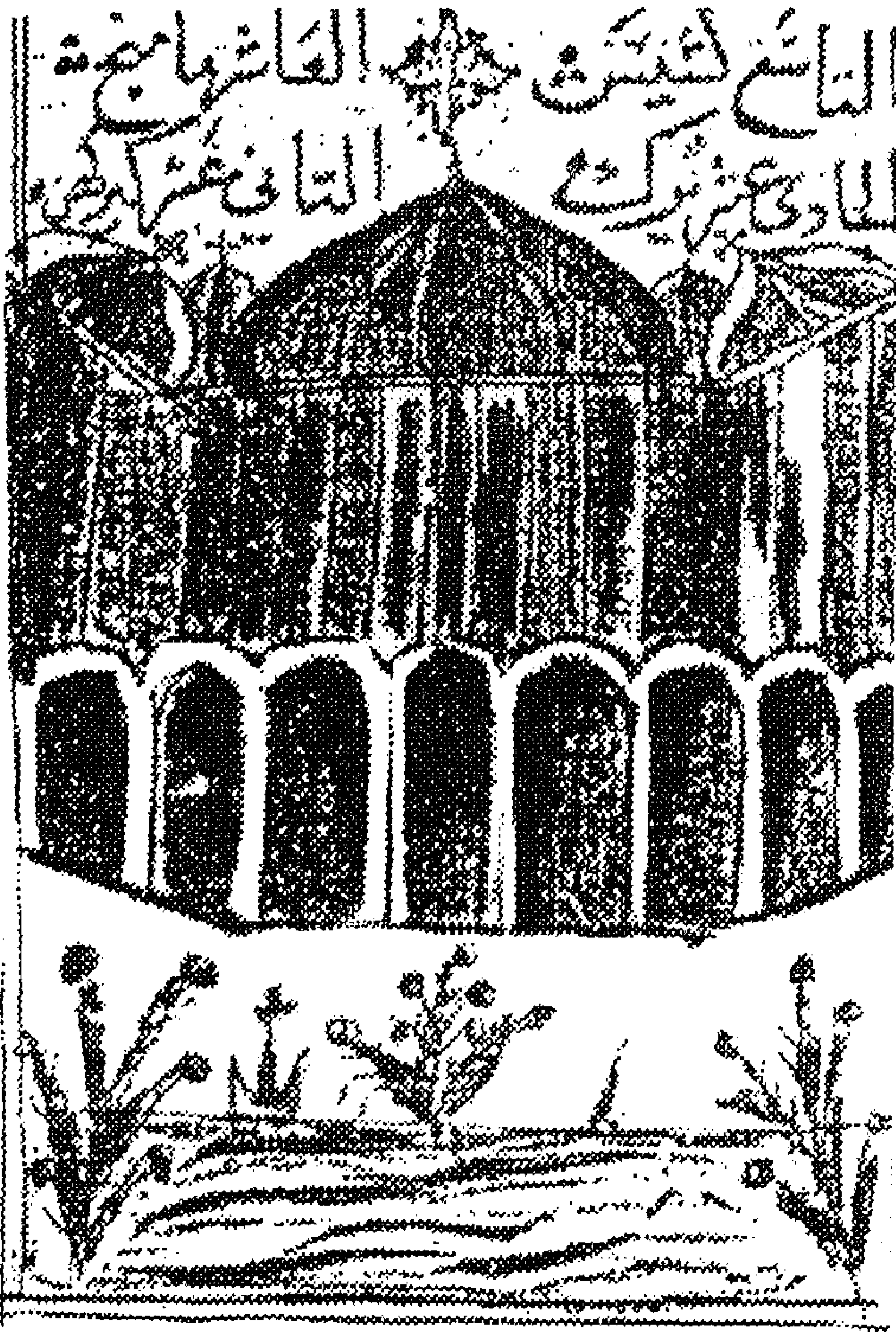
ولقد حرص المصور ابراهيم بن سمعان فى رسم الكنيسة على مراعاة المنظور بعض الشيء، فرسم الوحدات المعمارية لهذه الكنيسة فى صفوف تتراجع صوب عمق الصورة إلى حد كبير. هذا بالإضافة إلى حد كبير على رسم قبة مركزية كبيرة فى وسط الرسم، وعلى جانبيها قباب صغيرة.

وجدير بالذكر أن رسم هذه الكنيسة فى الصورة التى نحن بصددها انعكس على رسوم الأماكن المقدسة الإسلامية، وبخاصة المسجد الحرام، والمسجد النبوى الشريف، التى انتشرت رسومها على البلاطات الخزفية فى ظل الاحتلال العثمانى،

ومثال ذلك بلاطة من الخزف العثمانى فى مصر عليها صورة الكعبة المشرفة، وتحمل توقيع الخزاف أحمد فى سنة (١٠٧٤هـ/١٦٦٣م) محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة وكذلك يحتوى سبيل عبد الرحمن كتخدا بشارع المعز لدين الله بالقاهرة على بلاطات من القاشانى تغطى جدران حجرة السبيل، من بينها رسم صورة الكعبة المشرفة على هيئة رسم ابراهيم ابن سمعان. ولقد شيد هذا السبيل الأمير عبد الرحمن كتخدا بن حسن جاويش سنة (١١٥٧هـ/١٧٤٤م).

الخصائص الفنية

امتاز فن التصوير فى مصر فى ظل الاحتلال العثمانى بخصائص فنية أمكن تتبعها واستخلاصها من خلال دراسة الأمثلة من صور المخطوطات



صورة تمثل رؤيا كنيسة جديدة هى الكنيسة المقدسة المملوءة سلامًا بعد الخلاص من الشيطان وأعوانه. مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الإنجيلى (الأبوكالمسيس) متحف الفن القبطى بالقاهرة (١١٥٣هـ/ ١٧٤١م).

العلمية والدينية المسيحية التى نسخت وزوقت فى مصر فى هذا العصر، ولعل من أهم هذه الخصائص الفنية مايلى:

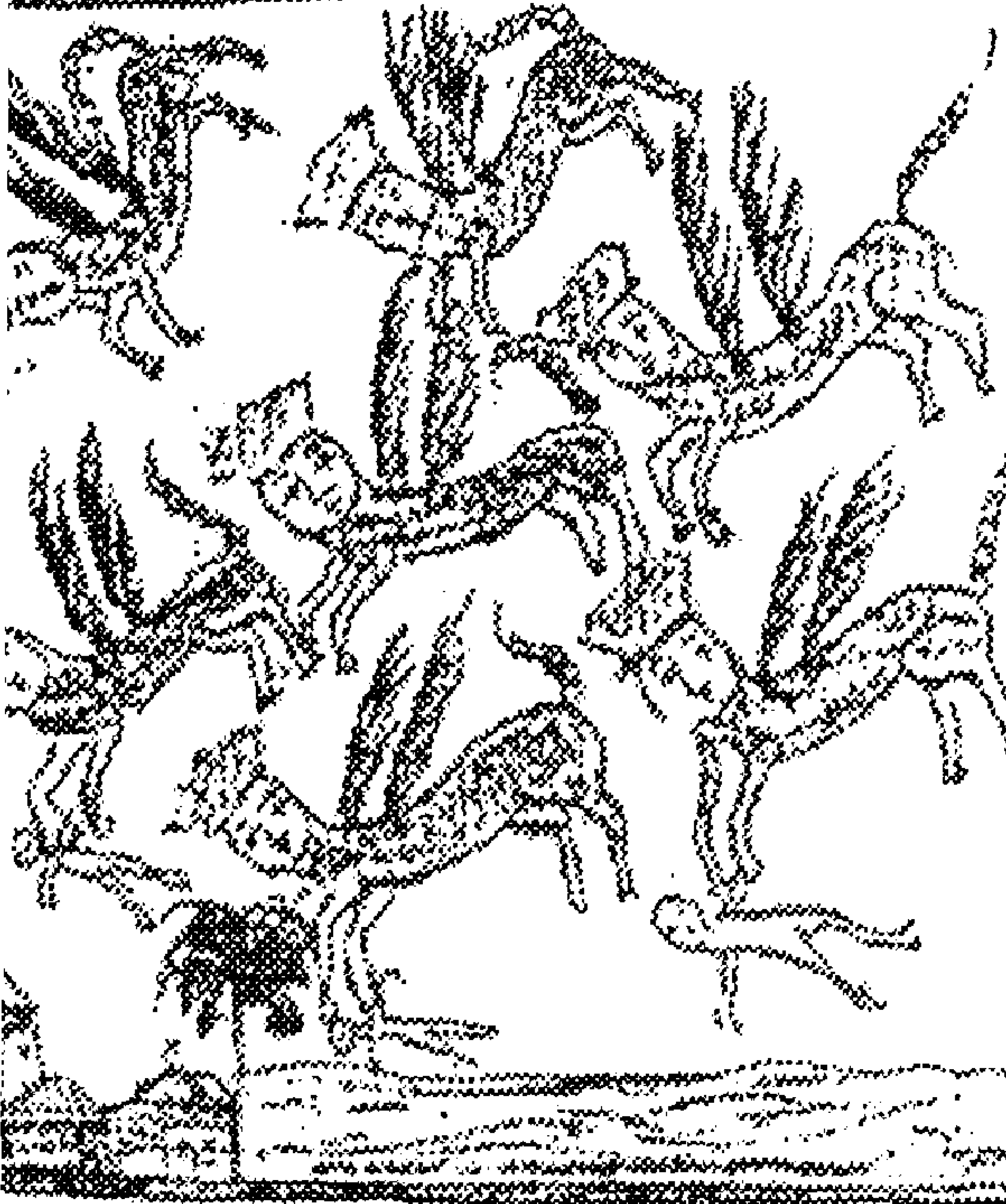
١ ـ الطابع المحلى المصرى، الذى يتجلى فى إظهار السحنة المصرية فى رسوم الأشخاص ذوى العيون الواسعة، أو اللوزية الشكل، التى يختص بها

سكان مصر وبخاصة فى صور مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الانجيلى (١١٥٣هـ/ ١٧٤١م) . ويتجلى هذا الطابع المحلى المصرى أيضا فى الميل إلى الروح الشعبية فى رسوم المخطوطات، والتى تمثلت فى التناول المباشر لموضوع الصورة، والاقتصار على الأساسيات دون الإغراق فى التفاصيل، وتوزيع العناصر على سطح الصورة، وملء الفراغات بلفائف زخرفية نباتية، وبخاصة فى صور المخطوطات العلمية السابق دراستها، مثل مخطوطة قانون الدنيا وعجائبها (٩٧٠هـ/١٥٦٣م). ومخطوطة عجائب المخلوقات للقزوينى (٩٧٩هـ/١٥٧١م). وأخرى من نفس الكتاب ترجع إلى حوالى القرن (١٢هـ/١٨م) ، ومخطوطة من كتاب فى التنجيم بدون عنوان ترجع الى حوالى نهاية القرن (١٢هـ/١٨م) وبداية القرن (١٣هـ/١٩م)

٢ ـ ظهور الأساليب الفنية التى تعتمد الاسلوب الهندسى و الخطوط الرأسية أو الأفقية فى توزيع رسوم الأشخاص فى صفوف منتظمة وكذلك فى اهمال التفاصيل غير الأساسية ، والتركيز على موضوع الصورة، وتلك القوة التلقائية التصميم.

٣ ـ ظهور الأساليب الفنية التى تعتمد على رسم الأغصان والفروع النباتية ذات الأوراق والزهور بأسلوب قريب من الطبيعة إلى حد كبير. وكذلك فى رسوم الكائنات الخرافية المركبة مثل الشياطين برسومها القاسية المرعبة ورسم البراق وأبى الهول وهو عبارة عن وجه آدمى وجسم حيوان مجنح قد يكون فرسا أو أسدا.

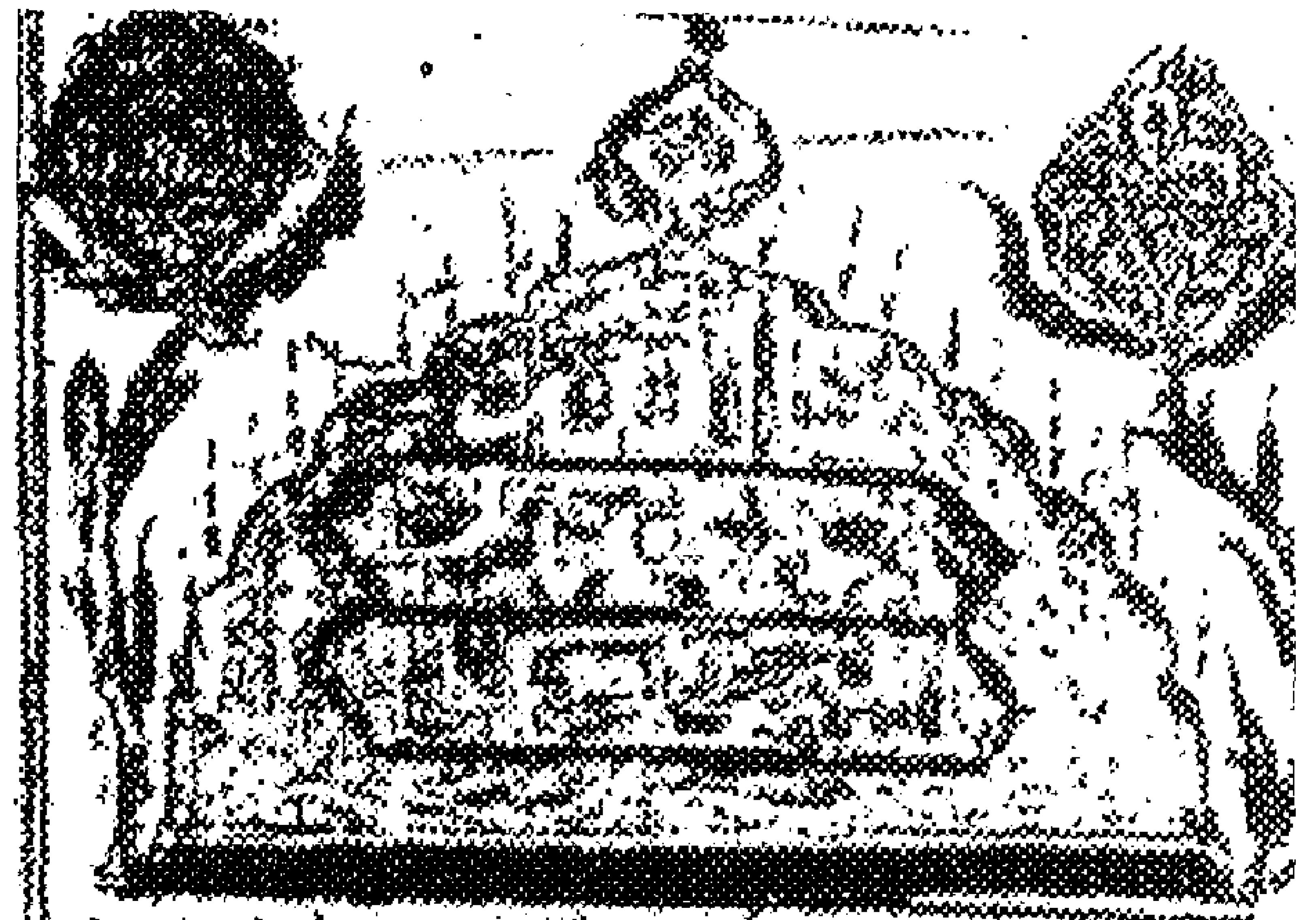
٤ ـ جاءت الألوان التى استخدمها المصور فى تنفيذ رسوم المخطوطات فى مصر فى ظل الاحتلال العثمانى براقة وزاهية، تبرهن على الطابع الزخرفى



صورة تمثل رؤيا الجراد الذى وقع على الأرض وهو كشبه الخيل تركض فى القتال. مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الإنجيلى (الأبوكالمسيس) متحف الفن القبطى بالقاهرة (١١٥٣هـ/ ١٧٤١م).

الذى يسود صور هذه المخطوطات ، وعلى مهارة المصور الفنية فى تنسيقها بتقابل وتضاد، إلى جانب بعض الدرجات من اللون الواحد، نفذها بأسلوب رائع.

ولعل من أهم الألوان التى انتشر استخدامها هو اللون الأحمر ، والأصفر والأخضر والبنى، فضلا عن الأبيض، والأسود ، والبرتقالى ، والذهبى الذى استخدم بكثرة فى رسوم صور مخطوطة تفسير

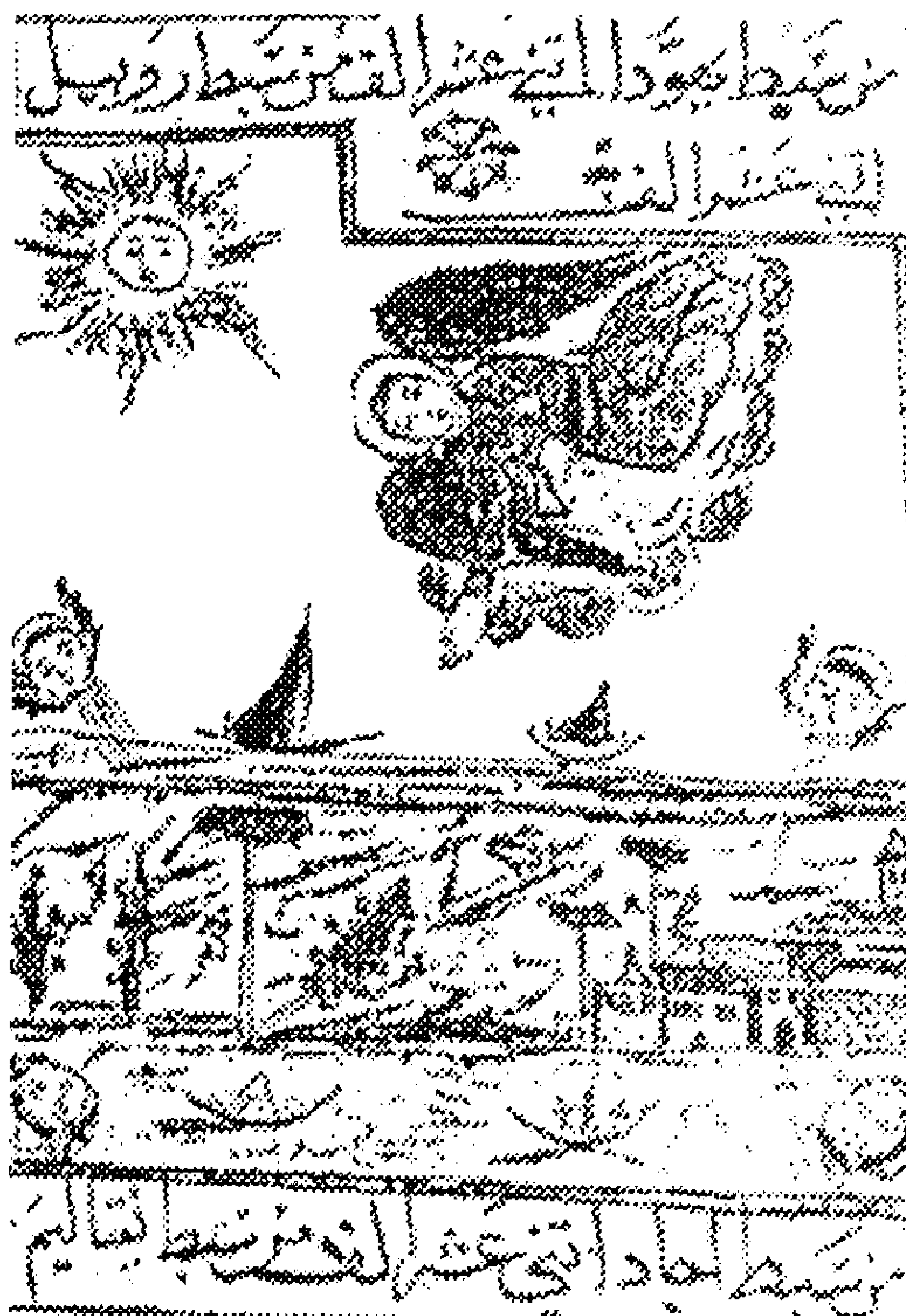


صورة توضح صفحة العنوان. مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الإنجيلي (الأبوكالمسيس) متحف الفن القبطي بالقاهرة (١١٥٣هـ/ ١٧٤١م).

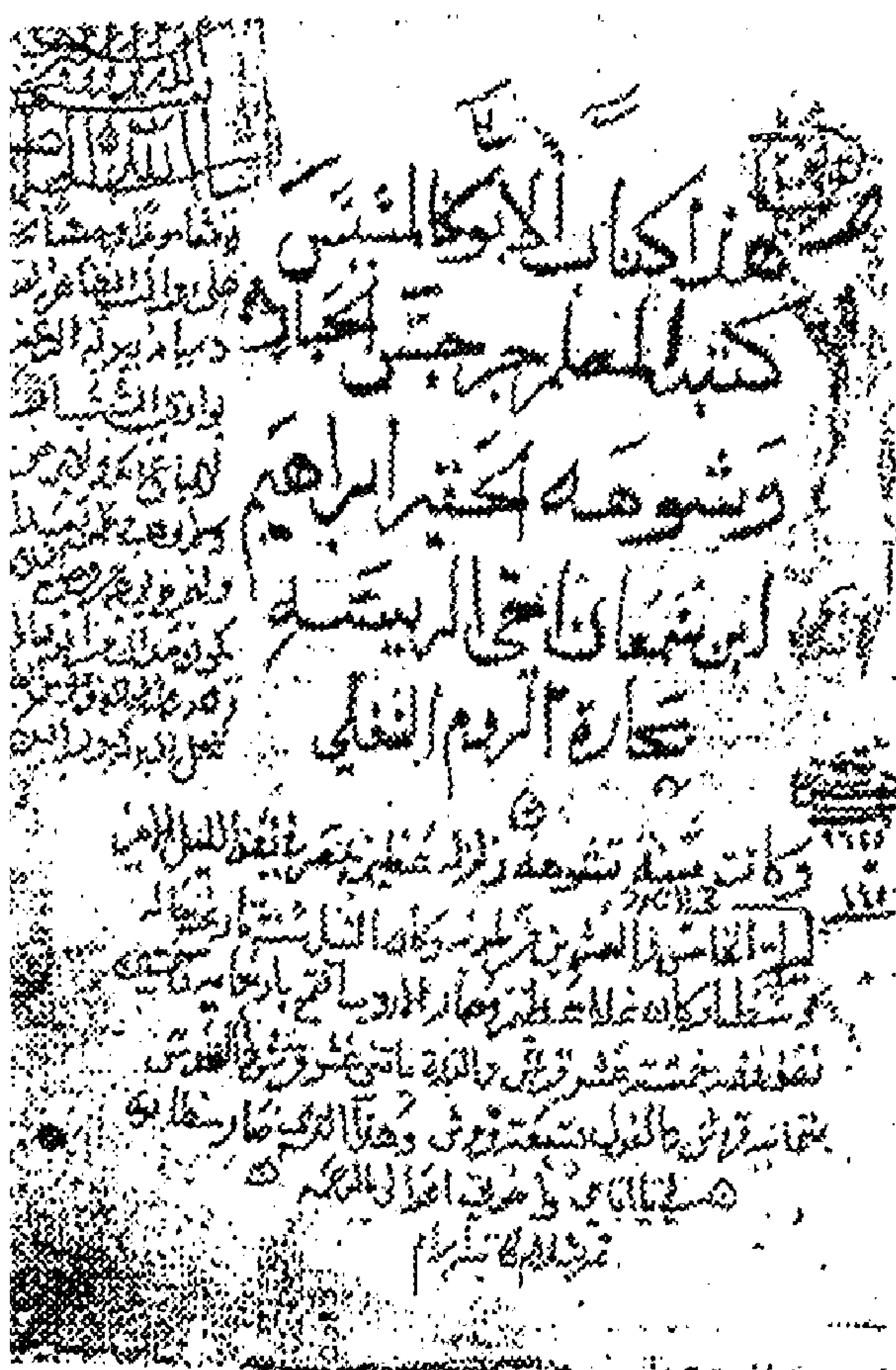
مختصر رؤيا يوحنا الإنجيلي (١١٥٣هـ/١٧٤١م).



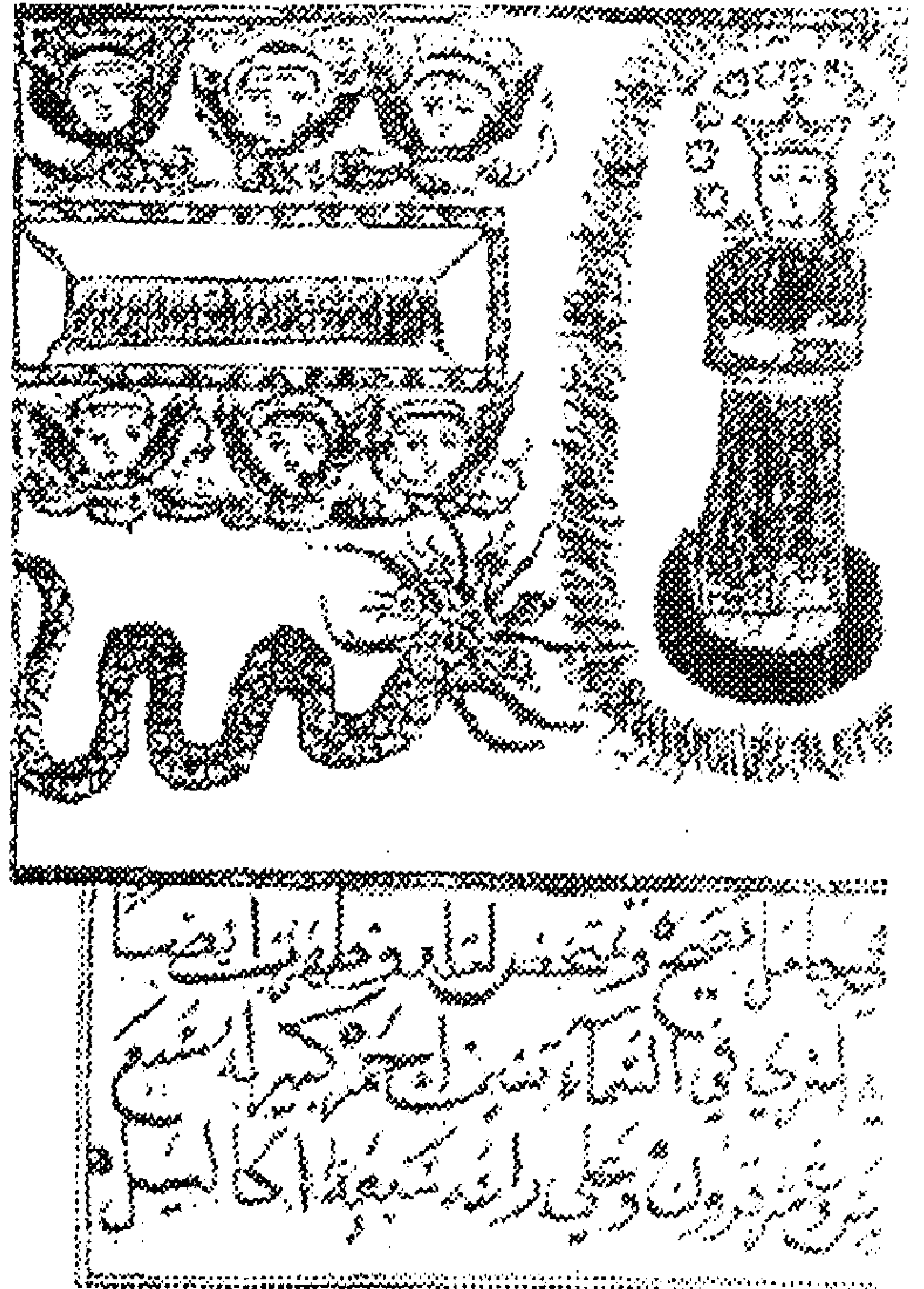
صورة تمثل منظرًا طبيعيًا من ثلاث شجيرات. مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا (الأبوكالمسيس) متحف الفن القبطي بالقاهرة (١١٥٣هـ/ ١٧٤١م).



صورة تمثل رؤيا المرأة المتسربلة بالشمس وهى حامل وقد أخذت تصيح وتمتخض لتلد مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الإنجيلى (الأبوكالمسيس) متحف الفن القبطى بالقاهرة (١١٥٣هـ/ ١٧٤١م)



صورة تمثل رؤيا الشيطان (الدجال) يركب الفرس الأحمر لينزع السلامة من على كل الأرض. مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الإنجيلى (الأبوكالمسيس) متحف الفن القبطى بالقاهرة (١١٥٣هـ/ ١٧٤١م).



صورة تمثل رؤيا ظهور الملاك المجنح ينزل من السماء إلى الأرض. مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الإنجيلي (الأبوكالمسيس).



صورة توضح فاتحة مخطوطة مختصر تفسير رؤيا يوحنا الإنجيلي (الأبوكالمسيس) متحف الفن القبطي بالقاهرة (١١٥٣هـ / ١٧٤١م).

سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف ١٧٦٨م

(استهل شهر المحرم بيوم الأربعاء) فى ثانيه سافرت التجريدة المعينة إلى بحرى بسبب الأمراء المتقدم ذكرهم وهم حسين بك وخليل بك ومن معهم، وقد بذل جهده على بك حتى شهل أمرها ولوازمها فى أسرع وقت، وسافرت (ص ٧٣٥) فى يوم الخميس وأميرها وسر عسكرها محمد بك أبوالدهب، فلما وصلوا إلى ناحية دجوة وجدوهم عدوا إلى منية الخضر فعدوا خلفهم فوجدوهم ذهبوا إلى طندتا وكرنكوابها، فتبعوهم إلى هناك وأحاطوا بالبلدة من كل جهة ووقع الحرب بينهم فى منتصف شهر المحرم، فلم يزل الحرب قايما بين الفريقين حتى فرغ ماعندهم من الجبخانة والبارود، فعند ذلك أرسلوا إلى محمد بك وطلبوا منه الأمان فأعطاهم الأمان وارتفع الحرب من بين الفريقين، وكاتبهم محمد بك وخادعهم والتزم لهم بإجراء الصلح بينهم وبين مخدومه على بك فانخدعوا له وصدقوه وانحلت عزايمهم واختلفت آراؤهم وسكن الحال تلك الليلة، ثم إن محمد بك أرسل فى ثانى يوم إلى حسين بك يستدعيه ليعمل معه مشورة، فحضر عنده بمفرده وصحبته خليل بك السكران تابعه فقط، فلما وصلوا إلى مجلسه ودخلوا إليه فلم يجدوه، فعندما استقربهما الجلوس دخل عليهما جماعة وقتلوهما، وحضر فى إثرهما حسن بك شبكة ولم يعلم ماجرى لسيده، فلما قرب من المكان أحس قلبه بالشر، فأراد الرجوع فعاقه رجل سايس يسمى مرزوق وضربه بنبوت

١١٨٢هـ.
١٤٨٤ ق.
١٧٦٨ م.

غاية الفيضان١ قيراط ٢٤ ذراع

□ كان طرد الجزويت من نابولى ومالطة وبارمه

□ ١ توت ١٤٨٥ = ٩ سبتمبر سنة ١٧٦٨ = الجمعة ٢٦ ربيع الثانى ١١٨٢.

□ عزل العسكر محمد راقم باشا، بعد أن حكم مصر سنة وحدة، وتولى بعده محمد باشا الأورفلى.

□ ١ يناير ١٧٦٩= ٢٥ كيهك ١٤٨٥ = الأحد ٢٢ شعبان سنة ١١٨٢.

□ طلب الباب العالى من مصر ١٢ ألف نفر لمحاربة الروسيا، فاوقعت المماليك والباشا الفتن فى حق على بك، فورد فرمان شاهانى بقتله وارسال رأسه إلى الآستانة لكنه لم يفد حيث علم بذلك على بك وتربص لحامل الفرمان ورفقائه الأربعة وقتلوا بأمره،وأعلن استقلال مصر، وكتب إلى الشيخ ضاهر أمير عكا بذلك.

فوقع إلى الأرض، فلحقه بعض الجند واحتز رأسه، فلما علم بذلك خليل بك الكبير ومن معه ذهبوا إلى ضريح سيدى أحمد البدوى والتجأوا إلى قبره، واشتد بهم الخوف وعلموا أنهم لاحقون بإخوانهم، فلما فعلوا ذلك لم يقتلوهم ،وأرسل محمد بك يستشير سيده فى أمر خليل بك ومن معه، فأمر بنفيه إلى ثغر سكندرية وخنقوه بعد ذلك (ص٧٣٦) بها، ورجع محمد بك وصالح بك والتجريدة ودخلوا المدينة من باب النصرفى موكب عظيم وأمامهم الروس محمولة فى صوانٍ من فضةوالخدم يقولون «صلوا على محمد» وصالح بك ظاهر بوجهه الانقباض والتعبيس، وعدتها ستة روس وهى رأس حسين بك وخليل بك السكران وحسن بك شبكة وحمزة بك وإسماعيل بك أبى مدفع وسليمان أغا الوالى وذلك يوماجمعة سابع عشر المحرم.

* عودة محمد بك ابو الدهب بروس ستة من الأمراء المنافسين لسيده على بك الكبير.

(وفى يوم الثلاثاء رابع عشر صفر) حضرنجاب الحج وأطمأن الناس، وفى ويوم الجمعة سابع عشره وصل الحجاج بالسلامة ودخلوا المدينة وأمير الحاج خليل بك بلفيه، وسر الناس بسلامة الحجاج وكانوا يظنون تعبهم بسبب هذه الحركات والوقايع

(وفى ثامن عشر صفر) أخرج على بك جملة من الأمراء من مصر ونفى بعضهم إلى الصعيد وبعضهم إلى الحجاز وأرسل البعض إلى الفيوم، وفيهم محمد كتخدا تابع عبد الله كتخدا وقرا حسن كتخدا وعبدا لله كتخدا تابع مصطفى باش اختيار مستحفظان وسليمان جاويش ومحمد كتخدا الجردلى وحسن أفندى الباقرجى وبعض أوده باشية وعلى جربجى وعلى أفندى الشريف جمليان. (وفيه) صرف على بك مواجب الجامكية. (وفيه) أرسل على بك وقبض

على أولاد سعد الخادم بضريح سيدى أحمد البدوى وصادرهم وأخذ منهم أموالاً عظيمة لايقدر قدرها، وأخرجهم من البلدة ومنعهم من سكناها ومن خدمة المقام الأحمدى وأرسل الحاج حسن عبد المعطى وقيده بالسدنة عوضاً عن المذكورين، وشرع فى بناء الجامع والقبة والسبيل (ص٧٣٧) والقيسارية العظيمة وأبطل منها مظالم أولاد الخادم والهمل والنشالين والحرمية والعيارين وضمان البغايا والخواطى وغير ذلك.

* على بك يصادر أموال اولاد سعد الخادم بضريح السيد البدوى. ويعمرّ المسجد ويجدده.

وفى تاسع شهر ربيع الأول حضر قابجى من الديار الرومية بمرسوم وقفطان وسيف لعلى بك من الدولة

١١٦ (وفيه) وصلت الأخبار بموت خليل بك الكبير بثغر سكندرية مخنوقا (وفى يوم السبت ثانى عشره) نزل الباشا* إلى بيت على بك باستدعا فتغدّى عنده وقدم له تقادم وهدايا

* باشا مصرفى هذا الوقت هو محمد باشا الاورفلى.

(وفى يوم الأحد ثانى عشر ربيع الآخر) اجتمع الأمراء بمنزل على بك على العادة وفيهم صالح بك وقد كان على بك بّيت مع أتباعه على قتل صالح بك، فلما انقضى المجلس وركب صالح بك ركب معه محمد بك وأيوب بك ورضوان بك وأحمد بك بشناق المعروف بالجزار وحسن بك الجداوى وعلى بك الطنطاوى، وأحدق الجميع بصالح بك ومن خلفهم الجند والمماليك والطوايف، فلما وصلوا إلى مضيق الطريق عند المفارق بسويقة عصفور تأخر محمد بك ومن معه عن صالح بك قليلا، وأحدث له محمد بك حماقة مع سايسه وسحب سيفه من غمده سريعًا وضرب صالح بك وسحب الآخرون سيوفهم ماعدا أحمد بك بشناق وكملوا قتلته ووقع طريحًا على الأرض، ورمح

* مؤامرة اغتيال صالح بك على يد محمد بك ابو الدهب ورفض أحمد الجزار الاشتراك فى المؤامرة.

* سويقة عصفور: جنوب باب زويلة.

الجماعة الضاربون وطوايفهم إلى القلعة، وعندما رأوا مماليك صالح بك وأتباعه مانزل بسيدهم خرجوا على وجوههم، ولما استقر الجماعة القاتلون بالقلعة وجلسوا مع بعضهم يتحدثون عاتبوا أحمد بك بشناق* في عدم ضربه معهم صالح بك وقالوا له «لماذا لم تجرد سيفك وتضرب مثلنا؟» قال «بل ضربت معكم» (ص٧٣٨) فكذبوه فقال له بعضهم «أرنا سيفك» فامتنع وقال «إن سيفى لايخرج من غمده لأجل الفرجة» ثم سكتوا وأخذ فى نفسه منهم وعلم أنهم سيخبرون سيدهم بذلك فلا يأمن غايلته وذلك أن أحمد بك هذا لم يكن مملوك لعلى بك وإنما كان أصله من بلاد بشناق حضر إلى مصر فى جملة أتباع على باشا الحكيم عندما كان واليا على مصر فى سنة تسع وستين ومائة وألف، فأقام فى خدمته إلى سنة إحدى وسبعين ومائة وألف، وتلبس صالح بك بإمارة الحج فى ذلك التاريخ فاستأذن أحمد بك المذكور على باشا فى الحج وأذن له فى الحج فحج مع صالح بك وأكرمه وأحبه وألبسه زى المصريين ورجع صحبته، وتنقلت به الأحوال وخدم عند عبد الله بك على، ثم خدم عند على بك فأعجبه شجاعته وفروسيته فرقاه فى المناصب حتى قلده الصنجقية وصار من الأمراء المعدودين فلم يزل يراعى منه صالح بك السابقة عليه، فلما عزم على بك على خيانة صالح بك السابقة وغدره خصصه بالذكر وأوصاه أن يكون أول ضارب فيه لما علمه فيه من العصبة له، فقيل له إن أحمد بك أسر ذلك إلى صالح بك وحذره غدر على بك إياه فلم يصدقه لما بينهما من العهود والأيمان والمواثيق، ولم يحصل منه مايوجب ذلك ولم يعارضه فى شى ولم ينكر عليه فعلا،

* قصة أحمد الجزار منذ دخوله مصر مع على باشا الحكيم سنة ١١٦٩ = ١٧٥٥م وهروبه عام ١١٨٢ = ١٧٦٨م إلى الشام.

تمثل حياة أحمد باشا الجزار سلسلة من المؤامرات والدسائس التى كانت تبرز السمة الاساسية للحياة السياسية فى السلطنة العثمانية. ولقد كان نبوغ الجزار فى تنظيم المؤامرات وتدبير الدسائس عائداً فى الاساس إلى طبيعة هذه السلطنة التى كانت تعتنق منذ بداياتها، على يد سلاطينها الأول، مقولة : إن القوة هي الوسيلة الوحيدة لبسط نفوذها، وما لايؤخذ بالقوة يؤخذ بالخديعة والتآمر والغدر والرشوة، بل وبالتمسح فى الدين. وماكان من الممكن لمثل هذه المبادئ إلا أن تفرز زعامات تجعل الحياة السياسية للسلطنة ميداناً لها وملعبا تزهق فيه كل المبادئ الشريفة، دينية كانت أو أخلاقية، لحساب اطماعها،وتعلى من شأن عديمى الذمة والأفاقين وفاقدى الضمائر ومحبى سفك الدماء ومبتزى الأموال والثروات، فكانت خدمات مثل الأغتيال ودسّ السم، وحرق القرى بفلاحيها، والإيقاع بين القوى بالفتن الدينية والعصبية، ترتفع بكل من يتقنها إلى زمرة الطبقة الحاكمة والمستفيدين منها.
ولقد كان الجزار من هذا الصنف من الزعامات ـ بمعناها الشرقى ـ التى افرزتها السلطنة العثمانية لتخدم بهم مصالحها وأهدافها المحدودة، وان كان سقوطها النهائى تم بسبب هذه الزعامات منذ چان برد الغزالى وخاير بك، إلى علي بك الكبير والجزار وانتهاءٍ بمحمد علي.

فلما اختلي صالح بك بعلي بك أشار إليه بما بلغه فحلف له على بك بأن ذلك نفاق من المخبر ولم يعلم من هو، فلما حصل ماحصل ورأى [الجزار] مراقبة الجماعة له ومناقشتهم له عند استقرارهم بالقلعة تخيل وداخله الوهم وتحقق فى ظنه تجسم القضية، فلما نزلوا من القلعة وانصرفوا إلى منازلهم تفكر تلك الليلة وخرج من مصر وذهب إلى الإسكندرية وأوصى حريمه بكتمان أمره ماأمكنهم حتى يتباعد عن مصر،فلما تأخر حضوره بمنزل على بك وركو به سألوا عنه (ص٧٣٩) فقيل له إنه متوعك، فحضر إليه فى ثانى يوم محمد بك ليعوده وطلب الدخول إليه فلم يمكنهم منعه، فدخل إلى محل مبيته فلم يجده فى فرشه، فسأل عنه حريمه فقالو: «لانعلم له محلا ولم يأذن لأحد بالدخول عليه». وفتشوا عليه فلم يجدوه، وأرسل على بك عبد الرحمن أغا وأمره بالتفتيش عليه وقتله، فأحاط بالبيت وهو بيت شكربره وفتش عليه فى البيت و الخطة فلم يجده، و هو قد كان هرب ليلة الواقعة فى صورة جزايرلى مغربى وقصقص لحيته وسعى بمفرده إلى شلقان، وسافر إلى بحرى ووصل السعاة بخبره لعلى بك بأنه بالأسكندرية فأرسل بالقبض عليه فوجدوه نزل بالقبطانة واحتمى بها وكان من أمره ماكان بعد ذلك كما يأتى، وهو أحمد باشا الجزار الشهير الذكر الذى تملك عكا وتولى الشام وإمارة الحج الشامى وطار صيته فى الممالك.

(وفيه) عين على بك تجريدة علىَ سويلم بن حبيب وعرب الجزيرة ، فنزل محمد بك بتجريدة إلى عرب الجزيرة، وأيوب بك إلى سويلم، فلما ذهب أيوب بك إلى دجوة فلم يجد بها أحداً، وكان سويلم بايتاً فى سندنهور وباقى الحبايبة

* عرب الجزيرة: المقصود هنا عرب الجزيرة العربية.

* دجوه: من قرى القليوبية الآن.

* سندنهور : عرفت قديمً باسم «هاساحورع» من قرى الشرقية تابعة لمركز بلبيس.

متفرقين في البلاد، فلما وصله الخبر ركب من سندنهور وهرب بمن معه إلى البُحيرة والتجأ إلى الهنادى* ونهبوا دوايره ومواشيه، وحضروا بالمنهوبات إلى مصر، واحتج عليه بسبب واقعة حسين بك وخليل بك لما أتيا إلى دجوة بعد واقعة الديرس والجراح وقدم لهم التقادم وساعدهم بالكلف والذبايح ونحو ذلك، والغرض الباطنى اجتهاده في إزالة أصحاب المظاهر كاينا ما كان.

وفي ويوم الاثنين تاسع عشره: أمر على بك بإخراج على كتخدا الخربُطلى منفيًا، وكذلك يوسف كتخدا مملوكه ونفى حسن أفندى درب الشمسى (ص٧٤٠) وإخوته إلى السويس ليذهبوا إلى الحجاز، وسليمان كتخدا الجلفى وعثمان كتخدا عزبان المنفوخ، وكان خليل بك السيوطى بالشرقية فلما سمع بقتل صالح بك هرب إلى غزة.

وفي يوم الأحد خامس جمادى الأولى طلع على بك إلى القلعة وقلد ثلاثة صناجق من أتباعه وكذلك وجاقلية، وقلد أيوب بك تابعه ولاية جرجا وحسن بك رضوان أمير حج وقلد الوالى.

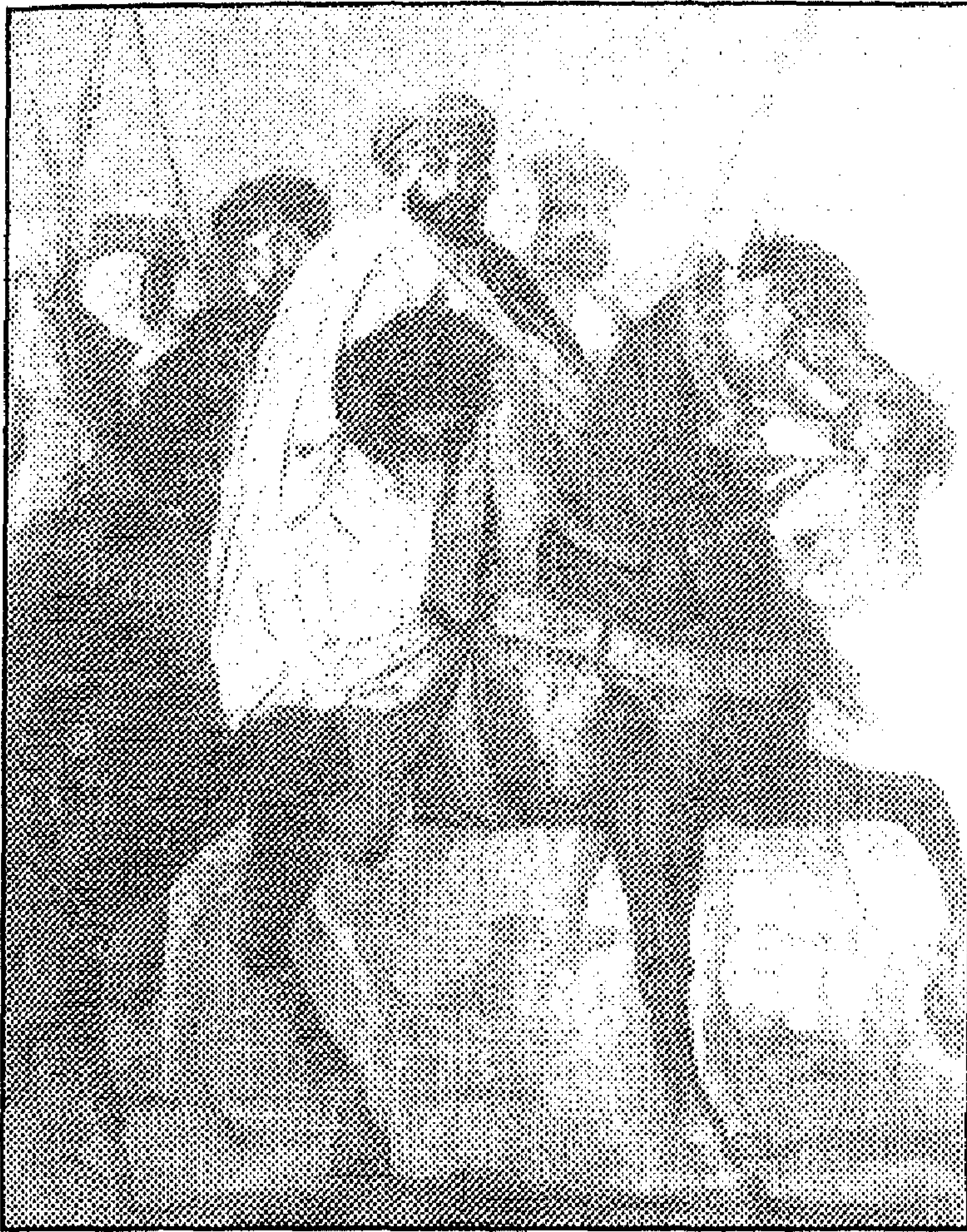
وفي جمادى الآخرة قلد إسماعيل بك الدفتردارية، وصرف المواجب في ذلك اليوم.

وفي منتصف شهر رجب وصل أغا من الديار الرومية وعلى يده مرسوم بطلب عسكر للسفر فاجتمعوا بالديوان وقروا المرسوم وكان على بك أحضر سليمان بك الشابورى من نفيته بناحية المنصورة وكان منفيًا هناك من سنة اثنتين وسبعين وماية وألف.

وفي يوم الثلاثاء عملوا الديوان بالقلعة ولبسوا سليمان بك الشابورى أمير السفر الموجه إلى الروم وأخذوا في تشهيله،

* الهنادى : من البدو الذين كانوا يقومون بأعمال السلب والنهب في منطقة البحيرة غرب فرع رشيد . انضم لهم في هذه الفترة سويلم بن حبيب احد مشايخ العرب الذى طرده على بك من دجوه بالقليوبية.


المنصورة . دار ابن لقمان حيث أسر الملك لويس ملك فرنسا



فرسان من البدو.

* علي بك الكبير يبدأ فى كسر شوكة شيخ الهوارة «همام».

* برديس: قرية تابعة لمركز البلينا، محافظة سوهاج.

* البحر الرومي: هو البحر المتوسط.

وسافر محمد بك أبو الذهب بتجريدة ومعه جملة من الصناجق والمقاتلين لمنابذة شيخ العرب همام، فلما قربوا من بلاه ترددت بينهم الرسل واصطلحوا معه على أن يكون لشيخ العرب همام من حدود برديس ولا يتعدى حكمه لما بعدها، واتفقوا على ذلك، ثم بلغ شيخ العرب أنه ولد لمحمد بك مولود فأرسل له بالتجاوز عن برديس أيضًا إنعامًا منه للمولود، ورجع محمد بك ومن معه إلى مصر، وفيه قبض علي بك علَى الشيخ أحمد الكتبي المعروف بالسقط، وضربه علقة قوية وأمر بنفيه إلى قبرص، فلما نزل إلى البحر الرومي ذهب إلى إسلامبول وصاهر حسن أفندى قطة مسكين المنجم وأقام هناك إلى أن مات، وكان المذكور من دهات العالم (ص١٧٤) يسعى فى القضايا والدعاوى يحيي الباطل ويبطل الحق بحسن سبكه وتداخله

وفى سابع عشره حصلت قلقة من جهة والى مصر محمد باشا وكان أراد أن يحدث حركة [ضد على بك] فوشى به كتخداه عبد الله بك إلى على بك فأصبحوا وملكوا الأبواب والرميلة والمحجر وحوالى القلعة وأمروه بالنزول فنزل من باب الميدان إلى بيت أحمد بك كشك وأجلسوا عنده الحرسجية.

* فشل مؤامرة محمد باشا ضد على بك وعزله.

(وفى يوم الأحد غرة شعبان) تقلد على بك قايمقامية عوضاً عن الباشا.

* على بك يتولى قائمقام بعد عزله لمحمد باشا.

(وفى يوم الخميس) إرسل على بك عبد الرحمن أغا مستحفظان إلى رجل من الأجناد يسمى إسماعيل أغا من القاسمية وأمره بقتله، وكان إسماعيل هذا منفياً جهة بحرى وحضر إلى مصر قبل ذلك، وأقام ببيته جهة الصليبة وكان مشهورا بالشجاعة والفروسية والإقدام، فلما وصل الأغاحذا بيته وطلبه ونظر إلى الأغا واقفاً بأتباعه ينتظره علم أنه يطلبه ليقتله كغيره لأنه تقدم قتله لأناس كثيرة على هذا النسق بأمرة على بك، فامتنع من النزول وغلق بابه ولم يكن عنده أحد سوى زوجته وهى أيضًا جارية تركية وعمر بندقيته وقرابينته وضرب عليهم فلم يستطيعوا العبور إليه من الباب وصارت زوجته تعمر له وهو يضرب حتى قتل منهم أناسًا وانجرح كذلك، واستمر على ذلك يومين وهو يحارب وحده وتكاثروا عليه وقتلوا من أتباعه وهو ممتنع عليهم إلى أن فرغ منه البارود والرصاص ونادوه بالأمان فصدقهم ونزل من الدرج فوقف له شخص وضربه وهو نازل من الدرج وتكاثروا عليه وقتلوه وقطعوا راسه ظلماً، رحمة الله تعالى.

(وفى تاسع عشرة) صرفت المواجب (ص٧٤٢) على الناس والفقراء.



علی بك الكبير فی شبابه.

(وفی ثامن عشرینه) خرج موكب السفر الموجه إلی الروم فی تجمل زائد.

* علی بك يصادر أموال المعلم إسحق اليهودی ويقتله.

(وفی عاشر رمضان) قبض علی بك علی المعلم إسحق اليهودی معلم الديوان ببولاق وأخذ منه أربعين ألف محبوب ذهب وضربه حتی مات، وكذلك صادر أناسًا كثيرة فی أموالهم من التجار مثل العشوبی والكهن وغيرهما، وهو الذی ابتدع المصادرات وسلب الأموال من مبادی ظهوره واقتدی به من بعده.

* علی بك يرسل الهدايا إلی السلطان ورجال دولته.

(وفی شوال) هيأ علی بك هدية حافلة وخيولا مصرية جيادا وأرسلها إلی إسلامبول للسلطان ورجال الدولة وكان المتسفر بذلك إبراهيم أغا سراج باشا وكَتَبَ مكاتباتٍ إلی الدولة ورجالها والتمس من الشيخ الوالد أن يكتب له أيضًا مكاتبات لما يعتقده من قبول كلامه وإشارته عندهم،

ومضمون ذلك الشكوى من عثمان بك ابن العظم والى الشام وطلب عزله عنها بسبب انضمام بعض المصريين المطرودين إليه ومعاونته لهم، وطلب منه أن يرسل الشيخ عبد الرحمن العريشي ومحمد أفندى البرلى فسافروا مع الهدية وغرضه بذلك وضع قدمه بالقطر الشامى أيضا.

* على بك ينفى الامراء المنافسين له إلى إقاليم مصر ويصادر أموالهم وأقطاعهم.

(وفى ثانى عشر ذى العقدة) رسم بنفى جماعة من الأمرا أيضا وفيهم إبراهيم أغا الساعى اختيار متفرقة وإسماعيل أفندى جاويشان وخليل أغاباش جاويشان جمليان وباشجاويش تفكجيان ومحمد أفندى جراكسة ورضوان بك تابع حسن بك رضوان والزعفرانى، فأرسل منهم إلى دمياط ورشيد واسكندرية وقبلى وأخذ منهم دراهم قبل خروجهم واستولى على بلادهم وفرقها فى أتباعه، وكانت هذه طريقته فيمن يخرجه، يستصفى أموالهم أولا ثم يخرجهم ويأخذ بلادهم وأقطاعهم فيفرقها (ص٧٤٣) على مماليكه وأتباعه الذين يؤمرهم فى مكانهم، ونفى أيضا إبراهيم كتخدا جدك وابنه محمد إلى رشيد وكان إبراهيم هذا كتخدا. ثم عزله وولاه الحسبة فلما نفاه ولى مكانه فى الحسبة مصطفى أغا، والله أعلم.

وأما من ماتت في هذه السنة
من المشايخ والأعيان

٣٠٧ أحمد بن الحسن الجوهرى.

(مات) الإمام الفقيه المحدث الأصولى المتكلم شيخ الإسلام وعمدة الأنام الشيخ أحمد ابن الحسن ابن عبد الكريم بن محمد بن يوسف بن كريم الدين الكريمى الخالدى الشافعي الأزهرى الشهير بالجوهرى، وإنما قيل له الجوهرى لأن والده

كان يبيع الجوهر فعرف به، ولد بمصر سنة ست وتسعين وألف، واشتغل بالعلم وجد في تحصيله حتى فاق أهل عصره، ودرس بالأزهر وأفتى نحو ستين سنة، مشايخه كثيرون منهم الشهاب أحمد بن الفقيه ورضوان الطوخي إمام الجامع الأزهر والشيخ منصور المنوفي والشهاب أحمد الخليلي والشيخ عبد ربه الديوي والشيخ عبد الروف البشبيشي والشيخ محمد أبو العز العجمي والشيخ محمد الإطفيحي والشيخ عبد الجواد المحلي الشافعيون، والشيخ محمد السجلماسي والشيخ أحمد النفراوي والشيخ سليمان الحصيني والشيخ عبد الله الكنكسي والشيخ محمد الصغير الورززي وابن زكري والشيخ أحمد الهشتوكي والشيخ سليمان الشبرخيتي والسيد عبد القادر المغربي ومحمد القسطنطيني ومحمد النشرتي المالكيون، ورحل إلى الحرمين في سنة عشرين وماية وألف فسمع من البصري والنخلي في سنة أربع وعشرين وماية وألف ثم في سنة ثلاثين وماية وألف، وحمل في هذه الرحلات علوما جمة، وأجازه مولاي الطيب ابن مولاي عبد الله الشريف الحسيني وجعله خليفة بمصر، وله شيوخ كثيرون غير من ذكرت، وقد (ص٧٤٤) وجدت في بعض إجازاته تفصيل ماسمعه من شيوخه مانصه: على البصري والنخلي أوايل الكتب الستة والإجازة العامة مع حديث الرحمة بشرطه. وعلى الإطفيحي بعض كتب الفقه والحديث والتصوف والإجازة العامة. وعلى السجلماسي في سنة ستٍ وعشرين وماية وألف الكبرى للسنوسي ومختصره المنطقي وشرحه وبعض تلخيص القزويني وأول البخاري إلى كتاب الغسل وبعض الحكم العطائية وأجازه. وعلى ابن زكري أوايل الستة وأجازه. وعلى

* تفصيل منح إجازة [درجة مشيخه] للشيخ أحمد بن الحسن الجوهري.

الكنكسى الصحيح بطرفيه وشرح العقايد للسعد وعقايد السنوسى وشروحها وشرح التسهيل لابن مالك إلى آخره وشروح الألفية للمكودى والمطول بتمامة وشرح التلخيص، وعلى الهشتوكى الإجازة بسائرها. وعلى النفرواى شرح التلخيص مرارا وشرح ألفية المصطلح وشرح الورقات. وعلى الديوى شرح المنهج لشيخ الإسلام مرارا وشرح التحرير وشرح ألفية ابن الهايم وشرح التلخيص وشرح ابن عقيل على الألفية وشرح الجزرية.
وعلى المنوفى جمع الجوامع وشرحه للمحلى وشرح التلخيص. وعلى ابن الفقيه شرح التحرير وشرح الخطيب مرارًا وشرح العقايد النسفية وشرح التلخيص والخبيصى.
وعلى الطوخى شرح الخطيب وابن قاسم مرارا وشرح الجوهرة لعبد السلام. وعلى الخليفى البخارى وشرح التلخيص والأشمونى والمصام وشرح الورقات. وعلى الحصينى شرح الكبرى للسنوسى بتمامة وعلى الشبرخيتى شرح الرحبية وشرح الآجرومية وغيرهما. وعلى الورزازى شرح الكبرى بتمامة. مرارا وشرح الصغرى وشرح مختصر السنوسى والتفسير وغيره. وعلى البشيشى المنهج مرارا وجمع الجوامع مرارا والتلخيص وألفية (ص٧٤٥) المصطلح والشمايل وشرح التحرير لزكريا وغيره.
هذا نص ماوجدته بخطه، واجتمع بالقطب سيدى أحمد بن ناصر فأجازه لفظا وكتابة، وممن أجازه أبو المواهب البكرى وأحمد البناء وأبو السعود الدنجيهى وعبد الحى الشرنبلالى ومحمد بن عبد الرحمن المليجى. وفى الحرمين عمر بن عبد الكريم الخلخالى حضر دروسه وسمع منه المسلسل بالأولية بشرطه. وتوجه بآخره إلى الحرمين بأهله

وعياله وألقى الدروس وانتفع به الواردون ثم عاد إلى مصر فانجمع عن الناس وانقطع فى منزله يزار ويتبرك به وله تآليف منها منقذة العبيد عن ربقة التقليد فى التوحيد، وحاشية على عبد السلام، ورسالة فى الأولية وأخرى فى حياة الأنبياء فى قبورهم وأخرى فى الغرانيق* وغيرها.

وكانت وفاته وقت الغروب يوم الأربعاء ثامن جمادى الأولى من السنة، وجهز بصباحه وصلى عليه بالجامع الأزهر بمشهد حافل ودفن بالزاوية القادرية داخل درب شمس الدولة، رحمة الله. ورثاه نادرة العصر العلامة الشيخ مصطفى بن أحمد الصاوى بهذه القصيدة الفريدة وهى:

يادهرُ مالك بالمكاره تجترى
ولقد أرباب المكارم تحترى
تغتال منا ماجداً مع ماجد
طابت طبايعه بطيب المنصر
تردى الكريم ابن الكريم وماترى
حقا لعهد الماهر المتبصر
إن أصبح المولى عزيزَ عشيرة
أمسيته فى ذل ذل أحقر
يغدو كريم النفس وهو مقدم (ص٧٤٦)
فيروح في هون به متقهقر
وإذا حلَتْ بالصفو حالةُ حاله
مرّرْتَها بنغيص عيش أكدر
لو كنت ترعى فى الأفاضل حقهم
أبقيت مجمع شملهم فى الأعصر
من لى يسعدنى لدهر معتد
الغدر شيمته خون مفترى معروف ذكر

* الغرانيق: مفردها غُرنوق وغُرنَيق وغرناق، ومعناها الشباب الغض الجميل. والغرانيق في الحديث الموضوع المنسوب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو (تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى) هى الأصنام وهي في الأصل الذكور من الطير.

في فقدكهف الفضل مجد أولى النهى
فــي الـــورى لـــم يـــنـــكـــر
حـاوى الفـضـايل والفـواضل والتـقى
والجـــود والمجـــد الأصـــيل المفـــخـــر
هو درة الغـــواضِ والبـــحـــرِ الذى
امـــواجـــه قـــذفت بدّر الجـــوهر
هو عـروة وثقى بهـا اعـتـصـم الورى
عند انقطاع حـــبـــال ورد الأبهـــر
بدر أضـــاء على الأمـــاجـــد كلهـــا
حـــتى على البـــدر المنيـــر المســـفـــر
وســـمـــا فـــخـــر لاتمد لهـــا يد
إلا وطول عـــلاه قـــال لهـــا اقـــصـــرى
ذو مـــعـــهـــد أمّـــا مـــواضى فكره
إن ضـارعـتـهـا الشـهب قـالت تحترى
فى قـــاب قـــوس الجـــد حطّ رحـــاله
ومشى على مِريخه والمشترى وعَمّتْ عن
حـــاطت بصـــيـــرتُه بكلِ فـــضـــيلة
الإدراك عـــينُ المبـــــــــــصـــــــــــر
(ص ٧٤٧)إن تختبره في العلوم وجدته
قـــام الأدلة عن عـــيـــان المخـــبـــر
فـــبـــفـــقـــهـــه فى الدين ثم بشـــعـــره
يُنســـيك أم الرافـــعى*والبـــحـــتـــرى
أن رمـــتـــه فى الحـــزم قـــال مـــســـدد
أو رمت توحـــيـــداً وجـــدت الأشـــعـــرى
أو رمت نحـــــوا أو بـلاغــــــة زُهده
ســـعـــد الزمـــان وســـيـــبـــويه والســـرى

* الرافعي : هو عبد الكريم بن محمد عبد الكريم بن الفضل أبو القاسم الرافعي صاحب الشرح الكبير وغيره من المؤلفات في التفسير وشرح الحديث، توفي بقزوين سنة ٦٢٣ = ١٢٢٦م.

قـــد صح إسناد الرواة حـــديثـــه
أهل الشبـــات ذوى المقـــام الأكـــبـــر
يروى الصحيح من الصحيح فما به
ضـــــعف ولا وهن ولا من يزدرى
وغـــدا بنطق كـــمـــاله يبـــدى لنا
عين النتـــيـــجـــة ضـــمن شكل أنور
عـجب لشمس معارف قـد أنزلت
بنجـومهـا فى ذا التـراب الأقـفـر
ليت المنون الذى ألّم بروحـــــه
أفنى بنى الدنيـــا وأبقى ذا الســـرى
سـقـيـا لرمس ضـمـه وبل الرضـا
غـيث الهنا وكف الســحـاب الممطر
حـقٌ لـعـين قـطـفـت مـن زهـرة
تبكى عليـــه غـــزير دمع أزفـــر
ونخط فـوق الخـد من أقـلامـهـا
تحـبـيـر حـزن فى طروس الأسطر
لكن صبراً للقضاء وتصبراً (ص٧٤٨)
ليكون للإنســان حـــسن المآجـــر
فـالصبـر عند الصـدمـة الأولى رضـا
مـا حيلة المحـتـال إن لم يصـبـر؟
من حــيث إن لنا هنالك أســوة
بالســالفين وبالنبى الأطـهـــر
صلى عليـــــه إلهنا مع آلـه
والصـحب أصـحاب المقـام الأظهـر
مـا مـصطفى الصاوى قـال مـؤرخـا
بشـرى لحـور العين حبٌ الجـوهرى

ورثاه الشيخ عبد الله الإدكاوى بقصيدة بيت تاريخها
مقعد الصدق قد أعدوه حالا
للملى الممجد الجوهرى

٣٠٨ عيسى ين احمد البراوى.

(مات) الإمام العالم العلامة والحبر الفهامة الفقيه الدراكة الأصوالى النحوى شيخ الإسلام وعمدة ذوى الأفهام الشيخ عيسى بن محمد الزبيرى البراوى الشافعى الأزهرى، ورد الجامع الأزهر وهو صغير فقرأ العلم على مشايخ وقته وتفقه على الشيخ مصطفى العزيزى وابن الفقيه وحضر دروس الملوى والجوهرى والشبراوى وأنجب وشهد له بالفضل أهل عصره، وقرأ الدروس فى الفقه وأحدقت به الطلبة واتسعت حلقته واشتهر بحفظ الفروع الفقهيه حتى لقب بالشافعى الصغير لكثرة استحضاره فى الفقه وجودة تقريره، وانتفع به طلبة العصر طبقة بعد طبقة وصاروا مدرسين، وروى الحديث عن الشيخ محمد الدفرى، وكان حسن (ص ٧٤٩) الاعتقاد فى الشيخ عبد الوهاب العفيفى وفى ساير الصلحاء، وله مؤلفات مقبولة منها حاشية على شرح الجوهرة فى التوحيد، وشرح على الجامع الصغير للسيوطى فى مجلد، يذْكر فى كل حديث مايتعلق بالفقه خاصة، ولازال يملى ويُفيد ويدرس ويعيد حتى توفى سحر ليلة الاثنين رابع رجب، وجهز فى صباحه وصلى عليه بالأزهر بمشهد حافل ودفن بالمجاورين وبنى على قبره مزار ومقام، واستقر مكانه فى التصدر والتدريس ابنه العلامة الشيخ أحمد ولازم حضوره تلامذة أبيه،رحمة الله.

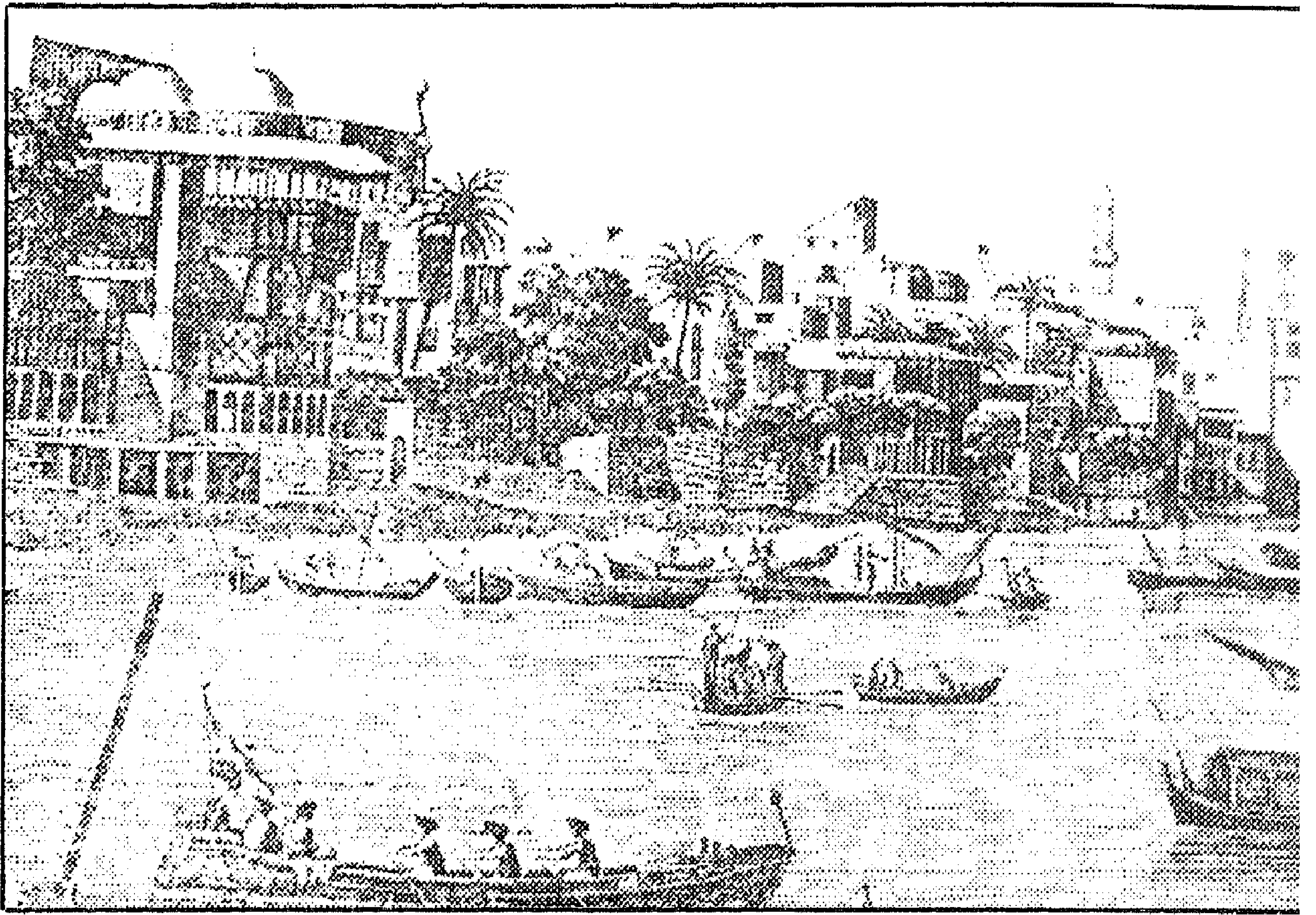
٣٠٩ حسن بن نور الدين المقدسى.

[ومات] الامام العلامة الفقيه، واللوذعى الذكى النبيه،

عمدة المحققين ومفتى المسلمين الشيخ حسن بن نور الدين المقدسي الحنفى الأزهرى، تفقّه على شيخ وقته الشيخ سليمان المنصورى والشيخ محمد عبد العزيز الزيادى وحضر دروس الشيخ مصطفى العزيزى والسيد على الضرير والملوى والجوهرى والحفنى والبليدى وغيرهم، ودرّس بالجامع الأزهر فى حياة شيوخه ولما بنى الأمير عثمان كتخدا مسجده بالأزبكية جعله خطيبًا وإمامًا به، وسكن فى منزل قرب الجامع وراج أمره، ولما شغر فتوى الحنفية بموت الشيخ سليمان المنصورى جعل شيخ الحنفية، بعناية عبد الرحمن كتخدا وكان له به ألفة، ثم ابتنى منزلا نفيسا مشرقا على بركة الأزبكية بمساعدة بعض الأمراء، واشتهر أمره ودرّس بعدة أماكن كالصرغتمشية المشروطة لشيخ الحنفية والمدرسة المحمودية والشيخ مطهر وغيرها، وألف متنًا فى فقه المذهب ذكر فيه الراجح من الأقوال، واقتنى كتبا نفيسة بديعة الأمثال، وكان عنده ذوق وألفة ولطافة وأخلاق (ص٧٥٠) مهذبة، ومن كلامه ماكتبه على رسالة ألمعية للشيخ العيدروس.

لمعت بوارق ألمعية
تفتر عن سر ألمعيه
تهدى إلى الحق المبين
وتوضح السبل الخفيه
نور الشريف ابن الشر
يف ابن السراة الألمعية
العيدروس العابد الر
حمن ذى المنح الجليه

توفى يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة من السنة.



▲ بركة الازبكية

[مات] الإمام العلامة أحد أذكياء العصر ونجباء الدهر الشيخ محمد بن بدر الدين الشافعى سبط الشمس الشرنبابلى، ولد قبل القرن بقليل وأجازه جده وحضر بنفسه على شيوخ وقته كالشيخ عبد ربه الديوى والشيخ مصطفى العزيزى وسيدى عبد الله الكنكسي والسيد على الحنفي والشيخ الملوى فى آخرين، وباحث وناضل وألف وأفاد، وله سليقه فى الشعر جيدة وكلامه موجود بين أيدى الناس، وله ميل لعلم اللغة ومعرفة بالأنساب، غير أنه كان كثير الوقيعة فى الشيخ محيى الدين ابن عربى، قدس الله سره، وألف عدة رسايل فى الرد عليه، وكان يباحث بعض أهل العلم فيما يتعلق بذلك فينصحونه ويمنعونه من الكلام فى ذلك فيعترف تارة وينكر أخرى ولايثبت على اعترافه، وبلغنى أنه

٣١٠ محمد بن بدر الدين الشرنبابلى

ألف مرة رسالة فى الرد عليه فى ليلة من الليالى ونام فاحترق منزله بالنار واحترقت تلك الرسالة من جملة مااحترق من الكتب، ومع ذلك فلم يرجع عما كان عليه من التعصب، وربما تعصب لمذهبه فيتكلم فى بعض مسايل مع الحنفية ويرتب عليها أسئلة ويغض عنهم، ولما كان عليه مما ذكر لم يخل (ص٧٥١) حاله عن ضيق وهيئته عن رثاثة، وأنشد بيتين سمعتهما من الشيخ محمد ابن الشيخ محمد الدفرى، رحمة الله قال

زمان كل حب فيه خب
وطعم الخل خل ولو يذاق
له سوق بضاعته نفاق
فنافق فالنفاق له نَفَاق

(ومن قوله)
أنا فى حماكم ياكرام وإن أكن
أذنبت ذنبًا فالكريم غفور
حاشى حماكم أن يضام نزيله
وندى يديكم فى الورى مشهور

وله في تاريخ وفاة شيخ القراء بالمقام الشافعى الشيخ عمر الدعوجى.

نعت النعاة كبير قراء له
فضل فقلت مؤرخا لمن اعتبر
ليموت إحسان الدعاء بموته
ويموت كيد الكبر بعدك ياعمر

(وله) رسالة سماها تحرير المباحث فى تعلق القدرة

بالحوادث، وهذا نصها بعد البسملة:

«الحمد لله * حق حمده، وصلى الله وسلم على من لا نبى من بعده (أما بعد) فقد طال الخلاف وانتشر فى تعلق القدرة الأزلية بالأمور الاعتبارية، فمن قايل بالتعلق ومن قايل بنفيه، وأقول هذ المسيلة وإن انتشر الخلاف فيها تنبنى على خلاف آخر، وهو أن الحادث لابد وأن يكون موجودا أو هو أعم من ذلك، والعموم هو معتقدنا تبعا لمحققى أئمتنا، (ص٧٥٢) وعليه فالاعتقاد الذى ينبغى التعويل عليه عموم تعلق القدرة بالحوادث جميعها، موجودها بالوجود الحقيقى وموجودها بالوجود المجازى، ويؤيده أن الاحوال الحادثة لم تدخل فى عبارة القوم مع أن مرادهم عموم التعلق لها قطعا، غايته أن عبارتهم إما مبنية على الغالب المتفق عليه أو مؤوله بأن يراد بالموجود الثابت، فيعم الأحوال الحادثة بناء على ثبوتها أو يراد به الموجود حقيقة أو مجازا فيشمل ماذكر، كالأمور الاعتبارية فإنها موجودة باعتبار المعتبر، ولابدلها من موجد وإن كان ذلك مسمى الإيجاد مجازا لاحقيقة، لما تقرر أنها من جملة الحوادث، وأن اسم الحادث يشملها فدخلت حينئذ فى القاعدة الكلية، أعنى كل حادث لابد له من محدث المسلمة المرضية، ويؤيد اعتبار بقية الموجودات ماصرحوا به من أن الموجودات أربعة: وجود فى الأعيان وهو الوجود الحقيقى، ووجود فى الأذهان وهو الوجود المجازى، ووجود فى العبارة ووجود فى الرقم وهما مجازيان أيضا، يعنى أن إطلاق اسم الوجود على ماعدا الأول على طريق المشابهة بين الوجود الحقيقى وبينها، وذلك أمارة الاحتياج إلى الموجد، وأنه يوجد بالايجاد الحقيقى تارة وبالمجازى أخرى، لايقال إنه معدوم فى نفس الأمر، وإن أطلق عليه

* نص رسالة وتحرير المباحث فى تعلق القدرة بالحوادث» للشيخ محمد بدر الدين الشرنبابلى.

اسم الوجود تنزيلا كما هو شأن المجاز من صحة النفي فيه حقيقة، لأنا نقول إن تلك المشابهة التى اقتضت تنزيله منزلة الموجود رقّتْه من حضيض العدم المحض إلى ذروة مقابلة، فوجب التعلق والإيجاد، لكن على سبيل المجاز أيضًا لا على سبيل الحقيقة، وإلا لزم مجازيه المتعلق دون المتعلق، وذلك لايعقل، نعم لامحذور فى تسليم أن التعلق بإثباته حقيقى، لأنه ليس المجاز فيه، لكن هل ذلك الإثبات فى نفس الأمر أو في اعتبار المعتبر أو فيهما يأتى بما فيه؟ وبالجملة (ص٧٥٣) فالتعلق له وجه وجيه، ومما يؤيده أيضًا أن العبد ينسب الفعل له ويضاف إليه وإن كان إيجاده له مجازيا أى شرعا وإلا فهو حقيقة لغوية بحيث يطلق عليه اسم الموجود مجازًا، فنسبة الأشياء الموجدة بالوجود المجازى إلى الفاعل الحقيقى أولى وأحرى، وأيضًا لو سيل المنكر إضافتها إليه مَن الذى حصل هذه الأشياء فى ذهن المعتبر حتى حصلت؟ لم يسعه إنكار النسبة إليه تعالى فإنه يقر بنسبتها إلى المعتبر فكيف لايقر بنسبتها إلى الفاعل الحقيقي جلا وعلا؟ وإن كان التأثير ثابتًا في الإعدام ففي الوجود والاعتبارات من باب أولى، وقد سألت شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى سيدى أحمد الملوى عن هذه المسيلة فقال «الخلاف فيها ثابت لاشبهة فيه، غير أن الأدب إضافتها إلى الله تعالى ونقله عن المحققين فانظره، لكن أورد عليه أن صفات الأفعال عندنا أمور اعتبارية وهى عبارة عن تعلق القدرة التنجيزى الحادث فيلزم أن يحتاج التعلق إلى تعلق وهكذا فيتسلسل وهو محال، وأجيب على تسليم أنها عين التعلق بأنه لامحذور فيه بالنسبة للأمور الاعتبارية لأنها تنقطع بانقطاع الاعتبار، فلم يكن التسلسل فيها حقيقيًا حتى يمتنع، نعم يرد لو قلنا بأنها ثابتة فى نفس

الأمر مع قطع النظر عن اعتبار المعتبر بأن يراد بنفس الأمر ماهو أعم من الخارج وهو أن يكون الثبوت فيه ثبوت الشيء في نفسه بقطع النظر عن تعقل العاقل وذهن الذاهن كأبوة زيد لعمرو مثلا فإنها ثابتة اعتبرها معتبر أم لا فا علمه.

على أن الإشكال وارد في التعلقات وإن لم نسلم أنها هي صفات الأفعال، وجوابه ما مَرَّ مع مايرد عليه لو قلنا (ص٧٥٤) بثبوتها في نفس الأمر، إلا أن يمنع امتناع التسلسل في الأمور الغير الحقيقية لكونها لم تكن من الخارج ولكن منع هذا المنع أحق، وهو عند المحققين أدق، فافهمه غير ملتفت إلى الرجال فإنه بالحق تعرف لا أنه بها يتعرف.

بقي أن الخلاف في هذ المسيلة يكاد أن يكون لفظيًا، فإن أحدا لاينكر عموم تعلق القدرة بالحوادث، وإنما الخلاف هل هذه الأشياء هي الحوادث فتكون من متعلق القدرة أم لا؟

إن بنينا على أن الحادث لابد وأن يكون موجوداً ويؤيده مارجحوه في مقابلة أن القديم لابد وأن يكون موجوداً نفينا التعلق وإلا أثبتناه، وإنما اختلف الترجيح في المسألتين وهو اعتبار الوجود في القديم دون الحادث، لما قام عندهم لسيما مراعة الأدب الذى عرفته من الإضافة إلى جناب الحضرة القدسية، فإن مراعاة ذلك الجناب هو الصواب وإليه المرجع والمآب».

انتهت الرسالة المذكورة.

ولما اطلع عليها الأستاذ الحفني كتب عليها مانصه بعد البسملة:

* تعليق الأستاذ الحفنى على رسالة «تحرير المباحث» للشيخ محمد بدر الدين الشرنبابلي.

«الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه وعترته وحزبه (وأما بعد) فقد قلدت عاطل جيد الفهم

بفرايد فوايد النفع الأعم المحلاة بمحاسنها صدور تلك الطروس، والمهناة بنفايس أسرار بدايعها النفوس، كيف ومبديها واسطة عقد النبلا، ونتيجة أعيان الحذاق البلغا الفضلا، سباق ذوى التحقيق، وفواق سباق فرسان التدقيق، المنادية ألسن الحقايق لإظهار فضلة من له الحق دعا الالمعى:

الـــذى يـــظـــن بـــك الـــظـــن
كـــأن قـــد رأى وقـــد ســـمـــعـــا

وقد وجدت فى حاشية السُّكتانى* مايؤيد (ص٧٥٥) هذا العارف الغارف الدانى حيث قال:

حاشية السُّكتاني، هو عيسي بن عبد رحمن ت١٠٦٢ = ١٦٥٢م.

المراد بوجود الممكن ثبوته من إطلاق الأخص على الأعم مجازًا قرينته تعليق التأثير على الوصف المناسب وهو الإمكان، وذلك يشعر بعليته، وإذا كانت العلة هى الإمكان وهو موجود فى كل الممكنات، ولم يكن فرق بين الحال وغيرها، فالمراد بالوجود ماهو أعم، انتهى، المراد بالأحوال فى كونها من متعلقات القدرة وقد صرح بذلك شيخنا وقدوتنا وعمدتنا الشهاب الملوى فى شرح منظومته الأشعرية وعبارته «وسابعها قدرة، وهى صفة قديمة تصلح لأن يؤثر بها مولانا فى ثبوت الجايز، ولم أقل فى إيجاده لإدخال الوجه والاعتبارات وإدخال الأحوال على القول بها فإن القدرة تتعلق بها لأنها من الممكنات» انتهى.

لكن التسلسل الذى أورده هذا العلامة علي مابناه لم يظهر لنا جواب عنه، فما دام واردًا أشكل ماذكره هؤلاء الأعلام ولاسيما وقد صرح السُّكّتانى وعبد الحكيم بخلافه، فلعل الله أن يفتح بالجواب. كتبه محمد الحفناوى مصليًا مسلمًا على النبى وآله وسائر الأصحاب.

ولما عاد إلى المترجم كتب تحته مانصه:

«وقد فتح الله بالجواب على مؤلفه أضعف الطلاب فأقول ماصرح به السُّكّتانى وعبد الحكيم صرح به كثير ولسنا ننازع فى ثبوت القول الآخر الذى صرح به هؤلاء كما نازع المخالف فى ثبوت ماقلناه فضلا عن راجحيته وقد أوردنا هذا الاشكال معترفين بقوته على هذا الذى وقع فى ترجيحه من المحققين، وقد علمت أن إيراده لايتوجه إلا على تقدير إرادة الثبوت فى نفس الأمر، لافى اعتبار المعتبر فيجوز أن يلتزم مقتضاه، ويقال بعدم المتعلق حينئذ لكونه فى نفسه عدمًا صرفًا (ص٧٥٦) لاحظ له فى الوجود بخلافه فى اعتبار المعتبر، فافترقا، ويكون جمعًا بين القولين، فمن قال بمخلوقيته نظر إلى وجوده فى الأذهان، ومن نفى نظر إلى فقده فى الأعيان، وليس الأول مبنيًا على القول بالصورة وأنها عرض كما زعمه المخالف لاتفاق الجميع على حصول شىء فى الذهن، وإنما وقع الخلاف هل يسمى موجودًا نظرًا لثبوته فيه أم لالفقده فى الخارج؟ وقد وقع اختيار الايمة أنه يسمى بذلك مجازًا فاعرفه انتهى. توفى المترجم فى المحرم افتتاح السنة وصلى عليه بالأزهر ودفن بالقرافة عند جده، لأمه، رحمة الله تعالى.

٣١١ أحمد بن إسماعيل بن محمد أبو الامداد الوفائى.

[مات] الجناب الأمجد والملاذ الأوحد حامل لواء علم المجد وناشره، وجالب متاع الفضل وتاجره، السيد أحمد بن إسماعيل بن محمد أبو الأمداد سبط بنى الوفا، والده وجده من أمراء مصر،وكذا أخوه لأبيه محمد، وكل منهم قد تولى الإمارة، والمترجم أمه هى ابنة الأستاذ سيدى عبد الخالق بن وفا، ولد بمصر ونشأ فى حجر أبويه فى عفاف وحشمة وأبهة، أحبه الناس لمكان جده لأمه المشار إليه مع جذب فيه

وصلاح، وتولى نقابة السادة الأشراف سنة ثمان وستين ومابة وألف، وسار فيهم سيرة مرضية وقد مدحه الشيخ عبد الله الإدكارى بأبيات وفيها لزوم مالايلزم

قالوا نقابة مصر أودى كفؤها
وتسربلت بحدادها واستخفت
فأجبت كلا بل لها الكفء الذى
رتب العلا بفخاره قد حفت
هو ذو المحامد أحمد من ذاته (ص٧٥٧)
جمل الفضائل والكمال استوفت
لما دعاها أذعنت واستبشرت
وأتته طائعة ولم تتلفت
وتبرجت فلذاك قلنا أرخوا
أدبًا لأحمدها النقابة زفت

[ثم] بعد وفاة السيد أبى هادى بن وفا تولى الخلافة الوفائية وذلك فى سنة ست وسبعين ومابة ألف، وقد أرخه الشيخ المذكور بقصيدة وهى هذه؛

قيل لى هل مدحت آل على
مَن بهم يكتسى الأديب الشرافه
ال بيت الوفاء من خصصوا
بالمجد والفخر والتقى والأنافه
قلت ماقدر مدحتى لكرام
بهم تأمن الأنام المخافه
غير أنى لفرعهم أحمد المجـ
ـد سأجلو بمنطقى أوصافه

هو بيت الأفضال شمس المعالى
أوحد الفضل جامع للطافه
منه أضحى دست الخلافة من صد
رخليًا ومادروا إسعافه
قال أعلى الجدود فى الحال هاتوا
نجلنا أحمد الذكى العرافه
قدموه فقلت فى الحال أرخ
جده قد أولاه ركن الخلافه

ولما تقلد ذلك نزل عن النقابة للسيد محمد أفندى (ص٧٥٨) الصديقى وقنع بخلافة بيتهم. وكان إنسانًا حسنًا بهيًا ذا تؤدة ووقار وفيه قابلية لإدراك الأمور الدقيقة والأعمال الرياضية، وهو الذى حمل الشيخ مصطفى الخياط الفلكى على حساب حركة الكواكب الثابتة وأطوالها وعروضها ودرجات ممرها ومطالعها لما بعد الرصد الجديد إلى تاريخ وقته، وهى من مآثره مستمرة المنفعة لمدة من السنين، واقتنى كثيرًا من الآلات الهندسية والأدوات الرسمية رغب فيها وحصلها بالأثمان الغالية، وهو الذى أنشأ المكان اللطيف المرتفع بدارهم المجاور للقاعة الكبيرة المعروفة بأم الأفراح المطل على الشارع المسلوك ومابه من الرواشن المطلة على حوش المنزل والطريق ومابه من الخزاين والخورنقات والرفارف والشرفات والرفوف الدقيقة الصنعة وغير ذلك، وهو الذى كنى الفقير بأبى العزم، وذلك فى سنة سبع وسبعين وماية وألف، برحاب أجدادهم يوم المولد النبوى المعتاد.وتوفى فى سابع المحرم سنة تاريخه وصلى عليه بالجامع الأزهر بمشهد حافل، ودفن بتربة أجدادهم، نفعنا

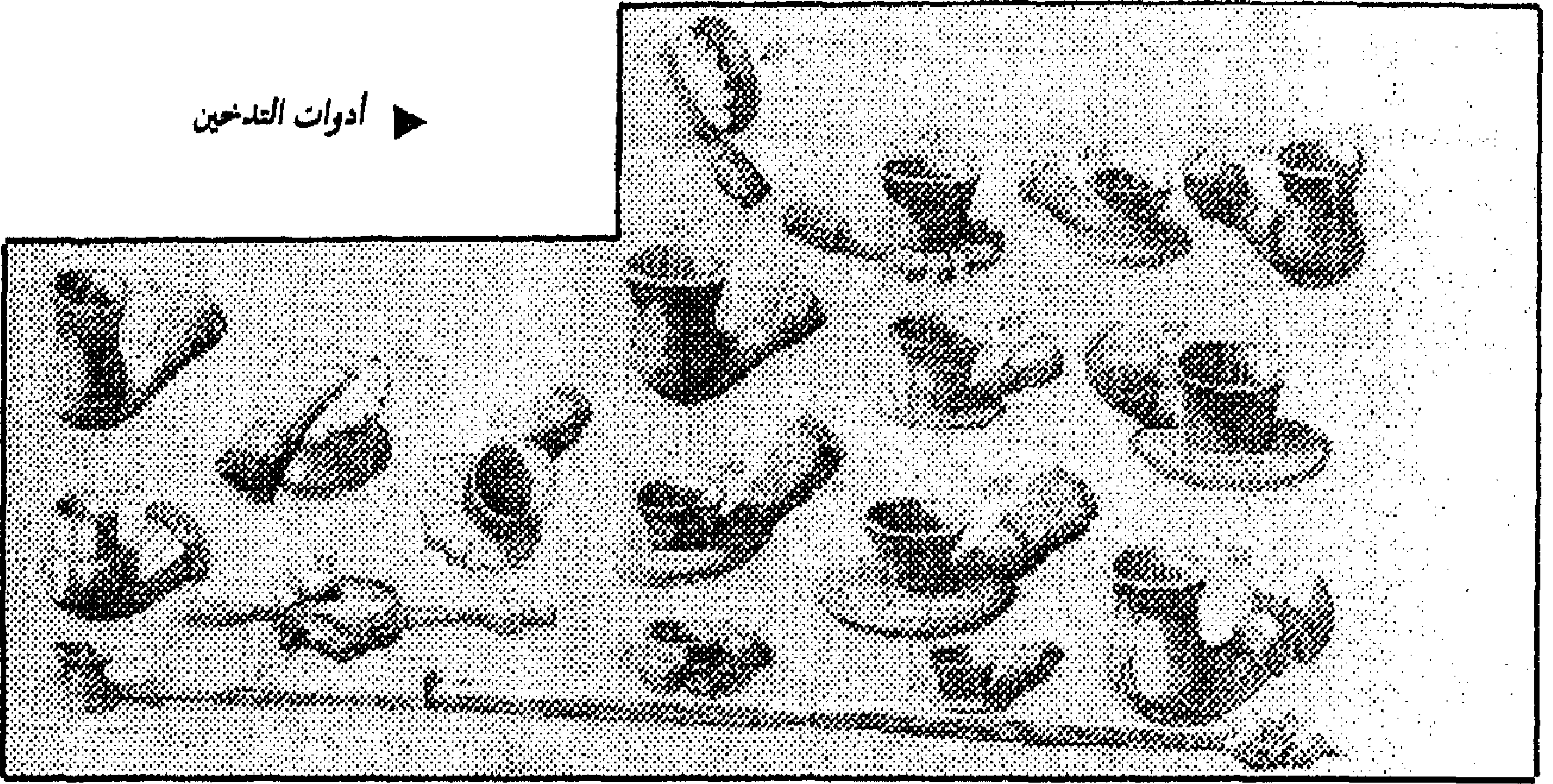
الله بهم وأمدنا من إمدادهم، وتولى الخلافة بعده مسك ختامهم ومهبط وحى أسرارهم، نادرة الدهر، وغرة وجه العصر، الإمام لعلامة، واللوذعى الفهامة، من مصابيح فضله مشارق الأنوار، السيد شمس الدين محمد أبو الأنوار.

بحر من الفضل الغزير خضمه
طامى العباب ومابه من ساحل

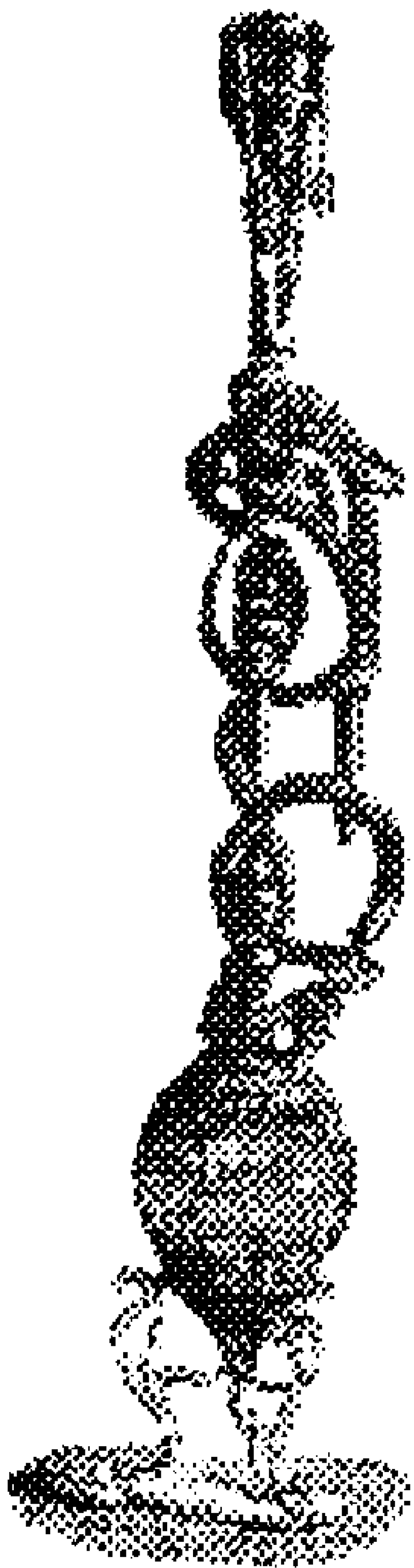
نسأل الله لحضرته طول البقا، (ص٧٥٩) ودوام العز والارتقا، آمين.

٣١٢ عبد الرءوف بن محمد السجينى شيخ الأزهر.

[مات] الإمام العلامة الفقية النبيه شيخ الإسلام، وعمدةالأنام، الشيخ عبد الرءوف بن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد السجينى الشافعى الأزهرى شيخ الأزهر وكنيته أبو الجود، أخذ عن عمه الشمس السجينى ولازمه وبه تخرج، وبعد وفاته درس فى المنهج موضعه، وتولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ الحفنى وسار فيها بشهامة وصارمة إلا أنه لم تطل مدته، وتوفى رابع عشر شوال وصلى عليه بالأزهر ودفن بجوار عمه بأعلى البستان. واتفق أنه وقعت له حادثة قبل ولايته على مشيخة الجامع بمدة، وهى التى كانت سببا لاشتهار ذكره بمصر، وذلك أن شخصًا من تجار خان الخليلى تشاجر مع رجل خادم فضربه ذلك الخادم وفر من أمامه، فتبعه هو وآخرون من أبناء جنسه فدخل إلى بيت الشيخ المترجم، فدخل خلفه، ضربه برصاصة فأصابت شخصاً من أقارب الشيخ يسمى السيد أحمد فمات، وهرب الضارب فطلبوه فامتنع عليهم، وتعصب معه أهل خطته



أدوات التدخين



نارجيله (شيشه)

وأبناء جنسه، قام الشيخ عبد الرءوف وجمع المشايخ والقاضى وحضر إليهم جماعة من أمراء الوجاقلية وانضم إليهم الكثير من العامة وثارت فتنة أغلق الناس فيها الأسواق والحوانيت واعتصم أهل خان الخليلى بدايرتهم وأحاط الناس بهم من كل جهة، وحضر أهل بولاق وأهل مصر القديمة وقتل بين الفريقين عدة أشخاص، واستمر الحال على ذلك أسبوعا، ثم حضر على بك أيضًا وذلك فى مبادى أمره قبل خروجه منفيا واجتمعوا بالمحكمة الكبرى، وامتلا (ص٧٦٠)حوش القاضى بالغوغاء والعامة وانحط الأمر على الصلح وانفض الجمع ونؤدى فى صبحها بالأمان وفتح الحوانيت والبيع والشراء وسكن الحال.

٣١٣ أحمد بن صلاح الدين الدنجيهي.

[ومات] الشيخ الصالح الخير الجواد أحمد بن صلاح الدين الدنجيهي الدمياطي شيخ المتبولية والناظر على أوقافها، وكان رجلا ريسا محتشما صاحب إحسان وبر ومكارم أخلاق، وكان ظلا ظليلا على الثغر يأوى إليه الواردون فيكرمهم ويواجههم بالطلاقة والبشر التام مع الإعانة والإنعام، ومنزلة مجمع للأحباب ومورد لائتناس الأصحاب، توفي يوم السبت ثاني عشر ذى الحجة عن ثمانين سنة تقريباً.

٣١٤ أحمد بن أحمد العطشى.

[ومات] الإمام الفاضل أحد المتصدرين بجامع ابن طولون الشيخ أحمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عامر العطشى الفيومي الشافعي، كان له معرفة في الفقه والمعقول والأدب، بلغني أنه كان يخبر عن نفسه أنه يحفظ اثنى عشر ألف بيت من شواهد العربية وغيرها، وأدرك الأشياخ المتقدمين وأخذ عنهم، وكان إنسانا حسنا منور الوجه والشيبة، ولديه فوايد ونوادر، مات في سادس جمادى الثانية عن نيف وثمانين سنة تقريبا، غفر الله له.

٣١٥ خليل بك القازدغلي.

[مات] الأمير خليل بك القازدغلي، أصله من مماليك إبراهيم كتخدا القازدغلي، وتقلد الإمارة والصنجقية بعد موت سيده وبعد قتل حسين بك المعروف بالصابونجي، وظهر شأنه في أيام علي بك الغزاوى وتقلد الدفتردارية، ولما سافر علي بك أميرا بالحج في سنة ثلاثة وسبعين جعله وكيلا عنه في رياسة البلد ومشيختها، وحصل ماحصل (ص٧٦١) من تعصبهم على علي بيك وهروبه إلى غزة كما تقدم وتقلبت الأحوال، فلما نفى على بك جن في المرة الثانية كان هو المتعين



▲ منظر خارجي لجامع بن طولون. ويشاهد اعلى مئذنته المركب (العشارية) التي كان يوضع بها الحبوب للطيور على عادة المعابد الفرعونية القديمة.

للامارة مع مشاركة حسين بك كشكش، فملا وصل على بك وصالح بك على الصورة المتقدمة هرب المترجَم مع حسين بك وباقى جماعتهم إلى جهة الشام ورجعوا فى صورة هايلة، وجرد عليهم على بك وكانت الغلبة لهم على المصريين فلم يجسروا على الهجوم كما فعل على بك وصالح بك، فلو قدر الله لهم ذلك كان هو الرأى، فجهز على بك على الفور تجريدةً عظيمة وعليهم محمد بك أبو الدهب وخشداشينه، فخرجوا إليهم وعدوا خلفهم ولحقوهم إلى طندتا [طنطا الحالية]، فحاصروهم بها وحصل ماحصل من قتل حسين بك ومن معه، والتجأ المترجم إلى ضريح سيدى أحمد البدوى فلم يقتلوه إكراما لصاحب الضريح، وأرسل محمد بك يخبر مخدومه ويستشيره فى أمره، فأرسل إليه بتأمينه وإرساله إلى ثغر اسكندرية، ثم أرسل بقتله فقتلوه بالثغر خنقا ودفن هناك، وكان أميراً جليلا ذا عقل ورياسة، وأما الظلم فهو قدر مشترك فى الجميع.

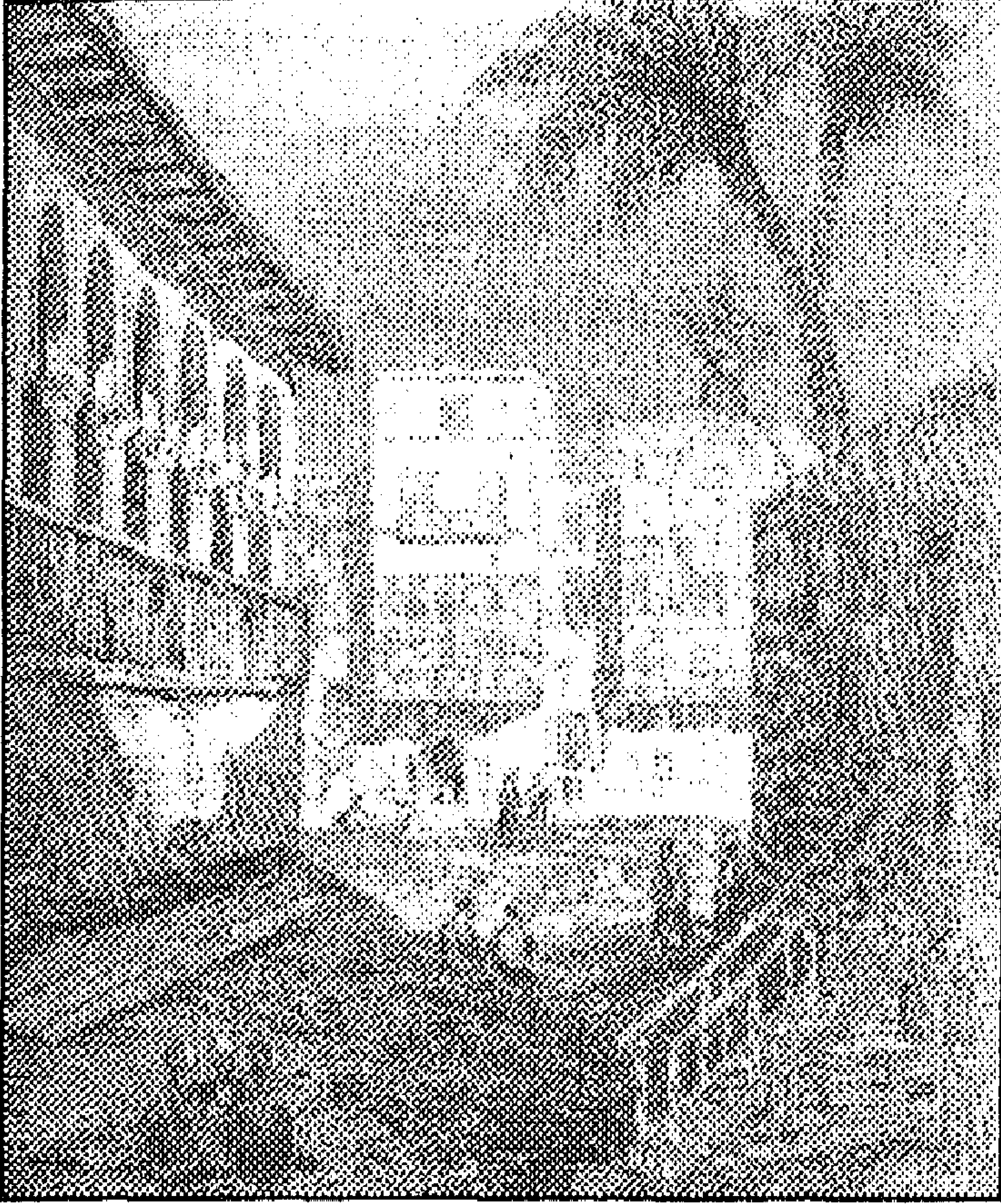
٣١٦ حسين بك كشكش القازدغلى.

[مات] أيضا الأمير حسين بك كشكش القازدغلى وهو أيضاً من مماليك إبراهيم كتخدا وهو أحد من تأمر فى حياة أستاذه، وكان بطلا شجاعاً مقداماً مشهوراً بالفروسية، وتقلد إمارة الحج أربع مرات آخرها سنة ست وسبعين وماية وألف، ورجع أوايل سنة سبع وسبعين، ووقع له مع العرب ماتقدم الإلماع به فى الحوادث السابقة، وأخافهم وهابوه حتى كانوا يخوفون بذكره أطفالهم، وكذلك عربان الأقاليم المصرية، وكان (ص٧٦٢) أسمر جهورى الصوت عظيم اللحية يخالطها الشيب، يميل طبعه إلى الحظ والخلاعة، وإذا لم يجد من يمازحه فى حال ركوبه وسيره مازح سواسه وخدمه

وضاحكهم، وسمعته مرة يقول لبعضهم مثلا سايرًا ونحو ذلك، وكان له ابن يسمى فيض الله كريم العين فكان يكنى به ويقولون له أبو فيض الله، مات بعده بمدة. قتل المترجم طندتا وأتى برأسه إلى مصر كما تقدم ودفن هناك وقبره ظاهر مشهور، ودفن أيضا معه مملوكه حسن بك شبكة وخليل بك السكران وكانا أيضا يشبهان سيدهما في الشجاعة والخلاعة.

٣١٧ صالح بك القاسمي.

[مات] الأمير الكبيرالشهير صالح بك القاسمي وأصله مملوك مصطفى بك المعروف بالقرد، ولما مات سيده تقلد الإمارة عوضه، وجيش عليه خشداشينه واشتهر ذكره، وتقلد إمارة الحج في سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف كما تقدم في ولاية علي باشا الحكيم، وسار أحسن سير ولبسته الرياسة والإمارة والتزم ببلاد أسياده وإقطاعاتهم القبلية هو وخشداشينه وأتباعهم، وصار لهم نماء عظيم وامتزجوا بهوارة الصعيد وطباعهم ولغتهم، ووكله شيخ العرب همام في أموره بمصر وأنشأ داره العظيمة المواجهة للكبش [بالمقطم]، ولم يكن لها نظير بمصر، ولما نما أمر علي بك ونفى عبد الرحمن كتخدا إلى السويس، كان المترجم هو المتسفر عليه، وأرسل خلفه فرمانا بنفيه إلى غزة، ثم نقل منها إلى رشيد ثم ذهب من هناك إلى الصعيد من ناحية البحيرة، وأقام بالمنية وتحصن بها وجرى ماجرى من توجيه المحاربين (ص٧٦٣) إليه وخروج علي بك منفيا وذهابه إلى قبلي وانضمامه إلى المذكور كما تقدم بعد الأيمان والعهود والمواثيق وحضوره معه إلى مصر على الصورة المذكورة آنفا، وقد ركن إليه وصدق مواثيقه



أحد شوارع رشيد.

ولم يخرج عن مزاجه ولامايأمر به مثقال ذرة، وباشر قتال حسين بك كشكش وخليل بك ومن معهما مع محمد بك كما ذكر آنفا، كل ذلك في مرضاة علي بك وحسن ظنه فيه ووفائه بعهده إلى أن غدر به وخانه وقتله كما ذكر، وخرجت عشيرته وأتباعه من مصر على وجوههم، منهم من ذهب إلى الصعيد ومنهم من ذهب إلى جهة بحرى. وكان أميراً جليلا مهيبا لين العريكة يميل بطبعه إلى الخير ويكره الظلم، سليم الصدر ليس فيه حقد، ولايتطلع لما في أيدى الناس والفلاحين، ويغلّق ماعليه وعلى أتباعه وخشداشينه من المال والغلال الميرية كيلا وعينا سنة بسنة، وقوراً محتشما كثير الحيا، وكانت إحدى ثناياه مقلوعة فإذا تكلم مع أحد جعل طرف سبابته على فمه ليسترها حياء

من ظهورها حتى صار ذلك عادة له، ولما بلغ شيخ العرب همام موته اغتم عليه غمًا شديدًا وكان يحبه محبة أكيدة وجعله وكيله في جميع مهماته وتعلقاته بمصر ويسدد له ماعليه من الأموال الميرية والغلال، ولما قتل الأمير صالح بك أقام مرميا تجاه الفرن الذى هناك حصة، ثم أخذوه فى تابوت إلى داره وغلوه وكفنوه ودفنوه بالقرافة، رحمة الله تعالى.

٣٩٨ جعفر بن محمد البيتى السقاف باعلوى الحسينى.

[مات] وحيد دهره في المفاخر، وفريد عصره فى المآثر، نخبة السلالة الهاشمية، طراز العصابة المصطفوية، السيد جعفر بن محمد البيتي السقاف باعلوى الحسينى أديب جزيرة الحجاز، ولد بمكة وبها أخذ عن النخلي (ص٧٦٤) والبصرى وأجيز بالتدريس فدرّس وأفاد واجتمع إذ ذاك بالسيد عبد الرحمن العيدروس وكل منهما أخذ عن صاحبه، وتنقلت به الأحوال فولى كتابة الينبع ثم وزارة المدينة وصار إماما فى الأدب يشار إليه بالبنان، وكلامه العذب يتناقله الركبان، وله ديوان شعرجمعه لنفسه فمن ذلك قوله:

حيي بكاسك لى مع نسمة السحر*
وسلسلي الراح من نحرى إلى سحرى*
حيي براحك ياروأحى على جسدى
فديك بالنفس ياسمعى ويابصرى
هبى بشمسك فى ظل الشباب وفى
ظل الغصون وفى ظل من الشعر
هبى وشقى قميص الفى من قُبل
فالراح شقت قميص الليل من دبر

* السحر: بفتح السين والحاء هو قبيل الصبح.

* سحرى بفتح السين والحاء أيضًا بمعنى (رئتي). وقوله من نحري إلى سحرى أى من أعلى الصدر إلى الرئة.

وروسطى بيننا فى الشـــرب واسطة
من كـــأس ثغــرك هذا الطيّب العطر
خــداك والروض أزهار مــضــاعــفــة
وذى الدرارى وذى الكاســات كــالدرر
ناهيك من جــودة التــجنيس بينهــمــا
مـــاأطيب الشـــرب بين الزهر والزهر
صُــفى قنانيك حــول الكاس راكـعــة
وحــيــعلى وأقــيـــمى الوِتر بالوَتَر
دنيــاك مــعــشــوقة والخــمــر ريقــتــهــا
ياضــيــعــة العــمــر بين السكر والسكر*
ردى عــهــودك لى كى أشــتكى حــزنى
إلى ربيــعى مــاكــابدت فى صــغــرى

ومنها فى التخلص:

والجــاهليـــة شـــتى فى فــروعـــهم
وأصـلهم واحـــــد من أول الفـطـر
كل يميل إليـــه مـــايناســبـــه
وليس ذاك بموقـــوف على البـــشـــر
مَـيْلى لأسـمــاء إسـمــاعـيل أوجـبـه
منه الجناس وأمـــر غـــامض النظر
وألفـــة من ألســت* بيننا ســبـــقت
ولم المهـــا وقــد جــاءت على قـــدر
فــحب سلمى وأســمــا زايل عــرض
والجـوهر الفـرد إسـمـاعـيل وهوحـرى

وهى طويلة، ومن شـعـره فى المجـون مـاأرسل به إلى بعض أصحابه منها:

* السكر: بضم السين وسكون الكاف هو الاسم من سكر. أما السكر بفتح السين والكاف فهو الخمر.

* الست : فيهما إشارة إلى الآية الكريمة «الست بربكم» والمقصود هنا هو تذكير المخاطب بما بينهما من مودة سابقة.

يـابـن ودى وصـــــديـقـى
حـــال مـــاتقـــرا البطاقـــة
البس العـــمـــة واحـــضـــر
ولايكـن عـنـدك عـــاقـــة
واركـــب الأدهـــم واركُـــضْ
واغـطـه مـنـك الـطـلاقـــه
واكـــتـم الأمـــر وبـادر
غـــفـلة دون الرفـــاقـــه
كُـــملَ الـوفـقُ الـثـــلاثى
ولنـا نـحـــوك شـــاقـــه
فـلـديـنـا كـــــأس راح
واصـطبـــاح واغـــتـبـــاقـــه

ومليح اخـــجل الأغـــصـــان لينا ورشـــاقـــة
ومليح يشـــتـهي للبـــوس* إن شـــئت اعـــتناقـــه
يبـــخس الآيار بالكيل ويســـتـــثنى وثاقـــه
كلمـــا اشـــتـــقت إلى البـــر
جـــاس حليت نطاقـــه
مـن ورا يـعـطـى وقـــــدا
م مـــحـــبـــا وعـــيـــاقـــه
(ص٧٦٦) ونـديم فى المعـــاصى
خـــارج من ألف طاقـــة
وهي طويلة (وله من أخرى).
قـــــد خلـينـا أمـس لـكـن
بقـــيت عـندى خـــبـلـه
فـــاســـقنا واشـــرب إلى أن
نـبـق فـى المجلـس مُـــثْـلـه

* البوس: بفتح الباء وسكون الواو هو التقبيل.

مـــــايلـذ الـسـكـر حـــــتـى
يمـــضــغ الـــســـكــران نـــعــلــه
ويــرى الــبـــــــــغــلــة ديــكــا
ويــظــن الــفـــــــــيــل نمــلــه
اســـمــع الـقـــســـيــس قـــدِ دق
لــشـــــــــرب الــراح طــبــلــه
غـــفـلـة الـواشى اغـــتــنـمـــهـــا
لاتــكــن عــنـدك غـــــــــفــلــه
إن تــأخـــــــرت قـلـيــــــــلا
كــــتـــبـت ســـبـــعـــون زلـه
خــل عــنـى قـــــــــام زيــد
قــــعـــــــدت هـنـد وغْـــــبـلـه
ضـــــربـت تـضـــرب ضــــــربـا
كــل ذاك الـصـــــــــرف عــلـه
حــــرت فى يعـــقــــوب والرمى مـــتى أعـــرف رمـله

(من شعره).

سـلـم لمـن رقـــــاه حظ كـــمــــــا
يُسَلّـم الـفـــــرزان لـلـبـــيـــــدق*
فـطـاوع الـصـــــــانـع ثـم انـطـبـع
بـكـل مـــــاشـكـل فى الـريـزق

(وله).

فـــضـلـك رزق زايـد فـــوق مـــــا
تـرزقـــــــه مـع ســـــايـر الخـلـق
لأنـــه لابـــد مـــن بـــلــغـــــــة
ثـم الحـــــجـــــا رزق عـلـى رزق

* الفرزان بكسر الفاء وسكون الراء من قطع الشطرنج وهو كلمة فارسية معربة.

* البيدق: كلمة فارسية ترسم بالدال، ومعناها أحد جنود المشاة. وتطلق على إحد قطع الشطرنج.

(وله).

تجـــاوز عن مـــرام النطق منى
أرانى مـــايطاوعنى لســـانى
أخـــافك أولا إن قلتُ صـــدقـــا
وإن أكـــذب أخـــاف الله ثانى
فأسكت مطرقا حتى أرجح(ص٧٦٧)
مقـالا معك فيـه صلاح شأنى
فـلا تنكر جـمـودى إنّ رقـصى
على مـقـدار تحـريك الزمـان
يصـدُّ المرء يومـا عن حـديثى
فـتـدخلنى البـلادة والتـوانى
ويقـبل لاسـتـمـاع القـول خلى
فـأصـدع بالبـراعـة والبـيـان

(وله).

تحـرك لحـفظ الشيء عندك مـرة
فـإن أنت لمن تفـعل تحـركت أربعًـا
ومن تلك قـد جـربتـه فـحـمـدته
فـعض عليـه بالنواجـذ أجـمـعـا
ولاتتـحـول عن أخ قـد عـرفـتـه
لآخـر مـاجـربتـه تندمـا مـعًـا
ومـالناس إلا كـالدواء فـبـعـضـه
شـفى وكـفى والبـعض اذى وأوجـعـا
ودار عـدوًا والصـديق لنفـعـه
فـمن لم يدارِ المشط ضـر وقطعـا

(وله).

كل امــرئ شــاوره فى صنعــتــه
لاتســأل الخـيــاط عن بحــر الخــشب
وقلد الحــاضــر فى الأمــر الذى
قــد غــاب عنك فــهــو أدرى وأطب

(وله).

جــمــيع أمــورك اضــبطهــا بحــزم
وقــــدم ربط أقــــربهـــا ذهابًا
وباب الشـــرع لاتتــركــه تلجــأ
إليـــــه أو لأضــــيق منه بـابا
وكل قــضــيــة تخــشى عليــهــا
فــأودعــهــا شــهــودك والكتــابا

(وقال فى سليم بعمل التبديل):

تقــــول أضنانى الغـــزال الألعس*
يحــفظه رب للســـمـــا ويحــرس
عـــواذلى إن بسلْوى وســـوســـوا
لى مــركــز فى الســقم ثوب يلبس

(وقال فى هلال بعمل الاشتراك والقلب وغيره):

واســتــفــهــمــونى عن مليح ذاته
كـــالبـــدر بل صـــورته مـــرآته
فـالنصف فى اســتــفــهـامــه أداته
ولاتــدور آخـــــــر آهـيـنـاتـه

(فى ناصح بعمل التأليف والتشبيه وغيره):

ألبـــسنى هجــرانه ثوب الســـقم
وصـــد عن عين الكرى فـــمـــا ألم

* الألعس بفتح العين سواد مستحسن فى الشفة، يقال غزال ألعس أى فيه ملاحة وحسن.

وراح يقـــرا فى الضــــحى ثم ألـم

فـــصح ســقــمى بعــد نون والقلم

في سمسم بعمل الحساب:

قـــيــــــدني على هـواه وربط

ثـم نـأى عـن المـزار وشــــــحـط

صـحف في كـتـاب عـهـدى ونقط

كـــان ودادًا فــتــعــالى فــهــبط

(ص٧٦٩)(فى حصان بعمل القلب وغيره)

أهواه ســـحــــار اللحـــاظ والرنا

أهـيـفُ يزرى قـــــده عـلى القـنـا

أفـنـانى الســـــقـم ويـانـعـم الـفـنـا

مــذ نهنه الناصح فـيـــه فــانثنى

(فى أسماء بعمل التشبيه والترادف):

ســـألتـــه عن اســـمـــه حين ورد

فـقـال ذا جـمـيـعـه لمن قـصـد

فـاسـتـخـرج الحـيـة من بطن الأسـد

وحطهـــا فى ذيله من غـيـــر حـد

(فى مسجد بعمل الترادف):

قـامـتـه كـالـسـمـهـرى قـامت

على دمي تبـــيــــحـــه ودامت

وعـــينه راومـــتـــهـــا فـــرامت

كـمـثـل عين قـد غـفـت فنامت

(فى غزال بعمل الإسقاط والكناية والإدخال):

قـامـتـه السّرا * وأســـيـــاف المقل

غـــزوان شنّا الحـرب فى ســـرح الأجل

* السـرا: هى السـراء وهي شـجـرة طويلة تصنع منها الأقواس فقوله (قامته سرا) أى انه طويل القامة.

صــامــا عن الراحــة فى نيل الأمل
وانتــعــلا من الحــفــا خفٌ جــمل

(فى إبرة بعمل التحليل):

قــد واصلت كل المنى مــضناها
وانهض الشــيـخ إلى لقــاها
فــيــالهــا من ســجــدة فى طيــه
حين أبى قــدامــهــا وراها

(ص٧٧٠)(فى غمام بعمل الكناية والإدخال):

غــلامك الهــايم ياذا الرشــا
أجــزعــه الواشى بما عنه وشــا
عــسى بما تدركــه فــينعــشــا
فــؤاده إن الغــلام عطشــا

(وقال فيما اصطلحوا عليه فى التشبيه):

وكل مــااســتــدار مــثل الخــال
وكــــوكــب وقــطــرة لآلــى
للنقط مــثل اللام للعــذار
وقس بذا مــاشــاع باشــتــهــار
كــحــيــة وقــامــة وكــالعــصــا
لألف تريدها مــخــصــصــا
وثم فن اللغــز والمعــمــى
خــصت من واجــبــه الأهَمّــا

(وقال معارضاً قصيدة فتح الله النحاس):

رأى البق من كل الجـهـات فـراعـه
فـلاتنكروا إعـراضـه وامـتناعـه
ولاتسـألوني كـيف بت فـإنني
لقـيت عـذابًا لاأطيق دفـاعـه
نزلنا بمرسى ينبع البـحـر. مـرة
على غـيـر رأى مـاعلمنا طبـاعـه
نقـارع من جند البـعـوض كـتـايبًا
وفـرسـان نامـوس عـدمنا قـراعـه
فلو عـاينت عـيناك مـيدان ركـضـه
رأيت جرئ القلب فـيـه شـجـاعـة
(ص٧٧١) وجندًا من الفيران في البيت كمنا
متى وجـدوا خـرقـا أحـبـوا اتسـاعـه
ومن حط شـيـئًـا في جـراب وبطة*
فـمـا رام عند الفـأر إلا ضـيـاعـه
وسُـرْبة قـمل تنبـرى إثر سـربة
خـفـاقـا إلى مص الدمـاء سـراعـه
ينازعـهـا البُـرغـوث لحـمي فليتـه
رضي بتـلافي واكـتـفـينا نزاعـه
فلو يجـد الملسـوع من عُظم مـابه
من الصـخـر درعـا لاسـتـخـار ادراعـه
قـرب قـمـيص كـان شرًا من العرى
إذا ضـمـه الملتـاع زاد التـيـاعـه
كـأني وصي للبـراغـيث قـايمًا
أقـيت له أيتـامَـه وجـيـاعـه
إذا شـبع الملعـون مج دمـا على
ثيـابي فـلا أحـيـا الإله شـبـاعـه

* بطة: وعـاء الدهن: وهو إناء كـالقـارورة أبطح.

فـمـا رشنا بالدم إلا لسـانه
ولـم ترعـينى مكره وخـداعـه
سلوا عن دمى سارى البعـوض فـإننى
علـمت يقـينا أنه قـد أضـاعـه
فلله جلد صـار بالحك اجـربا
أخـاف عليـه يافـلان انقـشاعـه
وعظم سـلاق قـد تولع بالخـصـا
وحـر أذاب الجـسم ثم أمـاعـه
ونتن كنيف كلمـا هان عـرفـه
(ص٧٧٢)أحاط به واشي الهوى فأذاعه
بخـار كنيف ربما جلب العـمى
وسـبب للآتي إليـه الصـراعـه
فلو كـان يجـدى المرء تجـديعُ أنفـه
لود الذى يأتى الكنيف اجـتداعـه
لو كـان قطع الأكل والشـرب نافـعـا
لآثر بين العـالمين انقـطاعـه
وكـم قـد أكـلنـا نملـة وذبابـة
وفـارا بلعنا أذنه وكـراعـه
ومـاء زلاع صـار مـعـجـون علة
شـربناه كـرها وادخـرنا زلاعـه
وباء وسـقم لامـحـالة كله
ونرجـو من الله العظيم ارتفـاعـه
فـلا تعـذلوا المسكين إن عـيل صـبره
وأظهـر من جـور الزمـان انفـجـاعـه
فـقـد مـارس الأهوال فى أرض ينبع
ووطأ فـوق الغـانيـات اضطجـاعـه

ذرعت العنا فــيـــه يمينا ويســـرة
وصيرت صبرى والتأسي ذراعه وكشَفَ
فـــأعـــدلنى طول المقـــام
عن وجـــه اصطبـــارى قناعـــه
إذا زّم النامـــوس حـــولى أعلنّى
وصـــدع قلبى بالســـجـــوع وراعــه
وإن مص من دمى وطار تبـــعـــتــه
إلى فـــانت منه أرجى ارتجـــاعـــه
(ص٧٧٣) عدمت غِناء مثل أنغام سجعه
فـمـا كـان أشنى سجـعـه وابتـداعـه
ضـعـيف قـوى لايسـتـقـر من الأذى
وأضـــعف منه من يرجي اصطناعـــه
وقــد نفــدت فى دفــعــه كل حـيلة
ولو كنت بالحـسنى طلبت اندفـاعـه
فـيـا لأصـيـحـابى اقـتلونى ومـالكا
فـقـد مـد نحوى مفسدُ البق ورَعـاعه
وأصـبـحـت فى دار المشـقـة والعنا
أخـــالطُ أوغـــاد الورى ورَعـــاعـــه
وكلهـا من الأعـراب* يهـوى كـأنه
يريد إذا لاقى الأمين ابتـــلاعـــه
فلو صـاح فـوق الصـخـر خـر لوقـتـه
وأبصـرت من ذاك الصـياح انصداعه
براه إله الخلق للناس نقـــمـــة
وقـــد من الصـخـر الأصم طبـاعـه
فـلارحـم الرحـمن أرضـا يحلهـا
وباعـــد عنا بالسنين انتجـــاعـــه

* فى ذم الاعراب.

ومن كل جبار عنيد يرى الورى
عبيدا لديه والبقاع بقاعه
شقى عصى الرحمن فى كل أمره
ومال إلى شيطانه وأطاعه
فقل لرعاة الوقت إن نعاجكم
أتاح لها ريب الزمان سباعه
فهل لكم فى لم شمل الذى بقى
(ص٧٧٤)برأى بديع تحسنون ابتداعه؟
وإلا فإن الأمر لله كله
ولا رأى فى خرق يريد اتساعه
سلونا عن الدنيا فكل نعيمها
متاع غرور لايديم متاعه
وما أعتضت من كونى أديبا وفاضلا
لدى الناس إلا قوله وسماعه
ومن كان يرجو فى الأمانة مغنما
فخلوا له أوضاعه وخراعه
وقولوا له هذاك ينبع حاضر
لمن رام يبلو ضره وانتفاعه
فكم كاتب أفنى اليراع كتابة
ومل وألقى فى اليراع كتابه
وكم بدوى داسه فوق بطنه
ومزق مابين الأنام رقاعه
ومن جاءكم منا مع الليل شاردا
فذاك لهول واقع فيه راعه
ومن يمتنع عن خدمة مثل هذه
فلا تنكروا إعراضه وامتناعه

فـــمـــا يكسب الكيـــال إلا غـــبـــاره
ولا الكاتب المسكين إلا صـــداعـــه

(ومن إنشـائه) هذه المراسلة: إن أبدع براعـة يسـتـهل بهـا الوداد، ويدبج محاسنها كمال الاتحاد، وأجلى مذهب تسرع إلى معقله الهـمـم، وأحلى مشرب يكرع من منهله القلم، عرائس تحيات (ص٧٧٥) تزفها مواشط النسيم، وتحفها أتراب التكريم والتسليم بختام من مسك ومزاج من تسنيم، فتسفر بها أسفار المحبة، مع سفير أكيد الصحبة، محمولة على موضع الأخلاص، تالية لمقدم مزيد الاختصاص، شعر:

* رسالة أدبية من عهد الجبرتى.

قـــرنتـــهن تحـــيـــات يعـــززها
منى الســلام ووتر الحـمـد يشـفـعـهـا
تؤم مـــرتبع الآمـــال منتـــجـع الإ
فـضـال بل مـشـرق النعـمى ومطلعـهـا
مـخـتـار رأى العـلا من راقـبت قـدرا
به العـناية حـتى جل مـوقـعـهـا
فـــقـــيل ذلك فـــضل الله من به
ونعـمـة الله يدرى أين مـوضـعـهـا

ولاجرام فقصاياه إلى الحكم موجهات، وأنواع أجناس وضعه مختلطات، وعلى وحدة الصانع تدل المصنوعات، ومولانا المشار إليه أو حدى من انطوى فيه العالم الأكبر، وانتشرت به آية الفضل المطوى المضمر، فهو فى الأسلوب الحكيم إقليم التعاليم. وفى ديوان الأدب لسان العرب، وفى عدل الميزان الحجة والبرهان والسلم إلى الإيقان، ولوجوه الأعيان مرآة الزمان، والقرآن الأوسط وفى الأقران، نكتة العقل

الأول ومشرعه، ونهاية كمال الطبع ومطلعه، (شعر):

ياله من صـــحـــيح نعـــتى حـــديثـــا
بـحـــــر فـــــضل يرويه إبن مـــــعين*
رافع الوضع فهو فاعل فعل (ص٧٧٦)
أظهـــــرتـه الأقـــــدار فى التـكـوين
مـــعـــدن حل فـــيـــه جـــوهر علم
ليس فى ســـر غـــيـــبـــه بظنين
مـــثل مـــاكـــانت والاهرام مـــبنى لكل مـــعنى مـــصـــون
يـتـــــــــــدلى طـورا وطـورا تـراه
يتـعـــالى على اخـتـــلاف الشـئـــون
مـــاجـــد منطقى يقـــصـــر عنه
لـيس قـــدر الميـــزان كـــالموزرن
وإلى هاهنا وصلنا إلى النعت ومن فـوق ذاك علم اليــقين
لاخـــلاه الجـــمـــيل يبـــقى ولازا
لـت عـــلاه الذرا لـيـــوم الدين

(وبعد) فالموجب من المخلص لهذا التعهد، والمقتضى لمزيد التودد، هو ميل الروحانية إلى المناسب، وتألف الطبيعة بالملازم المتناسب، ولاغرو فإنى لمزيد الاشتياق، وطباق بديع الاتفاق، شعر:

خلقتُ ألوفـا لو رددت إلى الصـبْـا
لفـارقت شَـيْـبى مـوجَع القلب باكـيـا

ومع ذلك فعلامات الأسباب فى منهاج البيان، وتلخيص هذا النظام، تذكرة لتشحيذ الأذهان، وموجز ذلك على

* ابن معين: يقصد به محيى بن معين بفتح الميم وكسر العين وهو من القرن الثالث الهجرى ومن المعاصرين لأحمد بن حنبل.

قانون العادة، للشفاء بثمرة الإفادة، شعر:

نبض اشـتـيـاقى شـاهق مـتـواتر
(ص٧٧٧) عظيم ونبض الإذكار سريعُ
له حـركـات الكيف والأين نحـوكم
وباقى مـقـولات الوداد جـمـيعُ

وتلك نسبة تصديقها إذعان، ولازم نتيجتها برهان، وتلخيص مطولها بيان، ومازلنا نسأل معتل النسيم عن صحة الخبر، ونقنع العين بشـيـاف الأثر ، ونرجـو امع ذلك رفع أداة الانفصال، وحمل قضية الود على موجبة الاتصال، وإن سأل المولى عن القايم بوظيفة الأدعية، ورواتب الأثنية، فمازالت شعاب أكفه تستمطر غيوث الإحسان، ومقاليدُ دعائه تستفتح أبواب الامتنان من المنان، ولاسيما فى أوقات مظنة القبول، وتحقق بلوغ السول فى حضرة الرسول، فهو يُرْسخ ذلك فى سجلات الحسنات، ويؤبده فى تسطير الباقيات الصالحات، شعر:

وهذا دعـاء لو سكتُّ كـفـيـتـهُ
لأنى سـألت الله فـيك وقـد فـعل

فاذا ليس ذلك إلا من جهة واجب الإخاء، وملازمة فرض شروط الوفاء، فها أنا أعقد ألوية الثناء بذات الرقا ع، وأبث طلايع السؤال عن المخلص فى نفسه، لكشف لبسه، مع إخوان زمانه وأبناء جنسه، شعر:

فـعـبـدكْم مـخلص الوداد لكم
يبـات بالـذكـر ثـانى اثـنين
فنسـخـة الحـال مَـتْنُهـا جـمل
وشـرحـهـا فى شـواهد العين

وقد سبقتم إلى ذلك بالنظر، وليس كالخُبر الخَبر، إلا أن يكون اللباس، قد أوجب الالتباس، وأضاع القياس، فأطفأ النبراس، وهدم الأساس، وجمعنا مع آحاد الناس، فلا غرو فطالما حاولت الإيقاع، وتوخيت موافقة الأوضاع، ونظرت في تخت الحسبان لطريقة الاجتماع، شعر:

ولما أبى الإنتاج شكلا مناسبًا
تولده الأقدار في الخط والرمي
وقفتُ أغني للأصم مغردًا
وأرقص في ليل الجهالة للعُمْي

فالمدلي بالطبع لايستغني عن الجمع، ويعرض عن رسالة البحث إلى علم الوضع، وإذا كان الأدب في النفوس، فالحقيقة من وراء المحسوس، وعلى اختلاف الشئون، يجمل بي أن أكون. شعر:

يومًا يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يمن
وإن لقيت معديًا فعدناني

فليس الرشيد إلا المتوكل، والاالراضي على القدر إلا الموفق المتجمل، والطائع مأمون العواقب، والْمنصور بالعز ليس له غالب، فلا أعلم من التصريف إلا باب المطاوعة، والانفعال، ولا أجهل هذا الأدب إلا التنازع بين الأفعال، والخوض في مجمع الأمثال وعقم الأشكال، وماعسى أن أفعل، وإلى أي مرام أتوصل، إذا نازعت في قول الأول. شعر: (ص٧٧٩).

فاقبلْ من الدهر ما أتاك به
مَنْ قرّ عينًا بعيشه نفعه*

ثم إذا قلبت ظهر المجن على الزمن، فقلت إنَّ حاطب ليل، جامع بين الحشف وسوء الكيل، وقد تشوش ذهنه في

* هذا البيت للأضبط بن قريع وهو شاعر جاهلي وقد جاء هذا البيت في قصيدته المشهورة:

لكل ضيق من الأمور سعه
والصبح والليل لابقاء معه

التصريف، وماله عن النكرت من التعيرف، حتى صرف مالاينصرف، وصرف الكامل عن دائرة المؤتلف، وقفا بالمحن سناد الإشباع، وأردف له ذلك مع شهر الامتناع، فقصيته معدولة عن الكرام محصلة للئام، خارج بعضها عن النظام، مولودة لغير تمام، فمن لي بمن أقضي عليه بكتاب الضمانات، وحكومة الكفالات، ومسائل العقل والديات، لاسترجاع مافات، مالا يوماً إليه ولايشار. شعر:

سبحان من وضع الأشياء موضعها
وفرق العزّ والإذلال تفريقا

والعجب شيء ظهر أمره، وخفي سره، فالمعترض حينئذ كالمتأمل المستفيد، وأنّى له التناوش من مكان بعيد، بل أكون كالماء فأتبع السهول، وأراقب القسمة حتى تعول، ولاأتبرم ولا أقول:

إلى الله أشكو أن في النفس حاجة*
تمرُّ بها الأيام وهي كما هيا
ولكنني راضٍ بأن أحمل الهوى
وأخلص منه لا عَلَيَّ ولا ليا*

وربما يقال إني نقضت وضوء الأدب، وتعديت (ص٧٨٠) ميقات النسب، ولم أحرم بالتجريد من دناءة المكتسب، ولاسجدت للسهو عن حقوق الحسب.

من تردى برداء
لم يرثه من أبيه
سوف يأتيه زمان
يتمنى الموت فيه

فعلى ذلك إن ثبتت الجنحة، فالمحنة في تلك المحنة، وشر مايلجئك إلى مخيسة* عرقوب، ولاسيما وقد

لاتحقرن الفقير علك أن
تركع يوماً والدهر قد رفعه
وصل حبال البعيد إن وصل الـ
ـحبل واقص القريب إن قطعه
قد يجمع المال غير آكله
ويأكل المال غير من جمعه
ويقطع الثوب غير لابسه
ويلبس الثوب غير من قطعه
فاقبل من الدهر ما أتاك به
من قر عينا بعيشه نفعه

راجع الجزء الأول ص ١٠٣ من كتاب مواسم الأدب وآثار العجم والعرب للسيد جعفر بن السيد محمد البيتي العلوي.

* هذان البيتان لعبد الله بن المعتز راجع الجزء الثاني ص ٣٨ من كتاب مواسم الأدب المذكور.

* مخيسة: هي خلف الوعد.

ضعف الطالب والمطلوب.

مـــامـــحـــوج نفـــســـه إلى ســـبب
إلا لأمـــــر يـئـــــول للســـــــبب
تلجى الضـــرورات في الأمـــور إلى
سـلـوك مـــــــالا يـلـيـق بـالأدب

وإن أكن قـد خـالفت الأكـيـاس، وتخلفت مع الناس، وصبحت الرضا لتهجمى آل العباس، فإن الماء فى بابه، مفوض إلى رأى المبتلى به والدخيل فى دائه، أعلم بدوائه عند فقد أطبائه، وهل هم فى معنانا إلا الكرام، ومساعدة الأيام؟ وهبنى كفلت نتيجة الدهر*، ودمية القصر فى أبناء العصر، وقلدتها قلائد العقيان، وعقود الجمان، مفصلة بجواهر النصوص ومعادن الفصوص، وأقطعتها رياض زهر الآداب وغياض آداب الكتاب، وأسكنتها علالى المقامات وعلوم الطبقات، وتهذيب الرياضات وسير الفتوحات، إلى إدراك الممكنات، ثم قلت أين بغية الحفاظ، وابن جلا وخطيب عكاظ (شعر).

لو علم الحى اليـــمـــانون أننى
(ص٧٨١) إذا قلت أما بعد أنى خطيبها

فمن لى بمن يميز بين الضدين، ويقدم الجمعة على الاثنين، ويميل إلى الكشكول علن كتاب العين، وإن فضل لذلك أرباب، أو كان فى الجعبة نشاب*، فالمعاصرة حجاب، والتفاخر سور له باب، فما بقى إلا التشاغل بالسلوان، وبكاء العيون لوفيات الأعيان، ومراقبة المطالع لنصبات الطوالع، وبلوغ المقاصد من تلك المراصد، فقديما قيل من طلب شيئًا قبل الوقت، لم يجن من ثمرات أمانيه إلا المقت، (شعر).

* هذا ومابعده أسماء لكتب معروفة فى فنون مختلفة.

* النشاب: السهم.

دعـــهـــا ســـمـــاوية تأتى على قـــدر
لاتعـــتـــرضـــهـــا برأى منك تنخـــرم

فمن الخسران جهل الأوزان، ومساعدة الأبدان قبل معرفة البُحْران*، فربما كان فى أسطرلاب السعادة، مايخالف العادة، ويبلغ الحسنى وزيادة؛ هذا والمطلوب من المولى تعهدنا بالذكر، وحضورنا عند الفكر، فلعلنا نصادف قدرا به ليل الحظ يقمر؛ وفجر الإقبال يسفر، وربما طلعت من مشرقكم شموسه وأقماره، ووضح لذى عينين صبحه ونهاره، فلنا فى الغيب آمال، وفى كنانة الأدعية سهام ونبال، ومن حسن الفال، حاسب ورمال، وبميدان جميل الظن مدار ومجال، وإلى عالم السر جواب وسؤال، وفى فتح القدير مستند ورجال، وعلى ضوء مشكاة المصابيح تقرأ نسخة الحال، فإن فى عياضها (ص٧٨٢) شفاء؛ وفى خلاصتها وفاء، وفى كنز الكافى معادن، وعلى وجوه التفويض تلوح المحاسن، ومن دخل حرمه كان آمن (شعر):

* البُحْران: بضم الباء وسكون الحاء شدة المرض.

تلك رؤيا قـــصـــصـــتـــهـــا لك فـــانظر
لى فـــيـــهـــا التـــأويل والتـــعـــبـــيـــرا
وعـــــرضنا فلزات حظ غـــــبـــــيـــط
وأفـــــضنا لرأيك التـــــدبيـــــرا
ولك الأمـــر فـــيـــه حـــلا وعـــقـــدا
ربما عـــــاد ثابتًـــــا إكـــــســـــيـــــرا
صح قلب العـــيـــان فـــيـــه وأضـــحى
جـــــابر قلبـــــه به مكـــــســـــورا
ثم قلنا للكيـــــمـــــيـــــا ســـــلام
قـــد كـــفـــينا التـــصـــعـــيـــد والتـــقطيـــرا

وفـــرغنا ننظم الدر من مـــعـ
ـنى مـــســاعـــيك غُـــدوة وبكورا
واشـــتـــغلنا مع المحـــبين نتلو
لك فـــرقـــان مـــدحـــة .وزبورا
فنســاقى من تلك كــأســا دهاقــا
كــان فــينا مــزاجــهــا كــافــورا
شِـيـمًـا لو تجــسـمت منك كــانت
هى لــلـنـاس جـنـة وحـــــريرا
مـــعـــدنًا تلقط المســامع منه
حين تلقـــيـــه لؤلؤا منثـــورا
وبديعـــا من العـــلا مـــانظرنا
(ص٧٨٣) لمراعــاته هناك نظيــرا
وإذا مـــــــارأيـت ثـمْ مـن المجــ
ـد مـقــامـا رأيت ملكا كــبــيــرا
أبدا فى مــواكب الفــخــر تســتــعــ
ـبـــد كـــســرى الملوك أو ســابورا
غـــفـــر الله ســيــئــآت زمــان
ســاء قــدمًــا وعــاد منك بشــيــرا
مــــثل يعـــقـــوب وابنه ثم لما
جــاءه ارتد بالقــمــيص بصــيــرا
وتـولـى جــــــزاءه الـلـه عـنـا
إنه كــان ســمــيــه مــشكورا
ياالإنســـان رفـــعـــة أنت فـــينا
يرجـع الطـرف إن رآك حــــبــــرا
بيت حـبى مــازال فـيك مــدى الد
هر دوامــا مــشــيــدًا مــعــمــورا

نقـــشـــبندى الولاء فـــيك مـــلامى
مـــولوى الســـيـــر باطنا وظهـــورا
ووداى أبـو يـزيـد وأقـــــــــصـى
طـوره طورا طـور ســـــينـاء طـورا
فـــتـــقـــبل إليك حـــور مـــعـــان
قـــد سكنّ الألفـــاظ منى قـــصـــورا
وكـــمـــيت من القـــريض كـــمـــيت
دونه جـــــر فى الرهـان جـــــريرا
ملكا فى خـلافـة الشـعـر جـا بالنـ
ـشـر مـعـه مـصـاحـبًـا ووزيرا
(ص٧٨٤) وابق واسلم كما تشاء المعالى
تبق ذكـــرى خـــيـــر وتفنى الدهورا
أبدًا كلمـــا خـــصـــصت بمدح
وســعى نحـوك القـريض سـفـيـرا

(وكتب إلى عبد الرحمن السّيورى) أهدى جزيل سلام ألذ من الوصال فى طيف الخيال، وأحلى من الإقبال بالآمال، وأحب من الإتحاف بالإسعاف، وأعذب من الورود على حياض الوعود، وأعشق إلى الطالب، من حصول المآرب، وأكرم من الغمام، بإهداء جزيل السلام، أريجا يكمه الزهر فى أكمامه ويلمه الجيد فى نظامه، ويجعله الرحيق من ختامه، والثغر الشنيب تحت لثامه، نودعه النرجس فى جفونه، ونلقنه الحمام فى سجعه على غصونه، فيحمله النسيم على متونه بجميع فنونه، إلى حضرة إنسان العين بالكامل، ورأس أدب الكاتب فى صدور المحافل، ومن سحب البلاغة على سحبان، وجر على المجرة سرادق العز والإمكان،

* رسالة ادبية من عهد الجبرتى.

وسيط النسب إلى الأدب، وطراز الفخر على جبهة الدهر، المخصوص بخالص الود وأكيد المحبة، على مراد الوفاء بشروط الصحبة، المكرم الأجل عبد الرحمن بن مصطفى السيورى، أطال الله عمر سعادته، وخلّد دولة سيادته (شعر).

وبعد فالشوق إن تسأل فإن له
شواهداً وسؤالى منك أصدقها
(ص ٧٨٥) وإن فى البعد ماينسى الأخوة
والتسآل عنك بلا شك يحققها
فكيف أنت وكيف الحال دمت على
ماكنت من شكر نعمى فيك ترزقها
سوى المودة فيما بيننا فلقد
رأيت منك يد السلوى تمزقها
وذاك مع طول عهد بالإخاء مضى
عمر الصداقة حتى شاب مفرقها

فإن لم يكن إلا الملال، فلاجدال، وإن أوجب ذلك لذة الجديد: فحرمة العتيق لاتبيد، أو كانت القسوة عن شهوة فالاعتراض يرد الإعراض و، إن كان الترك بلا سبب، فهو من العجب (شعر):

وإن أحلت على حظى اعتذارك لى
خرجت عن عهدة التعنيف والعتب

ولكن أين الفضايل؟ وكيف تلاشت الفواضل؟ تحمل التحمل وأجمل عن الإزماع التجمل، وتقاصر الطول والتطول، حتى وكلت غيرك من الأنام، فى إهداء السلام، وجاءنى بشير المواعيد، على بريد، فملت إلى النفس أبشرها، وعلى الفرش أنشرها، وإلى الزلاع أنظفها، وعلى الفقاع*

* الفقاع: بضم الفاء وتشديد القاف ضرب من النبيذ.

أصففها، واشتغلت باللحية أسرحها، وأهل الحارة أفرحها، ثم ذكرت وصول الحبوب في الغبش، فعبيت الخيش وقلت ربما يصل التمر في العصر، وياترى (٧٨٦) تلك البضاعة تسعها القاعة؟ أم لابد من توسعة الضيق، لتلك الصناديق، وكيف نعين الزبون، لاقتراض العربون، وتسليم الجماله*، إذا وصلتِ تلك الرسالة، ثم أنشدت وأنا أدور مابين الدور (شعر):

لا بشرى لجيراني
مع الأصحاب والأهلِ
فقد جاد لناالمولى
محل الجود والفضل
ولابد لأصحابي
من الإنعام والبذل
لهم مني مدى الأيام فضل الزاد والأكل
وكل يكتسي مني
على الهيئة والشكل
من الفرو إلى الجوخة للعمة والنعل
وأيضاً خلعة اعطي
من الرأس إلى الرجل
إلى السرج إلى الرحل
إلى القتب* إلى الجل*
فسجل ياغلام الخير خيراتي على الكل
وناد الأهل والجيرا
ن وابعث نحوهم رسلي
وخاطبهم إذا اجتمعوا
بدق الزير والطبل

* الجمالة: بفتح الجيم وضمها معناها قطيع الإبل.

* القتب: بكسر القاف وسكون التاء البردعة.
* الجل: بضم الجيم وفتحها ماتلبسه الدابة لتصان به، والجمع جلال وأجلا.

وقل هذى مضايفنا
وهذى قدرنا تغلى
من اللحم إلى الرز
إلى السمن إلى البقل
وأنواع من المشوى والمغلى والمقلى
وأجناس من الزريا
ج بالمشمش والخل
ولاتخرج بأضيافى
إلى الشمس من الظل
وأما النقد فالحاضر عامود وفندقلى
ومن يطلب زنجرنا
ه إن شاء بزنجرلى
فدعنى ألبس التا
ج بهذا المجلس الحفل
وإن كنت تنحنحت
انا يا عبد نعم لى
(ص٧٨٧) تراني مقصد الحاجا
ت لابعدى ولاقبلى
تراني أقتل الأقرا
ن يوم الحرب من مثلى
وإن كنت تريد الحر
ب هذى الخيل ياخلى
فقل ماشئت فى قولى
وقل ماشئت فى فعلى
وإن كنت توضأت
على قصد الثنا صلى

وصف جـــودى وصف عـــودى
وصف ســيــفى وصف نصلى
فـــهـــذا الحــبس مــلآن
من الأعــداء كــالنمل
وهذا الخـــيـــر مطروح
على الطرقـــات والســبل
بصـيـتى ســارت الركـبا
ن من وعــر إلى ســهل
هنيـــئى اليـــوم بالأمــوا
ل قــد أصــبــحت درهم لى

ثم أخذت الإبريق، وملت عن الطريق، واستكت واغتسلت، وتوضأت واكتحلت، وتنحنحت وسعلت، وخرجت ودخلت، ثم ملت إلى الصندوق وألقيت القاووق، ولبست الزربفت*، من فوق التفت، وتدرعت بالسمور، وجلست على تخت التيمور، ثم خلعت على العتالين، وقدمت أجرة المخزنين سبع سنين، ثم إنى كررت المخبرة، وطالعت الورقة بالمنظرة، فإذا السكر المكرر قد تسطر، وإذا البن المحزوم، ولطايف الملبوس والمشموم، وتأملت فى هامش الكتاب، فإذا جراب وفيه الوعد بكل نفيس، وفى ضمن الجميع كيس، وفيه المنة بمفاتيح قارون، ومقاليد القلاع والحصون، والوعد بطلسم الأهرام، وكتاب العهد على اليمن والشام، (ص٧٨٨) ولم أجد العهد على الصين، ولافارس وقزوين، وأرض الدروب وفلسطين، فحصل لى العجب العجاب، وقمت إلى الجراب، بعد إغلاق الباب، وقد أذكيت المصباح، وفتشت إلى الصباح، وإذا كتابان قد كتبا

* الزربفت: كلمة فارسية معناها الثوب المطرز بالذهب.

بالزعفران، وضمخا بالعبير، ولفا في حرير، في الأول ملك خرسان، وتقليد الشحر * وُعمَان، إلى إقليم السودان، وماوراء النهر وعَبَّادان* إلى جزيرة العرب، وغَوطة دمشق وحلب، ولم يزل ينعم وعداً، ويهب، ويجئ بالعجب، وفي ذيل المنشور، وتمام المسطور، تفضل بالأقاليم وأنعم بتاج العز والتكريم، فسجدتُ لكرمه،وشكرته على نعمه (شعر):

ثم رتبت دفــــــــتــــــــراً للـمطـايا
وقـــســـمت البــلاد بين الأخـــلا
قلت ذاك الصــديق أعطيــه صنعــا
في بنى حـــمــيــر الكرام الأجـــلا
وعلى فـــارس صـــديق وأرض الروم
ثـان والـهـنـد أوليــــــه خـــــــلا
حـــاصـل الأمـــر أن كل مـــحـب
لى على قـــدر حظه يتـــولى
وأنا في الـــســحـــاب بيـــتى وتخـــتى
كل يوم إلى الـــســمـــا يتـــعلى
واقـــتـــرضنا في الحـــال ألفين دينار
انقـــضى بهـــا هناك شـــغـــلا
واشـتـرينا خـمـسين عـبـداً خـصـيا
منـهُم نـصـف ذاك إلا أقـــــــلا
واســـتــعـــرنا لهم ثلاثين قـــاوو
قا على رأسهم وللرِجل نعلا (ص٧٨٩)
ثم ناديتـــهم وقلت هلمـــوا
فـــادخلوا هذه الطوالة قـــبـــلا
كل شـــخص منكم حـــمـــاراً ينقّى
ثم شـيخ العـبـيـد يركب بغــلا

* الشحر : بفتح الشين وكسرها مع سكون الحاء هو ساحل البحر بين عمان وعدن.

* عبادان: بفتح العين وتشديد الباء جزيرة أحاط بها شعبتا نهر دجلة عند رأس الخليج الفارسي.

وخـذوا ذا السـلاح سـيـفـًا ورمـحـًا
ودروعـًا تـسـمـو وقـوسـًا ونَبـلا
واعـرضـوا نفـسكم عليّ فـإني
أشـتـهي العـبـد في السـلاح المحلى
واقـعـدوا عند بابنا ثم قـولوا
يوم الحـمـول أهلا وسـهـلا
ثم إني فكرت إن أصبح الخير علينا ماذا نقدم فعلا
قلت حط القـمـاش والبن في
المجلس واجـعل باقي التـفـاريق سـفـلا
ثم هذا المكان يحـمـل حَـمـلين
وهذا المكان يحـمـل حـمـلا
هذه صـفـة نحط عليـهـا المسك أم هذه بذلك أولى
هـذه لـلـزبـاد* تحـمـل قـرنًا
وهـذه يافـلان تحـمـل رطلا
ياترى تحـمـل المخـازن عـشـرًا
من هذا يافـضـل السـيـورى أم لا ؟
ياترى يغبشون أم تطلع الشمس عليهم أم مايجيئون أصلا ؟
ص(٧٩٠) اضـربوا مندلا لنا ياثقـاتي
ربمـا يحـصـل المنا ولعـلا
دخـنـوا دُخـنـة* التـهـاطيل قـولوا
ياطهـاطيل طهطهـيـلات طهـلا
ألـوحـا ألـوحـا ططاطيل طيطا
طوطيـا طوطيـا طلاطل طلا
هاتِ لي ياغلام زايرجة الرمل عسـاني منه أخرج شكلا
إن ترى في الطريق غـيـر المطايا
تتـهـادى فـحـبـذا الرمل رمـلا

* الزباد: بفتح الزاى والباء نوع من الطيب والقرن بفتح القاف والراء الجعبة بفتح، الجيم والمقصود هما مايوضع فيهم الطيب.

*الدُخنة: بضم الدال وسكون الخاء نوع من البخور.

ثم ملت بإنساني، إلى المكتوب الثاني، وإذا علم استخراج الطلاسم وخبر الملاحم، والتوصل إلى فتح الأهرام، في ثلاثة أيام، ومعرفة ذات العماد، في أي البلاد، والإتيان بعرش بلقيس، بتدبير المغناطيس، وفيه استخدام الكواكب،ومعرفة كل غايب، وبيان علم الروحانيات، ودعوات العليات، وضبط الدقايق الفلكيات، وملكوت الأرض والسموات، وأنه يكشف لنا رموز الكيمياء، ويعلم طرايق الزايرجات والسيمياء، ويدل على بير الملكين ببابل، ويستخرج علوم الأوايل، ويعزم على الوحش فيجلبها، وعلى الجبال فيقلبها، وعلى الغمام فينزله، وعلى الريح فيحوله، وعلى النجوم فينثرها. وعلي القبور فيبعثرها، وإن الجميع يصل على الفور، وفي هذا الدور، وأن ينتف لحية المكذب، قبل أن يجرب، ويقص سبال المنكر*، إن لم يؤمن بما يخبر، (ص٧٩١) فقلت آمنت بما قاله سبحان من أعطاه ذا الاقتدار أستغفر الله السيوري مايعرف ياأخوان قول الفشار، ثم شرعت أعبى الخيل والخول*، وأجيش بجميع الدول، للقاء ذاك الأمل، ولم نزل نبث الطلايع، ونتوقع الطالع، إلى أن أتى الأبد على لبد، ولم يصل أحد، فثارت الفتنة بين الجنود، لتأخر الوعود، ووقعت البسطامية والبسوس، لحصاد النفوس، وتقصفت الأسنة، وتقطعت الأعنة، وتثلمت السيوف، وتماوجت الصفوف، وسال جيحون والفرات، بدم الأموات

ومازالت القتلى تمج دماءها
بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

ولم يبق أحد من الجيشين، إلا صلى على وعدك ركعتين، ورجع بخفي حنين، ثم إنا احتلنا في إطفاء نار الفتنة، بطلب هدنة، إلى أن يصل إليك الكتاب، ويرجع

*السبال بكسر السين جمع سبلة هي الشارب.

*الخول: بفتح الخاء والواو الحشم والعبيد.

الجواب، وقد أمرنا السفير إذا وقف بين يديك أن يقرأ عليك:

قل للخليل الذى أنهى حضرته
خلاصة الوُد من سرى ومن علنى
ومن مدى الدهر أدعو فى سلامته
من الردى وهى من قصدى ومن شجنى
ياذا الذى وعد المعروف ثم مضى
لذاك عمر الأمانى والزمان فنى
ومن على مذهب الحسبان ملّكنا
كنوز قارون من مصر إلى عدن
إن كان عندك محض الوعد تحسبه
أصلا من الجود أو فرعًا من المنن
فعد بحنطة بولاق وقل معها
مع ساحل البن غابات من التتن*
وافرض بأنك قد قلدتنى عملا
بالهند أجبى صنوف الخز والقطن
وولنى ساحل البحرين أجلبه
بسوق سعدك بازارًا بلا ثمن
وجد بإيوان كسرى والخورنق والـ
قصر المشيد وملك الشام واليمن
واعقد لى التاج رغما منك واجعلنى
على طوايف ذى القرنين فى المدن
وقل وهبتك مافى الأرض من نعم
باللحم والجلد والأصواف واللبن
ولاتكن خشية الإنفاق مقتصرًا
مادام كنزك من وعد فأنت غنى

* التتن بضم التاءين وتكتب أيضًا (توتون) وهى كلمة تدل فى اللغتين الفارسية والتركية على التبغ الذى يدخنه الناس ويقال للتاجر الذى يبيعه (توتونجى).

لله وعـــدك منذ عـــامين أنشـــدنى
أنا المعـــيـــدى فـــاســـمع بى ولاترنى
خــذ منى علومى ولاتركن إلى عــملى
ولايغـــرنك منى خـــضـــرة الدمن
فـــقلت أجـــرى عند الله أطلبـــه
حـــولين ياوعـــد تســقـــينى وتطعــمنى
من العــجـايب أبديت الشــجـاعـة فى
وعـــدى وعـــدتُ أكلت الخـــبـــز بالجبن
مـــبـــالغـات من الأقـــوال تســـمـــعـــهـــا
لو كن فى البـــحـــر ريحـــا طرن بالســـفن
(ص٧٩٣) ياذا الذى جادفى الأحلام لى كرما
يهنيك أنى قـــد اســـتـــغنيت من أذنى
فـــلا تكن تقطع التـــشـــريف عنى فى
كـــتـــاب ودك لى فى لفظك الحـــسن
حـــتى أفـــوز بملك الأرض منك ولا
أرضى بأنى فى غُـــمـــدان* ذى يـــزن
وخـــذ ثوابك وعـــدا مـــثل وعـــدك لى
هـــذا بذاك ولاعـــــتـــب علـى الزمن

(وكتب) إلى الشيخ عمر الحلبى على لسان تلميذ له:
أهدى جزيل سلام مازال دايرا بمركزه محيطه، وواقفا على مركّبه بسيطه، سلاما أنظم به الدرارى والدرر، وأنثر به المنثور والزهر، وأستخدم له بهرام والقمر، سلاما منشورة الويته على عمود الصباح، موعودة سرية همته بظفر الافتتاح، سلاما تشير إليه الثريا بكفها والجوزاء بشَنَفِها* والزهرة بطرفها والدقايق بلطفها عند كشفها، سلاما تتلقاه الشعرى

* غمدان: بضم الغين وسكون الميم من قصور اليمن القديمة.

* الشَنَف: القرط.

العبور للعبور ويقوم له زيد الوداد بالمرصاد فيعرض عليه شقيق رمحه، والمعلى قدحه، وابن جلا عمامته، ومرجف لأمته، جامعا بين الجد والهزل، والإرفال* والرمل، مخصوصا به حضرة محيط مركزى بعنايته، وهيكل سرى بحمايته، نكتة الفلك، وروحانية الملك؛ ونفحة القدوس، المشرقة على النفوس، الفايز بفصوص الحقايق، وكنوز الدقايق، والحايز معانى الإشارات، فى أبواب الفتوحات (٧٩٤) الشارب من العين بكشكوله* والملقى عصا السير في ساحة وصوله، ركن ذا الفضل وإسطقصه* وجنس نوع الكرم ونفسه، شيخى وأستاذى الشيخ عمر، لامعدولا عنا لقاطع، غير منصرف عن المقتضى بالمانع، آمين، وبعد التقرب بنوافل الأدعية، والتحبب برواتب الأثنية، صدورا عن فؤاد قايمة زواياه في الوداد، مستقيم خط هواه فى كمال الاتحاد، غير منقسم جذره الأصم عن العذال، ولامجتمعة له ضروب اللوزم فى مثال، فهو لاينكسر إلى السواد فيتخصص، ولايختلط فلزه* بالأغيار فيتمحص، من مخلص يطرح الألف، ويأخذ الواحد بالكف، ويستخرج مجهول الأغيار، وينفض التغيير بقلم الغبار، حتى يحصل له بالجبر المقابلة، فى مديح ذوى الإمعان والمحاوله، فيأخذ هناك ارتفاع الشمس، بأسطرلاب* تهذيب النفس، ويترقى فى درج المعانى، باطراح التوانى وطرح الثوالث والثوانى، وماذاك إلا لإضافتى لعلمكم بعلمكم، وشربى من كرمكم بكرمكم، وتمييزى فى هذه الحال، ببدل الاشتمال، ولاسيما بعد وصولى ماأشاء إلى جهتى وصح به أملى عن الخروج من جدولى ولى ولى، فلازال كيدى أهل الفضل واسع البذل بسيط النوال، وافر مديد الكمال، متداركى إلى مداركى،

* الإرفال: الإسراع فى قطع المفازات فى الصحراء.

* الكشكول: هنا بمعنى الفنجان.

* الإسطقس: في اللغتين الفارسية والتركية بمعنى العنصر أو الأصل.

* فلزه: ويطلق على البرونز والنحاس والمعادن بشكل عام.

* أسطرلاب: بضم الهمزة كلمة فارسية معناها آلة فلكية لتحديد ارتفاع الاجرام السماوية عن الأفق.

وسايرى فى سايرى ومفيقى من سكر تلفيقى إلى توفيقى، وسحررى بضبطى من خبطى فى خلطى، ورفيقى فى تشويقى إلى تحقيقى (ص٧٩٥) يرحل بى إلى المختصر عن المطول، وينزل بى عن المعاهد فى البديع الأول (وقال):

وخمرة من معان
حلت دنان الحروف
جلت كدورات حسى
حتى تلاشى كشيفى
ولاعجيب لصفوى
لأن ذا الروح صُوفى

(وله عفا الله عنه):

لعمرك أنت كتاب الكمال
بآياته يظهر المضمر
وشعرى عنوان ماقد حواه
وفيه انطوى العالم الاكبر

(ومن التحميضات*)

قل لأشياعى الذى صحبونى
ثم راحوا من بعد مُعتزليه
ولأنصارى الذى خذلونى
واستعاضوا سواى أنصاريّه
عفتمو نصف أمردَ كوسجيا
وانفردتم بمذهب الموصليه
لاتظنوا فى عفتى هى ماهى
أنا قلدت مذهب الباحيه
أى ذنب جنيت حتى استرقتم
نفسكم للمقيل وقت العشيه

* التحميضات: وردت فى بعض النسخ المطبوعة مرسومة «التمحيضات» وهو خطأ والتحميضات هي الانتقال من الجد إلى الهزل.

واحـــد راح من زقــاق القـــشـــاشى
يتـــمـــشى فى هيـــئـة مـــخــفـيــه
ورجـــــال من البــــرابيخ جــــاءوا
ورجـــــال من تحت جـــدر التكيــــه
واحـــــد حــــامل كـــتــــابا يورى
أنه ســــاير إلى الكُتـــبـــيــــه
وأخ قــــال قـــــد شـــربت دواء
وأريد الإســـهــــال فى العنبـــريه
وصـــديق ســـألتـــه أين تبـــغى
فلوى رأســـه وقـــال قـــضـــيـــه
قـــد نذرت الصـــيــام شـــهـــرا ولاء
وشـــرطت الإفطار بالعـــدســـيـــه
لاتخـــبث نفـــسى بذكـــر الكوازى
واللوازى والـوزة المحـــــشـــيـــــه
أنا لاأشـــتـــهى الكبـــاب ولاالرز
ولا زربـاج ولاالـلـبـنـيــــــــــه
قـــد زهدنا فى كل مـــاتشـــتـــهـيــ
ـــه النفس حـــتى الدجـاجـة المقليـة
عـــفت كل الطعـــام قلت فـمـــا المو
جب قـــال اللحــقـوق بالصــوفـيــه
وأتى آخـــــر فــــقلت ســـــلام
فـــسعى مـــســـرعًـا ورد التـحـيـــة
ووراه شــــخص يجـــر خـــروفـــا
حـــامـــلا تحت كـــمـــة مطبـــقـيـــه
قلت مـاالحـال قـال قـد شـرد العبـ
ــد بشـــالى والفـــرو والفـــرجــيـــه

(ص٧٩٧) قلت قد مر عبدكم بطعام
وشـــراب من قـــبلكم من هنيـــه
قـــال عـــبـــدى ياقـــوت قلت نعم
قـــال لقـــد بعـــتـــه نهـــار الضـــحـــيـــه
اسم هذا الماس قـبـحـه الله وأيرى فى است أمـه الزنجـيـه
ثم ولى عـــجـــلان قلت انتظرنى
أطلب العـــبـــد مـــعك للتـــربيـــه

(ص٧٩٩) (فى المطبوخ وعمله)

أنـا أولـى بـالجـــــــرى منـك لأنـى
مـــاطعـــمت الغـــدا وبطنى خليـــه
قـــال أقـــعـــد بالله ربك أقـــعـــد
بالنبى باليـــهـــود بالعـــيـــســـويه
مـــايفـــوت العـــبـــيـــد وهو قـــريب
حـــول نخل الإمـــام والكركـــيـــه
ثم إنى ســـــألت عن واقع الحـــــا
ل وتلك القـــضـــيـــة المخـــفـــيـــه
فـــإذا أنتم كـــمـــا قـــد ذكـــرنا
لاوفـــا لاحـــيـــا ولاعـــصـــبـــيـــة

(وقال من أرجوزته الطبية)

ومـــفـــردات من مـــركب اضـــبط
أصـــــولهـــــنا والحب لاتفـــــرط
أو مـــعـــدنا والصـــمـغ أو مـــامـــثله
فـــافـــعل بكل مـــاقـــتـــضـــاه فـعـله
مـــاقـــيـل فى القـــانون من أفـــراده
ولاحـظ الطـبــــيـب فى مــــراده

(ص٧٩٨) ثم إذا خص بماء أو شراب

يحل فيه الصمغ نقعًا ويذاب

واحضر لذلك عسلا مصفى

مثليه إن كان الدواء صيفا

وفي الشتا ثلاثة أمزج أحسنه

مع ما انقعت فوق نار لينه

وبعد عقد ذرّ فوقه الدوا

في الأرض واضربه لمزج واستوا

وارفعه في الفضة أو صينيا

ولايكون ظرفها بليا

في غير منحل هناك يعرف

إلا الزجاج طبعه يجفف

(في عمل الأقراص)

وإن يكن أقراص أو حب أضف

مسحوقها في الصمغ محلولا وصف

إلا إذا كان بها الصبر فلا

حاجة في الصمغ فخذه بدلا

وحبب أو قرص مع المسح من ال

أدهان من دهن مناسب حصل

ثم تجفف بالغا في الظل

مخافة التعفين بعد البل

فإن ذى الرطوبة الغريبه

تعفن الشيء ولاعجيبه

قوة الأقراص تبقى أربعا

سنين لاغير بها قد قطعا

(ص٧٩٩) (في المطبوخ وعمله)

وإن يكن مطبـوخ عـدل وزنه
ولين النار لتـبـدى حسنه
واطبخه حتى يتهـرا واحـذر
من فيتمونهم أو الا يكثر
كمثل ذا الطل غدا فى وصفه
ضف الدوا عليه ثم صفّه
ونق أخشـابا لكل واغسل
بما طبيخ أذخر واستأصل

(فى السفوف):

وفى السفوف المزج بعد السحق
وراع مايعطى له من حق

(فى التحميص):

وحمص القابض من بزر ولا
تدق بزر قطنة فيقتلا
واحم لذاك خزفا أو حجرا
وانزل وقلب فيه ذاك البزرا

(فى الدق والسحق):

وإن جمعت أهليلجات اسقها
سمنا وحمصها وثم دقها
وجود الغسل لكحل وانقه
وسقه بالماء حال سحقه
وروقنه بعد ذا وبدل
ماء وجفف فى تمام العمل

إلى آخر ماقال، وله غير ذلك مدايح وقصايد (ص٨٠٠) وغزليات وتخميسات ومراسلات كلها غرر مبحشوة بالبلاغة، تدل على غزارة علمه وسعة إطلاعه، توفى بهذه السنة بالمدينة المنورة رحمه الله تعالى.

علاقة الهوارة بالعثمانيين

عقد العثمانيون بعد غزوهم لمصر مع القبائل العربية اتفاقات أقروا فيها سيادة شيوخ تلك القبائل على المناطق التى كانت لهم السيادة فيها من قبل فى العصر المملوكى، وذلك مقابل تعهد هؤلاء الشيوخ بحفظ الأمن وتنمية الزراعة وجمع الضرائب، وفى مقابل ذلك اعترف العثمانيون بمراكز تلك القبائل وتركوا له حرية التصرف فى مناطق نفوذهم ومن هذه القبائل كانت قبيلة الهوارة وقد أشار ابن زنبل الى ذلك بقوله:

(خلع السلطان سليم بعد دخوله القاهرة على شيخ العرب حماد شيخ عرب غزالة باقليم الجيزة وجا اليه الأمير على بن عمر شيخ هوارة فخلع عليه بأمرية الصعيد بمدينة جرجا وخلع على علم الدين شيخ بنى عدى وكتب لهم التواقيع بذلك وخلع عليهم وانصرفوا).

وقد كانت علاقة الهوارة بالعثمانيين ودية للغاية فى عهد السلطان سليم وابنه سليمان.

بلغ من طيب العلاقات بين الطرفين ان الأمير على بن عمر شيخ الهوارة وحاكم الصعيدى، أرسل هدية حافلة للسلطان سليم سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م بلغ من أهميتها انها قدمت للسلطان بعد تقديم هدية خاير بك وصاحب اليمن.

وكانت هدية حافلة حوت مائتى قنطار سكر، ورقيقا ما بين عبيد وجوار، وخيل وجمال وغيرذلك.

وقد أرسل الأمير على بن عمر هذه الهدية مع رسول خاص من طرفه.

وقد سر السلطان سليم من هذه الهدية واعاد الرسول محملا بهدية حافلة منه للأمير على بن عمر وكانت هدية السلطان تشتمل على ملابس فخمة (قفاطين) مع مرسوم باستمرار الأمير على فى حكم الصعيد فعظم شأن الأمير على بهذه الهدية وهذا المرسوم.

وفى عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م أرسل الأمير على بن عمر أيضا هدية حافلة للسلطان سليم قيل انها قومت بستين ألف دينار.

وقد أقر السلطان سليمان بدوره الأمير على بن عمر على جكم الصعيد فأرسل له سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢١م قفطان حرير ومرسوم شريف باقراره على مركزه واستمراره فيه.

ولكن العلاقات ساءت بعد ذلك بين الهوارة والعثمانيين فعزل العثمانيون الهوارة من حكم الصعيد سنة ٩٨٣هـ/ ١٥٧٦م وعهدوا بالحكم فى الصعيد الى أحد بكوات المماليك وهو سليمان جنبلاط.

وقد ذكر على مبارك فى خططه أنه رأى المرسوم الذى تضمن ذلك فى كتاب لم يستطع الوقوف على اسمه ولا اسم مؤلفه.

وقد ذكر المرسوم: ما كان للهوارة من سيطرة على الصعيد مقابل تعهدهم بجمع المال والغلال المقررة للدولة وتقديمها اليها وكيف أهمل الهوارة فى أداء تلك المهمة، وقصروا فى تحصيل الخراج اللازم وظلموا أهل الصعيد ونهبوا أموالهم ولم يهتموا بعمارة الجسور ولا بشئون الزراعة. لذا غضبت عليهم الدولة وأمرت بمنعهم من حكم الصعيد وعهدت به لأمرا المماليك.

وهكذا فقد الهوارة ما كان لهم من سيطرة ونفوذ فى الصعيد نتيجة لعودتهم لسياسة التمرد وقطع الأموال والغلال المطلوبة منهم تلك السياسة التى مارسوها من قبل فى العصر المملوكى والتى كانت الطابع المميز لجميع العرب فى مصر.

وعند ادخال نظام الالتزام الى الصعيد فى الربع الأول من القرن السابع عشر سيطر الهوارة على مساحات واسعة من أراضى الصعيد عن طريق شيوخهم على مناصب الملتزمين فى الصعيد، فلم يكن فى الصعيد حينذاك من هم أغنى من الهوارة ولا من هم أكثر عصبية قبلية منهم، لذا كان من الطبيعى أن يسيطر الهوارة على أراضى الصعيد بالالتزام، وقد كان الهوارة من الفئات التى سمح لها بأخذ التزام الأراضى الزراعية منذ بداية ادخال هذا النظام الى مصر.

وبسيطرة الهوارة على معظم أراضى الصعيد بالالتزام عادت اليهم السلطة والسيطرة على الصعيد ولكن فى ظل الادارة المملوكة العثمانية وتابع الهوارة سياستهم فى التمرد على السلطات الحاكمة ومحاولة الامتناع عن تقديم المطلوب منهم من أموال وغلال.

ففى عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م تمرد الهوارة على حاكم جرجا عبد الرحمن بك وعصوه وامتنعوا عن دفع الأموال والغلال المطلوبة منهم.

فأصدر الباشا أمره بمحاربتهم وأرسل لهم حملة ضمت عددا من البكوات المماليك مثل ابراهيم بك الصغير، وحسن أغا بلفيا ومصطفى كتخدا القازدوغلى، انضمت تلك الحملة الى قوات عبدالرحمن بك الذى تولى القيادة وقد صحب تلك الحملة هوارة بحرى ورجال الأمير حسن الاخميمى حاكم اخميم ومنافس الهوارة على السيطرة على الصعيد.

وقد انتهت الحملة بهزيمة الهوارة ونهب عبدالرحمن بك لاموالهم وقتله لرجالهم، وهرب الهوارة الى الجبل ودخل عبدالرحمن بك الى فرشوط مقر الهوارة ومعقلهم الرئيسى ووضع يده على ما فيها من مخازن غلال، وحاول بالاتفاق مع مجموعة من امراء مصر حرمان الهوارة من أراضيهم بتحويلها بالالتزام الى حيازته هو مع هؤلاء الأمراء شركة وكتبوا للدولة يطلبون ذلك.

ولكن هذا الامر لم يتم لعزل عبد الرحمن بك من ولاية جرجا حيث انتقم منه الهوارة بمطالبته بما خسروه أثناء حملته عليهم واثاروا ضده زملاءه المنافسين له حتى قتلوه.

ولما ضعف سلطان العثمانيين بمصر وسيطرا المماليك على مقاليد الأمور أخذ بك جرجا وحاكمها يتجه ببصره الى القاهرة ويهتم بحوادثها السياسية أكثر من اهتمامه بأمور الصعيد، وأصبح الوجه القبلى حيث ديار الهوارة منفى وملجأ لكل الأمراء المماليك المهزومين أو المنفيين واتباعهم، وكان هؤلاء فى حاجة لسواعد الهوارة وأموالهم ليستعينوا بهم على هزيمة منافسيهم بالقاهرة فبدأ النفوذ يعود الى الهوارة وبدأ الهوارة يتدخلون فى جديد من الاحداث السياسية الجارية وفقا لما تمليه عليهم مصالحهم كما كانوا فى العصر المملوكى فأثناء وقوع الصراع بين الفقارية والقاسمية سنة ١١٣٧هـ/ ١٧٢٤م هرب محمد بك جركس القاسمى الى جرجا ليعيد تنظيم صفوفه فأرسل له منافسه الأمير ذو الفقار بك حملة لمحاربته فاستعان جركس بالهوارة وباقى عربان الصعيد وهزم حملة القاهرة عند البهنسا.

وفى تلك الفترة ايضا هرب أحمد بك الأعسر الى الهوارة محتميا بهم.وبقى عندهم ليعيد تنظيم صفوفه وعندما هزمت فرقة القاسمية سنة ١١٤٢هـ/١٧٢٩م التجأ الكثيرون من رجالها الى اكابر الهوارة ببلاد الصعيد ليستعينوا بهم على استعادة ما كان لهم من نفوذ.

وفى عام ١١٤٩هـ/١٧٣٦م فر عثمان بك الفقارى الى الصعيد بعد صراعه مع ابراهيم جاويش بسبب تنافسهما على رياسة مصر وعندما تنكر على بك الكبير لصديقه صالح بك القاسمى فر الأخير الى الصعيد واستعان بالهوارة وعلى رأسهم شيخ العرب همام بن يوسف الذى قدم اليه كل ما كان يحتاج اليه من ذخيرة ومؤن وتقدم بها واستولى على المنيا وطرد منها اتباع على بك.

وعلى بك الكبير نفسه عندما اخرجه زملاؤه منفيا من القاهرة الى النوسات بالوجه البحرى هرب الى الصعيدحيث لجأ الى حمى الشيخ همام طالبا منه ان يصلح بينه وبين زميله صالح بك القاسمى حتى يقبل العودة معه الى القاهرة لمساعدته فى اقصاء منافسيه عنها وفعلا قام الشيخ همام بالوساطة بينهما واستطاع اقناع صالح بك القاسمى ـ (الذى كان على بك قد غدر به قبل ذلك بقليل) ـ بالانضمام الى صفوف على بك وقدم لهما همام الهدايا والاموال والرجال لمساعدتهما على استخلاص القاهرة من اعداء على بك.

وعندما غضب محمد بك ابوالدهب من سيده على بك الكبير فر الى الصعيد وذهب الى الهوارة واسترضاهم ـ (لأنه سبق أن حاربهم فى عهد الشيخ همام) ليتمكن من ضمهم الى صفوفه وقبل الهوارة ذلك لانهم رأوا فى هذا الانضمام لصفوف محمد بك أبى الدهب فرصة لاستعادة ماكان لهم من نفوذ خبا بعد وفاة همام فانضموا الى صفوف محمد بك وساعدوه فى نضاله ضد على بك.

هكذا وجد الهوارة فى مساندة الأمراء المماليك اللاجئين الى الصعيد فرارا من وجه منافسيهم، فرصة لاستعادة نفوذهم فاهتموا بالأحداث السياسية التى تجرى فى القاهرة وغدوا بذلك قوة كبيرة ترجح الكفة التى تنضم اليها وبدأ هذا واضحا فى عهد الشيخ همام بن يوسف الذى انتهت اليه زعامة الصعيد في النصف الأول من القرن الثامن عشر وحوالى العشرين عاما من النصف الثانى وقد ظل الهوارة يشتركون في الحياة السياسية بتأييدهم فريقا من الحكام ضد آخرحتى عهد مراد بك وابراهيم بك ولكن بصورة أضعف وأقل تأثيرا عما كان لهم فى عهد همام.

وهكذا نجد أن الهوارة تابعوا فى العهد العثمانى نفس السياسة التى كانوا يتبعونها فى العهد المملوكى من تدخلهم فى الأحداث السياسية وفقا لما تمليه عليهم مصالحهم، وتابعوا أيضا سياسة التمرد والامتناع عن تقديم الأموال والغلال المطلوبة منهم للسلطات الحاكم. وبدأ ذلك واضحا من الهوارة في القرنين السابع عشر والثامن عشر حيث كان سلطان العثمانيين بمصر قد ضعف.

شيخ العرب همام بن يوسف

فى قرية فرشوط[1] بمحافظة قنا كان مولد شيخ العرب همام بن يوسف فى تاريخ لا نعرف تحديده بالضبط، ولكننا اذا أخذنا برواية الرحالة فانه يقع حوالى ١٧٠٩م/ سنة ١١٢١هـ[2] أما وفاة

(١) زار الرحالة بروس فرشوط فى يناير ١٧٦٩ وذكر عنها أنها مدينة تقع فى سهل زراعى على ارتفاع ٩ اميال سفل الجبل، وتشتهر بزراعة القمح وقصب السكر وانه كان بها دير للرهبان الايطاليين يتبع دير أخميم، وان هذه الأيرة قد أنشأت لترويد المسافرين بين مصر وأثيوبيا بالمساعدات وتقديم التسهيلات الممكنة لهم، ولكنه أضاف ان كرم مشايخ العرب الأغنياء فى مصر العليا، وانسانيتهم ومعاملتهم الكريمة للغرباء جعلت وجود هذه الأديرة عديمة الفائدة.
Bruce: travels to discover the Source of the Nile Vol. 2, p. 22.
وفرشوط الآن قرية كبيرة من محافظة قنا وتقع غرالنيل تتبع مركز نجع حمادى.

(٢) زار بروس فرشوط وقابل شيخ العرب همام فى يناير سنة ١٧٦٩م وذكر انه يقدر سن همام حينئذ بما لا يزيد عن ستين عاما.
Bruce: travels to discover the Source of the Nile Vol. 2, p. 22.

الشيخ همام فتاريخها محدد فقد حددها الجبرتى[١] باليوم الثامن من شهر شعبان سنة ١١٨٣هـ نوفمبر سنة ١٧٦٩م وتؤيد دفاتر الالتزامات بالقلعة وقوع وفاة همام في هذا العام أيضا، فقد ورد بدفتر رقم ٥٥ لسنة ١١٨٣هـ عين ٨ مخزن تركى أن أولاد الشيخ همام وهم درويش وشاهين وعبدالكريم قد حلوا في بعض التزامات والدهم المرحوم الشيخ همام بناء على بيورلدى صدر من على بك قائمقام مصر فى ذلك الوقت وكان ذلك ٢١ رمضان سنة ١١٨٣هـ/ ديسمبر سنة ١٧٦٩م أى فى الشهر التالى لشهر شعبان الذى توفى فيه الشيخ همام كما ورد فى رواية الجبرتى.

وقد نشأ همام فى بيت ورث الثراء والمكانة أبا عن جد فقد كان همام ابنا للشيخ يوسف بن الشيخ أحمد محمد همام الذى آلت اليه زعامة قبائل الهوارة فى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى/ السابع عشر الميلادى.

وقد تمتع الهوارة عامة بثراء واسع، وكان معظم شيوخهم على جانب كبير من الثراء، فمنذ نزل الهوارة الى الصعيد واستقروا فى جرجا امتدت سطوتهم فيها، واتسع ثراؤهم، وكان كبيرهم الذى يتولى رياستهم يقيم فى فرشوط، وله نفوذ فى الصعيد كله، وقد ظلت لشيوخ الهوارة رئاسة الصعيد والسيطرة على الحكم فيه حتى عام ٨٩٣هـ/ سنة ١٥٧٥م.

وقد كانت علاقة أسرة همام بالحكام فى العصر المملوكى علاقة يغلب عليها طابع العداء شأن كل العرب القاطنين فى مصر للكراهية العنصرية بين العرب والمماليك.

وفى العصر العثمانى المملوكى تابع الهوارة سياسة العداء ضد السلطات الحاكمة فى صورة تمرد وامتناع عن تقديم الأموال والغلال المطلوبة منهم، ولاشك ان إسرة همام وخاصة جده الشيخ محمد أحمد همام كان من الهوارة الذين تمردوا على السلطات الحاكمة ورفضوا تقديم الأموال والغلال المطلوبة منهم للدولة سنة ١١٠٧هـ/ سنة ١٦٩٥م عندما قاد عبدالرحمن بك حاكم جرجا الحملة التى سيرتها الحكومة ضدهم، فقضت على تمردهم، واعادتهم الى حظيرة الطاعة، وأعيدت اليهم التزاماتهم التى رفعتها عنهم الدولة أثناء هذا التمرد، وكان أبرز الملتزمين من الهوارة حينئذ الشيخ يوسف بن أحمد محمد همام والد الشيخ همام بن يوسف، الشيخ أحمد محمد همام جد الشيخ همام بن يوسف.

وقد ساعدت نشأة همام فى بيت ورث الثراء والمكانة أبا عن جد على ظهوره كشخصية هامة تولت زعامة الصعيد بالاضافة لضعف السلطة الحكومية فى عصره، اذ كانت سلطات الحكم العثمانى فى مصر قد وصلت الى درجة كبيرة من التدهور، وحفل العصر بمنازعات العصبيات المملوكية، وتنازعها على السلطة مما أدى الى تدهور قوتها أيضا، وترك الباب مفتوحا أمام ذوى العصبيات القبلية ليظهروا على مسرح الاحداث السياسية، ويبسطوا نفوذهم ويسيطروا على مناطقهم.

وقد ورث همام عن أبيه الشيخ يوسف التزامات واسعة شملت معظم أراضى الصعيد من المنيا الى اسوان، وقد آلت هذه الالتزامات الى الشيخ يوسف وراثة عن أبيه الشيخ أحمد بن محمد همام الذى كانت التزاماته تمتد من المنيا الى أسوان فقد أخذ

(١) انظر ترجمته رقم ٣٢٣ فى هذا الجزء.

شركة مع اقاربه التزامات أراضي:

حرجه الحرازة، بخانس وقصير بخانس، عرب قصاص، هو، بهجورة، فرشوط، الكوم الأحمر، قوص، سنابة، أولاد ما من، الخارقة، الروافع، كوم بدار، أولاد شلول، جرف أبوعميرة، أرض وقف ملك أشرف برسباى، العسيرات، أولاد جامع، جزيرة الموارنة، أرض طبطبا، شيخيه، خلجان، قراى وريفه بأسيوط، ادفا وبني مزار، تصيرية وصعايدة، وأبنوب.

وقد ورث الشيخ يوسف عن أبيه زعامة قبائل الهوارة لانه كان أكبر ابنائه وأبرزهم، وكذلك كان الحال بالنسبة للشيخ همام فقد كان أكبر أبناء الشيخ يوسف فآلت اليه وراثة عن أبيه كل تلك الأراضي الشاسعة، وزعامة قبائل الهوارة في الصعيد.

وقد توفرت للشيخ همام شخصية ساحرة استطاعت ان تنمي ما ورث من ثراء وأن تحتفظ بزعامة الهوارة، بل وأن تمد تأثير تلك الزعامة الى آفاق أوسع وأعظم مما كان لها في عهد أبيه وجده.

وبتولي الشيخ همام وظيفة الملتزم وحسن استغلاله لها ولما ورثه من ثراء ومن عصبية قبلية، وصفات شخصية كالذكاء والكرم والطموح استطاع أن يتزعم عرب الصعيد، وان ينشئ الصلات الواسعة المتعددة الجونب مع حكام مصر وعلمائها ومع الدولة العثمانية نفسها فقد ذكر الرحالة BRUCE الذى زار همام سنة ١٧٦٩م/ سنة ١١٨٣هـ أن الشيخ همام كان على صلة طيبة بالدولة العثمانية نفسها وكان يطلب منها ما يريد مباشرة مما أثار عليه غيرة بكوات القاهرة، مجددا ما كان من طيب العلاقات بين أجداده وبين الدولة العثمانية.

وقد لعب الشيخ همام دورا هاما في حياة الصعيد بل وحياة مصر كلها في النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادى ونحو عشرين عاما من النصف الثاني منه.

وكان من أهم العوامل التي ساندت همام وساعدته على القيام بدوره ثراؤه الطائل الذى هيأته له التزاماته لمعظم أراضي الصعيد، وقد هيأ نظام الالتزام للهوارة عامة فرصة عظيمة لاستعادة نفوذهم وسلطاتهم اللذين تمتعا بهما في العصر السابق للعصر العثماني.

وقد بدأت سيطرة الهمامية على أراضي الصعيد تبرز ابتداء من عام ١١٠٥هـ سنة ١٦٩٣م، وكان أبرز الملتزمين منهم كما قدمنا الشيخ أحمد بن محمد همام جد الشيخ همام بن يوسف الذى سيطر على أراضي واسعة امتدت من المنيا الى اسوان أى سيطر على معظم أراضي الصعيد بالاضافة لعدد من الملتزمين الآخرين من أقاربة ومن المماليك ومن العرب الآخرين.

وقد شارك الشيخ يوسف والده أحمد بن محمد همام في تولى التزام أراضي الصعيد.

وابتداء من عام ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م ظهر أسم الشيخ همام يوسف كملتزم لأول مرة وأشير اليه في دفاتر الالتزام باسم: همام ولد الشيخ يوسف أحمد حيث اشترك مع والده وأقاربه في التزام أراضي: هو، بهجورة، والكوم الأحمر وتوابعها.

وكانت السيطرة على أراضي الصعيد قبل ظهور الشيخ همام بن يوسف للهوارة يليهم المماليك يليهم العرب الآخرون وتركزت أراضي المماليك والعرب الآخرين في:

اسيوط، طهطا، أخميم، مدينة جرجا نفسها.

وتركزت أراضي الهوارة في:

قنا والأقصر، واسوان.

حيث كانت تتركز القوة الفعلية للهوارة، وحيث كانت تنتشر منازلهم فمعظم فروع قبيلة الهوارة وأكثرهم فاعلية وقوة كانت ومازالت حتى الآن تقطن محافظة قنا.

فقد سيطر على عشر مقاطعات من مقطاعات ولاية جرجا الاحدى والعشرون.

أما المقاطعات التى كانت تقع جنوب ذلك وعددها احدى عشرة مقاطعة وهي مقاطعات خوجان، بخانس، عرب قصاص، الأقصر، بياضية، برديس، فرشوط، هو وبهجورة وتوابعها، حراجية قنا، قوص.

فقد سيطر الهوارة على معظم مقاطعات وفئات الملتزمين في ولاية جرجا قبل ظهور الشيخ همام.

ومنذ ظهور الشيخ همام بن يوسف كملتزم بصورة رسمية في سنة ١١٣٤هـ/ سنة ١٧٢١م وهو يواصل زحفه على أراضى الملتزمين الآخرين فى الصعيد من هوارة ومماليك وغيرهم وقد اختفى اسم الشيخ يوسف والد همام من دفاتر الالتزام منذ عام ١١٥٠هـ/ سنة ١٧٣٧م واستقل همام بأراضيه وبدأ يزحف على معظم أراضى الملتزمين الآخرين ويحصل على أراضيهم باشراف الدولة ورضائها.

وقد بدأت سيطرة الهوارة على أراضى الصعيد بالالتزام منذ عام ١١٤٢هـ/ سنة ١٧٢٩م فقد ضم اليه فى هذا العام التزامات معظم أراضى بلصفورة وأخميم.

وفي عام ١١٤٥هـ/ سنة ١٧٣٢م ضم معظم أراضي طهطا واسنا وفى عام ١١٤٦هـ/ عام ١٧٣٣م زحف على أراضى المنيا فى بنى مزار وأخذ عدة قرى من مقاطعة أسيوط.

وما أن أتى عام ١١٦٣هـ/ عام ١٧٤٩م حتى وجدنا أن الشيخ همام وأقاربه من الهورة وشركاء (من وكلائه مثل الحاج عبدالرحمن، الحاج ابراهيم الخضرى). قد سيطروا على معظم مقاطعات ولاية جرجا فأخذوا التزامات مقاطعات:

برديس، فرشوط، هو وبهجورة، عرب قصاص، الأقصر قوص، قنا وتوابعها، بخانس، خوجان، بياضية.

اى سيطروا على عشر مقاطعات كاملة من أصل احدى وعشرين مقاطعة كانت تتكون منها ولاية جرجا وهي:

١ـ مقاطعة اسيوط وتوابعها.
٢ـ مقاطعة أبو تيج.
٣ـ مقاطعة أبو مقروفة.
٤ـ مقاطعة نخيلة وتوابعها.
٥ـ مقاطعة فاو الكبرى.
٦ـ مقاطعة طهطا وتوابعها.
٧ـ مقاطعة شندويل.
٨ـ مقاطعة شرق أخميم.
٩ـ مقاطعة منشأة أخميم.
١٠ـ مقاطعة برديس.
١١ـ مقاطعة فرشوط وتوابعها.
١٢ـ مقاطعة هووبهجورة وتوابعها.
١٣ـ مقاطعة خوجان.
١٤ـ مقاطعة قنا.
١٥ـ مقاطعة طما وتوابعها.
١٦ـ مقاطعة قوص.
١٧ـ مقاطعة بخانس.
١٨ـ مقاطعة عرب قصاص وتوابعها.
١٩ـ مقاطعة الاقصر.
٢٠ـ مقاطعة بياضية.
٢١ـ مقاطعة حراجيه.

وذلك بالاضافة الى أجزاء من المقاطعات الاخرى مثل أراضى:

القبيبة والبنارس، بنى جميلة، سمهود، شرق المرج القبلى، البحرى، بنى وركان، بياضة، أرض المنقدية، طوخ، النقاوة، أبنوب، جرف أبوعمسيرة، إولاد شلول، خارفة، أولاد طوق، جزيرة العنبرية، أولاد مامن، جراجوس، بلاص، سنابسة، ادفو.

ثم بدأ الشيخ همام بعد ذلك ينفرد بمعظم أراضى الصعيد، وينحى عنها ملتزميها من المماليك ومن أقاربه أيضا ومن العرب الآخرين.

وما ان أتى عام ١١٧٤هـ/ عام ١٧٦٠م حتى لم يبق فى ولاية جرجا ملتزمون سوى الشيخ همام وعدد قليل جدا من اقاربه الذين يكملون أسمه فى مقاطعاته، وعدد قليل جدا من المماليك بالتزامات ضئيلة.

وقد استولى همام على أراضى أسرة الاخميمى أقوى الاسر العربية المنافسة للهوارة فى الصعيد فاختفى اسم آخر رجالها وهو الأمير عيسى كمالى الاخميمى من دفاتر الالتزام الخاص بولاية جرجا سنة ١١٧٤هـ/ ١٧٦٠م، وقد زال نفوذ هذه الاسرة وتلاشت مكانتها من حياة ولاية جرجا بعد ذلك.

وما أن أتى عام ١١٨١هـ/ عم ١٧٦٧م حتى تمت للشيخ همام السيطرة على معظم اراضى الصعيد من المنيا الى اسوان.

فقد كان فى التزام الشيخ همام فى ذلك العام التزام المقاطعات الآتية كاملة وهى:

مقاطعات برديس، قنا، الأقصر، بياضية، شرق خميم، هووبهجورة وتوابعها، عرب قصاص، خولجان وسمهود، طهطا، حراجية، شندويل، منشأة أخميم، فرشوط، طما، قوص، بخانس.

وقد انفرد الشيخ همام بهذه الالتزامات وسيطرة على التزامات ١٦ مقاطعة كاملة من ٢١ مقاطعة كانت تتكون منها ولاية جرجا أما المقاطعات الخمس الباقية وهى ـ

اسيوط، ابوتيج، ابومقروفة، نخيلة وتوابعها، فاو الكبرى.

فقد كانت لهمام أجزاء كبيرة فى بعضها ولامراء المماليك وللعرب الآخرين باقى أجزائها.

فكان للشيخ همام فى مقاطعة أسيوط التزام.شرق بويط بقدر ١٢ط، بنى وركان ١٢ط ادفا وبنى مزار ٢٤ط. قراى وريفة ١٢ط.

وكان له فى منطقة أسوان.

منطقة ادفو بقدر ٢١ط، نصيرية وصعايدة ١٨ط وقد بقيت هذه الالتزامات للشيخ همام حتى وفاته فى سنة ١١٨٣هـ/ سنة ١٧٦٩م بل لقد وصلت قوة همام وقبل بدأ النزاع الأخير بينه وبين على بك الى حصوله على جزء كبير من أراضى على بك نفسه فى ناحية بنى نصر بمنفلوط بمقاطعة ابى تيج.

ثراؤه.. حكومته.. نفوذه

قدمت سلطة الملتزم للشيخ همام ثراء طائلا ونفوذا واسعا فقد ادى تدهور السلطة المركزية فى القرن ١٨ الى اتساع نفوذ الملتزم وحلوله محل الادارة الحكومية فى الاقليم الذى يتولى التزام أراضيه قائما فيه بحفظ الأمن وتحصيل الأموال الأميرية من الفلاحين وفض المنازعات بينهم سواء أكانت تلك المنازعات مدنية أو متعلقة بزراعة الأرض أو جنائية.

وبسيطرة الشيخ همام على معظم أراضى الصعيد توفرت له ثروة طائلة أفاض الجبرتى فى وصفها فذكر أنه كان لهمام:

(برسم زراعة قصب السكر اثنا عشر ألف ثور وهذا بخلاف المعد للحرث ودراس الغلال والسواقى والطواحين والجواميس والابقار الحلابة).

(وأما شون الغلال وحواصل السكر والتمر بأنواعه، فشئ لا يعد ولا يحد).

وانه كان لدى همام الكثير من الأرقاء وأنه كان ينعم بالجوارى والعبيد والسكر والغلال.

بسيطرة الشيخ همام على معظم أراضى الصعيد وبحيازته لتلك الأراضى الواسعة الممتدة من المنيا الى اسوان بالالتزام كان عليه أن ينظم ادارة دقيقة لتلك الأراضى بما تضم من فلاحين وعمال وموظفين.

لذا أقام همام حكما اداريا دقيقا لتنظيم شئون اراضيه والعاملين فيها.

فكان لديه دواوين (مجالس ادارة) تضم جيشا من الكتبة ومعظمهم من الأقباط (لمهارتهم فى الشئون الحسابية).

وكان هؤلاء يعملون فى دأب متواصل آناء النهار وأطراف الليل لانجاز حسابات همام الواسعة والمتعلقة بمعاملاته مع فلاحية وشركائه.

وكانت تلك الحسابات تتعلق بأموال الخراج التى يقدمها الفلاحون للشيخ همام ما يقدمونه له منها وما يعتذرون عن تأخيره، وما يعجزون عن سداده. ثم طلبات الفلاحين من طلب قروض لمساعدتهم على زراعة أراضيهم مقابل تقديم جزء منها كرهينة للشيخ همام حتى تسديد القرض فى العام القادم.

وكان ذلك يتم بتقديم اقرار شخصى من الفلاح المقترض أمام الشيخ همام وموظفيه. أو أمام قضاة الاقليم وبحضور موظفى همام الذين كان عليهم ايضا تسلم الغلال والأموال التى يقدمها الفلاحون لهمام وعمل الحساب الخاص بها أى توزيعها حسب تعليمات الشيخ همام ماهو مخصص منها للدولة وما هو مخصص للشيخ نفسه وحساب نفقات وايرادات ومصروفات ادارة همام الواسعة.

وكان الشيخ همام يباشر كل اعمال موظفيه يراجع حساباتهم ويمليهم أوامره وتعليماته ومكاتباته.. ومن تلك الأوامر ما يتعلق بمنازعات أبناء المنطقة سواء أكانت مدنية أو جنائية أو متعلقة بشئون الزراعة.

فقد اعتاد همام عقد مجالس عامة جريا على عادة شيوخ القبائل المعروفة وفى تلك المجالس كان الشيخ يستمع بنفسه الى الشكوى وبعد دراستها والتحقيق فيها كان يصدر حكمه عليها ويمليه لأحد كتابه ليسجل أمر الشيخ بما يراه فى الشكوى.

وكانت تلك الأوامر تصدر على أوراق صغيرة بحجم كف اليد وتحمل فى نهايتها ختم همام وتوقيعه.

وفى أحد تلك الأوامر نجد الشيخ همام يأمر شخصا يدعى حسن الأمير من أهالى فرشوط بأن يسلم شخصا آخر اسمه على عبدالرحيم ما يخصه من مساحة فى منزل تحت يده.

فهمام هنا يفض نزاعا (مدنيا) بملكيه منزل وطلب من حسن الأمير تنفيذ ذلك الأمر الذى (يقتضيه حكم الشرع).

ومن الأمثلة الأخرى الخاصة بالمنازعات (المدنية) أمر آخر من الشيخ همام لمحمد على اسماعيل يأمره فيه بمنع رجاله من التعرض للأمير محمد اسماعيل الذى يريد بناء مسكن لخفير عنده بجوار جامع مهدم خاص بأسرة الأول ولكن البناء سيكون فى أرض الشاكى ولذا يأمر الشيخ همام محمد على اسماعيل بمنع رجاله من التعرض له وتركه يقيم البناء الذى يريده.

ومن المنازعات الخاصة بالزراعة والتى كان

الشيخ همام يتولى أمرها أيضا ويصدر أوامره لتنظيمها.

الأمر الذى أصدره لعبدالرحمن اسماعيل الأمير يأمره فيه بسداد مقدار خمسين تليسا من الغلال ثلثها قمح وثلثاها فول ايجار الرزقة التى يستأجرها من الحاج عمر والتى هى موروثة له عن والده وأن على عبدالرحمن اسماعيل الأمير ان يدفع له وللمستحقين الآخرين ذلك القدر من الغلال سنويا لاستحقاقهم له.

وفى أحد الأوامر الاخرى من هذا القبيل يأمر الشيخ همام احد اقاربه هو الشيخ أبوبكر أحمد بمنع رجاله من التعرض لشخص اسمه غزالى الأمير (من اسرة الأمير) اشترى من همام ثلاثة قراريط ونصف وسدد له ثمنها كاملا، ولكنه أى الشيخ أبوبكر احمد حرض عليه رجاله لمضايقته وحجز قطعة من هذه الأرض.

ويذكره همام فى هذا الأمر بأن هذه الارض من أرضه شخصيا (الغفارة من أصلها لنا).

وقد ضمت ادارة الشيخ همام بالاضافة للعديد من الكتبة عددا من المباشرين الأقباط الذين كانوا يمثلون الصرافين ويعرفون فى الصعيد بالعمال ويختصون بتوزيع الضرائب على الفلاحين وتحصيلها منهم.

وكان أشهر هؤلاء المعلمين فى عهد همام المعلم بولص بن منقريوس الذى كان يقوم بتسديد الأموال والغلال المطلوبة من الشيخ همام لحكومة القاهرة.

وقد أوردت دفاتر الالتزام بالقلعة أمثلة كثيرة لهذا منها ما كان من قيام المعلم بولص نيابة عن الشيخ همام بتسديد العوايد (الضرائب الخاصة ببعض قرى همام وهى :

أولاد جاد الغربى	٥٣
أولاد جاد الشرقى	٥٣
بنى وركان	٥٣
قباله شربه	٥٣
قرية حراجية	١٦
كوم بدار	٨
	٢٣٦ بارة

وكان هؤلاء المعلمون ينوبون عن الشيخ همام أحيانا فى حضور عمليات تنازل الأمراء المماليك له عن أراضيهم بولاية جرجا، ويسلمونهم الثمن الذى يدفعه الشيخ همام مقابل ذلك أمام محاكم القاهرة.

مثال ذلك ما كان فى قيام المعلم بولص بن منقريوس بحضور عملية تنازل الأمير محمد جاويش مستحفظان القازوغلى فى ١٩ ذى القعدة سنة ١١٧٣هـ/ سنة ١٧٥٨م (أول يولية) عن حصته بناحية طهطا بولاية جرجا للشيخ همام.

وقام المعلم المذكور بتقديم الثمن الذى دفعه همام مقابل حصوله على هذه الأرض.

جيش همام

ولكى يحمى همام أراضيه الواسعة ويدفع عنها شر هجمات الاعراب وأطماع الأمراء المماليك كون جيشا كبيرا من الهوارة أقاربه ومن المماليك الفارين الى الصعيد هربا من وجوه منافسيهم وكان أكثر هؤلاء من بقايا فرقة القاسمية التى شهد عام ١١٤٢هـ/ سنة ١٧٢٩م هزيمتها وتشتت معظم رجالها الى الصعيد حيث التحق الكثيرون منهم بخدمة الشيخ همام وانضموا الى صفوف جيشه.

وقد قدر جيرار عدد رجال جيش همام ألف مقاتل.

ومما لاشك فيه أن هذا الجيش لم يكن له من حسن الاستعداد والتدريب والمهارة الحربية ما يماثل الجيوش المملوكية وهذا ما يفسر الانهيار السريع لقوات همام أمام قوات على بك الكبير أثناء لقائهما فى معركة أسيوط.

وقد اهتم الشيخ همام بالعلماء واشتهر بتقريبه لهم واكرامهم ومقابلتهم بما يستحقون من احترام وتقديم الهدايا العظيمة لهم اذا ما قصدوه فى موطنه.

ومن أشهر هؤلاء العلماء الذين زاروا الشيخ همام فى موطنه الشيخ مرتضى الزبيدى المشهور بمرتضى الحسينى الزبيدى الذى نشأ باليمن (ولد بها سنة ١١٤٥هـ/ سنة ١٧٣٢م وارتحل فى طلب العلم وحج مرارا. واجتمع باشهر علماء عصره الذين أجازوه ثم حضر الى مصر سنة ١١٦٧هـ/ سنة ١٧٥٣م وسكن بحى الصاغة وبدأ التأليف واشتهر أمره وأخذ عنه كثير من شيوخ ذلك العصر كالجوهرى، والحنفى.

وسافر الى الصعيد ثلاث مرات واجتمع بأعيانه وعلمائه وزار الشيخ همام الذى أكرمه اكراما كبيرا وقدم له هدايا كثيرة.

ومن اشهر العلماء الذين كانوا يعيشون فى أرض الشيخ همام الشيخ على بن صالح الشاورى المالكى مفتى فرشوط والذى تلقى علومه بالازهر ثم عاد الى فرشوط وتولى افتاء المالكية بها.

وقد اهتم به الشيخ همام اهتماما كبيرا وأكرمه اكراما كبيرا وكان يقبل وساطته فى أى أمر مما أدى الى اشتهار أمره ولما زار الشيخ مرتضى الزبيدى فرشوط قدمه الشيخ الشاورى لهمام.

وبعد وفاة همام غادر الشاورى فرشوط وحضر الى القاهرة وظل بها حتى وفاته سنة ١١٨٥هـ/ سنة ١٧٧١م.

وقد أوقف الشيخ همام كعادة الامراء المماليك أوقافا كثيرة على المساجد فى الصعيد وقام بكثير من الاصلاحات فيها مثل ما قام به من اصلاح فى مسجد سيدى عبدالرحيم القنائى أشهر اولياء الصعيد. المقام فوق معبد الاقصر على الضفة الشرقية للنيل. فقد جدد همام المسجد والمقام. وأنشأ خلفه مخزنا ودورة مياه وأوقف عليه أوقافا كثيرة.

وقد أنشأ همام مسجدا خاصا فى موطنه فرشوط فى الجانب الشرقى منها عام ١١٧١هـ/ سنة ١٧٥٧م وهو مسجد فخم.

ومازال هذا المسجد قائما فى فرشوط فى حالة جيدة وتقام به شعائر الصلاة وقد كتب على واجهته:

جامع همام بن يوسف رونق.
به لاذت العباد من كل وجهة.
عليه علامات القبول لوايح.
وقد طاب من أرجائه كل بقعة.
فيا داخلا بالباب ادع لمنشئ.
وارخ يسد الله سر المنية.

وعلى جدران المسجد كتبت قصيدة نهج البرده.

وقد أوقف الشيخ همام تسعة عشر فدانا بفرشوط للانفاق منها على هذا المسجد.

نفوذه

رأينا فيما سبق كيف تمتع الشيخ همام بثراء طائل وحكومة منظمة دقيقة وقد اتسع نفوذ همام اتساعا كبيرا فقد تمكن الشيخ بثرائه الطائل

وشخصيته القوية وسيطرته على معظم أراضى الصعيد من الدخول فى علاقات قوية مع كبار الامراء المماليك وكبار الموظفين العثمانيين فقد كان همام على صلة وثيقة بالأمير عثمان أغا وكيل دار السعادة بالقاهرة وقد كان هذا الأمير يقوم بعقد جميع الاتفاقات الخاصة بالشيخ همام مع أمراء المماليك بالقاهرة والخاصة بتنازل هؤلاء الأمراء من أراضيهم للشيخ همام وكان الأمير عثمان أغا هو الذى يقدم نيابة عن همام الثمن اللازم لذلك ويقبل التنازل أمام محاكم القاهرة نيابة عن همام الذى كان قد أعطاه توكيلا رسميا بذلك.

ولنفوذ همام الواسع تمكن من مصادقة بعض كبار الأمراء المماليك مثل الأمير عثمان بك الفقارى، صالح بك القاسمى حاكم جرجا وتحدى بعض مثل الأمير ابراهيم جاويش.

وتمكن أيضا من ارغام الكثيرين من كبار الأمراء المماليك على التخلى عن أراضيهم فى الصعيد والتنازل له عنها، فقد رأى هؤلاء الأمراء أنه من المصلحة أن يتنازلوا عن تلك الأراضى لشيخ الصعيد الذى كانت الدلائل كلها تشير الى أنه ستكون له وحده السيطرة على معظم أراضى الصعيد.

أثر سيطرة همام في ولاية جرجا على الحياة الاقتصادية والسياسية فيها

تمكن الشيخ همام من حفظ الأمن فى الصعيد بكسبه ود القبائل العربية الأخرى المقيمة فيه مثل قبائل العليقات الذين ناط بهم الشيخ همام حراسة طريق القصير.

ومثل قبائل العبابدة التى كانت تسكن منطقة كوم أمبو فى أسوان والتى كانت دائما وقبل عهد همام مثيرة للشغب، وكانت تهاجم مزارع الفلاحين فى الصعيد وتسلبهم محاصيلهم، فاستطاع الشيخ همام أن يستميل هذه القبائل وأن يجعلها تستقر بجوار نهر النيل ـ لأول مرة فى حياتها ـ وأن تكف عن أعمال السلب والنهب التى كانت تمارسها من قبل.

هكذا أدت سيطرة همام على الصعيد الى سلب سائر القبائل المقيمة به النفوذ الذى كان لها على الفلاحين فى ارجاء مصر الاخرى.

وبفضل النظام الذى وضعه الشيخ همام للأمن أثناء سيطرته على الصعيد تمكن البكوات البعيدون عنه واللذين لهم التزامات فيه من الحصول على ايرادات أراضيهم كاملة بعكس الاقاليم الاخرى التى لم يتمكنوا من الحصول على ايراداتهم فيها لما كان يسودها من فوضى واضطراب لم يرهما الصعيد فى عهد الشيخ همام.

وقد استراحت الدولة عامة الى تولى الشيخ همام ادارة أراضى الصعيد، فقد كفاها همام متاعب كثيرة فى الحصول الأموال بتسديده الدائم لما عليه من خراج.

فما أن انتهت ايام همام حتى غدا الصعيد نهبا لبكوات القاهرة المتنفعين.. الذين لم يئل الصعيد على أيديهم أدنى تقدم اذ لم يكن لهم هم الا استعادة سلطاتهم مسخرين أرض الصعيد وثرواته وفلاحيه لخدمة مآربهم الشخصية وقد بدأت تلك الفترة بعد وفاة همام بقليل فى عهد على بك نفسه الذى طرد قائده محمد أبا الذهب فلجأ الى الصعيد محاولا استغلال أهله لاستعادة مركزه.

ثم كان النزاع بين مراد بك وابراهيم بك وبين زميلهما اسماعيل بك على رئاسة مصر، وما كان من لجوء كل فريق تلحقه الهزيمة من الفريقين الى

الصعيد يستولى عليه ويسوم أهله سوء العذاب مما أدى الي: تدهور الزراعة واضطراب الأمن فى الصعيد.

وان كانت سيطرة همام قد أدت الي ضعف وتلاشى السلطة الحكومية المركزية فى الصعيد، وقضت علي كل نفوذ فعلى لحاكم جرجا.

فان تلك السيطرة وفرت للصعيد وأهله أمنا واستقرارا وازدهارا للزراعة لم ينعم بهم الصعيد وأهله قبل همام أو بعده.

علاقة الشيخ همام بالأمراء المماليك

تمتعت قبيلة الهوارة التى ينتمى اليها الشيخ همام بسيطرة واسعة علي الصعيد وقد ظلت لشيوخ هذه القبيلة رئاسة الصعيد والسيطرة علي الحكم فيه حتى عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م حيث عزل العثمانيون الهوارة عن الحكم فى الصعيد كما قدمنا. ولكن السيطرة والنفوذ عادا ثانية الي الهوارة حينما ادخل نظام الالتزام الي مصر فى الربع الأول من القرن ١٧م وقام نفوذ الهوارة حينئذ علي اساس الاعتراف الرسمى بهم كملتزمين.

وقد ساعد علي تدعيم نفوذ الهوارة ما كان لهم من هيبة موروثة وعصبية قبلية، وثراء طائل وصلات متعددة بالحكام وتدخل مستمر فيما كان يجرى من احداث بين أمراء مصر وفقا لما تمليه عليهم مصالحهم وقد استمر الهوارة فى تدعيم نفوذهم ومد سيطرتهم علي أراضى الصعيد بحيازتها بالالتزام وقد شهد القرن الثامن عشر أقصى مراحل نمو ونفوذ الهوارة وسيطرتهم علي الصعيد، وقد غدا الهوارة من القوة بحيث أمكنهم تحدى عبدالرحمن بك حاكم ولاية جرجا فى عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م.

حيث تمردوا عليه ورفضوا ان يقدموا له ما عليهم من أموال وغلال للدولة ولم يستطع عبدالرحمن بك أن يرجعهم عن تمردهم الا بعد أن إرسلت له الحكومة بالقاهرة حملة قام بقيادتها ضد الهوارة الذين منوا بالهزيمة أمامه وفروا هاربين الى الجبل ثم عادوا الى طاعة الدولة.

وقد لعب الهوارة دورا كبيرا فى المنازعات التى كانت تدور بين أمراء المماليك بالقاهرة وحاولوا استغلال هذه المنازعات لصالحهم وكانوا عاملا هاما في اذكاء حدة الصراع بين كثير من كبار الأمراء المماليك.

فبعد عزل عبدالرحمن بك من ولاية جرجا بسعي منافسيه ذهب الى القاهرة وأثار عليه غضب زملائه خروجه من فرقة الفقارية فرقته الأصلية وانضمامه الى الفرقة المنافسة لها وهى فرقة الفقارية، وقد تحمل عبدالرحمن بك بسبب تصرفه هذا عداء زملائه بالاضافة لعداء الباشا الذى كان يضمر فى نفسه الكراهية لعبدالرحمن بك لاشتراكه في عزل الباشا السابق له والذى كان هو كتخداه.

وقد انتهز الهوارة هذه الفرصة واستغلوا الصراع الدائر بين عبدالرحمن بك وزملائه للانتقام منه لمحاربته السابقة لهم فكتبوا للباشا قوائم بما ذهب لهم من (خيول، وجمال، وعبيد، وجوار، وغلال، وأخشاب وفرش ونحاس) وثمنوها بثلثمائة كيس واتهموا عبدالرحمن بك بأخذ هذه الأشياء وأنابوا عنهم وجاق الانكشارية فى خلاص ذلك منه فرفع هؤلاء الأمر الى الباشا فأمر باحضار عبدالرحمن بك فرفض الحضور وانتهز اعداؤه هذه الفرصة واتفقوا على محاربته ان اصر على عدم تسليم الهوارة ما أخذه منهم خلال حملته عليهم، ولما استمر عبدالرحمن بك على موقفه من عدم الاعتراف بما

انهمه به الهوارة حاربه منافسوه حيث كان متحصنا فى منزله ومعه اتباعه وانتهى الأمر بمقتله سنة ١١١٣هـ/ ١٧٠١م ونجح الهوارة فى الانتقام من عبدالرحمن بك مستغلين فرصة النزاع بينه وبين زملائه وكان تدخل الهوارة هو الذى زاد من اشتعال حدة ذلك النزاع ووصل به الى اخطر مدى له.

وعندما اندلعت احداث فتنة افرنج أحمد بالقاهرة سنة ١١٢٣هـ/ ١٧١١م اشترك الهوارة فيها اشتراكا فعليا بحضورهم الى القاهرة بصحبة محمد بك حاكم ولاية جرجا حينئذ.

فعندما ارسلت الدولة حملة بقيادة محمد بك قطامش سنة ١١٢٣هـ/ ١٧١١م لمعاقبة الهوارة لاشتراكهم فى أحداث فتنة افرنج أحمد وما قاموا به من أعمال تخريب خلالها سواء فى القاهرة أو فى انحاء الصعيد التى كانت تحت سيطرة منافسيهم، ولم ينقذ الهوارة من غضب الدولة ـ (بعد هزيمتهم أمام هذه الحملة واعتصامهم بالجبل) ـ الا صديق لهم من أكبر الأمراء المماليك بالقاهرة حينذاك وهو الأمير ابراهيم أبوشنب الذى لجأ اليه الهوارة طالبين منه التوسط لهم لدى الباشا وأخذ أمر منه بالعفو عنهم وتأمينهم فى ديارهم وفعلا تم لهم ذلك عن طريق هذا الصديق.

وأثناء الصراع بين فرقتى القاسمية استعان القاسمية بالهوارة فى صراعهم ضد الفقارية.

ففى أثناء اشتداد الصراع بين هاتين الفرقتين هرب محمد بك جركس أكبر زعماء فرقة القاسمية الى الصعيد حيث أعاد تنظيم صفوفه واستعان بمن كان لاجئا هناك من افراد فرقة القاسمية واستعان بالهوارة الذين صحبوه فى طريقه للتقدم الى القاهرة ولكنه قتل على ايدى منافسيه بالجيزة.

وبموته انتهى الصراع بين الفقارية والقاسمية الذين هزموا وتشتتوا فى البلاد سنة ١١٤٢هـ/ ١٧٢٩م.

وقد لجأ الكثيرون من افراد هذه الفرقة الى الهوارة حيث عملوا عندهم كجنود واختلطوا بهم وعاشوا فى بلادهم.

وخاصة فى عهد الشيخ همام فقد انضم اليه الكثيرون من هؤلاء الرجال وعملوا بين صفوف جيشه.

وقد وصل الهوارة الى ذروة القوة والسيطرة على الصعيد فى عهد الشيخ همام بن يوسف الذى وصل الى حد من القوة والنفوذ مكنه من مصادقة الكثيرين من كبار الأمراء المماليك بالقاهرة يلجأ اليهم لمساعدته على تحقيق أغراضه، ومكنته تلك القوة ايضا من الوقوف موقف التحدى من بعض كبار الأمراء المماليك مثل الأمير ابراهيم جاويش.

وعن طريق سيطرة الشيخ همام على معظم أراضى الصعيد من المنيا الى اسوان بالالتزام توفرت له سلطة واسعة ونفوذ كبير.

وقد بدأ اسم الشيخ همام يظهر كملتزم لبعض أراضى الصعيد كما قدمنا ابتداء من سنة ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م.

ومنذ هذا العام والشيخ همام يواصل زحفه على أراضى الصعيد فقد شهدت الأعوام التالية لهذا العام نموا سريعا للأراضى التى أخذها همام بالالتزام واستمر فى تنفيذ سياسته بتوسيع أراضيه وتنحية الملتزمين الآخرين لاراضى الصعيد من المماليك ومن اقاربه الهوارة ومن العرب الآخرين.

وقد ادى هذا التوسع الى اصطدام الشيخ همام ببعض كبار الأمراء المماليك الذين كانت لهم أراض أخذوها بالالتزام فى ولاية

جرجا والتى كان بعضها يجاور أراضى همام مباشرة.

وقد اضطر بعض هؤلاء الأمراء للتنازل للشيخ همام وشركائه (من اقاربه) عن معظم أراضيهم فى الصعيد فلم يكن أمام هؤلاء الأمراء مجال للاختيار أمام قوة شيخ الصعيد ونمو نفوذه المطرد، وكانت الدلائل كلها تشير الى انه ستكون له السيطرة على معظم أراضى الصعيد.

ومن هنا اضطر الكثيرون منهم للتخلى عن اراضيهم للشيخ همام بل وصل الامر ببعضهم الى حد الحضور بنفسه الى فرشوط مقر الشيخ همام لتسجيل تنازله عن أرضه لهمام امام محكمة فرشوط مثال ذلك ما كان من: تنازل الأمير عثمان جلبى بن أخى حسن قهوجى عن حصته فى ناحية بلصفورة بولاية جرجا للشيخ همام وشريكه (عمه عيسى احمد محمد همام) نظير ثمن معين وقدره اثنا عشر كيسا وذلك بتاريخ ١٢ ربيع أول سنة ١١٤٦هـ/ سنة ١٧٣٣م.

وقد كان الأمير ابراهيم جاويش أهم الأمراء الذين اصطدم بهم الشيخ همام فى محاولته لمد سيطرته على أراضى الصعيد وأخذ معظمها بالالتزام.

فقد كان للأمير ابراهيم أراض واسعة اخذها بالالتزام فى منطقة قنا من ولاية جرجا حيث كانت تلك المنطقة المعقل الاساسى لهمام ولقبيلته.

وما كان الشيخ همام ـ وهو بصدد تنمية أراضيه ومحاولة توسيع نطاقها ـ ليرضى عن بقاء أراضى الامير ابراهيم جاويش وكان للأمير ابراهيم من قوة الشكيمة ومن عظم النفوذ ما جعله يخوض معركة تحد ضد نفوذ همام وضد محاولاته للتوسع وضم أراضيه فى الصعيد.

وفى رواية الجبرتى ان الصراع بين الشيخ همام وبين الأمير ابراهيم جاويش بدأ يأخذ صورة واضحة ابتداأ من سنة ١١٤٩هـ/ ١٧٣٦م. ففى هذا العام رهن الشيخ همام للأمير ابراهيم ناحية برديس مقابل قرض مالى على ان يكون من حق الأمير ابراهيم التصرف فى تلك الناحية لو تأخر الشيخ همام عن سداد المبلغ المقترض فى الموعد المحدد للسداد.

وقد رفض الشيخ همام تسديد المبلغ فى موعده ومنع ابراهيم جاويش من تسلم ناحية برديس والتصرف فيها واستعان بصديق له من كبار الأمراء المماليك بالقاهرة حينذاك وهو الأمير عثمان بك الفقارى الذى ايد موقف همام.

وقد لعب همام دورا كبيرا فى تصعيد حدة الصراع بين الأمير عثمان ذى الفقار والأمير ابراهيم جاويش فقد كان الصراع شديدا بين هذين الأميرين بسبب تنافسهما على رياسة مصر. فأدت استعانة الشيخ همام بالامير عثمان لمساندته فى موقفه ضد الامير ابراهم جاويش الى استياء الامير ابراهيم من الامير عثمان وسعى بكل قواه لجمع كلمة زملائه وتحريضهم على مهاجمة عثمان بك وهو فى طريقه الى القلعة وتم لهم ذلك وهرب عثمان بك أمامهم وفر الى الصعيد عند تابعه على بك حاكم ولاية جرجا حيث معقل الشيخ همام ومهد قوته ونفوذه.

وهكذا كان همام سببا فى احتدام الصراع بين أكبر أميرين فى هذا الوقت وهما عثمان بك الفقارى وابراهيم جاويش وبالرغم من انتهاء هذه الجولة بخروج الأمير عثمان من مصر الى استانبول.

وبالرغم من وصول الأمير ابراهيم جاويش الى مركز السيطرة على مصر فانه لم يتمكن من ارغام الشيخ همام على تسليمه ناحية برديس.

فقد بقيت تلك الناحية فى أراضى همام التى

احرزها بالالتزام حتى وقت وفاته سنة ١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م وكانت هي الدار الذى سيبدأ منه على بك. التحرش بهمام كما سنرى.

رفض همام تسليم الأمير ابراهيم ناحية برديس كما نص على ذلك في الاتفاق الذى كان بينهما كان ذلك الرفض بهدف دفع الأمير ابراهيم للتنازل عن أراضيه في ولاية جرجا للشيخ همام مادام ليس في امكانه وضع يده على الأرض التى له الحق فيها مثل ناحية برديس وهذا ما حدث فعلا في السنوات التالية فقد شهد عام ١١٥٤هـ/ ١٧٤١م تنازل الأمير ابراهيم جاويش عن حصته وقدرها ١٢ط من اصل ٢٤ط في ناحيتى سمهود وخوجان تنازل عن الحصة السابقة لشريك همام الشيخ عيس أحمد محمد همام الذى قام بدوره بالتنازل عن هذه الحصة للشيخ همام الذى ذكرت عنه الحجة.

انه بضم الجزء السابق صار له التزام ناحية سمهود وخوجان بالكامل لأنه كان له من قبل نصف تلك الناحية.

وفي عام ١١٦٣هـ/ ١٧٤٩م ضم الشيخ همام أراضى ابراهيم جاويش التى كانت له في قوص، الحراجية.

وفي عام ١١٦٧هـ/ ١٧٥٣م ضم الشيخ همام لأراضيه ما كان لابراهيم جاويش من أراضى في نواحى الشطب، الحرجة، الباسكية، الشيخية، بيج القهرمون.

وهذا يوضح الى أى مدى وصلت قوة همام وسيطرته على الصعيد بالرغم من ان ابراهيم جاويش كان وقتها في قمة نفوذه وسيطرته على الحكم.

فانه اضطر امام قوة شيخ الصعيد (نزولا على حكم الواقع الى التنازل عن اراضيه في الصعيد والابتعاد عن منطقة نفوذ همام).

وقد استمر الشيخ همام في تدعيم نفوذه وبناء قوته بدفع كبار الأمراء المماليك واحدا تلو للتنازل له عن أراضيهم في الصعيد.

ففي عام ١١٧٣هـ/ ١٧٥٩م، وأمام محكمة الباب العالي بالقاهرة تنازل الأمير محمد جاويش مستحفظان القازدغلي عن حصته وقدرها ٢ط بناحية طهطا وتوابعها للشيخ همام نظير ثمن معين وقدره عشرون كيسا قدمها نيابة عن همام وكيله المعلم بولص.

وواصل الشيخ همام اجلاء امراء المماليك الآخرين الذين كانت لهم أراضى في ولاية جرجا وخاصة من كانت أراضيهم تتداخل مع أراضيه.

ففي عام ١١٨٠هـ/ ١٧٦٦م تنازل الأمير خليل بك القازدغلي الدفتردار عن نفسه وعن وكيله وشريكه حمزة بك القازد على عن ١٨ط من اصل ٢٤ في كامل أراضى ناحية منشأة اخميم (الحرزات والزوك والكوامل وأولاد مامن وتوابعها من ولاية جرجا). وتم التنازل أمام محكمة الباب العالى بالقاهرة نظير ثمن دفعه همام وقدره مائتا كيس.

وفي عام ١١٨١هـ/ ١٧٦٧م اضطر امير آخر هو عثمان بك ابويوسف صارى عسكر الخزينة العامرة وقتها الى التنازل من نفسه وعن موكليه من ٢ط حصتهم في ناحية نفس اخميم، قيراط في أراضى شرق اخميم وتوابعها ساقلته، سفلاق صوامعه طوايل بولاية نظير مبلغ ٢٧ كيسا. وتم التنازل أيضا أمام محكمة الباب العالى بالقاهرة في ١٢ رجب سنة ١١٨١هـ ديسمبر سنة ١٧٦٨م.

وكان متوسط ما يدفعه همام من نقود ثمنا للتنازل عن القيراط أحد عشر كيسا مصرية (ولم يكن القيراط في ذلك الحين يعنى ١/٢٤ من الفدان وانما كان يعنى ٢٤٪ من أرض المقاطعة الزراعية فقد كانت كل مقاطعة تقسم الى ٢٤ قيراطا أى جزء

ولم يكن الشيخ همام يغادر الصعيد الى القاهرة لحضور عمليات التنازل هذه بل كان ينيب عنه وكلاء للقيام بذلك وتسلم الأرض المتنازل عنها ودفع الثمن اللازم لعملية التنازل، وكان منهم المعلمون الاقباط الذين يعملون بأراضى همام فى الصعيد بمثابة مباشرين عنده ومنهم الأمير عثمان اغا العثمانى وكيل دار السعادة بالقاهرة هو ناظر الاوقاف السلطانية العامة بالقاهرة والذى كان الشيخ همام قد اعطاه توكيلا شرعيا للقيام عنه بمثل هذه الأمور.

بل لقد وصلت سطوة همام ونفوذه وقوته الى حد أنه استطاع ان يرغم على بك الكبير اعظم الأمراء المماليك حينئذ وشيخ البلد والمسيطر على مقاليد الحكم فى مصر على التنازل له عن مساحات واسعة من أراضيه التى كان يحرزها بالالتزام فى الصعيد من ذلك.. ما كان من تنازل الأمير على بك الكبير للشيخ همام عن ٢٢ قيراطا من اصل ٢٤ قيراطا أى معظم ناحية بنى نصر بمنفلوط وكان ذلك أمام محكمة الباب العالى بالقاهرة فى أول رجب سنة ١١٨٢هـ/ ١١نوفمبر سنة ١٧٨٦م نظير مبلغ ٢٥٢ كيسا قدمها وكيل همام الأمير عثمان أغا.

ولعل على بك امتلأت نفسه حقدا على همام بعد وقوع تنازله هذا عن أراضيه لهمام ولعل هذا التنازل هو أقصى ما وصل اليه همام من قوة ونفوذ حينئذ.

ففى منتصف هذا الشهر لنفسه ١٥ رجب سنة ١١٨٢/ ٢٦ نوفمبر سنة ١٧٦٨ بدأ تحرشه بالشيخ همام بارساله حملة بقيادة محمد بك ابى الذهب لمطالبة همام بالتخلى عن جميع أراضيه شمال برديس .

هكذا رأينا كيف تمكن همام بما اتيح له من قوة وثراء ونفوذ وسيطرة على معظم أراضى الصعيد من الدخول فى علاقات قوية مع امراء المماليك فتحدى بعضهم واضطره للتخلى عن أراضيه فى الصعيد وصادق بعضهم صداقة قوية ربطت حياته بحياتهم ومصيره بمصيرهم مثل صداقته للأمير صالح بك القاسمى الذى بلغ من صداقته له انه كان ينيبه عنه فى جميع مصالحه بالقاهرة والذى أيده الشيخ همام بكل ما يحتاج اليه من مال عندما حاول على بك نفيه من مصر ليخلو له الجو لفرض سيطرته على مصر.

وقد بدأت صداقة همام مع صالح بك منذ عام ١١٦٨هـ ١٧٥٤م حينما عين صالح بك حاكما لولاية جرجا، فقد قبل هذا الأمير صداقة الشيخ همام ربما لأنه من القاسمية، وهم الرجال الذين غمرهم الهوارة عامة والشيخ همام خاصة بكرمهم، وأفسحوا لهم ديارهم. وقدموا لهم المأوى والأمان عندما انتهت دولتهم سنة ١١٤٢هـ/ ١٧٢٩م وتعرضوا للتشتيت والنفى.

وربما أدرك صالح بك بثاقب بصره أنه من الخير له أن يكسب ود وصداقة شيخ الصعيد المسيطر على معظم آراضيه ان أراد ان يضمن لنفسه حكم ولاية جرجا فقد وصل الشيخ همام فى تلك السنوات الى حد من القوة والسيطرة والنفوذ ما كان يجعله فى مركز يستطيع منه تحدى أى حاكم لولاية جرجا لا يكون على وفاق معه.

الصراع بين الشيخ همام وعلى بك الكبير

اتجه علي بك من أجل توطيد نفوذه الي الايقاع بين حسين بك كشكش وصالح بك القاسمي بتعيين الأول حاكما لجرجا ثم أصدار أمرا بنفى صالح بك الي رشيد ثم الي دمياط ولكن صالح بك لم يستسلم بل فر الي المنيا أى الي الصعيد موطن صديقه وحليفه الشيخ همام وجمع حوله (المنفيين) من فرقة القاسمية.

وقد اهتم الشيخ همام بمساندة صديقه صالح بك ومساعدته مساعدة فعالة، عملا بما تقتضيه واجبات الصداقة من جهة وادراكا لسوء نوايا علي بك من جهة أخرى فلاشك ان مساعدة الشيخ همام لصالح بك كانت تحمل فى ثناياها ادراكا من همام لنزعة علي بك وميله للقضاء علي كل ذوى السلطان والنفوذ الذين يخشى منهم علي نفوذه وسيادته ومن هؤلاء كان صالح بك الذى كان يستمد قوته من صداقته وارتباطه بالشيخ همام، وقد أمد الشيخ همام صديقه صالح بك بكل ما يحتاج اليه من ذخيرة ومؤن ورجال لمقاومة الحملة التى وجهها اليه علي بك بقيادة حسين بك كشكش.

وقد تمكن صالح بك بمعاونة الشيخ همام من قطع الاتصال بين الصعيد والقاهرة، ومنع ارسال الغلال والأموال الأميرية.

وقد كان الشيخ همام يقف بكل قوته وراء صالح بك، وبحسن سياسة الشيخ همام وبعد نظره فشلت حملة علي بك ضد صالح بك، فلا شك ان الشيخ همام بمساندته القوية لصالح بك نبهه الى حقيقة نوايا علي بك ضده واهدافة من ارسال حملة اليه بقيادة زميله حسين بك بهدف ايقاع الشقق بينهما.

وفعلا حدث عكس ما توقع علي بك وسرعان ما تفق صالح بك وحسين بك كشكش ضد علي بك الذى سارع باصدار أمر بنفي حسين بك الذى لم يمتثل للأمر وأسرع بدخول القاهرة عنوة فحاول علي بك دس السم له فاكتشف هذه الخديعة فاضطر علي بك الي الهرب الي الشام سنة ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م وسيطر حسين بك علي القاهرة واستعاد صالح بك حكم ولاية جرجا، ولكن علي بك لم يلبث أن عاد من الشام ودخل القاهرة مظهرا الندم والتوبة فانخدع زملاءه بمظهره وأعطوه حكم نوسا الغيط لابعاده عن القاهرة ولكنه ما أن وصل الي هناك حتى دبر مؤامرة للقضاء علي زملائه الذين اكتشفوا هذه المؤامرة وقرروا نفيه هذه المرة الي اسيوط وكانت جزءا من ولاية جرجا التى يحكمها خصمه صالح بك.

هكذا وجد علي بك نفسه مضطرا للجوء لأقوى منافسيه صالح بك ـ حليف شيخ العرب همام ـ للاستعانة به في محاولة العودة الي القاهرة والقضاء علي منافسيه بها، وقد كانت أهمية صالح بك في ذلك الوقت تأتى من مخالفته وصداقته لشيخ مصر العليا وسيدها المطاع الشيخ همام الذى كان له النفوذ الفعلي في الصعيد حينئذ، فقد كان همام وقتها يسيطر علي معظم أراضي الصعيد من المنيا الي اسوان ويملك ثروة هائلة وقوة عسكرية ضخمة واسلحة وذخيرة هائلة. وقدر علي بك بثاقب بصره ان في تحالفه مع صالح بك ما يضمن له الحصول علي قدر هائل من القوة التى يتمتع بها الشيخ همام والتى كان لا يضن بتقديم الكثير منها لصديقه صالح بك.

ولكن صالح بك رفض كل محاولات على بك للصلح معه متأثرا بما كان من سوء العلاقات بينهما ومحاولة على بك ابعاده الدائم من القاهرة تارة بنفيه الى رشيد، وتارة أخرى بنفيه الى دمياط.

ولجأ على بك الى الاتصال مباشرة بالشيخ همام عله يقنع صديقه وحليفه صالح بك بالتحالف معه، وارسل اليه رسلا بذلك واستخدم الرسل فى ذلك كل سبل الخديعة والقول المعسول والوعود البراقة ملوحين للشيخ همام بعزم على بك تأييد سلطته ونفوذه من الصعيد لو تم له النصر وكذا تثبيت مركز صالح بك كحاكم لولاية جرجا فى ظل سيطرة همام. واستمروا فى ذلك حتى قبل الشيخ همام ان يتم الاتفاق بينه وصالح بك من جهة وبين على بك من جهة أخرى.

ويبدو ان الشيخ همام لم يقبل مساندة على بك الا أنه ادرك خفايا شخصية على بك، وأنه يملك من العزيمة ما سيمكنه من هزيمة زملائه واحراز السيطرة على مصر كلها، ورأى همام فى مساندة على بك ما قد يعود عليه، وعلى صديقه صالح بك بالنفع لو تم النصر لعلى بك وفاز بالسيادة ثانية.

وفعلا تم الاتفاق بينهم، وقبل صالح بك الانضمام الى صفوف على بك الذى سر كثيرا بهذا الاتفاق الذى سيكفل له الحصول على أكبر قدر من الأموال والرجال والعتاد من الشيخ همام.

وقد وعدهم على بك بأنه اذا ما تم له النصر ثبت صالح بك فى حكم ولاية جرجا مدى الحياة أى ثبت نفوذ همام وسلطته فى الصعيد مدى الحياة أيضا فصالح بك كان هو الحاكم لجرجا شكلا ولكن النفوذ الحقيقى فيها كان لشيخ العرب همام، وبمصاحبة صالح بك وبمعونة همام تقدم على بك فى طريقه الى القاهرة بجيش جرار حيث التقى بمنافسيه شمالى بنى سويف فى جمادى سنة ١١٨١هـ اكتوبر سنة ١٧٦٧م حيث دارت المعركة الفاصلة التى انتصر فيها على بك نصرا تاما ودخل القاهرة حيث ثبتت أقدامه هذه المرة فى امارة مصر ورياستها وحيث بدأ فى تنفيذ سياسته التى كانت ترمى الى:

(قتل المتمردين وقطع المعاندين وتشتيت شمل المنافقين) وقد بدأها بالقضاء على حسين بك كشكش وزميله خليل بك سنة ١١٨٢هـ سنة ١٧٦٨م ثم التفت الى صالح بك حليفه الذى سانده فى صراعه الهام ضد منافسيه والذى كانت له بمساعدة صديقه همام اليد الطولى فى حصول على بك على نصره المؤزر على زملائه.

ولكن على بك فى سبيل التخلص من زملائه الذين يخشى من منافستهم له غدر بصالح بك بأن أغرى به بعض أتباعه فاغتالوه ليلا أثناء سيرهم معه قرب سويقة عصفور ببولاق بعد خروجهم من اجتماع ضمهم وعلى بك فى منزله فى ١٨ ربيع الثانى سنة ١١٨٢هـ/ ١١ سبتمبر سنة ١٧٦٨م وبذلك تخلص على بك من آخر صنجق قوى كان يمكن ان ينافسه على مشيخة البلد، ولعل من أهم الأسباب التى جعلت على بك يعجل بالقضاء على صالح بك خوفه من خطورة صالح بك لاستناده الى حليفه القوى المسيطر على الصعيد شيخ العرب همام.

وبذا استقرت الأمور لعلى بك الذى غدا سيد مصر الفعلى، وتطلعت نفسه الى الانفراد بشئون الحكم فى مصر كلها وكان لابد له لتثبيت مركزه

من تعبيد الطريق، ازالة ما به من عقبات كان أهمها كسب ثقة الباب العالى باطاعة أوامر السلطان والتقرب الى ممثلة فى مصر واستصدار فرمانات من الباشا لتنفيذ ما يتخذ من قرارات ونجح على بك فى ذلك نجاحا تاما.

وكان عليه ايضا ان يقضى على ما بقى من قوة الحامية العثمانية فى مصر، فهى وان كانت قد ضعفت واصبح معظم رجالها من أرباب الحرف، الملتزمين ولم تعد هيئات قوية منظمة، الا أنها كانت موجودة وللانفراد بالسلطة فى مصر كان على على بك ان يقضى على كل قوة لها، ولذا اتبع سياسة التخلص منها باهلاك رجالها فى الحروب الداخلية ومنع العناصر غير المرغوب فيها من بين ضباطها من التزام الأراضى ومصادرة أموال البارزين من قادتها أو اعدامهم.

وبعد ان أمن على بك جانب السلطان وقضى على المتمردين والمنافسين له من البكوات المماليك وبعد أن شل نفوذ الحامية العثمانية وركز السلطتين الادارية والحربية فى يده اصبح فى مركز يسمح له بالقضاء على آخر القوى الخطيرة التى يمكن ان تهدد سلطاته ونفوذه وهى:

القبائل العربية المنتشرة فى الوجهين البحرى والقبلى.

وقد أظهر على بك أنه بمحاولته القضاء على سلطة تلك القبائل انما يهدف الى اقرار الأمن الداخلى.

ولكن الحقيقة كانت خلاف ذلك فقد كان على بك يهدف من تحطيم سلطة القبائل العربية فى مصر الى دعم مركزه وفرض سيطرته الخالصة على مصر كلها.

ومحاولة على بك للقضاء على القبائل العربية فى الوجه البحرى قد تكون محاولة صادقة منه لاقرار الأمن فقد كثر عبث الحبايبة بشرق الدلتا واصبحوا أخطر العرب الموجودين بالوجه البحرى وأكثرهم نفوذا وسيطرة وهم ينتسبون الى حبيب بن سعد أعظم مشايخ العرب قدرا بالقليوبية خاصة والوجه البحرى عامة.

وقد وفد الحبايبة أصلا من الحجاز واستقروا فى شطب بأسيوط ثم نزحوا الى الدلتا، وكان ظهور جدهم حبيب فى أوائل القرن الثامن عشر وقد تولى رياستهم فى عهد على بك سويلم ابن حبيب الذى ورث عن أبيه حبيب وعن شقيقه سالم شهرة تردد صداها فى انحاء الوجه البحرى وقد انتهت الى سويلم زعامة جميع القبائل العربية هناك وهابه الجميع لجرأته وشد بأسه.

وقد احيطت اعماله بهالة من الخيال حتى لقد (قوموه وفرسه بألف خيال).

وقد انتهت اليه خفارة (حراسة) الملاحة النيلية بين بولاق وكل من دمياط ورشيد، غير أنه رغم ثروته الطائلة وضياعه الواسعة تجبر وطغى واصبح لا يفترق فى شئ عن قطاع الطرق فزاول القرصنة النيلية وأعد مراكب خاصة لذلك تخرج الى النيل وعليها رجال غلاظ ومزودة بالسلاح فاذا مرت بهم سفينة صاعدة الى الوجه القبلى أو حادرة الى الوجه البحرى أوقفوها فان خضعت لهم اخذوا منها ما يشاءون وان عصتهم او حاولت الهرب منهم تتبعوها وضيقوا عليها الخناق حتى تقع بين أيديهم وحينئذ يأخذون منها أضعاف ما كانوا سيأخذونه منها لو سلمت لهم من أول الأمر.

ورغم تكرر الشكاوى من سويلم فان حكام مصر لم يكونوا يحركون نحوه ساكنا فقد كانت هداياه الفخمة الدائمة لهم تلجم السنتهم وكان له

من امراء المماليك واتباعهم اصدقاء كثيرون يحمون ظهره.

وقد وصل نفوذ الحبابية اقصى اتساع له في عهد على بك فقد اصبحت معظم بلاد القليوبية والشرقية تحت حماية سويلم بن حبيب وحماية أقاربه وأولاده واصبح الملتزمون في تلك النواحي تحت رحمته يتدخل في كل أعمالهم بالاضافة لتحكمه في الطريق بين القاهرة وموانى القطر الشمالية.

وما كان على بك يسمح لتلك الفوضى بالبقاء في عهده وما كان يستطيع ان يغمض عينيه عن خطورة سلطة ابن حبيب على نفوذه في مصر، لذا وجه اليه حملة بقيادة محمد بك أبى الذهب، وأيوب بك للقضاء عليه وفي رواية الجبرتي ان على بك احتج في ارسال الحملة بما كان من اكرام ابن حبيب لمنافسة حسين بك كشكش وتستره عليه اثناء مطاردة على بك له.

وعندما وصلت الحملة الى دجوه ـ (قرية صغيرة بالقليوبية تقع على الضفة الشرقية لفرع دمياط) ـ لم يكن سويلم موجودا بها وعندما علم بحضورها أسرع الى البحيرة والتجأ الى عرب الهنادى، فاكتفى محمد بك بنهب دياره وأمواله وعاد الى القاهرة سنة ١١٨٢هـ/ سنة ١٧٦٨م.

ولكن على بك لم يكتف بذلك بل جرد عليهم حملة أخرى بقيادة اسماعيل بك استطاعت هذه الحملة ان تهزم الحبابية والهنادى ايضا فانكسروا شر كسرة، وقضى على سويلم واتباعه وزال خطر هذه القبائل العربية نهائيا ولم تقم لها قائمة بعد ذلك.

وبعد ان تخلص على بك من أخطار عرب الوجه البحرى اتجه للقضاء على عرب الهوارة بالصعيد واستخلاصه من أعظم مشايخ العرب قدرا ونفوذا واتباعا وهو شيخ العرب همام بن يوسف الهوارى.

وفي محاولة على بك القضاء على الشيخ همام ونفوذه بالصعيد تبدو رغبته في دعم مركزه بالقضاء على كل ذى نفوذ يمكن ان يهدد نفوذه وسيطرته على مصر.

وترجع اسباب النزاع بين الشيخ همام وعلى بك الى سنوات بعيدة الى عام ١١٤٩هـ/ ١٧٣٦م حين تحدى همام الامير ابراهيم كتخدا (جاويش) استاذ على بك وسيده ذلك التحدى والعداء الذى لم ينته الا بنهاية الشيخ همام وقد أشار الجبرتي الى هذا المعنى بقوله:

(وأما النفرة التى لم يندمل جرحها فهى دعوة برديس وفرشوط فقد رهن الشيخ همام لابراهيم جاويش ناحية برديس نظير اقتراضه منه مبلغ من المال بشرط أن يتصرف ابراهيم جاويش كيفما يشا في ناحية برديس ان لم يسدد له الشيخ همام المبلغ الذى اقترضه منه في الوقت المحدد لسداده.

ولكن همام رفض تسديد هذا المبلغ في آوانه وتكرر رفضه حتى اضطر ابراهيم جاويش لآن يشكوه لعثمان بك الفقارى صديق الهوارة وزعيم المماليك في مصر حينئذ ولكن عثمان بك أيد الشيخ همام ورفض اجباره على تنفيد الشروط التى اتفق عليها مع ابراهيم جاويش الذى غضب لذلك أشد الغضب وتآمر ضد عثمان بك الذى خسر الموقف وفر هاربا الى استانبول، وفقد همام بخروج عثمان بك عن مصر أعظم صديق له من بين الامراء المماليك الكبار ورغم ذلك فقد عجز ابراهيم جاويش عن ان يستخلص ناحية برديس من الشيخ همام الذى كان قد بدأ في السيطرة على الصعيد

والاستحواذ على أراضيه الواسعة.

جرى هذا الصراع بين الشيخ همام وابراهيم جاويش على مرأى ومسمع من على بك الذى كان تابعا لابراهيم جاويش وأحد مماليكه المخلصين.

ولابد ان موقف همام من ابراهيم جاويش أستاذ على بك قد ترك اثرا سيئا فى نفس على بك ولابد ان هذا التحدى من همام ـ لأحد كبار الأمراء المماليك اصحاب النفوذ فى مصر حينئذ ـ قد نبه على بك الى ما يتمتع به همام من قوة ونفوذ يخشى خطرهما على من تكون له السيطرة على مصر.

ولعل على بك قد اسر فى نفسه حينئذ انه متى سيطر على مقاليد الأمور لابد وان يقضى على الشيخ همام وعلى نفوذه فى الصعيد حتى لا يتطلع الى فصله عن الوجه البحرى متحديا اياه تحدى استاذه من قبل.

ثم أدت الصداقة المتينة التى ربطت بين صالح بك القاسى ـ حاكم جرجا ومنافس على بك ـ وبين الشيخ همام الى زيادة الشكوك فى نفس على بك ضد همام وضد ما قد يحاوله من تحد له ولحكمه وسيطرته على مصر.

وأدرك على بك بعد قضائه على صالح بك انه لابد وأن يزيل من الصعيد نفوذ همام وسيطرته الواسعة حتى لا يفكر همام فى القيام بعمل ضده انتقاما منه لغدره بصديقه صالح بك ونقضه ما كان بينهما من عهود وتحالف تم على يد همام وبرأيه ووساطته بينهما.

وقد كان طبيعيا ان يستنكر الشيخ همام غدر على بك بصديقه وحليفه صالح بك، وأن يفطن الى أنه لم يعد هناك مطلب لعلى بك سوى القضاء عليه هو الآخر بعد ان قضى على جميع منافسيه وعلى القوى التى كانت تهدد نفوذه فى مصر.

وقد سارع على بك ببدء النزال ضد همام عقب التخلص من صالح بك فوجه على همام حملة بقيادة محمد بك أبى الذهب سارت الى الصعيد فى ١٥ رجب سنة ١١٨٢هـ/ ٢٦ نوفمبر ١٧٦٨م لفرض شروط على بك على الشيخ همام وهى الشروط التى كانت تقضى بأن يقصر الشيخ همام منطقة نفوذه وسيطرته على أراضى الصعيد ابتداء من برديس (قرية بجوار مدينة جرجا تقع بحرى فرشوط مقر همام) وهى القرية التى سبق النزاع بشأنها بين همام، وابراهيم جاويش أستاذ على بك.

اى ان تلك الشروط كانت تقضى بأن يقصر همام نفوذه على المنطقة التى كان يتركز فيها الهوارة فى قنا واسوان وليس على الصعيد كله.

وقد كان على بك وقتها فى مركز يسمح له بتحدى شيخ الصعيد واملاء أوامره عليه فقد اصبح على بك شيخا للبلد وسيد مصر الفعلى، وكانت الدلائل كلها تشير الى انه سيكون الحاكم المطلق لمصر كلها.

لذا آثر الشيخ همام الخروج من الجولة الأولى بدون اشتباك كان يدرك مقدما أنه سيخسره، وقبل همام شروط على بك بتحديد منطقة نفوذه ابتداء من برديس، وترك الأراضى الواقعة شمالها الى المنيا ـ والتى كانت من قبل تحت سيطرة همام ـ لعلى بك يتصرف فيها كما يشاء.

ولا شك ان الشيخ همام قد قبل هذه الشروط بدون مقاومة وانسحب مؤقتا حتى يجد له منفذا آخر ولكن كلا من الطرفين لم يكن ينوى حقيقة تنفيذ هذا الاتفاق فقد بقيت تلك الأراضى فى التزامات الشيخ همام وكان قبول همام للاتفاق ماهو الا تقدير منه لخطورة الموقف فقط وقوة الخصم الذى يقف امامه فآثر الانسحاب ريثما يعيد النظر فى موقفه. ولكى يغرى محمد بك أبا الذهب بالعودة وربما ليستميله ويجعله يثنى على بك عن نية القضاء عليه تنازل له عن التزام ناحية برديس هدية منه له ـ أى بدون ان يقبض ثمنها لهذا التنازل بمناسبة مولد ولد لمحمد بك.

وقد كانت تلك هى الجولة الأولى بين همام، وعلى بك تلك الجولة التى أكدت لهمام أن:

على بك قد عقد العزم تماما على القضاء عليه وعلى سيطرته الواسعة على الصعيد

ولم ينخدع على بك بالانسحاب الهادئ الذى قدمه الشيخ همام بتنازله الظاهرى عن أراضيه، ولم ينس على بك الشكوك التى كانت ما تزال تؤرقه من ناحية الشيخ همام وما يربطه أى همام من صلات الود بالدولة العثمانية نفسها التى سمحت له بمد نفوذه على أراضى الصعيد من المنيا الى اسوان باذنها فقد كان همام كما قدمنا يحصل على كل أراضيه بالالتزام بأذن الدولة ورضائها.

وعاد التحرش من جديد واستأنف على بك الصراع حتى لا يترك لهمام فرصة للتفكير أو العمل فأرسل اليه يطلب منه طرد الأمراء المماليك المعادين له والمقيمين بأراضيه عربونا لاقراره لشروط الاتفاق التى جرت بينه وبين محمد بك أبى الذهب.

وهنا تأكد لهمام بما لا يدع مجالا للشك رغبة على بك فى القضاء عليه وأنه لن يتركه يهنأ بما كان له من سيطرة ونفوذ فى الصعيد لذا قرر همام فى هذه المرة ان يقوم بعمل ايجابى لمقاومة محاولة على بك للقضاء عليه، ولكنه لم يعلن عداءه صراحة لعلى بك ولم يقاومه وجها لوجه بل لجأ الى الأمراء المماليك خصوم على بك والموجودين فى أراضيه مثل:

اتباع صالح بك القاسمي وباقى القاسمية وأتباع كثير من البيوت المملوكية التى قضى عليها على بك مثل بيوت:

الخشاب. الفلاح، الجلفى، مناو، البكرى، أتباع كشكش بك.

وكان هؤلاء يمثلون عددا كبير من الأمراء والأتباع فحرضهم همام واتفق معهم على ان يتقدموا للاستيلاء على اسيوط وانتزاعها من اتباع على بك تمهيدا لتقدمهم الى القاهرة لاجلاء على بك عنها والقضاء على حكمه لمصر واسترجاع ما كان لهم من نفوذ وسطوة على أن تبقى له سيطرته على الصعيد، وفعلا وافقه الأمراء على ذلك، فأمدهم همام بالرجال من كبار الهوارة ومن أهالى الصعيد فتكون لهم جيش كبير قدم له همام كل ما يحتاج اليه من أموال وذخائر ومؤن.

وانتهى الأمر باستيلاء الأمراء حلفاء همام على اسيوط ووصل الخبر الى على بك الذى كان قد أرسل حاكما جديدا لجرجا من خاصة صناجقه وهو أيوب بك فى محرم سنة ١١٨٣ هـ/ مايو سنة ١٧٦٩م وأمره بالتوجه الى جرجا لتولى منصبه، وخرج أيوب الى الصعيد متوجها الى جرجا ومعه عدد كبير من الجند والأتباع، ولكنه وجد ان الصعيد فى قبضه همام وحلفائه فأرسل يطلب مددا من على بك لمواجهة الموقف.

وقد ادرك على بك اهمية المعركة القادمة وأنه لتثبيت سيادته على مصر لابد وأن ينتصر في هذه المعركة ولابد وان يقضى قضاء نهائيا على الشيخ همام الذى اصبح منبعا للخطر الداهم يتهدد به نفوذه وبقاؤه في الحكم.

لذا جهز على بك وبسرعة فائقة جيشا ضخما حشد فيه الى جانب جنده المماليك مجموعة كبيرة من رجال الفرق العسكرية كلها وعلى رأسهم اثنان من بكواته الذين يثق فيهم وهم:

خليل بك القاسمى وابراهيم بك.

وأرسل هذا الجيش بسرعة للانضمام لجيش ايوب بك حاكم جرجا لمحاربة همام وحلفائه.

وقد حشد على بك لهذه المعركة كل قواه فلم يكتف بما أرسله بل ارسل حملة ضخمة بقيادة قائده المظفر محمد بك ابى الذهب ومعه رضوان بك ومجموعة من الأمراء والصناجق اتباع على بك وضمت هذه الحملة اعدادا ضخمة من:

المماليك والمرتزقة من الدلاء والدروز والمتاولة والشوام.

وانضم الجميع الى جيش ايوب بك الذى كان معسكرا خارج اسيوط التى كانت مازالت في أيدى حلفاء همام.

وتقديرا من على بك لأهمية هذا الصراع وخطورة المعركة القادمة استمر في ارسال الامدادات والذاخئر المتوالية الى رجاله الذين اصبحوا يضمون جيشا ضخما مكونا من ثلاثة جيوش وهم جيش أيوب بك وجيش خليل بك وجيش محمد بك أبو الذهب الذى تزعم الجميع.

وأمام أسيوط دارت المعركة الحاسمة التى كتب النصر فيها لقوات على بك بعد قتال عنيف قتل فيه الكثيرون من أعداء على بك من الأمراء المماليك وفرت فلول المهزومين الى فرشوط مقر الشيخ همام.

وقد كان من الطبيعي أن ينتصر رجال على بك على حلفاء همام فقد كان رجاله يمثلون قوة الدولة وقد هيأ لهم على بك الوسائل التى تضمن تفوقهم من تزويدهم بالأعداد الهائلة من الرجال والأموال والمؤن والأسلحة.

بينما كانت قوة همام أقل عددا وأضعف استعداد لأن حلفاءه من المماليك لم يكونوا أكثر من جماعة من الأمراء اللاجئين الى الصعيد بعد فقدهم كل قوتهم وثرواتهم التى جردهم منها على بك،وما قدمه لهم الشيخ همام من رجال لم يكن لهم من المهارة الحربية ومن التدريب والتسليح وحسن الاستعداد ما يضمن لهم التغلب على الجند المماليك والطوائف العسكرية الأخرى التى كانت تتألف منها قوات على بك. وبعد انتصار على بك الساحق على حلفاء همام ورجاله في معركة أسيوط أمر قائده محمد بك أبى الذهب بالزحف فورا الى فرشوط لمحاربة الشيخ همام والقضاء عليه.

وقبل أن يجد همام مخرجا من هذا الموقف، وقبل أن يتقدم برجاله لمواجهة جيش محمد بك لجأ محمد بك الى سلاح العصر وهو سلاح الخيانة والخديعة فأغرى أبن عم همام الشيخ اسماعيل أبوعبد الله بخيانة همام وأخذ يستميله واعدا اياه برئاسة الصعيد بدلا من همام اذا ما تقاعس عن القتال في صفوف همام ونشر فكرة التخاذل بين جنده.

وبهذه الوعود البراقة استثار محمد بك جوانب الضعف الانسانى والأنانية الشخصية التى جعلت الشيخ اسماعيل ينخدع بحيلة أبى الذهب ويخون أبن عمه الشيخ همام ويتراجع عن

القتال معه بل ويضم الى صفوفه الكثيرين من رجال همام.

ويبدو أن الشيخ همام كان يعقد أهمية كبيرة على وجود ابن عمه هذا بين صفوفه، لذا قصمت هذه الخيانة ظهره وفتت في عضده اذ أدرك أنه لن يبقى له شيء بعد أن خانته عشيرته وتخلى عنه أقرب الناس اليه، لهذا أدركه حزن قاتل واضطر الى التقهقر وخرج من مسقط رأسه وموطنه وعاصمة نفوذه ومجده فرشوط ومات (مكمودا مقهورا قرب اسنا في قرية قمولة). في ٨ شعبان سنة ١١٨٣هـ/ أول نوفمبر سنة ١٧٦٩م وكان في نحو الستين من عمره.

وبوفاة همام انتهت حياة تلك الشخصية الفريدة في عصرها وتقرر النصر النهائي لعلى بك الذى تخلص من آخر قوة كانت تؤرق مضجعه، وتقف عقبة في سبيل فرض سيادته الخالصة على الصعيد فغدا على بك بموت همام سيد مصر كلها وصاحب النفوذ المطلق فيها.

بعد خروج الشيخ همام من فرشوط دخلها محمد بك أبو الذهب ورجاله ونهب ما بها من أموال همام وأخذ ما كان بدياره وديار أقاربه وأتباعه من ذخائر وغلال ثم رجع الى القاهرة وبصحبته درويش أكبر أبناء همام الذى قدمه الهوارة وأشاروا عليه بمقابلة محمد بك ففعل.

وقد تفرق الأمراء حلفاء همام بعد وفاته لفقدهم الأمل في مقاومة على بك فمنهم من ذهب الى درنه ومنهم من ذهب الى تركسيا ومنهم من ذهب الى الشام.

وأما درويش فبعد أن قابل محمد بك طلب منه أن يحصل له على العفو من على بك فرحب محمد بك بذلك وأخذه معه الى القاهرة وأسكنه بجوار منزله ولعله قصد بذلك تحديد اقامته حتى تهدأ الأمور وبقى الشيخ درويش بمصر فترة كان يقوم فيها بالتجول في القاهرة لرؤية معالمها وزيارة أوليائها والتنزه فيها وكان الناس يعدون خلفه لمشاهدته والنظر اليه لجماله ووجاهته ولما سمعوه عن أخبار أبيه الشيخ همام.

وبشفاعة محمد بك منح على بك درويشا التزام أراضى فرشوط.

كيف ادار علي بك الصعيد بعد وفاة همام

استولى على بك وقائده محمد ابوالذهب على معظم الالتزامات الهامة والتى كانت للشيخ همام من قبل واصبح اسمهما هو الذى يرد أمام هذه النواحي وسجلت دفاتر الالتزام اسمهما بدلا من اسم همام.

ففي دفتر رقم ٥٣٩ لسنة ١١٨٤هـ عين ٨.

ورد أن على بك أخذ أراضى طهطا، شندويل، شرق بويط، منشأة أخميم، وشرق أخميم، برديس، قنا.... شركة مع محمد بك ابى الذهب.

وترك على بك لأبناء همام، درويش وشاهين وعبدالكريم أراضى محدودة في محافظة قنا.

ووزع باقى أراضى همام بين لأمراء المماليك مثل:

اسماعيل بك أمير الحج، ومصطفى بك حاكم جرجا وايوب بك وقيطاس بك، ومراد بك، وابراهيم

بك، ومجموعة اخرى من البكوات المماليك.

ومجموعة من أقارب همام مثل:

الشيخ اسماعيل عبدالله عيسى.

ابراهيم عيس أحمد همام.

صالحة زوجة همام، وابنته شريفة.

وقد تولى درويش بن همام مشيخة الهوارة بعد وفاة والده وبعد ان توسط له محمد بك ابوالذهب لدى على بك الذى وافق على عودته الى فرشوط واعطاه التزامها.

ولكن درويشا لم يحسن ادارتها وجعل كل همه مضايقة من كانوا يعملوا فى خدمة أبيه بمصادرة أموالهم وانتهى أمره بالفشل وعاد ثانية الى القاهرة لاجئا الى محمد بك ابوالذهب الذى احسن استقباله واكرامه وأنزله بمنزل مجاور لمنزله أيضا.

ويبدو ان محمد بك كان يحسن معاملة الشيخ درويش لاكتساب ود الهوارة استعدادا للجولة القادمة ضد سيدة وولى نعمته على بك وهو ما وقع فعلا فعندما تمرد محمد بك على سيده خرج الى الصعيد ولحق به درويش بن همام وسانده الهوارة ضد على بك.

اثر القضاء على سلطة همام في حياة الصعيد

بعد القضاء على سيطرة همام على الصعيد واجهت اسرته متاعب كثيرة فقد فشل ابنه درويش كما قدمنا فى تولى رئاسة الهوارة لضعف شخصيته وسوء سياسته.

وأما ابناه الآخران شاهين وعبدالكريم فقد استمرا يشتغلان بالزراعة حتى قتل شاهين على يد مراد بك سنة ١٢١٤هـ (١٧٩٩م) لأمور نقمها منه ايام الفرنسيين ومات عبدالكريم قريبا من هذا التاريخ.

ولما تولى ابراهيم بن محمد على حكم الصعيد سام هذه الاسرة اقسى انواع العذاب اذ جردها من كل مابقى لها من التزامات وأوقاف سنة ١٢٢٣هـ/ ١٨١٣م مما أدى الى تدهور حالتها، ولجوء أفرادها وعلى رأسهم زوجة عبدالكريم بن همام الى القاهرة لرفع شكواهم الى محمد على عله يرفق بهم ولكن محمد على تجاهلهم ولم يستمع لشكواهم فعادوا الى بلادهم فى أسوأ حال.

وكان ذلك لحرص محمد على على القضاء على العصبيات العربية وعلى كل ما كان لها من نفوذ.

وقد تابع الهوارة بعد همام التدخل فيما كان يجرى من احداث سياسية بين أمراء المماليك ولكنهم فقدوا الأهمية التى كانت لهم فى عهد همام واستهان بهم أمراء المماليك واصبح رؤساؤهم من المهانة بحيث يروحون ويجيئون فى ركب الأمراء المماليك المتنازعين مع زملائهم بالقاهرة واللاجئين الى الصعيد.

وفقد الهوارة ما كان لهم من مكانة يحترمها الجميع وغدا شيوخهم يتنقلون بين أطراف النزاع تارة ينضمون الى مراد بك وتارة ينضمون الى خصمه اسماعيل بك مما أدى الى استهانة مراد بك بشيخهم اسماعيل ابوعلى فأمر بقتله ومصادرة أمواله سنة ١١٩١هـ/ ١٧٧٧م.

وبنهاية همام اصبح الصعيد ملجأ للأمراء المماليك الذين نفوا واحدا تلو الآخر وظل هدفهم دائما ان يعودوا ليحكموا القاهرة.

فلما طرد على بك محمد ابا الذهب لجأ الى الصعيد وجمع حوله الهوارة والأمراء المنفيين واستغلهم فى تدعيم موقفه. وزحفه على القاهرة لملاقاة سيده على بك.

وبعد وفاة محمد بك وقيام الصراع بين افراد بيته الذين انقسموا الى فريقين:

١ـ فريق يتزعمه حسن بك واسماعيل بك.

٢ـ فريق يتزعمه مراد بك وابراهيم بك.

وسقط الفريق الأخير فى البداية فى الصراع فانسحب رئيساه الى الصعيد سنة ١١٩١هـ/ ١٧٧٥م واستمرا يعودان الى القاهرة ثم يخرجان الى الصعيد حتى انتهى الأمر باستقرارهما بالصعيد ١١٩٩هـ/ ١٧٨٤م: ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧م وقد أذاقا أهل الصعيد فى هذه المدة سوء العذاب واثقلوهم بضرائب فادحة فقد استولى مراد بك وزميله ابراهيم على ارض الصعيد واصبحا يأخذان الأموال الأميرية بدلا من الحكومة ومنعا وصول الغلال الى القاهرة واشتطا فى نهب اموال الفلاحين وأبقارهم واغنامهم.

حتى انه عندما عادا الى القاهرة صحبا معهما اشياء كثيرة من هذا القبيل.

وقد اثرت سيطرة هؤلاء الأمراء على الصعيد اسوأ الأثر. فقد فرضت اثناء هذه السيطرة على اهل الصعيد ضرائب لم يكونوا يخضعون لها قبل مثل رسوم رفع المظالم وهى ضريبة أنشأها محمد بك ابوالدهب وصرح للحكام بتقاضيها بدلا من زياداتهم المستمرة لضرائب الكشوفية.

وتعرض أهالى الصعيد ايضا لدفع رسم جديد عرف بأسم فرده التحرير. وهو رسم فرضه مراد بك وابراهيم بك وهذه الرسوم كان الهمامية لا يدفعوها.

واثناء منازعات هؤلاء الأمراء تعرض الصعيد لهجمات الأعراب القاسية ينهبون المسافرين ويوقعون بهم اقسى انواع الاهانة*.



* عن كتاب «الصعيد فى عهد شيخ العرب همام للدكتورة ليلى عبد اللطيف. الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٨٧

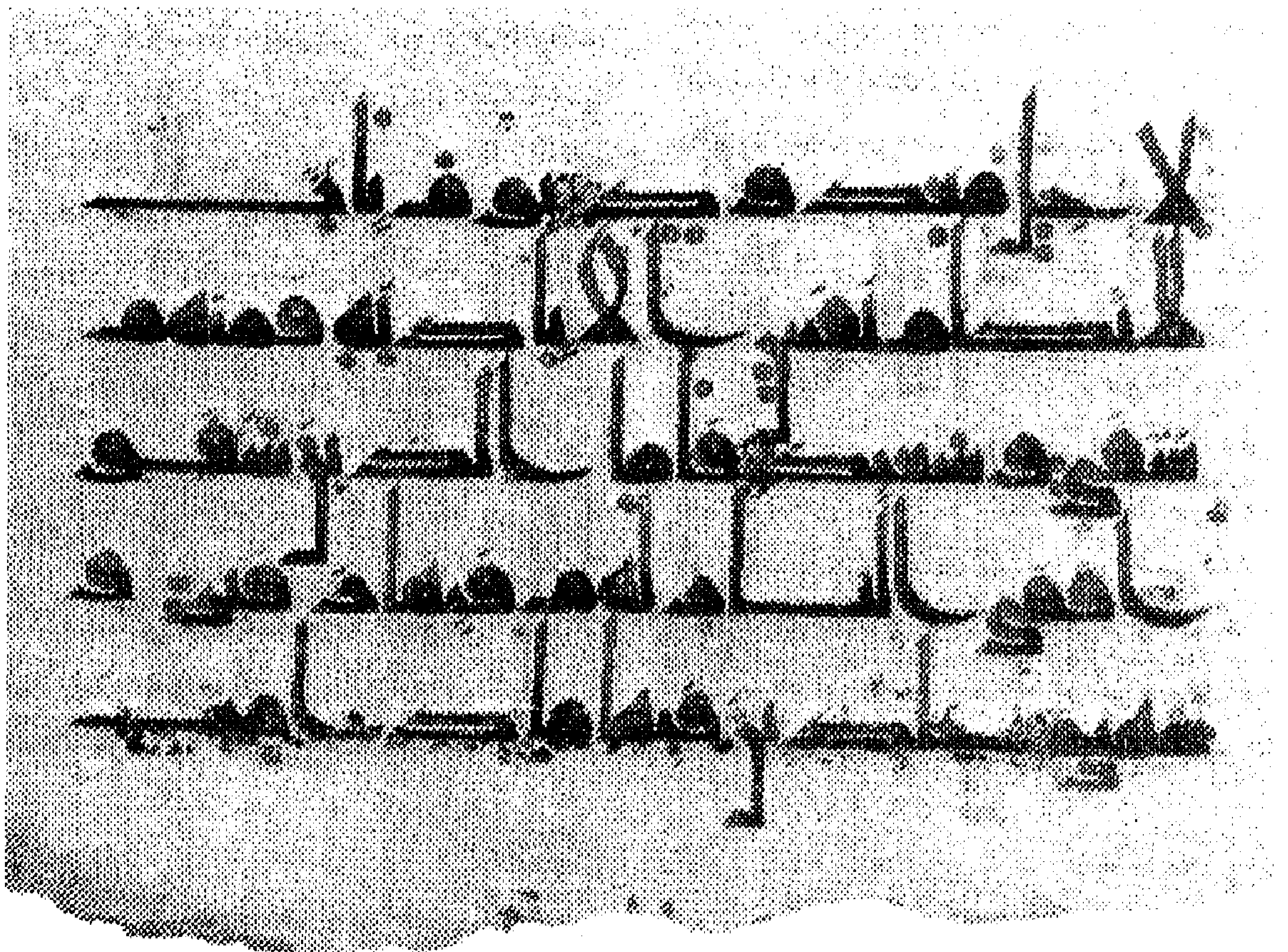
حجة اسقاط شيخ العرب همام أول رجب سنة ١١٨٢هـ الأمر حسبما حرر فيه /ختم رب وفق أمور احمد

نمقة الفقير اليه جل شأنه الحاج احمد القاضى بمصر المحروسة بالباب العالى أعلاه الله تعالى وشرفه بمصر المحروسة لدى سيدنا ومولانا شيخ مشايخ الاسلام ملك العلماء الاعلام قاموس البلاغة ونبراس الافهام الناظر فى الاحكام الشرعية قاضى القضاة يومئذ بمصر المحمية الموقع خطة الكريم أعلاه دام علاه آمين أشهد على نفسه قدره الأمراء الكرام كبير الكبر الفخام صاحب القدور والمجد والاحشام المقر الكريم العالى والكوكب المنير المتلألئ وصاحب العلم المنيف الخاقانى مولانا الأمير على بك امير الحجاج المصرى سابقا وشيخ البلد حالا دام عزه آمين بخط يده كل من قدره الأكابر وعمده الأعيان أولى الشأن الفخام الجناب العالى حايز رتب المفاخر والمعالى، مولانا الامير عثمان أغا وكيل دار السعادة العظمى بمصر حالا وقدوة الاعيان العظام عين أولى الشان الفخام الجناب العالى الأمير سليمان باش جاويش طايفة مستحفظات قلعة مصر المحروسة سابقا دام مجدهم شهوده الأشهاد الشرعى وهو بكامل الاوصاف المعتبره شرعا اذ فرغ وترك وأسقط حقه لفخر ذوى المحامد العظام المجلس العالى شى العرب همام بن المرحوم يوسف أحمد همام شيخ عربان هواره بالوجه القبلى المشمول بوكالة مولانا الأمير عثمان اغا وكيل دار السعاده المومى اليه اعلاه الثابت تاكيله عنه فى ذلك لدى مولانا شيخ الاسلام المومى اليه اعلاه بشهادة كل من تابع الوكيل المومى اليه اعلاه هو قدوة الأماثل وعمدة الاعيان الجناب العالى الأمير حسن اغا من اعيان امراء الجاويشيه وفخر الكتاب المعتبرين عمدة الحساب والمحررين نتيجة الاصلا المفخمين القاضى سراج الدين عمر بن المرحوم الشيخ احمد الكاين هو بمنزل مولانا الأمير عثمان اغا المومى اليه اعلاه ثبوتا شرعيا من التصرف والتحدث والالتزام والتقسيط بجميع الحصة التى قدرها اثنان وعشرون قيراطا من اصل اربعة وعشرين قيراطا شايعا ذلك فى كامل أراضى ناحية بنى نصر وغيره تابع ولاية المنفلوطية المعلوم ذلك عندها شرعا والجارى كامل اراضى الناحية المسقط منها الاثنان وعشرون قيراطا المذكورة فى تصرف وتحدث والتزام وتقسيط مولانا الأمير على بك المسقط المشار اليه اعلاه يشهد له بذلك التقسيط الديوانى المكمل بالختم والعلامة والصح على العادة فى ذلك المركب على اسمه المتضمن لكامل ناحية بنى نصر المسقط منها الاثنان وعشرون قيراطا المذكورة المؤرخ فى ثالث شهر ذى القعدة الحرام سنة أحد وثمانين ومائة وألف ولمولانا الأمير على بك المسقط المومى اليه اعلاه ولاية فراغ ذلك وسقاطه عن نفسه بدلالة ما شرح اعلاه وبالتصادق على ذلك فراغا ونزول واسقاطا شرعيا ثابتا ذلك خاليا عن رهن ووعد ووفا من غرة شهر توت القبطى افتتاح سنة اثنين وثمانين ومائة وألف الخراجية انعقد بينهما فى ذلك يوم تاريخه بايجاد وقبول شرعيين عن طيب وانشراح صدر لما علم المسقط المومى اليه اعلاه لنفسه فى ذلك من الحظ والمصلحة باعترافه بذلك لشهوده ومن سمى اعلاه فى يوم تاريخه الاعتراف الشرعى وصدقه على ذلك مولانا الأمير عثمان اغا الوكيل المومى اليه اعلاه تصديقا وقبولا شرعيين وذلك فى نظير ما

قبضه مولانا الأمير على المسقط المشار اليه اعلاه لنفسه من مولانا الأمير عثمان اغا الوكيل المشار الى اعلاه من مال موكله شيخ العرب الشيخ همام يوسف المومى اليه اعلاه عن حلوان ذلك وقدره من الأكياس المصرية الديوانية اثنى عشرة كل كيس منهم خمسة وعشرون ألف نصف فضة ديوانى مايتا كيس واثنتان وخمسون كيسا مصرية ديوانية). قبضا شرعيا بتمام ذلك وكما له باعترافه بذلك لشهوده ومن سمى اعلاه في يوم تاريخه الاعتراف الشرعى ولم يتأخر لمولانا المسقط المشار اليه اعلاه قبل الوكيل المومى إليه أعلاه ولا قبل شيخ العرب همام المسقط له المرقوم من كامل ذلك ولا من بعضه مطالبة ولا شى قل ولا وبمقتضى ذلك وبما شرح أعلاه صار الشيخ همام يوسف الموكل المسقط له المرقوم مستحق التصرف والتحدث والتقسيط والالتزام بجميع الحصة التى قدرها اثنان وعشرون قيراطا المسقطة المرقومة من ناحية بنى نصر وغيره المذكورة من ابتداء السنة المذكورة بطريق البت الشرعى الخالى عن الرهن والوعد والوفا فى نظير مبلغ الحلوان المقبوض منه اعلاه دون مولانا الأمير على المسقط المومى اليه ودون كل احد الاستحقاق والتصرف الشرعى بالطريق الشرعى المشروح أعلاه وتصادقا على ذلك وثبت الأشهاد بذلك لدى مولانا شيخ الاسلام المومى اليه بشهادة شهوده ثبوتا شرعيا تاما مرعيا وشهد وحرر فى غرة شهر رجب الأصم الأحب من شهور سنة اثنين وثمانين ومماية وألف خراجية.

شهود

امضاء امضاء امضاء امضاء امضاء امضاء



أمر رقم (١) من الشيخ همام لحسن الأمير

المحترم حسن الأمير

بعدالسلام وعليه لم يخفاه ان حضر لنا على عبد الرحيم وعرفنا أن له معاك حصة فى بيتين وانت له معاه حصة فى بيت طالب وتأخد مخصصك الذى عنده والمذكور طالب يأخد مخصصة الذى فى بيوتكم وانك تندفع معاه للشرع والذى يقتضيه (الحكم) الشرعى تمشوا عليه.

الفقير همام يوسف

***

أمر رقم (٢)

القدر الأجل المحترم الشيخ أبو بكر أحمد

بعد السلام عليه وكثرة الأشواق اليه لم يخفاه قضيت الثلاثة قراريط ونصف الذين اشتراهم غزالى الأمير ودفع لنا ثمنهم بالكامل فانه عرفنا ان احمد غريب وأبو فتحى حاجزين منه قطع من ضمن الثلاثة قراريط ونصف وانك تحرضهم عليه ولم تعرفهم لم لك دعوة تمسك لأنه دفع ثمنهم وبقوا اليه والغفارة من أصلها لنا وشركة مع الأمير اسماعيل.

الفقير همام يوسف

تقسيط رقم (١)

ختم/ بمحمد يرجو الأمان محمد فما يخاف وفى نوالك رغب

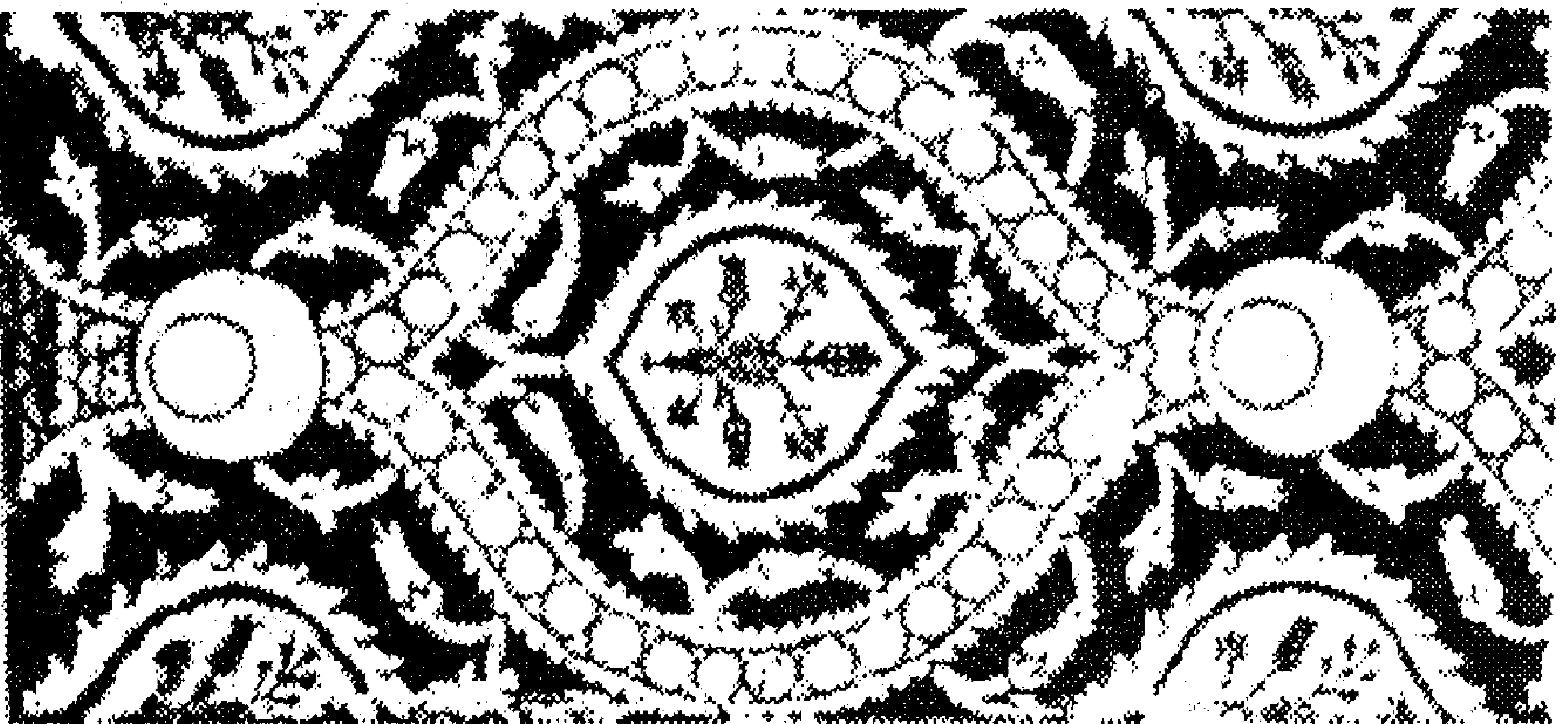
مقاطعة

حماية قرية حراجيه تابع قوصية ١٢ط تابع ولاية جرجا در عهده شيخ العرب همام يوسف بقدر ١٢ قيراط وجه التزام قيد شده أول توت الواقع فى ٥ ذى القعدة سنة ١١٦٠ من اسم اسماعيل عبدالله تابع محمد احمد مستحفظان خربوطلى ملتزم بوجه ١٢ط يضم قراى مذكور كبيره وقيدشدة بموجب بيورلدى شريف حضره وزير ضمير روش محمد راغب باشا محافظ مصر آدام الله اجلاله الواقع فى ١١ جمادى الأولى سنة ١٦٦١.

توقيع

الدفتردار

محمد مصطفى



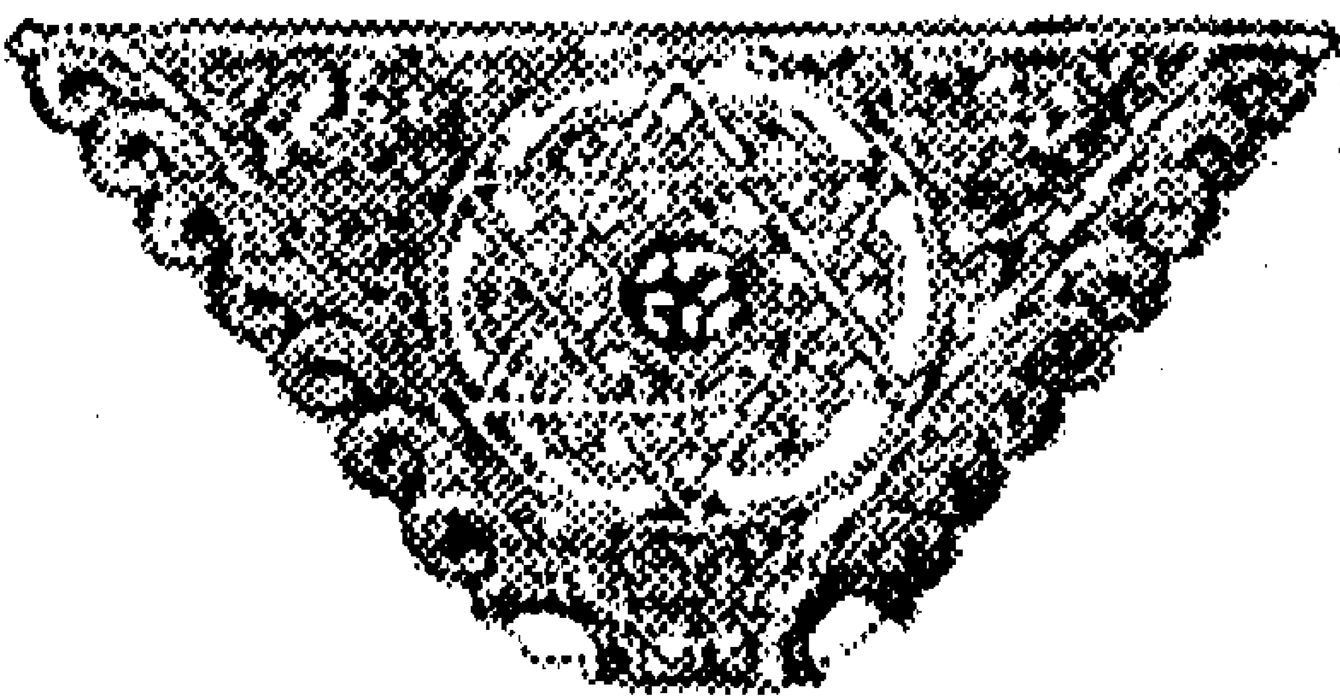
حجة رقم (٢) ١٠ رجب سنة ١١٥٦هـ

المنسوب الى فيه صحيح الفقير عيسى أحمد همام ختم الفقير عيسى أحمد همام.

الحمد الله رب العالمين ما نمقه وشرح فيه صدره الفقير على عثمان عقيق الدين القرشي المولى بفرشوط حالا عفى الله عنه.

سبب تحرير الحروف وباعث تسطيرها بين يدى الحاكم الشرعى الراقم خطه ومهره باسم الكريمين منه أعلاه نزل وفرغ وتخلي واسقط حقه حضرة الجناب العالى الصدر الأجل المحترم شيخ العرب الشيخ عيسى الواضع اسمه وختمه فيه ابن شيخ العرب الحاج احمد محمد همام لحضره الجناب العالى الصدر الأجل المحترم شيخ العرب الشيخ همام يوسف احمد محمد همام الجد المشار اليه المسقط الجارى ذلك في تحدث وتصرف والتزام وتقسيط الشيخ عيسى المشار اليه البعض بموجب تقسط ديوانى والبعض آل اليه بالفراغ والاسقاط سنة تاريخه من الأمير ابراهيم جاويش مستحفظان قزدغلى بموجب حجة من هذه المحكمة مشمولة بعلامة الحاكم الشرعى المشار إليه وله ولاية اسقاط ذلك وذلك عن جميع الحصة التى قدرها النصف اثنى عشر قيراطا شايعا من اصل أربعة وعشرين قيراطا فى ناحيتى سمهود والخولجان تابع ولاية جرجا وذلك فى غرة توت القبطى سنة ١١٥٦ (ستة وخمسين وماية وألف) وما بعدها من السنين نزولا وفراغا واسقاطا بتا وذلك فى نظير مبلغ الحلوان عن ذلك قدره من الاكياس الديوانية ثلاثة عشر كيسا ونصف كيس عبوة كل كيس منها خمسة وعشرين ألف نصف فضة ديوانى بحساب الشريف الفندقلى ماية وستة وأربعين نصف نصف فضة واعترف الشيخ عيسى المسقط المشار اليه بوصول ذلك اليه من الشيخ همام المسقط له المشار اليه بتمام ذلك وكماله بالاعتراف وبالتصادق على ذلك بموجب ذلك صارت ناحيتى سمهود والخولجان بالكامل فى تصرف وتحدث والتزام وتقسيط الشيخ همام المشار اليه من ابتداء سنة تاريخه وما بعدها من السنين النصف له أصلا والنصف الآيل اليه بالفراغ من عمه الشيخ عيسى المشار اليه واذنه اليه الشيخ عيسى فى وضع يده وتعاطى الناحيتين مال وغلال فى سنة تاريخة وما بعدها من السنين وان يقوم بما عليها لجانب الديوان وان تقسيطه ذلك باسمه واسم من يختار على العادة وحرر فى عاشر شهر رجب سنة ١١٥٦ ستة وخمسين وماية وألف.

شهد بذلك	شهد بذلك
محمد على	ابراهيم عثمان



عن كتاب «الصعيد فى عهد شيخ العرب همام
د. ليلى عبداللطيف. الهيئة العامة للكتاب/ القاهرة/ ١٩٨٧.

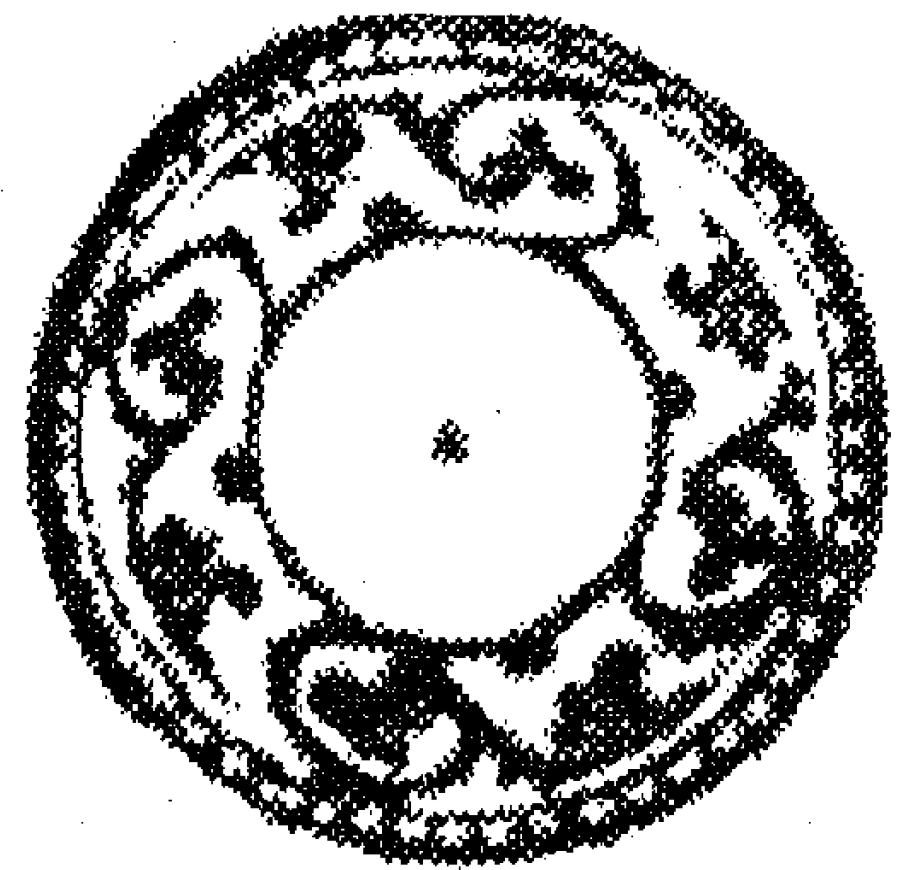
وثيقة عن نسب الهوارة الى اسرة الرسول ﷺ في عـام ١١٠٢هـ / ١٦٩٥م. مصدر الوثيقة: دار الوثائق القومية بالقلعة بالقاهرة، سجلات محكمة قنا محفظة رقم (١).

بالمحكمة الشرعية المطهرة المرضية ببندرالقصير الشامي حرره اليه سبحانه ابو بكر عمره الله تعالى بذكره بين يدى الواضع خطه وختمه فيه باسمه اعلاه لطف الله تعالى به وتولاه واجرى الخيرات على يداه لجاه سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم خير انبياه وحضر الى المجلس المشار اليه الصدر الجليل مولانا وسيدنا سلالة ال طاه وياسين فرع الشجرة الذكية وطراز العصابة الهاشمية الامير يوسف بيك احمد همام وابنه الشاب القاصر عن درجة البلوغ الامير همام وشقيقه الامير عيسى وبنى عمه الامير على سليمان محمد وشقيقه الامير دشناوى القاطنين بفرشوط حضر لحضورهم مولاى الامام الشريف محمد بن احمد حسن قسم الحسينى لبقية امراء ومولاى الامام اسماعيل بن على بن محمد الحسينى حامى حمى المغرب الاقصى والشريف محمد احمد ابراهيم الادريسى الحسينى المغربى والشريف عبدالكريم محمد محمد شرف الدين الحسينى نقيب الاشراف بدمشق الشام والشريف صالح حسن على الحسينى حامى بهوت وشيخ الاسلام الشريف محمد والشريف عبدالله احمد سيف الاسلام بكار همام سر عسكر والامير حمد ابن الامير خلف ابو حزوف ابن الامير ابوبكر بكار همام محتسب الصعيد ثم بعد حضورهم طلبوا من حضرة قاضي الديوان المشار اليه اعلاه ان يلحقهم بسلسلة نسب ابائهم واجدادهم وابرزوا فرمانات شاهانية سلطانية وحججا وانسابا واحكاما قاطعة بصحة نسب السدة الهمامية وانهم من خلاصة العترة الطاهرة النبوية المحمدية فوجدنا ذلك كله صحيحا بالتطبيق معهم بغاية الدقة والتحرير وعلى هذا حكمتا في كمال هذا النسب المتفق عليه والمقطوع بصحته من المستندات المذكورة واتصاله بالملاذ الاحمى حكما مرعيا بالحاق لنسب السادة المتقدم ذكرهم بسلسلة لنسب ابائهم واجدادهم كما جاء في المستندات المذكورة ان الشاب الامير همام ابن الصدر الجليل مولانا وسيدنا يوسف بيك وشقيق مولانا وسيدنا الامير عيسى ولدا مولانا امير الصعيد احمد همام ابن مولانا وسيدنا امير الصعيد صبيح ابن مولانا وسيدنا امير الصعيد وبرقة همام سيبيك والامير على وشقيقه الامير دشناوى بيك ولدا مولانا سليمان الهوارى والى دشنا والبلينا واخميم وسوهاى وما يتبعهم ابن مولانا وسيدنا شيخ العرب والسادة وشيخ مشايخ الهوارة وسر عسكر امير الصعيد محمد ابن ذى القضاء والصدارة بالصعيد مولانا وسيدنا بكار ابن شيخ العرب والسادة وشيخ مشايخ الهوارة امير صعيد مصر وبرقة مولاى همام سيبيك المغربى ابن مولاى ماضى ابن مولاى احمد ابن مولاى عياشى ابن مولاى بحير ابن مولاى حمد الهميم ابن مولاى محمد الفاسى ابن مولاى يوسف ابن مولاى ابراهيم ابن مولاى عبدالمحسن ابن مولاى محمد ابو يمن ابن مولاى موسى الخوين ابن مولاى يحيى ابن مولاى عيسى ابن مولاى على الفقى ابن مولاى محمد نزيل بلاد المغرب ابن الامام حسن ابن مولاى على الهنادى ابن مولاى محمد الجواد ابن مولاى على الرضى ابن الامام موسى الكاظم ابن الامام جعفر الصادق ابن الامام محمد الباقر ابن الامام على زين العابدين ابن سيدنا ومولانا الامام الحسينى السبط ابن على كرم الله وجهه كملت هذه السلسلة العلوية والشجرة القرشية التى اصلها ثابت وفرعها فى السماء وعنانها ثابت وفخرها قد سما لتضمن ساداتنا الهمامية الحسينين الاشراف سلالة عبدالمطلب ابن عبدمناف الذى شاع فضلهم

فى ساير البرايا رضوان الله عليهم اجمعين وثبت مضمون ذلك لدى مولانا قاضى الديوان المشار اليه اعلاه ثبوتا شرعيا معتبرا مرعيا مستوفيا للشرايط الشرعية والواجبات المحررة المرعية وحكم بصحته حكما صحيحا شرعيا ايد الله تعالى احكامه تحريرا فى عاشر ذى القعدة الحرام شهور عام سنة تسعة وماية والف.

مضبطة سلمت للجناب العالى الامير يوسف بيك بحضور الامير احمد ابن الامير اسماعيل سيف الاسلام بكار همام والامير عمر احمد محمد بكار همام.

السيد جمال الدين على
نائب الشرع الشريف
بقنا سابقا والصعيد



* انظر: الصعيد في عهد شيخ العرب همام. د. ليلى عبد اللطيف. الهيئة العامة للكتاب. القاهرة ١٩٨٧.

وثيقة عن وقف الهمامية وتقدر الكمية ٢٤٢ الف فدان من الاراضى الزراعية / مصدر الوثيقة: دار الوثائق القومية بالقلعة. سجلات محكمة اسنا، محفظة رقم (٣).

الامر كما ذكر فيه
شهد بذلك الامير الشريف
احمد ريان احمد محمد ابن
عمر ريان وهمام سيبيك الحسينى

شهد بذلك الشيخ سليمان
غزالى
نقيب الاشراف

بمحكمة قنا العامرة حضر بين سيدنا مولانا الحكم الشرعى كلا من سيدنا ومولانا على بيك الصادر الجليل امير الصعيد اسماعيل باشا بن على احمد محمد بكار همام سيبيك وسيدنا ابو الرضا بن بكار دشناوى سليمان الهوارى محمد بكار همام سيبيك وعبدالمغيث دشناوى سليمان الهوارى والوزير ابراهيم دشناوى وعبدالمغيث بن محمد الرشيد ابوالمكارم حارث سيف الاسلام بكار همام وسيدنا محمد شاهين همام يوسف وحمد السيد همام يوسف تقى الدين عبدالرحمن احمد همام وسيدنا ابو على سليمان الهوارى محمد بكار همام وسيدنا عبدالكريم همام سيبيك المتولى الحسينى واقروا واعترفوا واشهدوا على انفسهم وهم بصحتهم وسلامتهم وطواعيتهم واختيارهم انهم ارتضوا ان يكون السيد ابو على بن الجناب المكرم الامير على بن الامير سليمان الهوارى والى دشنا والبلينا واخميم وسوهاى ابن شيخ السادة وسر عسكر امير الصعيد محمد بن ذى القضاء والصدارة بالصعيد سيدنا بكار بن امير الصعيد محمد بن ذى القضاء والصدارة بالصعيد سيدنا بكار بن امير الصعيد ويرقة مولانا همام سيبيك ناظرا عليهم ثم بعد رضاهم وسماع مولانا الحاكم الشرعى باقرارهم ورضاهم على السيد ابو على.

سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف [١٧٦٩م]

فيها في المحرم أُخرج على بك عثمان أغا الوكيل من مصر منفيا إلى جهة، الشام، وكذلك أحمد أغا أغات الجوالى وأغات الضربخانة إلى جهة الروم، وكان أحمد أغا هذا رجلا عظيما ذا غنية كبيرة وثروة زايدة، فصادره على بك في ماله وأمره بالخروج من مصر، فأحضر المطر بازية والدلاين والتجار، وأخرج متاعه وذخايره وباعها بسوق المزاد بينهم، فبيع موجوده من أمتعة وثياب وجواهر وتحف وأسلحة وكتب وأشياء نفيسة وهو ينظر إليها ويتحسر، ثم سافر إلى جهة الإسكندرية.

(وفيها) توفى* محمد باشا الذى كان بقصر عبد الرحمن كتخدا بشاطئ النيل، ولعله مات مسموما، ودفن بالقرافة الصغرى عند مدافن البشوات بالقرب من الإمام الشافعى.

ونزل الحج ودخل إلى مصر مع أمير الحاج خليل بك بلفيا في أمن وأمان، ووصل باشا من طريق البر وطلع الأمراء إلى العادلية لملاقاته، ونصبوا خيامهم ودخل بالموكب، وذلك في شهر صفر.

(وفيها) أخرج على بك حسن بك رضوان وأتباعه إلى منية وصنيف ثم نقل منها إلى المحلة الكبرى فأقام سنين، وفيها أرسل على بك تجريدة إلى سويلم بن حبيب والهنادى بالبحيرة وباش التجريدة إسماعيل بك، وذلك أن ابن حبيب (ص١٠٨) لما رحل من دجوة وذهب إلى البحيرة وانضم إلى عرب الهنادى وكان المتولى على كشوفية البحيرة عبد الله بك تابع على بك فحاربوه وحاربهم حتى قتل عبد الله

١١٨٣ هـ.
١٤٨٥ ق.
١٧٦٩ م.

□ غاية الفيضان ٣ قيراط ٢٢ ذراع
□ بلغ الباب العالى مافعله على بك فامر والى دمشق أن يسير بخمسة وعشرين الفا لمنع جنود عكا من معاضدة على بك، فسار الوالى بالعسكر فلاقاه الشيخ ضاهر في ستة الاف مابين جبل النيران وبحيرة طبريا ورده على اعقابه.
□ كانت ولادة نابليون الأول والماريشال انى والحاج محمد على باشا، صاحب مصر.
□ ١ توت ١٤٨٦ = ٩ سبتمبر ١٧٦٩ = السبت ٨ جماد أول سنة ١١٨٣.
□ أبطلت الضرائب الانجليزية من المستعمرات الأمريكانية.
□ أرسل على بك محمد بك أبا الذهب لمحاربة الشيخ همام وقبيلته، وهى قبيلة الهوارة، فحاربهم وتغلب عليهم.
□ ١ يناير ١٧٧٠ = ٢٥ كيهك ١٤٨٦ = الاثنين ٤ رمضان ١١٨٣.
□ عزل محمد باشا الأرفلى، بعد أن حكم مصر سنة، وتولى بعده أحمد باشا، ولم يحكم إلا عدة اشهر.
□ كانت سياحة كوك حول الدنيا.

* وفاة محمد باشا [ولعله مات مسموما] ووصول باشا جديد.

بك المذكور فى المعركة ونهبوا متاعه ووطاقه، وكان أحمد بك بشناق الجزار لما خرج من مصرهارباً بعد قتل صالح بك كما تقدم ذهب إلى الروم فصادف هناك جماعة من الهربانين ومنهم يحيى السكرى وعلى أغا المعمار وعلى بك الملط وغيرهم، وزيفوا بسبب المغرضين لعلى بك بدار السلطنة فنزلوا فى مركبين إلى درنه فوصلوها متفرقين، فالتى وصلت أولا بها يحيى السكرى وعلى المعمار والملط فركبوا عندماوصلوا إلى درنه وذهبوا إلى الصعيد ووصلت المركب الأخرى بعد أيام وبها أحمد بك بشناق فطلع إلى عند الهنادى فلما وصل إسماعيل بك ومن معه بالتجريدة فتحاربوا مع الحبايبة والهنادى ومعهم أحمد بك بشناق الجزار ثلاثة أيام وكان سويلم ابن حبيب منعزلا فى خيمة صغيرة عند امرأة بدوية بعيداً عن المعركة فذهب بعض العرب وعرف الأمراء بمكانة فكبسوه وقتلوه وقطعوا رأسه ورفعوها على رمح واشتهر ذلك، فارتفع الحرب من بين الفريقين وتفرق الهنادى وعرب الجزيرة والصوالحة وغيرهم، وراحت كسرة على الجميع ولم يقم لهم قايم من ذلك اليوم، وتغيب أحمد بك بشناق فلم يظهر إلا بعد مدة ببلاد الشام.

* عودة أحمد بوشناق [الجزار] إلى مصر لمحاربة علي بك.

* درنه: غرب الاسكندرية.

* قتل سويلم بنى حبيب.

(وفيها) تقلد أيوب بك على منصب جرجا وخرج مسافراً ومعه عدة كبيرة من العساكر والأجناد فوصلوا إلى قرب أسيوط فوردت الأخبار باجتماع الأمراء المنافى وتملكهم أسيوط وتحصنهم بها، وكان من أمرهم (ص٢٠٨) أنه لما ذهب محمد بك أبو الدهب إلى جهة قبلى لمنابذة شيخ العرب همام كما تقدم وجرى بينهما الصلح على أن يكون لهمام من حدود برديس وتم الأمر على ذلك ورجع محمد

بك إلى مصر أرسل على بك يقول له إنى أمضيت ذلك بشرط أن تطرد المصريين الذين عندك ولاتبقى منهم أحدا بدايرتك، فجمعهم وأخبرهم بذلك وقال لهم «اذهبوا إلى أسيوط واملكوها قبل كل شيء، فإن فعلتم ذلك كان لكم بها قوة ومنعة وأنا أمدكم بعد ذلك بالمال والرجال» فاستصوبوا رأيه وبادروا وذهبوا إلى أسيوط وكان بها عبد الرحمن كاشف من طرف على بك وذو الفقار كاشف وقد كانوا حصنوا البلدة وجهاتها وبنوا كرانك والبوابة وركب عليها المدافع، فتحيل القوم ليلا وزحفوا إلى البوابة ومعهم انخاخ* وأحطاب جعلوا فيها الكبريت والزيت وأشعلوها وأحرقوا الباب وهجموا على البلدة، فلم يكن له بهم طاقة لكثرتهم، وهم جماعة صالح بك وباقى القاسمية وجماعة الخشاب وجماعة الفلاح وجماعة مناو ويحيى السكرى وسليمان الجلفى وحسن كاشف ترك وحسن بك ابو كرش ومحمد بك الماوردى وعبد الرحمان كاشف من خشداشين صالح بك وكان من الشجعان، ومحمد كتخدا الجلفى وعلى بك الملط تابع خليل بيك وجماعة كشكش وغيرهم ومعهم كبار الهوارة وأهالى الصعيد فملكوا أسيوط وتحصنوا بها وهرب من كان فيها، ووردت الأخبار بذلك إلى على بك فعين للسفر* إبراهيم بك بلفيا ومحمد بك أبو شنب وعلى بك الطنطاوى ومن كل وجاق جماعة وعساكر ومغاربة وأرسل إلى خليل (ص٨٠٣) بك القاسمى المعروف بالأسيوطى فأحضره من غزة وطلع هو وإبراهيم بك تابع محمد بك بعساكر أيضاً وعزل الباشا وأنزله وحبسه ببيت إيواظ بك عند الزير المعلق، ثم سافر محمد بك أبو الذهب ورضوان بك وعدة من الأمراء والصناجق، وضم إليهم

* الشيخ همام ينسق جهوده مع خصوم على بك الكبير ويعلن عليه الحرب ويستولى على اسيوط.

* الانخاخ: قطع طولية من القمشة بالية، وهو المقصود هنا.

* تجريدة على بك الكبير على الصعيد بقيادة محمد بك أبو الذهب.

ماجمعه وجلبه من العساكر المختلفة الأجناس من دلاة* ودروز ومتاولة وشوام وسافر الجميع براً وبحراً حتى وصلوا إلى أيوب بك

وهو يرسل خلفهم في كل يوم بالأمداد والجبخانات والذخيرة والبقسماط ، وذهب الجميع إلى أن وصلوا قرب أسيوط ونصبوا عرضيهم عند جزيرة منقباط [منقباد] وتحققوا وصول محمد بك ومن معه وفرحوا بذلك لأنهم كانوا رأوا في زايرجات الرمل سقوطه في المعركة ثم أجمعوا رأيهم على أن يدهموهم آخر الليل فركبوا في ساعة معلومة وسار بهم الدليل في طرق الجبل وقصدوا النزول من محل كذا على ناحية كذا من العرضي فتاه وضل بهم الدليل حتى تجاوزوا المكان المقصود بنحو ساعتين، وأخذوا جهة العرضي فوجدوه قبيلتهم بذلك المقدار وعلموا فوات القصد وأن القوم متى علموا حصولهم خلفهم ملكوا البلدة من غير مانع قبل رجوعهم من المكان الذى أتوا منه، فما وسعهم إلا الذهاب إليهم ومصادمتهم على أى وجه كان، فلم يصلوهم إلا بعد طلوع النهار، وتيقظ القوم واستعدوا لهم فالتطموا معهم وهم قليلون بالنسبة إليهم، ووقع الحرب واشتد الجلاد، وبذلوا جهدهم في الحرب، ويصرخ الكثير منهم بقوله أين محمد بك؟ فبرز إليهم محمد بك أبو شنب وهو يقول: «أنا محمد بك» فقصدوه وقاتلوه، وقاتلهم حتى قتل، وسقط جواد يحيى (ص٨٠٤) السكرى، فلم يزل يقاتل ويدافع حصة طويلة حتى تكاثروا عليه وقتلوه، وعبد الرحمن كاشف القاسمي يحارب بمدفع يضربه وهو على كتفه، وانجلت الحرب عن هزيمتهم ونصرة المصريين عليهم، وذلك عند جبانة أسيوط، فتشتتوا في الجهات وانضموا إلى

* دلاه: ذكرهم الجبرتى في مواضع كثيرة فقال إن الدلاة ينسبون أنفسهم إلى طريقة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يضعون على رؤوسهم الطراطير السود المصنوعة من جلود الغنم الصغار، يثبتون فيها عدداً من ريش الصقور. طول الطرطور نحو ذراع واشتهر الدلاة فى مصر بسوء السيرة فكانوا إذا دخلوا قرية أفسدوها ونهبوها وسبوا البنين والبنات والنساء، وقد خرجوا مرة من مصر إلى جهة الشام يحملون المال والغنائم وكان من بينها أكثر من ٤٠٠٠ جمل. وأساسهم أنهم كانوا من الخيالة الخفيفة أقيمت فى الروملى (تركيا الأوربية) فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، لتعمل فى مقدمة الجيوش العثمانية ولم يكن هؤلاء الخيالة من الترك فقط، ولكنى كان منهم البشناق (نسبة إلى البوسنة موطن احمد باشا الجزار) والكروات والصرب. وقد انتشروا فى الاناضول وفى المراكز الكبرى فى السلطنة العثمانية مثل القاهرة ودمشق وحلب وبغداد كان سلاحهم الرئيسى هو السيوف القصيرة. أما ملابسهم فكانت من جلود الأسود والنمور والذئاب والدببة، مع جعل وجه الجلد المغطى بالشعر إلى الخارج. وكانت لهم نعال مدببة من أمام واسعة من الخلف، ولها رقاب تبلغ نصف الساق. وفى القرن الثامن عشر تعرضت منطقة كوتاهية وقونيه بالاناضول لعبثهم وفسادهم حتى انتهى الأمر بالغاء نظامهم.
وفى سنة ١٢٢٣هـ (١٨٠٨م) يذكر الجبرتى ان الباشا قطع مرتب الدلاة (لانه لم تكن لهم اقطاعات كباقى الفرق العسكرية) وأخرجهم وعزل كبيرهم الذى يسمى كردى جوالى» وفيه كذلك: «ضربوا مدافع كثيرة من القلعة، وكذلك فى صبحها يوم السبت، ولم يظهر لذلك سبب سوى مايقولونه من التمويهات.. من وصول الأطواخ وعساكر دلاة بحرية وبرية».
ويظهر من العبارة الأخيرة انه كان هناك نوعين من الدلاة، برية خياله، وبحرية مشاة.



معارك عسكرية.

كبار الهوارة، وملك المصريون أسيوط ودفنوا القتلى ومحمد بك أبو شنب، واغتم محمد بك أبو الذهب لموته وفرح لوقوع الزايرجة عليه ومفاداته له لأنه كان يعلم ذلك أيضًا، وأقاموا بأسيوط أيامًا، ثم ارتحلوا إلى قبلى بقصد محاربة همام والهوارة، واجتمع كبار الهوارة مع من انضم إليهم من الأمراء المهزومين، فراسل محمد بك ابو الذهب إسماعيل أبو عبد الله وهو ابن عم همام واستماله ومناه وواعده برياسة بلاد الصعيد عوضًا عن شيخ العرب همام حتى ركن إلى قوله وصدق تمويهاته وتقاعس وتثبط عن القتال وخذل طوايفه، ولما بلغ شيخ العرب همام ماحصل ورأى فشل القوم خرج من فرشوط وبعد عنها مسافة ثلاثة أيام ومات* مكمودًا مقهورًا. ووصل محمد بك ومن معه إلى فرشوط

* موت همام قهرًا واستيلاء محمد بك ابو الذهب على فرشوط وزوال نفوذ الهمامية في الصعيد.

فلم يجدوا مانعًا فملكوها ونهبوها وأخذوا جميع ماكان بدواير همام وأقاربه وأتباعه من ذخاير وأموال وغلال، وزالت دولة شيخ العرب همام من بلاد الصعيد من ذلك التاريخ كأنها لم تكن، ورجع الأمراء إلى مصر ومحمد بك أبو الدهب وصحبته درويش أبن شيخ العرب همام، فإنه لما مات أبوه وانكسر ظهرُ القوم بموته وعلموا أنهم لانجاح لهم بعده، أشاروا على ابنه بمقابلة محمد بك وانفصلوا عنه وتفرقوا في الجهات، فمنهم من ذهب إلى درنة ومنهم من ذهب إلى الروم ومنهم ذهب إلى الشام (ص٨٠٥) وقابل درويش بن همام محمد بك وحضر صحبته إلى مصر وأسكنه في مكان بالرحبة المقابلة لبيته، وصار يركب ويذهب لزيارة المشاهد ويتفرج على مصر ويتفرج عليه الناس ويعدون خلفه وأمامه لينظروا ذاته، وكان وجيها طويلا أبيض اللون أسود اللحية جميل الصورة، ثم إن على بك أعطاه بلاد فرشوط والوقف بشفاعة محمد بك وذهب إلى وطنه فلم يحسن السير والتدبير، وأخذ أمره في الانحلال وحاله في الاضمحلال وأرسل من طالبه بالأموال والذخاير فأخذوا ماوجدوه وحضر إلى مصر والتجأ إلى محمد بك فأكرمه وأنزله بمنزل بجواره، فلم يزل مقيما به حتى خرج محمد بك من مصر مغاضبا لأستاذه فلحق به وسافر إلى الصعيد.

* استسلام درويش ابن الشيخ همام لمحمد بك ابو الذهب.

وخلص الإقليم المصرى بحرى وقبلى إلى على بك وأتباعه فشرع في قتل المنافى الذين أخرجهم إلى البنادر، مثل دمياط ورشيد والإسكندرية والمنصورة، فكان يرسل إليهم ويخنقهم واحدًا بعد واحد، فخنق على كتخدا الخربطلى برشيد وحمزة بك تابع خليل بك بزفتا وقتلوا معه سليمان

أغا الوالى وإسماعيل بك أبا مدفع بالمنصورة وعثمان بك تابع خليل بك هرب إلى مركب البليك* فحماه وذهب إلى إسلامبول ومات هناك، ونفى أيضًا جماعة وأخرجهم من مصر وفيهم سليمان كتخدا المشهدى وإبراهيم أفندى جمليان.

* البليك: نوع من المراكب المتوسط الحجم، اشتهر استخدامه في عيد شم النسيم (عيد مارجرجس) يذكر الجبرلي: «وصلت الأخبار من الأسكندرية بانه ورد إليها مركب البليك وذلك على خلاف العادة، لأن مراكب البليكات لاتخرج إلا بعد (روز خضر)». أى عيد الربيع والخضرة.

ومات الباشا المنفصل بالبيت الذى نزل فيه ولحق بمن قبله.

(ومما) اتفق أن على بك صلى الجمعة فى أوايل شهر رمضان بجامع الداردية فخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان ثم دعا لعلى بك، فلما انقضت الصلاة وقام على بك (ص٨٠٦) يريد الانصراف أحضر الخطيب وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح، فقال له من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر أقيل لك إنى سلطان؟ فقال «نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك» فأظهر الغيظ وأمر بضربه فبطحوه وضربوه بالعصى فقام بعد ذلك متألما من الضرب وركب حمارًا وذهب إلى داره وهو يقول فى طريقه «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ» ثم إن على بك أرسل إليه فى ثانى يوم بدراهم وكسوة استسمحه.

(وأما من مات فى هذه السنة من العلماء والأمراء)

٣١٩ على بن حجازى بن محمد الخلوتى

[مات] الإمام الولى الصالح المعتقد المجذوب العالم العامل الشيخ على بن حجازى بن محمد البيومى الشافعى الخلوتى ثم الأحمدى ولد تقريبا سنة ثمان ومماية وألف، حفظ القرآن فى صغره وطلب العلم وحضر دروس الأشياخ وسمع

الحديث والمسلسلات على عمر بن عبد السلام التطاونى وتلقن الخلوتية من السيد حسين الدمرداشي العادلى وسلك بها مدة، ثم أخذ طريق الأحمدية عن جماعة ثم حصل له جذب ومالت إليه القلوب وصار للناس فيه اعتقاد عظيم وانجذبت إليه الأرواح ومشى كثير من الخلق على طريقته وأذكاره وصار له أتباع ومريدون، وكان يسكن الحسينية ويعقد حلقة للذكر فى مسجد الظاهر خارج الحسينية، وكان يقيم به هو وجماعته لقربه من بيته، وكان ذا واردات وفيوضات وأحواله غريبة، وألف كتبًا عديدة منها شرح الجامع الصغير وشرح الحكم لابن عطاء الله السكندرى وشرح الإنسان الكامل للجيلى، وله مؤلف فى طريق القوم خصوصًا فى طريق الخلوتية الدمرداشية، ألفه سنة أربع وأربعين ومماية وألف، (ص٨٠٧) وشرح الأربعين النووية ورسالة فى الحدود وشرح على الصيغة الأحمدية وعلى الصيغة المطلسمة، وله كلام عال فى التصوف، وإذا تكلم أفصح في البيان، وأتى بما يبهر الأعيان، وكان يلبس قميصًا أبيض وطاقية بيضاء ويعتم عليها بقطعة شملة حمراء لايزيد على ذلك شتاء وصيفا، وكان لايخرج من بيته إلا فى كل أسبوع مرة لزيارة المشهد الحسينى وهو على بغلة وأتباعه بين يديه وخلفه، يعلنون بالتوحيد والذكر، وربما جلس شهورًا لايجتمع بأحد من الناس، وكان له كرامات ظاهرة، ولما عقد الذكر بالمشهد الحسينى فى كل يوم ثلاثاء ويأتى بجماعته على الصفة المذكورة ويذكرون فى الصحن إلى الضحوة الكبرى [إلى ماقبل الظهر]، قامت عليه العلماء وأنكروا مايحصل من التلوث فى الجامع من أقدام جماعته إذ غالبهم كانوا يأتون حفاة ويرفعون أصواتهم بالشدة،

وكاد أن يتم لهم منعه بواسطة بعض الأمراء فانبرى لهم الشيخ الشبراوى وكان شديد الحب فى المجاذيب وانتصر له، وقال للباشا والأمرا «هذا الرجل من كبار العلما والأوليا فلاينبغى التعرض له» وحينئذ أمره الشيخ بأن يعقد درسًا بالجامع الأزهر فقرأ فى الطيبرسية الأربعين النووية وحضره غالب العلماء وقرر لهم مابهر عقولهم فسكتوا عنه وخمدت نار الفتنة .

ومن كلامه فى آخر رسالة الخلوتية* مانصه «فمن منن الله عليّ وكرمه أني رأيت الشيخ دمرداش فى السماء وقال لى لاتخف فى الدنيا ولا فى الآخرة، وكنت أرى النبى صلى الله عليه وسلم فى الخلوة فى المولد، فقال لى فى بعض السنين لاتخف فى الدنيا ولا فى الآخرة، ورأيته يقول لأبى بكر رضى الله عنه اسع بنا نطل على زاوية الشيخ دمرداش (ص٨٠٨) وجاءا حتى دخلا لى فى الخلوة ووقفا عندى وأنا أقول «الله الله» وحصل لى فى الخولة وهم فى رؤية النبى صلى الله عليه وسلم، فرأيت الشيخ الكبير يقول لى عند ضريحه «مد يدك إلى النبى صلى الله عليه وسلم فهو حاضر عندى» .

* رسالة الخلوتية للشيخ على حجازى الخلوتى.

ورأيت فى خلوة الكردى يعنى الشيخ شرف الدين المدفون بالحسينية بين اليقظة والنوم وأنا جالس فانتبهت فرأيت النور قد ملأ المحل فخرجت منا هائمًا فحاشنى بعض من كان فى المحل فوقفت عند الشيخ ولم أقدر على العود إلى الخلوة من الهيبة إلى آخرة الليل، وتبسم فى وجهى مرة وأعطانى خاتما، وقال لى «والذى نفسى بيده فى غد يظهر ماكان منى وما كان منك» وأخذنى الشيخ الكردى وأوصلنى إلى مكة وأرانيها عيانا، ودخلت على السيد أحمد البدوى وعنده

النبى صلى الله عليه وسلم فحكم فى وأنا أستغيث بالنبى صلى الله عليه وسلم، وكان سبب ذلك التردد فى نزولى مولده فأغاثنى الله بعد ذلك ببركة النبى صلى الله عليه وسلم وكان قبل ألبسنى بيده الزى الأحمر مرتين مرة فى بركة الحج ومرة فى مقامه داخل الضريح وقال اذهب إلى الكردى».

قال ورأيت نفسى مرة خارج المدينة وقلت لا أدخل حتى أعلم رضاه عنى والقبول، فأرسل لى إنسانا بمروحة يروح بها على ويقول القبول حاصل، ورأيته يقول لى أنا أحب محادثتك، وأوقفنى بين يده وقال لى: «أتعترض على حكم الربوبية، فاستيقظت وأنا أجد أثر ذلك ولم أعرف السبب».

ورأيت بهامش تلك الرسالة ماصورته: ورأيته صلى الله عليه وسلم فى آخر رمضان ليله الاثنين سنة سبعة وخمسين وماية وألف فى الطبقة التى بجانب الرواق وهو مسرع فى المشى فسعيت خلفه وقلت«لاتفتنى يارسول الله» فوقف فى فضا واسع فأدركته ووقفت بجانبه (ص٨٠٩) وقلت لمن كان حاضرا «أنظر إلى لحيته الشريفة وعد مافيها من الشعرات البيض».

(ومن كراماته) أنه كان يتوّب العصاة من قطّاع الطريق ويردهم عن حالهم فيصيرون مريدين له، وذا سمعته من الثقات، ومنهم من صار من السالكين، وكان تارة يربطهم بسلسلة عظيمة من حديد فى عمدان مسجد الظاهر، وتارة بالطوق فى رقبتهم يؤدبهم بما يقتضيه رأيه. وكان إذا ركب ساروا خلفه بالأسلحة والعصى وكانت عليه مهابة الملوك وإذا ورد المشهد الحسينى يغلبه الوجد فى الذكر حتى يصير كالوحش يرى وجهه تارة كالوحش وتارة كالعجل وتارة كالغزال.

ولما كان بمصر مصطفى باشا مال إليه واعتقده وزاره، فقال له «إنك ستطلب إلى الصدارة فى الوقت الفلانى» فكان كما قال له الشيخ، فلما ولى الصدارة بعث إلى مصر وبنى له المسجد المعروف به بالحسينية وسبيلا وكتابا وقبة وبداخلها مدفن للشيخ على يد الأمير عثمان أغا وكيل دار السعادة، ولما مات خرجوا بجنازته وصلى عليه بالأزهر فى مشهد عظيم ودفن بالقبر الذى بنى له بداخل القبة بالمسجد المذكور.

٣٢٠ حسنى الشيبينى الفوى.

[مات] علامة وقته وأوانه الآخذ من كميت* البلاغة بعنانه الولى الصوفى، من صفا فصوفى، الشيخ حسن الشيبينى ثم الفوى، رحل من بلدته فوة إلى الجامع الأزهر فطلب العلم وأخذ عن الشيخ الديربى فجعله ممليا عليه فى الدرس فقيل له فى ذلك فقال : هذا عالم ماجاء من بلده حتى قرأ الأشمونى والمختصر ونحو ذلك» وأخبر عن نفسه أنه كان ملازما لولى من (٨٠١) أوليا الله تعالى، فحين تعلقت نفسه بالمجى إلى الجامع الأزهر توجه مع هذا الولى لزيارة ثغر دمياط، فنام إلى جانبه ليلة فرآه فى النوم وقد سقاه لبنا من إبريق وقال له «هذا علم النحو وهو أصعب العلوم فى الأزهر» قال ثم انتبهت فقلت له «يامولانا الشيخ رأيت كذا وكذا» فقال لى على الفور «أسكت أضغاث أحلام» لأن الولى المذكور كان من الملامتية لايحب أن يظهر لنفسه حالا، ثم إنه جاور عقيب ذلك. فحين اشتغل بهذا العلم فتح الله عليه فى أقرب مدة ثم اشتغل بالفقه وغيره من أصول ومنطق ومعان وبيان وتفسير وحديث وغير ذلك، حتى فاق على أقرانه وصار علامة زمانه، ثم أخذ عن الشيخ

* الكميت : من الخيل للمذكر والمؤنث ماكان لونه بين الأسود والأحمر، وهو تصغير اكمت على غير القياس وجمعه كمت بضم الكاف وسكون الميم.

الحفنى الطريق وتلقن الأسماء وسار على حسب سلوكه وسيره وألبسه التاج وأجازه بأخذ العهود والتلقين والتسليك وصار خليفة محضا فأدار مجالس الأذكار، ودعا الناس إليها فى ساير الأقطار، وفتح الله عليه باب العرفان، حتى صار ينطق بأسرار القرآن ويتكلم فى الحقايق، نقل عن الشيخ الحفنى أنه ورد عليه منه مكتوب فقال: «الحمد لله الذى فى أتباعنا من هو كمحيى الدين بن العربى» وسمع منه أيضآ أنه يقول فى حقه «الشيخ حسن الشبينى هذا أكبرى، أعطاه الله قوة فى معرفة أهل العرفان، وأنه أعلم منى بهذا الفن وإذا تكلمت معه فيه فإنما هى مشاركة وإلا فأنا لاأفهم كفهمه». وناهيك بهذه الشهادة. توفى رحمه الله تعالى فى هذه السنة، وخلف ولده السيد أحمد موجود فى الأحياء بارك الله فيه، وممن أخذ عنه صاحبنا العمدة العالمة الصالح السيد على المعروف بزبارة الرشيدى وهو خليفة الخلوتية الآن (ص٨١١) بثغر رشيد نفع الله به.

٣٢١ محمد أفندى بن إسماعيل السكندرى.

[ومات] الجناب المبجل الفريد الكاتب الماهر المنشئ البليغ المجيد/ محمد أفندى إبن إسماعيل السكندرى العارف بالألسنة الثلاثة العربية والفارسية والتركية، وكان لديه محاورات ولطايف أدبية وميل شديد إلى علم اللغة، وبحث عن الأدوات المتعلقة به، ورسايله فى الألسن الثلاثة غاية فى الفصاحة مع حسن خط ووفور حظ ومهابة عند الأمراء وقبول عند الخواص، ووالده كان إسرائيليًا فأسلم وحسن إسلامه، وتولى مناصب جليلة بالثغر، وله هناك شهرة فولد هذا هناك وهذّبه وأدبه حتى صار إلى ماصار، واستقر بمصر ومازالت له أملاك هناك وقرابة، رأيته يأتى لزيارة الشيخ

الوالد وقد اكتهل وتناهى فى السن وأبقى الدهر فى زواياه خبايا مستحسنة، ورأيت بخط يده كتاب بهارستان*، لمولانا جامى قد أحسن فى كتابته وأتقن فى سياقه، ومجموعًا فيه النوادر من أشعار الألسن الثلاثة، وبالجملة لم يكن فى عصره من يدانيه فى الفنون التى كان تجمل بها، وقد ذكره، الأديب الشيخ عبد الله الإدكاوى فى بضاعة الأريب وأثنى على محاسنه، وكانت بينهما ألفة تامة ومصافاة ومصادقة ومحاورات أدبية، قال فيه: وكتبت لحضرة أخينا المولى الأكرم محمد أفندى ابن المرحوم إسماعيل أغا السكندرى رحم الله والده، وأدام لنا فوائده وعوائده، كتاب الفتح القدسى* تأليف العماد الكاتب وكتبت بعد إتمامه وحسن ختامه مانصه:

قد يسر الله سبحانه إتمام هذا الكاتب (ص٨١٢) بل العجب العجاب، بل الروض المستطاب، فكم فيه من فصل ينبى عن فضل، ومن نوع بديع يحمل نور ربيع إلى آخر ماأطال فى مدحه إلى أن قال «وقد كتبته برسم الماجد الكامل والهمام الفاضل ملاذ الأفاضل، ومعاذ الأماثل، ومحل الفواضل ومحط الفضايل، أوحد أهل العصر للإنشاء صياغة، وأبرعهم بالألسن الثلاثة براعة وبلاغة، حتى كأنه المعنى بقول من قال وأحسن فى المقال:

إن هز أقلامه يومًا ليعملها
أنساك كل كمى هز عامله
وإن أقر على رق أنامله
أقر بالرق كتاب الأنام له

وهو الآن بمصرنا، أوحد المنشئين بمصرنا، فلا أحد فى فنه يماثله، ولايضاهيه ولايشاكله، ولايستطيع يساجله أو

* بهارستان: ومعناها أرض الربيع تأليف جامى وهو من أدباء الفرس فى القرن الخامس عشر الميلادى، ألف كتابه هذا سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧م) وهو مكون من ثمانية فصول يسمى كل فصل منها روضة، فالكتاب كله رياض. فالروضة الأولى فيها حكايات عن الصالحين والصوفية، والثانية عن الفلاسفة والحكماء، والثالثة عن عدل الملوك والرابعة عن الكرم والخامسة عن الحب والسادسة عن الفكاهات والنوادر والسابعة عن الشعراء والثامنة عن الحيوانات البكماء، والكتاب مزيج من المنظوم والمنثور، وقد ترجم إلى اللغة الألمانية وطبع فى فينا سنة ١٨٤٦م وله طبعات أخرى فى الآستانة، كما ترجم إلى اللغة الإنجليزية.

* هذا الكتاب اسمه الفيح القسى فى الفتح القدسى، ألفه أبو عبد الله محمد بن محمد الشهير بعماد الدين الكاتب الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م).

يناضله، فلو رأى مايخبره منشئ هذا الكتاب العماد، لقال والله هذا الذى عليه الاعتماد، وسلم له القياد، وأذعن لبلاغته وانقاد، ولو أدركه الشيرازيان سعدى وحافظ، لاقتفى كل منهما ماهو به لافظ، ولو سمع بديع إنشائه النامى، الملا جامى، لقال ههنا جل مرامى، وأصابة المراى، ولو رام ويس مضاهاة غرره ومحاكاة درره لقيل له ياويس ويسك* لقد أتعبت نفسك، وكددت وأوهنت حدسك*، ولوقفا زركشى* أثره لاستحسن الأفاضل نظمه ونثره، ولو عاصره نفعى، قال لقد رق بلطايفه طبعي، (ص٨١٣) ولو طلب النابى مجارته لنبا عن مباراته، وأذعن لبراعاته، وبديع عباراته، مَنْ هو أخى وصديقى، وعلى الحقيقة هو أشفق من شقيقى، فكم له على من أياد لاأقدر أ أعددها ولا أحصرها فأسردها، المولى الأمجد، الأكمل الأوحد، من هو بكل وصف جميل حرى، حضرة محمد أفندى الإسكندرى، فهو الآن أوحد الكتاب، والآتى فى صناعة الإنشاء بالعجب العجاب، والمعظم عند أرباب الدولة الكرام، والمخصوص بينهم بالتبجيل والإعظام، والمعول عليه دونساير الكتاب،والمنظور إليه لسعة دايرته فى الآداب، ثم أتبعه بنظم فقال:

فعلت أعين الظباء السواجى
بفؤادى فعل العدو المداجى
قلت كفى كفى فقالت أقالتك شراكى فسر لربك ناجى
قلت إنى لى النجاة وإنى
بك أصبحت موثق الأوداج
ياعيونًا أسرن لبى وأسهر
ن جفونى من هدبها فى دياجى

* ويسك : أى رفقًا بنفسك
* حدسك : أى ظنك وتخمينك.
* الزركشي: صاحب كتاب المعتبر فى تخريج أحاديث المنهاج والمختصر.

بفتور فيكن بالقتل والفتك غدا في القتال نامي الهياج
وفـنـون بـه الخـلـى لـقـــــــــد زا
د افـــتـــتـــانا وكـــان صلد المزاج
ولحـــاظ أمــضى فــعـــالا وأقـــضى
في الورى من صــوارم الحَـــجّـــاج
(ص٨١٤) هل سبيل إلى الوصول إلى مو
لاك أو منحـــة إلى مـــحـــتــــاج
فلن نرجـــومــعًـــا ونمنح مـــانر
جـوه فـاقـصـد بالمدح كـهف الراجي
هو نامي العلا محمد المحمود فعلا بدا كضوء السراج
وهو في فـــرد الزمـــان نثـــراً ونظمًـــا
مـــاقـــريض الكمـــيت والعـــجـــاج
وهو في الخط أوحـــد فـــإذا مـــد
يراعًـــا في صـــفـــحـــة الأرياج
جـــاءك الروض مـــثـــمـــراً ولديه
كل حـــرف مـــثل الهـــزار يناجي
والمعاني التي تعز عن الغير ابتكاراً عفواً بغير علاج
ذو السنا والسناء والراحة الطلقة بالجود كالحيا الثجاج*
حـــــــفـظ اللـه ذاته وعُــــــلاه
ووقـــــــاه شـــــــرور كل مناجي
سـيـدي قـد خـدمت بالفـتح عليـا
ك وتنمـيـقـه فـسـرى انزعـاجي
فـــتنزهه في روضـــه دمت مـــولى
هولي عـــدة إذا عـــز حـــاجي
هو نعم الكتـــاب كم فـــقـــرة
فـــيـــه لهـــا رونق كـــدرة تاج

* الحيا الثجاج: المنهمر.

كـيـف لا والعـمـاد منشيـه قـد كـا
ن له القـصـد من جـمـيع الفـجـاج
(ص٨١٥) قد صفا خاطرى بما قد حواه
مـن بـديـع الإنـشـــــاء والإزدواج
وذكـــا منـطـقى فـــرحت أؤرخ
فـيح فـتح العـمـاد زاد ابتـهـاجى

* رسالة أدبية للشيخ الإدكاوى إلى محمد افندى السكندرى.

(واهدى) إليه الشيخ عبد الله الإدكاوى رحمهما الله رسالة تصحيفية، وسماها بالمقامة السكندرية، أشار فيها بقوله «وفيها خل جل شأنه ببيانه» إلى المترجم، والمقامة هذه ومن خطة نقلت: حدثنا خدننا حديثا جذبنا بحسنه تحسبه للطافته كل طايفة أنه آية قال قال: امنى أمنت حين جيت سكندرية سكن دربه غيم غنم أنسى أنست فيه فئة علت غلت آدابهم إذا بهم أخلاء أجلاء حكماء حلماء يحلو بحلو بلاغتهم تلاعبهم صفا ضفا سايع سايغ وقتهم، وفيهم خل جل شأنه ببيانه، مهذب مهدت ظرف طرف آدابه أداته عذب غدت تذيع بديع صفاته صفاته، يجلب بحلى مزحه مرحه، فمازجنى فما رخيت عنان عيان ناظرى بأطرب منه منة وفاه وقاه خلاتى خلانى، وقال وقاك واجب واحب لاجلالك لاخلالك ريع أنى أبث لك كل بشر يسر للقايك كلفا بك تيمن بيمن جبين حبيب غرير عزيز بديع يذيع سرى بنيرى، جبينيه جننت به سبانى شبانى بجفن يخفى سحره بت بحره سهران شهران، أهيف أهتف باسمه باسمه أيامه، أن أمه (ص٨١٦) أحد أخذ بلحظ يلحظ بعين تعين بهدبها تهديها لمبتلى، لم ينكث عقدة عقده قانص، قابض يبخل بنحل شهدة شهده.

قــــاتل فـــاتك أعـــز أغـــر
حسنه جيشه كثير كبير
ســـاحـــر ســـاحـــر تجنب يجنى
شـــايق ســـايق منيـــر مـــبـيـــر
حـــبــــــه جنة يحلى بحلى
لينه ليـــتــــه ببـــشـــر يشـــيـــر
مـــاثل مـــايل يجـــور بجـــور
تـــايــــه نـــابـــه بـــزور يـــزور
نشـــــره بشـــــره بهـــاه نهـــاه
ســـيـــره ســيـرة يجــبــر يجـيــر
رايـق راتـق قــــــــلانى فـكـانـت
منيـــتى مـــيـــتـــتى بحـــور تجـــور

جاير جايز. حبه حبة. قلبي قليت. عدوه غدوة. شنع يبتغ. معانية معاينه. مشرق مشرف. نزق ترف. تعرقه بعرفه. أوحد أوجد. بسر بشر. جناني حياتي. تلفظه بلفظة. تحيي نحبي. يجيب نجيب. نجني بجني. تفاح نفاح نسم يشم عبيره عنبرة. عربي عزني. غريب عريب. حسنه حسبه. ذاك زال. بلبي بليت. بصدوده بضد وده عاملني عامل. بت استخبره. آس تجـبـره. على غلب. فكرتي فكر ى ينمـو بنمـو (ص٨١٧) بعـده بعـده . فليت قلبي. بعـده بعـدة نورده بوردة. مـخـبـأة محـيـاه. لكنه لليه. مطلبي مطلني. ثم نم بوجدى توحدى. وبعدى وتعدى. حسن حبيبي. الحد الحد جسمي حين نمي. همي همت. حين خيب ظني ظبي. رائع رائع. رائغ زائغ. حسني حبشي اللون الكون. يشهد بشهد ثغره. بغرة قمرية قمرته. بلا لاء بها بلاء لأنها تحبس بحسن ضيائها صبابها. نيرة تنزه فتي فني في فيء مغانيها. تزهو

بزهو. ظبيها طيبها. فايح قانح. نحوها يحوها ترى ثرى.
يطيب بطيب. رياه رباه يجلو بحلو. مرآه مرآة. قلبك فلتك.
من. من. عشقه عشقة. عذرية عذرته. حين. جبن. عن غى.
حمل جمل. الآثام. الأنام. وقبل أن يقدمها له كتب بظاهرها
مانصه: طرفة ظرفت وهديت هديت لمحمد كم. حمد. خلقة
خلقه. ماجد. ماحد منطقه منطقة. نجوم نحوم حول حوك.
يراعته براعته. يبدى بيدى بنانه بيانه. لبيب كتبت برسمه
برسمة حالته. جالبة لك كل خير. خير جبر. كسرى
كسرت. على على. محله مجلة. مدحتى مذحبب إلى آلت
إلى. اغذاذ اعداد. محاسنه مجانيته معاليه مغالبة. وقتى
وقيت. عن غب. ذاته ذاته بمن يمن. الحليم الحكيم.

فلما قدمها إليه قبلها وقبّلها (ص٨١٨) وأجازها بماجملتها.
ثم قرظ عليها من جنسها تقريظا بديعا، ملأه بيانا وبديعا
(وهذا نصه)..

هذه عروس حسن جليت على منصة البراعة، افتضها فارس
اليراعة أتحفنى بها المولى الوحيد فى فنه، والبليغ الذى تكبو
جياد هذه الصناعة من حدة ذهنه، من هو لمحاسن البلاغة
مالك وحاوى، مولانا الشيخ عبدالله الإدكاوى، فتلقيتها
بالراحتين، وفديتها وعوذتها من العين بكل عين، وتطفلت
على تقريظها بنوع من فنها فقلت وإن لم أبلغ مراقى
حسنها، تحف تحف بحق لدى للذتُ بحسنها تحسبها لجودتها
كخود بها جلاها حلاها، وسوغها وشوعها بحلى تجلت
بغير تغير، صيغه صنعة، ترام برام يعيبها ، يعى بها صنفها
صنعها فاضل فاصل أريب، أربت بلاغاته بلاغاية ، تنور بنور
تأدية ناديه، بقيت تفتن معاينة معانيه.

وقد كتب عليها جملة من أفاضل العصر كما تقدم بعض



شاعر يلقي قصيدة

ذلك في تراجمهم، وبالجملة فإن المترجم كان أوحد عصره ووحيد مصره لم يدانيه في مجموعة الفضايل أحد ولم يزل حميد المسعى جميل السيرة بهيا وقورا مهيبا عند الأمرا والوزرا حتى وافاه الحمام في يوم الجمعة حادى عشر المحرم من السنة.

٣٢٢ علي بن العربي بن علي السقاط.

[ومات] الأستاذ العارف سيدى على بن العربى بن على بن العربى الفاسى المصرى الشهير بالسقاط، ولد بفاس وقرأ على والده وعلى العلامة محمد بن أحمد بن العربى (ص٨١٩) بن الحاج الفاسى، سمع منه الأحياء جميعًا بقراءة ولد عمه النبيه الكاتب أبى عبد الله محمد بن الطيب بن محمد بن على السقاط، وعلى ولده أبى العباس أحمد بن محمد العربى ابن الحاج، وعلى سيدى محمد بن

عبد السلام البنانى، كتب العربية والمعقول والبيان، ولما ورد مصر حاجا لازمه فقرأ عليه لفظه من الصحيح إلى الزكاة والشمايل بطرفيه بالجامع الأزهر وكثيراً من المسلسلات والكتب التى تضمنتها فهرست ابن غازى، قراءة بحث وتفهيم، وأجازه حينئذ بأواسط جمادى الثانية سنة ثلاث وأربعين وماية وألف، وجاور بمكة فسمع على البصرى الصحيح كاملا ومسلمًا بفوت، وجميع الموطأ رواية يحيى بن يحيى وذلك خلف المقام المالكى عند باب إبراهيم وأجازه، وعلى النخلى أوايل الكتب الستة وأجازه، وعاد إلى مصر فقرأ على الشيخ إبراهيم الفيومى أوايل البخارى، وعلى أحمد بن أحمد الغرقاوى وأجازه، وعلى عمر بن عبد السلام التطاونى جميع الصحيح وقطعة من البيضاوى بجامع الغورى سنة ست وثلاثين وماية وألف، وجميع المنح البادية فى الأسانيد العالية، وأضافه على الأسودين وشابكه وصافحه وناوله السبحة وأجازه بساير المسلسلات، وعلى محمد القسطنطينى رسالة ابن أبى زيد برواق المغاربة، وعلى محمد بن زكرى شرحه على الحكم بجامع الغورى؛ وعلى سيدى محمد الزرقانى كتاب الموطأ من باب العتق إلى آخره وأجازه به يوم ختمه، وذلك ثامن شعبان سنة ثلاث عشرة ومائة وألف، وروى (ص٨٢٠) حديث الرحمة عن سيدى السيد مصطفى البكرى فى سنة ستين وماية وألف، وأجازه ابن الميت فى العموم واجتمع به شيخنا السيد مرتضى فى منزل السيد على المقدسى، وكان قد أتى إليه لمقابلة المنح البادية على نسخته وشاركهما فى المقابلة وأحبه وباسطه وشافهه بالأجازة العامة وكان إنسانًا مستأنسا بالوحدة منجمعًا عن الناس للانفراد غامضًا مخفيا، ولازال كذلك

حتى توفى فى أواخر جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف، ودفن بالزواية بالقرب من الفحامين.

[ومات] الجناب الأجل والكهف الأظل الجليل المعظم، والملاذ المفخم، الأصيلى الملكى ملجأ الفقرا والأمرا ومحط رحال الفضلا والكبرا شيخ العرب الأمير شرف الدولة همام بن يوسف بن أحمد بن محمد بن همام بن صبيح بن سيبيه الهوارى، عظيم بلاد الصعيد، ومن كان خيره وبره يعم القريب والبعيد، وقد جمع فيه من الكمال ماليس فيه لغيره مثال، تنزل بحرم سعادته قوافل الأسفار، وتلقى عنده عصى التسيار، وأخباره غنية عن البيان، مسطرة فى صحف الإمكان، منها أنه إذا نزل بساحته الوفود والضيفان تلقاهم الخدم وأنزلوهم فى أماكن معدة لأمثالهم وأحضروا لهم الاحتياجات واللوازم من السكر وشمع العسل والأوانى وغير ذلك، ثم مرتب الأطعمة فى الغذا والعشا والفطور فى الصباح والمربيات والحلوى مدة إقامتهم لمن يعرف ومن لايعرف، فإن أقاموا على ذلك شهورا (ص٨٢١) لايختل نظامهم ولاينقص راتبهم وإلا قضوا أشغالهم على أتم مرادهم وزادهم إكراما وانصرفوا شاكرين، وإن كان الوافد ممن يرتجى البر والإحسان أكرمه وأعطاه، وبلغه أضعاف مايترجاه، ومن الناس من كان يذهب إليه فى كل سنة ويرجع بكفاية عامه وهذا شأنه فى كل من كان من الناس، وأما إذا كان الوافد عليه من أهل الفضايل أو ذوى البيوت قابله بمزيد الاحترام، وحياه بجزيل الإنعام، وكان يُنعم بالجوارى والعبيد والسكر والغلال والتمر والسمن والعسل، وإذا ورد عليه إنسان ورآه مرة وغاب عنه سنين ثم نظره

٣٢٣ همام بن يوسف الهوارى

وخاطبه عرفه وتذكره، ولاينساه، وحاله فيما ذكر من الضيفان. والوافدين والمسترفدين أمر مستمر على الدوام لاينقطع أبداً، وكان الفراشون والخدم يهيئون أمر الفطور من طلوع الفجر فلا يفرغون من ذلك إلا صحوة النهار، ثم يشرعون فى أمر الغدا من الضحوة الكبرى إلى قريب العصر، ثم يبتدون فى أمر العَشا فلا يفرغون من ذلك إلا بعد العِشا وهكذا، وعنده من الجوارى والسرارى والمماليك والعبيد شيء كثير، ويطلب فى كل سنة دفتر الإرقاء ويسأل عن مقدار من مات منهم فإن وجده خمسماية أو أربعماية استبشر وانشرح وإن وجده ثلثماية أو أقل أو نحو ذلك اغتم وانقبض خاطره، ورأى أن ربما كانت فى أعظم من ذلك، وكان له برسم زراعة قصب السكر وشركه* فقط اثنا عشر ألف ثور وهذا بخلاف المعد للحرث ودراس الغلال والسواقى والطواحين والجواميس والأبقار الحلابة وغير ذلك، وأما شون الغلال وحواصل السكر والتمر بأنواعه والعجوة شيء لايعد ولايحد (ص٨٢٢) وكان الإنسان الغريب إذ رأى شون الغلال من البعد ظنها مزارع مرتفعة لطول مكث الغلال وكثرتها فينزل عليها ماء المطر ويختلط بالتراب فتنبت وتصير خضراء كأنها مزرعة وكان عنده الأجناد والقرانصه وأكثرهم من بقايا القاسمية انضموا إليه وانتسبوا له وهم عدة وافرة وتزوجوا وتوالدوا وتخلقوا بأخلاق تلك البلاد ولغاتهم، وله دواوين وعدة كتبة من الأقباط والمستوفيين والمحاسبين لايبطل شغلهم ولاحسابهم ولاكتابتهم ليلا ونهاراً، ويجلس معهم حصة من الليل إلى الثلث الأخير بمجلسه الداخل يحاسب ويملى ويأمر بكتابة مراسيم ومكاتبات لايعزب عن فكره شيء قل ولاجل، ثم يدخل إلى

* شركه : بكسر الشين وسكون الراء أى المشاركة فى الزرع وجمعها أشراك، وشركاء.

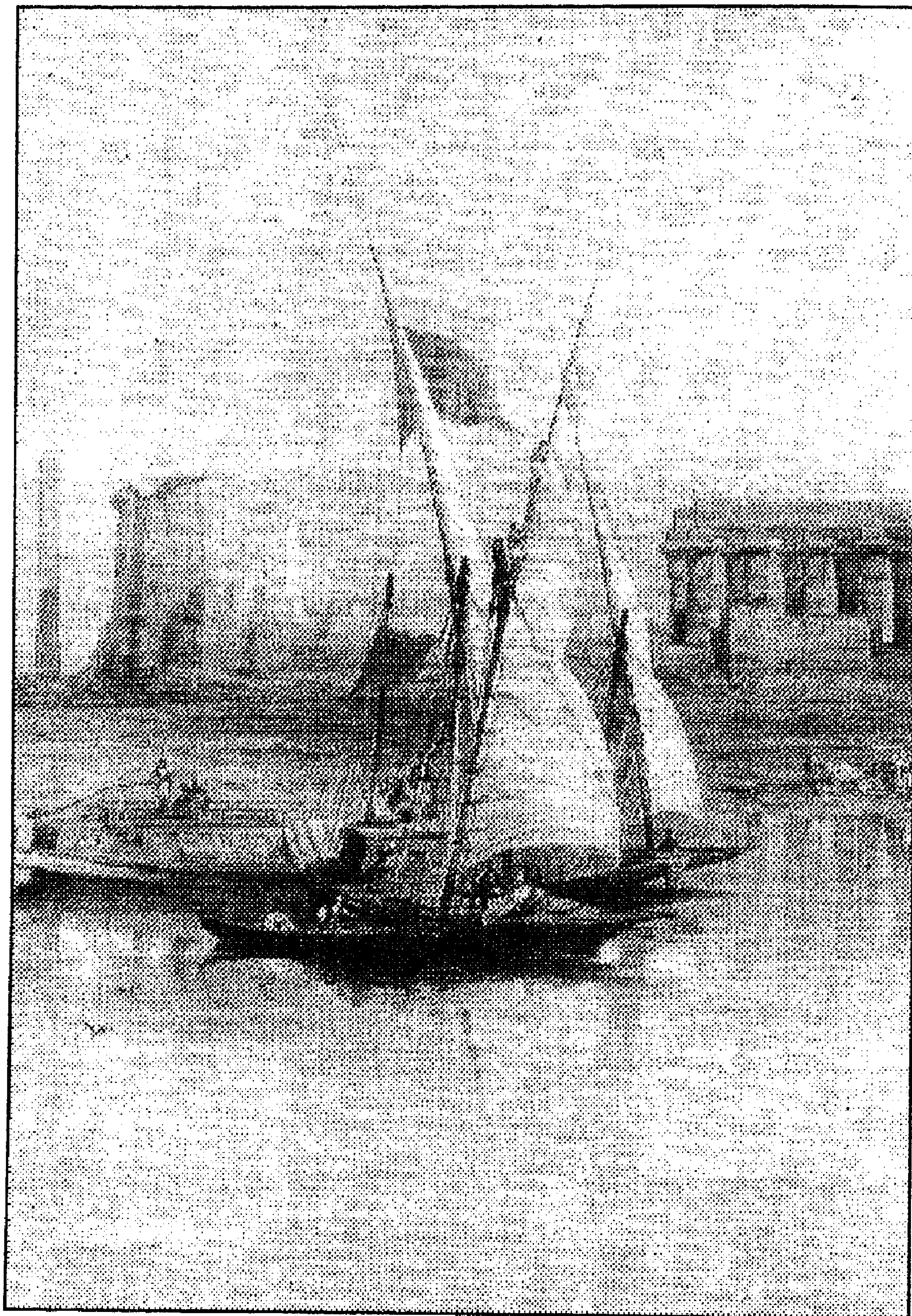
الحريم فينام حصة لطيفة ثم يقوم إلى الصلاة وإذا جلس مجلسا عاما وضع بجانبه فنجانا فيه قطنة وماء ورد فإذا قرب منه بعض الأجلاف وتحادثوا معه وانصرفوا مسح بتلك القطنة عينيه وشمها بأنفه حذرا من رائحتهم وصنانهم* ، وكان له صلات وإغداقات وغلال يرسلها للعملاء وأرباب المظاهر بمصر في كل سنة وكان ظلا ظليلا بأرض مصر، ولما ارتحل لزيارته شيخنا السيد محمد مرتضى وعرف فضله أكرمه إكراما كثيرا وأنعم عليه بغلال وسكر وجوار وعبيد، وكذلك كان فعله مع أمثاله من أهل العلم والمزايا ، ولم يزل هذا شأنه حتى ظهر أمر علي بك وحصل ماتقدم شرحه من وقايعه مع خشداشينه وذهابه إلى الصعيد وصلحه مع صالح بك وانضمامه إليه وكان المترجم صديقا لصالح بك وعشيرته فأمدهما بالمال والرجال مراعاة لسعي صالح بك حتى تم لهما الأمر (ص٨٢٣) وغدر علي بك بصالح بك وخرجت رجاله وأتباعه إلى الصعيد وأعلموه بما أوقعه بهم فاغتم على فقد صالح بك غمًا شديدا وحمله ذلك على أن أشار عليهم بذهابهم إلى أسيوط وتملكهم إياها فإنها باب الصعيد، فذهبوا إليها مع جملة المنافي من مصر والمطرودين كما تقدم وأمدهم شيخ العرب المترجم حتى ملكوها وأخرجوا من كان بها واستوحش منه علي بك بسبب ذلك وتابع إرسال التجاريد وقدر الله بخذلان القبالي ورجوعهم إلى قبلي على تلك الصورة، فعند ذلك علم همام أنه لم يبق مطلوبا لهم سواه وخصوصا مع ماوقع من فشل كبار الهوارة وأقاربه ونفاقهم عليه، فلم يسعه إلا الارتحال من فرشوط وتركها بما فيها من الخيرات وذهب إلى جهة إسنا، فمات في ثامن شعبان من السنة ودفن في

* الصنان: بضم الصاد ذفر الإبط.

بلدة تسمى قمولة* فقضى عليه بها رحمه الله، وخلف من الأولاد الذكور ثلاثة وهم درويش وشاهين وعبد الكريم، ولما مات انكسرت نفوس الأمراء ثم إن أكابر الهوارة قدموا ابنه درويشا لكونه أكبر إخوته وأشاروا عليه بمقابلة محمد بك ففعل، وأما الأمرا فمنهم من أخذ أمانا من محمد بك وقابله وانضم إليه ومنهم من ذهب إلى ناحية درنة ونزل البحر وسافر إلى الشام والروم ومنهم من انزوى إلى الهوارة بالصعيد، وحضر درويش صحبة محمد بك إلى مصر وقابل عل بك وأعطاه بلاد فرشوط ورجع مكرما إلى بلاده فلم يحسن السير ولم يفلح، وأول مابدأ فى أحكامه أنه صار يقبض على خدم أبيه وأتباعه ويعاقبهم ويسلب (ص٨٢٤) أموالهم وقبض على رجل يسمى زعيتر وكيل البصل المرتب لمطابخ أبيه فأخذ منه أموالا عظيمة فى عدة أيام على مرار، أخذ منه فى دفعة من الدفعات من جنس الذهب البندقى أربعين ألفا وكذلك من يصنع البرد للجوارى السود والعبيد وذلك خلاف وكلا الغلال والأقصاب والسكر والسمن والعسل والتمر والشمع والزيت والبن والشركا فى المزارع ووصلت أخباره بذلك إلى على بك فعين عليه أحمد كتخدا وسافر إليه بعدة من الأجناد والمماليك وطالبه بالأموال حتى قبض منه مقادير عظيمة ورجع بها إلى مخدومه واقتدى به بعد ذلك محمد بك فى أيام إمارته وأخذ منه جملة وكذلك أتباعه من بعده حتى أخرجوا مافى دورهم من المتاع والأوانى والنحاس قناطير مقنطرة، ثم تتبعوا الحفر لأجل استخراج الخبايا حتى هدموا الدور والمجالس ونبشوها وأخربوها. وحضر درويش المذكور. بآخرة إلى مصر جاليا عن وطنه ولم يزل بها حتى مات

* قمولة أو قمولا: بفتح القاف قرية من أعمال مركز الأقصر محافظة قنا.

مدينة الاقصر. النيل والمعبد. ▼



كآحاد الناس، واستمر شاهين وعبد الكريم يزرعان بأرض الوقف أسوة المزارعين ويتعيشون حتى ماتا، فأما شاهين فقتله مراد بك فى سنة أربع عشرة ومايتين وألف أيام الفرنسيس لأمور نقمها عليه، وخلف ولدا يدعى محمدا، وأما عبد الكريم فإنه مات على فراشه قريبا من ذلك التاريخ وترك ولدا يدعى هماما دون البلوغ يوصف بالنجابة حسبما نقل إلينا من السفار*، وكاتبنى وكاتبته فى بعض المقتضيات،ورأيت ابن عمه محمداً المذكور حين أتى إلى مصر بعد ذهاب الفرنسيس وتردد (ص٨٢٥) عندى مرارا، وسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

* السفار: بضم السين وتشديد الفاء جمع سافر (بمعنى مسافر).

٣٢٤ سويلم بن حبيب كبير سعد.

[ومات] الجناب الكبير والمقدام الشهير من سرت بذكره الركبان، وطار صيته بكل ماكان، الفارس الضرغام النجيب، شيخ العرب سويلم بن حبيب، من أكابر عظماء مشايخ العرب بالقليوبية ومسكنهم دجوة على شاطئ البحر [النيل]، وهو كبير نصف سعد مثل أبيه حبيب بن أحمد وليس لهم أصل مذكور فى قبايل العرب وإنما اشتهروا بالفروسية والشجاعة، وحبيب هذا أصله من شطب قرية قريبة من أسيوط، ولما مات حبيب خلف ولديه سالما وسويلمًا، وكان سالم أكبر من أخيه وهو الذى تولى الرياسة بعد أبيه واشتهر بالفروسية وعظم أمره وطار صيته وكثرت جنوده وفرسانه ورجاله وخيوله وأطاعته جميع المقادم وكبار القبايل ونفذت كلمته فيهم وعظمت صولته عليهم وامتثلوا أمره ونهيه ولايفعلون شيئًا بدون إشارته ومشورته، وصار له خفارة* البرين الشرقى والغربى من ابتداء بولاق إلى رشيد ودمياط، وكان هو وفرسه مقوما على انفراده بألف خيال،

* خفارة: مثلثه الخاء ومعناها الحراسة.

وكـان ظهـور حـبـيب هذا فى أوايل القـرن واتفق له ولابنه سالم هذا وقايع وأمور مع إسماعيل بك إيواظ وغيره لابأس بذكر بعضها فى ترجمته، منها أن فى سنة خمس وعشرين ومـاية وألف أرسل حـبب ولده سـالمًا إلى خـيـول الأمـيـر إسماعيل بك ابن إيواظ وهجم عليها بالمربع* وجم* معارفها وأذنابها وتركها وذهب ولم يأخذ منها شيئاً وذلك بإغراء بعض الناس مثل (ص٨٢٦) قيطاس بك وخلافه وكـانت الخيـول بالغيط جهة القليوبيـة، وحضر أمير أخور وأخبر مخدومه فاغتاظ لذلك وعزم على الركوب عليه فلاطفه يوسف بك الجزار حتى سكن غيظه ثم أحضر حسنًا أبا دفية زعيم مصر سابقًا من القاسمية مشهور بالشجاعة وجعلوه قايممقام الأمانة، فسافر بجبخانة ومدفعين وصحبته طوايف ورجال وأمره بأن يطلب شرحبيب* وإن قـدر على قـتله فليـفـعل، وكـتب مكاتبـات للنواحي بأن يكونوا مطيـعين للمذكور فلم يزل حتى نزل فى غيط برسيم عند ساقـية خراب وعمل هناك متراسًا ووضع المدفعين وغطاهما بلباد وأقام رصد خيالة بالطرق وإذا بسـالم بن حـبيب ركب فى عـبيده ورجاله متوجهين إلى الجزيرة، فنزل بطريقة بغيط الأوسيـة فحـضر الخيـالة الرصـد إلى الأمير حـسن أبى دفيـة وأخـبـروه فـركـب برجـاله وأبقى عند المدافع عـشـرة من السـجـمـانيـة وأوصاهم بأنهم إذا انهزموا من القـوم فإنهم يرمون بالمدفعين سواء ففعلوا ذلك بعد مالاقاهم ورمى منهم رجـالا، ووقع منهم أيضًا عند رمى المدافع والرصاص ثلاثة عشر خيالا وأخذوا منهم نحو ستة قلايع ورجع سـالم بن حبيب بمن بقى من طايفته إلى أبيه وعرفه بما وقع له مع الأمير حسن أبى دفية فأرسل إلى عرب الجزيرة فأحضر منهم

* المربع: هو مرعى للخيول.
* جمّ: أى قص.
* شرحبيب: أى يطلب التحرش به.

فرسانًا كثيرة وكذلك من إقليم المنوفية، وركب الجميع قاصدين مناوشته، ووصلته أخبار ذلك فركب بمن معه وفعل كالأول، وركب مبحرًا وانعطف عليهم وحاربهم فرمى منهم فرسانًا فانهزموا أمامه فوقف (ص٨٢٧) مكانه فرجعت عليه العرب والعبيد فانهزم أمامهم فرمحوا خلفه طمعًا منهم حتى وصل المدافع فرموا بهم وأتبعوهم بطلق الرصاص فولوا هاربين، وسقط من عرب الجزيرة وغيرها عدة فرسان وأخذوا منهم خيولاً وسلاحًا، وحضرت نساؤهم ورفعوا القتلى ورجع سالم إلى أبيه وعرفه بما جرى عليهم من حرقهم وقتل فرسانهم فأرسل حبيب إلى قيطاس بك يقول له: إنك أغريتنا بابن إيواظ وتولد من ذلك أنه وجه علينا قايممقامه وحرقنا بالنار وقتل منا أجاويد، فأرسل إليه مكاتبة خطابًا للقصاصين بمعاونته ومساعدته فحضر إليه منهم عدة فرسان ضاربى نار وجمع إليه عربان الجزيرة وخيالة كثيرة من المنوفية، وركب حبيب وأولاده وجموعه إلى جسر الناحية، ونزل هناك وأرسل أولاده بخيول يطلبون شر أبى دفية وإذا ركب عليهم انهزموا أمامه حتى يصلوا إلى محل رباطهم بالجسر ففعلوا ذلك إلى أن وصلوا إلى الجسر فضربت القناصة بنادقهم طلقًا واحدًا فرموا نحو ثلاثين جنديا من الكبار، والذى ماأصيب فى بدنه أصيب حصانه وردت عليهم الخيول وانهزم الأمير حسن أبو دفية بمن بقى معه إلى دار الأوسية، فأخذت العرب الخيول الشاردة وغزوا الغز ورموهم فى مقطع من الجسر وأرسل العبيد أتوا بالجراريف وجرفوا عليهم التراب من غير غسل ولا تكفين، ورجع إلى بلده وخلص ثأره وزيادة، وحضرت الأجناد إلى مصر وأخبروا الصنجق بما وقع لهم مع حبيب وأولاده،

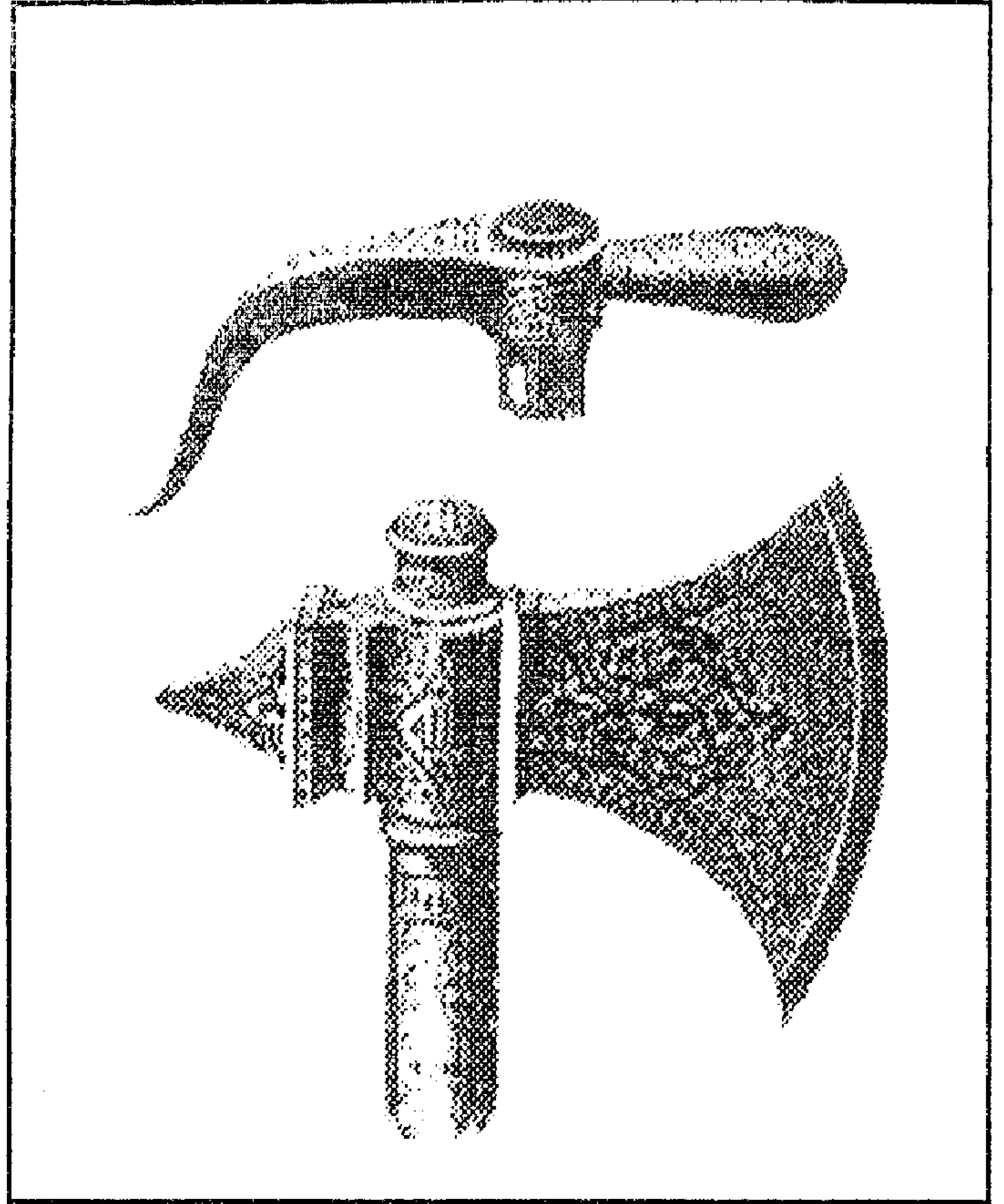


معارك حربية.

فعزل الأمير حسن أبا دفية من قايممقامية وولى خلافه، وأخذ فرمانا بضرب (ص٨٢٨) حبيب وأولاده، وركب عليهم من البر والبحر. ووصلت النذيرة إلى حبيب، فرمى مدافع أبى دفية فى البحر ووضع النحاس فى أشناف وألقاها أيضا فى البحر، وقيل إن حبيب قبل هذه الواقعة بأيام أحضر ستة قناديل وعمرها بعد ماعاير فتايلها ووزنها بالميزان عيارًا واحدًا، وكتب على كل قنديل ورقة باسمه واسم أخيه وأولاده واسم ابن إيواظ وأسرجها دفعة واحدة فانطفأ الذى باسمه واسم أخيه وأولاده واسم ابن إيواظ وأسرجها دفعة واحدة فانطفأ الذى باسمه أولا ثم انطفأ قنديل ابن إيواظ ثم قناديل أخيه وأولاده شيئًا بعد شيء، فقال: أنا أموت فى دولة ابن إيواظ. ولما وصل إليه الخبر بحركة ابن إيواظ

وركوبه عليه، فركب بأخيه وأولاده وخرجوا هاربين، ووصل ابن ايواظ إلى دجوة ورمحوا على دواويرهم ورموا الرصاص وكانت المراكب وصلت إلى البر الغربى تجاه دجوة ورسوا هناك وموعدهم سماع البنادق، فعند ذلك عدوا إلى البر الشرقى وطلعوا إليه، فأمر ابن إيواظ بهدم دواوير الحبايبة فهدموها بالقزم والفوس وأنشأ كفرا بعيدا عن البحر بساقية وحوض دواب وجامع وميضة وطاحونين وجمع أهل البلد فعمروا مساكنهم فى الكفر وسموه كفر الغلية، ورجع الأمير إسماعيل بك إلى مصر وأخذ الغز والأجناد أبقارًا وعجولا وأغنامًا وجواميس وأمتعة وفرشًا وأخشابًا شيئًا كثيرًا ووسقوه فى المراكب وحضروا به من البر أيضًا إلى مصر، وكتب مكاتبات إلى ساير القبايل من العربان بتحذيرهم من قبولهم حبيبًا وأولاده ، وأن لاينجمع عليه أحد ولا يؤويه، فلم يسعهم الا أنهم ذهبوا عند عرب غزة فأكرموهم ولم يزل بها حتى مات،وحضر سالم (ص٨٢٩) ابنه بعد ذلك إلى قليوب ببيت الشواربى شيخ الناحية سرا وأخذ له مكاتبة من إبراهيم بك أبى شنب خطابًا إلى ابن وافى المغربى بأن يوطن أولاد حبيب عنده حتى يأخذ لهم إجازة من أستاذهم، فأرسل أحضر عمه وأخاه سويلما وعدوا إلى الجبل الغربى وساروا عند ابن وافى شيخ المغاربة فرحب بهم وضرب لهم بيوت شعر وأقاموا بها إلى سنة ثلاثين وماية وألف، فمات إبراهيم بك أبو شنب وكان يواسى أولاد حبيب ويرسل لهم وصولات بغلال يأخذونها من بلاده القبلية، فلما مات فى الفصل*، ضاقت معيشتهم، فحضر سالم بن حبيب من عند ابن وافى خفية، وذلك قبل طلوع ابن إيواظ بالحج سنة إحدى وثلاثين ودخل بيت السيد محمد دمرداش وسلم

* الفصل: أى وقت انتشار الطاعون.



ادوات حربية.

عليه وعرفه بنفسه فرحب به وشكا له حال غربته وبات عنده تلك الليلة وأخذه في الصباح إلى ابن إيواظ فدخل عليه وقبل يده ووقف، فقال السيد محمد للصنجق «عرفت هذا الذى قبل يدك؟» قال لا، قال: هذا الذى جم أذناب خيولك، قال: سالم قال: لبيك قال: أتيت بيتى ولم تخف، قال له: نعم أتيت بكفني إما أن تنتقم وإما أن تعفو فإننا ضقنا من الغربة وها أنا بين يديك فقال له.: مرحبا بك أحضر أهلك وعيالك وعمر فى الكفر واتق الله تعالى وعليكم الأمان، وأمر له بكسوة وشال، وكتب له أمانا وأرسل به عبده، وركب سالم وذهب عند إبراهيم الشواربى بقليوب فأقام عنده حتى وصل العبد بالأمان إلى عمه وأخيه في بنى سويف، فحملوا وركبوا وساروا إلى قليوب ونزلوا

بدار أوسية الكَفْر حتى بنوا لهم دواوير وأماكن (ص٨٣٠) ومساكن، وأتتهم العُربية ومشايخ البلاد ومقادمها للسلام والهدايا والتقادم، فأقام على ذلك حتى تولى محمد على بك ابن إسماعيل بك أمير الحاج فأخذ منه إجازة بعمار البلد الذى على البحر، وشرع فى تعمير الدور العظيمة والبساتين والسواقى والمعاصر والجوامع وذلك سنة أربع وثلاثين ومائة ألف، واستقام حال سالم واشتهر ذكره وعظم صيته واستولى على خفارة البرين ونفذت كلمته بالبلاد البحرية من بولاق إلى البغازين وصارت المراكب والرؤساء تحت حكمه، وضرب عليهم الضرايب والعوايد الشهرية والسنوية، وأنشأ الدواير الواسعة والبستان الكبير بشاطئ النيل، وكان عظيما جداً وعليه عدة سواق وغرس به أصناف النخيل والأشجار المتنوعة فكانت ثماره وفاكهته وعنبه تجتنى بطول السنة، وأحضرها لها الخولة من الشام ورشيد وغير ذلك، ولما وقعت الوقايع بين ذى الفقار بك ومحمد بك جركس المتقدم ذكرها، وحضر جركس بمن معه من اللموم إلى قرب المنشية، وخرجت إليه عساكر مصر وأرسلوا إلى سالم بن حبيب فجمع العربان وحضر بفرسانه وعبيده إلى ناحية الشيمى وحارب مع الأجناد المصرية حتى قتل سليمان بك فى المعركة، وولى جركس ورجعت التجريدة وتبعه سالم بن حبيب والأسباهية وذهبوا خلفه فعدى الشرق فعدوا خلفه، وطلعت تجريدة أخرى من مصر فتلاقوا معهم وتحاربوا مع محمد بك جركس فكانت بينهم وقعة عظيمة فكانت الهزيمة على جركس وحصل ماحصل من وقوع جركس فى الروبة وموته، ودفنوه بناحية شرونه كما تقدم، ورجع سالم (ص٨٣١) بن حبيب بما غنمه فى تلك الوقايع إلى

بلده واشتهر أمره واشترى السرارى البيض، ولم يزل حتى توفى سنة إحدى وخمسين ومابة وألف، وخلف ولدًا يسمى عليًا اشتهر أيضًا بالفروسية والنجابة والشجاعة، ولما مات سالم تراس عوضه أخوه سويلم في مشيخة نصف سعد، فسار بشهامة واشتهر ذكره، وعظم صيته، في الإقليم المصرى زيادة عن أخيه سالم، ووسع الدواوير والمجالس، ولما سافر الأمير عثمان بك الفقارى بالحج ورجع سنة إحدى وخمسين المذكورة، فأرسل هدية إلى سويلم المذكور وأرسل له الآخر التقادم، ثم إن الأمير عثمان بك تغير خاطره على سويلم لسبب من الأسباب فركب عليه على حين غفلة ليلا وتعالى به الدليل ونزل على دجوة طلوع الشمس، وكان الجاسوس سبق إليهم وعرّفهم بركوب الصنجق عليهم. فخرجوا من الدور وقفوا على ظهور خيولهم بالغيط بعيدا عن البلد، فلما حضر الصنجق ورمح على دورهم ورمى الطوايف بالرصاص فلم يجدوا أحدا، فلم يتعرض لهم بشى ومنع الغز والطوائف عن أخذ بشي، وبلغ خبر ركوب الصنجق عمر بك رضوان وإبراهيم بك فركبا خلفه حتى وصلا إليه وسلما عليه فعرّفهما أنه لم يجدهم بالبلد، فركب عمر بك وأخذ صحبته مملوكين فقط وسار نحو الغيط فرآهم واقفين على ظهور الخيل، فلما عاينوه وعرفوه نزلوا عن الخيل وسلموا عليه، فقال لهم. لأى شيء تهربون من أستاذكم؟ وعرفهم أنه أتى بقصد النزهة وأحضر صحبته على بن سالم فقابل به الأمير وقبل يده ورجع (ص٨٣٢) إلى دواره وأحضر أشياء كثيرة من أنواع المآكل حتى اكتفى الجميع، وعزموا عليهم تلك الليلة فبات الصنجق وباقى الأمراء وذبح لهم أغنامًا كثيرة وعجلين

جاموس وتعشى الجميع، وأخرجوا لهم فى الصباح شيئًا كثيرًا من أنواع الفطورات، ثم قدم لهم خيولا صافنات وركبوا ورجعوا إلى منازلهم.

ولما هرب إبراهيم بك قطامش فى أيام راغب محمد باشا وكان سويلم مركونًا عليه فجمع سويلم عرب بلىّ وضرب ناحية شبرا المعدية، فوصل الخبر إلى إبراهيم جاويش القازدغلى فأخذ فرمانًا بضرب ناحية دجوة والخروج من حق أولاد حبيب فعين عليهم ثلاثة صناجق؛ هم عثمان بك أبو سيف وأحمد بك كشك وآخر، ووصلتهم النذيرة بذلك فوزعوا دبشهم* وحريمهم فى البلاد وركبوا خيولهم ونزلوا فى الغيط ونزلت لهم التجريدة ومعهم الجبخانة والمحاربون وهجموا على البلد فوجدوها خالية ولما رأى الحبايبة كثرة التجريدة فوسعوا وذهبوا إلى ناحية الجبل الشرقى، وأرسل إبراهيم جاويش إلى عثمان بك أبى سيف أمير التجريدة بأنه ينادى فى البلاد عليهم ولم يدع أحدًا منهم ينزل الريف، فركب عثمان بك وطاف بالبلاد يتجسس عليهم، وظفر لهم بقومانية وذخيرة ذاهبة إليهم من الريف على الجمال فحجزها وأخذها وذلك مرتين، ورجع عثمان بك ومن معه إلى مصر وصحبتهم ماوجدوه للحبايبة فى البلاد من مواش وسكر وعسل وأخشاب، وهدموا جانبا من بيوتهم وكان على بن سالم لم يذهب مع سويلم إلى الجبل بل أخذ عياله وذهب عند أولاد فودة، فلما سمع (ص٨٣٣) بالتقريط على أصحاب الدرك فأتى إلى مصر ودخل إلى بيت إبراهيم جاويش وعرفه بنفسه وطلب منه الأمان فعفا عنه بشرط أن لايقرب دجوة ويسكن فى أى بلد شاء يزرع مثل الناس، ثم أن سويلمًا ومن معه أرسلوا إلى حسين بك الخشاب بأن

* دبشهم : بفتح الدال والباء هو أثاث منازلهم.

يأخذ لهم أمانا من إبراهيم جاويش ففعل وقبل شفاعة حسين بك بشرط إبطال حماية المراكب وأذية بلاد الناس، ويكفيهم الخفارة التى أخذوها بالقوة، واستخلص لهم المواشي التى كان جمعها عثمان بك أبو سيف، واستقر سويلم كما كان بدجوة، وبنى له دوّارا عظيما ومقاعد مرتفعة شاهقة فى العلو يحمل سقوفها عدة أعمدة وعليها بوايك مقوصرة ترى من مسافة بعيدة فى البر والبحر، وبها عدة مجالس ومخادع ولواوين وفسحات علوية وسفلية وجميعه مفروش بالبلاط الكَدّان*، وبنى بداخل ذلك الدوار مسجدا ومصلى وبداخل حوش الدوار مساطب ومضايف لأجناس الناس الافاقية وغيرهم، وبنى تحت ذلك الدوار بشاطئ النيل رصيفا متينا ومساطب يجلس عليها فى بعض الأوقات، وأنشأ عدة مراكب تسمى الخرجات ولها شرافات وقلوع عظيمة وعليها رجال غلاظ اشداد فإذا مرت بهم سفينة صاعدة أو حادرة صرخ عليها أوليك الرجال قايلين البر، فإن امتثلوا وحضروا أخذوا منهم ما أحبوه من حمل السفينة وبضايع التجار، وإن تلكأوا فى الحضور قاطعوا عليهم بالخرجات فى أسرع وقت وأحضروهم صاغرين، وأخذوا منهم أضعاف ماكان يؤخذ منهم لو حضروا طايعين من أول الأمر، وكان له قواعد وأغراض وركايز وأناس من الأمرا وأعوانهم بمصر يراسلهم ويهاديهم فيذبون عنه ولايسمعون فيه (ص٨٣٤) شكوى. وله عدة من العبيد السود النجارية الفرسان ملازمين له مع كل واحد حرمدان مقلد به ملآن بالدنانير الذهب وكان لايبيت فى داره وياتى فى الغالب بعد الثلث الأخير فيدخل إلى حريمه حصة ثم يخرج بعد الفجر فيعمل ديوانا ويحضر بين يديه عدة من

* الكَدّان: الحجارة الرخوة وهو غالبا الحجر الجيرى.

الكتبة ويتقدم إليه أرباب الحاجات مابين مشايخ بلاد وأجناد وملتزمين وعرب وفلاحين وغير ذلك والجميع وقوف بين يديه. والكتاب يكتبون الأوراق والمراسلات إلى النواحي، وغالب بلاد القليوبية والشرقية تحت حمايته وحماية أقاربه وأولاده ولهم فيها الشركا والزروع والدواوير الواسعة المعروفة بهم والمميزة عن غيرها بالعظم والضخامة، ولايقدر ملتزم ولاقايممقام على تنفيذ أمر مع ملاحيه إلا بإشارته أو بإشارة من البلد في حمايته من أقاربه؛ وكذلك مشايخ البلاد مع أستاذيهم وكان لهم طرايق وأوضاع في الملابس والمطاعم فيقول الناس «سرج حبايبي وشال حبايبي ومركوب حبايبي» إلى ذلك وكان مع شدة مراسه وقوة بأسه يكرم الضيفان ويحب العلماء وأرباب الفضايل ويأنس إليهم ويتكلم معهم في المسايل ويواسيهم ويهاديهم وخصوصًا أرباب المظاهر، واتفق أن الشيخ عبد الله الشبراوى أضافه فقدم له جملا، ولم يزل على ماذكرنا حتى جرد عليهم على بك، وهرب سويلم إلى البحيرة في السنة الماضية ثم جرد عليه في هذه السنة وعلى الهنادى، وقتل شيخ العرب سويلم وخمسة وأربعون شخصًا من الحبايبة وأتوا برأسه وعلقت بالرميلة ثلاثة أيام، (ص٨٣٥) وبقى من أولادهم خمسة وهم: سيد وأحمد وسالم ومحمد وأحمد فنزلوا على حكم إسماعيل بك إلى محمد بك فكلم على بك في ذلك وترضى خاطره فأمنهم بشرط أن لايسكنوا محلهم ولايكون لهم ذكر، وشتت قبيلتهم إلى أن عمّرهم مراد.بك تابع محمد بك أبي الدهب وترأس عليهم شيخ العرب أحمد بن على بن سويلم ولكن دون الحالة الأولى بكثير، ومن غير صولة ولامقارشة ولاتعد ولاخفارة، وكان إنسانا حسنا وجيها

محتشما مقتصراً على حاله وشأنه ملازما على قراءة الأوراد والمذاكـرة ويحب أهل الفـضل والصـلاح ليـتـبـرك بهم وبدعـائهم، وترددنا عليه وتردّد إلينا بمـصر كثيراً وبلونا منه خيـراً وحسن عـشرة، وكـان معـه أخـوه شيـخ العـرب محـمدعلى مثل حـاله ويزيد عنه الإنجماع عن الناس لغير مايعنيه ويعـانيه في خاصة نفسـه، وكان أبوهما على نزل بقليوب بدار فيحاء، وكـان حسن الخلق والخلق وله حشم وأتباع كثيرة وله هيبة عندهم، وكان طيب السيرة فصيحا مفوها في حفظه أشعار ونوادر ولديه معرفة، وكـان يفـهم المعنى ويحقق الألفاظ ويطالع الكتب ومقـامات الحـريرى ونحو ذلك.

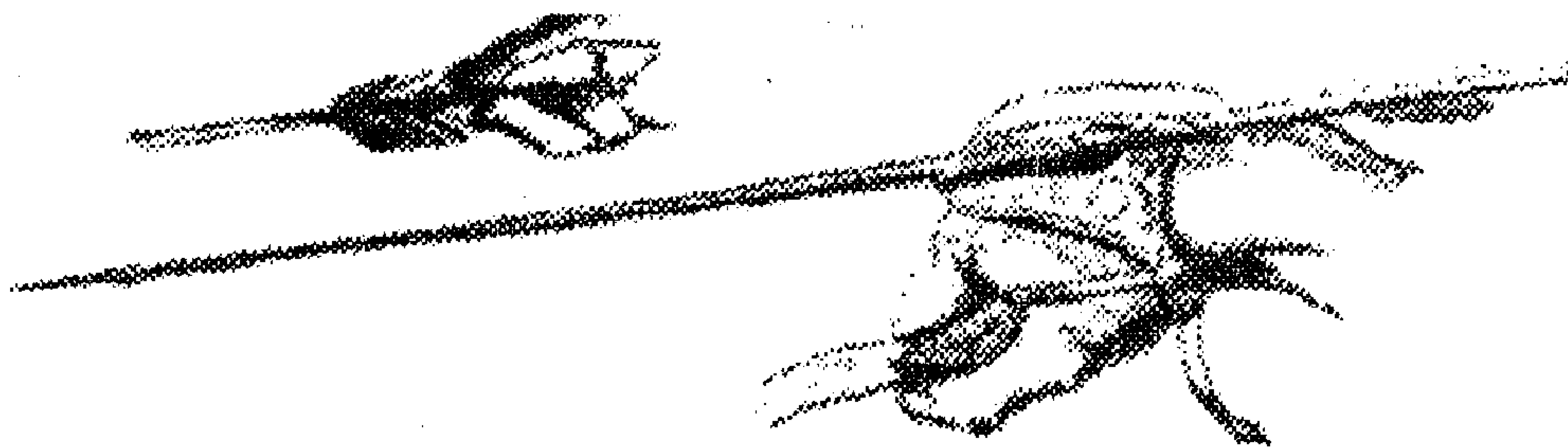
[ومات] الأمير المبجل على كتـخدا مستحفظان الخربطلى، وهو من مماليك أحمد كتـخدا الخربطلى. الذى جدد جامع الفاكهانى الذى بخط العقادين وصرف عليه من ماله ماية كيس وذلك فى سنة ثمان وأربعين ومـاية وألف، وأصله من أبناء الفـايز بالله الفـاطمى، وكـان إتمامـه (ص٨٣٦) فى حادى عـشر شوال من السنة المذكورة، وكان المباشر على عمارته عثمان جلبى شيخ طايفة العقادين الرومى، وفى تلك السنة ألبس مملوكه المترجم على أوده باشه الضلمة وجعله ناظرا ووصيا، ومات سيده فى واقعة محمد بك الدفتردار فى جملة الأحد عشر أميرا المتقدم بيانهم، وعمل جاويش فى الباب ثم عـمل كتـخدا، واشتـهر ذكره بعد انقـضاءدولة عثـمان بك الفقارى واستقلال إبراهيم كتـخدا ورضـوان كتـخدا الجلفى بإمارة مصر، وزوج ابنته لعلى بك الغزاوى وعمل لها فرحًا عظيما ببركة الرطلى عدة أيام كانت من

٣٢٥ على كتخدا مستحفظان الخربطلى

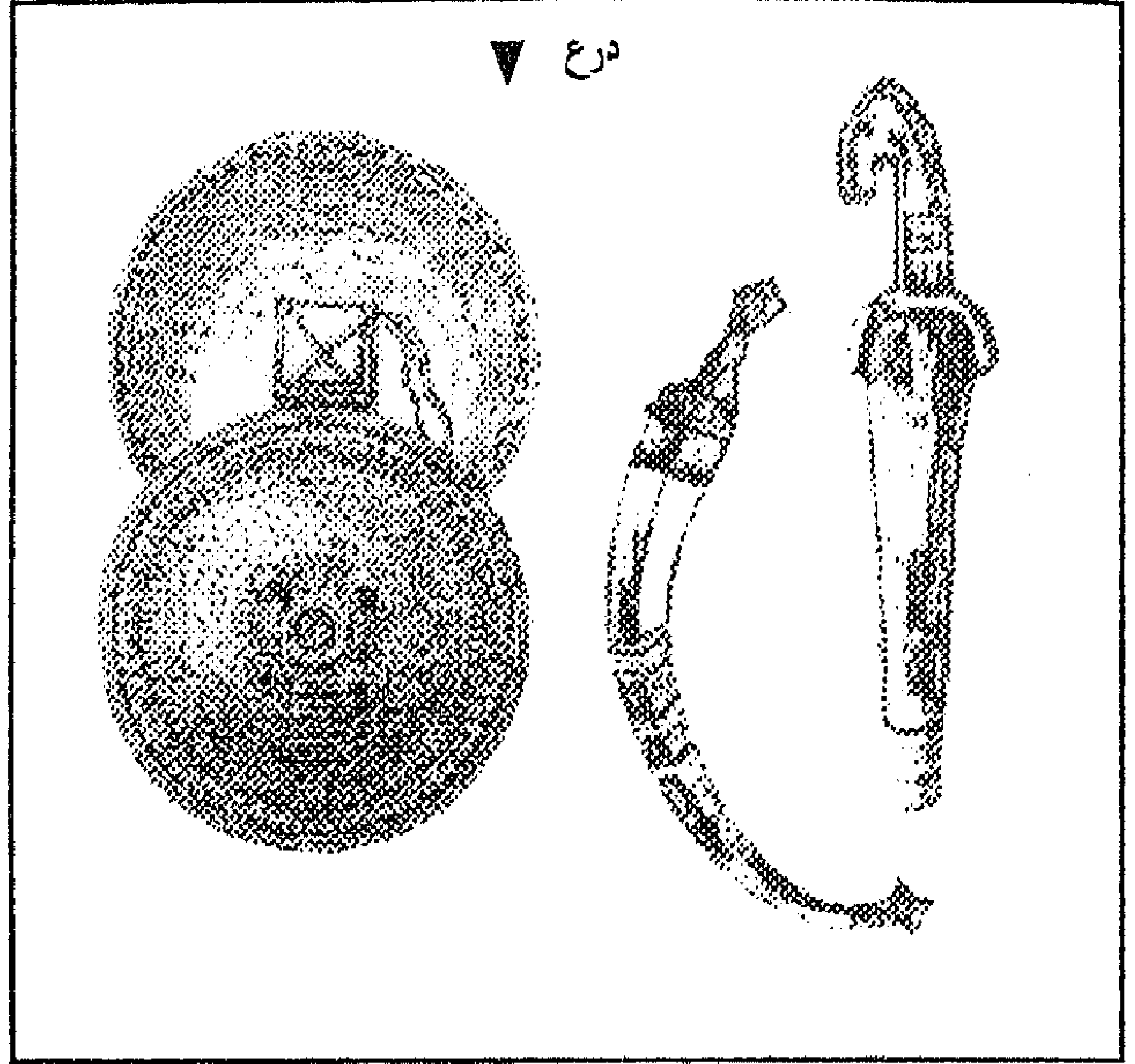
مقترحات مصر، وبعد انقضاء أيام الفرح زفت العروس فى زفة عظيمة اجتمع العالم من الرجال والنساء والصبيان للفرجة عليها، ودَخل بها على بك المذكور وولد منها حسن جلبى المشهور، وأنشأ على كتخدا المترجم داره العظيمة برأس عطفة خشقدم جهة الباطلية وداره المطلة على بركة الرطلى والقصر على الخليج الناصرى والقباب المعروفة به وغير ذلك، ونفاه على بك إلى جهة قبلى كما تقدم، فلما ذهب على بك إلى قبلى صالحه وانضوى إليه وكان هو السفير بينه وبين صالح بك فى الصلح، وبذل جهده فى ذلك هو وخليل بك الأسيوطى حتى أتموه على الوجه المتقدم، وحضر صحبة على بك إلى مصر وسكن بداره وأقبلت عليه الناس وقصدوه فى الدعاوى والشكاوى، وأمن جانب على بك واعتقد صداقته وظن أنه قلده منته فلم يلبث إلا أيامًا وأخرجه منفيا إلى رشيد، ثم أرسل من خنقه هناك، (ص٨٣٧) وكان أميرا جليلا وجيهًا جميل الصورة واسع العينين أبيض اللحية ضخمًا مهاب الشكل بهى الطلعة، ودفن هناك.

٣٢٦ محمد بك ابو شنب.

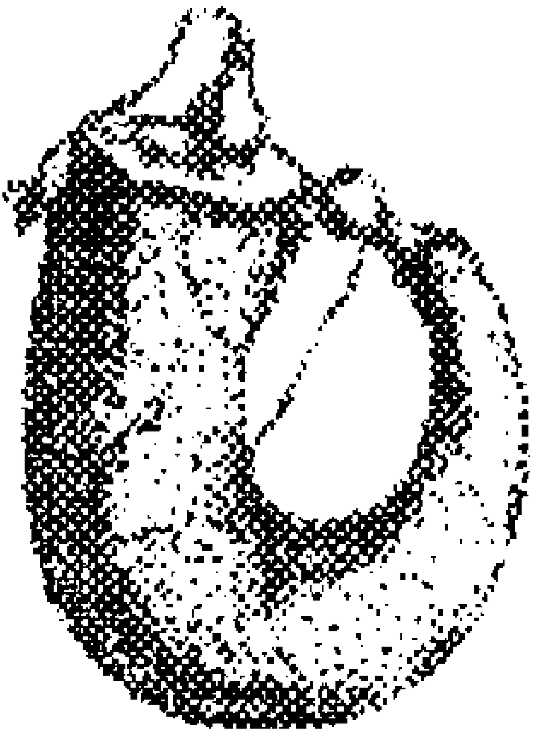
[ومات] الأمير محمد بك أبو شنب، وهو من مماليك على بك، وقتل فى معركة أسيوط كما تقدم، ودفن هناك، وكان من الشجعان المعروفين.



١١٨٤هـ.
١٤٨٦ ق.
١٧٧٠ م.
غاية الفيضان
١٦ قيراط ـ ٢٣ ذراع
□ فيها تولى مصر قرا خليل باشا.
□ وفيها ابتدا القحط والشدة بمصر بسبب المصاريف المتسببة عن الحروب التى أقامها على بك ومحمد بك أبو الدهب، فإن تجريدة مكة تكلفت ٢٦ مليون فرنك.
□ فيها ١ توت ١٤٨٧ = ٩ سبتمبر ١٧٧٠ = الأحد ١٨ جماد أول سنة ١١٨٤.
□ فيها انتصرت الروسيا على الأتراك
□ ١ يناير سنة ١٧٧١ = ٢٥ كيهك سنة ١٤٨٧ = الاثنين ١٣ رمضان سنة ١١٨٤.
□ فيها كان انقسام بولونيا الأول بين روسيا وبروسيا واوستوريا.



بندقية وبارودها



سنة أربع وثمانين ومايه وألف [١٧٧٠م]

فيها ورد على على بك الشريف عبد الله من أشراف مكة، وكان من أمره أنه وقع بينه وبين ابن عمه الشريف أحمد أخى الشريف مساعد منازعة فى إمارة مكة بعد وفاة الشريف مساعد، فتغلب عليه الشريف أحمد واستقل بالإمارة، وخرج الشريف عبد الله هاربا وذهب إلى ملك الروم* واستنجد به، فكتب مكاتبات لعلى بك بالمعونة والوصية والقيام معه، وحضر إلى مصر بتلك المكاتبات فى السنة الماضية، وكان على بك مشتغلا بتمهيد القطر المصرى ووافق ذلك غرضه الباطنى وهو مطمعه فى الاستيلاء على

* حملة على بك على الحجاز بقيادة محمد بك أبو الدهب.

* يقصد بملك الروم السلطان العثمانى. وقد حدث هنا خلط عند الجبرتى فى أسماء الاشراف، فمن المعروف حسبما ذكر «ابن دحلان» فى كتابه «تاريخ الدول الاسلامية

المسالك فأنزله في مكان وأكرمه ورتب له كفايته، وأقام بمصر حتى تمم أغراضه بالقطر وخلص له قبلي وبحرى، وقتل من قتله وأخرج من أخرجه، فالتفت عند ذلك إلى مقاصده البعيدة وأمر بتجهيز الذخاير والإقامات وعمل البقسماط الكثير حتى ملوا منه المخازن ببولاق ومصر القديمة والقصور البرانية وبيوت الأمراء المنافى الخالية، ثم عبوا ذلك وأرسل مع باقي الاحتياجات واللوازم من الدقيق والسمن والزيت والعسل والسكر والأجبان في البر والبحر، واستكتب أصناف العساكر أتراكا ومغاربة (ص٨٣٨) وشواما ومتاولة* ودروزا وحضارمة ويمانية وسودانا وحبوشا ودلاة وغير ذلك، وأرسل منهم طوايف في المقدمات والمشاة أنزلوهم من القلزم في المراكب وصحبتهم الجبخانات والمدافع وآلات الحرب، وخرجت التجريدة في شهر صفر بعد دخول الحجاج في تجمل زايد ومهيا عظيم وسارى عسكرها محمد بك أبو الذهب وصحبته حسن بك ومصطفى بك وخلافهم.

وفي ثاني وعشرين ربيع الأول وردت الأخبار من الأقطار الحجازية بوقوع حرابة * عظيمة بين المصريين وعرب الينبع وخلافهم من قبايل العربان والأشراف ووقعت الهزيمة على المذكورين وانتصر عليهم المصريون، وقتل وزير الينبع المتولى من طرف شريف مكة وقتل معه خلايق كثيرة.

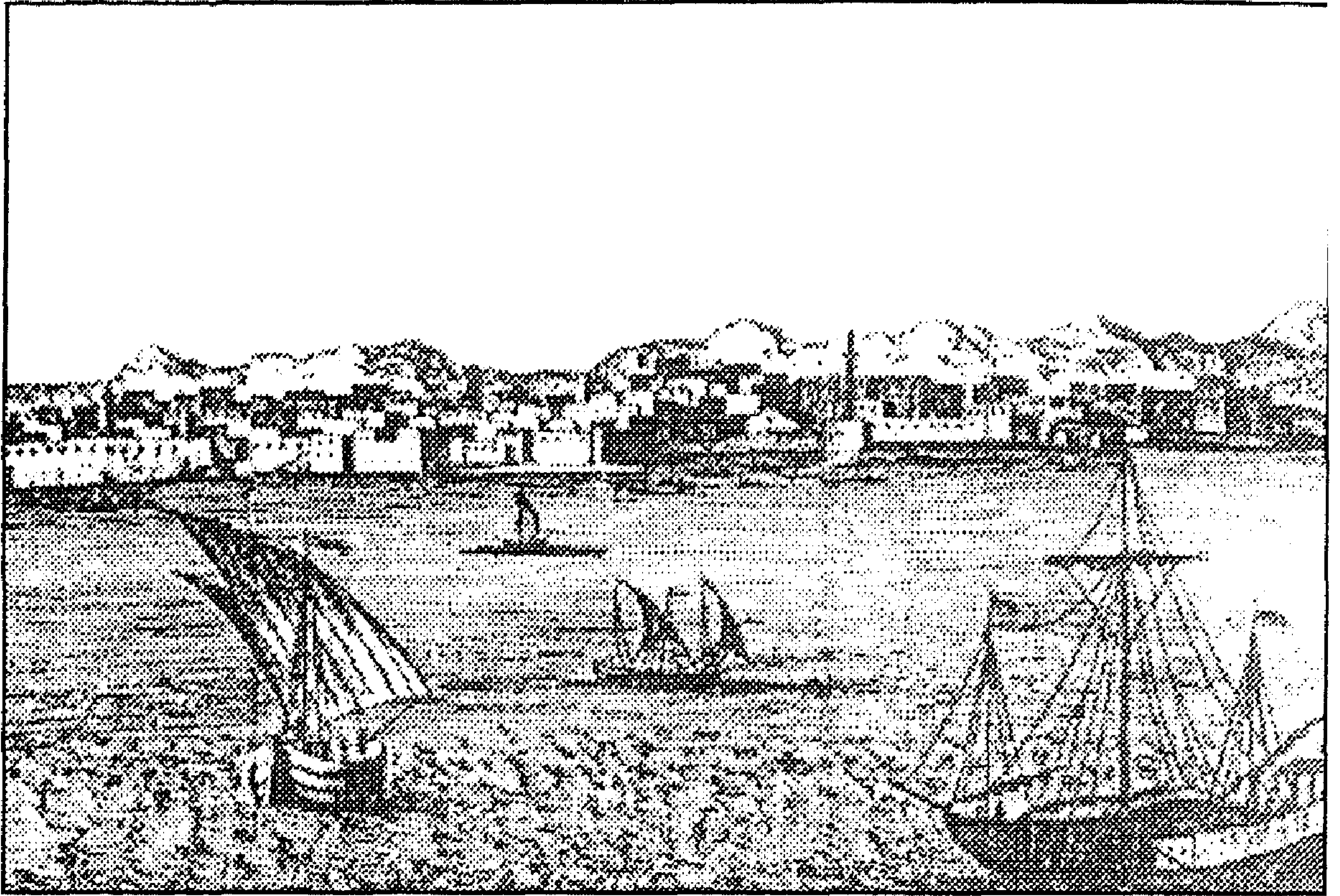
وفي تاسع من شهر ربيع الآخر وصل نجاب* إلى مصر من الديار الحجازية وأخبر بدخول محمد بك ومن معه إلى مكة، وانهزام الشريف أحمد وخروجه هاربا. ونهب المصريون دار الشريف ومن يلوذ به وأخذوا منها أشياء كثيرة من أمتعة وجواهر وأموال لها قدر، وجلس الشريف عبد الله في إمارة

بالجداول الرضية، المشهور باسم تاريخ ابن دحلان ص ٢٠٠ وما بعدها، أن الشريف مساعد توفي يوم الاربعاء لثلاث بقين من شهر المحرم سنة أربع وثمانين ومائة وألف، وكانت ولايته تسع عشر سنة إلا ثلاث اشهر، بينما يذكر الجبرتي هنا انه توفى عام ١١٨٣هـ، وعبد الله المذكور هنا هو عبد الله بن حسين من آل بركات وليس الشريف عبد الله. انظر المقدمة.

* متاولة: هم شيعة بلاد الشام وقد ذكر الجبرتي هنا انه خرج مع محمد بك ابو الذهب، حسن بك ومصطفى بك، وصحة الاسم الاخير اسماعيل بك. انظر المقدمة.

* القضاء على بدو الاشراف في البقيع.

* نجاب: الرسول، وهو يصل غالبا عن طريق البر.



مكة، ونزل حسن بك إلى بندر جدة وتولى إمارتها عوضا عن الباشا الذى تولاها من طرف ملك الروم؛ ووصلت الأخبار والبشائر بذلك وأرسلت إليه الملاقاة بالعقبة وخلافها، فلما ورد الخبر بوصوله إلى العقبة خرجت الأمرا إلى بركة الحاج والدار الحمرا لانتظار قدومه فوصل فى أواخر شهر رجب ودخل إلى مصر (ص٨٣٩) فى ثامنه فى موكب عظيم، وأتت إليه العلما والأعيان للسلام وقصدته الشعراء بالقصايد والتهانى.

وفى منتصف رجب المذكور عزل على بك عبد الرحمن أغا مستحفظان وقلد عوضه أغا الوالى، وقلد عوض الوالى موسى* أغا من أتباعه، وأمر عبد الرحمن أغا بالسفر إلى ناحية غزة وهى أول حركاته إلى جهة الشام، وأمر بقتل سليط

* أول حملات على بك إلى الشام.

شيخ عربان غزة، فلم يزل يتحيل عليه حتى قتله هو وإخوته وأولاده ، وكان سليط هذا من العصاة العتاة له سير وأخبار .

وفيه زاد اهتمام على بك بالتحرك على جهة الشام واستكثر من جميع طوايف العسكر ، وعمل البقسماط والبارود والذخاير والمون وآلات الحرب، وأمر بسفر تجريدة واميرها اسماعيل بك وصحبته على بك الطنطاوى وعلى بك الحبشي، فبرزوا إلى جهة العادلية وخرجوا بما معهم من طوايف العسكر والمماليك والأحمال والمطابخ والجبخانات والعربات والضوية * وقرب الماء الكثيرة على الجمال، والكرارات والمطابخ والطبول والزمور والنقاقير وغير ذلك، فلما تكامل خروجهم أقاموا بالعادلية * أياما حتى قضوا لوازمهم وارتحلوا وسافروا إلى جهة الشام.

وفى حادى عشرينه برزت تجريدة أخرى وعليها سليمان بك وعمر كاشف وجملة كثيرة من العساكر فنزلوا من طريق البحر على دمياط.

وفى عاشر شهر القعدة وردت أخبار من جهة الشام وأشيع وقوع حرابات بينهم وبين حكام الشام وأولاد العظم.

وفى منتصفه خرجت تجريدة أخرى وسافرت (ص٨٤٠) على طريق البر على النسق السابق.

(وفى سابع عشر) طلب على بك حسن أغا تابع الوكيل والروزنامجى وباش قلفة وإسماعيل أغا الزعيم وآخرين وصادرهم فى نحو أربعماية كيس بعد ما عوقوهم أياما.

[وفى أواخره] عمل على بك دراهم على القرى وقرر على كل بلد ماية ريال وثلاثة ريال حق طريق؛ فضجت الناس من ذلك، وطلب من النصارى والقبط ماية ألف ريال، ومن اليهود أربعين ألفا وقبضت جميعها فى أسرع وقت.

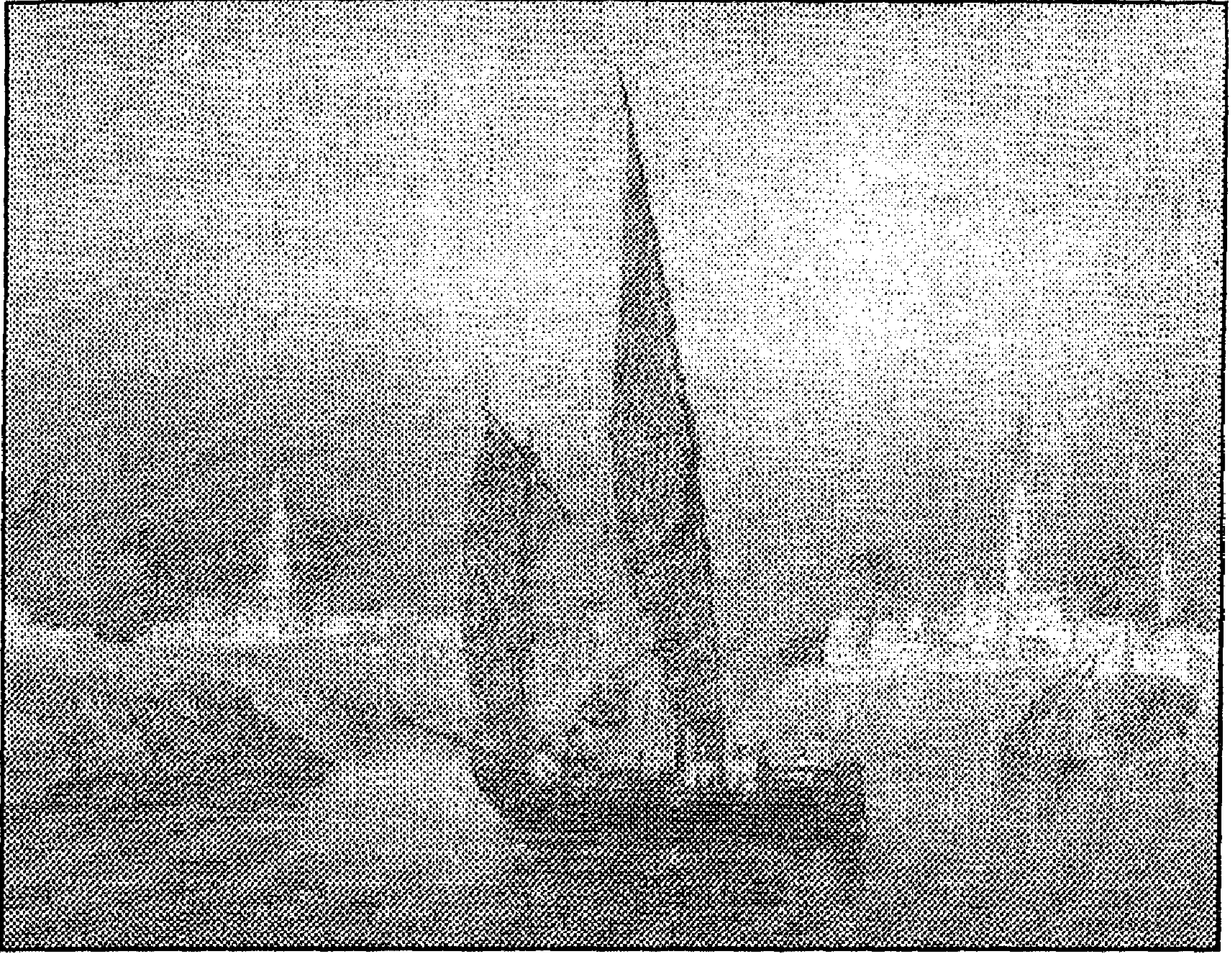
* الضوية: حملة المشاعل والمصابيح.

* العادلية: بالشرقية . كانت محطة تاريخية على طريق المتجه للشام أو القادم منها لمصر.

[مات] الشيخ العمدة الفاضل الكامل الأديب الماهر الناظم الناثر الشيخ عبد الله بن سلامة الإدكاوى المصرى الشافعى الشهير بالمؤذن، ولد بإدكو وهى قرية قرب رشيد سنة أربع وماية وألف كما أخبر من لفظه ، بها حفظ القرآن وورد إلى مصر، فحضر دروس علماء مصر وأدرك الطبقة الأولى، واشتهر بفن الأدب وانضوى إلى فخر الأدباءفى عصره السيد على أفندى برهان زاده نقيب السادة الأشراف، فأنزله عنده فى إكرام واحتفل به وكفاه المؤنة من كل وجه، وصار يعاطيه كؤوس الآداب، ويصافيه بمطارحة أشهى من ارتشاف الرضاب، وحج بصحبته بيت الله الحرام، وزار قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، وذلك سنة سبع وأربعين وماية وألف، وعاد إلى مصر وأقبل على تحصيل الفنون الأدبية فنظم ونثر ومهر وبهر، ورحل إلى رشيد وفوة* والاسكندرية مرارا، واجتمع على أعيان كل منها وطارحهم ومدحهم، وفى سنة تسع وثمانين رأيت من نظمه بيتين بخطه فى جدار (ص٨٤١) جامع ابن نصر بفوه تاريخ كتابتها سنة خمس وأربعين، وبعد وفاة السيد النقيب تزوج وصار صاحب عيال وتنقلت به الأحوال وصار يتأسف على ما سلف من عيشة الماضى فى ظل ذلك السيد قدس سره، فلجأ إلى أستاذ عصره الشيخ الشبراوى ولازمه واعتنى به وصار لا ينفك عنه ومدحه بغرر قصايده ، فحصلت له العناية والإعانة، وواساه بما حصلت به الكفاية والصيانة، وله تصانيف كلها غرر، ونظم نظامه عقود الدرر، فمنها الدرة الفريدة والمنح الربانية فى تفسير آيات الحكم العرفانية ، والقصيدة اللازردية فى مدح خير البرية ، ألفها لعلى باشا الحكيم، ومختصر شرح بانت سعاد

* ٣٢٧ عبد الله بن سلامة الادكاوى.

* فوه : أحد مراكز محافظ كفر الشيخ.



▲ منظر لمدينة فوه من النيل.

للسيوطي ، والفوايح الجنانية في المدايح الرضوانية، جمع فيها أشعار المادحين للمذكور، ثم أورد في خاتمها ماله من الأمداح فيه نظما ونثرا، وهداية المنهومين في كذب المنجمين، والنزهة الزهية بتضمين الرحبية، نقلها من الفرايض إلى الغزل، وعقود الدرر في أوزان الأبحر الستة عشر، التزم في كل بيت منها الاقتباسات الشريفة، والدر الثمين في محاسن التضمين، وبضاعة الأريب في شعر الغريب، وذيلها بذيل يحكي دمية القصر، وله المقامة التصحيفية والمقامة القمرية في المجون ، وله تخميس بانت سعاد وصدرها بخطبة بديعة وجعلها تأليفا مستقلا. وديوانه المشهور (ص٨٤٢) على حروف التهجي وغير ذلك. وقد كتب بخطه الفايق كثيرا من الكتب الكبار ودواوين الأشعار، وكمل عدة أشياء من غرايب الأسفار رأيت من ذلك كثيرا،

وقاعدة خطه بين أهل مصر مشهورة لا تخفى ، ورأيت مما كتب كثيرا، فمن الدواوين: ديوان حسان رضى الله عنه رأيته بخطه وقد أبدع فى تنميقه وكتب على حواشيه شرح الألفاظ الغريبة، ونزهة الألباب، الجامع لفنون الآداب، وله مطارحات لطيفة مع شعراء عصره، والواردين على مصر، ولم يزل على حاله حتى صار أوحد زمانه، وفريد عصره وأوانه، ولما توفى الأستاذ الحفنى اضمحل حاله، ولعب بلباله، واعترته الأمراض ونضب روض عزه وغاض، وتعلل مدة أيام، حتى وافاه الحمام، فى نهار الخميس خامس جمادى الأولى من السنة، وأخرج بصباحه، وصلى عليه بالأزهر، ودفن بالمجاورين قرب تربة الشيخ الحفنى، ومما اخترته من شعره قوله متوسلا بالنبى صلى الله عليه وسلم:

يارب بالهادى الشفيع محمد
من قد بدا هذا الوجود لأجله
وبآله الأمجاد ثم بصحبة الـ
أخيار يا مغنى الورى من فضله
كن لى معينا فى معادى واكفنى
هم المعاش وما أرى من ثقله
واستر بفضلك زلتى واغفر بعد
لك سيئتى واشف الحشا من غله

(ص٨٤٣) ـ (وله):

سل اللـه ذا الَمنِّ العظيم ولاتَسَلْ
سواهُ فإن اللهَ يعطيكَ ما تبْغى
ومهما تَنَلْ ما رمته ياأخا الحجا
من الأمَل المطلوب فاقنع ولا تَبغى

* وجد بهامش بعض النسخ ما نصه: وقد رثاه الشيخ على الشرقاوى بقوله:

إن الادكاوى فاقا بفنون الشعر حده
كان فى الفن إماما منجزا فى الفضل وعده
ولقد مات فارخ مات أس الشعر بعده

وله فى آل البيت وفيه اقتباس:

آل طــه يــا أُولــى كــلّ هُــدى
نـزلَ الـقــرآنُ فى تـطهــيــركُمْ
نـوركـم يـجـلـو دجــــا كـل عـنـا
انـظـرونـا نـقــتــبس مـن نـوركـم

ومن غرر صنايعه النوع المخترع المسمى بوسع الاطلاع وقد قسمه إلى أربعة أقسام: الأول أن يكون أول كل كلمة أولاً لأختها (وفيه قوله):

بــهــى بــدا بــالــوَصْــلِ
بــزَوْرَتِــه بــانَــتْ بــلابُــل بــالــه

الثانى : حرف عاطل وحرف منقوط سوى القافية (وفيه قوله):

جــمــيل بديع جل ذاتا بهــيــه
به زدت حــبّــا فــاتك بمجــاله

الثالث : كلمة منقوطة وكلمة عاطلة ويسمى الأخيف (وفيه قوله):

جُنِنْتُ وُلوعًا فى هواه، شُغِفْتُ، كم
فُتِنْتُ عــســاه يُجتنَى لكمــاله

الرابع : جميع الكلمات منقوطة (فيه قوله):

شــفــيق شــقــيقٌ شَنبٌ شَــفَى
بغُنْجٍ، بجَــفْن شَــفَّنِى بنبــاله

له فيــمـا لا يستحيل بالانعكاس* بانعكاس قــولنا لم ينْعكِسْ: (ص٨٤٤)

* أى يقرأ طردا وعكسا

الْغ مَنْ نَمَّ فمن نم غلا

وله فيه أيضا:

ارع لخـلٍ إن أســـــــــــــا

وأسَ إنِ الخـلُّ عـَــــــــــــرا

ارثِ لـمـنْ مـلَّ قـــــــــــلاً

والْـقِ لـمـنْ مَـلَّ ثـــرا

ارْمِ عـــدُواً ذا حـــمَــــــا

وامـحُ أذًا وَدِعْ مـــــــــــرا

وله فيه أيضا:

صـــديقى فى الأنام حليف حلم

عليــه الجهلُ حــتمــا لا يُحُــومُ

منتـــه* تـــنــم* لهـجــو ذا

م اذ وجـهـل مـننتـه* تـــنــم

* منتة: صفته

* تنيم: تقتل

وله فى وسع الاطلاع، وهو أن الحرف الذى تختـتم به الكلمة تبتدأ به الكلمة التى بعدها إلى آخر قوله:

تأمَّلُ لما أبداهُ هذا المُهـفْـهَف

فـريدُ دلالٍ لا انفـصـال لحسنه

هَنَاىَ يؤاتى يومَ مَـولْاى يُسـعفُ

حـبـيب بهى يوم مَلْقاهَ هَنّنى

يمينـا إذا ألقـــاه همّى يُكْشَفُ

بـه هام مــثلى يا أخــلاء آية

تمنواْ إذا أمُّوا الحـمى يتـعطفُ

وكم ملكوه هائمين نفـوسـهم

مـــرامُــــهُـمُ مِنهم هبَـــاتٌ تؤلف

رشـــــاَ أتمنّى يـصطفـــــينى يودنى

يـواصلـنى يـومــــــــا إذا اَتَلَـهَّـفُ

فـينعم متـعوب برّته همومُه(ص٨٤٥)

هُيـــــامى* ينادى يا مـــيلحــا أتعطف

فـــــزادَ دَلالا إذ ذكــــــرت تَعطّفًــــا

أظلما إذا أصبحت تسخو وتُسْعِفُ

(وله فى النوع المسمى بالعود):

دلالـــــة بــــولاة الحـــب زاد فـــلــــو

قد عاد بالقرب ياصحبى شفى سقمى

دلاله زاد صـــــحـــبى بالقـــــرب زاد دلاله

وصـــــاله طَبٌ لبى لو يعــــود عـــسى

بالوصل يحـــسم دائى بل يصـــون دمى

وصـــــاله طب دائى عــــسى يعــــود وصــــاله

نبـــاله قــد أبادت عــاشــقــيــه فكم

عـــادت بهم نافــذات العــود فــانتــقم

نبـــــاله نافـــــذات فكم أصـــــابت نبـــــاله

قـــتـــاله فى الرعــــايا لا يطاق فـــلا

تهـزا فـقـد عـاد جـدا ذاك فـاعـتـصم

قـــتـــاله فى الرعـــايا فـــلا يطاق قـــتــــاله

وله فى بناء مسجد الشيخ مطهر بيت تأريخ:

إنما يعـــــمــــــر المســــاجــــد من آ

من بـالـلـه مــــــوقـنـا بـالمفــــــاز

(وله تشطير ذالية ظافر الحداد)

لو كـــان بالصـــبــر الجـمـــيل مــلاذ

* الهيام بضم الهاء : الجنون من العشق

مـــا ضل عنه هجـــوعـــه ولذاذه

خـــلا ولولا برق ثغـــر جـــبـــينه

مـــــاسح وابل جـــــفنه ورذاذه

إلى أخر ها وله من قصيدة يمدح بها بعض أمراء مصر ويهنيه بعام أربع وستين فيها تاريخ، كل مصراع منه تاريخ على حدته، ومنقوط المصراعين تاريخ ومهملهما (ص٨٤٦) تاريخ، ومنقوط الأول مع مهمل الثانى تاريخ وبالعكس، فالجملة ستة تواريخ فى البيت الواحد مطلعها:

سلوه عن جـــفنىَ مـــا أرّقـــه

وخـــاطرى المشـــغـــوفِ من شـــوْقـــه

«وبيت التاريخ»

عـــام بكم فـــرقـــد إشـــراقـــه

بســـوحكم راق فـــمـــا أشـــرقـــه

(وله):

وافى المحب إليكم يرجـــو اللقـــا

كم مـــرة فـــأبى قـــضـــاء الله

فلئن مننتم بالتـــــلاقى مـــرة

ألبـــســـتـــمـــوه حلة المتـــبـــاهى

وكان فى مجلس وفيه أعيان الكتاب من الخطاطين فطلب منه وصفهم فقال:

انظر لمجلس ذا الكتـــاب تلقـــهم

مثل النجـوم التى يسـرى بهـا السـارى

قـد أحـرزوا قـصب الأرقـام واقـتطفـوا

جنى حـــروف لقـــد زينت بأســـفـــار
مـــا منهم من يرى يومـــا يراعـــتـــه
إلا وقـــيل له مـــا أحكم البـــارى
(له مؤرخا عذار محبوب):
يارعى اللـه دهـر أنس تـقـــضى
بك يا أيهـــا الظريف الشـــمـــايل
حـــيث ورد الخـــدود زاه نـضـــيـــر
مـشـمـر بالجـمـــال ياغـصن مـايل
(٨٤٧ص) ولى الدهر ماسعيت مطيع
مـــســـعـــدات بكوره والأصـــايل
إن أقل آمـــرا أجـــاب وحظى
بتـــمليك فى حلى الســـعـــد رافل
مـذ تبـــدى مـــسلسـلاً آسُ خـــديـ
ـــك وأمـــــــــسى لماء وردك ناهـل
ملّ عـنـى ظـنـا بـأنـى ســـــــالٍ
مع أن الحـــشـــا بحـــبك ذاهـل
قـــال مـــا ملت عنك لكنّ مـــالا
تشـــتـــهـــيـــه بدا فـــمـــا أنت فـــاعـل
لت يامنيـــتى خـــدودك أضـــحت
جنة تجـــذب الحـــشـــا بســـلاسـل
قـــال إيه شَـــبِّـــه عـــذارى وأرخ
قلت مـــسك للورد قـــد جـــاء ســـايل

«وله وهو منقول من معنى فارسى»:
شكا لى أهل الكيف شهـر الصـيـام إذ
أتى ودم الأجـــفـــان قـــد ســـفـــحـــوه

فقلت لهم ياقوم إن جاء نحوكم
يطالبكم بالصوم فيه كلوه

(وله أيضا):

جلس الرقيب حذاء آ
سِ الخد فى الوجه البديع
فكأنه برد العجو
زْ مقابلٌ فصل الربيع

(وله مستعطفا):

ياسيدى بقديم ود بيننا
بحديثنا الممزوج بالسراء
بسميك الكرار قصر مد هـ
ـذا الصد واحفظ صحبتي وإخائى
فالصبر عنى قد نأى والشوق
منى قد دنا وتشتت آرائى
وجفاك قد هد القوى ونواك قد
أضنى الحشا وعلى يديك شفائى
ووحق ما لاقيته أنا ذلك الـ
ـخل الوفى وإن أطلت جفائى
والذنب ذنبى فاعف عن يسيدى
فالعفو شأنُ السادة الكرماء

(له):

ليت شعرى ماذا تقولون فى حِبٍّ مغرىً بكم لا ينام

(وله فى المواعظ):

ليت شـــعـــرى إذا دنا يارفـــاقى
أجلى ثم هيــــئـــوا لى ترابى
واغـــتـــدوا بى إلى مـــحل به صـــحـ
ـــبى جـــفـــونى وليس يرجى إيابى
هل إذا غـــربلوا التـــراب أيلقـــوا
ذرة من عظمى فـــيـــا لمصـــابى
ويح هذى الدنيا التى تحرق الأكبا(ص٨٤٩)
دَ قـــد مـــزقت بلحـــدى إهابى
وبذاك القـــفـــر اغـــتـــديت رهينا
ليس لى من زاد ولا من ركـــاب
فـــإذا رمت يادغـــســـتـــان تدرى
شـــقـــوة من ســـعـــادة فى المآب
فـــانظرْه مـــا خطّت يمينك فى لو
حك لما تأتى غـــدا للحـــســـاب

(وقال لأمر اقتضى):
وعـــصـــبـــة ســـوء تجـــافـــيـــتـــهم
ونـــزهـــت نـــفـــســـى عـــن دائـــهـــم
لحـــانى قـــوم عـــلى تركـــهـــم
وقـــالوا ألست من أكـــفـــائـــهـم
فـــقـــلت لـــهـم عـــذرنا واضـــح
على ترك ســـاحـــة أحـــيـــائهـم
فـــنحـــن نعـــيـــش بأقـــلامنا
وهـــم عـــائشـــون بأقـــفـــائـــهم

(وقال فى الرد على المنجمين):

الله يعلم مـــا يكون ومــــا بـه
تسرى الرياح ومـاله يجـرى الفلك
فــدع المنجم في ضـــلالتــه ومـا
ينبـيك عنه فـفي مـقـالتــه أفك*
واحـذر تصـدقـه فـتـهلك جـاهلا
يامـدعى الإيمان فـيـمن قـد هلك
علم الإله مـــحـــجب إلا على
من يرتضـيــه من رســول أو ملك
هذا اعـــتـــقـادى والذى ألقى به
ربى لأسلك ناجـيـــا مع من سلك
ثم الـصـــــلاة على النبى وآله
والصحب ماانشق الضـياء من الحلك

* أفك: بفتح الهمزة والفاء بمعنى كذب.

وأنشده بعض أدباء الروم تاريخا بالتركية يخرج منه ستة تواريخ وزعم أن شعراء العرب لايحسنون مثل ذلك فعمل تلك الليلة قوله وهو أول ما عمل من هذا النوع:

عـــام جـــديد بالهنا مــقـبل
وكل خــيـــر ذكـــره يؤثر
أتى لنا أهلا وســهـــلا به
ربى أنلنا فـيـــه مـــا يجـبـر
قـــال لى الوقت وقــد راق من
منـهـلـه المورد والمصــــدر
صـــفــــه بمدح رائق لائق
فـهــو بما تمدحــه يشــهـر
على لســانى قلت أرخــتــه
في بيت شـعـر حـسن يذكـر

إبان عـــامي روحـــه يشـــمـــر
ووعـــد مـــثلي نوره يبـــهـــر

فكل مصراع تاريخ، ومهمل المصراع الأول مع مهمل الثاني تاريخ، ومنقوط الأول مع منقوط الثاني تاريخ، ومهمل الأول مع منقوط الثاني تاريخ، وعكسه فليعلم.

وله تشطير على لامية ابن الوردى مشهور. (ص١٥٨) وله في الزهديات:

اللـه ربي لا شـــريك لـه ولا
نـد ولا ضـــد ولا أعـــوان
يقـضي ويفـعل مـا يشـاء كـمـاله
سـبـحـانه في كـل يوم شـان

(وله تخميس بيتي الرقمتين):

وحـــوراء النواظر أســـهـــرتني
ليـــالي هجـــرها بل حـــيـــرتني
ومـــذ حـــصل الوفـــاء وبشـــرتني
رأت قـــمـــر الســـمـــاء فـــأذكـــرتني
ليـــالي وصلهـــا بالرقـــمـــتين
وأبدت لي شـــمـــائلهـــا الفـــواتن
ووجـــهـــا نيـــرا للبـــدر فـــاتن
وقـــالت لي وخـــوفي صـــار آمن
كـــلانا نـاظـرقـــمـــرا ولكن
رأيت بعـــينهـــا ورأت بعـــيني

وقال:

لـم أقـل قـــــد نـام حـظـى إنمـا
نام أهل الحظ فى وقت انتـبـــاهه
لـكـن الـلـه تـعـــالـى قـــادر
فى بقـــائى فى تـوليـــه وجـــاهه

وقال فى تضمين المصراع الأخير الفارسى:
وخـــود* من بنات الفـــرس ألقت
مـحـبـتـهـا لهـيـبـا فى حـشـائى
وقـــد ملكتـــهـــا رقى وحلت
مــحلّ الســرّ منىّ والوفـــاء
تعـاملنى بما يسبى فـؤادى(ص٢٥٨)
وتمـنـحـنـى ســروراً بـاللـقـــاء
سطا فـينا النوى فـأتيـتـهـا كى
أمـــتع ناظرى قـــبـل التـنائى
وقـــالت لى وقـــد أذرفت دمـــوعـا
على الخـــد المكلل بالبـــهـــاء
بألفـــاظ تحـــاكى عـــقـــد در
جـــه بودى كـــرنبـــودى آشنائى*

*الخود : بفتح الخاء وسكون الواو الحسنة الخلق الشابة أو الناعمة.

*جه بودى كرنبودى آشنائى : ماذا تكون إذا لم تكن صديقا.

وله قصيدة ليس فيها حرف منقوط من أسفل منها:
كـلمت مـــحـــاسنه فـــتـــاهـا
وســمت تفـــاخـــر من عـــداها
رشـــــا لـواحـظـه غـــــدت
فـــتـــاكـــة أو مـــا كـــفـــاها؟

وله أخرى ليس فيها حرف منقوط من أعلى منها:
ياملـيـحـا يهـوى دوامـا صـدودى
لم؟ ياباهى الجـمـال الوحـيـد

أحـــــرام لـو مـــــيلوك لـوصل
لمحب يرى الوصـــال كـــعـــيـــد؟

وله نظم البحور على ترتيبها فى الدوائر بأسمائها:
أطلت مـديد الهـجـر فـابسط لوافـر
الوداد بقـــرب كـــامل وارث مـــالكى
وكن هزجـــا أو ارجـــزبوصلى وارملن
ســريع انســراح ياخــفــيف المســالك
وضــارع إذا رمت اقــتــضــاب حــسـودنا
لتـــجـــتـــثـــه أصــــلا وقـــارب ودارك

وله فى التضمينات نبذة صغيرة جمعها على حروف المعجم للمرحوم الشيخ محمد سعيد السمان الدمشقي حين قدم مصر واجتمع به سنة اثنتين وسبعين ومایة وألف منها على حرف الألف:

قـــال لى من هويت ياذا المعـــالى
إن تكن تشـــتـهى حـــصـــول لقـــائى
صف كـــلامى وحـــسن نطقى بديهـــا
قلت حـــسن الكلام نصف الوفـــاء

(وعلى حرف الباء)

أفـــدى حـــبـــيـــبـــا ســبـــانى
وقـــــد حـــــبـــــانى قـــــربه
عـــــاتبـــــتـــــه قـــــال دعنى
فـــالعـــتب نصف المـــســبَّـــه

(وعلى حرف التاء)

قلت للشـــادن المليح وقـــد حل
بخـــديه مـــارمـــاه بفَـــوْت
نبت الشـــعـــر فـــوق خـــديـ
ـــك وهـــذا والـلـه نـصـف المـوت

(وعلى حرف الشين)

قلت للمسرف المبذر دبر
أمر دنياك تدركن خير عيشه
إن ساداتنا الأفاضل قالوا
إن حسن التدبير نصف المعيشه

وقال في تفضيل القديم على الجديد والجديد على القديم :(ص٨٥٤)

كن للمعاصر خير ناصر
كم للأوائل فى مفاخر
لا تحقرن جديدهم
كم فى جديدهم جواهر
ودع التعصب للأوا
ئل يافتى أو للأواخر
من كان منهم مبدعا
فاعقد عليه من الخناصر

وقال يمدح الشمس الحفنى قدس الله سره:

فى كل شارقة طرفى أردده
فى روضة أنف من وجهك الحسن
يابهجة العصر يامنهاج كل علا
يامحيى الدين بالآثار والسنين
فأحمد الله إذ بالحب قربنى
من قلبك النير الصافى من الدرن
وأرتجى منه بعد الحب ما بقيت
روحى تردد منى داخل البدن
آمين قل سيدى كى يستجاب دعا
راج بقاءك ياعلامة الزمن

فلما سمعه الممدوح ووعاه، قال بلفظه المبين، آمين اللهم
آمين.
وقال مخمسا أبيات ابن منجك* المشهورة:
طاف بالراح مشتهانا المدلل
ينثني مثل بانة تتميل
قلت مذ زمزم الكئوس وأقبل
نتفداك ساقيا قد كساك الـ
ـحسن من فرقك المضئ لساقك
في معانيك حار (ص٨٥٥) فكرى ووصفي
فلأى الصفات أبدى وأخفي
وعجيب من حيث تبدو لطرفي
تشرق الشمس من يديك ومن فيـ
ـك الثريا والبدر من أطواقك

وقال مضمنا وقد بلغ عمره سبعين من السنين:
قد شبت مولاى والسبعون قد كملت
فلا تنلنى في جسمى الضعيف أذى
واننى لك عبد فاقض لى كرما
بالعتق ياسيدى إن الملوك إذا

وله مضمنا:
قالوا تغربت ياهذا فقلت لهم
دعوا ملامى فإنى غير مستمع
إذ تغربت والدينار يصحبنى
لم أدر ما غربة الأوطان وهو معى

وله في المجون مضمنا:

وربّ صغير من بني الترك جاءني
وفي خده ورد تشوق كمائمه
فساومته وصلا ولاطفت خلقه
إلى أن دنا نحوى ولانت شكائمه
فلما رأى توقاه خائفا
كما يتوقى ريض الخيل حازمه

* فرس ريض: بتشديد الياء المكسورة، الذى بدئ بترويضه ويخشى منه على حازمه (مروضه) لأنه يزال صعب المراس.

وقال أيضا من هذا النوع:

أقول وقد طالت يدى من هويت
وياطالما قد مال عنى بالقبض
أيا عطفة للصب يافاتر المها
فأدرك مطلوبى ومال إلى الأرض
ولكنه لما رأى الأير راعه
وقال وبرق الشوق يزداد في الومض
بحقك لا تدخله فيّ جميعه
حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وقال مضمنا:

بقبله جاد حبى
وكان منى يفر
فقلت ياقلب أبشر
فأول الغيث قطر

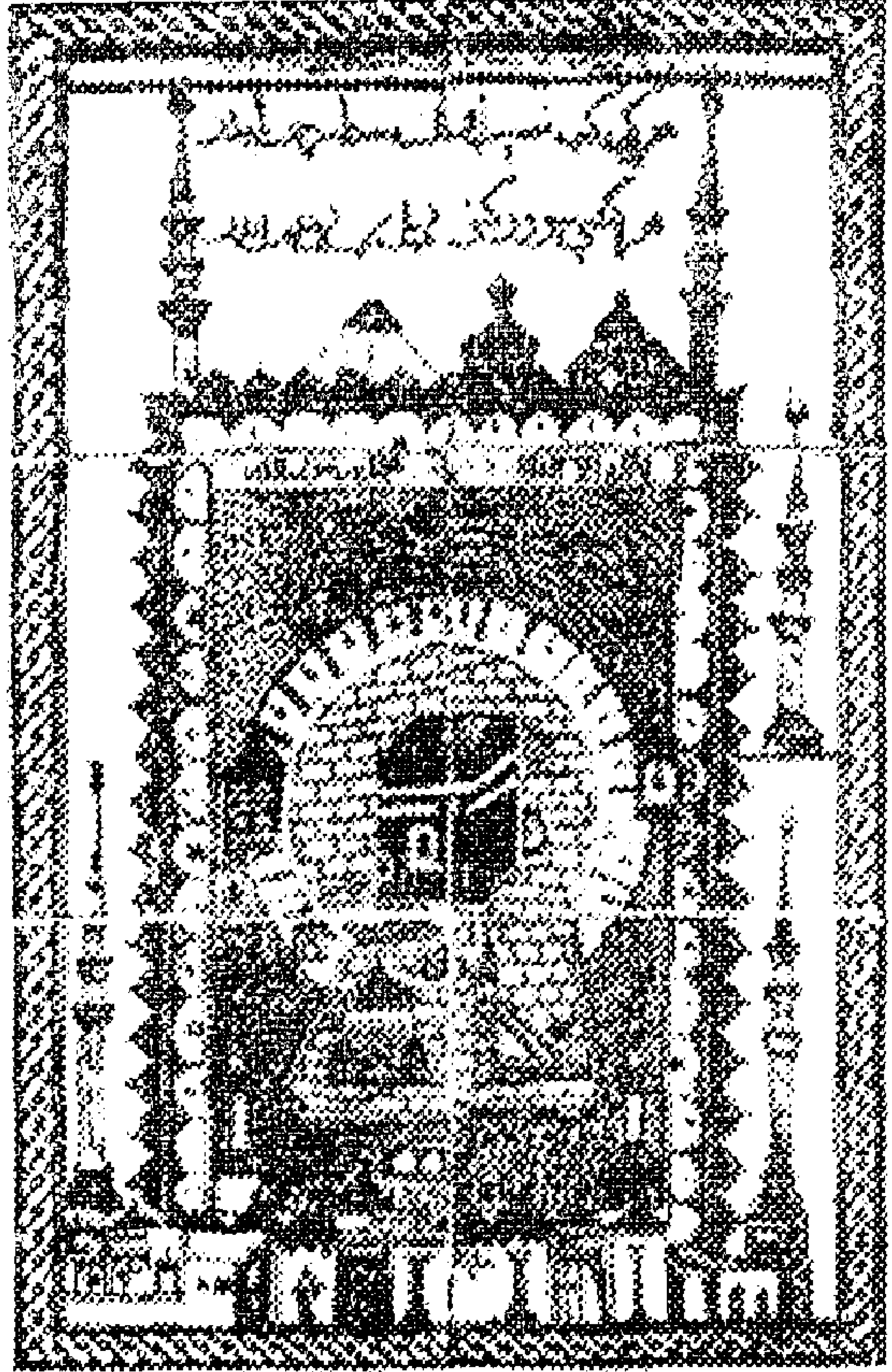
وله تقريظ بديع على شرح رسالة اسم الجنس والعلم لسيدنا الشيخ السادات حفظه الله تعالى، والمتن للشيخ العيدروس رحمه الله تعالى: هذا علم علامة علم، فعلم وفهم فهامة

فهم ففهم ،وجنس خاص من خاص الخواص، ودرة من بحر علم لا من بحر غواص، وأديب أبرز غامض تحف أتحف بها طالبيها ، ولبيب كشف النقاب عن وجه جسناء تمنعت عن غير عارفيها، فنزهت طرفي في محاسن ما أبدع وحبست طرف نظرى متأملا بدائع ما أودع، وقلت عين الله عليه من رئيس امعن نظره، وأنعم فى تنقيح ابحاثها فكرة، وأتقن ضم المتن لشرحه المجيد، حتى صار فى الالتئام كعقد در دار بالجيد، كيف لا وهو من نخبة قوم عارفين، ولكل وجهة خير هممهم صارفين، (ص٨٥٧) وعن كل شر عازفين:

قوم هم زينة الدنيا وبهجتها
بهم نغاث إذا خطب لنا زحفا
لاسيما حبرنا ذا الفرع سيدنا
محمد سبط أهل الصدق آل وفا
أدامه من حباه الفضل يتحفنا
بكل أعجوبة تنحو لها اللطفا
وحاطه من عيون الحاسدين وأو
لاه المنى ووقاه ربه وكفى

وله هذه الأبيات الثلاثة أودع فى أوايل كل كلمة منها حرفا من حروف الهجايه:

إلى باب تواب ثنيت جوارحى
حليم خبير درء ذنبى رضاوه
زكا سر شانى صف ضفا طال ظله
عنايته غاثت فجل قضاوه
كفانى لفيض ما عدانى نواله
هدايته وافت لأمر يشاوه



◄ الكعبة: رسم على القيشاني.

وقال مؤرخا وصول العين بالماء الكثير إلى مكة شرفها الله:

جـــــــاد بـالـعـين الإلـه لـنـا
بعـــد مـــا كـنـا فـــقـــدناها
وجـــرت بـالماء طافـــحـــة
فـــغـــدونا نحـــمـــد الله
فـلـذا قـل إذ تـؤرخـــــــه
هـو فـــيـض الله أجـــراهـا

وكان الأغا المعين عليها من الدولة يقال له فيض الله.

وله تشطير بيتى الشقايق لمولانا العارف بالله تعالى الشيخ عبد الغنى النابلسى رحمه الله (ص٨٥٨) مسئولا فى ذلك، وكان قد ورد على السائل جملة تشاطير عليهما لأدباء الشام فقال:

وشـــــقـــــايق قـــــالت لنا بين الربا
ببـــديع لفظ بالعـــقـــول يســـام
إن كنت ترغب في شـمـيم عـبـيـرنا
دع وجنة المحـــبـــوب فـــهى ضـــرام
هل أنبـــتت قـــبل العـــوارض مـــثلنا
ذا منـظر تهـــفـــو له الأجـــلام
حـزنا الفـخـار على الزهور بهـجـة
قلت اسكتـــوا لا يســـمع النمـــام

وقال أيضا:

وشـــــقـــــايق قـــــالت لنا بين الربا
رد روضـنـا هـو جـنـة وســـــــلام
من أمنا واشـــتم نفـــحـــتنا يقل
دع وجنة المحـــبـــوب فـــهى ضـــرام
هل أنبتت قبل العوارض مثلنا(ص٨٥٩)
حـــســـنا وإشـــراقـــا هـواه يرام
أو ما استـحـت من عـرفنا الذاكي شـذا
قلت اسكتـــوا لا يســـمع النمـــام

وقال أيضا:

وشـــــقـــــايق قـــــالت لنا بين الربا
ببـــهـــاها شـــغـف الملوك وهامـــوا
وبنا غـــدا النعـــمـــان يعـــجب قـــايلا
دع وجنة المحـــبـــوب فـــهى ضـــرام
هل انبـــتت قـــبل العـــوارض مـــثلنا
زهرا تحـــار لوصـــفـــه الافـــهـــام
أو مـــا درت أنا نفـــوق مـــحـــاسنا

قلت اسكتـــوا لا يســـمع النمـــام

وقال أيضا:

*النمام : نبت طيب الرائحة.

وشــــقـــايق قـــالـت لنا بين الربا

أنا للزهور إذا حـــضـــرت إمـــام

بى يفــخــرون ومن رأى حــسنى يقل

دع وجنة المحــبــوب فـــهى ضــرام

هل أنبــتت قـــبل العـــوارض مــثلنا

والورد فـــيــهـــا قـــد عـــلاه قـــتـــام

وشـــقـــيــقنا يزهو على طول المدى

قلت اسكتـــوا لا يســـمع النمـــام

وقال أيضا وفيه توجيه علم المنطق:

وشـــنـقـــايق قـــالـت لنا بين الربا

بمقـــدمـــات مـــا بهـــا إبهـــام

برهان ســـعـــدى الآن أنتج قـــايلا

دع وجنة المحــبــوب فـــهى ضــرام

هل أنبــتت قـــبل العـــوارض مــثلنا

حـــتى أضـــيف لهـــا هوى وغـــرام

لكنهـــا حـــصل التـــمـــانع عندها

قلت اسكتـــوا لا يســـمع النمـــام

وقال أيضا وفيه توجيه النحو:

وشـــقـــايق قـــالـت لنا بين الربا

إن جـــئـت نحـــوى ســـرك الإقـــدام

وإن ابتـغيت لعـائدى صلة الوفـا (ص٨٦٠)

دع وجنة المحــبــوب فـــهى ضــرام

هل أنبتت قبل العوارض مثلنا
حتى أضيف لها هوى وغرام
لكنها قد عطلت من عامل
قلت اسكتوا لا يسمع النمام

وقال فى توجيه النجوم:

وشقايق قالت لنا بين الربا
ميزان عزى لا يزال يقام
والزهرة الغراء قالت للسها
دع وجنة المحبوب فهى ضرام
هل أنبتت قبل العوارض مثلنا
نجما أضاء بنوره بهرام
أو ما ترانا كالثريا بهجة
قلت اسكتوا لا يسمع النمام

وقال يخاطب الأستاذ الحفنى قدس سره:

ياسيدا عظمت جلالة قدره
ولجاهه انحازت جميع الناس
قد أذهب الله الكريم بفضله
وبلطفه ما حل بى من باس
وأزال شكواى التى قد أوهنت
عظمى فلا أشكو سوى الإفلاس

وقال متغزلا:

يمر على من أهوى فأهوى التف
ساتا منه نحوى إذ يمر
فيعرض حين يلحظنى دلالا (ص٨٦١)

فـــيـــا عـــجـــبى يمر ولا يمر

وكان قد مرض مرضا أعيا الأطباء ورثى له فيه الأعداء فضلا عن الأحباء، فلما عوفى قال:

قـد حـصل اللطف فى القـضـاء وقـد
ازال ربى مـــا كنت أخـــشـــاه
ولـست أشكو لـغـــيــــره أبدا
فـــأحـــمـــد الله ليس إلا هو

وقال أيضا:

رب بالمصطفى رســـولك طه
المصـــفى من ســـاير الأدناس
حـــفنى منك يا إلـهى بلطف
وأزل مـــا يســـؤونى من باس

وقال أيضا:

لـطـف إلـهـى حـــــفـنـى
مما دهـانـى فـى الـبــــدن
فـــالحـــمـــد لله الذى
أذهـب عـن الحـــــزن

وقال أيضا:

لـطـف الـلـه بـحـــــالـى
بـعــــد أن أوهـن عـظـمـى
فله الحـــمـــد على مـــا
زال مـن هـمـى وغـــمـى

وقال وهو معنى منقول من الفارسية:

أعـــيـــذك أن تكون لدى البـــرايا
تـســمى ســارقـــا ياذا المعـــانى

ولكن إن سـرقت فـدر مـعنى
بـه تـزدان لادر الـغـوانـى

وقال مؤرخا وقد كتب على حنفية للوضوء:
ياناظرا فى حسن وضعى لقد(ص٨٦٢)
صـرت سـبـيـلا لطريق النجـاة
لسـان حـال قـايلا أرّخـوا
سـبـيل مـاء للوضـو والصـلاة

وقال فى غرض:
نـحن قـوم إذا رأينا مليـحـا
جـامـعـا فى جـمـاله كل بهـجـه
وأردنا بالاحـتـيـال نـراه
نجـعل الشـرب للتـفـرج حـجـه

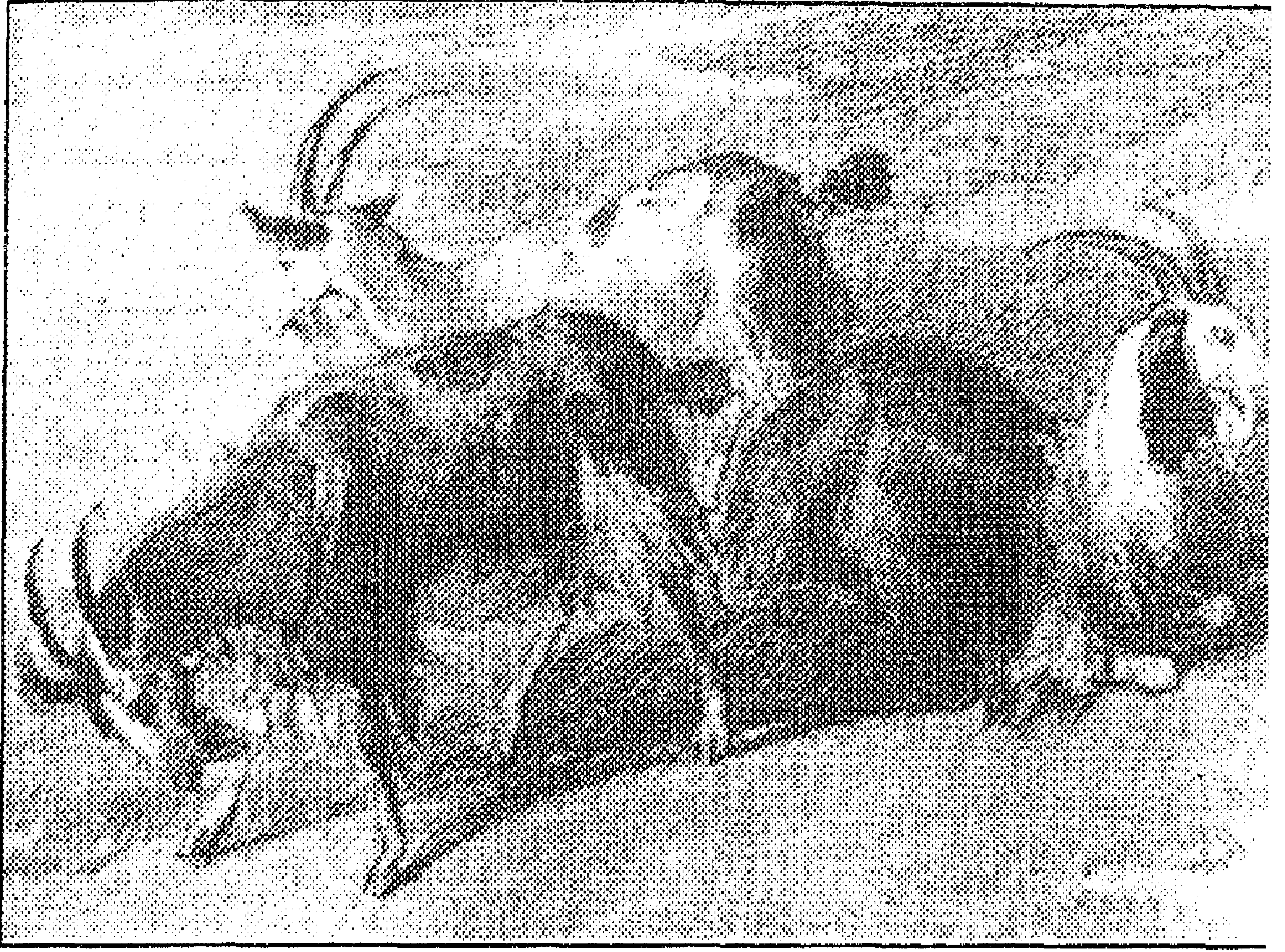
وقال يخطاب الشمس الحفنى فى يوم عيد:
عـيـد بكـم يزهو سـرورا
ويـزيـد إشـراقـا ونـورا
فـأدامـكـم رب الـعـلا
لمـعـاقل الإسـلام سـورا

ولما زوجنى المرحوم الوالد فى سنة اثنتين وثمانين وماية وألف
كتب إليه مهنيا ومؤرخا قوله:
يامـاجـدا أقـواله
وفـعـاله طابا بذكـرك
ياكـنز طـلاب المعـا
رف جلهـا من دُرّ بحـرك

يهنيك نجلك عابد الرحمـ
ن زاد علا بفخرك
هنيته مليته
متعته يافرد عصرك
زوجته بكر المحا
سن فانثنى يتلو لشكرك
أبقاهما الله الكر
يم منعمين بطول عمرك
هذا هناء محبك الدا
عى لكم بسمو قدرك
والحال قد أرخته
شمس البها زفت لبدرك

وفى سنة ثلاث وسبعين ومایة وألف) لما اختلف خدام المشهد النفيسى وكبيرهم إذ ذاك الشيخ عبداللطيف فى أمر العنز*، وذلك أنهم أظهروا عنزا صغيرة مدره زعموا أن جماعة من الأسرى ببلاد الافرنج توسلوا بالسيدة نفسية (ص٨٦٣) وأحضروا تلك العنز وعزموا على ذبحها فى ليلة يجتمعون فيها يذكرون ويدعون ويتوسلون فى خلاصهم ونجاتهم من الأسر، فاطلع عليهم الكافر فزجرهم وسبهم ومنعهم من ذبح العنز، وبات تلك الليلة فرأى رؤيا هالته، فلما أصبح أعتقهم وأطلقهم وأعطاهم دراهم وصرفهم مكرمين، ونزلوا فى مركب وحضروا إلى مصر وصحبتهم تلك العنز، وذهبوا إلى المشهد النفسى بتلك العنز، ، وذكروا فى تلك العنز غير ذلك من اختلاقهم وخورهم كقولهم إنهم في يوم كذا أصبحوا فوجدوها عند

*خرافة العنز وموقف عبد الرحمن كتخدا منها.



المقام أو فوق المنارة وسمعوها تتكلم، أو أن السيدة تكلمت وأوصت عليها ، وسمع الشيخ المذكور كلامها من داخل القبر وأبرزها للناس وأجلسها بجانبه، ويقول للناس ما يقوله من الكذب والخرافات التى يستجلب بها الدنيا، وتسامع الناس بذلك فأقبل الرجال والنسا من كل فج لزيارة تلك العنز، وأتوا إليها بالنذور والهدايا، وعرّفهم أنها لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق وتشرب ماء الورد والسكر المكرر ونحو ذلك، فأتوه بأصناف ذلك بالقناطير، وعمل النساء للعنز القلايد الذهب والأطواق والحلى ونحو ذلك، وافتتنوا بها، وشاع خبرها فى بيوت الأمرا وأكابر النسا وأرسلن على قدر مقامهن من النذور والهدايا، وذهبن لزيارتها ومشاهدتها وازدحمن عليها، فأرسل عبد الرحمان كتخدا إلى الشيخ عبد اللطيف المذكور والتمس منه حضوره إليه بتلك العنز



ليتبرك (ص٨٦٤) بها هو وحريمه، فركب المذكور بغلته وتلك العنز في حجره ومعه طبول وزمور وبيارق ومشايخ وحوله الجم الغفير من الناس ودخل بها بيت الأمير المذكور على تلك الصورة وصعد بها إلى مجلسه وعنده الكثير من الأمرا والأعيان، فزارها وتلمس بها، ثم أمر بإدخالها إلى الحريم ليتبركن بها، وقد كان أوصى الكلارجي قبل حضوره بذبحها وطبخها، فلما أخذوها ليذهبوا بها إلى جهة الحريم، أدخلوها إلى المطبخ وذبحوها وطبخها قيّمه وحضر الغذاء وتلك العنز في ضمنه فوضعوها بين أيديهم وأكلوا منها والشيخ عبدا للطيف كذلك صار يأكل منها والكتخدا يقول : «كل ياشيخ عبد اللطيف من هذا الرميس الثمين» فيأكل منها ويقول : «والله إنه طيب ومستو ونفيس» وهو لا يعلم إنه عنزه وهم يتغامزون ويضحكون ، فلما فرغوا من الأكل وشربوا القهوة وطلب الشيخ العنز، فعرفه الأمير أنها هي التي كان بين يديه في الصحن وأكلها، فبهت ، فبكته الأمير ووبخه وأمره بالانصراف، وأن يوضع جلد العنز على عمامته ويذهب به كما جاء بجمعيته وبين يديه الطبول والأشاير، ووكل به من أصله محله على تلك الصورة، فقال في ذلك المترجم:

ببنت رسول الله طيّبة الثنا
نفيسة لُذْ تظفَرْ بما شئت من عِزّ
ورم من جَدّها كل خير فإنها
لطلابها ياصاح أنفعُ من كنز
(ص٨٦٥) ومن أعجب الأشياء تَيس أراد أنْ
يُضِلَّ الورى في حُبِّها منه بالعنز
فعاجلها من نوّرَ الله قلْبه

بذبح وأضحى التيس من أجلها مخزى

ورأيت كثيرا من قصايده فى طيارات * وأوراق لم تدون ،وسمعت كذلك من إنشاداته لنفسه ولغيره لو كنت تيقظت لجمع ذلك لكان ديوانا كبيرا ولكن كان ما كان. فما علق بالبال مما أنشده لغيره وفيه تورية:

هيــــأ البـــلان مـــوسى
خلوة تحــيي النفـــوســـا
قـــيل مـــا تعـــمل فـــيـهـــا
قلت أســتـعـــمل مـــوسى

وله:

إذا المرء لم ينفـعك والدهر مـقـبل
عليــه ولم تخطر عليــه ببــال
فـصــوره فى وسط الكنيف بفـحـمـة
وشـــرشــر عليـــه عند كل مـــبال

وقد خمسها ما بين المصراعين فقال:

(إذا المرء لم ينفـعك والدهر مـقـبل)
عليــه بما قــد كــان يرجـــو ويأمل
وأضـحى بثـوب التيـه والكبـر يرفل
وصـــار يرى منك المودة تثـــقل
«عليه ولم تخطر عليه ببال»
فـصـوره فى وسط الكنيف بفـحـمـة
وكن حـالة التـصـوير فى وقت ظلمـة
ومُر كل مبطون وصاحب تخمةِ(ض٨٦٦)
على رأســه يَخْــرَى بعــزمٍ وهمـةِ

* طيارات: ورق تكتب عليه الرسائل

«وشرشر عليه عند كل مبال»

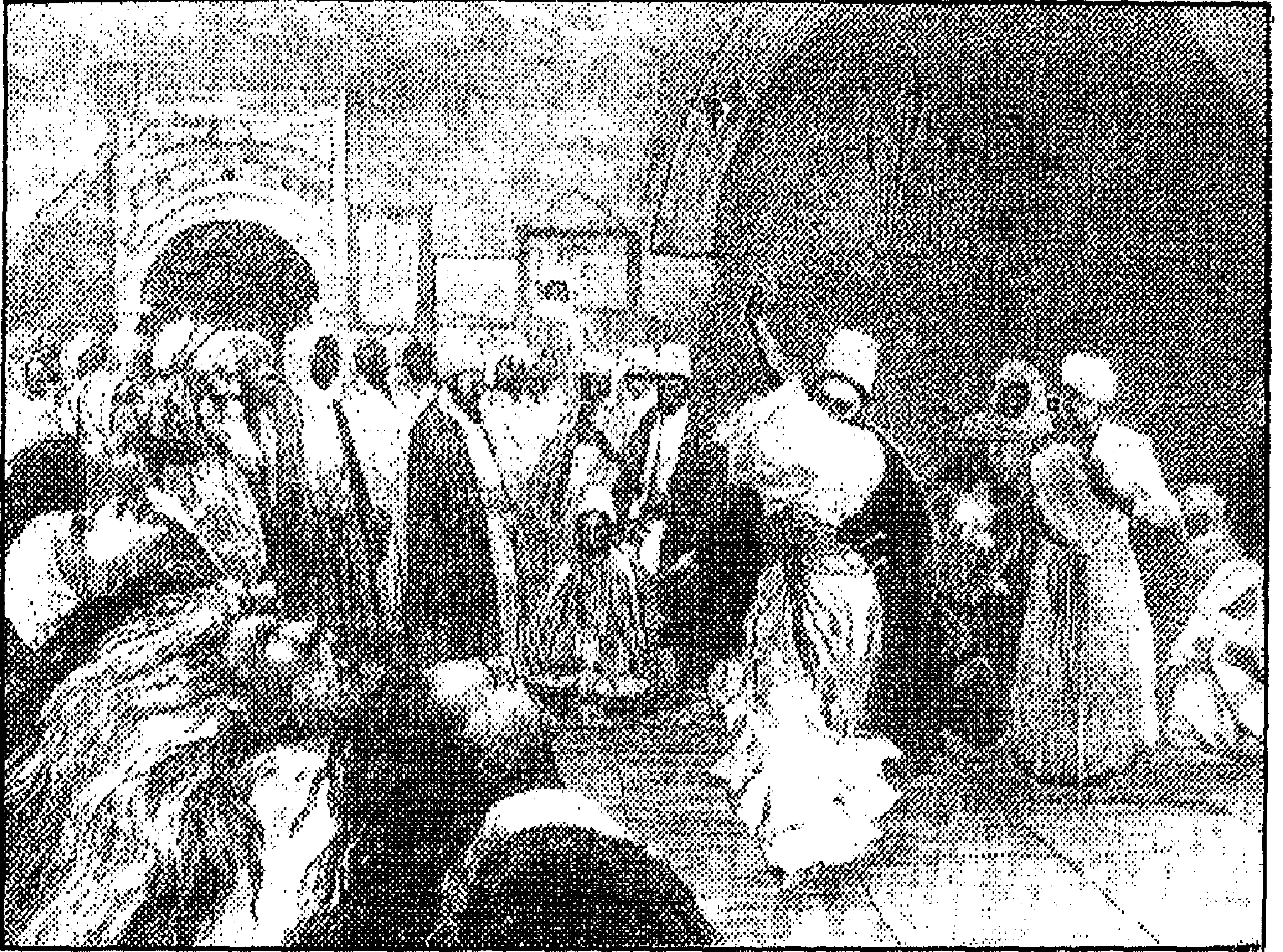
ومما أنشده لنفسه وفيه اقتباس:

ياصباح الوجه يابيض الثنا
راقبوا الرحمن فى ماسوركم
وإذا أظلم دهرٌ جائرٌ
انظرونا نقتبس من نوركم

ولم يزل المترجم حتى تعلل بالأمراض والأسقام، واضمحل منه الجسم واكتوا بالآلام، حتى وافاه الحمام، فى يوم الخميس خامس جمادى الأولى من السنة رحمه الله، وابنه العلامة السيد أحمد المعروف بكتيكت مفتي الشافعية بثغر سكندرية، والسيد هلال الكتبى توفيا بعده بسنتين، والشيخ صالح الصحّاف موجود مع الأحياء أعانه الله على وقته.

٣٢٨ جعفر بن حسن البرزنجى.

[ومات] الإمام الشيخ الفصيح البارع الفقيه الشيخ/ جعفر بن حسن بن عبد الكريم بن رسول الحسينى البرزنجى المدنى مفتى الشافعية بها، ولد بالمدينة وأخذه عن والده، والشيخ محمد حيوة السندى وأجازه السيد مصطفى البكرى، وكان يقرأ دروس الفقه داخل باب السلام وكان عجيبا فى حسن الإلقاء والتقرير ومعرفة فروع المذهب، تولى الإفتاء والخطابة مدة تزيد على عشرين سنة وكان قوالا بالحق أمارا بالمعروف، واجتمع به الشيخ سليمان بن يحيى شيخ المشايخ وذكره فى رحلته وأثنى عليه، وله مؤلفات منها: البر العاجل (ص٨٦٧) بإجابة الشيخ محمد غافل ، والفيض اللطيف بإجابة نائب الشرع الشريف، وفتح الرحمن على أجوبة السيد رمضان وتوفى فى



شهور هذه السنة قيل مسموما والله أعلم.

(ومات) الوالى العارف أحد المجاذيب الصادقين الأستاذ الشيخ/ أحمد بن حسن النشرتى الشهير بالعريان، كان من أرباب الأحوال والكرامات، ولد فى أول القرْن وكان أول أمره الصحو ثم غلب عليه السُكْر فأدركه المحو، وكانت له فى بدايته أمور غريبة وكان كل من دخل عليه زايرا يضربه بالجريد، وكان ملازما للحج فى كل سنة ، ويذهب إلى موالد سيدى أحمد البدوى المعتادة وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب، وإذا قرأ قارئ بين يديه وغَلطَ يقول له قف فإنك غلطت. وكان رجلا جلاليا يلبس الخشنة وهى جبة صوفٍ وعمامة صوف حمراء يعتم بها على لبْدةٍ من صوف ، ويركب بغلةً سريعةَ العَدْو، وملبسه دايما على هذه الصفة شتاء وصيفا، وكان شهير الذكر يعتقده الخاصة والعامة،

٣٢٩ احمد بن حسن النشرتى.

وتأتى الأمراء والأعيان لزيارته والتبرك منه، ويأخذ منهم دراهم كثير ينفقها على الفقرا المجتمعين عليه، وأنشأ مسجده تجاه الزاهد جوار داره وبنى بجواره صهريجا وعمل لنفسه مدفنا وكذلك لأهله وأقاربه وأتباعه، واتحد به شيخنا السيد أحمد العروسى واختص به اختصاصا زايدا فكان لا يفارقه سفرا ولا حضرا ، وزوجة إحدى بناته وهي أم أولاده وبشره بمشيخة الجامع الأزهر والرياسة، فعادت عليه بركته، وتحققت بشارته (ص٨٦٨) ، وكان مشهورا بالاستشراف على الخواطر . توفى رحمه الله فى منتصف ربيع الأول وصلى عليه بالأزهر ودفن بقبره الذى أعده لنفسه فى مسجده نفعنا الله به وبعباده الصالحين.

٣٣٠ على بن أحمد البشبيشى. (ومات) الفقيه الصالح الشيخ / على بن أحمد بن عبد اللطيف البشبيشى الشافعى روى عن أبيه عن البابلى. توفى فى غاية ربيع الثانى من السنة.

٣٣١ أحمد المولوى. (ومات) الشيخ المبجل الصالح المفضل الدرويش / أحمد المولوى شيخ المولوية بتكية المظفر، وكان إنسانا حسنا لابأس به مقبلا على شانه منجمعا عن خلطة كثير من الناس إلا بحسب الدواعى، توفى فى سابع عشرين ربيع الآخر من السنة ولم يخلف بعده مثله.

٣٣٢ شمس الدين حمودة. (ومات) المقدام الخير الكريم صاحب الهمة العالية والمروة التامة/ شمس الدين حمودة شيخ ناحية برمه بالمنوفية أخذ عن الشيخ الحفنى وكان كثير الاعتقاد فيه والإكرام له ولاتباعه وله حب فى أهل الخير واعتقاد فى أهل الصلاح،



▲ مشهد جنازة

ويكرم الوافدين والضيفان، وكان جميل الصورة طويلا مهيبا حسن الملبس والمركب، توفى يوم الخميس حادى عشر رجب من السنة، وخلف أولادا منهم محمد الحفنى الذى سماه على اسم الشيخ لمحبته فيه وأحمد شمس الدين.

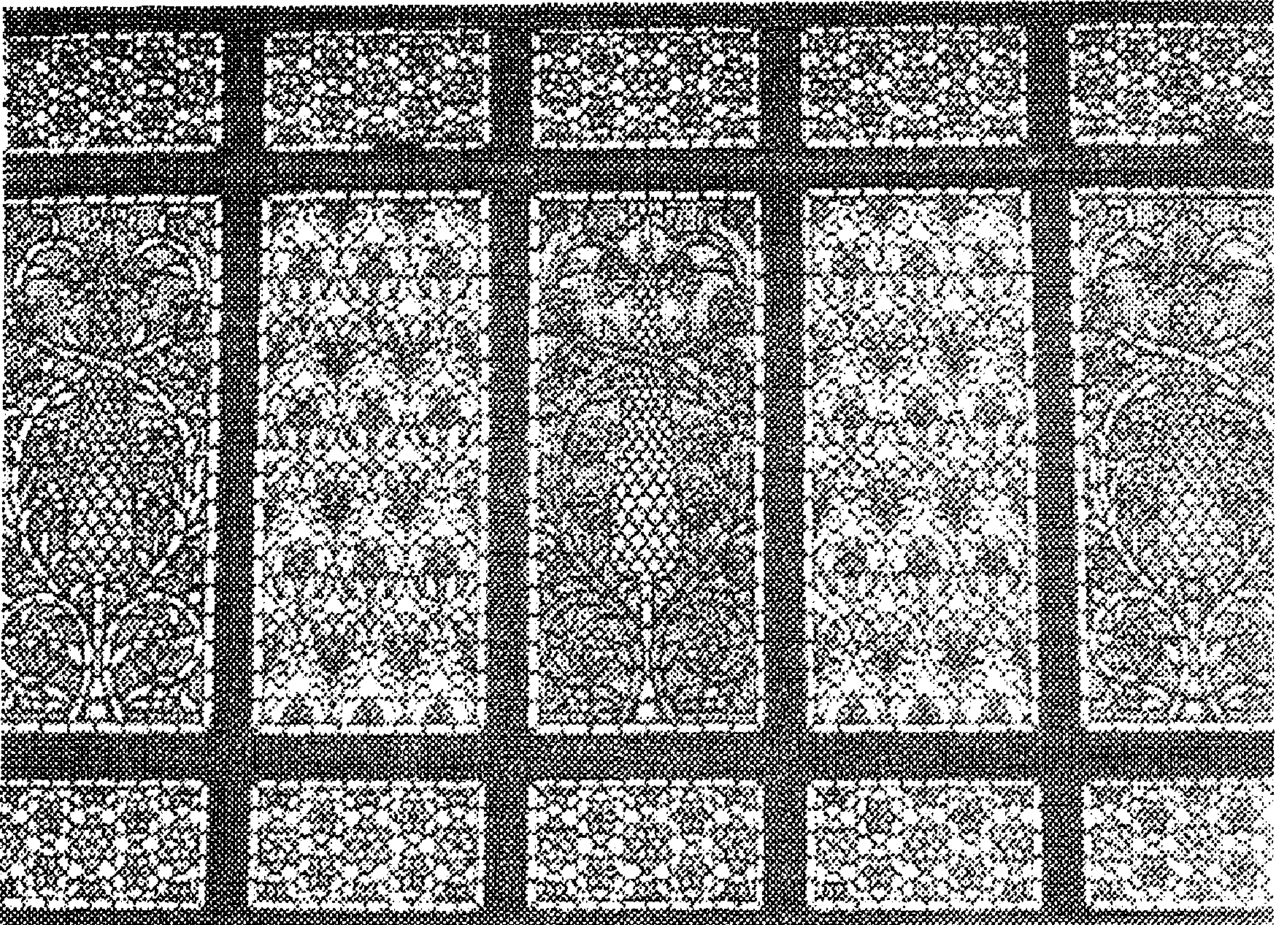
٣٣٣ احمد الشعرانى.

(ومات) بقية السلف ونتيجة الخلف الشيخ/ أحمد سبط الأستاذ الشيخ عبد الوهاب الشعرانى، وشيخ السجادة(*) كان إنسانا حسنا وقورا سالكا منهج الاحتشام والكمال منجمعا عن خلطة (ص٨٦٩) الناس إلا بقدر الحاجة، توفى يوم السبت ثامن صفر من السنة وخلف ولده سيدى عبد الرحمن مراهقا تولى بعده على السجادة مع مشاركة قريبه الشيخ أحمد الذى تزوج بوالدته.

* شيخ السجادة : أى شيخ طريقة عبد الوهاب الشعرانى.

٣٣٤ محمد الشوبرى الحنفى

[ومات] الإمام العلامة الفقيه الصالح الناسك صايم الدهر الشيخ / محمد الشوبرى الحنفى، تفقه على الشيخ الإسقاطى والشيخ سعودى وبعد وفاة المذكورين لازم الشيخ الوالد وتلقى عنه كثيرا، وكان إنسانا حسنا وجيها لا يتداخل فيما لا يعنيه مقبلا على شأنه، صايم الدهر، ملازما لداره بعد حضور درسه، وكان بيته بقنطرة الأمير حسين مطلا على الخليج.



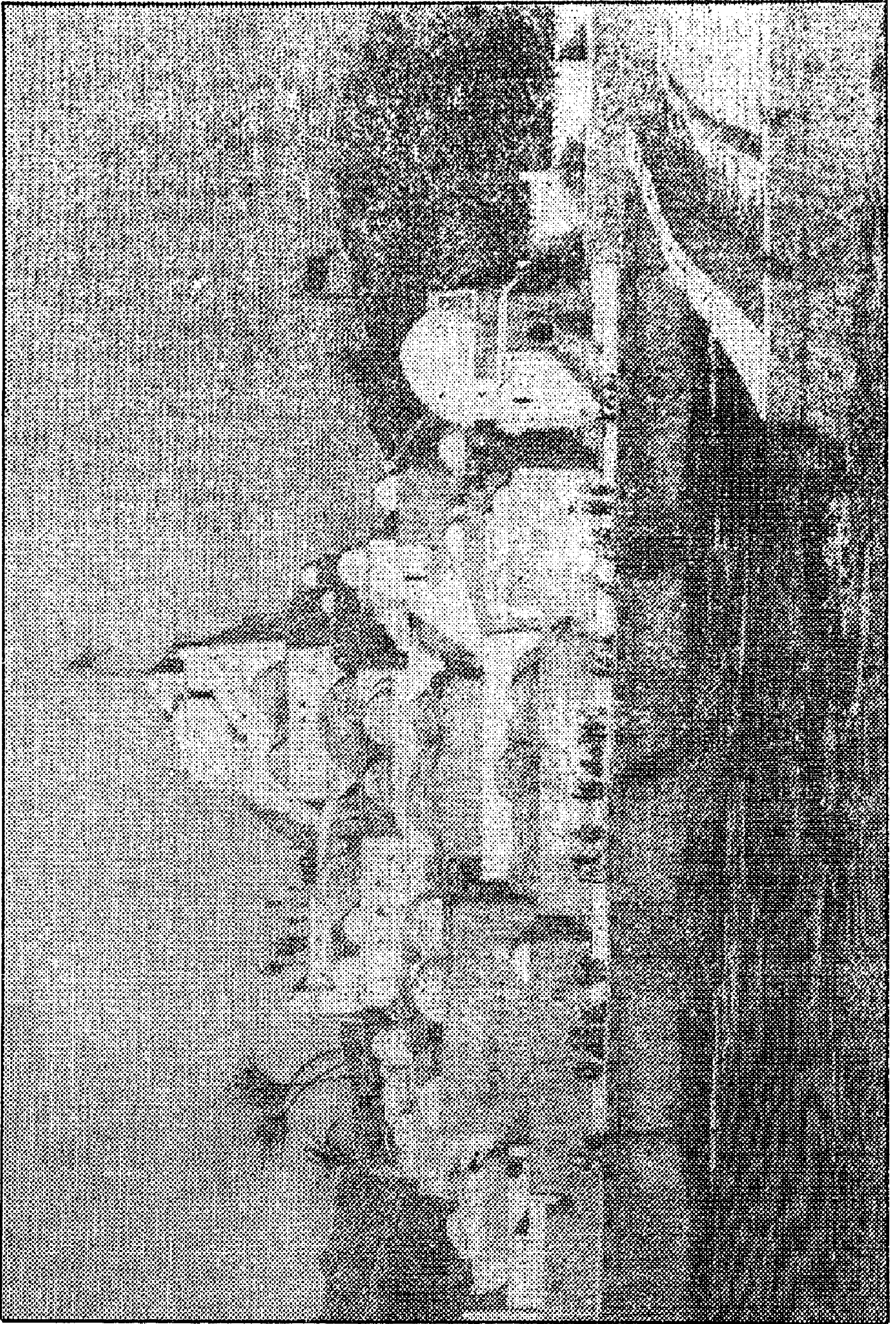
"سنة خمسة وثمانين ومائة وألف" [١٧٧١م]

*حملة علي بك على الشام بقيادة محمد بك أبو الذهب.

١١٨٥هـ.
١٤٨٧ق.
١٧٧١م.
غاية الفيضان ١٨ قيراط ٢٣ ذراع

- ١ توت ١٤٨٨= ١٠ سبتمبر ١٧٧١= الثلاث ٣٠ جماد أول ١١٨٥.
- فيها جرد علي بك تجريدة تحت إمرة محمد بك أبي الذهب فقامت من دمياط إلى الشام بطريق البحر فحاصروا يافا ثم ملكوها، كذا ملكوا بقية المدن الشامية لحد حلب. وزينت مصر وبولاق ثلاثة أيام فرحا لهذه النصرة.
- وفيها أمر علي بك محمد بك أبو الذهب أن يولي الولاة على البلاد التي افتتحها، ويمد فتوحاته حيث شاء، فتحالف أبو الذهب مع بقية الرؤساء على العودة إلى مصر ونبذ ما أمر به علي بك.
- وفي أواخر جماد الثاني كانت عودة تجريدة أبي الذهب إلى مصر.
- وفيها حصل طاعون بالتركيا.
- وفي ١٤ شوال حاصر علي بك وعلي بك طنطاوي دار محمد بك أبي الذهب قاصدين الغدر به ، فتقدمهم إلى البساتين وتوجه إلى الصعيد.
- ١ يناير ١٧٧٢ = ٢٤ كيهك ١٤٨٨ = الأربع ٢٥ رمضان سنة ١١٨٥.

فيها أخرج علي بك تجريدة عظيمة وسر عسكرها وأميرها محمد بك أبو الذهب وأيوب بك ورضوان بك وغيرهم كشاف وأرباب مناصب ومماليكهم وطوايفهم وأتباعهم وعساكر كثيرة من المغاربة والترك والهنود واليمانية والمتاولة وخرجوا في تجمل زايد واستعداد عظيم ومهيا كبير ومعهم الطبول والزمور والذخاير والأحمال والخيام والمطابخ والكرارات والمدافع والجبخانات ومدافع الزنبلك على الجمال وأجناس العالم ألوفا مؤلفة، وكذلك أنزلوا الاحتياجات والأثقال وشحنوا بها السفن، وسافرت من طريق دمياط في البحر، فلما وصلوا إلى الديار الشامية، فحاصروا يافا وضيقوا عليها حتى ملكوها بعد أيام كثيرة ، ثم توجهوا إلى باقي المدن والقرى وحاربهم (ص٨٧٠) النواب والولاة وهزموهم وقتلوهم وفروا من وجوههم واستولوا على الممالك الشامية إلى حد حلب، ووردت البشاير بذلك فنودى بالزينة فزينت مصر وبولاق ومصر العتيقة زينة عظيمة ثلاثة أيام بلياليها وتفاخروا في ذلك إلى الغاية ، وعملت وقدات وأحمال قناديل وشموع بالأسواق وساير الجهات، وعملوا ولايم ومغاني وآلات وطبولا وشنكا وحراقات وغير ذلك وذلك، في شهر ربيع أول من السنة وتعاظم علي بيك في نفسه ولم يكتف بذلك فأرسل إلى محمد بيك يأمره بتقليد الأمراء المناصب والولايات على البلاد التي افتتحوها وملكوها وأن يستمر في سيره ويتعدى



▲ مشهد ليافا من البحر

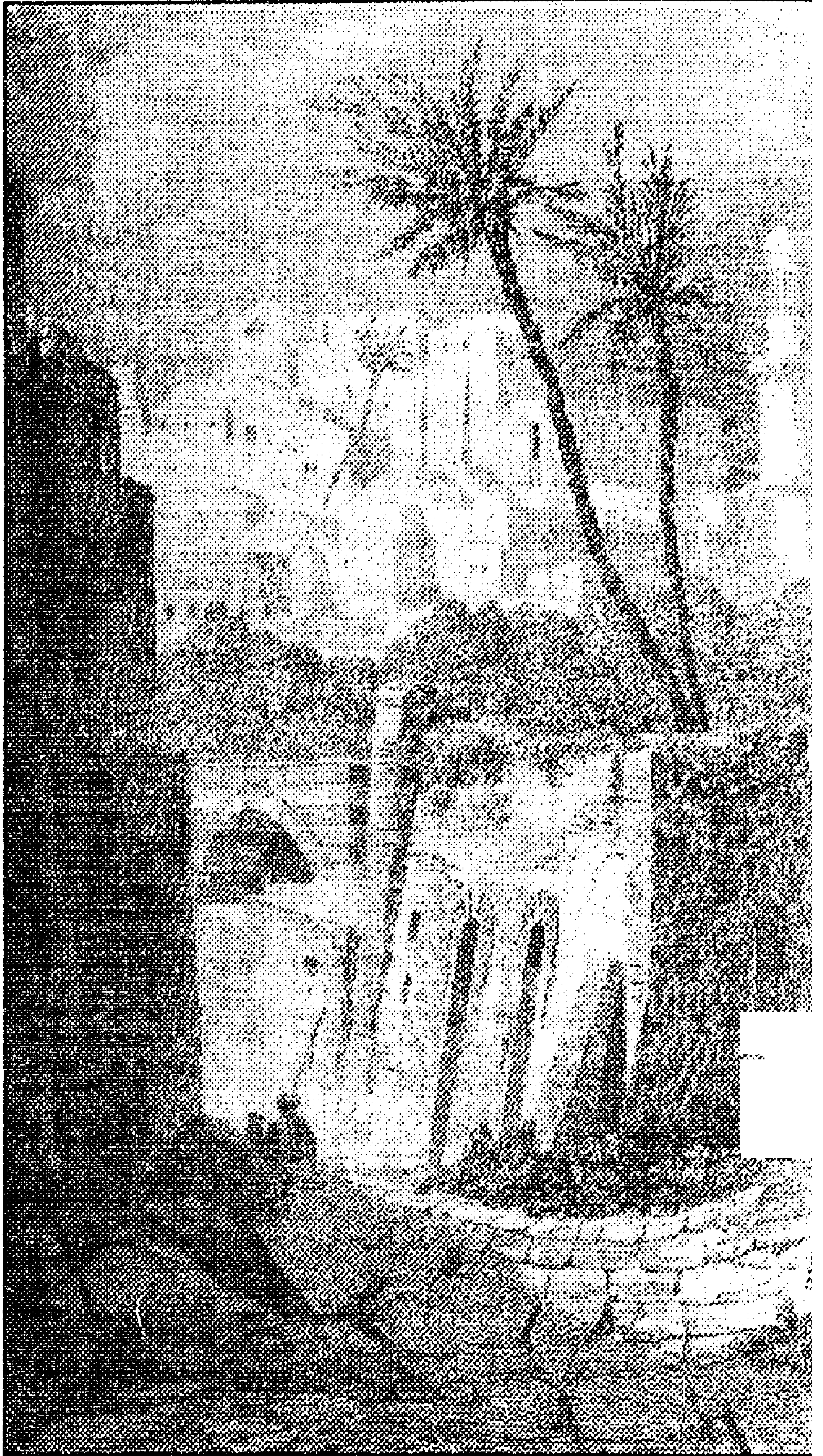
االحدود ويستولى على الممالك إلى حيث شاء وهو يتابع إليه إرسال الإمدادات واللوازم والاحتياجات ، ولا يثنون عنانهم عما يأمرهم به، فعند ذلك جمع محمد بيك* أمـــراءه وخشداشينه الكبار فى خلوة وعرض عليهم الأوامر فضاقت نفوسهم وسئموا الحرب والقتال والغربة، وذلك مافى نفس محمد بيك أيضا ثم قال لهم : ما تقولون؟ قالوا : وما الذى نقوله والرأى لك فأنت كبيرنا ونحن تحت أمرك وإشارتك ولا نخالفك فيما تأمر به؟» فقال : ربما يكون رأيى مخالف لأمر أستاذنا : قالوا: ولو مخالفا لأمره، فنحن جميعا لا نخرج عن أمرك وإشارتك فقال : لا أقول لكم شيئا حتى نتحالف جميعا ونتعاهد على الرأى الذى يكون بيننا. ففعلوا ذلك وتعاهدوا وحلفوا على السيف والكتاب، ثم إنه قال لهم «إن أستاذنا يريد أن تقطعوا (ص٨٧١) أعماركم فى الغربة والحرب والأسفار والبعد عن الأوطان وكلما فرغنا من شيء فتح علينا غيره فرأيى أن نكون على قلب رجل واحد ونرجع إلى مصر ولا نذهب إلى جهة من الجهات وقد فرغنا من خدمتنا، وإن كان يريد غير ذلك من المماليك يولى أمراء غيرنا ويرسلهم إلى ما يريد ونحن يكفينا هذا القدر ونرتاح فى بيوتنا وعند عيالنا» فقالوا جميعا : ونحن على رأيك. وأصبحوا راحلين وطالبين إلى مصر، فحضروا فى أواخر شهر رجب على خلاف مراد مخدومهم وبقى الأمر على السكوت، ثم إن على بيك قلد أيوب بيك إمارة جرجا وقضى أشغاله وسافر إلى الصعيد بطائفته وأتباعه وانقضى شهر شعبان ورمضان وعلى بيك مصمم على رجوع محمد بيك إلى جهة الشام وذلك مصمم على خلاف ذلك، وبدت بينهما الوحشة الباطنية، فلم كان ليلة رابع شهر شوال

* تآمر محمد بك ابو الدهب ضد سيده على بك الكبير.

كتاب على بك الكبير إلى أهالى دمشق ١٧٧٠م ١١٨٤ هـ .

* صدر هذا الفرمان الشريف الشان من ديوان مصر القاهرة المحروسة المعالى. دامت لها المفاخر والمعالى من منّ به الكريم المنان على اهل هذا الزمان. واظهر العدل والامان. وعم بالفضل والاحسان. جميع اهل القرايا والبلدان. وراغم اهل الجور والطغيان. امير الامرآ الكرام. وعظيم الكبرا الفخام. المختص بمزيد عناية الملك العلام. امير اللواء الشريف السلطانى والعلم المنيف الخاقانى. امير على بيك امير الحاج سابقا. وقيم مقام (قايمقام) المحروسة حالا، دام عزه وبقاه. ورفع بالسعد لواه. مضمونه حمد بارى النسم.ومحيى الرقم. الذى قدس وعظم قدر الحرام. وبارك حوله بجزيل النعم وآمر بالعدل فى ساير الامم. واوعد الظالم بالهلاك والنقم. القايل تعالى فى كتابه المبين. ان الله لا يحب الظالمين ولا يصلح عمل المفسدين.ولا تآيسوا من القوم الفاسقين من بعد الصلاة والسلام على رسوله الامين. سيد الخلق اجمعين. الصادق وهو اصدق من قال الضرر يزول وعلى اصحابه الذين سادوا وشادوا الدين، صلوة وسلاما دايما ليوم الدين. فمن بعد مزيد السلام والتحية (بعميم) الامن والبركات. وجزيل النعم والخيرات. فى كل الاوقات والساعات . الى حضرة العلما العالمين. والفقها المحدثين. المفتيين بشريعة سيد الانام. وقضاةالاسلام. وارباب المناصب والحكام. والخاص والعام. من اهالى دمشق الشام . اعزهم الله بنور العقل واحكامه. واجارهم من الظلمة وظلامه. بلطفه واكرامه. وافاض عليهم جزيل انعامه. فالذى يحيط [به] كريم علمكم. وزكى فهمكم. ان الامة لا تجتمع على الضلاله وقد علمتهم ما صنعه عثمان باشا [والى الشام فى حينه] فى ارضكم من الظلم والجهاله. وانه قد اعترض الى الحجاج والزوار وسلط عليهم الاشرار والفجار. بالاذية والاضرار. واظلم المسافرين والتجار. وذل الاماكن الشريفة وابدل أمن الحرمين [بالخيفة] وتعدى حدود الدين. وفعل ما لا يليق بالمسلمين . وقد قال من لا تراه العيون من يتعدى حدود

الله فاوليك هم الظالمون . فلما بلغنا عنه ما بلغ. وانه في اناء الارض المقدسة ولغ.
فبادرنا لسو اعماله بالنقض. كما ازلنا في العام الماضي من ظلمة البعض واردنا نطهر منه تلك الارض نصرة للدين وغيرة على المسلمين. ورفع ضرره عن الارض المقدسة. لما جاء في الحديث ما حل بحرمكم جل بكم. وبلغكم ما فعله بعلما غزة. واذاقهم الذل بعد العزه ودفنهم بالارض بالحياه. وقد جاء في الحديث المقدس عن الاله من اذل اوليا الله اذله الله. وقوله تعالى في كتابه الاسما. اننا مخشيون الله (انما يخشى الله من عباده العلما) . فان كنتم بذلك غير راضين. وعن دفع ضرره غير قادرين. فنحن بعون الله قادرين على ذلك. وقد افتينا المذاهب الاربع بذلك. واستخرنا الله وهو نعم الوليّ وسالناه ينصر دينَ محمد بعلي. وصرفنا العساكر والاموال. في رضي الملك المتعال. ووجهنا الفوارس والابطال ليردوا الظالم. ويستردوا المظالم. ويميزوا العاطب من السالم. فالقصد منكم ترك الظالمين. والبعد عنهم اجمعين. ومن يثق بهم منكم فانه منهم يكون. واجتهدوا فيما يرفع عنكم الشرور. ويجلب لكم الفرح والسرور. والغبطه والحبور . وامير الحجاج الشامي من طرفنا يتولاه حفظا وصيانة لحجاج بيت الله. فتعاونوا على عمل الخير وذهاب الضر والضير. وكما قال الملك المنان. تعاونوا على البر بالتقوى والتصديق. فالكريم الفتاح. من طلب العدل والصلاح. ولا تعاونوا على الاثم والعدوان اهل الظلم والطغيان. وها نحن قد اخبرناكم. وعلى المعاونة بالخير قد اختيرناكم. ومن اقامة هذا الظالم في ارضكم قد حذرناكم. والعساكر قاصدة اليه والجميع ما يلين عليه. فلا تدعوه يقيم بارضكم. ولا يبن اعيالكم. وقد سلطنا غضب الله وسخطه عليه. فاحفظوا منه ساير اموالكم واحوالكم. وراى العما والكبار اعلاه. وانتم على فعل الخير اولى. وعلى القريب منكم والبعيد. و (الطارف) والتليد. والاحرار والعبيد. امان الله ورأينا السعيد. والله يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد. والخير يكون . والصعب يهون. بعون مدير الكون.



▲ احد ضواحي مدينة القدس.

تهنئة الامير منصور الشهابي لمحمد بك ابو الدهب بفتح الشام ١٧٧٠م/١١٨٤هـ

الجناب العالى ذو الفخر والجمال. دامت له رتبة المعالى بالسعادة والاجلال . مشيد اركان رتبة السنيه. عسجدى الالقاب الشهيه. صدر صدارة الدولة المصريه. امير لوا شان اطال الله تعالى بقاه امين. محب ابهى واشرف ما سجعت به اطيار منابر الاغصان. على قدود افنان الاشجار بالحان نشايد الاوزان الشجية. والطف ما نظمته افكار ضماير الانام من عقود نظام الاشعار ودرر البيان الوضية. تهدى جناب من قد جلي سيوف الانتصار. وبدد اعدايه كل صقع وامصار. اعنى به من رفع اسمه باوج العلا. وترفعت اعلامه على روس الملا. وحاز الافتخار. بقايم السيف البتار. كيف لا وهو فريد الزمان. ونتيجة هذا الوقت والاوان. اما بعد في ابرك الاوقات واشرفها. وايمن الساعات والطفها قد ورد علينا امثال جنابكم الشريف. وفهمنا فحواه المانوس المنيف. واتضح لنا حلول ركابكم السعيد بدمشق الشام. بحسن تايد واكمل نظام. والمقصود بلوغ الارب وبغية المرام. فقد حصل عند مخلصكم بهجة لا تحد. وسرورا لا يعدّ. بتشريف ركابكم بهذه الامصار. وقد اضطربت بقدومكم الاقطار . واستانست البلاد. واطمانت خواطر العباد. ويسوغ لهم ان يترنموا مع الشاعر حيث يقول:

ثغر الزمان لقد غدى مبتسما
وشذا الزمان لقد غدى متنسما
واجابت الافاق من اغساقها
بترنم والكون ابدى منعما

فيا له من فرح لا يقر قراره. ولا يحصى طياره. جالبا للصدور جلباب (الجذل) والحبور. فنحمده جل شاله بما انعم واجذل واكرم. فلقد انتشرت سجاياكم. وشاعت مكارم عطاياكم. فيا خير مبعوث واكرم باعث. ولقد بلغنا ان فى حلول ركابكم السعيد. تبدد العدو (اى) تبديد. ولم يساعه حتى الهزم ورحل. فلا برحت اقبالكم بالسعد وبلوغ الامل. ورايات اعزازكم خافقه..وروس اعدايكم طارقه. وبنوع التهجم والرجا ان

بيت على بك مع على بيك الطنطاوى وخلافه واتفق معهم على غدر محمد بيك فركبوا عليه ليلا وأحاطوا بداره، ووقفت له العساكر بالأسلحة فى الطرق فركب فى خاصته وخرج من بينهم وذهب إلى ناحية البساتين وارتحل إلى الصعيد ، فحضر إليه بعض الأمراء أصحاب المناصب وعلى كاشف تابع سليمان أفندى كاشف شرقى أولاد يحيى وقدموا له ما معهم من الخيام والمال والاحتياجات ، ولم يزل فى سيره حتى وصل إلىٰ جرجا واجتمع عليه أيوب بيك خشداشه وأظهر له المصافاه والمؤاخاة وقدم له هدايا وخيولا وخياما فلم يلبث إلا وقد أحضر عيون محمد بيك الذين أرصدهم بالطريق رجلا ومعه (ص٨٧٢) مكاتبة من على بك خطابا لأيوب بيك ويستحثه على عمل الحيلة وقتل محمد بيك بأى وجه أمكنه ويعده إمارته وبلاده وغير ذلك،فلما قرأ المراسلة وفهم مضمونها أكرم الرجل وقال له «تذهب إليه بالكتاب واتنى بجوابه ولك مزيد الاكرام، فذهب ذلك الساعى واوصل الكتاب إلى أيوب بيك وطلب منه رد الجواب، وأعطاه الجواب وذكر فيه أنه مجتهد فى تتميم الغرض ومترقب حصول الفرصة فحضر به الى محمد بك فعند ذلك استعد محمد بك وتحقق خيانته ونفاقه، فاتفق مع خاصته وأمرائه بالاستعداد والوثوب، وأنه إذا حضر إليه فى صبحها أيوب بيك أخذ أرباب المناصب نظراهم وتحفظوا عليهم، فلما حضر فى صبحها أيوب بيك جلس معه فى خلوة وأخذ كل من الخازندار والكتخدا والجوخدار والسلحدار نظراهم من جماعة محمد بيك ثم قال محمد بيك يخاطب أيوب بيك: ياهل ترى نحن مستمرون على الأخوة والمصافاة والصداقة والعهد واليمين الذى تعاقدنا عليه بالشام! قال نعم وزيادة قال: ومن نكث

ذلك وخان اليمين ونقض العهد؟ قال : يقطع لسانه الذى حلف به ويده التى وضعها على المصحف، فعند ذلك قال له : بلغنى أنه أتاك كتاب من أستاذنا على بك، فجحد ذلك فقال لعل ذلك صحيح وكتبت له الجواب أيضا، قال لم يكن ذلك أبدا، ولو أتانى منه جواب، لاطلعتك عليه ولا يصح أنى أكتمه عنك أو أرد له جوابا فعند ذلك أخرج له الجواب من جيبه وأحضر إليه ذلك الرسول فسقط فى يده وأخذ يتنصل ببارد العذر، فعند ذلك قال له حينئذ لا تصح مرافقتك (٨٧٣) معى وقم فاذهب إلى سيدك وأمر بالقبض عليه وأنزلوه إلى المركب وأحاط بوطاقه وأسبابه ، وتفرقت عنه جموعه، فلما صار وحيدا فى قبضته أحضر عبد الرحمن أغا وكان إذ ذاك بناحية قبلى وانضم إلى محمد بك فقال له: «اذهب إلى أيوب بك واقطع يده ولسانه كما حكم على نفسه بذلك». فأخذ معه المشاعلى وحضر إليه فى السفينة وقطعوا يمينه ثم شبكوا فى لسانه سنارة وجذبوه ليقطعوه فتخلص منهم وألقى بنفسه إلى البحر فغرق ومات، وكان قصد محمد بك أن يفعل به ذلك ويرسله على هذه الصورة إلى سيده بمصر، ثم إنهم أخرجوه وغسلوه وكفنوه ودفنوه، فعند ما وقع ذلك أقبلت الأمراء والأفراد المتفرقون بالأقاليم على محمد بك وتحققوا عند ذلك الخلاف بينه وبين سيده، وقد كانوا منجمعين عن الحضور إليه ويظنون خلاف ذلك. وحضر إليه جميع المنافى وأتباع القاسمية والهوارة الذين شردهم على بك وسل نعمتهم فأنعم عليهم وأكرمهم وتلقاهم بالبشاشة والمحبة واعتذر لهم وواساهم وقلدهم الخدم والمناصب، وهم أيضا تقيدوا بخدمته وبذلوا جهدهم فى طاعته ووصلت الأخبار بذلك إلى مصر، وحضر إليه كثير من مماليك أيوب

تصرفوا حسن انظاركم السنيه. فى الملاحظة لحفظ الرعيه.كما هو من صفات اخلاقكم الرضيه. وما لنا بذلك قصد سوى ان تغتنموا دعاهم. ويكون بذلك الثنا والحمد عند الله والعبيد. وقد وجهنا ناقل صحيفة الدعا بنوع التهنى للجناب ليلا يطول بنا فى هذه النميقة الاسهاب. لان محامد حمدكم بحر لا يقاس. ولا يحصيه يراع ولا قرطاس. والمذكور يعرض لديكم لكونه معتمدنا والرجا ان لا تخرجونا من خاطركم الشريف واطال الله بقاكم والسلام.

بك وأتباعه سوى من انضم منهم والتجأ إلى محمد بك وأتباعه فعند ذلك نزل بعلى بك من القهر والغيظ المكظوم مالا يوصف، وشرع فى تشهيل تجريدة عظيمة وأميرها وسر عسكرها إسماعيل بك واحتفل بها احتفالا كثيرا، وأمر (ص٨٧٤) بجمع أصناف العساكر واجتهد فى تنجيز أمرها فى أسرع وقت، وسافروا برا وبحرا فى أواخر ذى القعدة، فلما التقى الجمعان خامر إسماعيل بك وانضم بمن معه من الجموع إلى محمد بك وصاروا حزبا واحدا ورجع الذين لم يميلوا وهم القليل إلى مصر، فعند ذلك اشتد الأمر بعلى ولاحت على دولته لوايح الزوال، وكاد يموت من الغيظ والقهر، وقلد سبع صناجق والكل مزلقون* وسماهم أهل مصر السبع* بنات وهم مصطفى بك وحسن بك ومراد بك وحمزة بك ويحيى بك وخليل بك كوسة ومصطفى بك أوده باشه، وعمل لهم* يرقا وداقما* ولوازم وطبلخانات فى يومين، وضم إليهم عساكر وطوائف ومماليك وأتباعا، وبرز بنفسه إلى جهة البساتين وشرع فى تشهيل تجريدة أخرى، وأميرها على بك الطنطاوى وأخرج الجبخانات والمدافع الكثيرة وأمر بعمل متاريس من البحر إلى جهة الجبل وانقضت السنة.

* مذلقون: أى بدون لحى.
*أمراء على بك الكبير [السبع بنات]

* يرق: سلاح.
* داقم: جنود.

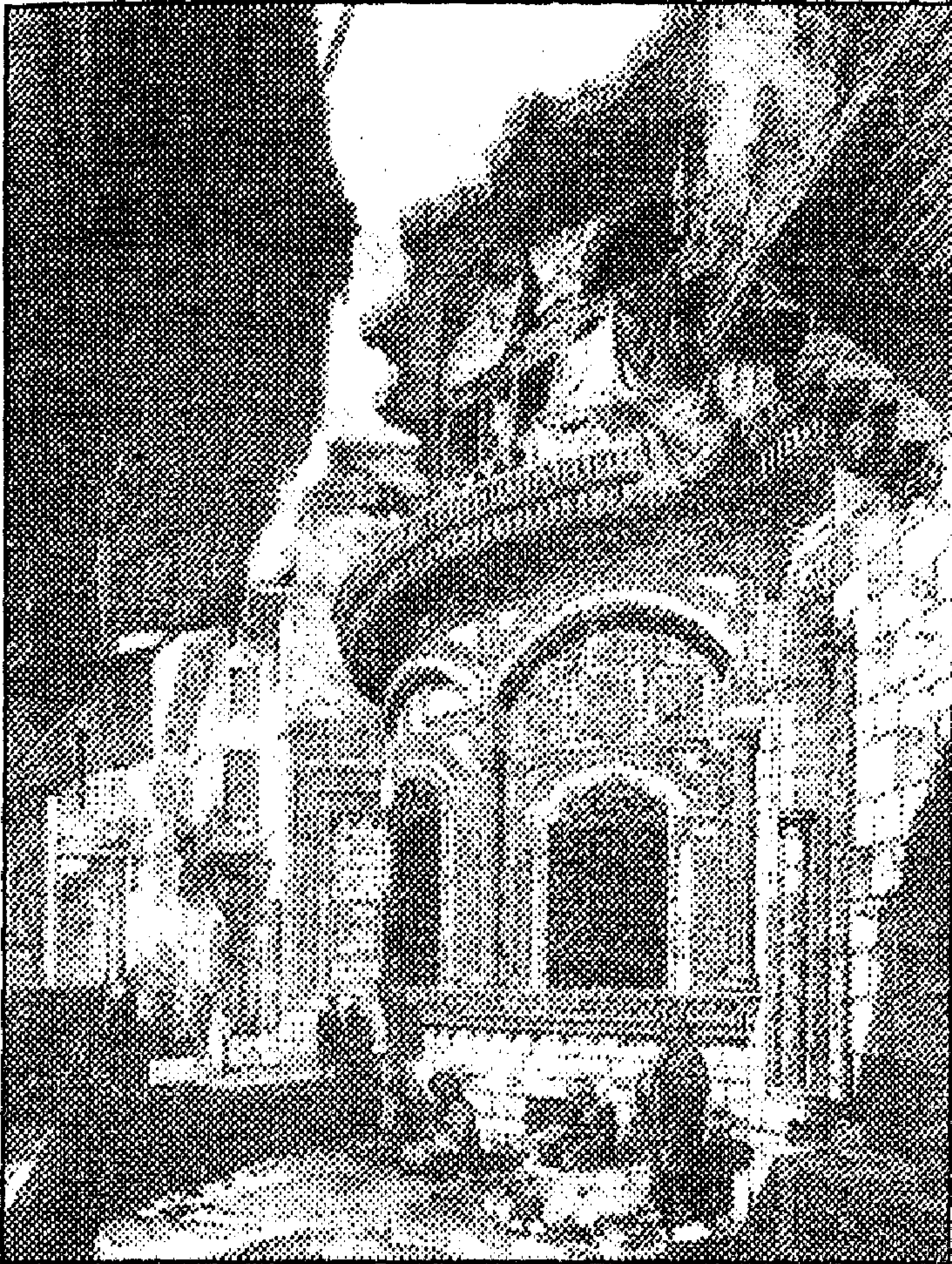
(وأما من مات فى هذه السنة من له ذكر)

٣٣٥ على بن صالح الشاورى

(ومات) الإمام الفقيه الصالح الخير الشيخ/ على صالح بن موسى بن أحمد عمارة الشاورى المالكى مفتى فرشوط، قرأ بالأزهر العلوم ولازمه العلامة الشيخ على العدوى وتفقه عليه، وسمع الحديث من الشيخ أحمد بن مصطفى

السكندرى وغيره ، ورجع إلى فرشوط، فولى افتاء المالكية بها، فسار فيها سيرا مقتصدا، ولما ورد عليه الشيخ ابن الطيب راجعا من الروم تلقى عنه شيئا من الكتب وأجازه، وكان لشيخ العرب همام بن يوسف فى حقه عناية (ص٨٧٥) شديدة وصحبة أكيدة، وكانت شفاعات العلماء مقبولة عنده، بعنايته، ولذلك راج أمره واشتهر ذكره وطار صيته وكان حسن المذاكرة والمحاورة محتشما فى نفسه، متجملا فى ملابسه وجيها معتبرا فى الأعين، وألف شيخنا السيد محمد مرتضى باسمه (نشق الغوالى من المرويات العوالى) وذلك أيام رحلته إلى فرشوط ونزوله عنده، ورفع من شأنه عند شيخ العرب وأكرمه إكراما كثيرا، ولما تغيرت أحوال الصعيد، قدم إلى مصر مع ابن مخدومه، ومازال بها حتى توجه إلى طندتا. كان يعتريه حصر البول فيجلس أياما وهو ملازم للفراش فزار وعاد. توفى يوم دخوله إلى بولاق نهار الثلاثاء ثالث عشر شعبان من السنة، وكان يوما مطيرا ذا رعد وبرق، فوصل خبره إلى الجامع الأزهر، فخرج إليه الشيخ على الصعيدى وكثير من العلماء ، وتخلف من تخلف لذلك العذر، فجهزوه هناك وكفنوه وأتوا به إلى الأزهر، وأردا الشيخ الصعيدى دفنه فى مدفن عبد الرحمن كتخدا، لصعوبة الذهاب به إلى القرافة، ثم دفنوه بالمجاورين بجانب تربة الشيخ الصعيدى التى دفن فيها.

[ومات] الفقيه الفاضل العلامة الشيخ/ على بن عبد الرحمن بن سليمان بن عيسى بن سليمان الخطيب الجديمى العدوى المالكى الأزهرى الشهير بالخرايطى، ولد فى ٣٣٦ على بن عبد الرحمن العدوى



سبيل عام بالقاهرة
((سبيل البدوية)

أول القرن وقدم الجامع الأزهر، فحضر دروس جماعة من فضلاء العصر ولازم بلديه الشيخ على الصعيدى ملازمة كلية، ودرس بالأزهر ونفع الطلبة، وكان إنسانا حسنا (ص٨٧٦) منور الشيبة ذا خلق حسن وتودد وبشاشة ومروة كاملة، وكان له ميل تام فى علم الحديث ويتأسف على فوات اشتغاله به، ويحب كلام السلف ويتأمل فى معانيه مع سلامة الاعتقاد وكثرة الإخلاص. توفى عشية يوم الأربعاء ثانى المحرم افتتاح سنة خمس وثمانين وماية وألف.

٣٣٧ محمد بن اسماعيل النفراوى.

[ومات] الإمام العلامة الفاضل المحقق الدراك المتفنن الشيخ / محمد بن اسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن خضر النفرواى المالكى، كان والده من أهل العلم والصلاح والزهد عن جانب عظيم، وعمر كثيرا حتى جاوز الماية

وانحنى ظهره، وتوفى سنة ثمان وسبعين ومائة وألف، ربى المترجم فى حجر أبيه وحفظ القرآن والمتون وحضر دروس الشيخ سالم النفراوى والشيخ خليل المالكى وغيرهما، وتفقه وحضر المعقول على كثير من الفضلاء ومهر وأنجب ودرس، وكان جيد الحافظة قوى الفهم والغوص على عويصات المسايل ودقايق العلوم، مستحضرا للمسايل الفقهية والعقلية، ولما بلغ المنتهى فى العلوم المشهورة تاقت نفسه للعلوم الحكمية والرياضية، فأحضره والده للشيخ الوالد سنة إحدى وسبعين ومائة وألف، والتمس منه مطالعته عليه فأجابه إلى ذلك ورحب به، وكان عمره إذ ذاك نيفا وعشرين سنة، ولما رأى ما فيه من الذكا والنجابة والقوة الاستعدادية والجد فى الطلب، اغتبط به كثيرا وصرف إليه همته وأقبل عليه بكليته وأعطاه مفتاح خزانة بالمنزل يضع فيها كتبه ومتاعه، واشترى له حمارا ورتب له (ص٨٧٧) مصروفا وكسوة ولازمه ليلا ونهارا ، حتى اشتهر بنسبته إليه، فكان يرسله فى مهماته وأسراره إلى أكابر مصر وأعيانها مثل على بك وعبد الرحمن كتخدا وغيرهما، فيحسن الخطاب والجواب مع الحشمة وحسن المخاطبة، مع معرفتهم بفضله وعلمه وكانوا يكرمونه، ومدحهم بقصايد لم أعثر على شيء منها للإهمال وطول العهد، فكان لا يذهب إلى داره إلا فى النادر ثم يعود فى الضحوة الكبرى فيقيم إلى بعد العصر فيذهب إلى الجامع فيقرأ درسا فى المعقول ثم يعود وهكذا كان دأبه إلى أن مات! وتلقى عنه فن الميقات والهيئة والهندسة وهداية الحكمة وشرحها لقاضى زاده والجغمينى، والمبادى والغايات والمقاصد فى أقل زمن مع التحقيق. وحضر عليه المطول والمواقف، والزيلعى فى الفقه

برواق الجبرت بالأزهر وغير ذلك. كل ذلك بقراءته، وعانى علم الأوفاق وتلقاه عن الشيخ المرحوم حتى أدرك أسراره وأقبلت عليه روحانيته وأجازه الملوى والجوهرى والحفنى والعفيفى وغيرهم، ولما نفى على بك إلى النوسات، أرسل إلى الشيخ [الوالد] فطلب منه أشياء يرسلها إليه مع المترجم، فأرسله إليه وأقام عنده أياما ورجع من غير أن يعلم أحد بذهابه ورجوعه، وكان يكتب الخط الجيد، وجوده على الشيخ أحمد المعروف بأبى العز، وكتب بخطه كثيرا، وألف حاشية على شرح العصام على السمرقندية وأجوبة عن الأسئلة الخمسة التى أوردها (ص٨٧٨)الشيخ أحمد الدمنهورى على علماء العصر وأعطاها إلى على بيك وقال له أعطها للعلما الذين يترددون عليك يجيبونى عنها إن كانوا يزعمون أنهم علما، فأعطاها على بك للشيخ الوالد وأخبره بمقالة الشيخ الدمنهورى، فقال له هذه وإن كانت من عويصات المسائل يجيب عنها ولدنا الشيخ محمد النفراوى» والخمسة الأسئلة المذكورة؟ الأولى فى إبطال الجزء الذى لا يتجزأ ، الثانى فى قول «ابن سينا» ذات الله نفس الوجود المطلق ما معناه، الثالث فى قول أبى منصور «الماتريدى» معرفة الله واجبة بالعقل مع أن المجهول من كل وجه يستحيل طلبه، الرابع فى قول «البرجلى» إن من مات من المسلمين لسنا نتحقق موته على الأسلام، الخامس فى الاستثناء فى الكلمة المشرفة هل هو متصل أو منفصل، فأجاب عنها بأجوبة منطوية على مطارح الإنظار دلت على رسوخه وسعة اطلاعه وغوصه ومعرفته بدقايق كلام أذكيا الحكماء والمتكلمين وفضلاء الأشعرية والماتريدية، وعانى الرسم فرسم عدة بسايط ومنحرفات وحسب كثيرا من

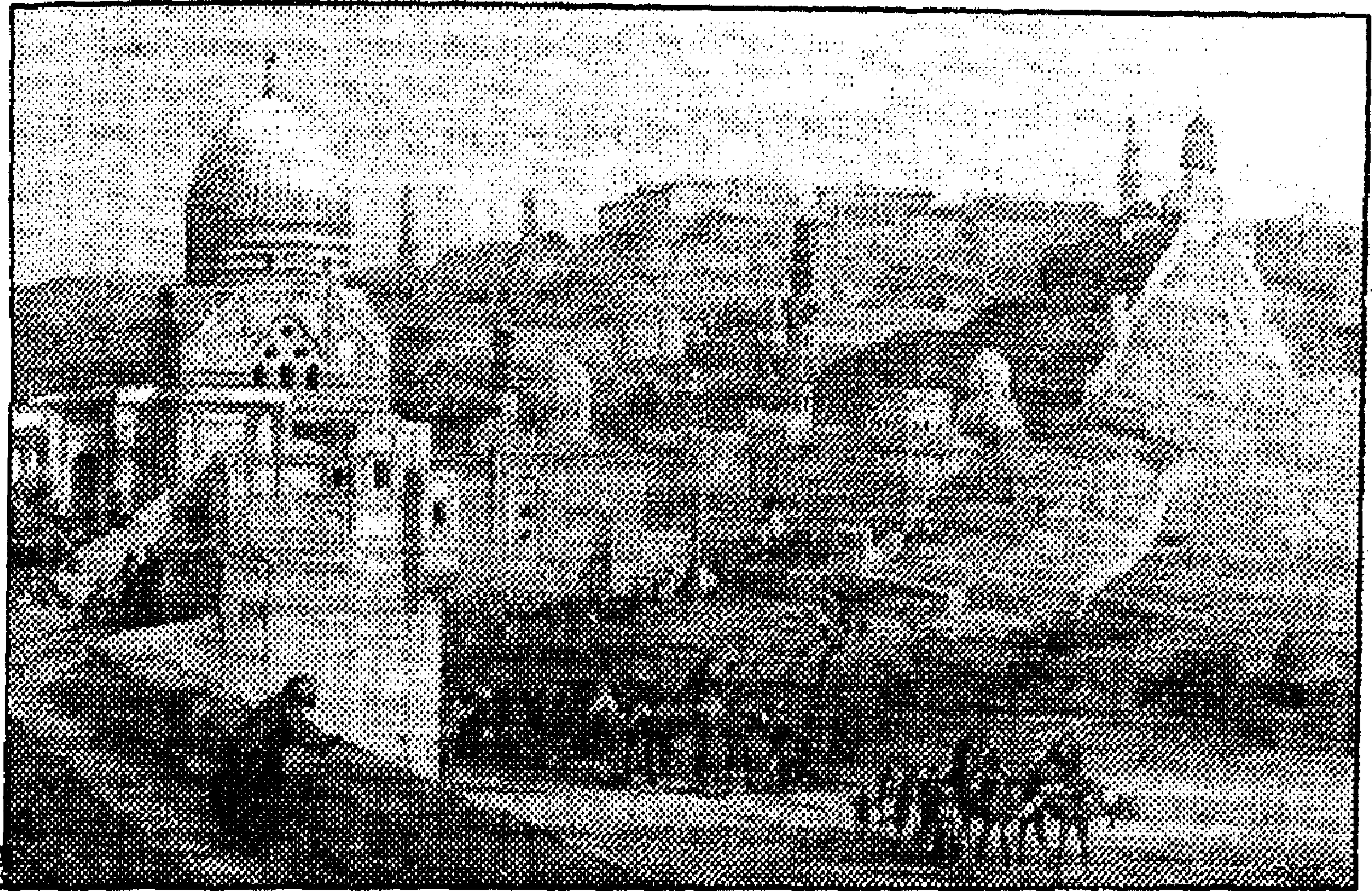
الأصول والدساتير، وتصدى لتعليم الطلبة الذين كانوا يردون من الآفاق لطلب العلوم الغريبة، وكتب شرحا على متن نور الإيضاح فى الفقه الحنفى باسم الأمير عبد الرحمن كتخدا، وله رسالة سماها (الطراز المذهب فى بيان معنى المذهب وهى عبارة عن سؤال ورد من ثغر سكندرية نظما، وكان له سليقة جيدة فى النثر والنظم، ولما ورد إلى مصر محمد أفندى سعيد قاضيا فى سنة إحدى وثمانين وماية وألف (ص٨٧٩) امتدحه بقصيدة بليغة لم أعثر عليها، ومن نظمه ماكتب على باب ضريح السيدة نفيسة بالذهب على الرخام.

عرش الحقايق مهبط الأسرار
قبر النفيسة بنت ذى الأنوار
حسن بن زيد الحسن ابن الإما
م على ابن عم المصطفى المختار

وذلك حين جدد بناه الأمير عبد الرحمن كتخدا ومنه ما كتب على باب القبة:

عبد الرحمن لعفو قد ترجى
قد بناها روضة للزائرين
فلذا أرختها ياريديها
أدخلوها بسلام آمنين

وله غير ذلك كثير لم يحضرنى منه إلا هذان البيتان لكونى حفظتهما وأنا صغير أيام العمارة المذكورة، وكان به حدة طبيعة وهى التى كانت سببا لموته، وهو أنه حصل بينه وبين الشيخ سليمان البجيرمى منافسة فشكاه إلى الشيخ الدمنهورى وهو إذ ذاك شيخ الجامع، فأرسل إليه فلما حضر عنده فى مجلسه بالأزهر ، فتحامل عليه فقام، من عنده وقد أثر فيه القهر ، ومرض أياما وتوفى فى شهر جمادى الثانية من



السنة، واغتم عليه الشيخ المرحوم غما شديدا، وتأثر لفراقه وحزن لموته وتوعك أياما بسبب ذلك، ومن مآثره هذه الصيغة : اللهم صل على مظهر الجمال، ومنبع الكمال، مهبط الوحي، ومصدر الأمر والنهي، وعلى آله وصحبه وسلم) (ص٨٨٠) وتذكرت له هذين البيتين أيضا:

بالعز سيروا وبالسلامه
فالسعد أضحى لكم علامه
واللطف حصن مع الكرامه
لكم دواما إلى القيامه

٣٣٨ ابراهيم عبد الله الشرقاوى.

[ومات] الإمام الفقيه العلامة المفتى الشيخ/ ابراهيم ابن الشيخ عبد الله الشرقاوى الشافعى تفقه على علماء عصره وحضر دروس الأشياخ المتقدمين كالملوى والحفنى والبراوى والشيخ أحمد رزه والشيخ عطية الأجهورى، وأنجب فى

الأصول والفروع الفقهية، وتصدر ودرس وانقطع للإفادة والإفتاء والقضاء بين المتخاصمين من أهل القرى وأكثرهم من أهل بلاده، وكان لا يفارق محل درسه بالأزهر من الشروق إلى الغروب، وانفرد بالافتاء مدة طويلة على مذهبه، وقلما يرى فتوى وليس عليها جوابه، ولم يزل هذا دأبه حتى تعلل أياما وتوفى ثالث ربيع الثانى من السنة.

٣٣٩ على بن محمد الجزايرلى ابن الترجمان صاحب عرضحال استغاثة ابو مدين الغوث فى صف الجهاد. مات مأسورا فى الموسكو.

[ومات] أحد أذكيا العصر ونجباء الدهر من جمع متفرقات الفضايل وحاز أنواع الفواضل، الصالح الرحلة الشيخ/ على بن محمد الجزايرلى المعروف بابن الترجمان، ولد بالجزاير سنة ثلاثين وماية وألف. وكان ينتمى إلى الأشراف، وزاحم العلماء بمناكبه في تحصيل أنواع العلوم، وأجازه الشيخ سيدى محمد المنور التلمسانى رحمه الله، ودخل الروم مرارا، وحظى بأرباب الدولة وأتى إلى مصر وابتنى بها دارا حسنة قرب الأزهر، وكان يخبر عن نفسه أنه لا يستغنى عن الجماع فى كل يوم (ص٨٨١)، فلذلك ما كان يخلو عن إمرأة واثنتين حتى فى أسفاره، ولما ورد الأمير أحمد أغا أمينا على دار الضرب بمصر المحروسة الذى صار فيما بعد باشا، كان مختصا بصحبته لا يفارقه ليلا ولا نهارا،وله عليه إغداقات جميلة ، وهو حسن العشرة يعرف فى لسانهم قليلا، وبآخرة توجه إلى دار السلطنة وكانت إذ ذاك حركة السفر إلى الجهاد وكتب عرضحالا إلى السلطان مصطفى صورته «إن من قرأ استغاثة أبي مدين الغوث في صف الجهاد حصلت النصر» وقدمه إلى السلطان ، فاستحسن أن يكون صاحب هذا العرض هو الذى يتوجه بنفسه يقرأ هذه الاستغاثة تبركا، ففاجأه الامر من حيث لا يحتسب وأخذ

فى الحال وكتب مع المجاهدين وتوجه رغما عن أنفه ووصل إلى معسكر المسلمين، وصار يقرأ فقدر الله الهزيمة على المسلمين لسوء تدبير أمرا العسكر، فأسر مع من أسر، وذهب به إلى بلاد موسقو وبقى أسيرا مدة، ولم يغثه أحد بخلاصة منهم، لاشتغال الناس بما هو أهم حتى توفى هناك شهيدا غريبا فى هذه السنة رحمه الله.

٣٤٠ على الفيومى.

(ومات) الشيخ الصالح العلامة/ على الفيومى المالكى شيخ رواق أهل بلاده ؛ حضر دروس الشيخ ابراهيم الفيومى وشيخنا الشيخ على الصعيدى ودرس برواقهم وكان سريع الإدراك متين الفهم له فى علم الكلام باع طويل، وتزوج ابنة الشيخ أحمد الحماقى الحنفى، وتوفى ثانى شهر رمضان من السنة ودفن بالمجاورين.

٣٤١ على الشيبينى.

(ومات) الشيخ الفاضل الصالح/ على الشيبينى الشافعى نزيل جرجا، قرأ على جماعة من مشايخ عصره وتكمل فى العربية والفقه، وتوجه إلى الصعيد فخالط أولاد همام من الهوارة فى بيج القرمون، فأحُبوه وسكن عندهم مدة ثم سكن جرجا (ص٨٨٢) وكان يتردد أحيانا إلى مصر وكان كثير الاجتماع بصهرنا على أفندى درويش المكتب، وكان يحكى لى عنه أشياء كثيرة من مآثره من الصلاح والعلم وحسن المعاشرة ومعرفة التجويد ووجوه القراءات، فلما تغيرت أحوال الصعيد أتى المترجم إلى مصر وكان حسن المذاكرة والموافقة مع مداومة الذكر وتلاوة القرآن غالبا، توفى تاسع عشر رمضان فى بيت بعض أحبابه بعلة البطن، وصلى عليه الشيخ أحمد بن محمد الراشدى ودفن

بالمجاورين

[ومات] العمدة الفاضل اللغوى الماهر المنشىء الأديب الشيخ/ عبد الله بن منصور التلباني الشافعي المعروف بكاتب المقاطعة ، وهو ابن أخت الشيخ المعمر أحمد بن شعبان الزعبلي، ولد سنة ثمان وتسعين وألف تقريبا وأدرك الطبقة الأولى من الشيوخ كالعزيزى والعشماوى والنفراوى، وكانت له معرفة تامة بعلم اللغة والقراءة، واقتنى كتبا نفيسة في ساير الفنون كان سموحا بإعارتها لأهلها، وكان يعرف مظنات المسايل في الكتب، وكان الأشياخ يجلونه ويعرفون مقامه، ولما دخل الشيخ ابن الطيب أحبه واغتبط به وبصحبته، وحصل حاشيته على القاموس في مجلدين حافلين استكتابا، وقرظ على شرح البديعية لعلى بن تاج الدين القلعي ذكر فيه من نوع وسع الاطلاع له. ٣٤٢ عبد الله بن منصور التلباني.

سعاد دعتني يوم مرت تواصلا

الا أيها الحادون نيخوا المطا بنا

وكتب على المقامة التصحيفية للشيخ عبد الادكاوى وقد أهدى إليه نسخة منها ما نصه:

[عبد الله. عند الله. وجيه. وحبه. مجتم. مخيم. (ص٨٨٣). بقلوبنا . تعلو بنا. سماته. سما به. عمله. عماله. التواب. الثواب. ولا حرمنا. ولاء حرمنا. الابهج. الانهج. مهدى. مهذب. نواله. نوّاله. ماالهم. مألهم. دونه. دوّنه. بقالب. تعالى. نبية. بنية. فاحلا لنا. اخلالنا. لحبر. حبّر. بفصاحة. قضاحبه. وخير. جبر. احبابنا. احيابنا. ثره. بره. ومثال محب. من الحب. من . من . السلام. السلام]*

واتفق أن بعض المعترضين في مجلسه قد وضع من هذا

* النص السابق موجودا في مخطوط جامعةم القاهر وغير موجود بكافة الطبعات السابقة لتاريخ الجبرتي.

الوضع.

فرد عليه المترجم وانتصر لصاحب المقامة فلما بلغ ذلك كتب إليه يشكره.

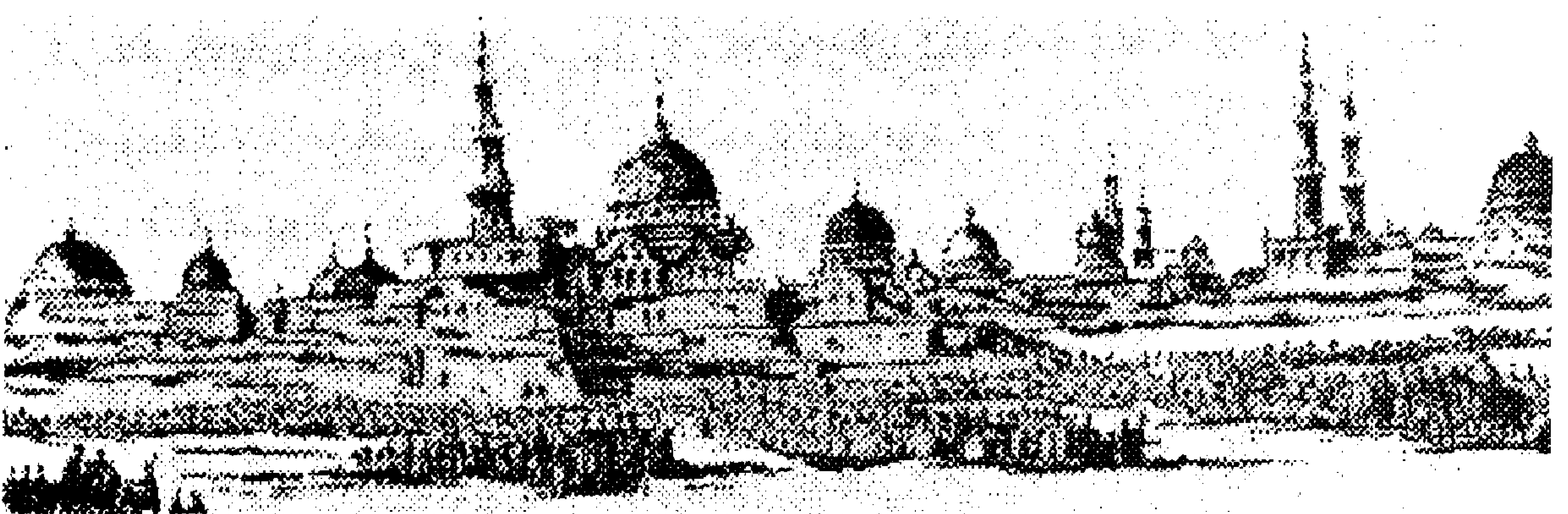
[عبد الله. عند الله. اوجه . اوّجه.لجمته. لحّ هتّه. نخبة. تحية. ندية. ندّيه. ينبيه. ببينة. ثابتات. بائيات. حبى. حيث. نصرنى. نصيرين. بنيئر ينيّر. بينر. سيّر. ذكى. دلت. معاينه. معانيه. علىء. علىّ. رتبة. زينته. حلة. خلة. ودفانى. ودقانى. عيب. عى. غبى يعيب. يعين. حاسد. حاشد. قوله. فوله . ودعه. ودغه. فاتهما. فأتهما. حسن. جنس. المعنى. المعين. بفصاحته. تفض ايحه. بقيت. تفتى. بحق. يحف. بتحف. تتحف. بهيا نهاء. محب. محب. اذاه. اداة. ادبك. اذيك. آسى. أسى . قلبه. اراحه. ازاحه. فصل . فضل . سيده. شيده. البصير.النصير]*

* هذا النص موجود فى مخطوط جامعة القاهرة وغير موجود بكافة الطبعات السابقة الصادرة عن كتاب الجبرتى.

ولم يزل حتى فاجأته المنون فى ثالث عشرين شعبان من السنة وصلى عليه بالجامع الأزهر ودفن شرقى مقام سيدى عبد لله المنوفى بالمجاورين رحمه الله.

٣٤٣ ابراهيم أفندى الهياتم

ومات الأمير الجليل ابراهيم أفندى الهياتم جمليان مطعونا فى نهار الأربع ثالث عشرين المحرم من السنة.



"سنة ست وثمانين وماية وألف"[١٧٧٢م]

* هروب على بك الكبير إلى الشام واستيلاء محمد بك ابو الدهب على القاهرة.

١١٨٦هـ.
١٤٨٨ق.
١٧٧٢م.
غاية الفيضان ١٦ قيراط ١٩ ذراع

□ في أواخر القعدة سنة ١١٨٥ كان قيام تجريدة من مصر تحت إمرة اسماعيل بك الذى انضم بمن معه إلى أبي الذهب عندما تقابل معه. وفي محرم سنة ١١٨٦ عسكر على بك الطنطاوى بتجريدة كبيرة جهة البساتين ليصد محمد بك أبي الذهب ومن معه فحصلت بينهم مقتلة عظيمة عند البياضة انهزم فيها على بك وجماعته وآل الأمر الى ان على بك رجع القهقرى ودخل من باب القرافة الى منزله، وبعد ان اخذ امواله خرج وذهب الى الشام وصحبته على بك الطنطاوى، وكان ذلك في ليلة الخميس السابع والعشرين من محرم. وفي يوم الخميس اوقدوا النار في الدير [دير الطين] عند دار السلام بعد ان نهبوه، وتملك ابو الدهب مصر واستحضر عبداله كتخدا وقطع رأسه، ونادى بابطال المعاملة التى ضربها على بك وهي قروش مفرد ومجوز وقطع صغار تصرف بعشر انصاف وخمسة انصاف ونصف القرش واكثرها نحاس وعليها علامة على بك.

□ ١ توت ١٤٨٩ = ٩ سبتمبر ١٧٧٢ = الاربع ١١ رجب ١١٨٦.

□ ١ يناير ١٧٧٣ = ٢٥ كيهك ١٤٨٩ = الجمعة ٧ شوال سنة ١١٨٦.

فيها في المحرم خرج على بك إلى جهة البساتين كما تقدم في أواخر العام الماضى وعمل متاريس ونصب عليها المدافع من البحر إلى الجبل واجتهد في تشهيل تجريدة وأميرها على بك الطنطاوى وصحبته باقي الأمراء الذين قلدهم والعسكر فعدوا في منتصفه لمحاربة محمد بك أبي الذهب واسماعيل بك ومن معهما وكانوا سايرين يريدون مصر فتلاقوا معهم عند بياضه [قرب المعادى] ووقعت بينهم معركة قوية ظهر فيها فضل القاسمية وخصوصا أتباع صالح بك وعلى أغا المعمار، ووقعت الهزيمة على عسكر على بك وساق خلفهم القبالى مسافة فمانعوا عن أنفسهم وعدوا على دير الطين،، وكان على بك مقيما به، فلما حصل ما حصل اشتد القهر بالمذكور وتحير في أمره وأظهر التجلد وأمر بالاستعداد وترتيب المدافع وأقام إلى آخر النهار، وتفرق عنه غالب عساكره من المغاربة وغيرهم، وحضر محمد بك إلى البر المقابل لعلى بك ونصب صيوانه وخيامه تجاهه، فتفكر على بك في أمره وركب عند الغروب وسار إلى جهة مصر ودخل من باب القرافة وطلع إلى باب العزب فأقام به حصة من الليل، وأشيع بالمدينة (ص٨٨٥) أن مراده المحاصرة بالقلعة ثم إنه ركب إلى داره وحمل حموله وأمواله وخرج من مصر وذهب إلى جهة الشام وذلك ليلة الخامس والعشرين من شهر المحرم وصحبته على بك الطنطاوى وباقي صناجقه ومماليكه وأتباعه وطوايفه، فلما أصبح يوم الخميس سادس عشرينه عدى محمد بك إلى بر مصر وأقدوا النار في ذلك اليوم في الدير بعد ما نهبوه،

ودخل محمد بك إلى مصر وصار أميرها ونادى أصحاب الشرطة على أتباعه [اى اتباع على بك] بأن لا أحد يؤويهم ولا يتاويهم. فكانت مدة غيبته سبعين يوما، وأرسل عبد الرحمن أغا مستحفظان إلى عبد الله كتخدا الباشا فذهب إليه بداره وقبض عليه وقطع رأسه ونادى بإبطال المعاملة التى ضربها المذكور بيد رزق النصرانى، وهى قروش مفرد ومجوز، وقطع صغار تصرف بعشرة أنصاف قرش، وكان أكثر ما نحاسا وعليها علامة على بك..

(وأما من مات فى هذه السنة من العظماء)

٣٤٤ على بن موسى(ابن النقيب) نقيب أشراف بيت المقدس.

[فمات] السيد الإمام العلامة الفقيه المحدث الفهامة الحسيب النسيب السيد على بن موسى بن مصطفى بن محمد ابن شمس الدين بن محب الدين ابن كريم الدين بن بهاء الدين داود بن سليمان بن شمس الدين بن بهاء الدين داود الكبير بن عبد الحافظ ابن أبى الوفا محمد البدرى ابن أبى الحسن على ابن شهاب الدين أحمد بن بهاء الدين داود بن عبد الحافظ بن محمد بن بدر ساكن وادى النسور ابن يوسف بن بدران بن يعقوب بن مطربن زكى الدين سالم (ص٨٨٦) بن [محمد بن محمد بن زيد بن] حسن بن السيد عريض المرتضى الأكبر ابن الإمام ززيد الشهيدبن الامام على زين العابدين ابن السيد الشهيد الامام الحسين ابن الامام على بن أبى طالب الحسينى المقدسى الأزهرى المصرى ويعرف بابن النقيب، لأن جدوده تولو النقابة ببيت المقدس، ولد تقريبا سنة خمس وعشرين وماية وألف ببيت المقدس وبها نشأ وقرأ القرآن

على الشيخ مصطفى الأعرج المصرى والشيخ موسى كبيبة على عود ومحمد بن نسيبة الفضلى المكي، وأخذ العلم عن عم أمه صاحب الكرامات حسين العلمي نزيل مدينة اللد* وأبى بكر بن أحمد العلمى مفتى القدس والشيخ عبد المعطى الخليلى، ووصل إلى الشام فحضر دروس الشيخ أحمد المتينى والشيخ اسماعيل العجلونى والشيخ عبد الغنى النابلسى واجتمع على الشيخ صالح البشيرى الآخذ عن الخضر عليه السلام وعامر بن نعيم وأحمد القطنانى ومصطفى بن عمرو الدمشقى، وكان من الأبدال* وأحمد النحلاوى وكان من أرباب الكشف ومحمد بن عميرة الدمشقى وعمران الدمشقى وزيد اليعبداوى وخلفه بن على اليعبداوى ورضوان الزاوى وأحمد الصفدى المجذوب والشيخ مصطفى بن سوار، ودخل حماه فأخذ عن القطب السيد ياسين القادرى، وحلب فأخذ بها عن أحمد البنى وعبد الرحمن السمان، كلاهما من تلاميذ الشيخ أحمد الكتبى وعن الشيخ محمد بن هلال الرامهدانى والشيخ عبد الكريم الشرباتى، وعاد إلى بيت المقدس فاجتمع بالشيخ عبد الغنى النابلسى أيضا وبالسيد (ص٨٨٧) مصطفى البكرى بحلب حين كان راجعا من بغداد ، فأخذ عنه الطريقة ورغبه في مصر فوردها، وحضر على الشمسى السجينى ومصطفى العزيزى والسيد على الضرير الحنفى وأحمد مصطفى الصباغ والشهابين الملكى والجوهرى والشمس الحفنى وأحمد العماوى وشيخ المذهب سليمان المنصورى، وأجازه سيدى يوسف بن ناصر الدرعى وأحمد العربى* وأحمد بن عبد اللطيف زروق وسيد محمد العياشى الأطروش والشيخ ابن الطيب، ورأس في المذهب

* اللد: بشمال فلسطين

* الأبدال : في لغة شالمتصوفة هم قوم من الصالحين لا تخلو منهم الدنيا إذا مات واحد منهم أبدل الله تعالى مكانه بآخر، مفرده بديل.

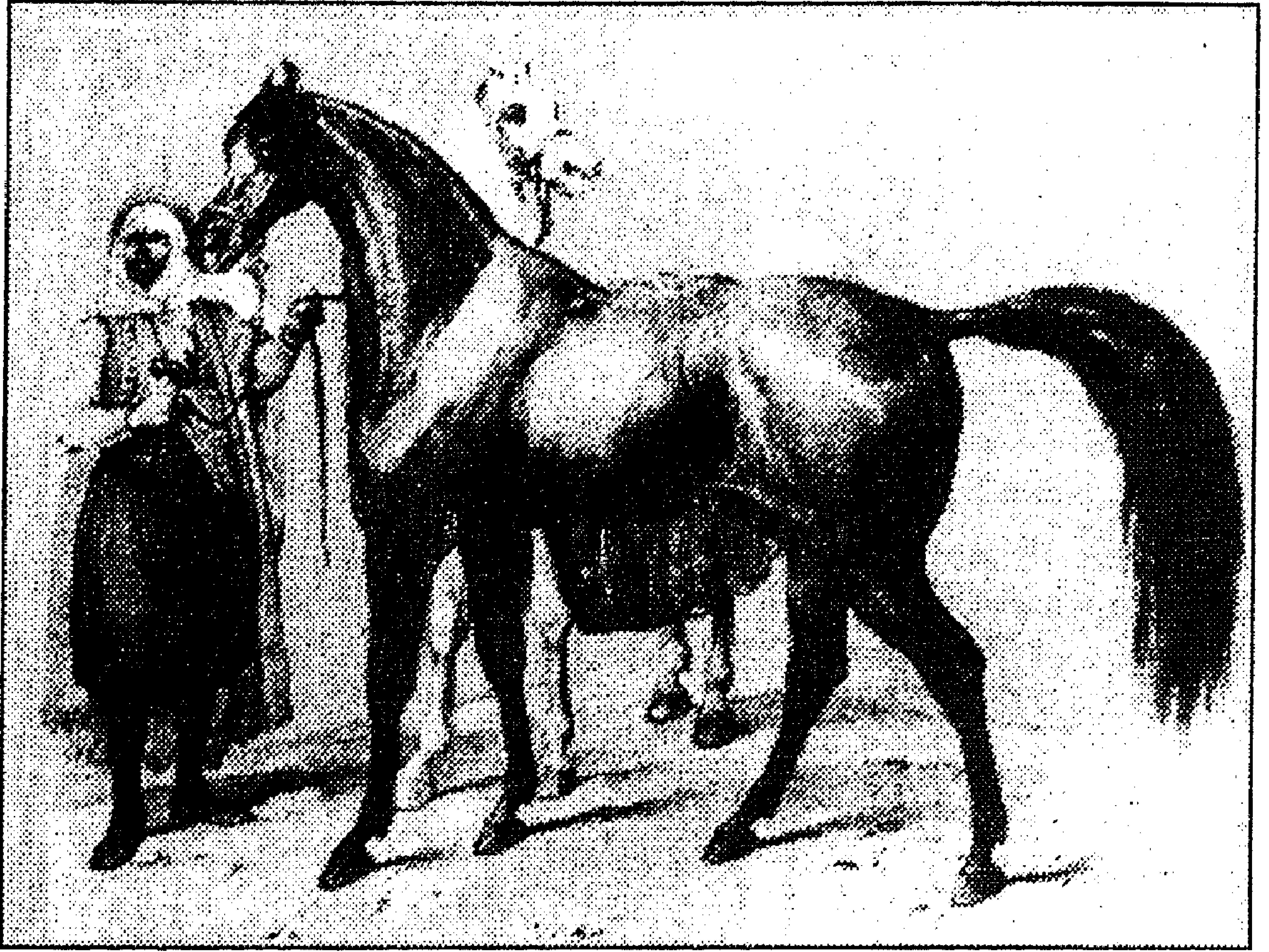
* من الملاحظ ان المغاربة ذوى الاصول البربرية غالبا ما يتلقبون بلقب «العربى».



الفارس المصرى على النسج القباطى.

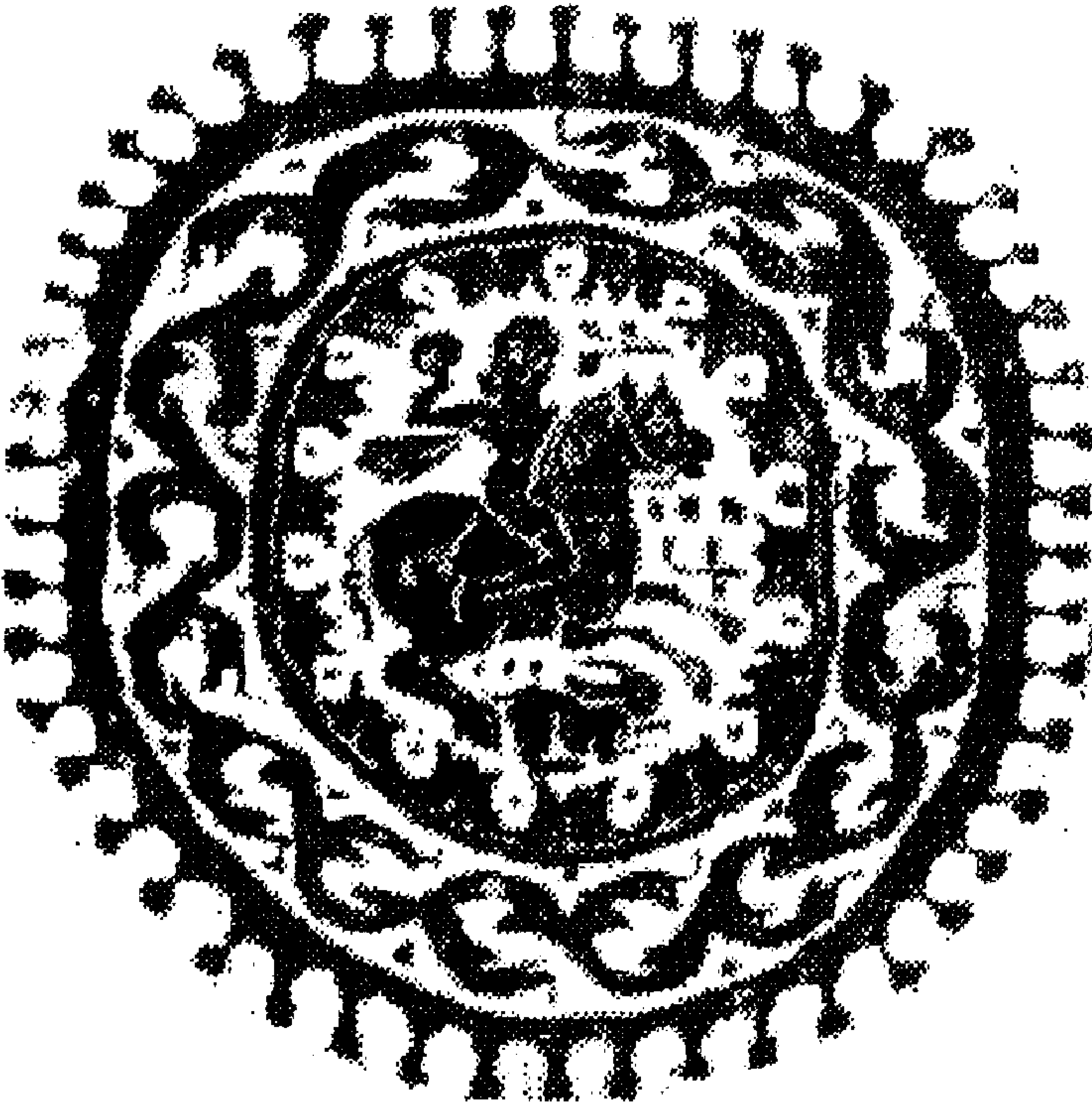
وتمهر في الفنون ودرس بالمشهد الحسيني في التفسير والفقه والحديث واشتهر أمره وطار صيته، وكان فقيها في المذهب بارعا في معرفة فنونه عارفا بأصوله وفروعه، يستنبط الأحكام بجودة ذهنه وحسن حافظته، ويكتب على الفتاوى برايق لفظه، وكانت له في النثر طريقة غريبة لا يتكلف في الأسجاع، وإذا سئل عن مسئلة كتب عليها الجواب أحسن من الروض جاد به الغمام، وأغزر من الوبل ساعده نوء النعام، ويكتب في الترسل على سجية بادرة، وفكرة على السرعة صادرة ، وكان ذا جود وسخاء وكرم ومروة ووفاء، لا يدخل في يده شي من متاع الدنيا إلا وبذله لسائليه وأغدق به على معتفيه(*) . وكان منزله الذى قرب المشهد الحسيني موردا للآملين، ومحطا لرحال الوافدين، مع رغبته في الخيل المنسوبة وحسن معرفته لأنسابها وعزوه لأربابها،

*معتفيه : يقال اعتفاه إذا أتاه يطلب معروفه.



وكان اصطبله دائما لا يخلو من اثنين أو ثلاثة يركب عليها ويضـمـرها(*) ويعتنى بأحوالها ويرغب فى شرائها لمعرفته بالفروسية (ص٨٨٨) ورمى السهام واستعمال السلاح واللعب بالرماح وغير ذلك، ولما ضاق عليه منزله لكثرة الوفاد عليه ولكثرة ميله إلى ربط الخيول انتقل إلى منزل واسع بالحسينية فى طرف البلد، بناء على أن الأطراف مساكن الأشراف، فسكنه وعمر فيه وفى الزاوية التى قرب بيته، وصرف عليها مالا كثيرا، وفى سنة سبع وسبعين وماية وألف استخار الله تعالى فى التوجيه إلى دار السلطنة لأمور أوجبت رحلته إليها، منها أنه ركبت عليه الديون وكثر مطالبوها وضاق صدره من عدم مساعدة الوقت له، وكان إذ ذاك محل تدريسه بالمشهد الحسينى، وعزم عبد الرحمن كتخدا على هدمه وإنشائه على هذه الصورة ، ورأى أن هذه

*يضمرها: يعدها للسباق وذلك بأن يعلفها بسخاء حتى تسمن، ثم يعود بها إلى العلف العادى حتى تضمر وتخف.



الفارس المصرى على النسيج القباطى.

البطالة تستمر أشهرا فوجد فرصة وتوجه إليها وقرأ دروسا في الحديث في عدة جوامع واشتهر هناك بالمحدث وأقبلت عليه الناس أفواجا للتلقى وأحبت الأمراء وأرباب الدولة وصارت له هناك وجاهة إلا أنه كان في درسه ينتقل تارة إلى الرد العنيف على أرباب الأموال والأكابر وملوك الزمان، وينسبهم إلى الجور والعدوان، وانحرافهم عن الحق، فوشى به الحاسدون فبرز الأمر بخروجه من البلد وكان قد تزوج هناك فعاد إلى مصر، فلما وصل إلى بولاق ذهب إليه جماعة من الفضلاء واستقبلوه واستقر في منزله وعاد إلى دروسه في المشهد، وذلك سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف، ولم يترك عادته المألوفة من إكرام الضيوف، وبذل المعروف، وكان لا يصبر على الجماع وعنده ثلاث نسوة شامية ومصرية ورومية، وإذا خرج إلى الخلاء أو بعض المتنزهات أخذ



► الفارس المصرى على النسج القباطى.

صحبته من يريدها منهم (ص٨٨٩) ونصب لها خيمة وآلة الاغتسال مدة إقامته يوما أو يومين أو أكثر ، واتفق له فى آخر أمره أنه ذهب عند محمد بك أبى الدهب وكان فى ضائقه فحادثه الأمير على سبيل المباسطة وقال له «كيف رأيت أهل اسلامبول» فقال لم يبق باسلامبول ولا بمصر خير ولا يكرمون إلا شرار الخلق وأما أهل العلم فإنهم يموتون جوعا، ففهم الأمير تعريضه وأمر له بماية ألف نصف فضة من الضربخانة فقضى منها بعض ديونه وأنفق باقيها على الفقراء، وعاش بعدها أربعين يوما وتعلل بخراج أياما وأحضروا له رجلا يهوديا ففصده بمشتر [مشرط] قيل أنه مسموم فكان سببا لموته، وتوفى عصر يوم الأحد سادس شهر شعبان من السنة، وجهز فى صبح يوم الاثنين وصلى عليه بالأزهر فى مشهد حافل ودفن بمقبرة باب النصر على

أكمة هناك، ولما مات أحضر له الناس من الأعيان عدة أكفان وكل منهم يريد أن لا يوضع إلا في كفنه فأخذ من كل كفن قطعة وكفنوه في مجموع ذلك جبرا لخواطرهم ، وأعطى الأمير محمد بك لأخيه مولانا السيد بدر الدين، عندما أخبره بموته خمسماية ريال لتجهيزه ولوازمه، وجلس مكانه في الدار أخوه السيد بدر المذكور، وتصدر مكانه لإملاء درس الحديث النبوى بمسجد المشهد الحسينى وأقبلت عليه الناس والأعيان، ومشى على قدم أخيه وسار سيرا حسنا وجرى على نسقه وطبيعته فى مكارم الأخلاق وإطعام الطعام وإكرام الضيفان والتردد إلى الأعيان والأمراء والسعى فى حوايج الناس والتصدى لأهل حارته وخطته فى دعاويهم وفصل خصوماتهم وصلحهم والذب عنهم ومدافعة المتعدى عليهم ولو من الأمراء (ص٨٩٠) والحكام فى شكاويهم وتشاجرهم وقضاياهم حتى صار مرجعا وملجأ لهم فى أمورهم ومقاصدهم، وصار له وجاهة ومنزلة فى قلوبهم ويخشون جانبه وصولته عليهم، ثم إنه هدم الزاوية وما بجانبها وأنشأها مسجدا نفيسا لطيفا وعمل به منبرا وخطبة ورتب به إماما وخطيبا وخادما، وجعل بجانبه ميضأة ومصلى لطيفة يسلك إليهما من باب مستقل وبها كراسى راحة، وأنشأ بجانب المسجد دار نفيسة وانتقل إليها بعياله وترك الدار التى كانت سكنه مع أخيه لأنها كانت بالأجرة، وبنى لأخيه ضريحا بداخل ذلك المسجد ونقله إليه وذلك سنة خمس ومايتين وألف، فلما كانت الحوادث فى سنة ثلاث عشرة ومايتين وألف واستيلاء الفرنسيين على الديار المصرية وقيام سكان الجهة الشرقية من أهل البلد وهى القومة الأولى التى قتل فيها دبوى قايمقام تحركت فى السيد

بدر الدين المذكور الحمية وجمع جموعه من أهل الحسينية والجهات البرانى وانتبذ لمحاربة الإفرنج ومقاتلهم وبذل جهده فى ذلك، فما ظهر الإفرنج على المسلمين لم يسع المذكور الإقامة وخرج فارا إلى جهة البلاد الشامية وبيت المقدس، وفحص عنه الإفرنج وبثوا خلفه الجواسيس فلم يدركوه، فعند ذلك نهبوا داره وهدموا منها طرفا وكمل تخريبها أوباش الناحية وخربوا المسجد وصارت فى ضمن الأماكن التى خربها الفرنسى بهدم ما حول السور من الأبنية. ثم فى الواقعة الكبيرة الثانية عندما حضر الوزير والعساكر الرومية ورجعوا بعد نقض الصلح بدون طايل كما يأتى تفصيل ذلك، فلما حضروا ثانيا بمعونة (ص٨٩١) الانكليز وتم الأمر وسافر الفرنسيس إلا بلادهم ورجع المذكور إلى مصر وشاهد ما حصل لداره ومسجده من التخريب أخذ فى أسباب تعميرها وتجديدهما حتى أعادهما أحسن مما كانا عليه قبل ذلك، وسكن بها وهو الآن بتاريخ كتابة هذا المجموع سنة عشرين ومايتين وألف [١٨٠٥]*قاطن بها ومحله مجمع شمل المحبين، ومحط رجال القاصدين بارك الله فيه.

* أى ان الجبرتى حتى هذا التاريخ لم يكن قد انتهى من كتابه

٣٤٥ على بن شمس الدين الخضرى

[ومات] الفقيه المفنن الشيخ/ على بن شمس الدين محمد بن زهران على الشافعى الرشيدى الشهير بالخضرى، ولد بالثغر سنة أربع وعشرين وأمه آمنة بنت الحاج عامر بن أحمد العراقى وأمها صالحة بنت الشريف الحاج على زعيتر أحد أعيان التجار برشيد، حفظ المترجم الزبد والخلاصة وسبيل السعادة والمنهج إلى الديات، والجزرية والجوهرة، وسمع على الشيخ يوسف القشاشى الجزرية وابن عقيل

والقطر، وعلى الشيخ عبد الله بن مرعى الشافعى. فى شوال سنة إحدى وأربعين جمع الجوامع والمنهج وألقى منه دروسا بحضرته ومختصر السعد واللقانى على جوهرته، وشرح ابنه عبد السلام والمناوى على الشمايل والبخارى وابن حجر على الاربعين والمواهب، وعلى شمس محمد بن عمر الزهيرى معظم البخارى دراية والمواهب وابن عقيل والاشمونى على الخلاصة، وجمع الجوامع والمنصف على ام البراهين، ونصف النفراوى على الرسالة والبيضاوى إلى قوله تعالى (وإذا وقع القول) فكمله بعد موته.

وفى سنة ثمان وثلاثين وفد على الثغر الشيخ عطية الأجهورى فقرأ عليه العصام فى الاستعارات مع الحفيد وعلى الشيخ محمد الإدكاوى (ص٨٩٢) شرح السيوطى على الخلاصة والشنشورى على الرحبية والتحرير لشيخ الإسلام، ثم قدم الجامع الأزهر سنة ثلاث وأربعين فجاور ثلاث سنوات فسمع على الشيخ مصطفى العزيزى شرح المنهج مرتين والخطيب والشمايل وأجازه بالإفتاء والتدريس فى رجب سنة ست وأربعين، وكان به بارا رحيما شفوقا. بمنزلة الوالد حتى بعد الوفاة، وجرت له معه وقائع كثيرة تدل على حسن توجهه له دون غيره من الطلبة، وسمع على السيد على الحنفى الضرير الأشمونى، وجمع الجوامع والمغنى، وبعض المنفرجة، والقسطلانى على البخارى، وتصريف العزى. وعلى الشمس محمد الدلجى المغنى كله قراءة بحث، والخطيب وجمع الجوامع ، وعلى الشيخ على قايتباى الخطيب فقط، وعلى الشيخ الحفنى الخطيب والمنهج وجمع الجوامع والأشمونى ومختصر السعد، ألفية المصطلح

ومعراج الغيطى، وعلى أخيه الشيخ يوسف الأشمونى والمختصر ورسالة الوضع، وعلى الشيخ عطية الأجهورى المنهج والمختصر والسلم، وعلى أحمد الشبراملسى الشافعى المختصر والتحرير وبعض العصام ومنظومة فى أقسام الحديث الضعيف، وعلى الشيخ محمد السجينى الشمائل ومواضع من المنهج، وأجازه الشيخ الشبراوى بالكتب الستة* بعد أن سمع عليه بعضا منها، ورجع عن فتواه مرتين فى وقفين، وعلى الشيخ أحمد بن سابق الزعبلى المنهج كله مرتين وعلى الشيخ أحمد المكودى كبرى السنوسى وبعض مختصره دراية، وعلى الشيخ محمد المنور التلمسانى شيخ المكودى المذكور أم البراهين دراية، وعلى الشيخ أحمد العماوى المالكى بعض سنن أبى داودو جمع الجوامع (ص٨٩٣) والمغنى والأزهرية ، ولما رجع إلى الثغر لازم الشيخ شمس الدين الفوّى خطيب جامع المحلى فسرد عليه معظم متن الزبد والمنهج وشرحه والشنشورى ومتن العباب وهو الذى عرفه به وبطريق تركيب الفتاوى أسئلة وأجوبة وكان يقول لابد للمبتلى بالافتاء من العباب لوضوحه واستيعابه، وأجازه الشيخ شلبى البرلسى والشيخ عبد الدايم بن أحمد المالكى وأحمد بن قاسم الونى، وله مؤلفات جليلة منها : شرح لقطة العلجان وحاشية على شرح الأربعين النووية للشبشيرى أجاد فيها كل الإجادة وقد رأيت كلا منها بالثغر عند ولده السيد أحمد، توفى فى خامس عشرين شعبان من السنة.

* هى كتب الحديث الستة المشهورة التى جمعها: ابو داود، مسلم بن الحجاج، النسائى، الترمذى، ابن ماجه، البخارى. يضاف اليهم كتب: الدارمى، مالك، ابن حنبل.

٣٤٦ محمد بن عبد الواحد البنانى.

(ومات) الشاب الصالح، والنجيب الأريب الفالح العلامة المستعد النبيه الذكى، الشيخ/ محمد بن عبد الواحد بن

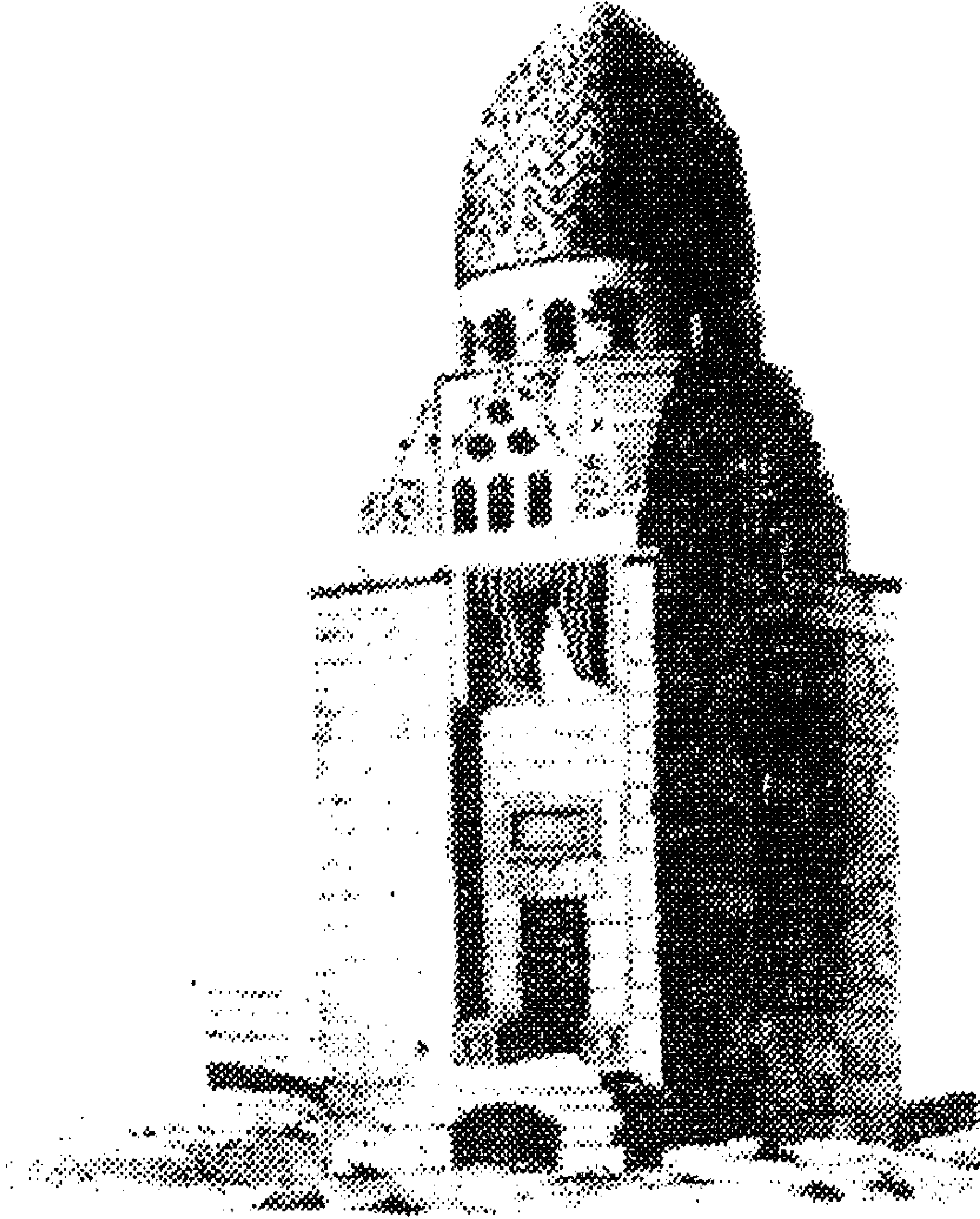
عبد الخالق البنانى، أبوه وجده وعمه من أعيان التجار والثروة بمصر، نشأ فى عفة وصلاح، حفظ القرآن والمتون وحبب إليه طلب العلم فتقشف لذلك وتجرد، ولازم الحضور والطلب، ودأب واجتهد فى التحصيل وسهر الليل، وكان له حافظة جيدة وفهم حاد وقوة استعدادية وقابلية، فأدرك فى الزمن اليسير مالم يدركه غيره فى الزمن الكثير، لازم شيخنا الشيخ محمد الجناجى المعروف بالشافعى ملازمة كلية، وتلقى عنه غالب تحصيله فى الفقه والمعقول والمنطق والاستعارات والمعانى والبيان والفرايض والحساب وشباك ابن الهائم وغير ذلك، وحضر دروس الشيخ الصعيدى والدردير وغيرهم حتى مهر وأنجب ودرس (ص٨٩٤) واشتهر بالفضل وعمل الختوم، وحضره أشياخ العصر.وشهدوا بفضله وغزارة علمه، وانتظم فى عداد أكابر المحصلين والمفيدين والمستفيدين، ولم يزل هذا حاله حتى وافاه الحمام، انمحق بدره عند التمام، ومات مطعونا فى هذه السنة وهو مقتبل الشبيبة لم يجاوز الثلاثين عوضه الله الجنة، وهو ابن عم الإمام العلامة الشيخ مصطفى بن محمد بن عبد الخالق من أعيان العلماء المشاهير بمصر الآن بارك الله فيه.

٣٤٧ احمد بن احمد الحمامى

(ومات) الفقيه الفاضل المحقق الشيخ/ أحمد بن أحمد الحمامى الشافعى الأزهرى، ولد بمصر واشتغل بالعلم من صغره ومال بكليته إليه وحبب إليه مجالسة أهله، فلازم الشيخ عيسى البراوى حتى مهر وتفقه عليه، وحضر دروس الشمس الحفنى والشيخ على الصعيدى وغيرهما، وأجازوه، وحج فى سنة خمس وثمانين مرافقا لشيخنا الشيخ مصطفى

الطائي ورجعا إلى مصر وتصدر للتدريس والإفتاء في حياة شيوخه ودرس وأفاد وكان أكثر ملازمته لزاوية الشيخ الخضيرى ويقرأ درسا بالصرغمتشيه وانتفع به جماعة ، وله حاشية على الشيخ عبد السلام مفيدة، وأخرى على الجامع الصغير للسيوطى لم تتم، وكان ذا صلاح وورع وخشية من الله وسكون ووقار، توفي يوم الأربعاء تاسع ربيع الأول من السنة ودفن ثانى يوم بمشهد عظيم بالقرب من السادة المالكية.

٣٤٨ على بندق. [ومات] الإمام الصوفى العارف المعمر الشيخ/ على بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد القدوس ابن القطب شمس الدين محمد الشناوى الروحي الأحمدى المعروف ببندق، ولد قبل القرن وأخذ عن عميه محمد العالم وعلى المصرى، وهما عن (ص٨٩٥) عمهما الشمس محمد بن عبد القدوس الشهير بالدناطي عن ابن عمه الشهاب الخامى ومسكنهم بمحلة روح [قرب طنطا] ، وهو شيخ مشايخ الأحمدية في عصره، وانتهت إليه الرياسة في زمنه، وعاش كثيرا حتى جاوز الماية ممتعا بالحواس، وكان له خلوة في سطح منزله ولها كوة مستقبلة طندتاء، بين يديها فضاء واسع يرى منها آثار طندتاء [طنطا] وهو مستقبل القبلة في حال جلوسه ونومه ونظره إلى تلك الكوة، وأخبرني أولاده أنه هكذا هو مستمر على هذه الطريقة من مدة طويلة، وتوفي في أوايل جمادى الأولى من السنة، واجتمع بمشهده غالب أهل البلاد من المشايخ والأعيان والصلحاء من الآفاق، والسيد محمد مجاهد الأحمدى، والشيخ محمد الموجه ، والسيد أحمد تقى الدين وغيرهم ودفن عند أسلافه بمحلة روح.



٣٤ خليل بك ابن ابراهيم بك بلفيا.

(ومات) الأمير/ خليل بك ابن ابراهيم بك بلفيا، تقلد الإمارة والصنجقية بعد موت والده وفتح بيتهم وأحيا مآثرهم ،و كان أهلا للإمارة ومحلا للرياسة، وتقلد إمارة الحج في سنة إحدى وثمانين ورجع في أمن وسخا، وطلع أيضا في هذه السنة ومات بالحجاز ورجع بالحج أخوه عبد الرحمن أغا بلفيا.

٣٥ محمد (زوج جدة الجبرتي ام والدة)

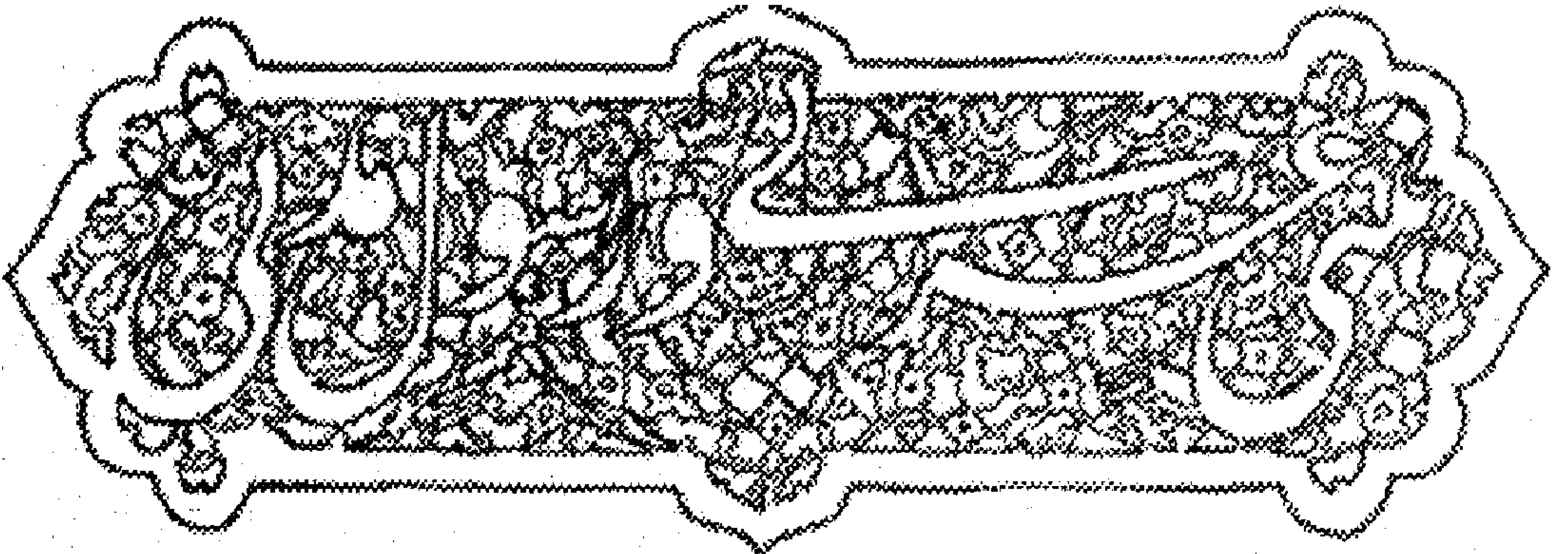
(ومات) الأجل المكرم الريس / محمد تابع المرحوم محمد أوده باشه طبال مستحفظان ميسو الجداوى، وهو زوج الجدة أم المرحوم الوالد تزوج بها بعد موت الجد في سنة أربع عشرة ومائة وألف، وقطن بها ببندر جدة وأولدها حسينا ومحمد وتوفي سنة أربع وخمسين عن ولديه المذكورين وأخيهما محمود من أبيهما وعتقائه ومنهم المترجم، فرباه

ابن سيده وهو العم حسين (٨٩٦) فأنجب وعانى التجارة ورئاسة المراكب الكبار ببحر القلزم حتى صار من أعيان النواخيذ* الكبار واشتهر صيته وذكره وكثر ماله وبنى دارا بمصر بجوار المدارس الصالحية، واشترى المماليك والعبيد والجوارى وصار له دار بمصر وبجدة، ولم يزل حتى توفى بالشام وهو راجع إلي مصر ووصل نعيه فى سابع عشرين ربيع الثانى رحمه الله.

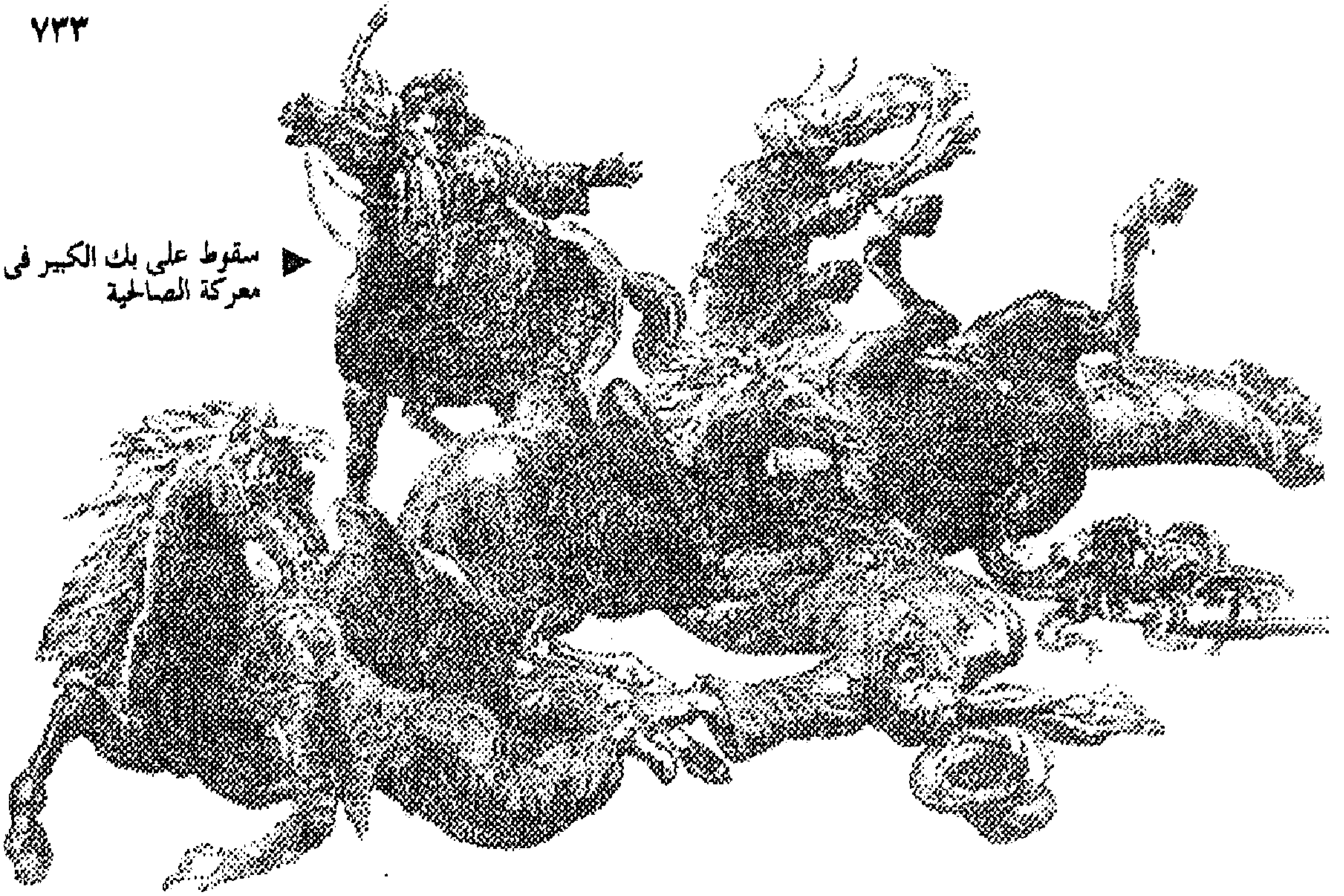
* النواخيد : فارسية مفردها ناخودا. والمقصود بها هنا اصحاب سفن التجارة.

٣٥١ محمد بن عبد العزيز البندارى.

(ومات) الخواجا الصالح المعمر الحاج/ محمد بن عبد العزيز البندارى وكان إنسانا حسنا وهو الذى عمر العمارة والمساكن بطندتا واشتهرت به، توفى فى غرة ربيع أول ـ بعد تعلل ـ رحمه الله تعالى.







▶ سقوط علي بك الكبير فى معركة الصالحية

١١٨٧هـ.
١٤٨٩ق.
١٧٧٣م.

سنة سبع وثمانين ومايه وألف [١٧٧٣م]

فيها تواترت الأخبار والإرجافات بمجي علي بك من البلاد الشامية بجنود الشام وأولاد الظاهر عمر، فتهيأ محمد بك للقائه وبرز خيامه إلى جهة العادلية ونصب الصيوان الكبير هناك، وهو صيوان صالح بك وهو في غاية العظم والاتساع والعلو والارتفاع، وجميعه بدوائره من جوخ صاية وبطانته بالأطلس الأحمر وطلائعه وعساكره من نحاس أصفر مموه بالذهب، فأقام يومين حتى تكامل خروج العسكر، ووصل الخبر بوصول علي بك بجنوده إلى الصالحية، فارتحل محمد بك في خامس شهر صفر فالتقيا بالصالحية وتحاربا فكانت

غاية الفيضان ٦قيراط = ٢١ذراع

- في ١٦ محرم/ ١٠ ابريل اقترب علي بك بجيوشه، المحضرة معه من الشام، الى الصالحية، وفي ١٨ حصلت مقتلة بين عساكر علي بك ومقدمة عساكر أبي الذهب، وقد جرح علي بك في هذه الواقعة. وفي ٥ صفر قام ابو الذهب يقصد الصالحية ،وبعد محاربة فرت العساكر، اما علي بك فبقي بفسطاطه ودافع عن نفسه بقدر طاقته، وانتهى الأمر بقيامه إلى المحروسة فانزل في داره للمعالجة فلم تنجح فتوفي في ليلة ١٦ صفر، وقيل إنه مات مسموما.
- في ٨ربيع كانت وفاة السلطان مصطفى خان الثالث، ومدة سلطنته ١٦ سنة و٨أشهر، وفي ١٠ منه جلوس السلطان الغازي عبد الحميد خان.
- وفي ١٧ ربيع أول وصل خليل باشا الوزير

الهزيمة عَلَى عَلى بك وأصابته جراحة فى وجهه فسقط عن جواده فاحتاطوا به وحملوه إلى مخيم محمد بك، وخرج إليه وتلقاه وقبّل يده وحمله من تحت إبطه حتى أجلسه بصيوانه، وقتل على بك الطنطاوى وسليمان كتخدا وعمر جاويش وغيرهم، وذلك يوم الجمعة ثامن شهر صفر، ووصل خبر ذلك إلى مصر فى صبح يوم السبت، وحضروا إلى مصر وأنزَل محمد بك أستاذه فى منزله الكاين بالأزبكية بدرب عبد الحق وأجرى عليه الأطبا لمداواة جراحاته.

وفى خامس عشر صفر وصل الحجاج ودخلوا إلى مصر، وأمير الحاج إبراهيم بك محمد (وفى تلك الليلة) توفى الأمير على بك وذلك بعد وصوله بسبعة أيام قيل إنه سم فى جراحاته، فغسل وكفن ودفنوه عند أسلافه بالقرافة.

(وفى سابع عشر ربيع الأول) وصل الوزير خليل باشا والى مصروطلع إلى القلعة فى موكب عظيم، وذلك يوم الخميس تاسع عشره وضربوا له مدافع وشنكا من الأبراج وكان وصوله من طريق دمياط فَعمل الديوان وخلع الخلع.

إلى مصرعن طريق دمياط وكان فى مدة على بك محجوراً عليه.

□ وفى اوائل ذى الحجة شرع أبو الذهب فى تأسيس مدرسته.

□ ١ توت ١٤٩٠ = ٩ سبتمبر ١٧٧٣ = الخميس ٢١ رجب سنة ١١٨٧.

□ ١ يناير ١٧٧٤ = ٢٥ كيهك ١٤٩٠ = السبت ١٧ ذو القعدة سنة ١١٨٧.

□ فى ١٧٧٤ هاجم كونته جينى قائد الاسطول الروسى فى البحر المتوسط ميناء بيروت.

١١٣ خليل باشا.

[ذكر من مات فى هذه السنة]

٣٥٢ احمد الجوهرى.

[ومات] فى هذه السنة الشيخ الإمام الصالح العلامة المفيد الشيخ أحمد بن الشيخ شهاب الدين أحمد بن الحسن الجوهرى الخالدى الشافعى، ولد بمصر سنة اثنتين وثلاثين وماية وألفْ وبها نشأ وسمع الكثير من والده ومن شيخ الكل الشهاب الملوى وآخرين، وتصدر فى حياة أبيه للتدريس وحج معه وجاور سنة، وكان إنسانا حسنا ذا مودة

وبر وشهامة ومروة تامة وأخلاق لطيفة. توفى بعد أن تعلل أياما فى حادى عشر ربيع الأول، وصُلى عليه بالجامع الأزهر بمشهد حافل ودفن على والده بالزاوية القادرية بدرب شمس الدولة.

٣٥٣ على المرادى. [ومات] المبجل المفضل الإمام العارف صاحب المعارف على بن محمد ابن القطب الكامل السيد محمد مراد الحسينى البخارى الأصل الدمشقى الحنفي، ويعرف بالمرادى نسبة لجدّه المذكور، ولد بدمشق (ص٨٩٨) وأخذ عن أبيه وغيره من العلماء كعلى ابن صادق الداغستانى وغيره، وكان إنسانا عظيم الشأن، ساطع البرهان، طيب الأعراق، كريم الأخلاق، منزله مأوى القاصدين، ومحط رحال الواردين، وهو والد خليل أفندى المفتى بدمشق، نزل عنده السيد العيدروس فأكرمه وبره، ولم يزل حتى توفى فى هذه السنة. وتوفى بعده بشهرين أيضا أخوه حسين أفندى المرادى رحمهما الله.

٣٥٤ إبراهيم الإدريسى. [ومات] الماهر الأديب الشاعر الكاتب المنشئ الشيخ إبراهيم بن محمد سعيد بن جعفر الحسنى الإدريسى المنوفى المكى الشافعى ولد فى آخر القرن الحادى عشر بمكة، وأخذ عن كبار العلماء كالبصرى والنخلى وتاج الدين القلعى والعجمى، ثم من الطبقة التى تليه مثل على السخاوى وابن عقيلة فى آخرين من الواردين على الحرمين من آفاق البلاد، وأعلى ماعنده إجازة الشيخ إبراهيم الكورانى له، وله شعر نفيس وقد جمع فى ديوان، وبينه وبين السيد جعفر البيتى والسيد العيدروس مخاطبات ومحاورات، وكان الشيخ

العيدروس يقول فى حقه إنه أديب جزيرة الحجاز ولا استثنى،
وفيه يقول:

إن إبـراهـيـم أضـــــحى أمـــــة
قــــانتـــا للّه رب العــــالمين
عـــالم أخلص فى أعـــمــــاله
هكذا شــأن العـبــاد المخلصين

وله معارضـة القصيدة الحائيـة لابن النحّاس، أبـدع فيها وأغرب، ودخل الهند بسفارة صاحب مكة فأُكرم، وعـاد إلى مكة وولى كتابة السر لملكها، وكـان يكاتب رجال الدولة على لسانه على اختلاف طبقاتهم، وكـان قلمه كلسانه سيّالا، وربما شرع فى كتابة سورة من (ص٨٩٩) القرآن وهو يتلو سورة أخرى بقدرها فلايغلط فى كتابته ولا فى قراءته، حتى تتمّا معًا وهذا من أعجب ماسمعت، وكـان له مهارة ومعرفة فى علم الطب. وأما إنشاءاته فإليها المنتهى فى العذوبة. وتناسب القوافى، وأما نظمه فهو فريد عصره لايجاريه فيه مجارٍ ولايطاوله مطاول، فمن مشهور كلامه:

أعــاتب ريم البـــر فى لفــتـــاته
وأعــــذره إن قـــام فى خلواته
تـراه رأى ظبـى الأوانس آنســـــا
فــأشـــرب حـبــا فى رنى لحظاته
أم اغتاظا لما أن رأى كل عاشق لحا الله
يوحـــده فى ذاته وصـــفـــاته
صـــبًّـــا حـــاول القلبُ سلوة
ولـم يدر أن الموتَ عينُ حـــيــاته.

ولولا النوى لم يطعم الوصل ذائقــا
أو الفـــرق لم يرغب لجـمع شــتــاته
ولولا مـجـازى مـاعلمت حـقـيـقـتى
وعلمى بجــهلى زاد عن شـبــهــات

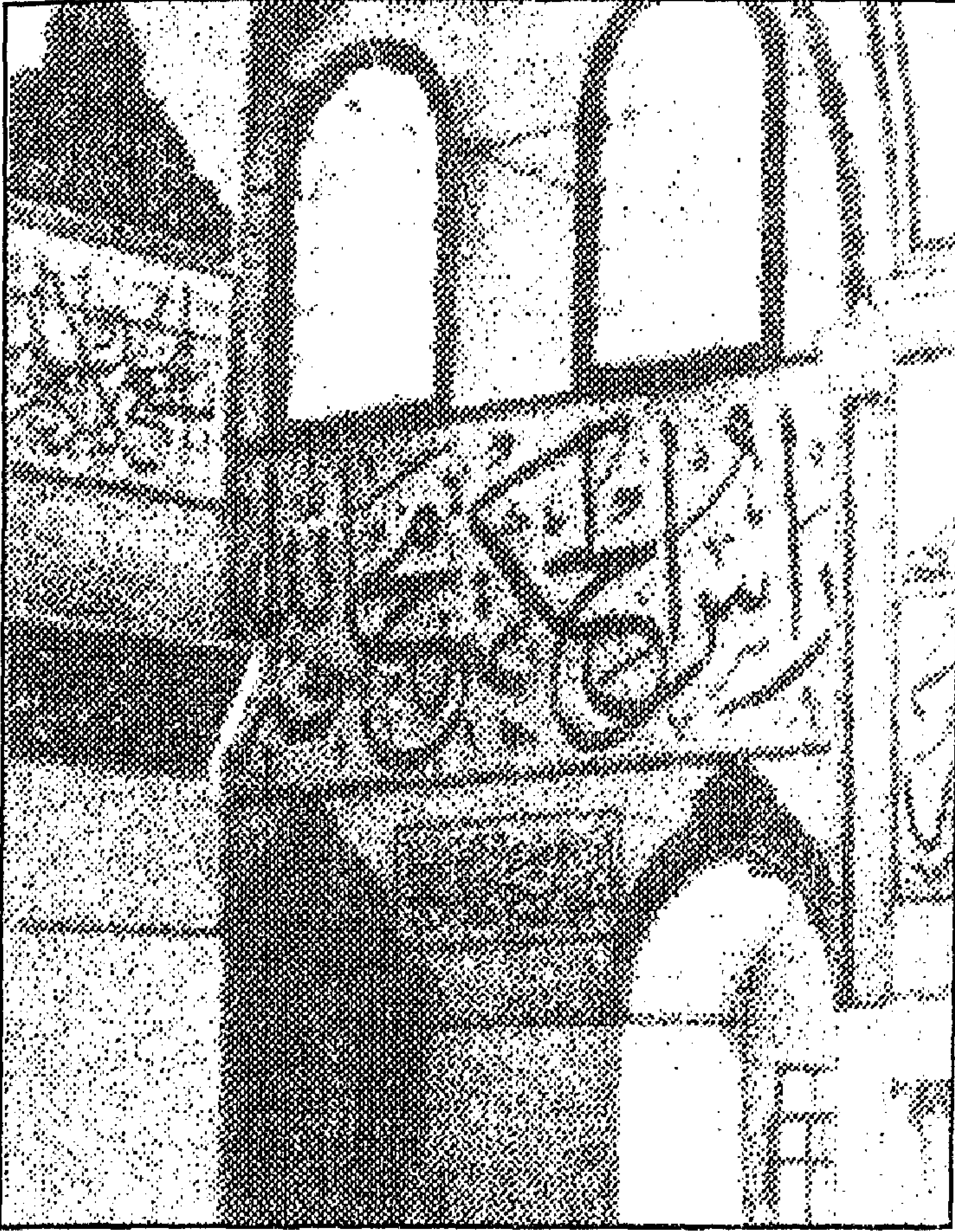
ومن كلامه بيتان من قصيدة اشتهر على الألسنة وهما
كـــيف يقـــوى على المقُــام مـــحب
قــــد أتاه الندا من المحـــبـــوب
قــــد رحـــمناك إننا نقـــبل العـــذ
ر ونمحـــو بالعـــفـــو رَيْنَ العـــيـــوب*

* الرين: بفتح الراء وسكون اليـاء بمعنى الدنس.

وله ديوان سماه (السبع السنابل فى مدح سيد الأواخر ص٩٩٠٠ والأوائل) ورسالة فى علم الطب مفيدة. توفى فى هذه السنة بمكة.

٣٥٥ عبد القادر كدك زاده.

[ومات] البارع المقرئ المجوِّد المحدث الشيخ عبد القادر بن خليل بن عبد الله الرومى الأصل المدنى المعروف بكدك زاده، ولد بالمدينة سنة أربعين وماية وألف، وبها نشأ وحفظ القرآن وجوّده على شيخ القراء شمس الدين محمد السجاعى نزيل المدينة تلميذ البقرى الكبير، وحفظ الشاطبية واشتغل بالعمل على علماء بلده والواردين عليه، سمع أكثر كتب الحديث على الشيخين ابن الطيب ومحمد حياة بقراءته عليهما فى الأكثر، ولازم الشيخ ابن الطيب ملازمة كلية حتى صار معيداً لدروسه، وكان حسن النغمة طيب الأداء، ولى الخطابة والإمامة بالروضة المطهرة، وكان إذا تقدم إلى المحراب فى الصلوات الجهرية تزدحم عليه



الخلق لسماع القرآن منه، ثم ورد إلى مصر فأدرك الشيخ المعمّر داود بن سليمان الخربتاوى فتلقى عنه أشياء وأجازه وذلك فى سنة ثمان وستين ومابة وألف، وحضر الشيخ الملوى والجوهرى والحفنى والبليدى وحمل عنهم الكثير،وتزوج ثم توجه إلى الروم ثم عاد إلى المدينة فلم يقر له بها قرار، ثم أتى إلى مصر ودار على الشيوخ البقية ثانيا، وأخذ عنهم، وأحبه السيد إسماعيل بن مصطفى الكماخى، وصار يجلس عنده أياما فى منزله الملاصق لجامع قوصون، فشرع فى أخذ خطابته له فاشترى* له الوظيفة فخطب به على طريقة المدينة وازدحمت عليه الناس وراج أمره، وتزوج ثم توجه إلى الروم وباع الوظيفة وانخلع عما كان عليه وجلس هناك مدة وسمع السلطانُ قراءته فى بعض المواضع فى حالة (ص٩٠١) التبديل* فأحب أن يكون إمام لديه

* ظاهرة شراء المناصب الدينية وبيعها.

* حالة التبديل: أى يقراء القرآن بعدة قراءات.

وكاد أن يتم ذلك فأحسّ أمام السلطان بذلك فدعاه إلى منزله وسقاه شيئاً مما يفسد الصوت حَسَدًا عليه، فلما أحس بذلك خرج فاراً فعاد إلى مصر واشتغل بالحديث، وشرع فى عمل المعجم لشيوخه الذين أدركهم فى بلده وفى رحلاته إلى البلاد، ودخل حلب فاجتمع بالشيخ أبى المواهب القادرى وقرأ عليه شيئاً من الصحيح وأجازه، وأخذ عن السيد المعمّر إبراهيم بن محمد الطرابلسى النقيب ومن درويش مصطفى الملقى، ودخل طرابلس الشام وأخذ الاجازة من الشيخ عبد القادر الشكعاوى، ودخل «خادم» إحدى قرى الروم فاجتمع بالشيخ المعروف بمفتى «خادم» ورام أن يسمع منه الأولية فلم يجد عنه إسنادا وإنما هو من أهل المعقول فقط، ورجع إلى مصر فاجتمع بشيخنا السيد مرتضى وتلقى عنه الحديث واهتم فى جمع رجاله وتمهر فى الإسناد وجمع من ذلك شيئًا كثيرا فى مسودات بخطه، ثم عاد إلى الحرمين ومنهما إلى أرض اليمن فاجتمع بمن بقى من الشيوخ، وأخذ عنهم ودخل صنعاء ومدح كلا من الوزير والإمام بقصيدة فأكرم بها، واجتمع على علمائها،وتلقى عنهم وصار بينه وبين الشيخ أحمد قاطن أحد علمائها محاورات، ثم دخل كوكبان فاجتمع على فريد عصره السيد عبد القادر بن أحمد الحسنى من بيت الأئمة، ودخل شبام فاجتمع على السيد إبراهيم بن عيسى الحسين، واللحية* فاجتمع بها على الشيخ عيسى زرايق وذلك فى سنة خمس وثمانين ومماية وألف وعاد إلى مصر بالفوايد الغزار بما حمل فى طول غيبته من النوادر والأسرار، (ص٩٠٢) وفى هذه الخطوات التى ذكرت دخل الصعيد من طريق القصير واجتمع على مشايخ عربان الهوارة

* اللحية بضم اللام وفتح الحاء وتشديد الياء المفتوحة بلد باليمن.

ومدحهم بقصايد طنانة وأكرموه، وله ديوان جُمع فيه شعره وماامدح به الأكابر الأولياء، وكان عنده مسودة بخطه وهذا قبل أن يسافر إلى الشام والروم واليمن والصعيد، فقد تحصل له في هذه السفرات كلام كثير مفرّق لم يلحقه بالديوان وكان كلما نزل في موضع ينشئ فيه قصيدة غريبة في بابها، وكان يغوص على المعاني بفكره الثاقب فيستخرجها ويكسوها حلة الألفاظ ويبرزها أعجوبة تلعب بالعقول، وتعمل عمل الشّمُول* فلله دره من بليغ لم يبلغ معاصروه شأوه، ولو أقام في موضوع كغيره لأطلَع ضياه، ولكنه ألف الغربة، وهانت عنده الكربة، فلم يبال بخشن ولا لين، ولم يكترث بصعب ولاهين، وأجازه الشيخ محمد السفاريني إجازه طويلة في خمسة كراريس فيها فوايد جمة، ومن كلامه ماكتبه لبعض أحبابه:

ولما نما سُقْمي تنشقت تُربَكم
ومنه شَممْتُ البُرءَ غِبَّ التنشق
فزدني نشوقا من تراب به الشفا
ولا تَصِفِ الإجزاء للمتشوق

ولم يزل تتنقل به الأحوال حتى سافر إلى القدس الشريف فمكث هناك قليلا وزار المشاهد الكرام، ومرا قد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم ارتحل إلى نابلس فنزل في دار السيد موسى التميمي وهو إذ ذاك قاضي البلد فأكرمه وآواه واحترمه ومرض أياما وانتقل إلى رحمة الله تعالى في سلخ جمادى الثانية منها، ووصل (ص٩٠٣) نعيه إلى مصر وكانت معه كتبه وماجمعه في سفره من شعره، والمعجم الذي جمعه في الشيوخ والأجزاء والأمالي التي حصلها، وضاع ذلك جميعه ولله في خلقه ماأراد.

* الشمول: بفتح الشين الخمر.

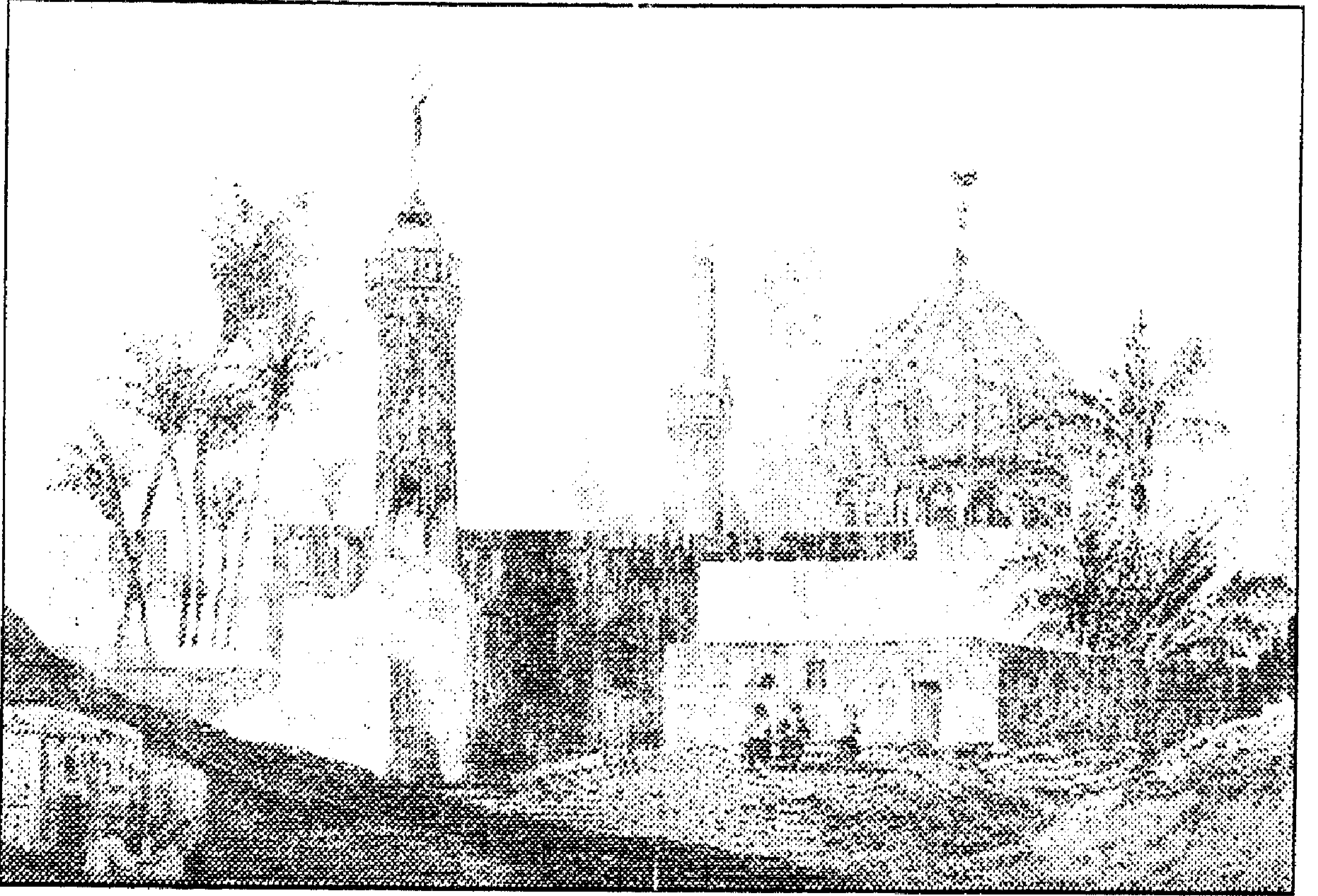
[ومات] العمدة الشاب الصالح الشيخ محمد بن حسن الجزايرلى ثم المدنى الحنفى الأزهرى، ولد بمكة إذ كان والده يتجر بالحرمين فى حدود الستين، وقدم به إلى مصر فلازم الشيخ حسن المقدسى مفتى الحنفية ملازمة كلية، وانضوى إليه فقرأ عليه المتون الفقهية ودَرّجه فى أدنى زمن إلى معرفة طرق الفتوى، حتى كان معيداً لدروسه وكاتبًا لسؤالاته، وربما كتب على الفتوى بإذن شيخه، وفى أثناء ذلك حضر فى المعقول على الشيخ الصعيدى والشيخ البيلى والشيخ محمد الأمير وغيرهما من مشايخ الوقت، وحّصل طرفا من العلوم، وصارت له الشهرة فى الجملة وأعطاه شيخه تدريسَ الحديث بالصرغتمشية فكان فى كل جمعة يقرأ فيه البخارى، وزوجه امرأة موسرة لها بيت بالأزبكية، وبعد وفاة شيخه تصدر للإقراء فى محله، وصار ممن يشار إليه، ولم يزل حتى مات فى عنفوان شبابه فى هذه السنة ويقال إن زوجته سمّته.

٣٥٦ محمد الجزايرلى.

[ومات] الأمير الكبير على بك الشهير صاحب الوقايع المذكورة والحوادث المشهورة، وهو مملوك إبراهيم كتخدا تابع سليمان جاويش تابع مصطفى كتخدا القازدغلى، تقلد الإمارة والصنجقية بعد موت أستاذه فى سنة ثمان وستين وماية وألف، وكان قوى المراس شديد الشكيمة عظيم الهمة لايرضى لنفسه بدون السلطنة العظمى والرياسة الكبرى، (ص٤٠٩) لايميل لسوى الجدولا يحب اللهو ولا المزح ولاالهزل، ويحب معالى الأمور من صغره، واتفق أن بعض ولاة الأمور تشاوروا فى تلقيده الإمارة فنُقل إليه مجلسهم وذكر له مساعدة فلان وممانعة فلان فقال: «أنا لاأتقلد

٣٥٧ على بك الكبير.

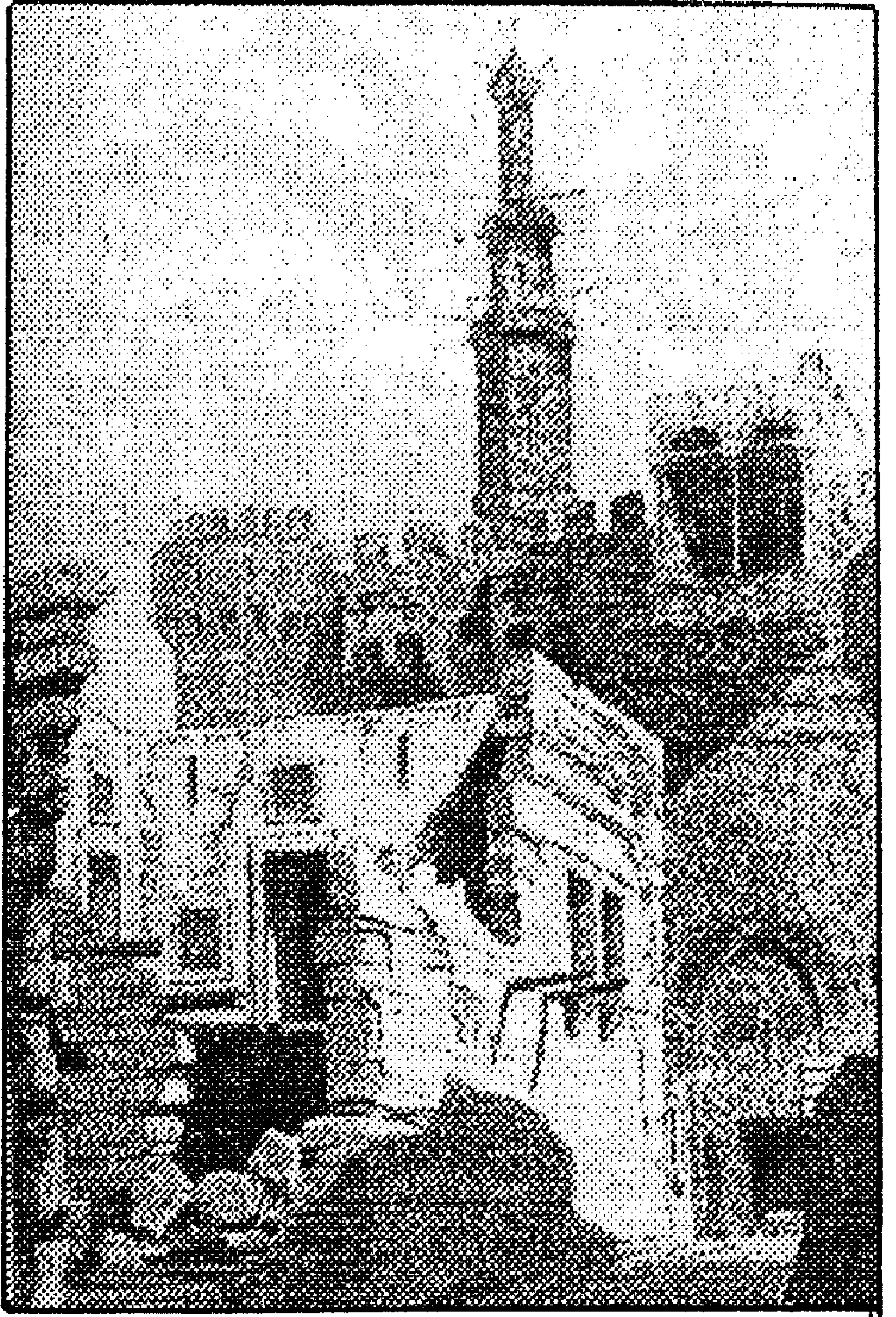
الإمـارة إلا بسـيفى لابمعـونة أحـد». ولم يزل يرقى فى مدارج الصعود حتى عظم شأنه وانتشر صيته ونما ذكره، وكان يلقب (يجن على) ولقب أيضا (بلوط قبان) وانضم إلى عبد الرحمن كتخدا وأظهر له خلوص المحبة واغتر هو أيضا به وظن صحة خلوصه فركن إليه وعضده وساعده ونوه بشأنه ليقوى به على نظرائه من الاختيارية والمتكلمين، واتفق أنه وقع بين أحـمـد جـاويش المجنون تابعـه وبين أهل وجاقه حادثة نقموا عليه فيها وأوجبوا عليه النفي بحسب قوانينهم واصطلاحهم، وأعرضوا الأمر على عبد الرحمن كتخدا أستاذه، فعارض فى ذلك ولم يسلم لهم فى نفى أحمد جاويش، ورأى أن ذلك نقصا فى حقه، فتلطف به بعضهم وترجوا فى إخراجه ولو إلى ناحية ترسا بالجيزة أياما قليلة مراعاة وحرمة للوجاق، فلم يرض وحنق واحتد، فلما كان فى اليوم الثانى واجتمع عليه الأمراء والأعيان على عادتهم قال لهم: «أيها الأمراء من أنا؟» أجابه الجميع بقولهم: «أنت أستاذنا وابن أستاذنا وصاحب ولائنا» قال: «إذا أمرت فيكم بأمر تنفذوه وتطيعوه؟» قالوا «نعم» قال: «على بك هذا يكون أميرنا وشيخَ بلدنا ومن بعد هذا اليوم يكون الديوان والجمعية بداره، وأنا أول من أطاعه وآخر من عصي عليه» فلم يسعهم إلاّ قبول ذلك بالسمع والطاعة وأصبح راكبًا إلى بيت على بك وتحوّل (ص٩٠٥) الديوان والجمعية إليه من ذلك اليوم واستفحل أمره، ولم يمض على ذلك إلا مدة يسيرةحتى أخرج أحمد جاويش المذكور وحسن كتخدا الشعراوى وسليمان بك الشابورى كما تقدم، ثم غدر به أيضاً [اى غدر بعبد الرحمان كتخدا] وأخرجه إلى الحجاز من طريق السويس، وأرسل معه صالح بك



▲ الجامع الكبير برشيد

ليوصله إلى ساحل القلزم، فلما شيعه هناك أرسل بنفى صالح بك إلى غزة ثم رُدَّ إلى رشيد ومنها ذهب إلى منية ابن خصيب وتحصن بها، وجرد عليه المترجَم التجاريد ولم يزل ممتنعا بها حتى تعصب على المترجم خشداشينه وأخرجوه منفيا إلى النوسات، ثم وجهوه إلى السويس بعد قتل حسن بك الأزبكاوى، ثم منها إلى الجهة القبلية بعد قتل عثمان بك الجرجاوى وانضم إلى صالح بك وتعاقد معه وحضر معه إلى مصر وقتل الرؤساء من أقرانه، ثم غدر بصالح بك أيضا كما تقدم مجمل ذلك، ثم نفى باقى الأعيان وفرّق جمعهم فى القرى والبُلدان وتتبعهم خنقا وقتلا، وأبادهم فرعا وأصلا، وأفنى باقيهم بالتشريد، وجلوا عن أوطانهم إلى كل مكان بعيد؛ واستأصل كبار خشداشينه وقبيلته، وأقصى صغارهم عن ساحته وسُدته، وأخرب

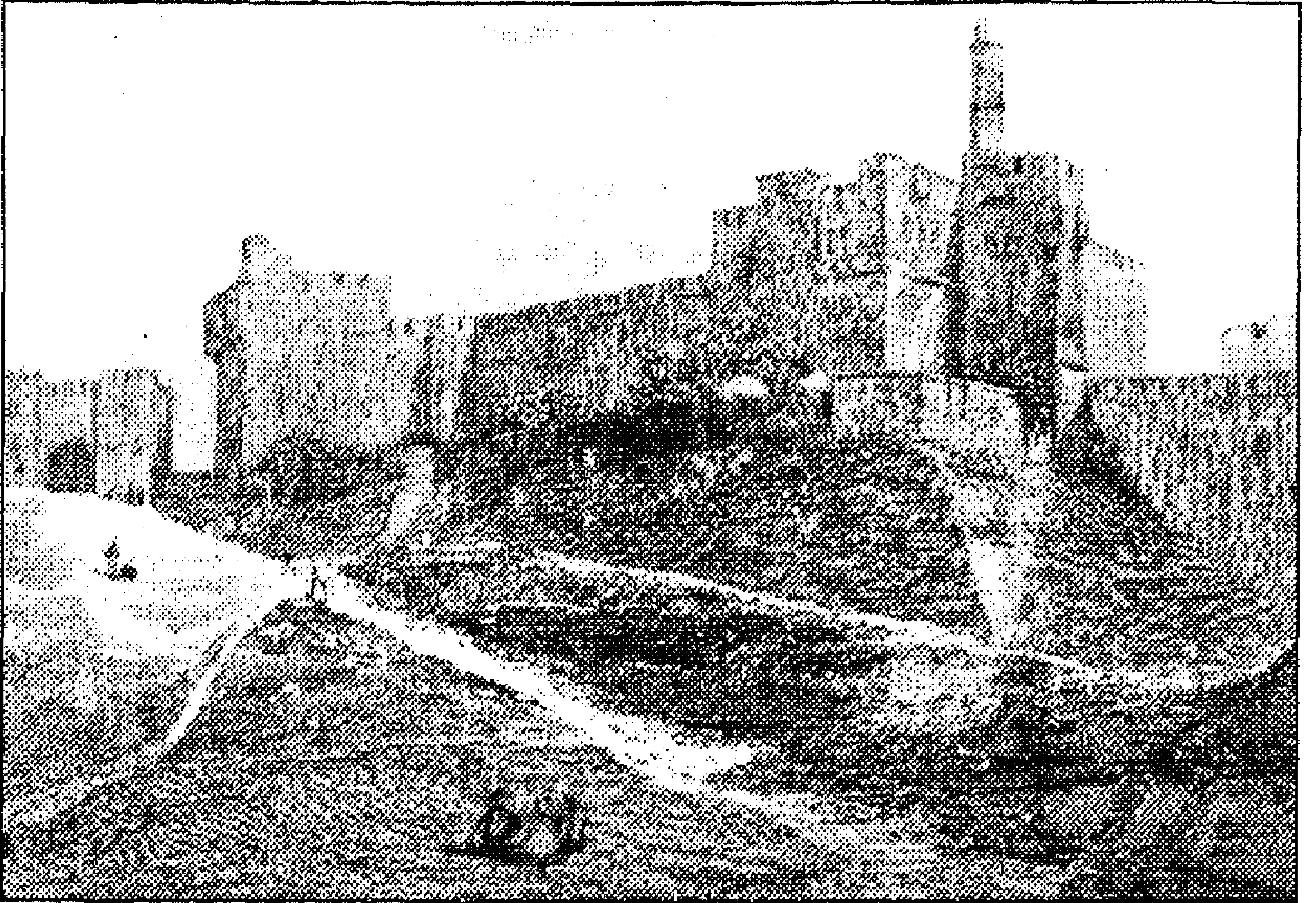
البيوت القديمة وأخرم القوانين الجسيمة والعوايد المرتبة، والرواتب التى من سالف الدهر كانت منظمة، وقتل الرجال، واستصفى الأموال، وحارب كبار العربان والبوادى، وعرب الجزيرة والهنادى، وأعاظم الشجعان، ومقادم البلدان، وشتت شملهم، وفرق جمعهم، واستكثر من شراء المماليك وجمع العسكر من ساير الأجناس واستخلص بلاد الصعيد، وقهر (ص٩٠٦) رجالها الصناديد، ولم يزل يمهد لنفسه حتى خلص له ولأتباعه الإقليم المصرى من الإسكندرية إلى أسوان، ثم جرد عساكره إلى البلاد الحجازية ونفذ أغراضه بها، ثم التفت إلى البلاد الشامية وتابع إرسال البعوث والسرايا والتجاريد إليها، وقتل عظماها وولاتها، واستولت أتباعه على البلاد الشامية حتى أنهم أقاموا فى حصار يافا أربعة أشهر حتى ملكوها، وعمر قلاع الإسكندرية ودمياط وحصنها بعساكره ومنع ورود الولاة العثمانيين، وكان يطالع كتب الأخبار والتواريخ وسير الملوك المصرية ويقول لبعض خاصته: إن ملوك مصر كانوا مثلنا مماليك الأكراد مثل السلطان بيبرس والسلطان قلاوون وأولادهم، وكذلك ملوك الجراكسة وهم مماليك بنى قلاوون إلى آخرهم كانوا كذلك، وهؤلاء العثمانية أخذوها بالتغلب ونفاق أهلها» وينوّه ويشير بمثل هذا القول بما فى ضميره وسريرته ولو لم يخنه مملوكه محمد بك لردّ الأمور إلى أصولها، وكان لايجالس إلا أهل الوقار والحشمة والمسنين، مثل محمد أفندى كاتب كبير الينكجرية، ومصطفى أفندى توكلى، وعبد الله كتخدا محمد باشا الراقم، ومرتضى أغا وأحمد أفندى، يجالسونه بالنوبة فى أوقات مخصوصة مع غاية التحرز فى الخطاب والمسامرة بوجيز القول، وكاتب إنشائه العربى



قلعة الفنار بالأسكندرية من ضمن
القلاع التى عمرها على بك الكبير

الشيخ محمد الهلباوى الدمنهورى، وكاتبه الرومى مصطفى افندى الأشقر ونعمان أفندى وهو منجمه أيضًا، ويجلّ من العلما المرحوم الوالد والشيخ أحمد الدمنهورى والشيخ على العدوى والشيخ أحمد (ص٩٠٧) الحماقى، وكاتبه القبطى المعلم رزق بلغ فى أيامه من العظمة مالم يبلغه قبطى فيما رأينا، ومن مسقاته كرع المعلم إبراهيم الجوهرى وأدرك ماأدركه بعده فى أيام محمد بك وأتباعه من بعده؛ وتتبع المفسدين والذى يتداخلون فى القضايا والدعاوى ويتحيلون على إبطال الحقوق بأخذ الرشوات والجعالات وعاقبهم بالضرب الشديد والإهانة والقتل والنفى إلى البلاد البعيدة، ولم يراع فى ذلك أحدًا سواء كان متعممًا أو فقيهًا أو قاضيًا أو كاتبًا أو غيرها من البنادر والقرى، وكذلك المفسدون وقطاع الطريق من العرب وأهل

الخوف، وألزم أرباب الأدراك والمقادم بحفظ نواحيهم ومافي حوزهم وحدودهم، عاقب الكبار بجناية الصغار، فأمنت السبل وانكفّت أولادُ الحرام وانكمشوا عن قبايحهم وإيذايهم، بحيث إن الشخص كان يسافر بمفرده ليلاً راكبًا أو مشايًا ومعه حمل الدراهم والدنانير إلى أى جهة ويبيت في الغيط أو البرّية آمنًا مطمئنًا لايرى مكروهًا أبدًا، وكان عظيمَ الهيبة اتفق لأناس ماتوا فرَقًا من هيبته، وكثيرًامن كان يأخذه الرعدة بمجرد المثول بين يديه فيقول له: «هون عليك» ويلاطفه حتى ترجع له نفسه، ثم يخاطبه فيما طلبه بصدده، وكان صحيح الفراسة شديد الحذق، يفهم ملخص الدعوى الطويلة بين المتخاصمين ولايحتاج في التفهيم إلى ترجُمان أومن يقرأ له الصكوك والوثايق، بل يقرؤها بنفسه كالماء الجارى ولو كان خطها سقيمًا، ولا يختم ورقة حتى يقرأها ويفهم مضمونها ثم يمضيها أو يمزقها، وألبس سرّاجينه (ص٩٠٨) قواويق فتلى [بالفاء]من جوخ أصفر تمييزًا لهم عن غيرهم من سراجين أمرائه، ولم يزل منفردًا في سلطنة مصر لايشاركه مشارك في رأيه ولا في أحكامه، وأمراؤها وحكامها مماليكه وأتباعه فلم يقنع بما أعطاه مولاه وخوّله من ملك مصر بحريّها وقبليّها الذى افتخرت به الملوك والفراعنة على غيرها من الملوك، وشرهت نفسه لزيادة وسعة المملكة، وكلف أمراءه الأسفار وفتح البلاد حتى ضاقت أنفسهم وسئموا الحروب والغربة والبعد عن الوطن، فحالف عليه كبير أمرائه محمد بك ورجع بعد فتح البلاد الشامية بدون استئذان منه، واستوحش كل من الآخر فوثب عليه وفرّ إلى الصعيد،وكان ما كان من رجوعه بمن



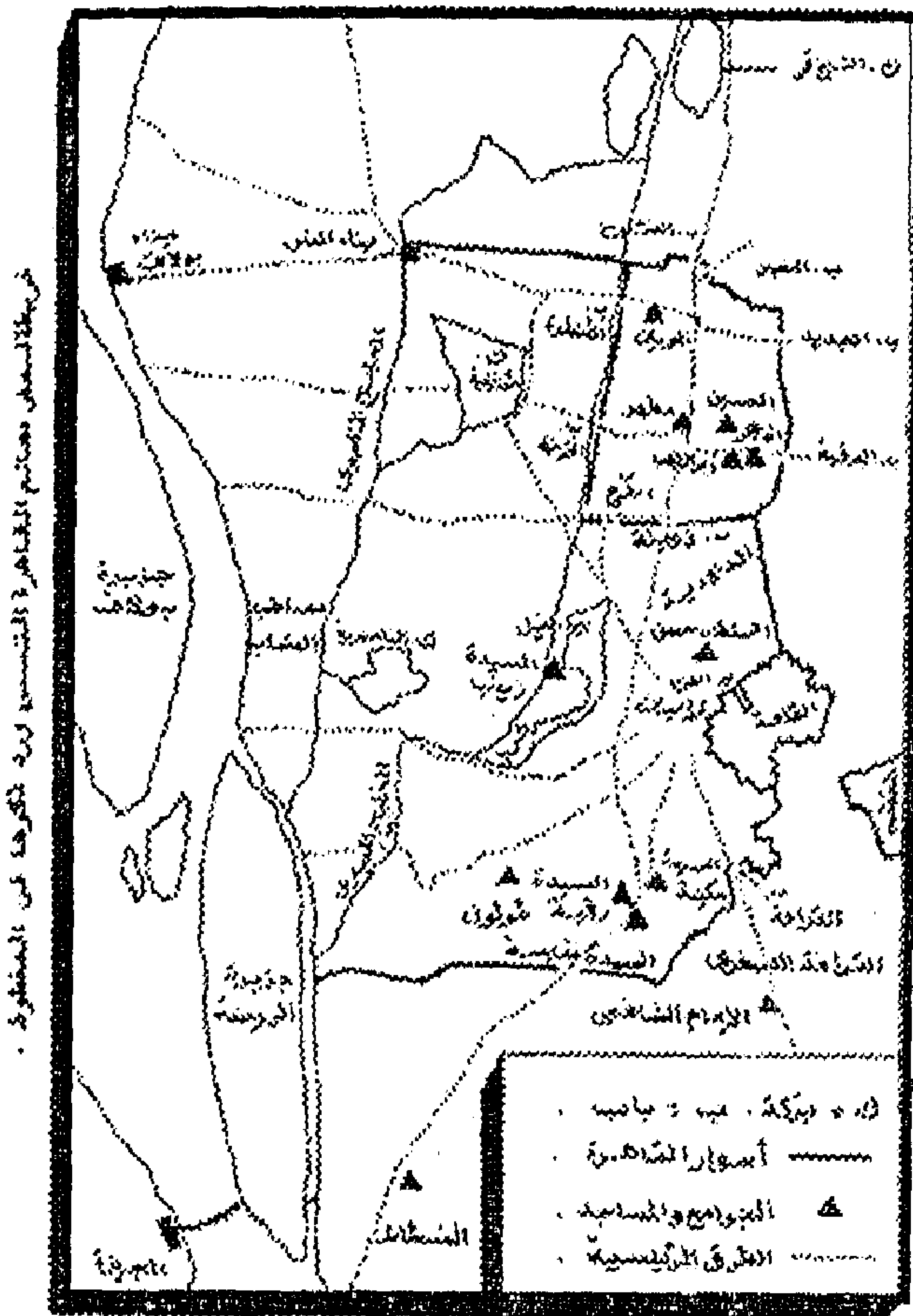
▲ أسوار مدينة القدس من الغرب

انضم إليه وخامر معه، وكانت الغلبة له على مخدومه، وفرّ منه إلى الشام وجنّد الجنود وقصد العَوْد لمملكته ومحل سيادته فوصل إلى الصالحية، وخرج إليه محمد بك وتلاقيا وأصيب المترجم بجراحة في وجهه وأخذ أسيراً، وقتل من قتل من أمرائه، ورجع محمد بك وصحبته مخدومه المذكور محمولا في تخت فأنزلوه في داره بدرب عبد الحق فأقام سبعة أيام ومات والله أعلم بكيفية موته، وكان ذلك في منتصف شهر صفر من السنة، فغسل وكّفن وخرجوا بجنازته وصُلى عليه بمصلى المؤمنين في مشهد حافل، ودفن بتربة أستاذه إبراهيم كتخدا بالقرافة الصغرى بجوار الإمام الشافعي، ومدفنهم مشهور هناك وبواجهته سبيل يعلوه قصر مفتح (ص٩٠٩) الجوانب؛ ومن مآثره العمارة العظيمة

بطنتدا وهى المسجد الجامع والقبة على مقام سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه، والمكاتب والميَضأة الكبيرة والحنفيات وكراسى الراحة المتسعة والمنارتان العظيمتان والسبيل المواجه للقبة والقيسارية العظيمة النافذة من الجهتين ومابها من الحوانيت للتجار، وسميت هناك بالغورية لنزول تجار أهل الغورية بمصر فى حوانيتها أيام مواسم الموالد المعتادة لبيع الأقمشة والطرابيش والعصايب، وكان المشد على تلك العمارة المعلم حسن عبد المعطى وكان من الرجال أصحاب الهمم، وولاه سِدَانةَ الضريح عوضًا عن أولاد سعد الخادم لسو سيرتهم وظلمهم فنكبهم المترجَم وأخذ ماأمكنه أخذه من مالهم وهو شيء كثير وأنفقه فى هذه العمارة، وأوقف عليها أوقافاً اورتب بالمسجد عدّة من الفقهاء والمدرسين والطلبة والمجاوين وجعل لهم خبزاً وجرايات وشوربة فى كل يوم. وجدد أيضًا قبة الإمام الشافعى رضى الله عنه وكشف ماعليها من الرصاص القديم من أيام الملك الكامل الأيوبى فى القرن الخامس، وقد تشعث وصَدِى لطول الزمان فجدد ماتحته من خشب القبة البالى بغيره من الخشب النقى الحديث، ثم جعلوا عليه صفائح الرصاص المسبوك الجديد المثبت بالمسامير العظيمة وهو عمل كثير، وجدد نقوش القبة من داخل بالذهب واللازورد والأصباغ وكتب بإفريزها تاريخًا منظومًا بخط صالح أفندى، وهدم أيضًا الميضأة التى كانت من عمارة عبد الرحمن كتخدا وكانت صغيرة مثمنة الأركان ووسعها وعمل عوضها هذه الميضأة الكبيرة وهى مربعة مستطيلة

متسعة وبجانبها حنفية وبزابيز يُصَبُّ منها الماء، وحول الميضأة كراسى راحة بحيضان متسعة تجرى مياهها إلى بعضها وماؤها شديد الملوحة. ومن إنشائه أيضًا العمارة العظيمة التى أنشأها بشاطئ النيل ببولاق حيث دكك الحطب تحت ربع الخرنوب وهى عبارة عن قيسارية عظيمة ببابين يسلك منها من بحرى إلى قبلى وبالعكس وخانًا عظيما يعلوه مساكن من الجهتين وبخارجه حوانيت وشونة غلال حيث مجرى النيل، ومسجد متوسط فحفروا أساس جميع هذه العمارة حتى بلغوا الماء ثم بنوا لها خنازير مثل المنارات من الأحجار واستعلوا عليه بعد ذلك بالبناء المحكم بالحجر النحيت وعقدوا العقود والقواصر والأعمدة والأخشاب المتينة، وكان العمل فى ذلك سنة خمس وثمانين، ومات المترجم قبل إتمامها وبناء أعاليها، وكانت هذه العمارة من أشام العماير، لأن النيل انحسر بسببها عن ساحل بولاق وبطل تياره واندفع إلى ناحية إنبابة، ولم تزل الأرض تعلو والأتربة تزيد فيما بين زاوية تلك العمارة إلى شون الغلال ويزيد نموها فى كل سنة حتى صار لايركبها الماء إلا فى سنى الغرق، ثم فحش الأمر وبنى الناس دورًا (ص٩١١) وقهاوى فى بحرى العمارة وسبحوا إلى جهة قرب الماء مغربين وألقوا أتربة العمائر ومايحفرونه حول ذلك، واقتدى بهم الترابة وغيرهم ولم يجدوا مانعًا ولا رادعًا، وكلما فعلوا ذلك هرب الماء وضعف جريانه وربت الأرض وعلت وزادت حتى صارت كيمانًا تنقبض النفوس من رؤيتها وتمتلئ المنافس من عجاجها وخصوصًا فى وقت الهجير بعد أن كانت نزهة للناظرين، ولقد أدركنا فيما قبل ذلك تيارالنيل* يندفع من ناحية بولاق الدكرور إلى تلك

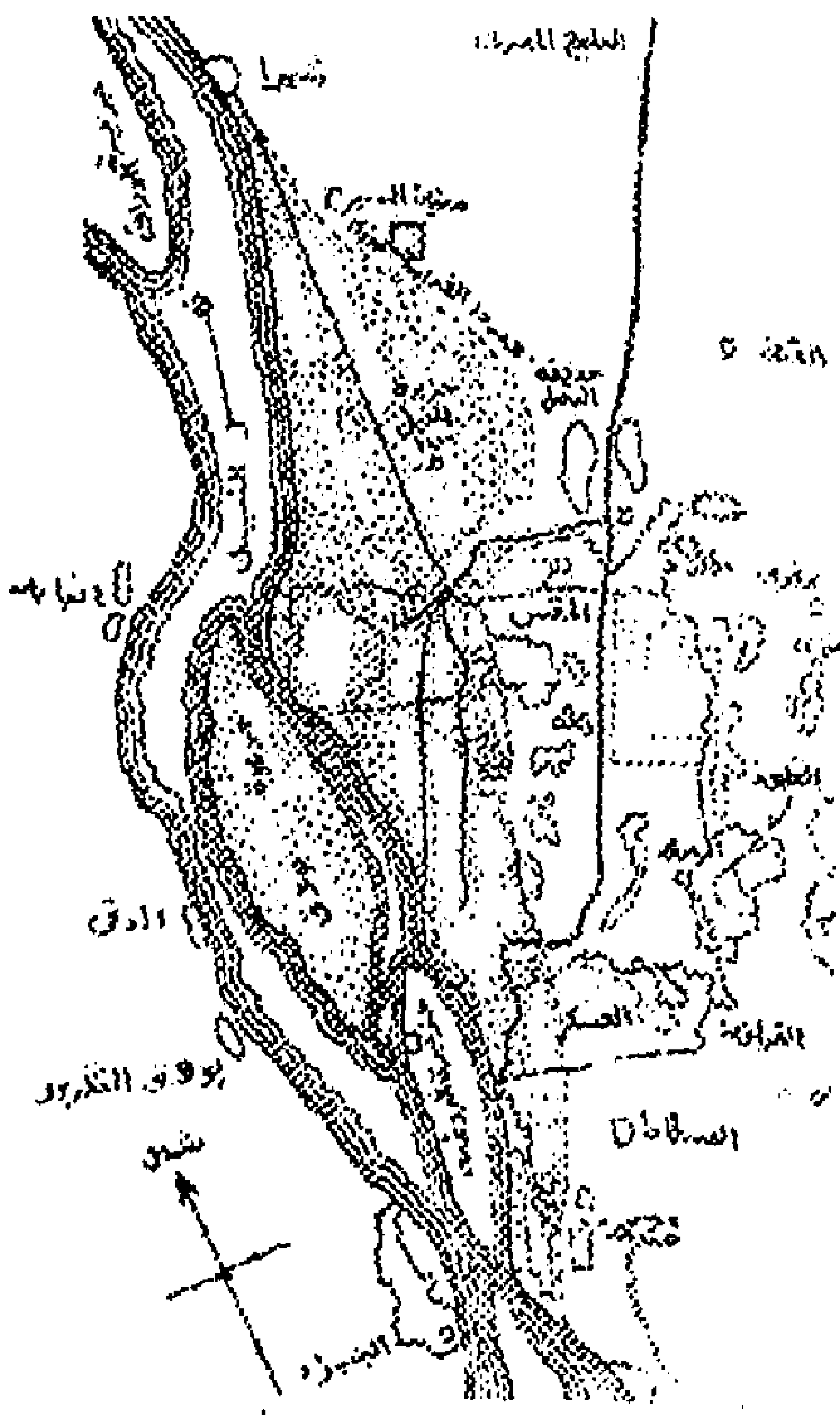
*كان مجرى النيل قبل عام ١١٨٥هـ=١٧٧١م يأخذ مجرى شرق المجرى الغربى الحالى عند بولاق، وقد أوضح الجبرتى هنا السبب فى ذلك.



الجهة، ويمر بقوته تحت جدران الدور والوكايل القبلية وساحل الشون ووكالة الأبزار وخضرة البصل وجامع السنانية وربع الخرنوب إلى الجيعانية، وينعطف إلى قصر الحلّى والشيخ فرج صيفاً وشتاء ولايعوقه عائق ولايقدر أحد أن يرمى بساحل النيل شيا من التراب. فإن اطلع الحاكم على ذلك نكل به أو بخفير تلك الناحية وهذا شيء قد تؤدّع منه ومن أمثاله، وآخر من أدركنا فيه هذا الالتفات والتفقد للأمور الجزئية التي يترتب بزيادتها الضرر العام عبد الرحمن أغام مستحفظان، فإنه كان يحذو طريق الحكام السالفين إلى أن ضعفت شوكته بتأمر الأصاغر، وقُيّد حكمه بعد الإطلاق وتُرِكَ هذا الأمر ونِسَى بموته وتقليد الأغاشم، وتضاعف الحال حتى أن بعض الطرق الموصلة إلى بولاق استدت بتراكم الأتربة التي يلقيها أهل الأطارف خارج

الدروب، ولايجدون من يمنعهم أو يردعهم، وقدّرتْ علو الأرض بسبب هذه العمارة زيادةعن أربع قامات، فإننا كنا (٩١٢) نعد درج وكالة الابزاريين من ناحية البحر عندما كنا ساكنين بها قبل هذه العمارة نيفا وعشرين درجة، وكذلك سلم قيطون بيت الشيخ عبد لله القمرى وقد غابت جميعها تحت الأرض وغطتها الأتربة ولله عاقبة الأمور.

ومن إنشاء المترجم داره المطلة على بركة الأزبكية بدرب عبد الحق التى مات بها والحوض والساقية والطاحون بجوارها وهى الآن مسكن الست نفيسة، بالجملة فأخبار المُترجم ووقايعه وسيرته لوجمعت من مبدأ أمره إلى آخره لكانتِ مجلدات، وقد ذكرنا فيما تقدم لُمعًا من ذلك بحسب الاقتضاء مماastحضره الذهن القاصر، والفكر المشوش الفاتر، بتراكم الهموم، وكثرة الغموم، وتزايد المحن واختلاط الفتن واختلال الدول، وارتفاع السفل، ولعل العودَ يخضر بعد الذبول، ويطلع النجم بعد الأفول، أو يبّسم الدّهُر بعد كشارة أنيابه أو يلحظنا من نظره المتغابى فى إيابه (شعر):



زمن كأحلام تقضى بعده
زمن نعُلّلُ فيه بالأحلام

ولله فى خلقة من قديم الزمان عادة، وانتظار الفرج عبادة، نسأله انقشاع المصايب، وحسن العواقب.

٣٥٨ السلطان مصطفى بن أحمد خان

[ومات] سلطان الزمان السلطان مصطفى بن أحمد خان، تولى السلطنة فى سنة إحدى وسبعين وماية وألف فكانت مدة سلطنته ست عشرة سنة وكانت له عناية ومعرفة

بالعلوم الرياضية والنجومية ويكرم أرباب المعارف، وكان يراسل المرحوم الوالد (٩١٣) والشيخ أحمد الدمنهورى ويهاديهما، ويرسل إليهما الصلات الكتب، وأرسل مرة إلى الشيخ الوالد ثلاثة كتب مكلفة من خزانته، هو كتاب القهستانى الكبير، وفتاوى أنقروى، ونور العين فى إصلاح جامع الفصولين كلاهما فى الفقه الحنفى، وله مؤلف فى الفن الدقيق ينسب إليه، وتولى بعده السلطان عبد الحميد خان جعل الله أيامه سعيدة.

٣٥٩ على بك الطنطاوى.

[ومات] الأمير على بك الشهير بالطنطاوى وهو من مماليك على بك المذكور وكان من الشجعان المعروفين، والفرسان المشهورين ، ولم ينافق على سيده مع المنافقين، ولم يمرق مع المارقين، ولم يزل مع مخدومه فيما وجه إليه، حتى قتل بالصالحية بين يديه.

٣٦٠ اسماعيل افندى الروزنامجى.

[ومات] الرئيس المبجل الأمير اسماعيل أفندى الروزنامجى رئيس الكتبة بمصر، وكان إنسانا حسنا منور الوجه والشيبة ضابطا محررا خيرا، أصيب بوجع فى عينيه فوعده الحاج سليمان الحكاك بشيء من الكحل وأودعه فى ورقة وضعها فى طى عمامته، وكان بها ورقة أخرى فيها شيء من السليمانى* لم يتذكرها وهو أبيض والكحل أيضا أبيض، فلما حضر عنده أخرج الورقة التى بها السليمانى من عمامته وأعطاها له، وأمره أن يكتحل منا وقت النوم يظنها أنها ورقة الكحل، ثم انصرف إلى داره فلما نزع عمامته وقت النوم رأى ورقة الكحل وتذكر عن ذلك الأخرى فلم يمكنه الذهاب والتدارك ليلا لبعد المكان وفوات الوقت،

* السليمانى : من المواد السامه، اسمه العلمى كلوريد الزئباقوز.

والمسكين صلى العشاء واكتحل من الورقة فزال بصره فى الحال، واستمر مكفوفا إلى أ ن مات سحر ليلة الأحد سادس عشر ذى الحجة من آخر السنة وصلى عليه من الغد بسبيل المؤمنين ، ودفن بقبره الذى أعده لنفسه بالقرب من ابن ابى جمرة عوضه الله الجنة.

[ومات] الرجل الصالح الأمير/ مراد أغا تابع قيطاس بك ٣٦١ مراد أغا.
القطامشى، وكان منجمعا عن الناس راضيا بحاله قانعا بمعيشته، ملازما على حضور الجماعة [صلاة الجمعه] والصلوات فى المسجد. توفى يوم الأربعاء سابع عشرين شوال وصلى على بمصلى أيوب بك ودفن بالقرافة عند الطحاوى.

[ومات] الأمير/ حسن كتخدا مستحفظان القازدغلى ٣٦٢ حسن كتخدا القازدغلى.
الملقب بقرا، وكان من الأمراء الكبار أصحاب الحل والعقد بمصر فى الزمن السابق وانقطع فى بيته عن المقارشة والتداخل فى الأمور، وكان مريضا بمرض الأكلة فى فمه؛ ولذلك تركه على بك وأهمله حتى مات يوم الثلاثاء ثالث عشر ذى القعدة من السنة عن ذلك المرض وورم فى رجليه أيضا، ودفن فى يومه ذلك بالقرافة.

[ومات] أيضا مصطفى أفندى الأشقر كاتب ديوان / على بك ٣٦٣ مصطفى أفندى الأشقر.
، خنقه خليل باشا بالقلعة فى سابع عشرين جمادى الأولى بموجب مرسوم من الدولة؛ حضر بطلب رأسه ورأس عبد الله كتخدا ونعمان أفندى ومرتضى أغا فوجد محمد بك أمضى الأمر فى عبد الله كتخدا، ونعمان أفندى ومرتضى اغا؛

ونعمان افندى ذهب إلى الحجاز إثر موت على بك، وكذلك مرتضى أغا اختفى وتغيب وذهب من مصر ولم يعلم له مكان، واستمر المترجم فطلبه الباشا (٩١٥) إلى الميرى فلما حضر إليه أمر بخنقه فخنقو وسلخوا رأسه ودفنوه بالقرافة وأخذ موجوداته الباشا إلى الميرى.

٣٦٤ اسماعيل الوهبى الخطاط.

[ومات] الأجل المبجل المجيد الضابط الماهر / اسماعيل بن عبد الرحمن الرومى الأصل ثم المصرى المكتب الملقب بالوهبى شيخ الخطاطين بمصر، كتب الخط وجوده على شيخ عصره السيد محمد النورى، وبرع واجتهد ، واشتغل قليلا بالعلم كت بيده المصاحف مرارا، وأما نسخ الدلائل والأحزاب والأوراد السبعة فمما لا يحصى كثرة، وكان إنسانا حسنا بشوشا محبا للناس فيه مكارم الأخلاق وطيب النفس، كتب عليه غالب من بمصر من أهل الكتابة، وكان صاحب نفس وهمة عالية وكان يلى منصب سيد فى الخدمة العسكرية، وكتب عدة ألواح كبار وتوجه بها بإشارة بعض أمراء مصر إلى المدينة المنورة، فعلقها فى المواجهة الشريفة بيده، ونال بهذه الزيارة الشريفة والخدمة المنيفة سرورا وشرفا، ولما كان سنة إحدى وثمانين ومائة وألف أتى الأمر من صاحب الدولة بتوجيه بعض عساكر مصرية تقوية للمجاهدين، فكان هو من جملة المعينين فيهم رئيسا فى طائفتهم، فتوجه إلى الاسكندرية وركب منها إلى الروم وأبلى فى تلك السفرة بلاء حسنا وبعد مدة أذن لهم بالانصراف فعاد إلى مصر وقد وهنت قواه واعترته الأمراض وزاد شكواه، وهو مع ذلك يكتب ويقيد، ويجيز ويعيد، ويحضر مجالس أهلى الخط على عادتهم، وجلس ملازما

لفراشه مدة حتى وافاه الحمام ليلة الأحد سادس عشر ذى الحجة، فجهز وصلى عليه بمشهد حافل فى مصلى المؤمنين، ودفن عند ابى جمرة قرب العياشى فى قبر كان أعده لنفس منذ مدة ولم يخلف بعد مثله رحمه الله.

١١٨٨ هـ.
١٤٩٠ق.
١٧٧٤م
غاية الفيضان قيراط/ ٢٢ ذراع

□ فى هذه السنة صار عزل قراخليل باشا. ثم تولى على مصر مصطفى باشا النابلسى.

□ وفى ٢٧ صفر تبوا لويز السادس عشر على سلطنة فرانسا، بدلا عن جده لويز الخامس عشر، المتوفى فى هذه السنة الافرنكية.

□ فيها الكيارى الانكليزى بريستلى استكشف غاز الاوكسجين.

□ وفى ربيع الثانى اقرت الدولة العلية محمد بك ابا الذهب على بيكابية مصر.

□ فى ١٢ من جماد أول معاهدة صلح كوجك قينارجى بين الترك والروسيا.

□ فى جما الثانى كان سفر قرا خليل باشا من القلزم يقصد جده.

فى شعبان كان انتهاء بناء مدرسة أبى الذهب وبناء جامع الخضيرى.

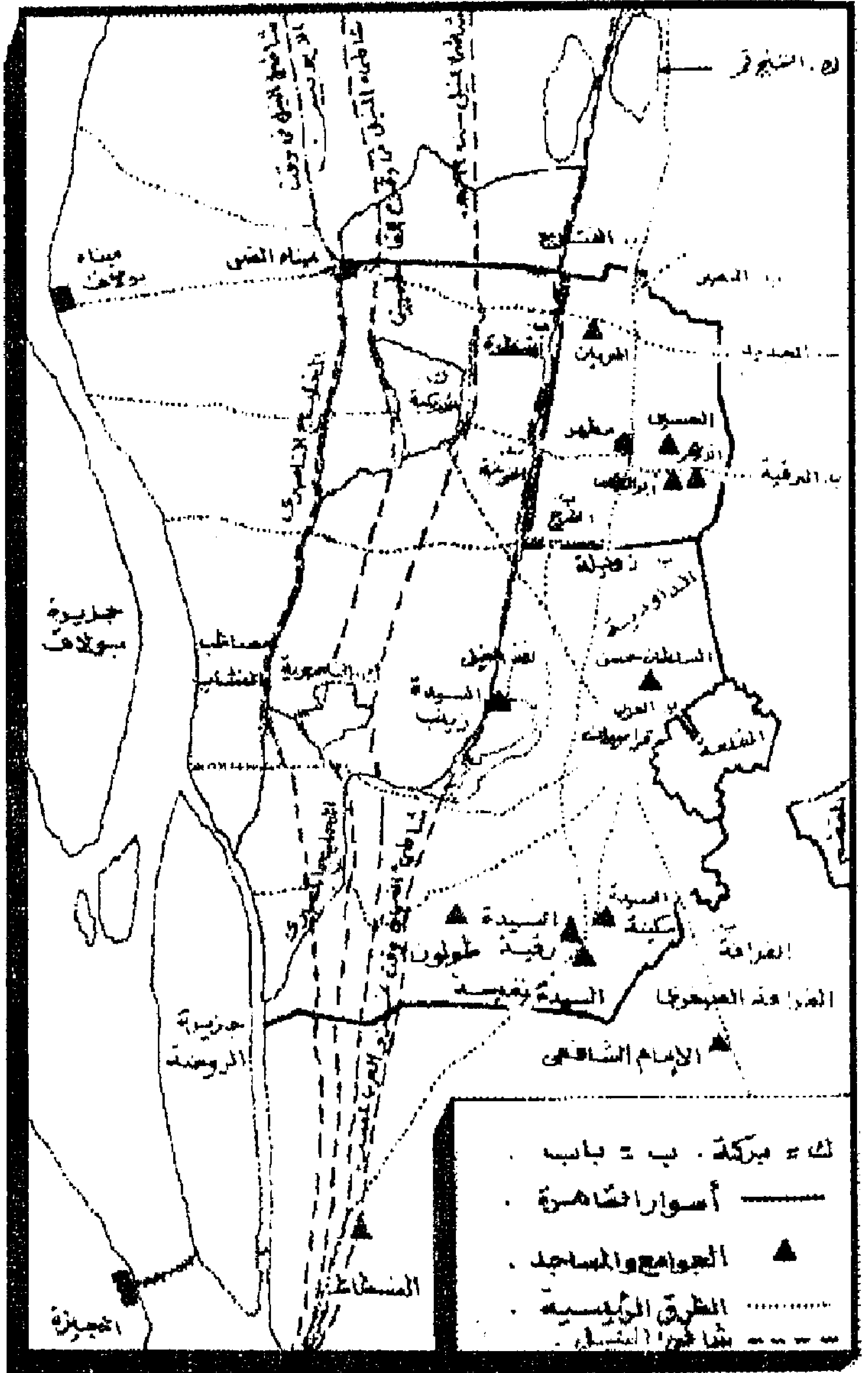
□ فيها تمم جورج ليزاج اختراع الة التلغراف ولعدم استيفائها لم يتيسر العمل بها.

□ فى هذه السنة تجهز ابو الذهب بجيش جرار للمسير الى البلاد الشامية ومحاربة الظاهر عمر.

□ وفيها كان تجديد جامع الخضيرى ، جدده سليمان افندى ابن الشيخ عبد الرحمن.

□ ١ توت ١٤٩١ = ٩ سبتمبر ١٧٧٤ = الجمعة ٣ رجب سنة ١١٨٨.

□ ١ يناير سنة ١٧٧٥ = ٢٥ كيهك ١٤٩١ = الأحد ٢٨ شوال سنة ١٨٨.



(سنة ثمان وثمانين ومائة وألف [١٧٧٤م]

استهلت ووالى مصر خليل باشا محجوز عليه وليس له فى الولاية إلا الاسم والعلامة على الأوراق، والتصرف الكلى للأمير الكبير محمد بك أبو الذهب والأمرا وأعيان الدولة ومماليكه واشراقاته، والوقت فى هدو وسكون وأمن، والأحكام فى الجملة مرضية والأسعار رخيّة وفى الناس بقيّة، وستائر الحياء عليهم مرخية، شعر:

وما الدهر فى حال سكون بساكن
ولكن مستجمع لوثوب

ذكر من مات فى هذه السنة

٣٦٥ حسن الجبرتى، والد المؤلف

[ومات] فى هذه السنة الإمام العلامة، والنحرير الفهامة، حامل لواء العلوم على كاهل فضله، ومحرر دقايق المنطوق والمفهوم بتحريره ونقله، من تكحلت بحبره عيون الفتوى، وتشنف المسامع بما عنه يروى، وارتفع من حضيض التقليد إلى ذر الفضايل، وسابق فى حلبة العلوم قصب الفواضل، الروض النضير، الذى ليس له فى ساير العلوم نظير، وهو فى فقه النعمان الجامع الكبير، عمدة الأنام، وفيلسوف الإسلام، سيدى ووالدى بدر الملة والدين أبو التدانى/ حسن بن برهان الدين ابراهيم بن الشيخ العلامة حسن بن الشيخ نور الدين على بن الولى الصالح شمس الدين محمد بن الشيخ زين الدين عبد الرحمن الزيلعى الجبرتى العقيلى

* يسمى مؤلف المقريزى «نبذة من أخبار الطايفة القايمة بالملة الاسلامية ببلاد الحبشة وقد نشر ضمن كتاب«القبايل العربية فى بلاد النوبة والحبشة » للدكتور عبد المجيد عابدين.

حقائق عن عبدالرحمن الجبرتى للدكتور محمد أنيس نشره بالمجلة التاريخية المصرية المجلدات ٩/١٠ مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية

على الرغم من أن المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى قد ألقى أضواء ساطعة على البيئة الخاصة والبيئة العلمية التى نشأ فيها عند ترجمته لوالده الشيخ حسن الجبرتى وفي مواضع متفرقة من تراجم شيوخ عصره، إلا أنه لا يكاد يذكر شيئا عن حياته بعد ذلك. فالجبرتى يختفى فى عجايب الآثر اختفاء يكاد يكون تاما، الأمر الذى يجعل الكتابة عن سيرته أمرا عسيرا للغاية. ويزيد من صعوبة هذا الأمر أن المعاصرين للجبرتى أو حتى القريبين منه لم يكتبوا عنه إلا فى القليل النادر. ولذلك يبدو البحث والتنقيب فى وثائق المحكمة الشرعية حول أملاك وأوقاف الجبرتية من الأهمية بمكان فى هذا الشأن. والملاحظات اتى يتضمنها هذا المقال حول حياة الجبرتى، مستمدة من عدد من الوثائق الموجودة بدفتر خانة المحكمة الشرعية بالقاهرة.
وقد نشرنا فقط خمس وثائق فى اخر المقال مع محاولة مقابلة لقرائتها، وهذه هى النصوص الأصلية لبعض الوثائق . أما الوثائق الأخرى التى لم ننشرها واكتفينا بالإشارة إلى

الحنفي، وبلاد الجبرت هي بلاد الزيلع بأراضي الحبشة تحت حكم الحطى ملك الحبشة، وهم عدة بلاد معروفة تسكنها هذه الطايفة وهم المسلمون بذلك الاقليم ويتمذهبون بمذهب الحنفي والشافعي لاغير ، وينسبون إلى سيدنا أسلم بن عقيل بن أبى طالب، وكان أميرهم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم النجاشي المشهور الذى آمن به ولم يره، وصلى عليه النبى صلاة الغيبة كما هو مشهور فى كتب الأحاديث، وهم قوم يغلب عليهم التقشف والصلاح، ويأتون من بلادهم بقصد الحج والمجاورة فى طلب العلم، ويحجون مشاة، ولهم رواق بالمدينة المنورة، ورواق بمكة المشرفة، ورواق بالجامع الأزهر بمصر ، وللحافظ المقريزى مؤلف فى أخبار بلادهم وتفصيل أحوالهم ونسبهم.

ومنهم القطب الكبير والمعتقد الشهير الشيخ اسماعيل بن سود كين الجبرتي تلميذ الشيخ ابن العربى ويسمى قطب اليمن، والشيخ عبد الله الذى ترجمه الحافظ السيوطى فى حسن المحاضرة، وهو الذى كان يعتقده الملك الظاهر برقوق، وأوصى عند موته بأن يدفن تحت قدمه بالصحراء، ومنهم الولى العارف الشيخ على الجبرتى الذى كان يعتقده السلطان الأشراف قايتباى وارتحل إلى بحيرة إدكو فيما بين رشيد والاسكندرية وبنى هناك مسجدا عظيما ووقف عليه عدة آماكن وقيعان وأنوال حياكة وبساتين ونخيل كثيرة، وهو موجود إلى الآن عامر بذكر الله والصلاة، وهو تحت نظر الفقير إلا أن غالب أماكنه زحفت عليها الرمال وطمستها وغابت تحتها، وفيه إلى الآن بقية صالحة، وبنى أيضا مسجدا شرقى عمارة السلطان قايتباى ودفن به، وقد خرب وانطمس معالمه (ص٩١٨) ولم يبق إلا مدفنه،

أرقامها فى دفاتر المحكمة الشرعية ، فهى ليست الصور الأصلية بل منقولة فى هذه الدفاتر عن الأصل. والوثائق الأصلية التى عنينا بنشرها هنا هى : أولا ـ حجة بيع عبد الرحمن الجبرتى لمنزل والده (وهو المنزل المعروف ببيت الجبرتية بالصنادقية) عام ١٢٠١ه. وقد كتب على هامش الحجة ما يفيد أن عبد الرحمن الجبرتى قد استرده فى العام التالى أى فى سنة ١٢٠٢ه. ثانيا ـ والوثيقة الثانية حجة بيع نفس البيت على يد ورثة الجبرتى فى سنة ١٢٩٩هـ. ثالثا ـ والوثيقة الثالثة تشمل حجة شراء عبد الرحمن الجبرتى لمنزل اخر بالصناذقية فى سنة ١٢٢٣هـ. رابعا ـ والوثيقة الرابعة تشمل حجة الأيلولة الصادرة فى سنة ١٢٥٧هـ. لورثة عبد الرحمن الجبرتى والخاصة بذلك البيت الذى اشتراه فى سنة ١٢٢٣هـ . خامسا ـ والوثيقة الخامسة تشمل حجة بيع المنزل المذكور فى الوثيقة الرابعة على يد ورثة عبد الرحمن الجبرتى فى نفس السنة أى فى سنة ١٢٥٧هـ.

أولا ـ سنة وفاة عبد الرحمن الجبرتى:
ذكر مترجمو عجايب الآثار إلى الفرنسية ـ دون الإشارة إلى اى مرجع لقولهم ـ أن الشيخ عبد الرحمن الجبرتى قتل أثناء عودته من قصر محمد على فى شبرا فى ليلة ٢٧ رمضان سنة ١٢٣٧هـ (٨ يونيو ١٨٢٢) ، وإن الكروا أن ذلك قد حدث بإيعاز من محمد على باشا. وأخذ عنهم هذه الرواية، فيما يبدو ، المستشرق الانجليزى مكدونالد فى ترجمته للجبرتى فى دائرة المعارف الإسلامية، كما أخذ بنفس الرواية فهرس دار الكتب المصرية ١٩٣٠ ولويس شيخو فى كتابه الأدب العربى فى القرن التاسع عشر.
ومن الموكد أن هذا الزعم خاطئ من أساسه. فالمراج المعاصرة تؤكد ، مستقلة عن بعضها البعض، أن عبد الرحمن الجبرتى كان يحا بعد ذلك التاريخ . فقد ذكر الرحالة الإيطالى GIAMBATISTA BROCCHI الذى زار مصر فى ديسمبر ١٨٢٢، فى يومياته بتاريخ أول ديسمبر أى يوم زيارته لعبد الرحمن

وحوله حايط متهدم بغير باب ولا سقف، وقبره ظاهر مكشوف يزار وللناس فيه اعتقاد عظيم، ومن كراماته التى أكرمه الله بها أنه يرى على قبره فى بعض الليالى المظلمة نور مثل قنديل المستنير، يرى ذلك سكان العمارة وغيرهم وهو أمر مشهور، ومنها أن السفار وقوافل الأعراب ينزلون بأحمالهم حول قبره فى الحوطة ويتركونها من غير حارس ليالى وأياما آمنين، فلا يتعدى عليها سارق ألبتة، ويعتقدون العطب للجانى فى بدنه أو ماله، وهو أمر مشهور أيضا مقرر فى أذهانهم إلى الآن.

ومنهم الامام الحجة المجتهد الفقيه الجدلى صاحب التصحيح والترجيح فخر الدين أبو عمرو عثمان الحنفى الزيلعى شارح الكنز المسمى بتبيين الحقايق شرح كنز الدقايق المدفون بحوطة سيدى عقبة بن عامر الجهنى والشيخ الزيلعى الشافعى المدفون بالقرافة الكبرى، وغير هؤلاء كثير ببلادهم وأرض الحجاز ومصر، والقصد بذلك التعريف بالنسبة، قال تعالى «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم». والنجاشى أول من آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم من الملوك ولم يره، وأسلم على يد ابن عمه جعفر بن أبى طالب وزوجه أم حبيبه رضى الله عنها وجهزها من عنده وأرسلها للنبى من الحبشة إلى المدينة، ومن أراد الاطلاع على أخبار النجاشى رضى الله عنه مع النبى صلى الله عليه وسلم وهداياه إلى النبى وهدايا النبى إليه وبعض أخبار الحبشة (ص٩١٩) وما ورد فيهم من الآيات والأحاديث والآثار، فلينظر فى كتاب الطراز المنقوش فى محاسن الحبوش للإمام العلامة علاء الدين بن

الجبرتى (١٦ ربيع أول ١٢٣٨ه) ما يلى (زودنى المسيو دروفتى فى الاسكندرية برسالة إلى عالم عربى هو عبد الرحمن الجبرتى وقال لى أنه ضليع فى علم الهيئة، فما عتمت أن زرته بصحبة الخواجه مسرة ترجمان القنصلية الفرنسية، وكم كان دهشى عظيما حين وجدت هذا الفلكى أعمى. فسألته إذا كان لدى الفلكيين فى مصر الات يرصدون بها حركات الكواكب، فقال إنه ليس لديهم شيء منها وأن الذين ينصرفون إلى هذا العلم قليلون وقد يكون لدى بعضهم بعض الات مجلوبة من أوروبا. فسألته إذا كان فى إمكانهم أن يعرفو مواعيد الكسوف والخسوف؟ فأجاب نفيا. فسألته أيضا إذا كانوا يضعون التقاويم للجماهير؟ فقال إن لديه بعضها ولكن ليس فيها تقويم خاص) إلى أن قال (على أنى لم أرد إطالة الحديث مع هذا الشيخ الطيب الذى قيل لى عنه إنه أعلم بالتاريخ العربى المصرى منه بعلم الفلك وأن له كتابا موثوقا به). كذلك ذكر جورجى زيدان أنه وجد فى مكتبة محمد بك عاطف فى القاهرة مخطوطا راجعه الجبرتى بنفسه وأتم مراجعته (أطال الله فى عمره) بتاريخ السبت ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٤٠ ه(٦ نوفمبر ١٨٢٤) ومن الروايا التى تنفى وفاة الجبرتى فى سنة ١٢٣٧ هـ ما ذكره اسكندر كاردن A.cardin المترجم والمستشار بالقنصلية الفرنسية بالاسكندرية الذى ترجم الجزء الثالث من عجائب الآثار إلى الفرنسية ونشره فى عام ١٨٣٥م، فقد قال فى مقدمة ترجمته أنه علم من أسرة الجبرتى أن أحد أبناء الجبرتى قتل فى ليلة من ليالى رمضان سنة ١٢٣٨ هـ وأن الجبرتى حزن عليه حتى فقد بصره ولم يعش طويلا بعد ذلك.
أما الذين حددوا تاريخا آخر لوفاة الجبرتى ففى مقدمتهم المستشرق الإنجليزى ادوارد وليم لين W. Lane فقد ذكر عند كلامه عن الجبرتى انه توفى فى سنة ١٨٢٥ أو سنة ١٨٢٦ (١٢٤٠ ـ ١٢٤١هـ)، ولعل السبب فى تردد لين فى هذا التحديد يرجع

محمد بن عبد الله البخارى خطيب المدينة المنورة، و«رفع شأن الحبشان» للعلامة جلال الدين السيوطى، «وتنوير الغبش في فضايل السودان والحبش» لابن الجوزى، وفى تفسير البغوى أخرج أبو داود عن عائشة رضى الله عنها قالت: «لما مات النجاشي كنا نحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور، وفى «أزهار العروش» من عرف اسمه من الصحابة من الحبوش ومن عبيده صلى الله عليه وسلم.

ومنهم أحد كبار المجاهدين والمهاجرين بلال بن رباح مؤذن رسول الله عليه وسلم ومولى أبى بكر الصديق، وهو أول من أذن فى الإسلام وأول من ثوب [اى قال: الصلاة خير من النوم] فى الفجر كما فى الأوايل للسيوطى، وكان خازن رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيت المال كما فى تهذيب الأسماء واللغات، وكان يبدل الشين بالسين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأنه: «شين بلال سين عندى وعند الله» وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول «كان أبو بكر سيدنا واعتق سيدنا» يعنى بلالا، وروى عنه كثير من الصحابة. ومنهم ابو بكر وعمر وعلى وابن مسعود وابن عمر وأسامة بن زيد وجابر وأبو سعيد الخدرى وكعب بن عرفجة والبراء بن عازب وغيرهم وجماعة من التابعين رضى الله عنهم أجمعين. ومنهم شقران بضم الشين المعجمة مولى رسول الله (ص٩٢٠) واما خدمه من الحبشة الأحرار فكثيرون، وكذلك الصحابيات من إمائه وأهل بيته، ومنهم أم أيمن ذات الهجرتين وهى مرضعته وحاضنته، وحليمة السعدية وثويبة وبركة جارية أم حبيبة، وبريرة مولاة عائشة رضى الله عنها،

إلى أنه وصل القاهرة يوم ٢ أكتوبر ١٨٢٥م. كذلك يحدد الحضراوى فى كتابه (نزهة الفكر) الوفاة بسنة ١٢٤١ هـ وذلك عند ترجمته لعبد الرحمن اذ يقول: (ثم صنف جملة مصنفات منها تاريخه فى مصر واسرائها وقائعها وترجم فيه لمن أدركهم من مشايخ وقته وسماه عجايب الآثار فى التراجم والأخبار وهو فى أربع مجلدات من ابتداء سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١٣٧. ثم عمى الشيخ المذكور فترك الكتابة فيه ثلاث سنوات إلى ١١٤٠. وهذا (ما) اخبرنى (به) أمين أفندى الحلوانى المدنى - ومازال فى عز وتمكين لمواظبته على الدروس بالأزهر فانتفع به الناس وكثرت تلامذته وبعد صيته إلى أن توفى سنة ١٢٤١ بمصر المحروسة ودفن بالمجاورين). غير أن وثائق المحكمة الشرعية تجعلنا نقطع بأن عبد الرحمن الجبرتى توفى فى عام ١٢٤٠هـ. وعلى وجه التحديد فيما بين غرة ربيع الثانى (٢٣ نوفمبر ١٨٢٤هـ) و٢٧ رمضان من سنة ١٢٤٩هـ (١٤ مايو ١٨٢٥) - ونحن نستند فى هذا التحديد على وثيقتين. الوثيقة الأولى تؤكد أن الجبرتى كان حياً حتى غرة ربيع الثانى من سنة ١٢٤٠هـ. تقول الوثيقة (٥) (بين يدى مولانا قايم مقام، ادعى فخر الفضلا الكرام الشيخ محمد شهاب الدين القبانى بخط الجمالية ابن المرحوم الشيخ إسماعيل شهاب الدين وهو الوكيل الشرعى عن سيدنا ومولانا الامام العلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الحنفى ابن مولانا العلامة المغفور له الشيخ حسن الجبرتى الحنفى ابن المرحوم الشيخ إبراهيم وهو الناظر الشرعى يومئذ على وقف جدته لوالده المذكور... فى شأن ماسيذكر بين يدى مولانا أفندى المومى إليه) وفى آخر الوثيقة (تحريرا فى غرة ربيع الثانى سنة اربعين ومايتين وألف). ولعل ماورد فى هذه الوثيقة من توكيل الشيخ عبد الرحمن الجبرتى للشيخ محمد شهاب الدين القبانى يؤكد ماذكره كل من كاردن وبروكى والحضراوى من أن الجبرتى كان قد فقد بصره فى الأيام الأخيرة من حياته. أما الوثيقة

الثانية فهى إقرار لنظارة أبناء الجبرتى على بعض الأوقاف التى كان الشيخ عبد الرحمن ناظرًا عليها ثم انتقلت نظارتها إلى أولاده من بعده، وقد صدر هذا الاقرار فى ٢٧ رمضان من سنة ١٢٤٠هـ. تقول الوثيقة (قرر مولانا النايب المولىخلافه (المولى خلافه) بمعرفة واطلاع حضرة سيدنا ومولانا الأستاذ الأعظم والملاذ الأفخم... قرر مولانا أفندى المولىخلافة كلا من المكرم محفوظ وأخته لوالده الحرمة أمان المرأة ولدى المغفور له الشيخ عبد الرحمن الجبرتى نجل المغفور له العلامة الشيخ حسن الجبرتى الحنفى الأزهرى كان، وولدى أخيهما المرحوم خليل أفندى نجل الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المشار إليه هما المكرم محمد والمصونة فاطمة سوية بينهم فى النظر والتحدث على وقف كل من العارف بالله تعالى...) وفى آخر الوثيقة (تحريرًا فى سابع عشرين رمضان سنة أربعين ومايتين وألف).

وهكذا تقطع هاتان الوثيقتان بان عبد الرحمن الجبرتى توفى فيما بين الأول من ربيع الثانى سنة ١٢٤٠هـ والسابع والعشرين من رمضان من نفس السنة (٢٣ نوفمبر ١٨٢٤ ـ ١٤ مايو ١٨٢٥) وهذه الحقيقة يجب أن تضع حدًا الآن للجدل الطويل حول سنة وفاة الجبرتى، وان كنا نأمل أن يصل باحثون بمزيد من التنقيب فى أوراق المحكمة الشرعية إلى تحديد يوم الوفاة.

وعلى ذكر سنة وفاة الجبرتى يحسن بنا هنا أن نذكر شيئا عن قبره لما تحمله القبور عادة من دلالة تشير إلى تاريخ وفاة ساكن القبر. فلا شك فى أن عبد الرحمن الجبرتى مدفون بمقبرة الجبرتية المعروفة لليوم، وهى ببستان العلماء بالمجاورين (ويسميه الجبرتى فى ترجمته لمعاصريه «البستان» أو بستان المجاورين). فلقد ذكر الحضراوى فى ترجمته للجبرتى (ودفن بالمجاورين)، وإلى جانب ذلك فقد ذكر الجبرتى نفسه فى ترجمته لوالده الشيخ حسن الجبرتى (ودفن عند أسلافه بتربة الصحراء بجوار الشمسى البابلى والخطيب الشربينى) ومقبرة الجبرتية المعروفة

ونبعة جارية أم هانىء بنت أبى طالب، وغفرة وسعيرة، وكذلك عبيد الصحابة، ومنهم مهجع بكسر الميم وفتح الميم مولى عمر بن الخطاب، وهو أول من استشهد ببدر وكان من المهاجرين الأولين، وعده النبى صلى الله عليه وسلم من سادات أهل الجنة وقال فى شأنه «يوم قتل سيد الشهداء مهجع، وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة». ومنهم أسلم مولى عمر بن الخطاب وأيمن الحبشى المكى والد عبد الواحد بن أيمن، ويسار مولى المغيرة بن شعبة، أخرج الحسن ابن محمدالخلال فى كرامات الأوليا عن أبى هريرة رضى الله عنه قال «دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم فقال لى يأبا هريرة يدخل علىّ الساعة من هذا الباب رجل من أجل السبعة الذين يدفع الله عز وجل عن أهل الأرض بهم الأذى. فإذا حبشى قد طلع من ذلك الباب أقرع أجدع على رأسه جرة فيها ماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يأبا هريرة هو هذا ثم قال مرحبا بيسار ثلاث مرات وكان يرش المسجد ويكنسه، ومات فى عهده صلى الله عليه وسلم. وأما الصحابة الأحرار من الحبوش الأخيار الذين كانوا يخدمون الرسول وأصحابه وأهل بيته فكثيرون جدا لا يمكن استيعابهم (ص٩٢١) فى هذا الاطراد ضبطا وعددا، وكذلك أبناء الحبشيات من قريش من الصحابة والتابعين وأهل البيت الطاهرين والخلفاء العباسيين، ومن ولد بأرض الحبشة من الصحابة من الحبشيات مثل صفوان ابن أمية بن خلف الجمحى وعمرو بن العاص وغيرهما مثل عبد الله بن جعفر بن أبى طالب وهو أول مولود فى الإسلام بأرض الحبشة بالاتفاق، وكان يسمى بحر الجود وأخباره فى السخاء والكرم مشهورة،

والحرث بن حاطب الصحابى ومحمد بن حاطب وعمرو بن أبى سلمة.

وفى الحبوش أخلاق لطيفة وشمايل ظريفة، وفيهم الحذق والفطانة ولطافة الطباع وصفاء القلوب لكونهم من جنس لقمان الحكيم، وهم أجناس منهم السحرتى والأمحرى [الامهرى]، وهم أحسن أجناس الحبوش الموصوفين بالصباحة والملاحة والفصاحة والسماحة والنعومة فى الخد والرشاقة فى القد، ولله در الشيخ العلامة القاضى عبد البر بن الشحنة الحنفى حيث يقول:

حبشية ساءلتها عن جنسها
فتبسمت عن در ثغر جوهرى
فطفقت أسأل عن نعومة ما خفى
قالت فما تبغيه جنسى أمحرى

والأمحرية تفوق على السحرتية باللطف والظرف، والسحرتية تفوق على الأمحرية بالشدة والعنف، فبينهما عموم وخصوص مطلق، وقيل إن النجاشى منهم رضى الله عنه، ويقال إن بنى أرفدة الذين لعبوا بحرابهم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفازوا بخطابه (ص٩٢٢) أعنى قوله لهم «دونكم يابنى أرفدة» منهم، ويقرب من هذين النوعين نوعان آخران نوع الدموات وبلين ونوعان آخران وهما قمو وقتر ونوع آخر يسمى أزاره، وقال الشيخ شهاب الدين البزاعى من أبيات:

وخذ ما حلا من بنات الحبو
ش من جلب زيلع أو من أزاره

وقال غيره:

ياسائلى عن زيلع

الآن تقع على بعد خطوات من قبر الخطيب الشربينى.
وتشتمل هذه المقبرة بوضعها الحالى، أى بعد العمارة التى قامت بها وزارة الثقافة والإرشاد القومى فى عام ١٩٥٨ باقتراح من العالم الأثرى الكبير الأستاذ حسن عبد الوهاب، على حوش مسقوف به قبران، على أحدهما تركيبة على غرر تركيبات العصر العثمانى المتأخر، والآخر عليه تركيبة بسيطة قصد بها الإشارة إلى وجود قبر. وكان على الجانب الغربى من قبر صاحب التركيبة الكبيرة قطعة من الرخام نقشت عليها ستة أبيات عن الشيخ حسن الجبرتى. ولكن مما يؤسف له حقا أن هذه اللوحة الرخامية قد انتزعت انتزاعا من التركيبة، عند بناء عمارة وزارة الثقافة فى عام ١٩٥٨، ووضعت فوق باب الحوش من الخارج ـ ليس هذا فقط، بل نقل الجانب الغربى من التركيبة إلى الجانب الشرقى للمقبرة على يسرة الداخل إلى الحوش من الباب الخارجى – والأصل يجب أن تكون له حرمته دائما. أما أبيات الدعاء للشيخ حسن الجبرتى والمنقوشة على اللوحة الرخامية فتقول:

يارب امطر سحب الرضى على
رمس حوى رئيس كل مفتى
علامة الدنيا جمال أهلها
مبارك الذات حميد النعت
السيد الذى بنور هديه
بت ظلام الغى أى بت
هو الجبرتى الإمام حسن
كشاف هم من إليه يأتى
عليه من رب العباد رحمة
تحيطه من الجهات الست
ما وحد المؤمن ربه وما
أرخت بشرى لك ياجبرتى

وتاريخ الوفاة فى الشطر الثانى من البيت الأخير ابتداء من (بشرى)= ١١٨٨هـ.
وكان الأستاذ حسن عبد الوهاب قد كتب مقالا فى جريدة الأهرام ذكر فيه أنه يعتقد أن عبد الرحمن الجبرتى مدفون فى القبر الثانى الذى ليست عليه تركيبة كبيرة حيث أن

والده مدفون في القبر الأول الذى يحمل علي احد جانبيه الأبيات الشعرية السابقة ـ والحقيقة أنه ليس هنالك ما يدل على ذلك فالقبران يحويان الجبرتية حتى قبل الشيخ حسن كما هو واضح من قول المؤرخ في ترجمته لأبيه (ودفن عند أسلافه بتربة الصحراء).

والأرجح أن الشيخ عبد الرحمن دفن مع أبيه في نفس المقبرة. أما لماذا لم يوجد نقش على المقبرة يفيد هذا المعنى، فلعله يرجع إلى اكتفاء أبناء عبد الرحمن الجبرتي بتلك الإشارة السابقة إلي الشيخ حسن الجبرتي أو لعله يرجع إلى الظروف الخاصة بتلك الإشارة السابقة إلي الشيخ حسن الجبرتي أو لعله يرجع إلى الظروف الخاصة التى أحاطت بوفاة الشيخ عبد الرحمن وفى مقدمتها التفكك الواضح الذى حدث فى أسرة الجبرتى بعد وفاة المؤرخ والذى نلمسه بوضوح فى حجج بيع أملاكه بالصنادقية .

ثانيا ـ أسرة الجبرتي:

تضيف وثائق المحكمة الشرعية بعض المعلومات الجديدة بالنسبة لأسرة المورخ.فقد ذكر المؤرخ فى ترجمته لوالده الشيخ حسن الجبرتي أن جده أم أبيه (الحاجة مريم بنت الشيخ العمدة الضابط محمد بن عمر المنزلي الانصارى) كان لها شأن كبير فى نشأة حسن وهي التي أوقفت عليه أوقافا كثيرة. والوثائق تذكرها باسم (المصونة الحاجة مريم خاتون بنت المرحوم شمس الدين المنزلي رئيس السادة الكتاب بمحكمة الصالحية النجمية) كذلك يذكر الجبرتي في ترجمه لوالده (وتزوج بنت رمضان جلبى يوسف المعروف بالخشاب تابع كوز محمدو هم بيت مجد وثروة ببولاق) ولم يذكر الجبرتى اسم هذه الزوجة. ولكن الوثائق تذكر اسمها (صفية خاتون بنت المرحوم رمضان جلبي الشهير بالخشاب).

كذلك يتضح من الوثيقة رقم (٤) والوثيقة رقم (٥) أن عبد الرحمن الجبرتى توفى عن ولد هو محفوظ وابنة هي أمان، وأنهما اشتركا مع زوجته المسماة شوق فى وراثة

وعـن طـريق الحـــبــــشــــه
صـحـبـتـهـا وصـيـفـه
بحـسـنهـا مـشـربـشـه
تـذكـر أن أصـلـهـا
من فـتـيـات الأنجـشـه
وعـمـهـا الخـال فـيـا
طوبى لمن قـد خـمـشـه
وخـدهـا لو مـر فـيـ
ـه الـوهـم يومـا خـدشـه

«عودة وانعطاف»

إن الشيخ عبد الرحمن وهو الجد السابع لجامعه واليه ينتهى علمنا بالأجداد ، هو الذى ارتحل من بلاده ووصل إلينا خبره سلفا عن خلف، فقدم من طريق البحر إلى جدة وانتقل إلى مكة فجاور بها وحج مرارا وذهب أيضا إلى المدينة المنورة فجاور بها سنتين، ولقي من لقى بالحرمين من الأشياخ وتلقى عنهم ، ثم رجع إلي جدة وحضر إلى مصر من طريق القلزم فدخل إلى الجامع الأزهر في أوايل العاشر وجاور بالرواق ولازم حضور الأشياخ واجتهد في التحصيل وتولى شيخا على الرواق والتكلم على طايفته وتزوج وولد لهن. فلما مات خلف ولده الشيخ شمس الدين محمد، ونشأ على قدم الصلاح والاشتغال بطلب العلم، وتولى مشيخة الرواق كوالده، وأنجب وأقرأ دروسا في الفقه (ص٩٢٣) والمعقول بالرواق وكان على غاية من الصلاح وملازمة الجماعة والسنن ولا يبيت عند عياله إلا ليلة أو ليلتين في الجمعة، وغالب لياليه يبيتها بالرواق لأجل الاشتغال بالمطالعة أول الليل على السهارة والتهجد آخره، ومما اتفق له وعد من كراماته أن السِّرَاجَ انطفأ

في بعض الليالى الشتوية فأيقظ النقيب لِيُسْرِج له سراجا فقام من نومه منكرها وأخذ قنديلا وذهب ليسرجه فلما عاد به وقرب من الرواق رأى نورا فستر ذلك القنديل ونظر إليه من بعد لينظر من أين أتاه الإسراج فوجده يطالع في الكراس وهو في يده اليسار وسبابة يده اليمنى رافعها وهي تضيء مثل الشمعة المستنيرة ويطالع في نورها ثم دخل النقيب بالقنديل فاختفى ذلك الضوء وعلم الشيخ ذلك من النقيب فعاتبه على التجسس وأشار إليه بكتمان سره، ولم يعش الشيخ بعد ذلك إلا قليلا، وتوفى إلى رحمة الله تعالى وخلف ابنه الشيخ على فنشأ أيضا على قدم أسلافه في ملازمة العلم والعمل وصار له شهرة وثروة وتزوج بزينب بنت الإمام العلامة القاضي عبد الرحيم الجوينى، ومات في حياة أخيه سنة تسع وثمانين وألف، وكان لزينب الجوينية أماكن جارية في ملكها وقفتها على ولدى زوجها المذكورين، ولما توفى الشيخ حسن أعقب الجد ابراهيم (ص٩٢٤) رضيعا فكفلته والدته الحاجة مريم بنت الشيخ العمدة الضابط محمد بن عمر المنزلى الانصارى، فنشأ أيضا نشوءا صالحا حتى بلغ الحلم فزوجوه بستيتة بنت عبد الوهاب أفندى الدلجى فى سنة ثمان وماية وألف ، وبنى بها في تلك السنة وحملت بالمترجم وولدته فى سنة عشر ومائة وألف، ومات والده وعمره شهر واحد وسن والده إذ ذاك ست عشرة سنة فربته والدته بكفالة جدته أم أبيه المذكورة ووصاية الإمام العلامة الشيخ محمد النشرتى، وقرروه فى مشيخة الرواق كأسلافه والمتكلم عنه الوصى المذكور فتربى فى حجورهم حتى ترعرع وحفظ القرآن وعمره عشر سنين، واشتغل بحفظ المتون فحفظ الألفية الجوهرية ومتن كنز الدقايق في الفقه ومتن السلم والرحبية ومنظومة ابن الشحنة فى الفرايض وغير ذلك، واتفق له فى أثناء ذلك وهو ابن ثلاث عشرة سنة أنه مر مع خادمه بطريق الأزهر فنظر إلى

الشيخ عبد الرحمن، فباعوا منزله الجديد بالصنادقية عام ١٢٥٧هـ، كما يتضح ذلك أيضا (أى أنهم الورثة الوحيدون) من حجة الأيلولة في البيت القديم بالصنادقية التى صدرت في سنة ١٢٦٠هـ. كذلك يتضح من هذه الوثائق أن محفوظ هو ابن السيدة شوق وهو ليس شقيقا لخليل الجبرتى أو أمان الجبرتى. وكان الأستاذ خليل شيبوب قد كتب عن أولاد الجبرتى (فقد توفرت لدينا معلومات خاصة تدل على أن عبد الرحمن توفى عن ابنيه (حسن ومحفوظ). ولكن الوثيقة رقم (٢) تؤكد خطأ هذا الزعم، لأن محفوظ هو الوريث الوحيد للجبرتى من الذكور ـ أما حسن الذى ذكره شيبوب فمن الواضح من نفس الوثيقة أنه لم يكن ابن الشيخ عبد الرحمن وإنما كان ابنا لزوجته شوق من زوجها حموده رجب.

كذلك تبدو أهمية هذه الوثائق في تحديد ابن الجبرتى الذى قتل عام ١٢٣٧ه فى طريق شبرا ـ فما دام محفوظ هو الابن الذى عاش بعد أبيه فلابد أن يكون قتيل شبرا هو خليل الذى ذكره الجبرتى فى تاريخه عند ترجمته لعلى بن عبد الله الرومى الدرويش. وعلى ذكر أحفاد الجبرتى، اعتقد شيبوب أنه لم يبق بعد محفوظ الجبرتى ذرية عصب من عبد الرحمن وأن أولاد توحيدة ابنة محفوظ تكنوا بكنية الجبرتى ـ ولكن الوثيقة رقم (٢) تطالعنا بأن خليل قتيل شبرا كان له ولد اسمه محمد وأن محمدا هذا خلف ولدا اسمه خليل خيرى الذى اشترك فى بيع بيت الجبرتية القديم بالصنادقية سمنة ١٢٩٩هـ.

أما بالنسبة لزوجات الجبرتى، فنحن نعلم أن الجبرتى تزوج فى عام ١١٨٢ه.

ولابد أن يكون هذا هو زواجه الأول، فقد ولد عبد الرحمن ـ حسب قوله فى سنة ١١٦٧هـ ـ وقد ذكر الجبرتى فى ترجمته للشيخ عبد الله بن عبد الله ابن سلامة الإدكاوى ما نصه : (ولما زوجنى المرحوم الوالد فى سنة اثنتين وثمانين وألف كتب إليه ال مهنيا ومؤرخا قوله:

ياماجدا أقواله

وفعاله طاب بذكرك
ياكنز طلاب المعا
رف جلها من در بحرك
يهنيك نجلك عابد الر
حمن زاد علا بفخرك
هنيته مليته
متعته يافرد عصرك
زوجته بكر المحا
سن فانثنى يتلو لشكرك
أبقاهما الله الكر
يم منعمين بطول عمرك
هذا هناه محبك الدا
عى لكم بسمو قدرك
والحال قد أرخته
شمس البها زفت لبدرك

وبيت التاريخ قوله (شمس البها زفت لبدرك) ١١٨٢هـ
كذلك نعلم عن زوجة الجبرتي الثالية من ترجمته للشيخ على بن عبد الله الرومى الدرويش الذى زوج الجبرتى ربيبته عام ١١٩٥ه (وهى أم الولد خليل فتح الله عليه) . وشيبوب يعتقد أن الجبرتى لم يتزوج بعد ذلك. ولكن الوثائق رقم (٢) ورقم (٤) ورقم (٥) تذكر السيدة شوق على أنها الزوجة الوحيدة التى عاشت بعد الجبرتى ، وهى ابنة الشيخ نصار نجم، فهى إذا ليست ربيبة عبد الله درويش الرومى الزوجة الثالية. فهل هى الزوجة الأولى التى تزوجها الجبرتى عام ١١٨٢هـ. لا يبدو ذلك، فهى الزوجة الوحيدة التى عاشت بعد الجبرتى على الأقل لعام ١٢٦٠هـ، هذا إلى جانب أن أحد أبنائها من غير الجبرتى وهو حسين بن حمودة رجب عاش حتى عام ١٢٩٩ه (الوثيقة ٢) واشترك فى بيع بيت الجبرتى القديم بالصنادقية بعد أن ورث أمه فى حصتها فى هذا المنزل. وكل هذا يرجح أنها ليست الزوجة الأولى ، وأغلب الظن أنها زوجة ثالثة ـ كما يرجح أنها تزوجت بحمودة رجب وأنجبت حسن وحسين بعد وفاة الجبرتى وهما المذكورين فى (الوثيقة ٢) وليس قبل زواجها

شيخ مقبل منور الوجه والشيبة وعليه جلالة ووقار طاعن فى السن والناس يزدحمون على تقبيل يده ويتبركون به، فسأل عنه وعرف أنه ابن الشيخ الشرنبلالى، فتقدم إليه ليقبل يده كغيره فنظر إليه الشيخ وتوسمه وقبض على يده وقال «من يكون هذا الغلام ومن أبوه؟ فعرفوه عنه، فتبسم وقال عرفته بالشبه، ثم وقف وقال اسمع ياولدى أنا قرأت على جدك وهو قرأ علَى والدى وأحب أن تقرأ علىّ شيا وأجيزك وتتصل بيننا (ص٩٢٥) سلسلة الإسناد وتحلق الأحفاد بالأجداد ، فامتثل إشارته ولازم الحضور عنده فى كل يوم وقرأ عليه متن نور الإيضاح تأليف والده فى العبادا وكتب له الإجازة ونصها : «الحمد لله الذى أنعم على عبده بتوفيقه، وأرشده إلى سواء طريقه، وأذاقه حلاوة التفقه في دينه وتمام تحقيقه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المنعم بلطايف الإنعام وعظيمه ودقيقه، وأشهد أن سيدنا وسندنا محمد عبده ورسوله الهادى إلى الخير الكامل، والجبر الشامل، فأصبح كل أحد مغمورا فى بحر وجوده، محفوظا من كيد الشيطان وجنوده وتعويقه، على اله الأطهار، وصحابته الأخيار، وبعد فقد حضر لدى الولد النجيب، الموفق اللبيب، الفطن الماهر، الذكى الباهر، سليل العلما الأعلام ، ونتيجة الفضلا العظام، نور الدين حسن بن برهان الدين ابراهيم بن العلامة مفتى المسلمين وإمام المحققين ، الشيخ حسن الجبرتى الحنفى رحم الله أسلافه وبارك فيه، وقرأ على متن نور الإيضاح من أوله إلى آخره تأليف والدى المندرج إلى رحمة الله تعالى سيدى وسندى الإمام العلامة الشيخ حسن بن عمار الشرنبلالى، وأجزته أن يروى ذلك عني وجميع ما يجوز لى روايته إجازة عامة كما أجازنى به وبفقه أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه كما تلقى ذلك هو عن الشيخ على المقدسى شارح (ص٩٢٦) نظم الكنز عن العلامة الشلبى شارح الكنز عن

القاضى عبد البر بن الشحنة عن المحقق الكمال بن الهمام عن سراج الدين قارئ الهداية عن علاء الدين السيرامى عن السيد جلال الدين شارح الهداية ، عن علاء الدين بن عبد العزيز البخارى، عن حافظ الدين صاحب الكنز، عن شمس الائمة الكردى، عن برهان الدين صاحب الهداية، عن فخر الإسلام البزدوى، عن شمس الأئمة السرخسى، عن شمس الأئمة الحلوانى، عن القاضى ابن على النسفى، عن الإمام محمد بن الفضل البخارى ، عن عبد الله السندمونى

عن الأمير عبد الله بن أبيه حفص البخارى عن أبيه المذكور، عن الإمام محمد بن الحسن الشيبانى، عن الإمام أبى يوسف عن الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان بن ثابت رضى الله عنه ، عن الإمام حماد بن سليمان، عن إبراهيم النخعى، عن الإمام علقمة، عن عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم، عن أمين الوحى جبريل عليه السلام، عن الله عز وجل، وأوصى الولد الأعز بالتقوى ومراقبة الله فى السر والنجوى، والله تعالى يوفقه وينفع به وبعلومه ويهدينا وأياه لما كان عليه السلف الصالح فى أساس الدين ورسومه. قال ذلك الفقير إلى الله تعالى حسن بن حسن الشرنبلالى الحنفى فى ثالث ربيع الأول من سنة ثلاث وعشرين ومابة وألف، وتوفى الشيخ فى آخر تلك السنة وقد جاوز التسعين، واشتغل المترجم واجتهد فى طلب العلوم وحضر (ص٩٢٧) أشياخ العصر وتفقه على الإمام العلامة السيد على السيواسى الضرير، وحضر عليه شرح الكنز للعينى والدر المختار وكتاب الأشباه والنظاير لابن نجيم وشرح المنار لابن فرشته وشرح التحرير للكمال بن الهمام

من عبد الرحمن.

أما البنت الوحيدة التى عاشت بعده، فهى أمان حسب ما تفيد الوثائق وهى ليست ابنة لزوجة شوق كما هو واضح. فهل هى أخت شقيقة الخليل؟ ليس هناك ما يؤكد ذلك؛ ولكن من المؤكد أنها لم تخلف من بعدها بدليل أن أخيها غير الشقيق قد ورثها. (الوثيقة رقم ٢).

أما محفوظ الذى يذكر كثير فى هذه الوثائق فمن الواضح أنه ابن الشيخ عبد الرحمن من السيدة شوق. ويبدو أنه كان أصغر سنا من أمان، كما يبدو أنه كان مسئولا إلى حد كبير عن تبديد ثروة الأسرة. فهو الذى باع بيت والده الجديد بالصنادقية ، وحين باعت ابنته فاطمة (أم فرج) البيت القديم بالصنادقية لم تتسلم شيئا لا هى ولا خليل خيرى بن محمد بن خليل الجبرتى لأن حصتهما كانت دينا على محفوظ.

ثالثا ـ عبد الرحمن الجبرتى:

لا تحمل هذه الوثائق توقيع الشيخ عبد الرحمن الجبرتى لأن حجج هذا العصر كانت تحمل توقيع الشهود فقط ـ وتشير إلى لقب للشيخ عبد الرحمن ـ لا نراه فى كتب التاريخ ـ وهو زين الدين (الوثيقة رقم ٣).

كما تشير هذه الوثائق إلى المؤرخ بقولها (مولانا العلامة الشيخ عبد الرحمن الشهير بالجبرتى ابن المغفور له الشيخ حسن أفندى الجبرتى الحنفى). كما تشير إليه أيضا بقولها (فخر الفضلا العظام عمدة البلغا الكرام فخر المدرسين الفخام مفيد الطالبين بإفهام زين الشريعة والملة والدين مولانا العلامة الحبر البحر الفهامة عبد الرحمن الشهير بالجبرتى ابن خاتمة المحققين المتدرج إلى أعلى عليين المغفور له العلامة الشيخ حسن أفندى الجبرتى الحنفى من أعيان أهل الإفادة والتدريس بالجامع الأزهر هو حالا كوالده المذكور كان) (وثيقة رقم ٣).

ولما كان هذا القول قد ورد فى وثيقة سنة ١٢٣٣هـ (١٨١٨م) فهو دليل على أن عبد الرحمن الجبرتى كان حتى ذلك الوقت وقبل وفاته بسبعة أعوام تقريبا يقوم بالتدريس

وشرح جمع الجوامع ومختصر السعد، وعلى العلامة الشيخ أحمد التونسي المعروف بالدقدوسي الحنفى شرح الكنز للعلامة الزيلعي والدرر لملا خسرو والسيد على السراجية فى الفرائض وشرح منظومة بن الشحنة فى الفرايض والشنشورى على الرحيبة والتلخيص ومتن الحكم وشرح التحفة، وعلى الشيخ على العقدى الحنفى ملامسكين على الكنز ومتن الهداية والسراجية والمنار والنزة فى علم الغبار والقلصادى ومنظومة ابن الهايم وعلى الفقيه محمد بن عبد العزيز الزيادى الحنفى ملتقى الأبحر وفتح القدير ، والحكم لابن عطاء الله والقدورى وعقود الجمان فى المعانى والبيان وإيساغوجى، وعلى الشيخ الفقيه المحدث الشهاب أحمد بن مصطفى الاسكندرى الشهير بالصباغ شرح الكبرى وأم البراهين وشرح العقايد والمواقف وشرح المقاصد للسعد والكشاف والبيضاوى والشمايل والصحيحين رواية ودراية والأربعين النووية والمشارق والقطب على الشمسية والمواهب اللدنية وشرح النخبة، وعلى الشيخ منصور المنوفى شرح ابن عقيل على الألفية والشيخ خالد على الآجرومية والأزهرية والتوضيح وشرح تصريف العزى وشرح التلمسانية (ص٩٢٨) والخبيصى على التهذيب، وشيخ الإسلام على الخزرجية، وعلى الشيخ عيد النمرسى شرح الورقات والسمرقندية وآداب البحث والعضدية والعصام على السمرقندية وعلم الجبر والمقابلة والعروض وأعمال المناسخات والكسورات والأعداد الصم والغربال والمساحة والحساب، وعلى الشيخ شلبى البرلسى تلخيص المفتاح والمطول والتجريد، وعلى الشيخ محمد السجينى الضرير المكودى على الألفية والفاكهى وشرح الشذور وملاجامى،

فى الأزهر.١
ولما كانت هذه الوثيقة هى حجة إتمام شراء الجبرتى لبيته الجديد بالصنادقية فهى دليل على أن الجبرتى حتى عام ١٢٣٣ هـ كان موسرا إلى حد ما، فقد دفع ثمنا له ٩٩٠ ريالا مصريا، تبرع منها بثلاثمائة ريال (على سبيل الصلة والمعروف وقطعا لمادة الخصام والنزاع)، وهى حقيقة تعكس طبيعة الجبرتى الهادئة الكريمة.
كذلك يستنتج مما جاء فى الوثيقة رقم (٢) ان الجبرتى تولى مشيخة رواق الجبرتية. فقد ذكرت الوثيقة مايلى(الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الحنفى نجل المرحوم الشيخ حسن أفندى الجبرتى الحنفى شيخ رواق السادة الجبرت بالرواق داخل الجامع الأزهر هو كوالده كان) . ويلاحظ كذلك أن جميع الوثائق تشير إلى الشيخ حسن الجبرتى بقولها (حسن أفندى الجبرتى) وهو لقب لم تطلقه هذه الوثائق على الشيخ عبد الرحمن، وكان اللقب لا يطلق إلا على من تولى وظيفة القضاء أو الافتاء.
رابعا: بيتا الجبرتى بالصنادقية
المعتقد بين بحاث التاريخ أنه كان للشيخ عبد الرحمن بيت واحد بالصنادقية، وصفه خليل شيبوب بقوله : «وتقع هذه الدار إلى يمين السالك فى الخطة (الصنادقية) من جهة الأزهر على بعد خطوات من مدرسة السنانية قبل خان الجلابة». ومن المؤكد أن هذا المنزل هو الذى ورثه عبد الرحمن عن والده، فقد ذكرته الوثيقة رقم (٢) بقولها (المعروف بإنشاء وتجديد وسكن الشيخ حسن أفندى الجبرتى). ونحن نعلم أن الشيخ عبد الرحمن كان قد رأى فى سنة ١١٩١ أن يهدم هذا الدار ليبنيها من جديد وأنه أتم ذلك فى سنة ١١٩٢. فقد ذكر الجبرتى فى ترجمته للشيخ مصطفى بن أحمد المعروف بالصاوى ما نصه: «ولما عمر الفقير جامع هذه الشوارد داره التى بالصنادقية بالقرب من الأزهر فى سنة إحدى وتسعين ومائة وألف عمل المترجم أبياتا وتاريخا قمت بطراز مجلس العقد الداخلى وهى:



اقدم خريطة للقاهرة
تسبق عام ١٤٨٠

وشرح مختصر ابن الحاجب والمطول، وعلى الشيخ أحمد العماوى شرح الجوهرة لعبد السلام والسكتانى على الصغرى وشرح مختصر السنوسي والكافي ونوادر الأصول والجامع الصغير وشرح المقاصد، وعلى الشيخ حسن المدابغي الأشمونى على الألفية وشرح المراح وقواعد الإعراب والمغنى، وعلى الشيخ الملوى شرحه على السلم وشرح معراج الغيطي وأوضح المسالك وأوايل الكتب الستة والمسلسلات والمسندات. وحضر أيضا دروس الشيخ عبد الرءوف البشبيشي وأبو العز العجمي وغيرهما، وجد فى التحصيل حتى فاق أهل عصره وباحث وناضل ودرس بالرواق فى الفقه والمعقول وبالسنانية ببولاق، وكان لجدته أم أبيه مكان مشرف على النيل بربع الخرنوب عندما كان النيل ملاصقا لسدته فسكنها مدة فكان يغدو إلى الجامع ثم يعود

خليلى هذا الروض فاحت زهوره
ولاح على الأكوان حقا ظهوره
وزاد ثناء عبق الجو طيبه
فمنه عبير المسك طاب عبوره
سما فى سماء الكون فانتهج العلا
برفعته وازداد سرا سروره
ألم تر أجسام الوجود تراقصت
وجاء التهانى باسمات ثغوره
مكان على التقوى تأسس مجده
من سور التوفيق والهدى سوره
وفردوس عدن فاح فوح نسيمه
وحفته ولدان النعيم وحوره
ومجلس أنس كل ما فيه مشرق
ومقعد صدق قد تسامى حبوره
بناء يروق العين حسن جماله
وورنقه يشفى الصدور صدوره
ومن مجد بانيه تزايد بهجة
وقلد من در المعالى نحوره
عزيز بنى بيت المكارم فانثنت
تغنى به حمدا ومدحا طيوره
وأحيا رسوم المجد والفخر والتقى
وزانت بأعلام الكمال سطوره
فلا زال فيه الفضل تسمو شموسه
وتسمو على كل البدور بدوره
ودام به سعد السعود مؤرخا
حمى العز بالمولى الجبرتى نوره

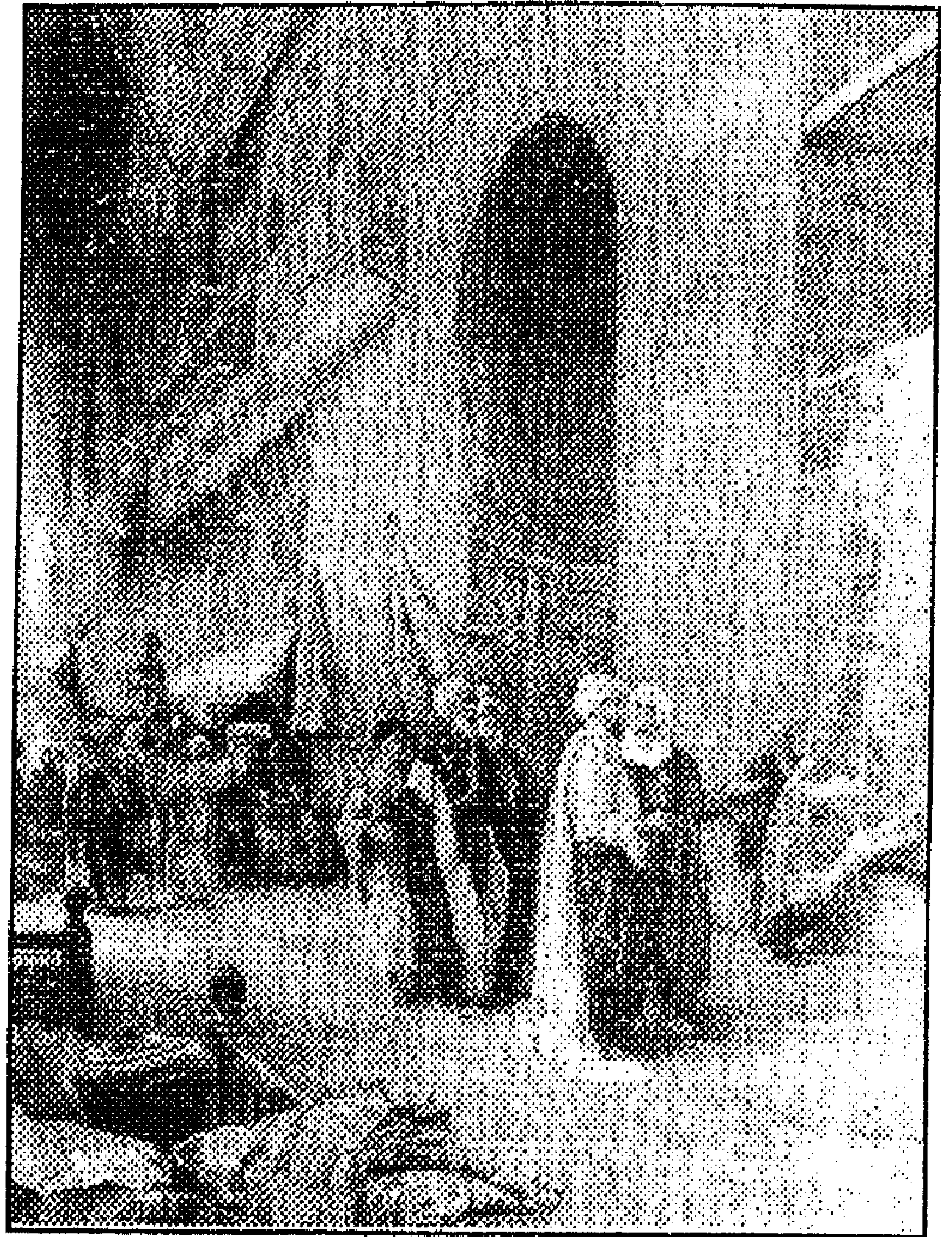
وتحدد الوثيقة (١) مكان المنزل على النحو التالى (المكان الكاين بمصر المحروسة تجاه الجامع الأزهر بخط الخراطين [هو خط الصنادقية] بالقرب من مدرسة السنانيه المجاور لوكالة المرحوم الخواجا جمال الدين الدهبى شاه بندر التجار بمصر كان المعروف بخان النشارين) ـ وتحدده الوثيقة رقم (٢) تحديدا أدق على النحو التالى (الحد القبلى ينتهى سفلا لطريق الشارع وفيه باب المكان والحانوت المذكورين وعلو الشارع المرقوم وطوله عشرة أمتار وثلاثون سانتى متر والحد المذكورين وعلوا الشارع المرقوم وطوله عشرة أمتار وثلاثون سانتى متر والحد الغربى ينتهى سفلا وعلوا للوكالة المعروفة بوكالة القفاصين الجارية فى وقف المرحومة الست زينب

البارودية بنت اسماعيل بن على، والحد الشرقى ينتهى سفلا لحانوت وحاصل بوكالة النشارين الجارين فى وقف السلطان أينال لنظارة سعادة مولانا خديو مصر، وعلوا ينتهى لوكالة النشارين المذكورة الجارية فى وقف السلطان إينال المذكور وطول كل من الحدين المذكورين اثنى عشر مترا وخمسة وعشرون سانتى متر. والحد البحرى ينتهى سفلا وعلوا لوكالة النشارين المذكورة وطوله عشرة أمتار وعشرون سانتى متر، فجملة مسطح أرض ذلك ماية واحدة وأربعة وعشرون مترا وخمسة وسبعون سانتى متر).

أما بالنسبة لداخل هذا المنزل فيحسن أن ننقل هنا وصفه من الحجة المؤرخة فى ١٢٠١ هـ لأن ذلك البيت تم تعميره فى سنة ١١٩٢هـ. تقول هذه الوثيقة فى وصف داخل المنزل (المشتمل .. على واجهة غربية [المقصود هنا القبلية لأن النيل بالنسبة لهم كان الحد الشرقى.] بها حانوت وباب مقنطر يدخل منه إلى حوش لطيف سقف بعضه به منور وبير ماء معين وسلم يتوصل منه إلى أروقة مركبة على بعضها بعضا مطلة على الشارع السالك علو الواجهة المذكورة، وجميع خلو الطبقة التى من جملة الأربعة طباق الكاينة بالربع الذى علو خان النشارين بمصر المحروسة بخط الخراطين المذكور قريبا من الجامع الأزهر بالدور العلوى لسكن عبد الرحيم الشامى المختلطة الطبقة المذكورة الآن بالمكان المذكور وصارت من جملة منافعه وحقوقه ، وا ستجد بذلك من الأبنية بالصفة التى هو عليها الآن والمعلوم ذلك عندهما [البائع هنا هو عبد الرحمن الجبرتى] شرعا والجارى أصل الطبقة المذكورة فى وقف المرحوم أحمد بن السلطان أينال وخلو الطبقة المذكورة مع ملك المكان المذكورة فى تصرف وانتفاع الشيخ زين الدين عبد الرحمن الجبرتى).

وقد باع الجبرتى هذا البيت فى عام ١٢٠١ هـ بثمن قدره ١٢٣ ١/٤ ريالا أبو طاقة ـ ونحن نعلم أن الجبرتى استرد هذا المنزل فى العام التالى، فقد كتب على هامش الوثيقة

إلى بولاق، وله حاصل بربع الخرنوب يجلس فيه حصة ثم يعود إلى السنانية فيملى هنا درسا ثم احترق ذلك المنزل بما فيه وتلفت فيه أشياء كثيرة من المتاع والصينى القديم فانتقلت إلى مصر، وكانوا يذهبون إلى مكان لها بمصر العتيقة (ص٩٢٩) فى أيام النيل بقصد النزاهة، وهى التى أعانته على تحصيل العلوم حتى أنه كان يقول «ماعرفت المصرف واحتياجات المنزل والعيال إلا بعد موتها» ومع اشتغاله بالعلم كان يعانى التجارة والبيع والشراء والمشاركة والمضاربة والمقايضة ، وكانت جدته ذا غنى وثروة ولها أملاك وعقارات ووقفت عليه أماكن منها الوكالة بالصنادقية والحوانيت بجوارها وبالغورية ومرجوش ومنزل بجوار المدرسة الأقبغاوية، ورتبت فى وقفها عدة خيرات ومكتب لإقراء أيتام المسلمين بالحانوت المواجه للوكالة المذكورة وربعة تقرأ فى كل يوم وختمات فى ليالى المواسم وقصعتين ثريد فى كل ليلة من ليالى رمضان وثلاث جواميس تفرق على الفقهاء والأيتام والفقراء فى عيد الأضحية، وتزوج بجدته المذكورة بعد موت جده الأمير على أغا باش اختيار متفرقة المعروف بالطورى ، وتزوج المترجم بابنته وله حكم قلاع الطور والسويس والمويلح وكانت إذ ذاك عامرة وبها المرابطون ويصرف عليهم العلوفا والاحتياجات، ولما مات على أغا المذكور سنة سبع وثلاثين تقلد ذلك بعده المترجم مدة مع كونه فى عداد العلماء وربى معتوقيه عثمان وعليا ولم يزالا فى كنفه حتى ماتا بعد مدة طويلة وأرسل خادما له يسمى سليمان الحصافى جربجيا على قلعة المويلح فقتلوه هناك فتكدر لذلك وترك هذا الأمر وأعرض عنه وأقبل على شأنه من الاشتغال ، وماتت زوجته بنت الأمير على أغا المذكور



في حياة أبيها فتزوج ببنت رمضان جلبي بن يوسف المعروف بالخشاب تابع (ص٩٣٠) كور محمد وهم بيت مجدوثروة ببولاق ولهم أملاك وعقارات ووأوقاف. ومن ذلك وكالة وربع وحوانيت تجاه جامع الزردكاش وبيت كبير بساحل النيل وآخر تجاه جامع مرزة جربجي وهو سكن رمضان جلبي المذكور وكان إنسانا حسنا رقيق الحاشية وفيه فضيلة وسليقة جيدة، ومن نظمه في إعارة الكتب قوله:

كتابك لا تعره ولا لألف
فإنك لا تعود لذاك تلفى
فخذ قولي وشد يدا عليه
فإن خالفت فقدك فيه يكفى
ولست مقلدا في النصح بل قد
تكرر فقد ما أعطته كفى

(صدر تقايل شرعي [أى فسخ العقد شرعا] من الحاج محمد بن عبد الله محمود المذكور قرينه للشيخ عبد الرحمن الجبرتي المذكور قرينه في كل ما هو مقيد قرينه بموجب حجة شرعية مسطرة من الصالحية النجمية بمصر مؤرخة في تاسع عشر ربيع الثاني سنة اثنين ومايتين وألف سنة ١٢٠٢) كذلك ورد في الوثيقة رقم (٢) أن ورثة الجبرتي قد باعوا هذا المنزل في سنة ١٢٩٩هـ بمبلغ قدره ١٤٠ جنيها ذهبا.

غير أن المؤرخين لايذكرون شيئا عن منزله الآخر بالصنادقية الذى كان، كما يفهم من الوثائق، في مواجهة المنزل الأول الذى ورثه عن أبيه. ومن الواضح من الوثيقة رقم (٣) أن الجبرتي اشترى هذا المنزل الثاني بخط الصنادقية سنة ١٢٣٣هـ. وتحدد الوثائق هذا المنزل على النحو التالي (المكان الكاين بمصر المحروسة بخط الخراطين قريبا من مدرسة السنانية والجامع الأزهر على يسرة السالك طالب للأشرفي وسوق العطارين البلدى، الجارى أصل ذلك في وقف المرحوم جوهر القنقباى) ثم صف هذه الوثائق داخل المنزل على النحو التالي (المشتمل .. على باب بالشارع الأعظم يمنه الطالب لمدرسة السنانية، يدخل من الباب المذكور إلى دهليز به باب استثنى يدخل منه إلى حوش به يمنه قنطرة سفلها معالم منظرة يقابلها واجهة البناء سفلها بير علو الدهليز - والقنطرة والسبيل المركب على القنطرة والسبيل المركب على القنطرة وحايط البير كامل علو ذلك من حقوق الغير ولم يكن داخلا في عقد ذلك، فيما بين المنظرة وواجهة البير باب يدخل منه الى اسطبل علوه مقعد يتوصل إليه من سلم علو ذلك من حقوقه ـ وبالحوش يسرة الطالب للاسطبل باب يدخل منه إلى دهليز علوه من حقوق الغير ، بالدهليز باب يدخل منه إلى رحاب مفروش بالرخام القديم به باب يدخل منه إلى قاعة تحوى إيوانين ودور قاعة بها بابان إحدهما يدخل من إلى مجازيه به كرسي راحة وسلم يتوصل منه إلى أغاني والسطح العالي على على ذلك وهو علو

المقعد المذكور، والباب الثاني يدخل منه إلى مطبخ تجاهه قاعة صغيرة وسلم يتوصل منه إلى طبقة وإلى سطح صغير وما لذلك من المنافع والمرافق والحقوق الداخلية فيه والخارجة عند خلا العلو المرقوم فانه من حقوق الغير).

ويلاحظ بالنسبة للوكالات المجاورة للبيتين، إن وكالة النشارين هى نفسها وكالة السلطان أحمد بن اينال وهى على يسرة البيت القديم، ووكالة القفاصين وهى على يمنة البيت القديم ومن المحتمل أنها هى أيضا وكالة الجلابة التي وردت فى الوثيقة رقم (٣).

الوثيقة رقم (١)
١٤ رمضان سنة ١٢٠١
الأمر كما ذكر فيه
ختم: توكلى على خالقى عبده حسن
نمقه الفقير إليه عز شانه حسن المولیخلافه (المولى خلافه) بمصر المحروسة غفر له
هو إنه بمجلس الشرع الشريف الأنور بمحكمة الجامع الحاكمى بمصر المحروسة لدى سيدنا ومولانا فخرقضاة الإسلام وكمال ولاة الأنام الحاكم الشرعى الحنفى الموقع خطه الكريم أعلاه دام علاه آمين بحضرة كل من المكرم الحاج احمد جمليان ابن المرحوم على والأمثل المكرم منلا مصطفى رضوان بن المرحوم يوسف اسلامبولى والسيد الشريف مصطفى الجرلى ابن المرحوم السيد صالح والشيخ محمد احمد الرفاعى القبانى برأس خان الخليلى دام كمالهم آمين اشترى فخر أمثاله الكرام الحاج محمد بن عبد الله معتوق المرحوم السيد الشريف محمود ناظر الكسوة الشريفة كان بماله لنفسه من بايعه الشيخ الإمام الفاضل الهمام سليل العلما الكرام زين الدين عبد الرحمن الجبرتى الحنفى ابن المرحوم العلامة الشيخ بدر الدين حسن الجبرتى الحنفى شيخ مشايخ أهل الافادة والافتا والتدريس بالجامع الأزهر كان فباعه جميع المكان الكاين بمصر المحروسة تجاه الجامع الأزهر بخط الخراطين بالقرب من مدرسة السنانية المجاور لوكالة المرحوم الخواجا

فــإن ألجــأت للإعطاء فــاقـــبض
نظيـــرا مـــثله إن كـــان يكفى
وإن ترم اسم ناظمـــه حـــســـابا
فـــضف أحـــدا إلى تـــســـعين ألـف

[ومـات] رمـضـان جلبى المذكـور سنة تسع وثلاثين ومـاية وألف، واستمرت ابنته فى عصمة المترجم حتى ماتت فى المحرم سنة اثنتين وثمانين وماية وألف وعمرها ستون سنة، وكانت من الصالحات الخيرات المصونات،و حجت صحبته فى سنة إحدى وخمسين، وكانت به بارة وله مطيعة، ومن جملة برها له وطاعتها أنها كانت تشترى له من السرارى الحسان من مالها وتنظمهن بالحلى والملابس وتقدمهن إليه وتعتقد حصول الأجر والثواب لها بذلك، وكان يتزوج عليها كثيرا من الحرائر ويشترى (ص٩٣١) الجوارى فلا تتأثر من ذلك ولا يحصل عندها ما يحصل فى النساء من الغيرة، ومن الوقايع الغريبة أنه لما حج المترجم فى سنة ست وخمسين واجتمع به الشيخ عمر الحلبى بمكة، أوصاه بأن يشترى له جارية بيضاء تكون بكرا دون البلوغ وصفتها كذا وكذا، فلما عاد من الحج طلب اليسرجية الجوارى لينتقى منهن المطلوب فلم يزل حتى وقع على الغرض فاشتراها وأدخلها عند زوجته المذكورة حتى يرسلها مع من أوصاه بإرسالها صحبته، فلما حضر وقت السفر أخبرها بذلك لتعمل لهم ما يجب من الزوادة ونحو ذلك، فقالت إنى أحببت هذه الوصيفة حبا شديدا ولا أقدر على فراقها وليس لى أولاد وقد جعلتها مثل ابنتى والجارية بكت أيضا وقالت لا أفارق سيدتى ولا أذهب من عندها ابدا، فقال وكيف

يكون العمل؟ قالت ادفع ثمنها من عندى واشتر أنت غيرها ففعل. ثم إنها اعتقتها وعقدت له عليها وجهزتها وفرشت لهـا مكانا على حـدتهـا وبنى بهـا فى سنة خـمس وستين وكانت لا تقدر على فراقها ساعة مع كونها صارت ضرتها وولدت له أولادا، فلما كان فى سنة اثنتين وثمانين المذكورة مرضت الجارية فمرضت لمرضها وثقل عليهما المرض فقامت الجارية فى ضحـوة النهار فنظرت إلى مولاتها وكانت فى حالة غطوسها فبكت وقالت «إلهى وسيدى إن كنت قدرت بموت سيدتى اجعل يومى قبل يومها، ثم رقدت وزاد بها الحال وماتت تلك الليلة فأضجعوها بجانبها فاستيقظت مولاتها آخر الليل وجستها بيدها وصارت تقول زليخا زليخا فقالوا لها إنها نائمة فقالت إن قلبى (ص٩٣٢) يحدثنى أنها ماتت ورأيت فى منامى ما يدل على ذلك فقالوا لها حياتك الباقية، فلما تحققت ذلك قامت وجلست وهى تقول: لا حياة لى بعدها وصارت تبكى وتنتحب حتى طلع النهار وشرعوا فى تشهيلها وتجهيزها وغسلوها بين يديها وشالوا جنازتها ورجعت إلى فراشها ودخلت فى سكرات الموت وماتت آخر النهار وخرجوا بجنازتها أيضا فى اليوم الثانى، وهذا من أعجب ما شاهدته ورأيته ووعيته، وكان سنى إذ ذاك أربع عشرة سنة. واشتغل المترجم فى أيام اشتغاله بتجويد الخط فكتب على عبد الله افندى الأنيس وحسن أفندى الضيائى طريقة الثلث والنسخ حتى أحكم ذلك وأجازه الكتبة وأذنوه أن يكتب الإذن على اصْطلاحهم ثم جود فى التعليق على أحمد أفندى الهندى النقاش لفصوص الخواتم حتى أحكم ذلك وغلب على خطه طريقته ومشى عليها، وكتب الديوانى والقرمة وحفظ

جمال الدين الذهبى شاه بندر التجار بمصر كان المعروف بخان النشارين[وكالة السلطان احمدان اينال] المعروف المكان المذكور سابق بالشا وتجديد وسكن المرحوم الشيخ حسن أفندى الجبرتى والد البايع المذكور المشتمل ذلك بدلالة حجة التبايع الشرعية المسطرة من الصالحية النجمية بمصر المؤرخة فى حادى عشرين رمضان سنة تسعين ومابة وألف وحجة التقايل الشرعية المسطرة من الباب العالى بمصر المؤرخة فى خامس عشرين جماد أول سنة سبع وتسعين ومابة وألف على واجهة غربية بها حانوت وباب مقنطر يدخل منه إلى حوش لطيف سقف بعضه به منور وبير ماء معين وسلم يتوصل منه إلى أروقة مركبة على بعضها بعضا مطلة على الشارع السالك علو الواجهة المذكورة وجميع خلو الطبقة التى من جملة الأربع طباق الكائنة بالربع الذى علو خان النشارين بمصر المحروسة بخط الخراطين المذكور قريبا من الجامع الأزهر بالدور العلوى.
المجاور لسكن عبد الرحيم الشامى المختلطة الطبقة المذكورة الآن بالمكان المذكور وصارت من جملة منافعه وحقوقه وما استجد بذلك من الأبنية بالصفة التى هو عليها الآن المعلوم ذلك عندهما شرعا والجارى أصل الطبقة المذكورة فى وقف المرحوم أحمد ابن السلطان اينال وخلو الطبقة المذكورة مع ملك المكان المذكور فى تصرف وانتفاع الشيخ زين الدين عبد الرحمن الجبرتى البايع المذكور ويده وحوزه وتصرفه واختصاصه الشرعى بمفرده إلى تاريخه يشهد له بذلك حجتى التبايع والتقايل المحكى تاريخهما أعلاه وله ولاية بيع ذلك وقبض ثمنه بالطريق الشرعى
وبالتصادق على ذلك اشترا صحيحا شرعيا وبيعا بتا لازما ناجزا محررا مرعيا العقد بينهما فى ذلك يوم تاريخه بإيجاب وقبول شرعيين بثمن قدره عن ذلك من الريالات الحجر الابى طاقة ماية ريال واحدة وثلاثة وعشرون ريالا وربع ريال حجرا بطاقة ثمنا حالا مقبوض ذلك من الحاج أحمد محمود المشترى المذكور بيد الشيخ زين الدين عبد الرحمن

الجبرتي البايع المذكور قبضا شرعيا بتمام ذلك
وكماله باعترافه بذلك لشهوده ومن ذكر
أعلاه في يوم تاريخه الاعتراف الشرعي ولم
يتأخر له قبله من كامل ذلك ولا من بعضه
مطالبة ولا شيء قل ولا جل واعترف المشترى
المذكور بتسلم ذلك وحيازته لنفسه التسلم
والحيازة الشرعيين بعد النظر والمعرفة والإحاطة
بذلك علما وخبرة نافيتين للجهالة شرعا
وبمقتضى ذلك صار الحاج محمد محمود
المشتر المذكور يستحق ملك كامل المكان
وملك خلو الطبقة المتداخلة به المبتاعين
المذكورين أعلاه يتصرف في ذلك لنفسه
بمفرده خاصة بساير وجوه التصرفات
الشرعية دون البايع المذكور ودون كل أحد
ويقوم بما على ذلك من الحكر لجهة وقف
أصل المذكور حكم المعتاد الجارى به العادة
الصيرورة والاستحقاق والتصرف والقيام
الشرعيات بالطريق الشرعى للمقتضى
المشروح وتصادقا على ذلك وذلك بعد أن
تقايل الحاج محمد محمود المشترى المذكور
مع الشيخ زين الدين عبد الرحمن البايع
المذكور أحكام التبايع الشرعي الصادر فيما
قبل تاريخه منه له في كامل ما ذكر باعاليه
المعين ذلك بالحجة الشرعية المسطرة من
الصالحية النجمية بمصر المؤرخة في ثاني
عشر رمضان سنة مايتين وألف تقايلا شرعيا
وتفاسخا احكام ذلك تفاسخا مرعيا وتسلم
كل منهما ما وجب له تسلمه شرعا
باعترافهما بذلك الاعتراف الشرعى وصار
العمل والمعول على ما نص وشرح أعلاه
التصادق الشرعى المقبول وثبت لاشهاد بذلك
لدى مولانا افندى المومى اليه بشهادة شهوده
ثبوتا شرعيا وحكم بموجب ذلك حكما
شرعيا تحريرا في رابع عشر رمضان سنة واحد
ومايتان وألف شهوده
إمضاء إمضاء إمضاء إمضاء
صدر تقايل شرعى من الحاج محمد بن عبد
الله محمود المذكور قرين الشيخ عبد
الرحمن الجبرتي المذكور قرينه في كامل ما
هو مقيد قرينه بموجب حجة شرعية مسطرة
من الصالحية النجمية بمصر مؤرخة في تاسع

الشاهدى واللسان الفارسي والتركى حتى أن كثيرا من الأعاجم والأتراك يعتقدون أن أصله من بلادهم لفصاحته في التكلم بلسانهم ولغتهم، وفي سنة أربع وأربعين اشتغل بالرياضات فقرأ على الشيخ محمد النجاحي رقايق الحقايق للبسط الماردينى والمجيب والمقنطر ونتيجة اللاذقى والرضوانية والدر لا بن المجدى ومنحرفات السبط، والى هنا انتهت معرفة الشيخ النجاحي وعند ذلك انفتح له الباب، وانكشف عنه الحجاب، وعرف السمت والارتفاع والتقاسيم والأرباع والميل الثانى والأول والأصل الحقيقى والمعدل وخالط أرباب المعارف، وكل من كان (ص٩٣٣) من بحر الفن غارف، وحل الرموز، وفتح الكنوز، واستخرج نتايج الدر اليتيم، والتعديل والتقويم ، وحقق أشكال الوسايط فى المنحرفات والبسايط والزيج والمحلولات وحركات التداوير والنطاقات والتسهيل والتقريب والحل والتركيب والسهام والظلال ودقائق الأعمال وانتهت إليه الرياسة فى الصناعة، وأذعنت له أهل المعرفة بالطاعة، وسلم له عطارد وجمشيد الراصد وناظره المشترى وشهد له الطوسى والأبهرى، وتبوأ من ذلك العلم مكانا عليا وزاحم بمنكبه العيوق والثريا وقدم القدوة العلامة والحكيم الفهامة الشيخ حسام الدين الهندى. وكان متضلعا من العلوم الرياضية والمعارف الحكمية والفلسفية، فنزل بمسجد فى مصر القديمة واجتمع عليه بعض الطلبة مثل الشيخ الوسيمى والشيخ أحمد الدمنهورى وتلقوا عنه أشياء فى الهيئة، فبلغ خبره المترجم فذهب إليه للأخذ عنه، فاغتبط به الشيخ وأحبه، وأقبل بكليته عليه فلم يزل به حتى نقله إلى داره وأفرد له مكانا وأكرم نزله وقام بأوده وطالع عليه الجغمينى وقاضى زاده والتبصرة والتذكرة وهداية



الحكمة لأثير الدين الأبهرى وما عليها من المواد والشروح مثل السيد والميبدى قراءة بحث وتحقيق وأشكال التأسيس فى الهندسة وتحرير إقليدس والمتوسطات والمبادى والغايات والأكر وعلم الإرتماطيقى والجغرافيا وعلم المساحة وغير ذلك، ثم أراد أن يلقنه علم الصنعة الإلهية وكان من الواصلين فيها فغالطه عن ذلك وأبت نفسه الاشتغال بسوى العلوم المهذبة للنفس، وكان يحكى عنه أمورا وعبارت وإشارات تشعر بأنه كان من الكُمَّل الواصلين فى كل شىء، ولم يزل عنده حتى عزم على الرحلة وسافر إلى بلاده. وقدم إلى مصر الإمام العلامة الشيخ محمد الغلانى الكشناوى وسكن بدرب الأتراك، فاجتمع عليه المترجم وتلقى عنه علم الأوفاق وقرأ عليه شرح منظومة الجزنائية للقوصونى والدر والترياق والمرجانية فى خصوص المخمس

عشر ربيع الثانى سنة اثنين ومايتين وألف سنة ١٢٠٢.

الوثيقة رقم (٢)
١٢ رجب سنة ١٢٩٩
مافيه من البيع والشرا

نمقه الفقير إليه عز شانه المتشوف برتبة مكة المكرمة قبوجقلى زاداه السيد عبد الرحمن نافذ القاضى بمصر المحروسة عفى عنهما ختم : محكمة مصر الشرعية الكبرى ختم: السيد عبد الرحمن نافذ
هو أنه بالقسمة العسكرية بمصر المحروسة بعد أن أحال حضرة سيدنا ومولانا فخر السادة الموالى العظام قاضى قضاة الإسلام يومئذ بمصر المحمية الموقع خطه الكريم دام اعلاه آمين النظر فى شأن ما سيذكر فيه على حضرة العلامة الشيخ راشد أفندى أحد عضوى المجلس الشرعى بهذه المحكمة فلديه بالمجلس المشار إليه بحضرة كل من المكرم حسن أفندى عثمان الدخاخنى الساكن بدرب سعادة بتمن الدرب الأحمر ابن المرحوم عثمان محمد الدمياطى ابن محمد الدمياطى والمكرم السيد على عاشور العطار بخط الأزهر الساكن بحارة الدويدارى بثمن الجمالية بمصر ابن المرحوم محمد عاشور ابن عمر عاشور دام كما لهم آمين. اشترى المكرم الحاج منلا محمد حسين الاصفهانى الساكن بالمكان الآتى ذكره فيه ابن المرحوم عبد الهادى الاصفهانى ابن المرحوم الحاج على بماله لنفسه من بايعيه الثلاثة هم المكرم خليل خيرى المستخدم بالسكة الحديد سابقا الساكن بخط الواجهة ببولاق ابن المرحوم محمد خليل الجبرتى ابن المرحوم خليل الجبرتى ابن المرحوم الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الحنفى لجل المرحوم الشيخ حسن أفندى الجبرتى الحنفى شيخ رواق السادة الجبرت بالرواق داخل الجامع الأزهر هو كوالده كان والمكرم حسين رجب الدلال بسوق النحاسين بمصر الساكن بوكالة الوش بخط وثمن الجمالية ابن المرحوم حمودة رجب ابن المرحوم عمر رجب والحرمة

فاطمة ام فرج الساكنة بحارة الجودرية بتمن الدرب الأحمر بنت المرحوم الشيخ محفوظ الجبرتى المتوفى الآتى ذكره فيه ابن المرحوم الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المذكور أعلاه الثابت معرفة المتبايعين المذكورين اسما وعينا ونسبا بشهادة من ذكر معرفة شرعية فباعوه على الحكم الآتى بيانه فيه جميع ملك كامل بناء المكان الكاين بمصر المحروسة بخط الخراطين المعروف الآن بخط الصنادقية تجاه جامع الأزهر بالقرب من مدرسة السنانية بتمن الجمالية وما تداخل بالمكان المذكور من بناء الثلاث طباق والمكان علو احداهن والفسحة بجوارهم والحاصل وصار ذلك من جملة منافعه وحقوقه يعرف ذلك بانشا وتجديد المرحوم الجبرتى المذكور والمشتمل ذلك بدلالة حجة الأيلولة الشرعية المسطرة من هذه المحكمة المؤرخة فى جمادى عشرين القعدة سنة ستين ومايتين والف على مساكن علوية وسفلية ومنافع ومرافق وتوابع ولواحق وحقوق وجميع بناء الحانوت التى بواجهة المكان المذكور المشتملة بالدلالة المذكورة على داخل ودرفتى باب ومنافع وحقوق التى كانت أدخلت بالمكان المذكور ثم أخرجت منه وصارت الحانوت المذكورة كما كانت أولا المحدود المكان المذكور مع ما تداخل به من الثلاث طباق والمكان علو احداهن والفسحة والحانوت بواجهته المذكورين أعلاه الآن بحدود أربعة بدلالة الاملا والكشف المشمول باسم وختم حسن افندى ثابت المهندس بهذه المحكمة الحد القبلى ينتهى سفلا لطريق الشارع وفيه بابى المكان والحانوت المذكورين وعلوا للشارع المرقوم وطوله عشرة أمتار وثلاثون سانتى متر والحد الغربى ينتهى سفلا وعلوا للوكالة المعروفة بوكالة القفاصين الجارية فى وقف المرحومة الست زينب البارودية بنت اسماعيل بن على والحد الشرقى ينتهى سفلا لحانوت وحاصل بوكالة النشارين الجارين فى وقف السلطان أينال نظارة سعادة مولانا خديو مصر وعلوا ينتهى لوكالة النشارين المذكورة الجارية فى وقف السلطان أينال المذكور وطول كل من الحدين

الخالى الوسط، والأصول والضوابط والوفق المسينى وعلم التكسير للحروف وغير ذلك ، وسافر الشيخ إلى الحج وجاور هناك، فلما رجع أنزله عنده وصحبته زوجته وجواره وعبيده، وكمل عنده غالب مؤلفاته ، ولم يزل حتى مات كما تقدم ذكر ذلك فى ترجمته، ولقى المترجم فى حجاته الشيخ النخلى وعبدا لله بن سالم البصرى وعمر بن أحمد بن عقيل المكى والشيخ محمد حياة السندى الكورانى وأبو الحسن السندى والسيد محمد السقاف وغيرهم، وتلقى عنهم وأجازوه وتلقوا هم عنه أيضا عنه ولقنه أبو الحسن السندى طريق السادة النقشبندية والأسماء الإدريسية. وهذه صورة إجازة الشيخ عمر بن أحمد بن عقيل ومن خطه نقل:

«بسم الله الرحمن الرحيم الحمدلله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى خصوصا أفضل أنبيائه وعترته الطاهرين، وصحابته أجمعين وبعد، فإن مما تطابقت عليه النصوص وتوافقت عليه ألسنة العموم والخصوص، أن الباحث عن السنة الغراء لاتباع هدى سيد الأنبياء ، الموجب لمحبة ذى الآلاء والنعماء، هو الفائز بالقدح (ص٩٣٥) المعلى، والمرفوع إلى المقام الأعلى . ومن المعلوم أنه لم يبق فى زماننا ما يتداول منها إلا التعلل برسوم الإسناد، بعد انتقال أهل المنزل والناد، فذو الهمة هو الذى يثابر على تحصيل أعلاه، وينافس فى فهم متنه ويفحص عن معناه ، ويناقش فى رجاله الذين عليهم مغناه، ألا وهو الشيخ الأجل الراقى بعزمه المتين من العلم والعمل إلى أعلى محل سيدنا وأستاذنا الشيخ حسن بن المرحوم ابراهيم بن الشيخ حسن الجبرتى أمده الله بالمدد الإلهى فطلب من هذا الفقير أن أجيزه. فلما لم أجد بدا من الامتثال، قلت سايلا التوفيق فى

القول والفعال؛ أجزت مولانا الشيخ حسن المذكور المنوّه بذكره أعلى السطور، أجزل الله تعالى له الأجور ما يجوز لى وعنى روايته من مقروء ومسموع، وأصول وفروع، بشرطه المعتبر من تقوى الله والصيانة وضبط الألفاظ وسير الرجال والديانة، حسبما أجازنى بذلك شيوخ أكابر عدة، هم فى الشدائد عدة؛ ومنهم بل ومن أجلهم سيدى وجدى لأمى بعد أن قرأت عليه جانبا كبيرا من كتب الحديث وغيره قراءة تحقيق وتدقيق، وغيره من الشيوخ أهل التوفيق ، وقد سمع مولانا الشيخ حسن منى أوايل البخارى ومسلم وأبى داود والنسائى والترمذى وابن ماجه والموطأ، فليرو عنى المجاز المذكور متى شاء مما اتصلت بى روايته متى أراد رفع سند أو كتاب لمن هو من أهل الدراية، وهو دام أنسه وزكا قدسه فى غنية عن ذلك، ولكن جرت العادة بأخذ الأكابر عن الأصاغر (ص٩٣٦) تكثيرا لسوادنا، فهى سند سيد الأوايل والأواخر ، وكذلك أجزت له بالصلاة المشهورة النفع بهذه الصيغة: اللهم صل على سيدنا محمد وآله كما لا نهاية لكمالك وعد كماله بنصب عدو جره، جسبما أجازنى بها مولانا الشيخ طاهر بن الملا ابراهيم الكورانى عن شيخه الشيخ حسن المنوفى مفتى الحنفية بالمدينة سابقا عن شيخه مولانا الشيخ على الشبراملسى عن بعض أجلاء شيوخه وأمره أن يصلى بها بين المغرب والعشاء بلا عدد معين وبالمواظبة عليها يظهر نتايج فتحها خصوصا لمبتغى هذا العلم المجد فى طلبه من ذويه نفعه الله تعالى بالعلم وجعله من أهليه. وقد أجزت الشيخ المذكور ضاعف الله تعالى له الأجور، بالأسماء الأربعينية الإدريسية السهروردية بقراءتها وإقرائها لخل صادق إن وجد، كما أجازنى بذلك جملة من

المذكورين أثنى عشر مترا وخمسة وعشرون سانتى متر والحد البحرى ينتهى سفلا وعلو لوكالة النشارين المذكورة وطوله عشرة أمتار وعشرون سانتى متر فجملة مسطح أرض ذلك مايه واحدة وأربعة وعشرون مترا وخمسة وسبعون سانتى متر وجميع أرض المكان المبتاع المذكور المحدود بحدود أربعة بدلالة الاملا والكشف المذكورين الحد القبلى ينتهى لطريق الشارع المرقوم وفيه باب المكان المذكور وطوله ستة أمتار وثمانين سانتى متر والحد الشرقى ينتهى بعضه سفلا للحانوت المذكورة أعلاه وباقيه ينتهى سفلا للحانوت والحاصل الذين بوكالة النشارين المذكورة المذكورين وعلوا لوكالة النشارين المذكورة وطوله مبتدا من قبلى ومبحر بقدر اربعة أمتار ثم يميل شرقا بقدر ثلاثة أمتار ولصف متر ثم يعتدل حتى يتلاقا بالحد البحرى بمقدر ثمانية أمتار وخمسة وعشرون سانتى متر والحد البحرى ينتهى سفلا وعلو لوكالة النشارين المذكورة وطوله عشرة أمتار وعشرين سانتى متر والحد الغرى ينتهى سفلا وعلوا لوكالة القفاصين المذكورة وطوله اثنى عشر مترا وخمسة وعشرون سانتى متر فجملة مسطح الأرض المكان المذكورة مايه متر واحدة وعشرة أمتار وخمسة وسبعون سانتى متر وبالحد الشرق من المكان المذكور ركوب من حقرق المكان المبتاع المذكور علو بن الحانوت المبتاعة والحانوت والحاصل الجارين فى وقف السلطان أينال المذكور المرقومين التى عبرة الركوب المذكور طولا من الجهة الغربية مبتدا من قبلى ومبحرا بقدر أربعة أمتار ثم يميل مشرقا بقدر ثلاثة أمتار ونصف متر ثم يعتدل مبحرا حتى يتلاقا بالحد البحرى بقدر ثمالية أمتار وخمسة وعشرون سانتى متر وطولا من الجهة البحرية بقدر ثلاثة أمتار ونصف متر وطوله من الجهة الشرقية اثنى عشر مترا وخمسة وعشرون سانتى متر وطوله من الجهلة القبلية سبعة أمتار ومسطحه ستة وخمسون مترا وسبعة وثمالون سانتى متر وبالحد البحرى المذكور ركوب من حقوق ذلك أيضا علو وكالة النشارين المذكورة الجارية فى وقف

السلطان أينال المذكور التى عبرة طول كل من جهته البحرية والقبلية ثمانية أمتار وسبعون سانتى متر وعرض كل من جهتيه الشرقية والغربية ثلاثة أمتار ونصف متر ومسطحه ثلاثين متر وخمسة وأربعون سانتى متر وبالحد الغربى المذكور ركوب من حقوق ذلك أيضا علو وكالة القفاصين المذكورة التى عبرة طوله من الجهة الشرقية تسعة أمتار وثمانون سانتى متر وطوله من الجهة البحرية مبتدا مشرق مغرب بقدر خمسة أمتار ثم يميل مبحرا بقدر مترين ثم يعتدل حتى يتلاقا بالحد الغربى بقدر خمسة أمتار وطوله من الجهة الغربية مبتدا من قبلى ومبحر بقدر سبعة أمتار وستين سانتى متر ثم يميل مغربا بقدر ثلاثة أمتار وأربعين سانتى متر ثم يعتدل مبحرا بقدر متر واحد وثلاثين سانتى متر ثم يميل مشرقا بقدر ثمانين سانتى متر ثم يعتدل مبحرا بقدر مترين اثنين ثم يميل مشرقا بقدر سبعين سانتى متر ثم يعتدل مبحرا حتى يتلاقا بالحد البحرى بقدر متر واحد وثلاثين سانتى متر وطوله من الجهة القبلية ثمانية أمتار وستين سانتى متر ومسطحه مايه متر واحدة وأربعة أمتار وخمسة وستين سانتى متر وجملة مسطح الثلاث ركوبات المذكورة مايه متر واحدة وتسعون مترا وسبعة وتسعون سانتى متر كل ذلك مقاس وحساب المهندس المذكور كما ذلك معين بالكشف المرقوم وشهرة ذلك فى محله تدل عليه المعلوم ذلك عندهم شرعا والجارى ذلك فى ملك البايعين الثلاثة المذكورين أعلاه وأيديهم وحوزهم وتصرفهم الشرعي بمفردهم إلى تاريخه بيان الحكم الموعود بذكره أعلاه فما باعه خليل وفاطمة المذكورين أعلاه سوية بينهما الحصة التى قدرها اثنان وعشرون قيراطا وسدس قيراط من كل ذلك آل ذلك إليهما إرثا من قبل مورثهما المرحوم محفوظ الجبرتى الموعود بذكره أعلاه المتوفى قبل تاريخه عن ابنته فاطمة وابن ابن أخيه لوالده المذكور أعلاه هو خليل خيرى البايعين المذكورين أعلاه من غير شريك ومخلف عن المتوفى المذكور أعلاه من كل من ذلك يشهد له إلى حين وفاته بالحصة

الشيوخ، وقد اتصل سندى بها أيضا عن مولانا وسيدنا الأمجد مولانا الشيخ أحمد بن محمد النخلى أنزل عليه شآبيب الرحمة والغفران الواحد العلى، وهو يرويها عن الشيخ حجازى الديربى عن الشيخ شهاب الدين أحمد بن على الخامى الشناوى وأجازه شيخه أيضا بشرحها للشيخ عثمان النحراوى، قال الشيخ عثمان أجازنى بالأسماء الإدريسية العظام الشيخ كمال الدين السودانى وهو يرويها عن شيخه أبى المواهب أحمد الشناوى عن السيد صبغة الله أحمد عن السيد وجيه الدين العلوى عن الحاج حميد الشهير بالشيخ محمد الغوث عن الحاج حصور عن أبى الفتح هداية الله سيرمست عن الشيخ قاضن (ص٩٣٧) السنارى عن الشيخ ركن الدين أبى الفتح عن الشيخ صدر الدين أبى الفضل عن الشيخ السهرودى عن سيدى وجيه الدين المعروف بعمويه، عن الشيخ أحمد أسود الدينورى عن الشيخ ممشاد الدينورى عن الشيخ أبى القاسم الجنيد البغدادى عن خاله سرى السقطى عن الشيخ معروف الكرخى عن الشيخ داود الطائى عن الشيخ حبيب العجمى عن سيد التابعين حسن البصرى، عن إمام المشارق والمغارب سيدنا على بن أبى طالب عن سيدنا ومولانا سيد الخلق حبيب الحق عبده ورسوله وحبيبه وصفيه وخليله النبى الرسول الحاوى لجميع الكمالات الأصلية والفرعية، الجامع لكل الصفات السنية والمراتب العلية، المبعوث لكل الخلق، المتخصص بالقرب من العالم الحق، سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجم، محمد صلى الله عليه وسلم، قال ذلك بفمه وكتبه، تعلمه أسير ذنبه عمر بن أحمد بن عقيل السقاف باعلوى، وحفيد مولانا الشيخ عبد

الله بن سالم البصرى عفا الله تعالى عنهم أجمعين، سايلا من الشيخ المذكور أن لا ينسانى وأصولى ومشايخى فى الدين وجميع أقاربى من صالح الدعوات فى خلواته وجلوات وحركاته وسكناته، وأوصى بما أوصى به نفسى وساير المسلمين من ملازمة التقوى وكمال الاستعداد واتباع سبيل الهدى والرشاد، وأسأل الله تعالى (ص٩٣٨) الكريم المنان أن يوفقنى وإياه والمسلمين لصالح القول والعمل ويجنبنا الخطأ والزلل . ويجعلنا من العلماء العاملين والهداة الراشدين ، وأن يميتنا على سنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابته أجمعين، فى كل وقت وحين. وللمترجم أشياخ غير هولاء كثيرون اجتمع بهم وتلقى عنهم وشاركهم وشاركوه، مثل على أفندى الداغستانى، والشيخ عبد ربه سليمان بن أحمد القشتالى الفاسى، والشيخ عبد اللطيف الشامى، والجمال يوسف الكلارجى، والشيخ رمضان الخوانكى، والشيخ محمد النشيلى، والشيخ عمر الحلبى، والشيخ حسين عبد الشكور المكى، والشيخ ابراهيم الزمزمى، وحسن أفندى قطة مسكين، وأحمد أفندى الكرتلى، والأستاذ عبد الخالق بن وفا، وكان خصيصا به، وأجازه بالأحزاب، وهو الذى كناه بأبى التدانى، وألبسه التاج الوفائى، والسيد مصطفى العيدروس، وولده السيد عبد الرحمن ، والسيد عبد الله العيدروسى، والشيخ على بندق الشناوى الأحمدى، وكثير من المشايخ الأزهرية مثل السيد محمد البنوفرى، والشيخ عمر الإسقاطى، والشيخ أحمد الجوهرى، والشيخ أحمد الدلجى بن خال المترجم ، والشيخ أحمد الراشدى، والشيخ ابراهيم الحلبى صاحب حاشية الدر، والسيد سعودى مُحَشِّى

التى قدرها أربعة عشر قيراطا من كل من ذلك الأيلولة المحكى تاريخها أعلاه وآلت إليه الحصة التى قدرها ثمانية قراريط وسدس قيراط باقى حصته المخلفة عنه المذكورة أعلاه بالإرث الشرعى من قبل والدته المرحومة شوق بنت المرحوم نصار أبو نجم ابن المرحوم نصار والمرحومة أمان بنت المرحوم الشيخ عبد الرحمن الجبرتى والمرحوم حسن ابن المرحوم حمودة رجب المذكور أعلاه والمتوفية المرحومة شوق المذكورة عن كل من أولادها الثلاثة هم محفوظ الجبرتى المتوفى المذكور وحسن حسين البايع المذكور ابنى المرحوم حمودة رجب المذكور أعلاه ثم توفى المرحوم حسن الابن المذكور عن كل من أخيه لوالدته المرحومة شوق المتوفية المذكورة هو محفوظ الجبرتي المرقوم أعلاه وأخيه شقيقه حسين رجب المذكور ثم توفيت المرحومة أمان المذكورة أعلاه عن أخيها لوالدها المذكور أعلاه هو محفوظ المتوفى المرقوم من غير شريك ومخلف عن المرحومة شوق والمرحومة أمان المتوفيتين المذكورتين أعلاه الحصة التى قدرها عشرة قراريط من كل ذلك على ما يتبين فيه ما هو مخلف عن المرحومة شوق المتوفية المذكورة الحصة التى قدرها ثلاثة قراريط من كل من ذلك وما هو مخلف عن المرحومة أمان المتوفية المرقومة الحصة التى قدرها سبعة قراريط باقى حصتها المخلفة عنهما المذكورة أعلاه يشهد لهما إلى حين وفاتهما بذلك الحجة المذكورة وما باعه حسين رجب المذكور الحصة التى قدرها قيراط واحد ونصف وثلث قيراط باقى كل من ذلك آل ذلك إليه إرثا من قبل أخيه شقيقه المرحوم حسين رجب ووالدته المرحومة شوق المتوفين المذكورين على الوجه المسطور ويشهد لكل من المتوفين المذكورين بوضع يده على ما هو مخلف عنه من كل من ذلك بطريق الملك الشرعى إلى حين وفاته وبانتقال ذلك من بعده لورثته المذكورين وبجريان ذلك فى ملك البايعين المذكورين إلى تاريخه على الوجه المسطور كل ممن سمي أعلاه المخصوم على هامش الحجة المذكورة أعلاه بمعنى ذلك

ملا مسكين، وغيرهم من الأكابر والأخيار، وأهل الأسرار والأنوار، حتى كمل فى المعارف والفنون، ورمقته بالإجلال العيون، وعلا شأنه على علماء الزمان، وتميز بين الأقران، وأذعنت له أهل الأذواق، وشاع ذكره فى الآفاق، ووفد عليه الطلاب (ص٩٣٩) البلدانيـــة، والواردون من النواحي الافاقية، وأتوا إليه من كل فج يسعون لميقاته ولزموا الطواف بكعبة فضله والوقوف بعرفاته، فمنهم من ينفر بعد اتمام نسكه وبلوغ أمينته، ومنهم من يواظب على الاعتكاف بساحته، وكان رحمه الله عذب المورد للطالبين، طلق المحيا للواردين، يكرم كل من أم حمـــاه ويبلغ الراجى مناه، والمعتفى جدواه، والرغب أقصى مرماه، مع البشاشة والطلاقة وسعة الصدر والريافة وعدم رؤية المنة على المجتدى، ومسامحة الجاهل والمعتدى، مع حسن الأخلاق والصفات، التى سجدت لها الخناصر كأنها أيات سجدات:

له صـــحـــائف أخـــلاق مــهـــذبة
منها العـلا والحـجـا والفـضل ينتسـج

وكانت ذاته جامعة للفضايل والفواضل، منزهة عن النقائص والرذايل، وقورا محتشما مهيبا فى الأعين معظما فى النفوس محبوبا للقلوب، ولا يعادى أحدا ولا يخاصم على الدنيا، فلذلك لا تجد من يكرهه ولا من ينقم عليه فى شيء من الأشياء ، وأما مكارم الأخلاق والحلم والصفح والتواضع والقناعة وشرف النفس وكظم الغيظ والانبساط إلى الجليل والحقير كل ذلك سجيت وطبعه من غير تكلف لذلك، ولا يرى لنفسه مقاما أصلا، ولا يعرف التصنع فى الأمور، ولا دعوى علم ولا معرفة ولا مشيخة على التلاميذ والطلبة، ولا يرضى التعاظم ولا تقبيل اليد، وله منزلة عظيمة فى قلوب

وللبايعين المذكورين ولاية بيع ذلك بالطريق الشرعي بدلالة ما شرح أعلاه وبالتصادق على ذلك اشتار (ء) صحيحا شرعيا وبيعا ووفا انعقد بينهم في ذلك يوم تاريخه بإيجاب وقبول شرعيين بثمن قدره عن ذلك من الجنيهات الذهب ضرب مصر التي عبرة الواحد منهاماية غرش صاغ جنيه واحدة وأربعون جنيها على مابين فيه ما هو عن ثمن حصة خليل وفاطمة المذكورين سوية بينهما ماية جنيه واحدة وثلاثون جنيها من ذلك وما هو عن ثمن حصة حسين رجب المذكور عشرة جنيهات باقي ذلك قاص المشترى المذكور خليل وفاطمة المذكورين أعلاه بمبلغ ثمن حصتهما المعينة لهما أعلاه نظير ما يستحقه بذمة مورثهما المرحوم محفوظ الجبرتى المتوفى المذكور من الدين الشرعى الواجب الادا شرعا الموافق لذلك قدرا وعددا وصفة حسب تصديقهما على ذلك التصديق الشرعي بريت بذلك ذمة المتوفى المذكور وورثيه المذكورين من مبلغ الدين المرقوم وبريت بذلك ذمة المشترى المذكور من مبلغ الماية والثلاثون جنيها المذكور لخليل وفاطمة المذكورين وقبض حسين رجب البايع المرقوم ثمن حصته المعينة له أعلاه من المشترى المرقوم قبضا شرعيا بتمام ذلك وكماله باعترافه بذلك بحضرة من ذكر أعلاه فى يوم تاريخه الاعتراف الشرعي واعترف المشترى المذكور بتسلم ذلك وحيازته لنفسه تسلما وحيازة شرعيين بثمن قدره بعد النظر والمعرفة والإحاطة بذلك علما وخبرة نافيين للجهالة شرعا وبمقتضى ذلك وبما شرح أعلاه صار المكرم الحاج منلا محمد حسين المشترى المذكور أعلاه يستحق ملك كامل بناء المكان وما تداخل به على الوجه المسطور وبناء الحانوت المذكورة ثانيا وأرض المكان المذكور آخرا الصادر له في ذلك التبايع المشروح أعلاه بالصفة التى عليها كل من ذلك الآن يتصرف فى ذلك لنفسه بمفرده خاصة بساير وجوه التصرفات الشرعية دون كل أحد وعليه القيام بما يقابل طبقتين من الثلاث طباق والمكان علو إحداهما والفسحة

الأكابر والامرا والوزرا والأعيان، ويسعون إليه ويذهب إليهم لبعض المقتضيات والشفاعات ويرسل إليهم فلا يردون شفاعته ولا يتوانون فى (ص٠ ٩٤) حاجة يتكلم فيها، وله عندهم محبة ومنزلة فى قلوبهم وزيادة عن نظرائه من الأشياخ لمعرفته بلسانهم ولغتهم واصطلاحهم ورغبتهم فيما يعلمونه فيه من المزايا والأسرار والمعارف المختص بها دون غيره، وخصوصا أكابر العثمانيين والوزرا وأهل العلوم والفضلا منهم، مثل على باشا ابن الحكيم وراغب باشا وأحمد باشا الكور وغيرهم، ويأتون إليه أحيانا فى التبديل، وأكرموه وهادوه، وكل ذلك مع العفة والعزة وعدم التطلع لشى من أسباب الدنيا بوظيفة أو مرتب أو فايظ أو نحو ذلك، وكان بينه وبين الأمير عثمان بك ذى الفقار صحبة ومحبة، وحج فى أيام إمارته على الحج مرافقا له مرات من ماله وصلب حاله ولم يصله منه سوى ما كان يرسله إليه على سبيل الهدية، وكان منزل سكنه الذى بالصنادقية ضيقا من أسفل وكثير الدرج، فعالج ابراهيم كتخدا على أن يشترى له أو يبنى له دارا واسعة فلم يقبل، وكذلك عبدالرحمن كتخدا وكان له ثلاثة مساكن أحدها هذا المنزل بالقرب من الأزهر وآخر بالإبزارية بشاطئ النيل ومنزل زوجته القديمة تجاه جامع مرزة، وفى كل منزل زوجة وسرار وخدم، فكان ينتقل فيها مع أصحابه وتلامذته، وكان يقتنى المماليك والعبيد والجوارى البيض والحبوش والسود، ومات له من الأولاد نيف وأربعون ولدا ذكورا وإناثا كلهم دون البلوغ ، ولم يعش له من الأولاد سوى الحقير ، وكان يرى الاشتغال بغير العلم من العبثيات، وإذا أتاه طالب فرح به وأقبل عليه ورغبه واكرمه ، وخصوصا إذا كان (ص٩٤١)

والحانوت والحاصل المذكورين من الحكر لجهة وقف السلطان أينال حكم المعتاد الجارى به العادة وبما على الطبقة باقى الثلاث طباق المذكورة من الحكر لجهة وقف المرحوم أحمد بن السلطان أينال حكم المعتاد الجارى به العادة كما ذلك معين بالحجة المذكورة التصرف والقيام الشرعيين وتصادقوا على ذلك كله تصادقا شرعيا ثم عرض ذلك مفصلا علي حضرة مولانا أفندى المشار إليه أعلاه فلما أن احاط علمه الكريم بذلك أمر بكتابته وقيده بالسجل المحفوظ ضبطا للواقع ورسم ذلك وقدره ألف غرش وأربعون قرشا صاغا ورد بخزينة هذه المحكمة بموجب علم خبر مؤرخ فى تاسع عشرين شهر مايو سنة اثنين وثمانين وثمانماية وألف افرنكية بنمرة خمسة وستين يومية تحريرا فى ثانى عشر شهر رجب الفرد الأصم الذى هو من شهور سنة تسع وتسعين ومايتين وألف قيدت بنمرة ٣ سجل القسمة العسكرية.

حرف و عدد
٤ ٣

صار العمل والمعول فيما هو معين قرينه على الحكم المعين والمشروح بحجة التبايع الشرعية المسطرة من الباب العالى بمصر المؤرخة فى خامس شهر جماد أول سنة ١٣٠١ المسجلة بنمرة ١٦ حرف ٤ عدد ١٩ .

الوثيقة رقم (٣)
٢٦ جماد آخرسنة ١٢٣٣
كما ذكر فيه الأمر
نمقه الفقير إليه عز شانه محمد مريمى
القاضى بمصر القاهرة
غفر له

سبب تحرير حروفه هو أنه بالقسمة العسكرية بمصر المحروسة المحمية لدى سيدنا ومولانا شيخ مشايخ الإسلام علامة الأنام قاموس البلاغة ونبراس الأفهام الناظر فى الأحكام الشرعية قاضى القضاة يومئذ بمصر المحمية الموقع خطه الكريم أعلاه دام علاه بحضرة كل من الأمثل المكرم محمد جاويش المجلد بخط الجامع الأزهر ابن المرحوم سليمان

غريبا وربما دعاه للمجاورة عنده وصار من جملة عياله.

ومنهم من أقام عشرين عاما قياما ونياما لا يتكلف إلى شيء من أمر معاشه حتى غسل ثيابه من غير ملل ولا ضجر، وأنجب عليه كثير من علماء وقته المحققين طبقة بعد طبقة مثل: الشيخ أحمد الراشدى، والشيخ ابراهيم الحلبى، والشيخ مصطفى أبى الاتقان الخياط، والسيد قاسم التونسى، والشيخ العلامة أحمد العروسى، والشيخ ابراهيم الصيحانى المغربى، والطبقة الأخيرة التى أدركناها مثل الشيخ أبى الحسن القلعى ، والشيخ عبد الرحمن البنانى. وأما الملازمون له فهم الشيخ محمد بن اسماعيل النفراوى، والشيخ محمد الصبان، والشيخ محمد عرفة الدسوقى، والشيخ محمد الأمير، والشيخ محمد الشافعى الجناحى المالكى، والشيخ مصطفى الريس البولاقى، والشيخ محمد الشوبرى، والشيخ عبد الرحمن العريشى، والشيخ محمد الفرماوى. وهؤلاء كانوا المختصين به الملازمين عنده ليلا ونهارا ، وخصوصا الشيخ محمد النفراوى، والصبان ومحمود أفندى النيشى والفرماوى والشيخ محمد الأمير والشيخ محمد عرفه، فإنهم كانوا بمنزلة أولاده وخصوصا الأولين فإنهما كانا لا يفارقانه إلا وقت إقراء دروسهما، وكان يباسط أخصاءه منهم ويمازحهم ويروحهم بالمناسبات والأدبيات والنوادر والأبيات الشعرية والمواليات والمجونيات والحكايات اللطيفة والنكات الظريفة، وينتقلون صحبته فى منازل بولاق ومواطن النزهة فيقطعون الأوقات ويشغلونها حصة فى مدارسة العلم وأخرى فى مطارحات المسايل وأخرى للمفاكهة والمباسطة (ص٩٤٢) والنوادر الأدبية، ومن الملازمين على الترداد عليه والأخذ عنه الشيخ محمد الجوهرى والشيخ سالم

جاويش والسيد الشريف عبد الله الخياط ابن المرحوم السيد خليل والمكرم محمد طايل البنان باخط المذكور ابن المرحوم الشيخ حسن والمكرم على الكشاف ببيت المال ابن المرحوم الحاج ابراهيم المقدم والمكرم حسن طاها السايس بن المرحوم طاها واطلاعهم وشهادتهم على ما سيذكر فيه دام كمالهم آمين. أشهد على نفسه الأمثل المكرم الحاج أحمد بن المرحوم نصر الدين الآتى ذكره فيه شهوده الاشهاد الشرعى وهو باكمل الأوصاف المعتبرة شرعا أنه صدق على صحة البيع الصحيح الشرعى الخالى عن الرهن والرهن والوعدوالوفا الصادر فيما قبل تاريخه من قبل ولد عم والده المذكور هو المرحوم الحاج حموده البنان كان بن المرحوم الخواجا الحاج أحمد بن المرحوم الحاج ناصر الدين المذكور أعلاه حال حياته ونفوذ تصرفاته لفخر الفضلا العظام عمدة البلغا الكرام فخر المدرسين الفخام مفيد الطالبين بإفهام زين الشريعة والملة والدين مولانا العلامة الحبر البحر الفهامة عبد الرحمن الشهير بالجبرتى بن خاتمة المحققين المندرج إلى أعلا عليين المغفور العلامة الشيخ حسن أفندى الجبرتى الحنفى من أعيان أهل الإفادة والتدريس بالجامع الأزهر هو حالا كوالده المذكور كان تغمده الله بالرحمة والرضوان آمين فى جميع المكان الكاين بمصر المحروسة بخط الخراطين قريبا من مدرسة السنانية والجامع الأزهر على يسرة السالك طالبا للأشرفية وسوق العقادين البلدى الجارى أصل ذلك فى وقف المرحوم جوهر القنقباى المشتمل ذلك بدلالة حجتى الاستبدال الشرعيتين المسطرتين من الباب العالى بمصر المؤرخة إحداهما فى عاشر شعبان سنة خمسين ومائة وألف والثانية مؤرخة فى عاشر جماد الثانى سنة إحدى وخمسين ومائة وألف على باب بالشارع الأعظم يمنة الطالب لمدرسة السنانية يدخل من البا ب المذكور إلى دهليز به باب استتنى يدخل منه حوش به يمنه قنطرة سفلها معالم منظرة تقابلها واجهة البنا سفلها بير الدهليز والقنطرة والسبيل المركب على القنطرة

القيرواني ومحمد أفندى مفتى الجزاير والسيد محمد الدمرداش وولداه السيد عثمان والسيد محمد. وممن تلقى عنه شيخ الشيوخ الشيخ على العدوى ، تلقى شرح الزيلعى على الكنز فى الفقه الحنفى وكثيرا من المسائل الحكمية ، ولما قرأ كتاب المواقف فكان يناقشه فى بعض المسائل محققو الطلبة فيتوقف فى تصويرها لهم فيقوم من حلقته ويقول لهم اصبروا مكانكم حتى أذهب إلى من هو أعرف منى بذلك وأعود إليكم ، ويأتى إلى المترجم فيصورها له بأسهل عبارة ويقوم فى الحال فيرجع إلى درسه ويحققها لهم.

وهذا من أعظم الديانة والإنصاف، وقد تكرر منه ذلك غير مرة، وكان يقول عنه لم نر ولم نسمع من توغل فى علم الحكمة والفلسفة وزاد إيمانه إلا هو، رحم الله الجميع أولئك ابائى فجئنى بمثلهم.

وممن تلقى عنه من أشياخ العصر العلامة الشيخ محمد المصيلحى ، والعلامة الشيخ حسن الجداوى، والشيخ محمد المسودى والشيخ أحمد بن يونس والشيخ محمد الهلباوى، والشيخ أحمد السجاعى ، لازمه كثيرا وأخذ عنه فى الهيئة والفلكيات والهداية وألف فى ذلك متونا وشروحا وحواشى، وأما من تلقى عنه من الآفاقيين وأهالى بلاد الروم والشام وداغستان والمغاربة والحجازيين فلا يحصون، وأجل الحجازيين الشيخ ابراهيم الزمزمى، وأما ما اجتمع عنده وما اقتناه من الكتب فى ساير العلوم فكثير جدا قلما اجتمع ما يقاربها فى الكثرة (ص٩٤٣) عند غيره من العلماء أو غيرهم، وكان سموحا بإعارتها وتغييرها للطلبة وذلك كان السبب فى إتلاف أكثرها وتخريمها وضياعها، حتى أنه كان

وحايط البير كامل علو ذلك من حقوق الغير ولم يكن داخلا فى عقد ذلك فيما بين المنظر وواجهة البير باب يدخل منه إلى اسطبل علوه مقعد يتوصل إليه من سلم علو ذلك من حقوقه وبالحوش يسرة الطالب للاسطبل باب يدخل منه إلى دهليز علوه من حقوق الغير وبالدهليز باب يدخل منه إلى رحاب مفروش بالرخام القديم به باب يدخل منه إلى قاعة تحوى إيوالين ودور قاعة بها بابان أحدهما يدخل منه إلى مجاز به كرسى راحة وسلم يتوصل منه إلى أغانى والسطح العالى على ذلك وهو علو المقعد المذكور والباب الثانى يدخل منه إلى مطبخه تجاهه قاعة صغيرة وسلم يتوصل منه إلى طبقة وإلى سطح صغير وما لذلك من المنافع والمرافق والحقوق الداخلة فيه والخارجة عنه خلا العلو المرقوم فإنه من حقوق الغير وجميع الحانوت الكاينة بمصر المحروسة بخط الخراطين المذكور تجاه الوكالة المعروفة بخان البلاط المشتمل ذلك بالدلالة المذكورة على مسطبة وداخل ودرفتى باب خشبا نقيا ومنافع ومرافق وحقوق معلوم ذلك عندهما شرعا وله شهرة فى محله تدل عليه فى نظير مبلغ الثمن عن ذلك حين ذاك وقدره من الريالات المصرية التى عبرة كل ريال منها تسعون نصفا فضة سبعماية ريال معاملة مصرية وعلى صحة ما قبضه المتوفى البايع المذكور حالة التبايع لذلك من أصل مبلغ الثمن المرقوم وقدره عشرة ريالات مصرية وعلى صحة ما قبضه هو يوم تاريخه بحضرة شهوده ومن ذكر أعلاه باقى الثمن المرقوم وقدره ستماية ريال وتسعون ريالا مصرية مع ما تبرع به مولانا الشيخ عبد الرحمن المشهد له المشترى المشار إليه أعلاه للمكرم الحاج حسين الغالبى المشهد المذكور على سبيل الصلة والمعروف وقطعا لمادة الخصام والنزاع ونظير التصديق المذكور وقدره ثلاثماية ريال مصرية ليصير جملة ما قبضه الحاج حسين المذكور عن باقى ثمن المكان والحانوت ومبلغ التبرع المشروحين أعلاه مبلغ قدره تسعماية ريال وتسعون ريالا مصريا المتوفى المرحوم الحاج حمودة البنان البايع

المذكور إلى رحمة الله سبحانه وتعالى عن
ولد ولد عمه المشهد المذكور أعلاه من غير
شريك ولا حاجب شرعي والآيل المكان
للحاج حمودة المذكور بالارث الشرعي من
قبل والده المرحوم الخواجا الحاج احمد بن
المرحوم الحاج ناصر الدين المذكور أعلاه
المتوفى إلى رحمة الله تعالى قبل تاريخه عن
ولده المرحوم حمودة المذكور ومخلفا عنه
كامل المكان المذكور أعلاه يشهد له إلى حين
وفاته بذلك الحجتين المحكي تاريخهما أعلاه
ويشهد للمرحوم الحاج حمودة المذكور
بكامل الحانوت المذكورة أعلاه الحجج
الشرعية المسطرة من الباب العالى مصر
المؤرخة فى عاشر ربيع أول سنة ست وثمانين
ومابة وألف المدعى ضياعها المنبه على
تاريخها بهامش الحجة الشرعية المسطرة من
الباب العالى بمصر المؤرخة في عاشر رمضان
سنة أربع وستين ومابة وألف وكل من المكرم
محمد جاويش والسيد عبد الله الخياط
والمكرم محمد طايل المذكورين أعلاه الشهدة
الشرعية المخصوم على هامش الحجج المذكورة
بمعنى ذلك وعلى صحة جريان ذلك فى
ملك مولانا العلامة المشهد له المذكور من
حين صدور البيع المذكور من المكرم الحاج
حمودة المذكور والى تاريخه بدون منازع له
في ذلك ولا مدافع وعلى أن لا حق له فى
ذلك بملك ولا بشبهة ملك ولا باستحقاق
ولا بشبهة استحقاق ولا بتصرف ولا بشبهة
تصرف ولا ببيع ولا بشراء ولا بحصة ولا
بنصيب ولا بوضع يد ولا بقبض أجرة ولا
بارث ولا بموروث ولا بغير ذلك مطلقا وأن
الحق والاستحقاق والملك والتصرف فى
المكان والحانوت المذكورين لمولانا العلامة
الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المشهد له
المذكور بمفرده خاصة بمقتضى ما نص
وشرح باعاليه تصديقا شرعيا لادافع له فى
ذلك ولا فى بعضه ولا فى شيء منه بوجه
من الوجوه ولا بطريق من الطرق ولا بحال
من الأحوال الشرعية كلها ولامطعنا شرعيا
باعترافه بذلك بشهوده ومن ذكر أعلاه فى
يوم تاريخه الاعتراف الشرعي وصدقه على

أعد محلا فى المنزل ووضع فيه نسخا من الكتب المستعملة التى يتداول علماء الأزهر قراءتها للطلبة مثل الأشمونى وابن عقيل، والشيخ خالد وشروحه، والأزهرية وشروحها ، والشذور، وكذلك من كتب التوحيد مثل شروح الجوهرة والهدهدى وشروح السنوسية والكبرى والصغيرى ، وكتب المنطق والاستعارات والمعانى والبيان، وكذلك كتب الحديث والتفسير والفقه فى المذاهب وغير ذلك، فكانوا يأتون إلى ذلك المكان ويأخذون ويغيرون وينقلون من غير استئذان، فمنهم من يأخذ الكتاب ولا يرده ومنهم من يهمل التغييرة فتضيع الكراريس، ومنهم من يسافر ويتركها عند غيره، ومنهم من يهمل آخر الكتاب، ويتفق ان الاثنين والثلاثة يشتركون فى الكتاب الواحد والنسخة الواحدة، ولابد من حصول التلف من أحدهم، ولابد من حصول الضياع والتلف فى كل سنة وخصوصا فى أواخر الكتب عندما تفتر هممهم ،و أكثر الناس منحرفو الطباع، معوجو الأوضاع، واقتنى أيضا كتبا نفيسة خلاف المتداولة، وأرسل إليه السلطان مصطفى نسخا من خزائنه، وكذلك أكابر الدولة بالروم ومصر وباشة تونس والجزاير واجتمع لديه من كتب الأعاجم مثل الكلستان وديوان حافظ وشاه نامه، وتواريخ العجم وكليلة ودمنة ويوسف وزليخا وغير ذلك ، وبها من التشاويه [الزخارف] (ص٩٤٤) والتصاوير البديعة الصنعة الغريبة الشكل وكذلك الآلات الفلكية من الكرا النحاس التى كان اعتنى بوضعها حسن أفندى الروزنامجى بيد رضوان أفندى الفلكى كما تقدم فى ترجمتهما، ولما مات حسن افندى المذكور اشترى جميعها من تركته، وكذلك غيرها من الالات الارتفاعية والميالات وحلق الأرصاد

والإسطرلابات والأرباع والعدد الهندسية وأدوات غالب الصناع مثل النجارين والخراطين والحدادين والسمكرية والمجلدين والنقاشين والصواغ والات الرسم والتقاسيم، ويجتمع به كل متقن وعارف في صناعته مثل حسن أفندى الساعاتي وكان ساكنا عنده،و عابدين أفندى الساعاتي وعلى أفندى رضوان وكان من أرباب المعارف في كل شيء ومحمد أفندى الاسكندراني والشيخ محمد الأقفالي وابراهيم السكاكيني والشيخ محمد الزبداني وكان فريدا في صناعة التراكيب والتقاطير واستخراج المياه والأدهان ، وغير هؤلاء ممن رأيت ومن لم أر، وحضر إليه طلاب من الإفرنج وقروا عليه علم الهندسة وذلك سنة تسع وخمسين ، وأهدوا له من صنايعهم والاتهم أشياء نفيسة وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها ذلك العلم من ذلك الوقت، وأخرجوه من [القول] إلى الفعل واستخرجوا به الصنايع البديعة مثل طواحين الهواء وجر الأثقال واستنباط المياه وغير ذلك، وفي أيام اشتغاله بالرسم رسم ملايحصى من المزاول على الرخامات والبلاط الكدان ونصبها في أماكن كثيرة ومساجد شهيرة مثل الأزهر والأشرفية (ص٩٤٥) وقوصون ومشهد الإمام الشافعي والسادات، وفي الآثار منها ثلاثة واحدة بأعلى القصر وأخرى على البوابة وأخرى عظيمة بسطح الجامع، بقي منها قطعة وكسر باقيها فراشوا الأمراء الذين كانوا ينزلون هناك للنزهة ليمسحوا [بها] صواني الأطعمة الصفر، وكذلك بوردان بالتماس مصطفى أغا الورداني وكذلك بحوش مدفن الرزازين بالتماس رضوان جربجي الرزاز رحمه الله، ونقش عيها تاريخا منظوما ينوه فيه بذكر رضوان المذكور وهو هذا :

ذلك مولانا المشهد له المذكور وقبل ذلك منه لنفسه تصديقا وقبولا شرعيين وبمقتضى ذلك وبما شرح أعلاه صار مولانا العلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المشهد له المشار اليه أعلاه يستحق ملك كامل المكان والحانوت المذكورين باعاليه الصادر في ذلك التبايع والتصديق المشروحين أعلاه يتصرف في ذلك لنفسه بمفرده خاصة بساير وجوه التصرفات الشرعية دون كل من المشهد المذكور وكل أحد وعليه القيام بما على ذلك من الأحكار لمستحقيها شرعا الصيرورة والاستحقاق والتصرف والقيام الشرعيات بالطريق الشرعي للمقتضى المشروح أعلاه وتصادقا على ذلك كله تصادقا شرعيا وثبت الإشهاد بذلك لدى مولانا أفندى المومى إليه أعلاه بشهادة شهوده ثبوتا شرعيا وحكم بموجب ذلك حكما صحيحا شرعيا وبه شهدو حرر في سادس عشرين جماد آخر سنة ثلاث وثلاثين ومايتين والفا .شهوده

امضاء.. إمضاء إمضاء إمضاء إمضاء

صدر أيلولة شرعية من بعد المرحوم مولانا العلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المذكور قرينه لورثته من بعده على الحكم المعين بحجة الأيلولة الشرعية المسطرة من هذه المحكمة مؤرخة في سابع شهر جماد أول سنة ١٢٥٧.

الوثيقة رقم (٤)

٩ جماد أول سنة ١٢٥٧

الأمر كما ذكر فيه

نمقه الفقير إليه عز شانه عبد الملك بيك ... السيد أحمد نجيب القاضى بمصر المحروسة غفر لهما

ختم: السيد أحمد نجيب

بالبيت العالي أعلاه الله سبحانه وتعالى وشرفه إلى يوم الدين بمصر المحروسة بين يدى نايب حضرة سيدنا ومولانا شيخ مشايخ الإسلام علامة الأنام قاموس البلاغة ونبراس الافهام الناظر في الأحكام الشرعية قاضي القضاة يومئذ بمصر المحمية الموقع خطه الكريم أعلاه دام علاه آمين بحضرة كل من المكرم السيد الشريف مصطفى البنان برأس

خان الخليلي ابن المرحوم السيد حمودة
الخلوتي والشيخ العمدة الفاضل حاوي
الكمالات والفضايل مكاوي الفيومي ابن
المرحوم الحاج أحمد سعد الفيومي والسيد
شريف محمد السقطي العطار بخط المشهد
ابن المرحوم السيد محمد السقطي القباني
والعمدة الشيخ محمد جوده العدوى ابن
المرحوم حمودة والمكرم الحاج سليمان
الشايب ابن المرحوم عبد الكريم الشايب
والمكرم على عطية ابن المرحوم الحاج محمد
حميدة والمكرم حسين حميدة ابن المرحوم
الشيخ حميدة والمكرم أحمد عبد الحق ابن
المرحوم عبد الحق العدوى كل منهم بوكالة
الجلابة دام كما لهم آمين . اشترى المكرم
السيد الشريف العمدة الفاضل حاوى
الكمالات والفضايل شهاب الدين أحمد وهو
الوكيل الشرعي عن والده المكرم السيد
الشريف موسى أبو النصر ابن المرحوم السيد
أحمد أبو النصر العدوى أحد التجار بوكالة
الجلابة هو التوكيل الشرعي بالطريق الشرعي
بمال والده موكله المذكور أعلاه من كل من
بايعيه هما الشيخ العمدة الأكمل محفوظ
نجل المغفور له الشيخ عبد الرحمن الشهير
بالجبرتي الحنفي القايم عن نفسه وبطريق
وكالته الشرعية عن والدته المصونة شوق
خاتون بنت المرحوم الشيخ نصار الثابت
معرفتها وتوكيله عنها فى شأن ما سيذكر فيه
بين يدى مولانا أفندى المومى إليه أعلاه
وبشهادة كل من المكرم السيد مصطفى البنان
المذكور أعلاه والمكرم على الرملي العلاف
ابن الحاج محمود ثبوتا شرعيا وفخر أمثاله
المكرمين يحيى أفندى الشهير بالحكيم ابن
عبد الله وهو الوكيل الشرعي عن زوجته
فخر المخدرات المصونة أمان خاتون بنت
المرحوم الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المذكور
الثابت معرفتها وتوكيله عنها فى شأن ما
سيذكر فيه بين يدى مولانا أفندى المومى إليه
أعلاه بشهادة كل من السيد الشريف محمد
السقطي العطار والشيخ مكاوى الفيومي
المذكورين أعلاه ثبوتا شرعيا فباعاه كل من
البايع الوكيل عن نفسه وعن موكلته

رضــــوانـنا الـرزاز حــــاز دعــــاء من
صـلـى وراعـى كـل وقـت والـتــــــزم
لـيــــســــاره بـحــــذاء مــــزولة أتى
تاريخـهـا حــسن الجـبـرتي قــد رسم

وغير ذلك بمنازله وغيرها حتى أن الخدم تعلموا ذلك فصاروا يقطعون البلاط المناشير ويمسحونه بالمماسح الحديد، والمبارد ويهندسون اعتداله بالمساطر والقياسات بالبياكير، بل ويرسمونه أيضا. وأما ما كان على الرخامات فيباشر صناعته وحفره صناع الرخام بالأزمير بعد التعليم على مواضع الرسم ومقادير أبعاد المدارات والظلال وما عليها من الكتابة والتعاريف، ولما تمهر الآخذون عنه والملازمون عنده ترك الاشتغال بذلك وأحال الطلاب عليهم فإذا كان الطالب من أبناء العرب تقيد بتلميذه الشيخ محمد بن اسماعيل النفراوى، وإن كان من الأعاجم والأتراك تقيد بمحمود أفندى النيشى، واشتغل هو بمدارسة الفقه وإقرائه ومراجعة الفتاوى والتحرى فى الفروع الفقهية والمسايل (ص٩٤٦) الخلافية، وانكب عليه الناس يستفتونه فى وقايعهم ودعاويهم، وتقرر فى أذهانهم تحريه الحق والنصوص حتى أن القضاة لا يثقون إلا بفتواه دون غيره، وتقيد للمراجعة عنده الشيخ عبد الرحمن العريشي فانفتحت قريحته وراج أمره وترشح بعده للإفتاء ، وكان المترجم لا يعتنى بالتأليف إلا فى بعض التحقيقات المهمة ، منها «نزهة العينين فى زكاة المعدنين» و«رفع الإشكال بظهور العشر فى العشر فى غالب الأشكال» و «الأقوال المعربة عن أحوال الأشربة» ، و«كشف اللثام عن وجوه مخدرات النصف الأول

من ذو الأرحــام» و«الوشى المجــمل فى النسب المحــمل»، و«القول الصايب فى الحكم على الغايب»، و«بلوغ الآمال فى كيفية الاستقبال» و«الجداول البهية برياض الخزرجية»، فى علم العروض و «إصلاح الأسفار عن وجوه بعض مخدرات الدر المختار»، و«مأخذ الضبط، فى اعتراض الشرط على الشرط» و «النسمات الفيحية على الرسالة الفتحية» و«العجاله على اعدل آلة» و«حقايق الدقايق على دقايق الحقايق» و«أخصر المختصرات على ربع المقنطرات» و«الثمرات الجنية من أبواب الفتحية» و «المفصحة فيما يتعلق بالأسطحة»، «الدر الثمين فى علم الموازين»، وحاشية على «شرح قاضى زاده على الجغمينى» لم تكمل وحاشية «الدر المختار» لم تكمل و «مناسك الحج»، وغير ذلك حواش وتقييدات على العصام والحفيد والمطول والمواقف والهداية فى الحكمة والبرزنجى على قاضى زاده، وأمثلة وبراهين هندسية شتى، وماله من الرسومات المخترعة ، والآلات (ص٩٤٧) النافعة المبتدعة. ومنها الآلة المربعة لمعرفة الجهات، والسمت والانحرافات، بأسهل مأخذ وأقرب طريق، والدايرة التاريخية وبركار الدرجة ، واتفق أنه فى سنة ثنتين وسبعين وقع الخلل فى الموازين والقبابين، وجهل أمر وضعها ورسمها، وبعد تحديدها وريحها ومشيلها واستخراج مامينها، وظهر فيها الخطأ واختلفت مقادير الموزونات وترتب على ذلك ضياع الحقوق وتلاف الأموال، وفسد على الصناع تقليدهم الذى درجوا عليه فعند ذلك تحركت همة المترجم لتصحيح ذلك وأحضر الصناع لذلك من الحدادين والسباكين وحرر المثاقيل والصنج الكبار والصغار والقرسطونات ورسمها بطريق الاستخراج على أصل العلم

والوكيل عن موكلته المذكورين أعلاه لوالده موكله المذكور أعلاه على الحكم الآتى بيانه فيه وجميع ملك كامل بنا المكان الكاين بمصر المحروسة بخط الخراطين قريبا من مدرسة السنانية والجامع الأزهر على يسرة السالك طالبا للأشرفية وسوق العقادين البلدى المشتمل ذلك بدلالة ما يأتى ذكره فيه على باب بالشارع الأعظم يمنة طالب المدرسة السنانية يدخل من الباب المذكور إلى دهليز به باب استثنى يدخل منه إلى حوش به يمنة قنطرة سفلها معالم منظرة يقابلها واجهة البنا سفلها بير ماء معين علو الدهليز والقنطرة والسبيل المركب على المنظرة وحايط البير كامل علو ذلك من حقوق الغير ولم يكن داخل فى عقد ذلك فيما بين المنظرة وواجهة البير باب يدخل منه الى اسطبل علوه مقعد يتوصل إليه من سلم علو ذلك من حقوقه وبالحوش يسرة الطالب باب يدخل منه إلى رحاب مفروش بالرخام القديم يدخل منه إلى قاعة تحوى إيوانين ودور قاعة بها بابان أحدهما يدخل منه إلى مجاز به كرسى راحة وسلم يتوصل منه إلى أغانى والسطح العالى على ذلك وهو علو المقعد المذكور والباب الثانى يدخل منه إلى مطبخ تجاهه قاعة صغيرة وسلم يتوصل منه إلى طبقة والى سطح صغير وما لذلك من المنافع والمرافق والحقوق الداخلة فيه والخارجة عنه خلا العلو المرقوم فاله من حقوق الغير وجميع الحانوت الكاينة بمصر المحروسة بخط الخراطين المذكور تجاه الوكالة المعروفة بخان البلاط المشتمل بذلك بالدلالة المذكورة أعلاه على مسطبة وداخل ودرفتى باب خشبا نقيا ومنافع ومرافق وحقوق ولكل من ذلك شهرة فى محله تدل عليه المعلوم ذلك عندهم شرعا والجارى أصل ذلك فى وقف المرحوم جوهر القنقباى وملك بنا ذلك فى ملك كل من البايع الوكيل والموكلتين المذكورين أعلاه ويدهم وحوزهم وتصرفهم واختصاصهم الشرعى بمفردهم إلى تاريخه بيان الحكم الموعود بذكره أعلاه ما هو فى ملك المكرم الشيخ محفوظ البايع الوكيل المذكور خاصة نفسه الحصة التى

قدرها أربعة عشر قيراطا من ذلك وما هو فى ملك المصونة شوق الموكلة المذكورة خاصة نفسها الحصة التى قدرها ثلاثة قراريط من ذلك وما هو فى ملك المصونة أمان الموكلة المذكورة أعلاه الحصة التى قدرها سبعة قراريط باقى المكان المبتاع المذكور أعلاه يشهد لهم بذلك على الوجه لمسور حجة الأيلولة الشرعية المسطرة من القسمة العسكرية مصر المؤرخة فى سابع شهر تاريخه أدناه وهى الدلالة الموعود بذكرها أعلاه المخصوم على هامشها بمعنى ذلك وكل ممن سمى أعلاه الشهادة الشرعية بالطريق الشرعى ولهما ولاية بيع ذلك عن نفسه وعن موكلته والوكيل عن موكلته المذكورين أعلاه وقبض ثمنه بالطريق الشرعى بدلالة ما شرح أعلاه وبالتصادق على ذلك اشتراء صحيحا شرعيا وبيع بتا لازما ناجزا معتبرا محررا مرعيا خاليا عن رهن ووعد ووفا العقد بينهم فى ذلك يوم تاريخه بإيجاب وقبول شرعيين بثمن قدره عن ذلك من الغروش الرومية التى عبرة كل غرش منها أربعون نصفا فضة ستة آلاف غرش وثلاثماية غرش روميا نصفها حفظا لأصلها وضبطا وبيانا لجملتها ثلاثة آلاف غرش ومماية غرش وخمسون غرشا روميا ثمنا حالا مقبوض ذلك من الوكيل المشترى المذكور من مال والده موكله المذكور الخاص به شرعا بيد كل من البايع الوكيل له ولموكلته والوكيل لموكلته المذكورين أعلاه كل منهم بما يقابل حصته من ذلك قبضا شرعيا بتمام ذلك وكماله نقدا بالمجلس بحضرة شهوده ومن ذكر أعلاه فى يوم تاريخه واعترف الوكيل المشترى المذكور أعلاه بتسلم ذلك وحيازته لوالده موكله المذكور أعلاه التسلم والحيازة الشرعيين بعد النظر والمعرفة والاحاطة بذلك علما وخبرة نافين للجهالة شرعا وبمقتضى ذلك وبما شرح أعلاه صار السيد الشريف موسى أبو النصر العدوى الموكل المذكور يستحق ملك كامل بنا المكان والحانوت سفله المبتاعين المذكورين يتصرف فى ذلك لنفسه بمفرده خاصة بساير وجوه التصرفات الشرعية دون

العملي والوضع الهندسي، وصرف على ذلك أموالا من عنده ابتغاء لوجه الله، ثم أحضر كبار القبانية والوزانين مثل الشيخ على خليل والسيد منصور والشيخ على حسن والشيخ حسن ربيع وغيرهم وبين لهم ماهم عليه من الخطأ وعرفهم طريق الصواب فى ذلك، وأطلعهم على سر الوضع والصنعة ومكنونها وأحضروا العدد وأصلحوا منها ما يمكن إصلاحه وأبطلوا ما تقادم وضعه وفسدت لقمه ومراكزه، وقيدوا بصناعة ذلك الأسطى مراد الحداد ومحمد بن عثمان حتى تحررت الموازين وانضبط أمرها وانصلح شأنها وسرت فى الناس العدالة الشرعية المأمورين بإقامتها، واستمر العمل فى ذلك أشهرا،و هذا هو السبب الحامل له على تصنيف الكتاب المذكور وهذا هو ثمرة العلم ونتيجة المعرفة (ص٩٤٨) والحكمة المشار إليها بقوله تعالى «يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا».

حلف الزمانُ ليأتين بمثله
حنثت يمينك يازمان فكفر

وأما النظم فنروى عنه القليل فى بعض فوايد وضوابط منها فى معانى الإعراب اللغوى قوله:

وفى اللغة الإعراب جاء مفصلا
بثنتين مع عشر يعد مفاده
إبان وتحسين وجول تحبب
إزالة عرب الشيء وهو فساده
تكلم بالفصحى أو الفحش أو ولد
له عربى اللون صارت جياده
عرابا ولم يلحن كلاما تغير
وإعطاء عربون لينجو فؤاده

(وله فى نظم ساعات النهار):

إذا رمت ساعات النهار وحصرها
مرتبة فاقبل عليها الاعتنا
شروق بكور ثم غدوة ضحوة
فهاجرة ثم الهجير فظهرنا
ظهيرته ثم الرواح فعصره
أصيل غروب بالهناء أتى لنا

(وله فى ساعات الليل):

وان رمت ساعات لليل فأول
بها شفق يأتيك فى العد بينا
غسيق عشاء ثم عتمة جَهْمَة (ص٩٤٩)
فزلفته ثم السديفة فافطنا
فبهرته ثم السحير فصبحه
صباح فإسفار فخدها بلاعنا

(وله فيما لا يسوغ الشرب بعده):

توق لشرب الماء من بعد عشرة
طعام وحمام وحلو مجامع
ومتعبة من بعد مسهل فاكهه
ويقظتها من بعد سخن وجائع

(وله فى الدم الطاهر):

فطاهره باق بلحم وعرقه
وكبد وقلب مع طحال بلا شك
ومالم يسِلْ منا و بق وقمل

كل من البايع الوكيل والموكلتين المذكورين أعلاه ودون كل أحد وعليه القيام بما على ذلك من الحكر لجهة وقف أصله المذكور حكم المعتاد الجارى به العادة كما ذلك معين بالحجة المحكي تاريخها أعلاه الصيرورة والاستحقاق والتصرف الشرعيات بالطريق الشرعي للمقتضى المشروح أعلاه وتصادقوا على ذلك كله تصادقا شرعيا وثبت الاشهاد بذلك بين يدى مولانا أفندى المومى إليه أعلاه بشهادة شهوده ثبوتا شرعيا وحكم حضرة مولانا شيخ الإسلام المشار إليه أعلاه بموجب ذلك حكما صحيحا شرعيا تحريرا فى تاسع شهر جماد أول سنة سبع وخمسين ومايتين والف.

شهوده

إمضاء إمضاء إمضاء إمضاء إمضاء

الوثيقة رقم (٥)

٧ جماد أول سنة ١٢٥٧

الأمر كما ذكر فيه

نمقه الفقير إليه عز شأنه السيد نجيب أحمد القاضى بمصر المحروسة

ختم : السيد نجيب أحمد

سبب تحرير حروفه هو أنه بالقسمة العسكرية المحمية بين يدى حضرة سيدنا ومولانا شيخ مشايخ الإسلام علامة الأنام قاموس البلاغة ونبراس الافهام الناظر فى الأحكام الشرعية وأمور القسمة العسكرية قاضى القضاة يومئذ بمصر المحمية الموقع خطه الكريم أعلاه دام علاه آمين بحضرة كل من المكرم على الرمالى العلاف ابن المرحوم الحاج محمود الرمالى والمكرم حسين العدوى ابن المرحوم عبد الرحمن العدوى والمكرم على السقا ابن المرحوم حسن غانم دام كمالهم آمين بعد أن توفى إلى رحمة الله سبحانه وتعالى قبل تاريخه مولانا العلامة الشيخ عبد الرحمان الشهير بالجبرتى ابن المغفور له الشيخ حسن أفندى الجبرتى الحنفى والحصر ميراثه الشرعى فى كل من زوجته المصونة شوق بنت المرحوم الشيخ نصار وولديها هما العمدة الفاضل الشيخ محفوظ من الزوجة المذكورة والمصونة

أمان المرأة من غير الزوجة المذكورة من غيز شريك ولا مانع شرعى وكان الخلف عن المتوفى المذكور مما يورث شرعا جميع ملك كامل بنا المكان الكائن مصر المحروسة بخط الخراطين قريبا من مدرسة السنانية والجامع الأزهر على يسرة السالك طالبا للأشرفية وسوق العقادين البلدى المشتمل ذلك بدلالة ما يأتى ذكره فيه على باب بالشارع الأعظم يمنة الطالب لمدرسة السنانية يدخل من الباب المذكور إلى دهليز به باب استثنى يدخل منه إلى حوش به يمنة منظرة سفلها معالم منظرة يقابلها واجهة البنا سفلها بير ماء معين علو الدهليز والقنطرة والسبيل المركب على القنطرة وحايط البير كامل علو ذلك من حقوق الغير ولم يكن داخلا فى عقد ذلك فيما بين المنظرة وواجهة البير باب يدخل منه إلى اسطبل علوه مقعد يتوصل إليه من سلم علو ذلك من حقوقه بالحوش يسرة الطالب باب يدخل منه إلى دهليز علوه من حقوق الغير بالدهليز باب يدخل منه إلى رحاب مفروش بالرخام القديم يدخل منه إلى قاعة تحوى إيوانين ودور قاعة بها بابان أحدهما يدخل منه إلى مجاز به كرسى راحة وسلم يتوصل منه إلى أغانى والسطح العالى على ذلك وهو علو المقعد المذكور والباب الثانى يدخل منه إلى مطبخ تجاه قاعة صغيرة وسلم يتوصل منه إلى طبقة وإلى سطح صغير وما لذلك من المنافع والمرافق والحقوق الداخلة فيه والخارجة عنه خلا العلو المرقوم فانه من حقوق الغير وجميع الحانوت الكاينة بمصر المحروسة بخط الخراطين المذكور تجاه الوكالة المعروفة بخان البلاط المشتمل ذلك بدلالة ما يأتى ذكره فيه على مسطبة وداخل ودرفتى باب خشبا لقيا ومنافع ومرافق وحقوق ولكل من ذلك شهرة فى محله تدل عليه المعلوم ذلك عند الورثة المذكورين العلم الشرع النافى للجهالة شرعا والجارى أصل ذلك فى وقف المرحوم جوهر القنقباى وبنا ذلك فى ملك المتوفى المذكور ويده وحوزه وتصرفه الشرعى بمفرده إلى تاريخه يشهد له بذلك إلى حين وفاته الحجة الشرعية المسطرة من

وألحق براغيثا كذلك والسمك

(وله فى وضع الكتب فوق بعضها):

إذا رمت وضعا للعلوم مرتبا
فبادر إلى حوز وحفظ لشارده
فنحو فتعبير كلام ففقهم
كذلك أخبار ودعوات وارده
ومن بعد ذا علم القراءة فوقها
ومن فوقه التفسير فادر موارده

(وله فى ألقاب البناء والإعراب):

ألا إن ألقاب البناء بيانها
سكون وكسر ثم فتح كذا ضم
فألقاب إعرب أتت يامسامرى
برفع ونصب ثم جر كذا جزم

(وله فى لفظ شفة على ما فى المصباح):

وشفة لكل ذات تنطق
قد وضعت فاحفظ لما قد حققوا
جحفلة مقمة ومشفر
لحافر ظلف وخف حرروا
ومنسر لذى جناح صائد
منقار موضوع لغير الصائد
خطم وخرطوم لسبع ثبتا
فنطيسة لكل خنزير أتى

(وله فى ياء المخاطبة على مذهب الأخفش):

وأخـــفش فى يالضـــربى مـــخـــالف

وتضــــر بين قــــائلا ذى أحــــرف

(وله فى تفصيل الثياب):

لتـفـصـيل الثـيـاب بيـوم سـبت

ســـقـــام قــد تزايد أو تجـــدد

وفى التـــالى لهم مع غـــمـــوم

وفى الاثنين مــبـروك ومـــســعـــد

ويـســرق أو يحــرق فى الثـــلاثا

وتاليــــه لجلب الرزق يعـــهـــد

وفى يوم الخـــمـــيس لرزق علم

وفى الغـرا لطول العـمــر يقـصـد

وله فى العقود التى تتعين فيها النقود كما فى الفصول العمادية:

خـذعين مـالك فى مـواطن عـشـرة

هبـة وغـصب ثم شـركـة السلم

(ص٩٥١) وكذلك المقبوض فى دعوى غدت

بتـصـادق من غـيـر مـا أصل حـتم

وكـذلك العـبـد المعين اذا قـضى

قـــاض بردّ وهو فى باب السلم

وكـذلك المشـرى بشـوب ثم قـبـ

ـل القـبض مـات فـعين ثوب تلتـزم

وكـذلك فى البـيـع الذى هو فـاسـد

من أصله كـالبـيـع فى حُـرّ حكم

القسمة العسكرية بمصر المؤرخة فى سادس عشرين جماد آخر سنة ثلاث وثلاثين ومايتين وألف المخصوم على هامشها بمعنى ذلك وكل من سمى أعلاه الشهادة الشرعية بالطريق الشرعى وال ذلك من بعد المتوفى المذكور لورثته المذكورين وقسم ذلك بينهم بالفريضة الشرعية فكان ما خص المصونة شوق الزوجة المذكورة بحق الثمن فرضا من قبل زوجها المتوفى المذكور الحصة التى قدرها ثلاثة قراريط من ذلك وما خص العمدة الفاضل الشيخ محفوظ الابن المذكور من قبل والده المتوفى المذكور الحصة التى قدرها الثلث والربع أربعة عشر قيراطا من ذلك وما خص المصونة أمان البنت المذكورة من قبل والدها المتوفى المذكور التى قدرها السدس والثمن سبعة قراريط باقى ذلك الأيلولة والقسمة الشرعيتين بالطريق الشرعى وبمقتضى ذلك وبما شرح أعلاه صار كل من المصونة شوق وولدها الشيخ محفوظ والمصونة أمان يستحقون على الوجه المسطور ملك كامل حصصهم المعينة لهم أعلاه يتصرف كل منهم فى حصته المعينة أعلاه بساير وجوه التصرفات الشرعية دون غيرهم ودون كل أحد وعليهم القيام بما على ذلك ثم الحكر لجهة وقف أصلهما المذكور حكم المعتاد الجارب به العادة كما ذلك معين بالحجة محكى تاريخها أعلاه الصيرورة والاستحقاق والتصرف والقيام الشرعيات بالطريق الشرعى للمقتضى المشروح أعلاه وكتب ذلك عند الطلب والالتماس ليراجع به عند الاحتياج إليه والاحتجاج به تحريرا فى سابع شهر جماد أول سنة سبع وخمسين ومايتين وألف

شهوده

إمضاء إمضاء إمضاء إمضاء إمضاء

صدر تبايع شرعى من كل من المكرم الشيخ محفوظ المذكور قرينه القايم عن نفسه وبطريق وكالته عن والدته المصونة شوق والمكرم يحيى أفندى ابن عبد الله الحكيم وهو الوكيل الشرعى عن زوجته المصونة أمان المذكورين قرينه فى جميع ما هو معين قرينه

بعد ثبوت معرفتهما شرعا إلى السيد الشريف موسى ابو النصر ابن المرحوم السيد أحمد أبو النصر العدوى المشمول بوكالة والده السيد الشريف العمدة الفاضل أحمد بموجب حجة شرعية من الباب العالى بمصر مؤرخة فى تاسع شهر تاريخه المذكور بأعاليه.

(وله فيما يصح مع الإكراه):

طلاق عتاق والنكاح ورجعة
يمين وإسلام وعفو عن العمد
ظهار وإيلاء وفىء ونذره
رضاع وإيمان وتدبير للعبد
طلاق على جعل كذا العتق صلحهم
عن العمد الاستيلاد إيجاب للمسدى
قبول لإيداع فخذها فكلها
تصح مع الإكراه عشرون فى العد

(وله فى أصول المطعومات):

طعومنا أصولها البسيطة
حرافة مرارة ملوحة
حموضة عفوصة قبوضة
دسومة حلاوة تفاهة

ورأيت بخطه عند هذه الأبيات ما نصه: قال فى شرح المواقف حدوث الطعوم على هذا الوجه المخصوص مما لم يقم عليه برهان ولا أمارة عند غلبة الظن ولذا قيل مباحث الطعوم دعاوى خالية عن الدلايل. وكتب بهامشها أيضا نقلا عن (ص٩٥٢) مجموعة الحفيد: الفرق بين العفص والقبض أن القابض يقبض ظاهر اللسان والعافص يقبض ظاهره وباطنه، والتفاهة المعدومة مثل مافى الخبز واللحم وقد يقال التف لما لا طعم له أصلا كالحديد وهذا هو المشهور انتهى (وله):

إدراك كلى كذا مركب

ملكة لكل شيء يطلب
قواعد تصاحبت مع أصل
كذا اعتقاد جازم ياخلى
علما عليهما أطلقوا ياصاح
فاحفظ تفز بغرة الإصباح
وخصصوا الجزئى قل بالمعرفة
كذا البسيط ياسميرى فاعرفه
كذا إدراك جديد قد أتى
أواخر إدراكين فاحفظ مثبتا

وله فى نظم أصول الحلال:

صول حلال جئن فى العد عشرة
فخذها لكي تحظى بخير نباهه
تجارة ذى صدق ونصح إجاره
ومهدى أخ زاك وطيب وراثه
وخمس لغنم حيث قسم عادل
وإحيا موات ثم نبت مباحه
وصيد لبر ثم صيد لأبحر
كذاك سؤال عند مس لحاجه

والأصل فيه أنه اجتمع الإمام الطرطوشي والإمام ابن (ص٩٥٣) السيد البطليوسي رحمهما الله تعالى وتذاكرا فى الحلال هل بقى منه شيء، فقال البطليوسي: أصول الحلال عشرة وسع الله تعالى بها على عباده: تجارة بصدق وإجارة بنصح، وهدية من أخ صالح، وميراث من أصل طيب، وإحياء الموات وما أنبتته أرض غير مملوكة، وخمس

الغنايم إذا قسمت بعدل وصيد البر، وصيد البحر، والسؤال عند مسيس الحاجة، فقال الإمام الطرطوشي يجب على كل مسلم تقييد هذه الأصول ليكون على أهبة من الحلال الذى هو أهم المهمات والله تعالى الموفق للصواب.

(فايدة) رأيت بخط المترجم قال، رأيت بخط الشيخ عثمان النجدى قال : رأيت بخط الشيخ أحمد العجمى ما صورته وإن من شيء إلا يسبح بحمده إلا الحمار والكلب كما في الدر المنثور عن أبى الشيخ عن ابن عباس وفيه أيضا عن عمرو بن عنبسة ما تستقل الشمس، فيبقى شيء من خلق الله إلا سبح بحمده إلا ماكان من الشيطان وأغبياء بنى آدم، والأغبياء جمع غبى وهو القليل الفطنة، وفى فتاوى الجلال السيوطى رحمه الله:

قد خصصت آية الإسرا لمتصف
وصف الحياة كرطب الزرع والشجر
فيابس مات لا تسبيح منه كذا
مازال من موضع كالقطع للحجر

فزاد عليها المترجم ما تقدم ذكره وألحقها بها فى هذا البيت فقال:

والأغبياء كذا فى العد قد ثبتوا (ص٩٥٤)
كلب حمار وإبليس بلا نكر

وله فى عَدِّ من يدخل الجنة من الحيوان:

وفى الجنة الفيحاء قد كان عشرة
من الحيوان اعدد وكن متأملا
فأولا فى العد ناقة صالح

وعـــجـــلا لابراهيم كـــبش الفـــدا تلا
وحـــوت ابن مـــتى بقـــرة لكليـــمـــهم
ونمل سليـــمـــان بن داود ذى العـــلا
وهدهد بلقـــيس وإبل مـــحـــمـــد
عليـــه صـــلاة نشـــرها ضـــاع فى الملا
يلى ذا الحـــمـــار للعـــزيز وكلبـــهم
وحـــســـبى ربى ناظمـــا مـــتـــوكـــلا
بـراق لـطـه ثـم ذئـب لـيـــــــوسـف
مـزادان فـيـهـا فـاحـفظ العـد مكمـلا

وهذا ما حصلته وعثرت عليه من نظمه، وأما ما قيل فيه من المدائح فلم أعثر بشيء من ذلك مع كثرت إلا بقصيدة من نظم تلميذه العلامة الشيخ شمس الدين محمد الصبان وجدتا مثبتة بديوانه، وسبب ذلك أنه كان رحمه الله لا يرى لنفسه مقاما، وإذا أتاه إنسان بأبيات أو قصيدة قبلها وأجاز قايلها ثم أحرقها والقصيدة هى هذه:

يامن بأفـــئـــدة العـــشـــاق قـــد لعـــبـــا
رفـقـا بحـالى فـإن الصـبـر قـد هربا
كم ياظلومى تسقينى كئوس أسى (ص٩٥٥)
وكم تحـمل قلبى فى الهـوى كـربا
مـهـلا رويدك يكفى مـا صنعت فـقـد
صـيـرتنى فى الهـوى بين الورى عـجـبـا
أمـــا كـــفـــاك لهـــيب لو قـــرب به
لشـــاطئ البـــحـــر أضـــحى ملتـــهـــبـــا؟
أمـــا كـــفـــاك ســـهـــاد لا بديل له
ومـــدمع كلمـــا قلت ارتفع سكبـــا؟

وفـرط حـزن به الأسـقـام قـد قـرنت
أمـسى وأصـبح بين الناس مكتـئـبـا
لك المحـاسن خـافـيـهـا وظاهرها
ولي الهـوى مـا نأى منه ومـا قـربا
أفـدى بنفـسي وبالدنيـا منيـر دجى
الشـمس والبـدر من أنواره اكـتـسـبـا
أغن أغـيـد بالأرواح ممتـزج
مـهـفـهف مـارنا إلا سطا وسـبـا
ظبي بسـفك دم العـشـاق ذو ولع
كـأنه عنده من بعض مـا وجـبـا
إن كـان ينكر قـتل المغـرمين به
فـخـده بدم العـشـاق قـد خـضـبـا
الحـسن مملوكـه واللطف خـادمـه
والذل عـبـد له فـانظر ترى العـجـبـا
من لي برشف عـتـيق الراح من فـمـه
وقطف ورد على خـديه قـد ركـبـا
يافـتنة الخلق ياحلو الشـمـايل صل
مـتـيـمـا ملت أحـشـاوه وصـبـا
(ص٩٥٦) لم يستمع فيك عذال الهوى أبدا
ولا إلى جـهـة السلوان عنك صـبـا
لا والذى زانـت الأيام طلعـتـه
وفـاق سـاير أرباب العـلا رتبـا
ركن الأنام فـريد العـصـر أوحـده
مـعـيـد دهر المعـالى بعـد مـا ذهبـا
شـمس الكمـال ولكن لا كـسـوف له
بحـر العلوم ولكن مـاوه عـذبا

حبــر أطاعــتــه أصناف الفنون فــفى
كل الفنون تراه الحــايز القــصــبــا
هو الغيــاث إذا مــا المشكلات عــصت
هو الملاذ إذا مــا مــعــضل صــعــبــا
يحج كــعــبــتــه طلاب جــوهره
فــيــنفــرون وكــل أدرك الأربا
لفــضل تذعن الأعــيــان قــاطبــة
إذ كل مــا وهبــوه بعض مــا وهبــا
أفــديه من ســيــد لم يبق مــحــمــدة
إلا وكــــان لهــــا دون الأنام أبا
العلم والحلم والتــقــوى بضــائعــه
واللطف والحــذق منه حــقــا اكــتــسبــا
لكفــه كــرم إن قل أشــبــهــه
هتــان ودق على كل الورى سكبــا
مــا جــاءه طالب يرجــو نوافــحــه
إلا ونال من الآمــال مــاطلبــا
لنفسه همم من قاس أصغرها(ص٩٥٧)
بهــمــة الدهر فــاعلم أنه كــذبا
كنز الفــصــاحــة أســتــاذ البــلاغــة إنْ
يســمــعــه قس يقل ســبــحــان من وهبا
تكاد جــلاســه من حــســن منطقــه
ومن لطافــتــه أن يرقــصــوا طربا
مــهــذب النفس مــا مــر النســيم به
إلا وكــان من الأخــلاق مكتــســبــا
وكم له من كــمــالات ومن شــيــم
يجل معــشارها عن حــصــر من حــسبــا

فاحضر مجالسه تنظر محاسنه
واجلس بحضرته يوما تر العجبا
محاسن الناس جزء من محاسنه
ولم أقل فيه إلا بعض ما وجبا
ته يازمان وفاخر إن سيدنا
قد قلدتك يداه الدر والذهبا
يامن بطلعته زان الجبرت ومن
كادت جبرت به أن تفضل العربا
ومن تسمى كأخلاق له حسنا
هاك امتداحا بذكراك اعتلى رتبا
أتاك يرفل فى أثواب عزته
لكنه من حياء أسبل الحجبا
فجد له بقبول منك يجبره
وغض عن عيبه فالعفو قد طلبا
واشمل محمدا الصبان ناظمه
بلحظة منك من تلحظ ينل أربا
(ص٩٥٨) لازالت فى حلل الأفراح مرتفلا
ولافتئت عن الأسواء محتجبا
ولا برحت بعين السعد ملتحظا
وكل من لك ياأستاذنا صحبا

وقال فيه أيضا تهنئة له بمولد الحسنين سنة أربع وسبعين:
بمولد الحسنين السعد هنا كا
والوقت بالعز والإقبال وافاكا
وأصبحت مصرنا الغراء مشرقة
بنور ذاك ونور من محياكا

والـورق بـالمـولـد الأسـنـى تـهـنـئـنـا
طورا وطورا تهـادينا بذكـراكـا
أولاك مـولاك مـا يرضـيك فى فـرح
وفى هناء وأبقى الله مـحـيـاكـا
وهاك مـولاى تاريخـا وتهنئـة
فى ضـمن بيت يفـوق الدر إن حـاكـا
يا أزيد الناس فى علم وفى عـمـل
بمولد الحـسنين السـعـد هناكـا

وللعلامة الشيخ سالم القيروانى:
إمـام إن ظفـرت به فـلازم
حـمـاه وقل لنفـسك قـد ظفـرتى
يذل له الجـمـوح من المعـانى
لكل ياقـريحـتـه بهـرتى
ولما انقـاد كل عـويص علـم
له جـبـرا تـسـمى بالجـبـرتى

(ص٩٥٩) ذكرها فى ديباجة حاشيت التى كتبها على لقط الجواهر، وقد كان قرأ عليه طرفا من العلوم الحكمية. وهذا ما عثرت عليه، وللشيخ قاسم والشيخ محمد شبانة وغيرهما فيه مدايح كثيرة وتواريخ أعوام ومواسم لم أعثر على شيء منها، ولما وصل إلى مصر الشيخ ابراهيم بن أبى البركات العباسى البغدادى الشهير بابن السويدى فى سنة خمس وسبعين وماية وألف، وكان إماما فاضلا فصيحا مفوها ينظم الشعر بالإملاء ارتجالا فى أى قافية من أى بحر من غير تكلف، فأنزله المترجم وأكرمه واغتبط به وصار

يتنقل صحبته مع الجماعة بمنازل بولاق والمتنزهات، واتفق أنه تمرض أيام فأقام بمنزل بولاق المشرف على النيل فقيد به من يعوله ويخدمه ويعلل مزاجه، فكان كلما اختلى بنفسه وحبت عليه النسمات الشمالية والنفحا ت البحرية أخذ القلم ببنانه، ونقش على أخشابه وحيطانه ، فكتب نحو العشرين قصيدة على قواف عديدة كلها مدايح فى المذكور، والرياض والزهور، والكوثر والسلسبيل، وجريان النيل، وتركت بحالها، وذهب كغيرها ، وفى سنة تسع وسبعين توفى ولده أخى لأبى أبو الفلاح على، وقد بلغ من العمر اثنتى عشر سنة، فحزن عليه وانقبض خاطره وانحرف مزاجه، وتوالت عليه النوازل، وأوجا ع المفاصل، وترك الذهاب إلى بولاق وغيرها، ونقل العيال من هناك ولازم البيت الذى بالصنادقية واقتصر عليه وفتر عن الحركة إلا فى النادر، وصار يملى الدروس بالمنزل، ويكتب على الفتاوى ويراجع المسايل الشرعية والقضايا الحكيمة، مع (ص٩٦٠) الديانة والتحرى والمراجعة والاستنباط والقياس الصحيح ومراعاة الأصول والقواعد، ومطارحات التحقيقات والفوايد، وتلقى الوافدين وإكرام الواردين وإطعام الطعام، وتبليغ القاصد المرام، ومراعاة الأقارب والأجانب، مع البشاشة ولين الجانب، وسعة الصدر وحسن الأخلاق، مع الخلان والأصحاب والرفاق، ويخدم بنفسه جلاسه. ولا يمل معهم إيناسه، ولا يبخل بالموجود، ولا يتكلف المفقود، ولا يتصنع فى أحواله، ولا يتمشدق فى أقواله، ويلاحظ السنة فى أفعاله، ومن أخلاقه أنه كان يجلس بآخر المجلس على أى هيئة كان بعمامة وبدونها، ويلبس أى شى كان، ويتحزم ولو بكنار الجوخ أو قطعة خرقة أو شال كشميرى أو محزم، ولا

ينام على فراش ممهد، بل ينام كيفما اتفق، وكان أكثر نومه وهو جالس، وله مع الله جانب كبير، كثير الذكر، دايم المراقبة والفكر، ينام أول الليل ويقوم آخره فيصلى ما تيسر من النوافل والوتر، ثم يشتغل بالذكر. حتى يطلع الفجر فيصلى الصبح ويجلس كذلك إلى طلوع الشمس، فيضطجع قليلا أو ينام وهو جالس مستندا، وهذا دأبه على الدوام، ويحاذر الرياء ما أمكن، وكان يصوم رجب وشعبان ورمضان، ولا يقول إنى صايم، وربما ذهب إلى بعض الأعيان أودعى إلى وليمة فيأتون إليه بالقهوة والشربات فلا يرد ذلك، بل يأخذها ويوهم الشرب، وكذلك الأكل ويضايع ذلك بالمؤانسة والمباسطة مع صاحب المكان والجالسين، وكان مع مسايرته للناس وبشاشته (ص٩٦١) ومخاطبته لهم على قدر عقولهم عظيم الهيبة فى نفوسهم وقورا محتشما ذا جلال وجمال. وسمعت مرة شيخنا سيدى الشيخ محمود الكردى يقول: أنا عندما كنت أراه داخلا فى دهليز الجامع يداخلنى منه هيبة عظيمة وأدخل إلى رواقنا وأنظر إليه من داخل وأسأل المجاورين عنه فيقولون لى: «هذا الشيخ الجبرتى» فأتعجب لما يداخلنى من هيبته دون غيره من الأشياخ، فلما تكرر على ذلك أخبرت الأستاذ الحفنى فتبسم وقال لى «نعم إنه صاحب أسرار».

وكان صفته مربوع القامة ضخم الكراديس أبيض اللون، عظيم اللحية منور الشيبة واسع العينين غزير شعر الحاجبين وجيه الطلعة، يهابه كل من يراه، ويود أنه لا يصرف نظره عن جميل محياه، ولم يزل على طريقته المفيدة، وأفعاله الحميدة، إلى أن آذنت شمسه بالزوال ، وغرب بعدما طلع

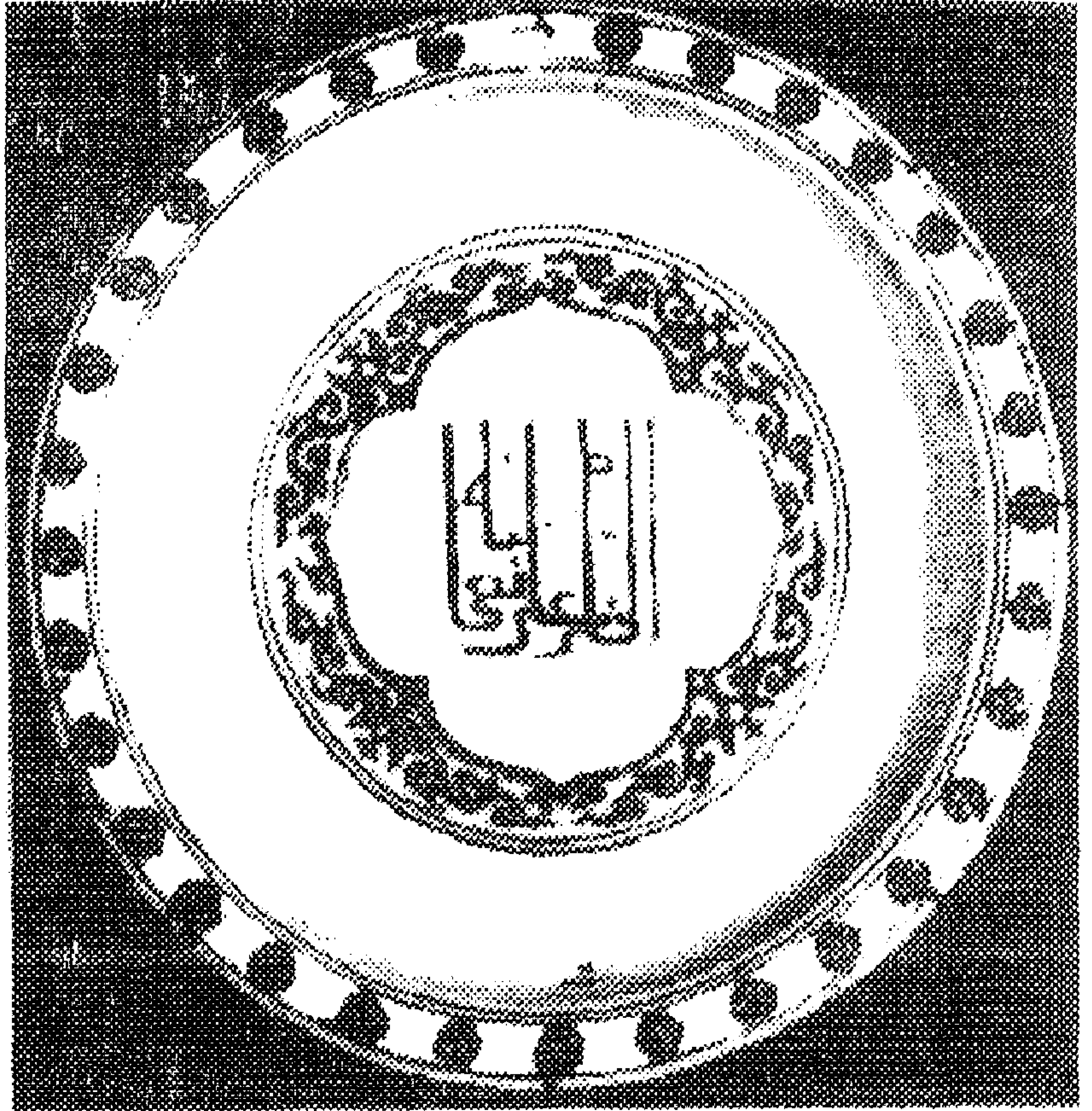
من مشرق الإقبال، وتعلل اثنى عشر يوما بالهيضة الصفراوية [الالتهاب الكبدى]، فكان كلما تناول شيئا قذفته معدته عندما يريد الاضطجاع إلى أن اقتصر على المشروبا فقط، وهو مع ذلك لا يصلى إلا من قيام ولم يغب عن حواسه، وكان ذكره فى هذه المدة يقرأ الصمدية مرة ثم يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم بالصيغة السنوسية كذلك، ثم الاسم العشرين من الأسماء الإدريسية وهو (يارحيم كل صريخ ومكروب وغياثه ومعاذه) هكذا كان دأبه ليلا ونهارا حتى توفى يوم الثلاثاء قبيل الزوال غرة شهر صفر من السنة، وجهز فى صبح يوم الأربعاء وصلى عليه بالأزهر (ص٩٦٢) بمشهد حافل جدا، ودفن عند أسلافه بتربة الصحراء بجوار الشمس البابلى والخطيب الشربينى، ومات له من العمر سبع وسبعون سنة، ورثاه تلميذه العلامة الشيخ محمد الصبان بهذه الأبيا وأنشدت وقت حضور الجنازة:

ويحك يانفسى كيف القرار
ودولة الفضل بها البين سارْ
وكيف يصفو العيش من بعدما
كأس الردى بين ذوى المجد دار
إن لهذا الدهر أقضية
فيهن للمستبصرين اعتبار
كم سل أسياف المنايا على
قوم إليهم كان يعزى الفخار
وكم رماهم بسهام النوى
كأنما يأخذ منهم بثار
وما كفاه ما جرى سابقا
منه وما صال علينا وجار

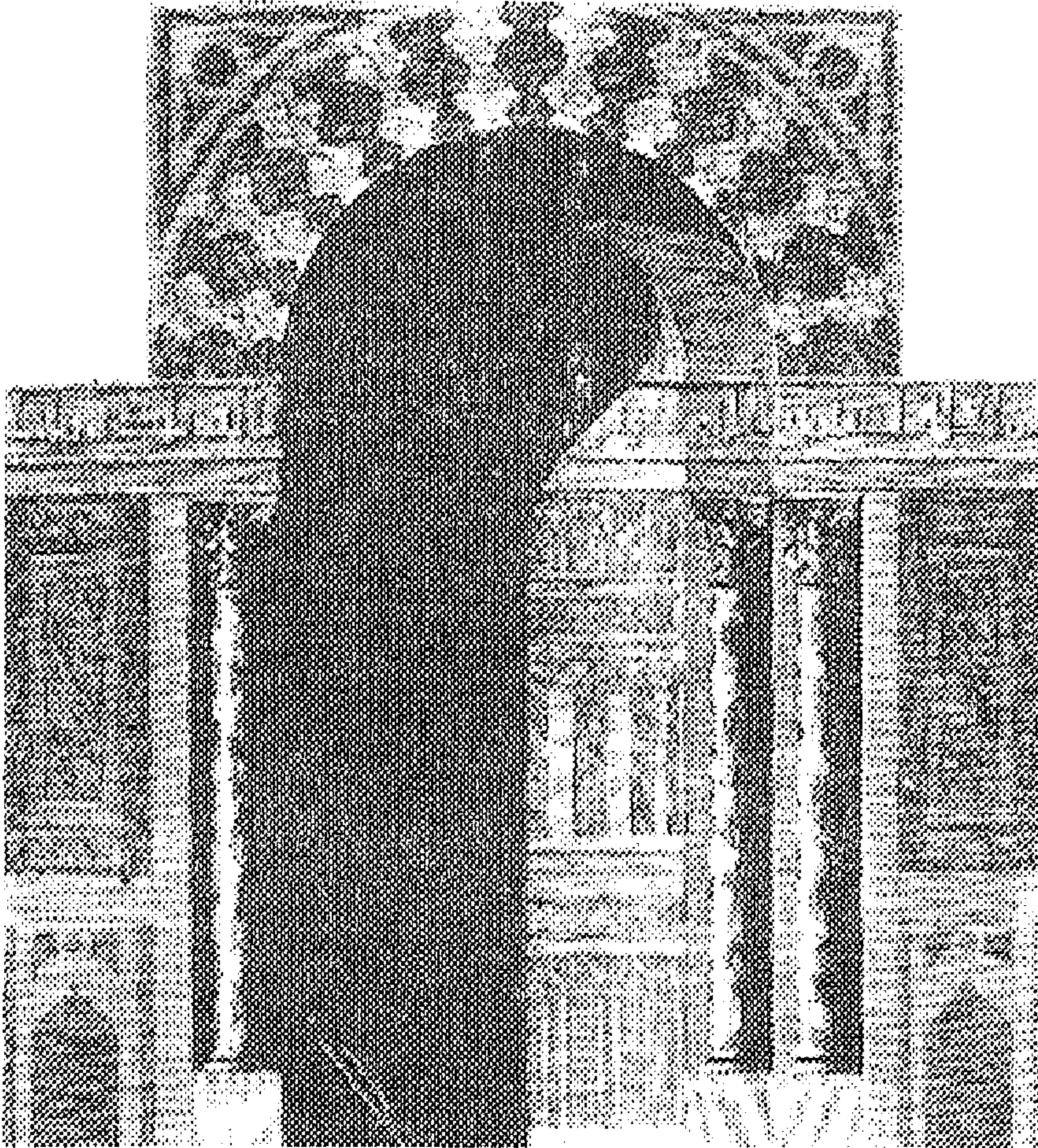
حـــــتى أذاق الناس نائبـــــة
بالبعض منهـا اسـود وجـه النهـار
فـــقــــد إمــام المسلمين الذى
بنوره كـــان الوجـــود اســـتنار
شـيخ الشـيـوخ المجتـبى المتـقى
رحـلـة أهـل العـلـم مـن كـل دار
شـمس الهـدى بحـر السـخاء الذى
تغـرق فى جـود يديه البـحـار
(ص٩٦٣)أنعم به من لوذعى حـوى
مكارم الأخــلاق مــافـيــه عــار
وطـــود حـــلـــم زانـــه خـــلـــق
لطف الصـبـا من لطفـه مـسـتـعـار
وروض فـــــضـل طالما قطـفـت
أهل التـــقى منه جنى الثـمـــار
ذاك الذ مـــثل اسـمـــه حـــسن
أعنى الجـبـــرتى إمـــام الوقـــار
ياســـيـــدا ســـاد بنى دهره
وفــاضــلا مــا لعـــلاه انحـصـار
ســـرت إلى جنة عـــدن وقـــد
أضـرمت من فـقـدك فى القلب نار
أبـشــــر من الله بنيـل المنى
فى مـقـعـد الصـدق وحـسن الجـوار
يارب حـــقق مـــا نرجى لـه
بجـاه طه بجـاه أهل الفـخـار
صلى عليـــه خـــالق الخلق مع
تسليـمــه مــا حل ركب وســار

والآل والأصــــحــــاب مــــا سكبت
أعين مــــحــــزون دمــــوعــــا غــــزار

(وللشيخ أحمد الخامى):
بك العيــون لفـقـد هذا الأمـجـد
العـــالم الحـــبـــر الهـــمـــام الأوحـــد
شيخ الشيـوخ ومـعـدن الجـود الذى
كـــانت به كل الأفـــاضل تقـــدى
(ص٩٦٤) كهف المحاويج الضعف إذا بهم
مـــحل ألم وصـــاحب الكف الندى
شـمس المعارف والتـقى حسن الجبر
تى الذى قـــد كـــان رحب المورد
حـــزنت عليـــه عـــيـــوننا وقلوبنا
حـــزن الدروس على الرءوس الرشـــد
بكت المحـــافل والدروس لفـــقـــده
إذ كـان فـيـهـا قـامـعـا للمـعـتـدى
وكـذا البـروج مع الكواكب أظهـرت
أســـفـــا على ذاك الإمـــام المفـــرد
من للمـــسـائل والفنون مـــهـــذبا؟
من للفـــتـــاوى بعـــد هذا الســـيـــد؟
كم أبرز المكنون ثاقب فـــهـــمـــه
ولكم أفـــــاد الطالبين بمعـــــهـــــد
واها على ذاك العـــزيز وحلمـــه
وبشـاشـة الوجـه الجـمـيل المسـعـد
واحـــسـرتاه قـد عـدمنا شـيـخنا
من كـــان للطلاب أقـــوى مُـــسند



ياعين سـحى بالبكا لا تبـخلى
ياعين شـحى بالكرى لا ترقـدى
ياعين قـد مـات الذى تبـغـيـه
من كان عونى فى الخطوب ومقصدى
رحمات مولانا العظيم جلاله (ص٩٦٥)
تغـشـاه دومـا سـرمـدا فى سـرمـد
وجـزاه رب العـرش خـيـر جـزائه
وحـبـاه فى الفـردوس أسنى مـقـعـد
ثم الصـلاة مع السـلام على الذى
كل الورى ترجـوه حـقـا فى غـد
وعلى صـحـابتـه الكرام وآله
من هم نجـوم فى الظلام المهـتـدى



تفاصيل معمارية من جامع السلطان حسن.

مـــا أن مـــحـــزون وحن فـــؤاده
لسمـــاع ذكـر حـبيبـه فى مشـهـد

(ولغيره أيضا):
لحـــا الله دهرا كل أيامــه مــحن
وكل ســرور فى أويقـــاته حـــزن
ومـــا الناس فى ذا الدهر إلا شـــواخص
وكل لـه من دهره مــــا بـه افـــتتن
فــمنحـــة هذا الدهر لاشك مــحنة
وإدباره صـــعب وإقـــبــــاله فتن
فـــيـــا طالبـــا من ذلك الدهر راحـــة
رويدك من ذا نالهـــا أو بهـــا اطمـــأن؟

لقـــد صــــال هذا الدهر صـــولة ظالم
وسل سـيـوف البـغى فى الســر والعلن
وأفـجـعنا فى مـفـرد العـصـر شـيـخنا
كـريم الـسـجـايا صـاحب المجـد والسنن
وذاك الجـــبـــرتى الذى كـــان قـــدوة
على منهج التـحـقـيق والشـرع يؤتمن
إمـــام له فى كل فن براعـــة (ص٩٦٦)
وفـــهم ذكي واجـــتـــهـــاد له حـــسن
لقـــد كـــان هذا الحـــبـــر قطب زمـــاننا
فـأحـــرمنا من شـــخـــصـــه ذلك الزمن
نعتـه غـوادى الـسـحب وانهل دمـعـهـا
كـذا الفلك الدوار قـد مـسـه شـجنْ
وأظلمت الدنيـا وغـار ت نجـومـهـا
وشمس الضحى غابت وبدر الدجى وهن
فـــمن للفـــتـــاوى والمســـائل بعـــده
ومن ذا الـذى فـى كـل فـن لـه فـطنْ؟
لئن مــات فــالذكــر الجـمـيل مـخلد
وإن غاب عن أبصارنا فى الحشا استكن
ولم انســـه والطالبـــون ببـــيـــتـــه
وكـل إلى ذاك المهـــــذب قــــد ركـن
يدير عليـــهم من ســـلاف علومـــه
كـئـوسـا من التـسنيم أشـهى وأعـذبن
فـــواحـــســـرتاه قـــد عـــدمنا بيننا
وصـــرنا حـــيـــارى لانعى بعـــده الوطن
فـيـا عين سـحى واندبى فـقـد مـاجـد
وسـوحى ونوحى واهجـرى لذة الوسن

عـدمنا فـتى قـد كـان مـأوى وملجـأ
فـــواها وآها لا نرى مـــثله فتى
ولما دعـــاه ذو الجـــلال لقـــربه
ولـم يـبـق فـى دار الـفـنـاء لـه وطـن
أجـاب سـريعـا ثم ولى مـودعـا
وســار لجنات بهــا فــاز من سكن
(ص٩٦٧) فناديته من عظم وجدى مؤرخا
بمقـعـد صـدق قـد قـدمت أيا حـسن
هنيـئـا مـريئـا فـزت فـوزا مـؤبدا
بـجـنـا عـــدن وهى من أعـظـم المنن
عليك من المولى الكريم تحـــيـــة
كـــذا رحـــمـــات لا يكدرها حـــزن
وصل مع تسليم رب العـــلا على
نـبى أتـانـا بـالـفــــروض وبـالـسـنن
مـحـمـد المبـعـوث للناس رحـمـة
ومن قـد بكى جـذع على فـقـده وحن
صـلاة وتسليـمـا يدومـان سـرمـدا
مـدى الدهر مـا وجـد تحـرك أو سكن
كذا الآل والأصحاب ما كوكب سرى
ومـا دمـعـت عين على فـقـد من ظعن

وقوله نعته (غوادى السحب) البيت وما بعده، وذلك أن يوم وفاته غيمت السماء وأرعدت وأمطرت مطرا خفيفا وكان الوقت صيفا فأشار إلى ذلك فى الأبيات (ورثاه أيضا الخامى بهذه القصيدة):

مـــهج بالخطوب تعـيـــا وتعـــدم
وفـــؤاد من الـضـنـا يتــــألم

وعـــيـــون مكحـــولة بســـهـــاد
قـــد كـــســـاها من النوى ثوب عندمْ
وقلوب مملوة حـــســـرات
نارها لا تزال تقـــوى وتضـــرم
ويح دهرى فكم أذاب قلوبا (ص٩٦٨)
وبرى أعظمـــا وأضنى وأســـقمْ
لا يبـــالى وليس يرعى ذمـــامـــا
وعلى مـــا جناه لم يتندم
طالما صـــال واســـتطال علينا
وغـــزانا من حـــيث لاقط نعلم
ورمـــانا فـــصـــادف الهم قلبـــا
كـــان أقـــوى القلوب دينا وأقـــوم
خـــاننا فـــيـــه ذا الزمـــان فـــلا كـــا
ن زمـــان على الخـــيـــانة يقـــدم
كـــان بدرا فـــأســـرعت كـــســـفـــه الأر
ض فـــزال الضـــيـــاء والجـــو أظلم
لهف قلبى على امـــرئ كـــان فـــينا
عـــقله بالورى يقـــاس وأعظـم
حـــسن الاسم والصـــفـــا كـــريم الـ
ـخلق والخلق ذى العطاء المفـــخم
يـــالـــه مـــن ممـجـــــــد لـوذعـى
بحـــــر جـــــود وكنز در منظم
يـالـه مـن مـــــعظم قـل أن يـو
جـــد فى الكون مـــثله من مـــعظم
عـــالم فـــاضل عـــزيز مـــهـــاب
بين أقـــرانه كـــبـــيـــر مـــقـــدم

ماعسى أن أقول فى مدح شخص
كان فى الله لم يخش لوم لُوم
أقفرت بعده ربوع المعالى
وعليها سرادق الحزن خيم
(ص٩٦٩) ونعته مجالس العلم إذ كا
ن لديها كفارس فوق أدهم
وبكته نكاتها والفتاوى
بدموع كغيث سحب تركم
كم قلوب لفقده قد أتاها
مادهاها من حيث لا تتوهم
أى قلب يطيق فقد عزيز
كان للواردين أعظم مغنم
سامه وارد النوى فلعمرى
كم زوى ذا النوى نكالا وأبرم
فلو ان المنون يقبل جعلا
كان لكنه قضاء محتم
منذ وافى لربه وحباه
فى جنان تفوق ما يتوهم
صح تاريخه فيا أهل ودى
الجبرتى في الجنان ينعم
فعليه من ربه رحمات
كل وقت على الدوام وأدوم
وصلاة من المهيمن تهدى
مع سلام على النبى المكرم
أشرف المرسلين أزكى البرايا
من عليه الإله صلى وسلم

وعلى آله الكرام وصحب
وذويهم وكل من قد تقدم
ما بكت أعين على مثل هذا
أو نعاه قلب عليه تألم
أورثاه الحامى إذ قال فيه(ص٩٧٠)
مهج باالخطوب تعيا وتعدم

[ومات] الإمام العلامة الفقيه المعمر الشيخ/ أحمد بن محمد محمد الحماقى الحنفى، كان أبوه من كبار علماء الشافعية فتحنف هذا بإذن الإمام الشافعى رضى الله عنه لرؤيا رآها ، وكان يخبر بها من لفظه، وتلقى عن أئمة عصره كالشيخ أحمد الدسوقى والشيخ على العقدى، ومحمد عبد العزيز الزيادى، والشيخ أحمد البنوفرى، والشيخ سليمان المنصورى وغيرهم، وتصدر للإقراء والتدريس بالجامع الأزهر مدة سنتين، ثم تولى مشيخة إفتاء الحنفية بعد موت الشيخ حسن المقدسى، وفى ذلك يقول الشيخ عبد الله الإدكاوى : ٣٦٦ احمد الحماقى.

رجع الحق بعد طول ثناء
لإمام له الخناصر تعقد
فى جميع الفنون فقها ونحوا
وبيانا بمنطق ليس يجحد
هو ذو الفضل ليس ينكر هذا
غير قدم بجهله قد تفرد
ويراع الفتوى استمر مقيما
عند مولى له الفضائل تسند

والورى بالدعـــاء قـــالت تؤرخ

دام في كف أحـمـد الفـضل أحـمـد

وكان إنسانا حسنا دمث الأخلاق حسن العشرة صافي الطوية عارفا بفروع المذهب لين الجانب لا يتحاشى الجلوس في الأسواق والقهاوى، وكان إخوانه من أهل العلم ينقمون عليه في ذلك فلا يبالي (ص٩٧١) باعتراضهم، ولم يزل حتى توفي في سحر ليلة الجمعة خامس عشرين صفر من السنة رحمه الله.

٣٦٧ أحمد شاهين الراشدى.

[ومات] الإمام الفقى العلامة المحدث الفرضى الأصولى الورع الزاهد الصالح الشيخ أحمد بن محمد بن محمد بن شاهين الراشدى الشافعى الأزهرى، ولد بالراشدية وهى قرية بالغربية سنة ثمان عشرة وماية وألف، وبها نشأ وحفظ القرآن وجوّده، وقدم الأزهر فتفقه على الشيخ مصطفى العزيزى، والشيخ مصطفى العشماوى، وأخذ الحساب والفرايض على الشيخ محمد الغمرى، وسمع الكتب الستة على الشيخ عيد النمرسى بطرفيها وبعضها على الشيخ عبد الوهاب الطندتاوى، وسيدى محمد الصغير، وله شيوخ كثيرون، ورافق الشيخ الوالد وعاشره مدة طويلة وتلقى عنه وهو أحد أصحابه من الطبقة الأولى، ولم يزل محافظا على وده وتردده ومؤانسته ويتذكر الأزمان السالفة والأيام الماضية، وله شيوخ كثيرون، وكان من جملة محفوظاته البهجة الوردية، وقد انفرد في عصره بذلك واعتنى بالكتب الستة كتابة ومقابلة وتصحيحا، وكان حسن التلاوة للقرآن، حلو الأداء مع معرفته بأصول الموسيقى ، ولذلك ناطت به رغبة الأمرا، ، فصلى إماما بالأمير محمد بك ابن اسماعيل بك،

مع كمال العفة والوقار والإنجماع عن الناس حتى إن كثيرا منهم يود أن يسمع منه حزبا من القرآن فلا يمكنه ذلك، ثم أقلع عن ذلك وأقبل على إفادة الناس فأقرأ المنهج مرارا وابن حجر على المنهاج مرارا، وكان يتقنه ويحل مشكلاته بكمال التؤدة (ص٩٧٢) والسكينة، فاستمر مدة يقرأ دروسه بمدرسة السنانية قرب الأزهر، ثم انتقل إلى زاوية قرب المشهد الحسينى، وكان تقريره مثل سلاسل الذهب فى حسن السبك، ولما بنى المرحوم يوسف جربجى الهياتم المسجد قرب منزله بخط أبى محمود الحنفى رتب فيه خطيبا وإماما وأعاد دروس الحديث فيه، فمما قرأ فيه صحيح مسلم وسنن أبى داود، هذا مع صيامة الدهر وقيامه الليل من مدة طويلة، ويقوم الليل بالقرآن، وفيه جذبة إلى الله تعالى، وقد انتفع به كثير من الأعلام، ولما بنى المرحوم محمد بك أبو الدهب المدرسة تجاه الجامع الأزهر فى هذه السنة راوده أن يكون خطيبا بها فامتنع فألح عليه وأرسل له صرة فيها دنانير لها صورة فأبى أن يقبل ذلك ورده فألح عليه ، فلما أكثر عليه خطب بها أول جمعة وألبسه فروة سمور، وأعطاه صرة فيها دنانير فقبلها كرها ورجع إلى منزله محموما، يقال فيما بلغنى أنه طلب من الله أن لا يخطب بعد ذلك، فانقطع فى منزله مريضا إلى أن توفى ليلة الثلاثاء ثانى شوال من السنة، وجهز ثانى يوم وصلى عليه بالأزهر فى مشهد حافل ودفن بالقرافة الصغرى تجاه قبة أبى جعفر الطحاوى، ولم يخلف بعده فى جميع الفضايل مثله، وكان صفته نحيف البدن منور الوجه والشيبة نانئ الجبهة ولا يلبس زى الفقهاء ولا العمامة الكبيرة بل يلبس قاووقا لطيفا فتلى، ويركب بغلة وعليها سلخ شاة أزرق، وأخذ كتبه

الأمير محمد بك ووقفها فى كتبخانته التى جعلها بمدرسته، وكان لها جرم كلها صحيحة مخدومة وسرق غالبها.

٣٦ سعد الشنواني.

[ومات] الشيخ الصالح/ سعد بن محمد بن عبد الله الشنواني، حصل فى حياته شيا كثيرا من العلوم، ومال إلى فن الأدب فمهر فيه، وتنزل قاضيا فى محكمة باب الشعرية بمصر، وكان إنسانا حسنا بينه وبين الفضلا مخاطبات ومحاولات، وشعره حسن مقبول، وله قصايد ومدايح فى الأوليا وغيرهم أحسن فيها، ولم أعثر على شىء منها، وجدد له شيخنا السيد مرتضى نسبة إلى الشيخ شهاب الدين العراقى دفين شنوان، توفى يوم السبت خامس جمادى الثانية من السنة وقد جاوز السبعين رحمه الله

٣٦ على بن حسن المالكى.

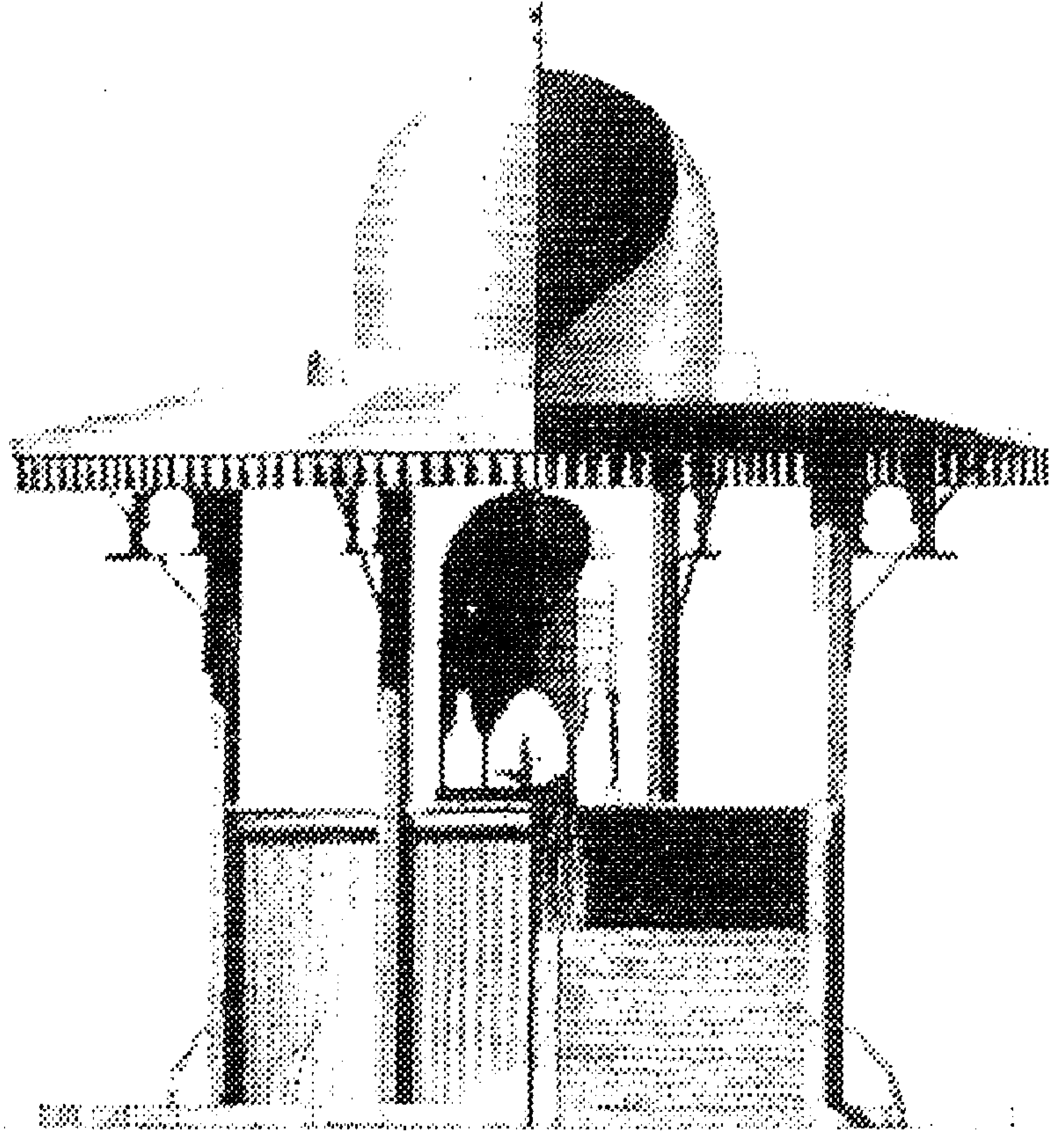
[ومات] العلامة الفقيه لصالح الدين الشيخ/ على بن حسن المالكى الأزهرى، قرأ على الشيخ العدوى وبه تخرج وحضر غيره من الأشياخ ومهر فى الفقه والمعقول وألقى دروسا بالأزهر ونفع الطلبة، وكان ملازما على قراية الكتب النافعة للمبتدين مثل أبى الحسن وابن تركى والعشماوية فى الفقه، وفى النحو الشيخ خالد والأزهرية والشذور، وحلقة درسه عظيمة جدا، وكان لسانه أبدا متحركا بذكر الله، توفى ليلة الخميس منتصف ربيع الأول من السنة ودفن بالمجاورين.

٣١ محمد السفارينى النابلسى.

[ومات] االشيخ الإمام المحدث البارع الزاهد الصوفى محمد بن أحمد بن سالم أبو عبد الله السفارينى النابلسى الحنبلى، ولد كما وجد بخطه سنة أربع عشرة ومائة وألف تقريبا بسفارين، وقرأ القرآن فى سنة إحدى وثلاثين فى نابلس

واشتغل بالعلم قليلا وارتحل إلى دمشق سنة ثلاث وثلاثين ومكث (ص٩٧٤) بها قدر خمس سنوات فقرأ بها على الشيخ عبد القادر التغلبى دليل الطالب للشيخ مرعى الحنبلى من أوله إلى آخره قراءة تحقيق، والإقناع للشيخ موسى الحجازى، وحضره فى الجامع الصغير للسيوطى بين العشاءين وغيره مما كان يقرأ عليه فى ساير أنواع العلوم، وذاكره فى عدة مباحث من شرحه على الدليل، فمنها ما رجع عنها ومنا ما لم يرجع لوجود الأصول التى نقل منها، وكان يكرمه ويقدمه على غيره، وأجازه بما فى ضمن ثبته الذى خرجه له الشيخ محمد بن عبد الرحمن الغزى فى سنة خمس وثلاثين، وعلى الشيخ عبد الغنى النابلسى الأربعين النووية وثلاثيات البخارى والإمام أحمد، وحضر دروسه فى تفسير القاضى وتفسيره الذى صنفه فى علم التصوف، وأجازه عموما بساير ما يجوز له وبمصنفاته كلها، وكتب له إجازة مطولة وذكر فيها مصنفاته، وعلى الشيخ عبد الرحمن المجلد ثلاثيات البخارى وحضر دروسه العامة وأجازه، وعلى الشيخ عبد السلام بن محمد الكاملى بعض كتب الحديث وشيا من رسايل إخوان الصفا، وعلى ملا الياس الكورانى كتب المعقول وعلى الشيخ اسماعيل بن محمد العجلونى الصحيح بطرفيه مع مراجعة شروحه الموجودة فى كل رجب وشعبان ورمضان كل سنة مدة إقامته بدمشق وثلاثيات البخارى وبعض ثلاثيات أحمد وشيا من الجامع الصغير مع مراجعة شرحه للمناوى والعلقمى وشيئا من الجامع الكبير وبعضا من كتاب الإحياء مع مراجعة تخريج أحاديثه للزين العراقى، والأندلسية (ص٩٧٥) فى العروض مع مطالعة بعض شروحها وبعضا

من شرح شذور الذهب، وشرح رسالة الوضع مع حاشيته التى ألفها وحاشية ملا الياس وأجازه بكل ذلك وبما يجوز له روايته، وعلى الشيخ أحمد بن على المنينى شرح جمع الجوامع للمحلى، وشرح الكافية لملا جامى، وشرح القطر للفاكهى وحضر دروسه للصحيح وشرحه على منظومة الخصايص الصغرى للسيوطى، وقد أجازه بكل ذلك مطولة كتبها بخطه، وعلى الشيخ محمد بن عبد الرحمن الغزى بعضا من شرح ألفية العراقى لزكريا وأول سنن أبى داود . وعلى قريبه الشيخ أحمد الغزى غالب الصحيح بالجامع الأموى بحضرة جملة من كبار شيوخ المذاهب الأربعة، وعلى الشيخ مصطفى بن سوار أول صحيح مسلم، وعلى حامد أفندى مفتى الشام المسلسل بالأولية وثلاثيات البخارى وبعض ثلاثيات أحمد، وحج سنة ثمان وأربعين فسمع بالمدينة على الشيخ محمد حياة المسلسل بالأولية وأوايل الكتب الستة ، وتفقه على شيخ المذهب مصطفى بن عبد الحق اللبدى، وطه بن أحمد اللبدى، ومصطفى بن يوسف الكرمى، وعبد الرحيم الكرمى، والشيخ معمر السيد هاشم الحنبلى، والشيخ محمد السلفينى وغيرهم ، ومن شيوخه الشيخ محمد الخليلى سمع عليه أشياء، والشيخ عبدالله البصروى سمع عليه ثلاثيات أحمد مع المقابلة بالأصل المصحح، والشيخ محمد الدقاق أدركه بالمدينة وقرأ عليه أشياء، واجتمع بالسيد مصطفى البكرى فلازمه وقرأ عليه مصنفاته وأجازه بماله وكتب له بذلك، (ص٩٧٦) وله شيوخ أخر غير من ذكرت وله مؤلفات منها شرح عمدة الأحكام للحافظ عبد الغنى فى مجلدين وشرح ثلاثيات أحمد فى مجلد ضخم، وشرح نونية الصرصرى الحنبلى



سماه معارج الأنوار فى سيرة النبى المختار، وبحر الوفا فى سيرة النبى المصطفى ، وغذا الألباب فى شرح منظومة الآداب والبحور الزاخرة فى علوم الآخرة، وشرح الدرة المضية فى اعتقاد الفرقة الأثرية ولوايح الأنوار السنية فى شرح منظومة أبى بكر بن أبى داود الحائية، ومما وجدته من نظمه ونقلته من خطه :

لكل امرئ عند الإله وسيلة
ستنحيه فى يوم الجزا من عذابه
ومالي سوى ذلى وفقر وفاقتى
وحسن رجائى وانكسارى ببابه
عسى خالقى يمحو ذنوبى بمنه
ويقبضى مستمسكا بكتابه

وله أيضا:

إذا رأيت ذوى ظلم فقل لهم
ستندمون إذا ما جئتمو سقرا
عنفهم بشنيع من قبايحهم
واقرأ لهم آية فى آخر الشعرا

وله أيضا:

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بمكة حولى صالح وزميل
وهل أردن يوما مياها لزمزم (ص٩٧٧)
وهل يُعدُونْ لى فى الطراف قبول

وله أيضا:

وشادن من بنى الأتراك قلت له
قصدى أقبل ياكل المنى شفتك
فقال لى كف عن هذا الكلام ولو
قبلتها ياصريع الحب ماشفتك

(والأصل فيه قول من سبق):

وشادن قلت له
دعنى أقبل شفتك
فقلت له كم مرة
قبلتها ما شفتك

وله أيضا:

ظن العواذل أنى
من قلة المال أشقى



▲ دراويش الطرق الصوفية.

فـــــــــــقـلـت لا، ذاك إفـك
قـــــالـله خــــيـــــــر وأبقى

وكـان المترجم شيخا ذا شيبـة منـورة مهيبـا جميـل الشكل ناصرا للسنة، قامعا للبدعة قوالا بالحق مقبـلا على شانه مداوما على قيام الليل فى المسجد ملازما على نشـر علوم الحديث محبا فى أهله ولازال يملى ويفيد ويجيـز من سنة ثمان وأربعين إلى أن توفى يوم الاثنين ثامن شـوال من هذه السنة بنابلس، وجهـز وصلى عليـه بالجامع الكبيـر ودفـن بالمقبـرة الزاركنية وكـثـر الأسف عليه ولم يخلف بعـده مثله،ولم يخلـف بعـده مثلـه، رحمـه الله رحـمـة واسعة.

٣٧١ أحمد بن محمد الشرفي.

[ومات] العمدة المبجل الفاضل الشيخ/ أحمد بن محمد بن عبد السلام الشرفي، المغربي الأصل، المصري المولد، وكن والده شيخا على رواق المغاربة بالجامع الأزهر، ومن شيوخ الشيخ أحمد الدمنهوري، وولده هذا (ص٩٧٨) .
ان له معرفة بعلم الميقات ومشاركة حسنة وفيه صداقة ود وحسن عشرة مع الإخوان ومكارم أخلاق ويدعو الناس والعلماء في المولد النبوي إلى بيته بالأزبكية، ويقدم لهم الموايد والحلوى وشراب السكر، وكان لديه فوايد ومآثر حسنة، توفي سابع عشر ربيع الأول من السنة، وقد جاوز السبعين رحمه الله.

٣٧٢ قاسم العبادي.

[ومات] العمدة الفاضل الشيخ زين الدين / قاسم العبادي الحنفي، تفقه على الشيخ سليمان المنصوري والشيخ أحمد بن عمر الإسقاطي إلى أن صار يقرأ درسا في المذهب، ولم يزل ملازما شانه حتى توفي ثالث عشر الحجة من السنة وقد ناهز الثمانين رحمه الله.

٣٧٣ عبد الله الطويل.

[ومات] العمدة الشيخ/ عبد الله الموقت قوصون وكان يعرف بالطويل، وكان إنسانا صالحا ناسكا ورعا، توفي فجأة في الحمام ثاني عشر الحجة عن سبع وثمانين سنة.

٣٧٤ علي العطشي.

[ومات] العمدة الفاضل الأديب الماهر الشيخ/ علي بن أحمد بن عبد الرحمن بن عامر العطشي الفيومي ، وهو أخو أحمد العطشي وكان له مذاكرة حسنة وحضر على الشيخ الحفني وغيره، وكان نعم الرجل

تـوفى فى جمادى الآخرة.

[ومات] السيد الشريف المعمر/ محمد بن حسن محمد الحسنى الوفائى باش جاويش السادة الأشراف، أخذ عن الشيخ المعمر يوسف الطولونى، وكان يحكى عنه حكايا مستحسنة وغرايب، وكان متقيدا بالسيد محمد أبى هادى الوفائى فى أيام نقابته على الأشراف ولديه فضيلة وفوايد، توفى فى هذه السنة عن نحو ثمانين سنة. ٣٧٥ محمد الوفائى باش جاويش الاشراف.

[ومات] الشيخ الصالح/ سليمان (ص٩٧٩) بن داود بن سليمان بن أحمد الخربتاوى وكان من أهل المروة والدين، توفى ثامن عشرين المحرم من السنة فى سن الثمانين. ٣٧٦ سليمان الخربتاوى.

[ومات] الجناب المكرم الأمير/ أحمد أغا البارودى وهو من مماليك ابراهيم كتخدا القازدغلى وتزوج بابنته التى من بنت البارودى وسكن معها فى بيتهم المشهور خارج باب سعادة والخرق، وولد له منها أولاد ذكور وإناث ومنهم صاحبنا ابراهيم جلبى وعلى مصطفى وهو أستاذ محمد أغا الآتى ذكره، تقلد المترجم فى أيام على بك مناصب جليلة مثل أغاوية المتفرقة وكتخدا الجاويشية، وكان إنسانا حسنا صافى الباطن لا يميل طبعه لسوى فعل الخير، ويحب أهل العلم وممارستهم، وكان له ميل عظيم واعتقاد حسن فى المرحوم الشيخ الوالد ويزوره فى كل جمعة مع غاية الأدب والامتثال ، ومما شاهدته من كمال أدبه وشدة اعتقاده وحبه أنه صادفه مرة بالطريق وهو إذ ذاك كتخدا الجاويشية، وهو راكب فى أبهته وأتباعه، والشيخ راكب على بغلته، فعندما رآه ترجل ٣٧٧ احمد اغا البارودى.

ونزل عن جواده وقبل يده، فأنكر عليه فعله واستعظمه واستحي منه، والتمس منه أن يقيد به بعض الطلبة ليقريه شيأ من الفقه والدين، فقيد به الشيخ عبد الرحمن العريشي، فكان يذهب إليه ويطالع له القدوري وغيره، وكان يكرمه ويواسيه ولم يزل على حسن حالته حتى توفى فى سابع جمادى الأولى من السنة، وكان له فى منزله (ص٩٨٠) خلوة ينفرد فيها بنفسه ويخلع ثياب الأبهة ويلبس كساء صوف أحمر على بدن، ويأخذ بيده سبحة كبيرة يذكر ربه عليها.

٣٧ خليل اغا.

[ومات] الأمير الصالح/ خليل أغا مملوك عثمان بك الكبير تابع ذى الفقار وهو أستاذ الأمير على خليل، توفى ببلد له بالفيوم، وجئ به ميتا فى عشية نهار السبت حادى عشرين جمادى الثانية من السنة فغسل وكفن ودفن بالقرافة، وكان إنسانا دينا خيرا محبا للعلماء والصلحاء.

٣٧ اسماعيل افندى.

[ومات] الأمير اسماعيل افندى تابع المرحوم الشريف محمد أغا كاتب البيورلدى وكان إنسانا خيرا صالحا توفى يوم الأحد ثانى عشرين جمادى الثانية.

٣٨ عبد اللطيف افندى. نقيب الاشراف لقدس.

[ومات] السيد المعمر الشريف عبد اللطيف أفندى نقيب الأشراف بالقدس وابن نقبائها عن تسعين سنة تقريبا، وتولى بعده أكبر أولاده السيد عبد الله أفندى رحمه الله.

٣٨محمد افندى جاوجان ميسو.

[ومات] الأمير المبجل/ محمد أفندى جاوجان ميسو، وكان حافظا لكتاب الله موفقا، وفيه فضيلة وفصاحة يحب

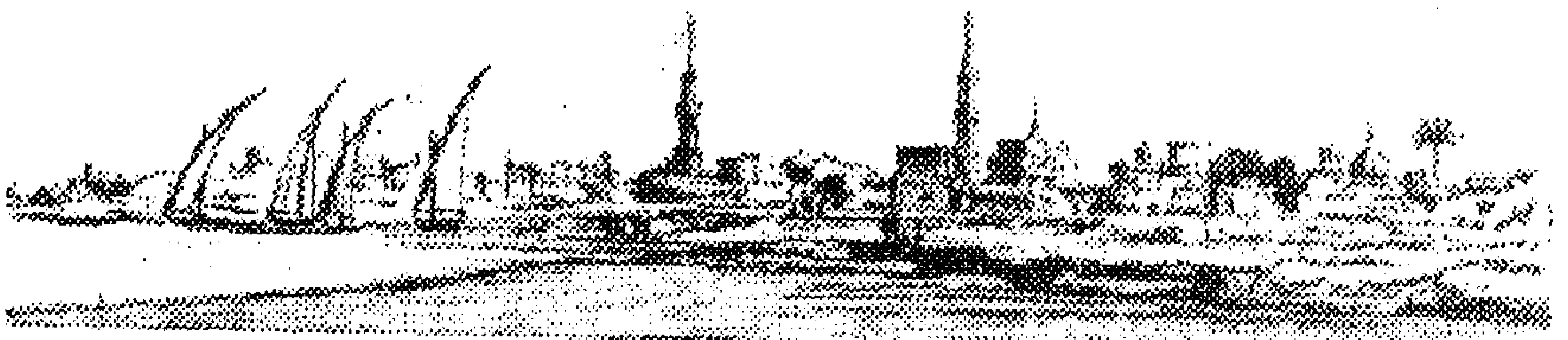
العلماء والأشراف ويحسن إليهم، توفي ليلة الاثنين عشرين ربيع الأول وصلي عليه بالأزهر ودفن بالمجاورين.

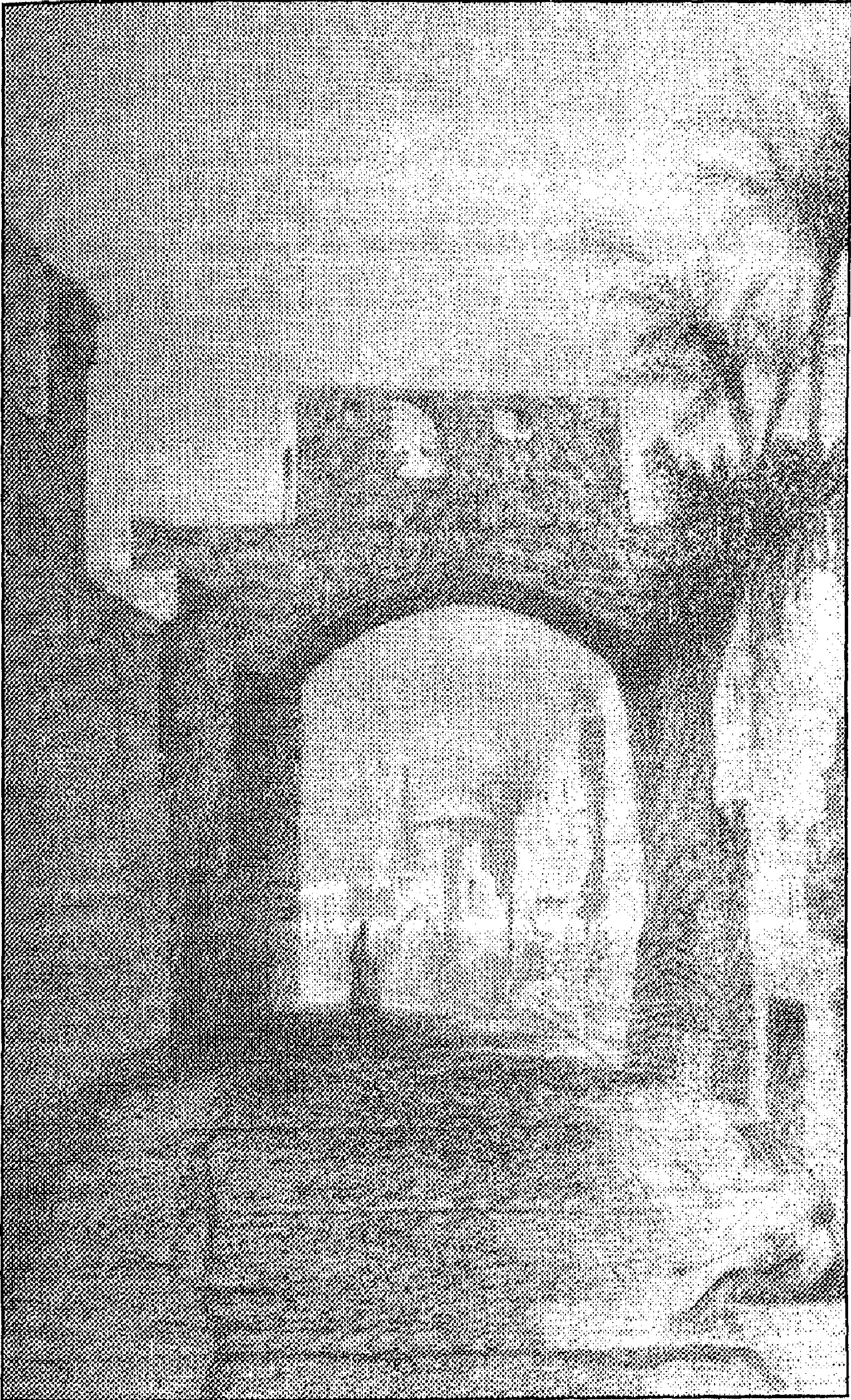
[ومات] الأمير / مصطفي بك الصيداوى تابع الأمير على بك القازدغلى كان سبب موته أنه خرج إلى الخلاء جهة قصر العينى وركض جواده فسقط عنه ومات لوقته، وحمل إلى منزله بدرب الحجر، وجهز وكفن ودفن بالقرافة وذلك في منتصف ربيع (ص٩٨١) الأول من السنة. ٣٨٢ مصطفي بك الصيداوى.

[ومات] الأمير/ على أغا أبو قورة من جماعة الوكيل سادس عشر ربيع الأول سنة تاريخه. ٣٨٣ على أغا ابو قورة.

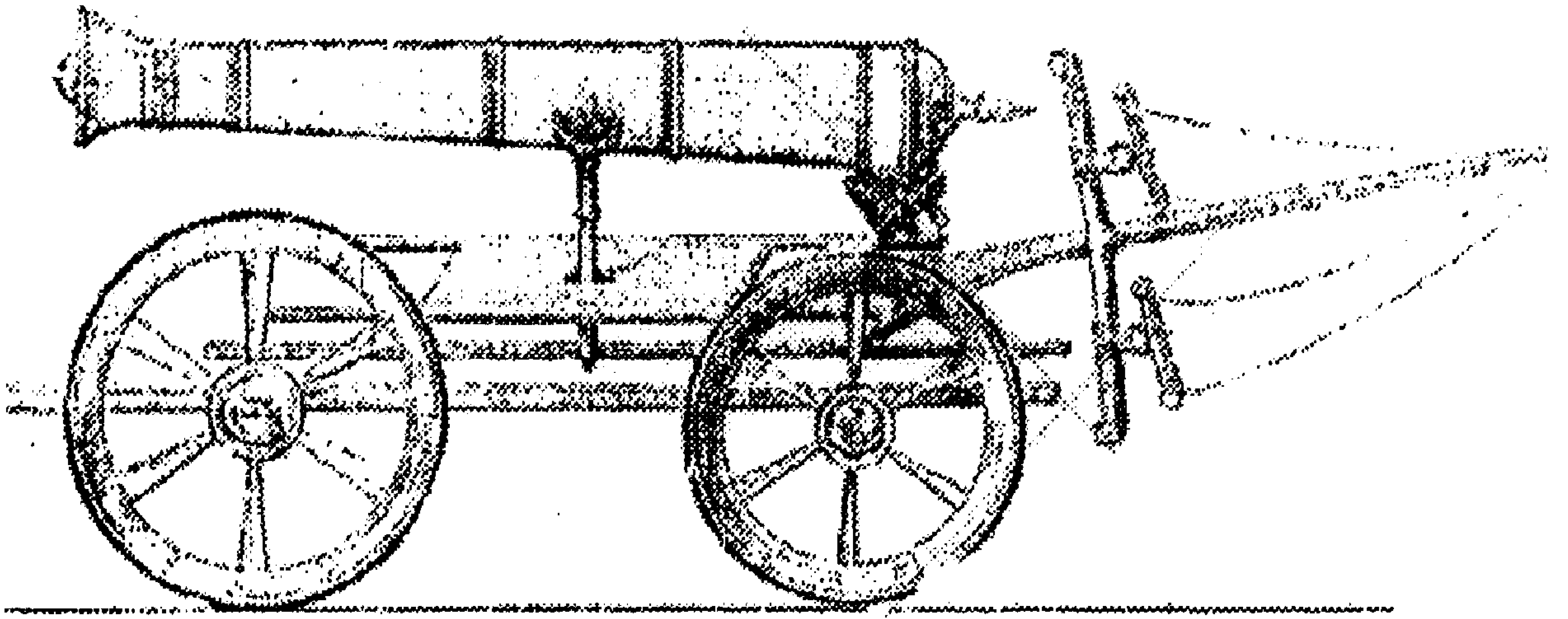
[ومات] الأمير/ محمد أفندى الزاملى كاتب قلم الغربية ،وكان صاحب بشاشة وتودد وحسن أخلاق، توفى رابع عشرين صفر من السنة، وخلف ولده حسن أفندى قلفة الغربية الآتي ذكره فى سنة اثنتين ومايتين وألف. ٣٨٤ محمد افندى الزاملى.

[ومات] الخواجا المكرم الحاج / محمد عرفات الغزاوى التاجر، وهو والد عبد الله ومصطفى، توفى يوم الثلاثاء ثامن صفر من السنة، والله تعالى أعلم. ٣٨٥ محمد عرفات الغزاوى.





▲ باب الزهومة بالقدس.



▲ مدفعية قديمة تجرها الدواب.

سنة تسع وثمانين ومايه وألف [١٧٧٥]

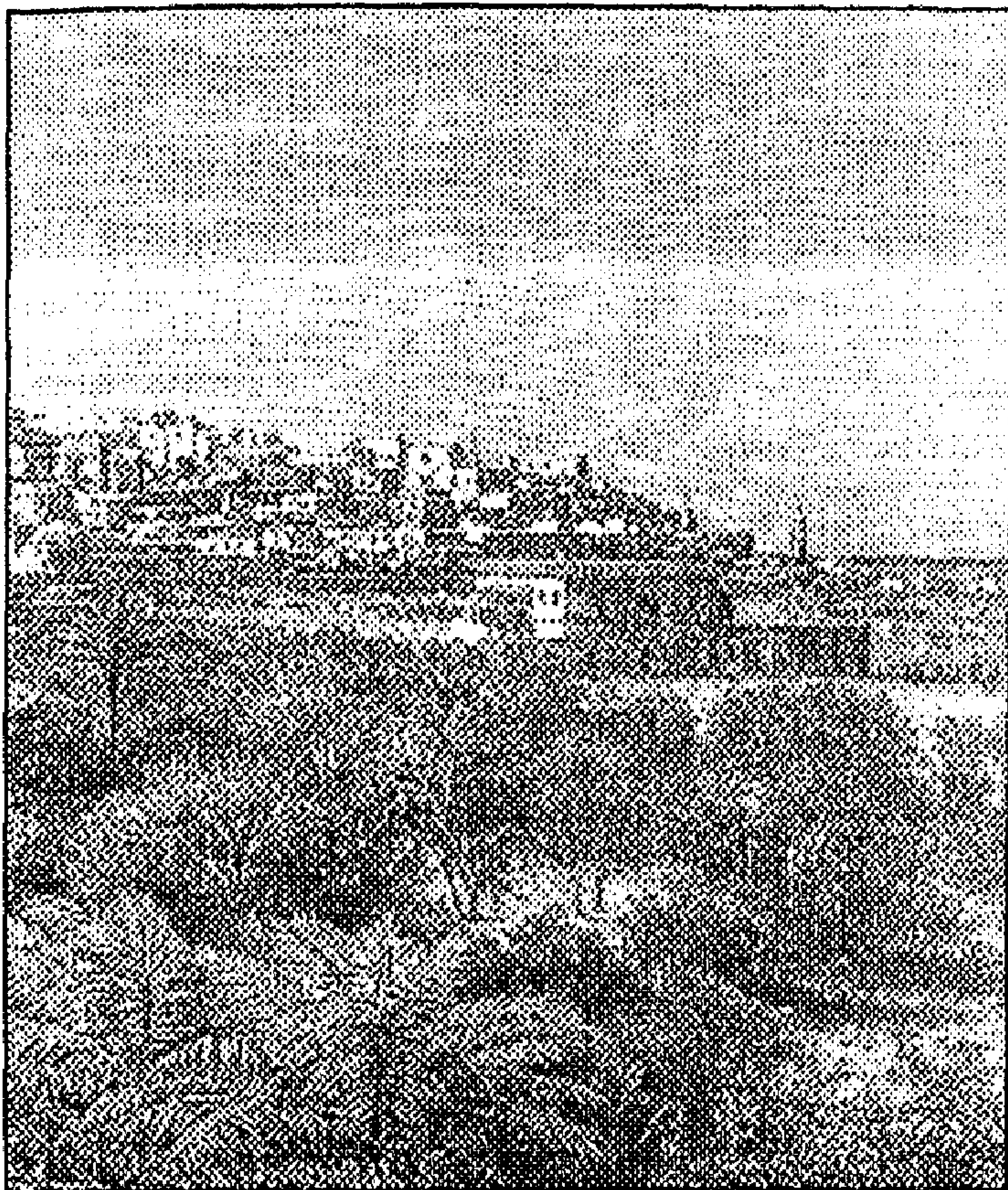
فيها عزم محمد بك ابو الدهب على السفر والتوجه إلى البلاد الشامية بقصد محاربة الظاهر عمر واستخلاص ما بيده من البلاد، فبرز خيامه إلى العادلية وفرق الأموال والتراحيل على الامراء والعساكر والمماليك، واستعد لذلك استعدادا عظيما فى البحر والبر، وأنزل بالمراكب الذخيرة والجبخانة والمدافع والقنابر والمدفع الكبير المسمى بأبو مايلة، الذى كان سبكه فى العام الماضى، وسافر بجموعه وعساكره فى أوايل المحرم، وأخذ صحبته مراد بك، وابراهيم بك طنان، واسماعيل بك تابع اسماعيل بك الكبير لا غير، ونزل بمصر ابراهيم بك وجعله عوضا عنه فى امارة مصر،

١١٥ مصطفى باشا النابلسى.
*حملة ابو الدهب على الشام.
١١٨٩هـ.
١٤٩١ق.
١٧٧٥م.
غاية الفيضان ٢٣ ذراع/ ١٢ قيراط

- في المحرم / مارس، سافر محمد بك ابو الدهب الى الشام واناب عنه فى مصر ابراهيم بك. فحاصر يافا. وبعد محاربة تملكها بالقوة والاقتدار. ثم سار الى عكا فدخلها بدون ممانع لهروب الظاهر عمر.
- وفي اوايل ربيع أول زينت مصر ثلاثة ايام اعلانا بهذه النصرة.
- وفي ٨ [ربيع اول] توفى محمد بك ابو الذهب فى عكا، ولم يعلم إن كان مات مقتولا أم مات بداء السكتة. وفي ٢٤ ربيع الثاني حضرت جثته مع العساكر تحت إمرة مراد بك، ودفن فى الليوان الشرقى من مدرسته، تجاه الجامع الأزهر، وتولى مشيخة البلد على مصر بعده اسماعيل بك، رغما عن ادعاءات مراد

بك وابراهيم بك.

- بعض المغاربة ، القاصدين الحج، جدد الجزء الذى يلى القبلة والمقصورة من جامع سيدى ابى العباس بالاسكندرية.
- فى هذه السنة الافرنكية كان ابتداء الحرب بين انكلترا والولايات المتحدة من امريكا، هؤلاء تحت امرة واشنطون.
- فى هذه السنة الهجرية تعين مصطفى باشا النابلسى لولاية جدة. وتعين ابراهيم باشا عزب كيرلى بدله على مصر من قبل الدولة العلية. ومات فى السنة بعينها.
- ١ توت ١٤٩٢ = ١٠ سبتمبر ١٧٧٥ = الاحد ١٤ جماد الثانى سنة ١١٨٩
- ١ يناير ١٧٧٦ = ٢٤ كيهك ١٤٩٢ = الاثنين ٩ ذو القعدة سنة ١١٨٩.



حصن يافا ◀

وإسماعيل بك وباقى الأمراء والباشا الذى بالقلعة وهو مصطفى باشا النابلسى وأرباب العكاكيز والخدم والوجاقلية، ولم يزل فى سيره حتى وصل إلى جهة غزة وارتجت البلاد لوروده، ولم يقف احد (ص٩٨٢) فى وجهه ، وتحصن اهل يافا بها، وكذلك الظاهر عمر تحصن بعكا، فلما وصل إلى يافا حاصرها وضيق على أهلها، وامتنعوا هم أيضا عليه، وحاربوه من داخل وحاربهم من خارج، ورمى عليهم بالمدافع والمكاحل والقنابر عدة أيام وليالى، فكانوا يصعدون إلى أعلى السور ويسبون المصريين وأميرهم سبا قبيحا ، فلم يزالوا بالحرب عليها حتى نقبوا أسوارها، وهجموا عليها من كل ناحية، وملكوها عنوة، ونهبوها وقبضوا على أهلها وربطوهم فى الحبال والجنازير، وسبوا النساء والصبيان، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، ثم جمعوا الأسرى خارج البلد

ودورو فيهم السيف، وقتلوهم عن آخرهم، ولم يميزوا بين الشريف والنصراني واليهودى والعالم والجاهل والعامى والسوقى ولا بين الظالم والمظلوم، وربما عوقب من لا جنى، وبنوا من رءوس القتلى عدة صوامع ووجوهها بارزة تنسف عليها الأتربة والرياح والزوابع، ثم ارتحل عنها طالبا عكا، فلما بلغ الظاهر عمر ما وقع بيافا، اشتد خوفه وخرج من عكا هاربا وتركها وحصونها. فوصل إليها محمد بك ودخلها من غير مانع، وأذعنت له باقى البلاد، ودخلوا تحت طاعته وخافوا سطوته، وداخل محمد بك من الغرور والفرح مالا مزيد عليه وما آل به إلى الموت والهلاك، وأرسل بالبشاير إلى مصر والأمرا بالزينة ، فنودى بذلك وزينت مصر وبولاق والقاهرة وخارجها زينة عظيمة، وعمل بها وقدات وشنكات وحرقات وأفراح (ص٩٨٣) ثلاثة أيام بلياليها، وذلك فى أوايل ربيع الثانى، فعند انقضاء ذلك ورد الخبر بموت محمد بك، واستمر فى كل يوم يفشو الخبر، وينمو ويزيد ويتناقل ويتأكد ، حتى وردت السعاة بتصحيح ذلك، وشاع فى الناس وصاروا يتعجبون ويتلون قوله تعالى «حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون*». وذلك أنه لما تم له الأمر وملك البلاد المصرية والشامية وأذعن الجميع لطاعته، وقد كان أرسل إسماعيل أغا أخا على بك الغزاوى إلى اسلامبول يطلب إمرية مصر والشام، وأرسل صحبته أموالا وهدايا فأجيب إلى ذلك، وأعطوه التقاليد والخلع واليرق والداقم، وأرسل له المراسلات والبشائر بتمام الأمر، فوافاه ذلك يوم دخوله عكا، فامتلأ فرحا، وحم بدنه فى الحال، فأقام محموما ثلاثة أيام، ومات ليلة الرابع، ثامن ربيع الثانى، ووافى خبر موته إسماعيل أغا عندما تهيأ ونزل

* وفاة محمد بك ابو الدهب فى الوقت الذى وافقت فيه السلطنة على نيابته على مصر والشام.

* مبلسون : متحصرون آيسون.

في المراكب يريد المسير إلى مخدومه ، فانتقض الأمر وردت التقاليد وباقى الأشياء ولما تم له أمر يافا وعكا وباقى البلاد والثغور، فرح الامراء والأجناد الذين بصحبته برجوعهم إلى مصر وصاروا متشوقين للرحيل والرجوع إلى الأوطان، فاجتمعوا إليه في اليوم الذى نزل به ما نزل فى ليلته ، فتبين لهم من كلامه عدم العود وأنه يريد تقليدهم المناصب والأحكام بالديار الشامية وبلاد السواحل، وأمرهم بإرسال المكاتبات إلى بيوتهم وعيالهم بالبشارات بما فتح الله عليهم وما سيفتح لهم، ويطمنوهم ويطلبوا احتياجاتهم ولوازمهم المحتاجين إليها من مصر، فعند ذلك اغتموا، وعلموا أنهم لا براح لهم، وأن أمله غير هذا، وذهب كل إلى مخيمه يفكر فى أمره، قال الناقل: وأقمنا على ذلك الثلاثة أيام التى تمرض فيها، وأكثرنا لا يعلم بمرضه ولا يدخل إليه إلا بعض خواصه، ولا يذكرون ذلك إلا بقولهم فى اليوم الثالث إنه منحرف المزاج، فلما كان فى صبح الليلة التى مات بها، نظرنا إلى صيوانه وقد ا نهدم ركنه، وأولاد الخزنة فى حركة، ثم زاد الحال، وجردوا على بعضهم السلاح بسبب المال، وظهر أمر موته وارتبك العرضى، وحضر مراد بك فصدهم وكفهم عن بعضهم، وجمع كبراهم وتشاوروا فى أمرهم، وأرضى خواطرهم ، خوفا من وقوع الفشل فيهم وتشتتهم فى بلاد الغربة وطمع الشاميين وشماتتهم فيهم، واتفق رأيهم على الرحيل، وأخذوا رمة سيدهم صحبتهم لما تحقق عندهم أنهم إن دفنوه هناك فى بعض المواضع أخرجه أهل البلاد ونبشوه وأحرقوه، فغسلوه وكفنوه ولفوه فى المشمعات ووضعوه فى عربة وارتحلوا به طالبين الديار المصرية، فوصلوا فى ستة عشر يوما، ليلة الرابع والعشرين من شهر ربيع



مراد بك.

الثاني أواخر النهار، فأرادوا دفنه في القرافة، وحضر الشيخ الصعيدى فأشار بدفنه فى مدرسته تجاه الأزهر، فحفروا له قبرا فى الليوان الصغير الشرقى وبنوه ليلا، ولما أصبح النهار، عملوا مشهدا ، وخرجوا بجنازته من بيته الذى بقوصون، ومشى أمامه المشايخ والعلماء (٩٨٥) والأمراء وجميع الأحزاب والأوراد وأطفال المكاتب، وأمام نعشه مجامر العنبر والعود سترا على رائحته ونتنه، حتى وصلوا به إلى مدفنه، وعملوا عنده ختمات وقرايات وصدقات عدة ليال وأيام نحوا أربعين يوما، واستقر أتباعه أمرا مصر وريسهم ابراهيم* بك ومراد بك، وباقيهم الذين أمره فى حياته، ومات عنهم يوسف بك وأحمد بك الكلارجى ومصطفى بك الكبير وأيوب بك الكبير وذو الفقار بك ومحمد بك الطبال ورضوان بك ، والذين تأمروا بعده أيوب بك الدفتردار

* تولى ابراهيم بك ومراد بك أمور البلاد

وسليمان بك الأغا وإبراهيم بك الوالى وأيوب بك الصغير وسليم بك أبو دياب ولاجين بك، وسيأتى ذكر أخبارهم.

(ذكر من مات فى هذه السنة)

٣٨٦ على المنسفيسى.

(مات) الإمام الهمام، شيخ مشايخ الإسلام ، عالم العلما الأعلام، إمام المحققين وعمدة المدققين، الشيخ/ على بن أحمد بن مكرم الله الصعيدى العدوى المالكى، ولد ببنى عدى كما أخبر عن نفسه سنة اثنتى عشرة ومایة وألف، ويقال له أيضا المنسفيسي لأن أصوله منها، وقدم إلى مصر وحضر دروس المشايخ كالشيخ عبد الوهاب الملوى والشيخ شلبى البرلسى والشيخ سالم النفراوى والشيخ عبد الله المغربى والسيد محمد السلمونى ثلاثتهم عن الخرشى وأقرانه وكسيدى محمد الصغير والشيخ ابراهيم الفيومى، (٩٨٦) قال وبشرني بالعلم حين قبلت يده وأنا صغير ومحمد بن زكرى والشيخ محمد السجينى والشيخ ابراهيم شعيب المالكى والشيخ أحمد الملوى والشيخ أحمد الديربى والشيخ عيد النمرسى والشيخ مصطفى العزيزى والشيخ محمد العشماوى والشيخ محمد بن يوسف والشيخ أحمد الإسقاطى والبقرى والعماوى والسيد على السيواسى والمدابغى والدفرى والبليدى والحفنى وآخرين، وبآخرة تلقن الطريقة الأحمدية عن الشيخ على بن محمد الشناوى، ودرس بالأزهر وغيره وقد بارك الله فى أصحابه طبقة بعد طبقة كما هو مشاهد، وكان يحكى عن نفسه أنه طالما كان يبيت بالجوع فى مبدأ اشتغاله بالعلم، وكان لا يقدر على ثمن الورق، ومع ذلك إن وجد شيا تصدق به، وقد تكررت

له بشارات حسنة مناما ويقظة إذا حكى شيا من ذلك قال هكذا كان الامام مالك يخبر أصحابه بالرويا ويقول «الرويا* تسر ولا تضر» منها ما وقع لشيخنا العارف سيدى محمود الكردى قال «رأيت النبى صلى الله عليه وسل فى المنام يقول : على الصعيدى خليفتى فلما انتبهت، وخطر ببالى الشيخ قلت على الصعيدى غيره كثير، فنمت، فرأيته ثانيا يقول على الصعيدى هذا ويشير للشيخ» . ورأى بعض الصلحاء النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فى محراب الأزهر والطلبة تعرض عليه تقاييد الأشياخ ، فلما رأى ما قيد عن الشيخ ، صار يقول بذل وانكسار ياعلى ويكررها، ورأى الشيخ نفسه [النبى] فى المنام فقال (٩٨٧) له «أجزنى» قال «أجزتك» وأمثال ذلك كثير ورأى غير واحد من الصلحا النبى صلى الله عليه وسلم يأمره بالحضور عليه وآخر رأى مالكا والشافعى فى مجلس تدريسه، وشهد له بالمعرفة والصلاح أكثر من النصف من أهل عصره، وقال العلامة الشيخ محمد الأمير «ولقد سمعت شيخنا العفيفى رضى الله عنه فى مرض موته يقول «الشيخ ناج والذى يحضره ناج» أو كلاما هذا معناه. وله مؤلفات دالة على فضله، منها حاشية على ابن تركى وأخرى على الزرقانى على العزيه وأخرى على شرح أبى الحسن على الرسالة فى مجلدين ضخمين، وأخرى على الخرشى وأخرى على شرح الزرقانى على المختصر وأخرى على الهدهدى على الصغرى وحاشيتان على عبد السلام على الجوهرة كبرى وصغرى، وأخرى على الأخضرى على السلم، وأخرى على ابن عبد الحق على بسملة شيخ الإسلام وأخرى على شرح شيخ الإسلام على ألفية المصطلح للعراقى وغير ذلك، وكان قبل

*حول قصص رؤى النبى فى المنام.

ظهوره لم تكن المالكية تعرف الحواشي* على شروح كتبهم الفقية، فهو أول من خدم تلك الكتب بها، وله شرح على خطبة كتاب إمداد الفتاح على نور الإيضاح فى مذهب الحنفية للشيخ الشرنبلالى، وكان رحمه الله شديد الشكيمة فى الدين يصدع بالحق ويأمر بالمعروف وإقامة الشريعة ويحب الاجتهاد فى طلب العلم ويكره سفاسف الأمور وينهى عن شرب الدخان ويمنع من شربه بحضرته وبحضرة أهل العلم تعظيما لهم، وإذا دخل إلى منزل من منازل الامرا ورأى من يشرب الدخان شنع عليه وكسر آلته ولو كانت فى يد كبير الأمرا، (ص٩٨٨) وشاع عنه بذلك وعرف فى جميع الخاص والعام وتركوه بحضرته فكانوا عندما يرونه مقبلا من بعيد نبه بعضهم بعضا ورفعوا شبكاتهم وأقصابهم وأخفوها عنه، وإن رأى شيا منها أنكر عليهم ووبخهم وعنفهم وزجرهم، حتى أن على بك فى أيام إمارته كان إذا دخل عليه فى حاجة أو شفاعة أخبروه قبل وصوله إلى مجلسه فيرفع الشبك من يده ويخفوه من وجهه وذلك مع عتوه وتجبره وتكبره، واتفق أنه دخل عليه فى بعض الأوقات فتلقاه على عادته وقبل يده وجلس فسكت الأمير مفكرا فى أمر من الأمور فظن الشيخ إعراضه عنه فأخذته الحدة وقال مخاطبا له باللغة الصعيدية «يامين يامين يامن هو غضبك ورضاك على حد سواء بل غضبك خير من رضاك» وكرر ذلك وقام قايما وهو يأخذ بخاطره ويقول «أنا لم أغضب من شيء» ويستعطفه فلم يجبه ولم يجلس ثانيا وخرج ذاهبا، ثم سأل على بك عن القضية التى أتى بسببها فأخبروه فأمر بقضاها ،و استمر الشيخ منقطعا عن الدخول إليه مدة حتى ركب فى ليلة من ليالى رمضان مع الشيخ الوالد فى حاجة عند بعض الأمرا ومرا ببيت على بك

*كان الشيخ المنسفيسى اول من وضع الحواشى على كتب فقه المالكية.

فقال له «ادخل بنا نسلم عليه» فقال «ياشيخنا أنا لا أدخل» . فقال «لابد من دخولك معى فلم تسعه مخالفته وانسر بذلك على بك تلك الليلة سرورا كثيرا.

ولما مات على بك واستقل محمد بك أبو الدهب بإمارة مصر كان يجل من شأنه ويحبه ولايرد شفاعته فى شى أبدا وكل من تعسر عليه قضا حاجة ذهب إلى الشيخ (ص٩٨٩) وأنهى إليه قصته فيكتبها مع غيرها فى قايمة حتى تمتلى الورقة ثم يذهب إلى الأمير بعد يومين أو ثلاثة فعندما يستقر فى الجلوس يخرج القايمة من جيبه ويقص ما فيها من القصص والدعاوى واحدة بعد واحدة ويأمر بقضاء كل منها والأمير لا يخالفه ولا ينقبض خاطره فى شيء من ذلك، وفى أثناء ذلك يقول له لا تضجر ولا تأسف على شى يفوتك بغير حق فى الدنيا فإن الدنيا فانية وكلنا نموت ويوم القيامة يسألنا الرب عن تأخرنا عن نصحك وها نحن قد نصحناك وخرجنا من العهدة. وإذا تلكأ فى شى صرخ عليه وقال له «اتق النار وعذاب جهنم» ثم يمسك بيده ويقول له «أنا خايف على هذه اليد الكويسة من النار» وأمثال ذلك، ولما بنى الأمير المذكور مدرسته كان المترجم هو المتعين فى التدريس بها داخل القبة على الكرسى، وابتدأ بها البخارى وحضره كبار المدرسين فيها وغيرهم ولم يترك درسه بالأزهر ولا بالبرديكية وكان يقرأ قبل ذلك بمسجد الغريب عند باب البرقية فى وظيفة جعلها له الأمير عبد الرحمن كتخدا وكذلك وظيفة بعد الجمعة بجامع مرزه، ببولاق وكان على قدم السلف فى الاشتغال والقناعة وشرف النفس وعدم التصنع والتقوى ولا يركب إلا الحمار ويواسى أهله وأقاربه ويرسل إلى فقراهم ببلده الصلات والأكسية والبز والطرح للنساء والعصايب والمداسات وغير

ذلك، ولم يزل مواظبا على الإقراء والإفادة حتى تمرض بخراج فى ظهره أياما قليلة، وتوفى فى عاشر رجب من السنة (ص٩٩٠) وصلى عليه بالأزهر بمشهد عظيم ودفن بالبستان بالقرافة الكبرى رحمه الله، ولم يخلف بعده مثله ولم أعثر على شي من مراثيه.

٣٨٧ أحمد الزبيرى البراوى.

(ومات) الإمام العلامة الفقيه الصالح الشيخ/ أحمد بن عيسى بن أحمد بن عيسى بن محمد الزبيرى البراوى الشافعي، ولد بمصر وبها نشأ وحفظ القرآن والمتون وتفقه على والده وغيره، وحضر المعقول وتمهر وأنجب ودرس فى حياة والده، وبعد وفاته تصدر للتدريس فى محله وحضره طلبة أبيه واتسعت حلقة درسه مثل أبيه واشتهر ذكره وانتظم فى عداد العلماء وكان نعم الرجل شهامة وصرامة وفيه صداقة وحب للإخوان، توفى بطندتا ليلة الأربعا ثالث عشر ربيع الأول فجأة إذ كان ذهب للزيارة المعتادة وجيء به إلى مصر فغسل فى بيته وكفن وصلى عليه بالجامع الأزهر ودفن بتربة والده بالمجاورين.

٣٨٨ أحمد البقرى المقرى.

(ومات) الإمام الفاضل المسن الشيخ/ أحمد بن رجب بن محمد البقرى الشافعي المقرى، حضر دروس كل من الشيخ المدابغي والحفنى ولازم الأول كثيرا فسمع منه البخارى بطريفيه، والسيرة الشامية كلها وكتب بخطه الكثير من الكتب الكبار وكان سريع الفهم وافر العلم كثير التلاوة للقرآن مواظبا على قيام الليل سفرا وحضرا ويحفظ أورادا كثيرة وأحزابا ويجيز بها وكان يحفظ غالب السيرة ويسردها من حفظه ونعم الرجل كان متانة ومهابة. توفى وهو متوجه إلى الحج فى منزلة النخل آخر يوم من شوال من السنة

ودفن هناك(ص٩٩١).

(ومات) عالم المدينة وريسها الشيخ/ محمد بن عبد الكريم السمان، ولد بالمدينة ونشأ فى حجر والده واشتغل يسيرا بالعلم وأرسله والده إلى مصر فى سنة أربع وسبعين ومابة وألف لمقتضى فتلقته تلامذه أبيه بالإكرام وعقد حلقة الذكر بالمشهد الحسينى وأقبلت عليه الناس، ثم توجه إلى المدينة ، ولما توفى والده أقم شيخا فى محله، ولم يزل على طريقته حتى مات فى رابع الحجة من السنة عن ثمانين سنة. ٣٨٩ محمد السمان.

(ومات) العلامة المعمر الصالح الشيخ/ أحمد الخليلى الشامى أحد المدرسين بالأزهر تلقى عن أشياخ عصره ودرس وأفاد وكان به انتفاع للطلبة تام عام وألف إعراب الآجرومية وغيره وتوفى فى عاشر صفر من السنة. ٣٩٠ أحمد الشامى.

(ومات) الأمير الكبير/ محمد بك أبو الدهب تابع على بك الشهير، اشتراه استاذه فى سنة خمس وسبعين فأقام مع أولاد الخزنة أياما قليلة وكان إذ ذاك إسماعيل بك خازندار فلما أمر إسماعيل بك قلده الخازندارية مكانه وطلع مع مخدومه إلى الحج ورجع أوايل سنة ثمان وسبعين وتأمر فى تلك السنة وتقلد الصنجقية وعرف بأبى الدهب، وسبب تلقبه بذلك أنه لما لبس الخلعة بالقلعة صار يفرق البقاشيش ذهبا وفى حال ركوبه ومروره جعل ينشر الذهب على الفقرا والجعيدية حتى دخل إلى منزله فعرف بذلك، لأنه لم يتقدم نظيره لغيره ممن تقلد الإمريات، واشتهر عنه هذا اللقب وشاع وسمع عن نفسه (ص٩٩٢) شهرته بذلك فكان لا يضع فى جيبه إلا الدهب ولايعطى إلا الدهب، ويقول «أنا ٣٩١ الامير محمد بيك أبو الدهب. ١٧٧٥

أبو الذهب فلا أمسك إلا الذهب» وعظم شأنه فى زمن قليل ونوه مخدومه بذكره وعينه فى المهمات الكبيرة والوقايع الشهيرة وكان سعيد الحركات مؤيد العزمات لم يعهد عليه الخذلان فى مصاف قط، وقد تقدمت أخباره ووقايعه فى أيام أستاذه على بك وبعده واستكثر من شرا المماليك والعبيد حتى اجتمع عنده فى الزمن القليل مالا يتفق لغيره فى الزمن الكثير وتقلدوا المناصب والإمريات، فلما تمهدت البلاد بسعده المقرون ببأس أستاذه ثم خالف عليه وضم المشردين وغمرهم بالإحسان واستمال بواقى أركان الدولة واستلين الجميع جانبه وجنحوا إليه وأحبوه وأعانوه وتعصبوا له وقاتلوا بين يديه حتى أزاحوا على بك وخرج هاربا من مصر إلى الشام، واستقر المترجم بمصر وساس الأمور وقلد المناصب وجبى الأموال والغلال وراسل الدولة العثمانية واظهر لهم الطاعة وقلد مملوكه ابراهيم بك امارة الحج تلك السنة، وصرف العلايف وعوايد العربان وأرسل الغلال للحرمين والصرر وتحرك على بك للرجوع إلى مصر ، وجيش الجيوش فلم يهتم المترجم لذلك وكادله كيدا بأن جمع القرانصه والذين يظن فيهم النفاق وأسر إليهم أن يراسلوا على بيك ويستعجلوه فى الحضور وينمقوا مساوى للمترجم ومنفرات ويعدوه بالمخامرة معه (ص٩٩٣) والقيام بنصرته متى حضر وأرسلوها إليه بالشريطة السرية* فراج عليه ذلك واعتقد صحته وأرسل إليهم بالجوابات وأعادوا له الرسالة كذلك باطلاع مخدومهم وإشارته فعند ذلك قوى عزم على بك على الحضور وأقبل بجنوده إلى جهة الديار المصرية، فخرج إليه المترجم ولاقاه بالصالحية وأحضره أسيرا كما تقدم، ومات بعد أيام قليلة وانقضى أمره وارتاح المترجم من قبله وجمع باقى الأمراء المطرودين

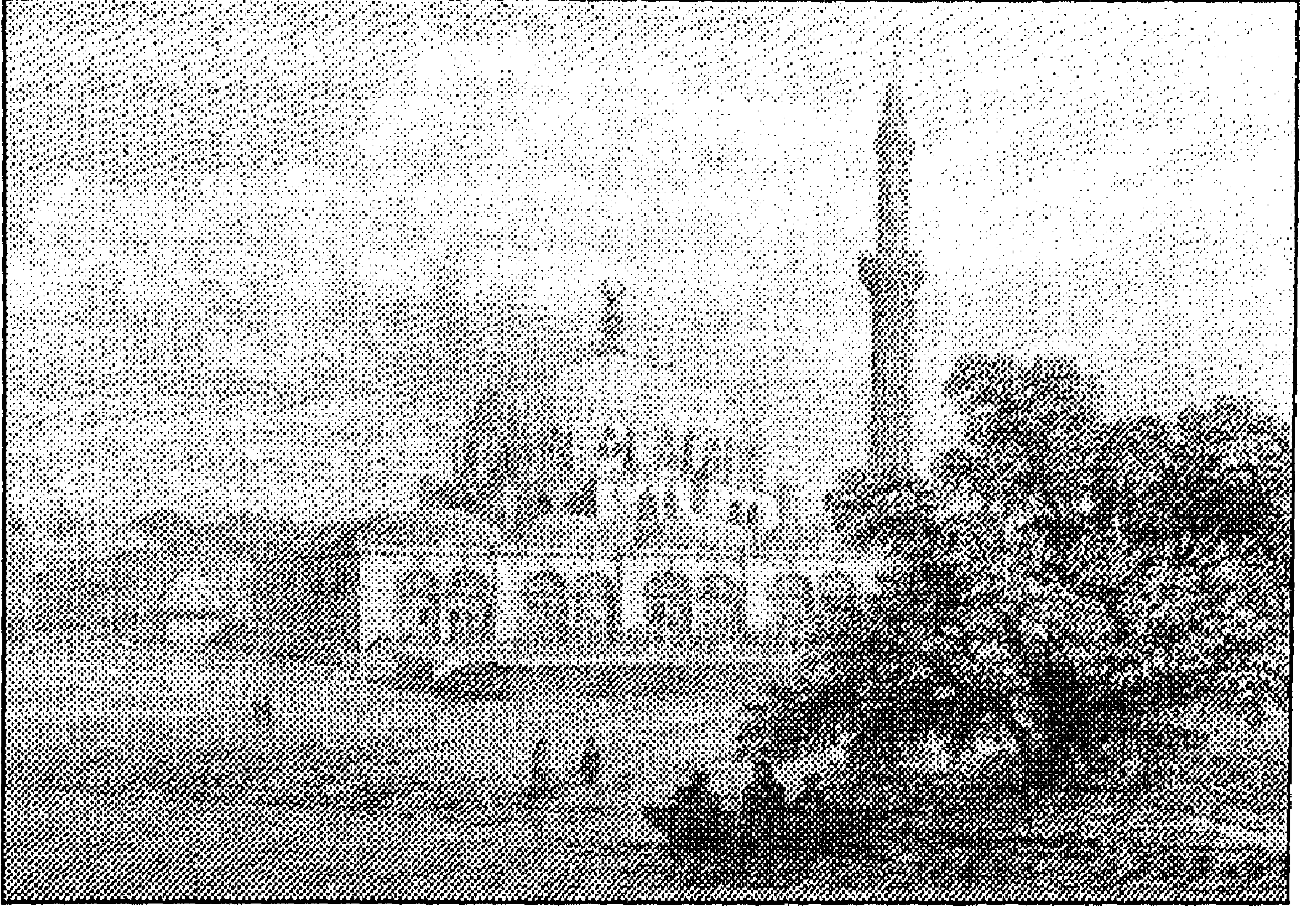
* الشريطة السرية: هي ما يسمى اليوم بالشفرة.

والمشردين وأكرمهم واستخدمهم وواساهم واستوزرهم وقلدهم المناصب ورد إليهم بلادهم وعوايدهم واستعبدهم بالإحسان والعطايا واستبدلهم العز بعد الذل والهوان، وراحة الأوطان بعد الغربة والتشريد والهجاج فى البلدان، فثبتت دولته وارتاحت النواحى من الشرور والتجاريد وهابته العربان وقطاع الطريق وأولاد الحرام، وأمنت السبل وسلكت الطرق بالقوافل والبضايع ووصلت المجلوبات من الجهات القبلية والبحرية بالتجارات والمبيعات، وحضر إلى مصر خليل باشا وطلع إلى القلعة على العادة القديمة، وحضر للمترجم من الدولة المرسومات والخطابات، ووصل إليه سيف وخلعة فلبس ذلك فى الديوان ونزل فى أبهة عظيمة شأنه وانفرد بإمارة مصر واستقام أمره وأهمل أمر أتباع أستاذه على بك وأقام أكثرهم بمصر بطالا، وحضر إلى مصر مصطفى باشا النابلسى من أولاد العظم والتجأ إليه فأكرم نزله، ورتب له الرواتب وكاتب الدولة وصالح عليه وطلب له ولاية (ص٩٩٤) مصر فأجيب إلى ذلك ووصلت إليه التقاليد والداقم فى ربيع الثانى سنة ثمان وثمانين ووجه خليل باشا إلى الولاية جدة وسافر من القلزم فى جمادى الثانية وتوفى هناك ، وفى أواخر سنة سبعة وثمانين شرع فى بناء مدرسته التى تجاه الجامع الأزهر وكان محلها ر باع متخربة فاشتراها من أربابها وهدمها وأمر ببناها على هذه الصفة وهى على أرنيك* جامع السنانية الكاين بشط النيل ببولاق فرتب لنقل الأتربة وحمل الجير والرماد والطين عدد كبير من قطارات البغال وكذلك الجمال لشيل الأحجار العظيمة كل حجر واحد على جمل وطحنوا لها الجبس الحلوانى المصيص ورموا أساسها فى أوايل شهر الحجة ختام السنة المذكورة، ولما تم عقد قبتها العظيمة وما حولها من القباب المعقودة

* ارنيك : نظام أو خطه للبناء.

على اللواوين وبيضوها ونقشوا داخل القبة بالألوان والأصباغ وعمل لها شبابيك عظيمة كلها من النحاس الأصفر المصنوع وعمل بظاهرها فسحة مفروشة بالرخام المرمر وبوسطها حنفية وحولها مساكن لمتصوفة الأتراك وبداخلها عدة كراسى راحة وكذلك بدورها العلوى وبأسفل من ذلك ميضا عظية تمتلى بالماء من نوفرة بوسطها تصب فى صحن كبير من الرخام المصنوع نقلوه إليها من بعض الأماكن القديمة ويفيض منه فيملا الميضا ،و حول الميضاة عدة كراسى راحة وأنشأ ساقية لذلك فحفروها (٩٩٥) وخرج ماؤها فى غاية الملوحة ، وأنشأ أسفل ذلك صهريجا عظيما يملا فى كل سنة من ماء النيل وحوضا عظيما لسقى الدواب وعمل بأعلى الميضاة ثلاثة أماكن برسم جلوس المفتين الثلاثة [هم الحنفى والشافعى والمالكى] يجلسون بها حصة من النهار لإفادة الناس بعد إملاء الدروس، وقرر فيها الشيخ أحمد الدردير مفتى المالكية والشيخ عبد الرحمن العريشى مفتى الحنفية والشيخ حسن الكفراوى مفتى الشافعية، ولما تم البناء فرشت جميعها بالحصر ومن فوقها الأبسطة الرومى من داخل وخارج حتى فرجات الشبابيك ومساكن الطباق، ولما استقر جلوس المفتين المذكورين بالثلاثة أماكن التى أعدت لهم أضرت بهم الرائحة الصاعدة إليهم من المراحيض التى من أسفل واعلموا الأمير بذلك فأمر بإبطالها وبنوا خلافها بعيدا عنها وتقرر فى خطابتها الشيخ أحمد الراشدى وغالب المدرسين بالأزهر مثل الشيخ على الصعيدى مدرس البخارى والشيخ أحمد الدردير والشيخ محمد الأمير والشيخ عبد الرحمن العريشى والشيخ حسن الكفراوى والشيخ أحمد يونس

والشيخ أحمد السمنودى وللشيخ على الشنويهى والشيخ عبد الله اللبان والشيخ محمد الحفناوى والشيخ محمد الطحلاوى والشيخ حسن الجداوى والشيخ أبى الحسن القلعى والشيخ البيلى والشيخ محمد الحريرى والشيخ منصور المنصورى (ص٩٩٦) والشيخ أحمد جاد الله والشيخ محمد المصيلحى ودرسا ليحيى أفندى شيخ الأتراك وتقرر السيد عباس إماما راتبا بها وفى وظيفة التوقيت الشيخ محمد الصبان، وجعل بها خزانة كتب عظيمة وجعل خازنها محمد أفندى حافظ وينوب عنه الشيخ محمد الشافعى الجناجى ورتب للمدرسين الكبار فى كل يومماية وخمسين نصفا فضة ومن دونهم خمسون نصفا وكذلك للطلبة منهم من له عشرة أنصاف فى كل يوم ومنهم من له أكثر وأقل وبقدر عدد الدراهم أرادب من البر فى كل سنة، ولما انتهى أمرها وصلى بها الجمعة فى شهر شعبان سنة ثمان وثمانين فحضر الأمير المذكور واجتمع المشايخ والطلبة وأرباب الوظايف وصلوا بها الجمعة، وبعد انقضاء الصلاة جلس الشيخ الصعيدى على الكرسى وأملى حديث (من بنى الله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا فى الجنة) فلما انقضى ذلك أحضرت الخلع والفراوى فألبس الشيخ الصعيدى والشيخ الراشدى الخطيب والمفتين الثلاثة فراوى سمور وباقى المدرسين فراوى نافا بيضا وأنعم فى ذلك اليوم على الخدمة والمؤذنين وفرق عليهم الذهب والبقاشيش وتنافس الفقها والأشياخ والطلبة تحاسدوا وتفاتنوا. ووقف على ذلك أمانة قويسنا وغيرها والحوانيت التى أسفل المدرسة ولم يصرف إلا سنة واحدة فإن المترجم



▲ جامع السنانية فى بولاق، كان وقتها قرب شاطئ النيل.

سافر فى أوايل سنة تسع وثمانين إلى (ص٩٩٧) البلاد الشامية كما تقدم، ومات هناك ورجعوا برمته وتأمر أتباعه وتقاسموا البلاد فيما بينهم ومن جملتها أمانة قويسنا الموقوفة فبرد أمر المدرسة وعوضوا عن ذلك الوكالة التى أنشأها على بك ببولاق لمصرف أجر الخدمة وعليق الأنوار بعد ما أضعفوا المعاليم ونقصوها ، وزعوا عليهم ذلك الإيراد القليل، ولم يزل الحال يتناقص ويضعف حتى بطل منها غالب الوظايف والخدم إلى أن بطل التوقيت والأذان بل والصلاة فى أكثر الأوقات وأخلق فرشها وبسطها وعتقت وبليت وسرق بعضها وأغلق أحد أبوابها المواجه للقبوة الموصل للمشهد الحسينى بل أغلقت جميعا شهورا مع كون الأمراء أصحاب الحل والعقد أتباع الواقف ومماليكه. لكن

لما فقدت منهم القابلية واستولى عليهم الطمع والتفاخر والتنافس والتغاضى خوف الفشل وتفرق الكلمة مع الانحراف عن الأوضاع ظهر الخلل فى كل شى حتى فى الأمور الموجبة لنظام دولتهم وإقامة ناموسهم كما يتضح ذلك فيما بعد، وبالجملة فإن المترجم كان آخر من أدركنا من الأمراء المصرين شهامة وصرامة وسعدا وحزما وحكما وسماحة وحلما، وكان قريبا للخير يجب العلما والصلحا ويميل بطبعه ويعتقد فيهم ويعظمهم وينصت لكلامهم ويعطيهم العطايا الجزيلة ويكره المخالفين للدين، ولم يشتهر عنه شى من الموبقات والمحرمات ولا ما يشينه فى دينه أو يخل بمروته، بهى الطلعة جميل الصورة أبيض اللون معتدل القامة والبدن مسترسل (ص٩٩٨) اللحية مهاب الشكل وقورا محتشما قليل الكلام والإلتفات ليس بمهدار ولا خوار ولا عجول، مبجلا فى ركوبه وجلوسه ، يباشر الأحكام بنفسه، ولولا ما فعله آخر [أيامه] من الإسراف فى قتل أهل يافا بإشارة وزراه لكانت حسناته أكثر من سيئاته ، ولم يتفق لأمير مثله فى كثرة المماليك وظهور شأنهم فى المدة اليسيرة وعظم أمرهم بعده وانحرفت طباعهم عن قبول العدالة ومالوا إلى طرق الجهالة، واشتروا المماليك فنشوا على طرايقهم وزادوا عن سوابقهم وألفوا المظالم وظنوها مغانم، وتمادوا على الجور وتلاحقوا فى البغى على الفور، إلى أن حصل ما حصل، ونزل ، وسيتلى عليك من ذلك أنباء وأخبار، وما حل بالإقليم بسببهم من الخراب والدمار والله تعالى أعلم.

سنة تسعين ومائة وألف
[١٧٧٦م]

(ص٩٩٩)

كان سلطان العصر فيها السلطان عبد الحميد بن أحمد خان العثمانى ووالى مصر الوزير محمد باشا عزت الكبير وأمراؤها ابراهيم بك ومراد بك مملوكا محمد بك أبى الدهب وخشداشينها أيوب بك الصغير ومحمد بك طبل وحسن بك سوق السلاح وذو الفقار بك ولاجين بك ومصطفى بك الصغير بك وعثمان بك الشرقاوى وخليل بك الابراهيمى، ومن البيوت القديمة حسن بك قصبة رضوان ، ورضوان بك بليفيا وإبراهيم بك طنان وعبد الرحمن بك عثمان الجرجاوى وسليمان بك الشابورى، وبقايا اختيارية (ص١٠٠٠) الوجاقات مثل أحمد باشجاويش أرنؤد وأحمد جاويش المجنون واسماعيل أفندى الخلوتى وسليمان البرديسى وحسن أفندى درب الشمسى وعبدا لرحمن أغا محرم ومحمد أغا محرم وأغا وأحمد كتخدا المعروف بوزير وأحمد كتخدا الفلاح، وباقى جماعة الفلاح وإبراهيم كتخدا منا وغيرهم والأمر والنهى للأمراء المحمدية المتقدم ذكرهم وكبيرهم وشيخ البلد إبراهيم بك ولا ينفذ أمر بدون اطلاع قسيمه مراد بك واسماعيل بك الكبير متنزه ومنعكف فى بيته وقانع بإيراده وبلاده ومنزو عن التداخل فيهم من موت سيدهم وعمر داره التى بالأزبكية وأقام بها.

(وفيها فى يوم الخميس سابع شهر صفر) وصل الحج إلى مصر ودخل الركب وأمير الحاج يوسف بك.

١١٥ ابراهيم باشا كيرلى [لم يذكره الجبرتى]

١١٦ محمد باشا عزت

١١٩٠ هـ.
١٤٩٢ ق.
١٧٧٦م.
غاية الفيضان ٦ قيراط/ ٢٠ ذراع

□ فى هذه السنة تولى مصر محمد باشا عزت من قبل الدولة العلية، ورئيس الأمراد اسماعيل بك الذى كان متنزها ومنعكفا عن الأشغال التى كانت تقضى بواسطة الأمراد المحمدية وكبيرهم ابراهيم بك.

□ وفيها توفى الأمير عبد الرحمن كتخدا صاحب العمارات المشهورة بمصر، بعد أن قام اثنتى عشرة سنة بالحجاز منفيا بأمر على بك.

□ وفى ٢١ [جماد أول]نادت الأمريكان باستقلالهم.

□ وفى هذه السنة الأفرنكية استيلاء الجنرال واشنطون على بوستن.

١ توت ١٤٩٣ = ٩ سبتمبر ١٧٧٦= الاثنين ٢٥ رجب سنة ١١٩٠.

□ فيها اكتشف الطبيب هنرى خير الانكليزى تطعيم وتلقيح الجدرى، وكوفىء على ذلك بمبلغ ٣٠ الف جنيه.

□ فيها اخترع روشون الميكرومتر ذو البلور الصخرى.

□ ١ يناير ١٧٧٧ - ٢٥ كيهك ١٤٩٣ = الاربع ٢١ ذو القعدة سنة ١١٩٠.

(وفى ليلة الجمعة تاسع صفر) وقع حريق بالأزبكية وذلك فى نصف الليل بخطة الساكت احترق فيها عدة بيوت عظام وكان شيئا مهولا ثم إنها عمرت فى أقرب وقت والذى لم يقدر على العمارة با ع أرضه فاشتراها القادر وعمرها، فعمر رضوان بك بلفيا دار عظيمة وكذلك الخواجا السيد عمر غراب والسيد أحمد عبد السلام والحاج محمود محرم بحيث إنه لم يأتى النيل القابل إلا وهى أحسن وأبهج مما كانت عليه.

(وفيها) سقط ربع «بسوق الغورية ومات فيه عدة كثيرة من الناس تحت الردم، ثم إن عبد الرحمن أغا (ص١٠٠١) مستحفظان أخذ تلك الأماكن من أربابها شراء وأنشأ الحوانيت والربع علوها والوكالة المعروفة الآن بوكالة الزيت والبوابةالتى يسلك منها من السوق.

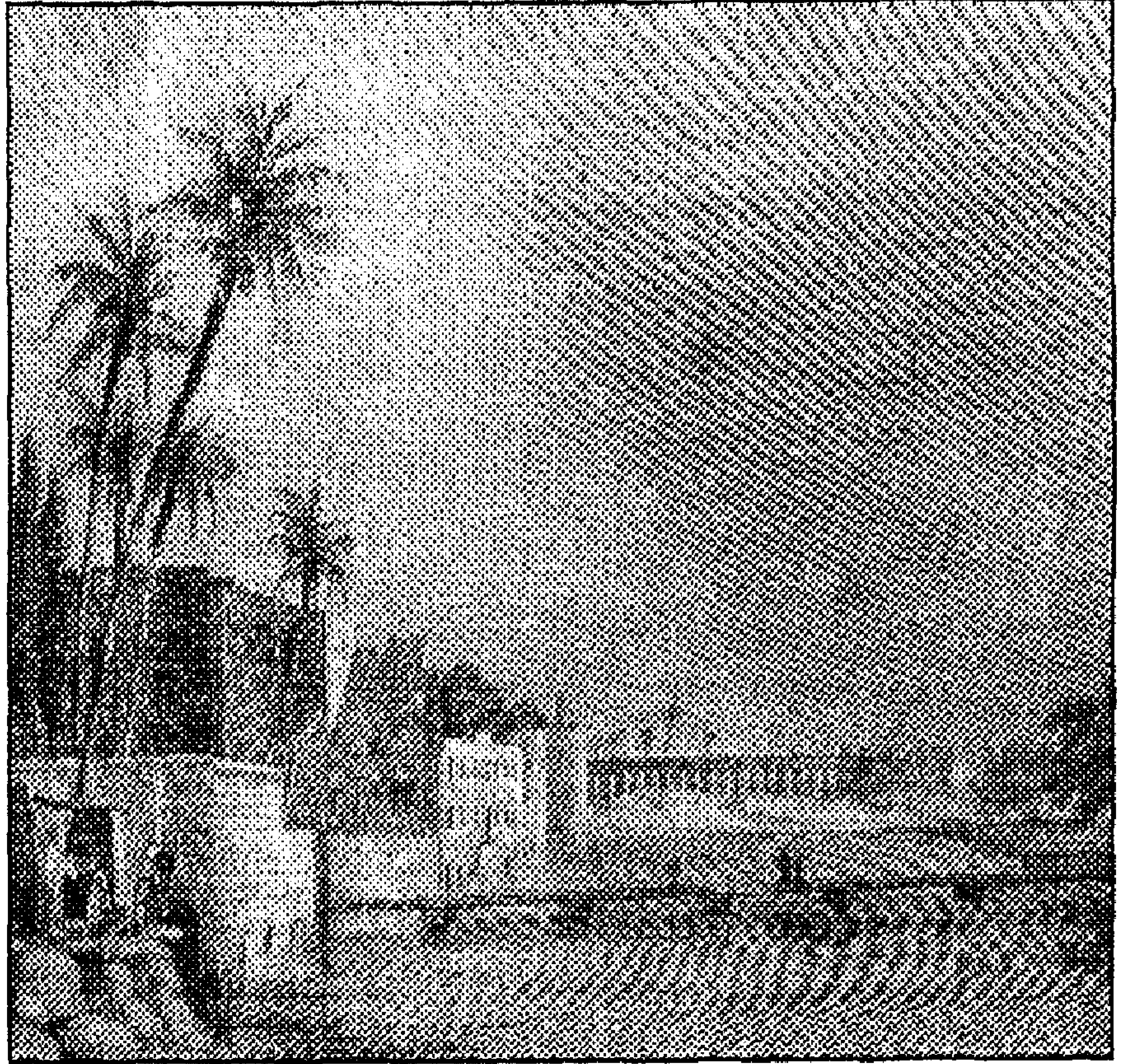
* حضور جماعة من الهنود ومعهم فيل صغير.

(وفيها) حضر جماعة * من الهنود ومعهم فيل صغير ذهبوا به إلى قصر العينى وأدخلو بالاسطبل الكبير وهرع الناس للفرجة عليه ووقف الخدم على أبواب القصر يأخذون من المتفرجين دراهم وكذلك سواسه الهنود جمعوا بسببه دراهم كثيرة وصار الناس يأتون إليه بالكعك وقصب السكر ويتفرجون على مصه فى القصب وتناوله بخرطومه وكان الهنود يخاطبونه بلسانهم ويفهم كلامهم وإذا أحضروه بين يدى كبير كلموه فيبرك على يديه ويشير بالسلام بخرطومه.

* وقوع الخلاف بين مراد بك وابراهيم بك طنان.

(وفيها في شهر رمضان) تعصب مراد بك * وتغير خاطره





▲ النيل عند جزيرة الروضة (الفرع الشرقي). ويشاهد في الخلفية مجرى العيون وفي مقدمة الصورة يظهر الجسر الذى يعبر النيل للجزيرة.

على ابراهيم بك طنان ونفاه إلى المحلة الكبيرة وفرق بلاده على من أحب ولم يبق له إلا القليل.

((وفيها) شرع الامير اسماعيل بك فى عمل مهم لزواج ابنته وهي من زوجته هانم بنت سيدهم ابراهيم كتخدا الذى كان تزوجها فى سنة أربع وسبعين بالمهم المذكور فى حوادث تلك السنة وكان ذلك المهم فى أوايل شهر ذى الحجة وكان قبل هذا المهم حصل بينه وبين مراد بك منازعة ومخاصمة وسببها أن مراد بك أراد أن يأخذ من اسماعيل بك السرو* ورأس الخليج فوقع بينهما مشاححة ومخاصمة كاد يتولد منها فتنة ، فسعى فى الصلح بينهما ابراهيم بك فاصطلحا على غل، وشرع فى إثر ذلك اسماعيل بك فى عمل (ص١٠٠٢) الفرح فاجتمعوا يوم العقد فى وليمة عظيمة

* السرو: بلدة تابعة لمركز فارسكور / محافظة دمياط.

ووقف مراد بك وفرق المحارم والمناديل على الحاضرين وهو يطوف بنفسه على أقدامه، وعمل المهم كثيرة ونزل محمد باشا عزت باستدعا إلى بيت اسماعيل بك، وعندما وصل إلى حارة قوصون نزل الأمراء بأسرهم مشاة على أقدامهم لملاقاته، فمشوا جميعا أمامه على أقدامهم وبأيديهم المباخر والقماقم ، ولم يزالوا كذلك حتى طلع إلى المجلس ووقفوا فى خدمته مثل المماليك حتى انقضت أيام الولايم زفوا العروس إلى زوجها ابراهيم أغا، الذى صنجقه اسماعيل بك وهو خازنداره ومملوكه يسمونه قشطة، وكانت هذه الزفة من المواكب الجليلة ومشى فيها الفيل وعليه خلعة جوخ أحمر فكان ذلك من النوادر.

(ذكر من مات فى هذه السنة)

٣٩٢ أحمد السجاعى

[ومات] فى هذه السنة الفقيه المتفنن العلامة الشيخ/ أحمد بن محمد بن محمد السجاعى الشافعى الأزهرى ولد بالسجاعية قرب المحلة، وقدم الأزهر صغيرا فحضر دروس الشيخ العزيزى والشيخ محمد السجينى والشيخ عبده الديوى والسيد على الضرير فتمهر ودرس وأفتى وألف وكان ملازما على زيارة قبور الأوليا ويحيى الليالى بقراءة القرآن مع صلاح وديانة وولاية وجذب وله مع الله حال غريب وهو والد الشيخ الأوحد أحمد (١٠٠٣) الآتى ذكره فى تاريخ موته، توفى المترجم رحمه الله تعالى فى عصر يوم الأربعاء ثامن عشرى ذى القعدة.

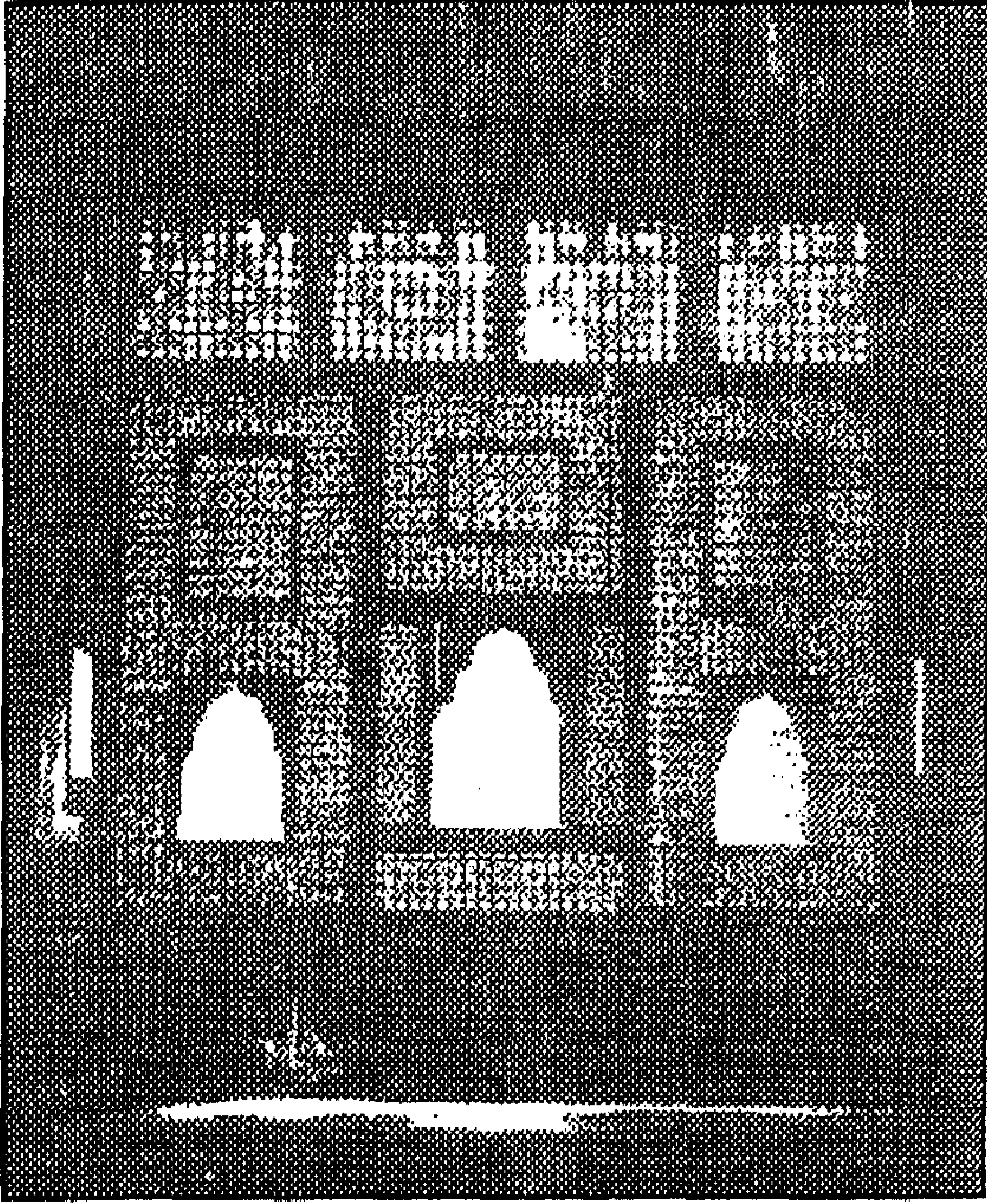
٣٩٣ عطية الأجهورى

[ومات] الشيخ الإمام الفقيه العلامة الشيخ/ عطية بن

عطية الأجهورى الشافعي البرهاني الضرير، ولد بأجهور الورد إحدى قرى مصر وقدم مصر فحضر دروس الشيخ العشماوى والشيخ مصطفى العزيزى وتفقه عليهما وعلى غيرهما و أتقن فى الأصول وسع الحديث ومهر فى الآلات وأنجب ودرس المنهج والتحرير مرارا وكذا جمع الجوامع بمسجد الشيخ مطهر وله فى أسباب النزول مؤلف حسن فى بابه جامع جام لما تشتت من أبوابه وحاشية على الجلالين مفيدة وكذلك حاشية على شرح الزرقانى على البيقونية فى مصطلح الحديث وغير ذلك ، وقد حضر عليه غالب علما مصر الموجودين واعترفوا بفضله وأنجبوا ببركته وكان يتأتى فى تقريره ويكرر الإلقا مرارا مراعاة للمستعملين الذين يكتبون ما يقوله ، ولما بنى المرحوم عبد الرحمن كتخدا هذا الجامع المعروف الآن بالشيخ مطهر الذى كان أصله مدرسة للحنفية وكانت تعرف بالسيوفيين بنى للمترجم بيتا بدهليزها وسكن فيه بعياله وأولاده توفى فى أواخر رمضان.

٣٩٤ أحمد العجمى [ومات] الشيخ الفاضل النجيب/ أحمد بن محمد بن العجمى الشافعى كان شابا فهيما دراكا (ص١٠٠٤) ذا حفظ جيد، حضر على علما العصر وحصل المعقول والمنقول وأدرك جانبا من العلوم والمعارف ودرس وأملى ولو عاش لانتظم فى سلك أعاظم العلما ولكن اخترمته المنية فى يوم الاثنين حادى عشر جمادى الآخرة.

٣٩٥ أحمد المقدسى الشيخ الصالح الورع الناسك / أحمد بن نور الدين المقدسى الحنفى إمام جامع قجماس وخطيبه بالدرب الأحمر



وهو أخو الشيخ حسن المقدسى مفتى السادة الحنفية شارك أخاه الشيخ حسنا المذكور فى شيوخه واشتغل بالعلم، وكان شيخا وقورا بهى الشكل مقبلا على شأنه منجمعا عن الناس، توفى ليلة الاثنين سادس عشر ربيع الأول.

٣٩٦ ابراهيم الصيحانى

[ومات] الفقيه الفاضل الشيخ/ ابراهيم بن خليل الصيحانى الغزى الحنفى، ولد بغزة وبها نشأ وقرأ بعض المتون على فضلا بلده وورد الجامع الأزهر فحضر الدروس، ولازم المرحوم الوالدحسنا الجبرتى وتلقى عنه الفقه وبعض العلوم الغريبة، ثم عاد إلى غزة وتولى الافتا بالمذهب، وكان يرسل إلى الوالد فى كل سنة جانبا من اللوز المر فى غلق مقدار عشرين رطلا ، فنخرج دهنه ونرفعه فى الزجاج لنفع الناس

في الدهن ومعالجات بعض الأمراض والجروحات ، ولم يزل علي ذلك حتى ارتحل إلي دمشق، وتولى أمانة الفتوى بعده الشيخ عبدالشافي، فسار أحسن سير وتوفي بها في هذه السنة (ص١٠٠٥) في عشر التسعين رحمه الله.

٣٩٧ علي الشنويهي.

[ومات] الفقيه الفاضل الصالح الشيخ/ علي بن محمد بن نصر بن هيكل بن جامع الشنويهي ، تفقه على جماعة من فضلاء العصر وكان يحضر درس الحديث في كل جمعة على السيد البليدي، ودرس بالأزهر وانتفع به الطلبة وكان مشهورا بمعرفة الفروع الفقهية، وكان درسه حافلا جدا وله حظ في كثرة الطلبة وكان الأشياخ يتضايقون من حلقة درسه فيطردونه من المقصورة فيخرج إلى الصحن، فتملأ حلقة درسه صحن الجامع وفي بعض الأحيان ينتقل إلى مدرسة السنانية بجماعته، وكان يخطب بجامع الأشرفية بالوراقين، وخطبته لطيفة مختصرة، وقرأ المنهج مرارا ، وكان شديد الشكيمة على نهج السلف الأول لا يعرف التصنع، وكان يخبر عن نفسه أنه كان كثير الرؤيا للنبي صلى الله عليه وسلم، وأنه لما تنزل مدرسا في المحمدية من جملة الجماعة انقطع عنه ذلك، وكان يبكي ويتأسف لذلك. توفي في ثامن عشر شعبان وأملى نسبه على الدكة إلى سيدنا علي رضي الله عنه.

٣٩٨ عثمان بك الفقاري.

[ومات] الأمير الكبير الشهير / عثمان بك الفقاري باسلامبول في هذه السنة وكان مدة غربته ببرصا * واسلامبول نيفا وأربعا وثلاثين سنة، وقد تقدم ذكره وذكر مبدأأمره وظهوره وسبب خروجه من مصر ما يغني عن

* برصا: قرب بحر مرمره.

إعادة بعضه وهو أمر مشهور، وإلى الآن بين الناس مذكور، حتى أنهم جعلوا سنة خروجه تاريخا يؤرخون به وفياتهم ومواليدهم ، فيقولون ولد فلان سنة خروج عثمان بك، ومات فلان بعد خروج عثمان بك بسنة أو شهر مثلا.

٣٩٩ الامير عبد الرحمن كتخدا

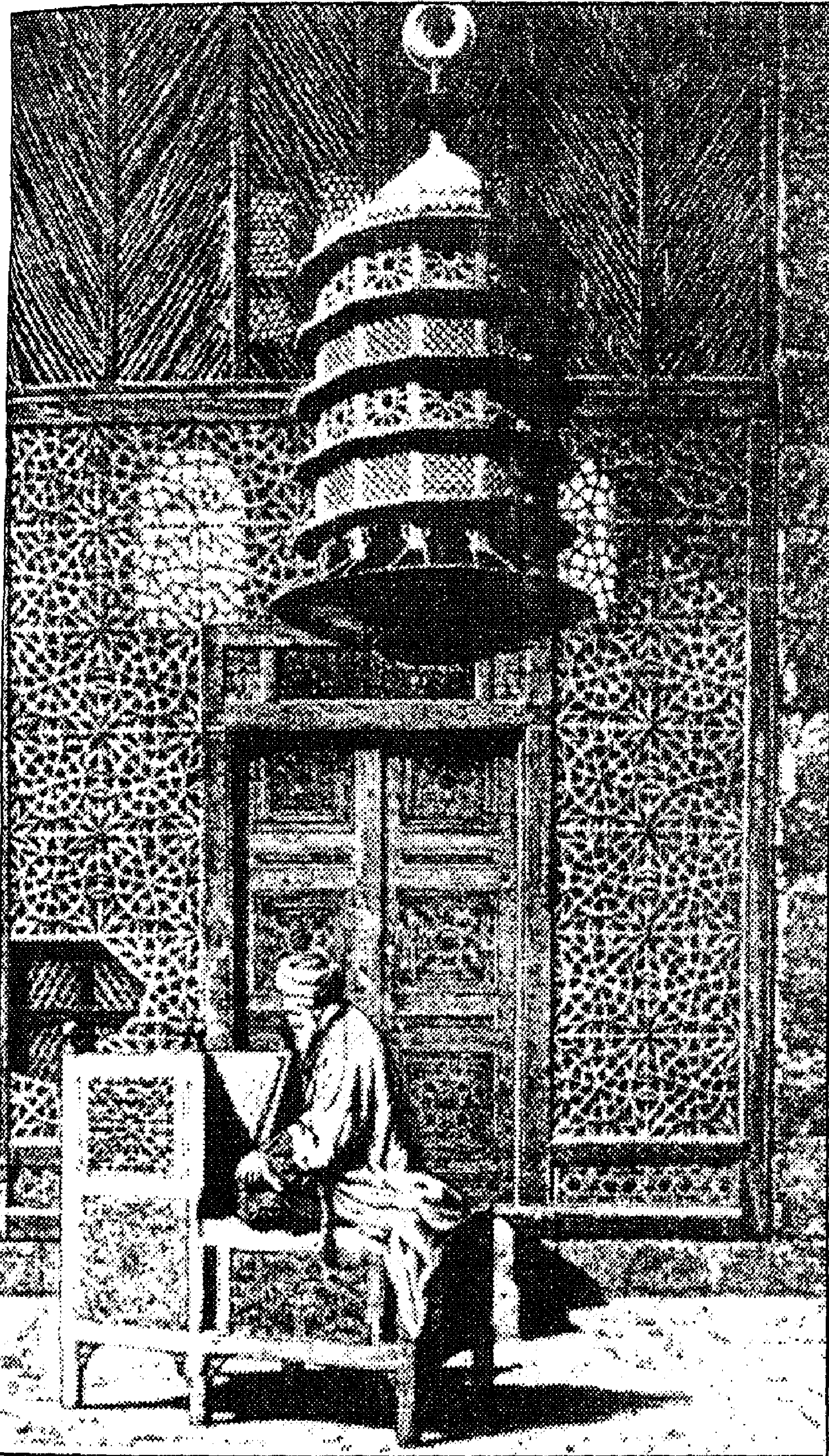
[ومات] الأمير عبد الرحمن كتخدا وهو ابن حسن جاويش القازدغلى أستاذ سليمان جاويش أستاذ ابراهيم كتخدا مولى جميع الأمرا المصريين الموجودن الآن. وخبره ومبدأ إقبال الدنيا عليه أنه لما مات عثمان كتخدا القازدغلى واستولى سليمان جاويش الجوخدار على موجوده ولم يعط المترجم الذى هو ابن سيد أستاذه شيا، ولم يجد من ينصفه في إيصال حق من طايفة باب الينكجرية حسدا منهم وميلا لأهوايهم وأغراضهم ، فحنق منهم وخرج من بابهم وانتقل إلى وجاق العزب، وحلف أنه لا يرجع إلى وجاق الينكجرية مادام سليمان جاويش الجوخدار حيا، وبر في قسمه، فإنه لما مات سليمان جاويش ببركة الحاج سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف كما تقدم بادر سليمان كتخدا الجاويشية زوج أم عبد الرحمن كتخدا وأستأذن عثمان بك فى تقليد عبد الرحمن جاويش، لأنه وراثه ومولاه، وأحضروه ليلا وقلدوه ذلك، وأحضر الكاتب والدفاتر وتسلم مفاتيح الخشخانات* والتركة بأجمعها ، وكان شيئا يجل عن الوصف، وكذلك تقاسيط البلاد، (ص١٠٠٧) ولم تطمح نفس عثمان بك لشي من ذلك، وأخذ المترجم غرضه من باب العزب ورجع إلى باب الينكجرية، ونما أمره من حينئذ وحج صحبة عثمان بك فى سنة خمس وخمسين، وأقام هناك إلى سنة إحدى وستين فحضر مع الحجاج وتولى كتخدا الوقت

* الخشخانات : مفردها خشخانة: وهى السلاح

ستين ، و شرع فى بناء المساجد وعمل الخيرات وإبطال المنكرات ، وأبطل خمامير حارة اليهود، فأول عماراته* بعد رجوعه : السبيل والكتاب الذى يعلوه بين القصرين وجاء فى غاية الظرف وأحسن المبانى ، وأنشأ جامع المغاربة وعمل عند بابه سبيلا وكتابا وميضأة تفتح بطول النهار ، وأنشأ تجاه باب الفتوح مسجدا ظريفا بمنارة وصهريج وكتاب ومدفن السيدة السطوحية ،و أنشأ بالقرب من تربة الأزبكية سقاية وحوضا لسقى الدواب ويعلوه كتاب، وفى الحطابة كذلك، وعند جامع الدشطوطى كذلك، وأنشأ وزاد فى مقصورة الجامع الأزهر مقدار النصف طولا وعرضا ، يشتمل على خمسين عامودا من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقوصرة المرتفعة المتسعة من الحجر المنحوت، وسقف أعلاها بالخشب النقى ، وبنى به محرابا جديدا ومنبرا، وأنشأ له بابا عظيما جهة حارة كتامة وبنى بأعلاه مكتبا بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن، وبداخله رحبة متسعة وصهريج (ص١٠٠٨) عظيم وسقاية لشرب العطاش المارين، وعمل لنفسه مدفنا بتلك الرحبة وعليه قبة معقودة وتركيبة من رخام بديعة الصنعة، وبها أيضا رواق مخصوص بمجاورى الصعايدة المنقطعين لطلب العلم يسلك إليه من تلك الرحبة بدرج يصعد منه إلى الرواق وبه مرافق ومنافع ومطبخ ومخادع وخزاين كتب، وبنى بجانب ذلك الباب منارة،و أنشأ بابا آخر جهة مطبخ الجامع وعليه منارة أيضا. وبنى المدرسة الطيبرسية وأنشأها إنشاء جديدا وجعلها مع مدرسة الآقبغاوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير الذى أنشأه خارجهما جهة القبو الموصل للمشهدالحسينى وخان

* عماير الامير عبد الرحمن كتخدا التى ذكرهاالجبرتى:

١ ـ سبيل وكتاب بين القصرين
٢ ـ جامع المغاربة.
٣ ـ سبيل وكتاب جامع المغاربة.
٤ ـ جامع تجاه باب الفتوح
٥ ـ كتاب ومدفن السيدة السطوحية
٦ ـ كتاب وسقاية وحوض لشرب الدواب قرب الأزبكية.
٧ ـ كتاب وسقاية وحوض لشرب الدواب فى الحطابة .
٨ ـ كتاب وسقاية وحوض لشرب الدواب عند جامع الدشطوطى.
٩ ـ أنشأ، وزاد فى مقصورة الجامع الأزهر
١٠ ـ محراب جديد بالجامع الأزهر.
١١ ـ أنشأ باب عظيم للأزهر جهة حارة كتامه، بنى فوقه مكتبا لتعليم الأيتام وسقاية لشرب المارين.
١٢ ـ عمل لنفسه مدفنا بداخل الأزهر.
١٣ ـ رواق للصعايدة به مرافق ومنافع ومطبخ ومخدع وخزاين كتب.
١٤ ـ إنشاء منارة جديدة بالازهر .
١٥ ـ إنشاء بابا جهة باب المطبخ عليه منارة.
١٦ ـ بنى المدرسة الطيبرسية وجعلها مع المدرسة الآقبغاوية من داخل الباب الكبير.
١٧ ـ على يمين المدرسة الطبرسية أقام منارة فوقه مكتب بميضأة لها ساقية مخصوصة.
١٨ ـ جدد رواق المكاوين والتكروين.
١٩ ـ بنى المشهد الحسينى
٢٠ ـ إنشاء جامعا وصهريجا وحوضا وسقاية ومكتبا عند باب البرقية المعروف بالغريب.
٢١ ـ إنشاء جامعا ومكتب وحوض وميضأة وساقية ومنارة عند كوم الشيخ سلامة قرب الأزبكية.
٢٢ ـ عمر مسجد الإمام الشافعى.
٢٣ ـ إنشاء صهريجا ومقصورة لضريح الإمام زكريا الانصارى عند القبة.
٢٤ ـ عمر المشهد النفيسى ومسجده ، وبنى به صهريجا.
٢٥ ـ عمر مشهد السيدة سكينة بخط الخليفة.



٢٦ ـ عمر مشهد السيدة عائشة.
٢٧ ـ عمر مشهد السيدة رقية.
٢٨ ـ عمر مشهد السيدة فاطمة.
٢٩ ـ عمر جامع حارة عابدين.
٣٠ ـ عمر مشهد ابو السعود الجارحي
٣١ ـ عمر مسجد مشهد شرف الدين الكردى.
٣٢ ـ عمر مسجد الموسكي.
٣٣ ـ عمر المدرسة السيوفية المعروفة بالشيخ مطهر بخط باب الزهومة.
٣٤ ـ عمرالمارستان المنصورى.
٣٥ ـ بنى قناطر طنطا (طندتاء).
٣٦ ـ بنى قنطرة حارة عابدين
٣٧ ـ بنى قنطرة حارة الموسكي.
٣٨ ـ بنى قناطر وجسور ببلاد الحجاز
٣٩ ـ قصره المعروف ٣٩ - باسمه على النيل بولاق ومصر القديمة . والذى هدم بعد ذل.
٤٠ ـ دار سكنة بحارة عابدين . وذلك بخلاف عمائره الأخرى في الشام وبلاد الروم.

لجراكسة، وهو عبارة عن بابين عظيمين كل باب بمصراعين وعلى يمينهما منارة، وفوقه مكتب أيضا وبداخله على يمين السالك بظاهر الطيبرسية ميضأة، وأنشأ لها ساقية لخصوص إجراء الماء إليها، وبداخل باب الميضأة يصعد منه للمنارة ورواق البغداديين والهنود ، فجاء هذا الباب وما بداخله من الطبيرسية والآقبغاوية والأروقة من أحسن المبانى في العظم والوجاهة والفخامة وأرخ بعضهم ذلك بهذه الأبيات الركيكة.

تبارك الله باب الأزهر انفتحا
وعاد أحسن مما كان وانصلحا
(ص١٠٠٩) تقر عينا إذا شاهدت بهجته
بإخلاص بانيه للعلماء والصلحا
وأدخل على أدب تلق الهداة به
قد قرروا حكما ميزانها جحا
بالباب قد بدأ الأكوان أرخه
بعبد رحمن باب الأزهر انفتحا

وجددرواقا للمكاويين والتكروريين، وبنى المشهد الحسينى على هذه الصفة وعمل به صهريجا وحنفية بفسحة ولواوين فى غاية الحسن ورتب له تراتيب، وزاد فى مرتبات الأزهر والأخباز ورتب لمطبخه فى خصوص أيام رمضان فى كل يوم خمسة أرادب أرز أبيض وقنطار سمن ورأس جاموس وغير ذلك من التراتيب والزيت والوقود للمطبخ، وأنشى عند باب البرقية المعروف بالغريب جامعا وصهريجا وحوضا وسقاية ومكتبا ورتب فيه تدريسا وكذلك جهة الأزبكية بالقرب من كوم الشيخ سلامة جامع ومكتب وحوض



أحد اسواق القاهرة

وميضأة وساقية ومنارة. وعمر المسجد بجوار ضريح الإمام الشافعى رضى الله عنه فى مكان المدرسة الصلاحية. وعمل عندباب القبة الصهريج والمقصورة الكبيرة التى بها ضريح شيخ الإسلام زكريا الأنصارى فيما بين المسجد ودهليز القبة، وفرش طريق القبة بالرخام الملون يسلك إليه بدهليز طويل متسع، وعليه بوابة (ص١٠١٠) كبيرة من داخل الدهليز البراني وعلى الدهليز البرانى من كلتا الجهتين بوابتين. وعمر أيضا المشهد النفيسى ومسجده وبنى الصهريج على هذه الهيئة الموجودة، وجعل لزيارة النساء طريقا بخلاف طريق الرجال. وبنى أيضا مشهد السيدة زينب بقناطر السباع، ومشهد السيدة سكينة بخط الخليفة ، والمشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة والسيدة فاطمة



سوق السجاد بالقاهرة

والسيدة رقية، والجامع والرباط بحارة عابدين ، وكذلك مشهد أبي السعود الجارحي على الصفة التي هو عليها الآن ومسجد شرف الدين الكردي بالحسينية. والمسجد بخط الموسكي وبنى للشيخ الحفني دار بجوار ذلك المسجد وينفذ إليه من داخل. وعمر المدرسة السيوفية المعروفة بالشيخ مطهر بخط باب الزهومة وبنى لوالدته بها مدفنا. وأنشأ خارج باب القرافة حوضا وسقاية وصهريجا . وجدد المارستان * المنصوري ، وهدم أعلى القبة الكبيرة المنصورية والقبة التي كانت بأعلى الفسحة من خارج ولم يعد عمارتهما بل سقف قبة المدفن فقط وترك الأخرى مكشوفة، ورتب له خيرات وأخبازا زيادة على البقايا القديمة، ولما عزم على ترميمه وعمارته أراد أن يحتاط بجهات وقفه فلم يجد له كتاب وقف ولا دفتر، وكانت كتب أوقافه ودفاتره في

*المارستان : بفتح الراء وكسرها : دار المرضى أى المستشفى.

داخل خزانة الكتب، فاحترقت بما فيها من كتب (ص١٠١١) العلم والمصاحف ونسخ الوقفيات والدفاتر، ووقفه يشتمل على وقف الملك المنصور قلاوون الكبير الأصلى ووقف ولده الملك الناصر محمد ووقف ابن الناصر أبو الفدا إسماعيل، بل وغير ذلك من مرتبات الملوك من أولادهم، ثم إنه وجد دفترا من دفاتر الشطب المستجدة عند بعض المباشرين، وذلك بعد الفحص والتفتيش فاستدل به على بعض الجهات المحتكرة. وللمترجم عماير كثيرة وقناطر وجسور فى بلاد الحجاز حين كان مجاورا هناك. وبنى القناطر بطندتا فى الطريق الموصلة إلى محلة مرحوم * والقنطرة الجديدة الموصلة إلى حارة عابدين من ناحية الخلوتى على الخليج وقنطرة بناحية الموسكى، ورتب للعميان الفقرا الأكسية الصوف المسماة بالزعابيط فيفرق عليهم جملة كثيرة من ذلك عند دخول الشتاء فى كل سنة، فيأتون إلى داره أفواجا فى أيام معلومة ويعودون مسرورين بتلك الكساوى وكذلك المؤذنون يفرق عليهم جملة من الاحرامات الطولونية يرتدون بها وقت التسبيح فى ليالى الشتاء، وكذلك يفرق الحبر* المحلاوى والبز* الصعيدى والملايات * والأخفاف والبوابيج * القيصرلى على النساء الفقيرات والأرامل ويخرج عند بيته فى ليالى رمضان وقت الإفطار عدة من القصاع الكبار المملوءة بالثريد المسقى بمرق اللحم (ص١٠١٢) والسمن للفقراء المجتمعين ويفرق عليهم النقيب هبر* اللحم النضيج فيعطى لكل فقير جعله وحصته فى يده، وعند ما يفرغون من الأكل، يعطى لكل واحد منهم رغيفين ونصفى فضة برسم سحوره إلى غير ذلك. ومن عمايره القصر الكبير

* محلة مرحوم : بلدة من بلاد مركز طنطا (غربية)

* الحبر: بكسر الحاء وفتح الباء جمع حبرة وملاءة سوداء تلبسها نساء مصر إذا خرجن من البيوت جمعها حبرات.

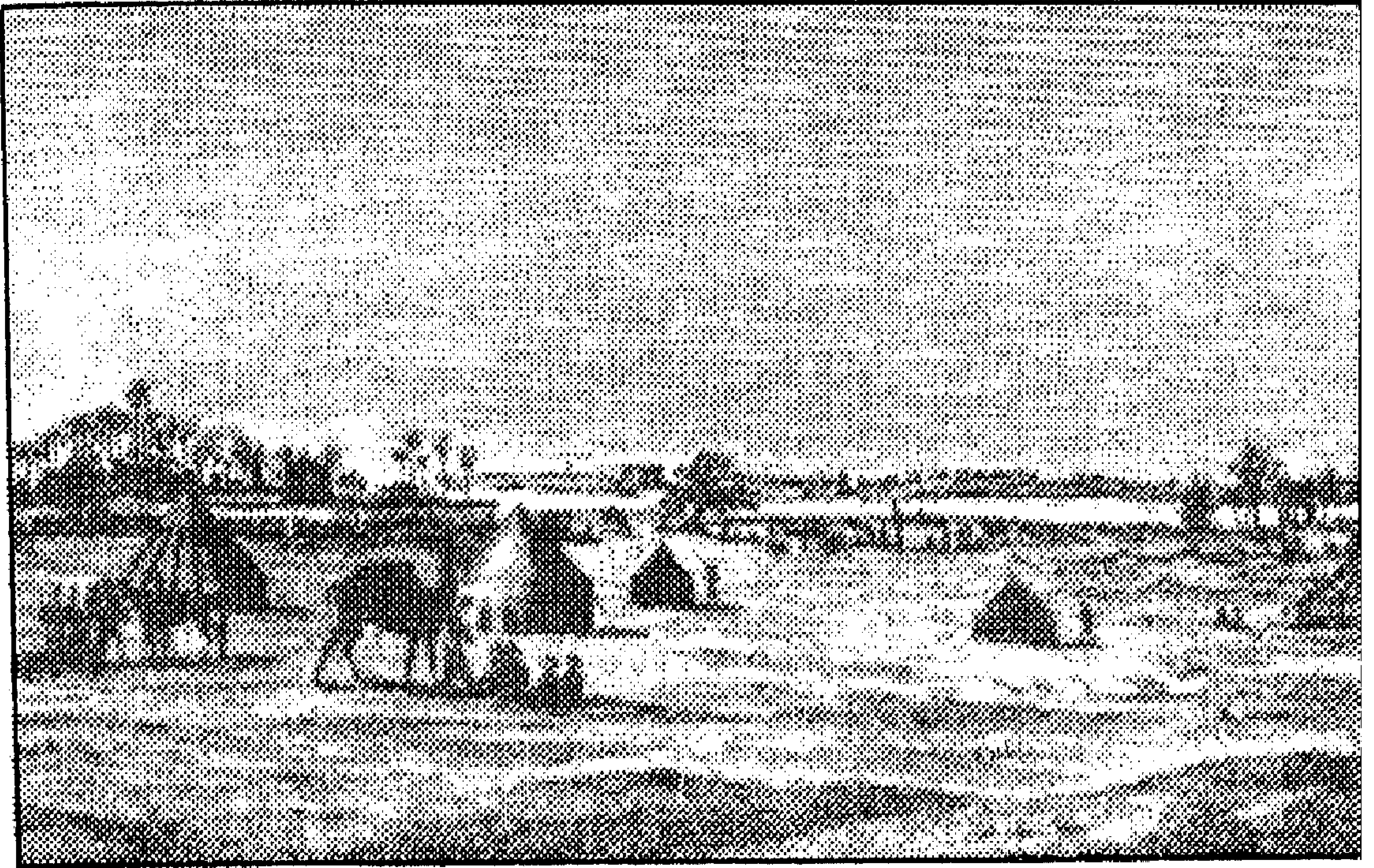
* البز : الثياب من الكتان أو القطن جمعها بزوز.

* البوابيج نوع من الأحذية بفتح الباء مفرده بابوج.

* هبر : مصدر هبر هبرا للحم قطعه قطعا كبارا.

المعروف به بشاطئ النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة، وكان قصرا عظيما من الأبنية الملوكية، وقد هدم في سنة خمس ومايتين بيد الشيخ علي بن حسن مباشر الوقف، وبيعت أنقاضه وأخشابه، ومات المذكور بعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر. ومن عمايره أيضا دار سكنه بحارة عابدين وكان من الدور العظيمة المحكمة الوضع والإتقان لا يماثلها دار بمصر في حسنها زخرفة مجالسها وما بها من النقوش والرخام والقيشاني والذهب المموه واللزورد* وأنواع الأصباغ وبديع الصنعة والتأنق والبهجة، وغرس بها بستانا بديعا بداخله قاعة متسعة مربعة الأركان بوسطها فسقية مفروشة بالرخام البديع الصنعة وأركانها مركبة على أعمدة من الرخام ، وغير ذلك من العمارات حتى اشتهر ذكره بذلك وسمى بصاحب الخيرات والعماير في مصر والشام والروم، وعدة المساجد التى أنشأها وجددها وأقيمت فيها الخطبة والجمعة والجماعة ثمانية عشر مسجدا، وذلك خلاف الزوايا والأسبلة والسقايات والمكاتب والأحواض والقناطر والمربوط للنساء الفقيرات (ص١٠١٣) والمنقطعات ، وكان له في هندسة الأبنية وحسن وضع العماير ملكة يقتدر بها على ما يرومه من الوضع من غير مباشرة ولا مشاهدة، ولو لم يكن له من المآثر إلا ما أنشأه بالجامع الأزهر من الزيادة التى تقصر عنها همم الملوك لكفاه ذلك، وأيضا المشهد الحسيني ومسجده والزينبي والنفيسي، وضم لوقفه ثلاث قرى من بلاد الارز بناحية رشيد وهي تفينة وديبى وحصة كتامة، وجعل إيرادها وما يتحصل من غلة أرزها لمصارف الخيرات وطعام الفقراء والمنقطعين، وزاد في طعام المجاورين بالأزهر ومطبخهم الهريسة في يومى الاثنين والخميس، وقد تعطل

* اللازورد : بضم الزاى وفتحها وسكون الراء : معدن يتخذ للحلي ، وأجوده الصافي الشفاف الأزر



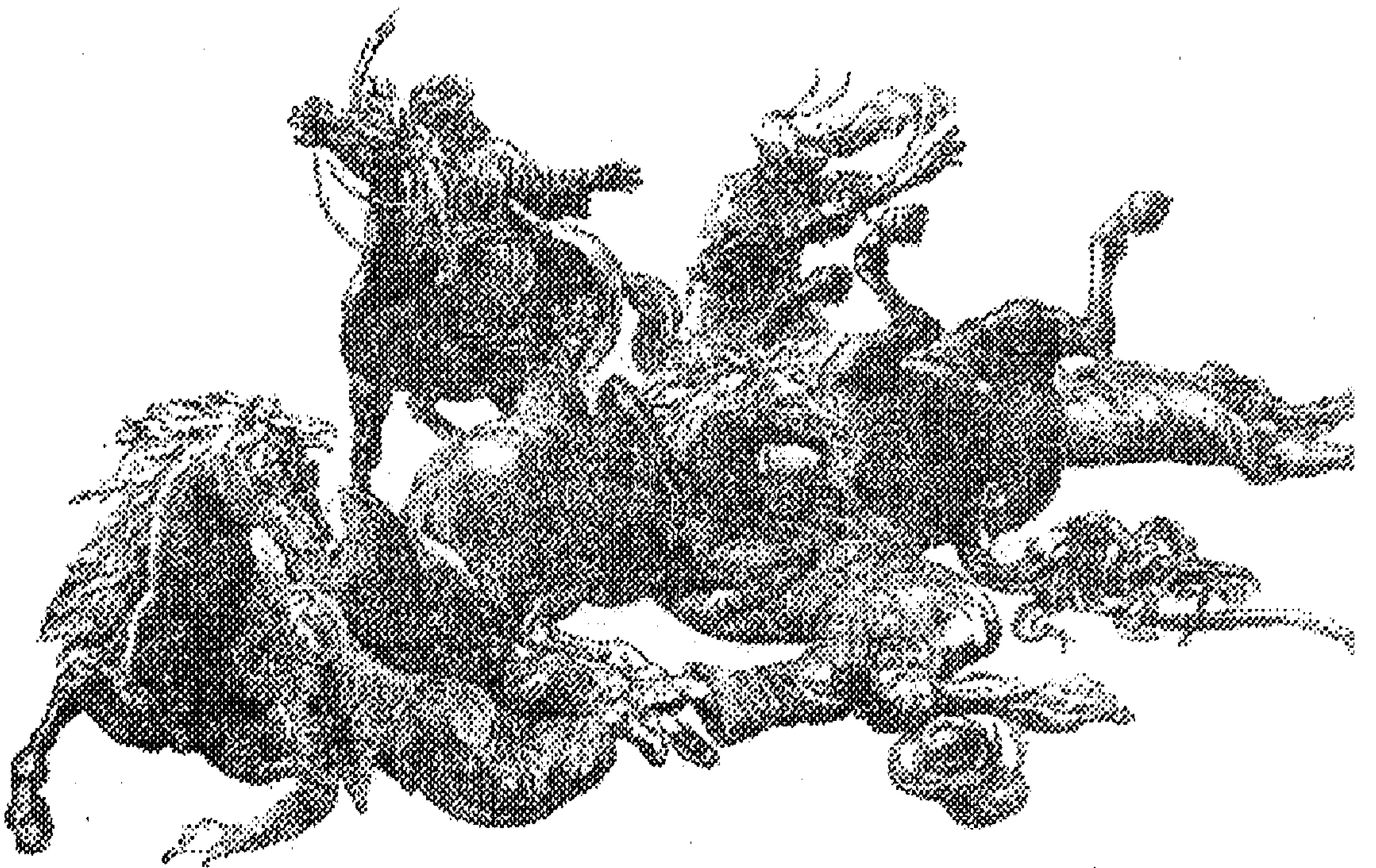
▲ بركة الحاج قرب العادلية.

غـالب ذلك فى هذا التـاريخ الذى نحن فـيـه لغـاية سنة عـشرين مايتين وألف بسبب استيـلاء الخراب وتوالى المحن وتعطل الأسبـاب. ولم يزل هذا شأنه إلى أن استفحل أمر على بك وأخرجه منفيا إلى الحجاز، وذلك فى أوايل شهر القعدة سنة ثمان وسبعين ومـاية وألف، فأقام بالحجاز اثنتى عشرة سنة، فلما سافر يوسف بك أميرا بالحاج فى السنة الماضية صمم على إحضاره صحبته إلى مصر فأحضره فى تختروان، وذلك فى سابع شهر صفر سنة تسعين ومـاية وألف، وقد استولى عليه العى والهرم وكرب الغربة، فدخل إلى بيته مريضا فأقام أحد عشر يوما ومات، فغسلوه وكفنوه وخرجوا بجنازته فى مشـهـد حافل حضـره (ص١٠١٤) العلما والأمرا والتجار ومؤذنو المساجد وأولاد المكاتب التى أنشاها ورتب لهم فيـهـا الكسـاوى والمعـاليم فى كل سنة،

وصلوا عليه بالأزهر ودفن بمدفنه الذى أعده لنفسه بالأزهر عند الباب القبلى، ولم يخلف بعده مثله، رحمه الله، من مساويه قبول الرشا والتحيل على مصادرة بعض الأغنيا فى أموالهم، واقتدى به فى ذلك غيره، حتى صارت سنة مقررة وطريقة مسلوكة ليست منكرة وكذلك المصالحة على تركات الأغنياد التى لها وارث ومن سيئاته* العظيمة التى طار شررها وتضاعف ضررها وعم الإقليم خرابها وتعدى إلى جميع الدنيا هبابها، معاضدته لعلى بك ليقوى به على أرباب الرياسة، فلم يزل يلقى بينهم الفتن ويغرى بعضهم على بعض ويسلط عليهم على بك المذكور، حتى أضعف شوكات الأقويا وأكد العداوة بين الأصفيا، واشتد ساعد على بك.، فعند ذلك التفت إليه وكلب بنابه عليه وأخرجه من مصر وأبعده عن وطنه، فلم يجد عند ذلك من يدافع عنه، وأقام هذه المدة فى مكة غريبا وحيدا، وأخرج أيضا فى اليوم الذى أخرجه فيه نيفا وعشرين أميرا من الاختيارية كما تقدم، فعند ذلك خلا لعلى بك وخشداشينه الجو فباضوا وأفرخوا وامتد شرهم إلى الآن الذى نحن فيه كما سيتلى عليك بعضه، فهو الذى كان السبب بتقدير الله تعالى فى ظهور أمرهم، (ص١٠١٥) فلو لم يكن له من المساوى إلا هذه لكفاه، ولما رجع من الحجاز متمرضا ذهب إليه ابراهيم بك ومراد بك وباقى خشداشينهم ليعودوه ولم يكن رآهم قبل ذلك، فكان من وصيته لهم: كونوا مع بعضكم واضبطوا أمركم ولا تدخلوا الأعادى بينكم، وهذا بدل عن قوله أوصيكم بتقوى الله تعالى وتجنبوا الظلم وافعلوا الخير، فإن الدنيا زايلة وانظروا حالى ومآلى أو نحو ذلك، هكذا أخبرنى من كان حاضرا فى ذلك الوقت، وكان سليط

* موقف الجبرتى من حركة على بك الكبير.

اللسان ويتصنع الحماقة، فغفر الله لناوله، رأيته مرة وأنا إذ ذاك فى سن التمييز قبل أن ينفى إلى الحجاز وهو ماش فى جنازة مربوع القامة أبيض اللون مسترسل اللحية ويغلب عليها البياض مترفها فى ملبسه معجبا بنفسه يشار إليه بالبنان.



▲ سقوط علي بك الكبير فى معركة الصالحية

(سنة إحدى وتسعين ومائة وألف) [١٧٧٧م]

فيها في أوايل ربيع الأول ورد أغا من الديار الرومية بطلب عساكر لسفر العجم فاجتمع الأمرا وتشاوروا في ذلك، فاتفق رأيهم على إحضار ابراهيم بك طنان فأحضروه من المحلة وقلدوه إمارة ذلك.

وفيها في أوايل شهر جمادى الأولى وقعت حادثة في طايفة المغاربة المجاورين بالجامع الأزهر، وذلك أنه آل إليهم مكان موقوف، وجحد واضع اليد ذلك والتجا إلى بعض الأمرا وكتبوا فتوى في شأن ذلك، واختلفوا في ثبوت الوقف (ص١٠١٦) بالإشاعة، ثم أقاموا الدعوى في المحكمة وثبت الحق للمغاربة، ووقع بينهم منازعات، وعزلوا شيخهم، وولوا آخر، وكان المندفع في الخصومة واللسانة شيخا منهم يسمى الشيخ عباس، والأمير الملتجى إليه الخصم يوسف بك، فلما ترافعوا وظهر الحق على خلاف غرض الأمير، حنق لذلك ونسبهم إلى ارتكاب الباطل، فأرسل من طرفه من يقبض على الشيخ عباس المذكور من بين المجاورين، فطردوا المعينين وشتموهم وأخبروا الشيخ أحمد الدردير، فكتب مراسلة إلى يوسف بك تتضمن عدم تعرضه لأهل العلم، ومعاندة الحكم الشرعي، وأرسلها صحبة الشيخ عبد الرحمن الفرنوى وآخر. فعندما وصلوا إليه وأعطوه التذكرة، نهرهم وأمر بالقبض عليهم وسجنهم بالحبس، ووصل الخبر إلى الشيخ الدردير وأهل الجامع فاجتمعوا في صبحها وأبطلوا الدروس والآذان والصلوت وقفلوا أبواب الجامع

١١٩١ هـ.
١٤٩٣ ق.
١٧٧٧ م.
غاية الفيضان ١٢ قيراط/ ٢٢ ذراع

□ في ٢ و٣ جماد اول ثارت المغاربة بالأزهر، وقفلت العلماء أبواب الجامع واغلقت الدكاكين والاسواق وحصلت مقتلة جرح فيها كثير من اتباع الاغوات وقتل فيها ثلاثة من المغاربة ، وذلك بسبب تعضيد يوسف بك المجحف بحق المغاربة في وقف ال لهم ولانتهاره العلماء. وفي ٦ منه سكن اسماعيل بك الفتنة، وكان منتصرا لأهل الأزهر

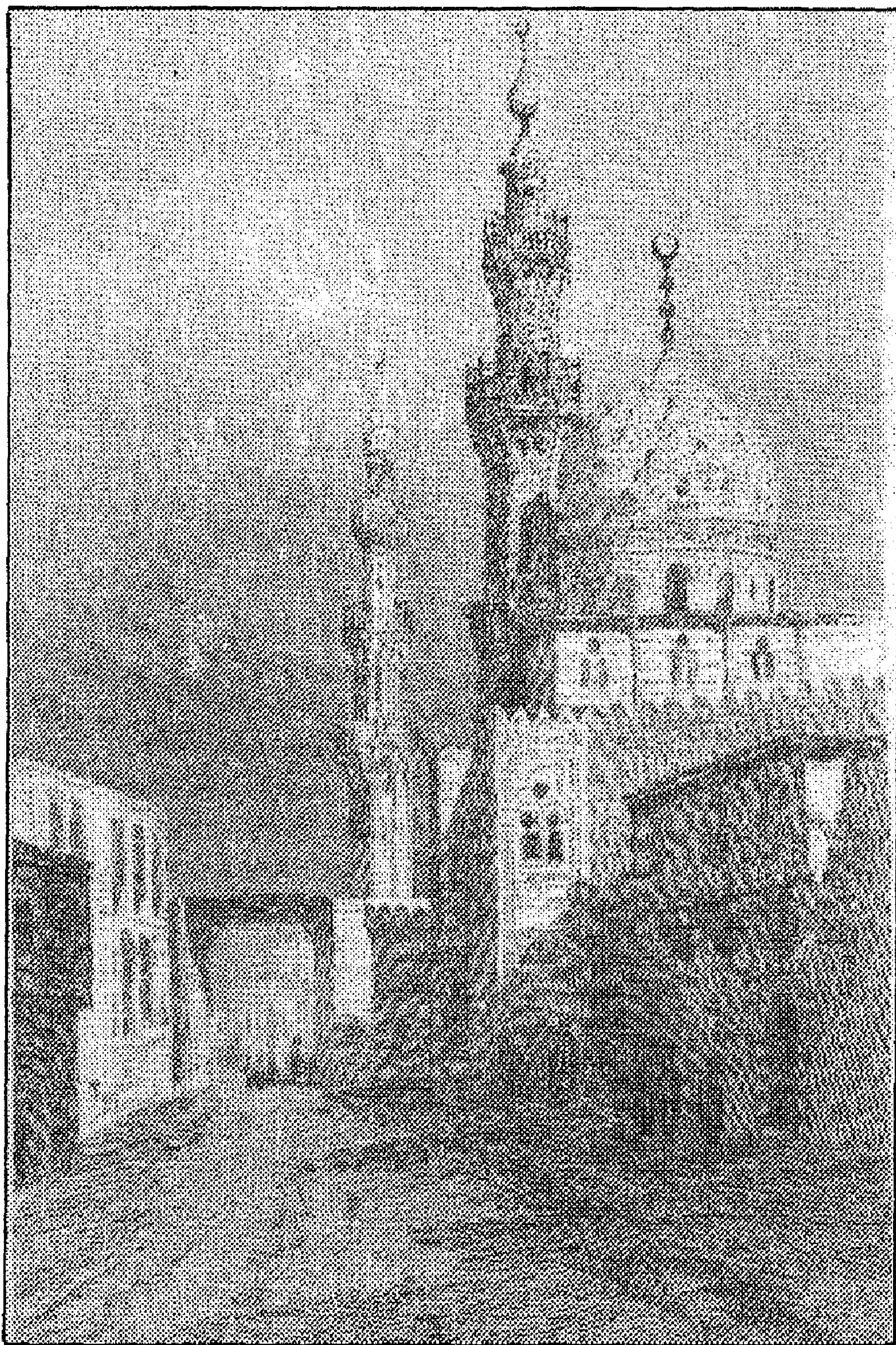
□ وفي ١٤ جمادى الثانية تآمر مراد بك وجماعته على قتل اسماعيل بك فخرج الى جهة العادلية ، فتملك ابراهيم بك ومراد بك القلعة في ٢١ جمادى الثانية.

□ وفي ١٨ منه قامت تجريدة تحت إمرة اسماعيل بك الصغير، وفي ٢١ رجب تقابلت التجريدة مع الامرا القبالي فكانت الهزيمة على التجريدة فتحصن اسماعيل بك في متاريس برية بين حلوان والتبين فانتصر على القبالي بعد معركة شديدة رجعت على أثرها القبالي إلى الصعيد، ودخل اسماعيل بك منتصرا في شعبان .

□ ١ توت ١٤٩٤ = ٩ سبتمبر ١٧٧٧ = الثلاث ٦ شعبان سنة ١١٩١.

□ ١ يناير ١٧٧٨ = ٢٥ كيهك ١٤٩٤ = الخميس ٢ ذو الحجة سنة ١١٩١.

وجلس المشايخ بالقبلة القديمة، وطلع الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الامرا، وأغلق أهل الأسواق القريبة الحوانيت وبلغ الامرا ذلك فأرسلوا إلى يوسف بك فأطلق المسجونين ، وأرسل ابراهيم بك من طرفه ابراهيم أغا بيت المال فلم يأخذ جوابا، وحضر الأغا إلى الغورية ونزل هناك ونادى بالأمان وأمر بفتح الحوانيت، فبلغ مجاورى المغاربة ذلك، فذهب إليه (ص١٠١٧) طايفة منهم وتبعهم بعض العوام وبأيديهم العصى والمساوق وضربوا أتباع الأغا ورجموه بالأحجار، فركب عليهم وأشهر فيهم السلاح هو ومماليكه، فقتل من مجاورى المغاربة ثلاثة أنفار وأنجرح منهم كذلك ومن العامة، وذهب الأغا ورجع الفريق الآخر، وبقى الهرج إلى ثانى يوم، فحضروا اسماعيل بك والشيخ السادات وعلى أغا كتخدا الجاويشية وحسن أغا أغات المتفرقة والترجمان وحسن أفندى كاتب حواله وغيرهم، فنزلوا الأشرفية وأرسلوا إلى أهل الجامع تذكرة بانفضاض الجمع وتمام المطلوب، وكان ذلك عند الغروب فلم يرضوا بمجرد الوعد وطلبوا الجامكية والجراية فركبوا ورجعوا ، وأصبح يوم الاربعا والحال على ما هو عليه واسماعيل بك مظهر الاهتمام لنصرة أهل الأزهر فحضر مع الشيخ السادات وجلسوا بالجامع المؤيدى وأرسلوا للمشايخ تذكرة صحبة الشيخ ابراهيم السندوبى ملخصها أن اسماعيل بك تكفل بقضا اشغال المشايخ وقضا حوايجهم وقبول فتواهم وصرف جماكيهم وجراياتهم وذلك بضمان الشيخ السادات له، فلما حضر الشيخ ابراهيم بالتذكرة وقراها الشيخ عبد الرحمن العريشى جهارا وهو قايم على اقدامه ، فلما سمعوها اكثروا من الهرج واللغط وقالوا هذا كلام لا أصل

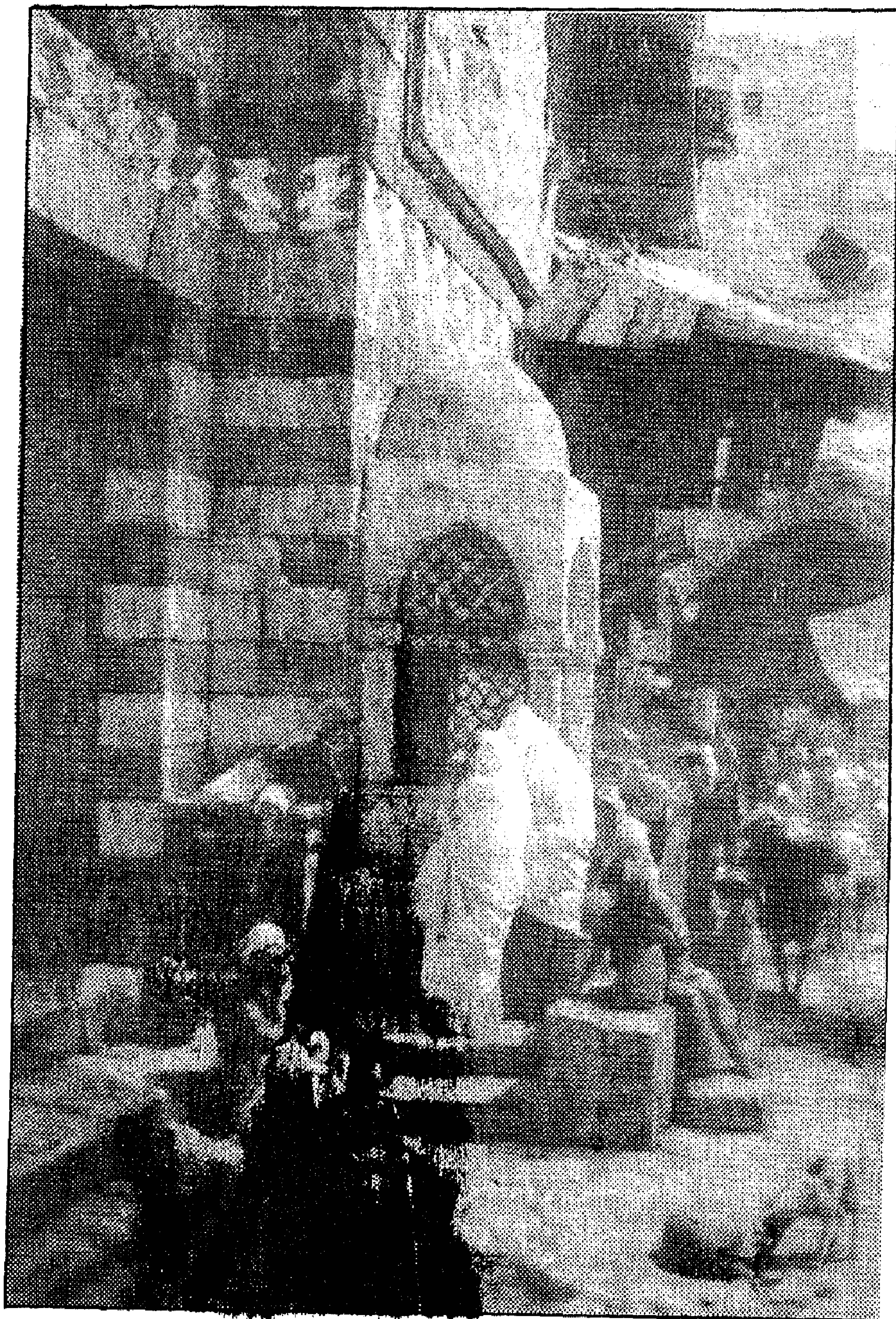


جامعي الاميرين يوسف بك وإبراهيم أغا. ▲

له وترددت الارساليات والذهاب والجى بطول النهار، ثم اصطلحوا (ص١٠١٨) وفتحوا الجامع فى آخر النهار، وأرسلوا لهم فى يوم الخميس جانبا من دراهم الجامكية ومن جملة ما اشترطوه فى الصلح عدم مرور الأغا والوالى والمحتسب من حارة الازهر وغير ذلك شروط لم ينفذ منها شى، وعمل ابراهيم بك ناظرا على الجامع عوضا عن الاغا وارسل من طرفه جنديا للمطبخ وسكن الاضطراب، وبعد مضى اربعة ايام من هذه الحادثة مر الاغا وبعده الوالى كذلك فارسل المشايخ الى ابراهيم بك يخبروه فقال ان الطريق يمر بها البر والفاجر ولا يستغنى الحكام عن المرور.
وفى اوايله ايضا احضر مراد بك شخصا يقال له سليمان كاشف من اتباع يوسف بك وضربه علقة بالنبابيت لسبب من الاسباب فحقدها عليه يوسف بك واستوحش من طرفه.

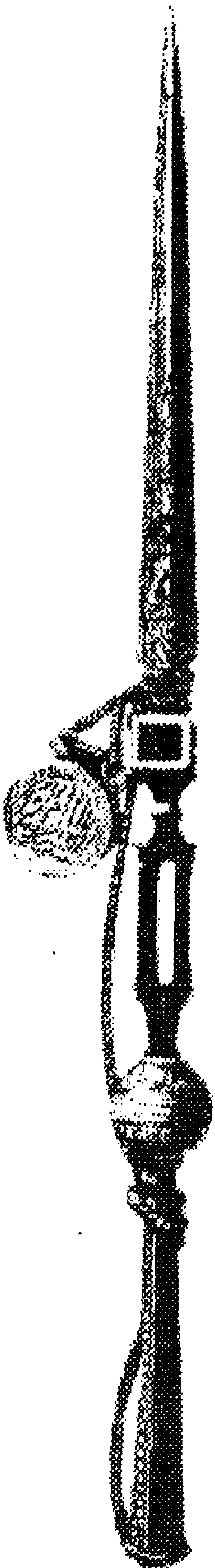
وفى ثانى عشر جمادى الثانية قبض الاغا على انسان شريف من اولاد البلد يسمى حسن المدابغى وضربه حتى مات، وسبب ذلك انه كان فى جملة من خرج على الاغا بالغورية يوم فتنة الجامع،وكان إنسانا لا بأس به.

وفى ليلة الجمعة رابع عشر جمادى الثانية خرج اسماعيل بك جهة العادلية مغضبا، وسبب ذلك أن مراد بك زاد فى العسف والتعدى خصوصا فى طرف اسماعيل بك وإبراهيم بك يسعى بينهما فى الصلح، واجتمعوا فى آخر مجلس عند ابراهيم بك فتكلم اسماعيل بك كلاما (ص١٠١٩) مفحما وقال أنا تارك لكم مصر وإمارتها وجاعلكم مثل أولادى ولا أريد إلا المعيشة وراحة السر وأنتم لا تراعون لى

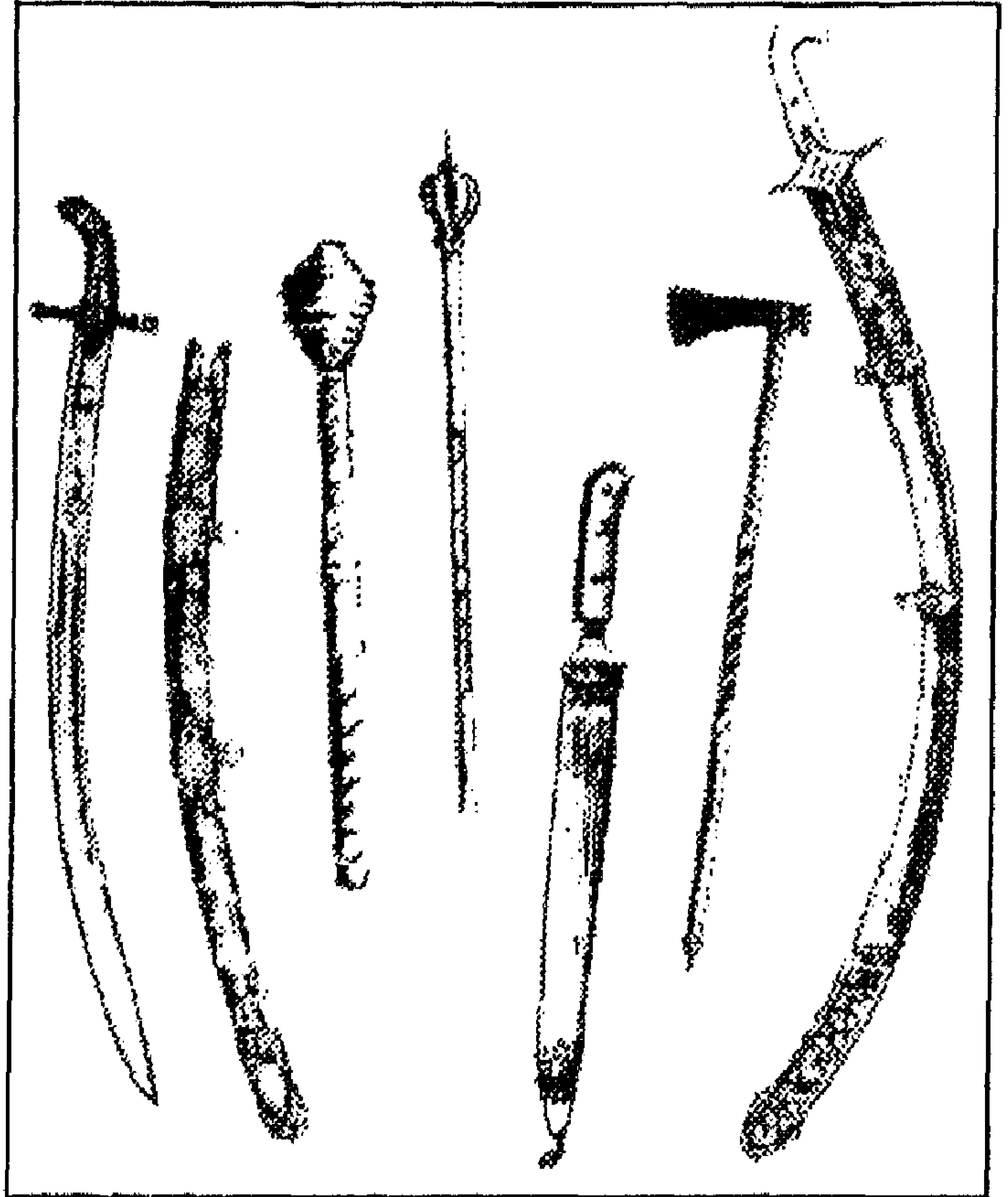


*خلافات ومعارك بين اسماعيل بك ومراد بك

حقا وأمثال ذلك من الكلام، فحضر فى هذه الأيام إلى اسماعيل بك مركب غلال، فأرسل مراد بك* وأخذ ما فيها، وعلم أن إسماعيل بك يغتاظ لذلك، ثم اتفق مع بعض أغراضه أنهم يركبون من الغد إلى اسماعيل بك ويدخلون عليه فى بيته ويقتلونه، فعلم اسماعيل بك بذلك، فركب فى الصباح وخرج إلى العادلية بعد أن عزل بيته وحريمه ليلا، وجلس بالأشبكية وركب مراد بك ذاهبا إلى اسماعيل بك فوجده قد خرج إلى الأشبكية، وكان إبراهيم بك طلع إلى قصر العينى، فذهب إلى مراد بك، ولما أشيع خروج إسماعيل بك ركب يوسف بك وخرج إليه وتبعه محمد بك طبل وحسن بك وإبراهيم بك طنان وذو الفقار بك وغيرهم، ووصل الخبر إلى إبراهيم بك ومراد بك ومن انضم إليهم، فركبوا وحضروا إلى القلعة وملكوا الأبواب وامتلأت الرميلة والميدان بعساكرهم وصحبتهم أحمد بك الكلارجى ولاجين بك وأيوب بك ومصطفى بك، واضطربت المدينة وأغلق الناس الدكاكين، واستمروا على ذلك يوم السبت ويوم الأحد ويوم الاثنين ويوم الثلاثا وتسحب من أهل القلعة جماعة خرجوا إلى اسماعيل بك ويوسف بك (ص١٠٢٠) ومن معهما وهم إسماعيل أغا أخو على بك الغزاوى وأخو سليم أغا وعبد الرحمن أغا أغات الينكجرية سابقا، فأرسل أهل القلعة إبراهيم أغا الوالى فجلس بباب النصر وأغلق الباب ونزل الباشا إلى باب العزب، فحضر قاسم كتخدا عزبان أمين البحرين وعبد الرحمن أغا وصحبتهم جماعة إلى باب النصر وفتحوا الباب وطردوا الوالى، وذلك فى يوم الاثنين، وملكوا باب النصر، فأرسلوا إليهم طايفة من عسكر المغاربة فضربوا عليهم



رأس حربة



أسلحة: سيوف، خناجر، مقامع، بلطة.

بالرصاص وحمل عليهم الآخرون فشتتوهم ورجعوا إلى خلف، وقتل من المغاربة أنفار وانجرح منهم كذلك وانتشر البرانيون حوالي جهات مصر وذهب منهم طايفة إلى جهة بولاق وفيهم محمد بك طبل فوجدوا طايفة من الكشاف والأجناد حضروا إلى بولاق لأجل العليق والتبن، فوقعت بينهم وقعة فانهزموا إلى قصر عبد الرحمن كتخدا، وأخذ أوليك العليق والتبن وطلع منهم طايفة إلى الجبل واشتد الحال وعظمت الفتنة، فأراد الباشا إجراء الصلح فأرسل أيوب أغا ورجع بجواب عدم رضاهم بالصلح، وقالوا «قد تخاصمنا واصطلحنا مرارا» ثم أرسل إليهم أحمد جاويش المجنون فذهب ولم يرجع والتف عليهم، فأرسل الباشا ولده وكتخداه سعيد بك مرارا ثم دخل يوم الأربعا عبد الرحمن أغا من باب النصر، وشق من وسط المدينة وأمامه المنادى



▲ فارس يستخدم الطبنجة (الغدارة)

ينادى على الناس برفع بضايعهم من (ص١٠٢١) الحوانيت، فرفع الناس بواقى بضايعهم من الدكاكين، ولم يزل سايرا حتى وصل إلى باب زويلة ونزل بجامع المؤيد وجلس به مقدار ساعتين ورتب عسكرا هناك على السقايف والأسبلة، ثم ركب راجعا وعاد صحبته إبراهيم بك الطنانى، ومعهم عدة أجناد عساكر وخرجوا من باب زويلة إلى الدرب الأحمر إلى جامع المردانى فجلسوا عنده إلى بعد الظهر ثم زحفوا إلى التبانة إلى قرب المحجر، وعملوا هناك متاريس ورتبوا بها جماعة، وكذلك ناحية سويقة العزى فنزل إليهم جماعة من القلعة وتراموا بالرصاص وقطعوا الطرق على من بالقلعة إلى بعد العصر، فنزل إليهم خيالة مدرعين فحمل عليهم عسكر المغاربة فوقع منهم أربعة خيالة وانجرح لاجين بك فحملوه إلى بيته فى شنف، وقتل أنفار من عسكر

* معارك بين العسكر العثمنلى والمغاربة.

المغاربة وولى القلعاوية إلى جهة القلعة، وبعد الغروب انفصل عنهم عسكر المغاربة ونكسوا أعلامهم وحضروا عند أجناسهم، والتفوا عليهم ولاحت لوايح الخذلان على من بالقلعة ، ودخل عليهم الليل وانكف الفريقان، وأصبح يوم الخميس فدخل الكثير من البرانيين إلى المدينة شيا فشيا وربطوا فى جميع الجهات حتى انحصروا بالقلعة ، وأخذوا ينقبون عليهم فلما شاهدوا الغلب فيهم نزلوا من باب الميدان وذهبوا جهة البساتين إلى الصعيد* (ص١٠٢٢) فتخلف عنهم أحمد بك الكلارجي وأيوب بك وابراهيم بك أوده باشه ولاجين بك مجروح ، وخرج المتخلفون إلى اسماعيل بك ويوسف بك وطلبوا منهما الآمان وانضموا إليهم، وعندما أشيع نزول إبراهيم بك ومراد بك من القلعة، هجم المرابطون بالمحجر وسوق السلاح على الرميلة ونهبوا خيامهم وعازقهم الذى بها وبالميدان حتى جمال الباشا وخيول الدلاة، وذلك يوم الخميس قبل العصر بنصف ساعة، فدخل اسماعيل بك بعد العصر من ذلك اليوم من باب النصر وتوجهوا إلى بيوتهم، وأصبح يوم الجمعة فشق عبد الرحمن أغا ونادى بالأمان والبيع والشراء وراق الحال.

* هروب مراد بك وابراهيم بك للصعيد

ولما كان يوم الأحد ثانى عشرين جمادى الثانية طلعوا إلى الديوان فخلع الباشا على اسماعيل بك خلعتى سمور، واستقر اسماعيل بك شيخ البلاد ومدبر الدولة، وقلدوا حسن بك الجداوى صنجقا كما كان، وكانت الصنجقية مرفوعة عنه من موت سيده على بك، وكذلك رضوان بك قرابة على بك قلدوه صنجقية وقلدوا إسماعيل* أغا أخا على بك الغزاوى صنجقية أيضا، وسكن ببيت ابراهيم بك الكبير وقلدوا سليمان كاشف من أتباع يوسف بك وهو الذى كان ضربه علقة مراد بك بالنبوت كما تقدم صنجقية (ص١٠٢٣) ولقبه الناس أبانبوت ، وقلدوا أيضا سليم

* انفراد اسماعيل بك بالسلطة.

كاشف من أتباع إسماعيل بك صنجقية وقلدوا عبد الرحمن أغا أغاوية مستحفظان كما كان، ومحمد كاشف والى الشرطة، وفى عشية ذلك اليوم أنزلوا سليمان أغا مستحفظان إلى بولاق وأنزلوه فى مركب منفيا إلى دمياط بعدما صودر فى نحو أربعين ألف ريال .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشرينه أنزلوا أيضا سليمان كتخدا مستحفظان وعثمان كتخدا باش اختيار مستحفظان المعروف بأبى مساوق، والأمير عبد الله أغا وأنزلوهم إلى المراكب، ثم حصل عنهم العفو فردوهم إلى بيوتهم.

وفى ذلك اليوم طلعوا إلى الديوان فقلدوا ذا الفقار بك دفتردار عوضا عن رضوان بك بلفيا، وذلك بإشارة يوسف بك لكونه كان مع مراد بك وإبراهيم بك، حتى إنه أراد أن يسلب نعمته، فمنعه عنه إسماعيل بك.

وفى يوم الأربعاء ثانى شهر رجب حضر عند يوسف بك حسن بك الجداوى وصحبته اسماعيل بك الصغير وهو أخو على بك الغزاوى وسليم بك الإسماعيلى وعبد الرحمن بك العلوى، فجلسوا معه ساعة لطيفة بالمقعد المطل على البركة، فجلس حسن بيك أمامه وكان جالسا على الدكة المرتفعة عن المرتبة وجلس تحت شماله (ص١٠٢٤) على المرتبة إسماعيل بك الصغير وسليم بك، وعبد الرحمن بك استمر واقفا حادثوه فى شيء وتناجوا مع بعضهم وتأخر عنهم الواقفون من المماليك والأجناد فسحب عبد الرحمن بك النمشاة * وضرب بها يوسف بك فأراد أن يهم قائما، فداس على ملوطة* اسماعيل بك فوقع على ظهره، فنزلوا عليه بالسيوف وضربوا فى وجوه الواقفين طلق بارود فهربوا إلى خلف، ونزل الضاربون من القيطون* وركبوا وذهبوا إلى

*النمشاة : السيف فيه شطب.

*ملوطه: أى طرف سلاحه.

*القيطون: المخدع الذى يسكنه الحشم الأحرار، ويجمع على «قطن»

إسماعيل بك فركب فى تلك الساعة وطلع إلى القلعة وأرسل اسماعيل كتخدا عزبان إلى الباشا وكان بقصر العينى بقصد التنزه، فركب من هناك وطلع إلى القلعة وجلس بباب العزب صحبة إسماعيل بك، فلما بلغ الأمر الذين هم خشداشين يوسف بك فركبوا وخرجوا من المدينة وذهبوا إلى قبلى، وهم أحمد بك الكلارجى وذو الفقار بك ورضوان بك الجرجاوى، فركب خلفهم طايفة فلم يدركوهم، وأرسلوا إلى محمد بك طبل فكرنك فى بيته ونصب له مدافع وأبى من الخروج لأنه صار من المذبذبين، فلما وقع منه ذلك ذهب إليه حسن بك سوق السلاح وأخذه بالأمان إلى اسماعيل بك بعد ما نزل إلى بيته، فأمره أن يأخذه عنده فلما أصبح أستأذنه فى زيارة الإمام الشافعى فأذن له فركب إلى جهة القرافة وذهب إلى (ص١٠٢٥) جهة الصعيد وانقضت الفتنة، ودفن يوسف بك.

وفى يوم الخميس ، طلعوا إلى الديوان فخلع الباشا على اسماعيل* بك الكبير فروة سمور وأقره على مشيخة البلد وقلدوا حسن بك قصبة رضوان إمارة الحج عوضا عن يوسف بك وقلدوا عبد الرحمن العلوى صنجقا كما كان وقلدوا ابراهيم أغا خازندار اسماعيل بك الذى زوجه ابنته صنجقية ، وتلقب بإبراهيم بك قشطة وسكن ببيت محمد بك وقلدوا حسين أغا خازندار اسماعيل بك سابقا صنجقية أيضا، وسكن ببيت أحمد بيك الكلارجى وقلدوا كاشفين ايضا لاسماعيل بك يسمى كل واحد منهما بعثمان صنجقين وسكن أحدهما ببيت مصطفى بك الذى كان سكن محمد بك طبل وهو على بركة الفيل حيث جامع أزبك اليوسفى وهو الذى يسمى بعثمان بك طبل وعثمان الثانى وهو الذى لقب بقفا التور، وسكن ببيت ذى الفقار المقابل لبيت بلفيا، وقلدوا على أغا جوخدار اسماعيل بك صنجقية أيضا وسكن

* اسماعيل بك يتولى مشيخة البلد.

ببيت مراد بك عند الكبش وهو بيت صالح بك الكبير، وكان يسكنه سليمان بك أبو نبوت اليوسفى، وأما بيت يوسف بك فسكن به سليم بك وقلدوا يوسف أغا من أتباع اسماعيل بك واليا، ونفوا أيوب بك وسليمان بك إلى المنصورة.

* وفاء النيل ٤ مسرى القبطى.

وفى صبحها يوم الجمعة رابع شهر الفرد الموافق لرابع مسرى القبطى (ص١٠٢٦) نودى بوفاء النيل ونزل الباشا صبح يوم السبت وكسر السد على العادة وجرى الماء فى الخليج وعاد الباشا إلى القلعة.

* اسماعيل بك يطارد الامراء المماليك بالصعيد

وفي سابعه اتفقوا على إرسال تجريدة إلى الصعيد وسر عسكرها اسماعيل بك * الصغير، وعينوا للتوجه صحبته حسن بك الجداوى وإبراهيم بك الطنانى وسليم بك الطنانى وسليم بك الاسماعيلى وابراهيم بك أوده باشا وحسن بك الشرقاوى المعروف بسوق السلاح، وقاسم كتخدا عزبان وعلى أغا المعمار وكان غايبا بالمنية فلما قبل [ذهبوا للوجه القبلى] فتخلص وترك أحواله وغلاله وحضر إلى مصر وصحبته طايفة من الهوارة والعربان، فلما حضر أرادوا أن يقلدوه صنجقية فامتنع من ذلك، وشرعوا فى تشهيل التجريدة وطلبوا طلبا عظيما وصرف الباشا ألف كيس من الخزينة لنفقة العسكر وخلعوا على الهوارة ومشايخ العربان ووعدوهم بالخير.

وفيه جاءت الأخبار بأن على بك السروجى ساق خلف محمد بك طبل فلحقه عند مكان تجاه البدرشين واحتاط به العربان وقتلوا مماليكه وشرد من نجا منهم وتفرق ونهبوا ما معه وعروه وسلموه لكاشف هناك من أتباع اسماعيل بك فوقع فى عرضه وعرض مشايخ البلد فألبسوه حوايج وهربوه وصحبته اثنان من الأجناد، فلما حضر على بك السروجى أخبره العرب بما حصل، فأخذ ذلك الكاشف وحضر صحبته إلى اسماعيل

بك فضرب الكاشف علقة ونفاه(ص١٠٢٧).
وفيه ورد الخبر أيضا عن ذى الفقار بك بأن العرب عروه أيضا فهرب فلحقوه وأرادوا قتله فألقى نفسه فى البحر بفرسه وغرق ومات.

وفى يوم الاثنين رابع عشر رجب برزت عساكر التجريدة إلى جهة البساتين وفى يوم الخميس خرج أيضا غالب الأمراء وبرزوا خيامهم.
وفى يوم الجمعة ثامن عشر رجب سافرت التجريدة برا وبحرا، وفى يوم السبت سادس عشرين رجب وصلت الأخبار بأن التجريدة تلاقت مع الأمرا القبالى ووقع بينهم معركة قوية، فكانت الهزيمة على التجريدة، فلما وصلت هذه الأخبار اضطرب اسماعيل بك وتخبل غزله وكذلك أمراؤه، ودخل الأجناد مشتتين مهزومين وكانت الوقعة يوم الجمعة فى بياضة من أعمال الشرق [شرق النيل]، فكبسوهم على حين غفلة وقت الفجر، فركب على أغا المعمار وقاسم كتخدا عزبان وإبراهيم بك طنان فحاربوا جهدهم، فأصيب على أغا وقاسم كتخدا ووقعت خيولهما، وذلك بعد أن ساق على أغا وصحبته رضوان أغا طنان وقصد مراد بك وضربه رضوان فى وجهه بالسيف، فلحقه خليل بك كوسه الابراهيمى وضرب على اغا بالقرابينة فأصابته فى عنقه ووقع فرسه وسقط ميتا، فلما قتل هذان الأميران ولى ابراهيم بك طنان، فانهزم بقية الأمرا لأنه لم يكن فيهم أشجع من هولا الثلاثة، وباقيهم ليس له دربة فى الحرب وسر عسكر مقصوب* ومريض. واحتاط الأمراء القبليون بخيامهم وحملاتهم ومراكبم (ص١٠٢٨) بما فيها وكانت نيفا وخمسماية مركب، وكان كبير العسكر فى قنجة صغيرة فلما عاين الكسرة أسرع فى الانحدار، وكذلك بعض الأمرا انحدروا معه وباقيهم وصلوا البر على

* مقصوب : ماسور.

هيئة شنيعة، وكان اسماعيل بك بمصر القديمة ينتظر أمرا التجريدة، فلما حصل ذلك نزل الباشا فى يوم الأحد وخرج إلى الآثار وجلس مع الصنجق ونادوا بالنفير العام، فخرج القاضى والمشايخ والتجار وأرباب الصنايع والمغاربة وأهل الحارات والعصب وغلقت الأسواق، وخرج الناس فى يوم الاثنين حتى ملوا الفضا ، فلما عاين ذلك اسماعيل بك وعلم أنهم يحتاجون إلى مصروف ومأكل وأكثرهم فقرا، وذلك غاية لا تدرك، فأشار على تجار المغاربة والألضاشات * بالمكث، ورجع بقية العامة وأرباب الحرف ومشايخ الأشاير والفقرا من أهل الزوايا والبيوت، ووصل القبليون إلى حلوان وطمعوا فى أخذ مصر بعد الكسرة قبل الاستعداد ثانيا. وفى يوم الاثنين أرسل اسماعيل بك عدة من الأجناد وأصحبهم عسكر المغاربة ومعهم الجبخانة والمدافع، فنصبوا المتاريس مابين التبين *وحلوان تجاه الأخصام، وركب فى ليلتها اسماعيل بك* وأمراؤه وأجناده ، وأحضر الباشا قليون رومى من دمياط وريسه يسمى حسن الغاوى مشهور بمعرفة الحرب فى البحر، يشتمل ذلك القليون على خمسة وعشرين مدافعا فأقلع به ليلا تجاه العسكر وارتفع حتى تجاوز مراكبهم، وضرب بالمدافع (ص١٠٢٩) على وطاقهم فى البر وعلى مراكبهم فى البحر وساق جميع المراكب بما فيها، ووقع المصاف واشتد الجلاد بين الفريقين فكان بينهم وقعة قوية وقتل فيها من أوليك رضوان بك الجرجاوى وخليل بك كوسة الابراهيمى وخازنداره وكشاف وأجناد ووقعت على القبالى * الهزيمة، ولم يظهر مراد بك فى هذه المعركة بسبب جراحته، ثم هجموا على وطاقهم وخيامهم ونهبوها. ونزل محمد بك طبل بفرسه إلى البحر وغرق ومات

* الالضاشات: الاتباع.

* التبين: مركز الصف / الجيزه
* معركة ليلية ينتصر فيها اسماعيل بك على الامراء القبالى.

* القبالى : امراء الوجه القبلى من المماليك.

ورجع ابراهيم بك ومراد بك وهو مجروح ومصطفى بك وأحمد بك الكلارجى وأتباعهم وذهبوا إلى قبلى وساقوا خلفهم فلم يدركوهم ودخل اسماعيل بك والأمراء والأجناد والعسكر إلى مصر منصورين مؤيدين وكانت هذه النصرة بخلاف المظنون وكان رجوعهم يوم الأربعاء غرة شهر شعبان.

وفى ليلة السبت رابع شعبان حضر كاشف وصحبته جملة من المماليك وكان هذا الكاشف مأسورا عند القبالى فلما انهزموا أذنوا له بالرجوع إلى بيته وانضم إليه عدة مماليك ماتت أسيادهم فلما حضروا عند اسماعيل بك فرقهم على الامرا.

وفى سابعه أحضروا رمة على أغا المعمار إلى بيته فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه فى مشهد حافل ودفنوه بالقرافة. وفيه تقلد حسن بك الجداوى ولاية جرجا، وجاءت الأخبار بأن القبليين استقروا بشرق أولاد يحيى.

وفى آخر شعبان سافر حسن بك الجداوى إلى جرجا (ص١٠٣٠) وصحبته كشاف الولايات وحكام الأقاليم فضج لنزولهم ساحل البحر بسبب أخذهم المراكب.

وفى منتصف شهر رمضان ولدت امرأة مولودا يشبه خلقة الفيل* مثل وجهه وآذانه، وله نابان خارجان من فمه، وأبوه رجل جمال وامرأته لما رأت الفيل وكانت فى أشهر وحامها فنقلت شبهه فى ولدها وأخذه الناس يتفرجون عليه فى

* قصة الطفل الفيل

البيوت والأزقة.

وفى يوم الجمعة تاسع عشرين شهر رمضان ركب أمرا اسماعيل بك* وصناجقه وعساكره فى آخر الليل واحتاطوا ببيت اسماعيل بك الصغير أخى على بك الغزاوى، فركب فى مماليكه وخاصته وخرج من البيت فوجدوا الطرق كلها مسدودة بالعسكر والأجناد، فدخل من عطفة الفرن يريد الفرار، وخرج على جهة قنطرة عمر شاه فوجد العسكر والأجناد أمامه وخلفه فصار يقاتلهم ويتخلص منهم من عطفة إلى عطفة حتى وصل إلى عطفة البيدق، وأصيب بسيف على عاتقه وسقطت عمامته، وصار مكشوف الرأس إلى أن وصل إلى تجاه درب عبد الحق بالأزبكية ، فلاقاه عثمان بك أحد صناجق اسماعيل بك فرده وسقط فرسه واحتاطوا به فنزل على دكان فى أسوأ حال مكشوف الرأس والدم خارج من كركه*، فعصبوا رأسه بعمامة رجل جمال وأخذه عثمان بك إلى بيته وتركه وذهب إلى سيده فأخبره فخلع عليه فروة وفرسا مرختا* وأرسلوا إليه الوالى فخنقه ووضعوه فى تابوت وأرسلوه إلى بيته الصغير فبات به ميتا وأخرجوه (ص١٠٣١) فى صبحها فى مشهد ودفنوه، وكان اسماعيل بك قد استوحش منه وظهر عليه فى أحكامه وأوامره، وكلما أبرم شيا عارضه فيه وازدحم الناس على بيته وأقبلت إليه أرباب الخصومات والدعاوى وصار له عزوة كبيرة وانضم إليه كشاف واختيارية ، وحدثته نفسه بالانفراد وتخيل منه اسماعيل بك فتركه وما يفعله، وأظهر أنه مرمود فى عينيه وانقطع بالحريم من أول شهر رمضان، ثم سافر فى

* اسماعيل بك الكبير يغتال اسماعيل بك الصغير

* الكرك: لباس يرتدى فوق القفطان الحرير المزركش باكمامه الطويلة، وللكرك اكمام قصيرة.

* مرخت : مسرجا.

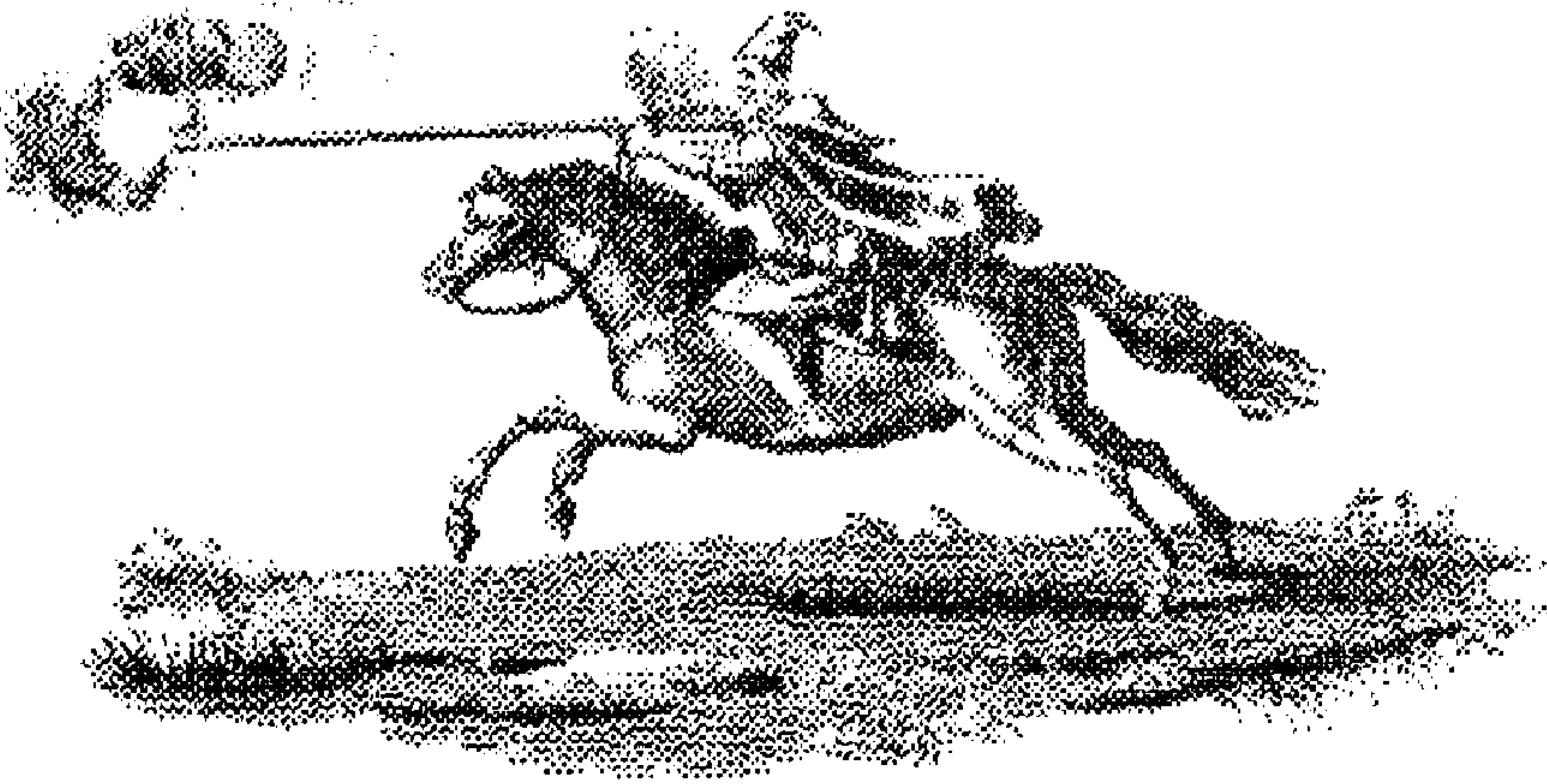
أواخره فى النيل لزيارة سيدى أحمد البدوى ثم رجع وبيت مع أتباعه ومن يثق به، وقاموا عليه وقتلوه كما ذكر، ولما انقضى أمره شرع اسماعيل بك فى ابعاد ونفى من كان يلوذ به وينتمى إليه، فأنزلوا ابراهيم بك بلفيا ومحمد أغا الترجمان وعلى كتخدا الفلاح وبعض كشاف إلى بولاق، وأراد قتل أخيه سليم أغا المعروف بتمرلنك فافتدى نفسه بثلاثين ألف ريال، ثم نفوه ثالث شوال ، ونفى ابراهيم بك بلفيا إلى المحلة، وفى تلك الأيام قرر اسماعيل بك على كل بلد من القرى ثلثماية ريال، وهى أول سيئاته.

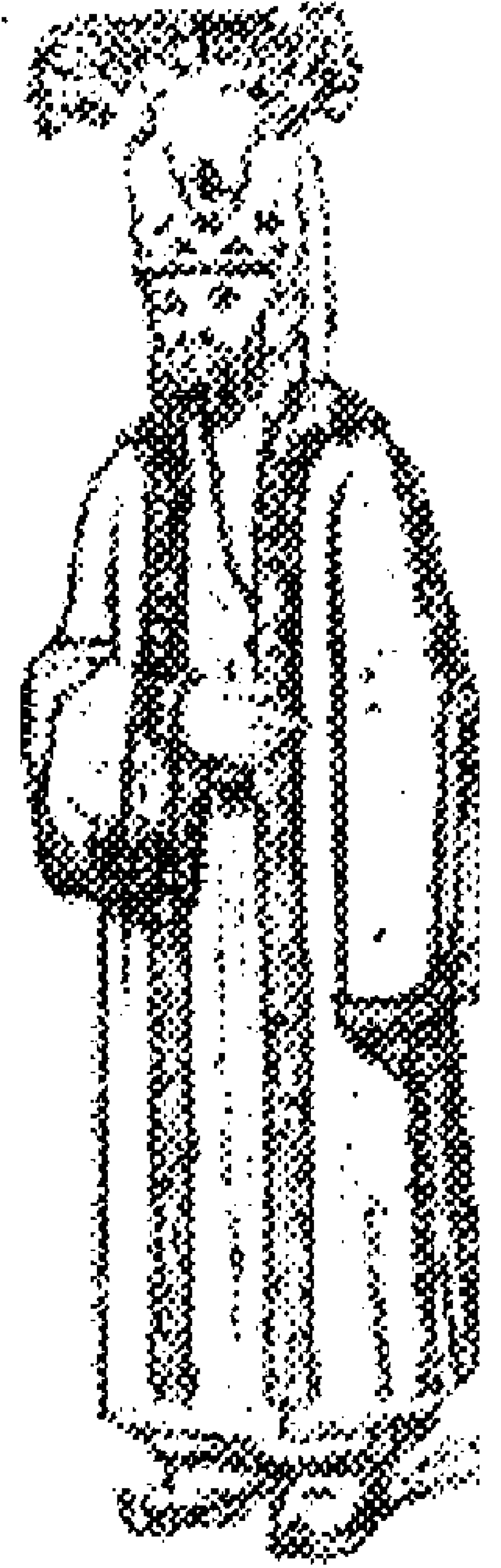
وفى يوم الأحد ثانى عشرين شوال عملوا موكب المحمل وأمير الحاج حسن بك رضوان* ، وفى يوم الخميس رابع ذى القعدة تقلد عبد الرحمن بك عثمان صنجقية وكانت مرفوعة عنه وكذلك على بك ، وفى يوم الاثنين ثامنه سافرت تجريدة لجهة الصعيد للامراء القبالى لأنهم تقووا واستولوا على البلاد، وقبضوا الخراج وملكوا من جرجا إلى فوق وحسن (ص١٠٣٢) بك أمير الصعيد مقيم وليس فيه قدرة على مقاومتهم، ومنعوا ورود الغلال حتى غلا سعرها، فعينوا لهم التجريدة وسر عسكرها رضوان بك وعلى بك الجوخدار وسليم بك وابراهيم بك طنان وحسن سوق السلاح.

* خروج المحمل واميره حسن بك رضوان

وفى يوم الأحد حادى عشرين القعدة خرج اسماعيل بك إلى ناحية دير الطين وعزم على التوجه إلى قبلى بنفسه، وأرسل الباشا فرمانات لساير الأمرا والوجاقلية وأمرهم جميعا بالسفر فخرجوا جميعا ونصبوا وطاقاتهم عند







أورته جاويش
من ضباط الانكشارية.

المعادى، ونزل الباشا وجلس بقصر العينى وطلبوا طلبا عظيما.

وفى يوم الجمعة عدى اسماعيل بك إلى البر الثانى وترك بمصر عبد الرحمن أغا مستحفظان كتخدا ورضوان بك بلفيا وعثمان بك طبل وابراهيم بك قشطة صهره وحسين بك ومقادم الأبواب لحفظ البلد، فكان المقادم يدورون بالطوف [العسكر] فى الجهات ليلا ونهارا مع هدو سر الناس وسكون الحال فى مدة غياب الجميع.

وفى سادس شهر الحجة وصلت مكاتبات من اسماعيل بك ومن الامرا الذين بصحبته بأنهم وصلوا إلى المنية ، فلم يجدوا بها أحد من القبليين وأنهم فى أسيوط ومعهم



باش جاويش

اسماعيل ابو علي من كبار الهوارة.

وفي سابع عشره حضر الوجاقلية الذين كانوا بالتجريدة وحضر أيضا أيوب أغا كان عند القبالي فحضر (ص١٠٣٣) إلى عند اسماعيل بك بأمان واستأذنه في التوجه إلى بيته ليرى عياله، فأذن له وأرسله صحبة الوجاقلية.

وسبب رجوع الوجاقلية لما رأى اسماعيل بك بعد الامراء وأراد أن يذهب خلفهم، فأمرهم بالرجوع للتخفيف وانقضت هذه السنة.

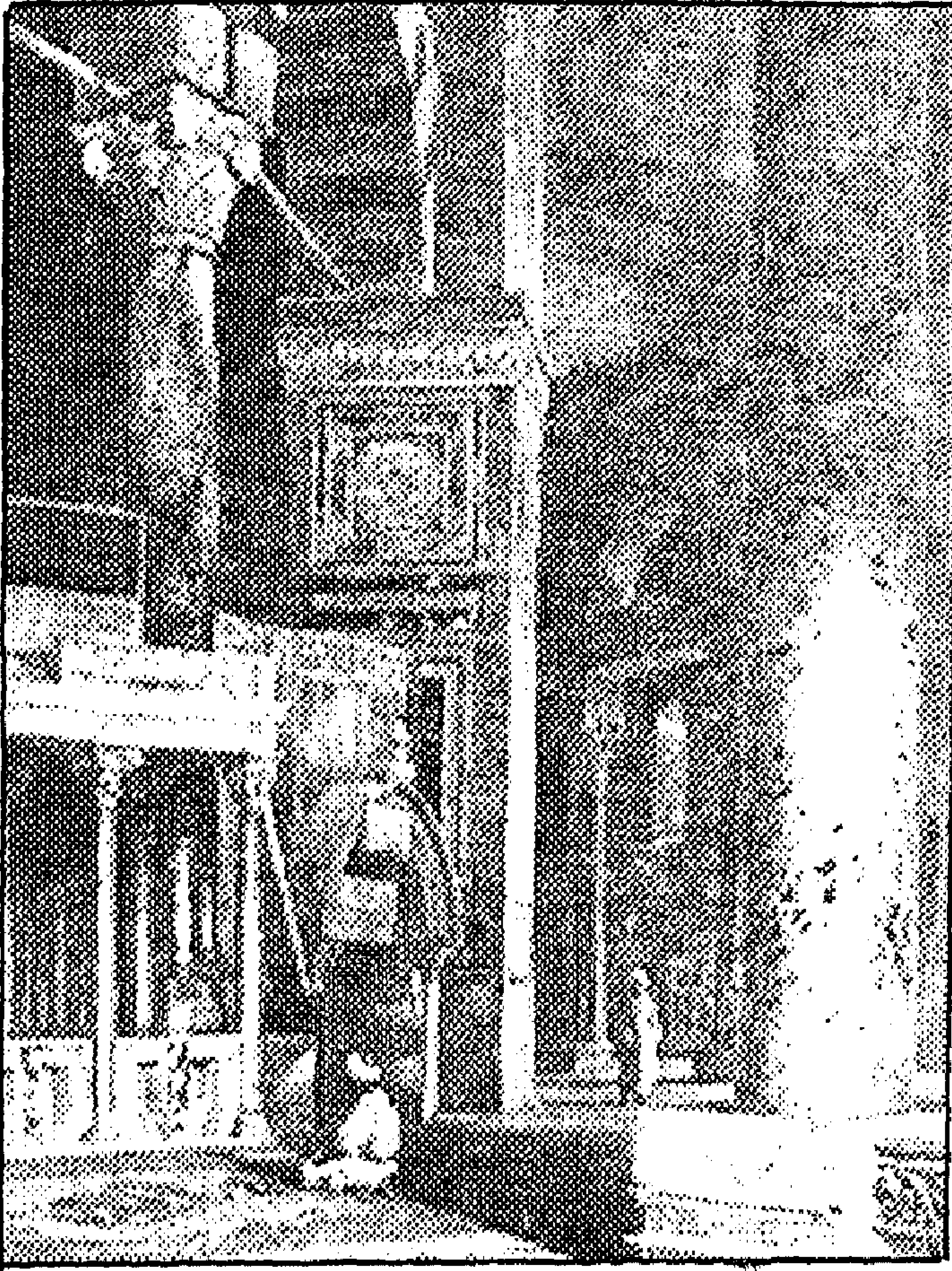

قائد انكشارى

(ذكر من مات في هذه السنة)

٤٠٠ محمد هاشم الاسيوطي

(ومات) الشريف الصالح المرشد الواصل السيد/ محمد هاشم الأسيوطي، ولد بأسيوط وبيتهم يعرف ببيت فاضل، نشأ ببلده على قدم الخير والصلاح، وحضر دروس الشيخ حسن الجديري ثم ورد إلى مصر فحضر دروس كل من الشيخ محمد البليدي والشيخ محمد الشماوي والشيخ عطية الأجهوري وأخذ الطريق على الشيخ عبد الوهاب العفيفي، وكان منقطعا للعبادة متقشفا متواضعا، وكان غالب جلوسه بالأشرفية ومسجد الشيخ مطهر، وكان لا يزاحم الناس ولا يداخلهم في أحوال دنياهم، ولهم فيه اعتقاد عظيم ويذهبون لزيارته ويقتبسون من إشارته واستخارته، ويتبركون بإجازته في الأوراد والأسماء، ويسافر لزيارة سيدى أحمد البدوى ثم يعود إلى خلوته، وربما مكث عند بعض أصدقائه


جندى يحمل قرابينه وطلبته



أياما بقصد البعد عن الناس وعندما يعلمون استقراره بالخلوة، ويزدحمون على زيارته، وكان نعم الرجل (ص١٠٣٤) سمتا وورعا، توفي في سابع شعبان في بيته بالأزبكية وصلوا عليه بالأزهر ودفن بالمجاورين ، رحمه الله.

محمد العوفي.

[ومات] الشيخ الإمام الأديب الفاضل الفقيه أحد العلما الأعلام الشيخ محمد بن ابراهيم العوفي المالكي ،لازم الشمس الحفني وأخاه الشيخ يوسف، وحضر دروس الشيخ على العدوى والشيخ عيسى البراوى، وأفتى ودرس، وكان شافعي المذهب، فسعى فيه جماعة عند الشيخ الحفنى فأحضره وأثبت عليه بخطه ما نقل عنه فتوعده، فلحق بالشيخ على العدوى وانتقل لمذهب مالك، وكان رحمه الله

عالما محصلا بحاثا متفننا غير عشر البديهة، شاعرا ما جنا خليعا، ومع ذلك كان حلقة درسه تزيد على الثلاثماية في الأزهر، مات رحمه الله مفلوجا، وحين أصابه المرض رجع إلى مذهب الشافعي وقرأ ابن قاسم بمسجد قريب من منزله، ويحمله الطلبة إلى المسجد فيقرأ وهو يتعلثم لتعقد لسانه بالفالج مع ما كان فيه من الفصاحة أولا، ثم برى يسيرا، ولم يلبث أن عاوده المرض وتوفى إلى رحمة الله تعالى.

[ومات] الأديب الماهر الشيخ/ رمضان بن محمد المنصورى الأحمدى الشهير بالحمامى سبط آل الباز، ولد بالمنصورة، وقرأ المتون على مشايخ بلده، وانزوى إلى شيخ الأدب محمد المنصورى (ص١٠٣٥) الشاعر فرقاه فى الشعر وهذبه وبه تخرج، وورد إلى مصر مرارا، وسمعنا من قصايده وكلامه الكثير، وله قصايد سنية فى المدايح الأحمدية تنشد فى الجموع، وبينه وبين الأديب قاسم عبد القادر المدنى محاورات ومداعبات، وأخبر أنه ورد الحرمين من مدة، ومدح كلا من الشريف والوزير وأكابر الأعيان بقصايد طنانة، كان ينشد منها جملة مستكثرة مما يدل على سعة باعه فى الفصاحة ، ولم يزل فقيرا مملقا يشكو الزمان وأهليه ويذم جنى بنيه، وبآخرة تزوج امرأة موسرة بمصر، وتوجه بها إلى مكة فأتاه الحمام وهو فى ثغر جدة فى سنة تاريخه، ومن آثاره تعجيز وتصدير البيتين المشهورين وهما: ٤٠٢ رمضان الحمامى.

إن ألطاف إلهى

عند كربى المتناهى

هى كـــــانت نـعم جـــــاهى

وإذا مـــــا صـــــرت ســـــاهى

لى قـــالت خل عـنكمـــا

لا تـدبـــر لـــك أمـــــــــــرا

تلق بعـــد العـــســـر يســـرا

وارقـب الألـطـاف صـــــبــــــرا

حـــيث قـــالت لك جـــهـــرا

أنـــا أولـــى بـــك مـــنـــكـــا

ومن ذلك قوله مشطرا تعجيز أحمد بن أبى بكر بن نظام تصدير بدر خوج بيتى ابن مكانس وهما:

فـــتنت به حلو الشـــمـــايل أهيف *

تغـــار غـصـــون البـان *منـه إذا مـــشى

يعـــذبنى والغـــيـــر يحـظى بوصله

وذلك فـــضل الله يؤتيـــه من يشـــا

: ضامر البطن رقيق الخصر.

: شجر معتدل القوام، يشبه به القد

* * *

(فـــتنت به حلو الشـــمـــايل أهيف)

مرير الجفـا بالسحر عينيه قد حشا

هلاك تبـــدى فى ســـمـــاء كـــمـــاله

له مـــسكن فى وَسْط قلبى والحـــشـــا

فطلعـــتـــه يســبى القلوب جـــمـــالهـــا

وناظره بالفـــتك فـــينا تحـــرشـــا

بروحى مـــحـــيـــاه الجـــمـــيل إخـــاله

كـــشـمس الضـحى نورا لقلبى أدهشـــا



مليح التــثنى لست ألقى نظيـــره

وهل توجـد العنقـاء فى مـصـر أوبشـا *

قليل الوفـا لم اسـتطع كـتم حـبـه

كـثيـر التـجنى فـيـه حـبى قـد فـشـا

جـــمــيل وترى بالظبى * لفـــتـــاته

فيها خجلة الأقمار يوكسها * الرشـــا

تـغـــــيـب بـدور التـم مـنـه إذا بدا

(تغـار غـصـون البـان منه إذا مـشى)

(ويعــذبنى والغـيـــر يحظى بوصله)

فـيـا شقـوتى فى الحب ياسـعـد من وشـا

فـيـا عـصـبـة العـذال كـفـوا مـلامكم

فـفكرى لغيــر الحب فـيـه تشـوشـا

* بشا : أى بالشام

* الظبى : مفردها ظبة، وهى حد السيف أو السنان ونحوهما.

* يوكسها الرشا: يوكس ينقص . الرشا: ولد الظبية.

أبيت سـمـيـر النجم أرجـو خـيـاله
يعـود فـمـا أحـلاه أن مـر أو مـشى
فما زال طرفي شيقا لجماله (ص١٠٣٧)
ومـازال قلبى للقـا مـتـعـطشـا
مـتى قـاتنى بالوصل يبـعـد حـرقـتى
ويرشـفنى من ريقـه العـذب منعـشـا
فـهـا مـقلتى الرصـداء ترقب قـربه
فللعين وصل الحب نور من العـشـا
فـمـا الوصل إلا نعـمـة وتفـضل
يفـوز به القـاصى ويحـرم من يشـا
ولا عـيـبـة فى قـرب هذا وبعـد ذا
(وذاك فـضل الله يؤتيـه من يشـا)

٤٠ الأمير يوسف بك الكبير

(ومات) الأمير يوسف بك الكبير وهو من أمراء محمد بك أبي الدهب أمره في سنة ست وثمانين وزوجه بأخته، وشرع في بنا داره على بركة الفيل داخل درب الحمام تجاه جامع الماس، وكان يسلك إليها من هذا الدرب من طرق الشيخ ظلام، وكان هذا الدرب كثير العطف ضيق المسالك فأخذ بيوته بعضها شرا وبعضها غصبا، وجعلها طريقا واسعة وعليها بوابة عظيمة، وأراد أن يجعل أمام باب داره رحبة متسعة، فعارضه جامع خير بك حديد فعزم على هدمه ونقله إلى آخر الرحبة، فسأل المرحوم الوالد وكان يعتقد ويجنح إلى قوله فقال له لا يجوز ذلك فامتثل وتركه على حاله، واستمر يعمر فى تلك الدار نحو خمس سنوات، وأخذ بيت الداوودية الذى بجواره وهدمه جميعه وأدخله فيها، وصرف

(ص١٠٣٨) في تلك الدار أموالا عظيمة، فكان يبنى الجهة منها حتى يتمها بعد تبليطها وترخيمها بالرخام الدقى الخردة المحكم الصنعة والسقوف والأخشاب والرواشن * والخرط والأدهان ، ثم يوسوس له شيطانه فيهدمها إلى آخرها ويبنيها ثانيا على وضع آخر، وهكذا كان دأبه، واتفق أنه ورد إليه من بلاده القبلية ثمانون ألف إردب غلال، فوزعها بأسرها على الموانة في ثمن الجبس والجير والأحجار والأخشاب والحديد وغير ذلك، وكان فيه حدة زائدة وتخليط فى الأمور والحركات ولا يستقر بالمجلس، بل يقوم ويقعد ويصرخ ، ويروق حاله فى بعض الأوقات فيظهر فيه بعض إنسانية، ثم يتغير ويتعكر من أدنى شي، ولما مات سيده محمد بك وتولى إمارة الحج ازداد عتوا وعسفا وانحرافا، خصوصا مع طايفة الفقها والمتعممين لأمور نقمها عليهم. منها أن شيخا يسمى الشيخ أحمد صادومة وكان رجلامسنا ذا شيبة وهيبة وأصله من سمنود* وله شهرة عظيمة وباع طويل فى الروحانيات وتحريك الجمادات والسيميات*ويكلم الجن و يخاطبهم مشافهة ويظهرهم للعيان، كما أخبرنى عنه من شاهده، وللناس اختلاف فى شأنه، وكان للشيخ حسن الكفراوى به التئام وعشرة ومحبة أكيدة واعتقاد عظيم ويخبر عنه أنه من الأوليا وأرباب الأحوال والمكاشفات، بل يقول (ص١٠٣٩) إنه هو الفرد الجامع، وتوه بشأنه عند الأمرا وخصوصا محمد بك أبا الدهب فراج حال كل منهما بالآخر، فاتفق أن الأمير المذكور اختلى بمحظيته فرأى على سوتها كتابة فسألها عن ذلك وتهددها بالقتل فأخبرته أن المرأة الفلانية ذهبت بها إلى هذا الشيخ، هو الذى كتب

* الرواشن : جمع مفرده روْشن: وهو الكوة بفتح الكاف وضمها: اى ثقب البيت، فالمراد بالرواشن الطاقات فى الحائط ، ومفردها طاق.

* سمنود : مركز من مراكز الغربية

* السيميات: جاء فى مقدمة ابن خلدون فى بابى علوم السحر والطلسمات، وعلم أسرار الحروف ما ملخصه:
صناعة السيميا: هى إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى، ويكون بالقوة النفسية لا بالصناعة المعملية. فهو من قبيل السحر، ويسمى علم السيميا علم أسرار الحروف وقد ظهر هذا العلم عند غلاة المتصوفة وجنوحهم إلى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على أيديهم، والتصرفات فى عالم العناصر.
وحاصله عندهم وثمرته: تصرف النفوس الربانية فى عالم الطبيعة بالأسماء الحسنى والكلمات الإلهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار السارية فى الأكوان

لها ذلك ليجبها إلى سيدها، فنزل فى الحال وأرسل فقبض على الشيخ صادومة المذكور وأمر بقتله وإلقائه فى البحر [النيل] ففعلوا به ذلك، وأرسل إلى داره فاحتاط بما فيها فأخرجوا منها أشياء كثيرة وتماثيل ومنها تمثال من قطيفة على هيئة الذكر فأحضروا له تلك الأشيا، فصار يريها للجالسين عنده والمترددين عليه من الأمرا وغيرهم، ووضع ذلك التمثال بجانبه على الوسادة فيأخذه بيده ويشير لمن يجلس معه ويتعجبون ويضحكون، ويقول: انظروا أفاعيل المشايخ، وعزل الشيخ حسن الكفراوى من إفتا الشافعية ورفع عنه وظيفة المحمدية، وأحضر الشيخ احمد بن يوسف الخليفي وخلع عليه وألبسه فروة وقرره فى ذلك عوضا عن الشيخ الكفراوى، واتفق أيضا أن الشيخ عبد الباقى ابن الشيخ عبد الوهاب العفيفى طلق على زوج بنت أخيه فى غيابه على يد الشيخ حسن الجداوى المالكى على قاعدة مذهبه، وزوجها من آخر، وحضر زوجها (ص١٠٤٠) من الفيوم وذهب إلى ذلك الأمير وشكا له الشيخ عبد الباقى فطلبه فوجده غايبا فى منيةعفيف* فأرسل إليه أعوانا أهانوه وقبضوا عليه ووضعوا الحديد فى رقبته ورجليه وأحضروه فى صورة منكرة وحبسه فى حاصل أرباب الجرايم من الفلاحين، فركب الشيخ على الصعيدى العدوى والشيخ الجداوى وجماعة كثيرة من المتعممين وذهبوا إليه وخاطبه الشيخ الصعيدى وقال له ما هذه الأفعال وهذا التجارى؟ فقال له أفعالكم يامشايخ أقبح، فقال له هذا قول فى مذهب المالكية معمول به، فقال من يقول إن المرأة تطلق زوجها إذا غاب عنها وعندها ما تنفقه وما تصرفه ووكيله يعطيها ما

ـةعفيف: أو ميت عفيف: قرية من قرى
ـز الباجور منوفية.

تطلبه، ثم يأتي من غيبته فيجدها مع غيره؟ فقالوا له نحن أعلم بالأحكام الشرعية، فقال لو رأيت الشيخ الذى فسخ النكاح، فقال الشيخ الجداوى أنا الذى فسخت النكاح على قاعدة مذهبى، فقام على أقدامه وصرح وقال : والله أكسر رأسك، فصرخ عليه الشيخ على الصعيدى وسبه، وقال له : لعنك الله ولعن اليسرجى * الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميرا، فتوسط بينهم الحاضرون من الأمرا يسكنون حدته وحدتهم، وأحضروا الشيخ عبد الباقي من الحبس فأخذوه وخرجوا وهم يسبونه وهو يسمعهم. واتفق (ص١٠٤١) أيضا أن الشيخ عبد الرحمن العريشى لما توفى صهره الشيخ أحمد المعروف بالسقط وجعله القاضى وصيا على أولاده وتركته وكان عليه ديون كثيرة أثبتها أربابها بالمحكمة واستوفوها وأخذ عليهم صكوكا بذلك، فذهبت زوجة المتوفى إلى يوسف بك بعد ذلك بنحوست سنوات وذكرت له أن الشيخ عبد الرحمن انتهب ميراث زوجها وتواطأ مع أرباب الديون وقاسمهم فيما أخذوه، فأحضر الشيخ عبد الرحمن وكان إذ ذاك مفتى الحنفية وطالبه بإحضار المخلفات أو قيمتها فعرفه أنه وزعها على أرباب الديون وقسم الباقى بين الورثة وانقضى أمرها. وأبرز له الصكوك والحجج ودفتر القسام، فلم يقبل وقال هذا كله تزوير وفاتحه في عدة مجالس وهو مصر على قوله وطلبه للتركة، ثم أحضره يوما وحبسه عند الخازندار، فركب شيخ السادات إليه وكلمه في أمره وطلبه من محبسه فلما علم الشيخ عبد الرحمن حضور شيخ السادات هناك رمى عمامته وفراجته وتطور وصرخ وخرج يعدو مسرعا وهو

* اليَسَرْجى: تاجر الرقيق.

يقول بيتك خراب يايوسف بك ونزل إلى الحوش صارخا بأعلى صوته وهو مكشوف الراس يقول ذلك وأمثاله فلما عاينه يوسف بك وهو يفعل ذلك احتد الآخر و كان جالسا مع شيخ السادات فى المقعد المطل على الحوش، فقام على أقدامه وصار (ص١٠٤٢) يصرخ على خدمه ويقول أمسكوه اقتلوه ونحو ذلك، وشيخ السادات يقول له : أى شيء هذا الفعل؟ اجلس يامبارك، وأرسل إليه تابعه الشيخ ابراهيم السندوبى فنزل إليه وألبسه عمامته وفراجته ونزل الشيخ فركب وأخذه صحبته إلى داره، وتلافوا القضية وسكتوها، ثم حصل منه ما حصل فى الدعوى المتقدمة وما ترتب عليها من الفتنة وقفل الجامع وقتل الأنفس، وثقل أمره على مراد بك وأضمر له السو، فلما سافر أميرا بالحج فى السنة الماضية قصد مراد بك اغتياله أو نفيه عند رجوعه بالحج، واتفق مع أمرائه وضايع القضية. وسافر إلى جهة الغربية والمنوفية وعسف فى البلاد ويريد أن يجعل عودته على نصف الشهر فى أوان رجوع الحج، ووصل الخبر إلى يوسف بك فاستعجل الحضور فصار يجعل كل مرحلتين فى مرحلة حتى وصل محترسا فى سابع صفر قبل حضور مراد بك من سرحته، وعندما قرب وصول مراد بك إلى دخول مصر ركب يوسف بك فى مماليكه وطوايفه وعدده، وخرج إلى خارج البلد فسعى إبراهيم بك بينهما وصالحهما، واستمرت بينهما المنافرة القلبية من حينئذ إلى أن حصل ما حصل وانضم إلى اسماعيل بك ثم قتله اسماعيل بك بيد حسن بيك واسماعيل بك الصغر (ص١٠٤٣) كما تقدم.

٤٠٤ على أغا المعمار أبى الجلب.

[ومات] الأمير/ على أغا المعمار وهو من مماليك مصطفى بك المعروف بالقرد وخشداش صالح بك الكبير، وكان من الأبطال المعروفين والشجعان المعدودين فلما قتل كبيرهم صالح بك استمر فى بلاد قبلى على ما يتعلق به من الالتزام ويدفع ما عليه من المال والغلال إلى أن استوحش محمد بك أبو الذهب من سيده على بك وخرج إلى الصعيد وقتل خشداشه أيوب بك، وتحقق الأجانب بذلك صحة العداوة فأقبلوا على محمد بك من كل جانب برجالهم وأموالهم ومنهم على أغا المذكور، وكان ضخما عظيم الخلقة جهورى الصوت شهما يصدع بالكلام، فأنس به محمد بك وأكرمه واجتهد هو فى نصرته ومنا صحته، وجمع إليه الأمراء والأجناد المنفيين والمطرودين الذين شتتهم على بك وقتل أسيادهم ، وكبار الهوار الذين قهرهم على بك أيضا، واستولى على بلادهم مثل أولاد همام وأولاد نصير وأولاد وافى واسماعيل أبى على وأبى عبد الله وغيرهم، وحضر معه الجميع إلى جهة مصر كما تقدم، ولما وصلوا إلى تجاه التبين وأخرج لهم على بك التجريدة وأميرها على بك الطنطاوى خرج على أغا هذا إلى الحرب هو ومن معه وبأيديهم مساوق* غلاظ قصيرة ولها جلب حديد وفى طرفها أزيد من قبضة (ص١٠٤٤) بها مسامير متينة محددة الروس إلى خارج ، يضربون بها خوذة الفارس ضربة واحدة فتنخسف فى دماغه، وكانت هذه من مبتكرات المترجم حتى إنه تسمى بأبى الجلب، ولما خلصت إمارة مصر إلى محمد بك جعل كتخداه اسماعيل أغا على بك الغزاوى المذكور، فنقم عليه أمورا فأهمله وأحضر على أغا هذا

* مساوق: عصى بجلب حديد فى طرفها كرة حديد مزودة بمسامير حادة،وهى من ابتكار على أغا المعمار.

وخلع عليه وجعله كتخداه، فسار فى الناس سيرا حسنا ويقضى حوايج الناس من غير تطلع إلى شىء، ويقول الحق ولو على مخدومه، وكان مخدومه أيضا يحبه ويرجع إلى رأيه فى الأمور لما تحققه فيه من المناصحة وعدم الميل إلى هوى النفس وعرض الدنيا، وكان يحب أهل العلم والفضل والقرآن ويميل بكليته إليهم مع لين الجانب والتواضع عدم الأنفة، ولما أنشأ محمد بك مدرسته المحمدية تجاه الأزهر وقرر فيها الدروس كان يحضر معنا المترجم على شيخنا الشيخ على العدوى فى صحيح البخارى مع الملازمة ، واتخذ لنفسه خلوة بالمدرسة المذكورة يستريح فيها وتأتيه أرباب الحوايج فيقضى لهم أشغالهم، وكان يلم بحضرة الشيخ محمد حفيد الأستاذ الحفنى ويحبه وأخذ عنه طريق السادة الخلوتية وحر دروسه مع المودة وحسن العشرة، ويحضر ختوم* دروس المشايخ ويقرأ عشرا من القرآن بأعلى صوته (ص١٠٤٥) عند تمام المجلس، ومملوكه حسن أغا الذى زوجه ابنته واشتهر بعده، وحج المترجم فى السنة الماضية فى هيئة جليلة وآثار جميلة، وتوفى فى وقعة بياضة قتيلا كما تقدم.

* ختوم: أي ختوم دروس المشايخ : أى احتفال العلماء بالانتهاء من دراسة كتاب أو علم.

٤٠٥ اسماعيل بك الصغير

(ومات) الأمير/ اسماعيل بك الصغير وهو أخو على بك الغزاوى وهم خمسة إخوة على بك واسماعيل بك هذا وسليم أغا المعروف بتمرلنك وعثمان وأحمد، ولما تأمّرَ على بك كان إخوته الأربعة باسلامبول مماليك عند بشير أغا القزلار وأعتقهم وتسامعوا بإمارة أخيهم فحضر إليه اسماعيل وأحمد وسليم واستمر عثمان باسلامبول وأقام اسماعيل وسليم وأحمد بمصر، وعمل اسماعيل كتخدا عند أخيه

على بك وعمل سليم خازندار عند ابراهيم كتخدا أياما ثم قامت عليه مماليكه وعزلوه لكونه أجنبيا عنهم، وصار لهم إمرة وبيوت والتزام، وتزوج اسماعيل بهانم ابنة رضوان كتخدا الجلفى وهى المسماة بفاطمة هانم، وذلك أن رضوان كتخدا كان عقد لها على مملوكه على أغا الذى قلده الصنجقية ولم يدخل بها، ولما خرج رضوان كتخدا وخرج معه على المذكور فيمن خرج كما تقدم وذهب إلى بغداد أرسل لها يطلبها إليه من مصر، وأرسل مع وكيله عشرة آلاف دينار وأشيا فلم يسلموا فى إرسالها، وكتبوا فتوى بفسخ النكاح على قاعدة مذهب مالك وتزوجها اسماعيل أغا هذا وظهر ذكره بها وسكن (ص١٠٤٦) بها فى دار أبيها العظيمة بالأزبكية، وصار من أرباب الوجاهة، فلما استقل محمد بك أبو الدهب بملك مصر بعد سيده استوزره وجعله كتخداه مدة، وأراد أن يتزوج بالست سلن محظية رضوان كتخدا وكان تزوج بها أخوه على بك ومات عنها، فصرفه مخدومه محمد بك أبو الدهب وعرفه أنها ربما امتنعت عليه مراعاة لهانم ابنة سيدها، فركب محمد بك وأتى عند على أغا كتخدا الجويشية المجاور لسكنها بدرب السادات وأرسل إليها على أغا فلم يمكنها الامتناع، فعقد عليها ، وماتت هانم بعد ذلك، وباع بيت الأزبكية لمخدومه محمد بك، وبنى داره المجاورة لبيت الصابونجى وصرف عليها أموالا كثيرة، وأضاف إليها البيت الذى عند باب الهواء المعروف ببيت المرحوم من الشرايبية وسكنها مدة، وزوجه محمد بك سرية من سرارية أيضا ثم باع تلك الدار لأيوب بك الكبير وسكنها، ولما سافر محمد بك إلى الشام لمحاربة الظاهر عمر أرسل المترجم من هناك إلى اسلامبول بهدايا وأموال للدولة ومكاتبات بطلب ولاية

* عهد سيدنا عمر رضى الله عنه:

لما فتح عمر بيت المقدس استأذنه عمرو بن العاص فى فتح مصر، فأغزاه، ثم أتبعه الزبير ابن العوام، فساروا سنة عشرين (هجرية) أو إحدى أو اثنتين أو خمس (أى وعشرين) فلما حاربوا المصريين وحاصروهم راسلهم أهل البلاد حتى صالحهم عمرو والزبير على الجزية، وأجروا ما أخذوا قبل ذلك عنوة، فجرى الصلح ، وشرطوا رد السبايا. فأمضى لهم عمر ابن الخطاب عهد الصلح على أن يجيز السبايا فى الاسلام، وكتب العهد بينهم ونصه:

بسم الله الرحمن الرحيم:

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان علي أنفسهم ودمهم وأموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعدهم، لا يزيد شىء فى ذلك، ولا ينقص، ولا يساكنهم النوب وعلى اهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف وعليه ما جنى لصرتهم، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بعددهم، وذمتنا من أبى برية. وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر

مصر والشام، وأجيب إلى ذلك، وكتب له التقليد وأعطوه رقم الوزارة وتم الأمر، وأراد المسير بذلك إلى محمد بك فورد الخبر بموته فبطل ذلك، ورجع المترجم إلى مصر وأقام بها في ثروة (ص١٠٤٧) إلى أن حصلت الوحشة بين اسماعيل بك ويوسف بك والجماعة المحمدية وكانت الغلبة عليهم، فقلده اسماعيل بك الصنجقية وقدمه في الأمور ونوّه بشانه، وأوهمه أنه يريد تفويض الأمور إليه لما يعلمه فيه من العقل والرياسة فاغتر بذلك، وباشر قتل يوسف بك هو وحسن بك الجداوى كما تقدم، وظن أن الوقت صفا له فاندفع في الرياسة وازدحمت الروس عليه وأخذ في النقض والإبرام، فعاجله اسماعيل بك وأحاطوا به وقتلوه كما ذكر، وكان ذا دها ومعرفة وفيه صلابة وقوة جنان وحزم مع التواضع وتهذيب الأخلاق ، وكان يحب أهل العلم ويكره النصارى كراهة شديدة وتصدى لأذيتهم أيام كتخدائيته لمحمد بك وكتب في حقهم فتاوى بنقضهم العهد وخروجهم عن طرايقهم التي أخذ عليهم بها من أيام سيدنا عمر* رضى الله عنه ، ونادى عليهم ومنعهم من ركوب الحمير ولبسهم الملابس الفاخرة وشراهم الجوارى والعبيد واستخدامهم المسلمين وتقنع نسايهم بالبراقع البيض ونحو ذلك، وكذلك فعل معهم مثل ذلك عندما تلبس بالصنجقة، وكان له اعتقاد عظيم في الشيخ محمد الجوهرى ويسعى بكليته في قضاء أشغاله وحوايجه، وكان لا بأس به.

ذلك، ومن دخل في صلحهم من الروم والنّوب فله ما لهم، وعليه ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا، وعليهم ما عليهم أثلاثا في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم، على مافي هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمم المؤمنين.
وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا، وكذا وكذا فرسا، على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة. شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه. وكتب وردان وحضر.» انتهى.

فدخل في ذلك أهل مصر كلهم، وقبلوا الصلح، ونزل المسلمون الفسطاط.
(القسم الخامس . المجلد الثاني من تاريخ ابن خلدون ص٩٧١)

وقال بعض المؤرخين: إن مصر فتحت عنوة بغير عهد واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران عن كل نفس، شريفهم ووضيعهم، من بلغ الحلم منهم، وليس على الشيخ الفاني، ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم، ولا النساء شيء، وعلى أن للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يعرض لهم في شيء منها . وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية فكانوا أكثر من ستة الاف ألف نفس، فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار في كل سنة كانت تذهب للخليفة في الحجاز ويصرف منها على الجند،والمسلمين الفقراء القائمين بغير عمل.

٤٠٦ قاسم كتخدا عزبان.

(ومات) الأمير (ص١٠٤٨) / قاسم كتخدا عزبان وكان من مماليك محمد بك أبى الذهب وتقلد كتخدائية العزب وأمين البحرين، وكان بطلا شجاعا موصوفا ، ومال عن خشداشينه كراهة منة لأفعالهم حتى خرج إلى محاربتهم وقتل، غفر الله له.

*رؤية الرحالة فولني لمصر في عهد علي بك الكبير

النيل واتساع الدلتا

النيــل علة وجود مصر من الناحيتين الطبيعية والسـياسـية: فهـو وحـده يسـد أولى حـاجـات الكائنات العضـوية، وهي الحـاجة إلى المـاء، ومـا امسـها في المناخات الحارة المتعطشة أبدا إلى ذلك العنصـر الرئيسي. فالنيل وحده بمعزل عن معونة سمـاء شحيحة المطر يحمل الى كل سقع غذاء الزرع. فهو بحلوله ثلاثة اشهر على الارض يشربها مـقـدارا من الماء يجعلها في غنى عنه سائر ايام السنة. ولولا فيضانه لما امكن استغلال الارض الا في بقعة ضيقة الحدود كثيرة التكاليف. ومن الصـواب القـول انه مقياس البحبوحة والخير والحـياة. ولو ان البرتغالي «ألبو كرك» استطاع تنفيذ مشروعه بتحويل مجراه من اثيوبيا الى البحر الاحمر، لما كان هذه البقة الخصبة الا صحراء تضاهي بوحشيتها الفلوات المحيطة بها. ومتى رأينا الى أي مدى يستخدم الانسان طاقة هذا النهر، لا يبقى في وسعنا ان نلوم الطبيعة على انها منعت عنه المزيد.

وقد حق للمصريين في سائر الازمنة واليوم ان ينظروا الى النيل نظرة اجلال ديني، ومياه النهر طوال ستة اشهر كثيرة الاعتكار حتى انها لا تسوغ للشرب مالم تصف. وفي الشهور الثلاثة التي تسبق الفيضان يقل عمقها وتسخن في مسائلها فتخضر وتأسن وتمتلئ بالديدان، فتدعو الحاجة عندئذ الى استخدام المياه المخزونة في الآبار. اما المترفهون فانهم يقطرون الماء ويبردونه بالتبخر.

لقد كتب الرحالون والمؤرخون كثيرا عن النيل وغرائبه حتى كدت اعتقد بادئ ذي بدء ان الموضوع افضى الى نفاد، على ان الآراء تتبدل في اقل الاشياد تبدلا. فان لم يكن لديك في بعض الاحيان جديد يقال، فلا اقل من ان تصلح ما قيل. وهذا هو شأني تجاه بعض الآراء التي ضمنها المسيو سافاري رسائله وقد مثلت للطبع حديثا. فان ما اراد اثباته من امر انبساط الدلتا وارتفاعها يختلف عن النتائج التي ايدتها الوقائع في نظري والاسناد التي يحتج بها هو نفسه اختلافا يحملني على بسط مناقضاتنا امام الرأى العام. ومتى عرفت ان اقامة السيد سافاري امتدت الى سنتين في تلك البلاد، مما يجعل لرأيه وزنا لا يلبث ان يصبح حجة راجحة، تبين لك ضرورة هذا الجدل الذي اباشره. فلنبسط المسائل ولنعالج اولا قضية انبساط الدلتا او اتساعها.

ان مؤرخا يونانيا قد ذكر عن مصر كل ما نعرفه عنها تقريبا وما تؤيده الايام. عنيت به هيرودیس الهاليكرنافي Herodote d'Halycarnaffe الذي كتب من اثنين وعشرين قرنا ما يلي:

«ان مصر حيث ينزل الاغارقة من البحر (الدلتا) هي ارضا مكتسبة، وهي هبة النهر شأن كل الاصقاع المستنقعة التي تمتد صعدا على مسافة ثلاثة ايام ركوبا في النهر..»

والاسباب التي يحتج بها اثباتا لقوله تدل على انه لا يسندها الى حكم مبتسر، اذ يقول:

«وفي الواقع ان ارض مصر التي هي من الطين الاسود الاخضر تختلف تمام الاختلاف عن ارض افريقيا الرملية الحمراء وعن ارض جزيرة العرب الخرفية المصخرة.. وهذا الطين ينقله النيل من اثيوبيا.. والاصداف التي تحتويها الصحراء تدل دلالة كافية على ان البحر، فيما سلف ، كان اكثر اقتحاما للارض».

ان هيرودتس باعترافه بتخطي النهر، وهو امر

* ثلاثة اعوام في مصر وبر الشام بقلم س .ف. فولني الجزء الاول نقله الى العربية ادوار البستاني

يوائم طبيعةالاشياء، لم يعين مدى تخطيه. على ان سافارى حسب انه بامكانه ان يفعل . فلنتفحص كيف علل ذلك:

«ان مصر[١] اذا تزايدت ارتفاعا تزايدت فى الطول ايضا، وبين الوقايع الكثيرة التى اوردها التاريخ اختار واحدة فقط، انه فى ايام الملك بسامتيكوس [بسماتيك] رست مراكب الميليزين وعددهما ثلاثون عند مصب بلبطين ، وهى اليوم رشيد، وتحصنوا فيها. وبنوا مدينة اسموها متليس، وهى «فوه» التى احتفظت باسم «مسيل» فى مصطلحات الاقباط. ان هذه المدينة ، التى كانت فيما مضى على البحر، اصبحت تبعد عنه اليوم تسعة فراسخ. وهو المدى الذى انبسطت عليه الدلتا من ايام بسامتيكوس الى اليوم».

اول ما يتبادر الى الذهن ان هذا التعليل فى منتهى الدقة. على اننا برجوعنا الى الاصل الذى استقى منه سافارى نجد انه غفل عن الامر الاهم. واليك نص استرابون مترجما بحرفه[٢]:

«بعد مصب بلبطين يقوم رأس رملى منخفض يسمى قرن الحمل وينفذ بعيدا (فى البحر) ، ثم يأتى مرقب برسيا وسور الميليزين، لان هؤلاء جاؤوا بثلاثين سفينة الى مصب بلبطين ونزلوا الى البر فى ايام كسياكسارس ملك الميديين التى كانت ايام الملك بسامتيكوس، وشيدوا الحصن الذى يتسم باسمهم. وما انقضى زمن حتى تقدموا صوب سايس وقهروا الجناريس فى معركة على النهر، والنشأوا مدينة نقراطس فيما وراء شاديه. وبعد سور الميليزين باتجاه مصب (الدلتا) تقع بحيرات منها بحيرة بوطس إلخ....»

هذه هى الفقرة التى يتكلم فيها استرابون عن الميليزيين ، ولا نرى فيها ذكرا لمتليس التى لم يرد اسمها فى الكتاب كله. وقد استقاها دانفيل[٣] عن بطليموس دون ان ينسبها الى الميليزيين. وما لم يثبت المسيو سافارى نسبة متليس الى سور الميليزيين بتنقيبات قد يكون قام بها فى المكان نفسه، فلا يجوز التسليم بقوله.

وقد حسب ان هوميروس يسدى اليه شهادة مماثلة فى المقاطع التى يتكلم فيها عن المسافة بين جزيرة المنار ومصر، وسيحكم القارئ اذا كان هنا اكثر توفيقا. انى اورد ترجمة مدام داسيه[٤] وهى على كونها اقل روعة من غيرها، الا انها اكثر تقيدا بالحرف:

«روى منيلاس انه تقوم فى البحر مقابل النيل جزيرة تدعى المنار، وهى تبعد عن احد مصاب هذا النهر مسافة ما يقطع فى يوم واحد مركب تؤاتيه الرياح... (وبعد ذلك يقول بروتيوس لمنيلاس) : ان القدر القاسى لا يسمح بان ترى وطنك العزيز... مالم تعد مرة أخرى الى النهر (ايجويتوس) وتقدم الذبائح الكاملة الى الخالدين. (واستطرد منيلاس) : قال هذا وامتلأ قلبى كآبة وألما لان هذا الإله يأمرنى بالرجوع الى النهر ايجويتوس الذى تحف طريقه المشقات والمخاطر».

يريد المسيو سافارى فى هذه الشواهد وعلى الاخص اولها ان يستخلص ان المنارة ، وهى اليوم لاصقة بالشاطئ، كانت فيما مضى بعيدة عنه

---

١ ـ رسائل عن مصر، الجزء الاول،ك الصفحة ١٦.
٢ ـ جورجيوس استرابونيس، طبعة سنة ١٧٠٧، الكتاب ١٧، الصفحة ١١٥٢.
٣ ـ راجع مذكرات دانفيل الرائعة عن مصر، طبعة سنة ١٧٦٥، ص٧٧.
٤ ـ الاودية ، الكتاب الرابع.

كثيرا. على ان هوميروس عندما ذكر المسافة من هذه الجزيرة . لم يشأ تطبيقها على «الشاطئ» المقابل كما ترجم الرحالة ، بل على «ارض مصر» و «نهر النيل» ، ومن جهة ثانية انه من الخطأ القول ان «نهار الابحار» يعني المسافة غير المحدودة التي تستطيع اجتيازها مراكب الاقدمين، وان الاغارقة باستعمالهم هذا التعبير يخصونه بمقدار ثابت هو خمسمائة واربعون غلوة. ويوضح هيرودتس هذا الامر صراحة فيورد عليه مثلا ويقول ان النيل تجاوز على البحر بالارض التي تمتد صعدا حتى ثلاثة «ايام وابحار» ، وان الالف والستمائة وعشرين غلوة التي تحصل توافق حسابه الادق لمسافة الالف والخمسمائة غلوة الواقعة بين هليوبولس والبحر على ما ذكر في مكان آخر. فاذا ما اعتبرنا مع دانفيل ان الخمسمائة واربعين غلوة [Stade] تساوي سبعة وعشرين الف خطوة [taise] ، اي ما يقرب من نصف درجة، نرى بواسطة البركار ان هذا المقياس يوازي المسافة بين المنارة والنيل نفسه، وهي تنطبق خاصة على ثلثي فرسخ فوق الرشيد، في مكان يحق لنا بعض الحق ان نحل فيه المدينة التي اعطت اسمها لمصب بلبطين. ومن الجدير بالذكر انها المدينة التي تردد عليها اليونانيون ونزل فيها الميليزيون قبل هوميروس بقرن ونصف القرن.فليس ما يثبت اذن ان تجاوز الدلتا او القارة حصل بالسرعة التي يفترضونها افتراضا. فاذا سلمنا بها بقي علينا ان نفسر كيف ان هذا الشاطئ الذي لم يكسب نصف فرسخ من ايام الاسكندرية ، قد كسب احد عشر ميلا في سحابة زمن لا تحسب شيئا بالنسبة الى الاولى، قد انقضت بين منيلاس وذلك الفاتح.

وثمة طريقة اصح لتقدير هذا التجاوز في اعتماد القياس الوضعي الذي ذكره هيرودتس ، واليك النص:

«ان عرض مصر في البحر من الخليج البلنتيني حتى مستنقعات سربونيديا بالقرب من قاسيوس هو ثلاثة الاف وستمائة غلوة، وطولها من البحر حتى هليوبولس الف وخمسمائة غلوة..»

فلنحصر همنا في هذه الفقرة. لقد برهن دانفيل بحذقه المعتاد ان غلوة هيرودتس يجب ان تقدر بخمسين او احدى وخمسين خطوة فرنسية. فاذا اعتمدنا هذا الرقم تبين ان ١٥٠٠ غلوة توازي ٧٦٠٠٠ خطوة، اي درجة وما يقرب من الدقيقة ونصف الدقيقة. والحال ان الملاحظات الفلكية التي ابداها نيبوهر رحالة ملك الدانمارك في السنة ١٧٦١ تدل على ان فرق العرض بالنسبة لخط الاستواء بين هليوبولس (حاليا المطرية) والبحر هو درجة وتسع وعشرون دقيقة تحت دمياط ودرجة واربع وعشرون دقيقة تحت رشيد فيحصل من جهة ثلاث دقائق ونصف الدقيقة او تجاوز مسافة فرسخ ونصف فرسخ، ومن الجهة الاخرى ثماني دقائق ونصف الدقيقة او ثلاثة فراسخ ونصف الفرسخ. ويدل هذا على ان الشاطئ القديم كان يضاهي احد عشر الف وثمانمائة خطوة فيما تحت الرشيد، وهذا ما ينحرف بعض الانحراف عن الخط الذي اراه في فقرة هوميروس، في حين ان التطبيق على فرع دمياط ينزل الى تسعمائة وخمسين خطوة تحت المدينة المذكورة. صحيح ان القياس فورا بواسطة البركار يجعل ان خط الشاطئ يتصاعد نحوا من ثلاثة فراسخ لجهة الرشيد، ويقع على دمياط نفسها، وهذا ما يحصل من حساب المثلث باعتبار الفرق في الطول. ولكن بلبطين التي اشار اليها هيرودتس تصبح عندئذ خارج الخط ولا يبقى صحيحا ان بوسيريس في وسط الدلتا على ما ذكر المؤرخ نفسه. ولا ريب ان ما اورده القدماء وما نعرفه نحن عن

هذا المكان ليس من الوضوح بحيث يجوز لنا ان نعين بدقة درجات التجاوز المتعاقبة. ولا يستطيع التفكير بحزم إلا من تهيأ له القيام بابحاث كالتي قام بهـا الكونت ده شـوازول Le comte de Choiseul في مياندريا، ويقتضي لذلك تنقيب في الارض. على ان اعمالا من هذا النوع تستدعي تآلف اسباب لا يتيسر وجودها إلا للقليل من الرحالين. وتشخص هنا صعوبة ناشئة عن كون الارض الرملية التي تتكون منها الدلتا تتبدل من يوم الى آخر تبديلا عظيما، لان البحر والنيل ليسا عامليها الوحيدين، فالريح هنا طويلة الباع، فهي تارة تملأ الترع وتدفع النهر على ما حدث للفرع الكانوبي القديم، وتارة تسفي الرمال وتدفن الخرائب حتى تمحو معالمها. ويورد نيبوهر مثلا جديرا بالنظر، وهو انه يوم كان في الرشيد سنة ١٧٦٢ كشفت المصادفة في تلال الرمل القائمة جنوبي المدينة عن الخربة قديمة مختلفة بينها عشرون ركيزة جميلة من الرخـام تمت الى الفن الاغـريقي، ولم يرد في التقاليد اسم المدينة التي كانت قائمة هناك. وقد بدا لي ان الصحراء المجاورة على النمط نفسه. ان هذه الرقعة التي كان فيما سلفت عامرة بالترع والمد اصبحت تلالا كاسية بالرمال الناعمة الصفراء التي تركمها الرياح على قدم كل حاجز وكثيرا ما تغمر النخيل. ولذلك، وعلى ما بذل دانفيل من جهد، فلا يمكن الركون بتأكيدالى مطابقاته بين كثير من الاماكن القديمة والحديثة.

اما سافاري فقد كان اكثر اصابة في ما ذكره عن احدى ثورات النيل التي يبدو منها ان هذا النهر قد انساب كله فيما سلف عبر ليبيا في غربي منفيس. على ان رواية هيرودتس نفسه التي اعتمدها سافاري تصطدم وبعض المصاعب. يقول هذا المؤرخ نقلا عن كهنة هليوبولس ان مينيس اول ملوك مصر قد سد الكوع الذى كان يدور فيه النهر على مسافة فرسخين وربع الفرسخ (مائة غلوة) تحت منفيس واحتفر له مجرى جديدا شرقي هذه المدينة. ألا يستدل من هذا ان منفيس كانت حتى ذلك الزمن في صحراء قاحلة محرومة من الماء؟ هل يجوز التسليم بهذا الافتراض؟ أيصح التصديق بالحرف ان مينيس [مينا] قام بهذه الاعمال العظيمة وانشأ مدينة ورد انها كائنة قبله، وان يكون حفر الاقنية والبحيرات واقام الجسور وشيد القصور والهياكل والارصفة، كل ذلك في بدء نشأة أمة وفي طفولة جميع الفنون؟ ومينيس هذا هل هو مؤرخ؟ أليست روايات كهنة تلك الجاهلية من صعيد الميثولوجيا؟ في اعتقادي ان المسيل الذى سده مينيس لم يكن الا انحرافا في النيل من شأنه ايذاء الري في الدلتا. وما يعزز هذا الافتراض، على رغم شهادة هيرودتس، انك اذا سرحت النظر من الاهرام، في هذا الوادي، لاتتبين فيه اى مضيق يحمل على الظن بقيام حاجز قديم هناك. ويلوح ان سافارى اجهد نفسه ليبين ان الفجوة الكبيرة المسماة «بحر بلا ماء» اشارة الى كونها مجرى قديما للنيل، كانت تنتهي الى السد الوارد ذكره تحت منفيس، في حين ان جميع الرحالين الذين المع اليهم دانفيل يجعلون نهايتها في الفيوم التي هي تتمة طبيعية لها. ويقتضي لاثبات هذا الواقع الجديد رؤية الامكنة نفسـها. ولم اسمع قط في القاهرة من قال ان سافارى قد تقدم في الجنوب الى ما يجاوز اهرام الجيزة. ان تكوين الدلتا الذى يستدل عليه سافارى من هذا التبدل امر لا يعقل، اذ كيف يجوز لك «في هذه الثورة المفاجئة» ان تتصور «ان وطأة المياه الهائلة التي انصبت في مدخل الخليج قد جزرت مياه البحر»؟ ان اصطدام كتلتين سائلتين لا يحدث الا امتزاجا لا يلبث ان يفضي الى مستوى مشترك

بينهما. صحيح ان الرحالة يضيف: «لقد تراكم الطين والرمل اللذان جرهما النيل، وجزيرة الدلتا التي كانت صغيرة بادئ ذى بدء قد خرجت من مياه البحر وارجعت حدوده.».

ولكن كيف تخرج جزيرة من البحر؟ ان المياه الجارية تحدث انبساطا لا تراكما، وهذا ما يسوقنا الى مسألة الارتفاع.

ارتفاع الدلتا

ان هيرودوتس ، الذى عرف عن الارتفاع ما عرفه عن الانبساط، لم يتطرق الى مقدار كليهما. على انه اورد واقع يستند اليها سافارى ليخلص منها الى نتائج وضعية. واليك ملخص قوله:

«فى ايام مواريس الذى عاش قبل حرب طروادة بخمس مئة سنة، كانت ثمانى اذرع كافية لغمر الدلتا فى كامل اتساعها. ولما جاء هيرودتس الى مصر كان يقتضى لذلك خمس عشرة، وفى عهد الامبراطورية الرومانية ست عشرة، والنيل الضخم حتى اثنتين وعشرين. واذن فقد ارتفعت الدلتا اربع عشرة ذراعا خلال ثلاثة الاف ومائتين وثمانين سنة.»

نعم، اذا سلمنا بالوقائع على ما بسطت. بيد اننا اذا استقيناها من ينابيعها نجد ان بعض اللواحق تشوه المبادئ والنتائج فلنورد نص هيرودتس:

«يروى الكهنة المصريون انه فى ايام الملك مواريس كان النيل يغمر الدلتا بارتفاعه ثمانى اذرع فقط. وفى ايامنا نحن لا يمتد على البلاد اذا لم يرتفع ست عشرة ذراعا او خمس عشرة على الاقل. والحال انه لم تنقض بعد تسعمائة سنة على موت مواريس حتى يومنا هذا.».

فلنحسب: من مواريس حتى هيرودتس : ٩٠٠ سنة، من هيرودوتس حتى ١٧٧٧ : ٢٢٣٧، او الفان ومئتان واربعون سنة اذا شئت، فيكون الجمع ٣١٤٠.

فمن اين اتت الزيادة (١٤٤ سنة) فى حساب المسيو سافارى؟

ولم يعتمد حسابا غير حساب المؤلف؟

فلنتخط ذلك الى التسلسل التاريخى.

فى ايام هيرودوتس كان يقتضى لغمر الدلتا ست عشرة ذراعا او خمس عشرة على الاقل، كذلك فى ايام الرومانيين كان الحد المعين خمس عشرة وست عشرة.

يقول استرابون : «ان الفيضان لم يكن ليعم البلاد، قبل بترونيوس، ما لم يبلغ ارتفاع النيل اربع عشرة ذراعا.» على ان هذا الحاكم كان يحصل عن طريق الفن على ماكانت الطبيعة تضن به. فكان الفيضان يعم اذا ما ارتفع النيل اثنتى عشررة ذراعا. ولم ينقض العرب هذا القول. فان احد كتبهم ينطوى على جدول مفصل لجميع فيضانات النيل من السنة الاولى للهجرة (٦٢٢) حتى السنة ٨٧٥ هجرية (١٤٧٠). ويتبين من هذا الكتاب ان النيل، فى أحدث العهود، اذا كان عمق مجراه اربع عشرة ذراعا، فالخير والمؤنة مضمونتان لسنة، او كان عمقه ست عشرة فالمؤنة لسنتين، ولكنه اذا تدنى عن اربع عشرة او بلغ اثنيى عشرة فهنالك قحط. وهذا مايتفق ورواية هيرودوتس ان الكتاب الذى استشهد به عربى اللغة، ولكن النتائج فى متناول الجميع. وحسب المطالع ان يراجع كلمة «النيل» فى المكتبة الشرقية لهربلو Herbelot او مختارات القلشندى فى «رحلة» الدكتور شو.

ان نوع الاذرع لا يحتمل الالتباس. فقد برهن فريره ودانفيل وبايي Freret, Dainville, et Bailli ان الذراع المصرية ما انفكت محددة باربعة

وعشرين قيراطا ما يوازى عندنا عشرين قيراطا ونصف القيراط. والذراع المصرية الحالية مجزأة الى اربعة وعشرين قيراطا. على ان الاعمدة المستعملة لقياس علو النهر قد طرأ عليها تشويه لا يجوز اغفاله.

يقول القلشندى:

«تبين للعرب، اول عهدهم في مصر، ان الناس كانوا يتهافتون على جمع مؤنة السنة كلما ظهر ان النيل لم يبلغ حد الفيضان. وكان هذا الامر يشوش النظام. فرفعت الشكوى الى الخليفة عمر، فامر عمرو بن العاص ان يتفحص الامر. واليك ما بسط عمرو امام الخليفة: لقد قمنا بالبحث الذى امرت به، فتبين لنا ان النيل اذا ما ارتفع الى اربع عشرة ذراعا فالغلة تكفي للسنة، واذا بلغ ست عشرة ذراعا كانت الغلال فائضة، ولكنها رديئة اذا كان الارتفاع اثنتى عشرة ذراعا او ثمانى عشرة. ولما كان الشعب يعرف ذلك مما يذاع عليه في الخطب عادة، فقد نتجت بعض الامور التى تعرقل التجارة.»

وقد يكون عمر فكر في الغاء الخطب تلافيا لهذه المحاذير، ولكن الامر لم يكن مما يمكن حدوثه، فابتدع ـ برأى ابى طالب ـ طريقة اسفرت عن النتيجة نفسها. كان مقياس النيل مجزأ الى اذرع واحدتها اربعة وعشرون قيراطا، فامر عمر باتلافه وابدل منه آخر وضعه في جزيرة الروضة، وامر ان تكون اذرعه الاثنتى عشرة السفلى مؤلفة من ثمانية وعشرين قيراطا عوضا عن اربعة وعشرين، وان تبقى الاذرع العليا على ماكانت عليه من قبل، أى أربعة وعشرين قيراطا للذراع الواحدة. وافضى الامر عندئذ الى ان النيل اذا علم على المقياس درجة اثنتى عشرة ذراعا كانت حقيقة ارتفاعه اربع عشرة ذراعا، لان كل ذراع من هذه الاذرع الاثنتى عشرة كانت تزيد اربعة قراريط اى مجموعا مقداره ثمانية واربعون قيراطا توازى ذراعين اثنين، بحيث ان الاعلان عن ارتفاع المياه الى اربع عشرة ذراعا، وهو الحد المؤذن بغلال «كافية»، كان يشير في الحقيقة الى انها بلغت درجة «الفيض». على ان هذه الخدعة التى جازت على الجمهور لم تفت مؤرخي العرب. فقد اضافوا على ما سبق ان مقاييس الصعيد ـ او مصر العليا ـ بقيت مقسمة على اساس اربعة وعشرين قيراطا، وان الحد «ثمانية عشر» كان دائما ضارا، و«التسعة عشر» نادرا جدا، والعشرين يكاد يكون اعجوبة.

وما كان الاطراد اذن الا زعما باطلا، وباستطاعتنا ان ندحضه بواقعة اولى هى ان حالة النيل لم تتبدل سحابة زمن معروف يطول الى ثمانية عشر قرنا، فلماذا تبدلت حاله اليوم، وكيف انتقل منذ السنة الالف والاربعمائة والثلاث والسبعين من خمسة عشر قيراطا الى اثنين وعشرين بمثل هذه المفاجأة؟ ان هذه المسألة سهلة الحل. ولست ابحث عن تفسير لها في الوقائع الطبيعية، بل في ملابستها فليس النيل هو الذى تبدل، بل العمود ومقاييسه. والسر الذى يحيطه به الاتراك يحول دون تثبت الرحالين فيه. على ان بوكوك الذى استطاع ان يراه [اى المقياس] سنة ١٧٣٩ يروى ان درجات الاذرع كانت مشوهة وغير متساوية. وهذا ما يحمل على الاعتقاد بان الاتراك تمثلوا بعمر وشوهوا فيه تشويها جديدا. وثمة امر يبدد الشك في هذا الصدد: ان نيبوهر ـ الذى لا يجوز التريب في ملاحظته ـ قام سنة ١٧٦٢ بقياس معالم الفيضان على حائط في الجيزة، فتبين له ان النيل قد هبط في يونيو اربع وعشرين قدما

فرنسية، إذا حولتها إلى أذرع باعتبار الذراع عشرين قيراطا ونصف القيراط، حصل لك اربع عشرة ذراعا وقيراطا واحدا. صحيح ان النيل يستمر في الهبوط بعد ذلك ثمانية عشر يوما، ولكن اذا حسبنا درجة هبوطه نصف ذراع بحسب تقدير بوكوك يكون المحصل اربع عشرة ذراعا ونصف الذراع . وهذا ما يلتقي والحساب القديم تماما.

وثمة زعم اخذ به سافارى لا يمكنني التسليم به دون تحفظ . يقول في الصفحة الرابعة عشرة من رسالته الاولى:

«منذ اقامتي في مصر، درت حول الدلتا مرتين حتى انى اجتزتها من قناة المنوفية، وكان النهر يجرى ملء ضفافه في ساعدى دمياط والرشيد وفي السواعد التى تخترق داخل البلاد، ولكنه لم يكن يطمى على الارض الا في الاماكن المنخفضة حيث كانت تبضع السدود لرى حقول الارز».

ويستنتج من هنا:

«ان الدلتا هي حاليا في الوضع الاكثر مواءمة للزراعة، لان هذه الجزيرة بحرمانها الفيضان قد ربحت «كل سنة ثلاثة اشهر يقضيها الصعيد تحت المياه.»

ليس ماهو اغرب من هذا الربح، فاذا كانت الدلتا تربح من عدم الفيضان فلاى سبب كان؟ يقول ان «المجارى تقوم مقام الفيضان».

على ان تشبيه الدلتا بغياض السين من الخطأ بمكان. فالماء ليس في مستوى الارض الا حيال البحر، وهو دون مستواها في اى مكان آخر. والضفاف ترتفع كلما صعدت في البر. واذا جاز لى ان اورد شهادتي، اثبت انى عند انحدارى من القاهرة الى رشيد لاحظت في السادس والعشرين والسابع والعشرين والثامن والعشرين من شهر سبتمبر ١٧٨٣ ان بعض رقاع الحقول ما برحت مغطاة، على كون المياه قد تقلصت عنها منذ خمسة عشر يوما، وان الاماكن المنكشفة تحمل آثار الفيضان. فالامر الذى يلمح إليه سافارى، ان هو الا نتيجة فيضان ردئ، ولا يجوز القول ان ارتفاع الارض قد غير في حالة الدلتا او ان الامر افضى بالمصريين الى ان يحصلوا على الماء بالوسائل الميكانيكية وهي مرهقة ومحدودة ففي جنوب الدلتا تروى الأرض بالشادوف لان المياه تكون في مستوى الأرض، اما في شمالها فتروى بالسواقي.

بقي علينا ان نحل مسألة اذرع مواريس الثماني، ولا احسب أن لها اسباب من غير هذا النوع. يظهر ان المقاييس قد طرأ عليها تبديل بعد عهد هذا الامير، فاصبحت الذراع ذراعين. ويعزز هذا الافتراض ان مصر لم تكن في عهد مواريس مملكة واحدة بل ثلاثا مابين اسوان والبحر. فجاء سيزوزتريس ووحدها بالفتح، ولكنها عادت بعد هذا الامير الى انقسامها وظلت عليه حتى عهد بسامتيك. . ان هذا الانقلاب في المقاييس ينطبق كل المطابقة على سيزوزتريس الذى احدث مثله في الحكومة. فهو الذى جدد الشرائع والادارة ، واقام السدود ، ومهد طرق المدن والقرى، وحفر من الترع عددا تمكنت معه مصر من اهمال العجلات التى كانت تستخدم حتى ذلك العهد، على ما ذكر هيرودتس.

ومن الحسن ان نذكر ان الفيضان متفاوت الدرجات، فهو غير متماثل في مصر كلها، بل يتدرج في الهبوط كلما انحدر النهر. فالطمى في اسوان اضخم منه في القاهرة بمعدل السدس. وعندما يبلغ سبعا وعشرين قدما في القاهرة ، لا يكاد يبلغ اربع اقدام في دمياط والرشيد. ومرد ذلك

الى ان النهر يرتفع اكثر فأكثر في مجراه الواحد ووادية الضيق برغم كمية الماء التي تتشربها الاراضي ، وبالعكس فهو بعد مجاوزته القاهرة وانعتاقه من تضييق الجبال عليه وتوزعه بين آلاف الشعاب، يخسر حتما في العمق ما يربحه في الانبساط.

يدرك مما ذكرت مبلغ غرور الذين توهموا انهم عرفوا بالضبط مقدار ارتفاع الدلتا وتوسعها. ولكنني ، وقد نبذت الاحوال التوهمية، لا يسعني انكار اساس الوقائع نفسها، فهي مؤيدة بالتعليل وبتفحص الارض. مثل ذلك ان ارتفاع الارض يثبته ، في نظري ، امر لم يؤبه له كثيرا: انك اذا ذهبت من رشيد الى القاهرة، والمياه منخفضة شأنها في شهر مارس، تبين لك كلما صعدت في النهر ان الضفة ترتفع تدريجيا فوق المياه، فاذا علاها قدمين في رشيد علاها ثلاثا او اربعا في فوه واكثر من اثنتى عشرة في القاهرة. فاذا عللنا هذا الواقع يمكن الاستدلال منه على ارتفاع الارض بفعل الرواسب، لان طبقة الطين التي تتناسب وسماكة طبقات الماء الراسبة منها يجب ان تكون اكثف او الطف بحسب عمق الطبقات، وقد رأينا انها تسير بتدرج مماثل من اسوان حتى البحر.

ويظهر تضخم الدلتا بصورة مدهشة في شكل لارض المصرية على البحر المتوسط. فاذا ترسمتها على الخارطة رأيت ان الارض التي في خط النهر ـ لك الارض المكونة من مادة غرينيه ـ قد اتخذت تسوءا لنصف دائرى ، وان خطوط شاطئ جزيرة لعرب وافريقيا التي يضفو عليها تذهب في اتجاه ـقعر نحو عمق الدلتا يدل على ان هذه الارض انت خليجا ملأه الزمن.

ان ظاهرة الترسيب في خلجان، وهي عامة لكل الانهر، تجرى بطريقة آلية عامة ايضا، فمياه الامطار والثلوج المتحدرة من الجبال الى الاودية تجترف ما تقتلعه من الاتربة في سقوطها. اما القسم الوازن من هذه الانقاض كالحصى والرمال فلا يلبث ان يقف اذا لم يدفعه تيار سريع. على ان المياه اذا لم تصادف إلا تربة ناعمة خفيفة فهي تحمل منها كميات وافرة وتجر كثبانها بسهولة. والنيل الذى صادف من امثال هذه المواد في بلاد الحبشة وافريقيا الداخلية قد استخدمها لتعجيل العمل. فقد حملتها مياهه وامتلأ منها مجراه، حتى أنه غالبا ما برم بها وعرقلت مجراه. على انه عندما يستعيد قواه بالفيضان يدفع هذه الكثبان الى البحر، ويستقدم غيرها في الوقت نفسه للفصل التالي: فاذا ما بلغت الاوحال مصبه تراكمت وتكونت منها رملات، لان المنحدر يخفف من فاعلية المجرى، في حين ان البحر يقيم توازن مقاومة. وينتج عن ذلك ركود يضطر العكر الطافي ان ينحدر الى اسفل ويستقر في الاماكن الاقل اضطرابا كالشواطئ. وهكذا يشرى الريف شيئا فشيئا من انقاض البلاد العليا والدلتا نفسها، لان النيل ينتزع من الحبشة ما يعطى الصعيد، ومن الصعيد ما يعطى الدلتا، ومن الدلتا ما يدفعه الى البحر. فحيثما ينساب يعرى الارض التي يغنيها في وقت معا. فاذا صعدت نحو القاهرة، والمياه منخفضة ، رأيت الحوافي المنحوتة عموديا تنهار رقعا لان النيل يحتفرها شيئا فشيئا من أسافلها، مانعا تربها الرقيقة من السند، فتنهار في مسيله. وعند فيوضة المياه تبتل التربة وتنداف، ثم لا تلبث ان تتفلع بفعل الشمس والجفاف وتتساقط رقعا كبيرة يجرها النيل. وعلى هذه الصورة تكبست الترع الكثيرة واتسع غيرها بارتفاع قعر النهر ارتفاعا مستمرا. وهذا ما حدث للترعة الممتدة من النضير الى فرع دمياط. فهذه القناة التي حفرتها في البدء

يد الانسان قد اصبحت شبيهة بنهر السين في اماكن متعددة، وهي تسد مسد الفرع الاصلي الواصل بطن البقرة بالنصير الذي يتكبس حتى يوشك ان يصبح ارضا يابسة اذا لم يستفرغ. وسبب ذلك ان النهر ينزع باستمرار نحو الخط المستقيم حيث هو اكثر ما يكون قوة واندفاعا. وهو من اجل هذا السبب نفسه قد تحول نحو فرع بلبطين الذي لم يكن في الاصل الا قناة اصطناعية.

ويستدل ايضا من حركات النهر هذه ان التكبس يجب ان يحدث على خطوط المصاب الكبرى والتيارات الاشد. ومنظر الارض ينطبق على هذه النظرية، لان تفحص الخارطة يدل ان نواتئ الارض اكثر ما تلاحظ في اتجاه ساعدي دمياط ورشيد، وما يجاورهما او يتوسطهما من الاراضي بقي بحيرات ومستنقعات شائعة بين اليابسة والبحر، لان الاقنية الصغيرة التي تتخللها لم يكن في استطاعتها ان تحدث الا تكبسا ناقصا. فالرواسب والطين تنهد ببطء لا يرتفع بها الى ما فوق المياه ما لم يتدخل عامل اكثر فاعلية وهو البحر. فهو الذي يعمل دون ما تمهل على رفع مستوى الشطوط الواطئة فوق مياهه. وفي الواقع ان امواجه المتلاشية على الشاطئ تدفع ما تصادفه من طين ورمل، وتركم دفعاتهم هذا السد الطفيف وتكسبه ارتفاعا لا يتيسر قط في المياه الساكنة. وهذه الظاهرة يحسسها السائر على ضفاف البحر عند شاطئ واطئ خاسف، شرط الا يكون للبحر تيارات على الساحل، لانه اذا كان يخسر في الاماكن التي تدور فيها مياهه فهو يربح حيثما تتحرك. ومتى اصبحت الرملات الخصبة في مستوى الماء استولت عليها يد الانسان ، ولكن عوضا عن ان يقال انها رفعت مستواها فوق المياه يجب ان يقال انها انزلت مستوى المياه، لان الاقنية المحفورة تجمع في مساحات صغيرة طبقات الماء التي كانت تمتد على مساحات اكثر اتساعا. ويبدو ان الدلتا تكونت ببطء استمر سحابة قرون مجهولة المدى، ولكن الطبيعة لا يعوزها الزمن.

لا شك ان المجال مايزال واسعا في هذه البلاد للاستقراء واعادة النظر، ولكنهما ، على ماسبق وذكرت، يصطدمان بعقبات يحتاج تذليلها الى وقت ومهارة وبذل. وكثيرا ما تكون العقبات العرضية اكثر خطورة من العقبات الجوهرية. دليل ذلك ما حدث للبارون دى توت Le Baron de Tott في صدد مقياس النيل. فقد بذل المال عبثا للمنادين حتى يتبين حقيقة ارتفاع النيل، فكانت اقوالهم المتناقضة تدل على احد امرين: اما سؤ النية، او الجهل المشترك. وقد يقول قائل انه يحسن صنع ركائز قياسية في بيوتات خاصة. بيد ان هذه العمليات البسيطة نظريا، مستحيلة التحقيق عمليا، وتعرض من باشرها الى اخطار جسيمة ، لان مجرد فضول الفرنسيين عند قدومهم يسوء الاتراك، فهم يحسبون ان لهم مطمعا في البلاد، لان ما يقوم به الروس مضافا الى الظنون السائدة لمما يعزز فيهم التريب، وتروج في هذا الوقت الشائعات ان الزمن المتنبأ عنه قد حل، وان ثمة القلابا في الحكم والدين والمصير الخ الخ. وبعد، فلنعد الى ما نحن في صدده.

انى ألما الماما خفيفا بفصل الفيضان وهو معروف ، وبتدرجه تدرجا ضئيلاً وغير فجائي، وبتنوع حالاته التي تظهره تارة خفيفا وتارة شديدا ، او مما لا يؤبه له في بعض الاحايين. والحالة الاخيرة نادرة جدا وا ن تكن قد حدثت مرتين او ثلاثا على ما يذكرون. ان جميع هذه الامور عمت معرفتها

الى حد لا يجوز معه التكرار. ومن المعروف ايضا ان اسباب تلك العوارض التى كانت لغزا للاقدمين لم تعد لغزا للاوروبيين. فمنذ انبأهم رحالوهم ان الحبشة والبقاع الملاصقة لها من افريقيا تغمرها الامطار فى مايو، يونيو، يوليو، فقد استدلوا بذلك على ان تلك الامطار بحكم طبيعة الارض تنحدر من آلاف الجداول وتستجمع فى واد واحد لتظهر على الضفاف البعيدة غمرا مهيبا يستغرق سيلانه ثلاثة شهور.

اننا نترك للفيزيين اليونانيين الزعم القائل بان ضغط الرياح الشمالية يوقف مجرى النهر. ومن العجب ان يكونوا القائلين بهذا التفسير، لان الريح اذا كانت تؤثر فى سطح المياه فهى لا تحول دون خضوع العمق للانحدار. وعبثا حاول بعض المعاصرين الاستشهاد بمثل البحر المتوسط الذى اذا ما استمرت الريح الشرقية يعرى شاطئ سوريا مقدار قدم او قدم ونصف القدم ليغطى شواطئ اسبانيا بالمقدار نفسه، حتى اذا هبت الريح الغربية كان المفعول معكوسا. فلا وجه مقابلة بين بحر لا انحدار فيه ونهر، وبين بسطة المتوسط والنيل، وبين ست وعشرين قدما وثمانية عشر قيراطا.

موجز تاريخ على بك

يعتور مولد هذا الرجل غموض وريبة، شأنه بذلك شأن معظم المماليك، فهم وقد باعهم ذووهم فى سن الحداثة او انتزعهم الاعداء، لا يعون من اصلهم ومن وطنهم إلا قليلا من شيء وكثيرا ما يكتمون ذلك. وفى رأى جدير بالثقة انه متحدر من عشيرة الاباظيين فى القوقاس. وارقاء هذه العشيرة مرغوب فيهم. وقد نقله النخاسون الى القاهرة فى جملة ما نقلوا، فاشتراه هناك اليهوديان اسحق ويوسف، واهدياه الى ابراهيم الكاخية [كتخدا]. ويقدر عمره وقتئذ باثنتى عشرة سنة او اربع عشرة. بيد ان الشرقيين، مسلمين ونصارى، لا سجلات للمواليد عندهم، فلا تعرف اعمارهم بالضبط. وقام علي عند سيده الجديد بمهام المماليك وهى المهام التي يضطلع بها غلمان الامراء. ودرب هناك على الفروسية والرماية وتسديد الجريد وضرب السيف. ولقن بعض مبادئ الكتابة والقراءة. واظهر فى ممارسته هذه التمارين من النزق ما جعل القوم يلقبونه «الجن علي» وهى لفظة تركيبة معناها المجنون. على ان مشاغل الطموح ماعتمت ان لينت طباعه وكبحت من جماحه. ولما راوحت سنة بين الثامنة عشرة والعشرين، اذن له سيده بارسال لحيته. ومعنى ذلك انه اعتقه، لان الوجه الامرد عند الاتراك خاص بالعبيد والنساء. وهم من أجل ذلك يتأففون من منظر الاوروبيين لاول وهلة. ومنذ اعتقه ابراهيم وهبه، زوجة وريعا، واسند اليه منصب كاشف، اى حاكم مقاطعة. ثم احله فى مصاف البكوات الاربعة والعشرين. وما كانت هذه الرتب مضافة إلى المكانة والثروة اللتين احرزهما الا لتوقظ فيه الطموح. فلما مات سيده فى السنة ١٧٥٧ وجد المجال فسيحا امام مراميه، فاشترك فى كل الدسائس التى كانت تهدف الى تولية الحكام او عزلهم. وعليه تقع تبعة اغتيال الكاخية رضوان. وكان الحاكم عندئذ عبد الرحمن، وهو رجل ضعيف السلطة بذاته، الا ان بعض الاحزاب المتآلفة كانت تسانده. وكان على عهدئذ شيخ البلد، فرأى فى وجود عبد الرحمن على رأس القافلة المتجهة الى مكة فرصة للايقاع به، فنفاه. ولكنه مالبث ان نفى بدوره الى غزة. سوى ان غزة الواقعة فى ولاية الباشا التركى لم تكن فى نظره مكانا امينا تطيب فيه الاقامة. فذهب فى اتجاهها ايهاما، ثم تحول فى اليوم الثالث الى

الصعيد حيث لحق به انصاره. واقام في جرجا زهاء سنتين قضاهما في تهيئة وانضاج ما يعتزمه من الاستيلاء على السلطة. وكان له في القاهرة اصدقاء يمدهم بالمال الوفير، فاستدعوه اليها في السنة ١٧٦٦. فظهر فيها على حين غرة، وقتل في ليلة واحدة اربعة بكوات، ونفى اربعة آخرين، حتى اصبح رئيسا على الغالبية. واذ استجمعت السلطة كلها في يده، عزم على ان يستخدمها في سبيل تعظيم شأنهن. ولم تقف مطامعه عند لقب القائد، بل رأى في سيادة الاستانة ما يجرح كبرياءه، ونهدت نفسه الى لقب سلطان مصر. وانحصرت جميع مساعيه في هذا الاتجاه، فطرد الباشا الذى كان قد اصبح مجرد اداة تمثيلية، ورفض الجزية المعتادة. وفي السنة ١٧٦٨ امر بسك العملة ووسمها بطغرائه. فوجم الباب العالى لهذا الافتئات، ولكن قمعه كان يقتضى حربا صريحة لم تكن الاحوال مواتية لها، لان اسياد الاستانة كانت تشغلهم مسائل بولندا ومطامع الروس، فصرفوا همهم كله الى الشمال، وحاولوا تجاه على طريقتهم المعتادة في مثل هذه الاحوال، فاوفدوا نحوه مبعوثيهم المعروفين باسم القبوجيين يحملون مراسيم المشنقة. ولكنه كان يستقبلهم بالسم او الخنجر، فيحبط مساعيهم. فرأى علي ان الفرصة مناسبة للايغال في مقاصده الى ابعد حدود النجاح. وكان يحتل الصعيد وقتئذ شيوخ من العربان على شيء من التمرد. وكان احدهم همام يتمتع بنفوذ يدعو الى القلق .فشاء على ان يتخلص منه، واحتج بكون هذا الشيخ يمسك على ابراهيم الكاخية مالا قد ائتمن عليه ، وبانه يؤاوى العصاة اللائذين به. فوجه عليه كتيبة من المماليك بقيادة محمد بك ابادت هماما وقواته في يوم واحد . وكان ذلك في سنة ١٧٦٩.

وشهد هذا العام حملة اخرى ترامت نتائجها الى القارة الاوروبية نفسها. فقد سلح علي السفن في السويس واطلق عليها المماليك صوب جدة مرفأ مكة، وامر القائد حسن بك ان يحتلها، فيما انطلقت من البر كوكبة من الفرسان بقيادة محمد بك فاستولت على مكة نفسها، واعملت النهب فيها. وكان غرضه ان يجعل من جدة مستودعا لتجارة الهند. وهذه الخطة التي اوعز بها اليه تاجر شاب من البندقية حظي بثقته، كان يقصد بها اهمال خط رأس الرجاء الصالح والاستعاضة عنه بالطريق القديمة عبر البحرين المتوسط والاحمر. بيد ان عاقبة الحوادث دلت على انه استعجل الامر، وان الشرائع يجب ان تسبق الذهاب الى البلاد التى يرجى لها الازدهار.

وحسب علي، بعد انتصاره على امير ضئيل الشان في الصعيد وفتحه اكواخ مكة، ان من حقه السيطرة على العالم بأسره.

واوهمه رجال بطانته انه كسلطان الاستانة شوكة وسطوة، فآمن بما قالوا . ولو اعمل الفكر قليلا لتحقق ان مصر بالنسبة الى سائر السلطنة دويلة صغيرة. وان ثمانية الاف فارس تحت امرته لا تحسب شيئا يذكر تجاه مئة الف انكشارى مرتهنين باشارة السلطان. ولكن المماليك يجهلون تقويم البلدان. وكان علي، وهو يرى مصر عن كثب، يحسب انها اوسع من تركيا التي ينظر اليها من بعيد. فعزم على مباشرة فتوحاته. ومن الطبيعى ان تكون سوريا، وهي على بابه، اولى مبتغياته. كانت حوادث تلك الايام تواتم مقاصده. فالحرب الدائرة مع روسيا من السنة ١٧٦٩ تشغل القوات التركية جميعها في الشمال، والشيخ عمر الضاهر المتمرد على السلطان حليف امين مقتدر، واختلاسات باشا دمشق تهييء الافكار للثورة. اذن، ما اجملها فرصة

لاحتلال ولايته والخروج من هذه المغامرة بلقب منقذ الشعوب ! ادرك على هذا كله، فلم يتأخر عن القيام بحركاته الا بمقدار ما تقتضيه العدة للامر. فلما استكمل الاهبة في شهر ديسمبر من السنة ١٧٧٠ جرد كوكبة من المماليك تبلغ خمسمائة فارس (والمماليك لا يسيرون رجالة قط) ، وسيرهم على غزة ليضمن النفاذ الى فلسطين. وما ان بلغ امر الاحتلال مسامع عثمان باشا حاكم دمشق، حتى هرع الى مجابهته. فارتعدت فرائص المماليك من سرعته وعدد الجنود . فامسكوا اعنة الخيل تأهبا للهرب. بيد ان عمر الضاهر الرجل الذى لم تعرف له سوريا مثيلا بالنشاط، اقبل من عكا وانقذهم من الورطة. وكان عثمان يعسكر بالقرب من يافا، فانهزم دون منازل. فاحتل الضاهر يافا والرملة وفلسطين برمتها، وفتحت الطريق امام الجيش الكبير المنتظر.

وصل هذا الجيش نهاية فبراير من السنة ١٧٧١ ، وقد ذكرت صحف تلك الايام ان عدده ستون الف مقاتل، فحسب الناس في اوروبا انه يماثل جيوش روسيا او المانيا، وفاتهم ان الاتراك، واخصهم اتراك آسيا، يختلفون عن الاوروبيين من الناحية العسكرية اكثر مما يختلفون عنهم في العادات والاخلاق. فان ستين الف جندى عندهم ابعد من ان يوازوا ستين الف من جنودنا. وفي الجيش الذى نحن في صدده دليل على ذلك. فانه يتألف من اربعين الف رجل موزعين على الوجه الآتي: خمسة آلاف فارس من المماليك ، والف خمسمائة مغربى رجالة. ويتبع كل مملوك خادمان اجلان مسلحان بالعصى، ومجموعهم عشرة الف. وثمة الفا خادم وسراج وراء البكوات، فضلا عن الباعة المرتزقة والتبع. هذا هو الجيش الذى نحن في صدده كما وصفه لى اناس شاهدوه وتتبعوه. وكان يقوم على قيادته محمد بك احد رجال بطانة على الملقب بابى الذهب نظرا الى الترف البادى في اجهزة جواده وفرش خيمته. اما الترتيب والنظام فلا اثر لهما قط في ذلك الجيش، لان جيوش المماليك والاتراك ان هى إلا خليط غامض من فرسان لا مماثلة في ازيائهم، وجيادهم متباينة القد، مختلفة اللون. زحف هذا الحشد صوب عكا تاركا وراءه آثارا من فوضاه وتعدياته. فاتصل بجماعة الشيخ الضاهر وهم الف وخمسمائة فارس صفدى [من مدينة صفد] بامره ولده على، والف ومائتا فارس من المتاولة بقيادة الشيخ ناصيف، وما يقرب من الف راجل من المغاربة. فلما تم هذا الاتصال ودبرت الخطة، زحف الجيش على دمشق في خلال نيسان. وكان عثمان قد وجد متسعا من الوقت لاعداد عدته، فجمع جيشا يضاهى جيش عدوه عددا. وانضم اليه باشاوات صيدا وطرابلس وحلب، فتربصوا جميعا تحت اسوار دمشق. ولا نتصورن هنا حركات متوافقة كالتى تجعل الحرب عندنا منذ مئتى سنة علم حساب وتبصر. فلا المام للاسيويين بتلك المبادئ. وجيوشهم هواشة، وزحفهم نهب، وحملاتهم غزوات، ومعاركهم اعتراك، يسعى اقدرهم او اجرأهم الى الآخر فينهزم غالبا دون نزال. فاذا ثبت، نشب القتال واختلط المتقاتلون وتلاحموا وتفجرت البواريد، وحطمت الرماح، وتكاد تعوزهم المدافع وقلما استخدموها. وكثيرا ما يسود الرعب ولا سبب له، فيهرب فريق ويزحمه الآخر مناديا بالنصر. ويكابد المغلوب شريعة الغالب، وكثيرا ما تنتهى الحملة بانتهاء المعركة.

هذا جزء مما حدث في سوريا سنة ١٧٧١ . زحف جيش على وعمر على الشام ، وانتظره الباشاوات ، فتقدم. وكان الامر الحاسم في اليوم

السادس من يونيو فقد صال المماليك والصفديون على الاتراك وامعنوا في التقتيل حتى ذعر هؤلاء وادبروا. ولم يكن الباشاوات آخر المنهزمين. فسيطر الحلفاء على المدينة الخالية من الجنود والاسوار واستولوا عليها. واستقلت القلعة بالمقاومة، وليس في اسوارها مدفع ولا مدفعي، ولكن هناك خندقا موحلا، وما وراء الخرائب بعض الرماة. وكان ذلك كافيا لكبح جماح هذا الجيش من الفرسان. على ان الحاضرين، وقد غلبوا على امرهم، عاهدوا العدو في اليوم الثالث على التسليم، ولكن ما طلع النهار حتى حدث انقلاب هو اغرب ما تناقلته المسامع. ففي الوقت الذى كان ينتظر القوم اشارة التسليم، اذا بمحمد يصيح بجماعته الادبار، ويتحول جميع فرسانه صوب مصر. وعبثا تسارع علي الضاهر وناصيف ليستفهماه سبب هذا المآل المفاجئ، فلم يحظيا من هذا المملوك الا بتهديد المتجبر. وارتحل القوم في بلبلة. وما كان ارتحالهم انكفاء بل هزيمة، كأن العدو يعمل السيوف في كشوحهم. وامتلأت الطريق من دمشق الى القاهرة بالمشاة والفرسان المشتتين، فضلا عن المهام والعدد المهملة. وقد جعلوا مرد هذه الحادثة الغريبة وقتئذ الى ما شاع من موت علي بك. على ان عقدة اللغز الحقيقية مؤامرة سرية حصلت في خيمة محمد ليلا، اذ ان عثمان لما استشعر عجز قواته لجأ الى الاغراء. فاوفد الى القائد المصرى احد رجاله اللبقين بحجة مفاوضته بالمصالحة، فسعى بدس الشقاق والعصيان، وادخل في روع محمد ان الدور الذى يمثله يعرض شرفه وحياته، وانه يخطئ اذا اعتقد ان السلطان سوف لن يقتص من علي بك، وان انتهاكه لحرمة مدينة مقدسة كدمشق احد البابين الى الكعبة تدليس لها، وانه يدهش من كونه هو محمد يؤثر على حظوة السلطان رضى احد عبيده ويجعل بينه وبين الذات الشاهانية سيد آخر، وانه من المعروف ان هذا السيد يعرضه كل يوم لاخطار جديدة ويضحى به في سبيل مطامعه الشخصية وحسد كاخيته رزق القبطي. فهذه الاسباب، واخصها الاخيران المتعلقان بمسائل معروفة، قد أثرت ابعد التأثير في محمد واترابه البكوات، فتفاوضوا للحال فيما بينهم، واقسموا على السيف والمصحف انهم قافلون الى القاهرة في الحال. وكان ترحلهم المفاجئ نتيجة لهذه الخطة. فقد انصرفوا عن الفتح وساروا سيرا حثيثا ، حتى ان خبر عودتهم لم يسبقهم الى القاهرة الا بست ساعات فقط. فارتاع علي وحدثت النفس في معاقبة قائده فورا. ولكن محمد كان كثيرا برفاقه، فلم يكن ثمة سبيل لاية محاولة ضده. وكان لابد من المداجاة، فلزمها علي بسهولة لانه مدين بحظه لها اكثر منه لشجاعته.

لقد حرم علي فجأة من ثمرات حرب كثيرة التكاليف، ولكنه لم يرجع عند مقاصده، بل استمر على ارسال النجدات الى حليفه عمر الضاهر، وحشد جيشا آخر سنة ١٧٧٢ ، ولكن الحظ سئم من مساعدة علي فتحول عنه. فكانت نكبته الاولى في خسارة سفنه التي استولى عليها القرصان الروس مقابل دمياط ، فيما كانت تنقل الارز لعمر الضاهر. ثم جاءت حادثة هرب محمود بك ضغثا على ابالة.

كان من الصعب على علي ان ينسى حادثة دمشق، ولكن بقية الحب التي يضمرها المرء نحو من احسن اليهم كانت تحول دون انزاله الضربة القاضية. بيد أنه عزم عليها بعد حديث مع التاجر البندقي الذى كان يحظى بثقته.

وقد شافهني التاجر نفسه بهذا الحديث وهو:

«قال علي بك: هل لسلاطين الفرنجة اولاد يضاهون بالثروة ابني محمد؟ فأجابه التاجر: لا،

يامولاى، وهم يحاذرون ذلك مخافة ان يعظم شأن الاولاد فتأخذهم العجلة ليرثوا آباءهم.» .

ونفذت هذه الكلمة الى قلب على كالسهم. فأصبح يرى في محمد خصما خطرا، فصمم على اهلاكه. ولكي يتم له النجاح دون مغامرة، انفذ الامر اولا الى القائمين على حراسة ابواب القاهرة بان يحولوا دون خروج اى كان من المماليك عند العصر او في الليل. ثم ابلغ محمداً انه منفي للحال الى الصعيد. وكان يقصد من هذه المناقضة ان يوقف محمد عند الابواب، وان يستولي الحراس عليه من ايسر سبيل. على ان الاقدار واربت هذه التدابير الضعيفة المبهمة. وشاء الحظ ان يؤدى سوء التفاهم الى حسبان محمد مكلفا مهمة خاصة من على. فتركوه وشأنه يمر مع اتباعه. وهنا ضاع الامل بالنجاح. وبلغ امر الغلطة عليا، فأمر بتعقبه. على ان محمدا ابدى من رباطة الجأش ما جعل القوم يتهيبون مهاجمته. فيمم الصعيد يتأكله الغيظ وتحدوه رغبة الانتقام، ولكن خطرا آخر كان يتربص به، فان ايوب بك، احد قادة على، تظاهر بمشاطرة المنفى احقاده، فاستقبله بفرح وابتهاج واقسم على السيف والقرآن بانه يحاربه على على. ولم تنقض بضعة ايام حتى انجلت الوقائع عن رسائل من ايوب الى على يعده فيها برأس عدوه قريبا. وتكشفت الدسيسة لمحمد، فألقى القبض على الخائن وقطع معصماه ولسانه، ثم أرسله الى القاهرة لينال ثواب سيده.

بيد ان المماليك ، وقد ملوا تشامخ على، تحولوا جماعات الى خصمه. وكان اربعون يوما كافية لمحمد حتى تستجمع له قوة تمكن معها ان ينحدر من الصعيد مشرع السلاح. فقابله على بقوة من انصاره.ولكن كثيرين منهم انضموا الى العدو. واخيرا، في خلال شهر ابريل من السنة ١٧٧٢ ، وقعت الواقعة، في سهل المصاطب [ديرالطين] عند ابواب القاهرة، ودارت الدائرة على على، فدخل محمد المدينة بالوفير من رجاله وعدده. ولم يتسن لعلى بك الا فرصة الهرب مع ثمانمائة مملوك تبعوه. ولاول مرة في حياته قصد الى غزة. وحاول ان يذهب لفوره الى عكا مقر حليفه عمر الضاهر. ولكن اهل نابلس ويافا سدوا المسالك دونه. فاضطر عمر الضاهر، ان يأتي بنفسه ليزيل من امامه العقبات، وذهب به الى عكا. وكان جنود عثمان والدروز يحاصرون مدينة صيدا، فاستنجدته عليهم. فانطلق يصحبه علي. وكانت قوتاهما مجتمعين ، تبلغان سبعة الاف فارس. وما اقتربوا من المدينة حتى رفع الاتراك الحصار عنها، وتراجعوا صوب شماليها مسافة فرسخ حتى نهر الحولة. وهناك في شهر يوليو سنة ١٧٧٢ نشبت معركة هي اضخم معارك تلك الحرب واكثرها انتظاما. وكان جيش الترك ثلاثة اضعاف جيش الحليفين، ولكنه مني بهزيمة نكراء. فهرب قادته الباشاوات السبعة وبقيت صيدا في يد الضاهر وحاكمها الدنكزلي. وفي عودة على بك وعمر الضاهر الى عكا انطلقا الى يافا لينزلا القصاص بسكانها المتمردين الذين حاولوا الاحتفاظ بمستودع ذخيرة وامتعة كانت قد افرغتها مراكب على بك قبل ان يطرد من القاهرة. وكان يحتل المدينة شيخ من نابلس، فأغلق ابوابها واكرههما على محاصرتها. وبدأت هذه الحملة في شهر يوليو ، واستمرت ثمانية اشهر على كون يافا لا يعصمها الا جدار بستاني لا خنادق حوله. ذلك بأن السوريين والمصريين يعوزهم المران في حرب الحصار شأنهم في حرب البر. واخيرا استسلم المحاصرون في شهر فبراير من سنة ١٧٧٣ . واستعاد على حريته فاصبح شغله الشاغل ان يرجع الى مصر. ووعده عمر الضاهر بالنجدة، في حين ان الروس وعدوا

بمساندته، وكان قد حالفهم بعد قضية القرصنة التي سبق ذكرها عند دمياط. على ان استجماع تلك الوسائل الشتى يحتاج الى وقت، وعلى نافذ الصبر، وما كانت وعودْ رزق كاخيته ورجام الغيوب عنده الا لتزيده طماحا، فما برح هذا القبطي يؤكد له ان ساعة عودته قد آذنت، وانها، على ما تدل الكواكب، ستتم في احسن الاحوال واكثرها موائمة، وان ثمة دلائل على ان محمد صائر الى هلاك اكيد. وكان على، شأن سائر الاتراك، يعتقد بالتنجيم ويثق برزق ثقة يسررها ان تنبؤاته كثيرا ما كانت تصدق وتصح. فيم الانتظار اذن؟ وجاءته عن القاهرة انباء عجلت في نفاد صبره. ففي أوائل شهر ابريل وردت عليه رسائل من اصدقائه يذكرون فيها انهم سئموا عبده العاق، وانهم ينتظرون رجوعه للاقتصاص من محمد. فقرر المسير للحال. ولم يبق في وسعه ان ينتظر قدوم الروس، فانطلق مع المماليك والف وخمسمائة رجل من الصفديين بقيادة عثمان بن عمر الضاهر. بيد انه كان يجهل ان رسائل القاهرة ان هي الا مكيدة من محمد نفسه استكتبها مرسليها عنوة ليخدع عليا ويوقعه في الشرك المنصوب له. وفي الواقع ما كاد على يتورط في الصحراء بين غزة ومصر حتى التقى فرقة مختارة من المماليك يبلغ عدد رجالها الف مقاتل يتولى قيادتهم مراد بك، وهو فتى من المماليك شغف بامرأة على بك، فوعده بها محمد اذا سلمه رأس زوجها. وما لاح لمراد غبار الاعداء عن بعد حتى انقض عليهم وبعثرهم. واستتم الحظ له فالتقى عليها في المعمعة وجها لوجه، فهاجمه وساف جبينه فجرحه وقبض عليه ثم استاقه الى محمد. وكان هذا الاخير على مسافة فرسخين وراء الجيش، فاستقبل سيده القديم وبالغ في توقيره والحدب عليه مبالغة تنم عند الاتراك على الغدر، وخصه بخيمة فاخرة الرياش، واوصى بالعناية التامة به، وكرر انه الف مرة عبده الذى يلثم موطئ قدميه. على ان هذه المأساة انتهت في اليوم الثالث بموت علي، وعزاه البعض الى جراحه، فيما عزاه البعض الاخر الى السم. والاحتمالان متعادلان بحيث يتعذر الترجيح.

هكذا انتهت حياة هذا الرجل الذى استوقف اهتمام اوروبا حقبة من الزمن، وتوقع بعض الساسة من ورائه انقلابا خطيرا. لا ريب انه كان رجلا خارقا، ولكن من المبالغة ان نحله في مصاف الرجال العظام. ويروى الشهود الثقاة انه كان ينطوى على كثير من المزايا الفطرية، الا ان افتقاره الى الثقافة حال دون نمائها النماء الذى يجعل منها فضائل كبرى. لنتجاوز عن اعتقاده بالتنجيم الذى كان يسير اعماله اكثر مما كان يسيرها التبصر في الاسباب والاحوال، ولنتجاوز عن خياناته وحنثه بالعهود والايقاع بالمحسنين اليه، تلك الوسائل التي تذرع بها لتولى السلطة واستبقائها في يديه. ولا ريب ان الخلقيات عند جماعة امرهم فوضى هي غيرها عند قوم يسودهم السلام. على اننا اذا حكمنا على اهل المطامع بمقتضى المبادئ التي يقولون بها، نرى ان على بك وضع خطة للتوسع فلم يترسم خطوطها، وعمل على هلاك نفسه. ومن الحق خاصة ان نأخذ عليه ثلاثة اخطاء:

١ ــ نزعته على غير تبصر الى الفتوحات التي نفدت معها مداخليه وقواته وصرفته عن ادارة بلاده الداخلية.

٢ ــ ركونه الى الراحة قبل الاوان وتحويل العمل على معاونيه مما حط من قدره عند المماليك، وجرأ الناس على الثورة.

٣ ــ واخيرا، اغداقه الثروات الهائلة على رأس احد خاصته مما اكسب هذا الاخير مكانة افرط فيها

وتجاوز. ولو افترضنا ان محمدا من اهل الفضيلة، اما كان يجدر بعلي ان يحذر غواية المداهنين الذين يلتفون في كل بلاد الناس حول الجاه والنعم؟ على ان ثمة مزية جديرة بالاعجاب تميز علي بك من سائر الطغاة الذين تعاقبوا على الحكم في مصر. لئن تكن عيوب التربية الرديئة قد حالت دون معرفته المجد الحقيقي، فمن الثابت انه كان طماحا اليه، وما كان هذا الطموح يوما مراد النفوس الوضيعة. ولم يكن يعوزه الا مقربون يعرفون السبيل الى ذلك المجد، وقلائل هم القادة الذين يستحقون هذا الاطراء.

ولا يسعني السكوت عن ملاحظة سمعتها في القاهرة. ان التجار الاوروبيين الذين شهدوا عليا حاكما ومخلوعا يطرون ما اتصف به من حلم وتشيع للعدل وعطف على الفرنجة، ويدهشون لعدم تأسف الشعب عليه، فينعتون هذا الشعب بالتقلب او نكران الجميل. على ان هذا الامر لا يبدو غريبا في نظري. فان احكام الشعب في مصر وغيرها تمليها عليه احوال معاشه. فبمقدار ما يكون الحكام قد عسروها له او يسروها، يبادلهم مقتا وذما او ثناء ورضى. وما كانت هذه الطريقة يوما عمياء اوجائرة ، ومتى اعوز الخبز الجماعات فمن اقل حقوقها ان تضن بعرفان الجميل والاعجاب. ماذا يعني شعب مصر ان يفتح علي الصعيد او مكة او سوريا اذا لم تكن هذه الفتوحات عاملة على تحسين حاله؟ وقد حدث في الواقع ما افضى بالبلاد الى اسوأ مآل. فان نفقات الحروب ادت الى تفاقم الضرائب، فبلغت تكاليف حملة مكة وحدها ستة وعشرين مليونا بعملة فرنسا. وخرجت المؤن من البلاد وراء الجيوش، ولجأ بعض التجار المقربين الى الاحتكار، فحدثت مجاعة عمت البلاد طوال سنتي ١٧٧٠و ١٧٧١. فهل اخطأ سكان القاهرة وفلاحو المزارع الجائعون بتذمرهم من علي؟ وهل اخطأوا بتقبيح تجارة الهند التي انحصرت منافعها في ايد معدودات؟ واذا كان علي قد انفق خمسة وعشرين الف ليرة ثمنا لقبضة خنجر، أما كان من حق الشعب ان ينكره هذ البذخ وينفر من صاحبه؟.

وهذا السماح في العطاء الذى كان يحسبه رجال خاصته فضيلة، اما كان الشعب مصيبا، وقد حصل على حسابه، ان يعده نقيضة وعيبا؟ اى فضل لهذا الرجل في بذل لا يكلفه شيئا؟ أكان من العدل ان يرضى عواطفه الخاصة ويسدد التزاماته على نفقة الجمهور كما حدث له ان فعل مع قيم قصره حسن الانكشاري الذى تتلخص قصته في انه كان له عند علي بك خمسمائة دينار. وعندما أخرج علي بك للمنفى (نفى ثلاث مرات) جاءه حسن هذا فظن علي بك أنه جاء يطالبه بماله، فشرع يعتذر له. غير أن حسنا هذا أخرج من جيبه خمسمائة دينار أخرى وقال له: انك الآن في محنة، فخذ هذه أيضا، فأقسم علي بك أنه متى عاد للسلطة يجعل لهذا الرجل ثروة لامثيل لها. وقد أوفى بوعده وعينه خازندارا وعبثا حدثوه بامر اختلاساته، فلم يقتص به. لا نكران ان معظم اعمال علي بك لا تستند الى مبادئ العدل والانسانية بقدر ماهي ترجع الى عوامل طمعه وزهوه، فلم تكن مصر في نظره الا ملكا، والشعب إلا قطيعا يجوز له ان ينصرف به على هواه. أنعجب بعد هذا ان الناس الذين عاملهم معاملة السيد المتصلف ينظرون اليه نظرة الاجراء المستائين؟.

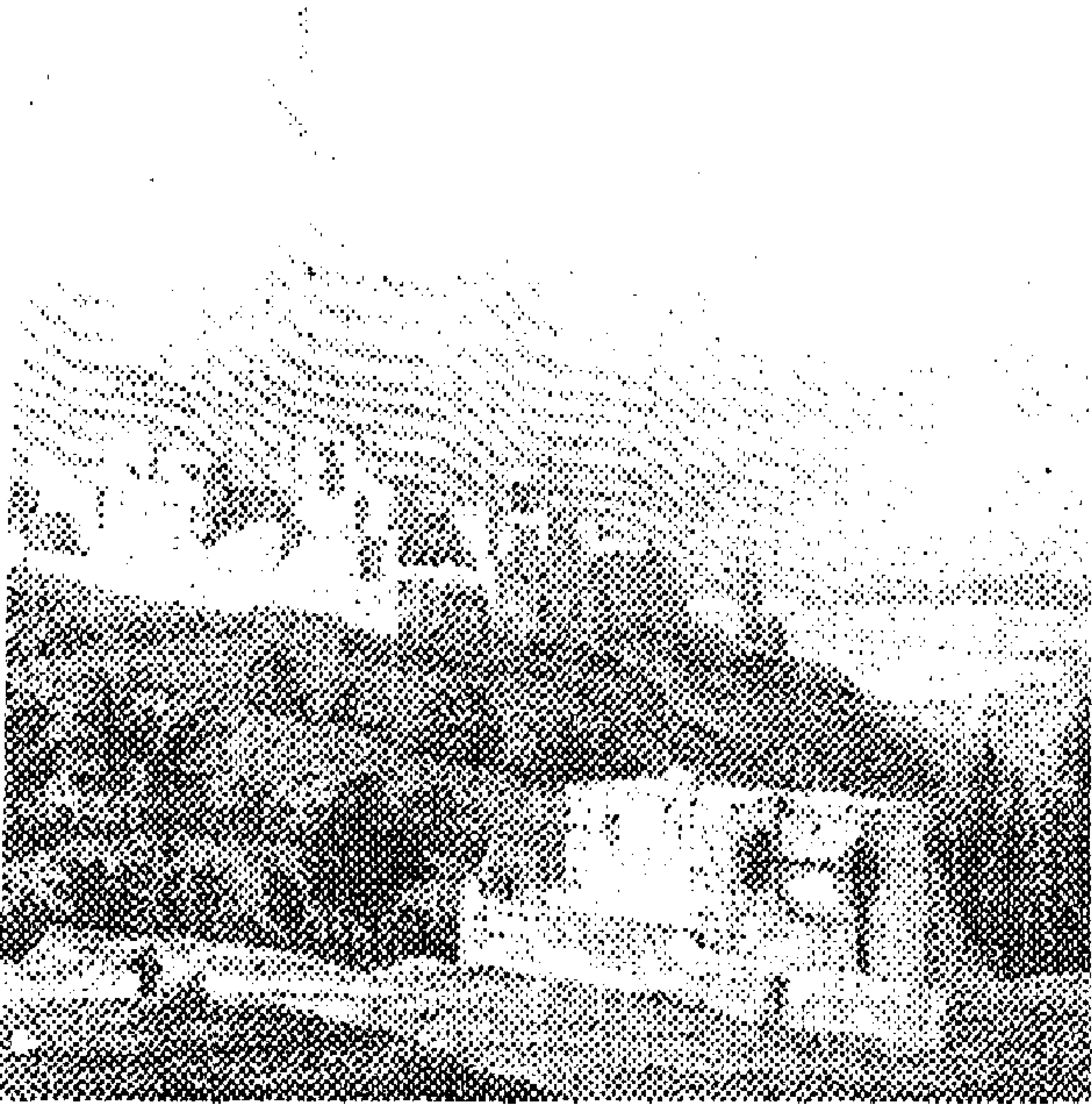
موجز الحوادث منذ موت علي بك حتى السنة ١٧٨٥

لم تتبدل حال المصريين بعد موت علي. فان خلفاءه لم يحاولوا الاقتداء حتى بما هو جدير

بالشناء من سلوكه. اما محمد بك الذى خلفه في شهر ابريل من السنة ١٧٧٣، فلم يظهر من خلال سنتي حكمه الا نزق اللص ولؤم الخائن.

وخشي ان يرمى بالجحود ونكران الجميل فتظاهر بانه المنتقم لحقوق السلطان ورسول مشيئته، فارسل الجزية الي الاستانة بعد ان انقطعت عنها ست سنوات، واقسم يمين الطاعة بلا قيد ولا شرط، وجدد خضوعه عند موت علي بك، وتوسل بحجة اخلاصه للسلطان فاستأذنه في محاربة عمر الضاهر. وهو طلب لو اتيح للباب العالي ان يلتمسه التماسا لفعل، فما بالك به وهو يمنحه تكرما؟ اجل لقد اجاب محمدا الى رغبته واسبغ عليه لقب باشا القاهرة. فاصبحت الحملة شغله الشاغل. وقد يتساءل المرء اى فائد سياسية يفيدها حاكم على مصر من سحق عمر الضاهر الثائر فى سوريا؟ على ان السياسة فى هذه الحالة، شأنها في سائر الاحوال، ابعد من ان يسترشد بها اولئك الناس. فالعوامل هنا محض شخصية ومنها حقد محمد، اذا لم يكن باستطاعته ان ينسى الرسالة الاليمة التى كان الضاهر قد وجهها اليه في ابان ثورة دمشق، ولا المساعي التى قام بها ضده لمصلحة علي بك. وتحالفت البغضاء والجشع. فقد كان من المأثور عن ابراهيم الصباغ وزير عمر الضاهر انه جمع ثروات طائلة. فكانت مصلحة محمد بهلاك عمر الضاهر مزدوجة: الثأر والاثراء. ولذلك لم يتردد في اقتحام غمرات الحرب، فاستعد لها بنشاط تسعره البغضاء، وتعزز بمدفعية عظيمة، واستقدم لها مدفعيين اجانب، وجعل قيادتها بأسرة الانكليزى روبنصن، واستجر من السويس مدفعا طوله ثلاث عشرة قدما. واخيرا ظهر في فلسطين على رأس جيش يضاهي الجيش الذى كان قد جرده على دمشق. وكان ذلك في شهر فبراير من السنة ١٧٧٦. وما اقترب من غزة حتى انكفأ عنها رجال عمر الضاهر لعلمهم ان المقاومة لا تجديهم فتيلا، فاحتلها ولم يتوقف بل زحف على يافا.

وكانت تقوم على حراسة هذه المدينة حامية يعززها جميع السكان وهم متمرسون بالقتال. فتصدوا للمعتدى فحاصرهم، ويدلنا تاريخ هذا الحصار على مبلغ جهل اولئك القوم للفنون الحربية. وفي ما نورده من الوقائع الرئيسية برهان على ذلك.



تقع يافا على ساحل قليل الارتفاع عن سطح البحر. وتقوم المدينة نفسها على تل كقالب السكر ينتصب عموديا الى مئة وثلاثين قدما. وتبدو المنازل المزروعة على السفح كالمسطحات المتراكبة. وفي القمة قلعة صغيرة تشارف جميع ما يحيط بها. واسفل التل محاط بجدار غير محصن يراوح ارتفاعه بين اثنتى عشرة قدما واربع عشرة، وسماكته بين قدمين وثلاث. ولا تميزه من حائط البساتين إلا الشرفات التى تعلوه، ولا خنادق تعصمه. وتمتد حياله حدائق من الليمون والبرتقال تبلغ ثمارها حجما غريبا بفضل خصب التربة. تلك هي المدينة

التي هاجمها محمد. وكان حماتها عندئذ خمسمائة صفدي او ستمائة، ومثل هذا العدد من السكان هبوا جميعا لصد العدو وسلاحهم السيف وبنادق الصوان والفتيل. وكان في حوزتهم بعض مدافع فولاذية زنة قنابلها اربع وعشرون رطلاً. ولم يكن لتلك المدافع محامل فرفعوها على قواعد خشبية ركزت بعجلة فائقة . وحسبوا ان القوة في الشجاعة والبغضاء، فأجابوا العدو على الداره بالتهديد والعبارات النارية.

واذا رأى محمد انه لابد من اكتساحهم عنوة واقتدار ، عسكر امام المدينة ولكن المماليك يجهلون القواعد الفنية بدليل ان محمدا وقف من المدينة على نصف مرمى المدفع، فنبهه الى خطأه سيل القنابل المنهمر على خيامه، فتراجع رويدا حتى استقر في المكان الامين. فنصبت له خيمة اسرفوا في زخرفتها، وبدت فيها مظاهر من البذخ لا حد لها، ثم ضربت حولها خيام المماليك دونما نسق او نظام. واصطنع عسكره اكواخا من جذوع الشجر واغصان الليمون. وتدبر سائر الجيش امره بقدر المستطاع. وتوزع الحراس هنا وهنالك على وجه يكاد يكون مرضيا. ولم يقيموا المتاريس حول المعسكر. وحسبوا مع ذلك انهم معسكرون بمقتضى الاصول. وتحتم عليهم تثبيت المدفعية فتخيروا لها منهدا من الارض في الجنوب الشرقي من المدينة، وأحكموا ثمانية مدافع ضخمة وراء جدر البساتين على مسافة مائتي خطوة من المدينة، وشرعوا يطلقون النار على رغم رصاص البنادق المتساقط عليهم من اعالي السطوح، مما كان سببا في تقتيل الكثيرين من مطلقي مدافعهم. ان هذا الترتيب يبدو غريبا في اوروبا، حتى ان الناس قد يشكون في حقيقة امره. بيد ان تلك الحوادث لم يمر عليها احدى عشرة سنة. وقد شاهدت اماكنها، واستمعت بصددها الى شهود عيان. وارى المفروض على ألا اشوه وقائع يجب ان تكون مستندا للحكم على ذهنية امة. وفتحت المدافع في هذا الجدار ثغرة واسعة، فحاول المماليك عبوراه على ظهور الجياد. واذ تبين لهم ان الامر مستحيل ترجلوا، وساروا بسراويلهم الواسعة وارديتهم المشمّرة يتعثرون بالانقاض، السيوف العقفاء في ايديهم والطبنجات في اوساطهم. وحسبوا انهم جاوزوا كل العقبات بعد اجتيازهم هذه الانقاض. بيد ان المحاصرين تريثوا حتى نفذ المماليك الى الارض المنكشفة فامطروهم وابلا من الرصاص. فارتدوا منهزمين. فاستنفزهم مراد بك مرات متتالية، ولكن على غير طائل. وكان محمد بك في هذا الوقت يتميز غيظا ويأسا. واستمرت الحال على هذا المنوال ستة واربعين يوما. على ان عدد المحاصرين بالمدينة كان يتناقص يوما فيوما بسبب الهجمات المتوالية. ويئسوا من اية نجدة تصلهم من عكا. وسئموا ان يستمروا في الدفاع عن قضية عمر الضاهر. وكان المسلمون اكثر تبرما من غيرهم، ناسبين الى المسيحيين انصرافهم الى الصلاة وانشغالهم بالكنائس اكثر من اهتمامهم بساحة القتال. وفتح البعض باب المفاوضات، فاقترح اخلاء المكان اذا كان المصريون يؤمنون المحاصرين على المال والارواح. ووضعت الشروط حتى كاد يصح القول ان المعاهدة ابرمت بين الفريقين. ولكن نفرا من المماليك غنموا فرصة الهدنة فانسلوا الى المدينة، وباشروا النهب، فحاول الاهالي المدافعة، واستؤنف الهجوم. وتواثب الجيش زرافات وقام بأعمال السلب والتقتيل، فحصد السيف النساء والاطفال والشيوخ. وابت وحشية محمد ونذالته إلا ان يرفع نصبا للنصر، فأمر ان يشاد له هرم من رؤوس القتلى المناكيد، وقد جاوز عددهم الفا ومائتي نسمة. وكان من نتيجة هذه

الكارثة التى حلت بالمدينة فى ١٩ مايو سنة ١٧٧٩ ان عم الذعر سائر البلاد ، فانهزم الشيخ عمر الضاهر من عكا حيث حل ابنه على محله. وكان على هذا شديد البأس، على كونه شوه امجاده بثوراته على ابيه، فاعتقد ان محمد ـ وكان قد حالفه ـ سيحترم الحلف، ولكن هذا المملوك ما كاد ينتهي الى ابواب عكا حتى طلب من على ثمنا لصداقته له رأس ابيه، فرفض على وتخلى عن المدينة للمصريين، فانتهبوها انتهابا. وكاد التجار الفرنسيون يتعرضون لمثل هذا المصير، ولكنهم ما لبثوا ان فوجئوا بخطر مريع. فقد ترامى الى مسامع محمد انهم مؤتمنون على ثروة ابراهيم كاخية عمر الضاهر، فانذرهم بالموت اذا منعوها عنه. وعين للبحث عنها فيما بينهم نهار الاحد التالى، فوقع فى هذا النهار حدث انقذهم من هذه الورطة الهائلة. فقد استولت على محمد حمى خبيثة اهلكته بعد يومين، فقضى فى زهرة العمر، وكان ذلك فى شهر يونيو من السنة ١٧٧٦ . ويعتقد المسيحيون ان هذه الميتة قصاص من النبى الياس الذى كان محمد قد هتك حرمة كنيسته على جبل الكرمل. ويروون ايضا انه كان يراه مرات عديدة بصورة شيخ ويصيح باستمرار: «ابعدوا عنى هذا الشيخ الذى يلازمنى ويرعبنى » على ان الذين شهدوا ساعاته الاخيرة قد اخبروا اشخاصا جديرين بالثقة فى القاهرة ان هذه الرؤيا ما كانت الا نتيجة للهذيان الناشئ عن ذكرى الضحايا التى غدر بها محمد، وان موته يرجع الى رداءة المناخ والقيظ والتعب المفرط، فضلا عن الهموم المرهقة التى لازمته فى ابان حصار يافا. وتجدر الاشارة هنا الى اننا لو شئنا الاعتماد فى كتابة التاريخ الحديث على رواية مسيحيى سوريا ومصر لجاءت ملأى ـ كما فى العصور السالفة ـ بالمعجزات والرؤى.

وما ذاع نبأ موت محمد حتى سادت الجيش الفوضى على ما حصل له فى دمشق، وانهزم صوب مصر. وكان مراد بك قد اصبح ذا نفوذ عظيم فاسرع الى القاهرة ينازع ابراهيم بك القيادة، وهو من اخصاء الميت واحد معتقيهم. فلم يبلغ مسامعه ما آلت اليه الامور حتى اتخذ من التدابير ما يضمن له بقاء السلطة التى كان مؤتمنا عليها منذ غياب سيدهم. وكانت الاحوال جميعها تؤذن بوقوع الحرب بينهما على ان كلا الخصمين وازن بين وسائله ووسائل عدوه فرأى انها متعادلة بحيث اصبح يخشى عاقبة القتال. لذلك اختارا السلم وتوافقا على ان تكون السلطة بينهما مشاعا، شرط ان يحتفظ ابراهيم بلقب شيخ البلد او القائد. هذا ما قضت به مصلحتهما المشتركة فى التأمين على سلامة كليهما. وكان البكوات الذين من بيت على (اى الذين اعتقهم) يتبرمون سرا بكون السلطة قد انتقلت الى يد حزب جديد. وكانت رفعة الشأن التى بلغها محمد تجرح كبرياءهم. وبدت لهم سلطة عبيده مما يفوق طاقة الاحتمال. فعزموا على التخلص منها وشرعوا يدسون الدسائس ويحزبون الاحزاب حتى تيسر لهم ان يؤلفوا عصبة اطلقوا عليها اسم بيت على بك. وكان يرئس هذه العصبة حسن بك الملقب بالجداوى نسبة الى جدة التى كان حاكما عليها. وزاملة اسماعيل بك احد معتقى الكاخية ابراهيم. وبلغت دسائسهم حدا من النجاح اكره مراد بك وابراهيم بك على اخلاء القاهرة. فانكفأ الى الصعيد حيث تقرر منفاهما، وتمكنا هناك من تنظيم شؤونهما بفضل ما التحق بهما من الانصار المنشقين. فرجعا الى القاهرة على رأس اربعمائة فارس هزموا الاعداء على كونهم يزيدونهم فى العدد ثلاثة اضعاف، فطرد اسماعيل وحسن بدورهما الى الصعيد حيث لا يزالان. وقلق مراد

وابراهيم من بقاء هذا الحزب، فحاولا ابادته ولكنهما لم يفلحا. ثم اقطعا العصاة مقاطعة في نواحي جرجا. على ان المماليك ينزعون دائما الى ملذات القاهرة، فحاولوا بعض الاضطرابات خلال السنة ١٧٨٣ . فرأى مراد بك ان يعمل مرة أخرى على ابادتهم. وكان ـ عند وصولي الى مصر ـ يعد العدة لهذا العمل . وانتشر رجاله على ضفاف النيل يوقفون المراكب ويسوقون ربانها تحت تهديد العصى الى القاهرة. والناس يتهاربون من السخرة. وقد فرضت على تجارة المدينة ضريبة هائلة. واكره اصحاب الافران والتجار على بيع سلعهم باسعار هي دون اسعار تكاليفها. وكانت ضروب الاغتصاب هذه التي ينكرهها الناس في اوروبا تجري وكأنها امور عادية. وكان مراد بك قد انجز اعداد وسائله في اوائل شهر نيسان، فانطلق الى الصعيد.

ان انباء الاستانة التي تراجعت اصداؤها في اوروبا وصفت هذه الحملة بانها حملة حرب عظيمة وجيش ضخم. ويصح اطلاق هذه النعوت عليها اذا قيست بوسائل مراد بك وحالة مصر، ولكن عددها في الواقع الفان من الفرسان. فاذا تدبرنا اخبار الاستانة وما يعتريها من التشويه المعتاد وجب ان نصدق احد امرين: فاما ان يكون اتراك العاصمة جاهلين ما يجري في مصر وسوريا، واما ان يكونوا تعمدوا التهويل على الاوروبيين. على ان صعوبة المواصلات بين تلك الاصقاع المتباعدة في السلطنة تجعل الافتراض الاول اكثر احتمالا من الافتراض الثاني. ولقد يبدو للمتسائل ان باستطاعة تجارنا المقيمين في مختلف الاساكل [الموانى] ان يرشدونا الى حقيقة الحوادث. بيد ان هؤلاء التجار المحصورين في «خاناتهم» كالسجناء لا يبدون كثيرا من الاهتمام بما هو غريب عن متاجرهم، ويقتصرون على قراءة الجرائد المرسلة اليهم من اوروبا. وقد ارادوا في بعض الاحيان ان يصححوا الانباء الواردة فيها، ولكن معلوماتهم استعملت في غير طرقها، فرجعوا عن الاهتمام بهذا الامر الذى يبهظهم بالتكاليف ولا يفيدون منه شيئا.

خرج مراد بك من القاهرة وسار بخيالته بمحاذاة النهر تتبعه المراكب حاملة ذخائره ومهماته. وواءمت مسيره ريح شمالية مؤاتي. وكان المنفيون، وعددهم خمسمائة، ينزلون ما وراء جرجا. فلما علموا بقدوم العدو دب بينهم الشقاق وانقسموا فريقين يريد احدهما الحرب والآخر التسليم. وكثيرون قالوا بهذا الرأى الاخير فاستخذوا لمراد بك. على ان اسماعيل وحسن استمرا على عنادهما فانطلقا صوب اسوان يتبعهما مائتان وخمسون خيالا. فتعقبهما مراد حتى الشلال حيث اعتصما في اماكن وعرة جعلت لهما افضلية حسب المماليك انه يستحيل معها اقتحامهما. وخشي مراد ان يطول غيابه عن القاهرة فتتفجر فيها ثورة جديدة، فأسرع بالعودة اليها، مما هيأ للمنفيين ، وقد خرجوا من المأزق، ان يرجعوا الى مراكزهم الاولى في الصعيد.

ان جماعات تسودها الميول الخاصة ولا يفكر افرادها بغير نفوسهم دون ما نظر الى مخبآت الغد، ولا يوحي قادتها من الاحترام ما يضمن لهم طاعة المسود، ان جماعات كتلك لا تستقر بها السيادة، بل ان ثباتها ضرب من المحال. فان تصادم عناصرها غير المتجانسة يفضي بها الى قلق واضطراب شاملين.

وهذا ما حدث ويحدث لجماعة المماليك في القاهرة. فان مرادا ما كاد يرجع اليها حتى تولدت دسائس جديدة افضت الى اضطرابات جديدة. فقد اجتمع في تلك المدينة، فضلا عن حزبه وحزبي ابراهيم وبيت علي بك، بكوات ينتسبون الى

بيوتات اخرى. تنادوا في شهر يوليو من سنة ١٧٨٣ لضم قواهم، وكانت منعزلة حتى هذا اليوم، ونهدوا الى القيادة. وشاءت المصادفة ان ينكشف امر هذه العصبة فنفى قادتها الخمسة الى الدلتا. فتظاهروا بالاستخذاء. ولكنهم ما كادوا يخرجون من المدينة حتى تحولوا الى الصعيد وهو الملاذ المعتاد الذى يوائم جميع المستائين. فلوحقوا نهارا كاملا في صحراء الاهرام، ولكن على غير طائل. واستطاعوا التخلص من المماليك والعرب، وبلغوا المنيا دون ما حادث، واستقروا فيها. وكانت هذه القرية الواقعة على اربعين ميلا من القاهرة على ضفاف النيل مؤاتية لاغراضهم، اذ تسلطوا على النهر بحيث تيسر لهم الاستيلاء على كل موارد الصعيد. وعرفوا ان يفيدوا من هذا الوضع، لان المؤن التي ترد في هذا الفصل من تلك المقاطعة قد وقعت في يدهم، وحرمت القاهرة من الميرة وتهددتها المجاعة. اضف الى ذلك ان البكوات واصحاب الاملاك الذين تقع مزارعهم في الفيوم قد حرموا ريعها لان المنفيين فرضوا عليها الفرد والضرائب. وكانت هذه البلبلة مما يستلزم حملة جديدة.

اما مراد بك وقد أتعبته الحملة السابقة فقد رفض ان يقوم بأخرى. فأخذها ابراهيم بك على عاتقه، وباشر اعداد العدة لها في شهر اغسطس على رغم حلول رمضان. فحجزت المراكب وربانها على ما حدث في إبان الحملة السابقة. ثم فرضت الضرائب وصودر متعهدو الارزاق. وفي اوائل شهر أكتوبرخرج ابراهيم على راس جيش نعتوه بالجيش الرهيب لانه كان يناهز ثلاثة الاف فارس. وانطلق في النيل نفسه لان مياه الفيضان كانت ما برحت تغمر معظم البلاد. ولم تمض ايام قلائل حتى تواجه الجيشان. بيد ان ابراهيم لم يكن ذا مزاج حربي شأن مراد، فلم يهاجم المتحالفين، بل فاوضهم، فتوافقوا على محالفة شفهية قضت برجوع البكوات الى سابق حالهم. وتريب مراد من هذا الاتفاق اذ رأي فيه دسيسة عليه، وساد الحذر بينه وبين خصمه. وزاد في قلقه ما ابداه المنفيون من التشامخ في اثناء احد المجالس العامة. فأوجس الخيانة وتدارك الامر بان خرج من القاهرة برجاله وانصرف الى الصعيد. وحسب الناس ان الحرب واقعة لا محالة. بيد ان ابراهيم آثر التسويف. وبعد انقضاء اربعة اشهر انحدر مراد الى الجيزة متحفزا للقتال. على ان الفريقين بقيا خمسة وعشرين يوما وجها لوجه، يفصل بينهما النهر ولا يتقاتلان. ثم شرعا بالتفاوض. سوى ان شروطه لم تكن مما يرتاح له مراد، فرجع الى الصعيد لانه لم يكن من القوة بحيث يستطيع إملاء شروطه عنوة واقتدارا. فأوفد اليه مراد مفاوضين تمكنوا، بعد أخذ ورد سحابة اربعة اشهر. ان يعودوا به الى القاهرة. وكانت الشروط ان يستمر مراد على مقاسمة ابراهيم السلطة، وان تنزع من البكوات الخمسة املاكهم. واذ رأي البكوات ان ابراهيم ضحى بهم لاذوا بالفرار. فطاردهم مراد واستعمل عرب البادية للقبض عليهم، ثم رجع بهم الى القاهرة ليكونوا فيها قيد نظره. ولاح للناس وقتئذ ان السلم استقر. بيد ان ما حصل بين القائدين كان من شأنه ان يكشف عن حقيقة مرادهما الواحد تجاه الآخر. فلم يكن من المستطاع، والحالة هذه، ان يتصافيا لأن كلا منهما كان يثق ان الآخر يتحين الفرص للايقاع به. فلبثا في يقظة وحذر. وما عتمت هذه الحرب الباطنة ان اكرهت مراد بك على مغادرة القاهرة في السنة ١٧٨٤. فضرب خيامه على ابواب المدينة حيث اظهر من العزم والجلد ما ادخل الرعب في قلب ابراهيم، فهرب برجاله الى الصعيد، واستقر فيها حتى شهر

مارس من السنة ١٧٨٥ . ثم رجع الى القاهرة على اثر محالفة جديدة. ولايزال يقاسم خصمه السلطة ريثما تهيىء له دسيسة جديدة فرصة الانتقام.

هذه هي خلاصة عن الثورات التي تعاقبت على مصر في هذه السنوات الاخيرة. واني لم اتبسط في ذكر الملابسات المتعددة التي رافقت الحوادث لانها لا تفيد شيئا، فضلا عما يعتور صحتها من الشك والريبة. وان هي الا دسائس وخيانات واعتداءات على الارواح يفضي تكرار رواياتها الى الملل. وحسب المطالع ان يتتبع سلسلة الوقايع الرييسية ويستخلص منها فكرا عامة عن طبايع البلاد التي يدرسها وعن حالتها السياسية. بقي علينا ان نتبسط في درس هاتين الناحيتين.

الحالة الراهنة في مصر

منذ ثور الكاخية ابراهيم وثورة علي بك، على الاخص اصبحت سلطة العثمانيين اقل استقرارا في مصر منها في اية ولاية اخرى. من الثابت ان للباب العالي في مصر باشا يمثله، ولكن هذا الرجل المحصور قيد المراقبة في قصره بالقاهرة انما هو سجين المماليك اكثر مما هو ممثل السلطان، وهو عرضة للخلع والنفي والطرد. ولايكاد يتبلغ الانذار على يد ضابط اسود الرداء حتى «ينزل» من قصره كأي من الناس. وقد شاء نفر من الباشاوات بإيعاز من الباب العالي ان يستعيدوا سلطاتهم بما حاولوه من وسائل المكر. بيد ان البكوات احاطوا هذه الدسائس بالمخاطر، مما جعل الباشاوات يقنعون، في الوقت الحاضر، بقضاء مدة اسرهم بهدوء وسكينة سحابة ثلاث سنوات، وبانفاق مخصصاتهم المعينة لهم.

على ان البكوات لا يتجرأون على اعلان استقلالهم مخافة ان تؤول السيطرة على «الديوان» الى احد الاحزاب المتطرفة. فكل شيء يجرى باسم السلطان، وتقبل اوامره «على الرأس والعين»، اي بعميق الاحترام. على ان هذه الظاهرة المضحكة لا تقترن بالتنفيذ قط. فكثيرا ما علقت الجزية، واذا أديت فهي ناقصة ابدا، اذ يسقطون منها مقدار نفقات شتى لتنظيف الترع، ونقل اوساخ القاهرة الى البحر، ومرتبات الجنود، وترميم الجوامع الخ الخ. وجميعها نفقات وهمية كاذبة. ويخدعون الناس في حقيقة مبلغ الفيضان ودرجته. ولولا الخوف من مراكب الدولة التي تأتي رشيد والاسكندرية كل سنة لتحصيل ضريبة الارز والحنطة، لما ادوها. وهم مع ذلك يتصالحون على مقاديرها مع المكلفين جبايتها. هذا والباب العالي يغض الطرف عن هذا التعسف جريا على سياسته المألوفة. فهو يعرف انه اذا لجأ الى تدابير القمع التزم بجهود وتكاليف قد تضطره الى حرب معلنة يجوز ان تحط من شأنه، فضلا عن ان مصالح اشد خطرا تفرض عليه حشد القوات جميعها في الشمال(تجاه روسيا). وهو اذن في حرصه على سلامة الاستانة نفسها يكل الى الاقدار مهمة استعادة سلطانه على الولايات البعيدة. فيعمل على التفرق بين الاحزاب حتى لا يسود احدها او يستقر. وهذه الطريقة التي لم تخيب مقاصده حتى اليوم قد جاءت موافقة لكبار ضباطه ايضا، فهم يساومون المتمردين على نفوذهم وحمايتهم لهم، ويجمعون من جراء ذلك المبالغ الطائلة. وهذا هو اليوم شأن امير البحر حسن باشا، فقد سلك المسلك نفسه مع مراد وابراهيم فحصل منهما على اموال باهظة.

ميليشيا المماليك

ان المماليك عند استيلاءهم على الحكم في مصر تذرعوا بالوسائل التي حسبوا انها تضمن استقرارهم فيه. ولا ريب ان انجح تلك الوسائل كان ما قاموا به من اضعاف فرقتي العزب والانكشارية العسكريتين، بحيث ان هاتين الفرقتين، وقد كانتا مفزعة في يد الباشا، اصبحتا مثله ولا حول لهما ولاطول. وهذا خطأ آخر تقع تبعته على عاتق الباب العالي. فان عدد الجند الاتراك الذى كان حتى قبل ثورة الكاخية ابراهيم اربعين الف رجل خيالة ورجالة، قد انزل الى نصفه بسبب جشع القادة الذين كانوا يحتفظون لأنفسم بالمرتبات المخصصة للجنود. وجاء على بك بعد ابراهيم يستكمل هذه البلبلة. فشرع بالتخلص من الرؤساء الذين يترتب منهم، وترك مراكزهم شاغرة، وجرد القادة من النفوذ، ورذل الجيوش التركية حتى ان العزب والانكشارية والفرق الخمس الاخرى اصبحت اليوم خليطا من الحرفيين والمرتزقة والمتشردين الذين يرتضون حراسة اى باب لقاء اجر يتقاضونه، ويرتجفون امام المماليك كما ترتجف منهم سوقة القاهرة. والواقع ان قوة مصر العسكرية تنحصر في فرقة المماليك. فمنهم بضع مئات منتشرون في البلاد والقرى للمحافظة على السلطة وجباية الضرائب والحؤول دون المظالم. على ان معظمهم في القاهرة. ولا يجاوز عددهم بحسب تقدير العارفين ثمانية آلاف وخمسمائة رجل بين بكوات، وكشافة ومعتقين وارقاء. ويدخل في هذا العدد شبان لم يبلغوا العشرين او الثانية والعشرين من العمر. واعظم بيوتاتهم شانا بيت ابراهيم بك الذى يتألف من ستمائة مملوك. ثم يأتي مراد بك وله منهم اربعمائة. على انه في جرأته وسخائه يعادل قدر خصمه الثرى البخيل. ولكل من البكوات الآخرين، وهم ثمانية عشر او عشرون، عدد يراوح بين خمسين ومائتى مملوك. وثمة نفر من المماليك يصح ان ننعتهم بالمبهمين، وهم متحدروا بيوتات منقرضة يشايعون هذا او ذاك من الفروع بحسب مقتضيات مصالحهم. وتراهم ابدا على اهبة التحيز لمن يزيدهم عطاء. اضف الى هؤلاء بعض «السراجين» وهم فئة من خدم الجياد ينقلون اوامر البكوات ويقومون باعمال الحراسة. وهذا المجموع يكاد يبلغ عشرة آلاف فارس. ولا حساب عندهم للمشاة، فهم لا شأن لهم في تركيا عامة، وفي الولايات الاسيوية بوجه خاص، لان الفانيين الفرس والتتر ما برحت تسود هذه الاصقاع. فالحرب عندهم كر وفر لا يحسن القيام بهما الا فارس. فهو دون سواه رجل الحرب في المتعارف بينهم. ولما كان رجل الحرب عندهم صاحب الجاه والشرف، فقد رأوا في السعى على الاقدام دليل حقارة، فاختصوا به الشعب. وهم من اجل ذلك لا يسمحون لسكان مصر الا باقتناء البغال والحمير، محتفظين لانفسهم بحق ركوب الجياد. ويمارسون هذا الامتياز الى ابعد حدوده. فانك لا تراهم في المدينة او الحقل او اثناء التزاور حتى من باب الى باب، الا على ظهور الخيل. ويحملهم على هذا الامر، فضلا عما سبق، نوع الملابس التي يرتدونها. وهذه الملابس التي لا تختلف من حيث الشكل عن ازياء اهل اليسر في تركيا جديرة بأن توصف.

النبذة الاولى
البسة المماليك

قميص واسع من نسيج قطنى ناصع اللون ضارب الى الصفر، يعلوها رداء كالمبذلة من كتان الهند او من نسيج دمشق او حلب. وهذا الرداء

المسمى بالعنترى ينحدر من العنق حتى الكاحلين ، وينضم جانباه على مقدم الجسم حتى الوركين حيث يثبت بتكتين. ويعلوا هذا الرداء رداء آخر بشكل الاول واتساعه، يصل كماه الواسعتان حتى رؤوس الاصابع، ويسمونه القفطان. ويصنع عادة من الحرير، وهو اثمن من الرداء الاول. وثمة منطق طويل يضم الردائين معا الى القد ويقسم الجسم الى جزئين. اضف الى ذلك قطعة ثالثة من الجوخ غير مبطنة، هى الجبة. ولا يختلف شكلها عن القطعتين الاولين اجمالا، سوى ان كميها مقصوصان عند المرفقين. وهذه الجبة تكسى، فى الشتاء وغالبا فى الصيف، بالجلد فتصبح فروة. وفوق هذه الغلافات الثلاثة يأتى معطف رابع يرتدى فى الاحتفالات ، وهو يغطى مجمل الجسم ورأس الاصابع، اذ يرون فى كشفها امام العظماء ما ينافى الحشمة والادب. ويبدو الجسم تحت هذا المعطف مثل كيس طويل يخرج منه عنق عار ورأس حليق تعلوه عمامة. وعمامة المماليك تسمى «القاووق» وهو على شكل اسطوانة صفراء تحيط بها لفافة من الشاش منتظمة الاستدارة. وينتعلون حذاء من الجلد الاصفر يكسو الرجل حتى العقب، وخفا بلا حوافى معدا لان ينزع فى الطريق. اما الثوب الغريب فهو السروال، لانه من السعة بحيث يصل الى الذقن طولا، وكل ساق من ساقيه تسع الجسم كله. ويصطنعه المماليك من جوخ البندقية، وهو اكثر سماكة وانعم ملمسا من الصوف الخشن. ولهذا السروال منطق ذو حجزة يعقد على الاقسام المدلاة من الثياب التى ذكرناها، فتضم جميعها تحت السروال تيسيرا للمشى. فمتى تصورت المماليك مقمطين على هذه الصورة، سهل عليك ان تفهم السر فى تثاقل خطاهم، وهم يرون فى ثيابهم راحة وسعة. وعبثا تقول لهم انها تعرقل سيرهم مشاة، وانهم لا يحسنون الطراد ركوبا، وان الفارس اذا اسقط عن جواده مصيره الهلكة، فجوابهم على كل ذلك «انها العادة».

النبذة الثانية

جهاز المماليك

ولنر اذا كان جهاز جيادهم اطبق على المعقول. ان اهل اوروبا منذ تعودوا البحث فى علة الاشياء شعروا ان الفرس، لكى تسهل عليه الحركات تحت فارسه، يحتاج الى عدة وحمل خفيفين. وهذا التحول الذى طلع علينا به القرن الثامن عشر لا يعرف المماليك من امره شيئا. فهم ما برحوا على ذهنية القرن التاسع، ينقادون ابدا «للعادة» ويوسقون الحصان بعدة ضخمة الهيكل، مثقلة بالحديد والخشب والجلد. يعلوها من وراء قربوس يرتفع ثمانى قراريط ويغطى الفارس حتى رأس الورك، ومن امام قربوس آخر يهدد صدره اذا ما انحنى، ويستعيضون عن الصفة تحت السرج بثلاثة اغطى صوفية سميكة ، ويثبت كل ذلك فى السرج بحزام يمر فوقه، ويربط ليس بأبازيم ذات شوكات، بل بسموط معقود قليلة المتانة كثيرة التعقيد . وسروجهم واسعة المقدمة ولا سير لها فى المؤخرة، مما يجعلها تسترسل على كتفى الفرس. والركب لوحات من النحاس تفوق الرجل طولا وعرضا وترتفع حوافيها مقدار قيراط، وهى تتدلى من العرى. ولهذه الركب زوايا حادة كالشفار تستعمل عوضا عن المهاميز لتفتح فى كشوح الجياد جراحا مستطيلة. ويزن الركابان عادة عشر ارطال، وكثيرا ما تزنان اثنتى عشرة رطلا. وهذا الامر مستغرب، خصوصا وان الخيل فى مصر صغيرة القدود. والزمام ينتهى بحلقة حديدية تضغط على الذقن حتى تكاد تقطع الجلد،

مما يجعل الفرس محطم جانبي الفكين ولا فم له ذلك ان المماليك يرجون اللجام رجا عنيفا، فيطلقون العنان للفرس، ثم يوقفونه بغتة في اشد انطلاقاته واذ يشد لجام الفرس تتصلب قوائمه، ويطوى عرقوبيه، ينزلق بمجمله قطعة واحدة كأنه حصان خشبي. ومن المعلوم ان هذه الطريقة تتلف الفم والقوائم بتكرارها. على ان المماليك يجدون فيها اناقة، وهي تتفق مع اساليبهم في القتال. ومع ذلك فالمملوك فارس ثبت قوى، على رغم ساقيه المعقوفتين وكثرة تلويه، وعليه سيماء حربية تفتن عين الغريب. ويجدر القول انه اكثر تونقا في تخير سلاحه.

النبذة الثالثة

اسلحة المماليك

سلاحهم الاول قرابينة انجليزية [بندقية]، طولها ثلاثون قيراطا، وعيارها من القوة بحيث تطلق عشر رصاصات او اثنتى عشرة في وقت معا، ويحملون في اوساطهم غدارتين مشدودتين الى الشوب ببريم من الحرير. وتتدلى من القربوس ضمة من الاسلحة يستعملونها للقتل ضربا [منها المقامع و الخناجر]. ويتدلى من حمالة في جنبهم الايمن سيف معقوف قلما نشاهد نظيره في اوروبا، طول نصله في خط مستقيم اربعة وعشرون قيراطا، واذا قيس انحناؤه فثلاثون قيراطا. ولهذا الشكل الذى نراه مستغربا ما يبرره عندهم. فقد دل الاختبار على ان النصل المستقيم يقتصر فعله على موقع الضربة وحينها لانه لا يقطع الا بالضغط، في حين ان النصل الاعوج ينزلق بقوة الذراع تقهقرا ويتسع مدى فعله. وهذه الملاحظة لم تفت البربر المفتنون في اساليب القتال والتقتيل. وهذا ما حمل الشرقيين على استعمال السيوف المحنية العريضة. والمملوك العادى يجلب سيوفه من الاستانة ومن اوروبا. اما البكوات فهم يتنازعون سيوف الفرس والمصانع القديمة في دمشق، ويدفع ثمن السيف الواحد اربعين او خمسين ليرة فرنسية ذهبا. وخصائص السيف المفضلة عندهم خفته وصفاء معدنه ورنينه وتموج حديده، وبوجه خاص رقة شفرته، ويجب الاعتراف انها رائعة ولكنها سريعة العطب كالزجاج.

النبذة الرابعة

تدرب المماليك وتمارينهم

ان تدرب المماليك على استخدام هذه الأسلحة شغلهم الشاغل طوال الحياة. يخرج معظمهم صبيحة كل يوم الى سهل خيال القاهرة، وهناك يطلقون اعنة الجياد، ويتدربون على اخذ القرابينة برشاقة وتسديد الرماية فيها، ثم يضعونها تحت الفخد وينتزعون غدارة يطلقونها ويرمونها ما وراء الكتف، ثم غدارة ثانية تمر بالتجربة نفسها، متكلين على البريم الذى يشد كلا الغدارتين الى الشوب. فيشجعهم البكوات الحاضرون. ومن تمكن منهم من حطم الهدف، وهو عبارة عن اناء من خزف، ذهبت اليه التهانئ والمكافأة. ويتدربون ايضا على معالجة السيوف، وبنوع خاص على تسديد الضربة من الشمال الى اليمين، وتتجه من الاسفل الى الاعلى، وهي اصعب الضربات على من يتقيها. وهم على قسط من المهارة بحيث ان الكثيرين منهم يقطعون بسيوفهم الحادة كلة من القطن كما يقطع قالب الزبدة، ويرمون السهام، ولو انهم نبذوها من اساليب القتال.واحب تمارينهم لعب الجريد، والجريد معناه القصبة، ويطلق على كل عصا ترمى باليد بحسب القواعد التى اعتمدها الرومانيون للترامى بالمزاريق. ويستعمل المماليك عوضا عن العصى اغصان النخيل الرطبة. وهي اغصان طولها اربع اقدام يزن الواحد منها خمس ليبرات او ستا. يتسلح للفرسان بهذه «الحراب» ويخوضون الميدان،

ثم تنطلق بهم الجياد عدوا، فيرمون الجريد عن بعد، فاذا ما رمى المهاجم الجريد انثنى. فيلحق به من يليه ويرمى الجريد بدوره. وتؤاتى الجياد فوارسها مؤاتاة تحسب معها انها في مثل اغتباطهم. على ان هذه الغبطة شديدة المخاطر، فثمة سواعد ترمى بشدة، فتأتى ضرباتها جارحة بل قاتلة. والويل كان لمن لا يتقى جريد على بك.

ان هذه الالعاب التى تبدو لنا وحشية هي ذات علاقة بحالة الامم السياسية، وكانت شائعة بيننا لثلاثة قرون خلت. وما كان تلاشيها نتيجة لحادثة هنرى الثاني [الذى قتل بحربة اصابت احدى عينيه في سنة ١٥٥٩م] او لفلسفة العصر، بمقدار ما كان نتيجة للسلام الداخلى الذى جعلها عديمة الفائدة واذا كانت قد بقيت على حالها عند الاتراك والمماليك، فما ذلك إلا لان فوضى المجتمع تضطرهم الى التمرس بكل ما له علاقة بالحرب. فلنر اذا كانوا قد تقدموا في هذا الحقل بنسبة مرانتهم عليه.

النبذة الخامسة

الفن الحربى عند المماليك

اذا تحدث الناس في اوروبا عن فتنة او حرب، تمثلوا للحال رجالا موزعين كتائب وسرايا وكوكبات، وازياء عسكرية ملونة، ووحدات منتظمة خطوطا او صفوفا، وحركات خاصة او مناورات شاملة، وبالجملة، سلسلة عمليات قائمة على قواعد موضوعة بعد امعان وتفكير. تلك التصورات تصدق عندنا. فاذا ما شئنا الانتقال بها الى البلاد التى ندرسها كانت مجرد اخطاء وحسب.

ان المماليك لا يعرفون شيئا من صناعتنا الحربية. فلا ازياء عندهم، ولا نظام، ولا وحدات، ولا انتظام، ولا يمتثلون لآمر. فتجمعهم غوغاء، وسيرهم فوضى، واقتتالهم براز، وحربهم شقاوة ولصوصية.

وهى تنشب عادة في القاهرة نفسها. فتنفجر الفتنة في اوقات لا تبررها، ويمتطى البكوات الجياد، وينطلق صوت النذير، ويظهر المتقاتلون.

ويستحر القتال مسايفة في شوارع المدينة. وتنتهى المعركة بسقوط بعض القتلى. ثم يوجه المغلوب في طريق المنفى. اما الشعب فلا علاقة له بهذا الاعتراك، اذ ما همه ان يتذابح الطغاة؟ ولكن لا يجوز لنا ان نتمثله يشاهد القتال بهدوء وسكينة. ان وقوفه هذا الموقف في معمعة الرصاص والسيوف يحيطه باشد المخاطر. ومن اجل ذلك تراه يفر من ساحة القتال حتى يستقر السلام.

ولا يندر ان ترى الرعاع يعملون النهب في مساكن المنفيين، لا يصدهم عن ذلك اصحاب الغلبة. ومن الحسن ان نلاحظ ان هذه العبارات التى تقرأها في انباء اوروبا: «المماليك يحصدون الانصار، البكوات استنفزوا الشعب الشعب يناصر هذاالحزب او ذاك» لا تعبر تعبيرا صادقا عن واقع الحال، لان الشعب في كل هذا عامل لا يعمل.

وقد تنتقل الحرب الى البرارى حيث لا يبدى المتقاتلون من فنون القتال اكثر ما ابدوا منها في شوارع المدينة. فيهاجم اقواهم او اجرأهم الآخر ويتعقبه. فاذا تعادل الخصمان في الشجاعة تربص كلاهما او تواعدا الى مكان، حتى اذا تلاقيا فيه تقارب الحشدان مفرزات يسير في طليعتها اشد الجنود مراسا. فيتجابه القوم ويتداعون للنزاع، ثم يتهاجمون.ويختار كل رجل منازله. ويطلقون النار اذا استطاعوا، ولكن سرعان ما ينتلقون الى المقارعة بالسيوف. وهنا تظهر براعة الفارس ومرونة الفرس فاذا سقط هذا هلك ذاك.

وفى الهزيمة ، ينهض الخدم اسيادهم. فاذا كانوا بمنجى عن الرقيب قتلوهم طمعا بما يحملونه من ذهب. وكثيرا ما يتقرر مصير المعركة بعد مقتل

رجلين او ثلاثة.

وقد ادرك المماليك، في هذه الآونة الاخيرة، ان مصلحة الحر تعود على اسيادهم، فتركوا لهم شرف المغامرة في اخطارها. فاذا ربحوا كان ذلك من حسن طالع الجميع، وان غلبوا على امرهم استسلم المماليك للمنتصر، وهو كثيرا ما يكون قد فاوضهم على شروطه مسبقا. وهم يعرفون ان منفعتهم في التزام السكون، فيطمئنون الى السيد الجديد الذى يجرى عليهم الاجر، ويرجعون في ركابه الى القاهرة حيث يصبحون عالة عليه بانتظار مصير آخر.

النبذة السادسة
الانتظام عند المماليك

ان الترجرج الذى يسود الميليشيا ناشئ عن اسباب تكوينها فذلك القروى الفتى الذى بيع في منغوليا او جيورجيا لا تطأ قدماه ارض مصر حتى تتطور افكاره وتتفتح عيناه على حياة واسعة المجال فكل ما حوله يوقظ طمعه وجرأته. وعلى كونه ما برح رقيقا يشعر انه معد لأن يصبح سيدا، ويتلبس للحال بذهنية حالته المقبلة، ويساوم على حاجة مولاه اليه، فيبيعه خدماته واخلاصه، ويقيسها بالاجر الذى يتقاضاه او بالذى يترقبه. ولما كان هذا المجتمع لا يحدوه الا عامل المال، فان اخص ما يهتم له الاسياد ارضاء جشع خدمهم استبقاء لتعلقهم بهم. وهذا هو السبب في اسراف البكوات الآيل الى خراب مصر التي ينهبونها نهبا، وفي تمرد المماليك على اسيادهم وهم يبتزون اموالهم، وفي هذه الدسائس التي مانزال تهزهم هزا كبارا وصغارا. اذ لا يكاد يعتق الرقيق حتى يتطلع الى اعلى المناصب. ترى، من يستطيع الحد من مطامعه؟ ليس في من يتولون القيادة من مواهب التفوق ما يفرض الاحترام، فهو لا يرى بينهم الا جنودا مثله رقوا الى السلطة بمراسيم القوى. فاذا شاء هذا القوى ان يرعاه وصل به الى المقام نفسه. ولا تعوزه عندئذ البراعة في فن الحكم لان هذا الفن ان هو الا قبض المال وضرب السيف. ونشأ عن هذه الحال بذخ مستفيض انطلقت معه أعنة الحاجات جميعا حتى لم يبق حد لشراهة العظماء. وقد بلغ هذا البذخ مبلغا عظيما حتى اصبحت تكاليف المملوك الواحد لا تنقص عن الفين وخمسمائة ليرة. وقد يكلف بعضهم ضعفي هذه القيمة. فكلما حل رمضان جاء بأثواب جدد من أجواخ فرنسا وانسجة البندقية واقمشة دمشق او الهند. وكثيرا ما تستبدل الجياد والاسرجة، والغدارات، والسيوف، والركب المذهبة، واللجامات المفضضة.

اما القادة فيخصون، تمييزا لهم عن العامة، بالحلي والحجارة الكريمة، والجياد العربية (ثمن الواحد يراوح بين مائتين وثلاثمائة ليرة فرنساوية)، وشالات الكشمير (ثمن الواحد من خمس وعشرين الى خمسين ليرة فرنساوية)، وفروات عديدة ابخسها ثمنا يساوى خمسمائة ليرة. وقد نبذت النساء زينة الدنانير المصففة على الرأس والصدر، بحجة انها مفرطة في بساطتها، واستعضن عنها بالماس والزمرد واللؤلؤ، واضفن الى الشالات والفراء انسجة مدينة ليون وزخارفها. فمتى كانت هذه حاجات طبقة حاكمة لا تتعرف بحق ملكية او حياة، تراءت لنا عواقب تلك الحاجات على الطبقات المكرهة على سد تلك الحاجات وعلى اخلاق اصحابها.

النبذة السابعة

ان آداب المماليك هي من التفسخ بحيث يخشى على من وصفها، بمجرد حقيقتها، ان

يتعرض لتهمة المبالغة المغرضة. فقد ولد معظمهم على المذهب اليوناني، وهم يطهرون عندما يشتريهم مواليهم، ولكنهم في نظر الاتراك كفار لا دين لهم ولا ايمان. وانهم غرباء عن بعضهم لا تربطهم العواطف الطبيعية التي تجمع بين سائر الناس. ولما كانوا لا اهل لهم ولا اولاد، فلا الماضي فعل شيئا في سبيلهم، ولا هم يفعلون شيئا في سبيل المستقبل. وتراهم جهلة تعودوا الخرافات بحكم التربية، والشراسة عن طريق القتل، والعصيان عن طريق الاضطرابات، والخيانة عن طريق الدسائس، واللؤم عن طريق المواربة، وفساد الاخلاق عن طريق التهتك على انواعه. وهم بصورة خاصة مستسلمون لهذا النوع المخزى الذى طالما كان رذيلة اليونان والتتر [اللواط]: وهى الامثولة الاولى التى يتلقونها من اسيادهم فى السلاح. ولا يجد المرء تفسيرا لهذا الميل متى عرف ان لهم جميعا نساء. هذا ما لم نفترض انهم يبحثون في احد الجنسين عن اللذة التى حرموها في الجنس الآخر. والواقع انه ليس من مملوك واحد بلا وصمة.

حكومة المماليك

هذا هو نوع الناس الذين يتحكمون اليوم فى مقدرات مصر ويرئس الحكومة رجال من هذا الطراز. اما طريق الوصول الى هذه المعالى فبعض ضربات سيف موفقة وايغال فى الرياء او الجرأة. ومن الطبيعى ان هؤلاء الوصوليين لا تتبدل طباعهم بتبدل الحظوظ، فهم ينطوون على نفوس عبيد فى اثواب ملوك. وكانت السيادة فى نظرهم عبارة عن ذلك الفن الصعب الذى يوجه الميول المختلفة فى امة كثيرة العدد نحو غرض مشترك، ولكنها وسيلة للاستكثار من النساء والحلى والجياد والعبيد، وارضاء الهوى. فالادارة داخلية كانت او خارجية مسيرة بهذه الذهنية. وهى تقتصر من جهة على المداورة تجاه بلاط الاستانة تجنبا للضرائب ولغضب السلطان، ومن جهة اخرى على شراء العديد من العبيد، ومضاعفة عدد الاصدقاء، وتلافى المؤامرات، وابادة الخصم المستتر بالسم والحديد. والرؤساء ابدا فى حالة النذير، يعيشون عيشة الطغاة القدماء فى سرقوزه، فلا ينام مراد وابراهيم إلا بين القرابينات والسيوف. وليس لهذا المجتمع اى المام بفكرة الامن والنظام العام. والغرض الوحيد عند هؤلاء القوم الحصول على المال. والاستيلاء عليه حيثما يظهر، واغتصابه ايا كان مالكه، وفرض الضرائب على القرى او على الجمرك الذى يحيلها على تجارة البلاد.

النبذة الاولى
حالة الشعب في مصر

كل ما فى مصر يتفق والنظام الذى يسودها. فحيثما لا ينعم الفلاح بثمرة اتعابه تراه ينصرف الى العمل كارها، فتهن الزراعة. وحيث لا ضمانة لحرية الاستمتاع فلا صناعة قائمة، والفنون بدائية. وحيثما لا تجدى المعارف نفعا فلا ينشط الناس الى اقتباسها وتبقى العقول على وحشيتها. و هذه هى حالة مصر. فان معظم اراضيها فى يد البكوات والمماليك ورجال الشريعة. اما اصحاب الاملاك الآخرون فعددهم جد محدود، فضلا عما يصيب املاكهم من التكاليف وما يتعاقب عليها من الضرائب والمكوس. والارث عندهم لا يشمل العقارات، بل هى تؤول الى الحكومة، ومنها يشتريها اصحابها. والفلاحون آلات مأجورة لا يترك لهم للمعاش إلا ما يقيهم الموت. وما يحصدونه من ارز وحنطة يذهب الى موائد اسيادهم، فيما يحتفظون الذرة ويصنعون منها خبزا بلا خمير، لا طعم له اذا كان باردا،

يختبزونه في ملة وقدها من ورث الجواميس والبقر. [الجلة] فهذا الخبز مضافا الى الماء والبصل النيء قوتهم طوال العام. ويحسبون سعداء اذا تخلل طعامهم هذا شيء من العسل والجبن واللبن الرائب والتمر. اما اللحم والشحم فمادتان يرغبون فيهما كثيرا، ولكن لا اثر لهما في مآكلهم في غير الاعياد الكبرى، وفي بيوت اهل السعة منهم. وملبسهم كله عبارة عن قميص من الخام الازرق وجبة سوداء من نسيج خشن. وتعلوا رؤوسهم قلنسوة من الكتان يطوقونها بمنديل من الصوف الاحمر. اما الذراعان والساقان والصدر فعارية جميعها. واغلبهم لا يلبس السراويل. ومساكنهم اكواخ ترابية يضيق الصدر من قيظها ودخانها، وتحاصرهم فيها الامراض الناشئة عن الاوساخ والرطوبة والغذاء الردئ. اضف الى هذه الادواء الجسدية ما ينتابهم من خوف الغزو والنهب [من البدو العرب] وزيارات المماليك والانتقامات العائلية ومشاغل الحرب الاهلية المستديمة. هذه هي صورة تنطبق على كل القرى. وليست صورة المدن اكثر بهجة منها. ففي القاهرة نفسها يروع الغريب منظر الخراب والشقاء الشاملين. فثمة جماعات تزدحم في الازقة باطمار بالية تنبو عنها النواظر ، واجسام عارية تشمئزها النفوس. وكثيرا ما تلتقي خيالة يرتدون الثياب الثمينة. بيد ان هذا البذخ يجعلك اكثر تألما لمنظر البؤس والشقاء. فكل ما ترى وتسمع ينبئك انك في بلد العبودية والطغيان. فلا تسمع إلا أحاديث الاضطرابات الاهلية، والفقر الشامل، وابتزاز المال، والضرب والقتل. فما من حرز يعصم الحياة او الملك. ويسفك دم الرجل كما يسفك دم الثور. والقضاء نفسه يريقه دون ما تقيد بصيغة او شكل. فضابط الليل في طوافه وضابط النهار في تجواله يحاكمان ويحكمان وينفذان في لمحة البصر. ويرافق كليهما جلادون يقطعون الرؤوس عند اول اشارة يتلقونها، ويلقونها في اكياس من الجلد مخافة ان تدنس الارض. وليت الناس يتعرضون للعقاب بسبب جريمة ولو صورية! ولكن ما يحدث غالبا هو ان جشع ذوي السلطان او وشاية عدو يكونان السبب في ان يساق امام البك رجل تذهب المظان الى انه ذو مال. فيفرضون عليه اداء مبلغ منه، حتى اذا انكر قلبوه على ظهره وجلدوا باطن قدميه مائتين او ثلاثمائة جلدة، وقد يقتلونه بهذه الطريقة. والويل لمن يشتبه فيه انه من اهل السعة واليسار، فثمة مائة دساس عى اهبة السعي به. ولا يستطيع التملص من اغتصاب ذوي السلطان الا اذا ظهر بمظهر الفقر والباساء.

النبذة الثانية

الشقاء والمجاعة في السنوات الاخيرة

تفاقمت حالة البؤس في العاصمة المصرية ابان السنوات الثلاث الاخيرة. فقد تضافرت مع المساوئ المعتادة الناشئة عن الطغيان المتمادي واضطرابات السنوات السابقة كوارث طبيعية اكثر تهديما. فقد نفذ الهواء الاصفر من الاستانة في خريف سنة ١٧٨٣ وفتك بالسكان فتكا ذريعا في فصل الشتاء حتى لقد خرجت الف وخمسمائة جثة من ابواب القاهرة في يوم واحد. وجاء الصيف فحد من شدة الوباء، على مألوف نتائجه في هذه البلاد. وعقبت هذه الكارثة كارثة اخرى مثلها هولا. فقد جاء فيضان سنة ١٧٨٣ ناقصا بحيث بقي جزء كبير من الاراضي بورا لعدم الري، ولم يزرع قسم آخر لافتقار الناس الى البذار. وكان النيل لم يبلغ الحد المؤاتي في سنة ١٧٨٤ فعم القحط. ولم ينقض شهر نوفمبر حتى كانت المجاعة قد حصدت من

سكان القاهرة عددا يكاد يضاهي ما حصده الهواء الاصفر منهم واقفرت الشوارع من المتسولين الذين كانوا يملأونها لانهم هلكوا او ترحلوا . ولم تكن الكارثة اقل هولا في القرى، فقد هجرها عدد عديد من السكان هربا من الفناء، وانتشروا في البلاد المجاورة. وقد شاهدتهم في سوريا خلال السنة ١٧٨٥ افواجا وجماعات. وكانت ازقة صيدا وحيفا وسائر فلسطين تعج بالمصريين، وعلامتهم الفارقة لونهم الضارب الى السواد وقد توغل فريق منهم حتى حلب وديار بكر.

ليس في الامكان حصر مقدار النقص في عدد السكان خلال هاتين السنتين، لان الاتراك لا سجلات عندهم للمواليد والوفيات والاحصاء. وفي الرأى السائد ان البلاد فقدت سدس ساكنيها.

وقد تكررت في هذه الاحوال جميع المشاهد التي تقشعر من وصفها الابدان وتطبع في النفس تأثيرات من الهول والكآبة لا تمحى. فقد كانت الشوارع والساحات العامة ـ على نحو ما حصل ابان مجاعة البنغال لسنوات خلت ـ مزدرعة بهياكل منهوكة القوى تستجدى باصواتها الواهنة شفقة عابرى السبل، ولكن على غير طائل، لان خوف الخطر المشترك حجر القلوب. فكان هؤلاء التعساء يلفظون آخر انفاسهم، فيما هم مستلقون بظهورهم على منازل البكوات التي يعرفون انها تزخر بالحنطة والارز. وكثيرا ما كان صراخهم يزعج المماليك فيطاردونهم باعقاب العصى.

ولم ينفر الجياع من اية وسيلة كانت لسد ما بهم من كلب الجوع، فقد التهموا اقذر الاشياء. ولا أنسى قط مشهدا شاهدته في عودتي من سوريا الى فرنسا في شهر مارس سنة ١٧٨٥ . لقد رأيت تحت اسوار الاسكندرية القديمة تاعسين جاثمين على جثة جمل ينازعان الكلاب قطع لحمة النتن.

وهنالك نفوس شديدة المراس بعد ان تؤدى قسطها من الشفقة تجاه هذه النكبات العظيمة لا تتمالك من ان تتولاها ردة من الغضب على من يكابدونها. فترى ان هذه الشعوب التي لا تملك الشجاعة لدفعها او تتلقاها دون ان تتأسى بالانتقام خليقة بأن تموت. ويذهب البعض الى القول مجازفة ان في هذه الوقائع دليلا على ان سكان البلاد الحارة مستضعفون طبعا ومزاجا، وان الطبيعة اعدتهم لان يكونوا ابدا عبيد الاستبداد.

ولكن هل بحث هؤلاء فيما اذا كان تلك الحوادث وما يماثلها لم تقع في مناخات يريدون ايلاءها شرف الاستئثار بامتياز الحرية؟ وهل لاحظوا اذا كانت الحوادث العامة التي يستندون اليها لا ترافقها احوال وملابسات تشوه نتائجها؟ في السياسة كما في الطب من الاعراض ما يضلك عن حقيقة اسباب الداء. وكثيرا ما يتعجل الناس في وضع القواعد الكلية بالاستناد الى حوادث فردية، فيأتون بهذه المبادئ الشاملة التي، وان كانت تروق العقل، الا انها كثيرة الابهام. من النادر ان تكون الوقائع التي يدور عليها التعليل صحيحة، لان ملاحظتها هي من الدقة بحيث يخشى غالبا ان تقوم المذاهب على قواعد وهمية.

وفي الحالة التي نحن في صددها، اذا تقصينا اسباب استكانة المصريين للارهاق، وجدنا ان هذا الشعب الذى تسوده احوال قاسية اجدر بالشفقة منه بالاحتقار. والسبب في ذلك ان الحالة السياسية في هذه البلاد غيرها في اوروبا . فان آثار الشورات القديمة عندنا ما برحت تتضاءل يوما بعد يوم حتى تقرب الغرباء الغالبون من الوطنيين المغلوبين على امرهم، وتولدت من امتزاجهم امم متماثلة، موحدة المصالح. اما في مصر وفي معظم آسيا فقد اصبح

الوطنيون مستعبدين – على اثر القلابات حديثة العهد – لفاتحين غرباء، وتألفت من الفريقين جماعات مختلطة متباينة المصالح. فالدولة هنا فئتان: فئة الشعب المنتصر التي يحتل افرادها جميع مناصب السلطة المدنية والعسكرية، وفئة الشعب المغلوب الموزعة بين الطبقات المرؤوسة في المجتمع. والفئة الحاكمة التي تخول نفسها حق الاثرة في الملكية بقوة الفتح لا ترى في الفئة المحكومة سوى آلة طيعة للاستمتاع. وهذه الفئة الاخيرة، وقد تعرت من كل مصلحة شخصية، لا تؤدى للفئة الاخرى الا اقل ما يمكنها اداءه. فان الحكومات في دول اوروبا تستمد وسائل الحكم من صميم الامم. وليس من السهل عليها او من الموافق لها ان تتعسف في استعمال السلطة.

ومهما يكن من امر فهي لا تبلغ في استعمالها حدود الظلم والطغيان. وسبب ذلك انه فضلا عن تلك الجماهير التي يسمولها الشعب القوى بكتلته الضعيف ابدا باختلافاته، توجد طبقة اخرى تتوسط الشعب والحكومة وتوازن بين كليهما، وهي طبقة الاثرياء الموزعين في المناصب الاجتماعية الذين يعنيهم ان تحترم حقوق الاحتراز والملكية. اما في مصر فليس من حالة وسطى، ولا طبقات اشراف وكهنة وتجار وملاكين يتكون منهم جسم وسط بين الشعب والحكومة. فالناس هناك اما جنود ورجال شريعة اى رجال حكم، او فلاحون وحرفيون وتجار واخص ما يعوز الشعب الوسيلة الاولى لمحاربة الظلم، وهي توحيد القوى وتوجيهها عليه. ان ابادة المماليك تقتضي ان يتآزر الفلاحون جميعا ويثوروا. وفي هذا الامر استحالة يرجع سببها الى انتظام طريقة الاستبداد. ففي كل ولاية او قضاء حاكم، وفي كل قرية قائمقام يسهر على حركات الجمهور. وهو ان كان واحدا ضد الجميع ، فان السلطة التي يمثلها تجعله قويا مهابا. وقد دل الاختبار على ان الرجل الذى تدفعه الشجاعة الى سيادة قوم يجد بينهم اذلاء يهرعون لمساندته. ان هذا القائمقام يكل الى بعض افراد الشعب شيئا من سلطته، فيصبحون اسنادا له، ثم يتحاسدون ويتنازعون على رضاه، فيستعملهم الواحد بعد الآخر ليأتي عليهم جميعا. وفي القرى من التحاسد والبغضاء ما يدس التفرقة والتخاذل. ولكن اذا افترضنا ان السكان اتحدوا وتضاموا ، وفي الامر ما فيه من الصعوبة، فاى قدرة لزمرة من الفلاحين المشاة الحفاة ولو تسلحوا بالعصى والبنادق تجاه فرسان شاكي السلاح مدربين على اساليب القتال؟ ان لأيأس بوجه خاص من خلاص مصر كلما تأملت طبيعة ارضها المؤاتية للفروسية. فاذا كانت افضل كتائب المشاة عندنا ما برحت ترهب منازلة الفرسان في السهل، فما قولك في شعب يجهل فنون القتال البدائية، ولا يتيسر له ان يقتبسها لانها ثمرة المران، والمران عندهم امر محال. ان الحرية لا تجد مواردها الكبرى الا في البلاد الجبلية، حيث تستطيع الشرذمة الصغيرة الاستعاضة عن العدد بالحذق والبراعة. فهي متحدة في بادئ الامر بسبب قلة عددها، وتكتسب كل يوم قوى جديدة بسبب تعود استعمالها. وترى المستبد المقتدر قد حدت السلطة من نشاطه فيما طل، ولاتلبث هذه الجماعات من الفلاحين او السراقين التي كان يحتقرها ان تصبح متمرسة بالحرب، فتنازعه في السهول فن القتال وثمرة الغلبة.

ويختلف الامر في البلاد المسطحة حيث تفرق التجمعات على اهون سبيل، بحيث لايبقى للفلاح – وهو الذى لا يعرف حتى اقامة المتاريس – من مورد الاشفقة سيده والاستمرار في العبودية. واذا كان من مبدأ عام يجوز الاخذ به فليس اصدق من

القول : ان البلاد السهلية مقام الخمول والعبودية ، والجبال وطن النشاط والحرية. وقد يكون في حالة المصريين الحاضرة ما يكبت شجاعتهم دون ان يصح القول ان بذورها ليست في طبائعهم او ان المناخ قد حرمهم اياها. وفي الواقع ان هذا الجهد المستمر في النفس، الذى يسمى الشجاعة، انما هو صفة نفسية اكثر منها جسدية. وما كانت حرارة المناخ مرتفعة او منخفضة لتوحى الجرأة على اقتحام المخاطر بمقدار ما تبعثه عليها المروءة والثقة بالنفس.

فاذا انعدم هذان العنصران جاز ان تلبث الشجاعة في جمود على انه اذا كان ثمة من قوم جديرين بالحماسة فهم اولئك الذين تمرست اجسامهم بالالم واكتسبوا صلابة تتغلب عليه، كالمصريين مثلا، فقد اخطأ من وصفهم انهم اناس اوهنهم الحرّ، او خنثتهم الخلاعة اجل، قد يكون لسكان المدن واهل الشراء هذا التأنث الذى هو خاصة من خصائصهم ايا كان المناخ. بيد ان القرويين المسمين بالفلاحين تحقيرا لهم، يعانون من المشقات ما يثير الدهشة والاستغراب. فانك تراهم طوال ايام يغترفون من مياه النيل عراة معرضين لحرارة شمس تقتل امثالنا. ومن كانوا منهم خدما للمماليك قاموا بكل حركات الفارس، فهم يتبعونه في المدينة، وفي الحقل ، وفي الحرب، في كل مكان ابدا مرتجلين، ويقضون اياما كاملة يعقبون الخيول او يتقدمونها ركضا ، حتى اذا ادركهم التعب تعلقوا باذيالها كيلا يتخلفوا . وثمة سمات نفسانية تفضى بنا الى استقراءات مماثلة لتلك المظاهر الجسدية. فان العناد الذى يبديه القرويون في بغضائهم وفي ثاراتهم وشراستهم في قتالهم قرية واخرى، وتمسكهم بشرف المحافظة على السر برغم ضربات العصي ووحشيتهم في معاقبة نسائهم وبناتهم لاقل اخلال بالعفاف، في كل ذلك دليل على انه اذا كانت العادة قد ايقظت فيهم النخوة في بعض النواحي، فان هذه النخوة لا يعوزها إلا التوجيه حتى تصبح شجاعة رهيبة. ان الفتن التى يثيرونها آونة بعد اخرى، وقد عيل صبرهم ـ في مديرية الشرقية خاصة ـ تدل على نار تحت الرماد تنتظر للانفجار يدا تعرف كيف تحركها.

النبذة الثالثة

حالة الفنون والنفوس

ان الحائل العظيم دون ثورة حسنة الطالع في مصر انما هو الجهل المدقع الذى تتمرغ فيه الامة. وهذا الجهل ، وقد اعمى العقول عن اسباب الادواء وعن ادويتها، قد عماها كذلك عن وسائل التداوى.

الى وقد نويت العودة الى هذا الموضوع لا ابسط الآن في تفاصيله، وحسبى الملاحظة ان هذا الجهل الشائع بين جميع الطبقات يمتد بمفاعليه الى جميع فروع المعارف الادبية والطبيعية والعلوم والفنون الجميلة حتى الفنون الميكانيكية التى مايزال ابسطها في دور نشأته، واشغال النجارة والحدادة والاسلحة بعيدة عن الاحكام والاتقان. اما السلع والبضائع الحديدية وانابيب البنادق فتستورد من الخارج ، وانك بالجهد تجد ساعاتيا في القاهرة، وهو اوروبى والصاغة اكثر عددا مما هم في حلب وازمير. ولكنهم اعجز من ان يحكموا تركيب حجر كريم. وفي القاهرة يصنعون البارود، ولكنه خشن. وثمة معامل للسكر يستخرج منها دبسى المادة. والابيض منه كثير التكاليف. والانسجة الحريرية على شيء من الاتقان، ولكنها اقل اتقانا بمراحل من مثيلاتها في اوروبا واعلى ثمنا.

حالة التجارة

قد يدهش المرء وسط هذه الهمجية الشاملة ان تحتفظ التجارة بهذا النشاط في القاهرة. على ان من يتفحص مواردها بامعان يتبين ان ثمة سببين يجعلان من القاهرة مركزا لتجارة واسعة:

الاول استجماع ما تستهلكه البلاد في دائرة هذه المدينة. فهي موطن كبار الملاكين كافة كالمماليك ورجال الشريعة الذين يحصرون فيها جميع حاصلاتهم دون ان يردوا شيئا الى البلاد التي تنتجها.

والثاني مركزها الذي يجعل منها مجازا الى جزيرة العرب والهند عن طريق البحر الاحمر، والى الحبشة عن طريق النيل، والى اوروبا والسلطنة العثمانية عن طريق البحر المتوسط. فتستقبل على القاهرة في كل سنة قافلة من الحبشة تنقل الرقيق (يراوح عددهم بين الف عبد والف ومائتين) والعاج ومسحوق الذهب وريش النعام والصموغ وطيور الببغاء والقردة. وتقوم من اقاصي مراكش نحو مكة قافلة اخرى يفد عليها حجاج تلك النواحي حتى شواطئ السنغال. فتسير بمحاذاة المتوسط لينضم اليها حجاج طرابلس وتونس وغيرهم، حتى تطلع على الاسكندرية عبرالصحراء بثلاثة آلاف جمل او اربعة، ثم تهبط القاهرة لتنضم الى قافلة مصر، فتيممان مكة معا، وتعودان منها بعد مئة يوم.

على ان حجاج مراكش الذين تفصلهم عن بلادهم مسافة ستمائة فرسخ فهم لا يرجعون اليها الا بعد مضي سنة او تزيد. وتحمل هذه القوافل معها انسجة الهند والشيلان والصموغ والعطور واللؤلؤ والبن اليمني بنوع خاص. وهذه البضائع تصل ايضا الى السويس على ظهور السفن الشراعية التي تنطلق من جدة في شهر مايو عند مؤاتاة الريح الجنوبية. اما القاهرة فلا تحتفظ بهذه البضائع كلها. بيد انها فضلا عن القسم الذى تستهلكه منها تفيد من رسوم المرور ومن نفقات الحجاج. وتأتيها من دمشق حينا بعد آخر قوافل صغيرة تنقل اليها الحرائر والقطنيات والزيوت والثمار المجففة. ولا يخلو مرفأ دمياط في الربيع من السفن التي تفرغ فيه مشحونات التبغ اللدقاني الذى يستهلك في مصر على نطاق واسع جدا. وتحمل هذه السفن من مصر الارز، فيما تتوارد سفن اخرى دون ما انقطاع على الاسكندرية ناقلة اليها من الاستانة الاثواب والاسلحة والفراء والمسافرين والادوات المعدنية، ومن مرسيليا وليفورنو والبندقية الكتان والحرير والخرضوات والورق والحديد والرصاص إلخ... وتنقل هذه السلع الى الرشيد بحرا ثم توجه على القاهرة عن طريق النيل. وتدلك هذه النظرة الشاملة على اتساع سوق التجارة في القاهرة، ولكن متى عرفت ان قسما كبيرا من البضائع الهندية والبن يذهب الى الخارج، وان اثمانه تسدد سلعا وبضائع من اوروبا وتركيا، وان معظم استهلاك البلاد يدور على ادوات البذخ والترف في حين ان اكثر منتوجاتها من المواد الخام، تبين لك ان هذه التجارة الواسعة لا تعود على مصر بالمنافع الكثيرة والرخاء الوفير.

الطاعون

شاء بعضهم ان يحملنا على الظن ان الطاعون ينشأ في مصر. بيد ان الواقع يكذب هذا الرأى القائم على الاظانين المبهمة، اذ يؤكد تجارنا المقيمون في الاسكندرية منذ سنوات طويلة ان الطاعون لا يتسرب قط من داخل البلاد، ويوافقهم المصريون على ذلك، بل انه يظهر اولا على ساحل الاسكندرية، فينفذ منها الى رشيد، ومن رشيد الى القاهرة، فالى دمياط، فالى سائر الدلتا. ويلاحظون ان هذا الوباء ينتشر دائما على اثر وصول احد المراكب المقلعة من ازمير او الاستانة، وانه اذا كان

شديدا ابان فصل الصيف في احدى المدن المذكورة كان خطره اشد على المدينة الاخرى في فصل الشتاء الذى يليه. ويبدو من الثابت ان موطنه الحقيقى الاستانة حيث يتأبد بفضل ما يظهر الاتراك من اهمال اعمى اذ تباع امتعة الموتى الموبوئين علانية. ثم تأتى سفن الاسكندرية فتنقل الفراء والاثواب الصوفية المبيعة على النحو المذكور، وتصرفها في اسواق المدينة حيث تزرع جراثيم الوباء. واليونانيون الذين يتعاطون هذه التجارة هم في الغالب ضحاياها الاولى. ويمتد الوباء شيئا فشيئا الى رشيد حتى ينتهى الى القاهرة متأثرا في مسيرة الطريق الذى تسلكه البضائع يوميا. اما التجار الفرنجة فلا يكادون يستشعرون وقوع الداء حتى يعتصموا في «خاناتهم» مع خدمهم، ويقطعوا كل صلة بالخارج، فتسلم اليهم اقواتهم عند باب الخان، فيتسلمها البواب بكلاليب من حديد، ويضعها في برميل ماء معد لها. فاذا ما شاء احد مكالمتهم، وقفوا منه على مسافة تحول دون التماس بالثياب او بالنفس. وهم بهذه الطريقة يتقون الآفة ما لم يخلوا بقواعد الاحتراس. فقد حدث منذ سنتين ان هرا قفز عن السطوح الى مقر تجارنا، فنقل الطاعون الى رجلين منهم مالبث احدهما ان قضى نحبه.

ويمكنك ان تتصور مبلغ الضجر الذى يستولى على هؤلاء القوم في احتباسهم، وهو يستمر من ثلاثة شهور الى اربعة، يقتصرون خلالها على التلهى بلعب الورق والتنزه مساء على السطوح.

ومما يسترعى النظر ان الطاعون يتسلط في الاستانة صيفا فيما يضؤل او يزول شتاء. وهو بالعكس يسيطر في مصر شتاء حتى اذا ما اطل شهر يونيو اباده. بيد ان هذه الغرابة الظاهرة تقوم على قاعدة واحدة. فالشتاء يبيد الطاعون في لاستانة لان بردها قارس جدا، والصيف يذكيه لان لحرارة فيها مشوبة بالرطوبة بسبب جوار البحار والجبال والغابات. وفي مصر يثيره الشتاء بسبب رطوبته واعتداله، ويمحقه الصيف لانه حار وجاف. ويعمل فيه عمله في اللحوم التى يمنعها من الفساد. وما كانت الحرارة مؤذية إلا بمقدار ما تمتزج بالرطوبة [لوحظ في القاهرة ان السقائين حملة الماء الذين ترشح عليهم المياه الباردة باستمرار من القرب التى يحملونها فوق ظهورهم لايصابون قط بالطاعون، ولكن الأمر هنا اغتسال لارطوبة]. ان مصر تنكب بالطاعون كل اربع سنوات او خمس. ولكان ما يحدثه من التلف في الارواح خليق بان يجعلها قاعا صفصفا لولا ما تعتاض به من الغرباء المقبلين عليها جماعات من سائر ولايات السلطنة.

اما في سوريا فالطاعون نادرا جدا، وقد مضت خمس وعشرون سنة على آخر مرة تفشى في انحائها. ويرجع ذلك الى لدورة السفن المقبلة من الاستانة توا. فضلا عن انه لا يتبلد بسهولة في هذه الولاية. فاذا ما نقل من الارخبيل او من دمياط نفسها الى خلجان اللاذقية او صيدا او عكا، فهو لا يتأصل فيها. ويقتضى له لكى يغزو سوريا بأسرها ان تلابسه احوال اعدادية ويمر بطريق معينة كأن يأتى من القاهرة الى دمشق رأسا.

ان التسليم للقدر مضافا الى همجية الحكومة قد حال حتى اليوم دون الاحتراز من هذا الداء الوبيل. على ان الاتراك تأثروا اخيرا بجدوى الوسائل التى اعتمدها الفرنجة. ويبدو ان الباب العالى اصبح بادى الاهتمام للقضية، اذا صح انه اصدر في العام المنقضى ارادة بانشاء محاجر صحية في ازمير وكنديا والاسكندرية. وسبق لحكومة تونس ان تذرعت بهذا التدبير الرشيد منذ سنوات على ان فوضى الادارة التركية كفيلة بان ينتهى الامل بهذه المؤسسات الى اخفاق رغم مالها من الاهمية القصوى للتجارة ولسلامة دول البحر المتوسط.

ملاحــق: (إضافة).

⋆ ذكر من مات في هذه الاعوام من اكابر العلماء واعاظم الامراء:

★ ذكر من مات في هذه السنة [١١٨٢ = ١٧٦٨م] من المشايخ والاعيان.

★ ذكر من مات في هذه السنة [١١٨٥ = ١٧٧١م].

★ ذكر من مات في هذه السنة من العظماء:

★ ذكر من مات في هذه السنة من الاعيان ١١٩١ = ١٧٧٧م.

● مصادر التحقيق:

١ ـ عبد الرحمن الجبرتى. دراسات وبحوث. اصدار المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية. القاهرة. ١٩٧٦.

2- Stanford Show: The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt. 1517 - 1798. Princeton Oriental Studies. 1962

٣ ـ الادب المصرى فى ظل الحكم العثمانى
تاليف : محمد سيد كيلانى.
دار الفرجانى/ ١٩٨٤ ـ القاهرة.

٤ ـ تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى.
تأليف: د. أحمد السعيد سليمان. دار المعارف/ ١٩٧٩ ـ القاهرة.



دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع

هذه السلسلة تضم

مكتبة مدبولي
MADBOULI BOOKSHOP
6 Talat Harb SQ. Tel. : 5756421
٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ ت : ٥٧٥٦٤٢١